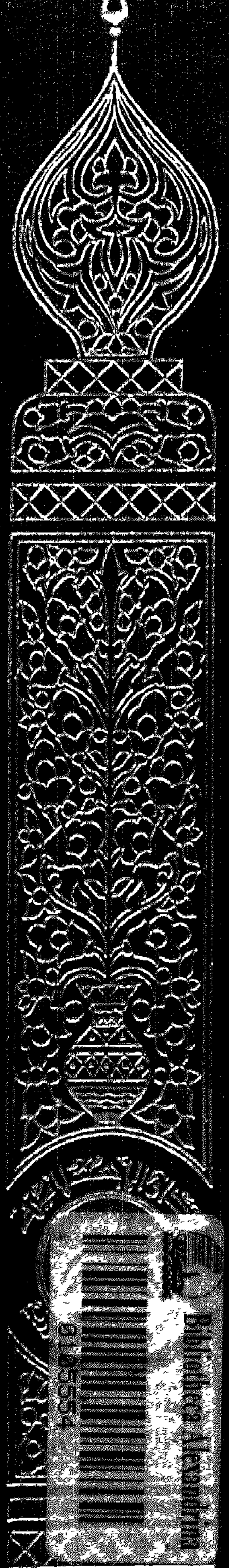
محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني

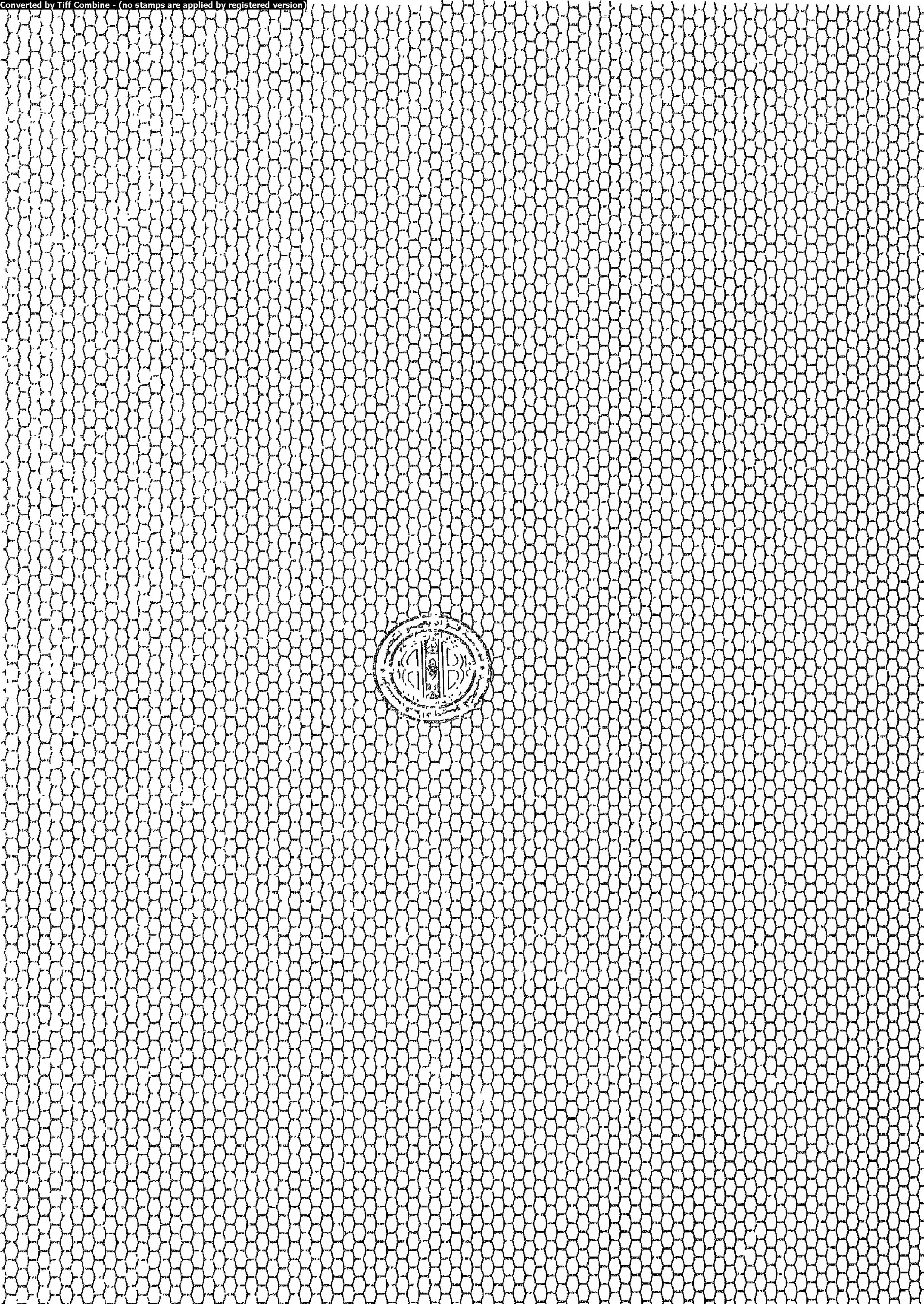
الإلهيات

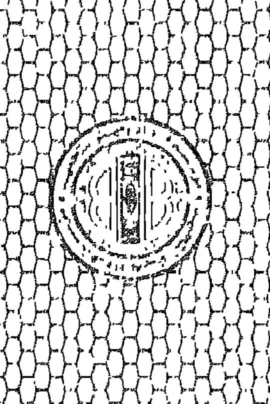
على هدى الكتاب والسنة والعقل

بقلم

الشيخ حسن محمد مكي العاملي





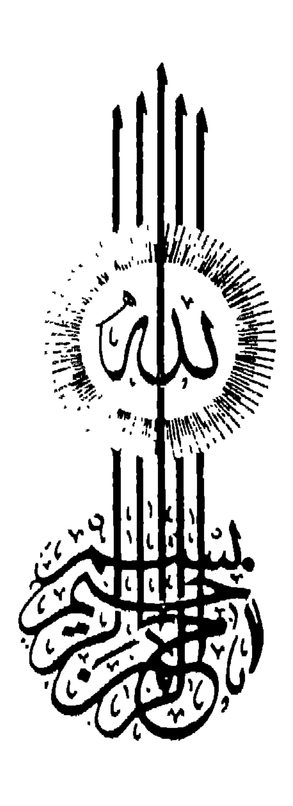




الإلهيات

على هدى الكتاب والسنة والعقل

٢


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات
الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني

الإلهيات

على هدى الكتاب والسنة والعقل

بقلم
الشيخ حسن محمد مكي العاملي

الجزء الثاني

الدار الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م



كورنيش المزرعة، بناية الحسن سنتر، الطابق الثاني، هاتف: ٨١٦٦٢٧
فرع ثاني: حارة حريك، شارع دكاش، هاتف: ٨٣٥٦٧٠
ص.ب: ١٤٥٦٨ - تلكس: ٢٣٢١٢ - غدير

تصدير بقلم المحاضر

تطوير علم الكلام
أو
رصد الحركات الإلحادية

الحمد لله الذي هو الأول لا شيء قبله ،والآخر لا غاية له ، لا تقع الأوهام له على صفة ، ولا تقعد القلوب منه على كيفيّة ، ولا تناله التجزئة والتبعيض ، ولا تحيط به الأبصار والقلوب . والصلاة والسلام على من أرسله على حين فترة من الرسل ، وطول هَجْعة من الأمم ، واعتزام من الفتن ، وانتشار من الأمور ، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، محمد الخاتم لما سبق ، والفاتح لمن غلق ، والمعلن الحق بالحق[1] . وعلى أهل بيته مصابيح الظلم ، وعصم الأمم ومنار الدين الواضحة ، ومثاقيل الفضل الراجحة ، صلاة تكون إزاءً لفضلهم ، ومكافئة لعملهم ، وكفاءً لطيب فرعهم وأصلهم ، ما أنار فجر ساطع ، وأضاء نجم طالع .

أما بعد :

فقد أسس علم الكلام في القرون الإسلامية الأُولى ولم يكن تأسيسه وتدوينه إلا ضرورة دعت إليها حاجة المسلمين إلى صيانة دينهم وعقيدتهم وشريعتهم . وأول مسألة طرحت على بساط البحث بين المسلمين هي حكم مرتكب الكبيرة التي اختلف فيها المسلمون إلى أقوال ، فمن قائل بأنه كافر ،

(١) اقتباس من خطب الإمام أمير المؤمنين في نهج البلاغة ، لاحظ الخطبة ٨١ و٨٥ و٦٩ .

إلى قائل بانه ليس بمؤمن ولا كافر ، بل في منزلة بين المنزلتين ، ويعاقب أقل من عقاب الكافر ، إلى ثالث بأنه مؤمن فاسق . وتلت هذه المسألة مسألة حدوث كلامه سبحانه أو قدمه فأحدثت بين المسلمين ضجة كُبرى ، وصارت مبدء لمحنة أو محن . وفي عرض هذه المسألة إرتفع النقاش حول الصفات الخبرية الواردة في الكتاب والسنة ، كاليد ، والعين والإستواء على العرش إلى غير ذلك من الصفات .

ثم إنه كلما ازداد الاحتكاك الثقافي بين المسلمين والأجانب ، وشاعت ترجمة الكتب الفلسفية والعقيدية للفرس واليونان وغيرهما ، زاد النقاش والبحث حولها ، لاصطكاك بين تلك الآراء وما جاء به القرآن والسنة ، فلم يجد المسلمون في تلك الاجيال إلا التدرع بالبراهين العقلية حتى يصونوا بذلك حوزة الإسلام من السهام المرقوشة التي ما زالت تطلق إلى قلب الإسلام والمسلمين ، ونواميس الدين والشريعة . فشكر الله مساعي الجميع من سنة وشيعة في حفظ الدين وصيانته .

هذا ما قام به القدماء في أداء وظيفتهم الرساليّة ، لكن التاريخ يشهد بأن قسماً كبيراً من مسائل علم الكلام ، حول المبدأ والمعاد ، وحول التوحيد والعدل ، متخذة من خطَب الإمام امير المؤمنين عليه السلام ، وانه هو البطل المقدام في دعم هذه الأصول وإحكامها . ولو اعترفت المعتزلة بأن منهجهم الكلامي يرجع إلى عليٍّ عليه السلام فقد صدقوا في انتمائهم وانتسابهم إلى ذاك المنهل العذب الفياض . وليس عليٌّ وحده من بين أئمة أهل البيت ، أقام دعائم هذا العلم وأشاد بنيانه ، بل تلاه الائمة الأخر منهم ، كعليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام (ت ٣٨ ـ م ٩٤) ، فقد صقل العقول والأذهان الصافية بأدعيته المعروفة التي هي لباب التوحيد وصفوة المعارف الإلهية ، وفيها من العرفان الصافي ما لا يوجد في غيرها . كما أن صادق الأمة وامامها جعفر بن محمد عليه السلام (ت ٨٣ ـ م ١٤٨) رفع صرح المدرسة الكلامية الموروثة من آبائه وأجداده ، يقف عليه من سبر أحاديثه وكلماته وأماليه ، حتى جاء عصر الإمام الثامن علي بن موسى الرضا (ت ١٤٨ ـ م ٢٠٣)، فأضفى على المسائل

الكلامية ثوبا جديدا ، وأبان عن المعارف في مناظراته مع أهل الكتاب والزنادقة ، وأسكت خصماءه ، ودحض شبهاتهم ، وردّ أيديهم إلى أفواههم .

ولو لم يكن لأئمة أهل البيت ميراثٌ كلاميٌّ سوى كتاب توحيد الصدوق (ت ٣٠٦ ـ م ٣٨١) ، واحتجاج الطبرسي (المتوفى حوالي ٥٥٠) لكفى فخرا في الدفاع عن حياض الإسلام ومعارفه وعقائده .

وقد استخدم ائمة أهل البيت في بحوثهم ومناظراتهم ، الوسائل التي كان الخصم يستخدمها ويعتمد عليها . كما أن لفيفا من علماء الكلام قد دقوا هذا الباب ووردوا هذه الشريعة ، فتدرعوا بأحسن ما كان خصماؤهم متدرعين به ، كما انهم لم يزالوا بالمرصاد للحركات الإلحادية القادمة من جانب الروم واليونان ومستسلمة أهل الكتاب ، فأوجب هذا الرّصد والتدرّع بسلاح اليوم ، أن يكون علمُ الكلام علماً يباري الخصماء ، ويصرعهم في ميادين البحث ، والمناظرة ، فجاء يماشي حاجات العصر جنبا إلى جنب ، وكتفا إلى كتف . ولم يكن علما جامداً محصوراً في إطار خاص ، بل كان مادة حيوية تتحرك وتتكامل حسب تكامل العقول ، والأفهام ، وحسب توارد الشبهات والاسئلة التي بها ينمو كل علم ، وبها يتكامل .

فإذا كانت هذه هي وظيفتهم الرسالية أمام الأمة الاسلامية والمسلمين في سبيل صيانة دينهم وشريعتهم ، فهذه الرسالة بعدُ باقية في أجيالنا وأعصارنا ، فيجب على علماء العقائد والأخصائيين في علم الكلام ، إقتفاء أثرهم ، ورصد الحركات الإلحادية الهدامة المتوجهة إلى الإسلام من معسكرات الغرب والشرق ، بصورها الخداعة ، وباسم العلوم الطبيعية والإجتماعية والإنسانية والإقتصادية ، بل باسم التاريخ وتحليل الأديان الكبرى . ففيها من السموم القتّالة ما يهدم عقيدة المسلمين ، ويزعزع كيانهم ، وهم جعلوها في متناول عقولهم وأفكارهم بشتى الطرق والوسائل ، فطفقوا يديفون السم بالعسل ، حتى يذوقه غير الواعين من المسلمين ، وينهموه باشتهاء .

إن الحركات الإلحادية الهدامة إبتدأت دورها منذ ظهرت طلائع الحضارة

المادية في الغرب ، وتَدَيّن مفكروها بالمادية في غطاء المسيحية وواجهة اليهودية ، ووقفوا على أنَّ التغلب على الشرق يتوقف على تضعيف عقائد الشرقيين وإبعادهم عن ديانتهم ، فصار ذلك مبدء لتأسيس علم باسم الإستشراق ، له واجهة الإستطلاع والتحقيق والتنقيب ، وواقعية هي الإضلال والتحريف ، وإضعاف عقائد الشبان . وليس هذا شيئاً مكتوماً على منْ سبر كتب هؤلاء حتى من اشتهر بالوعي والموضوعية .

هذا ، ولو أردنا أن نسلك خُطى من تقدم من علمائنا الكلاميين في الدفاع عن الدين والشريعة ، فلا مناص لنا إلا رصد الحركات الإلحادية التي تظهر في كل زمن وجيل باسم وصورة وواجهة ، وهذا يقتضي تطوير علم الكلام الموروث وإكماله حتى يفي بحاجات العصر ، ويقف موقف المعلم الرؤوف بالنسبة إلى المستعلم الواعي فيجيب عن الشبهات المستحدثة في كل عصر وجيل باسم العلم والتاريخ . ولأجل ذلك لا مناص في تطوير علم الكلام من البحث في أُمور يقتضي الزمان ضرورة طرحها وتحليلها :

الاول : فصل الدين عن العلم

إن فصل الدين عن السياسة من الخطط الإلحادية التي لم تزل تروّج في الغرب منذ كُسِرت شوكة الكنائس ، فاتخذوها سنداً وثيقاً لإبعاد الدين عن السياسة ، فطفق السياسيون يلعبون بكل شيءٍ سواءٌ أوافق الدين أم لا ، قائلين بأن للدين مجالاً ، وللسياسة مجالاً آخر ، ولكلٍّ رجاله :(وللحرب والقصعة والثريد رجالها) .

وقد لعب السياسيون بهذا الحبل أدواراً ، فخصوا الدين بالكنائس والبيع ، وخارجهما بالسياسة التي لا تفارق الخدعة والدغل .

وجاء بعد هذه الفكرة أو معها فصل الدين عن العلم ، وصار هذا أصلاً رصيناً في العلوم الجامعية ، تُدَرَّس العلوم الطبيعية والانسانية على هذا الأصل ، فإذا شاهدوا في موردٍ تناقضاً وتضاداً ، فأقصى ما عندهم أنَّ للدين

مجالاً وللعلم مجالاً آخر ، ولا يصح لواحد منهما التدخل في حدود الآخر . وهذا من الحبائل الإلحادية التي يصطاد بها كثير من الشبان بلا مشقة وشدة ، وهي تدعوهم إلى الاعتقاد بأمرين متضادين : أحدهما يدعو إلى شيء والآخر إلى ما يضاده ، وبما أن الطالب يمارس العلم كل يوم بالأدوات الحسية ، فلا يزال يتباعد عن الدين إلى أن يرفضه ويتركه ويصير ملحداً محضاً ، وأقصى حاله ، ان يكون مسيحياً أو مسلماً بالهوية لا بالحقيقة .

إن الدين المعتمد على الوحي النازل من خالق الكون وصانع نواميسه لايمكن أن يفترق عن العلم قيد شعرة . فإذا كانت العلوم البشرية كاشفة عن حقائق الكون مع أنها غير مصونة عن الخطأ ، فالوحي الذي لا يأتيه الباطل أولى بأن يكون كاشفاً عن الكون وسننه ونواميسه . ولأجل ذلك يجب في تطوير علم الكلام البحث عن الدين وتبيين مفاده وتعيين حدوده وتشريح موقفه من العلم ، وأنهما هل يمشيان في طريقين مختلفين أو في طريق واحد ، وهل الدين أمر فردي أو اجتماعي . وهل هو يتلخص في الأوراد والأذكار ، أو يعم جميع الشؤون ، وأنه هل يُحكم ويُبرِم بلا سند قاطع ، أو يعتمدعلى أوثق المصادر وأقوى المدارك التي لا تقبل الخطأ .

الثاني : النسبية أو نفي الحقائق المطلقة

كان الشك والترديد في وجود الكون وما فيه ، والعلوم التي يتبناها الإنسان ، منهجاً رائجاً في الفلسفة الإغريقية حتى قضى عليها أرسطو وأستاذه أفلاطون وغيرهما . إلى أن ظهرت طلائع الحضارة الإسلامية ، فقام فلاسفة الإسلام بدحض شبهاتهم ومحوها عن بساط البحث ، فلا تجد بين المسلمين من ينتمي إلى السفسطة ويكون له شأن ومقام بينهم . وفي النهضة الصناعية الأخيرة ، عادت السفسطة إلى الأوساط العلمية بصورة أخرى ، خادعة هدّامة . وهؤلاء ، مع أنهم يدّعون أنهم من أصحاب الجزم اليقين ، ويكافحون الشك والترديد ، يعتقدون بأن ما يدركه الإنسان من القضايا بالأدوات المعروفة صادقٌ صدقاً نسبياً لا صدقاً مطلقاً ، صدقاً مؤقتاً لا صدقاً دائماً ، وذلك لأن للظروف

الزمانية والمكانية والأجهزة الدماغية تأثير في الإدراكات الإنسانية ، فليس في وسع الإنسان أن ينال الواقع على ما هو عليه ، وأن ترد على ذهنه صورة مطابقة له ، مطابَقَةَ الفرعِ للأصل ، بل كل ما يحكيه الإنسان بتصوراته وتصديقاته عن واقع الكون ونفس الأمر ، فإنّما يحكيه بمفاهيم ذهنية تأثرت بأمور شتى خارجية وداخلية ، فالإنسان في مبصراته ومسموعاته أشبه بمن نظر إلى الأشياء بمنظار ملوّن ، فكما أنّه يرى ألوان الأشياء على غير ما هي عليه ، فهذه الظروف الزمانية والمكانية ، وما في داخل المدرك وخارجه من الخصوصيات كهذا المنظار ، تُري الأشياء على غير ما هي عليه ، ولكن لا تباينها ، بل تطابقها مطابقة نسبية فالإنسان عند هؤلاء أشبه بمن ابتلي بمرض اليرقان ، فكما أنّه يرى الأبيض والأسود صفراوين ، لأجل خصوصية في جهازه الإبصاري ، فهكذا الإنسان في كل ما يدرك ويقضي ، فإنّما يتوصل إلى الواقع بأجهزته التي يتأثر العلم الوارد إليها من الخارج بها ، ومع ذلك كله فليس ما يدركه خطأً محضاً ، ولا صدقاً محضاً ، بل هو صحيح في ظروف خاصة .

هذا إجمال ما يذهب إليه النسبيون من الفلاسفة ، غير أنه أصبح أساساً للمناهج الفلسفية الغربية منذ عصر ديكارت إلى زماننا هذا ، والإنسان المتتبع في كلماتهم ونظرياتهم يقف على أنهم لا يعتقدون بالقضايا الصادقة المطلقة الدائمة الكلية ، خصوصاً في فلسفة « جان لاك » (ت ١٦٣٢ ـ م ١٧٠٤) وفلسفة « كانت » (ت ١٧٢٤ ـ م ١٨٠٤) فهؤلاء ـ بإضفاء النسبية على القضايا ، وتأثر الإدراكات الإنسانية في جميع الموارد بالخصوصيات الداخلية والخارجية ـ أعادوا حديث السفسطة ولكن بثوب جديد ، وغطاء علمي خادع . ومن سبر دلائل السوفسطائيين في الفلسفة الإغريقية ، يقف على أن ما ذكره الغربيون وجهاً لنسبية العلوم ، هو نفس ما ذكر رئيس الشكاكين اليونانيين « بيرهون » في إثبات السفسطة وأن ما يدركه الإنسان من الخارج لا ينطبق عليه لأنّ الأجهزة الإدراكية تتأثر بالظروف الزمانية والمكانية والحالات النفسانية ، وبذلك لا يمكن أن نعتبر العلوم علماً حقيقياً كاشفاً عن الواقع .

ولو صدق حديث النسبية وأن الاجهزة الادراكية لم تزل خاضعة لشرائط

خاصة ، فعلى العلم وكشفه السلام ، وعلى ذلك يصبح الدين ومعارفه وشرائعه علوماً صادقة نسبياً ، ولو تغيرت الظروف لتغيرت مفاهيم الدين ومعارفه وتشريعاته، الى غيرها . فاي قيمة لدين هذا اساسه ، وأي وزن لمعارف إلهية لا تزال متزلزلة متغيرة بتغير الظروف .

إن نظرية النسبية من أخطر الحبائل التي طرحت أمام المتدينين والواقعيين ونحن لانأتى عليها ـ هنا ـ بكلمة غير أنا نسأل أصحاب هذه الفكرة ـ ويا للاسف تحملها فلاسفة الغرب وأصحاب المناهج منهم ، لا سيما الحسيين ـ هل أن القول بامتناع اجتماع النقيضين وارتفاعهما ، واجتماع الضدين ، ومسألة العلية والمعلولية ، وانقسام المفاهيم إلى الممكن والواجب والممتنع ، من العلوم النسبية ؟ أفهل يحتمل هؤلاء أن للظروف الزمانية والمكانية ، والخصوصيات العالقة بذهن الإنسان ، تأثيراً في هذه القضايا بحيث لو خرج الإنسان عن هذه القيود لتصوّر هذه القضايا بشكل آخر ، فيجوّز اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما ، أو يجوز وجود المعلول بلا علّة ؟ .

والعجب أن هؤلاء عندما يضفون على عامة الإدراكات لون النسبية وينكرون كل قضية صادقة على وجه الكلية والإطلاق والدوام ـ إن هؤلاء أنفسهم بذلك يثبتون قضية كلية دائمة الصدق غير متلونة بلون ولا محدودة بخصوصية خارجية أو ذهنية حيث يقولون ليس لنا قضية صادقة مطلقة كلية ، فإن هذا القول منهم قضية مطلقة لا نسبية ، ولو كان هذا النفى ، نفياً نسبياً لاصبحت سائر القضايا مطلقة لا نسبية .

إن التركيز على أن للانسان علوماً مطلقة ، مضافاً إلى أن له علوماً نسبية يقتضي التركيز على نظرية المعرفة قبل كل شيء في علم الكلام ، فإن لتلك النظرية تأثيراً هاماً في جميع الأبحاث الكلامية ، وقد كان القدماء من المتكلمين يبحثون عنها في مقدمات كتبهم فهذا هو الإمام الأشعري ، كتب بحثاً مطولاً عن السوفسطائيين في مقدمة مقالات الإسلاميين ، وتبعه البغدادي في كتاب أصول الدين ، وغيرهما من المتلكمين ، حتى أن الامام البزدوي رئيس الماتريدية في عصره ، خصّ فصلاً خاصا من كتابه في هذه النظرية .

إن علماء الغرب قد بلغوا القمة في البحث عن هذه النظرية ، فبحثوا عن أدوات المعرفة ، حسيّها وعقليّها ، كما بحثوا عن قيمة العلوم الإنسانية مضافاً إلى تحديد مجاري العلم والمعرفة ، فإن لهذه المباحث أثراً خاصا في الأبحاث الكلامية ورصد الحركات الإلحادية ، ولم يزل الإلحاد يدب بين السذج من الشباب من هذه الطرق ، فمن قائل باختصاص أدوات المعرفة بالحس ، إلى قائل بلزوم الإيمان بما تثبته التجربة ورفض غيرها ، إلى ثالث يحدّد معرفة العلوم الإنسانية بشؤون المادة وأعراضها ، ويركز على أن ما وراء المادة خارج عن مجال الإدراك الإنساني وأنّه ليس للإنسان فيها القضاء والإبرام نفياً وإثباتاً .

وهذه الأفكار الفلسفية ، أخطر على حياة الدين من الحملات العسكرية على كيان المسلمين .

الثالث : إنكار الفطريات .

إن التعلّل بمعرفة النفس أصبح في هذه الأزمان أداة طيّعة في يد الإلحاد، خصوصاً الجامعيين المؤمنين بفروض «فرويد» ومنهجه فجعلوا علم النفس أساساً لإنكار الفطريات ، التي يقوم عليها دين التوحيد ، يقول سبحانه : ﴿ وأقِمْ وجْهك للدِّين حنيفاً فِطْرَت الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذلك الدِّينُ القيِّمُ ولَكِنّ أكْثَرَ النَّاسُ لا يَعلمونَ ﴾[1] .

وقد عادت علاقة الدين بالانسان عندهم وليد الميول الجنسية للإنسان ، بل أصبحت المعنويات عند أصحاب هذا المنهج ظاهرة طفولية ، واستبقاء لعلاقة الطفل في يوم عجزه ، بأُمه وأبيه ، فإذا كبر الانسان وأحس بعجز الأب والأُم تجاه الاخطار الكبرى مضى يبحث عن قوة أكبر وأقدر على حمايته تجاه الحوادث حتى يُحِلُّها محل أبيه ، وهكذا نشأت عندهم فكرة الإله .

فالعالم الكلامي الذي يريد الدفاع عن حياض الإسلام والمسلمين لا

(١) سورة الروم : الآية ٣٠ .

مناص له إلا التركيز على معرفة الإنسان ، معرفة تامة ، بنفس الطرق التي يستعملها علماء النفس في معرفته .

الرابع : الغرور بالعلم .

إن الإنغرار بالعلم الحديث ـ مع الاحترام التام للعلم وأهله ـ صار سببا لإنكار المعاجز ، وخوارق العادات ، وتسرب الشك إلى الوحي والإدراك الخارج عن إطار الحس والعقل ، كما تسرب الشك الى العصمة في الأنبياء ، وبكلمة قصيرة ، في أكثر ما يرجع إلى عالم الغيب والخارج عن الشهادة ، وصار هذا مبدء لنزوع كثيرة من الباحثين عن القرآن والسنة الى تأويل ما لا يلائم قوانين الشهادة . ولأجل أن يكون القارىء الكريم على بصيرة من اغترار هؤلاء بالعلم ، نذكر نماذج من أفكارهم .

فهذا هو شيخ الأزهر محمد عبده (ت ١٣٢٣) ـ وقد خدم الازهر بفكره وقلمه وورث عن أستاذه السيد جمال الدين الأسد ابادي ، أفكاره وأراءه ـ يؤول الأيات الدالة على إحياء الموتى في هذه النشأة ، تأويلا يناسب روح العصر الإلحادي[١] .

كما أنه بطبيعته العلمية يحاول أن يفسر الملائكة بالقوى الطبيعية ، ومن المعلوم أنّ الحافز إلى هذا التوجه ليس إلاّ الإغترار بالأساليب العلمية التجريبية والخوف من المتدرعين بالعلم الحديث ، والإنهزام أمامهم . وإلاّ فقد كان اللائق بشيخ الأزهر الصمود أمام التيارات الإلحادية وأن يقول ـ رافعاً عقيرته ـ إنّ أقصى ما للعلم من الحق هو الإثبات لا النفي ، فالعلوم التجريبية مهما بلغت من القمة ، ليس لها شأن إلاّ تحليل الموجودات المادية فقط ، وأما نفي ما وراء الطبيعة وإنّه ليس هناك ملك ولا جن ولا وحي ولا لوح ولا قلم ، فلا شأن له فيه ، ولو تدخّل فيه فقد تطلع إلى ما هو أقصر منه .

وهذا هو الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي ، يرى أن التشريع الإسلامي غير

---

(١) سنقف على نماذج من تأويلاته في بحث المعاد من هذا الجزء .

صالح للتطبيق على هذه الظروف ، وإنه يختص بالعصور الغابرة يقول: إن من ينظر في كتب الشريعة الأصلية بعين البصيرة والحذق ، يجد أنه من غير المعقول أن تضع قانوناً أو كتاباً أو مبدء في القرن الثاني من الهجرة ثم يجيء بعد ذلك ، فتطبق هذا القانون في ١٣٥٤ هجرية [١] .

وهذا فريد وجدي ـ كاتب دائرة معارف القرن الرابع عشر ـ نجده يرقص لافلات الحكومات من سلطان رجال الدين ويمدح ثمرات العلوم مغمزاً بثمرات الدين ، يقول : « تقدم الزمان وأفلتت الحكومات من سلطان رجال الدين واقتصر سلاح الدين على ما كان لديه من قوة الإقناع ، ففي هذه الأثناء كان العلم يؤتي ثمرات من استكشاف المجهولات ، وتخفيف الويلات ، وترقيه الصناعات ، وابتكار الأدوات والآلات ، ويعمل على تجديد الحياة البشرية تجديداً ، رفعها عن المستوى ، فشعر الناس بفارق جسيم ، بين ما انتهوا إليه في عهد الحياة الحرة وتحت سلطان العلوم المادية ، وبين ما كانوا عليه ايام خضوعهم لحفظة العقائد[٢] .

وليس هذا الداء مخصوصاً بهؤلاء ، بل هناك رجالات آخرون تأثروا بالفلسفة المادية الغربية فأخذوا ينظرون إلى منطق الدين باستصغار .

فهذا أحمد أمين المصري الطائر الصيت ، يقول في كتابه : «إن قانون التناقض الذي يقول به المنطق الشكلي القديم والذي يقرر أن الشيء يستحيل أن يكون وأن لا يكون في آن واحد ، يجب عليه الآن أنْ يزول من أجل حقيقة « هيجل » العليا التي تنسجم فيها المتناقضات والتي تذهب إلى أن كل شيء يكون موجوداً وغير موجود »[٣] .

---

(١) مجلة الأهرام ، ٢٨ فبراير ، عام ١٩٣٦ ، لاحظ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، تأليف مصطفى صبري ، شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) مجلة الازهر ، المجلد الثاني ، الجزء التاسع ، لاحظ موقف العقل والعلم والعالم ، ج ١ ،ص ٥٧ .

(٣) قصة الفلسفة الحديثة ، كما في موقف العقل والعلم والعالم ، ج ١ ص ١٣٠

وقد عزب عن المسكين أن ما يدّعيه « هيجـل » من الجمع بـين النقيضين لا يمت إلى النقيضين المبحوث عنهـا في المنطق الشكـلي ، بصلة . وإنّما هـو عبارة عن العناصر المتضادة في الطبيعة التي يحصل من تفاعلها شيء ثالث ، ولو أردنا أن نعـبر عنه باصطلاح صحيح ، فيجب أن نقول : يريد المتضادين في مصطلح الفلسفة ، لا النقيضين ، ولا الضدين في مصطلح المنطق .

ثم نسأل الأستاذ ، إذا كانت أبده القضايا ، أعني امتناع اجتماع النقيضين ، واقعة في إطار الشك والترديد ، بل الـردّ والإنكار ، فـأنّى له أن يثبت قضيـة يقينية طاردة للشك واليقين ، إذ المفروض عنده أنّ النقيضين يجتمعان ، وأنّه لا مـانع من أن تهـدف قضية « قـرأ أرسطو عـلى أفـلاطـون » ونقيضهـا « لم يقـرأ أرسـطو عـلى أفلاطون » .

وأسوأ من ذلك قوله الأخر ، منددأ بعـلم الكلام الذي نرى جـذوره في القران والسنة ، ثم العقل : « أما علم التوحيد فبرهان لمن يعتقـد ، لا لمن لا يعتقد ، برهان لصاحب الدين ، لا لمخالفه ، ولهذا لم نر في التاريخ أن عام الكلام كان سببا في إيمان من لم يؤمن ، أو إسلام من لم يسلم إلانادرا ،وإنّما كان سبباً في ايمان الكثير وإسلام الجم الغفير ، الدعوة من طريق القلب لا من طريق المنطق »[1] .

نقـول : إذا لم يكن علم الكلام سببا لايمان من لم يؤمن ، فما معنى هذه البراهين التي يسوقها القرآن حول دحض الشرك ودعم التوحيد ، واذا كان العقل غير مفيد في الهداية ، بل المفيد هو الكشف والشهود ، الذي يعبر عنه بطريق القلب ، فما معنى دعوة الوحي الى التعقل والتدبر .

والعجب أن كل ما يقوله هو ، هو برهنة واستدلال بالعقـل ، وهو يـريد أن يرد العقل بالعقل ، فـما هذا التنـاقض ؟ اللهم إلاّ أن يلتجيء الأستاذ إلى فـرضية « هيجل » وأنّه يصح الجمع بين النقيضين !! .

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم ، ج ١ ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨

وفي مؤخر القوم ، كاتب « حياة محمد » ، محمد حسين هيكـل ، فإنّـه يبث سمومه في مقدمة كتابه وثناياه ، ويرفع عقيرته بأن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ، يقول :

« إنصرف هؤلاء الشبان عن التفكير في الأديان وفي الرسالة الإسلامية ، وصاحبها . وزادهم انصرافاً ما رأوا العلم الواقعي والفلسفة الواقعية (الوضعية) يقـررانه من أن المسائل الدينية لا تخضـع للمنطق ولا تـدخل في حيـز التفكير العلمي ، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدي ، الميتافيرقي ، ليس هو أيضاً من الطريقة العلمية في شيء »[1] .

ماذا يريد من قوله : إن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق . فهل يريد من المنطق ، الإستـدلال عليها ، كما يستدل عليها بالبرهنة العقلية التي تقوم على أسـاس إرجاع النـظريات إلى البـديهيات ، فهـذا عدوان وظلم ، فـان أُصـول المسائل الدينية إنما تثبت بالبرهان العقلي ، ومن سَبَّرَ كتب الإلهيات للمعتـزلة والأشاعرة والإمامية يجد مقدرتهم العلمية على إثبات ما يتبنونه .

وإنْ أراد أنّـه لا يخضـع لـلأسـاليب التجـريبيـة التي هي من شؤون العلوم المادية ، فهو مسلم ، لكن ذلك الترقب ، ترقب في غـير محله ، لخروجـه عن نطاق التجربة .

والعجب أن ما ذكره الأُستاذ ليس أمراً تجريبيا بل هو برهنة عقلية استنتجها من المشاهدات ، حسب زعمه .

هذه نماذج من الاغترار بالعلم وتسرب المادية إلى الاوساط الدينية ، فإذا كان هذا حال هؤلاء الذين يعدون في الجبهة والسنام من الشخصيات الدينيـة في مصر العزيزة ، فما حال البسطاء الذين ينهلون من مشـارعهم ومشارع من يتـظاهر بالمادية ويرفع عقيرته بأنّه قد مضى سلطان الدين وبدأ سلطان العلم .

---

(١) حياة محمد ، ص ١٥ .

هذه وتلك وغيرها مما لم نذكر يفرض علينا رسالة جديدة في علم الكلام وهي التركيز على الموضوعات التي يتخذها الإلحاد منصة لإذاعة الإلحاد وإطلاقه . ولا نكتفي بعلم الكلام السابق ، والموضوعات المحدودة ، بل نماشي حاجات العصر بتطوير خاص لنجا به بذلك ضوضاء الإلحاد ، بالمنطق الرصين والعظات البالغة النافذة .

دواءٌ يزيدُ داءً .

وهناك رسالة أُخرى لعامة المسلمين وهي ادلاء النصح للوهابية الذين يدعون أنهم يتبنون عقيدة السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان فقابلوا هذا السبيل الالحادي الجارف بنشر ما أُلف بيد المحدّثين في العصور السابقة ، ثم نشر ما ألفه ابن تيمية وتلميذه إبن قيم ومقلده في العصور الأخيرة « محمد بن عبد الوهاب » . زاعمين بأنّهم يوصدون بذلك الباب أمام تطرق الإلحاد إلى قلوب الشباب المسلم .

ولكنه اشبه بمداواة العجوز ، ينفع مرة ويضر مرات ، فان ما كتب بيد السلف يحتوي على كل رطب ويابس وصحيح وسقيم ورصين وزائف ، وإن دَلّ على كونه سبحانه جسماً ذا اعضاء بشرية وأنه يجلس فوق العرش ويستوي عليه وينزل كل ليلة الى السماء الدنيا ، وغيره مما نستعيد بالله منه ، ونُجِّلُه تعالى عنه ، وقد اتخذها بعض السلف عن اليهود ومستسلمة أهل الكتاب فأودعوها كتبهم الحديثية إلى أن جاء الخلف ونظر إليها بتقدير واحترام وحسبها حقائق راهنة سمعها المسلمون من النبي الاكرم .

يشهد الله ـ وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم ـ أنّ في بث هذه الكتب آثاراً سيئة في أفكار الشبان وفيها حط لمقام نبي العظمة بل إنها حلقات بلاء تجر الويل على الإسلام ، والدمار للمسلمين ، فيجب أن يكون هناك نظارة على نشر هذه الكتب حتى يميز الصحيح من غيره ، ويعلق على غير الصحيح .

هذه نصيحتي للسلفيين أساتذتهم وأبنائهم ، « **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي**

وَنَصَحْتُ لَكُم»[1] ولعل بينكم من لايحب الناصحين ، غير أن ذلك لا يؤثر في عزمي ، ودعوتي في الله سبحانه .

إذا رضيت عني كرام عشيرتي   فلا زال غضباناً علي لئامها

الآن حصحص الحق ، وأسفر الصبح لذي عينين ، وأقدم شكري الجزيل ، وثنائي العاطر لولدنا العلامة المحقق فضيلة الشيخ حسن مكي العاملي ، دامت إفاضاته ، فقد بلغ النهاية ، وبذل مبلغ جهده في تدوين هذه المحاضرات وضبطها وتنسيقها وتنظيمها ، والرجوع إلى مصادرها ، فجاء هذا الجزء كالجزء السابق ، كسبيكة واحدة ، تعلو عليه جودة البيان ، وإحكام السبك ، وروعة التنظيم ، فحياه الله سبحانه ووفقه لما يحبه ويرضاه في مستقبل أيامه ، وإنّه ـ دام فضله ـ ممن عقدت عليه آمال الخير والسعادة وأن يكون أحد أعلام المحققين والخبراء في علم العقائد والكلام ، ومن المدافعين المتحمسين عن حياض العقيدة ومناهل الشريعة ، وأشكر الله سبحانه على هذه النعمة الجزيلة ، وهو خير مسؤول وخير معين .

حرّره صبيحة يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر شوال
المكرم من شهور عام ١٤٠٩ هـ ق في قم المشرفة
جعفر السبحاني
عفي عنه

(١) اقتباس من سورة الأعراف : الآية ٧٩ .

الفصـــل الســـابع

النبـــوة العامـــة

* البحث الأول : لزوم بعثة الأنبياء
  - أدلة لزوم البعثة .
  - أدلة منكري البعثة
* البحث الثاني : ما تثبت به دعوى النبوه
  - الإعجاز
  - تنصيص النبي السابق
  - جمعُ القرائن والشواهد
* البحث الثالث : الوحي واقسامه
  - الوحي في اللغة
  - الوحي في القرآن
  - حقيقة الوحي في النبوة
* البحث الرابع : سمات الأنبياء
  - العصمة
  - التنزه عن المنفرات
  - العلم بالمعارف والأحكام
  - الكفاءة في القيادة

النبوة العامــة

مقدمــة

النبوة سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده ، لازاحة علّتهم في أمر معادهم ومعاشهم .

والنبي هو الإنسان المُخْبِر عن الله تعالى بإحدى الطرق المعروفة .

والبحث في النبوة يقع على صورتين :

الأولى ـ البحث عن مطلق النبوة ، من دون تخصيص بنبيٍّ دون نبي .

الثانية ـ البحث عن نبوة نبي خاص ، كنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

والأبحاث التي طرحها المتكلمون في النبوة العامة تتمحور في أربعة أُمور ، هي :

١ ـ البحث عن حسن بعث رجال الغيب والوحي لهداية الناس وإرشادهم إلى الغاية المتوخاة من خلقهم ، أو لزومه .

٢ ـ إذا ثبت حسن البعثة ، فما هي الطرق التي يُعّرف بها النبي الصادق من المتنبيء الكاذب ؟ وهل هي منحصرة بالإعجاز ، أو هناك طرق أُخرى ؟

٣ ـ إذا كان النبي هو الإنسان المتصل بالله سبحانه ، فما هو ذاك الطريق الذي يتصل به عَبْرَه ، ويتلقى من خلاله تعاليم الخالق سبحانه ؟

٤ ـ ما هي الصفات المميزة للنبي عن غيره ؟

ويرجع البحث في الأول إلى تحليل أدلة مثبتي لزوم البعثة ومنكريه ، كما يرجع البحث في الثاني إلى الطرق التي تثبت بها نبوة الأنبياء . ويرجع البحث في الثالث إلى الوسيلة التي يتلقى بها النبي تعاليمه من الغيب ، أعني الوحي والإلهام . ويرجع البحث في الرابع إلى التعرف على صفات الأنبياء ، كعصمتهم من الخطأ والزلل وتنزههم عن الصفات المنفّرة .

وبإشباع البحث في هذه المجالات الأربعة ، يكتمل البحث في النبوة العامة ، ويقع الكلام بعده في النبوة الخاصة ، بإذنه تعالى .

******

مباحث النبوة العامة

(البحث الأول)

لزوم بعثة الأنبياء

إتفق أهل الملل قاطبة على لزوم بعثة الأنبياء إلى الناس ، بمعنى أن حكمة الخالق البالغة تقتضي إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم إلى سبل السعادة .

وخالفهم في ذلك البراهمة ، فقالوا بأن المجتمع الانساني بفطرته وعقليته ، يصل إلى تلك الغاية ، من دون حاجة إلى معلم غيبي .

والتعرف على الحق في ذلك يتوقف على تحليل أدلة الطائفتين ، ونقدم أولا أدلة المثبتين ، مختارين القليل من الكثير منها[1] ، ثم نتبعها بأدلة النافين فنذكرها ونحلّلها .

***

(١) ـ استدل المتكلمون بأدلة تقارب العشر على لزوم البعثة ، فلاحظ تجريد الإعتقاد وشروحه .

أدلة لــزوم البعثـــة

١

حاجة المجتمع إلى القانون الكامل

وبيان هذا الدليل يستدعي رسم أمور :

الأمر الأول : نزعة الإنسان إلى الحياة المدنية .

لا يشك احد من الفلاسفة والباحثين في الحياة الإنسانية ، في أن للإنسان ميلاً إلى الإجتماع والتمدن ، فهو يفر من حياة الإنفراد في الغابات والصحاري وكهـوف الجبال ، ويتجـه إلى التشكّل مـع أبناء نـوعـه في اطـار المجتمعـات الكبرى ، وكلّما تكـاملت الحضارة الإنسـانية ، إنحسـرت تلك الحياة الفـردية وازدادت التشكّلات المدنية والإجتماعية .

وهناك نظريتان في تفسير هذه النزعة الانسانية :

الاولى : أن الإنسان « مدني بالطبع » فهو بـدافع فـطري محص يفر من الحياة الفردية إلى الحياة الاجتماعية .

والثانية : أن الإنسان « مستخدِم بالطبع » ، يميل إلى استخدام كلٍّ شيء في الطبيعة لصالح غرائزه ومتطلّبات فطرته ، ولا يمكنه تحقيق هذا الدافع إلى الإستخدام إلا بالتشكل في إطار الحياة الإجتماعية . ولولا وفاء التعاون مع أبناء نـوعه ـ المستلزم للحيـاة الإجتماعيـة ـ بإشبـاع ميله للاستخـدام ، لظلّ حليف الغابات والكهوف .

وعلى كل تقدير ، لا مفر للإنسان عن الحياة الإجتماعية سواء لكونه مدنياً بالطبع أو مستخدماً بالطبع .

الأمر الثاني : الحياة الإجتماعية رهن القانون

إن حاجة المجتمع إلى القانون مما لا يُرتاب فيه ، وذلك لأن الانسان مجبول على حب الذات ، وهذا يجرّه إلى تخصيص كل شيء بنفسه من دون أن يراعي لغيره حقاً . ومن المعلوم أن الحياة الإجتماعية بهذا الوصف تنتهي إلى التنافس والتشاجر بين أبناء المجتمع ، وتؤدي بالتالي إلى عقم الحياة وتلاشي أركان المجتمع .

فلاجل ذلك لا يقوم للحياة الإجتماعية أساس إلا بوضع قانون دقيق ومحكم ومتكامل ، يقوم بتحديد وظائف كلٍّ فرد وحقوقه ، ويشرِّع الحدود والقيود التي يجب تحرك الجميع من خلالها .

الأمر الثالث : شرائط المقنِّن

إن وضع قانون ولو للقضايا والمشاكل الجزئية ، يعدّ من أصعب الأُمور في مقام التحقيق ، ولا يقوم به إلا أماثل رجال المجتمع الذين تجتمع فيهم مؤهلات عالية من العلم والخبرة . ولكي تقف على حقيقة ما ذكرنا نضرب مثالا لبعض القضايا :

إنّ مشكلة أزمة السير من أعسر المشكلات التي تعاني منها المجتمعات المدنية الحديثة ، ويُعَدّ حلُّها من الأُمنيات الكبرى لسكانها والقائمين عليها . فلو قامت مدينة تعاني من هذه الأزمة بتشكيل لجنة مهمتها وضع قانون وضوابط كفيلة بحلّها ، فلا بد أن تتوفر لدى أعضاء هذه اللجنة ، المعرفة والخبرة اللازمين لتحقيق هذه الغاية ، فلا بد أن تكون مطلعة على عدد شوارع المدينة ومقدار سعتها ، وكيفية ارتباطها ، وعدد الوسائط النقلية التي تجوبها ، وكذلك المراكز الاقتصادية والحيوية في المدينة ، ومراكز الكثافة السكانية ، ومراكز

المواقف العامة للسيارات ، ومقدار سعتها وضيقها ، وكذلك الوعي الثقافي لدى النـاس الداعي إلى رعـاية النـظم والتخطيـطات ، والتعرف ايضـاً على خبرات السابقين والمخططات التي طبّقت في المدن الاخرى . . . . الىٰ غير ذلك من الشروط اللازمة لوضع قانون وخطة وافية بحل الإزمة . والجهل بواحد منها فضلا عن جميعها ، موجب للفشل وعدم نجاح القانون .

فإذا كان هذا الموضوع الجزئي بحاجة إلى علم وخبروية بهذا الحد حتى يُجْعَلَ له قانون كافل لحل أزمته ، فكيف يجعل القانـون للمجتمعات البشـرية المنتشـرة في أصقـاع الأرض ، والتي تتبـاين من حيث الـظروف الجغــرافيـة والعادات والتقاليد ، يكون متناوِلاً لجميع جوانب الحياة ؟!

لا ريب أن جعل قانون كهذا يحتاج إلى توفّر شروط وشروط ، تخرج قطعاً عن طاقة الإنسان مهما ترقّى في درجات العلم . واليك ثلاثـة من أُمهات تلك الشروط .

الشرط الأول : أن يكون المقنّن عارفاً بالإنسان .

إنّ أول وأهم خطوة في وضع القانون، معرفة المقنِّن بالمورد الذي يضع له القانون ، كما أشرنا إليه في المثال المتقدم . وعلى ضوء هذا ، لا بد أن يكون المقنّن عارفا بالإنسان : جسمِهِ وروحِهِ ، غـرائزه وفـطرياتـه ، وما يصلح لهـذه الامور أو يَضُر بها ، وكلما تكاملت هذه المعرفة بالإنسان ، كلمـا كان القـانون ناجحاً وناجعاً في علاج مشاكله وإبلاغه إلى السعادة المتوخاة من خلقه ووجوده في هذا الكون .

ومَثَلُ المقنِّن في هذا المقام ، مَثَلُ الطبيب ، كلما كانت معلوماتـهُ حول المريض ، جسمِهِ وروحِهِ وظروفِـهِ المحيطةِ بـه ، كاملةً ، كلمـا كانت الوصفة مفيدةً وناجعة في قَلْعِ المرض .

وهناك وجهة أُخرى لاقتضاء طبيعة التقنين ، المعرفة الكاملة بـالانسان ، وهي أن الانسان خُلِقَ مع غرائز جامحة لا تعرف لإرضائها قاعدة ولا حدّاً . ومن

المعلوم أن تعطيل هذه الغرائز بالكلية ينتهي إلى الفناء ، كما أن اطلاق عنانها بؤدي نفس النتيجة . فالطريق الأوسط ، كبح جماحها على حد يتم لصالح الإنسان الفرد أولاً ، وصالح المجتمع ككلّ ثانيا .

ومن هذا يتبين أن من يريد أن يقنِّن لصالح المجتمع ، يجب أن يكون عارفا بالإنسان عرفاناً كاملاً ، واقفاً على زوايا روحه وأعماق ضميره وخصوصيات بدنه وطاقاته ، وما يرجع إليه بالصلاح أو الفساد .

الشرط الثاني : أن لا يكون المقنِّن منتفعاً بالقانون .

وهذا الشرط بديهي ، فإن المقنن إذا كان منتفعاً من القانون الذي يضعه ، سواء كان النفع عائداً إليه أو إلى من يمت إليه بصلة خاصة ، فإنّ هذا القانون سيتم لصالح المقنِّن لا لصالح المجتمع ، ومثل هذا القانون ناكب عن الحق ، متردّ في مهاوي التفرقة والتمييز ، ونتيجته الحتمية الظلم والإجحاف .

فالقانون الكامل لا يتحقق إلا إذا كان واضعُهُ مجرّداً عن حب الذات وهوى الإنتفاع الشخصي .

الشرط الثالث : إصلاح الباطن

إن للعقيدة دورها وأثرها في اختيار الفعل وانتخابه ، وكلُّ ما يصدر من الإنسان من فعلٍ أو تركٍ فهو وليد عقيدته وتفكيره ، فالمؤمن بالله وشرائعه يسعى للإتيان بأعمال يرضي بها ربَّه ، كما أنّ الملحد والكافر به وبشرائعه يسعى إلى الأعمال التي فيها رضى غرائزه ومتطلبات نفسه .

والقانون مهما بلغ في درجات التكامل ، لا يكون ناجحاً ومفيداً إلا إذا كان في جوهره وصميم ذاته ، ضمانات لأجرائه وتجسيده في الحياة .

وبضم هاتين المقدمتين إلى بعضهما يتضح أن الضمان الكامل لأجراء القانون لا يتحقق إلا بتوجه المقنِّن إلى إصلاح الباطن مع إصلاح الظاهر ، ولا يكون نظره محصوراً بوضع الضوابط الماديَّة الجافّة .

فالقانون الكامل يبتني على إيجاد عقيدة وإيمان بالغيب ، وبقوةٍ قاهرةٍ كبرى ، تراقب الإنسان في ليلة ونهاره وفي حياته الشخصية وعلاقاته الإجتماعية ، بالإضافة إلى ايجاد التنظيمات المادية لمراقبة أعمال الفرد الظاهرية .

واجتماع هذين الأمرين يصنع من الفرد إنساناً إجتماعياً يعيش في ظل القانون مراعياً له ولا ينقضه إلا شاذاً ونادراً .

ولو كان المقنِّن ناظراً إلى الجهات الظاهرية فقط ومكتفياً في ضمانات الإجراء بالتنظيمات الرائجة ، لكان خاسراً في تقنينه ، ولن يَرى له تجسّداً إلا في وضح النهار وأمام أعين القوى البشرية المُجْرِية .

هذه أبرز الجهات الوافية بكمال القانون فهلمّ نرى أين تتحقق هذه الشرائط ، وعند مَنْ ؟ .

أما الشرط الأول ، فإنا لن نجد في صفحة الوجود موجوداً أعرف بالإنسان من خالقه ، فإن صانع المصنوع أعرف به من غيره . يقول سبحانه : ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ** ﴾[1] .

واما **الشرط الثاني** ، فلن نجد أيضا موجوداً مجرداً عن أي فقر وحاجة وانتفاع سواه سبحانه، ووجه ذلك أن الإنسان مجبول على حب الذات ، فهو مهما جردّ نفسه من تبعات غرائزه ، لن يستطيع التخلص من هذه النزعة ، وإلا لزم أن ينسى نفسه ، ويَخْرُجَ بالتالي من عداد البشر .

وأما الشرط الثالث ، أي تشريع القانون على صرح الإيمان والإعتقاد بصحة التشريع ، فلن نجده أيضاً في غيره سبحانه ، لأنه يدعو إلى ربوبية نفسه وعبوديّة غيره ، ويبين للناس أن صلاحهم في إطاعته وشقاءهم في مخالفته وبهذا يسرى قانونُه وتشريعُه في الحياة والمجتمعات البشرية سريان الماء في الشجر والنبات ، ويكون مضمون الإجراء والتطبيق .

---

(١) سورة المُلْك : الآية ١٤ .

أضف إلى ما ذكرنا ، أن التبدل الدائم في القوانين، والنقض المستمر الذي يورد عليها، بحيث تحتاج في كل يوم إلى استثناء بعض التشريعات وزيادة اخرى ، إضافة الى تناقض القوانين المطروحه في العالم من قبل البشر ، كل ذلك دالّ على قصورها عن الوفاء بحاجة المجتمعات إليها ، وما ذلك إلا لقصورهم عن معرفة الانسان حقيقة المعرفة ، وانتفاء سائر الشروط في واضعيها .

فتلخص من هذا الدليل أُمور :

الأول : أنَّ الأنسان يميل إلى الحياة المدنية ، إما لكونه « مدنياً بالطبع » ، أو لكونه « مستخدماً بالطبع » .

الثاني : أنَّ الحياة الإجتماعية لا تستقر إلا بتعرف أعضاء المجتمع على وظائفهم وحقوقهم ، وهذا لا يتسنى الاّ بالتقنين .

الثالث : أنَّ مهمة التقنين الشاقة لا يقوم بها إلا من اجتمعت فيه عدّة شروط أهمها : معرفته الكاملة بالأنسان ، وعدم انتفاعه من القانون الذي يجعله ، وأن يبني قانونه على صَرْح الإيمان .

الرابع : أنّ تلك الشروط لا توجد على وجه الكمال إلاّ في الله سبحانه خالق البشر .

فإذا كان استقرار الحياة الاجتماعية للبشر متوقفاً على التقنين الإلهي ، فالواجب في حكمته تعالى إبلاغ تلك القوانين إليهم عبر واحد منهم يرسله إليهم ، ليوقفهم على ما فيه سعادتهم . والحامل لرسالة الله سبحانه هو النبي المنبيء عنه والرسول المبلغ إلى الناس ، ويَثْبُتُ بذلك أنّ بعث الأنبياء واجب في حكمته تعالى حفظاً للنظام المتوقف على التقنين الكامل .

إشارة الى هذا الدليل في الذكر الحكيم .

إنّ في الكتاب الحكيم ما يشير إلى هذا الدليل ، وهو قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّنت وأنْزلنا مَعَهُمُ الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسْطِ . . . ﴾[1] .

فجعل القيام بالقسط الذي هو عبارةٌ اخرى عن ضبط المجتمعات بالنظم والقوانين لبحصل التآزر والتآلف المطلوبين لتأمين الأرضية الصالحة لسلوك الإنسان إلى معين السعادة ، جعله علةً وغايةً لإرسال الرسل ، فالقسط لا يتحقق إلا بالتسنين الصحيح والتقنين الكامل الذي لا يقوم به إلا خالق الانسان وبارئه .

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

أدلة لزوم البعثة

(٢)

حاجة المجتمع الى المعرفة

كل انسان عاقل إذا جال ببصره فيما يحيطه من أرض وسماءٍ ، يقف على أن الكون لم يخلق عبثاً ، بل له غاية وهدف تتفاعل كل أجزائه في سبيله .

وليس معنى كونه ذا غاية أن الفاعل قام بإيجاده لسد حاجته كما هو المتعارف في أفعال غيره سبحانه ، بل المراد أن الفعل ليس فعلاً عبثيّاً فاقداً للغاية ، التي ترجع إلى غيره ، فكون الفاعل ذا غرض يفارق كون الفعل ذا غاية ، والمنفي عن ساحته سبحانه هو الأول دون الثاني ـ وقد أوضحنا حاله في الجزء الأول فلاحظ .(١)

إن النظام السائد على العالم ، والإنسجام الموجود بين أجزائه يعرب عن أن الهدف من إيجاده هو استقرار الحياة في كوكبنا هذا . وهذه الغاية إن لم تكن هي الوحيدة فهي على الأقل ـ إحدى الغايات فكأن سير النجوم والكواكب والشمس والقمر ، ونزول الأمطار والثلوج ، وحركة الرياح والسحب ، وجزر البحار ومدّها، واخضرار المزارع وتفتح الازهار وو . . . مما لا يعدّ ولا يحصى من الآثار الطبيعية، كلها لاجل تكوّن الحياة واستقرارها وتهيئة الأرضية الصالحه لتكامل الموجودات الحية .

---

(١) الآلهيات ، ج١ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٧١ .

وتتضح حاجة الانسان إلى المعرفة بالوقوف على أُمور :

الأمر الأول ـ الهداية التكوينية .

إن الموجودات الحية تصل إلى الغايات التي خلقت لها ، في ظلّ الهداية التكوينية والغرائز المودعة في ذواتها ، ولا تحتاج في بلوغها ذلك الكمال إلى عامل خارج عن ذواتها ، سوى الإنسان .

إن الإنسان ، وإن كان مجهّزا بغرائز ذاتية ، إلا أنها غير وافية في إبلاغه الغاية التي خلق لها ، ولا تعالج إلا القليل من حاجاته الضرورية . ولاجل ذلك ضمّ خالق الإنسان إلى تلك الغرائز ، مصباحاً يضيء له السبيل في مسيرة الحياة ، ويفي بحاجاته التي تقصر الغرائز عن إيفائها ، وهو العقل .

ومع ذلك كله فإن العقل والغرائز غير كافيين أيضا في إبلاغ الانسان إلى السعادة المتوخاة ، بل يحتاج معهما إلى عامل ثالث يعنيه في بلوغ تلك الغاية .

ووجه ذلك أن العقل الإنساني غير مصون عن الخطأ والزلل والإشتباه ، وذلك لأن عمل العقل إختياري ، فإنه يرى أمامه طرقاً متعددة وخطوطاً متفاوته ، عليه أن يسلك إحداها ويتجنب بقيّتها ، وكثيراً ما يركب الخاطيء منها ويحيد عن الصائب .

الأمر الثاني ـ قصور العلم الإنساني في مجال المعارف الإلهية

إذا كان العقل والغرائز غير وافيين بحّل عامة مشاكل الإنسان ، فالعلم الإنساني أيضاً غير كاف فيه ، وذلك أن الإنسان رغم التقدم الذي أحرزه في العلوم الطبيعية ، لا يزال في بدايات سلّم هذا العلم ، وما أحرزه ضئيل جداً أمام أسرار الكون العظيم . ورغم أن الإنسان تمكّن من معرفة قسم من لمعادلات والقوانين التي تسير عليها الظواهر الطبيعية والقوى الكونية ، إلاّ أنّه لا يعلم أي شيء هي ، وما حقيقتها وماهيتها[1] .

---

(١) وقف مرة اينشتاين العالم الكبير ، عند درج صغير أسفل مكتبته ، وقال : « إنّ نسبة ما أعلم إلى ما

ومما يوضح قصور العلم البشري في العلوم الالهية ، أن هناك الملايين من البشر يقطنون بلدان جنوب شرق آسيا على مستوى راق في الصناعات والعلوم الطبيعية ، إلى حد أوقعوا العالم في اسارة استهلاك مصنوعاتهم ، ومع ذلك فهم في الدرجة السفلى في المعارف الالهية . فجلّهم - إن لم يكن كلّهم - عبّاد الأصنام والأوثان ، وأسراء الأحجار والاخشاب .

وقد بلغ الحد في بلاد اليابان أن جعلوا لكل حادثة ربّاً ، حتى أن هناك رباً باسم « رب الزواج » ، يتوسل إليه البنات الذين تأخروا في الزواج ، ليؤمن لهم الأزواج المناسبين .

وببابك بلاد الهند الشاسعة ، وما يعتقده مئات الملايين من أهلها من قداسةٍ وتألهٍ في « البقر » . وليست بعيدة عنّا أيام أصاب الجوع تلك البلاد ، وأصدر المجلس العام إجازة بذبح قسم من الأبقار لسدّ الجوع ورفع الموت عن أبناء الشعب ، فقد ثارت ثائرة الجماهير إلى الحدّ الذي أجبر الحكومة على إلغاء القانون . فرضوا أن يموت الإنسان بجوعه ، ويعيش البقر بأطيب عيشه ، يأكل محاصيلهم ويتلف ممتلكاتهم .

فإذا كان هذا هو حال المعارف الإلهية في عصر الفضاء والذرة ، وبعد ما جاءت الرسل تترى لهداية البشر ، فما هو حالها في غابر القرون والأزمان ؟ ! . بل بأي صورة يا ترى كان وضعنا الآن لولا الهداية الإلهية عن طريق الرسل ؟! .

نعم ، هناك نوابغ في التاريخ عرفوا الحق وتعرفوا عليه عن طريق التفكير والتعقل ، كسقراط وأفلاطون وأرسطو . ولكنهم أُناس استثنائيون ، لا يعدون معياراً في البحث ، ولا ميزاناً في نفي لزوم البعثة . وكونهم عارفين بالتوحيد ، لا يكون دليلاً على مقدرة الآخرين عليه . على أنه من المحتمل جداً أن يكون

= لا أعلم كنسبة هذا الدرج إلى مكتبتي . ولو أنصف لقال : أقلّ من هذه النسبة ، لما ذكرناه من جهل الإنسان حقائق القوى التي يكتشف معادلاتها . لاحظ مجلة رسالة الإسلام ، الصادرة عن دار التقريب بالقاهرة ، العدد الأول ، السنة الرابعة ، ص ٢٤ ، تنحت مقاله بعنوان ما نعلم وما لا نعلم للدكتور أحمد أمين .

وقوفهم على هذه المعارف في ظل ما وصل اليهم من التعاليم السماوية عن طريق رسله سبحانه وأنبيائه .

الأمر الثالث ـ ضالة العلم الأنساني في التعرف على المصالح والمفاسد .

ربما يتصور أن الهدف الوحيد من بعثة الأنبياء ، هو هداية الناس إلى المبدأ والمعاد ، وما في المبدأ من صفات جمال وجلال ، ولكن هذه الفكرة نصرانية بحتة ، فإن هدف الأنبياء أوسع من ذلك ، فإنهم قد بعثوا ـ مضافاً إلى ما مرّ ـ لهداية الناس إلى وسائل السعادة والشقاء ، فلأجل ذلك حثّوا على الأخلاق والمثل العليا في الحياة ، كما بيّنوا مصالح العباد ومفاسدهم الفردية والإجتماعية ، ولذا كانت برامجهم تتسع وتتكامل بتكامل المجتمعات البشرية ، حتى ختم التشريع بخاتم الأنبياء ، وتبيّنت معالم الهداية في كافة الجوانب .

والذي يحتم ضرورة هذا الهدف قصور العلم الأنساني عن تشخيص منافع البشر والمجتمعات ومضارّها ، ويدل على ذلك :

أولاً ـ إن المجتمع الأنساني ـ مع ما بلغه من الغرور العلمي ـ لم يقف بعد على ألفباء الأقتصاد . فقد انقسم العالم الحديث إلى طائفتين : واحدة تزعم أن سعادة البشرية في نظام الرأسمالية والإقتصاد الحر المطلق ، وانه هو العامل الوحيد لرفاه المجتمعات وتفجّر الطاقات . والأخرى تدّعي أنّ سعادة البشر في النظام الاشتراكي بدءً والشيوعي غايةً ، فالسعادة كلها في سلب الملكية عن أدوات الإنتاج وتفويضها إلى الدولة الحاكمة .

فلو كان الأنسان قادراً بحق على تشخيص المصالح والمفاسد ، وما ينفعه وما يضره ، لما حصل هذا الإختلاف ، الذي انجر إلى انقسام خطير بين دول العالم .

ثانياً ـ وكما أن الإنسان لم يصل إلى النظام الإقتصادي النافع له ، فهو كذلك

لم يصل إلى وفاق في مجال الأخلاق وقد تعددت المناهج الأخلاقية في العصر الأخير إلى حد التضاد فيما بينها .

ونضرب مثالا بأحدها : الشيوعية . إنها تدعى لنفسها منهجاً أخلاقياً من أُصوله أن الإنسان لا يكون شيوعياً إلا بالتضحية بكل شيء لبناء صرح حكومة العمال في العالم ، وكل ما كان يصبّ في هذا المنحى فهو من الأخلاق الفاضلة ، وإن كان ذلك إعداماً ، وتدميراً وسرقة واختلاساً . ولأجل تبرير هذه الآراء الشاذه اعتنقوا الأصل المعروف : « الغايات تبرر الوسائل » .

يقول لينين ـ أحد زعماء الشيوعية بعد ماركس وانجلز ـ : «إن الشيوعي هو من يتحمل كل التضحيات ويلجأ إلى انواع الحيل والأفعال غير المشروعة ، ليجد لنفسه موضعاً ، وموطيء قدم في الإتحاديات التجاريه »[١] .

فإذا كان هذا حال الإنسان في معرفة المسائل الإبتدائية في الاقتصاد والأخلاق ، فما ظنك بحاله في المسائل المبنية على أُسس تلك العلوم . أفبعد هذا الجهل المطبق يصح لنا أن نقول إن الأنسان غني عن الوحي في سلوك طريق الحياة .

ثالثاً ـ إنّ التعرف على عوامل السعادة والشقاء له صلة وطيدة بسلوك الإنسان في الحياة ، ومع الأسف إنّ الإنسان ـ مع ما يدّعيه من العلم والمعرفة ـ لم يدرك بعد تلك العوامل ، بشهادة أنه يشرب المسكرات ، ويستعمل المخدرات ، ويتناول اللحوم الضارة . كما يقيم إقتصاده على الربا ، الذي لا يشك إنسان عطوف على المجتمع بأنه عامل إيجاد التفاوت الطبقي بين أبناء المجتمع .

هذه الوجوه وأمثالها ترشدنا إلى أن الإنسان ليس ـ ولم يكن ـ غنياً عن تعاليم الأنبياء ، وتدعم بوضوح لزوم بعثتهم لنشر المعرفة بين الأُمم الإنسانية .

قال القاضي عبد الجبار : « إنه قد تقرر في عقل كل عاقل ، وجوب دفع

---

(١) موسوعة نيقولاي لينين ، ج ١٧ ، ص ١٤٢ ، طبعة ١٩٢٣ .

الضرر عن النفس ، وثبت أيضاً أن ما يدعو الى الواجب ويصرف عن القبيح فإنه واجب لا محالة . إذا صحّ هذا ، وكنا نجوّز أن يكون في الافعال ما إذا فعلناه كنا عند ذلك أقرب إلى أداء الـواجبات [1] وأجتنـاب المقبّحات ، وفيهـا ما اذا فعلناه كنا بالعكس من ذلك ، ولم يكن في قوة العقل ما يعرف به ذلك ويفصل بين ما هو مصلحة ولطف ، وبين ما لا يكون كذلك ، فلا بد من أن يعرّفنا الله حال هذه الأفعال كي لا يكون عائداً بالنقص على غرضه بـالتكليف . وإذا كان لا يمكن تعريفنا ذلك إلاّ بأن يبعث إلينا رسولاً مؤيّداً بالمعجز الدالّ على صدقـه ، فلا بُدّ من أن يفعل ذلك ، ولا يجوز له الإخلال به[2] .

إشارة إلى هذا الدليل في الكتاب .

قد جاء في الكتاب العزيز والسنة الشريفة إشـارة الى هذا الـدليل نـذكر منها :

قوله سبحانه : ﴿ كانَ النَّاسُ أُمّةً واحدةً فبعثَ الله النبيينَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ وأنْـزَلَ مَعَهُمُ الكِتـابَ لِيَحْكُـمَ بـينَ النَّـاسِ فيـما اخْتَلَفُـوا فِيـهِ مِنَ الحقّ بإذْنِهِ . . . ﴾[3] .

فإن الاختلاف ـ إن كان عن نوايا صادقة ـ آية عجز البشر عن الوصول إلى الحقيقة .

وقول رسول الله صـلى الله عليه وآلـه : « ولا بعث الله نبيّاً ولا رسـولاً حتى يستكمل العقل . . . »[4] .

وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « فبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله

---

(١) ـ المراد من الواجبات ليس الفرائض الشرعية بل ما يقابل المقبحات ، وهي الامور التي يحكم العقل بحسنها ولزوم الإتيان بها .

(٢) ـ شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، ص ٥٦٤ .

(٣) ـ سورة البقرة : الآية ٢١٣ .

(٤) ـ الكافي ، ج ١ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ١١ .

ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته»[1] .

وقوله‌عليه السلام : « . . . إلى أن بعث الله محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله لانجاز عدته ، وتمام نبوته . . . وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة ، وأهواء منتشرة ، وطوائف متشتتة ، بين مشبه لله بخَلْقه ، أو ملحدٍ في أسمائه ، أو مشير به إلى غيره ، فهداهم به من الضلالة . . . »[2] .

وفي هذا الحديث اشار إلى قصور الانسان في التعرف على المبدأ والمعاد .

وقول الإمام الكاظم عليه السلام لتلميذه هشام : «يا هشام ، ما بعث الله أنبيائه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله ، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة . وأعلمهم بأمر الله ، أحسنهم عقلاً . وأكملهم عقلاً ، أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة[3] .

وقول الامام الرضا عليه السلام : « لم يكن بدّ من رسول الله بينه وبينهم ، يؤدي اليهم امره ونهيه وأدبه ، ويقفهم على ما يكون به مِنْ إحراز منافعهم ودفع مضارهم إذ لم يكن في خلقهم ما يعرفون به ما يحتاجون اليه .[4] .

* * *

(١) ـ نهج البلاغة ، الخطبة ١٤٧ .
(٢) ـ نهج البلاغة الخطبة الاولى .
(٣) ـ الكافي ، ج ١ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ١٢ .
(٤) ـ بحار الانوار ، ج ١١ ، ص ٤٠ .

أدلة لزوم البعثة
٣

هداية الفطريات وتعديل الغرائز

وتقرير هذا الدليل يحتاج إلى تقديم أمرين :

الأمر الأول ـ الانسان مجبول على فطرياته وغرائزه .

لا تكتمل وتتوازن حياة الإنسان إلا إذا عاش على مقتضى متطلبات الفطرة ومتوخيات الغرائز ، بل العيش على خلاف هذه المقتضيات يؤدي بالحياة البشرية إلى الهلاك ، وما مثل هذا إلا كالسابح في عكس تيار الماء ، لن تكون عاقبته إلا الإرهاق وانهيار القوى فيتوقف عن السباحة ويبتلعه الماء .

فحاجة الخلايا إلى الغذاء ، والبدن إلى الراحة والنوم ، حاجة ضرورية لا بد من تلبيتها . كما أن الحاجة إلى أطفاء الشهوة بالزواج حاجة فطرية لا يمكن إهمالها ، وإلا صار الإنسان موجوداً عصبياً ، وكانت الحياة كالعلقم في فمه .

ومن جملة الفطريات المودعة في وجود الإنسان ، والمكتوبة على جبينه بقلم القضاء والخلقة ، والتي تتفجر في أوائل بلوغ الإنسان عمر الشباب ، معرفةُ الله سبحانه ، والميل إلى الأُمور الحسنة ، والإنزجار عن الأُمور السيئة ، ولأجل ذلك ترى إنساناً ـ لم يقع تحت تأثير الأهواء وعوامل الانحراف ـ يَعُدُّ ردّ الامانة قبيحاً ، والخيانة بها كرامة ، كما لا يعد العمل بالعهد أمراً سيئاً ، ونقضه أمراً حسناً ، وهكذا الكثير من الأُمور كالميل إلى العفة والعدالة والإنزجار عن

الدناسة والخيانة . وكل ذلك مما يلمسه الإنسان في حياته ويعايشه في وجدانه ، وقد كشف عنه العلم الحديث وأيّده[1] .

الأمر الثاني ـ حاجة الفطريات إلى الهداية والغرائز إلى التعديل .

إن إعمال الغرائز والفطريات ـ وإن كان به قوام الحياة ـ إلا أنّه لا يصح في المقابل تركها وحالها وإفساح المجال لها ، وإلا أدّى ذلك بالحياة البشرية إلى الفناء والهلاك . وإنما تتحق سعادة الإنسان بهداية فطرياته هداية صحيحة وتعديل غرائزه على وجه يفي بحاجاته ولا يخرجه عن طور إنسانيته .

بيان ما ذكرنا : إن الثلوج المتراكمة على قمم الجبال إنما يمكن الأنتفاع بها إذا كان هناك جداول وقنوات تمتد من رأس كلّ جبل إلى السهول المحيطة به ، فتسيل فيها مياه الثلوج الذائبة بالتدريج . وفي غير تلك الصورة يسيل الماء كيف كان ، جارفاً في طريقه الاحجار والصخور ، وربما أنقلب إلى سيل جارف يدمّر كلّ شيء أمامه .

وكذلك الفِصَل المغروسة ، أو البذور المنثورة على الأرض ، تحمل في ذواتها قوى واستعدادت ، إلا أنَّ تفجُّر تلك الطاقات يحتاج إلى من يتعهدها حراسةً وسقايةً وعنايةً على النحو المأنوس ، وعندما تصير الفصلة شجرة مثمرة ، والبذور سنابل ذهبية .

ثم نقول : إذا كانت الإستفادة من الثلوج المتراكمة على الجبال ، والفصل المغروسة والبذور المنثورة على الأرض ، متوقفاً على هداية خاصة ، حتى تصب في مجراها الصحيح ، وتَرْشُدَ على نهجها الطبيعي ، فكذلك الأمر في السجايا الإنسانية والغرائز البشرية الكامنة في وجود الانسان ، فإنها لن تعود عليه بالنفع والصلاح إلا في ظل هداية تمنعها من الإفراط والتفريط ، وتسيّرها في ما هو صالح البدن والروح .

---

(١) ـ تقدم التعرض لذلك في مقدمات الجزء الاول : الالهيات ، ج ١ ، ص ١١ ـ ١٣ .

وخـذعلى ذلك مثـالاً ، معرفـة الله والميلَ إلى عـوالم الغيبية ، فـان لها جذوراً في عمق وجود الانسان ، ولم يزل كل انسان من صباه إلى كهولته ميّالا إلى تلك العوالم ، شغوفاً بحب الاطلاع عليها ، والخضوع لها .

ولكن هذا الميل إذا لم يقع في إطار الهداية والتوجيه الإلهي ، يسفّ بـالإنسان إلى الحضيض ، ويصنع منه عـابداً للحجـر والخشب والعجماوات ، خـاضعاً للشمس والقمر والنار . ألا ترى صانعي الآلات ومخترعي العقول الالكتـرونية كيف طفقوا يخضعون للأصنام والأبقار ؟ !

ولكنها إذا كانت تحت ظل هداية إلهية ، تتجلى بمـظهر التـوحيد ، وأنّ للعالم بأسره إلها واحداً أحداً عالماً ، قادراً ، محيطاً بكل شيء ، جـامعاً لكـل صفات الكمال والجمال .

إن الميول الطبيعية ، كالميل إلى الزواج والتسلط على المناصب والتكاثر في الأموال ، مما خُمّر عليه الإنسان ، ولا بقاء لحياته إلا به ، ولو سلبت عنـه لصار موجوداً مهملا خاملاً طالباً للموت وجانحاً إلى الفناء .

ولكن لو تركت هذه الغرائز ومجالها ، لآل الإنسان إلى حيـوان ضار ، مـدمر لكل شيء بغية تحصيل المال والإستبداد بالمناصب .

وأما لو كبح جماحهـا ، وعدّلت ميـولها بهـداية تحـدد مجاريهـا وتُرشـد صاحبها الى كيفية الإستفادة منهـا ، لصار مـوجوداً عـاقلاً متكـاملاً سعيـداً في حياته ، متآلفاً ومتآزراً مع سائر بني نوعه ، لبناء المجتمع الصالح .

وهكذا ، فقد عُلِم من هاتين المقدمتين أن وجود الفطريات والغرائـز في الإنسان ، وحاجتها إلى الهداية والتعديل أمر لا ينكـر ، وإنّما الكـلام كلّه في تعيين من يقوم بهذه المهمة :

فهل المحاسبات العقلية كافية في حمل الإنسان على هداية فطرياته وكبح جماح غرائزه عن الإفراط والتفريط ؟

أم هـل الشخصيات الممتـازة في عالم الإجتمـاع ، الموصـوفة بـالعقـل

والدراية والتجربة قادرة على القيام بهذه المهمة ؟

أم أنّ المَرْجِعَيْنِ المتقدمين ـ مع تقدير عملهما والإعتراف بانتفاع الإنسان من هدايتهما في مسير حياته ـ قاصران عن القيام بهذه المهمة ، ولا بدّ من مرجع ثالث له الإحاطة الكاملة بالفطريات والغرائز البشرية وما يصلحها ويقوّمها ، وهم الأنبياء والرسل الإلهيون المعصومون من الخطأ والزلل ، والمؤيدة هدايتُهم بضمانات إجرائية قاهرة ؟ .

نحن نعتقد أن الأمر الثالث هو المتعين ، وأن المرجعين الأَوَّلَيْن غيرُ وافيين بمعالجة المشكلة .

أما العقل ، فمع الإعتراف بأنه يضيء الطريق أمام الإنسان ، ويأخذ بيده في المزلّات والمزالق ، إلا أنه قاصر عن مصارعة الغرائز المتفجرة وكبح ثورانها . فإن كلَّ إنسان يعلم من نفسه أن غرائزه وميوله الشهوية إذا تفجرت ، لم تترك للعقل ضياء ولا للفكر نوراً ، بل كان مثل العقل حينذاك مثل الإنسان المبصر إذا وقع في مهب الرياح والزوابع الرملية ، فإنها تَكُفُّ بَصَرَهَ عن الرؤية وتُعَرْقِل مَسيرَهُ .

وفي تلك الحالات ، لا ينفك العقل عن خداع صاحبه وإراءة المحاسبات الكاذبة لتبرير عمله ، وإيجاد الذرائع لارتكابه ، بحيث لو كان هذا الإنسان في موقف عادي خالٍ عن ذلك الثوران في العواطف والغرائز لما اعتنى بشيء من تلك التسويلات ، ولذلك لا تجد مجرماً يقوم بجناية إلاّ وهو يلقي لنفسه الأعذار والتبريرات حين إقدامه عليها .

وكثيراً ما يستسهل الإنسان في تلك الحالات ـ على فرض إلتفاته إلى خطورة وقبح ما يقوم به ـ يستسهل ما يترتب عليه من الذم واللوم والعقاب، قضاءً لوَطره منه ، وإشباعاً لشهوته مما يناله من اللذائذ المادية .

وأما رجالات الأخلاق والإجتماع ، فمع أنّ لهم دوراً في تهذيب النفوس ، ودفعها إلى الكمال ، وكبح جماح غرائزها على الإجمال ، إلا أَنّ عملهم لا يخلو عن نقائص ربما تَذْهَبُ بأعمالهم أدراج الرياح .

أما أولاً ، فلأنَّ شرط التربية ، الوقوف على رموز الخلقة ، والتعرف على خصوصيات من تـرجى تـربيتـه . وليس لهـذه الشخصيـات ، العلم المحيط بخصوصيات الإنسان ، لا لقلة عملهم وضيق أفكارهم ، بل لعظمة الانسان في روحه ومعنوياته ، وغرائزه وفطرياته ، وهو أشبه ببحر كبير لا يرى ساحله ، ولا يضاء محيطه . وقد خفيت كثير من جوانب حياته ورموز وجوده ، حتى لقِّب بـ « الموجود المجهول » .[1]

ويُصدِّق ضالة هذه المعرفة ، تزايدُ الفساد وارتفاع نسبته في أقطار العـالم عبر نفس المناهج التربوية التي تصّوبها تلك الشخصيات المرموقة في عالم التربية .

وأما ثانياً، فلَأن الحجر الَأساس لتأثير التربية ، أنْ يكون المربي إنساناً كاملاً وموجوداً مثالياً ، يتمتع بسمو الَأخلاق والملكات ، فيجذب بها القلوب ، ويشد إليها النفوس .

ومن المعلوم أن واضعي المناهج التربوية في العالم ، وإن كانوا خبراء في مجـال تخصُّصهم ، إلا أنّـهم فاقـدون لهذا الشـرط الأسـاس . ألا تـرى أَنَّهم يوصـون ببسط العدل ، وحماية المستضعف ، وترك الخمر والقمار وو . . . ومع ذلك فهم مرتكبون لها ، واقعون فيها .

ولا يشذ عنهم إلا من كان مراعياً للدين متمسكاً بأهدابه ، ولكن الفضل حيئنذ لا يعود إليه بل إلى صاحب الشريعة الذي سَنَّ تلك البرامج والمناهج .

وأما ثالثاً ، فلأن المناهج التربوية لا تؤتي ثمارها إلا إذا كانت متسبة إلى الخـالق سبحانـه ، فإنّ هـذا يمنحها ضمـان الإجـراء والتجسّـد في المجتمـع لارتباطها بعوامل التشـويق إلى الثواب والتحـذير من العقـاب ، وإلا فلن تعدو مجموعة نصائح شخصية أو مدرسية ، ما أسرع ما تتهاوى أمام ضربات معـاول الشهوة الثائرة .

---

(١) وقد ألف الفيلسوف الفرنسي الكسي كارل ، كتاباً خاصاً حول الإنسان وغـرائزه وفـطرياتـه ، أسماه « الإنسان ذلك الموجود المجهول » .

ومجموع ما ذكرناه يدلنا على أن مهمة هداية الغرائز والفطريات ، التي تصنع من الإنسان موجوداً عارفاً بالنُظُم ، مؤمناً بالمناهج ، مجرياً لها في ليلة ونهاره ، وسّره وإعلانه ، لا تتم إلا بيد رسل مبعوثين من جانب خالق البشر ، بمناهج كاملة أنزلها إليهم ، وحفّها بدوافع الطاعة من المغريات بالثواب والمحذّرات من العقاب .

قال الشيخ الرئيس في بيان ما يلزم أن تشتمل عليه الأفعال التي يسنها النبي للبشر ، أفراده ومجتمعاته حتى تأخذ لنفسها طريقاً إلى التطبيق ومسلكاً إلى البقاء :

« ويجب أن تكون هذه الأفعال مقرونة بما يذكّر الله تعالى والمعاد لا محالة ، وإلا فلا فائدة فيها .

والتذكير لا يكون إلا بالفاظ تقال أو نيات تنوى في الخيال ، وأنْ يقال لهم : إن هذه الأفعال يتقرب بها إلى الله ويستوجب بها الخير الكريم » . . . . إلى ان قال : « وبالجملة يجب أنْ يكون فيها منبّهات »[1] .

الأنبياء والفطرة في الحديث

إنّ الإمام أمير المؤمنين علياً عليه السلام يصوّر الإنسان موجوداً يجمع في ذاته دفائن العقول وأنوار العرفان .

غير أنّ إثارة تلك المعارف الكامنة ، وإبراز تلك الأسرار الدفينة ، يحتاج إلى إنسان كامل يقوم بتلك المهمة وهو النبي .

فدور الأنبياء دور التذكير والتنبيه ، لا دور التعليم والتأسيس ، لأن كل ما يلقيه الأنبياء من أُصول ومعارف مختمر في وجود الإنسان بعلم فطري وقضاء خلقي ، لكنه لا يلتفت إليها إلا بفضل من يوجّهه .

---

(١) « النجاة » في الحكمة الإلهية ، للشيخ الرئيس ، ص ٣٠٦ ، الطبعة الثانية ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م .

يقول عليه السلام : « فبعث فيهم رُسُلَه ، وواتر إليهم أنبيائه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكروهم مَنْسِيَّ نعمته ،ويحتجوا عليهم بالتبليغ ، ويثيروا لهم دفائن العقول . . . »[1] .

فمثل الانبياء على هذا التقدير ، مثل المنهدس الزراعي ، فكما أنه ليس له دور في خلق الثمار على الأشجار وإظهارها على الأغصان ، وانما ينحصر دوره في إخصاب الأرض وتهيئتها لتُظهِر الشجرة ثمارها وفواكها ، فهكذا الأنبياء بتعاليمهم السماوية ، فإن دورهم تهيئة الإنسان ليُبرز ما تعلّمه في مدرسة الفطرة من الأُصول والمعارف التي تدعو إلى العدل والقسط ، ونبذ الظلم والتعدي وغيرها .

نعم ، للأنبياء ـ على تقدير آخر ـ دور التعليم ، وذلك في الوظائف الفرعية في مجال العبادات والمعاملات إذ لولاهم لما وقف الإنسان على طرق عبادة الله تعالى ، وكيفية سلوكه مع بني نوعه في مقام المعاملة .

* * *

---

(١) ـ نهج البلاغة ، الخطبة الاولى .

بعثة الأنبياء أولى من الكماليات

يعتمد هذا الدليل بنحو رئيسي على مشاهدة النعم التي أودعها الخالق في وجود الإنسان وما يحيط به ليُسهِّل عليه معيشتَه وتكاملَه في الحياة . وليست كلّ هذه النعم دخيلة في ضروريات حياته، بحيث ينعدم وجوده بدونها ، بل إن كثيراً منها مما يدخل في الكماليات ، وتسهيل مجاري الحياة . وكثير من هذه الكماليات أمور جزئية بسيطة لا يلتفت إليها الإنسان إلا بالتأمل والتدبّر . ولأجل زيادة التوضيح نمثّل ببعض الأجهزة في بدن الإنسان .

إن الصانع الحكيم جهّز العين بأجهزة مختلفة ، منها ما هو دخيل في أصل تحقق الرؤية ، ومنها ما هو دخيل في سهولتها وتيسرها .

١ ـ فجعل العين في أعلى أجزاء بدن الإنسان حتى يتسلط بنحو كامل على ما أمامه .

٢ ـ وجعل العين بمختلف طبقاتها في إطار جسم شحمي صلب أبيض اللون ، حفظاً لها مما قد يصيبها .

٣ ـ وجعل العين بإطارها وجميع طبقاتها في حفرة عظمية ، زيادة في صيانتها من الصدمات الطارئة .

٤ ـ وجعل فوق العين حاجباً يمنع من نزول العرق إليها ، وأوجد في

ناصية الإنسان خطوطاً ليسهل إنحراف العرق يميناً ويساراً .

٥ ـ وجعل لكل عين جفنين حافظين لها ، وخلق فيهما أشفاراً وأهداباً ، صيانة لها عن الدخان والأغبرة . وهما ، مع أنهما يمنعان بضمهما دخولَ ما يؤذي العين ، لكنهما لا يمنعان من الرؤية . فهما في هذا المجال أشبه بالستائر الحديديّة تسمح للنور بالدخول من دون دخول أشعة الشمس .

٦ ـ وجعل في باطن كل جفن غدداً يترشح منها سائل لزج يصون أنسجة العين من الإحتكاك بما يحيطها ، ويسهل دوران كرة العين في جميع الجهات .

٧ ـ وأحاط عدسية العين بمجموعة من الأنسجة العضلية ، تجعلها تنقبض أمام الأنوار القوية وتنبسط أمام الضعيفة منها ، صيانة للعين عن دخول أزيد مما تتحمله أو أقل مما تحتاج إليه من النور .

هذا بعض يسير مما يرجع الى العين ، وفي الأجهزة الأُخرى بدائع وفوائد لا تحصى نذكر نذراً منها :

إنّ يد الخلقة جعلت تحت قدم الإنسان ، أخمصاً حتى يَسْهُل عليه الوقوف والسير .

وجعلت في اليد أصابع ، ثم فاوتت بينها في الطول ، ليسهل على الإنسان القيام بأعماله ، وليكون بذلك صانعاً فناناً مبدعاً .

وجعلت في بواطن الأنامل خطوطاً وتعاريج ليسهل عليه الإمساك بالأجسام .

وهكذا إذا درسنا خلقة الإنسان وجدنا أنها مشتملة على أجهزة مختلفة بين دخلية في أصل الحياة ودخيلة في كمالها وسهولتها . وكل ذلك يدفعنا إلى التساؤل : هل يمكن لخالق الإنسان أن يسهّل له كل طرق التكامل الظاهرية ، ثم يترك ما هو دخيل في تكامله الروحي والمعنوي ؟ .

وهل يمكن لأحد أن ينكر دور الأنبياء في تكامل الإنسان ، ولو على وزان دور الخطوط في بواطن الأنامل على الأقل ؟ .

أوَ يصح من الخالق الحكيم أن يهب له تلك الأجهزة المُؤثِّرة في كمالاته المادية ، ويترك ما هو مؤثر في تكامل روحه وفكره ؟ .

ولقد أُلهمنا هذا البرهان مما ذكره الشيخ الرئيس في إلهيات الشفاء حيث قال :

« الحاجة إلى هذا (بعث النبي) في أن يبقى نوع الإنسان ويتحصَّل وجوده ، أشدّ من الحاجة إلى نبات الشعر على الأشفار وعلى الحاجبين ، وتقصير الأخمص من القدمين ، وأشياء أُخرى من المنافع التي لا ضرورة إليها في البقاء . . . . فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقضي تلك المنافع ، ولا تقضي هذه التي هي أُسُّها »[1] .

وإلى هذا يشير صدر المتألهين بقوله : « إن ذاته سبحانه منبع الخيرات ومنشأ الكمالات ، فيصدر منه كل ما يصدر على أقصى ما يتصور في حقه من الخير والكمال ، والزينة والجمال ، سواء أكان ضرورياً له ، كوجود العقل للإنسان والنبي للأمة . وغير ضروري ، كإنبات الشعر على الأشفار والحاجبين ، وتقصير الأخمص من القدمين »[2] .

* * *

---

(١) الهيات الشفاء ، بحث النبوة ، ص ٥٥٧ طبعة طهران . وأورده بعينه في كتاب النجاة ، ص ٣٠٤ ، طبعة ١٣٥٧ هـ .

(٢) ـ المبدأ والمعاد ، لصدر المتألهين ، ص ١٠٣ ، طبعة طهران .

أدلة لزوم البعثة

(٥)

اللُّطف الإلهي

استدلوا على لزوم بعث الرسل بقاعـدة اللطف . وبما أن هـذه القاعـدة تطرح دليلاً في مواضع مختلفة من المسائل الكلامية ، فلا بد لنا من بسط الكلام فيها بشكل عام ، حتى يتبين حالها في كل مقام يستدل بها ، سواء فيما له صلة ببعث الرسل أو غيره ، فنقول :

إن اللطف ، في اصطلاح المتكلمين ، يوصف بوصفين :

١ ـ اللطف المُحَصِّل .

٢ ـ اللطف المُقَرِّب .

وهناك مسائل تترتب على اللطف بالمعنى الأول ، ومسائل أُخرى تترتب على اللطف بالمعنى الثاني ، وربما يؤدي عدم التمييز بين المعنيين إلى خلط ما يترتب على الأول بما يترتب على الثاني . ولأجل الإحتراز عن ذلك نبحث عن كل منهما ، بنحو مستقل .

أ ـ اللُّطف المحصِّل .

اللُّطف المحصِّل عبارة عن القيام بالمباديء والمقدمات التي يتوقف عليها تحقق غـرض الخلقة ، وصـونها عن العبث واللغـو ، بحيث لولا القيـام بهـذه

المبادىء والمقدمات من جانبه سبحانه ، لصار فعله فارغاً عن الغاية ، وناقَض حكمته التي تستلزم التحرز عن العبث . وذلك كبيان تكاليف الإنسان ، وإعطائه القدرة على إمتثالها .

ومن هذا الباب بعث الرسل لتبيين طريق السعادة ، وتيسير سلوكها . وقد عرفت في الأدلة السابقة ، أن الإنسان أقصر من أن ينال المعارف الحقة ، أو يهتدي إلى طريق السعادة في الحياة ، بالإعتماد على عقله ، والإستغناء عن التعليم السماوي . ووجوب[1] اللطف بهذا المعنى ، ليس موضع مناقشة لدى القائلين بحكمته سبحانه ، وتنزيهه عن الفعل العبثي الذي اتفق عليه العقل والنقل[2] . وإنما الكلام في « اللطف المقرِّب » ، واليك البيان فيه .

ب : اللُّطف المقرِّب

اللطف المقرب عبارة عن القيام بما يكون محصلاً لغرض التكليف بحيث لولاه لما حصل الغرض منه وذلك كالوعد ، والوعيد ، والترغيب والترهيب ، التي تستتبع رغبة العبد إلى العمل ، وبعده عن المعصية[3] .

وهذا النوع من اللطف ليس دخيلاً في تمكين العبد من الطاعة ، بل هو

---

(١) سيوافيك معنى الوجوب على الله سبحانه .

(٢) لاحظ سورة الذاريات : الآية ٥٦ ، وسورة المؤمنين : الآية ١١٥ .

(٣) عرّف اللطف المقرب بأنه هيئة مقربة إلى الطاعة ومبعّدة عن المعصية من دون أن يكون له حظ في التمكين وحصول القدرة ، ولا يبلغ حد الإلجاء .
فخرج بالقيد الأول (لم يكن له حظ . .) اللطف المحصل ، فإن له دخالة في تمكين المكلف من الفعل ، بحيث لولاه لانتفت القدرة .
وخرج بالقيد الثاني (لا يبلغ حد الإلجاء) ، الإكراه والإلزام على الطاعة والاجتناب عن المعصية ، فإن ذلك ينافي التكليف الذي يتطلب الحرية الاختيار في المكلف (لاحظ كشف المراد ، ص ٢٠١ ، ط صيدا)
وقال القاضي عبد الجبار : اللطف هو كل ما يختار عنده المرء الواجب ويتجنب القبيح ، أو ما يكون عنده أقرب إما إلى اختيار (الواجب) أو ترك القبيح . (شرح الاصول الخمسة ، ص ٥١٩) .

قادر على الطاعة وترك المخالفة سواءٌ أكان هناك وعد أم لا ، فإن القدرة على الإمتثال رهن التعرّف على التكليف عن طريق الأنبياء ـ مضافاً إلى إعطاء الطاقات المادية . والمفروض حصول هذه المبادىء والمقدمات ، غير أن كثيراً من الناس لا يقومون بواجبهم بمجرد الوقوف على التكليف ما لم يكن هناك وعد ووعيد وترغيب وترهيب ، فهذا النوع من اللطف قد وقع موقع النقاش بين المتكلمين .

والحق هو القول بوجوب اللطف إذا كان غرض التكليف (لا غرض الخلقة) ، موقوفاً عليه عند الأكثرية الساحقة من المكلفين .

مثلاً : لو فرضنا أن غالب المكلّفين ، لا يقومون بتكاليفهم بمجرد سماعها من الرسل ـ وإن كانوا قادرين عليها ـ إلّا إذا كانت مقرونة بالوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، وجب على المكلِّف القيام بذلك صوناً للتكليف عن اللَّغْوية . ولو أهملها المكلِّف ترتب عليه بطلان غرضه من التكليف ، وبالتالي بطلان غرضه من الخلقة .

وفي الكتاب والسنة إشارات إلى هذا النوع من اللُّطف . يقول سبحانه : ﴿ وَبَلَوْناهُمْ بالحَسَناتِ والسَّيئاتِ لعَلَّهُمْ يَرْجِعونَ ﴾[1] .

والمراد من الحسنات والسيئات ، نعماء الدنيا وضراؤها وكأن الهدف من ابتلائهم بهما هو رجوعهم إلى الحق والطاعة .

ويقول سبحانه : ﴿ وما أَرْسَلْنا في قَريةٍ من نَبِيٍّ إلّا أخذنا أهلها بالبأساءِ والضَرّاءِ لعلهم يَضَّرَّعون ﴾[2] . وفي الآية إشارة إلى كلا القسمين من اللطف ، ومفاد الآية أن الله تعالى أرسل رسله لإبلاغ تكاليفه تعالى إلى العباد وإرشادهم إلى طريق الكمال (اللّطف المحصِّل) ، غير أن الرَّفاه والرَّخاء والتوغل في النعم المادية ، ربما يسبب الطغيان وغفلة الإنسان عن هدف الخلقة

---

(١) سورة الاعراف : الآية ١٦٨ .

(٢) سورة الاعراف : الآية ٩٤ .

وإجابة دعوة الأنبياء ، فاقتضت حكمته تعالى أخذهم بالبأساء والضراء ، لعلهم يضرعون ويبتهلون إلى الله تعالى[1] .

ولاجل ذلك نشهد أن الأنبياء لم يكتفوا بإقامة الحجة والبرهان ، والإتيان بالمعاجز ، بل كانوا ـ مضافاً إلى ذلك ـ مبشرين ومنذرين . وكان الترغيب والترهيب من شؤون رسالتهم ، قال تعالى : ﴿ رُسُلاً مبشّرين ومُنْذرينَ ﴾[2] . والإنذار والتبشير دخيلان في رغبة الناس بالطاعة وابتعادهم عن المعصية .

وفي كلام الإمام علي عليه السلام إشارة إلى هذا ، قال عليه السلام : « أيها الناس ، إن الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه أراد أن يكونوا على آداب رفيعة وأخلاق شريفة ، فعلم أنهم لم يكونوا كذلك إلا بأن يعرّفهم مالهم وما عليهم ، والتعريف لا يكون إلا بالأمر والنهي[3] . والأمر والنهي لا يجتمعان إلا بالوعد والوعيد ، والوعد لا يكون إلا بالترغيب ، والوعيد لا يكون إلا بالترهيب ، والترغيب لا يكون إلا بما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم ، والترهيب لا يكون إلا بضد ذلك . . . الخ »[4] .

وقوله عليه السلام : « والأمر والنهي لا يجتمعان إلاّ بالوعد والوعيد » ، إشارة إلى أنّ امتثال الأمر والنهي ونفوذهما في نفوس الناس يتوقف على الثواب والعقاب ، فلولاهما لما كان هناك حركة إيجابية نحو التكليف إلاّ من العارفين الذين يعبدون الله تعالى لا رغبة ولا رهبة ، بل لكونه مستحقاً للعبادة .

فتحصّل من ذلك أنّ ما هو دخيل في تحقق الرغبة بالطاعة ، والإبتعاد عن المعصية ، في نفوس الأكثرية الساحقة من البشر ، يجب على الله سبحانه القيام به صوناً للتكليف عن اللغو ، وبالتالي صوناً للخلقة عن العبث .

---

(١) لاحظ الإلهيات ، ج ١ ، بحث البلايا والمصائب والشرور وكونه حكيماً ، ص ٢٧٣ ـ ٢٨٦ .

(٢) سورة النساء : الاية ١٦٥ .

(٣) هذا إشارة إلى اللطف المحصل .

(٤) بحار الأنوار ، ج ٥ ، كتاب العدل والمعاد ، الباب الخامس عشر ، الحديث ١٣ ، ص ٣١٦ .

نعم إذا كانت هذه المباديء كافية في تحريك الأكثرية ، نحو الطاعة ، ولكن القليل منهم لا يمتثلون إلاّ في ظروف خاصة ، كاليسر في الرزق ، أو كثرة الرفاه ، فهل هو واجب على الله سبحانه ؟ .

الظاهر لا ، إلا من باب الجود والتفضل .

وبذلك يعلم أن اللطف المقرب إذا كان مؤثراً في رغبة الأكثرية بالطاعة وترك المعصية يجب من باب الحكمة .

وأما اذا كان مؤثراً في آحادهم المعدودين ، فالقيام به من باب الفضل والكرم .

وبذلك تقف على مدى صحة ما استدل به بعضهم على اللطف في المقام ، أو سقمه .

استدل القاضي عبد الجبار على وجوب اللطف بقوله : « إنه تعالى كلّف المكلّف ، وكان غرضه بذلك تعريضه إلى درجة الثواب ، وعلم أن في مقدوره ما لو فعل به لاختار عنده الواجب ، واجتنب القبيح ، فلا بد من أن يفعل به ذلك الفعل وإلا عاد بالنقض على غرضه ، وصار الحال فيه كالحال في أحدنا إذا أراد من بعض أصدقائه أن يجيبه إلى طعام قد اتخذه ، وعلم من حاله أنه لا يجيبه ، إلا اذا بعث إليه بعض أعزته من ولد أو غيره ، فإنه يجب عليه أن يبعث ، حتى إذا لم يفعل عاد بالنقض على غرضه . وكذلك ها هنا »[1] .

وقال العلامة الحلي : « إن المكلِّف (بالكسر) إذا علم أن المكلَّف لا يطيع إلا باللطف ، فلو كلفه من دونه كان ناقضاً لغرضه ، كمن دعا غيره إلى طعام ، وهو يعلم أنه لا يجيبه إلا أن يستعمل معه نوعاً من التأدّب ، فإن لم يفعل الداعي ذلك النوع من التأدب كان ناقضاً لغرضه ، فوجوب اللطف يستلزم تحصيل الغرض »[2] .

---

(١) شرح الاصول الخمسة ، ص ٥٢١ .

(٢) كشف المراد ، الفصل الثاني ، المسألة التاية عشرة ، ص ٣٢٥ ، ط قم ١٤٠٧ .

وقال الفاضل المقداد : « إنا بيّنّا أنه تعالى مريد للطاعة وكاره للمعصية ، فإذا علم أن المكلف لا يختار الطاعة ، أو لا يترك المعصية ، أو لا يكون أقرب الى ذلك إلا عند فعل يفعله به ، وذلك الفعل ليس فيه مشقة ولا غضاضة ، فإنه يجب في حكمته أن يفعله ، إذا لو لم يفعله لكشف ذلك ; إما عن عدم إرادته لذلك الفعل ، وهو باطل لما تقدم ، أو عن نقض غرضه ، إذا كان مريداً له ، لكن ثبت كونه مريداً له فيكون ناقضاً لغرضه .

ويجري ذلك في الشاهد مجرى من أراد حضور شخص إلى وليمة ، وعرف أو غلب على ظنه أن ذلك الشخص لا يحضر إلا مع فعل يفعله ، من إرسال رسول أو نوع أدب أو بشاشة أو غير ذلك من الأفعال ، ولا غضاضة عليه في فعل ذلك فمتى لم يفعل عُدّ ناقضاً لغرضه .

ونقض الغرض باطل ، لأنه نقص ، والنقص عليه تعالى محال ، ولأن العقلاء يعدونه سَفَهاً وهو ينافي الحكمة »[1] .

وهذه البيانات تدل على أن اللطف واجب من باب الحكمة .

هذا كلام القائلين بوجوب اللطف ، وهو على اطلاقه غير تام ، بل الحق هو التفصيل بين ما يكون مؤثراً في تحقق التكليف بشكل عام بين المكلفين ، فيجب من باب الحكمة ، والاّ فيرجع إلى جوده وتفضله من دون إيجاب عليه .

واستدل القائل بعدم وجوبه بقوله : « لووجب اللطف على الله تعالى لكان لا يوجد في العالم عاصٍ ، لأنه ما من مكلف إلا وفي مقدور الله تعالى من الألطاف ما لو فعله به لاختار عنده الواجب واجتنب القبيح ، فلما وجدنا في المكلفين من أطاع وفيهم من عصى ، تبين أن الألطاف غير واجبة على الله تعالى »[2] .

يلاحظ عليه : إن هذا وجوده ، وعدم وجوده دليلاً على عدم وجوبه ،

---

(١) ارشاد الطالبين ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

(٢) شرح الاصول الخمسة ، ص ٥٢٣ .

المستدل لم يقف على حقيقة اللطف ، ولذلك استدل بوجود العصاة على عدم وجوبه ، فهو تصور أن اللطف عبارة عما لا يتخلف معه المكلف عن الإتيان بالطاعة وترك المعصية ، فنتيجته كون وجود العصيان دليلاً على عدم وجوده ، وعدم وجوده دليلاً على عدم وجوبه ، مع أنك قد عرفت في أدلة القائلين به بأنه ما يكون مقرباً إلى الطاعة ومبعّداً عن المعصية من دون أن يبلغ حد الإلجاء .

يقول القاضي عبد الجبار بأن العباد على قسمين ، فإن فيهم من يعلم الله تعالى من حاله أنه إن فعل به بعض الأفعال كان عند ذلك يختار الواجب ويتجنب القبيح ، أو يكون اقرب الى ذلك . وفيهم من هو خلافة حتى إنْ فَعَلَ به كُلَّ ما فعل لم يختر عنده واجباً ولا اجتنب قبيحاً [١] .

ويؤيده ما ورد في الذكر الحكيم من أن هناك أُناساً لا يؤمنون ابداً ولو جاءهم نبيهم بكل أنواع الآيات والمعاجز .

قال سبحانه : ﴿ وما تُغني الآياتُ والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون ﴾[٢] .

وقال سبحانه : ﴿ ولئن أتيتَ الذين أُوتو الكتابَ بكلِّ آيةٍ ما تَبِعوا قِبْلَتَك ﴾[٣] .

وفي الختام ، نقول : إن اللطف سواء أكان المراد منه اللطف المحصِّل أو اللطف المقرّب ، من شؤون الحكمة ، فمن وصفه سبحانه بالحكمة والتنزّه عن اللغو والعبث ، لا مناص له عن الإعتقاد بهذه القاعدة ، غير أنّ القول بوجوب اللطف في المحصّل أوضح من القول به في المقرّب .

ولكن يظهر من الشيخ المفيد أن وجوب اللطف من باب الجود والكرم ، قال : « ان ما اوجبه أصحاب اللطف من اللطف ، إنما وجب من جهة الجود

(١) شرح الاصول الخمسة ، ص ٥٢٠ .

(٢) سورة يونس : الاية ١٠١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٤٥ .

والكرم ، لا من حيث ظنوا أن العدل أوجبه ، وأنه لو لم يفعل لكان ظالماً »[1]

يلاحظ عليه : إن إيجابه من باب الجود والكرم يختص باللطف الراجع إلى آحاد المكلفين ، لا ما يرجع إلى تجسيد غرض الخلقة أو غرض التكليف عند الأكثرية الساحقة من المكلفين ، كما عرفت .

ثم إن المراد من وجوب اللطف على الله سبحانه ، ليس ما يتبادر إلى اذهان السطحيين من الناس ، من حاكمية العباد على الله ، مع أن له الحكم والفصل ، بل المراد إستكشاف الوجوب من أوصافه تعالى ، فإن أفعاله مظاهر لأوصافه تعالى ، كما أن أوصافه مظاهر لذاته تبارك وتعالى .

فإذا علمنا ـ بدليل عقلي قاطع ـ أنه تعالى حكيم ، استتبع ذلك واستلزم العلم بأنه لطيف بعباده ، حيثما يبطل غرض الخلقة أو غرض التكليف ، لو لا اللطف .

* * *

---

(١) اوائل المقالات ، ص ٢٥ ـ ٢٦

أدلة منكري بعثة الأنبياء

الدليل الاول .

إن الرسول إما أن يأتي بما يوافق العقول أو بما يخالفها . فإن جاء بما يوافق العقول ، لم يكن إليه حاجة ، ولا فائدة فيه . وإن جاء بما يخالف العقول ، وجب ردّ قوله .

وبعبارة أخرى : إنّ الذي يأتي به الرسول لا يخلو من أحد أمرين : إمّا أن يكون معقولاً ، وإمّا أن لا يكون معقولاً .

فإن كان معقولاً ، فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول اليه ، فأي حاجة لنا إلى الرسول . وإن لم يكن معقولاً ، فلا يكون مقبولاً . إذ قبول ما ليس بمعقولٍ ، خروجٌ عن حدّ الإنسانية ودخولٌ في حريم البهيمية .

والجواب :

إن حصر ما يأتي به الرسول بموافق العقول ومخالفها ، حصر غير حاصر . فإن ها هنا شقاً ثالثاً وهو إتيانهم بما لا يصل إليه العقل بالطاقات الميسورة له . فإنك قد عرفت فيما أقمنا من الأدلة على لزوم البعثة ، أن عقل الإنسان وتفكّره قاصر عن نيل الكثير من المسائل ، فلاحظ .

الدليل الثاني :

قد دلّ العقل على أن الله تعالى حكيم ، والحكيم لا يتعبّد الخلق الاّ بما تدل عليه عقولهم ، وقد دلّت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً ، وأنه أنعم على عباده نعماً توجب الشكر . فننظر في آيات خلقه بعقولنا ، ونشكره بآلائه علينا . وإذا عرفناه وشكرنا له ، إستوجبنا ثوابه . وإذا أنكرناه وكفرنا به ، إستوجبنا عقابه . فما بالنا نتّبع بشراً مثلنا ؟ ! . .

والجواب :

إن قسماً من هذا الدليل تكرار للدليل الأول . وأما ما أُفيد في ذيله من وقوف الأنسان على حسن الشكر وقبح الكفر ، فهو وإن كان صحيحاً ، غير أنه يلاحظ عليه أمران :

الاول : إن كثيراً من الناس لا يعرفون كيفية الشكر . فربما يتصورون أن عبادة المقرَّبين نوع شكر للّه سبحانه . فلأجل ذلك ترى عبدة الاصنام والاوثان يعتقدون أن عبادتهم للمخلوق شيئاً موجباً للتقرّب[1] .

الثاني - إنَّ تخصيص برامج الأنبياء بالأمر بالشكر والنهي عن كفران النعمة ، غفلة عن اهدافهم السامية . فإنهم جاؤوا لإسعاد البشر في حياتهم الفردية والاجتماعية ، ولا تختص رسالتهم بالأوراد والأذكار الجافة ، كتلك التي يرددها أصحاب بعض الديانات أيام السبت والأحد في البيع والكنائس . وإنك لتقف على عظيم أهداف رسالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إذا وقفت على كلمته المأثورة :

« إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة »[2] .

---

(١) قال تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ والذين اتّخذوا من دونه أولياء ، ما نَعْبُدُهُمْ إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلفى ﴾ (سورة الزمر : الآية ٣)

(٢) - تاريخ الطبري ج ٢ ، ص٦٣ قاله النبي عند دعوة اقاربه إلى الاسلام ، طبعة بيروت .

الدليل الثالث :

قد دلّ العقل على أن للعالم صانعاً حكيماً ،والحكيم لا يتعبدّ الخلق بما يَقْبُح في عقولهم . وقد وردت أصحاب الشرائع بمستقبحات من حيث العقول ، كالتوجه إلى بيت مخصوص في العبادة ، والطواف حوله ، والسعي ، ورمي الجمار ، والإحرام ، والتلبية ، وتقبيل الحجر الأصمّ . وكذلك ذبح الحيوان ، وتحريم ما يكون غذاءً للإنسان ، وتحليل ما يُنقص من بنيته .

والجواب :

ان هذا الدليل مبني على الجهل بمصالح الأحكام ومفاسدها . ولذلك زعم هذا المنكر أن ما جاء في شريعة الإسلام من حج بيت الله الحرام بآدابه الكثيرة ، أمر على خلاف العقل . ولكن الدارس لفلسفة الحج ، يقف على عظيم المصالح والمنافع التي يتضمنها ، والمجال لا يسمح باستقصائها ، إلاّ انا نشير بايجاز إلى بعضها .

فالتوجه الى البيت ، رمز الوحدة بين المسلمين في جميع أقطار المعمورة ، ولو تعددت وجهاتهم في أداء مراسمهم العبادية ، لسادت الفوضى فيهم ووقع الإنشقاق بينهم في القطر الواحد فضلاً عن سائر الأقطار .

والسعي بين الصفا والمروة تجسيد لعمل تلك المرأة البارّة التي سعت بين الجبلين سبع مرات طلباً للماء لطفلها الظمآن ، حتى حصّلته . فجعل الباري سبحانه مواطيء أقدامها محلاً للعبادة .

ورمي الجمار تجسيد لرمي الشيطان ، فبما أن الشيطان لا يقع في أُفق الحسّ حتى نرجمه ، فنجسد وجوده في نقاط خاصة تمثّل فيها لإبراهيم عليه السلام ، فنرجمها ظاهراً ،ولكن الهدف رمي الشيطان باطناً ،وإبعاده عن حريم النفس والروح .

واستلام الحجر الأسود ، تعاهدٌ مع إبراهيم عليه السلام في السعي على خطاه لإقامة التوحيد وهدم أركان الوثنية . فبما أن إبراهيم قد لبّى دعوة ربّه ،

وليس بين ظهرانينا حتى نبايعه على ذلك مباشرة ، نبايعه بآثاره . وهذا أشبه ما يكون بتقبيل الجيوش راية بلادها ـ مع أنه ليس إلاّ كسائر الأقمشة ـ وما هـو الاّ إبرازٌ للتعهد على حفظ البلاد ، وضمان أمنها واستقلالها .

وهكذا الحال في بقية المراسم العبادية ، والواجبات والمنهيات الشرعية . وقد كشف العلم الحديث عن الفوائد العظيمة التي تشتمل عليها بعض الواجبات الشرعية كالصوم . والمضار الكبيرة التي تشتمل عليها بعض المنهيات الشرعية كأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وغيرهما .

قال القاضي عبد الجبار في ردّ هذا الدليل : « إن مجرد الفعل لا يمكن أن يُحكم عليه بالقبح والحسن ، حتى لو سألنا سائلٌ عن القيام هل يقبح أم لا ، فإنه مما لا يمكننا إطلاق القول في الجواب عن ذلك ، والجواب أن نقيّد ، فنقول : إنْ حصل فيه غرض وتعرّى عن سائر وجوه القبح ، حَسُنَ ، وإلاّ كان قبيحاً ، هذا .

وإذا كان هكذا ، وكنا قد علمنا بقول الرسول المصدَّق بالمعجز أنّ لنا في هذه الأفعال مصالح وألطافاً ، فكيف يجوز أن يحكم فيها بالقبح ؟ .

ويبين ذلك ويوضحه أنا نستحسن القيام في كثير من الحالات ، نحو أن يكون تعظيماً لصديقٍ أو يتضمن غرضاً من الأغراض ، وكذلك القعود إذا تضمّن انتظار الرفيق ، وكذلك الركوع ، والسجود ، والمشي ، والكلام ، والطواف ، وغير ذلك ، فما من شيء من هذه الأفاعيل إلاّ ولها وجه في الحسن إذا تعلّق به أدنى غرض »[1] .

الدليل الرابع :

إن أكبر الكبائر في الرسالة ، اتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس

---

(١) شرح الأصول الخمسة ـ ص ٥٦٦ .

والعقل ، يأكل مما تأكل ، ويشرب مما تشرب . . . . فأي تميّز له عليك ؟ وأي فضيلة أوجبت استخدامك ؟ وما دليله على صدق دعواه ؟[1]

والجواب :

ليس هذا المذكور في الدليل بشيء مستحدث ، بل هذا ما كان المشركون يكررونه على ألسنتهم معترضين على رسلهم ، كما ذكره تعالى في الكتاب الكريم .

قال تعالى : ﴿ . . . وأَسَرّوا النَّجْوىٰ الذينَ ظَلَموا : هل هذا إلاّ بَشَرٌ مثلُكُم . . . ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وقالَ المَلَأُ من قَوْمِه الذين كَفَروا وكذّبوا بلقاءِ الآخرةِ وأتْرَفْناهُمْ في الحياةِ الدنيا : ما هذا إلّا بَشَرٌ مثلُكُمْ ، يأكُلُ ممّا تأكلونَ مِنْهُ ، وَيَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إنكم إذاً لخاسرون ﴾[3] .

ولكن الرسل قابلتهم بالجواب ، وصدّقتهم بأنّهم مثلهم في الجسم والصورة ، لكنهم غيرهم في المعرفة والكمال الروحي ، لصلتهم بالله سبحانه دونهم ، واطلاعهم على الغيب بإذنه سبحانه .

قال عزّ من قائل :

﴿ قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إنْ نَحْنُ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُم ، ولكِنَّ الله يَمُنُّ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وما كانَ لَنا أنْ نَأْتِيَكُم بسلطانٍ إلاّ بإِذْنِ الله ، وعلى الله فَلْيتوكَّلِ المؤمنونَ ﴾[4] .

---

(١) انظر للوقوف على مدارك أدلة البراهمة ، الملل والنحل للشهرستاني ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، طبعة مصر ، وكَشْف المراد ، للعلامة الحلي ، ص ٢١٧ ، طبعة صيدا . شرح التجريد ، لنظام الدين القوشجي ، ص ٤٦٣ ، طبعة إيران .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٣ .

(٣) سورة المؤمنون : الآيتان ٣٣و٣٤ .

(٤) سورة ابراهيم : الآية ١١ .

وقد أمر الله تعالى رسوله أنْ يواجه هذا المنطق بقوله : ﴿ قُلْ إنّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يُوحى إليّ ﴾[1]

فالجملة الأولى ، وهي الإتحاد في البشرية ، إشارة إلى أحد ركني الرسالة ، وهو لزوم المسانخة التامة بين المُرْسَل ـ بالفتح ـ والمُرْسِل إليه .

وقوله : ﴿ يُوحى إليّ ﴾ ، إشارة إلى وجه الفرق بينهما ، وأنّه لأجل نزول الوحي عليه يجب اتباعه وإطاعته .

وبذلك يظهر تميّز الأنبياء وفضيلتهم وتقدمهم على غيرهم .

وأمّا دليلهم على صدق ادعاءاتهم ، فسيوافيك في البحث الثاني أنّ هناك طرقاً ثلاثة لتمييز النبي الصادق عن المتنبيء الكاذب .

وإلى هنا يتمّ الكلام في البحث الأول وهو تحليل حسن بعثة الأنبياء ولزومها ، ونقض ما يثار حولها من الشبهات . وقد حان وقت الشروع بالبحث الثاني ، وهو بيان الطرق التي يعرف بها صدق مدّعي النبوة .

* * *

(١) سورة فصلت : الآية ٦ .

مباحث النبوة العامة

(البحث الثاني)

ما تثبت به دعوى النبوة

لا تجد إنساناً سالماً في نفسه وفكره ، يقبل ادعاءات الآخرين بلا دليل يثبتها . وهذا أمر بديهي فطري جبل الإنسان عليه. وفي هذا الصدد يقول الشيخ الرئيس في كلمته المشهورة :

« من قبل دعوى المدعي بلا بيّنة وبرهان ، فقد خرج عن الفطرة الإنسانية » .

وعلى هذا ، يجب أن تقترن دعوى النبوة بدليل يثبت صحتها ، وإلاّ كانت دعوى فارغة ، غير قابلة للإذعان والقبول .

طرق التعرّف على صدق الدعوى

إنّ هنا طرقاً ثلاثة للوقوف بنحو قاطع على صدق مدّعي النبوّة في دعواه ، وهي :

أ ـ الإعجاز .

ب ـ تصديق النبي السابق نبوة النبي اللاحق .

ج ـ جمع القرائن والشواهد من حالات المدّعي ، وتلامذته ، ومنهجه ، بحيث تفيد العلم بصدق دعواه ـ وهذا الطريق من أحسن الطرق في عصرنا هذا .

ولنبدأ باستعراض هذه الطرق الواحدة تلو الأخرى .

طرق إثبات النبوة

(١)

الإعجـــاز

إتفق المتكلمـون قاطبـة على أنّ الإعجـاز دليـل قـطعي عـلى صـدق مـدّعي النبوة ، وصلته بالخالق تعالى . ولما كان الإعجاز من المسائل المهمـة في باب النبـوة ، استدعى ذلك بسطاً في الكلام ، فيقع البحث عن الجهات التالية :

الجهة الأولى ـ ما هي حقيقة الإعجاز وكيف نعرّفه ؟ .

الجهة الثانية ـ هل الإعجاز يخالف القوانين العقلية ؟ .

الجهة الثالثة ـ ما هي العلة المحدثة للمعجزة ؟ .

الجهة الرابعة ـ هل الإعجاز يضعضع أصول التوحيد ؟ .

الجهة الخامسة ـ كيف يفسّر المتجدّدون من المسلمين معجزات الأنبياء ؟ .

الجهة السادسة ـ كيف يعدّ الإعجاز دليلاً على صدق دعوى النبوة ؟ .

الجهة السابعة ـ هل حرم الإنسان المعاصر من المعاجز والكرامات ؟ .

الجهـة الثامنـة ـ بماذا تميّـز المعجـزة عن سـائـر خـوارق العـادات كـالسحـر والكهانة ؟ .

هـذه رؤوس المطالب المهمــة في هـذا البحث ، وإذا وقف البـاحث عــلى أجوبتها ، تتجلى عنده المعجزة بصورة دليـل قاطـع على صـدق مدعي النبـوة ، كما

يتبيّن لـه أنّ القـول بـالإعجـاز ممّـا يؤيـده العلم والفلسفـة ، وليس وليـد الـوهم والجهل . وإليك فيما يلي البحث عنها ، الواحدة تلو الأخرى .

* * *

الجهة الأولى

تعريف المعجــزة

المشهــور في تعـريف المعجــزة أنّها[1] : « أمـر خــارق للعـادة ، مقــرون بالتحدي ، مع عدم المعارضة »[2] .

وبما أنّ الإعجاز يفـارق الكرامـة في أنّ الأول يكون مقـروناً بـدعوى النبـوة بخلاف الكرامـة ، فيجب أن يضاف قيـد : « مع دعـوى النبوة » إلى التعـريف ، ولعلهم استغنوا عنه بقيد « التحدي » . وإليك توضيح هذا التعريف .

١ ـ الإعجاز خارق للعادة وليس خارقاً للعقل

إنّ هناك من الأمور ما تعدّ خارقة للعقل ، أي مضادة لحكم العقل الباتّ ، كـاجتماع النقيضـين وارتفاعهـما ، ووجود المعلول بـلا علّة ، وانقسام الثـلاثـة إلى عددين صحيحين . . . فإنّ هذه أمور يحكم العقل باستحالتها وامتناع تحققها .

---

(١) شرح التجريد ، لنظام الدين القوشجي ، ص ٤٦٥ .

(٢) وقد عرف المحقق الطوسي الإعجاز بقوله : « هو ثبوت مـا ليس بمعتاد ، أو نفي مـا هو معتـاد ، مع خـرق العادة ومـطابقة الـدعوى » ، (كشف المـراد ص ٢١٨ ، طبعـة صيـدا ـ ١٣٥٣ هـ) . ولا تخفى المناقشة في هذا التعريف لزيادة قوله مع « خرق العادة » ، للاستغنـاء عنه بقـوله : « مـا ليس بمعتاد ، أو نفي ما هو معتاد » . أضف إلى ذلك أنّه ترك بعض القيود اللازمة فيه . والتعريف الذي ذكرناه أكمل منه .

وهناك أمور تخالف القواعد العادية ، بمعنى أنّها تعدّ محالاً حسب الأدوات والأجهزة العادية ، والمجاري الطبيعية ، ولكنها ليست أمراً محالاً عقلاً لو كان هناك أدوات أخرى خارجة عن نطاق العادة ، وهي المسماة بالمعاجز . ولأجل تقريب ما ذكرنا نمثّل ببعض الأمثلة :

مثال أول : جرت العادة على أنّ حركة جسم من مكان إلى مكان آخر تتحقق في إطار عوامل وأسباب طبيعية بدائية أو وسائل صناعية متحضرة . ولكن لم تعرف العادة أبداً حركة جسم كبير من مكان إلى مكان آخر بعيد عنه ، في فترة زمانية لا تزيدعلى طرفة العين ، بلا تلك الوسائط العادية . ولكن هذا غير ممتنع عقلاً ، إذ لا يمتنع أن تكون هناك أسباب أخرى لتحريك هذا الجسم الكبير ، لم يقف عليها العلم بعد .

ومن هذا القبيل قيام من أُوتي علماً من الكتاب بإحضار عرش بلقيس ، ملكة سبأ ، من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، في طرفة عين ، بلا توسط شيء من الأجهزة المادية المتعارفة ، بل بأسباب غيبية كان مطّلعاً عليها . فعمله هذا الخارق للعادة ، غير خارق للعقل لما ذكرنا ، وهو معجزة .

مثال ثان : إنّ معالجة الأمراض الصعبة كالسِّل والعَمَى ، أمر ممكن لذاته عقلاً ، ولكنه كان أمراً محالاً عادة في القرون السالفة ، لقصور علم البشر عن الوقوف على الأجهزة والأدوية التي تعيد الصحة إلى المسلول ، والبصر إلى الأعمى . ومع تقدم العلم تذلّلت الصعاب أمام معالجة هذه الأمراض ، فصار بإمكان الطبيب الماهر القيام بالمعالجة عن طريق الأدوية والعمليات الجراحية .

وفي المقابل هناك طريقة أخرى للعلاج ، وهي الدعاء والتوسّل إلى الخالق تعالى .

والعلاج ـ بكلا الطريقتين ـ يشترك في كونه أمراً ممكناً عقلاً ، غير أنّه يختلف في الطريقة الأولى عن الثانية ، بالطريق والسبب ، فالطبيب الماهر يصل إلى غايته بالأجهزة العادية ، فلا يعد عمله معجزة ولا كرامة ، والنبي ـ كالمسيح وغيره ـ يصل إلى نفس تلك الغاية عن طريق غير عادي ، فيسمى معجزة .

فالعمل في كلتا الصورتين غير خارق لأحكام العقل ، إلاّ أنّه موافق للعادة في الأولى دون الثانية .

وقس على ما ذكرنا كثيراً من الأمثلة يتميز فيها خارق العادة عن خارق العقل .

٢ ـ الإعجاز يجب أن يكون مقترناً بالدعوى

هذا هو القيد الثاني لتحديد حقيقة الإعجاز ، ويهدف إلى أنّ خَرْق العادة لا يسمى إعجازاً إلاّ بالإتيان به لأجل إثبات دعوى السفارة والنبوة ، فإذا تجرّد عنها يسمى كرامة .

وقد نقل سبحانه في الذكر الحكيم كرامة لمريم عليها السلام ، في قوله عزّ من قائل : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْها زَكرِيّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً ، قال يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذا ، قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللّهِ ، إنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ ﴾[1] .

وهذا الأمر (حضور الرزق بلا سعي طبيعي) لم يكن مقترناً بدعوى المقام والمنصب الرسالي ، فلا يوصف بالإعجاز بل بالكرامة . وهكذا الحال فيما يقوم به الأولياء والصلحاء من عظام الأمور الخارقة للعادة ، فإنّها توصف بالكرامة .

٣ ـ عجز الناس عن مقابلته

هذا هو القيد الثالث في تحديد حقيقة الإعجاز ، وهو ينحلّ إلى أمرين :

الأول ـ دعوة الناس إلى المقابلة والمعارضة ، وطلب القيام بمثله .

الثاني ـ عجز الناس كلهم عن الإتيان بمثله .

وإلى كلا الأمرين أشير في التعريف بلفظ « التحدي » . ويترتب على هذا أنّ

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣٧ .

ما يقومُ به كبارُ الأطباء والمخترعين من الأمور المعجبة ، خارجٌ عن إطار الإعجاز ، لانتفاء الأمرين فيهما . كما أنّ ما يقومُ به السحرة والمرتاضون من الأعمال المدهشة ، لا يُعَدّ معجزاً لانتفائهما أيضاً ، خصوصاً الأمر الثاني ، لقيام المرتاض الثاني بمثل ما قام به المرتاض الأول ، بل بأعظم منه .

٤ ـ أن يكون عمله مطابقاً لدعواه

لا بدّ من هذا القيد في صدق الإعجاز على فعل المدعي . فلو خالف ما ادّعاه لما سمّي معجزة ، وإن كان أمراً خارقاً للعادة . وذلك كما حصل مع مسيلمة الكذّاب عندما ادّعى أنّه نبي ، وآية نبوته أنّه إذا تفل في بئر قليلة الماء ، يكثر ماؤها : فتفل فغار جميع مائها .

وقد كان من أفاعيله ـ الدالّة على كذب دعواه ـ أنّه أمَرَّ يده على رؤوس صبيان بني حنيفة ، وحنّكهم ، فأصاب القرع كلّ صبيٍّ مَسَحَ على رأسه ، ولَثَغَ كُلُّ صبيٍّ حَنَّكَهُ[1] .

* * *

(١) لاحظ تفصيل هذه الوقائع في تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ .

الجهــة الثانيــة

هل الإعجاز يخالف أصل العليّة ؟

إنّ بديهة العقل تحكم بأنّ كلّ ظاهـرة إمكانيـة ، تحتاج في تحقّقِهـا إلى علّة ، وهذا أمر لم يختلف فيه إثنان ، وعليه أساسُ التجربة والبحث العلمي ، فإنّ العلماء ـ في المختبرات وغيرها ـ يبحثون عن علل تكوّن الظواهـر ، وموجـداتها ، فشـأنهم كشفُ الروابط بين العلل المادية ومعاليلها ، هذا من جانب .

ومن جـانب آخر ، إنّ الكتب السـماويـة ، والسِيَر التـاريخية ، تَنْسِبُ إلى الأنبيــاء ، أمـوراً لا تتفق بــظاهـرهــا مـع هــذا الأصـل ، فتنسب إلى مــوسى عليه السلام : أنّه ألقى عصاه الخشبية الصمّاء ، فانقلبت حيّةً تسعى . وأنّ المسيح عليـه السلام كـان يمسح بيـده على المرضى فيـبرؤن . وأنّ الحصى سبّحت في كفّ النبي الأعـظم صلى الله عليـه وآله ، وغـير ذلك من المعـاجز . والإعتقـاد بهـذه لا يجتمع مع قبول الأصل العقلي المذكور ، لأنّ الثعبان يتولد من البيضـة بعد مـرورها بمراحل عـديدة من الإنفعـالات الداخليـة . وإزالة المـرض وعود الصحـة ، رهن استعـمال الأدوية وإجـراء العمليات الجـراحيـة ، والتسبيـح نـوع تكلم يحتـاج إلى حنجرة وفم ولهوات ، يقوم به العاقل . وهكذا .

وعلى الجملة ، فظهـور المعاجـز على مسرح الـوجود ، مـع عدم علل مـادية تُظْهِرُها ، يُعَدُّ خرقاً لقانون العلية ، وقول بتحقق المعلول بلا علّة .

الجــواب

إنّ المعترض خَلَطَ بين عدم وجود العلّة المـادية التي اعتـاد عليها الإنسـان في حياته ، وعدم العلّة على الإطـلاق . فالـذي يناقض قـانون العلّيـة هو القـول بأنّ المعجـزة ظاهـرة إتفاقيـة لا تستند إلى علّة أبـداً . وهذا ممـا لا يقـول بـه أحــد من الإلهيين .

وأمّـا القول بعـدم وجود علّة مـادية متعـارفة للمعجـزة ، فليس هو بـإنكـار لقانون العلية على الإطلاق ونفياً للعلّة من الأساس ، وإنّما هو نفي دور وتأثير قسم خاص من العلل ، ونفي الخاص لا يكون دليلاً على نفي العام .

وهذا القسم الخاص من العلل ، المنفي في مورد المعجزة ، هو العلل الماديـة المتعارفة التي أنس بها الذهن ، ووقف عليها العالِم الطبيعي ، واعتاد الإنسـان على مشاهدتهـا في حياتـه . ولكن لا يمتنع أن يكـون للمعجزة علّة أخـرى لم يشاهـدها الناس من قبل ، ولم يعـرفها العلم ، ولم تقف عليـه التجربـة ، وبعبارة أخـرى ، كون المعجزة معلولاً بلا علّة شيءٌ ، وكونها معلولةً لعلّة غيرِ معروفةٍ للناس والعلمِ شيءٌ آخر . والباطل هو الأول ، والمُـدَّعى هو الثـاني ، وسيوافيـك الكلام فيـه في الجهة الثالثة .

* * *

الجهـة الثالثـة

ما هي العلةُ المحدثةُ للمعجزة ؟

قـد وقفت في الجهة السـابقة عـلى أنّ القـولَ بـالمعـاجـز لا يضعضـع أصـل العِلّيـة ، وأنّ عدم العلّة العـادية في مـوردها لا يـدلّ عـلى تحقق المعـاجـز بـلا علّة أصلاً ، بل لها علّة غير معروفة بين العلل التي يشاهدها الإنسان . والكلام في هذه الجهة يقع في تعيين تلك العلة ، وفيها أقوال واحتمالات :

القول الأول ـ إنّها الله سبحانه

ربمـا يحتمل أن تكـون العلّة هي الله سبحانـه ، وأنّه يقـوم بـإيجـاد المعـاجـز والكـرامات مبـاشرة من دون توسط علل وأسبـاب . فكما هـو أوجـد المـادة الأولى وأجـرى فيهـا عللاً وأنـظمـة ، قـام في فـترات خـاصـة بخلقِ الثعبـان من العصـا الخشبية ، وتفجير المـاء من الصخور الصَّـمّاء . . . وغير ذلـك من خوارق الـطبيعة والعادة .

ولكن هذا ـ وإن كان أمراً ممكناً ، لعمـوم قدرتـه تعالى عـلى كل شيء ممكنٍ بـذاته ـ إلاّ أنّـه على خـلاف ما عـرفناه من الـربّ تعالى من سنتـه التي أجـراهـا في الكون ، وهي أن يكون لكل شيءٍ سبباً وعلّة . ومن البعيـد أن يخالفـ تعـالى سنته في مجال المعاجز[١] .

---

(١) هذا ، على أنّ انتساب الحوادث المتجددة المتقضية بلا واسطة علل وأسباب ، إلى الله تعالى المُنَزّه عن =

القول الثاني - إنها علل مادية غير متعارفة

وهنا احتمال ثان ، وهو أن تكون العلّة المحدثة للمعجزة ، علة مادية غير متعارفة ، اطّلع عليها الأنبياء في ظلّ اتصالهم بعالم الغيب . ولا بُعْدَ في أن يكون للشيء علتان ، إحداهما يعرفها الناس ، والثانية يعرفها جمع خاص فيهم . ويمكن تقريب ذلك بملاحظة إثمار الأشجار ، فإنّ له علة مادية يعرفها الزارع العادي ، فتثمر في ظل تلك العلة بعد عدّة أعوام . وهناك خبراء من مهندسي الزراعة واقفون على خصوصيات في التربة والأشجار والبيئة والمياه وغير ذلك ، توجب إثمار الأشجار في نصف تلك المدة مثلاً . فإذا كان هذا ملموساً لنا في الحياة ، فلا نستبعد أن يقف الأنبياء المتصلون بخالق الطبيعة . على أسرار ورموز فيها ، يقدرون بها على إيجاد المعاجز .

ولكنه قول لا يدعمه دليل .

القول الثالث - إنها الملائكة والموجودات المجردة

وهنا احتمال ثالث وهو أنّ المعاجز تتحقق بفعل الملائكة - التي يعرّفها القرآن بـ « المدبرات »[1] ، بأمر منه سبحانه ، عند إرادة النبي إثبات نبوته بها[2] .

= التجدد والحدوث ، ممّا لا تتقبله الأصول الفلسفية المبتنية على لزوم وجود السنخية بين العلّة والمعلول ، سنخية ظلية لا توليدية . وهذا مفقود بينه سبحانه ، والزمان والزمانيات التي طبعت على التجدد والتقضّي . وهذا هو البحث الذي طرحه الفلاسفة عند بحثهم عن ارتباط الحادث بالقديم ، وهو من مشكلات البحوث الفلسفية .

ولا ينافي هذا عموم القدرة ، فإنّ عمومها أمر ثابت ومسلّم ، إلاّ أنّ الشيء ربما لا يقبل الوجود إلاّ عن طريق أسباب وعلل مادية ، أي يكون وجوده على نحو لا يتحقق إلاّ في ظل علل مادية . وهذا - من باب التقريب - كالأرقام الرياضية ، فإنّ العدد خمسة - بوصف أنّه خمسة - لا يتحقق إلاّ بعد تحقق الأربعة ، ويستحيل تحققه - بهذا الوصف - استقلالاً بلا تحقق آحاد قبله . وهذا كصدور الأكل من إنسان معين ، فإنّ الأكل يتوقف على وجود أسباب وأدوات مادية ، كالفم واللسان والأسنان ، وعملية المضغ ثم البلع . وهذا النوع من الفعل لا يمكن أن ينسب إلى الله سبحانه نسبة مباشرية ، وإنّما ينسب إليه دائماً نسبه تسبيبيّة ، لأنّ ماهيته محاطة بالأمور المادية .

(١) وهو قوله تعالى في سورة النازعات : ﴿ فالمدبِّرات أمراً ﴾ الآية ٥ .

(٢) ولعلّ من هذا القبيل تمثل الروح الأمين على السيدة مريم ، كما في قوله سبحانه : ﴿ فاتَّخَذَتْ من دُونِهِمْ حجاباً فَأَرْسَلْنا إليها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لها بَشَراً سَوِيّاً ﴾ (سورة مريم : الآية ١٧) .

القول الرابع ـ إنّها نفس النبي وروحُه

وذهب إلى هذا جمع من الفلاسفة والمحققين ، وإدراك صحته يتوقف على معرفة القدرة العظيمة التي تمتلكها النفس البشرية ، فنقول :

إنّ الإنسان كلّما ازداد توجهاً إلى باطنه ، وانقطاعاً عن الظواهر المادية المحيطة به ، كلما تفجّرت مكامن قدرات نفسه وتأجّج أوار طاقاتها ، وبالعكس ، كلما ازداد انغماساً في دركات الملذات ، وإشباع الغرائز ، كلما خمدت طاقاتها وانطفأت قدراتها .

ويدلّنا على ذلك عياناً ، ما يقوم به المرتاضون[1] من خوارق الأفعال وعجائبها : فيرفعون الأجسام الثقيلة التي لا يتيسر رفعها إلّا بالرافعات الآلية ، بمجرد الإرادة . ويستلقون على المسامير الحادة ثم تكسر الصخور الموضوعة على صدورهم ، بالمطارق ، ويدفنون في الأرض أياماً ، ليقوموا بعدها أحياءً . وغير ذلك مما يراه السائح في بلاد الهند وغيرها ، وتواتر نقله في وسائل الإعلام كالجرائد والمجلات والإذاعات . وكل ذلك دليل قاطع على أنّ في باطن الإنسان قوى عجيبة لا تظهر إلّا تحت شرائط خاصة .

وبعبارة واضحة ، إنّ نفس الإنسان كما تسيطر على أعضاء البدن ، فتنقاد لإرادتها ، وتتحرك قياماً وجلوساً بمشيئتها ، فكذلك تسيطر ـ في ظل تلك الظروف الخاصة ـ على موجودات العالم الخارجي ، فتقودها بإرادتها ، وتخضعها لمشيئتها ، وتَقْدِرُ ، بمجرد الإرادة ، على إبطال مفعول العلل المادية في مقام التأثير ، وغير ذلك من الأفعال .

وليس القيام بعجائب الأمور من خصائص المرتاضين ، بل إنّ هناك أُناساً مثاليين ، أفنوا أعمارهم في سبل العبادة ومعرفة الربّ ، بلغوا إلى حدّ قدروا معه على خرق العادة والمجاري الطبيعية .

---

(١) والرياضة هي التوجّه إلى الباطن والإنقطاع عن الظاهر .

يقول الشيخ الرئيس في هذا المجال : « إذا بلغك أنّ عارفاً أطاق بقوته فعلاً ، أو تحريكاً ، أو حركة تخرج عن وسع مثله ، فلا تتلقه بكل ذلك الإستنكار ، فلقد تجد إلى سببه سبيلاً في اعتبارك مذاهب الطبيعة . . . وإذا بلغك أنّ عارفاً حدّث عن غيب فأصاب ، متقدماً ببشرى أو نذير ، فصدّق ولا يتعسّر ن عليك الإيمان به ، فإنّ لذلك في مذاهب الطبيعة أسباباً معلومة »[1] .

ويقول صدر المتألّهين : « لا عجب أن يكون لبعض النفوس قوة إلهية ، فيطيعها العنصر في العالم المادي ، كإطاعة بدنه إياها . فكلّما ازدادت النفس تجرّداً وتشبّهاً بالمباديء القصوى ، إزدادت قوةً وتأثيراً فيما دونها .

فإذا صار مجرّدُ التصوّر سبباً لحدوث هذه التغيرات (طاعة البدن للنفس) في هيولى البدن ، لأجل علاقة طبيعية وتعلّق جبلّي لها إليه ، لكان ينبغي أن يؤثّر في هيولى العالم مثل هذا التأثير ، لأجل اهتزازٍ علويٍّ للنفس ، ومحبة إلهية لها ، فتؤثّر نفسه في الأشياء »[2] .

ويدلّ على أنّ خوارق العادة رهن فعل النفس الإنسانية ، ما ينقله تعالى من أفعال السحرة الواقعة بإذنه تعالى ، وذلك في قوله عزّ من قائل : ﴿ فَيَتَعَلَّمونَ منهما ما يُفَرِّقونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وما هُمْ بِضارّين بِهِ من أَحَدٍ إلاّ بإذن اللّهِ ﴾[3] .

وهناك من الآيات ما هو أصرح منها في نسبة الخوارق إلى أصحاب النفوس القوية ، كما ورد في أحوال سليمان النبي عندما طلب من الملأ إحضار عرش ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين قبل أن يأتوه مسلمين . فقال عفريت من الجن إنّه قادر على حمله والإتيان به قبل انفضاض مجلس سليمان ، ولكن مَنْ كان عنده عِلْمٌ من الكتاب قال إنّه قادر على الإتيان به قبل أن يرتد طَرْفُ سُلَيْمانَ إليه ، وبالفعل ، بأسرع من لمح البصر ، كان العرش ماثلاً أمامه .

---

(١) الإشارات والتنبيهات ، مع شرح المحقق الطوسي ج ٣ ص ٣٩٧ . وبعدها أخذ الماتن والشارح ببيان قدرة النفس على الأمور الخارقة للعادة .

(٢) المبدأ والمعاد ، ص ٣٥٥ ـ بتصرف .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٠٢ .

يقـول سبحانـه : ﴿ قَالَ يـا أَيُّها المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَـرْشِهَا قَبْـلَ أَنْ يَأْتـونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنا آتِيـكَ بِهِ قَبْـلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَـامِكَ وَإِنِّي عَلَيْـهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَـالَ الذي عِنْـدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتاب أَنـا آتِيكَ بِـهِ قَبْلَ أَنْ يَـرْتَدَّ إِلَيْـكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِراً عِنْدَهُ قَالَ هَذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي . . . ﴾[1] .

بعد هذا كلّه نقول : إذا كان هـذا حال الإنسـان العادي الـذي لم يطرق إلاّ باب الرياضة ، أو العارف الذي قـام بالفـرائض واجتنب المحرمـات ، فكيف بمن وقع تحت عناية الله سبحانه ورعايته الخاصة ، وتعليم ملائكته ، إلى أن بلغت نفسُه أعلى درجات القوة والمقدرة ، إلى حدّ يقدر ـ بـإرادة ربّانيـة ـ على خلع الصـور عن المواد وإلباسها صوراً أُخرى ، ويَصِيرَ عـالمُ المادة مـطيعاً لـه ، إطاعـة أعضاءِ بـدن الإنسان له .

وفي الذكر الحكيم إشارات إلى هذا المعنى حيث ينسب تعالى الإتيان بالمعجزة إلى نفس الـرسول بقـوله : ﴿ مـا كان لـرسول أن يَـأتيَ بآيـة إلاّ بـإذن الله ﴾[2] . فإنّ الفاعل في « يأتي » هو الرسول المتقدّم عليه .

وقد يؤيّد هـذا الإحتمال بمـا ورد في توصيف الأنبيـاء بأنّهم جنـد الله ، وأنّهم منصـورون في مسرح التحدي ومقـابلة الأعداء . قـال سبحانـه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾[3] . وكون النبي منصوراً في جميع المواضع ، ومنها مـواضع التحـدي ، يَدُلّ عـلى أنّ له دوراً ودخالة في الإتيان بخوارق العادات .

ونظير ذلك قـوله سبحـانه : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَـا وَرُسُلِي ﴾[4]، فوصف النبي صلى الله عليه وآله بكونه غالبـاً ، ولا معنى للغالبيـة إلاّ لدخـالته في مـواضع التحدي .

---

(١) سورة النمل : الآيات ٣٨ ـ ٤٠ .

(٢) سورة غافر : الآية ٧٨ .

(٣) سورة الصافات : الآيات ١٧١ ـ ١٧٣ .

(٤) سورة المجادلة : الآية ٢١ .

ولا دليل على اختصاص الآيتين بالمغازي والحروب ، بل إطلاقهما يـدلّ على كونهم منصورين وغـالبين في جميـع مواقـع المقابلة ، سـواء أكانت محـاجة أو تحـدّياً بالإعجاز ، أو حرباً وغزواً .

وهذا الفعل العظيم للنفوس ، إنّمـا يقع بـأمره تعـالى وتأييـده ، ولذا كـانت تحصل لهم الغلبة في موارد المجابهة ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَـالَ موسى مـا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ ٱللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(١) .

فهذه الآيات العامة المتقدمة ، تـدلّ بظهـورها عـلى كون الفـاعل للمعـاجز والكرامات ، نفوس الأنبياء وأرواحهم ، بإذن الله سبحانه .

وهنـاك آيات أخـرى خاصـة ، تسند إلى خصـوص بعض الأنبيـاء خـوارق العادة ، بل ائتمار الكون بأمرهم .

قـال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَـانَ ٱلرِّيـحَ عاصِفَـةً تَجْري بِـأَمْـرِهِ إلى الأَرْضِ التي بارَكْنا فِيها ، وَكُنّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ ﴾(٢) .

وأنْت إذا أمعنت في قـولـه :﴿ بـأمـره ﴾، ينكشف لـك الستـار عن وجـه الحقيقة ، ويظهر لك أنّ إرادته كانت نافذة في لطائف أجزاء الكون .

وقـال تعالى في المسيـح عيسى بن مريم : ﴿ إنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ ٱلـطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَأُبْرِءُ ٱلأَكْمَـهَ وَٱلأَبْرَصَ ، وَأُحْيِي ٱلْمَـوْتَى بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(٣) .

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِـإِذْني ، فَتَنْفُخُ فِيهـا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْني ، وَتُبْرِءُ ٱلأَكْمَهَ وَٱلأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾(٤) .

فترى أنّ الآية تنصّ على أنّ نفخ الروح في الهيكل الطيني للطير ، رهن طاقة

---

(١) سورة يونس : الآية ٨١ .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ٨١ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٩
(٤) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

المسيح البشرية ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، وكل ذلك بإذن الله تعالى ومشيئته .

وبعد هذا كله ، أيبقى شك في قدرة الأنبياء الشخصية على خرق العادة ، وتكييف الطبيعة حسب ما يريدون ؟ .

بل ماذا يفهم الإنسان إذا قرأ هذه الآية ـ التي تنقل مخاطبة يوسف عليه السلام إخوته ـ : ﴿ **إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً . . .** ﴾[1] .

والآية التالية تبين نتيجة أمره : ﴿ **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً . . .** ﴾[2] .

فما هو العامل المؤثر في استرجاعه بَصَرَهُ ، بعدما ابيضت عيناه من الحزن ؟ .

هل هو قميص الملطخ بالدم ؟ أو حامل البشارة والقميص ؟[3] .

ليس هذا ولا ذاك ، بل هو نفس إرادته الزكية المؤثرة بإذن الله ، وعندما تقتضي المصلحة الإلهية ذلك . وإنّما توسّل بالقميص ليعلم أنّه هو القائم بذلك .

فاتّضح من جميع ما ذكرناه من الآيات والشواهد أنّ للمعجزة علّةً إلهيةً متمثلةً في نفوس الأنبياء وإرادتهم القاهرة . وليست إرادتهم هذه فوضوية ، وإنّما لظهورها ظروف وشرائط خاصة سيأتي بيانها بإذنه تعالى .

* * *

(١) سورة يوسف : الآية ٩٣ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٩٦ .

(٣) في الروايات ، أنّ حامله كان أحد إخوته .

.الجهة الرابعة

هل الإعجاز يضعضع برهان النظم ؟

إنّ برهان النظم من أوضح الأدلة على أنّ العالم مخلوق لصانع عالم قادر . حيث إنّ النظام الدقيق السائد على كل ظاهرة وجزء من ظواهر الكون وأجزائه كاشف عن دخالة قدرة كبرى وعلم عظيم في تحققه وتكوّنه . **هذا من جانب** .

ومن جانب آخر ، إنّ المعجزات ـ كما تقدّم ـ خارقة للعادة والسنن السائدة في هذا النظام ، فهي تعدّ استثناء فيه ونوع مخالفة له . فالوليد الإنساني ـ مثلاً ـ يتكوّن بعد التقاء نطفة الرجل وبويضة المرأة ، فتتشكل منهما الخلية الإنسانية ، ثم تمرّ بعد ذلك بمراحل التفاعل والتكامل ، ليخرج بعدها من بطن الأم موجوداً سويّاً متكاملاً .

والقول بأنّ المسيح ـ عليه السلام ـ ولد بلا سيادة هذا النظام ، بل بمجرد نفخ الملَك في رحم مريم ـ عليها السلام خرق لذاك النظام ، وهو كاشف عن عدم كليته واطراده . أفبعد ذلك يمكن أن يستدلّ ببرهان النظم على وجود الصانع ؟ .

وبعبارة ثانية : إنّ النظم السائد على العالم كاشف عن دخالة المحاسبة والتقدير في تكوّن كل شيء إنساناً كان أو حيواناً ، أرضياً كان أو أثيرياً . ولكن خلق الثعبان فجأة من الخشب اليابس ، وخروج الناقة من الجبل الصخري الأصم ، وما شابه ذلك ، ينفي وجود المحاسبة في تكوّن تلك الظواهر .

والجـواب

إنّ المعترض لم يقف على أساس برهان النظم أولاً ، كـما لم يقف على حقيقـة الإعجاز وماهيته ثانياً . ولذلك اعترض بأنّ القول بالإعجاز يخالف برهان النظـم .

أمّـا الأول ، فلأنّ المعـترض تصوّر أنّ بـرهان الـنظم يبتني على وجـود نظم واحـد بالعـدد سائـد على الجميـع ، وقائم بمجمـوع الأشياء في العـالم ، بحيث لو شوهد خلاف النظم في جزء من أجزائه لبطل البرهان ، بحكم كونه واحداً بالعـدد غير قابل للانقسام .

ولكن الحقيقة خلاف ذلك ، فإنّ برهان النظم واحدِ بالنوع كثير بالعـدد . فهو يتمثّل ويتجسد في كل ذرة خاضعة في ذاتها للنظام . فتكون كل ذرة باستقلالهـا حاملةً لبرهان النظم والدلالةِ على وجود الصانع القـادر العليم ، من دون توقف في دلالتها على سيادة النظم في الذرّات الأخرى .

وفي الحقيقة ، إنّ برهان النظم يتكثر عدداً بتكثر الذرات والأجزاء والظواهر الخاضعة للنظام ، ولو فرض فقدان النظم في جزء وظاهرة ، أو أجزاء وظواهر ـ كما يدعيه المعترض في مجال الإعجاز ـ لكفى وجود النظم في سائر الأجزاء والـظواهر ، في إثبات الصانع ، وإلى هذا يهدف القائل :

وفي كـل شيء لـه آيـة   تـدل عـلى أنّـه واحـد

ففي كل خلية وعضو من الإنسان الـواحد يتجسـد برهـان النظم ، ويتكـثر بتكثرها . فكيف إذا لاحظنا مجموع البشر والمخلوقات والكواكب والمجرّات . وكما أنّ طغيان غُدَّة من النظام السائد على سائر الغدد في بدن الإنسـان ، كما هـو الحال في السرطان ، لا يضرّ ببرهان النظم القـائم بهذا الإنسـان ، فكذلـك الخروج عن النظام في مجال الإعجاز ، لأغراض تربوية ، ولهدايـة الناس إلى اتصـال النبي بعالم الغيب ، فإنّه لا يؤثّر شيئاً في برهان النظم من باب أولى .

وأمّا الثاني ، فلأنّ الإعجاز ليس من الأمور المتوفرة في حياة الأنبياء ، بحيث يكـون النبي مصدراً لـه في كل لحـظة وساعـة ويوم ، ويكـون خرق العـادة وهدم

النظام شغله الشاغل . وإنّما يقوم به الأنبياء في فترات خاصة وحساسة لغايات تربوية .

ثم إنّ النبي إذا أراد الإتيان بالمعجزة ، أَطْلَعَ الناس مُسْبَقاً على أنّه سيقوم بخرق العادة في وقت خاص . وهذا دالّ على وجود قوة قاهرة مسيطرة على العالم ، تقوم كلما شاءت واقتضت الحكمة والمصلحة القدسية ، بخرق بعض النظم والتخلّف عنها . فالعالم ، قَبْضُه وبَسْطُه ، وسنّ أنظمته وخرقها ، بيد خالقه ، يفعل ما يشاء حسب المصالح .

وخلاصة البحث أنّ الإعجاز ليس خرقاً لجميع النظم السائدة على العالم ، وإنّما هو خرق في جزء من أجزائه غير المتناهية الخاضعة للنظام والدالّة ببرهان النظم على وجود الصانع . وأيضاً ، إنّ قيام الأنبياء بالإعجاز إنّما يحصل بعد اقترانه بالإعلام المسبق ، حتى يقف الناظرون على أنّ خرق العادة وقع بإرادة ومشيئة القوة القاهرة المسيطرة على الكون والمجرية للسنن والأنظمة فيه .

هذا كلّه ، مع أنّ الإعجاز ، وإن كان خرقاً للسنن العادية ، إلاّ أنّه ربما يقع تحت سنن أخرى مجهولة لنا معلومة عند أصحابها ، فهي تخرق النظام العادي ، وتجري نظاماً آخر غير عادي ، لا يقلّ في نظمه عنه .

* * *

الجهة الخامسة

الإعجاز والمتجددون من المسلمين

الإيمان بالغيب عنصرٌ أساسيٌ في جميع الشرائع السماوية ، ولو انتزع هذا العنصر عن الدين الإلهي ، لأصبح دستوره دستوراً عادياً شبيهاً بالدساتير والأيديولوجيات المادية البشرية التي لا تمت إلى الخالق والمدبّر لهذا الكون بصلة . ولأجل ذلك نرى أنّه سبحانه يَعُدّ الإيمان بالغيب في طليعة الصفات التي يتّصف بها المتّقون إذ يقول ـ عزّ من قائل ـ : ﴿ **الّذينَ يُؤمِنونَ بالغَيْبِ ، وَيُقيمونَ الصَّلاةَ ، ومِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾(١) .

وقد كان أصحاب الشرائع وأنصارها ، وفي مُقدِّمتهم علماء الإسلام ، محتفظين بهذا الأصل ، معتصمين به أشدّ الإعتصام ، مؤكّدين عليه غاية التأكيد ، باعتبار أنّه الفارق الجوهري بينها ، وبين الأنظمة البشرية .

ولكن ، من جانب آخر ، إنّ الحضارة المادية الحديثة ، اعتمدت على الحسّ والتجربة ، وأعطت كل القيمة والوزن لما أيّدته أدوات المعرفة المادية .

وقد أدهشت هذه الحضارة ، جماعة من المفكرين المسلمين ، فوجدوا أنفسهم في صراع عنيف بين الإيمان بالغيب ، باعتباره عنصراً أساسياً في الدين ، ومباديء الحضارة المادية التي لا تَعْتَبِر إلاّ ما كان قائماً على الحسّ والتجربة ، فمن

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣ .

الجهة الأولى لم يجرؤا على إنكار ما هو خارج عن إطار أدوات المعرفة المادية ـ كالمعاجز ـ لأنّهم مسلمون ، ومن الجهة الثانية لم يتجرؤا على التصريح بوجود الملائكة والجن ، وبخرق المعاجز للسنن الطبيعية والأسباب المادية ، تحرزاً من رمي الماديين إيّاهم بالخرافة ، والإيمان بما لا تؤيّده التجربة ولا يثبته الحسّ .

ولأجل ذلك سلكوا طريقاً وسطاً ، وهو تأويل بعض ما جاء في مجال الغيب ، خصوصاً المعاجز والكرامات ، حتى يستريحوا بذلك من هجمة الماديين ، ويرضوا به طائفة المتدينين .

وممّن سلك هذا الطريق الشيخ محمد عبده[1] في مناره ، والطنطاوي[2] في جواهره ، وتلامذة منهجهما . فمن وقف على كلا التفسيرين في المواضع التي يُحدّث القرآن فيها عن معاجز الأنبياء وخوارق العادات ، يقف على أنّ الرجلين يسعيان بكل حول وقوة إلى تصوير الحوادث الإعجازية ، وكأنّها جارية على المجاري الطبيعية ، غيرُ مخالفةٍ أصول الحسّ والتجربة[3] .

بل ربما نرى أنّ بعض مُقْتَفي منهجهما ينكرون أنْ يكون للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله معجزة غير القرآن الكريم ، وقد تبعوا في نفي معاجزه ، قساوسة النصارى الذين يحاولون إنكار معاجز النبي الكريم ليتسنى لهم بذلك تفضيل سيدنا المسيح عليه السلام عليه أولاً ، وإنكار نبوته لكونه فاقداً للمعاجز ، ثانياً[4] .

---

(١) توفي سنة ١٣٢٣ هـ ق .

(٢) توفي سنة ١٣٥٨ هـ ق .

(٣) لاحظ مثلاً ما جاء في المنار ، ج ١ ، ص ٣٢٢ ، تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة البقرة : الآية ٥٦) .
وفيه أيضاً ، ج ١ ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ ، تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ . (سورة البقرة : الآية ٦٥) .
وفيه أيضاً ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، تفسير قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى . . . . ﴾ (سورة البقرة : الآية ٧٣) .
وغير ذلك من الموارد .

(٤) راجع للوقوف على كلمات القساوسة في هذا المجال ، كتاب « أنيس الأعلام » ، ج ٥ ، ص ٣٥١ .

وهم يتمسكون في هذا المجال بعدّة آيات[1] خفي عليهم المراد منها ، ونحن نكتفي في المقام بتفسير واحدة منها ، لم يزل يتمسك بها كل برّ وفاجر منهم ، وهي :

قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنا للناس في هذا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبى أَكْثَرُ الناسِ إلاَّ كُفوراً * وقالوا لن نُؤمِن لَكَ حتّى تَفْجُرَ لنا من الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً * أو تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً ، أو تَأْتِيَ باللَّهِ والملائِكَةِ قَبِيلاً * أو يكونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرقى إلى السماءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحانَ ربِّي . هَلْ كُنْتُ إلاَّ بَشَراً رسولاً ﴾[2] .

وقد استدلّ بها بعض القساوسة قائلاً : إنّ نبيَّ الإسلام لما طُولِبَ بالمعجزة ، أظهر العجز بقوله إنّه ليس إلاّ بشراً رسولاً .

إنّ تحليل هذا الإستدلال ونَقْدِهِ ، يَتَوَقَّفُ على دراسةِ كلٍّ واحدةٍ من المقترحات المذكورةِ في الآيات المتقدمة ، وهي :

١ ـ أنْ يَفْجُرَ لهم من الأرض يَنْبوعاً .

٢ ـ أن يكون للنبي جنّة من نخيل وعنب ، وتجري الأنهار خلالها بتفجير منه .

٣ ـ أن يُسقط السماء عليهم كسفاً .

٤ ـ أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً .

٥ ـ أن يكون للنبي بيت من زخرف .

٦ ـ أن يرقى النبي في السماء ، ولا يكفي ذلك في إثبات نبوته حتى يُنَزِّل عليهم كتاباً من السماء يقرؤوه .

---

(١) هي ثمانية عشرة آية ، تعرض لها الأستاذ ، دام ظله ، في موسوعته التفسيريّة مفاهيم القرآن ، ج ٤ ، ص ٩٥ إلى ١٥٤ .

(٢) سورة الإسراء : الآيات ٨٩ ـ ٩٣ .

هـذه هي مقـترحـات القـوم ، ونحن نجيب عليهـا بجـوابـين : إجمـاليٍّ وتفصيليٍّ :

إجمال الجواب عن هذه المقترحات ، أنّ النبي صلى الله عليه وآله إنّمـا لم يأت بهـا لعـدم استجـاعها لشرائط الإعجـاز ، إذ ليس القيـام بـالمعجـزة من الأمـور الفوضوية التي لا تخضع لشرط عقلي أو شرعي . وهذه المقترحات فاقدة لها .

تفصيل الجواب

أمّا الأول ، فإنّ سنة الله الحكيمة في الحياة البشرية إستقـرت على أن يصـل النـاس إلى معـايشهم ومـآكلهم ومشـاربهم عن طـريق السعي والجـد ، تكميـلاً لنفوسهم وتربية لعزائمهم .

فإذا كان مطلوب القوم أن يُفَجِّـر لهم النبي ينبوعـاً وعيناً لا ينضب مـاؤها ، ليستريحوا بذلك من عناء تحصيل الماء ، فهو على خلاف تلك السنة الحكيمة .

نعم ، ربما تقتضي بعض الظروف ـ كإبقاء حياة القوم ـ قيام النبي بذلـك ، كما فعل موسى عندما شكى إليه قومه الظمأ ، فاستسقى الله تعالى لهم ، فأوحى إليه أنْ يضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينـاً[1] ، ولكن مثل هـذا لا يعد نقضاً للسنة العامة ، كما أنّ الظروف في مكة لم تكن ظروفاً إضطرارية .

وأمّـا الثاني ، وهـو كون النبي مـالكـاً لجنـة من نخيـل وعنب يفجّـر الأنهار خلالها ، فليس هو طلباً للإعجاز ، وإنّما كانوا يستدلّون بوجـود الثروة عـلى عظمـة الرجل ، وبالفقر وفقدان المال والإملاق على حقارته ، ولذا قالوا ، كما يحكيه عنهم تعالى : ﴿ **لَوْلا نُزِّلَ هَذا القُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾[2] .

وعلى هذا ، فإجابة هذا الطلب يكون نوع اعتراف بهـذه المزعمـة ، إذ ليس هناك رابطة ، عقلية بين كون الرجل صاحب ثروة ، وكونه متصلاً بـالغيب . وإلاّ

---

(١) لاحظ سورة البقرة : الآية ٦٠ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣١ .

لوجب أن يكون أصحاب الثروات ، أنبياء إذا ادّعوا النبوة .

وأمّا الثالث ، وهو إسقاط السماء عليهم ، فإنّه يضاد هدف الإعجاز، لأنّ الغاية من خرق الطبيعة هداية الناس لا إبادتهم وإهلاكهم .

وأمّا الرابع ، وهو الإتيان بالله والملائكة ، فقد حكاه عنهم سبحانه في آية اخرى ، بقوله : ﴿ وَقَالَ الذينَ لا يَرْجُونَ لقاءَنا لَوْلا أُنْزِلَ عَلينا الملائكة أو نَرى ربَّنا ﴾(1) .

ومن المعلوم أنّ هذا المقترح ، أمر محال عقلاً ، وممتنع بالذات ، فكيف يقوم به النبي ؟! .

وأمّا الخامس ، وهو كونه صاحب بيت من زخرف ، فيُرَدُّ بما رُدَّ به الإقتراح الثاني .

وأمّا السادس ، وهو طلب رُقِيِّهِ إلى السماء وإنزال كتاب ملموس يقرؤونه ، فإنّ لحن هذا السؤال يدلّ على عنادهم وتعنتهم إذ لو كان الهدف هو الإهتداء ، لكفى طلبهم الأول ـ أعني رُقيّه إلى السماء ـ ولم تكن حاجة إلى الثاني ، ومن المعلوم أنّ النبيّ إنّما يقوم بالإعجاز لأجل الهداية والإرشاد إلى نبوته واتّصاله بعالم الغيب .

ومجموع هذه الأجوبة يوقفنا على أنّ النبيّ لَمْ يجب مطالبهم إمّا لأجل فقدان المقتضي أو لوجود المانع . وعلى ذلك أجاب بما أمره سبحانه أن يجيبهم به ، قائلاً : ﴿ سُبْحان رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَراً رَسُولاً ﴾ .

وهو في هذا الجواب يعتمد على لفظين : « بَشراً » و« رسولاً » . والمراد أنّ هذه الطلبات التي طلبتموها مني إمّا لكوني بشراً ، أو لكوني رسولاً . وعلى الأول فقدرة البشر قاصرة عن القيام بهذه الأمور ، وعلى الثاني ، فهو موقوف على إذنه سبحانه ، لأنّ الرسول لا يقوم بشيء إلاّ بإذن مُرْسِلِه ، وليس ها هنا إذن ، لعدم استجماع هذه الطلبات شرائط الإجابة(2) .

---

(1) سورة الفرقان : الآية ٢١ .

(2) وإذا أردت التفصيل ، فلاحظ « الميزان » ، ج ١٣ ، ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

وبالإجابة التي ذكرناها عن هـذه الآيات ، تقـدر على الإجـابة عن كثـير من الآيات التي اتّخذها نفاة المعجزة ذريعة لنظريتهم .

أضف إلى ذلك أنّه كيف يمكن لأحد أن ينكر معـاجز النبي الأكـرم صلى الله عليه وآله ، مع أنّ القرآن الكريم يخبر عن بعضها أولاً[٣] ، والسنّة متـواترة بهـا ، ثانياً .

وليس إنكار المعاجز وغيرها ممّا يرتبط بالغيب ـ كالملائكـة والجن ـ إلّا لفقدان الهوية الإسلامية ، واتّخاذ موقف الهزيمة في مقابل الهجـمات الماديـة ، التي أصبحت بحمد الله تعالى ، وبفضل بحوث العلماء الغيارى ، سراباً في صحراء .

* * *

(١) لاحظ في ذلك الآيات التالية :
سـورة آل عمران : الآيتـان ٦١ و ٨٦ ، سورة الأنعـام : الآية ١٢٤ ، سورة الإسراء : الآية ١ . سـورة الـروم : الآيـات ١ ـ ٣ ، سـورة الصـافـات : الآيتـان ١٤ ـ ١٥ ، سـورة القمـر : الآيات ١ ـ ٤ ، ولاحظ في تفصيل هذه الآيات ، مفاهيم القرآن ج ٤ ص ٧٥ .

الجهة السادسة

دلالةُ الإعجاز على صدق دعوى النبوّة

صفحات التاريخ تشهد على وجود أُناس ادّعوا السفارة من الله والإنباء عنه ، عن كذب وافتراء ، ولم يكن لهم متاع غير التزوير ، ولا هدف سوى السلطة والرئاسة .

ومن هنا كان لا بدّ من معايير وضوابط لتمييز النبي عن المتنبيء ، ومن جملتها تجهّز المدّعي بالإعجاز ، وإتيانه بخوارق العادة ، متحدياً بها غيره على وجه لا يقدر أحد على مقاومته ، حتى نوابغ البشر .

ويظهر من الآيات الواردة في القرآن الكريم أن طلب الإعجاز دليلاً على صدق المدّعي ، كان أمراً فطرياً ، يطلبه الناس من الأنبياء عند دعواهم النبوّة والسفارة الإلهية ، ولأجل ذلك لما ادّعى « صالح » عليه السلام ، النبوّة ، قوبل بجواب قومه : ﴿ ما أَنْتَ إلاَّ بَشَرٌ مثلُنا ، فَأْتِ بآيةٍ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[1] .

وقد يخبر الأنبياء الناس بتجهزهم بالمعاجز عند طرحهم دعوى النبوة ، قبل أن يطلبها الناس منهم ، كما قال موسى مخاطباً الفراعنة : ﴿ حَقيقٌ عليّ أنْ لا أَقولَ على الله إلاّ الحَقَّ ، قدْ جِئْتُكُمْ ببيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فأَرْسِلْ مَعِيَ بني إسرائيل * قالَ إنْ كُنْتَ جِئْتَ بآيةٍ فَأْتِ بها إنْ كُنْتَ مِنَ الصادقينَ ﴾[2] .

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٥٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ١٠٥ و١٠٦ .

وكما جاء في عيسى المسيح عليه السلام ، من قوله تعالى : ﴿ ورسولاً إلى بَني إسرائيلَ أَنّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[1] .

ولكن الكلام في وجه دلالة الإعجاز على صدق قول المدعي ، فهل هو دليل برهاني بحيثُ يكون بين المعجزة وصدق المدّعي رابطةٌ منطقيةٌ ، تستلزم الأولى معها ، وجود الثانية ؟ أو هو دليل إقناعي ، يرضي عامة الناس وسوادهم ويجلب اعتقادهم بصدق دعوى المدّعي ؟ .

هناك من يتخيل أنّ دلالة المعجزة على صدق دعوى النبي ، دلالة إقناعية لا برهانية ، ويستدلّ هؤلاء المتوهمون ، على مقالتهم ، بأنّ الدليل البرهاني يتوقف على وجود رابطة منطقية بين المُدَّعَى والدليل ، وتلك الرابطة غير موجودة في المقام . إذ كيف يكون خرق العادة وعجز الناس عن المقابلة ، دليلاً على صدق المدّعي في كونه نبيّاً وحاملاً لشريعة إلهية . إذ لو صحّ ذلك لصحّ أن يقال : إنّ قيام الطبيب بعمليةٍ جراحيةٍ بديعةٍ ، دليلٌ على صدق مقاله في المسائل النجومية والفلكية . أو صدق تخطيطاته السياسية والاجتماعية . ومن المعلوم ، انتفاء الرابطة المنطقية بينها .

ولأجل ذلك ـ يضيف المتوهم ـ لا يدلّ قيام المسيح بإحياء الموتى وإبراء المرضى ، على صدق ما يدّعيه ، بدلالة برهانية . وإنّما يُكتفى به ، لأنّ مشاهدة هذه الأعمال العظيمة تجعل للقائم بها في نفوس الناس مكانةً عاليةً ، بحيث يأخذ مجامع قلوبهم ويستولي على ألبابهم ، فيقنعهم ، ويجلب يقينهم بصدق دعواه .

هذا ، ولكن الحق وجود الرابطة المنطقية بين الإعجاز ودعوى النبوة ، ويمكن إثبات ذلك ببيانين :

* البيان الأول لوجود الرابطة المنطقية

ويتّضح بملاحظة الأمور التالية ، التي يسلمها الخصم أيضاً :

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

الأول : أنّ الخالق عادلٌ لا يجور ، وحكيمٌ لا يفعل ما يناقض الحكمة .

الثاني : أنّه سبحانه يريد هداية الناس ، ولا يرضى بضلالتهم وكفرهم .

الثالث : أنّ المعجزة إنّما تعدّ سنداً لصدق دعوى النبوة إذا كان حاملها واجداً لشرطين :

١ ـ أن تكون سيرته نقية الثوب ، وبيضاء الصحيفة ، لم يُسَوِّدها شيء من الأعمال المشينة .

٢ ـ أن تكون شريعته مطابقة للعقل ، وموافقة للفطرة . أو على الأقل ، لا يرى فيها ما يخالف العقل والفطرة .

فلو أنتفى الشرط الأول ، بأن كانت سوابقه سيئة ، لكفى ذلك في تنفر الناس عنه .

وكذا لو انتفى الشرط الثاني ، بأن كانت شريعته مخالفة للعقل والفطرة ، لما تَقَبَّلها أصحاب العقول السليمة .

وأمّا لو توفّر الشرطان فيه ، فتتطاول إليه الأعناق ، وتنقاد له القلوب ، ولشرعه العقول ، فيسلّمون ما يقول ، ويطيعون ما أمر .

وهنا نقول : لو كانت دعوة هذا المدّعي ، صادقة ، فإعطاؤه القدرة على الإتيان بالعجائب والخوارق ، مطابق للحكمة الإلهية .

وأمّا لو كانت دعواه كاذبة ، فإعطاؤه تلك القدرة ، وتسخير عالم التكوين له ، في تلك الظروف ، على خلاف الحكمة ، وعلى خلاف الأصل الثاني المتقدم. أعني أنّه تعالى يريد هداية الناس ، ولا يرضى بإضلالهم ، وذلك لأنّه تعالى يعلم أنّ الظروف تُوجِدُ في الناس خضوعاً لهذا الشخص ، فيكون إقداره على الإعجاز ، مع كونه كاذباً ، إغراءً بالضلالة ، وصدّاً عن الهداية ، والله تعالى حكيم لا يفعل ما يناقض غرضه وينافي إرادته ، فأي دلالة منطقية أوضح من ذلك ؟ .

ولك أن تصب هذا الإستدلال في قالب القياس المنطقي ، فتقول :

إنّه سبحانه حكيم ، والحكيمُ لا يجعل الكون ولا بعضه مُسَخَّـراً للكاذب ، الله سبحانه لا يجعل الكون ولا بعضه مسخراً للكاذب . ولكن المفـروض أنّ هذا المدّعي مُسَخِّر للكون ، فينتج أنّه ليس بكاذب بل صادق .

ولا بُدّ من الإشارة هنا إلى أنّ دلالة المعجزة على صـدق دعوى النبـوّة يتوقف عـلى القول بـالحسن والقبح العقليـين ، وأمّا الـذين أعدمـوا العقل ومنعـوا حكمه بهما ، فيلزم عليهم سدّ باب التصديق بالنبوّة من طريق الإعجاز ، لأنّ الإعجاز إنّما يكون دليلاً على صدق النبوّة ، إذا قُبّح في العقل إظهـار المعجزة على يد الكاذب ، فـإذا تـوقف العقـل عن إدراك قبحـه ، واحتمـل صحـة إمكـان ظهـوره عـلى يـد الكاذب ، لا يَقْدِرُ على التمييز بين الصادق والكاذب[1] .

وفي بعض كلمات المتكلمين إشارة إلى مـا ذكرنـا . يقول القـوشجي : « إنّما كان ظهور المعجزة طريقاً لمعرفة صدقه لأنّ الله تعالى يخلق عقيبها العلم الضروري بالصدق[2] ، كما إذا قام رجل في مجلس مَلِكٍ بحضور جماعة ، وادّعى أنّـه رسول هذا الملك إليهم ، فطالبوه بالحجة ، فقال : هي (الحجـة) أن يخالف هـذا الملك عادته ، ويقوم على سريره، ثلاث مرّات ويقعد ، ففعل . فإنّه يكون تصديقاً له ، ومفيداً للعلم الضروري بصدقه من غير ارتياب »[3] .

وقال المحقق الخوئي : « إنّما يكون الإعجاز دليلاً على صدق المـدّعي ، لأنّ المعجز فيه خرقٌ للنواميس الطبيعية ، فلا يمكن أن يقع من أحـد إلاّ بعنايـة من الله تعالى وإقدار منه . فلو كان مدّعي النبوّة كاذباً في دعواه ، كان إقـداره على المعجـز

---

(١) وإن للفضل بن روزبهان الأشعري كلاماً في الخروج عن هـذا المأزق ، غـير تام ، فمن أراد فليرجـع إلى دلائل الصدق ، ج ١ ، ص ٣٦٦ ، وقد أوردناه في الجزء الأول من الكتاب وأجبنا عليه لاحظ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

(٢) هذا التعبير صحيح على منهج الأشاعـرة من أنّ أفعال العبـاد كلها مخلوقـة لله تعالى ، ولكن الحق أنّ هذا العلم يوجَدُ في الإنسان بعد عدّة عوامل .

(٣) شرح القوشجي على التجريد ، ص ٤٦٥ . الطبعة الحجرية ، إيران .

من قِبَل الله تعالى إغراءً بالجهل وإشادةً بالباطل ، وذلك محال على الحكيم تعالى ، فإذا ظهرت المعجزة على يده كانت دالّة على صدقه وكاشفة عن رضا الحق سبحانه بنبوّته .

وهذه قاعدة مطردة يجري عليها العقلاء من الناس فيما يشبه هذه الأمور ، ولا يشكون فيها أبداً . فإذا ادّعى أحد من الناس سفارة عن ملك من الملوك في أمور تختصّ برعيته ، كان من الواجب عليه أولاً أن يقيم على دعواه دليلاً يعضدها ، حين تشكّ الرعية بصدقه ، ولا بدّ من أن يكون ذلك الدليل في غاية الوضوح ، فإذا قال لهم ذلك السفير : الشاهد على صدقي أن الملك غداً سيحييني بتحيته الخاصة التي يحيي بها سفراءه الآخرين ، فإذا علم الملك ما جرى بين السفير وبين الرعية ثم حيّاه في الوقت المعيّن بتلك التحية ، كان فِعْلُ الملك هذا تصديقاً للمدّعي في السفارة .

ولا يرتاب العقلاء في ذلك ، لأنّ الملك القادر المحافظ على مصالح رعيته يقبح عليه أن يصدّق هذا المدعي إذا كان كاذباً ، لأنّه يريد إفساد الرّعيّة »[1] .

القرآن والدّعوى الكاذبة

يخبر القرآن الكريم عن أنّه سبحانه فرض على نفسه معاقبة النبي وإهلاكه إذا كذب على الله تعالى ، قال عزّ وجل : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا منه بِاليَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾[2] .

قال المحقق الخوئي : « المراد من الآية الكريمة أنّ محمداً الذي أثبتنا نبوّته ، وأظهرنا المعجزة لتصديقه ، لا يمكن أن يَتَقَوَّل علينا بعض الأقاويل ولو صنع ذلك ، لأخذنا منه باليمين ، ولقطعنا منه الوتين ، فإنّ سكوتنا عن هذه الأقاويل ،

(١) البيان في تفسير القرآن ، ص ٣٥ ـ ٣٦ ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠١ هـ ـ بيروت .
(٢) سورة الحاقّة : الآيات ٤٤ ـ ٤٧ .

إمضاءٌ منّا لها ، وإدخال للباطل في شريعة الهدى ، فيجب علينا حفظ الشريعة في مرحلة البقاء ، كما وجب علينا في مرحلة الحدوث »[1]

إنّ هذه الآيات تحكي عن سنّة إلهية جارية في خصوص من ثبتت نبوّتهم بالأدلّة القطعية ودلّت معاجزهم على أنّهم تحت رعايته سبحانه ، الذي أقدرهم بها على التصرّف في الكون . فالإنسان الذي يصل إلى هذا المقام ، يستولي على مجامع القلوب ، ويسخّر الناس بذلك لمتابعته ، فكل ما يلقيه ، ويشرّعه ، يأخذ طريقه إلى التنفيذ في حياة الناس والمجتمع . فلو افتعل هذا الإنسان ـ في مثل هذه الظروف ـ كذباً على الله تعالى ، اقتضت حكمته سبحانه إهلاكه وإبادته ، لِما في إبقائِه وإدامة حياته ، من إضلال الناس ، وإبعادهم عن طرق الهداية ، الأمر الذي يناقض مقتضى الحكمة الإلهية التي شاءت هداية الناس وإبعادهم عن وسائل الضلالة .

والتدبّر في مفاد هذه الآيات يرشدنا إلى وجود الرابطة المنطقية بين كون النبي محقّاً في دعواه ، وإتيانه بالمعجزة وأنّه يتصرف في الكون برضى مبدعه . وبقاؤه على وصف التصرّف كاشف عن رضاه تعالى ، وصدق النبي فيما يأتي به .

وبما ذكرنا يعلم أنّ الآيات لا تهدف إلى أنّ دعوى النبوّة كافية في صدق المدّعي ، وأنّ المدّعي لو كان كاذباً في دعواه لشملته نقمة الله سبحانه وإماتته ، بحجة أنّه لو تقوّل عليه بعض الأقاويل لقطع منه الوتين ، فاستمرار المدّعي للنبوّة على الحياة ـ وإن لم يأت بآية معجزة ولم يُقم برهاناً على صدق دعواه ـ هو ، بحدّ نفسه ، كاشفٌ عن صدق دعواه[2] .

إذ لا ريب أنّ هذه الدعوى أوهن من بيت العنكبوت ، ولو صحّت ، للزم تصديق كل متنبيء في العالم ـ وإن ثبت كذبه ـ لمجرّد عدم إهلاك الله تعالى له .

إلى هنا وقفت على البيان الأول الذي يُثبت أنّ بين دعوى النبوّة والإتيان بالمعجزة ، رابطة منطقية .

---

(١) البيان في تفسير القرآن ، ص ٣٦ ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠١ هـ ـ بيروت .

(٢) ادّعى ذلك الكاتب البهائي ، أبو الفضل الجرفادقاني ، في كتابه الفرائد ، ص ٢٤٠ ، طبعة مصر .

* البيان الثاني لوجود الرابطة المنطقية

إنّ نَفْي الرابطة المنطقية بين الإتيان بالمعجزة وصدق الدعوى ، أمر يحتاج إلى التحليل ، فهو باطل على وجه وصحيح على وجه آخر ، وذلك بالبيان التالي :

إن كان المراد من قلب العصا ثعباناً ـ مثلاً ـ أنّه كالأوسط في القياس ، دليلٌ على صدق ما يدّعيه النبي من أنّه سبحانه واحدٌ ، عالمٌ قادرٌ ، ليس كمثله شيء . . فلا ريب في عدم صحته . إذ لا يمكن الإستدلال على صحّة هذه الأصول بالتصرف في الكون .

ولأجل ذلك لم يطرح القرآن أصول الإسلام مجردةً عن البرهنة ، بل قرنها بلطائف الدلائل والإشارات ، يقف عليها كلُّ متدبّر في الذكر الحكيم .

فيَسْتَدِلُّ في البرهنة على وجوده سبحانه بقول : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السمٰواتِ وَالأَرْضِ ﴾ ؟(١) .

وفي البرهنة على وحدة المدبّر ، بقوله : ﴿ لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاَّ الله لَفَسَدَتا ﴾(٢) .

وفي البرهنة على إبطال أُلوهيةِ الأصنام ، بقوله : ﴿ واتَّخذوا مِن دُونِهِ آلهةً لا يَخْلُقونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقونَ ، وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ، وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً ولا حَياةً وَلاَ نُشوراً ﴾(٣) .

وفي إبطال أُلوهية المسيح ، بقوله : ﴿ مَا المَسِيحُ بْنُ مَرِيَمَ إلاَّ رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعامَ ، انظُر كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ ﴾(٤) .

إلى غير ذلك من عشرات الآيات التي تَطْرَحُ الأُصول والعقائد ، بالبراهين

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ١٠ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٢ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٣ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٧٥ .

الدقيقة . فالمعجزة غير دالّة بالدلالة المطابقية على صحّة المعارف والأصول التي يأتي بها صاحبها ، بمعنى أنّها ليست الحدّ الأوسط في صحّة المدّعى ، كالتغيير في قولنا : العالَم مُتَغيّر ، وكلُّ مُتغيّر حادث ، فالعالَمُ حادث .

وإنْ كان المُرادُ أنّ خرق العادة الملموسة ـ أعني قلب العصا حيّة ـ دليلٌ على أنّهم قادرون على خرق عادة أخرى غير ملموسة ـ وهي الإتصال بعالم الوحي وكون إدراكات النبي خارجة عن إطار الإدراكات العادية المتعارفة ـ فهو صحيح ، وإليك بيانه :

إنّ الأنبياء عليهم السلام ، كانوا يواجهون في تبليغ رسالاتهم إشكالين عظيمين في أعين الناس :

الإشكال الأول ـ إنّهم كانوا يتخيّلون أنّ النبي المرسل من عالم الغيب ، يجب أن يكون من جنس الملائكة ، ولا يصحّ أن يكون إنساناً مثلهم .

والقرآن الكريم يحكي عنهم هذا الاعتراض ، بقوله : ﴿ **قالوا إنْ أنْتُمْ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُريدونَ أنْ تَصُدُّونا عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا** ﴾(١) .

وكان الأنبياء يجيبون سؤالهم بأنّ المماثلة أساس التبليغ ، والوحدة النوعية غير مانعة منه ، لإمكان أن يتفضل فرد من نوع على فرد من ذاك النوع ، فيكون الفاضل مُرْسلاً ، والمفضول مُرْسَلاً إليه .

والقرآن الكريم يحكي هذا الجواب ، بقوله : ﴿ **قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إنْ نَحْنُ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِه** ﴾(٢) .

الإشكال الثاني ـ إنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يَدّعون أنّهم يتلقون الأصول والمعارف والأحكام والفروع من الله سبحانه عن طريق الوحي ، وهو إدراك خاص يوجَد فيهم ولا يوجد في غيرهم ، وليس من قبيل الإدراكات العادية

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٩ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ١٠ .

التي يجدها كل إنسان في صميم ذاته من طريق الإبصار بالعين ، والسمع بالأُذن ، والتفكّر والإستدلال بالعقل .

وهذه الدعوى كانت تثير السؤال التالي :

إنّ ادّعاء الإدراك عن طريق الوحي ، إدعاءُ أمرٍ خارقٍ للعادة ، فإنّ الإدراكات الإنسانية لا تخرج عن إطار الحسيّات والخياليات والعقليات . فنحن لا نؤمن بقولكم هذا إلاّ إذا شاهدنا خرقاً للعادة يماثل ما تدّعون ، حتى نستدلّ بخرق عادة مرئية ، على وجود نظيرها في باطن وجودكم ، وصميم حقيقتكم .

ومن منطلق إجابة هذا السؤال ، كان الأنبياء يفعلون الخوارق ، ويأتون بالمعاجز ، حتى يدلّلوا بذلك على تمكنهم من خرق العادة مطلقاً ، سواء أكانت مرئية ـ كقلب العصا إلى الثعبان ، وتسبيح الحصى ـ أو غير مرئية ـ كالإدراك غير المشابه للإدراكات العادية ، الذي هو الوحي .

وإن شئت قلت : كانوا يستدلون بخرق العادة الملموسة ، على غير الملموسة منها .

وإلى ما ذكرنا يشير العلامة الطباطبائي رحمه الله بقوله : « إنّ دعوى النبوّة والرسالة من كل نبي ورسول ـ على ما يقصه القرآن ـ إنّما كانت بدعوى الوحي والتكليم الإلهي بلا واسطة ، أو بواسطة نزول ملك ، وهذا أمر لا يساعده الحسّ ولا تؤيّده التجربة ، فيتوجه عليه الإشكال من جهتين : إحداهما من جهة عدم الدليل عليه ، والثانية من جهة الدليل على عدمه . فإنّ الوحي والتكليم الإلهي وما يتلوه من التشريع والتربية الدينية ممّا لا يشاهده البشر في أنفسهم ، والعادة الجارية في الأسباب والمسبّبات تنكره ، وقانون العليّة العامة لا يجوزه ، فهو أمر خارق للعادة .

فلو كان النبي صادقاً في دعواه النبوّة والوحي ، لكان لازمه أنّه متصل بما وراءِ الطبيعة ، مؤيّد بقوة إلهية تقدر على خرق العادة ، وأنّ الله سبحانه يريد بنبوّته والوحي إليه ، خرق العادة . فلو كان هذا حقاً ، ولا فرق بين خارق وخارق ، كان من الممكن أن يصدر من النبي خارق آخر للعادة من غير مانع ، وأن يخرق

الله العادة بأمر آخر يصدّق النبوة والـوحي من غير مـانع عنـه ، فإنّ حكم الأمثـال واحـد ، فلئن أراد الله هـدايـة النـاس بـطريق خـارق للعـادة وهـو طـريق النبـوة والوحي ، فليؤيدها وليصدقها بخارق آخر وهو المعجزة .

وهذا هو الذي بعث الأمم إلى سؤال المعجزة على صدق دعـوى النبوة ، كلما جاءهم رسول من أنفسهم[1] .

* * *

(١) الميزان ، ج ١ ، ص ٨٦ .

الجهة السابعة

هل حرم الإنسان المعاصر من المعاجز والكرامات ؟

لا شكّ أنّ للإعجاز أثراً بالغاً في إيجاد الإيمان بدعوى المدّعي ، وربما يكون أثر الإعجاز في نفوس عامة الناس أبلغ من تأثير البراهين العقلية .

فإذا كان للإعجاز هذا الأثر البالغ ، فلما ذا حرم منه إنسان ما بعد عصر الرسالة ؟ ولماذا لا تظهر يد من الغيب تقلب العصا ثعباناً وتبريء الكُمْه والبُرْص والمصابين بالسرطان ؟ مع أنّ إنسانَ القرنِ المعاصر أشدُّ حاجةً إلى مشاهدة المعجزة ، لذيوع بذور الشكّ والترديد بين الناس عامة والشباب خاصة ، أفليس هذا حرماناً من الفيض المعنوي ؟ .

الجواب : إنّ الإنسان المعاصر ، بل من قبْله ممن جاؤوا بعد عصر الرسالة ، ليس ولم يكونوا محرومين من المعجزة ، بل إنّ هناك معجزتين ساطعتين ، خالدتين على مرّ الدهور .

الأولى ـ القرآن الكريم

إنّ القرآن الكريم ، معجزةُ النبي الأكرم الخالدة ، المشرقة على جبين الدهر ، تتحدّى المعاندين ، وتواجه المشككين ، بقولها : ﴿ وإنْ كنتم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلنا على عَبْدِنا فَأْتُوا بِسورةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعوا شُهداءَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾[1]

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣ .

وهـذا النـداء القـرآني يكـرّره المسلمـون في تـلاواتهم وإذاعـاتهم وأنـديتهم الـدينيـة ، فلم يُجب إلى الآن أحـد من العـرب والعجم ، بـل كلّهم انحنـوا ـ مذهولين ـ أمام عظمة القرآن في فصاحته وبلاغتـه ونظمـه وأسلوبه ، كـما سيأتي الكلام فيه مفصلاً .

على أنّ القرآن الكريم أخبر بأنّ هذه المعجـزة خالـدة إلى يوم القيـامة ، ولن يقدر أحد من البشر على مقابلتها ، بقوله : ﴿ قُلْ لَئِنْ ٱجْتَمَعَتِ ٱلإِنْسُ وَالجِنُّ على أَنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرْآنِ لا يأْتُون بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[1] .

الثانـية ـ المباهلة

روى أهل السِيَر والتاريخ أنّه قَدِم وفد نصارى نَجـران على رسـول الله صلى الله عليـه وآله ، فـدارت بينـه وبينهم أسئلة وأجـوبـة حـول نبـوتـه عليـه الصـلاة والسلام . فدعاهم الرسول إلى قبول الإسـلام ، فامتنعـوا ، فدعـاهم إلى المباهلة فاستنظروه إلى صبيحة اليوم التالي :

فلما رجعوا إلى رجالهم ، قـال لهم الأسقف : « أُنظروا محمـداً ، فإن خـرج بوُلده وأَهْلِهِ ، فاحذروا مباهَلَته ، وإن خَرَجَ بأصحابه فباهلوه » .

فلما كان الغد ، خرج النبي الأكرم ويده في يد عـلي بن أبي طالب ، والحسن والحسين يمشيان أمامه ، وفاطمة ابنته تمشي خلفه .

وخرج النصارى يتقدّمهم أُسْقُفُهم ، فلما رأى النبيَّ قد أقبل بمن معه ، سأل عنهم فقيل له : هذا ابن عمه ، وهذان ابنا بنته ، وهذه الجارية بنته فاطمـة ، أعزّ الناس عليه .

وتقـدم رسول الله صـلى الله عليه وآلـه فجثا عـلى ركبتيه ، فقـال أبو حـارثة الأُسقف : « جثا والله كما جثا الأنبياء للمباهلة » ، فرجـع ولم يُقدم عـلى المباهلة .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

وقـال : « أنا أخـاف أن يكون صـادقاً ، ولئن كـان صـادقـاً ، لم يَحُـلْ والله علينـا الحول ، وفي الدنيا نصراني » .

فصالَحوا رسـول الله صلى الله عليـه وآله عـلى ألف حُلّة من حلل الأواقي ، وقـال النبي : « والـذي نفسي بيـده ، لـو لاعنـوني ، لَمسخـوا قـردة وخنـازيـر ، ولاضطرم الوادي عليهم ناراً ، ولما حال الحول على النصارى حتى يهلكوا »[1] .

وفي هذا المجال ورد قوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِما جاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَـوْا نَدْعُ أَبنـاءَنا وأَبنـاءَكُم ونساءَنـا ونساءَكُم وأَنْفُسَنـا وَأَنْفُسَكُم ثم نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ ٱللّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ ﴾[2] .

والمباهلة معجزة إسلامية خالدة ، يقوم بها الأمثل فالأمثل من الأُمة في مقـام محاجة المخالفين من اليهود والنصارى وغيرهم ، ولا تختص بالنبي الأكرم .

إنّ بإمكان أصحاب النفوس الكاملة ، في مراتب التقوى والورع واليقـين ، أن يباهلوا أعداء الدين ، ويدعوا عليهم بالدمار والهلاك ، ولن يمضي زمن إلاّ وقد شملهم العذاب الإلهي .

وقد كان سيدنا العلامة الطباطبائي رحمه الله يرى هذا الـرأي ويقول : « إنّ المباهلة معجزةٌ خالدةٌ للمسلمين يحتجون بهـا على صحّـة عقائـدهم وأُصولهم فمن يريد المباهلة فيما جاء به النبي الأعـظم صلى الله عليـه وآله ، فـأنا عـلى أتمّ الأُهبة والإستعداد لمباهلته ، فليُقْدِم المخالف إذا شاء » .

ولعلّ الأستاذ الراحل أخذه من كلام الإمـام الصادق عليـه السلام ، حينـما قـال له أحـد أصحابـه : « إنّا نكلّم النـاس فنحتجّ عليهم بقـول الله عـزّ وجـل : ﴿ أُطيعوا الله وأُطيعوا الرسولَ وأُولي الأَمر منكم ﴾[3] فيقولـون : نزلت في أمـراء السرايا .فنحتج عليهم بقـوله عـزّ وجـل : ﴿ إنّمـا وليّكم الله ورسـولـه ـ إلى آخـر

---

(١) مجمع البيان ، ج ١ ، ص ٤٥٢ ، طبعة صيدا .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٦١ .

(٣) سورة النساء : الآية ٥٩ .

الآية ﴾[1] فيقولون نزلت في المؤمنين . ونحتج عليهم بقول الله عزّ وجل : ﴿ قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلّا المودّة في القُرْبى ﴾[2] فيقولون نزلت في قُربى المسلمين . قال فلم أَدَعْ ممّا حضرني ذِكْرُهُ من هذه وشبهها إلّا ذكرته .

فقال عليه السلام : إذا كان ذلك فادعهم إلى المباهلة . . . إلى آخر الحديث »[3] .

* * *

(١) سورة المائدة : الآية ٧٨ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٣٣ .

(٣) أصول الكافي ،ج ٣ ، باب المباهلة ، الحديث الأول ، ص ٥١٣ ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠١ هـ، بيروت .

الجهة الثامنة

بماذا تُميَّزُ المعجزةُ عن السحر ؟

لا ريب في أن هناك جماعة من الناس لهم القدرة على القيام بأعمال مدهشة وعجيبة لا يمكن تفسيرها عن طريق العلوم المتعارفة وهؤلاء كالمرتاضين الهنود وغيرهم ، الذين تقدم نقل شطر من أعمالهم . وكالسحرة والمشعوذين .

وكأساتذة التنويم المغناطيسي ، الذي كشفه « مسمر » الألماني في القرن الثامن عشر ، وبه يتمكن الأستاذ من السيطرة على الوسيط الذي فيه استعداد خاص للتأثر ، وكيفية ذلك أنّ الأستاذ ينظر في عين الوسيط نظرات عميقة ويجري عليه حركات يسمونها « سحبات » ، فما تمضي لحظة إلاّ ويغطّ الوسيط غطيط النوم ، على وجه لو قام أحد يَخِزُهُ بالإبرة وَخَزاتٍ عديدة ، لا يبدي الوسيط حراكاً ، ولا يُظهر أيّ شيء يدلّ على شعوره وإحساسه . فعند ذلك يقوم الأستاذ بسؤاله أسئلة ربما يقتدر معها على كشف المغيبات ، ويستطيع أن يتصرف فيه بنحو يقنعه معه بتغيير اسمه ، وغير ذلك[1] .

وهنا يُطرح السؤال التالي : مع وجود هذه الأمور المدهشة والعجيبة والخارقة للقوانين المتعارفة ، التي تحصل بالرياضة وسحر السحرة ، وألاعيب المشعوذين ، فكيف نتمكن من تمييزها عن المعجزة والآية الإلهية ؟ .

---

(١) لاحظ مناهل العرفان ، ج ١ ، ص ٦١ .

وهذا من المباحث الحساسة في النبوّة العامة ، إذ به تتبين حدود المعجزة التي تميّزها وتفصلها عن سائر خوارق العادة .

والجواب : إنّ هناك مجموعة من الضوابط والحدود التي تمتاز بها المعجزة عن سائر خوارق العادة وهي :

الأول : إنّ السِّحر ونحوه رهن التعليم دون الإعجاز

إنّ ما تنتجه الرياضة والسحر والشعوذة من آثارٍ خارقة للعادة ، جميعها خاضعة لمناهج تعليمية ، لها أساتذتها وتلامذتها ، وتحتاج إلى الممارسة المتواصلة والدؤوبة حتى يصل طالبها إلى النتائج المطلوبة ، فينام على مسامير مُحَدَّدَة ، وتكسر الصخور بالمطارق على صدره ، من دون أن يصاب بجراح في صدره أو ظهره ، أو يقوم بحركات توجب تأثيراً نفسياً على إنسان آخر ، فيُذهب وَعْيَه ويتصرف فيه ، أو يقوم بألاعيب خفيّة يبهر بها العيون ، ويستولي بها على القلوب ، فيصوّر غير الواقع واقعاً متحققاً . وكل هذا أثر التعليم والتعلّم وكثرة الممارسة والمجاهدة .

وأمّا الإعجاز الذي يقوم به الأنبياء فإنّه منزّه عن هذه الوصمة ، فإنّ ما يأتونه من الأعمال المدهشة الخارقة للعادة ، لم يدرسوه في منهاج ، ولا تلقوه على يد أستاذ ، ولا قضوا أعمارهم في التدرّب والتمرّن عليه .

ولأجل ذلك نرى أنّ الكليم عليه السلام عندما رجع من مَدْيَن إلى مصر : ﴿ نُودِيَ مِنْ شاطىء الوادِ الأيمنِ في البُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسى إنِّي أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلعالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ ، فلَمّا رآهَا تَهْتَزّ كأنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدبراً وَلَمْ يُعقِّب ، يا مُوسى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إنّكَ مِنَ ٱلآمِنِينَ * أُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، وٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ . . . ﴾[1] .

فكان هذا عملاً إبداعياً غير مسبوق بتعلّم ولا تمرّن ، ولذلك استولى عليه

---

(١) سورة القصص : الآيات ٣٠ ـ ٣٢ .

الخوف في بداية الأمر ، فوافاه الخطاب من جانبه تعالى : ﴿ يا مُوسى لا تَخَفْ إنِّي لا يَخاف لديّ المُرْسَلونَ ﴾[1] .

قال القاضي عبد الجبار : « إنّ الحيلة مِمّا يمكن أن تتعلم وتُعَلَّم ، وهذا غير ثابت في المعجزة »[2] .

الثاني ـ إنّ السِّحر ونحوه قابل للمعارضة دون المعجزة

إنّ عمل المرتاضين والسَّحَرَة بما أنّه نتاج التعليم والتعلّم ، يكثر وقوعه ويسهل الإتيان بمثله على كل من تلقّى تلك الأُصول وتدرّب عليها ، ولذا قال القاضي عبد الجبار : « إنّ الحيل مما يقع فيها الإشتراك وليس كذلك المعجزة »[3] .

الثالث ـ إنّ السحر ونحوه لا يقترن بالتحدي بخلاف الإعجاز

إنّ السَّحَرة والمرتاضين ، وإن كانوا يأتون بالعجائب ويفعلون الغرائب ، إلّا أنّ واحداً منهم لا يجرؤ على تحدّي الناس ، ودعوتهم إلى مقابلته ، لعلمهم بأنّ الدعوة إلى التحدّي لن تتم لصالحهم ، إذ ما أكثر السحرة وأهل الرياضة من أمثالهم .

وهذا بخلاف أهل الإعجاز ، فإنّهم لا يأتون بمعجزة إلّا ويقرنوها بالتحدّي ، ولذلك أُمر النبي بأن يقول :

﴿ قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وٱلجِنُّ عَلى أَنْ يأتوا بِمِثْلِ هَذا ٱلقُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[4] .

---

(١) سورة النمل : الآية ١٠ .
(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٥٧٢ .
(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٥٧٢ .
(٤) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

الرابع - إنّ السحر ونحوه محدود من حيث التنوع دون المعاجز

إنّ عمل أهل الرياضة والسحر ، لما كان رهن التعليم والتعلّم ، متشابه في نوعه ، متّحد في جنسه ، يدور في فلك واحد ، ولا يخرج عن نطاق ما تعلمه أهله ومارسوه ، ولذا لا يأتون بما يريده الناس والمتفرجون ، بل بما تدرّبوا عليه ، وافق طلب الناس أو لا .

بخلاف إعجاز الأنبياء ، فإنّه على جانب عظيم من التنوع في الكيفية إلى حدٍّ قد لا يجد الإنسان بين المعجزات قدراً مشتركاً وجنساً قريباً . فشتّان ما بين قلب العصا إلى الثعبان الحي [١] ، وضربها على الأحجار ليتفجر منها الماء [٢] ، وضربها على البحر لينفلق شطرين ، كل فرق كالطَّوْد العظيم [٣] ، وإخراج اليد من الجيب بيضاء تتلألأ [٤] ، وغير ذلك من معاجز موسى عليه السلام .

وكذلك الحال في آيات المسيح البيّنات ، المُبْهرة للعقول والمدهشة للقلوب ، فتارة ينفخ في هيئة الطير المجسّمة من الطين فتدبّ الحياة فيها ، وتنبض بالدماء عروقها ، فتكون طيراً بإذن الله . وأخرى يبريء الأكمه والأبرص ، وثالثة يحيي الموتى ، ورابعة ينبيء الناس بما يأكلون في بيوتهم ويدّخرون فيها [٥] ، ولذلك يصفها تعالى بالجلال والتقدير بقوله : ﴿ إنَّ في ذلك لآيةً لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [٦] .

وهذا التنوع في الكيفية ، نتيجة كون قدرتهم مستندة إلى القدرة الإلهية .

نعم إنّ الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون معاجز الأنبياء مناسبة للفنون

---

(١) قال تعالى : ﴿ فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هي ثُعْبانٌ مُبينٌ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٠٧) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وإِذْ استَسْقى موسى لِقَوْمِهِ ٱلحَجَرَ فَقُلْنا آضْرِبْ بِعصاكَ ٱلْحَجَرَ فانْفَجَرَتْ مِنْهُ آثْنَتا عَشْرَةَ عَيناً ﴾ (سورة البقرة : الآية ٦٠) .

(٣) قال تعالى : ﴿ فأَوحينا إلى موسى أن اضْرِبْ بِعصاكَ ٱلبَحرَ فانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّودِ العظيم ﴾ (سورة الشعراء : الآية ٦٣) .

(٤) قال تعالى : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فإذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنّاظِرينَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٠٨) .

(٥) اقتباس من الآية ٤٩ من سورة آل عمران المباركة .

(٦) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

الرائجة في عصورهم ، حتى يتسنى لخبراء كل فنّ تشخيص المعاجز وإدراك استنادها إلى القدرة الغيبيّة ، وتمييزها عن الأعمال الباهرة المستندة إلى العلوم والفنون الرائجة. وتتّضح حقيقة ما ذكرناه ، في السحرة الذين بارزوا موسى عليه السلام ، فإنّهم ـ لكونهم من أهل الخبرة والمعرفة بحقيقة السحر وفنونه ـ أدركوا فوراً ، بعدما ألقى موسى عصاه وانقلبت ثعباناً حيّاً التقف حبالهم وعصيّهم أدركوا أنّه ليس من جنس السحر ، وأنّه معجزة خارقة متصلة بالقدرة الإلهية ، ولذلك سرعان ما خضعوا للحق كما يحكيه عنهم تعالى بقوله : ﴿ **وأُلقيَ السَّحَرَةُ ساجِدينَ * قالوا آمنّا بربِّ العالمينَ** ﴾[1] .

قال القاضي عبد الجبار : « إنّ المُشَعْوِذ والمحتال إنّما يَنفذ حيلته على من لم يكن من أهل صناعته ، ولا يكون له دراية ومعرفة ، وليس هذا حال المعجزة ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى معجزة كل نبي مما يتعاطاه أهل زمانه ، حتى جعل معجزةَ موسى عليه السلام قَلْبَ العصا حيّةً ، لما كان الغالب على أهل ذلك الزمان ، السحر . وجعل معجزة عيسى عليه السلام إبراءَ الأكْمَهِ والأبْرَصَ ، لما كان الغالب على أهل زمانه الطب . وجعل معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وآله « القرآن » ، وجعله في أعلى طبقات الفصاحة ، لما كانت الغلبة للفصاحة والفصحاء في ذلك الزمان ، وبها كان يفاخر أهله ويتباهى »[2] .

الخامس ـ الإختلاف من حيث الأهداف والغايات

إنّ أصحاب المعاجز يتبنون أهدافاً عالية ، ويتوسلون بمعاجزهم لإثبات أحقية تلك الأهداف ، ونشرها . وهي تتمثل في الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده ، وتخليص الإنسان من عبودية الأصنام والحجارة والحيوانات ، والدعوة إلى الفضائل ونبذ الرذائل ، واستقرار النظام الاجتماعي للبشر ، وغير ذلك .

وهذا بخلاف المرتاضين والسحرة ، فغايتهم إمّا كسب الشهرة والسمعة بين

---

(١) سورة الأعراف : الآيتان ١٢٠ ـ ١٢١ .
(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٥٧٢ .

الناس ، أو جمع المال والثروة ، وغير ذلك ممّا يناسب متطلبات القوى البهيمية ، وإنّك لا ترى مرتاضاً أو ساحراً يقوم بنشر منهج أخلاقي أو اجتماعي فيه إنقاذ البشر من الظلم والإضطهاد ، ويدعو إلى التقوى والعفة وما شابه .

والسبب في ذلك واضح ، فإنّ الأنبياء خريجوا مدرسة إلهية تزخر بالدعوة إلى الفضائل والإجتناب عن الرذائل ، فلا يقومون بالإعجاز إلّا لنشر أهداف مدرستهم . وأما غيرهم ، فهم خريجوا المدرسة المادية التي لا هَمَّ لها إلّا إرضاء ميولها الحيوانية ، وإشباع لذّاتها وشهواتها .

السادس ـ الإختلاف في النفسانيات

إنّ أصحاب المعاجز ـ باعتبار كونهم خريجي المدرسة الإلهية ـ متحلّون بأكمل الفضائل والأخلاق الإنسانية والمتصفح لسيرتهم لا يجد فيها أيّ عملٍ مشينٍ ومنافٍ للعفة ومكارم الأخلاق .

وأمّا أصحاب الرياضة والسحر ، فهم دونهم في ذلك ، بل تراهم غالباً متحللين عن المثل والفضائل والقيم .

* * *

فبهذه الضوابط الستّ يتمكن الإنسان من تمييز المعجزة عن غيرها من الخوارق ، والنبيِّ عن المرتاض والساحر ، والحق عن الباطل . وهذه المميزات ، وإن كانت تهدف إلى أمر واحد ، إلّا أنّها تختلف في الحيثيات :

فالأول منها يهدف إلى الفرق بين المعجزة وغيرها من حيث المبادىء .

والثاني إلى الفرق من حيث تحديد القدرة ، فقدرة السَحَرة في حدّ القدرة البشرية ، وقابلة للمعارضة ، بخلاف إعجاز الأنبياء .

والثالث إلى الفرق في كيفية الإتيان بالعمل ، فالمعجزة تقترن بالتحدّي دون غيرها .

والرابع إلى قلّة التنوع في عمل السحرة ، وكثرته في عمل الأنبياء .

والخامس إلى الفرق من حيث الغاية .

والسادس إلى الفرق من حيث صفات وروحيات أصحاب المعاجز ، وغيرهم .

وإلى هنا يتم البحث في الطريق الأول من الطرق الثلاثة التي يُعرف بها النبي من المتنبيء ، بجهاته الثمان . ويقع البحث فيما يلي في الطريق الثاني وهو تصديق النبي السابق نبوّة النبي اللاحق .

* * *

طرق إثبات النبــوّة

(٢)

تنصيص النبي السابق على نبوة اللاحق

إذا ثبتت نبوة نبي بدلائل مفيدة للعلم بنبوته ، ثم نصّ هذا النبي على نبـوة نبي لاحق يأتي من بعده ، كان ذلك حجـة قطعيـة على نبـوة اللاحـق ، لا تقـل في دلالتها عن المعجزة .

وذلـك لأنّ النبي الأول ، إذا ثبتت نبوتـه ، يثبت كونـه معصومـاً عن الخطأ والزلل ، لا يكذب ولا يسهو ، فإذا قال ـ والحال هذه ـ : سيأتي بعدي نبي اسمـه كـذا ، وأوصـافـه كـذا وكـذا ، ثم ادّعى النبـوّة بعـده شخص يحمـل عـين تلك الأوصاف والسمات ، يحصل القطع بنبوته .

ولا بدّ أن يكون الإستدلال بعد كون التنصيص واصلاً من طـريق قطعي ، وكون الأمارات والسمات واضحة ، منطبقةً تمام الإنطباق على النبي اللاحق ، وإلاّ يكون الدليل عقيماً غير منتج .

ومن هذا الباب تنصيص المسيح على نبوة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله ، كما يحكيه سبحانه بقـوله : ﴿ وَإِذْ قَـالَ عيسى بنُ مَرْيَمَ يـا بَني إِسرائيلَ إنِّي رسـولُ آللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة ومُبَشِّراً بـرسول ٍ يَـأْتي مِنْ بَعْدي آسْمُـهُ أَحْمَد ﴾[1] .

(١) سورة الصف : الآية ٦ .

ويظهر من الذكر الحكيم أنّ السلف من الأنبياء وصفوا النبي الأكـرم بشكل واضـح ، وأنّ أهـل الكتـاب كـانـوا يعـرفـون النبي كمعـرفتهم لأبنـائهم . قـال سبحانه : ﴿ الذينَ آتَيْناهُمُ الكتـابُ يَعْرِفـونَهُ كـما يَعْرِفـونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فـريقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمونَ ٱلحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

بناءً على رجوع الضمير إلى النبي ، المعلوم من القرائن ، لا إلى الكتاب .

وقال سبحانه : ﴿ الذينَ يتّبعونَ الرسولَ النَّبيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجِدُونَهُ مكتـوباً عِنْدَهُم في التَّوْراةِ والإِنْجِيلِ ، يأمُرُهُمْ بالمَعْروفِ وينهاهُمْ عَنِ ٱلمُنْكَرِ ﴾[2] .

وقد آمن كثير من اليهود والنصارى بنبوة النبي الخاتم في حياته وبعد مماتـه ، لصراحة التباشير الواردة في العهدين .

هذا ، وإنّ الإعتماد على هذا الطريق في مجال نبوة النبي الخاتم ، في عصرنـا هذا ، يتوقف على جمع البشائر الواردة في العهدين وضمّها إلى بعضها ، حتى يخرج الإنسان بنتيجة قطعية على أنّ المراد من النبي المُبَشّر به فيهما هو النبي الخاتم : وقـد قام بهذا المجهـود لفيف من العلماء وألّفوا فيـه كتباً[3] ، وسيـوافيك بحثـه في النبوّة الخاصّة ، بإذنه تعالى .

* * *

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(٣) لاحظ منها كتاب « أنيس الأعلام » ، ومؤلفه كـان قسيساً محيطاً بالعهـدين وغـيرهمـا وقـد تشرّف بالإسلام ، وألف كتباً كثيرة ، منها ذاك الكتاب وقد طبع في ستة أجزاء .

طرق إثبات النبوّة

(٣)

جمع القرائن والشواهد

هـذا هو الـطريق الثالث لتمييـز النبي الصـادق عن المتنبيء الكـاذب وهـذا الـطريق ضابـطة مطردة في المحـاكم القانـونية ، معتَمَـدٌ عليـه في حَـلّ الـدعـاوى والنزاعات ، يسلكه القضاة في إصدار أحكامهم ، ويستند إليه المحـامون في إبـراء موكليهم خاصة في المحاكم الغربية ، التي تفتقد إلى القضاء على الأيْمان والبيّنات ، وتقضي هـذه الطريقـة بجمع كـلّ القـرائن والشـواهـد التي يمكن أن تؤيّـد دعـوى المدّعي ، أو إنكار المنكر ، وضمّها إلى بعضها حتى يحصل القـطع بصحة دعـواه أو إنكاره .

ويمكن تـطبيق هذه الـطريقة بعينهـا في مورد دعـوى النبـوة ، فنتحـرى جملة القرائن التي يمكن أن نقطع معها بصدق الدعوى ، ومن هذه القرائن :

١ ـ نفسيات النبي

ممّا يدلّ عـلى كون مـدّعي النبوة صـادقاً في دعـواه ، تحلّيه بـروحيات كـمالية عالية ، وأخلاق إنسانيـة فاضلة ، غـير منكب على الـدنيا وزخـرفها ، ولا طـالب للرئاسة والـزعامـة ، لم ير لـه في حياتـه منقصة ، ودنـاسة ، بـل عرف بكـل خلق كريم ، واشتهر بالنزاهة والطهارة .

فجميع هذه الصفات تدلّ على صفائه في روحه وباطنه ، وبالتالي صـدقه في دعواه .

٢ ـ سمات بيئته

إنّ ظهور مدّعي النبوّة في مجتمع أُمِّيٍّ ، لا يعرف الكتابة ، بعيد عن مظاهر الحضارة والتمدّن ، ومجيئه بشريعة تحمل سمات مناقضة بالكليّة لهذا الظرف السائد ، قرينة على نبوّة هذا المدّعي .

فإنّ مجيء إنسان بشريعة تَحْمِلُ الدعوةَ إلى التعلّم ونبذ الأميّة ، وتشرّع القوانين الإجتماعية ، والإقتصادية بل تحمل في تعاليمها نظام الدولة والتقنين والقضاء والروابط السياسية ، أقول : إنّ إتيانه بهذه المظاهر الحضارية في مجتمع قبلي لم يسمع بشيء من تلك النظم ، لدليل على ارتباط هذا الإنسان بمبدءٍ أعلى ، غير خاضع لمقتضيات تلك البيئة . بل إنّ ظاهرة كهذه هي بحدّ نفسها نوع من الإعجاز وخروج عن المألوف .

٣ ـ مضمون الدعوة

من جملة القرائن التي ترشد إلى صدق المدّعي أو كذبه في دعواه ، مضمون العقيدة التي يحملها ، والدعوة التي يدعو إليها ، ومقدار التوافق بينهما .

فإذا كانت العقيدة التي يحملها ، والمعارف التي يدعو إلى اعتناقها ، معارف إلهية تبحث في خالق الكون وصفاته وأفعاله ، وكانت دعوته العملية مرشدةً إلى التحلّي بالمُثُل الأخلاقية ، والفضائل الإنسانية ، وناهيةً عن الرذائل النفسية وركوبِ الشهوات المنحرفة والفسقِ والمجونِ ، كانت هذه قرائن على اتصال دعوته بخالق الكون ، ومبدء الخير والجمال .

٤ ـ ثباته في طريق دعوته

إنّ آية كون الدعوى إلهية ، لا يبتغي صاحبها شيئاً من الأعراض المادية ، والمناصب الدنيوية ، ثباتُه في طريق دعوته ، وتضحيته بنفسه وأعزّ أقربائه في ذاك السبيل .

وفي المقابل ، إنّ انهزامه أمام المصاعب ، وتعلّقه بحفظ حياته ، دليل عدم إيمانه بما يدعو إليه ، وبالتالي عدم ارتباط دعوته بمبدءٍ إلهي .

٥ ـ الأدوات التي يستفيد منها في دعوته

من القرائن التي تدلّ على صدق المدّعي في دعوى النُبوّة والسفارة الإلهية ، اعتماده في دعوته على أساليب إنسانية ، موافقة للفطرة والطهارة ، فإنّ لذلك دلالات على إلهية دعواه .

وأمّا لو اعتمد في نشر وتبليغ ما يدّعيه على وسائل إجرامية ، وأساليب وحشية غير إنسانية ، متمسكاً بقول ماكياڤللي : « الغاية تبرر الوسائل »[1] ، كان هذا دليلاً على كون دعواه شخصية محضة ، لا صلة لها بالعالم الربوبي .

٦ ـ المؤمنون به

إنّ لنفسيات المؤمنين بمدّعي النبوة وحواريه ، دلالة خاصة على صدقه فيما يدّعيه ، وذلك أنّ أقرباء المدّعي وبطانته إذا آمنوا به ، واتّبعوا دعوته ، وبلغوا فيها مراتب عالية من التقوى والورع ، كان هذا دالاًّ على صدق المدعي في ظاهره وباطنه ، وعدم التوائه وكذبه ، لأنّ الباطن لا يمكن أن يخفىٰ عن الأقرباء والبطانة .

هذه القرائن وما يشابهها إذا اجتمعت في مدّعي النبوة ، ودعواه التي

---

(١) نيكولو ماكياڤللي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) . سياسي ومؤرخ إيطالي ، احد أعلام عصر النهضة في أوروبا ، شارك في الحياة السياسية في إيطاليا ثم اعتزلها عام (١٥١٢ م) متفرغاً للتأليف . وعرف في تاريخ الفكر السياسي بمؤلفه الشهير « الأمير » ، حيث أيّد فيه نظام الحكم المطلق ، وأحلّ فيه للحاكم اتّخاذ كل وسيلة تكفل استقرار حكمه واستمراره ، ولو كانت منافية للدين والأخلاق وذلك على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة . ومن هنا صار لفظ « المكياڤللية » وصفاً لكل مذهب ينادي بأنّ الغاية تبرر الواسطة أو الوسيلة .
غير أنّ ماكياڤللي عاد في كتابه « المحاضرات » ، فأيّد النظام الجمهوري الذي يقوم على سيادة الشعب ، وعدد مزايا هذا النظام وفَضّله على النظام الملكي .

يدّعيها ، كانت دليلاً قاطعاً على صدقه ، فإنّ كلّ واحدة من القـرائن ، وإن كانت قاصرة عن إفادة اليقين ، إلاّ أنّها بمجموعها تفيده .

أول من طرق هذا الباب

إنّ أوّل من طـرق هـذا البـاب ، وجعـل القـرائن المفيـدة للقـطع بصـدق المـدّعي ، دليلاً عـلى صحة الـدعوى ، هـو قيصر الروم ، فـإنّه عنـدما كتب إليـه الرسول محمد صلى الله عليه وآله ، رسـالة يـدعوه فيهـا إلى اعتناق دينـه الذي أتى به ، أخذ ـ بعد استلامه الرسالة ـ يتأمّل في عبـارات الرسـول ، وكيفية الكتـابة ، حتى وقع في نفسه احتمال صدق الـدعوى ، فـأمر جمـاعة من حـاشيته بـالتجول في الشام والبحث عمّن يعرف الرسول عن قرب ، ومطّلع عـلى أخلاقـه وروحياتـه ، فـانتهى البحث إلى العثور عـلى أبي سفيان وعـدّة كانـوا معه في تجـارة إلى الشـام ، فأحضروا إلى مجلس قيصر ، فطرح عليهم الأسئلة التالية :

* قيصر : كيف نسبه فيكم ؟ .

ـ أبو سفيان : محضٌ ، أوسطنا نسباً[1] .

* قيصر : أخبرني ، هل كان أحد من أهل بيته يقـول مثل مـا يقول ، فهـو يتشبّه به ؟ .

ـ أبو سفيان : لا ، لم يكن في آبائه من يدّعي ما يقول .

* قيصر : هل كان له فيكم ملكك فـاستلبتموه إيّـاه ، فجاء بهـذا الحديث لتردّوا عليه ملكه ؟ .

ـ أبو سفيان : لا .

* قيصر : أخبرني عن أتباعه منكم ، من هم ؟ .

ـ أبـو سفيان : الضعفـاء والمساكـين والأحداث من الغلمان والنسـاء . وأمّـا ذوو الأسنـان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد .

* قيصر : اخبرني عمّن تبعه ، أيحبه ويلزمه ؟ أم يقليه ويفارقه ؟ .

---

(١) أي أعْلانا نسباً .

ـ أبو سفيان : ما تبعه رجل ففارقه .

* قيصر : أخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟ .

ـ أبو سفيان : سجال ، يدال علينا وندال عليه .

* قيصر : أخبرني هل يغدر ؟ .

ـ أبو سفيان : (لم أجد شيئاً ممّا سألني عنه أغمزه فيه غيرهـا فقلت) : لا ، ونحن منه في هدنة . ولا نأمن غدره . (وأضاف أبو سفيان بأن قيصر ما التفت إلى الجملة الأخيرة منه) .

ثم إنّ قيصر أبـان وجه السؤال عن الأمـور السابقـة وأنّـه كيف استنتـج من الأجوبة التي سمعها من أبي سفيان أنّه نبي صادق ، بقوله :

« سألتك كيف نسبه فيكم ، فزعمت أنّه محض من أوسطكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه ، لا يأخذه إلاّ من أوسط قومه نسباً .

وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقـوله ، فهـو يتشبه بـه ، فزعمت أن لا .

وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إيّاه ، فجاء بهذا الحـديث يطلب به ملكه ، فزعمت أن لا .

وسألتك عن أتباعه فزعمت أنّهم الضعفاء والمسـاكين والأحـداث والنساء ، وكذلك اتباع الأنبياء في كل زمان .

وسألتك عمّن يتبعه ، أيحبّه ويلزمه ، أم يقليه ويفارقه . فزعمت أنْ لا يتبعه أحد فيفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه .

وسألتك هل يغدر ، فزعمت أنّ لا . فلئن صدقتني عنه ليغلبنّي على ما تحت قدمي هاتين ، ولوددت أنّي عنده فأغسل قدميه . إنطلق لشأنك » .

قال أبو سفيان : فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يديّ بالأخرى وأقول : إي عبـاد الله ، لقد أَمِـرَ أَمْرُ ابن أبي كبشـة . أصبح ملوك بني الأصفـر يهابـونه في

سلطانهم بالشام[1] .

ومن المأسوف عليه أنّ هذا الطريق الذي سلكه قيصر ، ووجده وسيلة كافية لكشف الحقيقة بذكائه ، قد تُرِك بين المسلمين قرون عديدة .

وسلوك هذا الطريق ، وجمع القرائن والشواهد الدالّة على صدق دعوى المدّعي ، أكثر ملائمة لروح أبناء هذا العصر من التركيز على المعاجز المدوّنة في كتب الحديث ، التي مضت عليها قرون . نعم ، المعاجز أشدّ تأثيراً ، وأسرع في جلب القلوب لمن شاهدها بأم عينيه . ولأجل ذلك كان عامة الأنبياء مجهزين بها بالنسبة إلى أبناء زمانهم .

وممن طرق هذا الباب في القرن الثالث عشر أحد مشايخ الشيعة في مدينة إسطنبول ، فقد ألف كتابه « ميزان الموازين » ، وأوعز إلى هذا الطريق عند البحث عن نبوّة خاتم الأنبياء[2] . وبعده الكاتب السيد محمد رشيد رضا ، مؤلّف المنار ، في كتابه « الوحي المحمدي » ، فقد بلغ الغاية في جمع الشواهد والقرائن . وسنسلك نحن هذا الطريق عند البحث في النبوّة الخاصة .

وفي الختام نركّز على نكتة ، وهي أنّ الإعتماد على الطريقين الأخيرين ، لا يعني الإكتفاء بهما ورفض ما ثبت بالتواتر من المعجزات والبيّنات ، بل لكلٍّ موقعه الخاص يعرفه الكاتب القدير ، والخطيب البارع ، ويستفيد من كلٍّ حسب ما يناسبه الحال .

* * *

---

(1) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ . حوادث السنة السادسة للهجرة .

(2) طبع الكتاب عام ١٢٨٨ .

مباحث النبوّة العامة

(البحث الثالث)

الوحي وأقســامه

إنّ تحديد حقيقة الوحي ، وتبيين ماهيته والفرق بينه وبين سـائر الإدراكـات البشرية ، من المواضيع الحساسة في أبحاث النبـوة العامـة التي لم يستوف حقهـا في الكتب الكلامية ، فأهمل في الكثير منها ، وبحث في الأخـرى على وجـه الإجمال . هـذا مع أنّـه أساس النبـوات والتكاليف والشرائـع ، لأنّ الأنبياء يتلقـون التعاليم السماوية من هذا الطريق ، ولولاه لانقطعت أخبـار السماء[1] ، وصلة الأنبيـاء بالله سبحانه .

ولكن لأجل اختصاص الوحي بالأنبياء ، وحرمان غيرهم من النـاس منه ، يصعب تحديده وبيـان كيفيته ، ويُعَدُّ كشف الستر عن حقيقتـه ، تطلّعـا إلى شيء ليس في اختيار الباحث ، ومع ذلك كلّه ، فإلقاء الضوء عليه بوجه إجمـالي ، ممكنٌ ببيان الأمور التالية :

الأمر الأول ـ الوحي في اللغة

قال ابن فارس في المقاييس : « الوحي أصلٌ يدلّ عـلى إلقاء علمٍ في إخفـاء

(١) هذا اقتباس من قول الإمام علي عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيـزه : « بأبي أنت وأمي يا رسـول الله ، لقد انقـطع بموتـك ما لم ينقـطع بموت غـيرك ، من النبوة والإنبـاء وأخبار السماء (نهج البلاغة ، الخطبة ٢٣٥) .

(أو غيره)[1] ، إلى غيرك . فالوحي : الإشارة ، والوحي : الكتابة والرسالة وكل ما القيته إلى غيرك حتى عَلِمَهُ ، فهو وحي كيف كان » . . . إلى أن قال : « والوحي : السريع . والوَحَى : الصوت »[2] .

وقال الراغب : « أصل الوحي الإشارة السريعة ، وَلِتَضَمُّنِ السُّرعةِ قيل « أمر وَحْي » . وقد يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح ، وبالكتابة ، وقد حُمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[3] »[4]

وقال ابن منظور : « الوحي : الإشارة ، والكتابة ، والرسالة ، والإلهام ، والكلام الخفي ، وكل ما ألقيته إلى غيرك . ويقال : وحيت إليه الكلام ، وأوحيت ، ووحى وَحْياً ، وأوحى أيضاً ، أي كتب »[5] .

والمستنبط من هذه النصوص وغيرها ممّا أورده أهل اللغة في معاجمهم ، أنّ الوحي هو الإعلام بخفاء ، بطريق من الطرق[6] .

الأمر الثاني ـ الوحي في القرآن الكريم

جاء استعمال « الوحي » في القرآن الكريم في موارد متعددة ، ومختلفة ، يجمعها المعنى اللغوي الكلي وهو الإعلام بخفاء ، وهذا المعنى الجامع موجود في بعضها حقيقة ، وفي البعض الآخر مجازاً وادعاءً ، كما لو كان الموحى إليه جماداً أو حيواناً لا يعقل . ويظهر ذلك بالتدبر في الموارد التالية :

---

(١) كذا في نسخة الأصل ، والظاهر زيادته ويحتمل أن يكون عطفاً على العلم .
(٢) معجم مقاييس اللغة ، ج ٦ ص ٩٣ . الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٣٧١ .
(٣) سورة مريم : الآية ١١ .
(٤) المفردات : ص ٥١٥ .
(٥) لسان العرب : ج ١٥ ، ص ٣٧٩ .
(٦) لاحظ تصحيح الإعتقاد للشيخ المفيد ، ص ٥٦ .

١ ـ تقدير الخلقة بالسنن والقوانين

قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ استوى إلى السَّماءِ وهي دُخانٌ ، فقالَ لها وللارض ائْتِيا طَوْعاً أو كَرْهاً فالتا اتَيْنا طائِعين * فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سمٰواتٍ في يَوْمَيْنِ ، وأَوْحى في كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها ، وَزَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابيحَ وَحِفْظاً ، ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ ﴾[١] .

القضاءُ : فَصْلُ الأمر . وضمير : « هُنَّ » ، يرجع إلى السماء . وبما أنّ السماء كانت دُخاناً ، كان أمرها مبهماً غير مشخص من حيث الغاية والفعلية . ففصّل تعالى أمرها ، فجعلها سبع سموات في يومين ، وأخرجها بذلك عن الإبهام .

وأمّا قوله : ﴿ وأوحى في كل سماءٍ أمرها ﴾، فالمراد أنّه سبحانه أودع في كل سماء السنن والأنظمة الكونية ، وقدّر عليها دوامها .

فإذا كان إيجاد السنن والنُّظُم في بواطن السموات ومكامنها ، على وجه لا يقف عليه إلّا المتدبر في عالم الخلقة ، أشبه ذلك الإلقاءَ والإعلامَ بخفاء بنحو لا يقف عليه إلّا الملقى إليه ، وهو الوحي . فكان هذا كافياً في استعارة لفظ الوحي إلى مثل هذا التقدير والتكوين للسُنن ، فقال : ﴿ فأوحى في كلِّ سماءٍ أمرها ﴾ .

ومن هذا القسم ، قوله تعالى : ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزالَها * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقالَها * وَقالَ الإِنْسانُ مالَها * يومَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخبارَها * بأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها ﴾[٢] .

٢ ـ الإدراك بالغريزة

قال سبحانه : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذي مِنَ الجِبالِ بُيوتاً ، وَمِنَ الشَّجَرِ ، وممَّا يَعرِشُونَ * ثُمّ كُلي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ، فاسْلُكي سُبُلَ رَبِّكِ

---

(١) سورة فُصّلت : الآيتان ١١ و١٢ .

(٢) سورة الزلزلة : الآيات ١ ـ ٥ .

ذُلُلاً . . . ﴾[1] .

فكُلُّ الأعمال العجيبة والمدهشة التي يقوم بها النحل ، في صنع بيوته بتلك الأشكال الهندسية المتقنة ، وإدارتها وتدبيرها وحراستها ، ثم الحركة الدؤوبة في التنقل بين البساتين والحقول ، ومصِّ رحيق الأزهار ، وتحويلها إلى عسل ، ثم إيداعها في صفائح الشهد ، وغير ذلك ، فإنّما يقوم به عن غريزة إلهية مودعة في مكامن خلقته ، وصميم وجوده ، لا يتوانى معها عن عمله ولا يختار معه عملاً آخر .

وحيث إنّ هذا الإيداع للغرائز في مكامن الخلقة أشبه بالإلقاء الخفي ، وتلقّي النحل له بلا شعور وإدراك ، أطلق عليه سبحانه الوحي فقال : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ .

٣ ـ الإلهام والإلقاء في القلب

قال سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنا إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعيهِ ، فإذا خِفْتِ عَلَيْهِ فأَلْقِيهِ في اليَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رادّوه إِلَيْكِ وَجَاعِلوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلينَ ﴾[2] .

وحيث إنّ تفهيمَ أُمِّ موسى مصيرَ ولدها كانَ بإلهام وإعلام خَفي ، عبّر عنه بالوحي .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وإذ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنوا بي وبِرسُولي . . . ﴾[3] .

وأيضاً ، قوله تعالى في شأن يوسف عليه السلام : ﴿ وَأَوْحَيْنا إليهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذا وَهُمْ لاَ يَشْعُرونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة النحل : الآيتان ٦٧ و ٦٨ .

(٢) سورة القصص : الآية ٧ .

(٣) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

(٤) سورة يوسف : الآية ١٥ .

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الذينَ آمنوا . . . ﴾[1] .

٤ ـ الإشــــارة

قال سبحانه حكاية عن زكريا : ﴿ قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيةً ، قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سوِياً * فَخَرَجَ عَلَى قَومِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحى إِلَيْهِم أَنْ سَبِّحُوا بُكرةً وعَشِياً ﴾[2] .

والمعنى : أشار إليهم من دون أن يتكلم ، لأَمِرْهِ سبحانه إيَّاه أن لا يكلّم الناس ثلاث ليالٍ سوياً ، فأشبه فعلُه ، إلقاء الكلام بخفاء ، لِكَوْن الإشارة أمراً مُبْهماً .

٥ ـ الإلقاءات الشيطانية

قال سبحانه : ﴿ وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ شياطينَ الإنسِ والجِنِّ يُوحي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُروراً ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشياطِينَ لَيوحُونَ إِلَى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجَادِلوكُمْ . . ﴾[4] .

ويعلم وجه استعمال الوحي هنا ممّا ذكرناه فيما سبقه .

٦ ـ كلام الله تعالى المُنْزَل على نبي من أنبيائه

قال سبحانه : ﴿ كذلكَ يُوحي إليكَ وإلى الذينَ مِنْ قَبْلِكَ آللَّهُ العزيزُ

---

(١) سورة الأنفال : الآية ١٢ .

(٢) سورة مريم : الآيتان ١٠ و ١١ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١١٢ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٢١ .

الحكيمُ ﴾[1] .

وقـد غلب استعمال الـوحي في هذا القسم ، فكلما أُطلق الـوحي وجُرِّد عن القرينة يراد منه ما يُلقى إلى الأنبياء من قِبَل الله تعالى .

الأمر الثالث ـ حقيقة الوحي في النُبوّة

إنّ الإدراكات العادية التي يحصّلها الإنسـان عن طريق الحسّ أو عن طـريق التفكر والإستدلال، هي نتاج أدوات المعرفـة الحسيّة والعقليـة ، فإدراك المبصرات والمسموعات وغيرها ، رَهْنُ إعمال الحواس . كما أنّ الوقوف على الأُصول الفلسفية والعلمية ، نتاج إعمال الفكر والعقل ، فإنّ قولنا : « كلُّ ممكن ، فهو زوج تركيبي لـه ماهيـة ووجود » ، أو : « إنّ كـلَّ معلولٍ يحتـاج إلى علة » ، لم نقف عليـه إلاّ بالرياضـات الفكرية ، وهكذا الحال في القوانين العلمية .

كما أنّ هناك إدراكات تنبع من صميم الذات ويطلق عليها الوجدانيات ، أو الفطريات . كـإدراك حسن الأشياء وقبحهـا ، وإدراك الإنسان جـوعه وعـطشه ، فإنّ الجميع من ومضات الفطرة والغريزة ، ونظير ذلك ما يبدعه الذوق من الفنـون والآداب والرسوم والأعمال اليدويَّة الظريفة ، فإنّها كلّها من وحي الذوق والغريزة إذا وقعت في إطار التربية والتوجيه .

وبـالجملة ، فإنّ كـلَّ ما يـدركه الإنسـان ، نتاجُ أدوات المعـرفة بـأشكـالهـا المختلفة ، حسيّة كانت أو عقلية أو وُجدانية .

وأمّا الوحي الـذي يختص به الأنبيـاء ، فإنّـه إدراك خاص متميـز عن سائـر الإدراكـات ، فإنّـه ليس نتـاج الحسّ ولا العقـل ولا الغـريـزة ، وإنّمـا هـو شعـور خـاص ، لا نعرف حقيقتـه ، يوجـده الله سبحانـه في الأنبياء . وهـو شعور يغـاير الشعور الفكري المشترك بين أفراد الإنسان عامة ، لا يغلط معـه النبي في إدراكه ، ولا يشتبـه ، ولا يختلجه شـك ولا يعترضـه ريب في أنّ الذي يـوحي إليـه هـو الله

---

(1) سورة الشورى : الآية ٣ .

سبحانه ، من غير أن يحتاج إلى إعمال نظر ، أو التماس دليل ، أو إقامة حجة ، ولو افتقر إلى شيء من ذلك ، لكان اكتساباً عن طريق القوة النظرية ، لا تلقياً من الغيب ، من غير توسيط القوة الفكرية .

قال سبحانه : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمينُ على قَلْبِكَ ﴾[1] .

فهذه الآية تشير إلى أنّ الذي يتلقى الوحي من الروح الأمين هو نفس النبي الشريفة (قلبك) ، من غير مشاركة الحواس الظاهرة ، التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأمور الجزئية . فالنبي يرى ويسمع حينما يُوحى إليه ، من غير أن يستعمل حاسَّتَي البصر والسمع .

قال سبحانه : ﴿ وإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا : ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ . قُلْ : ما يكونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلقاءِ نَفْسي ، إِنْ أَتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحى إليَّ ، إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عذابَ يَوم عَظيم * قل : لَوْ شاءَ آللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ولا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلونَ ﴾[2] .

فالأنبياء كلّهم يُسندون تعاليمهم وتنبؤاتهم إلى هذا النوع من الإدراك ، الذي لا مصدر له إلاّ عالم الغيب ، وخالق الكون ، ومثل هذا لا يمكن أن يُدْرَكَ كُنْهُه ، بل يجب الإيمان به كما هو شأن كلِّ أمرٍ غيبي لا يحيط الإنسان المادي بحقيقته ، وإنّما يذعن به عن طريق المُخْبِرِ الصادق . قال سبحانه : ﴿ الذينَ يُؤْمِنونَ بالغَيْبِ وَيُقيمُونَ الصَّلاَةَ ﴾[3] .

وعلى هذا ، فالوحي حصيلة الإتصال بعالم الغيب ، ولا يصحّ تحليله بأدوات المعرفة ولا بالأصول التي تَجَهَّزَ بها العلمُ الحديث . ولما كان العالِمُ الماديُّ غيرَ مذعنٍ بعالَم الغيب ، ويرى أنّ الوجود مساوقٌ للمادة والطاقة ، فيشكل عليه الإذعان بهذا الإدراك الذي لا صلة له بعالم المادة وأُصوله .

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٩٣ .

(٢) سورة يونس : الآيتان ١٥ و١٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٣ .

قال الشيخ محمد عبده ، معرضاً بأولئك المنكرين للوحي :

« إنّ انكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم ، لمن يختصه الله بذلك ، لا أراه مما يصعب إدراكه ، إلاّ على من يريد أن لا يدرك ، ويحبّ أن يرغم نفسه النهّامة على أن لا تفهم . نعم ، يوجد في كلّ أمة وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش ، والنقص في العِلْم ، إلى ما وراء سواحل اليقين ، فيسقطون في غمرات من الشك في كل ما لم يقع تحت حواسهم الخَمْس ، بل يدركهم الريب فيما هو من متناولها ، فكأنّهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان ، فينسون النقل وشؤونه ، ويجدون في ذلك لذّة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهي . فإذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والأديان ، وهم من أنفسهم هامّ بالإصغاء ، دافعوه بما أوتوا من الإختيار في النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ، حذر أن يخالط الدليل أذهانهم ، فيلزمهم العقيدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذّة ما ذاقوا ، أو ما يحبون أن يتذوقوا ، وهو مرض في الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم إنشاء الله » .

ثم أضاف : « قلت : أي استحالة في الوحي ، وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره ، من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم أنّ ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر ، حتى حَفَّت العنايةُ من ميَّزَتْهُ هذه النعمة .

فما شهدت به البديهة ، أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضاً ، وأنّ الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلاّ على وجه من الإجمال ، وأنّ ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم ، بل لا بدّ معه من التفاوت في الفطر التي لا تدخل فيها ، لاختيار الإنسان وكسبه .

فمِنْ ضَعْف العقول ، والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها ، أن لا يسلم بأنّ من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ، ما لم يصل غيرها إلى تعقّله أوتحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً

علـى ما يتلقـاه أحدنـا عن أساتـذة التعليم . ثمّ تصـدر عن ذلـك العلم إلى تعليم ماعلمت ، ودعوة الناس إلى ما حُملت على إبلاغه إليهم ، وأن يكون ذلك سنّة الله في كلّ أُمّة وفي كل زمان حسب الحاجة ، يظهر بـرحمته من يختصـه بعنايتـه ، ليفي للإجتماع بمـا يضطرّ إليـه من مصلحته ، إلى أن يبلغ النـوع الإنساني أشُـدّه وتكون الأعلام التي نصبها لهـدايته إلـى سعـادته ، كـافية في إرشـاده ، فتختم الرسـالة ، ويغلق باب النبوة »[1] .

ثم إنّ هؤلاء الذين اتّخذوا لأنفسهم موقفاً مسبقاً في سعة الـوجود وضيقـه ، وسعـة أدوات المعـرفـة وضيقهـا ، فعجـزوا عن إدراك الـوحي كنــوع متميـز عن الإدراكـات البشرية ، حـاولوا تحليله بـأُصول مـاديـة حتى يسهـل عليهم تصـديق الأنبياء وعدم اتّهامهم بتعمد الكذب . فمالوا يميناً وشمـالاً في بيان حقيقتـه : فتارة يرون الوحي نوعاً من النبـوغ الخاص بـالأنبياء ، وأخـرى نتيجة ظهـور الشخصية الباطنية للرسول ، فتلهمه بما ينفعه وينفع قومه . ونحن فيما يلي نتعرض إلى هـاتين النظريتين ونحللهما الواحدة بعد الأخرى ، ثم نعرّج عـلى بيان نـظرية الفـلاسفة في حقيقة الوحي :

النظرية الأولى ـ الوحي نتيجة النّبوغ

إنّ هنـاك أُناسـاً يفسرون النبوات والـرسالات ونـزول الـوحي عـلى العبـاد الصالحين بنحو يجمع بين تصديق الأنبيـاء من جانب ، والأُصـول العلمية الحـديثة المـادية من جانب آخر. ومن هـذا الباب تفسـير بعضهم النبوة بـالنبوغ ، والـوحي ـ الذي هو المصدر الوحيد للتسنين والتشريع ـ بلمعات ذاك النبوغ .

وحاصل مذهبهم أنّه يتميز بين أفـراد الإنسان المتحضر ، أشخـاص يملكون فـطرة سليمة ، وعقـولاً مشرقـة ، تهـديهم إلى مـا فيـه صـلاح الإجتـماع وسعـادة الإنسان ، فيضعون قـوانين فيهـا مصلحة المجتمـع ، وعمران الـدنيا . والإنسـان

---

(١) رسالة التوحيد . ص ١٠٩ ـ ١١١ .

الصالح الذي يتميز بهذا النوع من النبوغ ، هو النبي . والفكر الصالح المترشح من مكامن عقله وومضات نبوغه هو الوحي . والقوانين التي يسنّها لصلاح الاجتماع هي الدين . والروح الأمين (جبرائيل) ، هو نفسه الطاهرة التي تفيض هذه الأفكار إلى مراكز إدراكه . والكتاب السماوي ، هو كتابه الذي يتضمن سننه وقوانينه . والملائكة التي تؤيّده في حلّه وترحاله ، هي القوى الطبيعية . والشيطان الذي يقاومه ويقاوم أتباعه هو النفس الأمّارة بالسّوء ، أو سائر القوى الحيوانية الداعية إلى الشرّ والفساد . ومع ذلك كلّه ، فالله سبحانه من وراء الجميع .

تحليل نظرية النُبوغ

إنّ تفسير النبوة بالنبوغ ليس تفسيراً جديداً ، وإن صيغ في قالب علمي جديد ، فإنّ جذوره تمتد إلى عصر ظهور الإسلام حيث كان العرب الجاهليون يحسّون بجذبات القرآن وبلاغته الخلابة ، فينسبونه إلى الشعر الذي كان الحرفة الرائجة عندهم ، ويتبارز فيه النوابغ منهم ، فكانوا يقولون : ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيةٍ كما أُرْسِلَ الأوَّلون ﴾[1] .

ويرد عليهم القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قليلاً ما تُؤْمنون ﴾[2] .

وبقوله : ﴿ وما علَّمناهُ الشعرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ ، إنْ هُو إلاّ ذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبِينٌ ﴾[3] .

ومع ذلك يلاحظ عليه :

أولاً : إنّ العودة إلى هذه النظرية ينبع من الإحساس بالصَّغار أمام الحضارة المادية المُدهشة ، المقترنة بأنواع الإكتشافات والإختراعات في مجال

(١) سورة الأنبياء : الآية ٥ .
(٢) سورة الحاقة : الآية ٤١ .
(٣) سورة يس : الآية ٦٩ .

الطبيعة ، والقائلون بها جماعة من متجددي المسلمين ، انسحبوا أمام هذه الحضارة ناسين شخصيتهم الإسلامية ، فلجأوا إلى تفسير عالم الغيب والنبوة والدين والوحي بتفسيرات ملائمة للأصول المادية ، حتى يَجْبُروا مركّب النقص في أنفسهم من هذه الزاوية ، ويصيحوا على رؤوس الأشهاد بأنّ أصول الدين لا تخالف الأصول العلمية الحديثة .

ولو صحّت هذه النظرية ، لم يَبْقَ من الإعتقاد بالغيب إلّا شيء واحد ، وهو الإعتقاد بوجود الخالق الباريء ، وأمّا ما سوى ذلك ، فكلّه بأجمعه نتاج الفكر الإنساني الخاطيء وبالنتيجة ، لا يبقى إذعان بشيء مما أتى به الأنبياء من الأصول والمعارف في الدنيا والآخرة . وهذا في الواقع نوع إنكار للدين ، لكن بصورة لا تخدش العواطف الدينية .

وثانياً : إنّ قسماً مما يقع به الوحي ويخبر به النبي ، الإنباء عن الحوادث المستقبلية ، إنباءً لا يخطيء تحققه أبداً .

أفترى هل يجرؤ نابغة من نوابغ المجتمع على الإنباء بنزول العذاب قطعاً بعد أيام ثلاثة ، ويقول : ﴿ تَمَتَّعوا في دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[1] .

أو يخبر بهزيمة جيوش دولة عظمى في مدة لا تزيد على تسع سنين ويقول : ﴿ ألم * غُلِبَتْ الرومُ * في أدنى الأرض وهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبونَ * في بِضْعِ سنينَ . . . ﴾[2] .

إنّ النوابغ وإن سَمَوْا في الذكاء والفطنة ، لا يخبرون عن الحوادث المستقبلية إلّا مع الإحتياط والترديد ، لا بالقطع واليقين وأمّا رجالات السياسة ، اللاعبين بحبلها لمصالحهم الشخصية ، سواء صدقت تنبؤاتهم أم كذبت ، فإنّ حسابَهم غيرُ حساب النوابغ .

---

(١) سورة هود : الآية ٦٥ .

(٢) سورة الروم : الآيات ١ ـ ٤ . والبِضع من العدد من ثلاثة إلى تسعة .

وثالثاً : لو كان لهذه النظرية مسحة من الحق أو لمسة من الصدق ، فما لنا لا نرى حملة الوحي ومدعي النبوة ينبثون بشيء من ذلك ، بل نراهم على العكس ، ينسبون تعاليمهم وسننهم إلى الله سبحانه ، ولا يدّعون لأنفسهم شيئاً .

هذا هو القرآن الكريم ـ الذي جاء به النبي الخاتم ـ يصرّح بأنّ ما حوى من الحقائق والقوانين ، ممّا أوحى به الله سبحانه ، وليس هو من تلقاء نفسه :

﴿ إن أتّبعُ إلاّ مَا يُوحى إليّ ﴾[1]

﴿ إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحىٰ ﴾[2] .

ولا يشك أحد في أنّ الأنبياء عبادٌ صالحون ، صادقون لا يكذبون ولا يفترون ، فلو كانت السنن التي أتوا بها من وحي أفكارهم ، فلما ذا يغرون المجتمع بنسبتها إلى الله تعالى . فهذه النسبة ، إن دلّت على شيء ، فإنّما تدلّ على أنّهم كانوا يجدون في أنفسهم أنّ إدراكَ هذه السنن والمعارف ، إدراكٌ وراءَ الشعور الفكري المشترك بين جميع أفراد الإنسان ، وأنّ الطريق الذي يصلون به إليها ، غيرُ طرق الإدراك المألوفة

وبكلمة جامعة ، إنّا نرى في المجتمع الإنساني طائفتين من رجال الإصلاح والصلاح ، كلٌّ يدّعي سَوْقَ المجتمع إلى السعادة :

طائفة ـ ولهم جذور عريقة في التاريخ ـ ينسبون تعاليمهم وسننهم إلى عالم الغيب ، ويثبتون لأنفسهم مقام الرسالة والسفارة وأنّهم ليس لهم شأن سوى كونهم وسائط لإبلاغ أمر الله ونهيه .

وطائفة أخرى ـ مع اتّصافهم بالصلاح والسداد والسعي وراء الصالح العام ـ ينسبون تعاليمهم إلى قرائحهم وبدائع أفكارهم ، ويعلّلون مبادءهم ببراهين اجتماعية أو تاريخيّة أو عقلية ، ولا يتجاوزون هذا الحدّ قدر شعرة .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٠ .

(٢) سورة النجم : الآية ٤ .

فلو كانت الطائفتان صادرتين عن أصل واحد ، وتستقيان من عين واحدة ، فلماذا لم تَدّع ثانيتهما ما ادعته الأولى ؟ .

ثم إنّ علماء النفس الـذين بحثـوا عن النبـوغ ،ذكـروا لـبُروزه وتفجـرّه في الإنسان عواملَ ، هي :

١ ـ العشـق .

٢ ـ انهضام الحُقـوق .

٣ ـ العـزلـة .

٤ ـ كثـرة السـكوت .

٥ ـ التربية والتوجيه الأوّلي الذي يتلقّاه الإنسان في صغره .

فإنّ هذه العوامل توجد في الإنسان استغراقاً في نفسه ، وتوقّداً في أفكـاره ، وتميُّزاً في فطنته وذكائـه . ولكن تفسير النبـوات والرسـالات ، والقوانـين والشرائع التي جـاء بها الأنبيـاء بهذا الـطريق ، أشبه بتفسـير علّة تفجر الـبركان وثـورانـه ، بسقوط طائر على فوهته .

هذا ، ولو كانت شريعة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله ، والكتـاب المجيد الـذي جاء بـه ، وليديْ النبـوغ والعبقريـة ، فلماذا عجز عن مقـابلته ومقـارعته ، النوابغ والعباقرة طرّاً في جميع القـرون إلى عصرنا هـذا ، كما سيـوافيك تفصيله في النبوة الخاصة ؟ .

* * *

النظرية الثانية ـ الوحي النفسي

إنّ تفسير الوحي بصورة الوحي النفسي ، منشؤه قسـاوسة المسيحيـين الذين لا هدف لهم إلاّ تفنيد رسالة النبي الخـاتم ، وتخطئتهـا ، فتشبث هؤلاء بكل وجـه خادع ، يوهم في ظاهره الملائمة لـروح العصر وآخرِ مـا توصلت إليـه الحضارة من النظريات الفكرية ، والإبداعات العلميـة ، ثم طبقوه بعبـارات وقوالب متجـددة على حياة النبي الأكرم ، والوحي المنزل عليه .

وإرجاع الوحي الإلهي إلى الوحي النفسي هو الجامع بين النظريتين المتقاربتين التاليتين اللتين طرحتا في زماننا هذا . .

الأولى ـ الوحي نتيجة تجلّي الأحوال الروحية

هذه النظرية مأثورة عن المستشرق « مونتييه » وفصّلها « إميل درمنغام » ، وحاصلها أنّ الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج . وذاك أنّ منازع نفسه العالية ، وسريرته الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته ، وترك ما سواها من عبادة وثنية ، وتقاليد وراثية رديئة ، يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ، ويُحدث في عقله الباطن ، الرؤى والأحوال الروحية فيتصور ما يعتقد وجوبه ، إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة . أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك ، يعتقد أنّه ملك من عالم الغيب ، وقد يسمعه يقول ذلك ولكنه إنّما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة ، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي ، عند جميع الأنبياء . فكلّ ما يُخْبِر به النبي أنّه كلام القي في روعه ، أو ملك ألقاه على سمعه ، فهو خبر صادق عنده .

ويقول أصحاب هذه النظرية : لا نشك في صدق الأنبياء في إخبارهم عمّا رأوْا وسمعوا ، وإنّما نقول إنّ منبع ذلك من نفسه وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي يقال إنّه وراء عالم المادة والطبيعة(١) .

ويقولون في نفس النبي الأكرم إنّه توصّل إلى الوحي بالإنقطاع إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه في خلوته بغارِ حِراء ، وقَوِيَ هنالك إيمانُه ، وسَما وُجدانُه ، فاتّسع محيطُ تفكُّرِهِ ، وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات البيّنات في ملكوت السموات والأرض ، الدالّة على وحدانية مبدع الوجود ، وسرّ النظام الساري في كل موجود ، بما صار به أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وما زال يفكّر ويتأمل ، وينفعل ويتململ ، ويتقلّب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن أنّه النبي المنتظر الذي يبعثه الله لهداية البشر . فتجلّى

---

(١) لاحظ الوحي المحمدي ، صفحة ٦٦ ، الطبعة السادسة ، ١٩٦٠ م .

لـه هذا الإعتقـاد في الرؤى المنـامية ، ثم قـوي حتى صار يتمثّـل له الملك ، يلقّنـه الوحي في اليقظة .

وأمّـا المعلومات التي جـاءته في هـذا الوحي فهي مستمـدة الأصـل من تلك الينابيع التي ذكرناها ، ومما هداه إليه عقله وتفكّره في التمييز بين ما يصـحّ منها ومـا لا يصـحّ ، ولكنها كـانت تتجلّى لـه نازلـة من السـماء ، وأنّها خـطاب الخـالق عـزّ وجلّ ، بواسطة الناموس الأكبر وملك الوحي ، جبرئيل روح القُدس(١) .

وبكلمة أدقّ : إنّ معلوماته وأفكاره وآماله ، ولّـدت له إلهـاماً ، فـاض من عقله الباطن أو نفسه الخفيـة الروحـانية العـالية ، عـلى مخيّلته السـامية ؛ وانعكس اعتقاده على بصره : فرأى الملك ماثـلاً له ، وعـلى سمعه : فـوعى ما حـدّثه الملك به(٢) .

تحليل هذه النظرية

أ ـ نُبُوّةٌ أو أضغاث أحلام

هذه النظرية التي جاء بها بعض الغربيين ، وإن كانت تنطلي على السذج من الناس وتأخذ بينهم رونقاً ، إلاّ أنّ رجـال التحقيق يدركـون تمامـاً أنّها ليست بشيء جـديد قـابـل للذكـر ، وإن هي إلاّ تكـرار لمقـالات العـرب الجـاهليـين في النبـوة والوحي ، غير أنّ الغربي أخذ يديف السم في الدسم ، ويعرض ما أكل الدهر عليه وشرب ، بصورة نظرية حديثة برّاقة تتمحور في أنّ رجـال الوحي أُنـاس مُخَبّطون ، استغرقوا في التفكير في أُمنياتهم عقوداً من الدهر حتى رأوها مـاثلة في خيالهم وأمـام حسّهم .

إنّ الذكر الحكيم ينقل لنا أنّ من جملة مقالات العرب وافـتراءاتهم على النبي الأكرم ، وَصْم شريعته بأنّها نتاج الأحـلام العذبـة التي كانت تـراود خاطـره ، ثم تتجلى على لسانه وبصره .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥ .

قال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ ﴾[1] أي قالوا : إنّ النبي ليس مختاراً فيما جاءَ به من الكتاب ، وشرَّعه من الأحكام ، وإنّما هو وحيُ الأحلام ، وطوارق الرؤى تجري على لسانه .

وقد ردّ تعالى مزعمتهم هذه في موضع آخر من كتابه ـ من دون أن يذكر تُهمتهم ـ بقوله : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صاحِبُكُمْ وما غَوَى * وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى * وَهُوَ بالأُفُقِ ٱلأَعْلَى * ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى * فكانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى * فَأَوْحى إِلَى عَبْدِهِ ما أَوْحى * ما كَذَبَ ٱلفُؤَادُ مَا رَأى * أَفَتُمارُونَهُ عَلَى ما يَرى * وَلَقَدْ رآهُ نَزْلَةً أُخرى * عِنْدَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهى * عِندها جَنَّةُ ٱلْمَأْوى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * ما زاغَ ٱلْبَصَرُ وما طَغَى ، لَقَدْ رَأَى مِنْ آياتِ رَبِّهِ ٱلكُبْرى ﴾[2] .

فهذه الآيات تركّز على صدق الوحي ، وكونه أمراً واقعياً مُفاضاً من الله سبحانه . وأنتَ إذا لاحظت منها الآيتين التاليتين ، يتجلى لك بوضوح حقيقةُ ذلك .

أ ـ قوله : ﴿ ما كَذَبَ ٱلفُؤَادُ ما رَأى ﴾ .

والمعنى لم يكذّب فؤاد محمد ما أدركه بصره ، أي كانت رؤيته صحيحة غير كاذبة ، وإدراكاً على الحقيقة .

وهذا ، سواءُ قُرِءَ « كذب » بالتشديد ، فالموصول مفعولُه ، أو قُرِءَ بالتخفيف ، كما هو القراءة المعروفة ، فهو يتعدى إلى مفعول ، قال الشاعر :

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٥ .

(٢) سورة النجم : الآيات ١ ـ ١٨ . والمراد من « شديد القوى » هو ملك الوحي والضميران في « فاستوى » و « وهو بالأفق الأعلى » ، يرجعان إلى شديد القوى وكذلك الضمير في قوله : « أوحى » ، وأمّا الضمير في عبده فيرجع إلى الله سبحانه .
وقد اشتبه الأمر على كثير من المفسّرين في تفسير هذه الآيات فزعموا أنّ النبي رأى الله سبحانه وتعالى .

كذبتك عينك أم رأيتَ بواسط غلَس الظّلام من الرباب خيالاً

وعلى كل تقدير ، فالآية بصدد بيان أنّه لم يكن هناك اختلاف بين تصديق القلب ورؤية العين ، فإذا صدّق القلب ، تكون الرؤية حقيقةً .

ب ـ قوله : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ .

أي ما زاغ بصر محمد وما طغى . وهو كناية عن صحة رؤيته وأنّه لم يُبصر ما أبصره على غير صفته الحقيقية، ولا أبصر ما لا حقيقة له . بل أبصر غيرَ خاطىء في إبصاره .

والآيتان بصدد بيان مصونية قلبه وبصره عن الخطأ ، في مقام الأخذ والتلقّي ، ولا تتم الصيانة إلاّ بمصونية كل جوارحه إذا كانت في خدمة الوحي . فهو صلى الله عليه وآله يُبْصر بعينه ، ويسمع بأذنه ، ويدرك بقلبه الأشياء والحقائق على ما هي عليه من دون خطأ .

ب ـ نُبُوَّةٌ أو جنونٌ

ولك أن تقول ، إنّ مقالة هؤلاء المتجددين ، ليست بعيدة ولا غريبة عن اتّهام الأنبياء بالجنون الذي هو في حقيقته مرتبة عالية وشديدة من تجلّي النزعات الخيالية . هذه التهمة التي افتراها العرب على النبي الخاتم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيُّها الذي نُزِّلَ عليه الذِّكْرُ إنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[1] . وأشار إليها القرآن في موارد عديدة أخرى[2] ، وافتراها أعداء الأنبياء المتقدمين عليهم ، كما يقول تعالى : ﴿ كذلك ما أَتى الذين من قَبْلِهِمْ من رَسولٍ إلاّ قالوا ساحرٌ أو مجنون * أَتَواصَوْا بِهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون ﴾[3] ، ثم افتراها هؤلاء القساوسة والمستشرقون

---

(١) سورة الحجر : الآية ٦ .

(٢) قد جاءت هذه الفرية في المواضع التالية من الذكر الحكيم :
سورة سبأ : الآية ٨ ، سورة الصافات : الآية ٣٦ . سورة الدخان : الآية ١٤ . سورة الطور : الآية ٢٩ . سورة القلم : الآية ٢ . سورة التكوير : الآية ٨٢ .

(٣) سورة الذاريات : الآيتان ٥٢ و٥٣ .

بصياغة أدبية وقوالب علمية ، تحت إسم « تجلّي الأحوال الروحية » . والمغزى والجوهر واحد .

سبحانك يا رب ، ما أعظم جناية الإنسان على أوليائك والصالحين من عبادك ، البالغين القمة في العقل والدراية والفكر والحكمة ، حتى وسمهم هؤلاء المفترون تارة بالخبط وأخرى بالجنون .

الثانية ـ الوحي نتيجة ظهور الشخصية الباطنة

وقد أسهب الأستاذ فريد وجدي الكلامَ فيها في موسوعته ، نأتي منه بما يكفي في بيان المراد منها :

كان الغربيون إلى القرن السادس عشر ـ كجميع الأمم المتدينة ـ يقولون بالوحي ، لأنّ كتبهم مشحونة بأخبار الأنبياء . فلما جاء العلم الجديد بشكوكه ومادياته ، ذهبت الفلسفة الغربية إلى أنّ مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة ، وغالت حتى أنكرت الخالق والروح معاً . وعلّلت ما ورد عن الوحي في الكتب القديمة بأنّه إمّا اختلاق من المتنبئة أنفسهم لجذب الناس إليهم وتسخيرهم لمشيئتهم ، وإمّا هَذَيانٌ مَرَضيٌ يعتري بعض العصبيين ، فيخيل إليهم أنّهم يرون أشباحاً تكلّمهم ، وهم لا يرون في الواقع شيئاً .

وقد راج هذا التعليل في العالم الغربي حتى صار مذهب العلم الرسمي . وظلّ الأمر على هذا المنوال حتى العام ١٨٤٦ عندما ظهرت في أمريكا آية الأرواح وسرت منها إلى أوروبا كلها، وأثبت الناس بدليل محسوس وجود عالم روحاني آهل بالعقول الكبيرة والأفكار الثاقبة ، فتغير وجه النظر في المسائل الروحانية ، وأحييت مسألة الوحي بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة ، وأعاد العلماء البحث فيها على قاعدة العلم التجريبي المقرر ، لا على أسلوبَ التقليد الديني ، ولا من طريق الضرب في مهامه الخيالات .

فقد تألّفت في لندرة سنة ١٨٨٢ جمعية دعيت باسم « جمعية المباحث النفسية » ، برئاسة السير « جويك » المدرس في جامعة كمبريدج ، وهو من أكبر

العقـول في انكلترا ، وعضـويــة السـير « أوليفـرلـودج » الملقب بـ « داروين علم الـطبيعة » ـ أي أنّـه لعالم الـطبيعة ، كـداروين للتاريـخ الـطبيعي ـ مـع عـدّة من الأسـاتذة المتخصصـين في صنوف العلوم الـطبيعية والـرياضيـة والفلكيـة . وكـان الغرض من هذه الجمعية البت في المسألة الروحية ، وتحقيق حوادثها بأسلوب النقد الصارم ، والحكم بقبولها نهائياً في العلم إن كـانت حقيقةً ، أو تقـرير إبعـادها عن العلم والفلسفة إن كانت من الأمور الوهمية .

وفي خلال مدّة تربو على خمس وأربعين سنة ، حققت هذه الجمعية ألوفاً من الحوادث الروحية ، وعملت من التجارب في النفس وقواها ما لا يكاد يدرك ، لولا أنّه مُدوَّن في محاضر تلك الجمعية في نحو خمسين مجلداً ضخماً ، فكان من ثمـرات جهادها :

١ ـ إثبـات شخصية ثـانية لـلإنسان أي إنّنـا أحيـاء مـدركـون فـي حيـاتنـا الحاضرة ، لا بكل قوى الروح التي فينا ، بل بجزء من تلك القوى ، سمحت لنـا بها حواسنا الخمس القاصرة . ولكن لنـا فوق مـا تعطيـه لنا حـواسنا هـذه ، حياة أرقى من هذه الحياة ، لا تظهر بشيء من جلالها إلاّ إذا تعطّلت فينا هـذه الشخصية العادية بالنوم العادي ، أو بالنوم المغناطيسي .

وقد جرّبوا ذلك على المنوَّمـين تنويمـاً مغناطيسيـاً ، فوجـدوا أنّ النائم يـظهر بمظهر من الحياة الروحية والعلم ، لا يكون له وهو يقـظان ، فيعلم الغيب ، ويخبر عن البعيدين ، يبصر ويسمع ويحسّ بغير حواسه الجسمية ويكون ـ وهو عـلى تلك الحالة ـ على جانب كبير من التعقّل والإدراك .

قالوا : وتكون هذه حالة الإنسان في نومه العادي . والدليل على ذلك ، مـا يأتيه المصابون بمرض الإنتقال النومي من الأفعال المعجزة ، والمدارك السامية .

٢ ـ ثبت لـديهم وجود شخصيـة راقية لـلإنسان وراء شخصيتـه العـاديـة . وعلموا أنّها هي التي كوّنت جسمه في الرحم . وهي التي تحـرّك جميع أعضـائه التي ليست تحت حكم إرادته ، كالكبد ، والقلب ، والمعدة ، وغيرها . . . فهـو إنسان بها ، لا بهذه الشخصية العادية المكتسبة من الحواس القاصرة .

قالوا : وهي التي تهديه بالخواطر الجيّدة من خلال حُجُبِهِ الجسمية الكثيفة ، وهي التي تعطيه الإلهامات الطيبة الفجائية في الظروف الحرجة . وهي التي تنفث في روع الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من الله ، وقد تظهر لهم متجسدة فيحسبونها من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء .

قالوا : وهذه الشخصية الباطنة أصبحت مُدْرَكَةً بالحسّ ، فإنَّ ظهور النائم نوماً مغناطيسياً ، بهذا المظهر من العقل الراجح ، والفكر الثاقب ، والنظر البعيد ، واكتشافه لخفايا الأمور ، وجولانه في الأقطار البعيدة ، بينما يكون هو جاهلاً غبياً في حالاته العادية ، أدلّ دليل على أنّ للإنسان شخصية تحجبها هذه الحياة الجسدية ، ولا تظهر إلاّ إذا وقع جسمه في نوم طبيعي أو صناعي .

وهناك أمور أخرى تدلّ بالحس على وجود تلك الشخصية ، درستها الجمعية وحققت تجارب الذين درسوها :

فقد كتب الأستاذ الدكتور « ميرس » ، فصولاً ضافية في التنويم المغناطيسي ، والعبقرية ، والوحي ، والشخصية الباطنة ، فذكر الحاسبين على البديهية ، وهم طائفة من الناس ، تلقى عليهم أعوص المسائل الرياضية التي تحتاج إلى زمن طويل في الحساب والعمل ، فيجيبون عليها على الفور ، وهم لا يدرون كيف وجد هذا الحلّ في نفوسهم . وهذا الأمر يثبت وجود الشخصية الباطنة بدليل محسوس ، لأنّ الجواب الصحيح عن المسائل الرياضية العويصة ، إن لم تأت به هذه الشخصية العادية ، فلا بدّ أن تكون ثمرة قوى باطنة أخرى لا تنكشف للإنسان إلاّ بآثارها هذه .

وحكى العلامة « ميرس » قول العالم الفرنسي « ترودم » : « حدث لي في بعض الأحايين أنّي كنت أجد فجأة برهان نظرية هندسية القيت إليّ منذ سنة ، وذلك من دون أن أعيرها أقل التفات . لعلّه يقال في تعليل ذلك إنّ المعلومات المختَزَنَة في عقلي من مطالعاتي قد نضجت من نفسها ، وولّدت في عقلي البراهين عليها ، من نفسها أيضاً » .

وقال « ميرس » : لقد كتب الشاعر المشهور « موسيه » عن نفسه يقول :

« أنا لا أعمل شيئاً ، بل أسمع ، فأنقل ، فكأنّ إنساناً مجهولاً يناجيني في أذني » !! .

هذه خلاصة هذه النظرية وتاريخ نشأتها[1] ويمكن تحريرها بكلمتين :

الأولى : إنّ الشخصية الظاهرية العادية للإنسان ، أسيرة قواه الظاهرية (الحواس الخمس) .

الثانية : إنّ الشخصية الباطنة للإنسان إنّما تتجلى ، وتظهر آثارها ، إذا تعطّلت القوى الظاهرية ، وتخدّرت فعاليتها ، كما في حالات النوم العادي أو المغناطيسي .

ثم بلحاظ هاتين النكتتين ، يفسّر الوحي في الأنبياء ، فإنّ كل ما يحدثون به من التعاليم والإخبارات ليس إلّا إفاضات شخصياتهم الباطنة وإيحاءاتها عند تعطّل قواهم الظاهرية .

تحليل نظرية الشخصية الباطنة

إنّ هذا التفسير للوحي ـ الناتج عن الغرور العلمي وحصر جميع ما في الكون ضمن إطار الأُصول التجريبية ـ فاشل من جهات شتّى :

الجهة الأولى : إنّ الفرضية التي جاءت بها هذه النظرية ـ لو سلّمت ـ ليست دليلاً ولا برهاناً على كون خصوص الوحي عند الأنبياء من سنخ إفاضة الشخصية الباطنة وتجلّيها عند تعطّل القوى الظاهرية . بل قد تكون هذه الفرضية صحيحة ، ومع ذلك يكون للوحي في الأنبياء عاملاً إلهياً ، يفيض تلك المعارف والأُصول والإنباءات الغيبية إلى عقول الأنبياء وقلوبهم فيعرّفونها للبشر .

الجهة الثانية : إنّ الذي تفيده هذه النظرية ، هو أنّ الشخصية الباطنة للإنسان إنّما تتجلّى وتجد مجالاً للظهور بآثارها المختلفة ، عند تعطّل القُوى

---

(١) لاحظ فيما نقلناه ، دائرة معارف القرن الرابع عشر ، ج ١٠ ، ص ٧١٢ ـ ٧١٦ .

الظاهرية ، فلذا يقوى ظهورها في المرضى والسكارى والنائمين والمُرْهَقين وتبقى مندثرة ومغمورة في طوايا النفس عندما تكون القُوى الظاهرية والحواس البشرية في حالة الفعالية والجدّ والسعي .

هذا ، وإنّ المعلوم من حالات الأنبياء عليهم السلام أنّ الوحي الإلهي كان ينزل عليهم في أقصى حالات تَنَبُّهِهم واشتغالهم بالأمور السياسية والدفاعية والتبليغية ، فكيف يكون ما تجلّى للنبي وهو يخوض غمار الحرب ، تجلياً للشخصية الباطنة ، والضمير المخفي ، أو ما شئت فعبّر ، ممّا لا يرى النور ، إلاّ في حالات الغفلة والغيبوبة وما شابه ذلك ، كما يصرّح به هؤلاء ؟ .

وأين الأنبياء من الخمول والإنعزال عن المجتمع ، وهم أولو الجهاد ، والصبر والثبات في مواجهة الأعداء وتبليغ رسالاتهم السماوية ؟ .

فما ذكرناه دليل قاطع على بطلان تفسير الوحي بما ذكروه .

الجهة الثالثة : لا شكّ أنّ الشخصية الباطنة للإنسان لا تملك تلك المعلومات التي تفيضها في حالات تعطّل الحواس ، من ذاتها وصميمها من دون أن تتلقى شيئاً من خارجها . وإن دعوى ذلك ، باطلٌ ، لا قيمة له في سوق العلوم النفسية . فإنّ الذي توصّل إليه علماء النفس قبل « فرويد » وبعده ، هو أنّ الشخصية الباطنة للإنسان تُحفظ فيها المعارف التي تردّها عبر القوى والشخصية الظاهرية ، وذلك عندما لا ترغب الشخصية الظاهرية في إبقائها في مجال نشاطها وتفكرها ، فتنسحب تلك الأفكار والمعارف إلى أعماق ضميره وشخصيته الباطنة ، فتكمن في زواياها ، وتختبيء بين طواياها ، مُتَحيِّنة فرصة تعطيل الشخصية الظاهرية ، حتى تنبعث من مكامنها ، وتجري على لسان صاحبها من دون إرادة منه ولا ميل ، كما عرفت في حالات التنويم المغناطيسي ، وكما يقع غالباً في حالات السهو والغفلة ، من تلفّظ الإنسان بما لا يرغب ، أو يتحاشى إظهاره ممّا أضمره في نفسه ، ولا يُظهره قطعاً عند التفاته وانتباهه . وفي هذا المجال يقول علي عليه السلام : « ما أَضْمَرَ أَحَدٌ شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه »[1] .

(١) نهج البلاغة باب قصار الحكم ، الحكمة ٢٦ .

وعلى ما ذكرنا يمتنع أن تكون تلك المعارف العليا ، والشرائع والقوانين الاجتماعية التي جاء بها الأنبياء ، نتاج الشخصية الباطنة ، والضمير المخفي وكيف يكون ذلك ، والمصدر الوحيد للمعارف الموجودة في الضمير المخفي هو الشخصية الظاهرية وما تأخذه الحواس من خارج الذهن والمحيط والبيئة . والمحيط الذي عاش فيه الأنبياء ، وترعرعوا في أحضانه ، في واد آخر من هذه المعارف والشرائع ، لم يسمع ولم يخبر بها .

فلا يبقى بالنتيجة إلّا أن يكون لها مصدر ومنبعٌ آخر ، غير ما يدعون .

إنّ هذه المعلومات التي يعطيها هؤلاء المحلّلون لمسألة الوحي ، قليلة المواد ، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي مثل القرآن الكريم . فإنّ ما جاء في هذا الكتاب من الأحكام والمعارف العليا لا يمكن أن تكون مستمدة من الوحي بهذا المعنى .

وأنّى يكون ليتيم فقير ، نشأ بين الأُميين ، ليس عنده كتاب يرشده ، ولا أُستاذ ينبّهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، أن يأتي ولو بمعشار ما في هذا الكتاب من السنن والنظم والمعارف والعقائد . فلا يبقى إلّا القول بأنّه فائض من نور الله الأعظم على رسوله وخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وآله ، كما يقول البوصيري :

الله أكبرُ إنّ دينَ محمد وكتابَه أقوى وأَقْومَ قيلا

لا تذكروا الكُتُبَ السوالفَ عنده طَلَعَ الصباحُ فاطفَأْ القِنديلا[1]

---

(١) في الختام نعاتب الأستاذ فريد وجدي بما أنّه رجل موحّد مؤمن بعوالم الغيب ورسالة السماء إلى الأرض ، التي تلقّاها الأنبياء عن طريق الوحي ، نعاتبه كيف نقل هذه النظرية الساقطة حول الوحي بإسهاب ، وأوضحها ، ولم يعلّق عليها شيئاً ، وكأنّه بها راض ، ولها مُتَبَنٍّ !! . وهذا الذي وقع منه ، ربما يؤيد ما ذكره مصطفى صبري ، شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، من أنّ الأستاذ المذكور كان منكراً لمعجزات الأنبياء ، ومضيفاً إليه عند النقاش إنكار البعث بعد الموت ، وقد نَقَلَ عنه هذه العبارات :

« ولد العلم الحديث ، وما زال يجاهد القوى التي كانت تساوره ، فتغلب عليها ، ودالت الدولة إليه في الأرض ، فنظر نظرة في الأديان وسرى عليها أسلوبه ، فقذف بها جملة في عالم الميتولوجيا (أي الأساطير) . ثم بحث في اشتقاق بعضها عن بعض ، واتّصال أساطيرها بعضها ببعض ، فجعل

الثالثة ـ نظرية الفلاسفة المشائين في الوحي

سلك المشائيون من فلاسفة الإسلام ، في تحليل الوحي ، مسلكاً خاصّاً لم يمت إلى ما سبق من التحليلات بصلة ، وتبتني نظريتهم على أصول لا مجال لذكره هنا ، وإنّما نأتي بمجمل معتقدهم ونبيّنه في أمور :

الأول : قد أثبتوا بفضل قاعدة الواحد لا يصدر منه إلاّ الواحد[١] ، إنّ الصادر الأول من الواجب سبحانه شيء واحد وهو العقل الأول ، ثم أفاض الوجود ، فأوجد العقل الثاني ، ثم أوجد الثاني الثالث إلى أنِ انتهى الفيض بإيجاد العقل العاشر ، وهو المسمى عندهم بالعقل الفعّال . وليست العقول عندهم منحصرة على وجه القطع بالعشرة ، بل لم يجدوا دليلاً على أزيد منها[٢] .

= ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديساً ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد لها الإنسان نفسه ، ويقف على صيانتها جهوده ، غير مدّخر في سبيلها روحه وماله .

وقد اتّصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة ، فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ، ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف على هذه « الميتولوجيا » ، ووجد دينه ماثلاً فيها ، فلم ينبث بكلمة ، لأنّه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد ، متيقناً أنّه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية .

وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتّاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية ، فسحرتهم ، فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها ، دساً في مقالاتهم وقصائدهم ، غير مصارحين بها غير أمثالهم ، تفاديا من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض » .

لاحظ موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين ، ج ١ ، ص ٢٤ . وفي الكتاب نصوص من مشاهير أساتذة مصر حول معجزات الأنبياء وخوارق العادات ، وكأنّهم كانوا منكرين لها ، محاولين توجيهها وتأويلها على نحو يلائم روح العصر بزعمهم . ونحن لا نذكر هنا أسماء أولئك الأساتذة الذين اتّهمهم صبري بالشذوذ عن الكتاب والسنّة ، ولكن نوصي طلاب الحقيقة بمطالعة هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة حتى يقفوا على كيفية زعزعة العلم الحديث لأركان الأزهر الشريف ، والضجة الكبيرة التي أوجدها في مفكريه حول الغيب والمعاجز والوحي والملائكة والجن ، وكل ما لا يصل إليه الإنسان بأدوات المعرفة المادية !! .

(١) المراد قاعدة : « لا يصدر من الواحد إلاّ الواحد » ، وعكسها : « لا يصدر الواحد ، إلاّ من الواحد » . وقد برهنوا عليها ببرهان فلسفي ، لا ينافي صدور ما في الكون جليله ودقيقه من الله سبحانه على نحو ترتب الأسباب والمسببات .

(٢) لأنّ طريق الاستكشاف هو الأفلاك التسعة المحسوسة الكاشفة عن النفوس التسع والعقول العشرة ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى محله .

الثاني : إنّ ما يقوم به العقل العاشر من الفعل والإفاضة ، هو تكميل النفوس الإنسانية أوّلاً ، وإفاضة الصور الجوهرية على عالم المادة ثانياً .

فالمخرج للنفوس الإنسانية من القوة إلى الكمال ، ومفيضُ المعارف على قلوب الأولياء ، والصور الحيوانية والشجرية والمعدنية على المادة الأولى ، هو العقل الفعّال ، بإذنه سبحانه .

الثالث : إنّ الإنسان مجهز بالحواس الظاهرية الخمس المعروفة ، كما هو مجهز بحواس باطنية خمس ، هي :

١ ـ **الحس المشترك :** وهو القوة المدركة لما يرد العقل عبر الحواس الخمس الظاهرية .

٢ ـ **الخيال :** وهو مخزن الصور المحسوسة المأخوذة من الحسّ المشترك .

٣ ـ **الواهمة :** وهي القُوّة المدركة للمعاني الجزئية ، كالعداوة والصداقة .

٤ ـ **الحافظة :** وهي مخزن المعاني الجزئية المرسلة من الواهمة .

٥ ـ **العاقلة :** وهي القوّة المدركة للمفاهيم الكلية والحقائق المطلقة عن المادة وآثارها ، ولها شؤون أخرى ، كتركيب الأقيسة والأدلة وغير ذلك .

الرابع : إنّ النفوس الضعيفة غير الكاملة ، أسيرة القوى الباطنة في مدارجها المختلفة ، من القوّة العاقلة إلى الحسّ المشترك ، ومنه إليها .

وأمّا النفوس القوية الصافية ، فإنّ بإمكانها الخروج عن هذا الإطار والإتصال بالعقل الفعّال ، إتصالاً روحانياً معنوياً ، وتلقّي الحقائق والمعارف من ذلك الموجود النوراني .

وهكذا ، فإنّ المعارف العليا المفاضة من العقل الفعّال ، تنعكس على القوّة العاقلة ، ثم تفاض منها إلى القوة الخيالية ، ومنها إلى الحسّ المشترك ، وتأخذ كل قوة ما هو المناسب لحالها وذاتها : فالحقائق المفاضة من العقل الفعّال إلى النفوس الكاملة الإنسانية في مرحلة القوة العاقلة ، علومٌ ومعارف . وفي مرتبة القوة الخيالية ، صور وتمثّلات . وفي مرحلة الحسّ المشترك ، كلام فصيح ومنظوم .

فالنبي إذا تمّ استعداده ، وصَفَت نفسه ، يجد في نفسه استعداداً للإتصال بذلك العالم الأعلى ، فتفاض عليه الحقائق والدقائق ، من معارف المبدأ والمعاد ، والكون والحياة ، والإنسان والمجتمع ، كلّها بصورة معارف كليّة .

ولكن هذه المعارف إذا تنزّلت إلى الدرجة التالية ، أعني القوة الخيالية ، تتمثل في خياله ملكاً نورانياً يكلمه ويخاطبه بتلك المعارف والأحكام والسنن .

كما أنّها إذا تنزّلت إلى الدرجة الثالثة ، أعني الحسّ المشترك ، قرع أسماعه صوت وكلام تلتذ به نفسه ، وتحفظه مصوناً عن كل تغيّر وتبدّل .

فليس للوحي حقيقة إلاّ انعكاس ما في العقل الفعّال من المعارف والعلوم على عقل النبي ، ثم تنزله منه إلى خياله ، ومنه إلى حسّه . وليس هذا الإتصال والتنزل وتلقّي المعارف الكلية ، وتمثل الملك ومشاهدته ، وسماع الصوت والكلام المنظوم ، أشياء وهمية لا واقعية لها ، بل لكلٍّ منها درجة واقعية أحقّ من الواقعية الظاهرية المادية .

يقول صدر المتألهين : « إنّ سبب إنزال الكلام وتنزيل الكتاب ، هو أنّ الروح الإنسانية إذا تجرّدت عن البدن ، مهاجرةً إلى ربّها لمشاهدة آياته الكبرى ، وتطهّرت عن المعاصي والشهوات والتعلّقات ، لاح لها نور المعرفة والإيمان بالله وملكوته الأعلى . وهذا النور إذا تأكّد وتَجَوْهَر ، كان جوهراً قدسياً يسمى عند الحكماء في لسان الحكمة النظرية بالعقل الفعّال ، وفي لسان الشريعة النبوية بالروح القدسي .

وبهذا النور الشديد العقلي ، يتلألأ فيها (أي الروح الإنسانية) أسرار ما في الأرض والسماء ، ويتراءى منها حقائق الأشياء ، كما يتراءى بالنور الحسيّ البصري ، الأشباح المثالية في قوّة البصر إذا لم يمنعها حجاب ، والحجاب ها هنا هو آثار الطبيعة وشواغل هذا الأدنى . وذلك لأنّ القلوب والأرواح ـ بحسب أصل فطرتها ـ صالحةٌ لقبول نور الحكمة والإيمان إذا لم يطرء عليها ظلمة تفسدها كالكفر ، أو حجاب يحجبها كالمعصية وما يجري مجراها .

ويعبارة أخرى : إذا أعرضت النفس عن دواعي الطبيعة وظلمات الهوى

والإشتغال بما تحتها من الشهوة والغضب والحسّ والخيال وولّت بوجهها شطر الحق ، وتلقاء عالم الملكوت ، اتّصلت بالسعادة القصوى ، فلاح لها سرّ الملكوت وانعكس عليها قدس اللاهوت ، ورأت عجائب آيات الله الكبرى .

ثم إنّ هذه الروح ، إذا كانت قدسية شديدة القوى ، قوية الإنارة لما تحتها ، لقوة اتّصالها بما فوقها ، فلا يشغلها شأن عن شأن ، ولا يمنعها جهة فوقها عن جهة تحتها ، فتضبط للطرفين ، وتسع قوتها الجانبين (الملك والملكوت) ، لشدّة تمكّنها في الحدّ المشترك بين الملك والملكوت . لا كالأرواح الضعيفة ، التي إذا مالت، إلى جانب غاب عنها الجانب الآخر ، وإذا ركنت إلى مشعر من المشاعر ، ذهلت عن المشعر الآخر .

فإذا توجهت هذه الروح القدسية التي لا يشغلها شأن عن شأن ، ولا يصرفها نشأة عن نشأة ، وتلقت المعارف الإلهية بلا تعلّم بشري ، بل من الله ، يتعدى تأثيرها إلى قواها ، ويتمثل لروحه البشرى ، صورة ما شاهده بروحه القدسي وتبرز منها إلى ظاهر الكون ، فيتمثل للحواس الظاهرة ، لا سيما السمع والبصر ، لكونهما أشرف الحواس الظاهرة ، فيرى ببصره شخصاً محسوساً في غاية الحُسْن والصباحة، ويسمع بسمعه كلاماً منظوماً في غاية الجودة والفصاحة ، فالشخص هو الملك النازل بإذن الله ، الحامل للوحي الإلهي ، والكلام هو كلام الله تعالى ، وبيده لوح فيه كتاب .

وهذا الأمر المتمثل بما معه أو فيه ، ليس مجرد صورة خيالية لا وجود لها في خارج الذهن والتخيّل ، كما يقوله من لا حظ له من الباطن، ولا قَدَم له في أسرار الوحي والكتاب ، كبعض أتباع المشائين ، معاذ الله عن هذه العقيدة الناشئة من الجهل بكيفية الإنزال والتنزيل »[1] .

---

(١) الأسفار الأربعة ، ج ٧ ، ص ٢٤ ـ ٢٥

تحليل نظرية الفلاسفة

أُعتُرِض على هـذه النظريـة باعـتراضات عـديدة ، غـير واردة عند من أمعن النظر وتدبّر فيها ، نذكر بعضاً منها :

الإعتراض الأول : إنّ نتيجة هذه النظرية أنّه لا واقعية للملك ولا للصوت في مرتبة الحسّ ، لأنّ القوّة التخيّلية في ذهن النبي هي التي توجد الصـوت وصورة الملك في تلك المرتبة ، ثم ينعكس من الخيال إلى مرتبة الحسّ .

الجـواب : إنّ ما ذكـر من الإعـتراض يَـرِد عـلى عقيـدة بعض المشائييـن في الوحي ، كما صرّح به صدر المتألهين نفسه في كلامـه المتقدم . وأمّـا عند غـيرهم ، فللوحي درجات واقعية حسب مراتب وجوده . فله وجـود عقلي وخيـالي وحسيّ ، وليس أيٌّ منهـا مصنـوعَ ذهن النبي ونفسـه ، تلك النفس الصـافيـة الصقيلة التي ينعكس فيها كل ما في عالم العقل الفعّال . وما ذكرنـاه من عبارات صـدر المتألهـين أوضح شاهد على ذلك .

الإعـتراض الثـاني : إنّ هـذا التصـويـر للوحي ، مقلوب مـا نـأنسـه في الإدراكـات في هذه الحيـاة ، فإنّ الـترتيب الطبيعي لـلإدراك هو الحسيّ ثم الخيـالي فـالعقـلي . ولكن عـلى هـذه النـظريـة ، ينقلب الأمـر ويشرع الإدراك من العقـل وينتهي بالحسّ .

الجواب : إنّ ما ذكره المعترض حقّ في الإدراكات المعادية ، وأمّا الإدراكـات المتجـاوزة حدّ العـادة ، فهي على عكس المـأنوس . والـوحي النازل عـلى الأنبيـاء إدراك خارق للعادة بدليل عظمة المعارف والقوانين التي يأتي بها الوحي إليه .

وغير ذلك من الإعتراضات القابلة للجواب .

والملاحظة الصحيحـة على هـذه النظريـة ، هي أنّ ما ذكـروه من أنّ حقيقةً واحدةً تتجلى في نفس النبيّ بصـورٍ ثلاث ، وإن كـان غير ممتنـع ، إلاّ أنّه لا دليـل عـلى أنّ الـوحي هـو خصـوص ذاك . إذ ربّ وليّ من الأوليـاء الـذين صفت ضـمائرهم ، وطهـرت قلوبهم ، نالـوا المعـارف والحقـائق المفـاضـة من ذاك العـالم

بالإشراق ومع ذلك لا يصحّ تفسيره بالوحي المصطلح وإلّا كان كل إنسان يدرك في عقله حقيقة عليا ثم تتجلى في خياله ثم في حسّه ، نبياً أو رسولاً .

وقد بلغ الحواريون درجةً راقيةً من المعرفة والإدراك حتى خاطبهم الباري عزّ وجلّ ، كما يشير إلى ذلك بقوله : ﴿وإذْ أوْحَيْتُ إلَى الحَواريينَ أنْ آمِنوا بي وَبِرسولي ، قالُوا آمَنَّا واشْهَدْ بأنَّنا مُسلمون﴾[1] . ومع ذلك لم يُسَمِّهِمُ القرآن رسلاً ، ولا أنبياء ، ولا الكلام المنزل عليهم وحياً نبوياً ، رسالياً ، وإنّما كان إلهاماً قوياً .

فحق المقال في الوحي ما ذكرناه في صدر البحث ، من أنّه مجهول الكنه ، معلوم الآثار ، يجب الإيمان به كالإيمان بالغيب على الإطلاق .

* * *

---

(١) سورة المائدة . الآية ١١١ .

مباحث النبوّة العامة

(البحث الرابع)

سِمات الأنبيــاء

إنّ أخطر المناصب وأكبرها مسؤولية ، قيادة المجتمع البشري وهدايته إلى السعادة ، فإنّها تتطلب في المتصدي لها مؤهّلات وامتيازات خاصة يتفرد بها عن سائر الناس .

ولتقريب عظمة تلك المؤهلات المطلوبة في هكذا إنسان ، نلاحظ جانباً واحداً من الجوانب الحيوية ، كإدارة الشؤون الإقتصادية ، أو السياسية ، أو العسكرية أو التربوية ، فإنّ القيادة في واحد منها تتطلب درجة عالية من الخبرة والمعرفة والتدبير ، فكيف إذا كانت دائرة القيادة واسعة النطاق ، تدير دفة كافة جوانب الحياة ، كما هي وظيفة رسل السماء لا سيما خاتمهم الذي به سُدَّ باب الوحي والنبوة ؟ فلا بد ، والحال هذه ، أن يتصفوا بفضائل روحية ، ومُثُل خُلُقية ، تُميِّزُهم عن غيرهم من البشر ، وتجعَلُهم في قمَّة الأخلاق والتزكية وحسن السيرة ، ثم في الإدارة والقيادة ، وتجتمع هذه الصفات في الأُمور التالية :

١ ـ العِصْمَة ، ولها مراتب ثلاث :

المرتبة الأُولى ـ المصونية عن الذنب ومخالفة الأوامر المولوية .

المرتبة الثانية ـ المصونية في تلقي الوحي ، ووَعْيه ، وإبلاغه إلى الناس .

المرتبة الثالثة ـ المصونية من الخطأ والإشتباه في تطبيق الشريعة والأمور الفردية والاجتماعية .

٢ ـ التنزّه عن كل ما يوجب نفرة الناس عنه وعُقم التبليغ .

٣ ـ الإطلاع على أُصول الدين وفروعه وكلّ ما أُلقي إبلاغه على عاتقه .

٤ ـ التحلّي بكفاءة خاصة في القيادة والإدارة مقترنة بحسن التدبير[1] .

وإليك البحث فيما يلي عن هذه السمات الواحدة تلو الأُخرى .

* * *

(١) هذه الصفة تختص بالنبوات التي تقود المجتمع في جميع المجالات ولا تشترط في كل نبي ، إذ رُبَّ نبي لا تتجاوز نبوتُه نفسه ، ولا تعدو قيادتُه إطاراً خاصاً ، ومـا أكثر الأنبيـاء عدداً ، ومـا أكثر غـاياتهم وأهدافهم اختلافاً ، سعة وضيقاً .

سمات الأنبياء

(١)

العِصْمَـــــة

قد عرفت أنّ للعصمة مراتب ثلاث : العصمة عن المعصيـة ، والعصمة في تبليـغ الـرسـالـة ، والعصمـة عن الخـطأ في تـطبيق الشريعـة والأمــور الفـرديــة والإجتماعية .

ونحن نقدم البحث في عصمة الأنبياء عن المعصية ، عـلى عصمتهم في مقام تبليغ الرسالة ، مع أنّ أكثر المتكلمين يقدمون الثاني عـلى الأول باعتبـار كونـه أمراً متفقـاً عليه بـين المسلمين إلاّ من شـذّ . وإنّما خـالفنا الـترتيب ، لأنّ العصمة عن المعصية تؤول إلى العصمة في مقام العمد ، بينما العصمة في تبليغ الرسالة ترجع إلى العصمة عن السهو والخطأ ، فطبيعة البحث تقتضي ما نقوم به .

* * *

المرتبة الأولى للعصمة

العصمة عن الذُّنُــوب

ويقع البحث في مقامات ثلاثة :

الأول ـ بيان حقيقة العصمة عن المعاصي والذنوب .

الثاني ـ بيان مبدأ ظهور فكرة العصمة .

الثالث ـ بيان الدليل على لزوم اتّصاف الأنبياء بها .

ثم نختم البحث بالإجابة عن سؤالين هامّين .

* * *

المقام الأول ـ حقيقة العصمة عن المعاصي

قـال ابن فارس : « عَصَمَ : أصـلٌ واحدٌ صحيـح يدلّ عـلى إمساكٍ ومنـعٍ وملازمةٍ ، والمعنى في ذلك كلّه واحدٌ . من ذلك « العصمة » : أنْ يعصم الله عبدَه من سوءٍ يقع فيـه . واعتصم العبد بـالله تعالى : إذا تَمَنَّعَ . واستعصم : التجأ ، وتقول العرب : أعصَمْت فـلاناً ، أي هيّـأتُ له شيئـاً يعتصم بما نـالته يـده ، أي يلتجيء ويتمسك به »[1] .

(١) المقاييس ، ج ٤ ، ص ٣٣١ .

هذا في اصطلاح أهل اللُّغة .

وفي اصطلاح المتكلِّمين : «العصمة قوة تمنع الإنسان عن اقتراف المعصية ، والوقوع في الخطأ »[1] .

وربما تُعَرَّف أيضاً بأنّها : « لطف يفعله الله في المكلف بحيث لا يكون له مع ذلك داعٍ إلى ترك الطاعة ، ولا إلى فعل المعصية ، مع قدرته على ذلك »[2] .

ومن العجب تفسير الأشاعرة العصمة بأنّها عبارة عن أنّه سبحانه لا يخلق في المعصومين ذنباً[3] . فإنّه تعريف واهٍ سخيف على الأُصول التي سلكناها من أنّ فاعل الذنب وموجده هو العبد مباشرة ، بقوة منه سبحانه . نعم هو صحيح على أصولهم القائمة على إنكار السببية والعلّية بين الأشياء .

وفيما ذكرناه من التعاريف كفاية في المقام ، وإنّما المهم بيان حقيقة العصمة بنحو يرفع الغموض عنها ، وهو يحصل ببيان الوجوه التالية :

الوجه الأول : العصمة غصن من دوحة التقوى

إنّ التقوى في العاديين من الناس ، كيفية نفسانية تعصم صاحبها عن اقتراف كثير من القبائح والمعاصي ، ولأجل ذلك نرى البون الشاسع بينهم وبين المجرمين ، المليئة حياتهم بالجرائم وقبائح الأعمال ، بينما حياة المتقين خلو منها إلاّ ما شذّ .

فإذا كان هذا أثر التقوى العمومية ، فما بالك بالتقوى ، إذا ترقت في مدارجها وعَلَت في مراتبها ، إنّها حينذاك تبلغ بصاحبها درجة العصمة الكاملة ، والإمتناع المطلق عن ارتكاب أي قبيح من الأعمال ، أو ذميم من الأفعال ، بل يمتنع معها حتى عن التفكير في خلاف أو معصية .

---

(١) الميزان ، ج ٨ ، ص ١٤٢ .

(٢) إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين ، ص ٣١٠ .

(٣) إبطال نهج الباطل ، للفضل بن روزبهان ، على ما في ذيل دلائل الصدق ، ج ١ ، ص ٣٧٠ .

وعلى هذا ، فالعصمة ملكة نفسانية راسخة في النفس ، لها آثار خاصة كسائر الملكات النفسانية مثل الشجاعة والعفة والسخاء : فإنّ الإنسان إذا كان شجاعاً وصبوراً ، سخياً وباذلاً ، عفيفاً ونزيهاً ، تراه يتطلب في حياته معالي الأمور ، ويتجنب سفاسفها ، فيطرد عن نفسه الخوف والجُبْنَ والبُخْلَ والإمساكَ ، والقبائح والمساويء ، ولا ترى لها أثراً في حياته .

وهكذا نقول في العصمة ، فإنّ الإنسان إذا بلغ درجة قصوى من التقوى ، يصل إلى حدّ من الطهارة لا يُرى معه في حياته أثر من آثار المعصية والتمرّد على أوامر الله تعالى . وأما كيف تحصل فيه هذه الكيفية النفسانية ، فهو ما نبحثه في الوجه الثاني .

وعلى ما ذكرنا ، تنقسم العصمة إلى عصمة مطلقة وعصمة نسبية ، والأولى تختص بطبقة خاصة من الناس ، والثانية تعمّ كثيراً منهم . فكم من الناس يتورعون عن السرقة والقتل ونحو ذينك ، وإن عُرضت عليهم المكافآت المادية الكبيرة ، وما ذلك إلّا لانتفاء الحوافز إلى هذه الأفاعيل ، في قرارة أنفسهم ، إمّا نتيجة للتقوى أو غيرها من العوامل . وتصديق العصمة النسبية الملموسة لنا ، يُقَرِّب تصوُّرَ العصمة المطلقة إلى الأذهان ، والتي هي كون الإنسان في مرتبة شديدة من التقوى تمنعه عن اقتراف جميع أنواع القبائح ، طُرّاً .

الوجه الثاني : العصمة نتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي

إنّ العلم القطعي بعواقب الأعمال الخطيرة ، يخلق في نفس الإنسان وازعاً قوياً يصدُّه عن ارتكابها ، وأمثاله في الحياة كثيرة . فلو وقف أحدنا على أنّ في الأسلاك الكهربائية طاقة من شأنها أن تقتل من يمسّها عارية من دون عائق ، فإنّه يحجم من تلقاء نفسه عن مسّ تلك الأسلاك والإقتراب منها . ونظير ذلك ، الطبيب العارف بعواقب الأمراض وآثار الجراثيم ، فإنّه إذا صادف ماءً اغتسل فيه مصاب بالجُذام أو البَرَص ، أو إناءً شرب منه مصابٌ بالسِّلّ ، لا يقدم على الإغتسال فيه أو شربه ، مهما اشتدت حاجته إليه ، لعلمه بما يَجُرّ عليه الشرب والإغتسال بذاك الماء الموبوء ، من الأمراض ، وقسّ على ذلك سائر العواقب

الخطيرة ، وإن كانت من قبيل السقوط في أعين الناس ، وفقدان الكرامة وإراقة ماء الوجه بحيث لا ترغد الحياة معه .

فإذا كان العلم القطعي بالعواقب الدنيوية لبعض الأفعال يوجد تلك المصونيةعن الإرتكاب ، في نفس العالم ، فكيف بالعلم القطعي بالعواقب والأخروية للمعاصي ورذائل الأفعال ، علماً لا يداخله ريبٌ ولا يعتريه شكٌ ، علماً تسقط دونه الحُجُب فيرى صاحبُه رَأْيَ العين ، ويَلْمِسُ لَمْسَ الحِسِّ ، تَبِعاتِ المعاصي ولوازِمَها وآثارَها في النشأة الأخرى . ذاك العلم الذي قال تعالى فيه : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحيمَ ﴾[1] ، فمِثْلُ هذا العِلم يخلُق من صاحبه إنساناً مثالياً ، لا يخالف قول ربّه قيد أنملة ، ولا يتعدى الحدود التي رسمها له في حياته قدر شعرة ، ولن تنتفي المعصية من حياته فحسب ، بل إنّ مجرّد التفكير فيها ، لن يجد سبيله إليه . وكأنّ الإمامَ علياً يصف هؤلاء في قوله : « هم والجنّة كمن قد رآها ، فهم فيها مُنعمون »[2] .

إنّ الإنسان إذا وصل إلى المقام الذي يرى فيه بالعيون البرزخية تبدُّلَ الكنوز المكتنزة من الذهب والفضة ، إلى جمرات ملتهبة تُكوى بها جباه الكانزين وجنوبهم وظهورهم ، يمتنع ـ شهد الله ـ عن كنزها . يقول سبحانه : ﴿ والذينَ يَكْنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلا يُنْفِقونَها في سبيل الله فَبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أليمٍ * يَوْمَ يُحمى عليها في نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بها جِباهُهُم وجُنوبُهُم وظهورُهُم ، هذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فذوقوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزونَ ﴾[3] .

إنّ قوله سبحانه : ﴿ هذا ما كُنْتُمْ ﴾ ، يعرب عن أنَّ النار التي تكوى بها جباه الكانزين وجنوبهم وظهورهم ليست شيئاً غير الذهب والفضة ، وإنّما هي تلك البيضاء والصفراء التي تتجلى بوجودها الأخروي في تلك النشأة ، فإنّ لها صورتان ، صورةٌ دنيوية معروفة ، وصورةٌ أُخروية هي النيران المحماة .

---

(١) سورة التكاثر : الآيتان ٥و٦ .

(٢) نهج البلاغة ، خطبة المتقين ، الخطبة ١٩٣ .

(٣) سورة التوبة : الآيتان ٣٤ و ٣٥ .

فالإنسان العادي اللامس لهذه المعادن المكتنزة ، لا يحسّ فيها بالحرارة ، ولا يرى فيها النـاس واللهيب ، لأنّه يفقـد حين المسّ ، الحِسَّ المناسبَ لدرك نيران النشأة الآخرة . وأمّا الإنسان الكامل ، المالك لهـذا الحسّ إلى جانب بقية حواسه العادية ، فـإنّه يـدرك الوجـه الآخر لهـذه الفلزات ، ويحسّ أيما إحسـاس بنـارهـا ولهيبها ، فلذلك هو يجتنبها كاجتنابه النيران الدنيوية ، ولن يقدم أبـداً على جمعهـا وتكديسها .

وهذا البيان الثاني الذي ذكرناه ، يفيـد أنّ للعلم مرحلة قـوية ، راسخـة ، تُغَلِّب الإنسان على الشهوات وتَصُدُّه عن فعل المعاصي والآثام . ونجد هـذا البيان في كلمات جمال الدين الفـاضل مقـداد بن عبد الله السُيـوري الحلّي في كتـابه القيّم « اللّوامع الإلهية » ، يقول : « العصمة ملكة نفسانية تمنع المتصف بهـا من الفجور مـع قـدرتـه عليـه . وتتـوقف هـذه الملكـة عـلى العلم بمثـالب المعـاصي ومنـاقب الطاعات . لأنّ العفة متى حصلت في جوهر النفس وانضاف إليهـا العلم التام بمـا في المعصية من الشقاء وفي الطاعة من السعادة ، صار ذلك العلم موجباً لرسـوخها في النفس ، فتصير ملكة »[1] .

وليس المُدَّعى أنّ كل علم بعواقب الأفعال يصد الإنسان عن ارتكابها ، وأنّ العلم بمجرده يقوم مقـام التكليف الإلهي ، فإنّ ذلـك باطـل بلا ريب ، لأنّـا نرى الكثـيرين من ذوي العلوم بمَضَراتِ المُخَـدِّرات والمُنْكـرات والأعـمال الشنيعـة لا يتورعون عن ارتكـابها ، استسهـالاً للذم في مقابـل قضاء وَطَـرهم منها . فلو كـان العلم بعواقب المعاصي من قبيل ما نتعـارفه من أقسـام الشعور والإدراك ، لتسرب إليـه التخلّف ، لكنّ سنخ العلم الـذي يصيِّر الإنسـان معصومـاً ، ليس من سنخ هذه العلوم والإدراكات المتعارفة ، بـل علمٌ خاصٌ فـوقها ، ربمـا يعبر عنـه بشهود العواقب وانكشافها كشفاً تاماً لا يبقى معه ريب .

وإن شئت تقريب ذلك أكثر ، فلنفترض أنّ إنساناً يرى أمام ناظريـه بركـاناً عظيماً يقـذف بكتل هـائلة من الحميم الملتهب ، ووقف على أنّ اقـتراف عمل مـا

---

(١) اللوامع الإلهية ، ص ١٧٠ .

يوجب رميه في جوف هذا البركان الهائل ليبقى محبوساً في أحشائه مدة من الزمن يناله عذاب الحريق الرهيب ولا يموت . فهل يقدم إنسان يمتلك شيئاً من العقل على اقتراف هذا العمل ؟ .

يقول سبحانه : ﴿ وَيْلٌ يومئذٍ للمكذِّبين * إنْطَلِقُوا إلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبونَ * إنْطَلِقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ * لاَ ظَلِيلٍ وَلا يُغْني مِنَ اللَّهَبِ * إنَّها تَرْمي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ * كأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ ﴾[1] .

وعلى ضوء هذا البيان ، فشهود نتائج المعاصي وعواقبها ، شهوداً لا يُبقي في النفس أيَّ ريب وشك ، يصدُّ الإنسان عن اختيار ارتكابها ، صدّاً قاطعاً ، ومع ذلك لا يتنافى مع اختياره ولا يسلب حريته ، كما سيوافيك .

الوجه الثالث : الإستشعار بعظمة الربّ وكماله وجماله

وإنّ هنا بياناً ثالثاً للعصمة لا يخالف البيانين السالفين ولبّ هذا البيان يرجع إلى أنّ استشعار عظمة الخالق والتفاني في معرفته ، وحُبِّه وعشقِه ، صادٌ عن سلوك ما يخالف رضاه ، وهذه الدرجة من الحبِّ والعشق ، أحد عوامل حصول تلك المرتبة من التقوى المتقدمة ، وهي لا تحصل إلاّ للكاملين في المعرفة الإلهية .

إنّ الإنسان إذا عرف خالقه كمال المعرفة الميسورة ، واستغرق في شهود كماله وجماله وجلاله ، وجد في نفسه انجذاباً نحوه ، وتعلّقاً خاصاً به ، على نحو لا يستبدل برضاه شيئاً . ويدفعه شوق المحبة إلى أن لا يبتغي سواه ، ويصبح كل ما يخالف أمره ورضاه منفوراً لديه ، مقبوحاً في نظره أشدَّ القبح ، وتلك هي درجة العصمة الكاملة ، ولا ينالها إلاّ الأَوْحَدِيُّ من الناس .

وإلى هذا يشير الإمام عليٌّ عليه السلام بقوله : « ما عبدتُك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ، إنّما وجدتكَ أهلاً للعبادة فعبدتك »[2] .

* * *

(١) سورة المرسلات : الآيات ٢٨ ـ ٣٣ .

(٢) حديث معروف مروي عن الإمام عليه السلام .

هذه التحليلات والبيانات الثلاثة التي ذكرناهـا في حقيقة العصمـة ، نظريـةٌ واحدةٌ ، تُعْرِبُ بمجموعها عن أنَّ العصمةَ قُوّةٌ في النفس تعصم الإنسان عن مخالفة الرّب سبحانه وتعالى ، وهي معجونةٌ في ذات الإنسان الكامل وهُوِيَّتَهُ الخارجية .

نعم ، كل ما ذكرناه يرجع إلى العصمة بأحـد معانيهـا ، وهو المصـونية عن المعصيـة والتمرّد عـلى أوامر المولى ، وأمّـا العصمـة في مقـام تلقّي الـوحي أوّلاً ، والتَّحَفُّظ عليه ثانيـاً ، وإبلاغـه إلى الناس ثـالثاً ، والعصمـة عن الخطأ في الأمـور الفردية والإجتماعية ، فلا بدّ لها من عاملٍ آخر ، نتعـرض له في الأبحـاث الآتية ، بإذنه تعالى .

* * *

المقام الثاني ـ مبدأ ظهور فكرة العصمة

إنّ الكتب الكلامية ، قديمها وحديثها مشحونة بالبحث عن العصمة ، فيقع السؤال في مبـدأ ظهور هـذه الفكـرة بـين المسلمـين ، ومن يقف وراء طـرحهـا في الأوساط الكلامية .

لا ريب في أنّ علماء اليهود ليسوا هم المبدعين لهـذه الفكرة ، لأنّهم يصفـون أنبياءهم بأقبح الذنوب وأفظع المعاصي وهذا العهد القديم يسجّـل لداود وسليـمان وقبلهما يعقوب ، ما يندى لـه الجبين ويخجـل القلم عن نقله[1] ، فكيف يمكن بعد هذا أن يكون أحبار اليهود المظهرين للإسلام ، هم المبدعون لهذه الفكرة .

ولا شك أيضاً في أنّ علماء النصـارى ليسوا هم كـذلك ، فـإنّهم وإن كانـوا ينـزهون المسيـح عن كلّ عيب وشـين ، إلاّ أنّ ذلك ليس بمـلاك أنّه بشـريٌّ أُرْسل لتعليم الإنسان وإرشاده ، بل بما هو « إلهٌ متجسِّد » ، أو « ثالثُ ثلاثةٍ » .

وبعد هذا فاعلم ، أنّ بعض المستشرقين من رمـاة القول عـلى عواهنـه ، لمّا

---

(١) سنتعرض لذلك مفصّلا عند البحث في الشاهد الرابع من شواهد إعجاز القـرآن ، وهو هيمنتـه على الكتب السماوية ، من مباحث النبوة الخاصّة .

حار في تحديد زمن ومصدر نشوء فكرة عصمة الأنبياء في الإسلام ، ذهب إلى أنّ هذه الفكرة مرجعها إلى تطور علم الكلام عند الشيعة ، وأنهم أوّل من تطرق إلى بحثها في العقائد . ومردّ ذلك ـ يضيف هذا المستشرق ـ إلى أنّ الشيعة لكي يثبتوا أحقيّة إمامة أئمّتهم وصحة دعوتهم في مقابل الخلفاء السنيين ، أظهروا عصمة الرسل بوصفهم أئمة أو هداة[1] .

هذا ، والحقّ أنّ العصمة بمفهومها العام قد وردت أوساط المسلمين من خلال الإمعان في الآية القرآنية التي يصف فيها الله تعالى ملائكته بقوله : ﴿ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يعصونَ الله ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرونَ ﴾[2]. ولن يجد الإنسان كلمة أوضح في العصمة من قوله : ﴿ لا يَعْصُونَ الله ما أَمَرهم ﴾ .

كما أنّ الله سبحانه يصف الذكر الحكيم بقوله : ﴿ لا يأتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ ﴾[3] ، فإن هذا الوصف للقرآن عبارة أخرى عن المصونية من كل خطأ وتحريف .

بل إنّ الله سبحانه يصف منطق نبيه بالعصمة إذ يقول عزّ من قائل : ﴿ وَما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحىٰ ﴾[4] .

ويقول : ﴿ ما كَذَبَ الفُؤاد رأى ﴾[5] . ويقول : ﴿ ما زاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾[6] .

فالعصمة بمفهومها الوسيع ـ مع قطع النظر عن موصوفها ـ مسألة أَلفتَ القرآن الكريم نظر الناس إليها ، فلا يحتاج معه علماء المسلمين إلى الأحبار والرهبان أو إلى نضاجة علم الكلام في عصر الإمام الصادق عليه السلام ، لينتقلوا إلى هذا الوصف .

---

(١) عقيدة الشيعة ، تأليف المستشرق رونالدسون ، ص ٣٢٨ .

(٢) سورة التحريم : الآية ٦ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٤٢ .

(٤) سورة النجم : الآيتان ٣ و٤ .

(٥) سورة النجم : الآية ١١ .

(٦) سورة النجم : الآية ١٧ .

وأي عتب بعد هذا على الشيعة إذا اقتفوا في كلامهم أثر كتاب الله ، فوصفوا رُسُل الله وأنبياءه بما وصفهم به ربُّ الجلال والعزّة في كتابه .

ولا يمكن لأحد إنكار عناية الشيعة بتنزيهه سبحانه عن وصمة الحدوث والجسمية ، وأنبياءه عن وصمة الذُّنْب والخلاف . بل إنّك لن تجد في الأُمة الإسلامية طائفةً تهتم بالتنزيه والتقديس مثلَ الشيعة ، سواء فيما يرجع إلى الخالق عزّ وجل ، أو أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

* * *

المقام الثالث : دليل لزوم عصمة الأنبياء عن الذُّنوب

اختلف المتكلمون في حدود عصمة الأنبياء على أقوال :

١ ـ قالت الأزارقة من الخوارج : يجوز على الأنبياء الكفر ، أخذاً بمبدئهم من أنّ كلّ ذنب كُفْرٌ[١] .

٢ ـ قالت الحشوية : « يجوز ارتكاب الكبائر على الأنبياء قبل البعثة وبعدها » . وتمسكوا في ذلك بأباطيل لا أصل لها[٢] .

٣ ـ والمعتزلة ، منهم من قال : « يجوز على الأنبياء الكبيرة قبل البعثة ولا يجوز بعدها » ، وهو أبو علي الجُبّائي . ومنهم من قال : « إنّ الأنبياء لا يجوز عليهم الكبيرة ، لا قبل البعثة ولا بعدها ، وتجوز عليهم الصغيرة إذا لم تكن

---

(١) المواقف ، ص ٣٥٩ ، ومن عجيب النِسَب ما عزاه القاضي الإيجي إلى الشيعة من تجويزهم إظهار الكفر من الأنبياء تقيةً ، ثم ردَّه بأنَّ ذلك يفضي إلى إخفاء الدعوة ، إذ أولى الأوقات بالتقية وقت الدعوة ، للضعف وكثرة المخالفين .

ولكنها فرية باطلة ، الشيعة منها براء ، فإنّ ذلك لا يجوز عندهم على الأنبياء ولا الأئمة بل لا يجوِّزونه لأعاظم الأمة من الفقهاء إذا كان في إظهار الكفر مظنة تزعزع عقائد الناس وتزلزلهم عن دينهم .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبد الجبار ، ص ٥٧٣ .

مُنَفِّرة ، لأنّ قلّة الثواب[1] ممّا لا يقدح في صدق الرسل ولا في القبول منهم » ، وهو القاضي عبد الجبار[2] .

٤ ـ وأمّا الأشاعرة ، فقد قال القوشجي : « المذهب عند محققي الأشاعرة منع الكبائر والصغائر الخسيسة بعد البعثة مطلقاً ، والصغائر غير الخسيسة عمداً لا سهواً »[3] .

وأما قبلها ، فقد نقل القاضي الإيجي ـ وهو من الأشاعرة ـ أنّ الجمهور قال : « لا يمتنع أن يصدر عنهم كبيرة »[4] .

٥ ـ وقالت الإمامية : « لا يجوز على الأنبياء صغيرة ولا كبيرة ، لا قبل البعثة ولا بعدها »[5] .

هذه هي عمدة الأقوال المطروحة في المسألة ، وهناك أقوال أخر ضربنا عن نقلها صفحاً . والأولى لنا أن نتبع الدليل ، ونميل معه كيفما يميل ، والأدلة العقلية تثبت القول الأخير ، وإليك فيما يلي بيان أهمها .

---

(١) لم يعلم كنه قوله « قلّة الثواب » ، فإنّ ارتكاب الصغيرة موجب للبعد عن قرب الربّ ، وبالتالي فلا يخلو من العقاب المناسب ، فكيف ينحصر أثره في قلّة الثواب .
قال الشريف السيد المرتضى رحمه الله : « واعلم أنّ الخلاف بيننا وبين المعتزلة في تجويزهم الصغائر على الأنبياء صلوات الله عليهم ، يكاد يسقط عند التحقيق لأنّهم إنّما يجوّزون من الذنوب ما لا يستقرّ له استحقاق عقاب ، وإنّما يكون حظّه تنقيص الثواب ، على اختلافهم أيضاً في ذلك ، لأنّ أبا علي الجُبائي يقول : إنّ الصغير يسقط عقابه بغير موازنة . فكأنّهم معترفون بأنّه لا يقع منهم ما يستحقون به الذمّ والعقاب . وهذه موافقة للشيعة في المعنى ، لأنّ الشيعة إنّما تنفي عن الأنبياء عليهم السلام ، جميع المعاصي ، حيث كان كل شيء منها يستحق به فاعله الذمّ والعقاب . . . .
فإذا كان استحقاق الذمّ والعقاب منفياً عن الأنبياء ، وجب أن ينفى عنهم سائر الذنوب » . (تنزيه الأنبياء ، للشريف المرتضى ، ص ٢) .
(٢) شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبد الجبار ، ص ٥٧٣ ـ ٥٧٥ .
(٣) شرح التجريد للقوشجي ، ص ٤٦٤ .
(٤) المواقف ، صفحة ٣٥٩ .
(٥) كشف المراد ، ص ٢١٧ ، طبعة صيدا . والمواقف ، ص ٣٥٩ .

الدليل الأول ـ الوثوق فرع العصمة

إنّ ثقة الناس بالأنبياء ، وبالتالي حصول الغرض من بعثتهم ، إنّما هو رهن الإعتقاد بصحة مقالهم وسلامة أفعالهم ، وهذا بدوره فرع كونهم معصومين عن الخلاف والعصيان في السرّ والعلن من غير فرق بين معصية وأخرى ، ولا بين فترة من فترات حياتهم وأخرى .

وذلك لأنّ المبعوث إليه إذا جوّز الكذب على النبي ، أو جوّز المعصية على وجه الإطلاق ، جوّز ذلك أيضاً في أمره ونهيه وأفعاله التي أمره باتباعه فيها . ومع هذا الإحتمال لا ينقاد إلى امتثال أوامره ، فلا يحصل الغرض من البعثة ، لأنّه ـ بحكم عدم عصمته ـ يحتمل أن يكون كاذباً في أوامره ونواهيه ، وأن يتقول على الله ما لم يأمر به . ومع هذا الإحتمال ، لا يجد المبعوث إليه في قرارة نفسه حافزاً إلى الإمتثال .

ومثلُ قولِه فعلُه ، فإنّ الأُمة مأمورة باتباع أفعاله ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِ يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾[1] . فإذا احتملنا كون عمله على خلاف رضاه سبحانه ، فكيف نجد في أنفسنا الباعث على اتّباعه .

وبالجملة ، بما أنّ النبيّ ، قولَه وفعلَه ، حجّتان ، فيجب اتّباعه فيهما ، وهذا لا يحصل إلاّ عند الوثوق بصحتهما ، ومع عدم حصول هذا الوثوق تنتفي بواعث الاتّباع ، فلا يحصل الغرض .

قال المحقق الطوسي في التجريد : « ويجب في النبي العصمة ليحصل الوثوق ، فيحصل الغرض »[2] .

ثم إنّ هنا أسئلة حول هذا الدليل نطرحها ، واحداً بعد الآخر :

* **السؤال الأول** ـ يمكن أنْ يقال : يكفي في الإعتماد على قول النبي ، مصونيته عن معصية واحدة ، هي الكذب ، دون سائر المعاصي .

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٢) كشف المراد ، ص ٢١٧ ، طبعة صيدا .

والجواب : إنّ التفكيك بين المعاصي فرضية محضة لا تصحّ أن تقع أساساً للتربية العامة ، لما فيها من الأشكالات .

أمّا أولاً ـ فلأنّ المصونية عن المعاصي نتيجة إحدى العوامل التي أوعزنا إليها عند البحث عن حقيقة العصمة ، فإنْ تَمَّ وجودها أو وجود بعضها ، حصلت المصونية عن المعاصي برمتها ، ولا يعقل معها التفكيك بين الكذب وسائر المعاصي ، بأن يجتنب الكذب طيلة حياته ، بينما هو في الحين ذاته يسرح في سائر المعاصي ويمرح ،فإنّ العوامل التي تسوق الإنسان إلى اقترافها ، تسوقه أيضاً إلى اقتراف الكذب .

وأمّا ثانياً ـ فلأنّ التفكيك بينهما لو صحّ في عالم الثبوت ، فلا يمكن إثباته في حقّ مدّعي النبوة بأن يثبت أنّه لا يكذب أبداً مع ركوبه سائر المعاصي ، فمن أين يحصل للأمة العلم بأنّ مدّعي النبوة مع اقترافه لأنواع الفجور والمآثم لا يكذب أبداً ، بل حتى لو صرّح الداعي إلى الإصلاح بنفس هذا التفكيك ، لم يذعن له أحد ، لسريان الريب إلى نفس هذا التصريح .

* **السؤال الثاني** ـ إنّ أقصى ما يثبته هذا الدليل ، هو لزوم نزاهة النبي عن اقتراف المعاصي في الظاهر وبين الناس ، وهذا لا يخالف عصيانه في الخلوات ، فإنّ ذاك القدر من النزاهة كافٍ في جلب الثقة .

والجواب : إنّ نسبة هذا الأمر (ركوب المعاصي في السرّ دون العلن) إلى مدّعي النبوّة ، يهدم الثقة به من أساسها إذ ـ حينذاك ـ ما الذي يمنعه من أن يكذب ولا يُعلم كذبه ، فإذا تطرّق هذا الإحتمال إلى جميع أقواله ، انتفت الثقة فيه بالكليّة .

أضف إلى ذلك ، أنّ من كانت هذه حاله ، وإنْ أمكنه خداع الناس بتزيين الظاهر مدّة من الزمن ، إلاّ أنّه لن يتمكن من البقاء على ذلك أبداً ، بل لن ينقضي زمان إلاّ وترتفع الأستار وتكشف البواطن ، فتظهر سوأته ويبدو عيبه .

* **السؤال الثالث** ـ إنّ هذا الدليل لا يثبت أزيد من عصمة الأنبياء بعد البعثة لحصول الوثوق في تلك الفترة ، ولا يثبت لزوم عصمتهم قبلها .

والجواب من وجهين :

الأول : إنّ العصمة كما عرفت غصن من دوحة التقوى ، ونتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي ، واستشعار عظمة الربّ . وهذه ليسْت وليدة ساعتها ، فينقلب غير المعصوم معصوماً بنزول جبرائيل عليه وإكسائه ثوب الرسالة ، بل هي ملكة نفسانية لا تحصل إلاّ بعد رياضات ومجاهدات . فلا معنى حينئذٍ لجعل البعثة حداً في حياة النبي ، لأنّا إذا قلنا بعصمته ـ وهي ملكة نفسانية ـ وجب أن تمتد جذورها إلى ما قبل البعثة بزمن مديد .

الثاني : لو كانت سيرة الداعي إلى الله ، قبل بعثته مخالفة لما هو عليه بعدها ، بأن يكون قبلها إنساناً سافلاً مرتكباً لقبائح الأعمال ، لا يحصل الوثوق بقوله وإن صار إنساناً مثالياً ، بل يتسرب الريب إلى كل ما يتفوّه به من أمرٍ ونهي وإرشاد ، بحجة أنّه كان في طرف من حياته متهتكاً ، ملقياً جلباب الحياء ، فكيف انقلب إلى رجل مثالي معصوم ؟! .

لا شك أنّ لكل صفحة من صفحات عمر الإنسان الداعي تأثيراً في جلب ثقة الناس وانقيادهم إليه ، ولو كانت ملطخة بالسواد في بعضها ، لما سكنت إليه النفوس . فَتَحَقُّقُ الغرض الكامل من البعثة رهن عصمته في جميع فترات عمره . يقول السيد المرتضى ـ رحمه الله ـ في الإجابة عن هذا السؤال :

« إنّا نعلم أنّ من نجوِّز عليه الكفر والكبائر في حال من الأحوال ، وإن تاب منها ، وخرج من استحقاق العقاب به ، لا نسكن إلى قبول قوله مثل سكوننا إلى من لا يجوز عليه ذلك في حال من الأحوال ، ولا على وجه من الوجوه . ولهذا لا يكون حال الواعظ لنا ، الداعي إلى الله تعالى ، ونحن نعرفه ، مقارناً للكبائر ، مرتكباً لعظيم الذنوب ، وإن كان قد فارق جميع ذلك وتاب منه عندنا وفي نفوسنا ، كحال من لم نعهد منه إلاّ النزاهة والطهارة . ومعلوم ضرورةً الفرق بين هذين الرجلين فيما يقتضي السكون النفور ، ولهذا كثيراً ما يعيِّر الناس من يعهدون منه القبائح المتقدمة ، بها ، وإن وقعت التوبة منها ، ويجعلون ذلك عيباً ونقصاً وقادحاً . ولنس إذاً تجويز الكبائر قبل النبوة منخفضاً عن تجويزها في حال النبوة

وناقصاً عن رتبته في باب التنفير ولأجل ذلك وجب أن لا يكون فيه شيء من التنفير ، لأنّ الشيئين قد يشتركان في التنفير ، وإن كان أحدهما أقوى من الآخر »[1] .

* * *

الدليل الثاني ـ التربية رهن عمل المربي

إنّ الهدف العام الذي بعث لأجله الأنبياء ، هو تزكية الناس وتربيتهم ، يقول سبحانه حاكياً عن لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ **رَبَّنا وابْعَثْ فِيهِمْ رسولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِم آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العزيزُ الحكيمُ** ﴾[2] .

وإنّ التربية عن طريق الوعظ والإرشاد وإن كانت مؤثرةً ، إلّا أن تأثير التربية بالعمل أشدّ وأعمق وآكد . وذلك أنّ التطابق بين مرحلتي القول والفعل هو العامل الرئيسي في إذعان الآخرين بأحقيَّة تعاليم المُصلح والمربّي . ولو كان هناك انفكاك بينهما لانفض الناس من حوله ، وفقدت دعوته أي أثر في القلوب .

ولأجل ذلك يقول سبحانه : ﴿ **يا أَيُّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تَفْعلونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عندَ الله أَنْ تقولوا ما لا تَفْعَلون** ﴾[3] .

ولذاك أيضاً ، نرى في الحِكَم أنّ العالِمَ إذا لم يعمل بعِلْمِه ، زَلَّت موعظتُه عن القلوب ، كما يَزِلُّ المطرُ عن الصفا[4] .

وهذا الأصل التربوي يجرنا إلى القول بأنّ التربية الكاملة المتوخاة من بعثة الأنبياء ، وترسخها في نفوس المتربين ، لا تحصل إلّا بمطابقة أعمالهم لأقوالهم .

---

(١) تنزيه الأنبياء ، ص ٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٢٩ .

(٣) سورة الصف : الآيتان ٢ و ٣ .

(٤) لاحظ أصول الكافي ، ج ١ ، ص ٤٤ ، باب استعمال العلم ، الحديث ٣ .

قال القاضي عبد الجبار : « إنّ النفوس لا تسكن إلى القبول ممن يخالف فعله قوله ، سكونها إلى من كان منزهاً عن ذلك . فيجب أن لا يجوز في الأنبياء عليهم السلام ، إلاّ ما نقوله من أنّهم منزهون عمّا يوجب العقاب والإستخفاف والخروج من ولاية الله تعالى إلى عداوته .

يبيّن ذلك أنّهم لو بعثوا للمنع من الكبائر والمعاصي ، بالمنع والردع والتخويف ، فلا يجوز أن يكونوا مقدمين على مثل ذلك ، لأنّ المعلوم أنّ المُقْدِمَ على شيء ، لا يقبل منه منع الغير منه بالنهي والزجر والنكير ، وأنّ هذه الأحوال منه لا تؤثّر . . . ولو أنّ واعظاً انتصب يخوف من المعاصي مَنْ يشاهده مقدماً على مثلها ، لاستخفّ به وبوعظه »[1] .

وقال في موضع آخر : « إنّ الواعظ والمُذَكّر ، وإنّ غلب على ظننا من حاله أنّه مقلع تائب لما أظهره من أمارات التوبة والندامة ، حتى عرفنا من حاله الإنهماك في الشرب والفجور من قبل ، لم يؤثّر وعظه عندنا ، كتأثير المستمر على النظافة والنزاهة في سائر أحواله »[2] .

وهذا كما يوجب العصمة بعد البعثة ، يقتضيها قبلها أيضاً ، لأنّ لسوابق الأشخاص ، وصحائف أعمالهم الماضية تأثيراً في قبول الناس كلامهم وإرشاداتهم وهداياتهم[3] .

ثم إنّ هنا سؤالان مهمّان يطرحان حول العصمة ، نفردهما بالذكر ، ونجيب عليهما قبل أن ننتقل إلى بيان العصمة عن المعصية والمخالفة المولوية ، في الذكر الحكيم .

* * *

---

(١) المغني ، ج ١٥ ، ص ٣٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٥ .

(٣) وقد أقام المتكلمون ، على عصمة الأنبياء ، دلائل كثيرة ، فذكر المحقق الطوسي ثلاثة ، وأضاف إليها القوشجي دليلين آخرين ، وذكر الإيجي تسعة أدلّة . غير أنّ بعض ما ذكروه ليس دليلاً عامّاً لجميع الأحوال والفترات ، بل يختص بعصر النبوة . ومن أرادها فليلاحظ المواضع التالية : كشف المراد ، ص ٢١٧ . شرح التجريد للقوشجي ، ص ٤٦٤ . المواقف ، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

سؤالان هامّـان

السؤال الأول : هل العصمة تسلب الإختيار ؟

ربما يتوهّم أنّ العصمة تسلب من المعصوم الحرية والإختيـار ، وتقهره عـلى ترك المعصية ، لتكون النتيجة انتفـاء كلّ مكـرمة ومحمـدة ربما تنسب إليـه لاجتنابـه المعاصي والمآثم . وقد أُشير في أمالي السيد المرتضى إلى ما ذكرنا ، عند إيراد السؤال التالي :

« ما حقيقة العصمـة التي يعتقد وجـوبها لـلأنبياء والأئمـة ، وهل هي معنى يضطرّ معه إلى الطاعة ، ويمنع عن المعصية ، فكيف يجـوز الحمد لتـارك المعصية ، والـذمّ لفاعلهـا . وإن كان معنى يضـاهي الإختيار ، فـاذكروه ودلّـوا عـلى صحّـة مطابقته له »[1] .

جوابـــه

إنّ العصمة لا تسلب الإختيار عن المعصوم بأيٍّ من التحـاليل التي مضت ، ويتّضح ذلك بالنظر في العصمة النسبية المتحققة في العاديين من الناس ، فقد تقدم أنّ العالِم بوجود الطاقةِ الكهربـائية في الأسـلاك العاريـة ، لا يمسّها ، والـطبيب لا يشرب سؤر المجذومين والمسلولين ، لعلمهما بعـواقب فعلهما . ومـع ذلك ، فكـل منهما ـ في حال اجتنابه عن الفعل ـ قادر على الفعل لو غضّ طرفه عن حياته وخاطر بها ، ولكنهما لا يقومان به لحـبِّ كلٍّ منهما صحتَه وسلامته .

إنّ كلّ واحد من العملين المزبورين ممكـن الصـدور بالـذات منهما ، غـير أنّه ممتنع الصدور بالعـرض والعادة ، لا ذاتاً وعقـلاً ، وكم فرق بـين المحالـين . ففي المحـال العادي يكـون الصدور من الفـاعل ممكنـاً بالـذات ، غير أنّـه يرجّـح أحد الطرفين على الآخر بالدواعي الموجودة في ذهنه ، بخلاف الثاني ، فإنّ أصل الفعل ممتنع بذاته ، فلا يصدر لذلك ، لا لعدم الدواعي . وهذا نظير صدور القبيـح من

---

(١) أمالي السيد المرتضى ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ .

الله سبحانه ، فإنّه ممكن بالذات ، فيقع تحت إطار قدرته ، فبإمكانه تعالى إخلاد المطيع في نار جهنم ، لكنه لا يصدر منه ، لكونه مخالفاً للحكمة ، ومبائناً لما وعد به .

وعلى ذلك فامتناع صدور الفعل من الإنسان ، حفظاً للأغراض والغايات ، لا يكون دليلاً على سلب الإختيار والقدرة .

وهكذا ، فالنبي المعصوم قادر على اقتراف المعاصي ، بمقتضى ما أُعطي من القدرة والحرية ، غير أنّ تقواه العالية وعلمه بآثار المعاصي ، واستشعاره عظمة الخالق ، يصدّه عن ذلك ، فهو كالوالد العطوفَ الذي لا يُقدم على ذبح ولده ولو أُعطي ملء الأرض ذهباً ، وإن كان مع ذلك قادراً على قطع وتينه ، كما يقطع وتين عدوه .

يقول العلامة الطباطبائي : إنّ ملكة العصمة لا تغيّر الطبيعة الإنسانية ـ المختارة في أفعالها الإرادية ، ولا تُخرجها إلى ساحة الإجبار والإضطرار . كيف ، والعلم من مباديء الإختيار ، ومجرّد قوة العلم لا يوجب إلاّ قوة الإرادة . كطالب السلامة إذا أيقن بكون مائع ما سمّاً قاتلاً من حينه ، فإنّه يمتنع باختياره من شربه ، ويشهد على ذلك قوله سبحانه : ﴿ **واجْتَبَيْنـاهُمْ وهَدَيْناهُمْ إلى صراطٍ مُسْتَقِيم * ذلك هُدى الله ، يهدي به مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، ولو أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانوا يَعْمَلُون** ﴾[1] ، والضمير في ﴿ **واجْتَبَيْنـاهُمْ** ﴾ يرجع إلى الأنبياء . وفي الوقت نفسه تفيد الآية أنّ في إمكانهم أن يشركوا بالله ، غير أنّ الإجتباء والهداية الإلهية ، يمنعان من ذلك .

ومثله قوله سبحانه : ﴿ **يا أَيُّها الرسول بَلِّغ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رسالَتَهُ ، والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ ، إنَّ الله لا يَهدي القَوْمَ الكافِرين** ﴾[2] .

---

(١) سورة الأنعام : الآيتان ٨٧ ـ ٨٨ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

إلى غير ذلك من الآيات الصريحة في قدرة الأنبياء على المخالفة »[1] .

* * *

السؤال الثاني ـ العصمة موهبة فلا تكون مفخرة

الظاهر من كلمات المتكلمين أنّ العصمة موهبة إلهية يتفضل بها سبحانه على من يشاء من عباده بعد وجود أرضيات صالحة في نفس المعصوم وقابليات مصححة لإفاضتها عليهم .

قال الشيخ المفيد : « العصمة تَفَضُّلٌ من الله على من علم أنّه يتمسّك بعصمته »[2] .

وقال السيد المرتضى : « العصمة لطف الله الذي يفعله تعالى ، فيختار العبد عنده الإمتناع عن فعل القبيح »[3] .

وفي الآيات القرآنية تلميحات وإشارات إلى ذلك ، مثل :

قوله سبحانه : ﴿ واذْكُرْ عِبادَنا إبْراهيمَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ أُولي الأَيْدي والأبْصارِ * إنَّا أخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرى الدَّارِ * وإنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخْيارِ * واذْكُرْ إسْماعِيلَ واليَسَعَ وذا الكِفْلِ وكُلٌّ مِنَ الأخْيارِ ﴾[4] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلى العالَمِينَ ، فآتيناهُمْ من الآيات ما فيه بلاءٌ مُبينٌ ﴾[5] والضمير يرجع إلى أنبياء بني إسرائيل .

فإنّ قوله : ﴿ إنَّهُمْ لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخْيارِ ﴾ ، وقوله : ﴿ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلى العالَمِينَ ﴾ ، يدلّان على أنّ النبوة والعصمة وإعطاء الآيات

---

(١) لاحظ الميزان ، ج ١١ ، ص ١٧٩ .

(٢) تصحيح الإعتقاد ، ص ٦١ .

(٣) أمالي المرتضى ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٤) سورة ص : الآيات ٤٥ ـ ٤٨ .

(٥) سورة الدخان : الآيتان ٣٢ و ٣٣ .

لأصحابها ، من مـواهب الله سبحانـه للأنبيـاء ومَنْ يقوم مقـامهم من الأوصياء . وإذا كانت موهبة منه ، فلا تُعَدّ كمالاً ومفخرة للمعصوم ، فتعود كصفـاء اللؤلؤ ، لا يستحق اللؤلؤ عليـه حمـداً وتحسينـاً ، لأنّ الحمـد والثنـاء إنمـا يصحّـان للفعـل الإختياري ، لا لما هـو خارج عن الإختيـار ، والفرض أنّ المعصـوم وغيره في هـذ المجال سواء ، لأنّ ذاك الكمال لو أُفيض على فرد آخر غيره لكان مثله .

جـــوابـــه

إنّ العصمة الإلهية لا تفاض على المعصوم إلاّ بعد وجود أرضيات صـالحة في نفسـه ، تقتضي إفـاضـة تلك المـوهبـة إليـه ، وأمّـا مـا هي تلك الأرضيـات ، والقابليات ، فخارج عن موضوع البحث ، غير أنّا نشير إليها إجمالاً .

إنّ القابليات التي تسوغ نزول الموهبة الإلهية على قسمين :

قسم خارج عن اختيار المعصوم ، وقسم واقع في إطار إرادته واختياره .

أمّـا الأول ـ فهو عبـارة عمّا ينتقـل إلى النبي من آبـائـه وأجـداده عن طـريق الوراثة ، فإنّ في ناموس الطبيعة والخلقة أنّ الأبناء يرثون ما في الآبـاء من الصفات الظاهرية والباطنية ، فالشجاع يلد شجاعاً ، والجبان جباناً .

وإضافة إلى ذلك ، فإنّ هناك عاملاً آخر لتكـوُّن تلك القابليـات في النفوس هو عامل التربيـة ، والأنبياء يتلقـون الكمالات المـوجودة في بيـوتاتهم في ظـل هذين العاملين ، فيكوّن ذلـك في أنفسهـم الأرضية الصـالحة لإفـاضة المـواهب عليهم ، ومنها العصمة والنبوة .

وأمّا الثاني ـ فهـو عبارة عن المجـاهدات الفـردية والإجتـماعية التي يقـوم بها رجالات الوحي من أوائل شبابهم إلى أواخـر كهولتهم ، من العبـاده والريـاضـات النفسية إلى مقارعة الطغاة والظالمين[1] .

---

(١) أنظر إلى ما قام به إبراهيم على صغر سنه ، ويوسف في بيت من تملكه ، وموسى في مصر الفراعنة ، والمسيح في بني إسرائيل ، والنبي الأكرم (ص) في عامة فترات حياته .

فهذه العوامل الداخل بعضها في الإختيـار ، والخارج بعضهـا الآخر عنـه ، أوجـدت مجتمعة في الأنبيـاء القـابليـة لإفـاضـة وصف العصمـة عليهم ، فتكـون العصمة عند ذاك مفخرةللمعصوم،يستحق عليها التحسين والتبجيل .

يقول العلامة الطباطبائي : « إنّ الله سبحانه خَلَقَ بعضَ عباده على استقامة الفـطرة واعتـدال الخلقـة ، فنشؤا من بـاديء الأمـر بـأذهـان وقّـادة ، وإدراكـات صحيحة ، ونفوس طاهرة ، وقلوب سليمة ، فنالوا بمجرّد صفـاء الفطرة وسـلامة النـفس ، من نعمة الإخـلاص ، ما نـاله غـيرهم بالإجتهـاد والكسب ، بل أعـلى وأرقى ، لـطهارة داخلهم من التلوّث بـأوساخ المـوانع والمـزاحمات . والـظاهـر أنّ هؤلاء هم المُخْلَصون (بالفتح) لله في مصطلح القرآن .

وقــد نصّ القــرآن عــلى أنّ الله اجتبــاهم أي خلقهــم ، قــال تعــالى : ﴿ واَجْتَبَيْنـاهُمْ وَهَدَيْنـاهُمْ إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[١]، وقال : ﴿ هُـوَ اَجْتَبَـاكُمْ ومـا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٢] »[٣] .

وما جاء في كلامه يشير إلى القابليات الخارجة عن الإختيار ، ولكنك عرفت أنّ هنـاك مقـدمـات واقعـة في اختيــارهم فـإذا انضمت تلك إلى هــذه ، تتحقق الصلاحية المقتضية لإفاضة الموهبة الإلهية .

إجابة أخرى عن السؤال

وهنـاك إجابـة أخرى وهي أنّ الله سبحـانه وقف عـلى ضمائـرهم ونيّـاتهم ، ومستقبل أمرهم ، ومصير حالهم ، وعلم أنّهم ذوات مقدسة لو أُفيضت إليهم تلك الموهبة لاستعانوا بها في طريق الطاعة وتـرك المعصية بحـرية واختيـار . وهذا العلم كافٍ في تصحيح إفاضة تلك الموهبة عليهم من نعـومة أظفـارهم إلى أن أدْرجوا في أكفانهم ، بخلاف مَنْ يعلم مِنْ حاله خلاف ذلك .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٨٧ .
(٢) سورة الحج : الآية ٧٨ .
(٣) الميزان ، ج ١١ ، ص ١٧٧ .

وهذا الجواب يستفاد من كلمات الشيخ المفيد والسيد المرتضى .

قال الشيخ المفيد : « العصمة تفضُّلٌ من الله تعالى على من علم أنّه يتمسّك بعصمته »(١) .

وقال السيد المرتضى : « كلُّ من علم الله تعالى أنّ له لطفاً يختارُ عنده الإمتناع من القبائح ، فإنّه لا بدّ أن يفعل به ، وإن لم يكن نبياً ولا إماماً ، لأنّ التكليف يقتضي فعل اللُّطف على ما دُلّ عليه في مواضع كثيرة ، غير أنّه لا يمتنع أن يكون في المكلفين من ليس في المعلوم أنّ شيئاً متى فُعِلَ اختار عنده الإمتناع من القبيح ، فيكون هذا المكلّف لا عصمة له في المعلوم ولا لطف . وتكليف من لا لطف له يَحْسُنُ ولا يَقْبُحُ ، وإنّما القبيح منع اللطف فيمن له لطف ، مع ثبوت التكليف »(٢) .

وحاصل ما أفاد هو أنّ الملاك في إفاضة هذا الفيض هو علمه سبحانه بحال الأفراد في المستقبل ، فكل من علم سبحانه أنّه لو أفيض عليه وصف العصمة لاختار عنده الإمتناع من القبائح ، فعندئذٍ تفاض عليه العصمة وإن لم يكن نبياً ولا إماماً وأمّا من علم أنّه متى أُفيضت إليه تلك الموهبة لما اختار عندها الإمتناع عن القبيح ، فلا يفيضها عليه لعدم استحقاقه لها .

وعلى ضوء ذلك فوصفُ العصمة موهبةٌ إلهية تفاض على من يعلم من حاله أنّه باختياره ينتفع منها في ترك القبائح ، فيعدّ مفخرة قابلة للتحسين والتكريم ، وقد شبّه الشيخ المفيد العصمة بالحبل الذي يعطى للغريق ليتشبث به فيسلم ، فالغريق مختار في التقاط الحبل والنجاة ، أو عدمه والغرق(٣) .

ويترتب على ما ذكره السيد عدم انحصار العصمة بالنبي والوحي المنصوص عليه ، بل تشمل كلَّ مَنْ علم الله سبحانه أنّه ينتفع منها في طريق كسب رضاه .

* * *

---

(١) شرح عقائد الصدوق ، ص ٦١ .

(٢) أمالي المرتضى ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ ، طبعة إحياء دار الكتب العربية .

(٣) لاحظ أوائل المقالات ، ص ١١ .

العصمة في الكتاب العزيز

يصف الذكر الحكيم الأنبياء بالعصمة بلطائف البيان ودقائقه ، مما يحتاج في الوقوف عليه إلى التدبّر بإمعان ، ولأجل إيقاف الباحث على نماذج من هذه التوصيفات مع مراعاة ما يقتضيه المقام ، نكتفي بالبحث عن آيتين منها(١) .

الآية الأولى : قال عزّ وجل : ﴿ وَوَهَبْنا له إسحاقَ ويَعْقُوبَ كلًّا هَدَيْنا ونُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَتِهِ داود وسليمانَ وأيّوبَ ويوسُفَ وموسى وهارونَ وكذلك نَجْزي المُحْسنين * وزَكَريّا وَيحيىٰ وعيسى وإلياسَ كلٌّ من الصالحين * وإسماعيلَ واليَسَعَ ويونُس ولوطاً وكُلًّا فَضَّلنا على العَالَمينَ * وَمِنْ آبائِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ وإخوانِهِمْ واجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلَى صراطٍ مُستقيم * ذلك هُدى الله يَهْدي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ . . . أولئك الذين هَدَى الله فَبهداهُمُ اقْتَدِهْ * قل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجراً إنْ هُو إلاّ ذِكرى للعالمين ﴾(٢) .

وجه الدلالة

إنّ الآية الأخيرة تصف الأنبياء بأنّهم مهديّون بهداية الله سبحانه ، على وجه يجعلهم القُدوة والأُسوة ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، نرى أنّه سبحانه يُصرِّح بأنّ من شملته الهداية الإلهية لا مُضِلَّ له ، يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فما لَهُ مِنْ هادٍ ، وَمَنْ يَهْدِ الله فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ . . . . ﴾(٣) .

وفي آية أخرى يُصرِّح بأنّ حقيقة العصيان ، الضلالة والإنحراف عن الجادة الوسطى ، يقول عزّ مِنْ قائل : ﴿ أَلَمْ أَعْهدْ إِلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدوا الشَّيْطانَ إنّه لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ * وأنِ اعْبُدوني هذا صِراطٌ مُستقيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاً

(١) راجع في الوقوف على سائر الآيات ودلالتها ، مفاهيم القرآن ، ج ٤ ص ٤٢٣ ـ ٤٣١ .

(٢) سورة الأنعام : الآيات ٨٤ ـ ٩٠ .

(٣) سورة الزمر : الآيتان ٣٦ و٣٧ .

كَثيراً أَفَلَمْ تَكونوا تَعْقِلونَ ﴾[1] .

وبملاحظة هذه الطوائف الثلاث من الآيات ، تُستَنْتَجُ العصمةُ بوضوح ، وذلك كما يلي :

إنّ اللّفيف الأول من الآيات يصف الأنبياء بأنّهم القُدوة والأُسوة ، والمهديّون من الأُمة .

واللّفيف الثاني يصرّح بأنّ من شملته العناية الإلهية لا ضلالة ولا مُضِلّ له .

واللّفيف الثالث يصرّح بأنّ العصيان نفسُ الضلالة ، حيث قال : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ ﴾ . وما كانت ضلالتُهم إلاّ لأجل عصيانهم ومخالفتهم لأوامره تعالى ، ونواهيه .

فإذا كان الأنبياء مهديون بهداية الله ، وَمَنْ هداه الله لا تَتَطَرَّقُ إليه الضلالة ، وكانت المعصية نفس الضلالة ، فينتج أنّ المعصية لا سبيل لها إلى الأنبياء .

وإن أردت أن تفرغ ما تفيده هذه الآيات في قالب الشكل المنطقي فقل :

* النبي قد شملته الهداية الإلهية .

* ومن شملته الهداية الإلهية ، لا تتطرق إليه الضلالة .

* فينتج : النبي لا تتطرق إليه الضلالة .

وبما أنّ الضلالة والمعصية متساويان ، فيصحّ أن يقال في النتيجة : إنّ النبي لا تتطرق إليه المعصية .

الآية الثانية ـ قال عزّ وجل : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرسولَ فأُولئِكَ مَعَ الذينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصالحينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ

---

(١) سورة يس : الآيات ٦٠ ـ ٦٢ .

رَفيقاً ﴾[1] .

ففي هذه الآية المباركة يَعُدّ الله تعالى الأنبيـاءَ من الذين أنعم عليهم ، هـذا من جانب .

ومن جانب آخر يصف سبحانه من أنعم عليهم بـأنّهم غير مغضـوب عليهم ولا ضالّين ، في قوله : ﴿ صِراطَ الـذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالّينَ ﴾[2] .

فيستنتج من ضمّ هاتين الآيتين إلى بعضهما ، عصمة الأنبياء بوضـوح ، لأنّ العاصي يشمله غضب الربّ ، ويكون ضالاً بقدر عصيانه . فإذا كـان الأنبياء ممن أنعم الله عليهم ، والـذين أنعم الله عليهـم لا يشـملهـم غضـب الـربّ (غـير المغضـوب عليهم الخ) ، فيكـونُ الأنبيـاءُ منـزّهـين عن المعصيـة ، وبـريئـين عن المخالفة .

وإنْ شئت إفراغ الإستدلال في قالب الشكل المنطقي ، فقل :

* إنّ الأنبياء ، قد أنعم الله عليهم .

* وكل من أنعم الله عليه ، فهو غير مغضوب عليه ولا ضالّ .

* فينتج : إنّ الأنبياءَ غيرُ مغضوب عليهم ولا ضالين .

ولما كان العصيـان يلازم الغضب والضـلال بمقداره ، فمن كـان بعيداً عن جلب غضب الربّ إليه ، والضلالة ، يكون بريئاً عن المعصية .

وستعرف فيما يأتي أنّ جميع الأُمة ليسوا شهداء ، وإنّما عبّر بالجمع وأريد منـه لفيف من الأُمة قد دلّ الدليل على عصمتهم .

وأمّا استلزام هذا الإستدلال ، عصمة غير الأنبياء والشهداء من الصديقـين والصالحين ، فلا إشكال فيه كما عرفت عند نقل كلام السيد المرتضى فيما تقدم .

---

(1) سورة النساء : الآية ٦٩ .

(2) سورة الحمد : الآية ٧ .

ونظن أنّ الآيتين كافيتين في إذعـان الباحث بعصمـة الأنبياء من جهـة النقل أيضاً[1] .

نعم ، إنّ هناك لفيفاً من الآيات ربما يُستظهر منـه عدم عصمـة الأنبياء عـلى الإطـلاق أولاً ، وعدم عصمـة عدّة منهم كـ « آدم » و« يـونس » ثـانيـاً . غـير أنّ دراسة هذه الأصنـاف من الآيات خـروج عن طور البحث ، فـإنّها أبحاث قـرآنية تُطلَـب من مظانّها[2] .

وإلى هنا يتمّ البحث في المرحلة الأُولى من مراحل العصمـة ، أعني العصمة عن المعصية والمخالفـة المولـوية ، ويقـع الكلام بعـدها في المـرحلة الثانيـة ، وهي العصمة في مقام تبليغ الرسالة .

* * *

---

(١) ومن أراد البسط فليرجع إلى المصدر الذي أشرنا إليه .

(٢) قـد بحث الأُستاذ ـ أطـال الله بقاءه ـ عن مجمـوع هـذه الآيـات في مـوسـوعتـه القـرآنيـة « مفـاهيم القرآن » ، ج ٤ ، ص ٤٠٠ ـ ٤٥٠ وج ٥ ، ص ١٩ ـ ١٣٤ فلاحظ .

عصمة النبي في تبليغ الرسالة

ذهب جمهـور المتكلمـين من السنّـة والشيعـة إلى عصمـة الأنبيـاء في هـذه المرحلة ، ونُسب إلى أبي بكر الباقلاني (المتـوفى سنة ٢٠٣) تجـويز الخـطأ في إبلاغ الرسالة سهواً ونسياناً ، لا عمداً وقصداً .

قال صاحب المواقف : « أجمع أهل الملل والشرائع عـلى عصمتهم عن تعمُّد الكذب فيما دلّت المعجزة على صدقهم فيه ، كدعوى الرسالة وما يبلغونه عن الله . وفي جواز صدوره عنهم على سبيل السهـو والنسيان خـلاف ، فمنعه الأستـاذ وكثير من الأئمة ، لدلالـة المعجزة عـلى صدقهم ، وجـوّزه القاضي مصـيراً منه إلى عـدم دخوله في التصديق المقصود بالمعجزة »[1] .

هذا رأي الأشاعرة ، وأمّا المعتزلة فإليك رأيهم بلسان القاضي عبـد الجبّار ، قال :

« إنّا لا نجوز عليه (النبي) السهو والغلط فيما يؤدّيه عن الله تعـالى ، و إنّما نجوّز عليه أن يسهو في فعل قد بيّنه من قبـل ، وأدّى ما يلزم فيـه حتى لم يغايـر منه شيئاً . فإذا فعله مرة لمصالحه ، لم يمتنع أن يقع فيه السهو والغلط . ولذلك لم يشتبه على أحد الحال في أنّ الذي وقع منه من القيام في الثانية هو سهو ، وكذلك ما وقـع

---

(١) المواقف ، ص ٣٥٨ .

منه في خبر ذي اليدين إلى غير ذلك »[1] .

أقول : نظر القاضي في الإستثناء هو أنّ النبي لا يسهو في التبليغ ، ولكن يعرض له السهو في عالم التطبيق . وقد نسبوا إليه السهو في الصلاة حيث سلّم في الركعة الثانية ، فاعترض عليه ذو اليدين : « أَقَصَرْتَ الصلاة أم نسيت » ، وسيوافيك الحال في هذا الإستثناء عند البحث في المرحلة الثالثة .

ثم إنّا نقول : إنّ العصمة في مرحلة تبليغ الرسالة على وجهين :

أ ـ العصمة عن الكذب ، وهو داخل في العصمة عن المعصية ، التي تقدم البرهان عليها .

ب ـ العصمة عن الخطأ سهواً في تلقّي الوحي وتحمّله (وعيه) وأدائه ، وهذا هو الذي نركز البحث عليه .

إنّ الدليل الأول ، أعني كون حصول الوثوق مرهوناً بالعصمة ، كما يُثبت عصمة الأنبياء عن المعصية ، فكذلك يُثبت عصمتهم في هذا المجال . ولأجل ذلك اكتفى به المحقق الطوسي في إثبات العصمة على الإطلاق ، إنْ في مقام الفعل والعمل ، أو في مقام التبليغ والرسالة .

توضيح ذلك : إنّ الهدف الأسمى من بعث الأنبياء ، هو هداية الناس إلى التعاليم الإلهية التي ترشدهم إلى طريق السعادة ، ولا تحصل هذه الغاية إلاّ بإيمان الناس بصدق المبعوثين وإذعانهم بكونهم مرسلين من جانبه سبحانه وأنّ كلامهم وأقوالهم ، كلامه وقوله سبحانه . وهذا الإذعان لا يحصل إلاّ بعد إذعان آخر ، وهو اعتقاد مصونيتهم عن الخطأ في المراحل الثلاث من مراحل تبليغ الرسالة ، أعني : التلقّي ، والتحمّل ، والأداء .

القرآن وعصمة الأنبياء في تبليغ الرسالة

إنّ في الذكر الحكيم آياتٍ تدلّ على مصونية النبي الأعظم في مجال تبليغ

---

(١) المغنى ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

الرسالة بجوانبها المختلفة ، من تلقي الوحي فوعيه وحفظه ، إلى إبلاغه .

* **الآية الأولى** : قوله تعالى : ﴿ كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ ، وأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكتابَ بالحقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فيما اخْتَلَفوا فيه ، وما اخْتَلَفَ فيهِ إلاَّ الذين أُوتوهُ مِنْ بَعْدِما جاءَتْهُمُ البَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدى الله الذينَ آمَنُوا لِما اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بإِذْنِه ، والله يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقِيمٍ ﴾[(١)] .

إنّ هذه الآية تصرّح بأنّ من أهداف بعثة الأنبياء ، القضاء بين الناس فيما اختلفوا فيه . وليس المراد من القضاء إلاّ القضاء بالحق ، وهو فرع وصول الحق إلى القاضي بلا تغيير ولا تحريف .

ثم إنّ نتيجة القضاء هي هداية من آمَنَ مِنَ الناس إلى الحق بإذنه ، كما هو صريح قوله : ﴿ فَهَدى الله الذينَ آمَنوا لما اخْتَلَفوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بإِذْنِه ﴾ . والهادي وإن كان هو الله سبحانه في الحقيقة ، لكن الهداية تتحقق عن طريق النبي بوساطته . وتحقق الهداية منه ، فرع كونه واقفاً على الحق بكماله وتمامه . من دون تحريف ولا زيادة أو نقصان . وكل ذلك يستلزم عصمة النبي في تلقّي الوحي وتحمله وإبلاغه إلى الناس .

والحاصل أنّ الآية تدلّ على أنّ النبي يقضي بالحق أوّلاً ، ويهدي المؤمنين إليه ثانياً . وهذا يستلزم كونه واقفاً على الحق على ما هو عليه ، ومبلّغاً له على نحو ما تلقّاه ووعاه .

* **الآية الثانية** : قوله تعالى : ﴿ وما يَنْطِقُ عَنِ الهوىٰ ، إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحىٰ ﴾[(٢)] .

فالآية تصرّح بأنّ النبي لا يتكلم بداعي الهوى ، والمراد منه إمّا جميع ما يصدر عنه من القول في مجالات الحياة على اختلافها ، كما هو مقتضى إطلاقها ، أو

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٣ .

(٢) سورة النجم : الآيتان ٣ و٤ .

خصوص ما يحكيه عن الله سبحانه . وعلى كلا التقديرين فهي تدلّ على صيانته وعصمته في مجال تبليغ الرسالة : تلقّي الوحي ووعيه وإبلاغه .

* الآية الثالثة ـ قال تعالى : ﴿ عالِمُ الغَيْبِ فلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً * إلّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ ، فإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمُوا أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾[1] .

وموضع الدلالة من الآية :

أ ـ قوله : ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ .

ب ـ قوله : ﴿ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ .

ج ـ قوله : ﴿ أَحاطَ بما لَدَيْهِمْ ﴾ .

فبالإمعان في هذه النقاط الثلاث ، يظهر أنّ مشيئة الله تعالى الحكيمة ، تعلّقت على حفظ الوحي من لدن أخذه إلى زمن تبليغه ، وإليك توضيح الدلالة بتوضيح مفردات الآية .

١ ـ قوله : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ ﴾ . الإظهار من باب الإفعال بمعنى الإعلان ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ . . . ﴾[2] .

٢ ـ لفظ « مِنْ » في قوله : ﴿ مِنْ رسولٍ ﴾ ، بيانية . تبيّن المَرْضيَّ عند الله . فالرسول هو الذي ارتضاه الله نعالى واختاره ليُعَرِّفه على الغيب .

٣ ـ الضمير في قوله : ﴿ فإِنَّهُ يَسْلُكُ ﴾ ، يرجع إلى الله تعالى . كما أنّ الضمير المستتر في قوله : ﴿ يَسْلُكُ ﴾ ، يرجع إليه سبحانه أيضاً . و« يسلك » بمعنى يجعل .

---

(١) سورة الجن : الآيات ٢٦ ـ ٢٨ .

(٢) سورة التحريم : الآية ٣ .

٤ ـ الضمير في قوله : ﴿ بَيْنَ يَدَيْهِ وَخَلْفِهِ ﴾ ، يرجع إلى الرسول ، والمراد من الأول ما بَيْنه وبين الناس ، وهم المُرْسَلُ إليهم ، فإنّ النبي يواجه الناس ، وهم في مواجهته وبين يديه ، كما أنّ المراد من الثاني ، ما بين الرسول ومصدر الوحي الذي هو الله سبحانه . وإنّما عبّر بالخَلْفِ ، لأنّ النبي بُعث من الله إلى الناس ، فالله خَلْفَه والناس أمامه بهذا الإعتبار .

٥ ـ قوله : ﴿ رَصَداً ﴾ الرصد هو الحارس الحافظ ، يطلق على الجمع والمفرد .

والتدبّر في مفاد الآية يثبت بأنّ الوحي مصون ومحفوظ من لدن إفاضته من الله سبحانه ، إلى وصوله إلى الناس ، فإنّها تَعْتَبر الوحي فيضاً متصلاً من المرسِل (بالكسر) إلى المرسَل إليهم .

إنّ الآية تصف طريق بلوغ الوحي إلى الرسل ، ومنهم إلى الناس ، بأنّه محروس بالحَفَظَة يمنعون تطرق أي خلل وانحراف فيه ، حتى يبلغ الناس كما أُنزل من الله تعالى . ويعلم هذا بوضوح مما تذكره الآية من أنّ الله سبحانه يجعل بين الرسول ومن أُرسل إليهم (من بين يده) وبَيْنَهُ ومصدرِ الوحي (ومن خلفه) ، رصداً مراقبين ، هم الملائكة . وليس الهدف من جعلهم في هذه المواضع إلاّ الحفاظ على الوحي من كل تخليط وتشويش ، بالزيادة والنقصان ، التي ربما يقع النبي فيها من ناحية الشياطين بلا واسطة ، أو معها . فإذا كان الوحي بهذه المثابة من الحراسة والمصونية في كلا المرحلتين ، أعني المتقدمة ـ وهي من حين الإفاضة من المرسِل إلى حين البلوغ إلى النبي ـ والمتأخرة ـ وهي إبلاغه إلى الناس ـ كان كذلك فيما بينهما ، أعني مرحلة الحفظ والوعي ، فالنبي فيها مصون عن النسيان أو تدخل الواهمة لتغييره وتبديله . ولولا ذاك لما كان لحفظ الوحي بين يديه أيّ معنى .

ثم إنّه سبحانه يؤكّد ذلك بجملتين أُخريين :

الأُولى ، قوله : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ، فإنّها علّة لجعل الرصد بين يدي الرسول وخلفه . والمراد من العلم ، التحقق الخارجي ، على حدّ قوله سبحانه : ﴿ . . . فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

الكاذِبين ﴾(١) ، أي ليتحقق إبلاغ رسالات الله على ما هي عليه من غير تبديل ولا تغيير ، وهو ـ أي تحقق الإبلاغ على ما هو عليه ـ يتوقف على جعل الرصد والحفظة عليه في المراحل الثلاث جميعها : الأخذ والوعي والإبلاغ .

والثانية ، قوله : ﴿ وأَحَاطَ بما لَدَيْهِمْ ﴾ . فإنّها أيضاً جملة مؤكدة لجعل الحراسة ، ومعناها أنّه سبحانه يحيط بما لدى الأنبياء من الوحي ، فيكون في أمانٍ من تطرّق التحريف .

وأمّا قوله : ﴿ وأحصى كُلَّ شيءٍ عددا ﴾ ، فَمَسوقٌ لإفادة عموم علمه بكلِّ شيء ، من غير فرق بَيْنَ الوحي المُلْقى إلى الرسول وغيره .

وخلاصة الكلام : إنّ الوحي كالماء الصافي الزلال ، المنحدر من معينه ، ينزل من مصدره وهو خزائن علم الله تعالى ، إلى النبي ، ومنه إلى الناس ، من دون أن يتطرق إليه التحريف والتبديل من جانب الشياطين أو القوى النفسانية في النبي ، بل يصل كما صدر بلا أدنى تغيير .

قال العلامة الطباطبائي ، بعد بحثه في مفردات الآية على غرار ما ذكرناه : « إنّ الرسول مؤيَّدٌ بالعصمة في أخذ الوحي من ربّه ، وفي حفظه ، وفي تبليغه إلى الناس ، مصونٌ من الخطأ في الجهات الثلاث جميعاً . لما مرّ من دلالة الآية على أنّ ما نزّل الله من دينه على الناس من طريق الوحي ، مصون في جميع مراحله إلى أن ينتهي إلى الناس . ومن مراحله ، مرحلة أخذ الوحي وحفظه وتبليغه ، والتبليغ يعمّ القول والفعل ، فإنّ في الفعل تبليغاً ، كما في القول . فالرسول معصومٌ عن المعصية باقتراف المحرمات وترك الواجبات الدينية ، لأنّ في ذلك تبليغاً لما يناقض الدين . فهو معصوم من فعل المعصية ، كما أنّه معصوم من الخطأ في أخذ الوحي وحفظه وتبليغه قولاً »(٢) .

وفي ضوء هذه الآية الكريمة يمكن القول بأنّ مصونية الأنبياء عن الخطأ

---

١) سورة العنكبوت : الآية ٣ .

٢) الميزان في تفسير القرآن ، ج ٢٠ ، ص ١٣٣ .

والإشتباه فيما يرجع إلى الرسالة والوحي ، لا يرجع إلى ذواتهم وكيانات وجودهم ، بل إلى عامل أو عوامل ، خارجة عن ذواتهم ، كالملائكة الرَّصّد ، الحافظين لهم من كل خطأ وزَلَّة ، والآخذين بأيديهم في مظانّ مزالقِ الألسن والأيدي والأقدام وسائر الجوارح .

* * *

العصمة عن الخطأ في تطبيق الشريعة والأمور العادية

إنّ صيانة النبي عن الخطأ والإشتباه في مجال تطبيق الشريعة والأمور العادية الفردية المرتبطة بحياته الشخصية ، ممّا طرح في علم الكلام ، وطال البحث فيه بين المتكلمين . والخطأ في تطبيق الشريعة ، مثل أنْ يسهو في صلاته ، أو يغلط في إجراء الحدود . والخطأ في الأمور العادية مثل خطئه في مقدار دَيْنه للناس ، كما لو اقترض ديناراً وظنّ أنّه ديناران أو نصفُ دينار .

والحقُّ في هذه المسألة واضح غايتَه ، ذلك أنّ الدليل العقلي الدالّ على لزوم عصمة النبي في مجال تلقّي الوحي وتحمّله وأدائه إلى الناس ، دالٌّ ـ بعينه ـ على عصمته عن الخطأ في تطبيق الشريعة وأُموره الفردية ، حرفاً بحرف . ولكن زيادة في البيان ، نقول :

إنّ الغاية المتوخاة من بعث الأنبياء هي هداية الناس إلى السعادة . ولا تحصل هذه الغاية إلّا بكسب اعتمادهم وثقتهم المطلقة بصحة ما يقوله الأنبياء ويحكونه عن الله تعالى . ولكن ما قولك فيما لو شاهد الناس نبيَّهم يسهو في تطبيق الشريعة التي أمرهم بها ، أو يغلط في أُموره الفردية والاجتماعية ؟ . هل من رَيْب في أنّ الشّكّ سيجد طريقاً رحبة للتسرب إلى أذهان الناس في ما يدخل في مجال الوحي والرسالة ؟ بل لن يبقى شيء ممّا جاء به هذا النبي إلّا وتَطْرُقُهُ علامات الإستفهام ، ولسان حال الناس يقول : « هل ما يحكيه عن الله تعالى من

الـوظائف ، هي وظـائف إلهية حقـاً ؟ أمّ أنّها مزيـج من الأخطاء والإشتبـاهات ؟ وبـأي دليل هـو لا يخطيء في مجـال الوحي ، إن كـان يخطيء ويسهـو في المجالَـيْنْ الآخـرَيْن ؟ » . وهذا الحـديث النفسي والشعـور الـداخـلي ، إذا تعمّق في أذهـان الناس ، سوف يَسْلُب اعتـمادهم على النبي ، وتنتفي بـالتالي النتيجـة المطلوبـة من بعثه .

نعم إنّ التفكيـك بين صيـانة النبي في مجـال الـوحي ، وصيـانتـه في سـائـر المجالات ، وإن كان أمراً ممكناً عقلاً ، لكنه كذلك بالنسبة إلى عقـول الناضحـين في الأبحـاث الكـلاميـة ، وأمّـا عـامـة النـاس ورعـاعُهُم الـذين يُشكِّلون أغلبيـة المجتمع ، فإنّهم غير قادرين على التفكيك بين تَيْنِك المرحلتين ، بـل يجعلون السهو في إحداهما دليلاً على إمكان تسرُّب السهو إلى المرحلة الأُخرى .

فلا بدّ ـ لسدّ هذا الباب الذي ينافي الغاية المطلوبـة من إرسال الـرسل ـ من أن يكون النبي مصوناً عن الخطأ في عامة المراحل ، سواء في حقل الوحي أم تطبيق الشريعـة أم في الأُمور الفـردية والاجتـماعية . وهـذا الذي ذكـرناه مقتضى الـدليل العقـلي القائم في المقـام . والقرآن الكـريم يدعم ذلـك ببيان خـاص ، نورده فيـما يلي .

القرآن وعصمة النبي عن الخطأ

تستفاد عصمة الأنبياء عن الخطأ في مجال تطبيق الشريعة والأُمور الفـردية من عدة من الآيات نكتفي في المقام بالبحث في آيتين منها . ولأجل توضيـح دلالتهما ، نذكر كلا منها ، مع ما يرتبط بها من الآيات .

الآية الأولى ـ قال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنـا إِلَيْكَ الكِتَـابَ بالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَـيْنَ النَّاسِ بِما أَرَاكَ الله ولا تَكُنْ للخائِنِينَ خَصِيماً ﴾[1] .

وقال سبحانه أيضاً : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ

---

(١) سورة النساء : الآية ١٠٥ .

يُضِلُّوكَ ، وَمَا يُضِلّونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ ، وما يَضرُّونَـكَ مِنْ شيءٍ ، وأَنْزَلَ الله عَلَيْـكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ ، وَكانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عظيماً ﴾[1] .

الإستدلال بهاتين الآيتين وإن كان لا يتوقف على معرفة أسباب نـزولها ، إلاّ أنّ الإحاطة بأسباب النزول توجب ظهورَهُما في مفادهما .

إنّ مجموع ما ورد حول هاتين الآيتين وغيرهما ، من أسبـاب النزول ، متفق عـلى أنّها نزلت في شكـوى رُفعت إلى النبيّ صـلى الله عليـه وآلـه ، وكـان كـلٌّ من المتخـاصمين يسعى ليـبرء نفسه ويلقي التهمـة على الآخـر . لكن كان إلى جـانب أحدهما رجل طليق اللّسان حاول أن يخدع النبي الأكرم بإثـارة عواطفـه على المتهم البريء ، ليقضي على خلاف الحق ، فعند ذلك نزلت الآيـات ورَفَعَتِ النِّقاب عن وجه الحقيقة ، وعُرِفَ المُحِقُّ من المُبْطِل[2] .

والـدقة في فقـرات الآية الثـانية ، يـوقفنا عـلى مـدى صيـانـة النبي الأكـرم وعصمته عن السهو والخـطأ ، فإنّها مؤلفـة من فقرات أربـع كلٌّ منهـا يشير إلى أمـر خاص .

١ ـ ﴿ وَلَـوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْـكَ وَرَحْمَتُـهُ لَهَمَّتْ طَّـائِفَـةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ومـا يُضِلُّونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وما يَضرُّونَكَ من شيءٍ ﴾ .

٢ ـ ﴿ وَأَنْزَلَ الله عَلَيْكَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ ﴾ .

٣ ـ ﴿ وَعَلَّمَـكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ ﴾ .

٤ ـ ﴿ وكان فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ .

وإليك فيما يلي بيان ما تهدف إليه هذه الآيات وكيفية استنتاج العصمة منها .

الفقرة الأُولى تدلّ على أنّ نفس النبي بمُجرّدها لا تصونـه من الضلال ، أي من القضاء على خلاف الحق ، وإنّما الصائن له هـو الله سبحانـه ، فلَوْلا فضلُ الله

---

(١) سورة النساء : الآية ١٠٥ .

(٢) راجع في الوقوف على مجموع ما نقل من أسباب النزول ، تفسير الطبري ، ج ٥ ، ص ١٦٩ .

ورحمته لهمّت طائفـة أن يرضـوه بالـدفاع عن الخـائن ، غير أنّ فضله العـظيم على النبي هـو الذي صـدّه عن فعل ذلـك ، وأبـطل أمـرهم الـذي كـان سـيؤدّي إلى إضلاله .

وبمـا أنّ رعايـة الله سبحانـه وفضله الجسيم على النبي ليسـا مقصورين عـلى حال دون حال، أو وقت دون آخر، بل هو مشمول لهما ومحاطٌ بهما في جميع لحظات حياته ، فلن يصيبَه من إضلالهم شيء ، وإنّما يضرّون بذلك أنْفُسَهم ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿ وما يُضِلّونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضرُّونَكَ من شيءٍ ﴾ .

والفقرة الثانية تشير إلى مصـادر حكمه ومـدارك قضائـه ، وأنّه لا يصـدر في هذا المجال إلاّ عن التعليم الإلهي .

ولما كان هذا النوع من العلم الكلّي أحد ركني القضاء ، وهو لـوحده لا يفي بالقضاء بالحق ، وإنّما يتمّ القضاء بالحق بتمييز الصغريـات ، وهو تشخيص المُحقّ من المُبـطل ، والخائن من الأمـين ، والـزاني من العفيف ، أتى بـالفقـرة الثـالثـة ، فقـال : ﴿ وَعَلَّمَكَ مـا لَـمْ تَكُنْ تَعْلَمْ ﴾ . ومقتضى العطف ، مغـايـرة المعـطوف (وعَلَّمَكَ . .) للمعطوف عليه (وأَنْزَلَ . .) فـإذا كان المعـطوفُ عليه نـاظراً إلى تمكّنه من الركن الأول ـ وهـو العلم بالإحكـام الكليّة الـواردة في الكتاب والسنّـة ـ يكون المعطوفُ ناظراً إلى الركن الثاني للقضـاء الصحيح وهـو العلم بالمـوضوعـات والجزئيات .

فـالعلم بالحكم الشرعي أولاً ، وتشخيص الصغـريات وتمييـز الموضـوعات ثانياً ، جنـاحان للقـاضي يحلّق بهما في سـماء القضاء بـالحق ، من دون أن يجنح إلى جانب الباطل أو يسقط في هوّة الضلال . والفقرة الأولى تشـير إلى الجانب الأول ، والثانية إلى الثاني .

ومجمـل ما تقـدم أنّ الآية الأُولى تـدلّ على أنّ الهـدف من إنزال الكتـاب ، القضاء بين الناس بما أراه الله سبحانه ، ولا يمكن أن يكـون ما أراه سبحـانه أمـراً خاطئاً ، بل هو صواب على الإطلاق ، هذا من جانب .

ومـن جـانب آخـر إنّ القضاء بـالحق ـ الذي هـو الغايـة المتوخـاة من إنزال

الكتاب ـ تتوقف على العلم بالكبريات والصغريات ، وهو ما أشارت إلى تحققه في النبي ، الفقَرتان الثانية والثالثة من الآية الثانية .

قال العلامة الطباطبائي *: « المراد من قوله سبحانه : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ ﴾ ، ليس علمه بالكتاب والحكمة ، فإنّ مورد الآية قضاء النبي في الحوادث الواقعة ، والدعاوى المرفوعة إليه ، برأيه الخاص ، وليس ذلك من الكتاب والحكمة بشيء ، وإن كان متوقفاً عليهما ، بل المراد رأيه ونظره الخاص »(١) .

فيَنْتِجُ كلُّ ذلك أنّ النبي ـ لأجل عميم فضله سبحانه ـ مصون في مقام القضاء عن الخطأ والسهو .

ولما كان هنا موضع توهّم وهو أنّ رعاية الله لنبيّه تختصّ بموردٍ دون مورد ، دفع ذلك التوهّم بالفقرة الرابعة وقال : ﴿ وكانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عظيماً ﴾ حتى لا يتوهم اختصاص فضله عليه بواقعة دون أخرى ، بل مقتضى عظمة الفضل سعة شموله لكل الوقائع والحوادث ، سواء أكانت من باب المرافعات أم من الأمور العادية الشخصية .

ولا كلام أعلى وأغزر عاطفة من قوله سبحانه في حق حبيبه : ﴿ وكان فَضْلُ الله عَلَيْكَ عظيماً ﴾ .

الآية الثانية ـ قال سبحانه : ﴿ وَكذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لتكونوا شُهَداءَ على الناسِ ويكونَ الرَّسولُ عَلَيْكُمْ شهيداً . . ﴾(٢) .

إنّ الشهادة الواردة في الآية ، من الحقائق القُرآنية التي تكرر ورودها في الذكر الحكيم .

قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ وجِئْنا بِكَ عَلى هٰؤلاءِ شَهيداً ﴾(٣) .

---

(١) الميزان ، ج ٥ ، ص ٨١ .
(٢) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .
(٣) سورة النساء : الآية ٤١ .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ للذينَ كَفَروا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُون ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَوُضِع الكِتَابُ وَجِيءَ بالنَّبِيِّينَ والشُّهداءِ . . . ﴾[2] .

وهذه الشهادة يتحملها الشهداء في الدنيا ويُؤدُّونها في الآخرة ، ويدلّ على ذلك :

قوله سبحانه : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهيداً ما دُمْتُ فِيهم ، فَلَمّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقيبَ عليهِمْ وَأَنْتَ على كُلِّ شيْءٍ شهيد ﴾[3] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ القِيامَةِ يكونُ عَلَيْهِمْ شهيداً ﴾[4] .

فمجموع هذه الآيات يدلّ على أنّ في كلّ أُمّةٍ شهداء على أعمالها ، وأنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على رأسهم ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، إنّ الشهادة هنا ليست على صور الأعمال والأفعال ، فإنّها غير كافية في القضاء الأُخروي ، بل المشهود عليه هو حقائق أعمال الأُمة : الإيمان والكفر والنفاق ، والرياء والإخلاص . . . ومن المعلوم أنّ هذه المشهودات لا يمكن تشخيصها والشهادة عليها عن طريق الحواس الخمس ، لأنّها لا يمكنها أن تستكشف حقائق الأعمال ، وما يستبطنه الإنسان . فيجب أن يكون الأنبياء مجهزين بحسّ خاص يقدرون معه على الشهادة على ما لا يُدْرَك بالبصر ولا بسائر الحواس ، وهذا هو الذي نسميه بحبل العصمة ، وكلُّ ذلك بأمر من الله سبحانه وإذْنِه ، والمُجَهَّز بهذا الحسّ لا يخطىء ولا يسهو .

وإن شئت قلت : إنّ الشهادة هنا ، لو كانت خاطئة ، للزم عقاب المطيع أو إثابة المجرم ، وهو قبيح عقلاً ، لا سيما الأول ، فيجب أن تكون شهادة الشاهد

---

(١) سورة النحل : الآية ٨٤ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٩ .

(٣) سورة المائدة : الآية ١١٧ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٥٩ .

مصونة عن الخطأ والإشتباه حتى تكون منزهة عمّا يترتب عليهما من القبيح .

وهذه الآيات ، وإن كانت لا تثبت إلّا مصونيّته فيما يرتبط بالشهادة ، ولكن التفصيل غير موجود في كلمات القوم .

تبيّن إلى هنا أنّ الأنبياء ـ بحكم العقل والكتاب ـ مصونون عن الخطأ ، والزلل في تطبيق الشريعة أوّلاً ، وجميع أمورهم الفردية والإجتماعية ثانياً .

* * *

أدلة المجوزين للخطأ على الأنبياء

جوّز جماعة من المتكلمين الخطأ والإشتباه على الأنبياء ، واستندوا في ذلك إلى آيات ، غفلوا عن أهدافها . ونحن نذكرها على وجه نميط الستر عنها .

١ ـ قال سبحانه : ﴿ وإذا رَأَيْتَ الذينَ يَخُوضُونَ في آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتى يَخوضوا في حَديثٍ غيرِه ، وإما يُنْسِيَنَّكَ الشَّيطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكرى مع القَوْمِ الظَّالِمينَ ﴾[١] .

فقد استدلّ بها المخطئة بأنّ الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله ، فالنتيجة أنّ النبي ربما يطرأ عليه النسيان ، وهو لا يجتمع مع المصونية من الخطأ .

إلّا أنّهم غفلوا عن أنّ وزان الآية وزان كثير من الآيات الأُخر التي يخاطب فيها النبي ولكن يكون المقصود من الخطاب أبناء الأمة .

ومن هذا القبيل ، قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحي إلَيْكَ وإلَى الذينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ ﴾[٢] . فإنّ هذه الآية ـ ونظائرها ـ تركّز على الجانب التربوي من الشريعة ، والغاية منها تعريف الناس بوظيفتهم وتكليفهم تجاه الباري سبحانه ، ببيان أنّ نبي الأُمة إذا كان محكوماً بهذه

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٦٨ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٥ .

التكاليف ومخاطَباً بها ، فغيره أولى بأن يكون محكوماً بها . وهذه الآيات تجري مجرى قول القائل : « إيّاكِ أعني واسْمَعي يا جارة » .

فالمراد من الآية المستدلّ بها هو حثّ المؤمنين على اجتناب الحضور في المجالس التي يخاض فيها في آيات الله سبحانه . فالنهي عن الخوض تكليفٌ عام يشترك فيه النبي وغيره ، وكون الخطاب للنبي لا ينافي كون المقصود هو الأُمة . ويدلّ على ذلك قوله سبحانه في سورة النساء : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ في الكِتابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُم آياتِ الله يُكْفَرُ بها ، وَيُسْتَهْزَءُ بها فَلا تَقْعُدوا مَعَهُمْ حَتى يَخُوضوا في حديثٍ غيره ، إنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُمْ ، إنَّ الله جَامِعُ المنافِقينَ والكافرينَ في جَهَنَّمَ جَميعاً ﴾(١) .

فإنّ هذه الآية مدنية ، والآية المستدلّ بها مكية ، وإذا قورنت إحداهما بالأُخرى يستنتج منه أنّ الحكم النازل سابقاً متوجه إلى المؤمنين ، وأنّ الخطاب فيه وإن كان للنبي ، إلاّ أنّ المقصود إنشاءُ حُكمٍ كليٍّ شاملٍ لجميع المكلّفين من غير فرق بين النبي وغيره . ومع ما ذكرناه ، لا يكون في الآية دلالة على تحقق النسيان من النبي ، لأنّها إنّما تدلّ لو كان الخطاب مختصاً بالنبي لا يتعداه .

٢ ـ قال سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيءٍ إنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إلاَّ أَنْ يَشاءَ الله * واذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَني رَبي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذا رَشَداً ﴾(٢) .

المراد من النسيان الإستثناء ، وهو قول « إلاّ أن يشاء الله » . والآية استدلالاً وجواباً ـ كسابقتها .

٣ ـ قال سبحانه : ﴿ سَنُقْرِؤُكَ فَلاَ تَنْسى * إلاَّ ما شاء الله إنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفى ﴾(٣) .

ومعنى الآية : إنّا سنجعلك قارئاً بإلهامِكَ القِراءة ، فلا تنسى ما تَقْرؤه .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٤٠ .

(٢) سورة الكهف : الآيتان ٢٣ و ٢٤ .

(٣) سورة الأعلى : الآيتان ٦و٧ .

استدلّت المخطئة بالإستثناء الوارد بعدها على إمكان النسيان ، غير أنّهم غفلوا عن نكتة الإستثناء ، وهي عين النكتة في الإستثناء الوارد في قوله تعالى : ﴿ وأمّا الذينَ سُعِدوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدينَ فِيهَا ما دامَتِ السَّموات وَالأرْضُ إلاّ مَا شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذوذٍ ﴾[1] .

إنّ قوله سبحانه : ﴿ عطاءً غيرَ مجذوذ ﴾ ، يَدُلُّ على أنّ الخلود في الجنة لا يقطع ولا يُجَزّ ، بل هو عطاءٌ موصول من الربّ ، ما دامت الجنة باقية ، ومع ذلك استثنى سبحانه الخلود بقوله : ﴿ إلاّ ما شاء ﴾ . وليس ذلك لأنّ الخلود يُقطع ، بل للإشارة إلى أنّ قدرة الله سبحانه بعد إدخالهم الجنة باقية بعدُ ، فالله سبحانه - مع كونهم مخلّدين في الجنة - قادر على إخراجهم منها .

وعلى ما ذكرنا يعلم وجه الإستثناء في الآية التي وقعت مورد الإستدلال ، فإنّه يفيد بقاء القدرة الإلهية على إطلاقها ، وأنّ عطية الله (جَعْل النبي قارئاً لا ينسى) لا تسلب القدرة عن الله سبحانه على إنسائه ، بل هو عليه قادر متى شاء ، وإن كان لا يشاء ذلك .

وبدراسة هذه الآيات التي قدمناها ، تقف على تحليل كثير من الآيات التي نُسب فيها النسيان إلى غير النبي الأعظم من الأنبياء ، مثل قوله سبحانه :

أ - ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾[2] .

ب - ﴿ فَلَمّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيا حوتَهُما . . ﴾[3] الوارد في موسى وفتاه .

ج - ﴿ . . . لا تؤاخذني بما نسيت . . . ﴾[4] وهو قول موسى للخضر .

وغير ذلك من الآيات[5] .

---

(١) سورة هود : الآية ١٠٨ .

(٢) سورة طه : الآية ١١٥ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٦١ .

(٤) سورة الكهف : الآية ٧٣ .

(٥) قد أجمل الأستاذ - دام ظلّه - الكلام هنا في هذه الآيات ، فنحن نستدرك البحث فيها بما يرفع الستار عن وجهها ، ونجعله في ملحق خاص آخر الكتاب .

الرأي السائد بين المتكلمين حول سهو النبي

الظاهر من المتكلمين الأشاعرة والمعتزلة ، تجويزهم السهو على الأنبياء إجمالاً ، إمّا في مقام إبلاغ الدين ، كالباقلاني[1] ، وإمّا في غيره كما عليه غيره . قال الإيجي في المواقف .

« أمّا الكبائر عمداً ، فمنعه الجمهور ، والأكثر على امتناعه سمعاً . وقالت المعتزلة ـ بناء على أصولهم ـ يمتنع ذلك عقلاً . وأمّا سهواً فجوزه الأكثرون .

. وأمّا الصغائر عمداً ، فجوّزه الجمهور إلاّ الجُبّائي . وأمّا سهواً فهو جائز إتّفاقاً ، إلاّ الصغائر الخسية ، كسرقة حبة أو لقمة »[2] .

وجوّز القاضي عبد الجبار صدور الصغائر منهم عمداً ، قال في شرح الأصول الخمسة : « وأمّا الصغائر التي لا حَظَّ لها إلاّ في تقليل الثواب دون التنفير ، فإنّها مجوّزة على الأنبياء ولا مانع يمنع منها »[3] .

فإذا كانت الكبائر من الذنوب جائزة عليهم سهواً عند الأكثر ، أو كان صدور الصغائر منها جائزاً عليهم سهواً بالإتفاق ، بل عمداً عند القاضي عبد الجبار كما تقدم في كلامه ، فمن الأولى أن يجوزوا عليهم السهو في غير الذنوب ، أعني في مجال تطبيق الشريعة أو أعمالهم الفردية والاجتماعية ،كيف لا وقد روى الجمهور في الصحاح والمسانيد وقوع السهو من النبي ، كما يجيء بيانه ونقاشه .

وأمّا الإمامية ، فالمحققون منهم متفقون على نفي السهو عن الأنبياء مطلقاً حتى في تطبيق الشريعة كالصلاة ، وإليك فيما يلي نقل نصوصهم في هذا الشأن .

---

(١) قد مرّ نصّ كلام صاحب المواقف في هذا المحال عند البحث في المرحلة الثانية من مراحل العصمة ، وهي عصمة الأنبياء في تبليغ الرسالة ، فلاحظ .

(٢) المواقف ، ص ٣٥٩ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٥٧٥ .

قال الشيخ المفيد[1] في رسالته التي يرد فيها على مَنْ ذَهَبَ إلى تجـويز السهـو على النبي والأئمة في العبادة ما هذا لفظه :

« الحديث الذي روته الناصبة والمقلّدة من الشيعة أنّ النبي سهى في صـلاته فسلّم ركعتين ناسياً ، فلما نُبِّه عـلى سهوه أضـاف إليهما ركعتـين ثم سجد سجـدتي السهو ، من أخبار الآحاد التي لا تثمر علماً ولا توجب عملاً »[2] .

وقال الشيخ الطوسي[3] بعدما روى حديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ما سجد سجدتي السهو قطّ ، قال بأنّ الذي يفتي به هو ما تضمنـه هذا الخـبر ، لا الأخبار التي قَدَّم ذكرَها وفيها أنّ النبي سهى فسجد[4] .

وقـال المحقق[5] فـي المختصـر النافـع : « والحقُّ رفع منصب الإمـامـة عن السهو في العبادة »[6] ورفـع منصب الإمامـة عنه السهـو يقتضي رفع منصب النبـوة عنه .

وقـال المحقق الطوسي[7] في التجـريد : « ويجب في النبي العصمـة ليحصل الـوثوق فيحصـل الغرض . . و(يجب) كـمال العقل ، والـذكاء والفـطنة ، وقـوّة لرأي ، وعدم السهو »[8] .

وقال العلامة[9] في التذكرة ما هذا لفظه : « وَخَبَرُ ذي اليدَيْن عندنا باطل ، لأنّ النبي المعصوم لا يجوز عليه السهو »[10] .

---

(1) هو الشيخ محمد بن محمد بن النعمان البغدادي ، ت ٣٣٨ - م ٤١٣ .

(2) التنبيه بالمعلوم من البرهان ، تأليف الشيخ الحرّ العاملي ، ص ٧ .

(3) محمد بن الحسن الطوسي ، ت ٣٨٥ - م ٤٦٠ .

(4) التهذيب ، ج ٢ ، ص ٣٥١ .

(5) أبو القاسم جعفر بن الحسن الحلي ، ت ٦٠٢ - م ٦٧٦ .

(6) المختصر النافع ، ص ٤٥ .

(7) نصير الدين محمد بن محمد الحسن الطوسي ، ت ٥٩٧ - م ٦٧٢ .

(8) شرح التجريد ، ص ١٩٥ .

(9) الحسن بن يوسف الحلي ، ت ٦٤٨ - م ٧٢٦ .

(10) تذكرة الفقهاء ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، في مسألة وجوب ترك الكلام بحرفين فصـاعداً مما ليس بقرآن ولا دعاء .

وقال أيضاً في الرسالة السَّعْدِيَّة : « لو جاز عليه السهـو والخطأ ، لجـاز ذلك في جميع أقوالـه وأفعالـه ، فلم يبق وثوق بـإخباراتـه عن الله تعالى ، ولا بـالشرائع والأديـان ، لجـواز أن يـزيـد فيهـا وينقص ، فتنتفي فـائـدة البعثـة ، ومِنَ المعلوم بـالضرورة أنّ وصف النبي بالعصمـة أكمل وأحسن من وصفـه بضدهـا ، فيجب المصير إليه ، لما فيه من دفع الضرر المظنون بل المعلوم »[1] .

وقال الشهيد الأول[2] في الـذكرى ، بعـد ذكره خـبر ذي اليدين : « وهـو متروكٌ بين الإمامية لقيام الدليل العقلي على عصمة النبي عن السهو »[3] .

وقال الفاضـل المقداد[4] : « لا يجـوز على النبي صـلى الله عليه وآلـه السهو مـطلقاً ، أي في الشرع وغـيره . أمّا في الشرع ، فلجـواز أنْ لا يؤدّي جميع مـا أُمر به ، فلا يحصل المقصود من البعثة . وأمّا في غيره ، فإنّه يُنَفِّر »[5] .

وقال الشيخ بهاء الدين العاملي[6] ـ عندما سأله سائل عن قول ابن بابويه إنّ النبي قد سهى ـ : «بل ابن بابويه قد سهى ، فإنّه أولى بالسهو من النبي »[7] .

وقـد ألّف غير واحـد من الأصحاب كتبـاً ورسائـل في نفي السهو عن النبي منها : رسالة الشيخ المفيد[8] ، ورسالة إسحاق بن الحسن الأقْـرائي[9] ، ورسالـة الحر العاملي[10] المُسمّاة بـ « التنبيه بالمعلوم من البرهان على تنزيه المعصوم عن السهو النسيـان » . وقد فصـل العلامـة المجلسي (م ١١١١) في البحـار ، الكـلام في

(١) الرسالة السَّعديَّة ، ص ٧٦ ، طبعة النجف .
(٢) محمد بن مكي العاملي ، ت ٧٣٤ ـ م ٧٨٦ .
(٣) الذكرى ، ص ١٣٤ .
(٤) أبو عبد الله المقداد بن عبد الله الأسدي السيوري الحلي ، م ٨٢٦ .
(٥) إرشاد الطالبيـن ، ص ٣٠٥ .
(٦) محمد بن الحسين بهاء الدين العاملي ، ت ٩٥٣ ـ م ١٠٣٠ .
(٧) التنبيه على المعلوم من البرهان ، ص ١٣ .
(٨) أدرجها العلّامة المجلسي في البحار ، لاحظ ج ١٧ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٩ .
(٩) رجال النجاشي ، رقم الترجمة ١٧٨ .
(١٠) محمد بن الحسن الحرّ العاملي ، المحدث المعروف ، م ١١٠٤ .

المسألة ، واطنب في بيان شُذوذ تلك الأخبار التي استند إليها القائلون بالسهو[١] وناقشها بأدلّة متعددة السيد عبد الله شُبّر (ت ١١٨٨ ـ م ١٢٤٢) في كتابيه : حقّ اليقين[٢] ومصابيح الأنوار[٣] .

نعم هناك من الإمامية من جوّز السهو على النبي ، وإليك نصوصهم :

١ ـ قال محمد بن الحسن بن الوليد[٤] : « أوّل درجة في الغلو ، نفي السهو عن النبي صلى الله عليه وآله ، فلو جاز أن تُرَدَّ الأخبار الواردة في هذا المعنى ، لجاز أن تردّ جميع الأخبار ، وفي ردّها إبطال الدين والشريعة ، وأنّا أحتسب الأجر في تأليف كتاب منفرد في إثبات سهو النبي والرَّدِّ على منكريه إن شاء الله تعالى »[٥] .

٢ ـ قال الصدوق[٦] : « إنّ الغُلاة والمفوضة ـ لعنهم الله ـ ينكرون سهو النبي ، ويقولون : لو جاز أن يسهو في الصلاة ، لجاز أن يسهو في التبليغ ، لأنّ الصلاة عليه ، فريضة ، كما أنّ التبليغ عليه فريضة » .

ثم ردّ عليه بأنّ سهو النبي ليس كسهونا ، لأنّ سهوه من الله عز وجل ، وإنّما أسهاه ليعلم أنّه بشر مخلوق ، فلا يتّخذ ربّاً معبوداً دونه . وليعلم الناسُ بسهوِه حُكْمَ السهو متى سهوا . وسَهْوُنا من الشيطان ، وليس للشيطان على النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام سلطان ، ﴿ **إنّما سُلْطانُهُ على الذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالذينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكونَ** ﴾[٧]و[٨] .

٣ ـ وقال الطبرسي[٩] في تفسير قوله سبحانه : ﴿ **وإمّا يُنْسِيَنَّكَ**

(١) البحار ، ج ١٧ ، الباب ١٦ ، ص ٩٧ ـ ١٢٩ .
(٢) حق اليقين ، ج ١ ، ص ١٢٤ ـ ١٢٩ .
(٣) مصابيح الأنوار ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .
(٤) محمد بن الحسن بن الوليد القمي ، من مشايخ الصدوق ، متوفى عام ٣٤٣ .
(٥) من لا يحضره الفقيه ، ج ١ ، ص ٣٦٠ .
(٦) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه ، ت ٣٠٦ ـ م ٣٨١ .
(٧) سورة النحل : الآية ١٠٠ .
(٨) من لا يحضره الفقيه ، ج ١ ، ص ٣٦٠ .
(٩) الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي ، ت ٤٧٠ ـ م ٥٣٨ .

الشَّيْطانُ . . ﴾ : « نُقل عن الجبّائي أنّه قال : في هذه الآية دلالة على بطلان قـول الإمامية في أنّ النسيان لا يجوز على الأنبياء » .

ثم أجاب عليه بقوله : « وهذا القول غير صحيح ، لأنّ الإمامية لا يجوزون السهو عليهم فيما يؤدّونه عن الله ، فأمّا ما سـواه ، فقد جـوّزوا عليهم أن ينسوه أو يسهوا عنه ، ما لم يؤدّ ذلك إلى إخلال بالعقل »[1] .

إلى هنا وقفت على أنّ المشهور بين علماء الإمامية هو القول الأول دون الثـاني الذي هجر بعد الطبرسي ، ولم ينبث به أحد ، إلاّ بعض المشايخ المعـاصرين[2] ، فعمد إلى جمع الـروايات الـدالّة عـلى طروء السهـو والنسيان عـلى النبي والأئمة . ولعلّه جامع غير معتقد به .

والقضاء بين القولين يتوقف على نقل بعض ما أثر من الروايـات الدالّـة على سهو النبي ومناقشتها :

١ ـ روى الشيخـان (البخاري ومسلم) وأبـو داود ـ واللفظ لـلأخـير ـ عن عمران بن حصين (رض) : « إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في مسير لـه ، فناموا عن صلاة الفجر ، فاستيقظوا بِحَرِّ الشمس ، فقال عليه الصلاة والسـلام : تنحو عن هذا المكان ثم أمر بلالاً فأذّن ثم توضؤا وصلّوا ركعتي الفجر[3] . ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة ، فصلّى بهم صلاة الصبح »[4] .

وروى الشيخ الصدوق نَحْوَهُ[5] .

---

(١) مجمع البيان ، ج ٧ ، ص ٣١٧ .

(٢) وهو العلامة الشيخ محمد تقي التستري مؤلّف قاموس الرجال . وقد أدرج الرسـالة في الجـزء الحادي عشر من كتابه .

(٣) المراد نافلة فريضة الصبح .

(٤) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

(٥) من لا يحضره الفقيه ، ج ١ ، ص ٣٦٠ ، رقم الحديث المتسلسل ١٠٣١ وفي السند « الـرباطي » . فإن كان المراد منه علي بن رباط البجلي الكـوفي ، لقرينة روايـة الحسن بن محبوب عنـه ، فهو ثقـة والرواية معتبرة .

٢ ـ روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال : « صلّى لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) صلاة الفجر ، فسلّم في ركعتين . فقام ذو اليـدين فقال : أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت ؟ .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : كلُّ ذلك لم يكن .

فقال : قد كان بعض ذلك يا رسول الله ! .

فـأقبـل رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه عـلى النـاس فقـال : أصـدق ذو اليدين ؟ .

فقالوا : نعم ، يا رسول الله .

فأتمّ رسول الله مـا بقي من الصلاة ، ثم سجـد سجدتـين وهو جـالس بعد التسليم »[١]

وروى نحوه الكليني بسند معتبر[٢] .

وبعـد تقديم هـذين النموذجـين من الروايـات نقـول : إنّ الحق هـو نفي السهو عن النبي ، وعدم الإعتداد بهذه الروايات لوجوه :

الوجه الأول ـ إنّ هذه الروايات معارضة لظاهر القرآن الـدالّ على أنّ النبي مصونٌ عن السهو ، على ما عرفت .

الوجه الثاني ـ إنّ هذه الروايات معارضة لأحـاديث كثيرة تـدلّ على صيـانة النبي عن السهو . وقد جمعها المحدث الحرّ العاملي في كتابه[٣] .

الـوجه الثـالث ـ إنّ ما روتـه الإمـاميـة من أخبـار السهـو ، أكـثر أسـانيـده ضعيفـة ، وأمّـا النقي منهـا فهـو خـبر واحـد لا يصـحّ الإعتـاد عليــه في بـاب

---

(١) التاج ، ج ١ ، ص ١٩٦ ، ولاحظ جامع الأصول ، ج ٦ ، ص ٣٥٠ ، الرقم المتسلسل ٣٧٦٢ .
(٢) الكافي ، ج ٣ ، ص ٣٥٥ ، باب من تكلم في صلاته ، الحديث الأول .
(٣) لاحظ التنبيه بالمعلوم من البرهان ، ص ٢٦ ـ ٤٤ .

لأصول[1]

الوجه الرابع ـ إنّها معارِضة للأدلّة العقلية التي تقدم ذكرها .

وأمّا ما رواه أصحاب الصحاح ، فمع غضّ النظر عن أسناده ، فإنّه مضطّرب جداً في متونه ، وذلك :

١ ـ فقد روى البخاري : صلّى رسول الله (صلى الله عليه وآله) الظهر ركعتين فقيل صلّيت ركعتين . فصلّى ركعتين . . . الخ .

٢ ـ وفي رواية أخرى له : صلّى بنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) الظهر والعصر ركعتين ، فسلّم . فقال له ذو اليدين : الصلاة يا رسول الله ، أنقصت ؟ . . . الخ .

٣ ـ وروى مسلم عن أبي هُريرة ، يقول : صلّى لنا النبي (صلى الله عليه وآله) صلاة العصر ، فسلّم في ركعتين ، فقام ذو اليدين فقال : أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت ؟ . فقال : كل ذلك لم يكن . . . الخ .

٤ ـ وفي رواية أُخرى له : إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) صلّى ركعتين من صلاة الظهر ثم سلّم ، فأتاه رجل من بني سُلَيْم ، فقال : يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت . . . الخ .

٥ ـ وروى البخاري وأبو داود ومسلم عن عمران بن حصين أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) صلّى العصر وسلّم في ثلاث ركعات ودخل منزله فقام له رجل يقال له الخرباق وكان في يده طول . . . الخ .

٦ ـ أخرج أبو داود ، قال : صلّى بنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) أحد صلاتي العشاء ـ الظهر أو العصر ـ قال فصلّى بنا ركعتين ثم سلّم ، فقام إلى خشبة في مقدم المسجد فوضع يده عليها ، إحداهما على الأُخرى ، يعرف في وجهه

---

(١) وقد قام الشيخ الحرّ العاملي ـ قدّس سرّه ـ بتحقيق لمسانيد تلك الروايات وبيان ضعفها . لاحظ ص ٦٤ ـ ٦٦ من المصدر السابق نفسه .

الغضب ، ثم خرج سرعان الناس وهم يقولون : قصرت الصلاة ، قصرت الصلاة . وفي الناس أبو بكر وعمر ، فهابا أن يكلماه . وقام رجل كان رسول الله يسمّيه ذا اليدين ، فقال : يا رسول الله ، أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ فقال : لم أنس ولم تقصر الصلاة . قال : بل نسيت يا رسول الله ! فأقبل رسول الله على القوم فقال : أصدق ذو اليدين . فأومأوا : أي نعم . فرجع رسول الله إلى مقامه ، فصلّى الركعتين الباقيتين ثم سلّم . . الخ .

٧ ـ وأخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : «صلّى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فزاد أو نقص ـ شكّ بعض الرواة ـ والصحيح أنّه زاد ، فلما سلّم قيل له يا رسول الله ، أَحَدَثَ في الصلاة شيء ؟ قال : وما ذاك ؟ قالوا : فإنّك صلّيت خمساً . فانفتل ثم سجد سجدتين ثم سلّم » .

وفي أُخرى لمسلم قال : « صلّى بنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) خمساً ، فقلنا يا رسول الله ، أزيد في الصلاة ؟ قال : وما ذاك ؟ قالوا : صلّيت خمساً ، فقال : إنّما أنا بشر مثلكم ، أذكر كما تذكرون وأنسى كما تنسون . . الخ .

وروى الترمذي نحوها مع قوله : « صلى الظهر خمساً » . وأخرجه أبو داود والترمذي .

فيلاحظ فيما ذكرناه ما يلي :

أولاً ـ اضطراب الروايات في تعيين الصلاة التي سهى فيها رسول الله ، فهي بين معيّنة للظهر (الرواية الأولى والرابعة) أو معينة للعصر (الثالثة والخامسة) ، أو مُرَدّدة بينهما (الثانية والسادسة) .

وثانياً ـ إنّ الرواية الخامسة تدلّ على نسيانه ركعة واحدة ، بخلاف السابعة فتدلّ على زيادته ركعة ، وبخلاف بقية الروايات فتدلّ على نسيانه ركعتين .

وثالثاً ـ قوله : « لم أَنْس ولَمْ تَقْصُر الصلاة » ، في الرواية الخامسة . أو قوله في الثالثة : « كل ذلك لم يكن » ، غير لائق بالرسول ، لأنّه لو كان يجوز على نفسه السهو لما نفاه عن نفسه بنحو القطع ، بل لقال : أظنّ أنّه لم يكن كذلك .

ورابعاً ـ إنّ إنكاره قول ذي اليدين مستلزم لتجويز سهوين عليه ، مكان تجويز سهو واحد ، وهو أيضاً عجيب في موردٍ واحدٍ .

وخامساً ـ الظاهر أنّ سهو الرسول في الصلاة ، واقعةٌ واحدةٌ ، فاختلاف السهو بين الزيادة والنقصية ، واختلاف الإعتراض بين قولهم : « أَقَصُرَتَ الصلاة أم نسيت ؟ » ، وقولهم « أزِيدَ في الصلاة ؟ » ، كما في رواية الترمذي من القسم السابع من الروايات ، تناقض واضح .

وسادساً ـ إضطراب الروايات في بيان زمن التذكير ، فإنّ في بعضها أنّه كان بعد الصلاة بلا فصل ، وفي أُخرى بعد قيامه من الصلاة واستناده إلى خشبة في المسجد ، وفي ثالثة بعد دخوله حجرته . فما هذا التناقض مع كون الواقعة واحدة كما يظهر من مجموع ما تهدف إليه الروايات .

وسابعاً ـ في ذيل الرواية الخامسة ، أنّه بعدما ذكر ذو اليدين صنيع رسول الله من السهو : فخرج غضبان يجرّ رِدائه حتى انتهى إلى الناس فقال : أصدق هذا ، قالوا : نعم . فصلّى ركعة ثم سجد سجدتين .

ففي هذه الرواية ذكر الغضب بعد تنبيه ذي اليدين ، بينما في الرواية التي أخرجها أبو داود أنّ الغضب كان متقدّماً على تنبيهه .

وثامناً ـ ما منشأ غضب رسول الله ؟ هل هو تنبيه ذي اليدين ؟! لا وجه له . مع أنّ الغضب لهذا الشأن لا يناسب قوله سبحانه في حقّ نبيه : ﴿ وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾[1] .

وَمُجْمل المقال إنّ هذه الروايات[2] مع ما فيها ممّا ذكرناه ولم نذكره ، لا يصحّ أن تقع سناداً للعقيدة .

* * *

(١) سورة القلم : الآية ٤ .

(٢) لاحظ مجموع ما نقلناه من مقاطع الروايات ، جامع الأصول ، ج ٦ ، ص ٣٤٦ ـ ٣٥٧ .

سمات الأنبياء

(٢)

التنـزّه عن المُنَفِّـرات

قد وقفت فيما تقدم على أنّ قيادة الناس وهدايتهم ، من الأُمور الصعبة التي تتطلب في المدير والقائد أن يتمتع بصفات عالية تسهّل تـوفيقه للغـرض الذي بعث لـه ، أو نَهَضَ لتحقيقه . وقـد عرفت أنّ مسؤوليـة هدايـة البشر في جميع النـواحي ملقاةٌ على عاتق الأنبياء ، وأنّ العصمة ـ بمراتبهـا ـ إحدى الصفات اللازمـة فيهم . وهناك صفات أخرى يجب اتّصاف الأنبياء بها تحصيـلاً لغرضهم ، التي لـولاها لما وصلوا إليـه . ويجمعها التنـزّه عن كل مـا يوجب تنفـر الناس ، والتحـلّي بكلّ مـا يوجب انجذابهم إليهم . ونحن نشير إلى بعض عناوين هذه الصفات مع تفسيرهـا إجمالاً .

١ ـ التنزّه عن دناءة الآباء وعهر الأُمهات

لا شـكّ أنّ القائـد إذا كـان وليـد بيت طيب طـاهـر ، مغـروفٍ بـالعفـاف والتّقى ، فإنّ ذلك يكون له تأثيره الخاص في انسياق الناس وميلهم إليه . بخـلاف ما إذا كا وليد بيت صِفرٍ من القيم الأخـلاقية سـواء في جانب الآبـاء أو الأُمهات ، فـإنّ أفئـدة النـاس تنفضّ من وليـده بحجـة أنّ الأبنـاء يـرثـون صفـات الآبـاء والأُمهات .

٢ ـ سلامة الخِلْقة

ومن العوامل الباعثة على اجتماع الناس حول القائد ، سلامته في بدنه من التشوّه ، ومن الأمراض التي يستوحش الناس معها من التعاطي مع المصاب بها ، كالجذام والبرص .

٣ ـ كمال الخُلُق

إنّ لحسن الخُلُق وكماله تأثيراً خاصاً في جذب الناس ، كما أنّ لِقَسْوَة القلب وفظاظة المعاملة تأثيراً في تنفير الناس ، فلهذا يلزم أن يكون الأنبياء في القمة من صفاء النفس ولين الطباع ، والتواضع والنزاهة عن الحسد والتجبّر وما شاكل ذلك .

قال سبحانه : ﴿ فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَليظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلى الله إنَّ الله يُحِبُّ المُتَوَكِّلينَ ﴾[1] .

٤ ـ كمال العقل

كما أنّ للعقل سهماً وافراً في حقل القيادة ، فيجب أن يكون الأنبياء على درجة عالية من الذكاء والفطنة والرأي القاطع لا يتردّدون في أُمورهم بعد تبيُّنها .

وقد ذكرنا سابقاً قوله عليه السلام . « ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ، ويكون عقله أفضل من عقُول أُمته »[2] .

٥ ـ حُسْنُ السِيرة

إنّ البسطاء من الناس ـ وما أكثر وجودهم في الأُمم ـ ينظرون إلى البواطن

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٢) الكافي ، ج ١ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ١١ .

من خلال الظواهر ، فيستكشفون سرائر الأنبياء من ظواهر أفعالهم . ولذلك يجب أن يكون الأنبياء في معـاشراتهم مجانبـين للأراذل والسفلة وأربـاب الهزل ، مـبرّئين عن المشـاحنات والمشـاجرات التـافهة وغـير ذلك ممّـا يسقط شأن القـائـد في أعـين الناس .

ومـا عددنـاه من الصفات هنـا ، نماذج من الأصـل الكلّي الـذي صدّرنـا به البحث وهو اتّصاف الأنبياء بكل ما يوجب تـوفيقهم في هدايـة الناس ، الـذي هو الغـرض من بعثتهم . ولعلّ هنـاك مصاديق أخـرى لها دخـالة في هـذا المضمار ، لم نذكرها فيما ذكرناه .

* * *

سمات الأنبياء

(٣)

علم النبي بالمعارف والأحكام

إنّ الهدف الأسمى من بعث الأنبياء ، هداية الناس إلى المعارف العليا الراجعة إلى المبدأ والمعاد ، وما يضمن سعادتهم في حياتهم الدنيوية والأُخروية بالعمل بالأحكام الشرعية . ولأجل تحقق تلك الغاية يشترط أن يكون النبي على كمال المعرفة بتلك المعارف والأحكام ، مُسْتَقِياً لها من معينها ومصدرها ، معرفةً لا جهلَ فيها ، ولا شك ولا شُبْهَة .

وعلى ذلك ليس الأنبياء مجتهدين في استنباط المعارف والأحكام والوظائف العملية ، فإنّه أمر لا يخلو عن الجهل والإشتباه والخطأ . فما أوهن ما ذكره القوشجي في تصحيح تحريم المتعتين من جانب الخليفة عمر تجاه تحليل النبي لها ، بقوله : « إنّ ذلك ليس ممّا يوجب قَدْحاً فيه (الخليفة) ، فإنّ مخالفة المجتهد لغيره في المسائل الإجتهادية ليس ببدع !! »[١] .

فيلاحظ عليه

أولاً ـ إنّ النصوص القُرآنية تضافرت على أنّ ما يحكم به النبي ، عن وحي إلهي لا يتطرق إليه السهو والخطأ ، كما قال عزّ من قائل : ﴿ وما يَنْطِقُ عَنِ

(١) شرح التجريد للقوشجي ، ص ٤٨٤ .

الهوى * إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحىٰ ﴾(١)

وقـال تعالى : ﴿ قُـلْ ما يكـونُ لي أنْ أُبَدِّلَـهُ مِنْ تِلقاءِ نَفْسي إنْ أتَّبِـعُ إلاّ مـا يُوحىٰ إليَّ ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ قُـلْ ما كُنْتُ بِـدْعاً مِنَ الـرُّسُلِ ومـا أدْري ما يُفْعَـلُ بي وَلا بِكُمْ ، إنْ أتَّبعُ إلاّ مَا يُوحى إليَّ ﴾(٣) .

وقد حظر الله تعالى على نبيّه العجل ولـو بحركـة لسان ، فقـال عزّ وجـل : ﴿ لا تُحَـرِّكْ بِهِ لِسـانَكَ لِتَعْجَـلَ بِهِ * إنَّ عَلَيْنـا جَمْعَهُ وقُـرْآنَهُ * فـإذَا قَرَأْنـاهُ فاتَّبِـعْ قُرآنَهُ * ثُم إنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ﴾(٤)

فحينئذٍ لا يسوغ لأحد مخالفته ولا الإجتهاد في مقابل قضائه وحكمه أصلاً . كيف يكون ذلك ، وقد قال سبحـانه : ﴿ وَمَـا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَـةٍ إذَا قَضَىٰ آللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أنْ يَكونَ لَهُمُ الخِيرَةُ مِنْ أمْرِهِمْ ، وَمن يَعْصِ آلله وَرَسُولَهُ فَقَـدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبيناً ﴾(٥) .

وقال سبحانه : ﴿ فَلا ورَبِّكَ لاَ يُؤْمِنونَ حَتّى يُحَكِّموكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدوا في أنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تَسْليماً ﴾(٦) .

إلى غـير ذلك من الآيـات التي تبعث على طـاعة النبي والأخـذ بما أتى بـه ، والإنتهاء عمّا نهى عنه ، قال تعالى : ﴿ وَما آتاكُمُ الرَّسـولُ فَخُذوهُ ومـا نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهوا ﴾(٧) .

فإنّ كل ذلك يكشف عن أنّ كل مـا يؤدّيه النبي لا يُؤدّيـه من تلقاء نفسـه ،

---

(١) سورة النجم : الآيتان ٣ و ٤ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٥ .

(٣) سورة الأحقاف : الآية ٩ .

(٤) سورة القيامة : الآيات ١٦ ـ ١٩ .

(٥) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

(٦) سورة النساء : الآية ٦١ .

(٧) سورة الحشر : الآية ٧ .

ولا دخالة لفكره وشعوره فيه ، وإنّما هو إفاضة من ربّ العالمين إلى ذهنه ولوح عقله ليؤدّيه إلى الأمة بلا تصرف ولا تدخّل .

وثانياً ـ إنّ الإجتهاد عبارة عن استفراغ الوسع في فهم حكم الله تعالى من الحجج الأربع ومنها السنّة ، وهي قول النبي وفعله وتقريره . فإذا كان هذا معنى الإجتهاد ، فما معنى مخالفة الحجة باسم الاجتهاد . إن هو إلّا اجتهاد في مقابل الوحي ، وهو ساقط قطعاً .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سمات الأنبياء

(٤)

الكَفاءة في القيادة

إنّ القيادة والحكم يقتضيان اعتبار سلسلة من الشروط في القائد والحاكم ، وبدونها تنحرف القيادة عن طريق الحق وتنتهي بالأمة إلى أسوء مصير .

وقد كانت قيادة الأنبياء على نوعين :

الأول ـ القيادة المعنوية المحضة ، وهي هداية الأُمّة إلى عبادة الله سبحانه وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان ، وإرشادهم إلى وظائفهم أمام الله سبحانه . وهذا القسم لا يشترط فيه من المؤهّلات أزيد ممّا أسلفنا سوى الإستقامة في طريق الدعوة والصبر على النائبات ومعاداة المخالفين وأذاهم .

الثاني ـ القيادة بجميع شؤونها ، وهي هداية الأُمّة في حياتها الفردية والاجتماعية ، الدنيوية والأُخروية ، كما كان الحال في نبوة الكليم وداود وسليمان ، فلم تقتصر دعوتهم على الجهات المعنوية بل قاموا بتشكيل الممالك والدول ونشر دعوتهم بالجهاد بالنفس والنفيس ، ويكفي في ذلك مراجعة ما جاء حولهم في القُرآن الكريم .

قال سبحانه : ﴿ **فَهَزَموهُمْ بإذْنِ الله وَقَتَلَ دَاوُدُ جالوتَ وآتاهُ الله المُلْكَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مما يَشاءُ** ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

ومن المعلوم أن القيادة في هذا الإطار الواسع لا تتسنى إلّا لمن كان ذا مواهب كثيرة في الإدارة والتدبير وحسن الولاية ، يقدر معها على القيام بتلك المسؤولية . ويجمعها ما يسميه السياسيون في مصطلح اليوم بالنضج العقلي والرُّشد السياسي ، وبدونه لن يقوم للحكومة عمود ، ولن يَخْضَرّ لها عود . ولأجل ذلك أثر عن النبي الأكرم أنّه قال : « لا تَصْلُح الإمامة إلّا لرجل فيه ثلاث خصال :

١ ـ ورع يحجزه عن معاصي الله .

٢ ـ وحِلْمٌ يملك به غضبه .

٣ ـ وَحُسْنُ الولاية على من يلي حتى يكون كالأب الرحيم »[١] .

وقال الإمام علي عليه السلام : « أيُّها الناس إنّ أحقَّ الناس بهذا الأمر أقْوَمُهم (وفي رواية أقواهم) وأعلمهم بأمر الله ، فإنْ شغَبَ شاغِبٌ أُستُعْتِبَ ، وإنْ أبى قُوتِل »[٢] .

* * *

ثم إنّ جمعاً من المتكلمين التزموا بوجود سمات أخرى في الأنبياء وراء ما ذكرنا ، ككونهم أشجع الناس وأعلمهم بالعلوم كافة ، وأزهدهم وأعبدهم ونحو ذلك .

ولعلّ هذه الأوصاف من سمات من بعث لكافة الناس وهم على المشهور خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، والنبي الأعظم عليهم السلام . وعلى التحقيق هو نبي الإسلام صلى الله عليه وآله[٣] .

إلى هنا تمّ البحث عن النُبوّة العامة التي تختص أبحاثها بنبُوّة نبي معين ، وحان وقت البحث عن النبوة الخاصة ، المختصة مباحثها بنبوة نبي الإسلام ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله .

* * *

---

(١) الكافي ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٧٢ .

(٣) لاحظ مفاهيم القرآن ، ج ٣ ، ص ٧٧ ـ ١١٦ .

الفصـل الثـامن

النبـوة الخاصة

* طرق إثبات نبوة نبي الإسلام محمد بن عبد الله (ص)

الطريق الأول ـ معجزاته :

المقام الأول : معجزته الخالدة القرآن الكريم .

المقام الثاني : سائر معجزاته .

الطريق الثاني : بشائره في العهدين .

الطريق الثالث : القرائن الداخلية والخارجية .

* سمات الرسالة الإسلامية :

١ ـ عالمية الرسالة .

٢ ـ خاتمية الرسالة .

أسئلة حول الخاتمية .

الدعوة الإســـلامية

١ - ظـروفـــها :

في الوقت الذي عمّت سيـادة الشرك وعبادة الأصنـام أكثر ربـوع المعمورة ، وكانت الشعوب المتحضرة في بـلاد الفُرس والـروم تعاني ألـوان المظالم والتمييـزات الطّبقِيَّة ، وكان العُمّال والفلاحون يرزخون تحت ثقـل الضرائب المجحفة ، وكـان اليأس ملقياً بـظلاله السـوداء على عـامة الشعـوب والمِلَل ، وعاد رجـال الإصلاح يعيشون مرارة اليأس من كل ثورة منجية .

في هـذه الظروف ، قـام رجـل بـين أُمّـة متقهقـرة ، تقـطن أراض جـدبـاء قـاحلة ، ومعشر ليس لهم من الحضـارة أي سهم يـذكـر ، يسفكـون دمـاءهم ويقـطعون أرحـامهم ، فادّعى النبـوة والسفارة من الله الخـالق ، على أسـاس نشر التوحيد ، ورفض الوثنية وعبادة الأصنام ، وإقامة العـدل وبسط القِسط ، ورفض التمييز وحماية المضطهدين والمظلومين .

٢ - اسم الداعي ونســبه

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، من قبيلة قريش ، وُلِدَ بمكّة عام (٥٧٠ م) في بيت عريق في العربية ، مشهور بـالكرم والسخاء والستر والعفاف ، أعني به أسرة بني هاشم .

٣ ـ تاريخ الدعــوة

وقد قام بالدعـوة في أوائل القـرن السابـع الميلادي (٦١٠) . وأول مـا بدأ به ، دعوة أقربائه وعشيرته ، وقال في دعوتهم : « إنّ الرائـد لا يكذب أهله ، والله الذي لا إله إلاّ هو إنّي رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامّة ، والله لَتموتُنّ كما تنـامون ، وَلَتُبْعَثُنّ كـما تستيقظون ، وَلَتُحاسَبُنّ بمـا تعملون ، وإنّها الجنـة أبـداً ، والنار أبداً » . ثم قال : « يا بني عبـد المطلب ، إنّي والله مـا أعلم شابّـاً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنّي قد جئتكم بخير الدنيـا والآخرة ، وقـد أمرني الله عز وجل ، أن أدعُوَكُم إليه »[1] .

وبعد سنوات من بدء دعوته ـ إستطاع في أثنـائها هـداية جمـع من عشيرتـه ـ وجه دعوته إلى عموم النـاس من غير خصـوصية بـين قبيلته وغـيرها ، ووقف عـلى صخرة عند جبل الصفا ، ونادى بصوت عال : « واصباحاه » ، وهي كلمة كـانت العرب تطلقها كلما أحسّت بخطر أو بَلّغها نبأ مرعب ، فكانت هـذه الكلمة بمثـابة جرس الإنذار بتعميم الدعوة ، فالتفت عندها حوله جموع الناس من أبناء القبائل المختلفة وقالوا له : « مالك ؟ » .

فقال : « أرأيتكم ، إن أخْبَرْتُكُمْ أنَّ العـدو مصبحكم أو ممسيكم ، ما كنتم تصدقوني ؟ » .

قالوا : « بلى » .

قال : « فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

ثم قـال : « إنّما مَثَـلي ومَثَلُكُم كَمَثَل رجـل رأى العدو انـطلق يريـد أهله ، فخشي أن يسبقوه إلى أهله ، فجعل يهتف ، واصباحاه »[2] .

ثم استمر في رسالته ، يدعو قومـه إلى التوحيـد ورفض الأصنام ، وأنّ وراء هذه الحياة ، حياة دائمة غـير داثرة ، والنـاس بين مؤمن بـه مفاد بنفسـه ونفيسه ،

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٢ ـ ٦٣ . والكامل ج ٢ ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) السيرة الدحلانية ، بهامش السيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

عدو ينابذه ويتحين الفرص للفتك به وقتله ، فلما أحسّ بالخطر ، غادر موطنه مكة إلى مدينة يثرب ، فأقام هناك سنين عشرة ، لقي فيها من أهل يثرب عطفاً ومودة والتفافاً حوله ، وإيماناً به وتفانياً دون دعوته بأموالهم وأنفسهم ، فصار ذلك سبباً لنشر دعوته في شبه الجزيرة العربية وخارجها عبر بعث رسله وموفديه ، فكان النجاح حليفه ، إلى أن أجاب داعي الموت تاركاً أُمّة كبيرة مؤمنة ، موحِّدةً ، وشريعة ذات نظم وسنن وطقوس ، وذلك في العام ٦٣٣ ميلادية .

ولم تنكمش دعوته بعد وفاته ، بل سرعان ما انتشرت في أكثر ربوع المعمورة ، بفضل اتقان دينه ، وجهاد معتنقي دعوته .

٤ ـ سمات الدعوة

يمكن تقسيم سمات وعلامات هذه الدعوة إلى قسمين :

أ ـ قِسم جاء في كتابه الذي جعله دليلاً على رسالته وبرهاناً ساطعاً على صدق نبوّته .

ب ـ وقسم يقف عليه المتتبع في حاله وحال دعوته وما تركته من آثار في المجتمعات الإنسانية .

أ ـ سمات دعوته في كتابه المعجز

يعرّفه كتابه بصفات ، ويصف دعوته بسمات عديدة ، منها :

(١) ـ أنّه رسول أُرسل إلى العالمين جميعاً ، من دون فرق بين قوم وآخرين ، وإقليم دون إقليم ، وجيل دون جيل ، بل رسالته موجهة إلى كل من يصدق عليه « يا أيها الناس » ، ويقول :

ـ ﴿ قُلْ يا أيُّها الناسُ إنّي رسولُ الله إلَيْكُمْ جميعاً ﴾[1] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

- ﴿ وما أَرْسلناكَ إلاَّ رَحْمَةً للعالَمِينَ ﴾[1] .

- ﴿ وَأُوحي إليَّ هذا القُرآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغ ﴾[2] .

(٢) ـ وأنّ رسالته خاتمة الرسالات ، وأنّ كتابه خاتم الكتب ، وأنّه خاتم الأنبياء ويقول :

﴿ ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رسولَ الله وخاتَمَ النَّبِيِّنَ ، وكان الله بكلِّ شيءٍ عليماً ﴾[3] .

(٣) ـ وأنّه نبي قد بشّر بنبوته في الكتب السماوية الماضية ، ويقول :

﴿ الذين يتَّبعونَ الرسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يجدونه مكتوباً عِنْدَهُمْ في التَّوْراةِ والإنجيلِ ﴾[4] .

ويقول : ﴿ الذين آتَيْناهُمُ الكتابَ يَعْرِفونَهُ كما يَعْرِفونَ أَبناءَهم ، وإنَّ فريقاً منهم لَيَكْتُمونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمونَ ﴾[5] .

والضمير في « يعرفونه » يرجع إلى النبي بقرينة قوله : ﴿ كَما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُمْ ﴾ .

ويقول بأنّ المسيح قد بَشَّر بنبوته في إنجيله :

﴿ وإذ قال عيسى بنُ مريم يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيَّ من التَّوْراةِ ومبشِّراً برسول يأتي من بعدي اسْمُه أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بالبَيِّناتِ قالوا هذا سِحْرٌ مبين ﴾[6] .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٤٠ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٤٦ .

(٦) سورة الصف : الآية ٦ .

(٤) ـ ويعرّفه رابعاً بأنّ دعوته دعوة مكملة للشرائع السابقة ، وأنّ كتابه وشريعته مصدّقة لها ، لا مباينة ولا مخالفة ويقول :

﴿ وَلَمَّا جاءَهُمْ كتابٌ مِنْ عِنْدِ آللهِ مصدِّقٌ لما مَعَهُمْ ، وكانوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحونَ على الذينَ كفروا فَلَمّا جاءَهُمْ ما عَرَفوا كَفَروا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلى الكافِرينَ ﴾[١] .

(٥) ـ ويعرّفه بأنّه جاء بمعجزات وآيات ، وأنّ معجزته الخالدة على جبين الدهر هي كتابه ، لا يمكن لأحد من الخلق مقابلته ولا الإتيان بمثله ، ويقول :

﴿ وإنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَآدْعوا شُهداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾[٢] .

ويقول : ﴿ قُلْ لَئِنِ آجْتَمَعَتِ الجِنُّ والإِنْسُ على أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾[٣] .

(٦) ـ وأنّ كتابه كتاب فاصل بين الحق والباطل ومهيمن على الكتب السالفة ، ويقول : ﴿ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مصدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ . . . ﴾[٤] . وأنّ كتابه يفصل ما اختلف فيه بنو إسرائيل ويقول : ﴿ إنّ هذا الكِتابَ يَقُصُّ على بني إسرائيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفونَ ﴾[٥] .

(٧) ـ وأنّ أصوله واضحة ، وتعاليمه سهلة ، فإذا سئل عن أصول عقيدته في الله سبحانه ، يقول : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصَّمد * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحد ﴾[٦]

---

(١) سورة البقرة : الآية ٨٩ .

(٢) سورة النقرة . الآية ٢٣ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

(٤) سورة المائدة . الآية ٤٨

(٥) سورة النمل : الآية ٧٦ .

(٦) سورة الإحلاص . ويعرف وصوح العقيدة اذا قيست هده الايات إلى التثلبث الدي تتدين به المسيحية الحاصرة ، وعيره من العقائد التي اتفق البطاركة على أنها من الرموز التى لبس في معن .

كما يقول : في تعاليمه وتكاليفه : ﴿ ما جَعَلَ عَلَيكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(١) .

ويقول : ﴿ يُريدُ الله بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُريد بِكُمُ العُسْرَ ﴾(٢) .

(٨) - أنّ شريعته كافلة للسعادة الدنيوية والأخروية ، ويقول : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبائِثَ ﴾(٣) .

(٩) - أنّ دينه وتعاليمه تكافح الأساطير والخرافات وكلّ عقلية متخلفة ويقول : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأَغْلاَلَ التي كانَتْ عَلَيْهِمُ ﴾(٤) .

والمراد من الأغلال ، الأوهام التي كانت تسود أفكار الشعوب آنذاك .

(١٠) - أنّ هذا الداعي أُمِّيٌّ لم يقرأ ولم يكتب ، ومع ذلك جاء بأُصول ومعارف وقوانين لإدارة المجتمع ، ويقول : ﴿ الذِّين يَتِّبِعونَ الرَّسولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾(٥) .

ويقول : ﴿ وما كُنْتَ تَتْلو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ المُبْطِلونَ ﴾(٦) .

ب - سمات دعوته من خلال التدبر في آثارها

إنّ الإمعان في الآثار التي تركتها هذه الدعوة بين الأمم البشرية ، يدفع

= الإنسان فهمها وحلّها . وليس معنى ذلك أنّ القرآن لم يأتِ بأُصول ومعارف عميقة قلّما يتفق لبشر أن يكشف مغزاها ، بل المراد أنّ الحكم بإسلام الفرد لا يتوقف على التوغل فيها ، بل يكفي فيه الإعتقاد بأصلين واضحين هما : التوحيد والشهادة بالرسالة .

(١) سورة الحج : الآية ٧٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(٤) الآية السابقة .

(٥) الآية السابقة .

(٦) سورة العنكبوت : الآية ٤٨ .

الإنسان إلى الإنتقال إلى سمات أخرى لدعوته ، منها :

١ ـ سرعة انتشارها في أقطار العالم جميعاً لا سيما بين الأمم المتحضرة ، سرعة لم ير التاريخ لها مثيلاً . فطفق المعتنقون به ، المجهزون بسلاح الإيمان والإخلاص ، يغلبون الأمم القوية المتحضرة المجهزة بأرهب أنواع السلاح المادي وأفتكه . ولم يمض قرن ونصف من رحيل صاحب الدعوة ، إلاّ وقد ملأ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها ، وانتشر انتشاراً حيّر النُّهى والعقول .

٢ ـ إنّ الأُمّـة المؤمنـة ، وإن غلبت أصحاب الحضارات ، وأزالت عروشهم ، لكنها ما عَفَت على حضاراتهم العلمية والصناعية ، بل حفظت الصالح منها ، وقامت بتأسيس حضارة جديدة تشتمل على الأصلح من السابقة ، وما أبدعته هي . وبذلك افترقت عن سائر الثورات البشرية التي كثيراً ما تنجر إلى تخريب البلدان وتدمير الحضارات . فأصبح التمدن الإسلامي ، حضارة إنسانية مكتملة الأبعاد ، بلغت في العظمة إلى حدّ شكّلت معه الأساس الذي بنيت عليه الحضارة الغربية الحديثة ، بحيث لولا الحضارة الإسلامية لزالت الحضارات السابقة عليها ، ولما لحقها أيّ تمدن ، لأنّها صانت السالف من الحضارات عن الإندثار والضياع ، وطورته وأبدعت فيه . فالحضارة الإسلامية ـ بلا تحفظ ـ جسر بين الحضارات اليونانية والرومانية والفارسية ، والتمدّن الصناعي الحديث .

٣ ـ تضحية المعتنقين لدينه ، وتفانيهم في سبيله بالنفس والنفيس ، وذلك في ظل تحقق شعور ديني عميق وإيمان قوي به وبشريعته ، حتى قدّموا كلّ دقيق وجليل مما يملكون في سبيل نصرته وإعزازه ، وهذا لو دلّ على شيء لدلّ على إيمانهم بفضائله وكمالاته ، وإيقانهم بأنّه رجل إلهي سماوي ، بعث لإنقاذ البشر ، وأنّ اجتماعهم والتفافهم حوله لم يكن طلباً لشيء من الزخارف الدنيوية . وهذا وإن كان لا يصدق على جميع أصحابه وحوارييه ، لكنه صادق على الكثيرين ممن تربوا في أحضانه ، واستنارت ألبابهم واستقامت فطرهم في ظل تعاليم شريعته .

وبعد جميع ما ذكرناه ، فاللازم على المنصف المتحري للحقيقة ، أن يبحث عن حقيقة هذه الدعوة ، وصحة دلائلها ، حتى يجيب الداعي النفساني للمعرفة

أولاً ، ويقوم بوظيفته - إذا وجدها صالحة للاعتناق - ثانياً[1] .

الطرق الثلاثة للتعرف على صدق المُدّعى

قد وقفت عند البحث عن النُبُوّة العامة على أنّ للتعرف على صدق مدّعي النبوة طُرقاً ثلاثة :

١ - إتيانه بالمعجز ، بشروطه المذكورة .

٢ - تصديق النبي السابق عليه ، وتنصيصه على نبوته .

٣ - جمع القرائن والشواهد القاضية بالضرورة بصدق دعواه .

ونحن نسلك في التعرف على صدق ادعاء نبي الإسلام النبوة ، هذه الطرق ، الواحدة بعد الأخرى .

* * *

(١) وهذا هو الذي نستهدفه في هذا البحث . فنطرح هذه الدعوة الجديدة ، بعد المسيح ، على بساط البحث ، بنحو الإستهداء وتحرّي الحقيقة وتمييز الحق عن الغثاء ، على ضوء التحليلات المنطقية ، ومن دون تأثر بعقيدة مسبقة ، أو نزول على نزعة عاطفية ، وبصورة يقتنع معها المنصف ، ويتنزل المتعصّب على الإسلام عن تعصّبه ، وتقوم الحجة على المعاند . فنسأله تعالى أن يوفقنا لبيان الحق وتجنّب القضاء الباطل والفصل الممقوت ، إنّه على ذلك لقدير .

الطـــريق الأول

لإثبات نبوة نبي الإسلام

الإستدلال بمعجـــزاته

قد عَرّفنا المعجز عند البحث في النبوة العامة بالنحو التالي :

المعجـز أمـر خـارق للعادة ، مقـرون بـالـدعـوى ، والتحـدّي ، مـع عـدم المعارضة ، ومطابقته للدعوى .

فعلينـا أن نبحث عن انطبـاق هذا التعـريف على دلائله التي أقـامها مـدّعي النبوة إثباتاً لصحة دعواه .

إنّ التعريف المذكور ينطوي على أُمور :

١ ـ دعوى النبوة .
٢ ـ الإتيان بأمر خارق للعادة .
٣ ـ التحدّي على الإتيان بمثله .
٤ ـ العجز عن مقابلته .
٥ ـ مطابقة المعجزة للدعوى .

وهـذه القيود التي ذكـرناهـا للمعجز تنـطبق على مـا جاء بـه نبي الإسلام ، وإليك بيانها إجمالاً :

١ ـ دعوى النبوة

لا شك أنّه ادعى النبوة ، بضرورة التاريخ ، ونصّ كتابه :
﴿ قُلْ يآأيُّها النَّاسُ إنِّي رسولُ الله إلَيْكُمْ جميعاً ﴾[١] .

٢ ـ خرق العـــادة

قد ضبط التاريخ أنّه كانت لنبيّ الإسلام معاجز كثـيرة في مواقف حـاسمة ، غير أنّه كان يركّز على معجزته الخالدة وهي القـرآن الكريم . ونحن نقـدم البحث في هذه المعجزة الخالدة ، ثم نتبعه بالبحث في سائر معجزاته .

٣ ـ التحـــــدّي

ولا شك أنّه تحـدى ـ بما ادّعى أنـه أمر معجـز ـ الإنسَ والجنَّ ، وقال بنصّ كتابه : ﴿ وَإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ ممَّا نَزَّلْنا على عَبْـدِنا فَـأْتُوا بِسـورةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وادعوا شُهداءَكُمْ من دون الله إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾[٢] .

٤ ـ العجز عن مقابلته

إنّ من ألّم بتاريخ تحدّي النبي الأكرم: من زمن نزول القرآن إلى عصرنا هذا ، يقف على أنّه لم يتمكن فرد ، ولا لجنة علمية من الإتيان بمثل معجزته . ويعرف تفصيل ذلك عند البحث عن إعجاز القرآن ، فانتظر .

٥ ـ مطابقة المعجزة للدعوى

إنّ هذا القيد ، يبحث عنه في سائر معاجزه التي له فيها مورد ، كما في إناطة

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٨ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٣ . وفي آيات أخرى تأتي الإشارة إليها .

قريش إيمانها بنبوته ، بشقه القمر ، وتسبيح الحصى ، وغير ذلك ، فقام بما اقترحوا عليه ، بإذن الله سبحانه ، وكانت المعجزة مطابقة لدعواه ، كما سيوافيك في الفصل الخاص ببيان سائر معجزاته .

إذا وقفت على تعريف الإعجاز وانطباقه على ما أتى به ، إجمالاً ، فيقع الكلام في مقامين :

المقام الأول ـ في معجزته الكبرى الخالدة على جبين الدهر وهي القرآن الكريم ، وإثبات أنّه كتاب خارق للعادة وخارج عن طور الطاقة البشرية .

المقام الثاني ـ في سائر معاجزه التي ضبطها التاريخ والحديث .

المقام الأول

المعجزة الخالدة

ويقع البحث فيها عن أمور :

* **الأمر الأول** : ما هو سبب التحدّي بالكلام ؟ . فيه وجهان ، نذكرهما ، ثم نُلحقه ببيان بعض مزايا القرآن من حيث هو معجز .

* **الأمر الثاني** : وجه كون القرآن خارقاً للعادة . وللوقوف عليه مسلكان :

المسلك الأول : إقرار بلغاء العرب بإعجازه .

المسلك الثاني : تحليل إعجازه مباشرة . وإعجاز القرآن يقوم على دعائم أربع :

- الدعامة الأولى : الفصاحة . ويراد منها جمال اللفظ وأناقة الظاهر .
- الدعامة الثانية : البلاغة . ويراد منها جمال العرض وسمو المعنى .
- الدعامة الثالثة : النَّظْم . ويراد منه رصانة البيان واستحكام التأليف .
- الدعامة الرابعة : الأسلوب . ويراد منه بداعة المنهج وغرابة السبك .

ويلحق بهذا الأمر تنبيهات ثلاثة :

التنبيه الأول ، نطرح فيه آيتين على منضدة التشريح .

التنبيه الثاني ، نشير فيه إلى بعض مزايا القرآن البيا . . .
التنبيه الثالث ، نتطرق فيه إلى بيان مذهب الصرفة ، من مذاهب إعجاز القرآن .

* **الأمر الثالث** : عجز البشر عن معارضته والإتيان بمثله .

* الأمر الرابع : الشواهد الدالّة على كون القرآن كتاباً سماوياً ، وهي :

١ ـ أمية حامل الرسالة .
٢ ـ عدم اختلافه في الأسلوب .
٣ ـ عدم اختلافه في المضمون .
٤ ـ هيمنته على الكتب السماوية .
٥ ـ إتقانه في التشريع والتقنين .
٦ ـ إخباره عن الغيب .
٧ ـ إخباره عن الظواهر والقوانين الكونية .
٨ ـ الأخـــلاق .

الأمـــر الأول

سـبب التحدّي بالكلام

لا شـك أنّ الكليم موسى ، تحـدّى بمعجزات خـاصة ، يعـبر عنهـا القُـرآن الكـريم بتسع آيـات بينات ، في قـوله : ﴿ وَلَقَـدْ آتَيْنا مـوسى تِسْعَ آيـاتٍ بَيِّنـاتٍ فَاسْـأَلْ بَني إسرائيلَ ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سـوءٍ في تِسْعِ آيـاتٍ إلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾[2] .

كما أنّ المسيح تحـدّى بمعجزات خـاصة ، تبـاين من حيث الماهيـة معجزات الكليم ، ويحكي ذلك القرآن بقوله : ﴿ ورسـولاً إلَى بني إسرائيل أنِّي قَـدْ جِئْتُكُمْ بآيةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَأَنْفُـخُ فِيهِ فَيَكُـونُ طَيْراً بِـإِذْنِ الله ، وأُبْـرِىءُ الأَكْمَـهَ والأَبْـرَصَ ، وأُحْيِي المَوْتَى بِـإِذْنِ الله ، وأُنَبِّئُكُمْ بمـا تَأْكُلونَ وما تَدَّخِرونَ في بُيوتِكُمْ إنَّ في ذلك لآيةً لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[3] .

فعنـد ذلـك يـطرح السؤال نفسـه : لمـاذا آختُص الكليم بهـذه المعـاجـز ، والمسيح بتلك الخوارق ، وجاء نبي الإسلام بمعجزة الكلام ؟ .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٠١ .

(٢) سورة النمل : الآية ١٢ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٩ . ولاحظ سورة المائدة : الآية ١١٠ .

والإجابة عن ذلك بوجهين :

الوجه الأول ـ أُصْدَقُ المعجزات ما شابه أرقى فنون العصر

إذا كان المعجز عبارة عما يخرق نواميس الطبيعة ، فلا شك أنّ معرفة ذلك يختصّ بعلماء الصنعة التي يشابهها ذلك المعجز ، فإنّ علماء أيّ صنعة أعرف بخصوصياتها ، فهم يميّزون بين ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله ، وبين ما يمكنهم . ولذلك فالعلماء أسرع تصديقاً بالمعجز من غيرهم ، وأمّا الجاهل فباب الشكّ عنده مفتوح على مصراعيه ما دام جاهلاً بمبادىء الصنعة ، وما دام يحتمل أنّ المدّعي قد اعتمد على مباديء معلومة عند الخاصة من أهل تلك الصنعة .

ولذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يُخَصَّ كلُّ نبي بمعجزة تشابه الصنعة المعروفة في زمانه، والتي يكثر العلماء بها من أهل عصره ، فإنّه أسرع للتصديق ، وأقوم للحجة . فكان من الحكمة أن يُخَصَّ موسى عليه السلام بالعصا ، واليد البيضاء ، لما شاع السحر في زمانه وكثر الساحرون . ولذلك كانت السحرة أسرع الناس إلى تصديق برهانه لعلمهم بأنّ ما أتى به موسى ، خارج عن حدود السحر ، فتيقّنوا من كونه معجزة إلهية .

وشاع الطب اليوناني في عصر المسيح وأتى الأطباء في زمانه بالعجب العجاب ، وكان للطب رواج باهر في سوريا وفلسطين ، إذ كانتا مستعمرتين للرومان ، فشاءت الحكمة الإلهية ، أن تجعل برهان المسيح شيئاً يشبه الطب ، فقام بإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، ليُعْلِم أهل زمانه أنّ ما أتى به خارج عن قُدرة البشر .

وأمّا نبيّ الإسلام ، فقد ادّعى النبوة بين العرب ، وكان الفن الرائج بينهم هو الشعر والخطابة ، فقد برعوا في البلاغة ، وامتازوا بالفصاحة ، وبلغوا الذّروة في فنون الأدب . وكانوا يعقدون النوادي ويقيمون الأسواق لإلقاء الخطابة والشعر ، وكان المرء يُقَدَّر على حسب ما يحسنه من إلقاء الخطب الرنّانة ، والأشعار البليغة .

وقد بلغ تقديرهم للأدب والشعر إلى حدّ عمدوا إلى قصائد سبع ، من خيرة

أشعارهم ، فعلّقوها على جدار الكعبة ، بعد ما كتبوها بماء الذهب ، فكان يقال هذه مُذَهّبة امرىء القيس إذا كانت أجود شعر .

كما بلغ اهتمام رجال العرب ونسائهم بالخطابة والشعر إلى أنّهم كانوا يحتفلون كل عام في موسم الحج إحتفالات كبيرة لإلقاء الخطب والأشعار . وكان النابغة الذبياني هو الحَكَم في تمييز الراجح من المرجوح ، فيأتي سوق عكاظ وتضرب له فيه قُبّة حمراء من الأدم ، فيأتيه الشعراء ، فيعرض كلّ أبياته التي صاغها طيلة السنة المتقدمة[1] .

وفي هذا الأجواء ، كانت المناسبة تقتضي أن تكون معجزة المدّعي مشابهة للفن الرائج في ذلك الظرف ، فلذلك جاء بمعجزة البيان وبلاغة الكلام ، حتى يعرف كلّ عربي أو الأخصائي منهم ، أن قُرآنه بعذوبته وحلاوته ، وسمو معانيه وعمقها ، وروعة نظمه وبداعة أسلوبه[2] ، خارج عن إطار الكلام الرائج بين فصحاء العرب ، وبُلغائهم أولاً ، وخارج عن طاقتهم ومقدرتهم ثانياً . وسيوافيك تصديق أكابرهم وفحولهم المعاصرين للنبي الأعظم ، بكون كلامه خارجاً عن طوق البشر ومقدرته ، كما سيوافيك تحليله بوجه علمي ملموس .

وهناك كلام لأحد أئمة الشيعة ـ قيِّمٌ جِدّاً ـ نأتي به :

روى الكليني عن أبي يعقوب البغدادي قال : قال ابن السِّكّيت[3] ، لأبي الحسن[4] : « لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا ، ويده

---

(١) شعراء النصرانية ، ج ٢ ، ص ٦٤٠ ، ط بيروت .
(٢) سيوافيك أنّ الإعجاز البياني للقُرآن يقوم على أُسس أربعة هي التي أشرنا إليها في المتن .
(٣) أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الدورقي ، أحد أئمة اللغة والأدب ، وكان حامل لواء علم العربية ، وله تصانيف منها : كتاب تهذيب الألفاظ ، وكتاب إصلاح المنطق ، قتله المتوكل في خامس شهر رجب عام ٢٤٤ هـ ، بحجة أنّه قال إنّ قنبراً ـ خادم علي ـ خير منه ومن ابنيه . فقال المتوكل للأتراك ، سلّوا لسانه من قفاه ، ففعلوا ، فمات . لاحظ تاريخ الخلفاء للسيوطي ، ص ٣٧٦ .
(٤)الإمام الهادي أبو الحسن ، علي بن محمد بن علي الرضا ، المدفون بسامراء ، الشهيد بيد المعتز بالله عام ٢٥٢ هـ .

البيضاء ، وآلة السحر ؟ وبعث عيسى بآلة الطب ؟ وبعث محمداً (صلى الله عليه وآله وعلى جميع الأنبياء) بالكلام والخطب ؟ » .

فقال أبو الحسن (عليه السلام) : « إنّ الله لما بعث موسى (عليه السلام) كان الغالب على أهل عصره السحر ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله ، وما أبطل به سحرهم ، وأثبت به الحجة عليهم .

وإنّ الله بعث عيسى (عليه السلام) في وقت قد ظهرت فيه الزّمانات[1] ، واحتاج الناس إلى الطب ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله ، وبما أحيى لهم الموتى ، وأبرء الأكمه والأبرص بإذن الله وأثبت به الحجة عليهم .

وإنّ الله بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام ـ وأظنه قال : الشعر ـ فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم ، وأثبت به الحجة عليهم .

قال : فقال إبن السكّيت : « تالله ما رأيْتُ مثلك قطّ »[2] .

الوجه الثاني ـ الدين الخالد رهن المعجز الخالد

وهناك وجه ثان لاختصاص النبي بهذه المعجزة وهو الفرق الواضح بين دعوته ، ودعوة سائر الأنبياء ، فإنّ دعوتهم وشريعتهم كانت محدودة زماناً ومكاناً ، أو من حيث الزمان فقط . ولأجل ذلك كانوا يبشرون بمجيء نبي آخر ينسخ بشريعته شرائع مَنْ قَبْلَه . ومِثْل تلك الدَّعوات يكفي في إثباتها وجود معاجز تنقلها الأجيال المعاصرة للأنبياء إلى الأجيال التالية لهم بصورة الأمر المتواتر ، ومثل هذه المعاجز لا تكفي للدعوة الخالدة ، لأنّ الإيمان بالمعاجز والإذعان بصحتها من خلال نقلها بالتواتر يزول بمضي الزمان ، إلى حدّ تصبح معه أموراً ظنية ، غير قابلة لاتمام الحجّة ، للأجيال المتلاحقة .

---

(١) الزّمانات : الآفات الواردة على بعض الأعضاء فتمنعها من الحركة كالفالج واللّقوة .

(٢) الكافي ، ج ١ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ٢٠ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ .

فلأجل ذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الدين الخالد مقروناً بالمعجزة الخالدة ، حتى تتم الحجة على جميع الأجيال والقرون إلى أن تقوم الساعة ، وهذا لا يمكن إلاّ بأن يكون للإعجاز وجودٌ خالدٌ وثابتٌ عبر القرون ، وليس ذلك إلاّ أن يكون مثل القرآن .

وهذا لا يعني أنّه لم يكن للنبي الأكرم معجزة سوى القرآن ، فإنّ ذلك باطل كما سنفصل البحث عنه في المقام الثاني ، بل يعني أنّه صلى الله عليه وآله اختُص بهذه المعجزة دون غيره ، وأنّه كان يركز عليها دون غيرها من سائر معاجزه .

وبعبارة أخرى : إنّ لدعوته سمة الشمول وسمة الخاتمية ، أمّا الشمول ، فَبَعْثُه إلى البشر كلِّهم ، وأمّا الخاتمية فادعاؤه بأنّه خاتم النبيين وأنّ كتابه خاتم الكتب وشريعته خاتمة الشرائع ، فمثل هذه الدعوة التي تَعُمُّ جميع الأجيال والأمكنة ، لا تتم إلاّ باقترانها بمعجزة ساطعة على مرّ الدهور وتعاقب الأجيال أوّلاً ، وفي جميع الأمكنة ثانياً ، حتى يتمّ الإحتجاج على المتحرّي ، في جميع الأمكنة والأزمنة . وقد عرفت أنّ مرور الزمان يضفي على سائر المعاجز ، ثوب الظنّ والشك ، إلى أن تصبح في أعين الناس ، خصوصاً الذين هم في منأى عن الأجواء الدينية ، كالأساطير التي تقرء في الكتب . فعند ذلك لا يتمكن المسلم المحتج من إقامة الحجة على مخالفه ومعانده ، بل لا تتم الحجة في حدّ نفسها على المخالف . فاقتضت مشيئته سبحانه أن يبرهن دعوة نبيّه الخاتم بمعجزة ناطقة بالحق ، في جميع الأمكنة والأزمنة تكون كفيلة بإتمام الحجة على البشر إلى قيام الساعة : ﴿ لِئَلاَّ يَكونَ للنَّاسِ على الله حُجَّة بعدَ الرُّسُل ﴾[1] ، بل تكون ﴿ لله الحُجَّةُ البالِغَةُ على النَّاسِ ﴾[2] في كل مكان وزمان .

* * *

(١و٢) اقتباس من آيتين إحداهما في سورة النساء : الآية ١٦٥ والثانية في سورة الأنعام : الآية ١٤٩ .

مزايا أخرى لهذه المعجزة

١ ـ القُرآن كتاب الهداية والتربية

إنّ الكتاب الذي جاء به نبي الإسلام سنداً لنبوته ، يؤدّي مهمّتين :

١ ـ يثبت أنّه مبعوث من جانبه سبحانه ، وفي هذا يتساوى مع معاجز المتقدمين عليه من الأنبياء .

٢ ـ يهدي الناس إلى أُصول المعارف والعقائد ، يتكفّل بتربية البشر وسوقهم إلى الفضائل الأخلاقية ، وهذه مزية تختص بمعجزته الخالدة ، ولا توجد في معجزة أخرى . فإن ما جاء به الكليم والمسيح من المعاجز كانقلاب العصا إلى الثعبان ، وإحياء الموتى ، لا يؤدّي سوى مهمة واحدة وهي إثبات أنّ الجائي بها مبعوث من جانب الله سبحانه . وأمّا المعجزة الخالدة ، فهي تهدي ـ مضافاً إلى ذلك ـ إلى المعارف العليا ، وكرائم الأخلاق ، والفرائض والمنهيات . فهي بمفردها : برهان نبوته ، وهادي أُمّته إلى ما يجب عليهم الإعتقاد به أو العمل به .

وبعبارة أخرى : إنّ معاجز الكليم والمسيح معاجز جسمانية ، لا تثبت إلاّ صلتهما بالله سبحانه ، وأمّا القرآن الكريم فهو معجزة معنوية ، تصقل العقول والأرواح ، وتُرْشد إلى طريق الخير والصلاح . والنبي الأكرم قام ـ بفضل هذه المعجزة ـ بصنع أُمة ، بلغت من الفضل والكمال كل مَبْلغ بعدما كانت غارقة في الجهل والأُمّية .

٢ ـ استقلالها في إثبات الرسالة

إنّ لهذا الكتاب مزية ثانية تفتقدها سائر المعاجز ، حتى المعجزات الأخرى للنبي الأكرم ، وهي أنّ سائر المعاجز لا تثبت شيئاً إلاّ أن يكون معها مدّعي النبوة ، فيدّعي ويُسأل البينة ، فيأتي بالمعجز ، ويتحدّى به ، إلى آخر ما ذكرنا من شروط المعجز .

وأمّا القرآن الكريم ، فإنّه بنفسه يقوم بكل هذه الأُمور ، فيطرح بنفسه

الدعوى ، ويتساءل ـ هو ـ عن برهانها ، ثم يثبتها بنفسه ، ويتحدّى الناس على الإتيان بمثله ، ويعجزهم ويدينهم . وهذه خصيصة لهذه المعجزة لا توجد في سائر المعاجز .

٣ ـ التحدّي بأبسط الأشياء وأوفرها

قد تعرفت في مباحث الإعجاز ـ من النبوة العامة ـ على الفروق الواضحة بين المعجزة وغيرها ، وقلنا إنّه ربما يصل العلم والصنعة إلى الغاية التي وصلت إليها معاجز الأنبياء ، ومع ذلك كلّه لا تتجاوز الصنعة عن كونها صنعة بشرية ولا تدخل في إطار الإعجاز .

مثلاً : إنّ سليمان بن داود ، أول من فتح أبواب الفضاء على عُيون المجتمع الإنساني ، فهو كان رائد الفضاء الأول بفضل الريح المسخرة له ، يقول سبحانه :

﴿ فَسَخّرنا له الريحَ تَجْري بأمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أصابَ ﴾(١) .

ولم تتوفق الحضارة البشرية إلى إرسال الإنسان إلى الفضاء إلاّ بعد آلاف السنين ، حتى تمكنت أخيراً من إنزاله على سطح القمر ، والركب بعد مستمر ، ومع ذلك كلّه فما أنجزته هذه الحضارة لا يخرج عن إطار الصنعة ، لوجود الميز الجوهري بين العَمَلين ، وإن اتحدا في النتيجة . وذلك أنّ سليمان بَدَأ عمله بأبسط الأشياء ، وأكثرها شياعاً ، وهو الجلوس على بساط ، يحركه الريح ، تجري بأمره حيث شاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ ﴾(٢) .

وأمّا ما قامت به الحضارة الصناعية من إرسال الرّواد إلى الفضاء ، فهو صنعة بحتة ، لأنّها قامت بهذا الفعل بأعقد الصناعات وأخفاها . فالسفينة الفضائية الحاملة لعدّة من الرواد ، والتي هبطت على سطح القمر ، اشترك في

---

(١) سورة ص : الآية ٣٦ .

(٢) سورة سبأ : الآية ١٢ .

صنعهـا مجموعـة هائلة من الصنـاعيين وخـبراء العلوم الطبيعيـة من علماء الفيزيـاء والكيميـاء والفلك والريـاضيات والـطب ، حتى علماء النفس وغيرهم ممن خـدموا هذه السفينة والصواريخ الحـاملة لها . فـلأجل ذلـك كلما ازدادت الصناعـة عمقاً وتعقيداً ، اتّضح كونها نتيجة حضارة بشرية بحتة ، لا صلة لها بأمر سماوي .

ونفس هذه القاعدة تنطبق على معجزة النبي الأكـرم بوضـوح ، فإنّـه تحدّى بشيء مؤلف من مواد يعرفها كل الناس وفي متناولهم ، حيث إنّه لا يتجاوز عن كونه حروفاً وألفاظاً تشكل لغة العرب ومفردات كلامهم وجملهم . فلو كان هذا القرآن مصنوعَ نفسٍ مَنْ جاء به ، فهو وسائر الناس في هذه الحلبـة سواء ، لأنّ مـوادّه في متناول الناس واختيارهم ، فليقم خُبَراؤُهم وعلماؤهم وبُلَغاؤهم وفصحاؤهم بصنع كتاب ، أو عشر سُوَر ، أو سورة واحدة مثله . .

ومع أنّ كل المعاجز تشترك في هذا المضمار ، غير أنّ القـرآن يمتاز عنهـا بمزيـة ثالثة وهي أنّ الإذعـان بكون مـا جاء بـه الكليم والمسيح من المعـاجز ، يحتـاج إلى معلومات خاصة حتى يتميز في ظلّها السّحر والطب من الإعجاز ، ولكن الإذعـان بكون القرآن معجـزة إلهية لا يحتـاج إلى شرائط في السامـع أزيـد من كـونه عـربياً صميماً عارفاً بأسـاليب الكلام ، فـإنّ ذلك كـافٍ في تمييز مـا هو داخـل في حدود الطاقة البشرية عمّا هو خارج عنها ، ولأجل ذلك كان النبي يتحدّى بالقرآن ويدعو كلّ الناس إلى المقابلة والمنازلة ، وقلّما يتّفق أن يسمع إنسان كلامـه ولا يتأثـر منه ، وإن كـان أغلبهم يعـارض مـا يجـده حقّاً في فـطرتـه وعمق ضمـيره ، بـأسـاليب شيطانية ، كما سيوافيك في قصة الوليد بن المُغـيرة ، وعتبة بن ربيعـة ومجمل سـيرة رؤساء قريش .

هذه المزايا الثلاث تختص بمعجزته الخالدة . ولها مزايـا أخرى ستقف عليهـا خلال المباحث الآتية .

* * *

الأمـــر الثـــاني

وجه إعجاز القرآن وكونه كتاباً خارقاً للعادة

إنّ إعجاز القرآن في عصر الرسالة ، كان يتمثّل في فصاحة ألفاظه ، وبلاغة معانيه ، وروعة نظمه ، وبداعة أسلوبه الخاص . فَعَرَبُ عَصْرِ الرسالـة وبُلَغاؤهم وحذّاقُهم في الخطابة والشعر ، لمسوا أنّ القرآن في ظل عُذوبة ألفاظه وسحر معانيه وجمال تأليفه ونظمه ، وبداعة سبكه ، لا يشبه الشعر ولا النثر ، وأنّه كتاب جاء في قالب ، لم يسبق له نظير فله جذابية خاصة ، وهيبة رائعـة تهتز بهـا النفوس تـارة ، وتقشعر منها الجلود أخـرى . فأحسّـوا بضعف الفطرة عن معـارضته ، ولمسـوا أنّه جنس من الكلام غير ما هم فيه ، ووجـدوا منه مـا يغمر القـوة ، ويخاذل النفس ، مصـادمةً ، لا حيلةً ولا خـدعة ، مـع أنّه مؤلف من نفس الحـروف التي هي المادة الأولى لكلماتهم وكلمهم .

إنّ المحققين في علوم القرآن ، ومبيّني وجـوه إعجازه ، وإن ذكـروا وجوهـاً كثيرة لكون هذا الكتاب معجزاً ، وسنمر على تلك الوجوه ، غير أنّ جهـة إعجازه في عصر الرسالـة كان متمـركزاً في جـانبه البيـاني الذي يتمثـل في لفظه الجميـل ، ومعناه البليغ ، ونظمه المعجب ، وأسلوبه الرائق . ولذلك أدهش عُقول الفصحاء والبُلَغاء في عصر النبي ، ولم يزل يدهش كلَّ عربي مُلِمّ بلغته ، أو غير عربي عارف باللغة العربية ، من غير فرق بين جيل وجيل .

إنّ للقرآن في مجالي اللفظ والمعنى كيفية خاصة يمتاز بها عن كل كـلام سواه ،

سـواء أصدر من أعـظم الفُصَحاء والبُلَغـاء أو من غيرهم ، وهـذا هو الـذي لمسـه العرب المعاصرون لعصر الـرسالـة . ونحن نعيش في بدايـات القرن الخـامس من هجـرة النبي ، ونَـدّعي أنّ القـرآن لم يـزل معجـزاً إلى الآن ، وأنّـه أرقى من أن يعارض أو يبارى ويؤتى بمثله أبداً . غير أنّ لإثبات تلك الدعوى مسلكين .

الأول : المراجعة إلى أهل الخبرة ممّن يعدّون من صميم أهل اللغة العربية ، وفي الجبهة والسنام منهم .

الثاني : التعرّف عليه بالمباشرة والتحليل .

ونحن نسلك كلا الطريقين في هذا البحث وإن طـال بنا المـوقف والكلام ، وإليك البيان :

المسلك الأول

في إثبات إعجاز القرآن

إعتراف بُلغاء العرب بإعجاز القرآن البياني

إنّ السيرة النبوية قديمها وحديثها ، ضبطت إعتراف مجموعة كبيرة من فُصحاء العرب بهذا الأمر ، ونحن نأتي ببعض ما ظهرنا عليه .

١ ـ إعتراف الوليد بن المُغيرة ريحانة العرب

كان رسول الله لا يكف عن الحطّ من آلهة المشركين ، وكان الوليد بن المغيرة شيخاً كبيراً ومن حُكّام العرب[١] ، يتحاكمون إليه في أُمورهم ، وينشدونه الأشعار ، فما اختاره من الشعر كان مقدّماً ومختاراً . وقد كان من المستهزئين بالرسول (صلى الله عليه وآله) .

ويروي التاريخ أنّ الوليد ـ الذي يصفه العرب بريحانتهم وحكيمهم ـ سمع الآيات التالية من النبي الأكرم : ﴿ حَمٓ * تَنْزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللهِ العزيزِ العليمِ * غافِرِ الذَّنْبِ وقابِلِ التَّوْبِ ، شَديدِ العِقابِ ذي الطَّوْلِ لا إلَه إلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المَصيرُ * ما يجادِلُ في آياتِ الله إلَّا الذينَ كَفَروا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ في البِلادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسولِهِمْ لِيَأْخُذوهُ وَجادَلوا بالباطِلِ ، لِيُدْحِضوا بِهِ الحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقابِ * وكذلكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ

(١) وهو عمّ أبي جهل بن هشام .

رَبِّكَ على الَّـذينَ كَفَروا أَنَّهُمْ أَصْحـابُ النَّارِ ﴾[1] . فلما سمـع ذلك قـام حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال : « والله لقـد سمعت من محمد آنفـاً كلامـاً ما هـو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإنّ له لحلاوة ، وإنّ عليـه لطلاوة ، وإنّ أعـلاه لَمُثْمِر ، وإنّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ ، وإنّه لَيَعلو وما يُعْلى عليه » .

ثم انصرف إلى منزله[2] .

ولعلّ الوليد أوّل من تنبّه إلى عـظمة القُـرآن وآي الذكـر الحكيم ، وهو من بُلغـاء عصر الوحي وزمن نـزوله ، ومن شيـوخ قُريش وعـوارف العرب في الأدب الجاهلي ، والخبراء بصناعة الإنشاء ، ومن هـذه المنطلقـات جاءت كلمتـه المأثـورة تلك ، سبيكة مرصعة ، تعدّ أول تقـريظ نالـه القرآن من خـبراء عصره ومصره ، وإنْ حمله المحـدثـون إلينـا عـاريـاً عن التفسـير . ولعمـري إنّها شهـادة من الخبـير العدو ، الذي التجأ إلى الإعتراف بـدافعٍ من ضمـيره ، وإن أثر عنـه تفسير آخـر للقرآن الكريم دفعه إليه تعلقه بدين آبائه وسنن قـومه ، سيـوافيك نقله . ولأجـل كونِ هذه الكلمة من أستاذ البلاغة ، كلمةً شارحةً لوجهـة إعجاز القـرآن في عصر الرسالة ، نشرح بعض جملها .

١ ـ قـولـه : « مـا هـو من كـلام الإنس ولا من كـلام الجنّ » . معنـاه أنّ المعروف من كلام الإنس المنثور ، سبك العبارات غير مقيدة بالأسجـاع والقوافي ، فإذا أتوا بها على عفو الخاطـر ، لم يلتزموا بهـا متقاربـة قصيرة الخـطوات ، بخلاف كلمات الجن التي سمعوها على ألسنة الكهنة كعبارات مجملة صغيرة الحجم ، كثيرة المقاطع مقرونة بأسجاع وقوافي ، وعليها مسحة من غرابة الألفاظ ومجانسة الحروف وغموض المعاني[3] .

فَلَوَّح الوليد إلى أنّ هذا القرآن ليس من هـذا القبيل ؛ لا هـو على أسـاليب

---

(١) سورة غافر : الآيات ١ ـ ٦ .
(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٣٨٧ .
(٣) سنذكر فيما يأتي نماذج من كلمات سطيح الكاهن الذي كان يتكلم عن لسان الجن .

كلام الناس ، ولا على أساليب كلام الكهنة المترجمة للغة الجن والشياطين ، ولا مزيجاً من هذا وذاك .

٢ ـ قوله : « إنّ له لحلاوة » : يريد أنّه شهي جذّاب للنفوس ، جلاّب للميول ، خلاّب للعقول ، ترتاح إليه الأرواح .

٣ ـ قوله : « وإنّ عليه لطلاوة » ، أي إنّه محلّى بألفاظ جميلة وأنغام مقبولة .

٤ ـ قوله : « إنّ أعلاه لمثمر وأسفله لمغدق » ، يريد أنّ القرآن كشجرة كبيرة ، غصونها زاخرة بالثمار وجذورها مستحكمة واسعة الإنتشار في أعماق الأرض[١]

٢ ـ إعتراف عُتبة بن ربيعة

حين أسلم حمزة بن عبد المطلب ، ورأت قريش أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون ، قام عُتبة بن ربيعة يوماً في نادي قريش ، ورسول الله حينها جالس في المسجد وحده ، وقال : « يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأُكلّمه ، وأعرض عليه أُموراً ، لعلّه يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، ويكفّ عنّا ؟ » .

فقالوا : « بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلّمه » .

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ، فقال : « يابن أخي ، إنّك منّا حيث علمت ، من السّطّة[٢] في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنّك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فَرَّقْتَ به جماعتهم ، وسَفَّهْتَ به أحلامهم ، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أُموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها » .

فقال له رسول الله : « قل يا أبا الوليد ، أَسْمَعْ » . فاقترح عليه أُموراً[٣]

---

(١) يقال غدق المطر ، إذا كثر قطره . وأغدقت الأرض ، إذا أخصبت . وأغدق العيش ، إذا اتّسع . وفي بعض المنقولات : « مُغْدِق » بالذال .

(٢) السّطة : الشرف .

(٣) منها أن يتنازل عن دعوته فتتخذه العرب ملكاً ، وتجمع إليه أموالٌ طائلة ، وغير ذلك .

فلما فرغ عتبة من كلامه ، قال رسول الله : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ » .

قال : « نعـــم » .

قال : « فاسمع مني » .

قال : أفعل » .

فقال : ﴿ بسم الله الرّحمن الرَّحيم * حَمٓ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحمنِ الـرَّحِيمِ * كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لِقومٍ يَعْلَمُونَ * بشيراً ونذيراً ، فأَعْرَضَ أَكْثَـرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وقالوا قُلوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمّا تَـدْعونـا إِلَيْهِ ، وفي آذانِنـا وَقْرٌ ، ومِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ ، فاعْمَلْ إِنَّنا عامِلونَ * . . . ﴾[1] .

ثم مضى رسولُ الله فيها يقرؤها عليه ، و « عتبة » منصت لهـا ، ملقياً يـديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما ، مذهولاً ، إلى أن انتهى رسول الله إلى آية السجدة منها[2] فسجد . .

ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقـام عُتبـة إلى أصحـابـه ، فقـال بعضهم لبعض : « نحلف بـالله ، لقــد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به » .

فلما جلس إليهم ، قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد » ؟ .

قـال : « ورائي أنّي قد سمعت قـولاً والله ما سمعت مثله قط . والله مـا هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بـالكهانـة ، يا معشر قـريش أطيعوني واجعلوهـا بي ، وخلّوا بين هذا الرجل وبـين ما هـو فيه ، فـاعتزلـوه ، فوالله ليكـونن لقولـه الذي سمعت منه نبأٌ عظيم . فإنْ تصبـه العرب فقـد كُفِيتموه بغـيركم . وإن يظهـر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزّه عزّكم ، وكنتم أَسْعَدَ الناس به » . .

قالوا : « سَحَرَكَ والله يا أَبا الوليد بلسانه » .

---

(١) الآيات من أوائل سورة فصّلت .

(٢) سورة فصلت : الآية ٢٨ .

قال : « هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم »[1] .

٣ ـ تأثير آيتين

إنّ حلاوة القرآن كانت بمكانة ربما يؤثّر سماع آيتين أو أكثر في نفس السامع ، بحيث يخضع له وللجائي به غبّ سماعه منه ، ويرفض الوثنية ، وينخرط في صفوف الموحدين ، وينتظم في عدادهم ، وما ذاك إلاّ لأنّه يجد من صميم ذاته أنّه كلام سماوي لا غير . ويدلّ على ذلك ما نسرده عليك من تاريخ دخول الخزرجيين في الإسلام .

كان بين الأوس والخزرج حروب طاحنة ، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار ، وكانت آخر حرب سجلت بينهم يوم « بعاث » ، وكان النصر حليف الأوس على الخزرج ، ولأجل ذلك خرج أسعد بن زرارة وزكوان الخزرجيّيْن ، إلى مكة في عمرة رجب ، يسألون الحلف على الأوس ، وكان أسعد بن زُرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة ، فنزل عليه ، فقال له :

« إنّه كان بيننا وبين قومنا حرب ، وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم » .

فقال عتبة : « بعدت دارنا عن داركم ، ولنا شغل لا نتفرغ لشيء » .

قال : « وما شغلكم وأنتم في قومكم وأمنكم » .

قال له عتبة : « خرج فينا رجل يدّعي أنّه رسول الله ، سَفّه أحلامنا ، وسَبّ آلهتنا ، وأفسد شبابنا ، وفرّق جماعتنا » .

فقال له أسعد : « من هو منكم » ؟ .

قال : « ابن عبد الله بن عبد المطلبْ ، من أوسطنا شرفاً ، وأعظمنا بيتاً » .

فلما سمع ذلك أسعد ، قال : « فأين هو » ؟ .

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

قال : « جالس في الحجر ، وإنّهم لا يخرجون من شِعْبِهِمْ إلاّ في الموسم ، فلا تسمع منه ولا تكلّمه ، فإنّه ساحر يسحرك بكلامه » .

وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب .

فقال له أسعد : « فكيف أصنع وأنا معتمر ، لا بُدَّ لي أن أطوف بالبيت » .

فقال : « ضع في أُذُنَيْكَ القُطْن » .

فدخل أسعد المسجد ، وقد حشا أذنيه من القُطن ، وطاف بالبيت ، ورسول الله جالس في الحجر ، مع قوم من بني هاشم . فنظر إليه نظرة ، فجازه . فلما كان في الشوط الثاني ، قال في نفسه : « ما أجد أَجْهَلَ مني . أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أعرفه ، حتى أرجع إلى قومي فأُخبرهم » ، ثم أخذ القُطْن من أذنيه ورمى به . فلما وصل إلى رسول الله ، قال له : « أَنْعِمْ صباحاً » .

فرفع رسول الله رأسه إليه ، وقال : « قد أَبْدَلَنا الله به ما هو أحسن من هذا ، تحية أهل الجنة : السلام عليكم » . .

فقال له أسعد : « إنّ عهدك بهذا القريب . إلى مَ تدعو يا محمد » ؟ .

قال : « إلى شهادة أنّ لا إله إلاّ الله ، وأنّي رسول الله » .

ثم قرأ هاتين الآيتين :

﴿ قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وبالوالِدَيْن إحساناً ، وَلا تَقْتُلوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلاَ تَقْرَبوا الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وما بَطَنَ ، وَلا تَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلاَّ بالحَقِّ ، ذلكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلونَ * ولا تَقْرَبوا مالَ اليتيمِ إلاَّ بالتي هي أَحْسَنُ حَتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفوا الكَيْلَ والميزانَ بِالقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها ، وإذا قُلْتُمْ فاعدلوا وَلَوْ كان ذا قُربى ، وبِعَهْدِ الله أَوْفوا ، ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنعام : الآيتان ١٥١ ـ ١٥٢ .

فلما سمع أسعد ، قال : « أشهد أن لا إلـه إلّا الله ، وحده لا شريـك له ، وأنَّكَ رسولُ الله . بأبي أنت وأُمّي ، أنا من أهل يثرب ومن الخزرج ، وبَيْنَنا وبَـيْنَ إخواننا من الأوس حبال مقطوعـة ، فإنْ وصلهـا الله بك ، فـلا أجد أعـزّ منك ، ومعي رجـل من قومي ، فـإنْ دخل في هـذا الأمر ، رجـوت أن يُتِمَّ الله لنا أمـرنـا فيـك . . . فالحمـد لله الذي سـاقنا إليـك ، والله ما جئت إلّا لنـطلب الحلف على قومنا ، وقد آتانا الله بأفضل ما أتيت له » .

ثم أقبـل زكوان ، فقـال له أسعـد : « هذا رسـول الله الذي كـانت اليهود تبشرنا به ، وتخبرنا بصفته ، فَهَلُمّ فأسلم » .

فـأسلم زكـوان . ثم قـالا : « يـا رسـول الله ، إبعث معنـا رجـلاً يعلمنـا القُرآن ، ويدعو الناس إلى أمرك » .

فأمر رسول الله مصعب بن عُمير ـ وكان فتى حدثاً مُتْرَفاً بين أبويه ، يكرمانه ويفضلانه عـلى أولادهم ، ولم يخرج من مكـة ، فلما أسلم جفاه أبـواه ، وكان مـع رسول الله في الشعب حتى تغير وأصابه الجهد ، وقد كـان يعلم من القرآن كثـيراً ـ أمره بالخـروج مع أسعـد وزكوان ، فخـرج معهما إلى المـدينة ، وقـدما عـلى قومهـما وأخبراهم بأمر رسول الله وخَبَره ، فأجاب من كلّ بطنٍ ، الرجل والرجلان(١) .

تـرى أنّ سماع الآيتـين يصنع من الكـافر الـوثني مسلمـاً مـوحّـداً ، شهمـاً هماماً ، يفدي بنفسه وماله في طريق دينه ، ومـا ذاك إلّا لتيقّنه من أنّ القـرآن كلام سماوي خارج عن طوق قدرة البشر . وقـد كان النصر حليف بعيث رسـول الله ، ومـا كان ذاك ، إلّا لأنّـه كان يقـرأ ما نـزل من القرآن وَحَفِـظَهُ ، حتى أنّ أُسيد بن الحضير رئيس الخزرجين ـ لما سمع منه قوله سبحانه : ﴿ حَمَ * تَنْزِيلٌ مِنَ الـرَّحْمٰنِ الرَّحيم ، كتاب فُصِّلَتْ آياتُهُ قُـرآناً عـربياً لِقَـوْمٍ يَعْلَمونَ . . ﴾(٢) ، ظهـرت أمارات الإيمان في وجهه ، فبعث إلى منزله من يأتيه بثوبـين طاهـرين ، واغتسل ،

---

(١) أعلام الورى لأعلام الهدى ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٢) الآيات من أول سورة فصلت .

وشهـد الشهادتـين ، ثم قام وأخـذ بيد مُصعب وقـال : « أَظْهِـر أَمـرَكَ ولا تهـابَنَّ أحداً » .

* * *

ولما كان للقرآن تأثيره العجيب في نفوس الشباب ، إحتالت قريش في اللَّبس على الناس باللجوء إلى جملة من الأعمال الوقائية ، لِتَصُـدَّ تأثـير القرآن في النفـوس المتهيئة لقبول الحق ، تعرّض لها التاريخ والسير النبوية ، أهمها :

١ ـ منع الناس ، وخاصةً الشخصيات والوجهاء ، من سماع القرآن ومقابلة الرسول .

٢ ـ عزو القرآن إلى السحر .

٣ ـ دعوة القصاصين لسرد أخبار الأُمم .

وكلُّ ذلك يدلّ على أنّ القرآن كان كلاماً ممتازاً فائقـاً كلام البشر ، لـه تأثـير فريد في النفوس بحيث يجذب إليه الناس بمجرّد سماعهم ، بـلا اختيار . وفيـما يلي بيان هذه الأعمال :

١ ـ منع سماع القرآن

يحكي لنا القرآن أنّ المشركين تواصوا بترك سماع القرآن والإلغاء عند قـراءته في قـوله : ﴿ **وَقَـالَ الذينَ كَفَـروا لا تَسْمَعـوا لِهـذا القُـرآنِ والْغَـوْا فيـهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبونَ** ﴾[١] . أي عارضوه باللّغو بما لا يُعْتَدُّ به من الكلام ، حتى لا يصل كـلامه إلى أسماع الآخرين .

ومع ذلك كله فأولئك الذين كانوا مبدءً لردع الشباب عن سماع القرآن ، قد نقضوا عهدهم ، لشدّة التذاذهم من سماعه .

---

(١) سورة فصلت : الآية ٢٦ .

فهؤلاء ثلاثةٌ من بُلغاء قريش وأشرافهم وهم أبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصلّي من الليل في بيته ، فأخذ كلٌّ رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر ، تفرّقوا ، فجمعهم الطريق فتلاقوا وقال بعضهم لبعض : « لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً » ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كلٌّ رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثلما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كلّ رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : « لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود » ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرّقوا[1] .

فلو كان القرآن كلاماً ، يشبه كلام الإنس ويوازنه ويعادله ، لم يكن هناك أي وازع لهؤلاء الصناديد الذين يعدّون في الطليعة والقمة من أعداء النبي ، أن يهجروا فرشهم ، ويُقلوا دفء دُثُرهم ، ويبيتوا في الظلام الحالك على التراب ، حتى يستمعوا إلى كلامه ومناجاته في أحشاء الليل في صلاته ونسكه ، وما هذا إلاّ لأنّ القرآن كان كلاماً خلّاباً ، لعذوبة ألفاظه وبلاغة معانيه ، رائعاً في نظمه وأُسلوبه ، ولم يكن له نظير في أوساطهم ، ولا في كلمات بُلَغائهم وفُصَحائهم ، وهم الفُصحَاء والبُلغاء ومن يشار إليهم في تلك العُصور .

ومن الحبائل التي سلكوها لصدّ تأثير القرآن ، منع متشخصي المشركين من لقاء الرسول ، خصوصاً من كان لإسلامه تأثير خاص في إيمان قومه بدين الرسول .

ومن تلك الشخصيات الطفيل بن عمر الدوسي ، فقد قدم مكة ورسول الله

(١) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

بها ، فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً ، فقالوا له : « يا طُفيل إنّك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرّق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنّما قوله كالسحر ، يفرّق بين الرجل وأبيه ، وبينه وأخيه وزوجته ، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا ، فلا تكلِّمَنّه ، ولا تَسْمَعَنَّ منه شيئاً » .

يقول الطفيل : فوالله ما زالوا بي حتى أَجْمَعْتُ أن لا أسمع منه شيئاً ولا أُكلِّمه ، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفاً ، فَرَقاً من أَنْ يَبْلُغني شيء من قوله ، وأنا لا أُريد أَنْ أَسمعه .

قال : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة .

قال : فقمت منه قريباً فأبى الله إلاّ أن يُسْمِعني بعض قوله فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي : « واثكل أمّي ، والله إنّي لرجل لبيب ، شاعر ، ما يخفى عَلَيّ الحَسَن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل . فإن كان الذي يأتي به حسناً قَبِلته وإن كان قبيحاً تَرَكْتُه . فمكثت حتى انصرف رسول الله إلى بيته ، فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته ، دخلت عليه ، فقلت :

« يا محمد إنّ قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوّفونني أمرك حتى سددت أُذُنَيَّ بكُرسف ، لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلاّ أن يسمعني قولك ، فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض عَلَيَّ أمرك » .

قال : فعرض عَلَيَّ رسول الله صلى الله عليه وآله الإسلام وتلا عَلَيَّ القرآن . فلا والله ما سمعت قولاً قطّ أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه .

قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق[1] .

وممّا نقل في هذا المجال أنّ الأعشى ، أحد شعراء العرب ، الطائر الصيت ، بلغ إليه الإسلام ، فخرج يريده ، فمدح النبي بقصيدة أدرج فيها كثيراً من تعاليم الإسلام ، مستهلها .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

ألم تَغْتَمِض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بات السليمُ مُسَهَّداً

إلى أن قال :

نبياً يرى ما لا ترون ، وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا
فإياك والميتات لا تقربنها ... ولا تأخُذَن سهماً حديداً لتفصدا
وذا النُّصب المنصوبَ لا تنسكَنّه ... ولا تعبد الأوثان ، والله فاعبدا
ولا تقربن حرّة كان سرُّها ... عليك حراما ، فانكحن أو تأبّدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنّه ... لعاقبة ولا الأسير المقيّدا
وسبّح على حين العشيات والضُحى ... ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

فلما ورد الأعشى مكة ، اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره ، فأخبره أنّه جاء يريد رسول الله ليسلم فقال له : يا أبا بصير ، إنّه يحرّم الزنا .

فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر مالي فيه أرب .

فقال له : يا أبا بصير ، فإنّه يحرّم الخمر .

فقال الأعشى : أمّا هذه فوالله إنّ في النفس منها لعلالات ، ولكني منصرف فأتروى منها عامي هذا ثم آتيه فأسلم ، فانصرف . فمات في عامه ذلك ، ولم يعد إلى رسول الله[1] .

٢ ـ عزو القرآن إلى السّحر

أدرك فُصحاء قريش وبُلَغاؤهم أنّ القرآن لا يشبه كلام الإنس ، وهو فوق كلامهم ، ولما كان مقتضى العجز ، اعتناق الدين الذي كان النبي يدعو إليه ، خدعوا عقولهم وعقول قومهم بتفسيره بالسحر ، بحجة أنّ السحر يفرّق ، والقرآن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ص ٣٨٦ وأضاف الشهرستاني في كتابه « المعجزة الخالدة » ، ص ٢١ : واجتمعت عليه قريش لما سمعت بخبره وبمدحه النبي الأمي في قصيدة دالية ، جاء بها ليجعلها تقدمة إيمانه وإذعانه ، وقالوا للأعشى : « إنْ أنشدته هذه القصيدة لم يقبلها منك » . ولم يزالوا يخدعونه ويمنعونه حتى سافر إلى اليمامة ، وقال : « أقضي أياماً هناك ثم أعود إليه » .

أيضاً فرّق بينهم . وهذا هو ريحانة قريش ، الوليد بن المغيرة ، وقد اجتمع مع رؤساء قريش في دار الندوة ، فقال لهم : «إنّكم ذوو أحساب وذوو أحلام ، وإنّ العرب يأتونكم ، فينطلقون من عندكم على أمر مختلف ، فأجمعوا أمركم على شيء واحد . ما تقولون في هذا الرجل ؟ » .

قالوا : « نقول :

١ ـ إنّه شاعر » .

فعبس عندها ، وقال : « قد سمعنا الشعر ، فما يشبه قوله الشعر » .

فقالوا :

٢ ـ « إنّه كاهن » .

قال : « إذاً تأتونه فلا تجدونه يحدث بما تحدث به الكَهَنة » . قالوا :

٣ ـ « إنّه لمجنون » .

فقال : « إذاً تأتونه ، فلا تجدونه مجنوناً » . قالوا :

٤ ـ « إنّه ساحر » .

قال : « وما الساحر » ؟ .

قالوا : « بشر يحببون بين المتباغضين ، ويبغِّضون بين المتحابين » .

قال : « فهو ساحر » .

فخرجوا لا يلقى أحد منهم النبي إلاّ قال :

يا ساحر ، يا ساحر » .

واشتدّ على النبي ذلك ، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدوداً * وبنينَ شُهوداً * وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أزيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كان لآياتنا عنيداً * سَأُرهِقُهُ صَعوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ واستَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤثَرُ * إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ البَشَرِ ﴾[1] .

---

(١) سورة المدثر : الآيات ١٢ ـ ٢٦ .

وفي روايةٍ ، بعدما وصف الوليد ما سمع من كلام محمد ، بقوله : « ما هو من كلام الإنس الخ . . »[1] ، ذهب إليه أبو جهل ، فقعد إلى جنبه حزيناً ، فقال له الوليد : « ما لي أراك حزيناً يابن أخي » .

قال : « هذه قريش يعيبونك على كبر سنك ، ويزعمون أنّك زيّنت كلام محمد » .

فقام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه ، فقال : « أتزعمون أنّ محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخنق » ؟ .

فقالوا : « اللهم لا » .

قال : « أتزعمون أنّه كاهن ، فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك » ؟ .

قالوا : « اللهم لا » .

قال : « أتزعمون أنّه شاعر ، فهل رأيتموه أنّه ينطق بشعر قطّ » ؟ .

قالوا : « اللهم لا » .

قال : « أتزعمون أنّه كذّاب ، فهل جَرّبتم عليه شيئاً من الكذب » ؟ .

قالوا : « اللهم لا » .

فقالت قريش للوليد : « ما هو ؟ » .

فتفكّر في نفسه ، ثم نظر وعبس ، فقال : « ما هو إلاّ ساحر . ما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله ، وولده ومواليه ؟ . فهو ساحر ، وما يقوله سحر يُؤْثَر »[2] .

إنّ تفسير القرآن بالسحر ، وتوصيف الداعي بالساحر ـ كما نقله القرآن في غير واحد من آياته ـ أدلّ دليل على أنّ فُصَحاء العرب وجدوا العجز في أنفسهم

---

(١) تقدم كلامه في الصفحة السابقة .

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ .

ورأوا أنّ الهزيمة في حلبة السباق معقودة بنواصيهم ، فـما وجدوا مخلصاً لتعمية من يفد على مكة في أيام الحج من عرب الجزيرة إلاّ بتفسيره بشيء ينطلي على طباع السُّفهاء وأذهان السذج من الناس ، وهو أنّه سحر والجائي به ساحر ، بحجة الإشتراك في الأثر .

وعلى ضوء ذلك تعود كلُّ الشرائع السماوية سحراً والأنبياء سحرة ، بحجة أنّهم كانوا يفرّقون بشرائعهم بين أفراد الأمة الواحدة(١) .

وكيف يكون القرآن سحراً ، والسحر لا يبقى بعد موت الساحر ، ولا يؤثّر في أقوياء النفوس ، وها هو القرآن قد مَرَّ عليه حتى اليوم أربعة عشر قرناً ، ولما يزل غضّاً طرياً كما كان ، لم يتضاءل نوره وأثره بمرور الزمان ، وتوالي الأعقاب في الأحقاب ، كما خضع له أعاظم أهل الفكر والتعقل من البشر .

٣ ـ دعوة القصاص لسرد الأساطير

وقد عمد رؤساء قريش ، لإحباط تأثير القرآن الكريم ـ بعد أن رأوا أنّ الناس يدركون بفراستهم وفطنتهم أنّ للقرآن جاذبية غريبة لم يسبقه كلام في الحلاوة ، ولا حديث في العذوبة ، ولا عبارات في العمق ، يتقبّله كل قلب واع ، وتسكن إليه كل نفس مستعدة ـ عمدوا إلى تخطيط تدبير آخر ، ظنّاً منهم بأنّ تنفيذه سيصرف الناس عنه ، ألا وهو معارضة القرآن الكريم ، بدعوة النضر بن الحارث ليسرد للناس أخبار ملوك الفرس وقصصهم وحكايتهم وأساطيرهم ، وما طلبوا منه القيام بهذا العمل إلاّ ليلهي به الناس عن الإصغاء إلى القرآن الكريم .

فقام بهذا العمل ولكن كانت خطتهم ، خطة حمقاء إلى درجة أنّها لم تدم إلاّ عدّة أيام ، لأنّ قريشاً سئمت من أحاديث النضر ، وتفرّقت عنه(٢) .

* * *

---

(١) قد ورد تفسير القرآن بالسحر ، والداعي بالساحر ، في عدّة آيات منها في الأول الصافات : الآية ١٥ ، الأحقاف : الآية ٧ ، سبأ : الآية ٤٣ . وفي الثاني : يونس : الآية ٣ ، ص : الآية ٤ .

(٢) لاحظ السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٣٠٠ و٣٥٨ .

المسلك الثاني

في إثبات إعجاز القرآن

تحليل إعجاز القرآن الكريم

المتسالم عليه بين العلماء أنّ القرآن كتاب سماوي معجز ، لا يقدر الإنسان ـ مهما عظمت طاقاته ـ على الإتيان بمثله . ولكن عندما يُتَساءل عن سرّ إعجازه ، يتوقف الكثير منهم في ذلك ولا يأتون بكلمة شافية تغني السائل .

فمنهم من ذهب إلى أنّ شأن الإعجاز عجيب ، يُدْرَك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن ، تُدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة . وأضافوا : « إنّ مدرك الإعجاز هو الذوق ليس إلاّ ، وطريق اكتساب الذوق ، طول خدمة علمَيْ المعاني والبيان . نعم ، للبلاغة وجوه متلثمة ، وربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتتجلى عليك . أمّا نفس الإعجاز ، فلا »[1] .

ومنهم من يحيل سبب الإعجاز إلى فرط الفصاحة والبلاغة ، من دون أن يشرح السبب ، ويطرحَ آيات من القرآن على منضدة التشريح ، ويقارنها بكلام من كلم فصحاء العرب وبلغائهم وأقصى ما عندهم هو التصديق بكونه معجزاً بحجة أنّ أساطين البلاغة وأساتذتها عجزوا عن الإتيان بمثله في عصر نزول القرآن . ولكن هذا دليل إقناعي ، ورجوع إلى أهل الخبرة .

إلاّ أنّ هناك جماعة من المحققين لم يقنعوا بهذا القدر دون البحث عن حقيقة

---

(١) مفتاح العلوم ، للسكاكي ، قسم البيان ، ص ١٧٦ .

إعجـازه ، فبحثوا ونقبـوا حتى رفعوا اللثـام عن وجه إعجـازه ، وبيّنـوا الـدعـائم والأركان التي يقوم عليها تفوقه على كلام البشر ، قائلين :

هـل يمكن أن يُعَرِّف سبحـانه كتـابَه النـازلَ على نبيّـه ، معجزاً وخـارقـاً ، ويباري الناس ويدعوهم إلى مقابلته والإتيان بمثله ، ثم لا يوجد فيه حتى إشـارات إلى ملاك إعجازه ووجه تفوّقه ؟! إنّ مثل هذا لا يصدر عن الحكيم تعالى .

فعلى ضوء ذلك ، لا بُدّ لنا من الإمعان في آيات القرآن الكـريم حتى نلمس ونستكشف ملاك إعجازه وخرقه للعادة ، وهذا هـو ما نتعـاطاه في هـذا التحليل والذي تَبَيَّنَ لنا بعد دراسة ما كتبه المحققون حول إعجاز القرآن ، وبعد الإمعان في نفس آيـات الذكـر الحكيم ، أن ملاك تفـوّقه هـو الأمور الأربعـة ـ الآتي ذكرهـا ـ مجتمعةً .

أجل ، إنّ ما نركّز البحث عليه في المقام راجع إلى الإعجاز البياني للقرآن ، الذي كان هو محور الإعجاز في عصر النزول وعند فصحاء الجـزيرة ، وبُلغـائهم ، وبه وقع التحدي . وأمّا إعجازه من جهات أُخـرى ، ككون حـامله أمياً ، وكـونه مبيِّناً للعلوم الكونية التي وصل إليها البشر بعد أحقـاب من الزمن ، أو إخبـاره عن المُغَيَّبات ، أو كونه مصدراً لتشريع مُتْقَن ومتكامل ، أو غير ذلك من الجهات ، فلا يمكن أن نعدّها أركاناً للإعجاز ، ووجه ذلك أنّ القـرآن سَحَرَ العـرب من اللحظة الأولى لنزوله ، سواء منهم في ذلك من شرح الله صـدره للإسـلام ومن جعل عـلى بصره غشاوة . وكان القرآن هو العامل الحاسم في أوائل آيام الدعـوة ، يوم لم يكن للنبي حول ولا طول ، ولم يكن للإسلام قوة ولا منعة .

فلا بُدّ أن نبحث عن منبع السحر في القرآن ، قبل التشريع المُحكَم ، وقبل النبـوءة الغيبيّة ، وقبـل العلوم الكونيـة ، وقبل أن يصبـح القـرآن وحـدة مكتملة تشتمل على هذه المزايـا . فقليل القـرآن الذي كـان في أيام الـدعوة الأولى ، كـان مجرّداً عن هذه الأشياء التي جاءت فيها بعد ، وكان مع ذلك محتويـاً على هـذا النبع الأصيل الذي تذوقه العرب ، فقالوا إنْ هذا إلاّ سحر يُؤْثَر .

إنّنا نقرء الآيات الكثير في هـذه السور فـلا نجد فيهـا تشريعاً محكمـاً ، ولا

علوماً كونية ، ولا نجد إخبـاراً بالغيب يقـع بعد سنـين ، ومع ذلـك سحر عقـول العرب وتحدث عنه ابن المغيرة بعد التفكير والتقدير ، بما تحدّث .

لا بـدّ إذن أنّ السحر الـذي عناه ، كـان كامنـاً في مظهر آخـر غير التشريـع والغيبيات . العلوم الكونية ، لا بدّ أنّه كامن في صميم النسق القـرآني ذاته ، وكـان هذا يتجلى من خلال التعبير الجميل المؤثّر المعبّر المصوّر .

وعلى ذلـك فـالجمال الفنّي الخـالص ، عنصر مستقـل في إثبـات إعجـاز القـرآن[1] ، ويتجلى ذلـك في أمور أربعـة تضفي على القـرآن ـ مجتمعة ـ إعجـازه وتفوّقه ، وهي :

١ ـ فصاحةُ ألفاظه وجمالُ عباراته .

٢ ـ بلاغةُ معانيه وسموُّها .

٣ ـ روعـة نظمـه[2] وتأليفـه . ويراد منـه : ترابط كلماتـه وجُمَله ، وتنـاسق آياته ، وتـآخي مضامينـه ، حتى كأنّها بنـاء واحد ، متـلاصق الأجزاء ، متنـاسب الأشكال ، لا تجد فيه صَدْعاً ولا انشقاقاً .

٤ ـ بـداعة أُسلوبـه الذي ليس لـه مثيل في كـلام العرب ، فـإنّ لكـل من الشعـر والنثر بـأقسامـه ، أسلوباً وسبكـاً خاصـاً ، والقرآن عـلى أُسلوب لا يماثـل واحداً من الأساليب الكلامية والمناهج الشعرية .

وهـذه الدعـائم الأربع إذا اجتمعت ، تخلق كـلاماً لـه صنـع في القلوب ، وتأثير في النفوس . فإذا قرع السمع ، ووصـل إلى القلب ، يحسّ الإنسان فيـه لذّة وحـلاوة في حـال ، وروعـة ومهـابـةً في أخـرى ، تقشعـر منـه الجلود ، وتلين بـه القلوب ، و تنشرح بـه الصدور، وتغشى النفوس خشية ورهبـة ووجـد وانبسـاط ، ويحسّ البليغ بعجزه عن المباراة والمقابلة . ولأجل ذلك ، كم من عدو للرسول من

---

(١) لاحظ التصوير النبي في القرآن الكريم سيد قطب فصل سحر القرآن ، ص ١١ ـ ٢٣ .

(٢) ربما يطلق النظم في كلماتهم ويراد منه الأسلوب والسبك الذي هو الأمر الرابع ، ولأجل ذلـك نردفـه بالتأليف حتى لا يشتبه المراد .

رجال العرب وفُتّاكها أقبلوا يـريدون اغتيـاله وقتله ، فسمعـوا آيات من القـرآن ، فلم يلبثـوا حـين وقعت في مسـامعهم ، أن تَحـوّلـوا عن رأيهم الأول ، وركنـوا إلى مسالمته ، ودخلوا في دينه ، وانقلبت عداوتهم موالاةً ، وكفرهم إيماناً .

يقول سبحانه : ﴿ لو أَنْزَلْنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لَـرَأَيْتَهُ خـاشِعاً مُتَصَـدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾[1]

ويقول سبحانه : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثاني تَقْشَعِـرُّ مِنْهُ جُلودُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلِينُ جُلودُهُم وقُلوبُهُم إلى ذِكر الله ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ وإذا سمعوا ما أُنْزِلَ إلى الـرسولِ تَـرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفوا مِنَ الحَقِّ ﴾[3]

هذا ما يثبته التحليل الآتي لكلٍّ من هذه الدعائم . فليس المُـدَّعى كون كـل واحدة منها ، وجهاً مستقلاً للإعجاز ، وإنّما المراد أنّ كلّ واحدةٍ منها توجِـد أَرْضِيَّةً خـاصةً ، ليتشكـل باجتـماعها كـلامٌ معجـزٌ خـارق ، مُبهـر للعقـول ، ومـدهش للنفوس . فيجد الإنسان في نفسه العجز عن المباراة . والضعف عن التحدّي .

هـذا ، وقد نقـل السيوطي عن عـدّة من المحققين في مسـألة إعجـاز القرآن أقـوالاً كثيرةً[4] ، غـير أنّ بعضها خـارج عن الإطار البيـاني ، الـذي نحن بصـدد تشريحـه ، مثل انـطواء القرآن عـلى الإخبار بـالمُغَيّبات ، الـذي سنذكـره في عِـداد الشواهد الدالة على أنّ القرآن كتاب إلهي لا بشرى ، ولكن لُبّ هذه الأقوال ـ التي تـرجع إلى الإعجـاز البياني ـ يتلخص في الـدعائم الأربـع التي اخترنـاهـا أسـاسـاً للإعجاز .

ولأجل توضيح هذه الدعائم الأربـع نأتي بمقـدمة نبـيّن فيها معنى الفصـاحة والبلاغة ، حتى يتبيّن نسبة كل واحدة من هذه الدعائم إلى الأُخرى .

---

(١) سورة الحشر : الآية ٢١ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٢٣ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٨٣ .

(٤) لاحظ الإتقان في علوم القرآن ، ج ٤ ، ص ٦ ـ ١٧ ط مصر ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

تعريف الفصاحة

الفصاحة يوصف بها المفرد كما يوصف بها الكلام .

والفصاحة في المفرد عبارة عن خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي المستنبط من استقراء اللغة العربية .

وقد ذكر القوم للتنافر وجهاً أو وجوهاً ، والحق أنّه أمْر ذوقي ، وليس رهن قرب المخارج ، ولا بعدها دائماً .

وأمّا الفصاحة في الكلام ، فهي خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد ، مع فصاحتها ، أي يشترط مضافاً إلى الشرائط المعتبرة في فصاحة المفرد ، الأمور الثلاثة الواردة في صدر التعريف .

ثم إنّ التعقيد تارة يحصل بسبب خلل في نظم الكلام ، بمعنى تقديم ما حقّه التأخير وبالعكس ، وأخرى بسبب بُعْد المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الكنائي المقصود .

والمتكفل لبيان الخلل في النظم هو النحو . والمتكفل لبيان الخلل في الإنتقال هو علم البيان ، فبما أنّه علم يبحث فيه عن إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه وخفائه ، يشرح لنا التعقيد المعنوي ومراتبه ، فإنّ لكل معنى لوازم ، بعضها بلا واسطة ، وبعضها بواسطة ، فيمكن إيراده بعبارات مختلفة في الوضوح والخفاء[1] .

---

(١) وبعبارة أخرى : إنّ إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في الوضوح ، لا يتأتّى بالدلالة المطابقية ، لأنّ السامع إن كان عالماً بوضع الألفاظ ، لم يكن كل واحد منها دالاً عليه ، وإن كان عالماً لم يكن بعضها أوضح دلالة عليه من بعض آخر ، وإنّما يتأتّى في الدلالة العقلية ، لجواز أن تختلف مراتب اللزوم في الوضوح . ويتضح ذلك في الدلالة ، الإلتزامية مثل دلالة قولنا : « زيد كثير الرّماد » و« زيد جبان الكلب » ، و« زيد مهزول الفصيل » ، على لازمه ، أعني كون زيد جواداً فالكلُّ يدلُّ على ذلك اللازم ، لكن يختلف في الوضوح والخفاء ، لقلة الوسائط أو كثرتها .
وبما أنّ الخفاء والوضوح في الإنتقال إلى المعنى اللازم يتأتّى في الدلالة الإلتزامية ، انحصر المقصود من علم البيان في التشبيه والمجاز ، والكناية ، لكون المقصود من الجميع هناك هو المعنى الخارج عن المدلول اللغوي للّفظ ، فالمراد من المجاز هو المعنى غير الموضوع له بادعاء كونه من مصاديق

تعريف البلاغة

البلاغة في الكلام عبارة عن مطابقته لمقتضى الحال ، أي مطابقته للغرض الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص . مثلاً : كون المخاطب منكراً للحكم ، حال يقتضي تأكيده ، والتأكيد مقتضى الحال . كما أنّ كون المخاطب مستعداً لقبول الحكم ، يقتضي كون الكلام عارياً عن التأكيد ، والإطلاق مقتضاها ، وهكذا في سائر الأبواب .

هذا كلّه مع لزوم اعتبار فصاحة الكلام في تحقق البلاغة ، فالبلاغة لها عمادان . أحدهما مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، والثاني فصاحة الكلام .

وها هنا نكتة وهي أنّ القوم حصروا معنى البلاغة في هذا المعنى ، وحاصله كون عرض المعنى موافقاً للغرض الداعي إلى التكلم (مع فصاحة الكلام) ،وجعلوا للبلاغة بهذا المعنى طرفين :

أحدهما : أعلى ، وهو حدّ الإعجاز ، وهو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته .

والثاني : ما لا يبلغ إلى هذا الحدّ .

ولكل واحد درجات ومراتب .

ولا يخفى أنّ جعل البلاغة بهذا المعنى (أي العرض الصحيح المطابق للغرض) لا يكون ركن الإعجاز وإن بلغ الكلام إلى نهاية الإتقان في العرض ، ما لم يضمّ إليه شيء آخر ، وهو إتقان المعاني وسمو المضامين . وإلّا فالمعاني المبتذلة ، والمضامين المتوفرة بين الناس إذا عرضت بشكل مطابق للغرض الداعي إلى التكلم ، لا يصير الكلام معها معجزاً خارقاً للعادة .

= الموضوع له ، كما أنّ المراد من الكناية هو المعنى المكنّى عنه لا المكنى به . وأمّا التشبيه فهو وإن كان خالياً عن الدلالة الالتزامية، لكنه يبحث عنه مقدمة للإستعارة التي هي من أقسام المجاز .
وبذلك يعلم أن الأولى تقديم علم البيان على علم المعاني ، لكون الأول متكفّلاً بتفسير التعقيد المعنوي الدخل بالفصاحة ، وأمّا علم المعاني فهو يرجع إلى البلاغة ، كما سيظهر .

ولأجل ذلك كان على القوم الذين جعلوا الفصاحة والبلاغة ركنين للإعجاز ، وملاكين له ، إضافة قيد آخر ، وهو كون المعاني والمضامين عالية وسامية ، تسرح فيها النفوس ، وتغوص فيها العقول .

ومن هنا نرى أنّ بعض أساتذة هذا الفن المعاصرين ، عرفوا البلاغة بشكل آخر ، قالوا : هي تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة ، مع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه ، والأشخاص الذين يخاطبون[1] .

فترى أنّه أُضيف في التعريف وراء ملائمة كل كلام للموطن (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) ، كون المعنى جليلاً .

وسيوافيك أنّ هذا المقدار من التعريف أيضاً غير واف للرقي بالكلام إلى حدّ الإعجاز ، بل يحتاج إلى دعامة أخرى وهي بداعة الأسلوب ورقيّه ، كما سيوافيك .

نكتة مُهمّـــة

إنّ ها هنا نكتة تلقي الضوء على سبب حصر فصاحة القُرآن ـ كما سيأتي ـ في خلوه عن تنافر الحروف والكلمات ، وتَرْكنا البحث عن كل ما ذكروه في فصاحة المفرد والكلام من الشرائط المتعددة ، فهل هذا يعني إنكار دخالة غيره في الفصاحة ، أوْ له معنى آخر ؟ .

والجواب : إنّ كونَ الكلمةِ متلائمةَ الحروف في فصاحة المفرد ، وكونَ الكلامِ متلائمَ الكلمات في فصاحة الجملة ، له القسط الأوفر في تحقق الفصاحة ، لأنّ الفصاحة تعتمد على مقاطع الحروف والكلمات أكثر من كل شيء . وأمّا غير ذلك ممّا ذكروه في تعريفهما ، فكأنّها معدّات لخروج الكلام عذباً حسناً ، بهيّاً نَضِراً ، له وقع في القلوب . ولأجل ذلك ركزنا على حديث تلاؤم الحروف والكلمات ، وخلوهما عن التنافر ، هذا .

(١) البلاغة الواضحة ، ص ٨ .

على أنّ البحث عن اشتمال القرآن على مخالفة القياس في فصاحة المفرد ، وضعف التأليف في فصاحة الكلام ، بحث زائد ، لأنّ القواعد تُعْرَض على القرآن ، ولا يعرض القرآن عليها ، لأنّه إمّا هو كلام إلهي فهو فوق القواعد ، وإمّا كلام بشري ، فهو صَدَرَ من عربي صميم في أعرق بيت من العرب ، ترحل إليه المواكب وتحطّ رحالها عنده . والمؤمن والملحد يعترفان بكون القرآن في درجة عالية من الكلام الذي ينبغي أن يُحتذى ويُقْتدى .

* * *

دعائم إعجاز القرآن

(١)

الفَصَاحَةُ : جمال اللفظ وأناقَة الظاهر

اعتمد علماء المعاني والبيان في تعريف فن الفصاحة على أمور ، وقد عرفت في المقدمة السابقة ـ نصوصهم على تلك الأمور .

لكن المهم في الفصاحة ، كون الكلمة عذبة مألوفة الإستعمال ، جامعة لنعوت الجودة وصفات الجمال ، كما أنّ المهم في فصاحة الكلام تلاؤم الكلمات في الجمل ، فإنّ التلاؤم يوجب حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبل النفس معناه بوجه مطبوع ، لما يرد عليها المعنى بصورة حسنة ودلالة واضحة .

وأمّا غير العذوبة والتلاؤم من الشرائط فهو في الدرجة الثانية من تحقيق معنى الفصاحة ، وقد عرفت عدم اعتبار البعض ـ كمخالفة القياس في فصاحة المفرد ، وضعف التأليف بمعنى كونه على خلاف القانون النحوي المشتهر ـ في الفصاحة القرآنية ، لأنّ القرآن هو المقياس لهما .

والذوق السليم هو العُمْدَة في معرفة حسن الكلمات وسلاستها وتمييز مافيها من وجوه البشاعة ومظاهر الإستكراه . لأنّ الألفاظ أصوات ، فالذي يطرب لصوت البلبل ، وينفر من أصوات البوم والغربان ، ينبو سمعه عن الكلمة إذا كانت غريبة متنافرة الحروف . ألا ترى أنّ كلمتي « المُزنة » ، و« الديمة » للسحابة الممطرة ، كلتاهما سهلة عذبة ، يسكن إليهما السمع بخلاف كلمة «البعاق» التي في معناهما ، فإنّها قبيحة ، تصكّ الآذان . وأمثال ذلك كثير في مفردات اللغة ،

تستطيع أن تدركه بذوقك . وهـذا نظير الخط الحسن ، فـإنّه يـوجب إقبال النـاس عـلى قراءتـه ، وإمعان النـظر في معناه ، بخـلاف ما إذا كتب نفس ذلـك الكتاب بخط رديء غير واضح .

يقول الإمام يحيى بن حمـزة العلوي : « إنّ الفصاحـة راجعة إلى الألفـاظ ، والبلاغة راجعة إلى المعاني » . ويشرحه في مكان آخر بقوله : « إنّ المزايـا الراجعـة إلى الألفـاظ ، تارة تـرجع إلى مفـردات الحـروف ، وأخـرى إلى تـأليفهـا من تلك الحروف ، وثالثة إلى مفردات الألفاظ ، ومرة إلى مركباتها . فهذه أوجه أربعة لا بدّ من اعتبارها في كون اللفظ فصيحاً »[1] .

ولأجل أنّ لتلاؤم الحـروف والكلمات دوراً عظيمـاً في الفصاحـة ، نركّـز في هذا البحث ، على الخلو من تنـافر الكلمـة والكلمات ، بأن لا تكـون نفس الكلمة ثقيلة على السمع ، كما لا يكون اتّصال بعضها ببعض مما يسبب ثقلها عـلى السمع وصعوبة أدائها باللسان . وبما أنّ مخـارج الحروف مختلفـة ، فمنها مـا هو من أقصى الحلق ، ومنها ما هـو من أدنى الفم ، ومنها مـا هو بـين ذلك ، فـلا بدّ في حصـول التلاؤم من مراعاة تلك الصفات ، بأن لا يكون بين الحروف بُعْدٌ شديد ، أو قُرْبٌ شديد ، فعندها تظهر الكلمة أو الكلام سهلاً على اللسان ، وحسناً في الأسـماع ، ومقبولاً في الطباع . وهذا إن لم يكن ملاكاً كليّاً لتمييز المتلائم عن المتنافر ، إلاّ أنّه ميزان غالبي ، فلاحظ البيتين التـاليين تـرى الكلام في أحـدهما في نهايـة التنافـر ، وفي الآخر في كمال التلاؤم .

قـال الشـــاعر :

وَقَـــبْرُ حَــرْبٍ بِمَـكـانٍ قَــفْـرُ ... وَلَـيْسَ قُــرْبَ قَــبْرِ حَــرْبٍ قَــبْرُ

فقيل ، إنّ هذا البيت يعسر لأحد أن ينشده ثـلاث مرات متـواليات دون أن يتتعتـع ، لأنّ اجتماع كلماتـه ، وقرب مخـارج حروفهـا يحدثـان ثقلاً ظـاهراً ، وإن كانت كلّ واحدة منها غير مستكرهة ولا ثقيلة .

وقال شـــاعر آخر :

---

(١) الطراز : ص ٢١٤ و ٢٢٠ .

رَمَتْني وسِتْرُ الله بيني وبينَها عشيةَ آرامِ الكِناس رَميمُ[1] .

ولأجل دخالة عذوبة الكلمة وتلاؤم الكلمات في تحقق الفصاحة ، أدرك صيارفة الكلام ، ومشاهير الفصحاء في عصر النبي ما عَبّر عنه الوليد بن المُغيرة بقوله : « إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة » .

يقول الإمام يحيى بن حمزة في شأن تركيب مفردات الألفاظ العربية ، الذي له دور كبير في فصاحة الكلام : « ولا بُدَّ فيه من مراعاة أمرين :

أمّا أولاً : فأن تكون كلّ كلمة منظومة مع ما يشاكلها ويماثلها ، كما يكون في نظام العقد ، فإنّه إنّما يحسن إذا كان كل خرزة مؤتلفة مع ما يكون مشاكلاً لها . لأنّه إذا حصل على هذه الهيئة كان له وقع في النفوس وحسنُ منظر في رأي العين .

وأمّا ثانياً : فإذا كانت مؤتلفة ، فلا بدّ أن يقصد ما وضع لها بعد إحراز تركيبها .

والمثال الكاشف عمّا ذكرناه ، العقد المنظوم من اللئالي ونفائس الأحجار ، فإنّه لا يحسن إلاّ إذا أُلّف تأليفاً بديعاً ، بحيث يجعل كل شيء من تلك الأحجار مع ما يلائمه . ثم إذا حصل ذلك التركيب على الوجه الذي ذكرناه ، فلا بدّ من مطابقته لما وضع له ، بأن يجعل الإكليل على الرأس ، والطَوْق في العنق ، والشنف في الأذن ، ولو ألّف غير ذلك التأليف ، فلم يجعل كل شيء في موضعه ، بَطَلَ ذلك الحُسن . وزال ذلك الرونق »[2] .

مثلاً : قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ الجَوارِ في البحرِ كالأعلامِ ﴾[3] .

إنّ لهذه الآية تميّزاً ذاتياً عن كلام البشر ، لا يتمارى فيه منصف ، ولا يشتبه على من له ذوق في معرفة فصاحة الكلام . وذلك التميز رهن فصاحة أبنيتها ،

---

(١) هذا البيت لأبي حية النُمَيْري من شُعراء الحماسة ، لاحظ شرح الحماسة للتبريزي ، طبع محي الدين ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ .

(٢) الطراز ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٣٢ .

وعذوبة تركيب أحرفها ، وكونها مجانبة للوحشي الغريب ، وبعدها عن الركيك المسترذل ، مضافاً إلى سلاسة صيغها .

فإنّه سبحانه قال : ﴿ الجَوَار ﴾ ، ولم يقل : « الفُلْك » ، لما في الجَرْي من الإشارة إلى باهر القُدرة حيث أجراها بالريح ، وهي أرق الأشياء وألطفها ، فحرّك ما هو أثقل الأمور ، وأعظمها في الجرم . (والفُلْك ، وإن كان مثل الجوار في العذوبة ، لكنه يفقد النكتة التي يشملها الآخر) .

وقال سبحانه : ﴿ في البحر ﴾ ، ولم يقل : « في الطمطام » . ولا : « في العُباب » . والكل من أسماء البحر ، لأنّ البحر أسهل وأسلس ، وبالتالي أعذب وأجمل .

وقال سبحانه : ﴿ كالأعلام ﴾ ، ولم يقل : « كالروابي » ، ولا : « كالآكام » ، إيثاراً للأخف الملتذ به ، وعدولاً عن الوحشي المشترك[1] .

من عجائب القرآن أنّه يعمد إلى ألفاظ ذات تركيب يغلب عليه الثقل والخشونة ، فيجمعها في معرض واحد ، ثم ينظم منها آياته ، فإذا هي وضيئة مشرقة ، متعانقة متناسقة . ومن نماذج ذلك ، قوله سبحانه :

﴿ قالوا تالله تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يوسُفَ حتى تكونَ حَرَضاً أو تكونَ من الهالِكينَ ﴾[2] .

إسمعها ، هل تجد نَبْرَةً تخدش أذنك ؟ . واقرأها ، فهل تجد لفظاً يتعثر على شفتيك ، أو يضطرب في لسانك ، فيا لها من سلاسة وعذوبة واتّساق ، مع أنّ فيها كلمات ثقيلة بمفردها ثقلاً واضحاً في الأذن وعلى اللسان ، أعني قوله : « تالله . . . تفتؤ . . . حَرَضاً » . ولكنها حين اجتمعت في نظم قرآني ، خفّ ثقيلها ، ولأنّ يابسها . وسلس جامحها ، وانقاد وذلّ نافرها ، فإذا هي عرائس مجلوة ، تختال في روض نضير . فهذه ثلاث كلمات من أثقل الكلام ، قد انتظمت

---

(١) الطراز ، ج ٣ ، ص ٢١٥ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٨٥ .

مع خمس كلمات أخرى ، فكان من ثمانينها عقد نظيم يقطر ملاحة وحسناً .

وأيضاً ، من بدائع القرآن وغرائبه أنّه يكرر الحرف الثقيل في آية واحدة ، ولكنه يلطفه بحروف خفيفة بنحو يعلو بمجموعه العذوبة والخفة ، مكان الثقل والخشونة ، ومن هذا النوع قوله سبحانه : ﴿ قِيلَ يا نوحُ اهبِطْ بِسلامٍ منا وبَركاتٍ عليكَ وعلى أُمَمٍ مِمَّن مَعكَ وأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثم يَمَسُّهُمْ مِنّا عذابٌ أليمٌ ﴾[1] .

فقد جمعت هذه الآية ثمانية عشر ميماً ، منثورة بين كلماتها ، حتى كأنّ الآية مشكلة كلّها من ميمات ، كما ترى في « أمم ممن معك . . . وأمم سنمتعهم » ، ومع هذا فإنّك إذ ترتل الآية الكريمة على الوجه الذي يُرَتَّل به القرآن ، لا تحسّ أنّ هنا حرفاً ثقيلاً قد تكرر تكراراً غير مألوف ، بل تجد الآية قد توازنت كلماتها وتناغمت مقاطعها في أعدل صورة وأكملها فلا تنافر بين حرف وحرف ، ولا تباغض بين كلمة وكلمة .

ونظير هذا قوله سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مالكَ المُلْكِ تؤتي المُلْكَ مَنْ تشاءُ ، وتنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تشاءُ ، وتُعِزُّ مَنْ تشاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تشاءُ ، بِيَدِكَ الخيرُ ، إنَّكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾[2] .

ففي الآية عشر ميمات ، قد جاءت في مطلعها ، ولكنها مع ذلك كأنّها ميم واحدة ، ولو أنّ حرفاً آخر دخل في نظم الآية لما انبعث منها هذا الصوت القوي المجلجل ، الذي يقتضيه المقام هنا ، ولتفككت أوصال النظم وتخاذلت قواه .

وهكذا ، إنّ القاف من أثقل الحروف نطقاً ، تستنفر طاقة الحلق واللسان ليشتركا في حملها وإخراجها مخرج الأصوات . ومع هذا الثقل ، فقد جاءت في بعض الآيات مكررة بصورة مأنوسة لا يلتفت قارئها إلى التكرار ، ولا يجد فيها الجهد والعناء .

---

(١) سورة هود : الآية ٤٨ . والميم المشدّدة عند القراءة تحسب اثنين .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٦ .

قال سبحانه : ﴿ واتلُ عليهِمْ نَبَأَ ابنَيْ آدَمَ إذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهما وَلَمْ يُتقَبَّلْ من الآخَرَ ، قال : لأَقْتُلَنَّكَ . قالَ : إنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِين ﴾[١] .

فقد جاء فيها أحد عشر قافاً ، لو نثرت هذه القافات في كلام أبسط من هذا ، لظهر عليه الثقل ، ولكنها جاءت في هذه الآية من غير أن تحدث قلقاً واضطراباً . وإنّما حصل هذا ، لكثرة الباءات واللامات في الآية ، فإنّ الباء مخرجها الشفة ، فهي أخفّ الحروف ، وتليها اللام في الخفة ، فإنّ مخرجها اللسان . وقد بلغت عدّة الباء أحد عشر ، واللام خمس عشر ، فأوجب كثرة دوران هذين الحرفين ، تلطيفاً في الثقل الذي توجبه القاف في كيان الآية .

ومثل ذلك ، قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قولَ الذينَ قالوا : إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياء . سنكتُبُ ما قالوا ، وقَتْلَهُمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ونقولُ ذوقوا عذابَ الحريقِ ﴾[٢] .

فقد اجتمعت فيها عشر قافات ، وتكررت فيها اللام أحد عشر مرة ، فكسرت حدّة الثقل في القاف ، فترى ماءَ الحُسْن يترقرق على محياها ، والملاحة تقطر من جبينها .

هذه هي الدعامة الأولى للإعجاز ، وليست هي سبباً تامّاً له . ولأجل ذلك ربما يوجد في كلام البشر ما هو مشتمل على هذه الدعامة بصورة رفيعة ، مع أنّه ليس بكلام معجز ، لإمكان مقابلته والإتيان بمثله ، لمن تبحّر في تلك الصنعة ، ولأجل ذلك تعلو عليه سيماء الصنع البشري ، وما ذلك إلّا لأنّ الإعجاز البياني يبتني على الدعائم الأربع مجتمعة ، وليس ذاك الكلام مستجمعاً لها ليكون معجزاً فإنّه يفقد الأسلوب القرآني ، أعني الأسلوب الذي لا يشبه أسلوب المحاورة ولا أسلوب الخطابة ولا الشعر ، كما سيوافيك شرحه . وإليك من ذلك نموذجاً :

إنّ من أفصح كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ـ الذي أصفقت

(١) سورة آل عمران : الآية ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨١ .

جهـابذة الأدب عـلى أنّه فـارس ميـدان البيـان ، وبـطل حلبتـه ـ قـولـه في وصف الإنسان :

« أمْ هـذا الـذي أنشـأه في ظُلُمـاتِ الأرحـام ، وشُغُف الأستـار ، نُـطْفَـةً دهـاقاً ، وعَلَقَـةً مِحاقـاً ، وجنيناً ، وراضعـاً ، ووليداً ، ويـافعاً . ثم منحـه قلبـاً حافظاً ، ولساناً لافظاً ، وبصراً لاحظاً ، لِيَفْهَمَ مُعْتَـبِراً ، ويُقَصِّرَ مُزدجـراً . حتى إذا قام اعتدالُه ، واستوى مثالُه ، نَفَـرَ مُسْتَكبراً ، وخَبَطَ سـادِراً ، ماتحـاً في غَرْبِ هواه ، كادحاً سعياً لدُنياه ، في لذات طَرَبِه ، وبَدَواتِ أَرَبِه »[1] .

فإنّ هذه القطعة من خـطبه عليـه السلام سبيكـة مرصّعـة بيواقيت الكلم ، ومعالي معاني الحكم ، معدودة من مدهشـات كلامـه ، وقد تـوفرت فيهـا جوامـع وجوه الحسن . ومع ذلك ، فأين هي من الكلام الإلهي المعجـز ، الذي إذا جعلتـه إلى جنب هذا الكلام ، ظهر بكل وضوح أنّه ليس من كلام البشر .

لاحظ قوله تعالى : ﴿ والله أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطونِ أُمهاتِكُمْ لا تعلمـونَ شيئاً ، وجعلَ لكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفئدَةَ لعلَّكُمْ تشكرونَ ﴾[2] .

أو قوله تعالى : ﴿ يا أيُّهـا النّاسُ إنْ كنتُم في رَيْبٍ من البَعْثِ فـإنّا خَلَقْنـاكُم من تُـرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثم مِنْ مُضْغَـةٍ مُخَلَّقَـةٍ وَغَـيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَـيِّنَ لَكُمْ وَنُقِـرُّ في الأرحامِ مـا نشـاءُ إلى أَجَـلٍ مُسمىً ، ثُمَّ نُخْـرِجُكُمْ طِفْـلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغـوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْـلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ، وَتَرى الأَرضَ هامِدَةً فإذا أنزلنا عليها المـاءَ اهتزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ * ذلـكَ بأنَّ الله هـو الحَقُّ وأَنَّهُ يُحيي المَـوْتى وأنّـه عـلى كُـلِّ شيءٍ قَديرٍ ﴾[3] .

هذا فيما يرجع إلى الدعامة الأولى لإعجاز القرآن . ويشير النبي الأعـظم في كلمة له في تعريف القرآن إلى هذه الدعامة والدعامة التالية :

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٨٣ .

(٢) سورة النحل : الآية ٧٨ .

(٣) سورة الحج : الآيتان ٥ و ٦ .

قــال صــلى الله عليــه وآلـه : « إذا التبست عليكُمُ الفِتَن كَقِطَـعِ الليـلِ المـظلم ، فعليكم بالقـرآن » . . . إلى أن يصفه بقـوله : « ظـاهِرُهُ أنيق ، وبـاطِنُه عميق »[1] .

* * *

(١) الكافي ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

دعائم إعجاز القرآن

(٢)

البلاغة : جمال العرض وسمو المعنى

قد وقفت ، في التعريف الفنّي للبلاغة على أنّها عبارة عن خروج الكلام مطابقاً لمقتضى الحال . فلو كان المقام مقتضياً للتأكيد أو الإطلاق ، وذكر المسند والمسند إليه أو حذفهما ، والإيجاز أو الإطناب ، وغير ذلك ، جاء الكلام مطابقاً له . وقد أسهب علماء المعاني في تبيين مقتضيات الأحوال ، على وجه لم يدعوا لقائلٍ مقالاً .

وقد اهتمّ بعض من كتب في الإعجاز ، بأمر البلاغة أزيد من غيرها . حتى أنّ الخطابي قال : « وذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أنّ وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة ، ولكن صعب عليهم تفصيلها »[1] .

غير أنّا ركّزنا على أنّ البلاغة بهذا المعنى ، ترجع إلى عرض المقصود بشكل مطلوب ، ومفيد في تحقق غرض المتكلم ، ولكنه لا يكفي في توصيف الكلام بالبلاغة ما لم يضم إليه قيد آخر ، وهو كون المعنى سامياً ورفيعاً ، وقابلاً للذكر والإفادة ، وإلّا فالمعاني المبتذلة ، وإن أُلبست أجمل الحُلي ، وعرضت بشكل يقتضيه الداعي إلى التكلم ، لا توصف بالبلاغة ، وعلى فرض صحة التوصيف ، لا يكون مثل ذلك الكلام أساساً للإعجاز ، ولا دعامة له . ولأجل ذلك قلنا إنّ

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، الرسالة الأولى للخطابي ، ص ٢١ .

التعريف الصحيح للبلاغة هو عبارة عن تأدية المعنى الجليل بعبارة صحيحة فصيحة ، مع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه .

وعلى ضوء ذلك ، فالكلام الساقط عن الإعتبار من حيث المضمون ، لا يتّصف بالبلاغة ، مثل ما حكي عن مسيلمة الكذّاب حيث أقسم بالطاحنات ، وقال « والطاحنات طحناً ،والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً » . فأين هذه المفاهيم الساقطة السوقية الركيكة الفاقدة لأيّة قيمة ، من المعاني العالية السامية الواردة في قوله سبحانه : ﴿ **والعادياتِ ضَبْحاً * فالموريات قَدْحاً * فالمُغيرات صُبْحاً** ﴾[1] .

فاللازم في البحث عن فصاحة القرآن ، التركيز على أمرين :

١ ـ مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

٢ ـ سمو المعاني وعلو المضامين .

* * *

الأمر الأول ـ مطابقة الكلام لمقتضى الحال

إنّ استقصاء جميع الأحوال التي يقع الكلام مطابقاً لها ، راجع إلى علم المعاني ، من علمي الفصاحة والبلاغة فذكروا مقتضيات الأحوال في أبواب الإسناد الخبري ، والمسند إليه ، والمسند ، ومتعلقات الفعل ، والإنشاء ، والفصل والوصل ، والإيجاز ، والإطناب والمساواة ، فذكروا الأحوال الطارئة على الكلام ومقتضياتها ، من ذكر المسند إليه وحذفه ، وتنكيره ، وتقديمه وتأخيره ، وتوصيفه وتأكيده ، إلى غير ذلك من الأحوال الطارئة على المسند إليه ، وبشكلٍ على المسند ، ولكل مقام . كما أنّ لكل من الإيجاز والإطناب والمساواة مقام .

ثم إنّ دراسة القرآن من حيث كونه مطابقاً للأحوال المقتضية ، يحتاج إلى

---

(١) سورة العاديات : الآيات ١ ـ ٣ .

تفسير حافل ، يفسّر القرآن من هذا الجانب ، ولعلّ « الكشاف » أحسن ما كتب في هذا الموضوع ، فقد ذكر الزمخشري فيه ، النكات البلاغية ، في تفسير الآيات ، وبذلك أثبت للقرآن إعجاز بيانياً خاصاً ، وأنّ كل آية بل كلّ كلمة واردة موردها .

ولما كانت الإحالة على مثل هذا الكتاب وغيره ، عن المحذور غير خالية ، نأتي بنماذج تثبت بلاغة القرآن ، وورود آياته وفق مقتضى الحال ، ونختار لذلك سورتين قصيرتين ، من السور المكية ، النازلة في أوائل البعثة .

١ ـ بلاغة سورة الكوثر

روى المفسرون أنّ العاص بن وائل السهمي رأى رسول الله صلى الله عليه وآله يخرج من المسجد ، فالتقيا عند باب بني سهم ، وتحدّثا ، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد ، فقالوا : من الذي كنت تتحدث معه . قال : ذلك الأبتر ، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله وهو من خديجة ، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتر ، فسمته قريش عند موت ابنه أبتر ، ومبتوراً[1] ، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾[2] .

قال الزمخشري ، في رسالته حول إعجاز سورة الكوثر : « أُنظر ، كيف نُظمت النظم الأنيق ، ورُتِّبت الترتيب الرشيق ، حيث قدّم منها ما يدفع الدعوى ويرفعها ، وما يقطع الشبهة ويقلعها (إنّا أعطيناك الكوثر) ، ثم لِما يَجبُ أَنْ يكون عنه مسبَّباً وعليه مترتباً (فصل لربك وانحر) ، ثم ما هو تتمة الغرض من وقوع

---

(١) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٥٤٩ .

(٢) سورة الكوثر .

العـدو في مُغَوّاتِـه[1] التي حفـر ، وصَلْيـه بحـر نـاره التي سَعَـر (إنّ شـانئـك هـو الأبتر) » .

وإليك بيان نكات آياته الثلاث :

﴿ إنّــــا ﴾ .

تأمَّل كيف من أُسند إليه إسداء هذه العطية والموهبة السنية (الكوثر) ، هو ملك السمـوات والأرض ، ومالـك البسط والقبض . فـدلّ بـذلـك عـلى عـظمـة المعطي والمُعْطَى ، من المعلوم أنّه إذا كان المعطي كبيراً ، كان العطاء كثيراً .

وجمع ضمير المتكلم ، فأعلم بذلك عظم الربوبية .

﴿ أَعْطَيْناكَ الكَوْثَر ﴾ .

استعمـل لفظ الماضي مكـان المستقبل ، مـع أنّ الكـوثـر كـما يتنـاول عـطاء العـاجلة ، يتناول عـطاء الآجلة ، وذلك لأنّ المُتــوقَّع من سيب الكـريم ، تحققه على وجه القطع والبت .

وجاء بالكوثر محـذوف الموصـوف ، لأنّ المثبت ليس فيه مـا في المحذوف من فرط الإبهام والشياع .

واختار الصفة المؤذنة بإفراط الكثرة ، المُبِينة عن المعطيات الوافرة ، وصدّرها باللام لتكون كاملة في إعطاء معنى الكثرة .

والمراد من الكوثر ، أولاده حسماً للشبهة ، وقطعاً لدعوى الخصم .

﴿ فَصَــلِّ ﴾ .

عَقَّب إبهـامه الكـوثر ، بـالفـاء ، ليكـون دليـلاً لمعنى التسبيب ، فـالعـطاء الأكثر ، يستلزم الشكر الأوفر .

---

(١) حفرة كالزبية ، تحفر للذئب ، ويجعل فيهـا جدي إذا نـظر إليه سقط عليـه يريـده . ومنه قيـل لكل مهلكة مغوّاة . (لاحظ النهاية ، ج ٣ ، ص ٣٩٨ ، مادة غوي) .

﴿ لِرَبِّــــكَ ﴾ .

وقصد بذلـك ، التعريفَ بـدين « العاصي » وأشبـاهه ، ممّن كـانت عبادتـه ونحـره لغـير إلهـه ، وبـالتـالي لتثبيت قـدمي رسـول الله عـلى صراطـه المستقيم ، وإخلاصه العبادة لوجهه الكريم .

وقال : « لربك » ولم يقل « لنا » ، فصرف الكلام عن لفظ المضمـر إلى لفظ المظهر ، إظهاراً لكبرياء شأنه ، وإنافـةً لعزّ سلطانـه . ومنه أخـذ الخلفاء قـولهم : يأمرك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة ، وينهاك أمير المؤمنين عن مخالفة الجماعة .

وعلّم ، بالأمر بالصلاة للرب ، أنّ مِنْ حَقِّ العبادة أن يَخُصَّ بها العبـادُ ربَّهم ومـالكهم ، ومن يتولى معـايشهم ومهـالكهم . وعـرّض بخـطأ من سفّـه نفسـه ، ونقض لبّه ، وعبد مربوباً ، وترك عبادة ربّه .

﴿ وانْحَــرْ ﴾ .

أشـار بالأمـر بالنحـر ، بعد الأمـر بالصـلاة ، إلى قسمـين من العبـادات ، فالقسم الأول عمل بـدني ، والصلاة إمـامها . والثـاني عمل مـالي ، ونحر البـدن سنامُها .

ونبّه على مـا لرسـول الله من الإختصاص بـالصلاة التي جعلت لعينـه قُرّة ، وبنحر البدن التي كانت همته متطاولة إليها .

قال : « وانحر » ، ولم يقل « وانحر له » ، رعايـةً لفواصـل الآيات ، وهـو أمر مطلوب إذا سيق المتكلم ، إليه ، بلا تكلّف .

﴿ وإنّ شانِئَكَ ﴾ .

عنى بالشانيء : « السهمي » . وإنّما ذكرهُ بوصفه لاباسمه ، ليتناول كلّ من كان مثل حاله . وأعرب بذلـك عن أنّ عدوه لم يقصـد بوصفـه بالأبـتر ، الإفصاح بالحق ، ولم ينطق إلاّ عن الشنآن الذي هو توأم البغي والحسد ، وعن البغضاء التي هي نتيجـة الغيظ ، فبذلـك وسَمه بمـا ينبيء عن المقت الأشدّ ، ويـدلّ عـلى حنق الخصم الألدّ .

﴿ هُــوَ ﴾ .

أقحم الفصل لبيان أنّه المُعَيَّن لهذه النقيصة (الأبـتر) ، وأنّه المُشَخَّص لهـذه الغميصة[1] .

﴿ الأَبْتَــر ﴾ .

عرّف الخبر ، ليتمّ له البتر .

فسبحان من أعجز فصحاء العرب والعجم ، عن الإتيان بمثل هـذه السورة على وجازة ألفاظها ، مع تحدّيه إيّاهم بذلك ، وحـرصهم على بـطلان أمره ، منـذ بعث النبي إلى أمرنا هذا .

وسبحان من لو أُنزل هذه الواحدة وحدها ، ولم ينزل ما قبلهـا وما بعـدها ، لكفى بها آية تغمر الأذهان . ومعجزة توجب الإذعان ، فكيف بما أنـزل من السبع الطوال[2] .

٢ ـ بلاغة سورة « والضحى »

جرت حكمته سبحانه على نزول الوحي تدريجياً ، لحكمة صرّح بها سبحانه في قوله : ﴿ **وقالوا لَوْلاَ نُزِّل هذا القرآن جُمْلَةً واحـدةً ، كذلـك لِنُثَبِّتَ به فؤادَكَ ، وَرَتَّلناهُ تَرْتيلاً** ﴾[3] .

ولأجل وقوع الفترة بين نزول الوحي ، عابه المشركـون على النبي الأكـرم ، فقالوا : إنّ محمداً قد ودعه ربُّه وَقَلاه ، ولو كان أمره من الله لتتابع عليـه ، فنزلت السورة التالية :

﴿ **والضُّحى * واللّيـلِ إذا سَجَىٰ * ما وَدَّعَـكَ رَبُّكَ ومـا قَلَىٰ * وَلَـلآخِرَةُ**

---

(١) يقال اغتمصت فلاناً اغتماصاً : احتقرته (لسان العرب ، مادة غمص ، ج ٧ ، ص ٦١) .

(٢) ما ذكرنا من النكات البيانية لسورة الكوثر مقتبسة من رسالة الزمخشري ، في إعجازهـا ، التي طبعت في مجلة « تراثنا » ، ومع ذلك كله ، لم يأت بجميع النكات الموجودة في هذه الآيات الثلاث

(٣) سورة الفرقان : الآية ٣٢ .

خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ * وَوَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وأَمّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1] .

إنّ في هذه السورة من أنواع البلاغة ما يَبْهَـرُ العقول ، وفي الدراسة التالية نشير إلى بعض منها .

﴿ والضُّحى * واللَّيلِ إذَا سَجَىٰ ﴾ .

الواو في الموضعين للقسم . والضحى ، والليل حال السجي ، هو المقسم به . وقوله سبحانه فيما يأتي : ﴿ ما وَدَّعَكَ ﴾ هو المقسم له ، بمعنى جواب القسم .

وقد ورد في القرآن الكريم ، ثمان وثلاثون قَسَماً ، أفردها إبن القيم بالتصنيف في كتاب أسماه « التبيان في أسماء القرآن » . وقد وقع القَسَم فيها على أشياء مختلفة كالملائكة والنبي الأكرم والقرآن والقيامة ، والنفس الإنسانية ، والقلم ، والكتاب والشمس ، وضوئها، والليل وغير ذلك. واهتمّ المفسّرون ببيان سرّ القسم بهذه الأمور ، ولكنهم غفلوا عن مهمة أخرى في هذه الأقسام ، وهي المناسبة بين المُقْسَم به والمُقْسَم له ، أي بيان الصلة بين الشيء الذي وقع الحلف عليه ، كالنّهار والليل ، وما رتب عليه من الجواب . وهذا من الأمور المهمة التي إذا كشفها المُفَسِّر ، لأدرك أنّ تخصيص شيء معين بالقَسَم في هذا المجال دون غيره ، ليس إلّا لرابطة بينه وبين جوابه ، وليس هو أمراً إعتباطياً فاقداً للمناسبة . وإليك البيان في المقام .

إنّ المُقْسَم به في آيتي « والضحى » ، صورة مادية ، وواقع حسّي يشهد به الناس تألّق الضوء في صحوة النهار ، ثم يشهدون من بعده فتور الليل إذا سجى وَسَكَن ، يشهدون الحالين معاً في اليوم الواحد دون أن يختل نظام الكون أو يكون في توارد الحالين عليه ما يبعث على إنكار . بل دون أن يخطر على بال أحد ، أنّ

(١) سورة « والضحى » ، وآياتها ١١ .

السماء قد تخلّت عن الأرض ، وأسلمتها إلى الظلمة ، والوحشة بعد تألّق الضوء في ضحى النهار .

فإذا كان هذا حال الفيض المحسوس ، الذي بـه حياة البشر ، فهكـذا حال الفيض المعنـوي ، فينزل الـوحي ويغرق المجتمـع في بهاء نـوره ، ثم يسكن ، فلا عجب في أنّ يجيء ـ بعد أُنس الوحي ، وتَجلّي نوره على النبي الأكرم ـ فـترة سكون يفـتر فيها الـوحي على نحـو مـا نشهـد من الليـل السـاجي ، يـوافي بعـد الضحى المتألّق .

فإذن ، القَسَم بالضحى ، وبالليل إذا سجى ، بيان لصورة حسيّة ، وواقع مشهـود ، يمهّد لمـوقف مماثـل لكن غير حسيّ ولا مشهـود ، وهو فتـور الوحي بعـد إشراقه وتجلّيه .

فعنـد ذلك ، يتجـلّى تخصيصهما بـالقسم دون غيرهمـا ممّا ورد في القـرآن من الأُمور المقسم بها . كما يتّضح أنّ نزول الوحي تدريجاً ، ليس دليلاً على أنّه سبحانه ترك نَبِيَّه أو قَلاه . وذلك لأنّ فتور الوحي ، كنزول الليل بعـد الضحى ، فكما هـو ليس دليـلاً على تخـلّي السماء عن الأرض ، وتسليمهـا إلى الظلمـة ، فهكذا نـزول الوحي نجوماً ، ليس دليلاً على أنّه سبحانه تخلّى عن رسوله ، وتركه بين أعـدائه أو قلاه .

وبذلك يظهر إتّقان جواب القسم أعني قوله سبحانه :

﴿ ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلىٰ ﴾ .

ومن لـطائف ما ورد في الجـواب هو أنّـه حذف المفعـول من قولـه : ﴿ ومـا قلى ﴾ ، ولم يقل : « قَلاكَ » . وليس ذلك رعاية للفاصلة ، لأنّه عَدَلَ عن رعايتها في آخر سورة الضحى ، حيث قال : ﴿ فأمـا اليَتيمَ فلا تَقْهَـرْ * وأمَّا السـائلَ فـلا تَنْهَـرْ * وأمـا بِنِعْمَـةِ رَبِّـكَ فَحَـدِّث ﴾ إذ ليس في السـورة ، حـرف الثـاء عـلى الإطـلاق ، وكان بـوسعه أن يقـول مكان حَـدِّث ، فَخَبِّر ، لتتفق الفـواصل عـلى مذهب أصحاب الصنعة . فهذا دليل على أنّ الحذف لوجه آخر ، كـما أنّ العنايـة بذكر بلفظة « حدّث » ، مكان « خَبّر » ، لنكتة موجودة في الأولى دون الثانية .

والظاهر أنّ حذف المفعول هو لتحاشي خطابه تعالى حبيبه المصطفى في مقام الإيناس ، بقوله : « ما قلاك » ، لما في القلي من الطرد ، والإبعاد وشدّة البغض . وهو في الوقت نفسه أظهر المفعول في « وَدّعك » ، إذ ليس فيه شيء يُكْرَه ، بل هو يؤذن بالفراق على كُرْه ، مع رجاء العود .

﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولىٰ ﴾ .

إنّ الآخرة إذا قرنت بالأُولى ، يراد منها اليوم الآخر ، كما في قوله سبحانه : ﴿ فَللّه الآخرة والأُولى ﴾[1]. وقوله سبحانه : ﴿ فَأَخَذَهُ الله نَكالَ الآخرة والأُولى ﴾[2] .

ولكن يرجح أن يكون المراد من الآخرة في الآية ، هو الغد المرجو من أيام بعثته ، لتخصيص كونها خيراً في الآية بالنبي الأكرم ، حيث قال : ﴿ خَيْرٌ لَكَ ﴾ فالآية تبشّر بالمستقبل الزاهر للنبي الأكرم ، وبهذا يتمّ تأكيد نفي التوديع والقلي ، ليذهب عن الأذهان أثر فتور الوحي .

والصلة بين هذه الآية وبين ما تقدمها ، واضح على هذا البيان ، والكلّ كسبيكة واحدة .

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى ﴾ .

اللام لتأكيد لزوم العطاء ، وأنّه أمر محقّق . ﴿ وسوف ﴾ للتراضي . والجمع بين التوكيد مع التسويف الصريح ، لبيان أنّه موضع عناية ربّه في أمسه وغده ، وأُولاه ، وأُخراه .

وأمّا العطاء الذي يحصل به رضا النبي ، فغير محدّد بشيء . وليس وراء الرضا مطمح ، ولا بعده غاية ، ولا حاجة لتحديد هذا الذي يُرضي الرسول ، حتى تقلّل من روعة ذاك البيان المعجز الذي يتجلى سرّه في إطلاقه العام وانتهائه إلى الرضا .

---

(١) سورة النجم : الآية ٢٥ .

(٢) سورة النازعات : الآية ٢٥ ، ولاحظ سورة القصص : الآية ٧٠ ، وسورة الليل : الآية ١٣ .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى * وَوَجَدَكَ ضالاً فَهَدى * وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنىٰ ﴾ .

هذه الآيات تبث في نفس الرسول الطمأنينة ، وتثبت قلبه ، بالفاته إلى ما أسبغه الله عليه في أولاه ، من نِعَم : كان يتيماً ، فآواه ، ووقاه مسكنة اليُتْم ، وكان ضالاً ، فهداه تعالى إلى دين الحق[1] وكان عائلاً فأغناه الله بفضله وكرمه . أفما يكفي هذا ليطمئن كلُّ أحد إلى أنّ الله غير تاركه ولا قاليه ؟ وهل تَرَكَه حين كان صبياً يتيماً متعرضاً لما يتعرض له اليتامى من قهر وضياع ؟ وهل قلاه حين كان ذا عيلة ؟ كلا ، لا .

واليتيم مظنة الضياع والقهر ، قال سبحانه : ﴿ وَلْيَخْشَ الذين لو تَرَكوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ ﴾[2] . وقد وجه الله محمداً يتيماً عائلاً ، فأعفاه سبحانه من تلك الآثار البغيضة ، وحفظ جوهره من الآفات التي كان معرَّضاً لها بحكم يتمه وعيلته ، وبذلك تمّ فيه الإستعداد النفسي لتلقّي الرسالة الكبرى ، التي بعث بها ليقي الناس من المذلّة والضلال .

﴿ وأَمّا اليتيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمّا السائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وأَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

أتى بكلمة : « فلا تقهر » ، مع أنّ في وسعه أن يستخدم كلمة أُخرى ، نحو : « فلا تظلم » ، « فلا تمنع حقه » وغيرهما ، وذلك لأنّ في عبارة : « فلا تقهر » ، معنى أعمق وأدق ممّا يفيده ذانك اللفظان ومشابههما ، إذ يجوز أن يقع

---

(١) المراد من الضلال ، هو الضلال الطبيعي العام ، فكل إنسان ضال بالطبع ، ويخرج منه بهداية من الله سبحانه ، فليست الآية دليلاً على أنّه صلى الله عليه وآله كان ضالاً غير عارف بالله في فترات من عمره ، ثم هداه الله سبحانه . وليس الضلال مرادفاً للكفر . بل هو بمعنى عدم الإهتداء إلى الصواب . وقد رموا يعقوب بالضلال كما في قوله سبحانه : ﴿ تا لله إنَّكَ لَفي ضَلالِكَ القديم ﴾ سورة يوسف : الآية ٩٥ . وليس الضلال هناك كفراً ، وإنّما هو الشغف بيوسف . وقالت النسوة في إمرأة العزيز ويوسف ﴿ قد شَغَفَها حُبّاً إنّا لَنَراها في ضلالٍ مُبين ﴾ سورة يوسف : الآية ٣٠

(٢) سورة النساء : الآية ٩ .

القهر مع إنصاف اليتيم وإعطائه ماله ، وعدم التسلّط عليه بالأذى ، لأنّ حساسية اليتيم إلى حدّ أنّه يتأثّر بالكلمة العابرة ، واللفتة الجارحة من غير قصد . والنبرة المؤلمة بلا تنبه ، وإن لم يصحبها تسلّط بالأذى ، أو غلبة على ماله وحقّه .

ويحتمل أن يكون المراد من النعمة هو الرسالة التي أكرمه الله تعالى بها ، وتفضل بها عليه ، وعند ذلك يكون المراد من التحدّث بها هو إبلاغ رسالة ربّه .

ثم في الآيات الثلاث الأخيرة نكتة بديعة ، فإنّا نرى أنّه سبحانه قدّم النهي عن قهر اليتيم ونهر السائل ، على التحدّث بنعمته تعالى ، فأخّر حَقَّ نفسه وهو التحدث بالنعمة ، وقدّم حقّ اليتيم والسائل . وما هذا إلّا لأنّه غنيّ وهما محتاجان ، وتقديم حَقِّ المحتاج أُولى .

وهناك نكتة أُخرى ، وهي أنّه تعالى لم يرض في حقهما إلّا بالفعل ، ورضى في نفسه بالقول[1] .

* * *

فهاتان السورتان المتقدمتان أوقفتانا على نموذج من بلاغة القرآن ـ بمعنى المطابقة لمقتضى الحال ـ وزيادة في بيان هذا الجانب البلاغي ، نأتي بنماذج أخرى من آياته ، حصل فيها تقديم وتأخير وعكس في العبارات ، ممّا قد يتخيل معه أنّه تنويع وتفنن في الكلام ، ولكن بالتأمّل فيها يتّضح أنّه ليس كذلك ، وإنّما اختلاف التعبير نشأ من اختلاف المقتضيات .

١ ـ يقول سبحانه في سورة الأنعام : ﴿ **ولا تَقْتُلوا أولادَكُم من إملاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإيَّاهُمْ** ﴾[2] .

ويقول سبحانه في سورة الإسراء : ﴿ **ولا تَقْتُلوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ**

---

(١) ما ذكرناه في هذا العرض ، اقتبسناه من كتاب « التفسير البياني للقرآن الكريم » ، ج ١ ، ص ٢٣ ـ ٥٥ . بتلخيص وتصرّف .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٥١ .

نَرْزُقُهُمْ وإيَّاكُمْ ﴾[1] .

والنهي في كلتـا الآيتين متـوجه إلى الـوالدين . ووجـه الإختـلاف بينهـما أنّ الداعي إلى القتل في الآيـة الأُولى هو الفَقْـرُ المُحَقَّق ، السائـد في حياة الـوالدين ، بدلالة قَـوْله : ﴿ من إمـلاق ﴾ . وفي الثانيـة هو الفَقْـر المتوقـع ، بدلالـة قولـه : ﴿ خشية إملاق ﴾ . فاختلفت حال الوالدين .

ففـي الآيـة الأُولى ، الخـطاب متـوجـه إلى الـوالـدين الفقـيرين ، حـال الخطاب ، فناسـب أن يبدأ وعده بالرزق بهما ثم بأولادهما .

وهذا بخلاف الآية الثانية ، فإنّ الخطاب فيها متوجه إلى الوالدين الميسورين المرزوقين بالفعل ، ويخـافان العيلة والعجـز عن رزق أولادهم ولأجل ذلـك كانـوا يـرتكبون ذلـك العمل الأسـود الوبيـل (قتل أولادهـم) ، فنـاسـب أن يبدأ وعـده بالرزق ، بالأولاد أوّلاً ، وبالوالدين ثانياً .

٢ ـ يقـول سبحـانه في عرض مشهـد من مشاهـد يوم القيـامة ومـا يكون النـاس عليه من فـزع وكرب : ﴿ يَـوْمَ يَفِرُّ المَـرْءُ مِنْ أَخيهِ وأُمِّـهِ وَأبِيـهِ وصـاحِبَتِـهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امرِيءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[2] .

وفي سورة أُخرى ، في عرض مشهد من هذا اليوم ، يقول : ﴿ يَوَدُّ المُجْـرِمُ لَوْ يَفْتَدي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ، وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ، وَفَصِيلَتِهِ التي تُؤْوِيـهِ ، وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَميعاً ثُمَّ يُنْجِيه ﴾[3] .

ففي الآيتين ألفاظ مشتركة ، مثل « بنيه » و« صـاحبته » و « أخيـه » . لكن قَـدّم في الأولى الأخ ، فالأم ، فـالأب ، فالصـاحبة ، فـالبَنين ، مبتـدءً بالعـزيـز فالأعزّ .

وفي الثانية عَكَس فقَدَّم البنين ، فالصاحب ، فالأَخ ، فالفصيلة ، فسـائـر

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٣١ .

(٢) سورة عبس : الآيات ٣٤ ـ ٣٧ .

(٣) سورة المعارج · الآيات ١١ ـ ١٤ .

الناس ، مقدّماً الأعزّ فالعزيز . فما هو الوجه في هذا التقديم والتأخير ؟ .

الجواب : إنّ الآية الأُولى تُصَوِّر مشهد الفرار من العذاب والبلاء ، والآية الثانية تمثّل مشهد دفع العذاب عن النفس .

ففي المقام الأول يتخلّى الإنسان عن العزيز فالأعزّ ، حتى لا يبقى معه شيء يمكنه أن ينخلع عنه لينجو بنفسه . فلأجل ذلك بدأ في الآية الأُولى بالأخ ، فالأُم ، فالأب ، فالصاحبة ، فالبنين .

وأمّا في المقام الثاني ، فالإنسان فيه في حالة الإفتداء من العذاب الشديد الرهيب ، ففي هذا الحال يفدي بعض جوارحه ببعض ليدفع عنه لهيب جهنم . فإن لم ينجع ، يتناول للوقاية أقرب شيء وأحبّه إليه لعلّه ينجو . وهم البنون ، فالصاحبة ، فالأخ .

فصار الموقفان مختلفين متباينين ، فالحالة الأُولى تمثّل حركة فرار ، والثانية تمثّل حركة دفاع من خطر داهم . وهذه النكتة ، أوجبت اختلاف النظم بين الآيتين ، وعليها جرى قول الشاعر :

ألقى الصحيفةَ كي يُخَفِّفَ رَحْلَهُ والزادَ حتى نَعْلَهُ أَلقاها

فإنّ النعل للمسافر الراجل في الصحراء ، أعزّ الأشياء . وبما أنّ الموقف موقف حركة فرار ، إبتدأ بالقاء العزيز.فالأعز حتى وصل إلى النعلين .

٣ ـ يقول سبحانه : ﴿ لا يَسْتَوي القاعِدونَ مِنَ المُؤْمِنينَ غَيْرُ أُولي الضَّرَرِ ، والمجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ المُجاهِدينَ بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللهُ المجاهِدينَ على القاعِدينَ أَجْراً عظيماً ﴾[1] . فَقَدَّمَ الجِهادَ بالأَموالِ على الجِهادِ بالأنفس في مَوْردين من هذه الآية .

ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ

(١) سورة النساء : الآية ٩٥ .

وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ، يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلونَ ، وَعْداً عَلَيه حَقاً في التَوراةِ والإنجيل والقُرآنِ ﴾[1] . فقدم هنا الأنْفس على الأموال ، مع أنّها واردة أيضاً في مجال الجهاد .

فهل هذا للتفنن في العبارة ؟ أو أنّ الحال يقتضي في الآية الأُولى ونظائرها ، تقديم الجهاد بالأموال على الأنفس ، وفي الآية الثانية العكس .

التحقيق هو الثاني ، بل هو المتعين ، لأنّ الآية الأُولى بصدد بيان جهاد المؤمنين بالأموال والأنفس ، ومن المعلوم أنّ الإنسان يبتديء في الجهاد بالعزيز فالأعز ، فيجاهد بماله أولاً ثم بنفسه . وأمّا الآية الثانية فهي بصدد بيان شراء الله سبحانه من المؤمنين ، ومن المعلوم أنّ المشتري يبتغي الأعزّ فالعزيز ، ويختار لنفسه الأغلى فالغالي . والنفوس أغلى من الأموال .

والعجب أنّ القرآن راعى هذه النكتة في جميع الموارد التي ذكر فيها الجهاد بهما[2] .

٤ ـ يقول سبحانه حاكياً عن لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عليهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وَيُزَكّيهِمْ ، إنَّكَ أَنْتَ العَزيزُ الحَكيمُ ﴾[3] فقدم فيها التعليم على التزكية .

ولكن في موضع آخر عكس وقدم التزكية على التعليم ، فقال : ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾[4] . فعكس في هذه الآية وقدّم فيها التزكية على التعليم .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٢) لاحظ الآيات التاليات : الأنفال : ٧٢ ، التوبة : ٢٠ و٤١ و ٤٤ و ٨١ و ٨٨ ، الحجرات : ١٥ ، الصف ٠ ١١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٢٩ .

(٤) سورة الجمعة : الآية ٢ .

ونحن نترك للباحث الكريم استكشاف وجه الإختلاف بين الآيتين ، ليستنبطه على ضوء ما ذكرنا . وكم لهذا من نظير في كتاب الله المجيد .

* * *

الأمر الثاني ـ سمو المعاني

إنّ التالي لآيات الذكر الحكيم ـ إذا كان ممعناً في تلاوته ـ يرى في كل سورة وآية عظة وتنبيهاً ، وإعلاماً وتذكيراً ، وترغيباً وترهيباً ، وتشريعاً وتقنيناً ، وقصصاً ، وعبراً ، وبراهين وحُجج ، ترقى بروح الإنسان وتحلّق بها في سماء المعنويات . فهذه المعاني العالية السامية الدقيقة ، إذا حَمَلَتْها ألفاظ فصيحة ، وصِيغَتْ في نُظُم رصينة ، وَرُصِّعَتْ بأُسلوب بديع ، وأُلقيت على مقتضى الحال ، بهرت العقول ، وخَلَبَتْ النفوس ، وسَلَّمَتْ بعجزها عن معارضته والإتيان بمثله .

وقد ركّز النبي الأعظم في حديثه عن القرآن ، على هذا الأمر ، حيث قال : « وباطنه عميق » . كما اعترف به عدوّه اللدود ، الوليد بن المغيرة ، حيث قال : « إنّ أعلاه لمثمر ، وإنّ أسفله لَمُغْدق » .

إنّ النظرة الفاحصة ، في آثار الكُتّاب والمؤلفين ، تدفعنا إلى القول بأنّهم لا يخرجون عن طائفتين : طائفة تهتم بتزيين الألفاظ دون العناية بسمو المعنى .

وطائفة أُخرى تهتم بإبداع المعاني من دون عناية بتحسين اللفظ .

وقلما يتّفق من يراعي كلا الأمرين ، والجمع بينهما مشكل . لأنّ الألفاظ والجمَل الخلّابة لا تطابق الموضوعية والواقعية . فالذين يرغبون في إفهام المعاني لا يفتشون عن الألفاظ والعبارات الخلّابة . فالجمع بين الجمالين ، رهن عبقرية ونُبوغ قادرين على تحمّل عبئهما .

والقرآن الكريم أَبْرَزُ نَموذَجٍ للقسم الثالث . فألفاظه في منتهى العُذوبة ، ومقاطع الآيات وفواصلها في غاية الأناقة ، والأُسلوب في منتهى البداعة ، وقد ضمّ إلى هذا الجمال الظاهر ، عمقاً في المعنى ، لا تجد له مثيلاً في زبر الأولين وكتب الآخرين .

إنّ التصوير الدقيق لسمو معاني القرآن لا يتأتى إلاّ بذكر نماذج من الآيات في مجالات مختلفة .

١ ـ المعارف العُلْيا

يتجلى سمو معاني القرآن في مجال المعارف بشكل واضح . فقد جاء هذا الكتاب بأسمى المطالب ، وأغزر المضامين ، في الدعوة إلى التوحيد ورفض الأصنام ، ونفي الشرك والإثنينيّة ، بل في باب إثبات الصانع ، وصفاته . مضافاً إلى ما جاء من المضامين الدقيقة الفلسفية في الدعوة إلى عالم الغيب ، وبقاء الروح بعد فناء البدن ، وحشر الإنسان وعوده إلى الحياة ، إلى غير ذلك ممّا ذكرنا بعضاً منه في الجزء الأول ، ونذكر بعضاً آخر فيما يأتي من المباحث . ولكن لأجل عرض نموذج منه نأتي في هذا المقام بآيات :

أ ـ يقول سبحانه : ﴿ أَمْ خُلِقوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمواتِ والأَرْضَ بل لا يُوقِنونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُسَيْطِرونَ ﴾(١) .

أُنظر إلى هذا البيان الجزل ، كيف يشير إلى برهان الإمكان بصورة موجزة مستحكمة لم يكن العرب ولا حكماؤهم عارفين به . وتتّضح حقيقة سمو المعنى إذا أمعنت النظر في كل شقّ من هذه الشقوق الأربعة .

ب ـ يقول سبحانه : ﴿ ما اتَّخذ الله مِنْ وَلَدٍ ، وما كَانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ ، إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بِما خَلَقَ ، وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ الله عَمَّا يَصِفونَ ﴾(٢) .

ويقول سبحانه: ﴿أَمِ اتَّخَذوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرونَ * لَوْ كانَ فِيهِما آلهةٌ إلاَّ الله لَفَسَدَتا ، فَسُبْحانَ الله رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الطور : الآيات ٣٥ ـ ٣٧ . وقد تعرضنا إلى مفاد الآيات في الجزء الأول من الكتاب .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٩١ .

(٣) سورة الأنبياء : الآيتان ٢١ و ٢٢ .

فترى أنّه يستدلّ في هذه الآيات على التوحيد في التدبير ، وأنّ النظام الجُمَلي يدار بمدبّر واحد لا غير .

ج ـ إنّ القرآن يستدلّ على إمكان المعاد وعود الإنسان إلى الحياة ثانياً بطرق مختلفة ، بشكل يقنع المتحري للحقيقة ، المتجرّد عن العناد . وإليك نظرة عابرة عليها .

فتارة يستدلّ عن طريق عموم القدرة على كل شيء ، على إمكان المعاد ، ويقول : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ المَوْتى ، إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴾(1) .

وأخرى عن طريق قياس الإعادة على الحياة الأولى ، ويقول : ﴿ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾(2) .

وثالثة عن طريق قياس إمكان إحياء الموق بإحياء الأرض ـ بعد موتها ـ بالمطر والنبات ، ويقول : ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكذلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾(3) .

ورابعة عن طريق قياس قدرة الإعادة ، على القدرة على إخراج النار من الشجر الأخضر ، ويقول : ﴿ قُلْ يُحْيِيها الَّذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَليمٌ * الذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدونَ ﴾(4) .

وخامسة عن طريق الإستدلال بالوقوع على إمكان العود . فإن أدلّ دليل على إمكان الشيء وقوعه ، ولأجل ذلك نقل سبحانه قصة بقرة بني إسرائيل(5) وحديث عُزَيْر(6)

---

(1) سورة الأحقاف : الآية ٣٣ .

(2) سورة الأنبياء : الآية ١٠٤ .

(3) سورة الروم : الآية ١٩ .

(4) سورة يس : الآيتان ٧٩ و٨٠ . وسيوافيك مفاد الآية بشكل ألطف مما ذكر كثير من المفسّرين . ورائدنا فيه التدبير في ذيل الآية .

(5) سورة البقرة : الآيات ٦٧ ـ ٧٣ .

(6) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

وسادسة عن طريق الإستدلال بالنّوْمات الطويلة التي امتدت أكثر من ثلاثمائة سنة ، فإنّ النوم أخو الموت ، ولا سيما الطويل منه ، والإستيقاظ منه يشبه تطور الحياة وتجددها[1] .

فهذا النوع من البرهنة على عقيدة هي كالعمود الفقري في باب العقائد ، ممّا لا ترى له مثيلاً في كتب الأقدمين ، فإنّ هذه المعاني البديعة إذا انضمّ إليها الإستحكام في البيان ، تبهر العقول وتدهش النفوس .

وهذا النوع من العمق وافر في الآيات الواردة حول المعارف والعقائد ، وقد اكتفينا بما ذكرناه .

* * *

٢ ـ سطوع براهينه

إنّ القرآن الكريم كتاب الهداية ، نزل للناس أجمعين ، ليبقى خالداً على جبين الدهر ، يرجع إليه كل من تحرّى الحقيقة ، وارتاد الواقع ، ولأجل ذلك اعتمد على البراهين اللامعة ، لا على الأساليب المعقّدة التي كانت ولم تزل ، رائجة بين الفلاسفة . فأخذ من المسلّمات برهاناً على النظريات ، ومن المشاهدات دليلاً على الحقائق غير المحسوسة ، كل ذلك ببيان واضح ، لا يقبل الخدش والشك : ويستلذّ به الذوق ، وتستسلم له العقول . وإليك نماذج من هذه البراهين :

١ ـ قال تعالى : ﴿ قُلْ إنْ كانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ ، فَأَنا أَوَّلُ العابِدِينَ ﴾[2] .

فلاحظ ما أحلى استدلاله على نَفْي الولد ، بأنّه لو كان له وَلَدٌ كما يقول هؤلاء ، فاللائق للاتخاذ ولداً ، هم الأنبياء والمرسلون ، الذين عبدوه ، وخضعوا له ، وأئتمروا بأمره .

---

(١) سورة الكهف : الآيات ٩ ـ ٢٩ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٨١ .

٢ ـ وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ، وَهُو أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾(١) . إذا كان الخصم معترفاً بأنّ الله هو الذي بدأ الخلق . . . إذن فالإعادة أهون من البدأة ، لأنّها من شيء ، وتلك لا من شيء .

٣ ـ وقال تعالى : ﴿ ولا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياط ﴾(٢) . فقد رتّب دخولهم الجنة على ولوج الجمل في خرم الأبرة . ولما كان ذلك أمراً ممتنعاً ، كان ذاك أيضاً مثله . فقد أبدى امتناع دخولهم الجنة بهذا الشكل القياسي بكناية بديعة .

٤ ـ وقال تعالى : ﴿ إنّا أَعْطَيْناكَ الكَوْثَرْ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾(٣) . فقد رتّب النتيجة على صغرى القياس مع حذف الكبرى لظهورها ، وهي : أنّ من أعطاه الله الكوثر ـ وهي مجموعة المكرّمات ـ فينبغي له أن يؤدّي شكره الواجب ، بالإبتهال إلى الله والمثول لديه بكل الوجود .

٥ ـ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ ﴾(٤) . قياس استثنائي مركّب من قضيّة شرطية مضمونها : ﴿ وَمَنْ أَرادَ الآخِرةَ وَسعى لها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكوراً ﴾(٥) . وأخرى حملية استثنائية مضمونها : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكري فَإِنَّ لَهُ مَعيشةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمَى * قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصيراً * قال كذلكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسيتَها وكَذلكَ اليَوْمَ تُنْسى ﴾(٦) .

---

(١) سورة الروم : الآية ٢٧ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٤٠ .
(٣) سورة الكوثر : الآيتان ١ و ٢ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ١٧٦ .
(٥) سورة الإسراء : الآية ١٩ .
(٦) سورة طه : الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦ .

٦ ـ وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قال لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾[١] . الكبرى مطوية ، أي وَكُلٌّ آفلٍ غير مستحق للعبادة .

* * *

٣ ـ بداعة التصوير والتعبير

إنّ للقرآن طريقة موحدة في التعبير يتّخذها في أداء جميع الأغراض على السواء ، حتى أغراض البرهنة والجدل ، وتلك طريقة صوغ المعاني العالية في قالب التجسيم والتمثيل . ونحبّ أن نزيد المسألة إيضاحاً بالنماذج ، وأنّه كيف يصوّر المعاني السامية والحالات النفسية ويبرزها في صور حسيّة ، من غير فَرْقٍ بين المشاهد الطبيعية ، والحوادث الماضية والقصص المروية ، ومشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب ، فيعبّر عن الكلّ كأنّها حاضرة شاخصة ، ولا شكّ أنّ هذه الطريقة تتفوق على نقل المعاني والحالات النفسية في صورها الذهنية التجريدية ، ونقل الحوادث والقصص أخباراً مروية ، والتعبير عن المشاهد والمناظر تعبيراً لفظياً لا تصويراً خيالياً . وإليك الأمثلة .

١ ـ معنى النفور الشديد من دعوة الإيمان ، يعبّر عنه بوجهين : أحدهما تجريدي ، والآخر تصويري .

فيقال في الأول : « إنّهُمْ لَيَنْفِرونَ أَشَدَّ النَّفْرَةِ مِنْ دَعْوَةِ الإيمان » . فيتملّى الذهن وحده معنى النفور في برود وسكون .

ويقال في الثاني : ﴿ فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضينَ * كأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَة * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَة ﴾[٢] فتشترك مع الذهن حاسة النظر ، وملكة الخيال ، وانفعال السخرية من هؤلاء الذين يفرون ، كما تَفر حُمُر الوحش من الأسد ، لا لشيء إلّا

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٦ .

(٢) سورة المدثّر : الآيات ٤٩ ـ ٥١ .

لأنّهم يدعون إلى الإيمان . فتأخذ النفس روعة الجمال الذي يرتسم فيه صورة شرود هذه الحمر يتبعها قسورة المرهوب .

٢ ـ معنى عجز الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله يُعَبَّر عنه بوجهين : أحدهما ذهني مجرّد ، والآخر تصويري .

ففي الأول يقال : « إنَّ ما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله لأَعْجَزُ عَنْ خَلْقِ أَحْقَرِ الأشْياء » . فَيَصِلُ المعنى إلى الذهن مجرّداً باهتاً .

وفي الثاني يقال : ﴿ إنَّ الذينَ تَدْعونَ مِنْ دونِ الله لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعوا لَهُ ، وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذوهُ ضَعُفَ الطالِبُ والمَطْلوبُ ﴾[1] .

ففي الثاني أُبرز هذا المعنى بِصُوَرٍ متحركةٍ متعاقبةٍ .

« لن يَخْلُقُوا ذُباباً » ، هذه درجة .

« وَلَوْ اجْتَمعوا له » ، هذه أُخرى .

« وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » ، وهذه الثالثة .

ففيها تصوير للضعف المُزري ، والتدرّج في تصويره بما يثير في النفس السخرية اللاذعة والإحتقار المهيب .

٣ ـ يُعَبَّر عن حالة تخلي الأولياء عن تابعيهم أمامَ هول القيامة بصورتين ، كالسابقتين . في إحداهما ، يقال : « لَقَدْ تَناكَرَ الأَصْفياءُ وتَخَلّى المَتْبوعونَ عن التابِعينَ حينما شاهدوا الهَوْل يَوْمَ الدِّينِ » .

وفي ثانيتهما ، يقال : ﴿ وَبَرزوا لله جميعاً ، فقالَ الضُّعفاءُ للذين اسْتَكْبَروا : إنّا كُنّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّا مِنْ عذابِ الله مِنْ شيءٍ ؟ قالوا : لَوْ هدانا الله لَهَدَيْناكُمْ ، سواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ

---

(١) سورة الحج : الآية ٧٣ .

مَّحِيص ﴾[1] .

ففي هذا الإستعراض يتجسم للخيال مشهدان :

الضعفاء الذين كانوا ذيولاً للأقـوياء ، وهم مـا يزالـون في ضعفهم يلجئون إلى الـذين استكبروا في الـدنيا ، يسـألونهم الخـلاص من هذا المـوقف ، ويعتبـون عليهم إغـواءهم في الحيـاة ، متمشـين في هـذا مـع طبيعتهم الهـزيلة ، وضعفهم المعروف .

والذين استكبروا ، وقد ذلّت كبرياؤهم وواجهوا مصيرهم ، وهم لا يملكون لذات أنفسهم خلاصاً ، فضلاً عن تابعيهم ، فما يزيدون على أن يقولوا لهم : « لَوْ هدانا الله لَهَدَيْناكُمْ » .

٤ ـ يُعَبِّر عن بطلان أعمال الكافـرين بأنّها : « لا وَزْنَ لَهـا ولا تَنْفَعْ » . كـما يعبر عن ضلالتهم الدائمة ، بـأنّهم : « لا مَخْرَجَ لهم منهـا ولا هاديَ لهم فيهـا » . ولكن في هذا التعبير ركود وسكون لا تَنْتَعش النفس به أبداً .

وأين هـو من التعبير القـرآني في كلا المـوردين (بطلان أعـمالهم ، وإحـاطـة الضـلالة بهم) الـذي تحيا فيـه النفس وتتحـرك ، وينتعش فيـه الحسّ والخيـال : ﴿ والَّذينَ كَفَروا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُـهُ الظَّمْـآنُ ماءً حتى إذا جـاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيئاً وَوَجَدَ الله عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ والله سريعُ الحسابِ ﴾[2] .

ويقول : ﴿ أَوْ كَظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشـاهُ مَوْجٌ ، مِنْ فَـوْقِهِ مَـوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ، ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾[3] .

ففي التعبير الثاني ـ في كلا الموردين ـ صور متينة ساحرة فيهـا روح القصة ، والخيال العميق .

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٢١ .
(٢) سورة النور : الآية ٣٩ .
(٣) سورة النور : الآية ٢٠ .

وأين للريشة في ترسيم هذه الصور لـو أُريد تصـويرهـا بالألـوان ، وإلى أين للعدسة لو أُريد تصويرها بالحركات .

بـل أين هي الريشـة ، وأين هي العـدسـة ، التي تستـطيـع أن تـبرز هـذه الظلمات : ﴿ في بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ، ظُلُمـاتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها ﴾ ؟ . أو تصوّر الظمآن يسير وراء السراب : ﴿ حتى إذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيئاً ﴾ ، ووجد مفاجأة عجيبةً لم تكد تخطر له على بال ، وجد الله عنده ، وفي سرعة خاطفة تناوله ، فوفّاه حسابه .

٥ ـ وَمِنْ هذا الوادي تصوير معنى الضلال بعد الهدى . وضياع الجهـد معه سدى ، تلك الصور المتتـابعة التي يجيش بهـا الحسّ والخيال ، وتحيىٰ بهـا النفس ، يقول سبحانه :

﴿ أُولئِكَ الذينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَـةَ بالهُـدى ، فَما رَبِحَتْ تِجـارَتُهُمْ وما كـانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنورِهِمْ وَتَـرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَـرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلونَ أَصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوْتِ والله مُحيطٌ بالكافِرينَ * يكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ ، كُلَّما أَضَـاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وإذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قاموا ، وَلَوْ شـاءَ الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصـارِهِمْ إنَّ الله على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ ﴾[1] .

إنّ هنا مشهداً من الصور المتتابعة في شرائط متحركة ؛ هؤلاء هم قد أوقدوا النار فأضـاءت ، وفجأة يـذهب الله بنورهم ويُخَيِّمُ حـولهم الظلام . أو ها هي ذي العـاصفـة صَيِّبٌ من السـماءِ فيـه ظلمات ورعـد وبـرق ، وهؤلاء هم مـذعـورون يتوقعون الصـاعقة ، ويخـافون المـوت ، فيجعلون أصابعهم في آذانهم ، ومـا تغني الأصابع في الآذان ، ولكنها حركة الغريزة في هذا الأوان . وها هو ذا البرق يخطف الأبصار ولكنه ينير الطريق لحظة ، فهم يخطون على ضوئه خطوة ، وها هوذا ينقطع فيظلّون واقفين لا يدرون كيف يَخْطون .

---

(١) سورة البقرة : الآيات ١٦ ـ ٢٠ .

لون آخر من التصوير الفني

هذه نماذج من التصوير الفني في القرآن الكريم وهناك لون آخر من التصوير يضفي على المعاني الذهنية والحالات المعنوية صوراً حسيّة . مثلاً :

١ ـ الصبح مشهدٌ مألوف متكرر ، ولكنه في تعبير القرآن حيٌّ لم تشهده من قبل عينان ، وأنّه ﴿ **الصُّبْحِ إذا تَنَفَّس** ﴾[١] .

٢ ـ والليل آن من الزمان معهود ، ولكنه في تعبير القرآن ، حي جديد ، ﴿ **والليل إذا يَسْرِ** ﴾[٢] ، وهو يطلب النهار في سباق جبّار ﴿ **يغشي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً** ﴾[٣] .

٣ ـ والظلّ ظاهرة تُشهد وتُعرف ، ولكنه في تعبير القرآن نَفْسٌ تُحَسُّ وتَتَصرّف ، ﴿ **وظِلٍّ مِنْ يَحْمومٍ * لا بارِدٍ وَلا كَريمٍ** ﴾[٤] .

٤ ـ والجدار بُنْيَةٌ جامدة كالجلمود ، ولكنه في تعبير القرآن يحسّ ويريد : ﴿ **فَوَجدا فيها جِداراً يُريدُ أنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ** ﴾[٥] .

٥ ـ والطّير أبنية حية ، ولكنها مألوفة لا تلفت الإنسان ، أمّا في تعبير القرآن فمشهد رائعٌ ، يثير الجَنان : ﴿ **أوَ لَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، ما يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ الرَّحْمٰنُ** ﴾[٦] .

٦ ـ والأرضُ والسماءُ ، والشَّمْسُ والقَمَرُ ، والجبال والوديان ، والدُور العامرة ، والآثار الداثرة ، والنبات والأشجار والأفنان ، أمواتٌ عند الناس ، لكنها في القرآن أحياء ، أو مشاهد تخاطب الأحياء ، فليس هناك جامد ولا ميت بين الجوامد والأشياء[٧] .

---

(١) سورة التكوير : الآية ١٨ .

(٢) سورة الفجر : الآية ٤ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

(٤) سورة الواقعة : الآية ٤٤ .

(٥) سورة الكهف : الآية ٧٧ .

(٦) سورة المُلك : الآية ١٩ .

(٧) ما ذكرناه اقتبسناه من « التصوير الفني في القرآن » ، للسيد قطب ، ص ١٩٣ ـ ٢٠٣ .

٤ ـ الأمثـــال

يشتمل القرآن الكـريم على أكـثر من خمسين مثـلاً في مجال هِـداية النـاس . وهذه الأمثال مع بسطاتها غزيرة المعاني ، عالية المضـامين . ونحن نـذكر في المقـام نموذجاً منها يتبلور فيه عمق المعنى بشكل آخر .

الصراع بين الحق والباطل

يصوّر القرآن الكريم الصراع القائم بين الحق والباطل بصورة مثل بديـع ، يشتمل على نكات بعيدة الأغوار ، عميقة الإشارات ، في ألفاظ قليلة ، وعبـارات متناسقة ، ويقول :

﴿ أَنْـزَلَ مِنَ السماءِ مـاءً ، فسالَتْ أَوْدِيَـةٌ بِقَدَرِهَـا ، فاحْتَمَـلَ السَّيْلُ زَبَـداً رابِياً ، ومِمَّا يُوقِدونَ عَلَيْهِ في النَّارِ ابْتغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ متاعٍ زَبَدٌ مثلُه ، كذلكَ يَضْـرِبُ الله الحَقَّ والباطِلَ ، فـأَمَّا الـزَبَدُ فَيَـذْهَبُ جُفاءً ، وأَمَّـا ما يَنْفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأرضِ ، كذلكَ يَضْرِبُ الله الأَمْثالَ ﴾[1] .

إنّ هذه الآية من أعمق الآيات القرآنية ، فهي ـ بلباس المثل ـ تطرح معـاني سامية تبين فيها مكانة الباطل من الحق . ففي هذا المثال ، تشبّه الآية كلا من الحق والباطل بأمرين :

الأول : إنّ الحق كالماء النازل من السماء ، المتجمـع في أعماق الأرض ، أو الجاري جداول وأنهاراً ، بعد انحداره من سفوح الجبال إلى الأودية والسهول .

والباطل كالزبد والرغوة التي تعلو وجه الماء حال سيلانه وانـدفاعـه ، التي لا تلبث أن تتلاشى كأنّ لم تكن شيئاً مذكوراً .

الثاني : إنّ الحق كرواسب الأتربة المعدنية المذابة في الأفران ، فإنّها خالص المعادن والفلزات .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١٧ .

والباطل كالزبد والفقاعات التي تعلو هذه الأتربة حال غليانها ، التي سرعان ما تنفجر وتتبخر .

فالصورة العامة التي يعطيها هذا المثل ، ترسيم ثبات الحق ودوامه بتشبيهه ، بالماء النازل من السماء ، الجاري في الأودية والوهاد ، الغائر في أعماق الأرض ، ثم الظاهر ، بصورة العيون والينابيع ، التي تستفيد المخلوقات منها في دوام حياتها . وبالمعادن المذابة ، الراسبِ خالصها في أعماق الأفران ، التي يستفيد منها الناس في زينتهم وأمتعتهم .

وكذلك ترسيم سرعة أُفول الباطل بعد نجومه بتشبيهه بالزبد الذي يرغو فوق الماء ، والمعادن المنصهرة ، الذي يتصوره الجاهل شيئاً ثابتاً قائماً ، ولكن ما أسرع اختفاءه وزواله ، فلا يرى منه عين ولا أثر .

وعلى ذلك فللحق ثبات ودوام ، وللباطل جولة وزوال .

ومع هذا ، ففي هذا المثل معانٍ عميقة ، وإشارات دقيقة إلى مكانة كل من الحق والباطل ، نشير إلى بعضها . .

١ ـ إنّ الحق والباطل يتمثّلان في مجال العقيدة ، في الإيمان والكُفْر ، والعَدْل والظُلم .

فبالإيمان بالله تبارك وتعالى تحيا القيم الإخلاقية ، كما أنّ بالكفر موت المثل والفضائل وانعدام الكمالات الإنسانية .

ومثل ذلك العدل والظلم ، ففي ظِلّ العدل تتفجّر الطاقات وترقى المجتمعات ، وينال كل إنسان الغاية التي يليق بها ، كما أنّ في الظُلم كبت الإستعدادات ، وتقديم المفضول وتأخير الفاضل ، ولن يزال المجتمع الظالم يتدهور إلى أن لا يرى له أثر .

فأشبه الإيمان والعدل ، الماء الذي به حياة كل شيء ، وخالص المعادن المترسب في قعر أفران الصَّهْر ، إذ عليها تعتمد حياة الإنسان الدنيوية ، وتترتب المنافع الكثيرة ، قال سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنا الحَدِيدَ فيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمنافِعُ

للنّاسِ ﴾[1] . فالحديد وأضرابه ، هو الذي يدير عجلة الحضارة ، وبفقدانه شللها التام .

وأشبه الكفر والظلم ، الزبد الذي يرغو على وجه الماء والمعادن المنصهرة ، لا يستفاد منه ولا يعتمد عليه في شيء .

٢ ـ إنّ الباطل ربما يصير حجاباً عن الحق ، فيكون مانعاً بينه وبين طالبه ولكن هذا الحجاب سرعان ما يزول ويتجلى وجه الحقيقة بصورته الواقعية ، تماماً كما أنّ الزبد يعلو وجه الماء ويوجب برغوته حدوث غشاوة ساترة لما تحته ، والإنسان الجاهل يحسب أن لا شيء تحته سوى العفن والطين والتراب ، ولكن سرعان ما تخمد رغوته ، وتنقشع غشاوته ، ويتجلى الماء صافياً زلالاً ، أو الأتربة المنصهرة ، معادن وفلزات نفيسة ونافعة .

فالأفكار الإلحادية ربما تستر وجه الحق ، وتحول بينه وبين طالبه ، لكن تعلقت مشيئته سبحانه على إحقاق الحق ومحو الباطل .

قال سبحانه : ﴿ وَيَمْحُو الله الباطِلَ ، ويُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البـاطِـلُ ، إِنَّ البـاطِـلَ كـانَ زَهُوقاً ﴾[3] .

٣ ـ إنّ الوجود النازل من عنده تعالى على الموجودات ، خال في نفسه عن الصور والأقدار ، وإنّما يَتَقَدَّر من ناحية الأشياء ، أنفسها ، كماء المطر النازل من السحاب على ساحة الأرض، خال في نفسه عن الصور والأقدار ، وإنّما يحتمل من القدر والصورة ما يطرء عليه من ناحية قوالب الأودية ، ومجاري الأنهار ، والسواقي ، والأحواض والبرك والمستنقعات ، المختلفة في الأقدار والصور .

فالحق فيض إلهي ، يأخذ منه كل إنسان بحسب لياقته وسعة ذهنه . فمن

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .
(٢) سورة الشورى : الآية ٢٤ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٨١ .

الناس من يكون واسع الصدر ، كامل الإستعداد فيأخذ منه القسط الأكبر ، ومنهم من لا يزيدون عن معشار ذلك .

ويُلَوّح إلى ما ذكرنا آيات كثيرة ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إلاَّ عِنْدنا خَزائِنُهُ وما نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلومٍ ﴾[1] .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « إنّ هذه القلوب أوعيةٌ ، فخيرها أوعاها »[2] .

٤ ـ إنّ الباطل في ثورانه وجولانه في أمده القصير ، فرع اعتماده على الحق ، واتّخاذه واجهة لأعماله . فلو تجرّد عن الحق بالكلية ، لما كان له حتى هذا السهم القصير ، كالزبد لا يتجلى إلاّ بركوبه الماء ، كما أشار إليه سبحانه بقوله : ﴿ فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً ﴾[3] .

٥ ـ إنّ الباطل لا يظهر إلاّ في الأجواء الصاخبة والمجتمعات المتضاربة . كالزبد الذي لا يظهر إلاّ عند تدفق المياه واجتياحها القنوات الضيقة ، فإذا انتهت إلى السهول الفسيحة ، زال الزبد شيئاً فشيئاً ، ولا يبقى بعده إلاّ الماء الزلال . وكذلك الزبد الناجم عند عملية الصهر ، فطالما أنّ المعادن في حالة الغلي والفَوران يكون الزبد على وجهها ، فإذا هدأت النار وتوقف الغليان لم يبق إلاّ المعادن الخالصة .

فهذه بعض التصويرات للمفاهيم القيمة العميقة التي جاءت بها هذه الآية المباركة على وجازتها ، وكلما تعمّق الإنسان فيها انفتحت له أبواب من المعارف

---

(١) سورة الحجر : الآية ٢١ .

(٢) نهج البلاغة ، قِصار الكَلِم ، رقم ١٤٧ .

(٣) خذ على ذلك شاهداً ما يستتر به الرأسماليون في نهبهم لثروات بلدانهم من الأقنعة الحقة ، كإنشاء النقابات لعمّالهم ، والضمان الإجتماعي وضمان الشيخوخة والتقاعد ، وغير ذلك الكثير . وما تتستر به الحكومات الإستعمارية من عناوين حقة ، كرعاية حقوق الإنسان ، ونبذ التمييز العنصري ، ومكافحة الإرهاب ، وحرية الرأي والتعبير ، وغير ذلك ، وكله لتغطية الوجه القبيح لإرهابهم وامتصاصهم لثروات الشعوب المستضعفة ، وتضعيف عقائدهم ، والمسّ بمقدساتهم . . .

العُلْيا ، والحقائق السامية ، وأقرَّ بأنّ هذا القرآن : « باطنه عميق » ، وأنّ « أعلاه لمثمر ، وأسفله لمُغْدق » .

* * *

٥ ـ آية تحتمل مليوناً ومائتين وستين ألف احتمال

هناك نمط آخر من عمق المعنى ، يغاير النمط السابق منه ، وهو أنّه يوجد في القرآن آيات يتردد المقصود منها بين احتمالات تدهش العقول وتحيّر الألباب ، وهي بَعْدُ معتمدة على أريكة حسنها ، متجملة في أجمل جمالها ، متحلية بحليٍّ بلاغتها وفصاحتها . ونذكر من هذا النمط نموذجاً واحداً ، ونشير في آخر الكلام إلى نموذج آخر :

قال سبحانه : ﴿ واتَّبَعوا ما تَتْلو الشَّياطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ وما كَفَرَ سُلَيْمانُ ولكِنَّ الشياطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمونَ الناسَ السِّحْرَ وما أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ بِبابِلَ ، هاروتَ وماروتَ وما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ ، فلا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاّ بِإِذْنِ الله ، وَيَتَعَلَّمونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِموا لَمَنِ اشْتَراهُ مالَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانوا يَعْلَمونَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ آمنوا واتَّقَوْا لَمَثوبَةٌ مِنْ عِنْدِ الله خَيْرٌ لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ ﴾[١] .

إنّ هذه الآية تحتمل من المعاني الكثيرة ما يدهش الإنسان ويثير إعجابه ، وهي ناشئة من كيفية تبيين مفرداتها وجملها . وهذه الإحتمالات يراها المتتبع في كتب التفاسير ، وهي :

١ ـ ما هو المراد من الضمير في قوله : « اتّبعوا » ، أهم اليهود الذين كانوا في عهد سليمان ، أو الذين في عهد رسول الله ، أو الجميع ؟ .

---

(١) سورة البقرة : الآيتان ١٠٢ و١٠٣ .

٢ ـ ما هو المراد من قوله :﴿ تتلو ﴾، فهل هـو بمعنى تتبع ، أو بمعنى تقـرأ ، أو بمعنى تكذب ؟ .

٣ ـ ما هو المراد من الشياطين : فهل هم شياطين الجن أو شياطين الإنس أو كلاهما ؟ .

٤ ـ ماذا يراد من قوله :﴿ على ملك سليمان ﴾، فهـل هو بمعنى : « في ملك سليـمان » ، أو : « في عهد ملك سليـمان » ، أو : « عـلى ملك سليـمان » ،بحفظ ظاهر الإستعـلاء الموجـود في معنى على ، أو بمعنى : « عـلى عهد ملك سليـمان » ، كذلك ؟ .

٥ ـ مـا هو المـراد من قـولـه :﴿ ولكن الشيـاطين كفـروا ﴾ .أهـو بمعنى : « كفروا بما أخرجوه من السحر إلى الناس » ، أو بمعنى : « إنّهم كفروا بما نسبوه إلى سليمان من السحر » ، أو بمعنى : « إنّهم سحروا » ، فعبر عن السحر بالكفر ؟ .

٦ ـ مـاذا يراد من قـوله :﴿ يعلّمـون الناس السحـر ﴾ ،فهـل هـو بمعنى : « ألقـوا السحر إليهم فتعلمـوه » ، أو بمعنى : « إنّهم دلّـوا النـاس عـلى استخـراج السحر » ، وكان مدفوناً تحت كرسي سليمان فاستخرجوه وتعلّموه ؟ .

٧ ـ ما هو المراد من « ما » في قوله :﴿ ما تتلو ﴾. فهل هي موصولـة عطفت على قوله : « السحر » ، أي « يعلمونهم ما أنزل على الملكين » . أو نافيـة ، والواو استئنافية ، أي « ولم ينزل على الملكين سحرٌ كما يدّعيه اليهود » ؟ .

٨ ـ ماذا يراد من قوله :﴿ أُنزل ﴾ .فهل المـراد « إنزال من السـماء » ، أو : « من نجود الأرض وأعاليها » ؟ .

٩ ـ ماذا يراد من قوله :﴿ الملكين ﴾ . فهل كانا من ملائكة السماء ، أو كانا إنسـانين مِلكَـين (بكسر الـلام) ، كـما في بعض القـراءات ، أو مَلَكَـيْنِ (بفتـح اللام) أي صالحين ، أو متظاهِرَيْن بالصلاح ؟ .

١٠ ـ ما هو المراد من قوله :﴿ ببابـل ﴾ ، فهل هي بـابل العـراق ، أو بابـل دماوند ، أو من نصيبين إلى رأس العين ؟ .

١١ ـ ماذا يراد من قوله :﴿ وما يعلمان ﴾ . فهل « علم » بمعناه الظاهـر ، أو بمعنى « أعلم » ؟ .

١٢ ـ ماذا يراد من قوله :﴿ فـلا تكفر ﴾ . فهـل المراد : « لا تكفـر بالعمـل والسحر » ، أو المراد : « لا تكفر بتعلمه » ، أو كلاهما ؟ .

١٣ ـ ماذا يراد من قوله :﴿ فيتعلمون منهما ﴾، فهل المراد : « يتعلمـون من هاروت وماروت » ، أو المراد : « يتعلمون من السحـر والكفر » ، أو المـراد النهي إلى فعله ؟ .

١٤ ـ ما هو المراد من قوله : ﴿ يفرّقون به بـين المرء وزوجـه ﴾ فهل أُريـد منه أنّهم يوجِدون به حبّاً وبُغضاً بينهما ، أو أنّهم يغرون أحد الزوجين ويحملونه على الكفر والشرك فَيْفَرِّق بينهما اختلاف الملة والنحلة . أو أنّهم يسعـون بينهما بـالنميمة والوشاية فيؤول إلى الفرقة ؟[١] .

فهـذه احتـمالات تحتملهـا الآيـة . وأنت إذا ضربت عـدد الإحتـمالات التي ذكـرناهـا في بعضها ارتقى عـدد الإحتـمالات إلى كمية عجيبـة تقـرب من مليـون وماءتين وستين ألف احتمال[٢] .

وليست هذه الآية وحيدة في بابها ، وإن كانت قليلة النـظير ، بل لهـا نظائـر منها قوله سبحانه :

﴿ أَفَمَنْ كانَ على بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلوهُ شـاهِدٌ مِنْـهُ ، وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُـوسى إماماً وَرَحْمَةً ، أُولئِكَ يُؤْمِنونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحْزابِ فالنَّارُ مَوْعِدُه ، فَلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِنْهُ إنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنونَ ﴾[٣] .

---

(١) لاحظ الميزان ، ج ١ ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

(٢) وهـو حـاصـل ضرب الإحتـمالات المـذكـورة وصـورتهـا الـريـاضيـة : $٢^{٤} \times ٣^{٩} \times ٤ = ١٢٥٩٧١٢$ احتمالاً . والمراد من $٢^{٤}$ ، ٢ مضروب في نفسهـا أربع مـرات و $٣^{٩}$ ، ٣ مضروب في نفسها تسـع مرات . نعم الكثير من الإحتمالات ربما لا تتناسق مع بعضها ، فينخفض عدد احتمالات التفسيـر الصحيحة .

(٣) سورة هود : الآية ١٧ .

فـإنّك لـو تفحصت الإحتمالات التي ذكـرهـا المفسّرون لمفـرداتهـا وجملهـا ، لوقفت على أنّ الآية تحتمل من المعاني ما يدهش العقول .

قال العلاّمة الطباطبائي : « وأَمْرُ الآية فيها يحتمله مفردات ألفاظها وضمائرها عجيب ، فلو ضرب بعضهـا في بعض يـرتقى عـدد الإحتـمالات إلى أُلـوف منهـا ، بعضُها صحيح وبعضها غير صحيح »[1] .

وقد ذكر هـو قدس سرّه أُصـول الإحتمالات في تفسـيره ، فمن أراده فليرجع إليه .

* * *

(١) الميزان ، ج ١٢ ، ص ١٤٢ ، طبعة طهران .

دعائم إعجاز القرآن

(٣)

النظم : رصانة البيان واستحكام التأليف

تعريف النظم

١ ـ النظم هو لجام الألفاظ ، وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضها ببعض ، فتقوم له صورة في النفس ، يتشكل بها البيان .

٢ ـ النَّظْمُ هو وضع كلّ لفظ في موضعه اللائق به ، بحيث لو أُبدل مكانه غيره ، ترتب عليه إمّا تبدل المعنى ، أو ذهاب رونقه وسقوط البلاغة معه .

٣ ـ النظم هو رعاية قوانين اللغة وقواعدها ، على وجه لا يكون الكلام خارجاً عمّا هو المرسوم بين أهل اللغة .

هذه تعاريف ثلاثة للنظم ، غير أنّ المقصود منه هنا هو تماسك الكلمات والجمل ، ووضع كل كلمة مكانها . وأمّا رعاية القوانين ، فهي وإن كانت دخيلة في تحقق النظم ـ فإنّ الكلام الخارج عن إطارها متخلخل ـ غير أنّ القرآن أرفع شأناً من أن يعرض على القواعد ، بل هي تعرض عليه ، كما تقدم . ولأجل ذلك نركّز في النظم على الأمرين الأولين ، الإنسجام أولاً ، ووضع كل كلمة مكانها ، ثانياً .

وقد أعطى الشيخ عبد القاهر الجرجاني للنظم القسط الأوفر من إعجاز القرآن ، بل جعله السبب الوحيد فيه ، وقال ـ بعد ردّ كل ما يمكن أن يكون وجهاً

للإعجاز ـ: « فلم يَبْقَ إلاّ النظم ، وليس هو شيئاً غير توخي معاني النحو ، وأحكامه . وإنّا إن بقينا الدهر نُجهد أفكارنا حتى نعلم للكلم المفردة سلكاً ينظمها ، وجامعاً يجمع شملها ، ويؤلفها ، ويجعل بعضها بسبب من بعض ، غير توقّي معاني النحو وأحكامه فيها ، طلبنا ما كلٌّ محال دونه »[1] .

وكلامه هذا لا ينافي ما ذكرناه ، لأنّه يرمي إلى أنّ الإنسجام التام بين جمل الآية حصل في ظل تحقيق هذه القواعد ورعايتها فيها .

وقال الزملكاني : « إنّ وجه الإعجاز يرجع إلى التأليف الخاص به ، بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزِنَةً ، وعلت مركباته معنىً ، بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى »[2] .

ثم ليعلم أنّ الكلام يقوم على ثلاثة أشياء :

١ ـ لفظ حامل .
٢ ـ معنى قائم باللفظ .
٣ ـ ورباط لهما .

وهذه الأمور الثلاثة توجد في القرآن على الوجه الأحسن ، فالألفاظ عذبة (الدعامة الأولى) ، والمعاني سامية وراقية (الدعامة الثانية) ، والكلمات والجمل مترابطة ومتلاحمة أشدّ التلاحم والتشاكل ، وهذه هي الدعامة الثالثة التي نبحث فيها .

ونحن نبحث في تبيين النظم القرآني في مقامين :

الأول : إنسجام الجمل والكلمات ، وتعانقها .

الثاني : وضع كل كلمة موضعها .

* * *

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٣٠٠ . وثلاث رسائل ، الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١٨٤ .
(٢) الإتّقان في علوم القرآن ، ج ٤ ، ص ٨ .

١ ـ تجاذب الكلمات وتعانق الجمل

إنّ القرآن بلغ من ترابط أجزائه ، وتماسك كلماته وجمله وآياته ، مبلغاً لا يدانيه فيه أي كلام آخر ، مع طول نَفَسه ، وتنوع مقاصده ، وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد . وآية ذلك أنّك إذا تأمّلت في القرآن الكريم ، وجدت منه جسماً كاملاً ، تربط الأعصاب والأغشية بين أجزائه ، ولمحت فيه روحاً عاماً يبعث الحياة ، والحسن ، على تشابك وتساند بين أعضائه .

فبين كلمات الجملة الواحدة من التآخي والتناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب . وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة متآخذة الأجزاء ، متعانقة الآيات . ولأجل ذلك يقول سبحانه : ﴿ قُرآناً عربياً غَيْرَ ذي عِوَجٍ ﴾[١] .

والآيات القرآنية ، وإن كانت كلّها مظاهر لهذا الإنسجام ، كما يلاحظه التالي لها ، غير أنا نختار من بينها آية تشع نوراً بين الآيات في حسن الإنسجام وروعة النظم ، كأنّها سبيكة واحد ، مع طولها ، وكثرة جملها ، وغزارة معانيها .

يقول سبحانه : ﴿ الله لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيّومُ ، لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ، لَهُ ما في السَّمواتِ وما في الأَرْضِ ، مَنْ ذا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ ولا يُحيطونَ بِشيءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمواتِ والأَرْضَ وَلاَ يَؤُدُّهُ حِفْظُهُما وَهُوَ العَلِيُّ العَظيمِ ﴾[٢] .

وبما أنّ مسألة الترابط والتآخي في الآيات القرآنية واضحة لمن أمعن فيها ، فلذلك نطوي الكلام عن الإكثار فيها ، ونعطف نظر الباحث إلى نمط خاص من النظم :

---

(١) سورة الزمر : الآية ٢٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

نمط خاص من النظم في بعض الآيات

إنّ الأهرام التي أقامها فراعنة مصر ، فكانت إحدى عجائب الدنيا ، قد بنيت حجراً على حجر دون أن تتماسك أحجارها بأيّة مادة غريبة دخلت بينها ، وإنّما كان تماسكها تماسكاً ذاتياً ، وتجاذباً أحكمته هندسة البناء ، فاستدعى الحجر صاحبه إليه ، واعتنقه في تآلف وترابط . وإنّه بقدر ما كان بين هذه الأحجار من روابط ذاتية ، بقدر ما يكون لها من ثبات وروعة على الزمن ،ولكنها ـ مع هذا ـ صنعة إنسان ، مقدور عليه الفناء ، وإذن فلا خلود لها ، لأنّ الفاني لا يخلق إلاّ فانياً .

فكان من إعجاز القرآن أن أقام أبنية من النظم الكلامي غير مستندة إلاّ على ما بينها من تناسق هندسي ، وتجاذب روحي ، وترابط الكلمات ، وتعانق الآيات ، أحكمه الحكيم العليم ، وقدّره اللطيف الخبير .

وإليك نماذج من هذا النوع من النظم :

١ ـ يقول سبحانه : ﴿ الٓمٓ * ذٰلِكَ الكِتابُ ، لا رَيْبَ فيهِ ، هُدىً للمُتَّقِين * الذينَ يُؤمِنونَ بالغَيْبِ ﴾[1] ..

هذه جمل أربع لم يتوسط فيها حروف العطف ، حتى تعطف بعضها على بعض وتجعل منها كياناً واحداً . ومع ذلك نرى فيها من التلاحم والتناسق ما يجعلها تبدو جملة واحدة ، بل كلمة واحدة .

٢ ـ يقول سبحانه : ﴿ الرَّحْمٰنُ * عَلَّمَ القرآنَ * خَلَقَ الإنْسانَ * عَلَّمَهُ البَيانَ * الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبانٍ ﴾[2] .

فهذه الآيات تراها كأنّها جملة واحدة في اتّساقها وتجاذبها ،وتعانقها لفظاً ومعنى . فإنّها تساوقت ألفاظها ، وتناغمت حروفها في هذا النغم العُلْوي ، كما

(١) سورة البقرة : الآيات ١ ـ ٣ .

(٢) سورة الرحمن : الآيات ١ ـ ٥ .

تآخت معانيها وتناسبت فكانت نبعاً سماوياً يتدفق في تسلسل وترابط ، لا ترى العين منه إلّا كياناً واحداً من منبعه إلى مصبّه .

٣ ـ يقول سبحانه : ﴿ سَأَلَ سائِلٌ بِعذابٍ واقِعٍ * للكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ * مِنَ الله ذي المعارِجِ ﴾[(١)] .

فليس في هذه الآيات حرف عطف يجمع كلمة إلى كلمة ، أو آية إلى آية . وهي مع هذا يسودها التلاحم والتآخي والتساند ، يجذب بعضها بعضاً . فهناك سائل يسأل ، وموضوعُ سؤالِهِ عذابٌ واقع ، والذين وقع بهم العذاب هم الكافرون ، وهو عذاب لا يدفع ، لأنّه عذابٌ من الله ذي المعارج .

* * *

٢ ـ وضع كلّ كلمة في موضعها

إنّ لكل نوع من المعنى ، نوعاً من اللفظ هو به أولى وأصلح ، وضروباً من العبارة ، هي بتأديته أقوم ، ومأخذاً إذا أُخذ منه كان إلى الفهم أقرب وبالقبول أَلْيَقْ ، وكان السمع له أوعى ، والنفس إليه أميل .

إنّ في لغة العرب ألفاظاً متقاربة في المعاني ، ربما يحسب غير المطّلع ترادفها ، وتساويها في إفادة المقصود ، كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشُّح ، والقعود والجلوس ، حتى بين الحروف كـ « بلى » و« نعم » ، وغير ذلك من الأسماء والأفعال . فإنّ لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها ، وإن كانا يشتركان في بعضها .

وقد اهتمّ القرآن ، باستعمال كل كلمة في موضعها بحيث لو أُزيلت الكلمة وأُقيمت مكانها ما يظن كونه مرادفاً لها ، لفسد المعنى ، وزال الرونق .

ولأجل إيقاف الباحث على هذا النوع من النظم ، نأتي بنماذج :

---

(١) سورة المعارج : الآيات ١ ـ ٣ .

١ ـ نرى أنّه سبحانه يأمر عبده بحمده ، ويقول : ﴿ وَقُلِ الحَمْدُ لله الذي لَمْ يَتَّخِذْ ولداً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلْكِ ﴾[1] .

وفي موضع آخر يأمر بالشُكر ويقول : ﴿ إِعْمَلوا آل دَاوُدَ شُكْراً ﴾[2] .

وما هذا إلاّ لأنّ الحمد هو الثناء على الجميل ، والشكر هو الثناء في مقابل المعروف ، فالحمد ضد الذم ، والشكر ضد الكفران . وبما أنّه سبحانه يصف نفسه في الآية الأولى ، بقوله : « الذي لم يتخد ولداً » ، فناسب الأمر بالحمد . وبما أنّه يذكر معروفه وإحسانه على آل داود في الآية الثانية ، ناسب الأمر بالشكر على المعروف .

٢ ـ نرى أنّه سبحانه يستعمل كلمة السهو تارة بلفظة « في » ، ويقول : ﴿ قُتِلَ الخَرّاصونَ * الذينَ هُمْ في غَمْرَةٍ ساهونَ ﴾[3] .

وأخرى بلفظة « عن » ويقول : ﴿فَوَيْلٌ لِلمُصَلِّينَ * الذينَ هُمْ عَنْ صلاتِهِمْ ساهونَ ﴾[4] .

وما هذا إلاّ لأنّ المراد من الآية الأولى أنّ الغفلة تعلوهم وتغمرهم ، وأنّهم في ضلالتهم متمادون ، فناسب لفظة « في » الدالّة على الظرفية . ولكن المراد من الآية الثانية هو السهو عن نفس الصلاة وعدم الإتيان بها في مواقيتها فناسب لفظة « عن » ، ولو كان المراد السهو في نفس الصلاة ، كأن لا يدري المصلي أنّه في شفع أو وتر ، لقال « في صلاتهم » .

٣ ـ يقول سبحانه عن لسان إخوة يوسف : ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وما أَنْتَ بمُؤْمِن لنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ ﴾[5] . مع أنّ الرائج في فعل السباع هو الإفتراس لا

(١) سورة الإسراء : الآية ١١١ .
(٢) سورة سبأ : الآية ١٣ .
(٣) سورة الذاريات : الآيتان ١٠ و ١١ .
(٤) سورة الماعون : الآيتان ٤ و ٥ .
(٥) سورة يوسف : الآية ١٧ .

الأكل ، وما هذا إلّا لإفادة أنّ الذئب أتى على جميع أجزاء يوسف وأعضائه ، فلم يترك منه شيئاً ، حتى لا يطالبهم والدهم بالإتيان ببقية أجزاء بدنه .

٤ ـ يقول سبحانه عن لسان عبدة الأصنام : ﴿ وانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا واصْبِروا على آلِهَتِكُمْ ، إنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ ﴾[١] . ولم يقل : « ان امضوا وانطلقوا » ، وذلك لإفادة أنّ الدفاع عن الآلهة أمر يطابق سجيتهم ، كالمشي وراء الحوائج .

٥ ـ يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُ ما سَكَنَ في اللَّيلِ والنَّهارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَليمُ ﴾[٢] ، مع أنّ لله سبحانه ما سكن فيها وما تحرك . وما ذلك إلّا لأنّه ليس المراد من السكون ما يضاد الحركة ، وإنّما المراد من السكون هو الإستقرار في نظام العالم ، سواء كان متنقلاً عن موضعه أو ساكناً فيه .

فالسكون في الآية ، نظيره في قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنوا إليها ﴾[٣] . فليس المراد من السكون فيها الإستقرار بلا حراك ، بل الطُمأنينة الروحية .

ولأجل ذلك لو وضعت مكان « سَكَنَ » أي كلمة أخرى ترادفها ، مثل « خَمَدَ » ، « استَقَرّ » ، « وَقَفَ » ، تخرج الآية من روعتها ، وربما يفسد المعنى .

وبذلك ينفتح بابٌ واسعٌ للدِّقةِ في نَظْمِ القرآن ، فنأتي بنموذجين مع إحالة الإجابة عنهما إلى الباحث الكريم ، ليقف على جوابها بالإمعان .

٦ ـ يقول سبحانه : ﴿ وَجَنا الجَنَّتَينْ دانٍ ﴾[٤] ولم يقل « قريب » ، « حاضر » أو « عتيد » ، لماذا ؟ .

٧ ـ يقول سبحانه ـ حاكياً عن زكريا ـ : ﴿ إنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي ﴾[٥]

---

(١) سورة ص : الآية ٦ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ٣١ .
(٣) سورة الروم : الآية ٣١ .
(٤) سورة الرحمن : الآية ٥٤ .
(٥) سورة مريم : الآية ٤ .

يقل « فتر » ، « ضعف » أو« تخاذل » ، لماذا ؟ .

وبعد هذا ، تقف على سبب ما اشتهر بين أئمة البلاغة من أنّ الكلمة في نظم القرآن ، تأخذ أعْدَلَ مكانٍ في بناء هذا البُنْيان ، ولا يصلح للحلول مكانها أي كلمة أُخرى ، لاستلزامه إما فساد المعنى ، أو عدم إفادة المقصود ، وإنِ اشْتَهَر في وضع اللغة قيام المترادفات مقام بعضها .

* * *

هل في القرآن سَجع ؟

من الملاحظ ، أنّ كثيراً من آيات القرآن الكريم ، تختم بفواصل فيها حروف متشاكلة في المقاطع ، فهل هو من السجع أوْ لا ؟ .

ربما يرى بعض الأساتذة عدم اشتمال القرآن على السجع ، بحجة أنّ الفواصل غير الأسجاع ، لأنّ شأنَ القرآن أرفع من أن يُسجع فيه ، فإنّ السجع مأخوذ من سجع الحمامة ، وليس فيه إلاّ الأصوات المتشاكلة[1] .

يلاحظ عليه : إنّ إنكار السجع في بعض السور القصار ، خلاف الإنصاف ، غير أنّ السجع على قسمين ، ونربأ بالقرآن عن اشتماله على السجع الذي يكون المعنى فيه تابعاً له ، دون السجع الذي يكون تابعاً للمعنى .

فالأول مردود ، وهو السائد في الخطب الرائجة أيام الأُمويين والعباسيين .

وأمّا الثاني فهو يوجب حسناً في الكلام ، لأنّه على عفو الخاطر ، يأتي به المتكلم مرتجلاً بلا تكلّف ، كما هو الملموس في خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

وقد نبّه ابن سنان الخفاجي على هذه النكتة حيث قال ، ردّاً على الرماني : « إنّه إنْ أراد بالسجع ، ما يكون تابعاً للمعنى ، ـ وكأنّه غير مقصود ـ فذلك

---

(١) لاحظ النكت في إعجاز القرآن ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

بلاغة ، وفواصل الآيات مثله ، وإن كان يريد بالسجع مـا تقع المعـاني تابعـة له ، فذلك عيب ، وأظن أنّ الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فـواصل ، ولم يسمـوا ما تمـاثلت حروفـه سجعاً ، هـو رغبتهم في تنزيـه القرآن عن الـوصفـ اللاحق بغيره من الكلام المروي عند الكهنة وغيرهم »[1] .

* * *

=

(١) سرّ الفصاحة ، ص ٢٤٧ .

دعائم إعجاز القرآن

(٤)

الأسلوب : بِداعة المنهج وغرابة السبك

الأسـاليب السائـدة في كلام العـرب عصر نزول القـرآن ، كانت تـتردد بين أسلوب المحـاورة ، وأسلوب الخـطابـة ، وأسلوب الشعـر ، وأسلوب السجـع المتكلف الموجود في كلام العرّافين والكُهّان .

فالأسلوب المحاوري ، هو الأسلوب المتداول في المكـالمات اليـومية في رفـع الحوائج ، وتيسير الأمور المعيشية . وهذا الأسلوب دارج في كـل لغة ، ولم يكن في العرب بدعاً منهم ، فلم يكن كلامهم عند البيع والشراء ، والمعاشرة مثل كـلامهم في مقام الخطابة ، وإظهار المناقب والفضائل .

والأسلوب الخطابي ، هو الأسلوب الرائج بـين خطَبـاء العرب وبُلغـائهم . ويكفينا مؤنة بيانه ، التأمل في النموذجين التاليين لأشهر خطباء الجاهلية .

١ ـ وقف قس بن ساعدة في سوق عُكاظ ، وخطب : « أيّها النـاس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تَزْخر ، وجبال مُـرْساة ، وأرض مُدْحاة ، وأنهار مُجراة ، إنّ في السماء لخبرا ، وإنّ في الأرض لعبرا ، مـا بال النـاس يذهبون ولا يرجعون ، أَرَضوا فأقاموا ، أم تُرِكوا فناموا ؟[١] .

---

(١) صبـح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢١٢ . وإعجـاز القـرآن ، ص ١٢٤ . البيـان والتبيـين ، ج ١ ،

٢ ـ وخطب المأمون الحارثي في قومه ، فقال : « أرعوني أسماعكم ، وأصغوا إليَّ قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد ؛ طمح بالأهواء الأشر ، وران على القلوب الكدر ، وطخطخ[1] الجهل النظر ، إنّ فيما ترى لَمُعْتَبَراً لمن اعتبر ، ارض موضوعه وسماء مرفوعة ، وشمس تَطْلُعُ وَتَغْرُبُ ، ونجوم تسرى فَتَعْزُبُ ، وقمر تطلعه النور ، وتَمْحَقُه أدبار الشهور[2] .

ويرى هذا الأسلوب في خطب النبي وعليّ عليهما السلام في مواقف مختلفة .

والأسلوب الشعري ، هو الأسلوب المعروف المبني على البحور المعروفة في العَروض .

وأمّا أسلوب السجع المتكلف ، فقد كان يتداوله الكهنة والعرّافون ، كما تراه في قول ربيع الذئبي الشهير بسطيح لابن اخته عبد المسيح حول علامات ظهور النبي العربي : « يسيح عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أقبل إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاج الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا المؤبذان ، رأى إبلا صعابا ، تقود خيلا عراباً ، حتى اقتحمت الواد ، وانتشرت في البلاد »[3] .

ولكن القرآن جاء بصورة من صور الكلام على وجه لم تعرفه العرب ، وخالف بأسلوبه العجيب وسبكه الغريب ، جميع الأساليب الدارجة بينهم ، ومناهج نظمهم ونثرهم .

ولأجل ذلك لم تتعامل معه العرب معاملة شعر أو نثر ، بل أنصف المنصفون منهم بأنّه واحد نفسه في أسلوبه وسبكه .

= ص ١٦٨ . الأغاني ، ج ١٤ ، ص ٤٠ . العَقْد الفريد ج ٢ ، ص ١٥٦ . ومجمع الأمثال للميداني ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(١) أي غلب .

(٢) الأمالي ، لأبي علي القالي ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

(٣) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٢ والعقد الفريد ، ج ١ ، ص ١٠٨ . والسيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ٧٠ . والمختصر في أخبار البشر ، لأبي الفداء ، ج ١ ، ص ١١٠ .

كان العرب يعرفون الأساليب الأربعة السالفة ، ولكنهم لم يعرفوا الأسلوب القرآني الذي يأخذ فيه الكلام صورة خاصة ، تأتي فيها الآيات ، وتختم كل واحدة منها بفاصلة ذات نظم ورنين ، فيجد الصدر لذلك راحة عند الوقوف على الفاصلة .

إنّ الأسلوب القرآني الذي تفرّد به ، كان أبين وجه من وجوه الإعجاز ، في نظر الباحثين عن إعجازه ، وإن جعلناه أحد الأسس الأربعة التي يبنى عليها صرح الإعجاز القرآني .

ولأجل أهمية الأسلوب في رفع القرآن إلى درجة الإعجاز ركّز القاضي الباقلاني عليه وحصر وجه إعجازه فيه ، وقال : « وجه إعجازه ما فيه من النظم والتأليف والترصيف[1] وأنّه خارج عن وجوه جميع النظم المعتاد في كلام العرب ومبائن لأساليب خطاباتهم ، ولهذا لم يمكنهم معارضته » .

وأضاف : « ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من أصناف البديع التي أودعوها في الشعر ، لأنّه ليس ممّا يخرق العادة ، بل يمكن استدراكه بالعلم والتدريب والتصنع به ، كقول الشعر ، ورصف الخطب ، وصناعة الرسالة ، والحذق في البلاغة ، وله طريق تسلك . فأمّا شأو نظم القرآن ، فليس له مثال يحتذى ، ولا إمام يقتدى به ، ولا يصحّ وقوع مثله اتّفاقاً »[2] .

وممّن حصر وجه إعجاز القرآن بأسلوبه الراقي هو الأصفهاني ـ على ما حكاه السيوطي ـ فإنّه بعدما أشار إلى أقسام الكلام من المحاورة ، والنثر المسجع ، والشعر ، قال : « ولكل من ذلك نظم مخصوص ، والقرآن جامع لمحاسن الجميع ، على نظم غير نظم شيء منها ، يدلّ على ذلك أنّه لا يصح أن يقال له : « رسالة » ، أو « خطابة » ، أو « شعر » ، أو « سجع » . كما يصح أن يقال هو كلام . والبليغ إذا قرع القرآن سمعه ، فصل بينه وبين ما عداه من النظم ، ولهذا

---

(١) مراده من النظم والتأليف والترصيف هو الأسلوب لا النظم الذي اصطلحنا عليه في الدعامة الثالثة ، كما يظهر من القرائن

(٢) الإتقان في علوم القرآن ، ج ٤ ، ص ٨ .

قـال تعالى : ﴿ وإِنَّـهُ لكِتـابٌ عَـزيـزٌ * لا يَـأْتِيـهِ البـاطِـلُ مِنْ بَـيْنِ يَـدَيْـهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾[1] ، تنبيهاً على أن تأليفه ليس على هيئـة نظم يتعـاطاه البشر ، فيمكن أن يغير بالزيادة والنقصان كحال الكتب الأخرى »[2] .

وممّا يدلّ على أنّ القرآن ليس كلام النبي الأعظم هـو وجود البـون الشاسـع بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي . فمن قـارن آية من القـرآن الكريم مـع الأحاديث القـطعية الصـادرة منه صـلى الله عليه وآلـه ، أحس مدى التفـاوت البعيد بين الأسلوبين ، وآمن بأنّ أسلوب التنـزيل يغـاير أسلوب الحـديث . وهذا يدلّ على أنّ القرآن ينزل من عالم آخر عـلى ضمير النبي ، بينـما الحديث يتكلم بـه النبي من إنشاء نفسه .

وعـلى الجملة ، جاء القـرآن في ثوب غـير الأثـواب المعـروفـة للكـلام عنـد العرب ، وفي صورة غير الصور المـألوفـة ، جاء نسيـج وحده ، وصـورة ذاته ، لا يشبه غيره ، ولا يشبهه غيره . فلا هو شعر ، ولا هو نـثر ، ولا هو من قبيـل سجع الحكماء أو العرّافين والكُهّان .

والذي يمكن أن يقال إنّه قرآن فصّلت آياته ، وكل آية لها مقطع تنتهي به ، وهو الفاصلة ، وهذه هي الظاهرة المحسوسة فيه ، يقف عليهـا من يتصل بـالقرآن الكريم ، قارئاً كان أو مستمعاً ، مؤمناً كان أو غير مؤمن .

وأنت إذا أردت أن تلمس الأسلوب القـرآني عن كثب ، وتقف عليه وقـوف لامس للحقيقة ،ومستكشف لها عن قرب . فلاحظ موضوعاً واحداً ورد في القـرآن المجيـد ، وفي كلام النبي الأعـظم أو الوصي . فكـلاهما يهـدفان إلى أمـر واحـد ، ولكن لكل أسلوبه الخاص لا يختلط أحدهما بالآخر .

يقـول الرسـول صلى الله عليـه وآله في وصف الغفلة عن الآخـرة : « وكأنّ

---

(١) سورة فصلت : الآيتان ٤١ و٤٢ .

(٢) الإتقـان ، ج ٤ ، ص ١١ . وهو يشـير إلى أنّ التغيـير في القـرآن يـوجب التغيـير في تـأليفـه أوّلاً ، وأسلوبه ثانياً .

الموت فيها على غيرنا كُتِب ، وكأنّ الحق فيها على غيرنا وَجَب ، وكـأنّ الذي نُشَيّـع من الأموات سَفَر ، عمّا قليل إلينا يرجعون » .

وأنت إذا قارنته بما ورد في الذكر الحكيم في هذا المضـمار ترى التفـاوت بينهما بينا .

يقول سبحانه : ﴿ وَمَا هـذِهِ الحياةُ الـدُّنيا إلاَّ لَهْـوٌ وَلَعِبٌ ، وإنَّ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

فهـما قد اتّفقـا على وصف معنى واحـد ، وهو المـوت والعـود إلى الآخـرة ، وتصرّم الـدنيا وانقضـاء أحوالهـا ، وطيّها ، والـورود إلى الآخـرة ، ولكن القـرآن متميز في تحصيل هذا المعنى وتأديته بأسلوب خـاص ، تمييزاً لا يـدرك بقياس ، ولا يعتوره التباس .

وهكذا ، لاحظ قول علي عليه السـلام : « أمْ هذا الـذي أنشأه في ظُلُمات الأرحـام ، وشُغُف الأستار ، نُـطفة دهـاقا ، وعلقـة محاقـا ، وجنينـا ، ووليـدا ، ويافعا »[2] .

ثم قارنه إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَـةٍ ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِـرُّ في الأَرْحامِ مـا نَشاءُ إلى أَجَلٍ مُسمىً ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثم لِتَبْلُغوا أَشُدَّكُمْ ﴾[3] .

فإنك ترى الأسلوبين يتغايران جوهراً ، ولا يجتمعان في شيء .

نوع آخر من المقارنة

وهناك نوع آخر من المقارنة يتجلى فيهـا التفاوت بـوضوح بـين الأساويين ، وهو ملاحظة خطب الرسول الأعظم وأمير المؤمنين عليهما السلام ، عندمـا يخطبـان

(١) سورة العنكبوت . الآية ٦٤ .
(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ٨٣ .
(٣) سورة الحج : الآية ٥ .

ويعظان الناس بأفصح العبارات وأبلغها ، ثم يستشهدان في ثنايا كلامهما بآي من الذكر الحكيم ، فعندها يُلمس البون الشاسع بين الأسلوبين ، من دون مداخلة شك وريب .

خطَب النبي الأكرم يوم فتح مكة في المسجد الحرام ، فقال : يا معشر قريش إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم خلق من تراب ؛ ﴿ يا أيّها الناسُ إنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعوباً وقبائلَ لِتَعارَفُوا ، إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ ﴾ »[1] .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام ، في خطبته المعروفة بالشقشقية : « فما راعني إلّا والناس كعُرْف الضبع إليَّ ، ينثالون عليّ من كل جانب ، حتى لقد وُطيء الحسنان ، وشُقّ عِطفاي ، مجتمعين حولي كربيضة الغنم . فلما نهضت بالأمر ، نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وقسط آخرون ، كأنّهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها للَّذينَ لا يُريدونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ ولا فساداً والعاقِبَةُ للمُتَّقِينَ ﴾ » .

وقال عليه السلام في كلام له لأصحابه في بعض أيام صفين : « وطيبوا عن أنفسكم نفساً ، وامشوا إلى الموت مشياً سُجحاً ، وعليكم بهذا السواد الأعظم ، والرِّواق المُطَنَّب ، فاضربوا ثَبَجَه ، فإنّ الشيطان كامن في كِسْره ، قد قدّم للوثبة يداً ، وأخر للنكوص رِجلاً ، فصَمْداً صمدا ، حتى ينجلي لكم عمود الحق ؛ ﴿ وأنتم الأعلون ، والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم ﴾[2] .

وقال عليه السلام في خطبة له عند ذكر المشبهة : « لم يعقد غَيْبَ ضَميرِهِ على معرفتِك ، ولم يُباشِرِ قَلْبَهُ اليقينُ بأنّه لا نِدَّ لك ، وكأنّه لم يسمع تَبَرُّأَ التابعين من المتبوعين ، إذ يقولون : ﴿ تا الله إن كُنّا لفي ضلالٍ مبين ، إذ نُسَوّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمين ﴾[3] .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ . تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ١٢٠ .
(٢) نهج البلاغة ، بتعليق محمد عبده ، ص ١١٥ .
(٣) نهج البلاغة ، بتعليق محمد عبده ، ص ١٦٤ .

وقال عليه السلام في خطبة له عند ذكر أهل القبور : « وكأن صرتم إلى ما صاروا إليه ، وارتهنكم ذلك المضجع ، وضمّكم ذلك المستودع ، فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور ، وبعثرت القبور : ﴿ **هنالك تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ ، ورُدوا إلى الله مولاهُمْ الحَقُّ ، وضلّ عنهم ما كانوا يَفْتَرونَ** ﴾ »[1] .

وأخيراً ، يجب التنبيه على أنّ الأسلوب وحده لا يكفي لجعل الكلام فوق كلام البشر ، ما لم ينضم إليه الدعائم الثلاث الأخر ، خصوصاً سمو المعاني وعلو المضامين ، فإن له القسط الأكبر في جعل الأسلوب ممتازاً ، تمتدّ إليه الأعناق ، وإلاّ فمحاكاة الأسلوب القرآني ملموس في كلام المدّعين للمعارضة مثل مسيلمة وغيره ، كما سيوافيك ، ولكنه يفقد المضمون الصحيح ، والمعنى المتزن ، وقد عرفت أن إعجاز القرآن بمعنى كونه خلاباً للعقول ، ومبهراً للنفوس رهن أمور أربعة توجب حصول تلك الحالات للإنسان فلا يجد في نفسه أمام القرآن إلاّ السكوت والسكون .

وهناك من خفي عليه دور الأسلوب في رفع شأن القرآن ، وزَعَم أنّ إعجاز القرآن ينحصر في الدعائم الثلاثة الأُول قال : « إنّ الأُسلوب لا يمنع من الإتيان بأسلوب مثله ، لأنّ الإتيان بأسلوب يماثله ، سهل ويسير على كل واحد ، بشهادة أن ما يحكى عن مسيلمة الكذاب من قوله : « إنّا أعطيناك الجواهر ، فصلّ لربّك وجاهر » ، يشبه أسلوب القرآن »[2] .

ولكنه غفل عن أنّ الأسلوب أحد الدعائم لا الدعامة المنحصرة ، حتى أنّ ما ادعاه من أن إعجاز القرآن لأجل الفصاحة ، والبلاغة ، وجودة النظم وحسن السياق ، ليست دعائم كافية لإثبات الإعجاز ، إذ في وسع البشر صياغة كلام في غاية الفصاحة والبلاغة مع حسن السياق وجودته ، ومع ذلك لا يكون معجزاً لإمكان منافحته ومقابلته والإتيان بمثله ، فيلزم على ذلك عدم كون القرآن من تلك الجهة معجزاً . والذي يقلع الإشكال أنّ الإعجاز رهن هذه القيود الأربعة ، وأنّ

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٢) الطراز ، ص ٣٩٦ .

الإتيان بكلام فصيح غايتهـا ، وبليغ نهايتهـا ، منضماً إلى روعـة النظم ، في هـذا الأسلوب الخـاص المعهود من القـرآن ، أمـر معجـز . ولـذلـك لم تجـد طيلة هـذه القرون حتى يومنا هذا كلام يناضل القرآن في آياته وسوره .

ونضيف ، أنّـه ليس هنا مقيـاس ملموس كـالأوزان الشعريـة لتبيين حقيقـة أسلوب القرآن ، وإنّما هو أمر وجداني يدركه كل من له إلمام بالعربية .

ولأجل تقريب المطلب نذكر آية ، ثم نذكر مضمـونها بعبارة أخـرى ، فترى أنّ العبارة الثانية بشرية ، والأولى قرآنية .

قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آياتِـهِ الجَوارِ في البَحْـرِ كالأَعْـلَامِ * إنْ يَشَأْ يُسْكِـنِ الرِّيـحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ على ظَهْـرِهِ ، إنَّ في ذَلكَ لآيـاتٍ لِكُلِّ صَبّـارٍ شَكورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بما كَسَبوا وَيَعْفُ عَنْ كَثيرٍ ﴾[1] .

هذا هو الكلام الإلهي .

فلو أراد إنسان أن يصب هذا المعنى بصورة أُخرى ، يتغـير الأُسلوب ، مهما بلغ في الفصاحة والبلاغة من العظمة ، فيقال مثلاً :

« ومن أعظم علاماته الباهرة ، جري السُفُن على الماء ، كالأبنية العظيمـة ، إنّ يرد هبوب الريح تجري بها ، وإن يرد سكون الريح فـتركد عـلى ظهره ، أو يـرد إهلاكها بالإغراق بالماء فيهلكهم بسيئات أعمالهم . وفي ذلك آيات للمؤمنين » .

فانظر الفرق بين الأُسلوبين ، والإختلاف في السبكـين ، مضافـاً إلى افتقاد الثانية بعض النكات الموجودة في الآية .

* * *

إلى هنـا تمّ الكلام حـول الدعـائم الأربع التي بني عليهـا صرح الإعجاز ، وشيدت أركانه . غير أنّه بقي هنا أمـور لا غنى عن الإشارة إليهـا والتنبيه عليهـا ، لأنّها تقع في طريق تكميل مباحث إعجاز القرآن البياني ، وفيما يلي بيانها .

* * *

---

(١) سورة الشورى : الآيات ٣٢ ـ ٣٤ .

التنبيـه الأول

آيتان على منضدة التشريح

بعد أن وقفت على الدعائم الأربـع التي يتحقق معها إعجـاز القرآن ، فهلّم إلى تحليـل آيتين من آيـاته ، نستجـلي فيهما حقيقـة الإعجاز ، ونقف عـلى المـزايـا الفريدة الموجودة فيهما ـ مضافاً إلى اشتمالهـما على الـدعائم الأربـع ـ فسترى أنّ كـل واحدة منهما كافية في إثبـات أنّها أعلى من أن تكـون مصنوعـة للبشر ، وإن بلغوا في الفصاحة والبلاغة كلّ مبلغ .

١ ـ آية ﴿ يا أَرْضُ ابْلَعِي ﴾

قال ـ عَزَّ مِنْ قـائل ـ : ﴿ وَقيـلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي مـاءَكِ ، ويا سَـماءُ أَقْلِعي ، وَغِيضَ المـاءُ ، وقُضيَ الأَمْـرُ واسْتَـوَتْ عـلى الجُـودِيِّ ، وَقيـلَ بُعْـداً لِلْقَـوْمِ الظَّالِمينَ ﴾[1] .

هـذه الآية الكـريمة من بـدائع آيـات القرآن الكـريم ، وهي التي أُنْزِلَتْ ، فأَنْزَلَتْ قُريشُ معلقاتهـا السبع عن جـدران الكعبة ، وهي التي شغلت بـال باقعـة الأدبـاء ، عبد الله بن المقفـع[2] ، وهي التي شغلت بال أسـاتـذة البـديـع ، لأنّها

(١) سورة هود : الآية ٤٤ .

(٢) روى هشام بن الحكم ،قال : اجتمع ابن أبي العوجاء وأبو شاكر الديصاني ، وعبد الملك البصري ، =

اشتملت على عشرات الأنواع من المحسنات البديعية ، بينما هي لا تتجاوز سبعة عشر لفظاً . وإليك الإشارة إلى بعضها :

١ ـ المناسبة التامة بين « إبْلَعي وأقْلِعي » .

٢ ـ الإستعارة فيهما .

٣ ـ الطِّباق بين الأرض والسماء .

٤ ـ المجاز في قوله : « يا سماء » . فإنّ الحقيقة يا مطرَ السَّماء .

وابن المقفع ، عند بيت الله الحرام يستهزئون بالحاج ، ويطعنون بالقرآن فقال ابن أبي العوجاء : « تعالوا ننقض كلٌّ واحد منا ربع القرآن وميعادنا من قابل في هذا الموضع ، نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كلّه ، فإنّ في نقض القرآن إبطال نبّوّة محمد ، وفي إبطال نبوّته إبطال الإسلام ، وإثبات ما نحن فيه » . فاتّفقوا على ذلك وافترقوا .

فلما كان من قابل ، احتمعوا عند بيت الله الحرام ، فقال ابن أبي العوجاء : « أمّا أنا فمتفكر منذ افترقنا في هذه الآية : ﴿ فَلَمّا اسْتَيْأسوا مِنْهُ خَلَصوا نَجِيًّا ﴾ (سورة يوسف: الآية ٨٠)، فما أقدر أن أضُمَّ إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً ، فشغلتني هذه الآية عن التفكر في سواها » .

وقال عبد الملك : « أنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية : ﴿ يا أيّها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ إنَّ الذين تَدْعونَ مِنْ دونِ الله لن يخلقوا ذُباباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ ، وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطالِبُ والمَطْلوبُ ﴾ (سورة الحج : الآية ٧٣) ، ولم أقدر على الإتيان بمثلها » .

فقال أبو شاكر : « أنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية : ﴿ لَوْ كانَ فِيهما آلِهَةٌ إلاَّ الله لَفَسَدَتا﴾(سورة الأنبياء :الآية٢٤) ، ولم أقدر على الإتيان بمثلها .

فقال ابن المقفع : « يا قوم إنّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر ، وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية : ﴿ وَقِيلَ يا أرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ ويا سماءُ أقْلِعي ، وَغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمْرُ واسْتَوَتْ على الجُودِي ، وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمينَ ﴾ (سورة هود : الآية ١٤٤) ، لم أبلغ غاية المعرفة بها ، ولم أقدر على الإتيان بمثلها » .

قال هشام بن الحكم : فبينما هم في ذلك إذ مر بهم جعفر بن محمد الصادق (ع) فقال : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجنُّ على أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كان بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٨٨)

فنظر القوم بعضهم إلى بعض ، وقالوا لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهى أمر وصية محمد إلاّ إلى جعفر بن محمد ، والله ما رأيناه قطُّ إلاّ هِبْناه ، واقشعرت حلودنا لِهَيْبَتِه . ثم تفرّقوا مُقرِّين بالعجز . (الإحتجاج للطبرسي ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ، ط النجف الأشرف) .

٥ ـ الإشارة في : ﴿وغِيضَ الماء﴾ ، فإنّه عَبَّرَ به عن معـان كثيرة ، لأنّ المـاءَ لا يغيض حتى يُقْلِع مَطَرُ السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها من عيون الماء .

٦ ـ الإرداف في قوله :﴿وآسْتَوَتْ على الجُودِيِّ ﴾فإنّه عَبّر عن استقـرارها في المكان بلفظ قريب من لفظه الحقيقي .

٧ ـ التمثيل في قوله :﴿ وقُضِيَ الأمر ﴾. فإنّه عبّر عن هلاك الهالكين ونجـاة الناجين بلفظ بعيد عن المعنى الموضوع .

٨ ـ التعليل ، فإنّ : ﴿غيضَ الماء﴾ ، علّة الإستواء .

٩ ـ صحّة التقسيم ، فإنّـه استوعب أقسـام الماء حـالة نقصـه ، إذ ليس إلاّ احتباس ماء السماء ، والماء النابع من الأرض ، وغَيْض الماء الذي على ظهرها .

١٠ ـ الإحتراس في قوله : ﴿وقيل بُعْداً للقوم الظالمين﴾ ، إذ الـدعاء يشعـر بأنّهم مستحقوا الهلاك احتراساً من ضعيفٍ يتوهـم أنّ الهلاك لعمومـه ، ربما يشمـل غير مستحقه .

١١ ـ المساواة ، لأنّ لفظ الآية لا يزيد على معناها .

١٢ ـ حسن النسق ، فـإنّه تعـالى قصّ القِصّـة وعـطف بعضهـا عـلى بعض بحسن الترتيب .

١٣ ـ ائتلاف اللفظ مع المعنى ، لأنّ كل لفظة لا يصلح معها غيرها .

١٤ ـ الإيجاز ، فإنّه تعالى أمـر فيها ونهى ، وأخـبر ونادى ، ونعت وسمى وأهلك وأبقى ، وأسعـد وأشقى ، وقصّ من الأنباء مـا لو شرح لاستغـرق كتـابـاً مفرداً .

١٥ ـ التفهيم ، لأنّ أوّل الآية يدلّ على آخرها .

١٦ ـ التهذيب ، لأنّ مفرداتها موصوفة بصفات الحُسن ، إذ كل لفظة عليها رونق الفصاحة ، سليمة عن التنافر ، بعيدة عن البشاعة وتعقيد التركيب .

١٧ ـ حُسْن البيان ، لأنّ السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه .

١٨ ـ الإعتراض ، وهو قوله : ﴿وَغيضَ الماءُ واسْتَوَتْ على الجُوديّ ﴾ .

١٩ ـ الكناية ، فإنّه لم يُصَرِّح بمن أَغاض الماء ، ولا بمن قُضيَ الأمر ، ولا بمن سوى السفينة وأقرّها في مكانها ، ولا بمن قال : ﴿ وقيل بُعْداً ﴾ . كما لم يصرّح بقائل : ﴿ يا أَرض ابلَعي ﴾ ، و﴿ يا سماءُ أَقلعي ﴾ في صدر الآية ، سالكاً في كل واحد من ذلك سبيل الكناية ، لأنّ تلك الأمور العظام لا تتأتى إلّا من ذي قدرة قهّارة لا يغالب . فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره سبحانه قائل : ﴿ يا أرض ابلعي ﴾ ، ﴿ ويا سماء أقلعي ﴾ ، ولا أن يكون غائض ما غاض ، ولا قاضي مثل ذلك أمر الهائل ، غيره .

٢٠ ـ التعرّض ، فإنّه تعالى عرّض بكل من سلك مسلكهم في تكذيب الرُّسل ظلماً ، وأنّ الطوفان وتلك الأُمور الهائلة ما كانت إلّا لأجل ظلمهم .

٢١ ـ التمكين ، لأنّ الفاصلة مستقرة في محلّها ، مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا مستدعاة .

٢٢ ـ الإنسجام ، لأنّ الآية بجملتها منسجمة ، كالماء الجاري في السلاسة .

٢٣ ـ اشتمالها على بعض البحور الشعرية ، إذ قوله : ﴿ وَقيلَ يا أَرْضُ ابْلعي ماءَك﴾ ، على وزن « مستفعلن مستفعلن فاعل » . و﴿ يا سماء أقلعي ﴾ على وزن « مفاعلن مفاعل » .

٢٤ ـ تنزيل من لا يعقل منزلة من يعقل في النداء والمخاطبة .

٢٥ ـ الإبهام في قوله :﴿واسْتَوَتْ على الجُوديّ ﴾وهو إسم الجبل الصغير ، والزق المنفوخ الذي تستقر عليه السُفُن المائية .

٢٦ ـ المحافظة على فواصل الآيات فإنّ الرويّ في قوله : ﴿ بُعْداً للقوم الظالمين ﴾ مطابق للآيات المتقدمة والمتأخرة .

٢٧ ـ التكرار ، كما في « الماء » ، معرَّفاً باللام تارة وبالإضافة أُخرى .

٢٨ ـ تخيّل مالكية الأرض ، بحيث لها سلطة في إرجاع الماء .

إلى غير ذلك من المحاسن البديعية التي يدركها الممعن في الآية .

فهذه بعض الميزات الواردة في الآية الكريمة ، وليس كل واحد منها ولا جميعها أمراً معجزاً ، ولكن المجموع أعطى للآية نظماً خاصاً ، وأُسلوباً بديعاً ، يعرف الذوق العربي أنّه يغاير سائر الأساليب والنظم الكلامية . وهذا الجمال الطبيعي ، يخلق في النفس جذبة روحية خاصة ، كأنّها كهرباء القلوب ومغناطيس الأرواح ، ولأجل ذلك يقول الكرماني في كتاب « العجائب » :

« أجمع المعاندون على أنّ طَوْقَ البشر قاصرٌ عن الإتيان بمثل هذه الآية ، بعد أن فَتّشوا جميعَ كلام العرب والعجم ، ولم يجدوا مثلها في فخامة ألفاظها ، وحسن نظمها ، في تصوير الحال مع الإيجاز من غير إخلال »[1] .

ويقول العلامة الشهرستاني بأنّه أُفرد بلاغة هذه الآية بالتأليف[2] .

٢ ـ آية ﴿وأَوْحينا إلى أُمّ مُوسى﴾

قال تبارك وتعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنا إلى أُمّ موسى أَنْ أَرْضِعيهِ فإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقيهِ في اليَمِّ ، وَلاَ تَخافي ولا تَحْزَني إِنَّا رادُّوهُ إِليكِ وجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلينَ ﴾[3] .

وهذه الآية الكريمة من بدائع آيات القرآن ، وهي على وجازتها ، قد جمعت فعلين من الماضي (أوحينا ، وخِفْتِ) ، وفعلين من الأمر (أرضعيه ، وأَلقيه) ، وفعلين من النهي (لا تخافي ولا تحزني) ، ووزنين من اسم الفاعل (رادّوه ،

---

(١) العجائب ، نقلاً عن المعجزة الخالدة للشهرستاني ، ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة القصص : الآية ٧ .

جـاعلوه) ، ووزنين من إسم المفعـول (موسى ، مـرسـل) ، وإسمـين خـاصـين (موسى ، وأمّه) .

ثم قـد تكررت فيهـا « فاء الجـواب » مرتـين (فـإذا ، فـألقيـه) ، وحـرف « إلى » مرتين (إلى أم موسى ، إليك) . ثم قد كرر الخوف مرتـين ، وعبّر عن أمّ موسى باسم مزدوج بدل أن يسميها باسمها .

وفيهـا نبأ غيبي وهـو الإخبار بـردّ موسى إلى أمّـه ، وفيها وعـدان : الـردّ ، والنبوّة .

فاجتماع هذه الأمور في الآية يوجد في الإنسان عند سماعهـا ، لذّة وانجـذاباً واستغراقاً ، وتـطرأ عليه الحـالة التي طـرأت على عتبـة بن ربيعة عنـدما سمـع من رسـول الله آيات من سـورة فصلت ، فألقى يـديه خلف ظهـره ، معتمداً عليهـما مذهولاً مبهوتاً ، كما تقدّم .

* * *

التنبيـه الثانـي

مزايا القُرآن البيانية

قـد تعرفت عـلى الدعـائم الأربع المحقِّقـة لإعجاز القـرآن ، وكفى بذلـك عظمة لهذا الكتاب . غير أنّ لهذه المعجزة الخالدة مزايا أخرى يناسب ذكرهـا هنا ، وترجع جميعها إلى المزية البيانيـة التي نحن بصدد بيـانها . وحيث إنّه لا يسـع المقام الإتيان بجميع ما ذكره المحققون ، فنأتي ببعضـه ، الذي يتجـلى معه هـذا الكتاب السّماوي بمزاياه البيانية المنفردة .

١ ـ الصراحة في بيان الحقائق

إنّ الصراحة إحدى الميزات التي يتصف بها القرآن الكريم ، وتظهر بوضوح في آياته . فمن ذلـك صراحته في التنـديد بـالوثنيـة ، والطعن في الأصنـام المعبودة يومذاك ، ودعوته إلى تحطيمها .

يقـول سبحانـه : ﴿ إنَّ الذينَ تَـدْعُونَ من دونِ الله لَنْ يَخْلُـقوا ذُباباً وَلـو اجْتَمعـوا لَـهُ ، وإنْ يَسْلُبْهُمُ الـذُبـابُ شَيْئـاً لا يَسْتَنْقِـذُوهُ مِنْـهُ ، ضَعُفَ الـطالِبُ والمَطْلوبُ ﴾[1] .

إنّ الصراحة وليدة الشجاعة المختمـرة بالإيمـان ، في حين أنّ السكـوت عن

---

(١) سورة الحج : الآية ٧٢ .

الحق ، أو التلوّن والتحفظ في الحديث ، دليلٌ على جُبْن القائل وعدم اعتقاده بالقول الذي يلقيه على الناس ، وتخوّفه من المستمعين .

غير أنّ هذا الكتاب المعجز ، منزّه عن هذه الوصيات . فهذا هتافه في أُذن الكافرين ، يقول : ﴿ قُلْ يا أيُّها الكافِرونَ * لا أعْبُدُ ما تَعْبُدونَ * ولا أنتم عابُدونَ ما أعْبُدُ * ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُم * ولا أنْتُمْ عابِدونَ ما أعْبُدُ * لَكُمْ دينُكُم وَلِيَ دِيْن ﴾[١] .

هذه هي سيرة الأنبياء العظام ، فهم يمتلكون الصراحة في البيان ، ويمتازون بها عن غيرهم ، فيعلنون الحقائق ، بلا تتعتع ولا تحفّظ . هذا هو إبراهيم الخليل ـ بطل التوحيد ـ يندد بعمل عبدة الأصنام بقوله : ﴿ أَفَتَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله ما لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً ولا يَضُرُّكُمْ ، أُفٍّ لَكُمْ ولما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله أَفَلا تَعْقِلونُ ﴾[٢] .

قل لي بربِّك ، هل تجدُ كلاماً أصرح وأمتن وأبلغ في التنديد بمن يتخذ وليـاً غير الله من قوله سبحانه : ﴿ مَثَلُ الذينَ اتَّخَذوا مِنْ دونِ الله أَوْلياءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وإنَّ أَوْهَنَ البُيوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كانوا يَعْلَمونَ ﴾[٣] .

وليست الصراحة ميزة القرآن في مجال المعارف والعقائد فحسب ، بل هي سارية أيضاً في مجال العلاقات السياسية فها هو يقول : ﴿ بَراءَةٌ مِنْ الله وَرسولِهِ إلى الذينَ عاهَدتُّمْ مِنَ المُشْرِكينَ ﴾[٤] .

هذه إلمامَةٌ عابرة في تبيين هذه الميزة ، تُعْرِب عن إيمان القائل وإذعانه بما يقول ويطرح في مختلف المجالات والأصعدة .

---

(١) سورة الكافرون .
(٢) سورة الأنبياء : الآيتان ٦٦ و ٦٧ .
(٣) سورة العنكبوت : الآية ٤١ .
(٤) سورة التوبة : لاحظ الآيات ١ ـ ١٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ علو الجهة المنزل منها القرآن

ومن مزايا بيان القرآن ، تَكَلُّمه من موقع الإستعلاء وتحدّثه بلسان من يملك الأمر كلّه ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض ، وفي قبضته كلُّ شيء . فهو في مخاطباته ومجادلاته وأوامره ونواهيه ، وفي وعده ووعيده ، وفي أمثاله وقصصه ، وفي مواعظه ونُذُره ، يتّسم بالعلو الشامخ ، ويتصدر المقام الرفيع الذي لا يُنال ، ويتحدث إلى الناس حديث من يملك كل شيء ، ومن يقوم على كل شيء ، ومن يُدَبّر ويُقَدّر ، دون أن يقف أحد أمام سلطانه ، فاستمع لقوله سبحانه :

﴿ تبارَكَ الذي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ * الذي خَلَقَ المَوْتَ والحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العزيزُ الغفورُ * الذي خَلَقَ سَبْعَ سمْواتٍ طِباقاً ، ما تَرى في خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ ، فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرى مِن فُطورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ البَصرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسيرٌ ﴾[١] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَروا بِهِ إِنَّه عَليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ ، أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ ﴾[٢] .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ والأَرْضِ ، أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيقولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقونَ * فَذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ الحَقُّ فَماذا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفونَ ﴾[٣] .

٣ ـ العفة والإحتشام

إمتاز القرآن المجيد في تعابيره بالنزاهة والعفة ، مع أنّه ظهر في بيئة لا تعرف للعفّة مفهوماً ، فلا تجد فيه تعبيراً سيئاً ، ومَنْهجاً ركيكاً ، يخالف الأدب حتى في

---

(١) سورة المُلك · الآيات ١ ـ ٤ .

(٢) سورة المُلك . الآيتان ١٣ و ١٤

(٣) سورة يونس : الآيتان ٣١ و٣٢ .

سرده لقصة غرامية ، هي قصة يوسف وزُلَيْخاء ، قِصَّةُ عشق امرأة حسن فاتنة ، لفتى طاهرٍ جميلٍ ، يُخْجِل وجهُهُ القَمرَ .

إنّ الكاتب في حقل القصص عندما يسرد أمثال هذه القصة الغرامية ، لا يملك زمام قلمه ، ويخرج عن النزاهة والعفة ، ولكن القرآن قد شرح تلك القصة وصوّرها ووضع خطوطها الغرامية بدقة فائقة في البيان ، مع وافر الإحتشام والإتزان .

فعندما يعرض اجتماع هذه المرأة الجميلة ، مع ذاك الشاب الطاهر ، واختلاءهما في بيتها ، وتعلّقها به ، يشرح تلك الواقعة من غير أن يثير الغريزة الجنسية الحيوانية ، لئلا يناقض هدفه الذي لأجله جاء بها ويقول :

﴿ وَراوَدَتْهُ التي هُوَ في بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَّقَتِ الأَبْواب ، وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قالَ مَعاذَ الله ، إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ ، إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظالِمونَ ﴾(1) .

ففي هذه الآية تتجلى عفة القرآن واحتشامه من جهات :

أولاً : استعمل كلمة « راود » ، وهي تستعمل في الإصرار على الطلب مع اللّين والعطف ، فكأنّ زليخا طلبت من يوسف ما طلبت بإصرار وحنان .

وثانياً : لم يصرّح باسم المرأة ، حفظاً لكرامتها ، وإنّما عبّر عنها بقوله : « التي هو في بيتها » ، مشيراً ـ إضافة إلى ذلك ـ إلى قوة الضغط وشدّة سيطرتها على يوسف ، فزمام أمره بيدها ، ولا مجال للهروب والتخلّص منها ، لأنّه في بيتها .

وثالثاً : قالت الآية :﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْواب ﴾، إعراباً عن أنّ يوسف لم يجد باباً للفرار ، وكانت مقدمات الإستسلام مهيئة .

ورابعاً : وقالت الآية :﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾، وهذه كناية عن دعوتها إيّاه إلى التلذذ الجنسي ، لكن بكناية فائقة ، فإنّ هَيْتَ لك ، اسم فعل بمعنى هَلمّ .

---

(1) سورة يوسف : الآية ٢٣ .

خامساً : أجاب يوسف طلبها بقوله : ﴿ مَعاذَ الله إنّه ربّي أحسن مثواي ﴾، أي أعوذ بالله معاذاً . فيعرب عن أنّ يوسف لم يعرف خيانة ، ولم يَدُرْ بخلده أنْ يخون صاحبه (العزيز) ومُنْعِمَه ومربّيه ، في امرأته . والضمير في « إنّه » ، يرجع إلى « العزيز » . ولأجل ذلك بعدما اتّضحت الحقيقة ، وبانت خيانة الإمرأة ، أرسل يوسف من أعماق زنزانته إلى الملك ، ووزيره « العزيز » ، بقوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أنّي لَمْ أَخُنْهُ بالغَيْبِ وأنَّ الله لا يَهْدي كَيْدَ الخائِنينَ ﴾(1) .

وفي القصة مسرحية غرامية أُخرى هي دعوة إمرأة العزيز ، نِسْوَةَ أشرافِ المدينة ، إلى مأدُبة ليقفن على بهاء جمال هذا الفتى ، وأنّ التعلق به ليس أمْراً اختيارياً ، بل كل من رآه يتعلق فؤاده به في أول لقاء . ويحكيه القرآن بقوله :

﴿ وقالَ نِسْوَةٌ في المَدينةِ امرأةُ العَزيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبّاً ، إنّا لَنَراها في ضَلالٍ مُبينٍ * فَلَمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أرْسَلَتْ إلَيْهِنَّ وَأعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ، وآتَتْ كُلَّ واحدةٍ مِنْهُنَّ سِكّيناً ، وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَما رَأيْنَهُ أكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لله ما هذا بَشَراً إنْ هذا إلاَّ مَلَكٌ كَريمٌ ﴾(2) .

أنظر إلى العفة والإحتشام في التعبير عن جمال يوسف حيث قال : ﴿ أكْبَرْنَهُ وَقُلْنَ حَاشَ لله ما هذا بَشَراً إنْ هذا إلاَّ مَلَكٌ كَريمٌ ﴾ .

كل ذلك يعرب عن أنّ القصة سُردت على أساس الدعوة إلى العفة والعبرة ، والإنصراف عن الإنهماك في الشهوات . فهل يستطيع إنسان أُمّي ، غير متعلم ، ترعرع بين شعب متوحش ، أن يعرض تلك المسرحية الغرامية ، ولا يخرج عن حدود العفة ونطاق النزاهة ؟ كلا ، لا(3) .

---

(1) سورة يوسف : الآية ١٩٩ . لاحظ الميزان ، ج ١١ ، ص ٢١٥ .

(2) سورة يوسف : الآيتان ٣١ و ٣٢ .

(3) أضف إلى ذلك أنّ القرآن يستمد في بيان ما يستقبح التصريح به ، بالكلمات الكنائية ، ككلمات « الفَرْج » (لاحظ المؤمنون : الآية ٥) و« الغائط » (المائدة · الآية ١٦) فإنّ الفرج ليس عَلَماً للموضع الخاص من المرأة ، وإنّما يراد منه الخلل بين الشيئين . كما أنّ الغائط ، بمعنى الموضع المنخفض ، وقس على ذلك غيرها من الكلمات التي جاءت في بيان المسائل الراجعة إلى الزوج-

هـذه بعض الميزات الموجودة في بيـان القرآن الكـريم ، والممعن في الـذكـر الحكيم يجد له ميزات كثيرة سامية يستنتج من مجموعهـا أنّ هذا الكتاب ليس نتـاج وإبداع إنسان أُمّي ولد ونشأ في أُمّة متقهقرة ، بل هو كتـاب إلهي نزل عـلى ضميره وقلبه ؛ ﴿ لِيَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾[1] .

= والـزوجة كقـوله تعـالى : ﴿ وكيف تأخـذونه وقـد أفضى بعضكم إلى بعض وأخـذن منكم ميثـاقـاً غليظاً ﴾ (النساء : الآية ٢١) ، وغيره ، فكلها كنايات .

(١) اقتباس من قوله سبحانـه : ﴿ نَزَلَ بِـهِ الروحُ الأمـينُ * على قَلْبِـكَ لِتَكُونَ مِن الْمُنْـذِرينَ ﴾ (سورة الشعراء : الآيتان ١٩٣ و ١٩٤) .

التنبيـــه الثالث

مذهـــب الصَّرْفة(١)

اهتمّ المسلمون من الصدر الأول بـالبحث عن وجه إعجـاز القرآن ، وكـان الرأي السائد بينهم في إعجازه هو كونه في الطبقـة العليا من الفصـاحة ، والـدرجة القُصْوى من البلاغة ، مع مـا له من النَّـظم الفريـد ، والأسلوب البديـع . وهذه الأمـور الأربعة أضْفَتْ عـلى القـرآن وصف الإعجـاز حتى صـار معجـزة القـرون والأعصار .

نعم نَجَم في القـرن الثالث مـذهب اشتهر بمـذهب الصَّرْفـة ، وإليـه ذهب جماعة من المتكلمين ، وهو يقوم على أساس أنّ العرب لم يقـدروا على الإتيـان بمثل القـرآن ، لا لإعجازه بحـدّ ذاته ، وأنّ القـرآن بلغ في فرط الفصـاحة والبـلاغة ، وروعـة النظم وبـداعة الأسلوب شـأواً لا تبلغه الـطاقة البشريـة ، بل لأجـل أنّـه سبحـانه صـرَفَ بُلَغاء العـرب وفصحاءَهم عن المعـارضة بـطريق من الطُرق الآتي ذكرها .

وقد حُكي هذا المـذهب عن أبي إسحاق النَّـظام ، وهو أقـدم من نسب إليه هـذا القـول . وتبعـه أبـو إسحـــاق النصيبي ، وعبّـاد بن سليـــان الصَّيمـري ، وهشام بن عمرو الفوطي ، وغيرهم .

---

(١) التاء في الصَّرفة ، تاء المصدرية التي تلحق كثيراً من المصادر مثل : الرحمة ، والرأفة ، وغيرهما .

واختـــاره من الإمـاميــة الشيــخ المفيــد (ت ٣٣٨ ـ م ٤١٣) في أوائــل المقالات ، وإن حُكي عنه غيره . والسيد المرتضى (ت ٣٥٥ ـ م ٤٣٦) في رسالته الخاصة بهذا الموضوع التي أسماها بـ « الموضح عن جهة إعجاز القرآن » . والشيـخ الـطوسي (ت ٣٨٥ ـ م ٤٦٠) في شرحه لجمـل السيد ، وإن رجـع عنه في كتـابه « الإقتصاد » . وابن سنان الخفاجي (م ٤٦٤) في كتابه « سِرّ الفصاحة » .

ولما كان هذا المذهب قد أحاط به الإبهام ، واضطربت في تفسيره الأذهـان ، فـأقرب مـا يمكن اعتماده في الـوَقـوف عـلى حقيقتـه ، الـرجـوع إلى نفس عبـارات المتمسكين به .

حقيقة الصَّرْفَـة

إنّ القـائلين بأنّ القـرآن معجز من حيث الفصـاحة ، والبـلاغـة ، وروعـة النظم وجماله ، وبداعـة الأُسلوب والسَّبك ، يقـولون بـأنّ القرآن وصـل من فرط كمـالِهِ فيهـا إلى حدّ تقصر القـدرة البشرية عن الإتيـان بمثله ، من غـير فـرق بـين السابِقين على البِعثة واللاحقين عليها .

وأمّا القائلون بمذهب الصَّرْفة ، فإنهم يعترفـون بفصاحـة القرآن وبـلاغته ، وروعة نظمه وبداعة أُسلوبه ، لكنهم لا يرونه عـلى حدّ الإعجـاز ، بل يقـولون : ليس الإتيـان بمثله خـارجـاً عن طـوق القـــدرة البشريـة ، فهي كـافيـة في مقــام المعارضة ، وإنّما العجز والهزيمة في حلبة المبارزة لأمـر آخر ، وهـو حيلولته سبحـانه بينهم وبين الإتيان بمثله .

وبِعبارة أخرى : إنّ القائلين بكون إعجاز القرآن من جهة فصاحته وبلاغته ونظمه وأُسلوبه ، يقولون إنّ الإعجاز إنّما يتعلق بأمر ممكن بالـذات ، لأنّه لـو كان محالاً بالذات ـ كاجتماع النقيضين وارتفاعهما ـ فلا تتعلق به القـدرة مطلقـاً ، سواء أكـانت قدرة إلهيـة أو قدرة بشريـة . وعلى ضـوء ذلـك ، فـالإتيـان بكتـاب مثـل القرآن ، أمر ممكن بالذات ، وليس أمراً محالاً بـالذات ، غـير أنّه لا تكفي لـذلك القدرة البشرية العـادية . فـالإتيان بمثله محـال عادي ، لا تـزول استحالتـه إلّا أن يتجهّز الآتي بمثله بقدرة فوق القدرة العادية .

وأمّا القائلون بالصرفة ، فيقولون إنّ معارضة القرآن والإتيان بمثله ليس محالاً عادياً حتى يحتاج فيه وراء القدرة العادية إلى قدرة خارقة . ولأجل ذلك كان يوجد في كلام السابقين على البعثة من فُصَحاء العرب وبُلَغائهم ، ما يضاهي القرآن في تأليفه ، غير أنّه سبحانه لأجل إثبات التحدّي ، حال بين فصحاء العرب وبلغائهم ، وبين الإتيان بمثله بأحد الأمور الثلاثة التالية :

١ ـ صَرْف دواعيهم وهممهم عن القيام بالمعارضة ، فكلّما هموا بها وجدوا في أنفسهم صارفاً ودافعاً يصرفهم عن منازلته في حلبة المعارضة . ولم يكن ذلك لعدم قدرتهم على الإنصداع لهذا الأمر ، بل إنّ المقتضي فيهم كان تامّاً غير أنّ الدواعي والهمم صارت مصروفة عن الإلتفات إلى هذا الأمر ، بصرف الله سبحانه قلوبهم عنه ، ولولا ذلك لأتوا بمثله .

٢ ـ سَلْبُهُمْ سبحانه العلومَ التي كانت العرب مالكة لها ، ومتجهزة بها ، وكانت كافية في مقابلة القرآن . ولولا هذا السلب ـ وكان وضع العرب حال البعثة كوضعهم بعدها ـ لأتوا بمثله .

٣ ـ أنَّهم كانوا قادرين على المعارضة ، ومجهزين بالعلوم الوافية بها ، مع توفّر دواعي المعارضة وعدم صرف هِمَمِهِم عنها ، ولم يمنعهم عنها إلّا إلجاؤه تعالى ، فتقهقروا في حلبة المعارضة لغلبة القوة الإلهية على قواهم . وهذا نظير من يريد أن يتحرّك نحو المطلوب ، فيحال بينه وبين مقصده بقاهر يصدُّه عن التقدم .

وفي خلال عبارات أصحاب هذا القول ، إيماءات إلى هذه الوجوه المختلفة[1] ، التي يجمعها قدرة العرب على معارضة القرآن .

١ ـ قال النظام : « الآية والأُعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب ، فأمّا التأليف والنَّظم ، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنّ الله

(١) وقد أشار إلى هذه الوجوه الثلاثة الإمام يحيى بن حمزة العلوى في كتابه « الطراز » ، ج ٣ ، ص ٣٩١ ـ ٣٩٥ ، ط مصر سنة ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م .

منعهم بمنعٍ وعجزٍ أحدثهما فيهم »[1] .

وقال أيضاً في إعجاز القرآن : « وإنَّه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية ومنع العرب عن الإهتمام به جبراً وتعجيزاً ، حتى لو خلّاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله ، بلاغةً وفصاحةً ونظماً »[2] .

٢ ـ وقال أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٢٩٦ ـ م ٣٨٦) : « أمّا الصَّرْفة فهي صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أنّ القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ، وذلك خارج عن العادة ، كخروج سائر المعجزات التي دلّت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول »[3] .

٣ ـ وقال أبو سليمان حمد بن محمد إبراهيم الخطابي (ت ٣١٩ ـ م ٣٨٨) : «وذهب قوم إلى أنّ العلّة في إعجازه الصَّرفة أي صرف الهِمَم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها ، غير معجوز عنها ، إلّا أنّ العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات ، صار كسائر المعجزات فقالوا : ولو كان الله عز وجل بعث نبياً في زمان النبوات ، وجعل معجزته في تحريك يده أو مَدّ رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه ، ثم قيل له ما آيتك فقال آيتي أن أُخرج يدي أو أُمُدّ رجلي ولا يمكن أحداً منكم أن يفعل مثل فعلي ، والقوم أصحاء الأبدان ، لا آفة بشيء من جوارحهم ، فحرّك يده أو مدّ رجله فراموا أن يفعلوا مثل فعله ، فلم يقدروا عليه ، كان ذلك آيةً دالّة على صدقه . وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ، ولا إلى فخامة منظره ، وإنّما تعتبر صحتها خارجاً عن مجرى العادات ناقضاً لها ، فمهما كانت بهذا الوصف ، كانت آية دالّة على صدق من جاء بها . وهذا أيضاً وجه قريب »[4] .

---

(١) نقله الأشعري في : « مقالات الإسلاميين » ج ١ ، ص ٢٢٥ . ولاحظ « الطراز » ، ج ٣ ، ص ٣٩١ ـ ٣٩٥ ، ط مصر سنة ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م .

(٢) نقله الشهرستاني في « المِلَل والنِحَل » ، ج ١ ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٣) النكت في إعجاز القرآن ، ص ١٠١ .

(٤) بيان إعجاز القرآن ، للخطابي ، ص ٢١ . غير أنه يشير في ذيل كلامه إلى أنّ هذه النظرية يخالفها قوله سبحانه : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ ﴾ الآية . وسيوافيك نصّه عند نقد النظرية .

٤ ـ وقال الشيخ المفيد في جهة إعجاز القرآن : « إنّ جهة ذلك هو الصرف من الله تعالى لأهل الفصاحة واللسان عن معارضة النبي صلى الله عليه وآله بمثله في النظام عند تحدّيه لهم ، وجعل انصرافهم عن الإتيان بمثله ـ وإن كان في مقدورهم ـ دليلاً على نبوته . واللُّطف من الله تعالى مستمر في الصرف عنه إلى آخر الزمان . وهذا أوضح برهان في الإعجاز ، وأعجب بيان . وهو مذهب النظّام ، وخالف فيه جمهور أهل الإعتزال »[١] . هذا .

وقد نقل القُطُب الراوندي (م٥٧٣) في كتاب « الخرائج » ، قولاً آخر للشيخ المفيد ، ولا نعلم أياً من الرأيين هو المتقدم . قال في بيان وجوه إعجاز القرآن : « ما ذهب إليه الشيخ المفيد ، وهو أنّه إنّما كان معجزاً من حيث اختصّ برتبة في الفصاحة خارقة للعادة ، قال : لأنّ مراتب الفصاحة إنّما تتفاوت بحسب العلوم التي يفعلها الله في العباد ، فلا يمتنع أن يجري الله العادة بقدر من المعلوم ، فيقع التمكين بها من مراتب في الفصاحة محصورة متناهية ، ويكون ما زاد على ذلك غير معتادة ، معجزاً خارقاً للعادة »[٢] .

٥ ـ وقال السيد المرتضى : « إنّ الله تعالى سلب العرب العلوم التي كانت تتأتّى منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة ، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأتى منهم »[٣] .

٦ ـ قال الشيخ تقي الدين أبي الصلاح الحلبي (ت ٣٧٤ ـ م ٤٤٧) بعد استعراضه الوجوه المحتملة لإعجاز القرآن : «وإذا بطلت سائر الوجوه ، ثبت أنّ جهة الإعجاز كونهم مصروفين » . ثم قال : « معنى الصرف هو نفي العلوم بأضدادها أو قطع إيجادها في حال تعاطي المعارضة التي لولا انتفاؤها لصحّت المعارضة ، وهذا الضرب مختصّ بالفصاحة والنّظم معاً ، لأنّ التحدي واقع بهما ، وعن الجمع بينهما كان الصَّرف »[٤] .

---

(١) أوائل المقالات ، ص ٣١ .

(٢) البحار ، ج ٩٢ ، ص ١٢٧ .

(٣) الإقتصاد ، ص ١٧٢ .

(٤) تقريب المعارف ، ص ١٠٧ ، ط ١٤٠٤ هـ .

٧ ـ وقال الشيخ الطوسي : « القرآن معجز سواء كان معجزاً خارقاً للعادة بفصاحته فلذلك لم يعارضوه ، أو لأنّ الله تعالى صرفهم عن معارضته ، ولولا الصرف لعارضوه » .

وقال : « إنّ التحدّي إنّما وقع لعجزهم عن معارضته في المستقبل ، لا لأنّه ليس في كلامهم مثله ، ولو كان في كلامهم مثله لكان ترك المعارضة أبلغ وأعظم في باب العجز » .

وقال : « إنّ القائلين بالصَّرفة يقولون إنّ مثل ذلك كان في كلامهم وخطبهم ، وإنّما صُرفوا عن معارضته في المستقبل ، فلا معنى لكونه أفْصح »(١) .

وقال : « وأما قولُهم إنّه كان في كلامهم ما هو مثل القرآن ، فلا يتوجه على أصحاب الصرفة لأنّهم يسلمون ذلك ، لكنهم يقولون إنّهم منعوا من مثله في المستقبل فلا ينفع بأن ذلك فيما مضى منهم موجود ، بل ذلك يؤكّد الحجة عليهم »(٢) .

وقال : « إنّ من قال بالصرفة لا ينكر مزية القرآن على غيره بالفصاحة والبلاغة ، وإنّما يقول هذه المزية ليست ممّا تخرق العادة ويبلغ حدّ الإعجاز . فليس في طرب الفصحاء وشهادتهم بفصاحة القرآن وفرط براعته ، ما يوجب بطلان القول بالصرفة »(٣) .

---

(١) الإقتصاد ، ص ١٦٦ ، وص ١٧٠ ، وص ١٧١ .

(٢) تمهيد الأصول في علم الكلام ، ص ٣٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ، وهذا الكتاب شرح على كتاب « جُمَل العلم والعمل » ، للسيد المرتضى ، فإنّه يشتمل على قسمين :

قسم يختص بالعقائد ، وهو الذي شرحه الشيخ الطوسي وأسماه : « تمهيد الأصول في علم الكلام » ، نشرته جامعة طهران ، وقد جعل المتن في أول الكتاب والشرح بعده ، وليس المتن متميزاً في الشرح عمّا علّق عليه .

وقسم يختصّ بالأحكام ، وهو الذي شرحه تلميذ السيد ، القاضي ابن البراج المتوفى عام ٤٨١ ، وطبع باسم : « شرح جُمل العلم والعمل » .

ثم إنّ للسيد نفسه شرحاً على هذا الكتاب أملاه على بعض تلامذته ، وهو بعد مخطوط لم ير النور ، وستقوم مؤسسة الإمام الصادق بنشره محقّقاً إنشاء الله تعالى .

وقد كان الشيخ الطوسي قائلاً بالصرفة ، ولكنه عدل عنه بعد ذلك ، كما يعترف به هو نفسه في كتابه « الإقتصاد » ، قال : « وأقوى الأقوال عندي قول من قال إنّما كان معجزاً خارقاً للعادة لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص ، دون الفصاحة بإنفرادها ، ودون النظم بانفراده ، ودون الصرفة . وإن كُنْتُ نصرتُ في شرح الجمل القولَ بالصَّرْفة على ما كان يذهب إليه المرتضى رحمه الله ، من حيث شرحت كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه »[1] .

٨ ـ وقال ابن سنان الخفاجي : « إذا عدنا إلى التحقيق وجدنا إعجاز القرآن ، صرف العرب عن معارضته ، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك » .

ثم قال : « إنّ الصحيح أنّ إعجاز القرآن هو صرف العرب عن معارضته ، وأنّ فصاحته كانت في مقدورهم لولا الصرف » .

وقال في موضع آخر : « متى رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار ، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه »[2] .

٩ ـ وبسط ابن حزم (م ٥٤٨) الكلام في إعجاز القرآن ، وذكر لإعجازه خمسة وجوه وردّها ، وممّا قاله :

« والنحو الرابع : ما قالت طائفة : وجهُ إعجازه ، كونه في أعلى مراتب البلاغة . وقالت طوائف إنّما وجه إعجازه أنّ الله منع الخلق من القدرة على معارضته .

فأمّا الطائفة التي قالت إنّما إعجازه لأنّه في أعلى دَرْج البلاغة ، فإنّهم شغبوا في ذلك بأن ذكروا آيات منه مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي القَصاصِ حياةٌ ﴾ .

وَمَوَّهَ بعضهم بأن قال : « لو كان كما تقولون من أنّ الله تعالى منع من

---

(١) الإقتصاد ، ص ١٧٣ .

(٢) سرّ الفصاحة ، ص ٨٩ ، وص ٢١٧ .

معارضته فقط ، لوجب أن يكون أغثّ ما يمكن أن يكون من الكلام ، فكانت تكون الحجة بذلك أبلغ » .

ثم ردّ على هذين الدليلين بوجه تافه غير قابل للنقل ، وقال في آخر كلامه : « فإنّها معجزة لا يقدر على المجيء بمثلها أبداً ، لأنّ الله تعالى حال بين الناس وذلك »[1] .

١٠ ـ قال المحقق الطوسي : « وإعجاز القرآن قيل : الفصاحة ، وقيل : الأُسلوب وفصاحته معاً ، وقيل : للصرفة ، والكلّ محتمل »[2] .

هذه حقيقة نظرية الصرفة ، ذكرناها على وجه رفعنا عن وجهها الغشاوة والإبهام .

* * *

مناقشة نظرية الصرّفة

إنّ نظرية الصرفة ، نظرية قاصرة وسقيمة من جهات :

أما أوّلاً : فلأنّه لو كان القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة وروعة النظم وبداعة الأسلوب ، غير بالغ حدّ الإعجاز ، وكان العرب قبل البعثة متمكنين من إلقاء الخطب والأشعار على هذا النمط من الكلام ، فيجب أن ينتشر ما يضاهي القرآن في البلاغة ، والفصاحة بين أوساطهم وأندية شعرهم وأدبهم ، ويكون مثله متوفراً بينهم ، فعندئذٍ نسأل : أين هذه الخُطَب والجُمَل المضاهية للقرآن الكريم ، الرائجة بينهم ؟ وهل يمكن لأصحاب مذهب الصرفة إراءة نماذج منها ؟! ونحن مع ما بذلنا من الفحص والتتبع عنها في مظانها من مجاميع الكتب الأدبية ، لم نجد حتى النزر اليسير منها .

وثانياً : فإنّ مذهب الصرفة يبتني على حصول الحيلولة بين العرب

(١) الفصل ، ج ٣ ، ص ١٧ وص ٢١ .
(٢) كشف المراد ، ص ٢٢٣ ، ط صيدا .

والمقابلة ، بعد البعثة ، بما تقدم ، لا قبلها ، فعندئذٍ كان في وسع العرب القاء كلم وجمل وخطب مضاهية للقرآن الكريم من دون أن يتحملوا عبء المقابلة بإنشاء مثله ، حتى يقال بأنّهم صرفوا عن المقابلة بسلب الهمم والعلوم والقدرة ، لأنّ الإتيان بما هو دارج بين العرب لا يتوقف على مؤنة . إلاّ أن يقال إنّهم صرفت هممهم حتى عن هذا المقدار ، وهو كما ترى .

وثالثاً : فلو كان العرب قبل البعثة قادرين على الإتيان بكلام يشبه القرآن ويضاهيه ، فلماذا اندهش الوليد بن المغيرة عندما سمع آيات من سورة فصلت وقال : « لقد سمعت من محمد كلاماً لا يشبه كلام الإنس والجن »[1] . ولماذا ارتمى عتبة بن ربيعة مدهوشاً مبهوتاً ملقياً يديه وراء ظهره متكياً عليهما ، مشدقاً بفيه مصعوقاً عندما سمع بعض آيات القرآن من النبي الصادع بالحق . فلو كانت فصاحة القرآن وبلاغته أو نظمه وأُسلوبه من حيث العذوبة والأناقة على نمط كلام الآخرين من فصحاء العرب وبلغائهم ، فلم اهتزوا وتأثّروا بسماع آية أو آيات منه ، ولم تكن لهم هذه الحالة في سماع شعر امرىء القيس ، ولا عنترة ، ولا غيرهما من أصحاب المعلقات ، ولا من سماع خطب قس بن ساعدة وسحبان بن وائل وغيرهما من أصحاب الخطب والكلام .

وإلى هذا الوجه يشير الإمام يحيى بن حمزة العلوي في نقد هذا المذهب ، ويقول : « لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة كما زعموا ، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن ، فلمّا ظهر منهم التعجّب لبلاغته وحسن فصاحته ، كما أثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال : « إنّ أعلاه لمورق ، وإنّ أسفله لَمُغْدِق ، وإنّ له لطلاوة ، وإنّ عليه لحلاوة » ، فإنّ المعلوم من حال كل بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه فإنّه يدهش عقله ويحيّر لبّه ، وما ذاك إلاّ لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف وحسن موانع التصريف في كل موعظة ، وحكاية كل قصة ، فلو كان كما زعموه من الصرفة ، لكان العُجب من غير ذلك ، ولهذا فإنّ نبيّاً لو قال : إنّ معجزتي أن أضع هذه الرمانة في كفي . وأنتم لا تقدرون على ذلك ، لم يكن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

تعجّب القوم من وضع الرمانة في كفه ، بل كان من أجل تعذّره عليهم ، مع أنّه كان مألوفاً لهم ، ومقدوراً عليه من جهتهم . فلو كان كما زعمه أهل الصرفة ، لم يكن للتعجّب من فصاحته وجه . فلمّا علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة ، دلّ على فساد هذه المقالة »[1] .

وما أجاب به الشيخ الطوسي عن هذا الدليل بأنّ من قال بالصرفة لا ينكر مزية القرآن على غيره بالفصاحة والبلاغة ، وإنّما يقول هذه المزية ليست مما تخرق العادة ويبلغ حدّ الإعجاز ، فليس في طرب الفصحاء وشهادتهم بفصاحة القرآن وفرط براعته ما يوجب بطلان القول بالصرفة[2] ، غير تام ، إذ لو كان مثل القرآن متوفراً في الأوساط الأدبية قبل البعثة ، لما كان لهذا الطرب والإهتزاز والإنبهار والتضعضع ، وجه وجيه ، لأنّ المفروض أنّ القرائح العربية لم تكن قاصرة قبل البعثة عن إبداع أمثاله ، وسمعت آذانهم كثيراً من هذا النمط من الكلام وإن قصرت من بعد . ولو كانت قرائحهم قادرة قبل البعثة على إنشاء كلام مثل القرآن ، فلماذا جمع الوليد صناديد قريش وقال لهم : « إنّ العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم على أمر مختلف ، فأجمعوا أمركم على شيء واحد ، ما تقولون في هذا الرجل ؟ الخ[3]» . فلو كانت قرائحهم كافية قبل صرف هِمَمِهم ، أو سلب علومهم ، أو الجائهم على الإنقباض في مقام معارضته ـ لكان الجواب عن قرآن الرجل واضحاً ، وهو أنّه كلام عادي ما أكثره بيننا ، وأكثر مثله في كلام خطباء العرب وشعرائهم .

ورابعاً : فإنّ القول بالصرفة نجم من الإغترار بما روي من رشيق الكلمات ، وبليغ العبارات ، عن العرب ، فزعم هؤلاء أنّ كل من قدر على تلك الأساليب البلاغية ، يقدر على المعارضة ، إلّا أنّه سبحانه عرقلهم عنها وثبّطهم فيها .

ولكن أين الثرى من الثريا ، وأين المدر من الدُرَر ، وليس إعجاز القرآن

---

(١) الطراز ، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ .
(٢) تمهيد الأصول ، ص ٣٣٨ .
(٣) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ .

رهن العذوبة والأناقة فقط ، وإنّما هو رهن حلاوة ألفاظه وسمو معـانيه ، ورصـانة نظمه ـ على وجه لو غُيِّرت كلمة أو جملة منه ، لم يمكن أن يؤتى بدلها بلفظة هي أوفق من تلك اللفظة ـ وبداعة أسلوبه ، مجتمعة . فهذه الأمور بجملتها ، أضفت عـلى الكلام جمالاً رائعاً لا يجد الإنسان له مثيلاً في كلام مَنْ غَبَر وسَبَق ، أو تَبِعَ وَلَحَق . فهو بنظمه العجيب ، وأسلوبه الغريب ، وملاحتـه وفصاحتـه الخاصـة ، ومعانيـه العميقة ، تحدّى الإنس والجن ، ولأجل ذلك لم يجد العرب لإغـراء البسطاء ، إلاّ تفسيره بالسحر ، لأنّه يأخذ بمجامع القلوب ، كما يأخذ السحر بها .

وخامساً : فإنّ المتبادر من آيات التحدّي أنّها تعرف القـرآن بأنّـه فوق قـدرة الإنس والجن ، وأنّه مصنوع لا تصل إليه يد المخلوق ، وهذا لا يجتمع مع مذهب الصرفـة الذي لا يضفي عـلى القرآن ذاك الجـمال الرائـع الذي يجعله متفـوّقاً عـلى القدرة البشرية ، وإنّما يضعه في عداد كلام عامة الفصحـاء والبلغاء ، غـاية الأمـر أنّـه سبحانـه ـ كلما همّت العرب بمباراتـه ـ صرف عنهم الهمـة والقـوة ومنعهم من الإتيان بما اقترحه عليهم .

وبعبارة أخرى : إنّ المتبادر من ظواهر الآيات ، أنّ القرآن في ذاته متعـال ، حائز أرقى الميزات ، وكمال المعجزات ، حتى يصحّ أن يقال في حقّه بأنّه لـو اجتمع الجن والإنس الخ . .

يقـول الخطابي بـأنّ قولـه سبحانـه : ﴿ قُـلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجنُّ ﴾ الآيـة ، يشهـد بخـلاف هـذه النـظرية ، لأنّها تشـير إلى أمـرٍ ، طـريقُـهُ التكلّف والإجتهـاد ، وسبيله التأهّب والإحتشـاد ، وما فُسِّرت بـه الصرفـة لا يـلائم هـذه الصفة[1] .

وسادساً : فلو كان وجه الإعجاز في نكتة الصرفة ، لكفى في ذلك أن يكون القرآن كلاماً مبذولاً ومـرذولاً للغايـة ، وركيكاً حـدّ النهايـة ، لكن كلّما أراد سفلة الناس وأوباشهم ، الذين يقدرون على صنع مثل تلك الكلم ، الإتيان بمثله ، حال سبحانه بينهم وبين مباراته . وهو كما ترى ، لا يتفوّه به من له إلمام بهذه المباحث .

---

(١) بيان إعجاز القرآن ص ٢١ .

وسابعاً : فلو كان عجز العرب عن المقابلة ، لِطاريءٍ مباغتٍ أبطل قواهم البيانية ، لأُثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة ففوجئوا بما ليس في حسبانهم ، ولَكان ذلك مثار عجب لهم ، ولأعلنوا ذلك في الناس ، ليلتمسوا العُذْر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن في ذاته[1] .

وقد أشار إلى هذا الوجه علي بن عيسى الرماني في نكت الإعجاز ، كما أشار إليه الإمام يحيى بن حمزة العلوي ، قال : « إنّهم لو صُرِفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها ، لوجب أن يَعْلَموا ذلك من أنفسهم بالضرورة ، وأنْ يُمَيِّزوا بين أوقات المنع والتخلية . ولو علموا ذلك ، لوجب أن يتذاكروا في حال هذا المعجز على جهة التعجّب . ولو تذاكروه ، لظهر وانتشر على حدّ التواتر . فلمّا لم يكن ذلك ، دَلّ على بطلان مذهبهم في الصرفة »[2] .

وثامناً : فإنّ القول بالصرفة ، يستلزم القول بأنّ العرب قد تراجعت حالها في الفصاحة والبلاغة ، وفي جودة النظم وشرف الأسلوب وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم ، وعدموا الكثير ممّا كانوا يستطيعون ، وأن تكون أشعارهم التي قالوها ، والخطب التي قاموا بها من بعد أن أوحى الله إلى النبي ، قاصرةً عمّا سمع منهم من قبل ذلك ، القصور الشديد ، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال كان يتسع لهم ، ونضبت عنهم موارد قد كانت تغزر ، وخذلتهم قوى كانوا يصولون بها ، وأن تكون أشعار شعراء النبي التي قالوها ، في مدحه عليه السلام ، وفي الردّ على المشركين ، ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية ، وأن يكون شعر حسان بعد الإسلام دون شعره قبله ، والكل كما ترى .

وتاسعاً : فإنّ الظاهر من مذهب الصرفة أنّ النقصان حدث فيهم من غير أن يشعروا به ، ولازمه أن لا تتم الحُجّة عليهم ، لأنّهم وإن عدموا فضلهم في مجال الفصاحة والبلاغة ، لكنهم غير شاعرين بهذا النقصان . وإذا كانوا لا يعلمون أنّ كلامهم الذي يتكلمون به بعد التحدّي ، قاصرٌ عن الذي تكلموا به أمس ،

---

(1) لاحظ مناهل العرفان في علوم القرآن ، للزرقاني ، ج ٢ ، ص ٣١٤ .
(2) الطراز ، ج ٣ ، ص ٣٩٣ .

إستحال أن يعلموا أنّ لنظم القرآن فضلاً على كلامهم الذي يسمع منهم . وإذا لم يتصوروا للقرآن تلك المزية ، كان كلامُهم بعد التحدّي عندهم مساوياً للقرآن . فلازم ذلك أن يعتقدوا أنّ في جمله ما يقولونه في الوقت ويقدرون عليه ، ما يشبه القرآن ويوازيه ، فعندئذٍ لا تتم الحُجَّة عليهم ، إذْ لهم أن يقولوا بأنّ أشعارنا وخطبنا لا تقصر عن قرآنك ، لأنّ المفروض أنهم غير واقفين على نزول كلامهم عن الذروة والقمة السالفة ، ومتصورين أنّه بعد التحدي كما كان قبله . ومن كانت له هذه الحالة ، لا يتصور للقرآن مزية .

وعاشراً : فإنّ القائل بدخول النقصان على قرائح العرب ، إمّا أن يستثني النبي من ذلك ، أوْ لا . فعلى الأوّل يجب أن يقول بأنّ النبيّ عندما كان يتلو عليهم قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ ، على أنْ يأتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يأتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾[1] كان يستطيع أن يأتي بمثل القرآن ، ويقدر عليه .

وعلى الثاني يلزم أنّ النبوة صارت وسيلة لنقصان مرتبة النبي في حلبة الفصاحة والبلاغة ، اللهم إلاّ أن يقولوا بأنّ النبي كان دونهم في الفصاحة والبلاغة قبل التحدي ، مع أنّ الأخبار تحكي عن أنّه كان أفصح العرب[2] .

ولأجل وَهْن هذه النظرية ، صار السائد بين المسلمين عامّة ، وأكابر الشيعة خاصة ، كون القرآن معجزاً من حيث الفصاحة المفرطة والبلاغة السامية ، والنَّظم المخصوص ، والأسلوب البديع ، الذي جعله ـ مجتمعاً ـ كلاماً خارقاً للعادة . وزيادة في إيضاح الحال نورد ما ذكره الشيخ الطبرسي (ت ٤٧١ ـ ٥٤٨ م) في تفسير قوله سبحانه : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ على أن يأتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يأتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾[3] ، قال :

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

(٢) الإشكالات الثلاثة الأخيرة ، ذكرها الرماني في كتابه « النكت في إعجاز القرآن » ، ص ١٣٣ ـ ١٥٥ ، وقد نقلناها بتلخيص وتصرّف .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

« المراد أنّه لئِن اجتمعت الجن والإنس متعـاونين متعـاضدين ، عـلى أن يأتـوا بمثل هذا القرآن في فصـاحته وبـلاغته ونـظمه عـلى الوجـوه التي هو عليهـا من كونـه في الطبقة العُليا من البلاغـة ، والدرجـة القُصوى من حسن النـظم ، وجودة المعـاني وتهذيب العبارة ، والخلو من التناقض ، واللفظ المسخوط ، والمعنى المـدخول عـلى حـدّ يشكل عـلى السامعـين ما بينهـما من التفاوت ، لعجـزوا عن ذلك ، ولم يـأتوا بمثله ، ﴿ وَلَـوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظهـيراً ﴾ ، أي معيناً عـلى ذلك مثلما يتعـاون الشعراء على بيت شعر »[1] .

وقال العلامة الحلّي في كشف المـراد : « أمّا إعـجـاز القرآن ، فقـد تحدّى بـه فصحاء العرب بقـوله تعـالى : ﴿ فأتـوا بسورة من مثله ﴾ ، ﴿ فـأتوا بعشر سـور مثله مفـتريات ﴾ ، ﴿ قـل لئن اجتمعت الإنس والجن عـلى أن يـأتـوا بمثـل هـذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ . والتحـدي مع امتنـاعهم عن الإتيان بمثله ، مع توفّر الدواعي عليه ، إظهـاراً لفضلهم ، وإبطالاً لـدعواه ، وسلامة من القتل ، يدلّ على عجزهم وعدم قدرتهم على المعارضة »[2] .

وعلى أيّ حال ، فإنّ القائلين بالصرفة ، وإن كانوا من أعلام العلماء ، لكن الحق لا يعرف بالرجال ، وإنّما يعرف بسلامة الإستدلال ، وقد خَفَّت هذه النظرية في ميزان النَّصَفة والبرهنة ، والحق أنها ليست بنظرية قيّمة قابلة للإعتماد ، وخلافاً صالحاً للإحتجاج .

وليس كـلُّ خـلاف جـاءَ معتـبراً   إلاّ خـلافٌ لـه حظٌّ مـن الـنَّـظَر

* * *

---

(١) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٤٣٨ .

(٢) كشف المراد ، ص ٢٢١ ، ط صيدا وممن أفاض الكلام في وجوه إعجاز القرآن ، ولم يعتمد على مذهب الصَّرْفة ، السيد عبد الله شُبّر في كتابه حق اليقين في أصول الدين (ج ١ ، ص ١٥٠ - ١٥٤) .

وأما المقاربين لعصرنا فممن كتبوا فيه ، الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في كتابه الدين والإسلام (لاحظ كلامه في مجلة رسالة الإسلام ، العدد الثالث من السنة الثالثة ، ص ٢٩٨) والعلامة الكبير السيد هبَة الدين الشهرستاني (المعجزة الخالدة ، ص ٣٢ - ٤٣) ، والزرقاني في مناهل العرفا (ج ٢ ، ص ٣١٠) .

الأمـر الثالث

عجز البشر عن الإتيان بمثله(١)

قد عرفت أنّ الرسول الأكرم تحدّى العـالمين أجمـع على الإتيـان بكتاب مثـل القرآن أ، وتَنَزّل حتى تحدّاهم على الإتيان بعشر سُوَر ، بل سورةٍ من مثله .

وإنّ تحليل التاريـخ المسطور يكشف لنـا عجز العـرب أمام هـذا التحدّي ، وذلك أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، قد بقي يـطالب العرب بـالإتيان بمثـل هذا القرآن مدّة عشرين سنة ، مـظهراً لهم النكـير ، زارياً عـلى أديانهم ، مسفّهـاً آراءهم وأحلامَهم ، وهم أهل البـلاغة والفصـاحة ، وفيهم أسـاطينها وأركـانها ، ولكنهم مع ذلك لم ينبثوا ببنت شفة ، ولم يجرء أحد منهم عـلى إبداع كـلام يعارض فيه القرآن ، وإنّما سلكو مسلكاً آخر ، فنابذوه وناصبوه الحـرب ، حتى هلكت فيه النفوس ، وأُريقت المُهَج ، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال .

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت إقدارهم ، لم يتكلّفوا هذه الأُمـور الخطيرة ، ولم يتركوا السهل الدمث من القول إلى الحزِن الـوعر من الفعـل . هذا مـا لا يفعله عاقل ، ولا يختـاره ذو لبّ . وقد كـانت قريش مـوصوفـين برزانـة الأحلام ووفـرة العقول والألباب . وقد كان فيهم الخطباء المصاقع ، والشعراء المُفْلقون(٢) .

(١) قد عرفت أنّ إعجاز القرآن يتقوم بأمور ثلاثة : التحدي ، وخرق العادة ، وعجـز البشر عن الإتيان بمثله .

(٢) لاحظ بيان إعجاز القرآن ، لأبي سليمان الخطابي ، ص ٩ .

قـال الشيخ عبـد القاهـر : « إنّ المتعارف من عـادات الناس التي لا تختلف وطبائعهم التي لا تتبدل ، أن لا يسلّمـوا لخصومهم الفضيلة ، وهم يجـدون سبيلاً إلى دفعها ، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم . كيف ، وإنّ الشاعر أو الخطيب أو الكاتب ، إذا بلغه أنّ بأقصى الإقليم من يباهي بشعره ، أو بخطبته أو بـرسالتـه التي يعملها ، يَـدْخُلُه من الأنفَـة والحميَّـة مـا يـدعـوه إلى معارضته ، وإلى أن يُظهر ما عنده من الفضل . هذا فيما لم ير ذلـك الإنسان قطّ ، ولم يكن منه إليه ما يهزّ ويحـرّك ، فكيف إذا كان المـدعي بمرأى ومسمـع منه ، فـإنّ ذلـك أدعى له إلى مبـاراتـه ، وأن يُعَـرِّف النـاس أنّـه لا يقصر عنـه ، أو أنّـه منـه أفضل ، فإن انضاف إلى ذلك أن يدعوه الرجل إلى مبـاراته ، فـذلك الـذي يُسْهِر ليله ويسلبه القرار ، حتى يتفرّغ مجهوده في جوابه ،ويبلغ أقصى الحدّ في مناقضته .

هـذا ، فكيف إذا ظهر في صميم العـرب وفي مثـل قـريش ، ذوي الأنفس الأبيـة ، والهمم العليّـة ، من يَـدّعي النبـوة ويخـبر أنّـه مبعـوث من الله تعـالى إلى الخلق ، ثم يقول وحجتي أنّ الله تعالى قد أنزل عـليّ كتابـاً عربيـاً مبيناً ، تعـرفون ألفـاظه ، وتفهمـون معانيـه ، إلاّ أنّكم لا تقدرون عـلى أن تأتـوا بمثله ، ولا بعشر سُوَر منه ، ولا بسـورة واحدة ولـو جمعتم جهدكم واجتمـع معكم الجن والإنس . فـلا يتصـور منهم السكـوت والسكـون في مقـابـل هـذا الإدعـاء ، إلاّ إذا كـانـوا عاجزين »[1] .

دَفْـــعُ تَوَهّـــم

ربما يتصور الغافل أنّ البلغاء المعاصرين لداعي الحق ، قد عارضوه بكتـاب أو سـور مثل كتابـه وسوره ، ولكنـه اختفى أثـره في شعـاع ضـوء قـدرة الإسـلام والمسلمين وسلطانهم على الجزيرة وخارجها .

والجـواب : إنّه رجمٌ بـالغيب وتصوّر بـاطل لا تصـدقه المـوازين التاريخيـة والعلمية ، إذ لو كانت ثمة معارضة ومقابلة ، لما اختفى على العرب المعاصرين ولا

(١) ثلاث رسائل ، الرسالة الشافية ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١١٠ .

على غيرهم . كيف ، وإن الإتيان بمثل معجزته ، يسجل للمعارض خلود الذكر وسموّ الشرف ، بل لَسَعى أعداء الإسلام في نشره بين المعتنقين لدينه وغيرهم ، لأنّهم يجدون فيه بغيتهم .

قال المحقق الخوئي ـ دام ظلّه ـ : « إنّ هذه المعارضة لو كانت حاصلة لأعلنتها العرب في أنديتها ، وشَهَرتها في مواسمها وأسواقها ، وَلأخذ منه أعداء الإسلام نشيداً يوقعونه في كل مجلس ، وذكراً يرددونه في كل مناسبة ، وعَلَّمَه السلف للخلف ، وتحفّظوا عليه تحفّظ المدعى على حجّته ، وكان ذلك أقرّ لعيونهم من الإحتفاظ بتاريخ السلف . كيف ، وأشعار الجاهلية ملأت كتب التاريخ وجوامع الأدب ، مع أنا لا نرى أثراً لهذه المعارضة »[1] .

يقول الخطابي : « إنّ هذا السؤال ساقط ، والأمر فيه خارج عمّا جرت به عادات الناس من التحدّث بالأمور التي لها شأن ، وللنفوس بها تعلّق ، وكيف يجوز ذلك عليهم في مثل هذا الأمر الذي قد انزعجت له القلوب ، وسار ذكره بين الخافقين . ولو جاز ذلك في مثل هذا الشأن مع عِظَمِ خطره ، وجلالة قدره ، لجاز أن يقال إنّه خرج في ذلك العصر نبي آخر وأنبياء ذوو عدد ، وتنزّلت عليهم كتب من السماء ، وجاؤا بشرائع مخالفة لهذه الشريعة ، وكتم الخبر فيها فلم يظهر ، وهذا ممّا لا يحتمله عقل »[2] .

أقول : وممّا يدلّ على عدم وجود هذه المعارضة اللائقة بالذكر ، ما ضبطه التاريخ من كلام مسيلمة الكذاب وغيره ممّن ادّعوا النبوة وأرادوا أن يخدعوا بسطاء العقول ، فجاؤا بجمل تافهة ساقطة ، لا يقام لها وزن ولا قيمة ، ما سيأتي عرضه وتحليله بعد هذا البحث .

على أنّ القرآن ما خصّ العرب الجاهليين بالتحدّي ، بل تحدّى جميع الناس سالفهم وحاضرهم ، وهناك مجموعة كثيرة من العرب لا يعتنقون دين الإسلام يتبعون ثقافات حديثة ، وتؤيدهم القُوَى الكبرى الكافرة . فلو كانت المكافحة

---

(1) البيان في تفسير القرآن ، ص ٥٢ .

(2) بيان إعجاز القرآن ، ص ٥٠ .

أمراً ممكناً لقام هؤلاء بهذه المهمة وأراحوا أنفسهم من بذل الأموال الطائلة في طريق الحطّ من كرامة هذا الدين ، والنيـل من نبيّه الأعـظم وكتابـه المقدّس ، ولاحتفلوا بذلك في أنديتهم ومؤتمراتهم العالمية ، وزعزعوا بذلك إيمـان المسلمين ، الـذي هو أمنيتهم الكبرى . ومع ذلك ، لا ترى من هذا الأمر عيناً ولا أثر .

* * *

ثم إنّه قد نقل في مواضع متفرقة من كتب التاريخ ، عبارات وجمل منثورة ، يشبه ـ بحسب الظاهر ـ أسلوبها أسلوب القرآن ، زُعم أنّها لأناس ادّعوا النبوّة، وعارضوا بها القرآن الكريم ، وهذا ما نطرحه على بساط البحث فيما يلي .

* * *

هل عورض القُرآن الكريم ؟

إنّ المؤرخـين ذكروا أسـماء قوم زعمـوا أنّهم عارضـوا القرآن الكـريم ، وأنّ بعضهم ادّعى النبوة ، وجعل ما يلقيه معجزة لكي لا تكون دعواه بلا أداة وبيّنـة . ونحن نذكر بعض من ذكرهم التاريخ ، وننقل بعض مـا نسب إليهم ، حتى يُعلم أنّ ما سمّوه مُعارضاً للقرآن الكريم ، ليس إلّا كلاماً سـاقطاً ، لا يقـام له وزن ، بل لا يداني بلاغة كلام الأدباء المعروفين .

١ ـ مسيلمة الكذاب

ذكر ابن هشام أنّ مسيلمة بن حبيب قد كتب إلى رسـول الله صلى الله عليـه وآله : « مِنْ مُسَيْلِمة رسول الله إلى محمد رسـول الله ، سلام عليـك . أمّا بعـد ، فـإنّي قـد أشركت في الأمـــر معـك ، وإن لنـا نصف الأرض ، ولقــريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم يعتدون » .

فلما جـاء الكتـاب ، كتب رســول الله إلى مسيلمـة : « بسم الله الــرحمن الـرحيم . من محمـد رسـول الله إلى مسيلمـة الكـذّاب ، السـلام عـلى من اتّبـع الهُدى . أمّا بعد ، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمُتّقـين » .

وذلك في آخر سنة عشر[١] .

وذكر الطبري أنّ وفد بني حنيفة أتوا رسول الله مع مسيلمة ، فلما رجعوا وانتهوا إلى اليمامة ، ارتدّ مسيلمة وتنبّأ وتكذّب له ، وقال : « إنّي قد أُشركت في الأمر معه » . ثم جعل يسجع السجاعات ويقول لهم فيما يقول ، مضاهاةً للقرآن . وذكر من كلامه هذا :

« لقد أَنْعَمَ الله على الحُبْلى ، أَخْرَجَ مِنْها نَسَمَةً تَسْعىٰ ، بين صِفاقٍ وحَشَى »[٢] .

إنّ هذين الكلامين ، يكفيان شاهداً على ما لم نذكره . أمّا كتابه ، فهو دليل على أنّه جعل دعوى النبوّة ، أداة للحكومة ، فلأجل ذلك قسّم الأرض بينه وبين رسول الله . فانظر إلى جواب رسول الله ، المُقْتَبس من القرآن الكريم : ﴿ إنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾[١] .

وأما قرآنه المنحول ، المفترى على الله سبحانه ، فما هو إلاّ جُمَل وفصول توازن سجع الكهان ، حاول أن يعارض بها أوزان القرآن في تراكيبه . ومما اصطنعه في هذا المجال :

« الفيل ، ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل » .

« يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدِّرين ، ولا الشارب تمنعين » .

وعلى هذا الغرار سائر كلمه المنسوبة إليه . وكلّها تعرب عن جهل وحماقة فيه . ولذلك ، لما ذهب الأحنف بن قيس مع عمّه إلى مسيلمة ، وخرجا من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٠٠ . وتاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

(٢) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ ، ولكن رواه في ص ٤٩٩ هكذا : « ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، الخ » . والصفاق هو الجلد الأسفل الذي يمسك البطن ، وهو الذي إذا انشق كان منه الفتق .

(١) سورة الأعراف : الآية ١٢٨ .

عنده ، وقال الأحنف لعمّه . « كيف رأيته ؟ » ، قال : « ليس بمتنبيء صادق ، ولا بكذّاب حاذق »[1] .

ما هي حقيقة المعارضة ؟

معنى المعارضة أنّ الرجل إذا أنشأ خطبة أو قال شعراً ، يجيء الآخر فيجاريه في لفظه ويباريه في معناه ليوازن بين الكلامين ، فيحكم بالفلج على أحد الطرفين . وليس معنى المعارضة أن يأخذ من أطراف كلام خصمه ، ثم يبدل كلمة مكان كلمة ، فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلفيق ، كما وقع في ذاك الكلام المنسوب إلى مسيلمة . وها نحن نأتي ببعض المعارضات التي وقعت في العصر الجاهلي بين شاعرين كبيرين ، فهذا النابغة الذبياني يصف لَيْلَةً في أشعاره المعروفة التي يعتذر فيها للنعمان ، ويقول :

كليني لهم يا أميمة ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ
تَطاوَلَ حتى قُلت ليس بِمُنْقَضٍ ... وليس الذي يرعى النجوم بآيبِ
بصدرٍ أراح اللّيْل عازِب همِّه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانبِ

ونرى أنّ امرىء القيس يقول في نفس الموضوع :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله ... عليّ بأنواع الهُموم ليبتلي
فقلتُ له لمّا تمطّى بصُلْبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكلِ
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ
فيا لكَ من ليلٍ كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بِيَذْبُلِ

هذه هي حقيقة المعارضة ؛ فقول النابغة متناه في الحسن ، بليغ في وصف ما شكاه من همّه وطول ليله ، ويقال إنّه لم يتبديء شاعر قصيدة بأحسن من هذا الكلام ، خصوصاً قوله : « بصدر أراح الليلُ عازب همِّه » . وهو كلام مطبوع سهل يجمع البلاغة والعذوبة . إلّا أنّ في أبيات امرىء القيس من ثقافة الصنعة ،

(١) لاحظ ما نسب إليه في تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٩٨ـ ٤٩٩ ، وص ٥٠٦ .

وحسن التشبيه ، وإبداع المعاني ، ما ليس في أبيات النابغة ، إذ جعل لليل صلباً وأعجازاً وكلكلاً ، وشبّه تراكم ظلمة الليل بموج البحر في تلاطمه عند ركوب بعضه بعضاً ، وجعل النجوم كأنّها مشدودة بحبال وثيقة ، فهي راكدة لا تزول ولا تبرح ، وجعل يتمنى تَصَرُّم الليل بعود الصبح لما يرجو فيه من الرَّوْح ، ثم ارتجع ما أعطى واستدرك ما كان قدّمه وأمضاه، فزعم أنّ البلوى أعظم من أن يكون لها في شيء من الأوقات كشف وانجلاء . . . إلى آخر ما في شعره من النكات .

فبمثل هذه الأمور تعتبر المعارضة ، فيقع بها الفضل بين الكلامين ، من تقديم لأحدهما ، أو تأخير ، أو تسوية بينهما . لا بمثل ما أتى به هؤلاء المهزّلون ، من الإكتفاء بالوزن والفواصل ، من دون نظر إلى المعاني . وهذا هو السائد في كل المعارضات التي نسبت إلى المعارضين .

وللمعارضة صور أُخرى ذكرها الخطابي في بيان إعجاز القرآن(١) .

مثال آخر

نرى أنّ جريراً يمدح بني تميم ويعرفهم بأنّهم كل الناس ، في قوله :

إذا غَضِبَتْ عليك بنو تميمٍ حسبت الناسَ كلُّهم غِضابا

ويقول أبو نواس في هذا الصدد :

ليس على الله بمستنكرٍ أن يجمعَ العالَمَ في واحدٍ

وقد زاد عليه أبو نواس زيادة رشيقة ، وذلك أنّ جريراً جعل الناس كلّهم بني تميم ، ولكنّ أبا نواس جعل العالم كلّهم في واحد . فكان ما قاله أبلغ وأدخل في المدح والإعظام(٢) .

إذا ظهرت لك حقيقة المعارضة ، فانظر إلى قوله سبحانه : ﴿ **الحَاقّةُ ما الحَاقّةُ * وما أدراك ما الحَاقّة** ﴾(٣) . وقوله سبحانه : ﴿ **القارعة ما القارعة * وما**

---

(١) بيان إعجاز القرآن ، ص ٥٢ ـ ٦٠ .

(٢) لاحظ الطراز ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(٣) سورة الحاقة : الآيتان ١ و٢ .

أدراك ما القارعة ﴾(١) . ثم ما أَتبَعَ قولـه هذا بـذكر يـوم القيامـة وبيان أوصـافها وعظيم أهوالها بقوله : ﴿ يَوْمَ يكـونُ الناسُ كـالفراشِ المَبثـوثِ * وتكونُ الجبـالُ كالعِهنِ المنفوشِ ﴾(٢) .

فأين هو من قول القائـل : « الفيل ، مـا الفيل ، ومـا أدراك ما الفيـل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل » . فإنّ مثـل هذه الفـاتحة تجعـل مُقَدِّمَـةً لأمر عـظيم الشأن متناه الغاية ، فإذا بالمعارض يجعله مقدمة لذكـر الذَّنَب والمشـفـر ، ويتصور أنّه تحققت المعارضة ، ويا ليته أتبع تلك المقدمة ، بما أعطيت هذه البهيمة العجـماء من الـذهن والفـطنـة التي بـه تُفْهِمُ سـائسهـا مـا تـريـده ، فلعلّه كـان أقـرب إلى مقصوده !! .

الشك في صحة نسبة هذه المعارضات

وهناك احتمال بأن لا تكون هذه الكلمات قد وضعت ليعارض بها القـرآن ، وإنّما وضعها أعـداء مسيلمة للتفكّـه والسَّمَر ، أو وضعت لغـاية دينيـة وهي تأكيـد إعجاز القرآن عندما تُقارَن هذه المفتريات إلى الآيات الباهـرة في الكتاب العـزيز . مع أنّ إعجاز القرآن ليس في حاجة إلى مثل هذا بعدمـا سكت فحول البـلاغة عن معارضته .

وممّا يثير الشكّ في كون مسيلمة قائـل هذه الجمـل التافهـة ، ما أثـر عنه من بعض الكلمات التي هي في البلاغة بمكان عال ، كقوله عنـدما اجتمـع مع سجـاح التميمية : « هل لَكِ أن أتزَوَّجُكِ فآكلَ بقومي وقومك العـرب ؟ »(٣) . فإن هـذه الكلمة تدلّ على مكانة الرجل في الفصاحة وجميل التـأتي لما يـريد . فخيّـل لسجاح أنّه سيأكل بقومه وقومها العرب ، وهل كانت تقصد سجاح غـير هذا ؟ وهـل كان يقصد من اتبعوها إلّا أكل العرب والإستيلاء عليهم ؟ فإذا قارنّا بين كلمتـه هذه ،

---

(١) سورة القارعة : الآيتان ١ و ٢ .

(٢) سورة القارعة : الآيتان ٣ و ٤ .

(٣) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ .

وما عزي إليه من المعارضات ، وجدنا فارقاً كبيراً بينهما في الأُسلوب والروح . فهذه الكلمة صادرة عن نفس جادة حازمة تتطلب أمراً عظيماً ، وأمّا ما نسب إليه فصادر عن نفس ماجنة عابثة ، لا تدرك ما وراء هذه المغامرة من المخاطر .

وهناك كلمة أُخرى نسبت إليه حين استحرّ القتل في قومه ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل مكان ، وقد سأله قومه ما وعد به ، فقال : « أمّا الدين فلا دين ، قاتلوا عن أحسابكم » . فأي إيجاز ، وأيّ قوة ، وأيّ إيحاء وتحميس أقوى من هذا : قاتلوا عن أحسابكم ؟ والمنصف لا يشك في أنّ صاحب هذه الكلمات الموجزة ليس صاحب هذه المعارضات الركيكة المسهبة[1] .

٢ ـ طليحة بن خويلد الأسدي

قدم على النبي في وفد أسد بن خزيمة سنة تسع ، فأسلموا . ثم لما رجعوا ، تنبّأ طليحة ، وعظم أمره بعد أن توفي رسول الله صلى الله عليه وآله . وكان يزعم أنّ ذا النون يأتيه بالوحي .

ومن كلماته : « إنّ الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ، وقبح أدباركم شيئاً . فاذكروا الله قياماً ، فإنّ الرغوة فوق الصريح »[2] . فهو يريد بكلامه هيئة الصلاة من الركوع والسجود ، فكانت الصلاة في شرعه قياماً .

ومنها : « والحمام واليمام ، والصّرد الصوام ، ليبلغ ملكنا العراق والشام » .

ولو كان الرجل ذا لبّ وعقل ، لما عارض القرآن الكريم بهذه الكلمات الساقطة . فانظر كيف حلف على أمر عظيم وهو بلوغ ملك العراق والشام بهذه الطيور !! .

وممّا يثير الشك في صحة عزو هذه الجمل الجوفاء إلى طليحة ، ما نقله

---

(١) لاحظ مقال الشيخ علي العماري المصري ، في « رسالة الإسلام » العدد الثالث من السنة الحادية عشرة .

(٢) معجم البلدان ، كما نقله الرافعي في إعجاز القرآن ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

الطبري[1] عنه ، حيث قال : إنّ طليحة وفد على عمر ـ وكان طليحة قد أسلم ـ فقال له عمر : أنت قاتل عكاشة وثابت ـ يريد عكاشة بن محصن وثابت بن أكرم وهما سيدان من سادات المسلمين ، وفارسان من فرسانهم ـ فقال طليحة في جواب عمر : « ما تَهُمُّ من رجلين كرَّمهما الله بيدي ، ولم يُهِني بأيديهما » .

فهناك فرق واضح بين ما عزي إليه من المعارضات ، وعبارته أمام عمر ، فإن كلمته الإخيرة فيها روح أمكن بها الرجل أن يؤثر على عمر ، حيث قال له إن الرجلين ذهبا إلى الجنة ، فأكرمهما الله على يدي طليحة . وأي شيء أحبّ إلى عمر من أن تكون الجنة نصيب عكاشة وثابت ! .

٣ ـ سَجاح بنت الحارث بن سويد التميمية

إنّ قبيلة بني تغلب كانت راسخة في النصرانية ، فادعت سجاح المذكورة ، بعد وفاة رسول الله ، النبوة ، فاستجاب لها بعضهم ، وترك التنصّر ، وكان أمر مسيلمة الكذاب قد غلظ واشتدّت شوكة أهل اليمامة ، فنهدت له بجمعها فمن قولها المزعوم : « إنّه الوحي ، أعدّوا الركاب ، واستعدوا للنّهاب ، ثم أغيروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب » . فلما توجهت لحرب مسيلمة قالت : « عليكم باليمامة ، ودفّوا دفيف الحمامة ، فإنّها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة » .

وخافها مسيلمة ، ثم اجتمعا وعرض عليها أن يتزوجها ، وقال : « هل لك أن أتزوجك ، فآكل بقومي وقومك العرب » ؟ فأجابت ، وانصرفت إلى قومها . فقالوا : « ما عندك » ؟ . قالت : « كان على الحق فاتبعته فتزوجته » . ولم تَدّع قرآناً ، وإنّما كانت تزعم أنّه يوحى إليها بما تأمر ، وتسجع في ذلك سجعاً ، كالنّموذجين المتقدمين .

والتاريخ يحكي أنّها أسلمت بعدُ وحَسُنَ إسلامها[2] . وفي الحقيقة لم تكن نبوتها إلاّ زفافاً على مسيلمة ، وما كانت هي إلاّ إمرأة ! .

---

(١) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ .

(٢) راجع فيما نقلناه تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ ـ ٥٠٠ .

٤ ـ الأسود العنسي

كان رجلاً فصيحاً معروفاً بالكهانة ، والسجع ، والخطابة ، والشعر ، والنسب . وقد تنبّأ على عهد النبي وخرج باليمن وهو ممن أراد أن يحذو حذو نبينا الأمين ، لكن بتسجيع الكلم وحده . فأراد أن يباري سورة الأعلى فقال :

« سبّح اسم ربّك الأعلى ، الذي يسّر على الحبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى ، من بين أضلاع وحشى ، فمنهم من يموت ويدسّ في الثرى ، ومنهم من يعيش ويبقى » . وهي ـ كما ترى ـ صفر من الحكمة العالية ، إلاّ الجملة الأولى .

فقد جاء هؤلاء إلى حلبة المعارضة لأنّهم كانوا بمكان من الإنحطاط الفكري والأخلاقي ، وأمّا المحنكون ذوو الضمائر الحرّة من العرب فلم ينزلوا إلى ميدان المعارضة لوقوفهم على أنها تبوء بالفشل ، وحفظوا كرامتهم من التسرع إلى حركات صبيانية .

وأمّا هؤلاء فهمّوا أن يعارضوا القرآن ، فكان ما أتوا به باسم المعارضة لا يخرج عن أن يكون مجادلات مضحكة مخجلة ، أخجلتها أمام الجماهير وأضحكت الجماهير منهم ، فباؤوا بغضب من الله وسخطٍ من الناس ، فكان مصرعهم هذا ، كسباً جديداً للحقّ ، وبرهاناً آخر على أنّ القرآن كلام الله القادر وحده ، لا يستطيع معارضته إنس ولا جان ، ومن ارتاب فأمامه الميدان .

هؤلاء هم الذين حاولوا معارضة القرآن من القدماء ، الذين عاصروا النبي أو عاشوا بعده بُرهة من الزمن ، ولم يكن ما أتوا به إلاّ سقطات من الكلم أو الفاظاً جوفاء ، أو أسجاعاً سخيفة . وهناك رجالات آخرون رُموا بأنّهم عارضوا القرآن الكريم ، وهم في الثقافة والأدب بمكان عالٍ ، غير أنا نشك في صحة نسبة المعارضة إليهم ، وإنّما رموا بها إمّا لكونهم من الملاحدة المعروفين كعبد الله بن المقفع ، أو من الشخصيات البارزة التي يحسدها أعداؤها فأوقعوها بافتراءات الزندقة ، ثم معارضة القرآن الكريم ، فمنهم :

١ ـ عبد الله بن المُقَفّع (م ١٤٥ هـ)

عبد الله بن المقفع أحد الأدباء في القرن الثاني ، كان مجوسياً وأسلم ، وتضلّع في اللغتين العربية والفارسية ، وقام بترجمة بعضها إلى اللغة العربية ، مثل كتاب « كليلة ودمنة » . والرجل مع أنّه رمي بالإلحاد ، قد صرّح بإسلامه في مقدمة ترجمته ، وقد قتل حرقاً في التنور عام ١٤٥ هـ لإفساده عقائد الناس . وعلى كل تقدير ، فقد نسب إليه أنّه عارض القرآن بتأليف كتاب الدّرة اليتيمية ، ولكن لم يعلم إلى الآن أنّ الرجل قام بتأليف ذلك الكتاب لأجل هذه الغاية ، وليس فيه ما يصدّق ذلك ، والكتاب مطبوع منشور في عدّة طبعات .

٢ ـ أحمد بن الحسين المتنبي (ت ٣٠٣ ـ م ٣٥٤)

من الشعراء البارزين الذين ربما يحتجّ أو يستشهد بكلامهم ، وله ديوان كبير إعتنى به الأُدباء بالشرح والتعليق ، والده كوفي ، ولد في بيت الإسلام ، ولكن قيل إنّه تنبّأ عام ٣٢٠ وله من العمر سبعة عشر عاماً .

ونسب إليه أنّه تلا على أهل البادية كلاماً زعم أنّه قرآن أُنزل عليه ، يحكون منه سوراً . قال علي بن حامد : نسخت واحدة منها ، فضاعت مني ، وبقي في حفظي من أولها : « والنجم السيّار ، والفلك الدّوّار ، والليل والنّهار ، إنّ الكافر لفي أخطار ، إمضِ على سُنّتِك ، واقْفُ أَثَرَ مَنْ قبلك من المرسلين ، فإنّ الله قامعٌ بك زيغ من أَلْحَدَ في دينه وضلّ عن سبيله » ، هذا .

ولو كان للرجل سور كثيرة يحاول بها المعارضة ، لحفظها التاريخ ولو ازدراءً عليه ، مع أنّه لم ينقل عنه إلاّ هذه الجمل[1] .

وما بقي من أشعاره تعرب عن أنانية الرجل وأنّه يرى نفسه مقدّماً في كل شيء ، كما يظهر من قوله :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والسيفُ والرّمحُ والقرطاسُ والقلمُ

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ، ص ٢٠٨ .

وقد اكتسب شهرة في الأدب والشعر ، كما نال بذلك أعداءً حاقدين ، ومن المحتمل أنّه عزي إليه التنبوء ومعارضة القرآن الكريم من جانب أعدائه .

وقد قتل عام (٣٥٤) ، ولم يكن قتله إلاّ لهجوه رجلاً يسمّى ضبّة .

٣ ـ أبو العلاء المعرّي (ت٣٦٣ ـ م ٤٤٩)

أحمد بن عبد الله من معرّة النعمان ، أحد الأدباء الفحول ، والشعراء البارزين ، وبما أنّه كان أعمى ، وكان حليف بيته في أُخريات عمره ، كان يسمّي نفسه رهين المحبسين ، وقد كان معاصراً للسيد المرتضى ، وكان بينهما مساجلات ومناظرات .

ومع ذلك لما سئل عن فضل السيد وكماله ، أجاب بالبيتين التاليين :

يا سائلي عنه لما جِئْتَ تسألُهُ ... ألا هُوَ الرجلُ العاري من العارِ
لو جئته لرأيت الناس في رجل ... والدَّهْرَ في ساعةٍ والأرْضَ في دارِ

ومات ولم يتزوج ولم يعقّب ، وأوصى أن يُكتب على صخرة قبره :

هذا جناة أبي عليَّ ... وما جنيت على أحد

وقد اختلف المؤرخون في إيمانه وكفره ، فهناك من الناس من يرمونه بالكفر كياقوت الحَمَوي ، والذّهبي ، وسعد الدين التفتازاني ، ومعاصره الخطيب البغدادي . والأشعار التي عزيت إليه تدلّ على انحرافه عن الإسلام .

وهناك من ذهب إلى خلاف ذلك منهم كمال الدين عمر بن أحمد بن عديم الحلّي ، المتوفى عام ٦٦٠ ، ألّف كتاباً باسم « الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعرّي » . وقد طبعت خلاصته في تاريخ حلب ، فطرح دلائل المتخاصمين في المعري ، ثم قضى بينهم على نهج أدى به إلى الحكم بكونه رجلاً غير منحرف عن الإسلام . وممّا قال فيه : « إنّ سائر ما في ديوانه من الأشعار الموهمة ، فهي إمّا مكذوبة عليه أو هي مؤولة »[1] .

---

(١) تاريخ حلب ، ج ٤ ، ص ٧٧ ـ ١٨٠ .

وممّا يؤيّد قول ابن عديم ، ما ذكره ياقوت من أنّ المعرّي كان يُرمى من أهل الحسد له ، بالتعطيل ، وتعمّل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار . يضمنونها أقاويل الملاحدة .

والذي يمكن أن يقال إنّ بعض شعره يدلّ على سوء عقيدته ، غير أنّ قيام الرجل بمعارضة القرآن، موضع شكّ وترديد ، فقد نسب إليه أنّه عارض القرآن بكتاب أسماه : « الفصول والغايات في مجاراة السور والآيات » ، وقد نشرت بعض فصوله .

وممّا يورث الشكّ في كون الهدف من تأليف هذا الكتاب هو المعارضة ، ما ذكره هو نفسه في مقدمته ، قال : « علم ربّنا ما علم ، أنّي ألّفت الكلم ، آمل رضاه المسلّم ، واتّقي سخطه المؤلم ، فهب لي ما أبلغ رضاك من الكلم ، والمعاني الغِراب »[1] .

على أنّ الشيخ عبد القاهر الجرجاني قد شكّ في صحّة نسبة هذا الكتاب إليه ، في قوله : « وقد خيّل إلى بعضهم ـ **إنْ كانت الحكاية صحيحة** ـ شيء من هذا (وهو كون التحدّي إلى فصول الكلام بأن يكون لها أواخر أشباه القوافي) ، حتى وضع على ما زعموا « فصول الكلام » ، أواخرها كأواخر الآي ، مثل : « يعملون » ، و« يؤمنون » ، وأشباه ذلك »[2] .

كما نسبت إليه الجمل التالية :

« أقسم بخالق الخيل ، والريح الهابّة بِلَيْل ، بين الشرط مطلع سُهَيْل ، إنّ الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف الذيل ، تعدّى مدارج السيل ، وطالِع التوبةَ من قُبيل ، تَنْجُ وما أخالك بناج » .

والذي يعرب عن كون هذه الجمل مفتريات على الرجل ما نقل عنه في كتابه « الغُفْران » ، قال ـ ردّاً على ابن الراوندي ـ : « وأَجْمَعَ مُلْحِدٌ ومهتدي ، وناكب

(١) الفصول والغايات ، ص ٦٢ .

(٢) دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٢٩٧ ، ط المنار .

عن المحجة ومُقتدي ، أنّ هذا الكتاب الذي جاء به محمد كتـاب بهر بـالإعجاز ، ولقي عدوه بالأرجاز ، ما هـذا على مثـال ، ولا أشبه غـريب الأمثال ، مـا هو من القصيد الموزون ، ولا في الرجز من سهل وحزون ، ولا شـاكل خـطابة العـرب ، ولا سجـع الكهنـة ذوي الإرب . . . وإنّ الآيـة منـه أو بعض الآيــة لتعـترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتـلألىء في جنح غسق ، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق ، فتبارك الله أحسن الخالقين »[1] .

هـذا ، وإن أكثر من ينسب المعـارضات إلى أبي العـلاء ، يستند إلى مـا كَتَبَهُ ياقوت عنه . ويبدو للإنسان من مطالعة ما كَتَبَه ، أنّـه متحامـل على أبي العـلاء ، ويكفي في ذلك قوله : « كان المعرّى حماراً لا يفقه شيئاً » ! . وهذه عبارة لا يقولها إلّا أشدّ الخصوم والمتعصبين على الرجل .

* * *

---

(١) رسالة الغُفْران ، ص ٢٦٣ .

الأمـــر الرابـــع

الشواهد الدّالة على كونه كتاباً سمٰوياً

قد تعرفت على الإعجاز البياني للقرآن الكريم وأنّه بفصاحته وبلاغته ونظمه وأُسلوبه ، تحدّى البشر ، وأعجز أرباب النُّهى ، وقادة الكلام والبيـان . فمن كان عربياً صميماً ، عارفاً بأساليب الكلام ، واقفاً على خصـوصيات اللغـة ، لا يتردد في كونه معجزاً . ومن لم يبلغ تلك المرتبـة ، أو لم يكن له إلمـام بخصوصيـات هذه اللغة ، فعليه الرجوع إلى أهل الخبرة والمعرفة ، حتى يقف على كونه معجزاً .

غير أنّ حكمته سبحانه اقتضت أنْ يُتم الحُجَّـة على البَشَر أجمعـين ، عربيِّهم وعجميِّهم ، وذلك من طريق آخر غير الإعجاز البلاغي ، فحضْهُ سبحانـه بقرائن وفـيرة موجـودة في نفس هذا الكتـاب ، وفيمن جاء بـه . ولو تـدارس محايـد هـذا الكتاب ، مجتنباً كل رأي مسبق ، لوقف عـلى أنّه من الممتنـع أن يقوم بتـأليف هذا الكتاب إنسان عادي ، ليس له صلة بعالم الغيب ، وهذا ما نبتغيه في هـذا المقام ، ذاكرين كلّ شاهد تحت عنوان خاص .

* * *

شواهد إعجاز القرآن

(١)

أُمِّيَّةُ حامِل الرسالة

لم يختلف إثنـان من الأُمّة الإسـلامية في أنّ النبيَّ كـان أُمِّيّاً لا يحسن القـراءة والكتابة قبل بزوغ فجر دعوتـه ، وصحائف حيـاته أوضـح دليل عـلى ذلك ، فلم يـدخل مـدرسة ، ولم يحضر عـلى أحد للدراسـة وتعلُّم الكتـابـة ، بـل كـان ربيب البادية ، بعيداً عن حضائر الفنون ، نـائياً أيَّ نـأي عن محاضر الحكـماء ،ومجالس العلماء . بل ليس شيء في تاريخ النبي أوضح من أُمِّيَّته .

ولم يكن هو فقط مختصاً بهذا الوصف ، بل كان علية القوم والسـواد الأعظم في أمّ القُـرى وحولهـا ، محرومـين من هذا الكـمال ، ولأجل ذلـك يصفهم القـرآن بالأُميين ، في قوله سبحانه :

﴿ هُـوَ الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رسـولاً مِنْهُمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آيـاتِـهِ ، وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ، وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضلالٍ مُبينٍ ﴾[١] .

كما يصف حال النبي بالنسبة إلى القراءة ، والكتابة بقوله : ﴿ وَما كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ إذاً لارْتابَ المُبْطِلونَ ﴾[٢] .

وبالرغم من مغالطة قساوسة الغـرب والمستغربـة ، وتشبثاتهم بمـراسيل عن

---

(١) سورة الجمعة : الآية ٢ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤٨ .

مجاهيل ، وانتحالات الملاحدة في هذا الأمر ، فإنّ أُميّة النبي وقومه تموج بالشواهد الواضحة من الكتاب والتاريخ والحديث[1] .

لقد جاء قومه بهذا القرآن وبلاده آنذاك جرداء بلا مِراء ، كبعض القُرى الوحشية ، ببطنان بوادي أفريقيا ، وخُلُوٌ من وسائل العلم والعمران ، وأهلوها البسطاء صفر الأكف من وسائل الرقي والحضارة .

وكان الحجازيون من العرب ترتكز دائرة معارفهم ، في أسواق عُكاظ ومواسم الحجيج والنوادي ، على الأمور التالية :

١ ـ أنساب القبائل والخيل .
٢ ـ القصائد والأشعار في التهاني والمراثي ، والحماسة والإغارة .
٣ ـ علم القِيافة[2] .
٤ ـ علم العِيافة[3] .
٥ ـ علم الفِراسة[4] .
٦ ـ علم الزجر[5] .
٧ ـ علم الرّيافة[6] .
٨ ـ تأويل الأطياف .
٩ ـ أنواء النجوم وأسماء الكواكب ، والظواهر الجوية .
١٠ ـ الطب ، وكان لا يتجاوز الكي والميسم وعقاقير الحشائش .

---

(١) ومن أراد الوقوف على دلائله الساطعة ونقد تسويلات المستشرقين ، فليرجع إلى « مفاهيم القرآن » ، ج ٣ ، ص ٣٢١ ـ ٣٧٤ .
(٢) علم القيافة : هو علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر .
(٣) علم العيافة : هو علم زجر الطير ليُتَفأّل من كيفية طيرانها وجهته أو يتشأم . وهي مأخوذة من عاف الطير عيفاً بمعنى استدارت وحامت حول الشيء . والنسور العوائف : التي تعيف على القتلى وتتردد .
(٤) علم الفراسة : هو علم الإستدلال بهيئة الإنسان وشكله ولونه وأقواله ، على أخلاقه .
(٥) علم الزجر : هو علم الإستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها ، على الحوادث .
(٦) علم الريافة : هو علم استنباط وجود الماء في الأرض بشمّ التراب ، أو برائحة بعض النباتات فيها ، أوبحركة حيوان مخصوص .

١١ ـ الموسيقى ، وكانت لا تتجاوز حدّي الإبل .

١٢ ـ سحر النفّاثات .

١٣ ـ الكهانة والعرافة[1] .

١٤ ـ الصنائع البدائية ، ولا تتجاوز صنع السهام والأقواس والرماح والجنان .

فهذا مبلغهم من العلم والكمال . وأين هو ممّا جاء في القرآن الكريم في مجال العقائد والمعارف والتشريع العادل ، ونظام المدنية والأخلاق الفاضلة ، والأخبار الغيبية ، إلى غير ذلك ممّا سيمرّ عليك من فنون المعارف .

فمن لاحظ هذا المعهد البسيط ، يذعن بأنّ من الممتنع أنّ يخرج من هذا الحقل القاحل ، شخصية فذّة كشخصية النبي ، وكتاب مثل كتابه ، إلاّ أن يكون له صلة بقدرة عظيمة مهيمنة على الكون .

وهذا أحد الشواهد الدالّة على أنّ الكتاب ليس من صنع النبي ، بل هو كتاب سماوي ، وإذا ضمّت إليه الشواهد الأخر الآتية تتجلى هذه الحقيقة بأوضح تجلّياتها .

* * *

(١) الكهانة : إدّعاء علم الغيب ، كالإخبار بما سيقع في الأرض ، والأصل فيها التلقّي من الجن .

شـواهد إعجاز القرآن

(٢)

عدم الإختلاف في الأُسلوب

إنّ القرآن الكريم نزل نجوماً في مدّة تقرب من ثلاث وعشرين سنة[١] ، في فـترات مختلفة وأحـوال متفاوتـة من ليل ونهار ، وحضر وسفـر ، وحـرب وسِلْم ، وضرّاء وسرّاء ، وشـدّة ورخـاء ، ومن المعلوم أنّ هـــذه الأحـوال تؤثّـــر في الفكـر والتعقّل وفي قرائح قادة الكلام ، وأصحاب البلاغة ، فربما يقـدر البليغ عـلى إلقاء خطابة بليغة في حالة ، ولا يقدر عليها في أُخرى . أو الشـاعر المُفْلِق يجـود بقريض معجِب في ظروف روحيّة خاصة ، يعجـز عنه في أُخـرى . وذلك أمـر ملموس لمن مارس إلقاء الخُطب ونظم القريض .

ولكن القرآن جاء على خلاف هـذه القاعـدة ، فلم يختلف حالـه في بلاغتـه الخارقة المعجزة . كما أنّ الأُسلوب في جميـع السور النـازلة في هـذه المدة المـديدة ، واحد . «فسورة العلق»التي هي أوّل سورة نزلت على النبي ، نظير سـورة « النصر » التي نزلت عليه في أُخريات أيامه ، في الأُسلوب والبيان ، من دون أن يكون هنـاك اختلاف بينهما .

(١) قدتضافرت الآيات عـلى أنّ القرآن نـزل نجومـاً ، وكان هـذا أحد الإشكـالات التي وجهها الكفّـار والمشركون إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فقد كانوا يطلبون منه أن يـأتي بكتاب مجمـوع مُدَوّن مـرة واحدة ، ، وهذا ما يحكيه سبحانه مجيباً عنه في قوله : ﴿ وَقالَ الذينَ كَفَروا لولاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُـرآنُ جُمْلَةً واحِدَةً ، كذلكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتيلاً ﴾ (الفرقان : الآية ٣٢) .

إنّ السور المكية التي تتراوح بين ثلاث وثمانين ، وخمس وثمانين سورة ، نزلت كلّها في ظروف قاسية كانت الرهبة فيها حليف صاحب الرسالة ، وكان الإستضعاف مسيطراً على المؤمنين به ، ومع ذلك فهي لا تتفاوت في بداعة الأسلوب ، وروعة النظم ، وكمال الفصاحة والبلاغة ، مع السور المدنية التي نزلت في ظروف هادئة كان الأمن والهدوء مستتبين فيها . فلم يكن لتلك الأحوال القاسية ، ولا لهذه الظروف الهادئة ، تأثير في فصاحة القرآن وبلاغته ، وروعة نظمه ، وبداعة أسلوبه ، فجاء الكلّ على نمط معجز لا يُدْرَك شأوه ، ولا يُشَقُّ غُبارُه .

فهذا يدلّ على أنّ هذا الكتاب ، ليس وليدقريحة النبي ونتاج ذهنه وتفكّره ، وإلّا لكثر فيه الإختلاف وتفاوت في نظمه وبلاغته ، فكان بعضه بالغاً حدّ الإعجاز ، وبعضه قاصراً عنه .

* * *

شواهد إعجاز القرآن

(٣)

عدم الإختلاف في المضمون

قد عرفت في القرينة السابقة أنّ المعجزة الخالدة نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، طيلة أعوام مختلفة من حيث الشدّة والرخاء ، والرغبة والرهبة ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، إنّ الإنسان جُبل على التكامل ، فهو يرى نفسه في كل يوم أعقل من سابقه ، وأنّ ما أتى به من عمل ، أو اخترعه من صنعه ، أو دَبّره من رأي ، أو أَبْدَعَهُ من نَظَر ، يراه ناقصاً مفتقراً إلى الإصلاح والتجديد . وهناك كلمة قيمة للكاتب الكبير عماد الدين أبو عبد الله محمد بن حامد الأصبهاني (ت ٥٩٧) ، يقول فيها : « إنّي رأيت أنّه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه ، إلّا قال في غده لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرِك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العِبَر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

وهذا في الكاتب الصادق ، وأمّا الكاتب الذي يبني أمره على الكذب والإفتراء في أنظاره وآرائه وأحكامه وإخباراته ، فلا يمكن أن يتخلص عن التناقض والإختلاف ، ولا سيما إذا تعرّض لكثير من الأُمور المهمة في مجال العقائد والتشريعات والنُّظم الإجتماعية والأخلاقية التي تتطلب لنفسها تبنّي أدقّ القواعد وأحكم الأُسس ، ولا سيما إذا طالت على ذلك المفترى أيام ، ومرّت عليه عقود ،

فإنّه سيرتبك ويقع في التناقض والتهافت من حيث لا يريد ، وقد قيل قديماً : « لا ذاكرة لكذوب » .

وإنّا نرى العالِم النابغ في علمٍ معينٍ ، يؤلّف الكتاب ويستعين عليه بالباحثين ، ثم يطيل التأمّل فيه وينقّحه ويطبعه ، فلا تمرّ سنوات قليلة إلّا ويظهر له الخطأ والإختلاف ، فلا يعيد طبعه إلّا بعد أن يغيّر منه ويصحح ما شاء .

وإنّ هذا القرآن قد تعرّض لمختلف الشؤون ، وتوسّع فيها أحسن التوسّع ، فبحث في الإلهيات والنبوات وسياسة المُدْن ونظم المجتمع ، وقواعد الأخلاق ، وقوانين السلم والحرب ، كما وصف الموجودات السماوية والأرضية ، من شمس وقمر وكواكب ورياح ، وبحار ونبات ، وحيوان وإنسان ، ووصف أهوال القيامة ومشاهدها . ومع ذلك لا تجد فيه تناقضاً واختلافاً ، أو شيئاً متباعداً عند العقل والعقلاء .

والعجب أنّه ربما يستعرض حادثة واحدة ، فيطرحها مرتين أو مرّات ، كقصة الكليم ، والمسيح ، ومع ذلك لا تجد فيها اختلافاً في الجوهر .

والحاصل أنّ الكتاب الذي يستعرض جميع الشؤون المرتبطة بالإنسانية ، كمعرفة المبدأ والمعاد والفضائل الأخلاقية والقوانين الإجتماعية والفردية ، والقصص والعبر ، والمواعظ والأمثال ، وينزل في مدّة تعدل ثلاثاً وعشرين سنة ، على اختلاف الأحوال والظروف ومع ذلك لا تجد في معارفه العالية ، وحكمه السامية ، وقوانينه الإجتماعية والفردية ، تناقضاً ولا اختلافاً ، بل ينعطف آخره على أوله ، وترجع تفاصيله وفروعه إلى أصوله وعروقه .

إنّ مثل هذا الكتاب ، يقضي الشعور الحي في حقّه أنّ المتكلم به ليس ممّن يحكم فيه مرور الأيام ويتأثّر بالظروف والأحوال ، بل هو الله الواحد القهار .

ولعلّ قوله سبحانه : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ ، وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدوا فيهِ اخْتلافاً كَثيراً ﴾[1] ، ناظر إلى كلتا القرينتين ، ويبين أنّ مقتضى الطَبع

(١) سورة النساء : الآية ٨٢ .

الإنسـاني الناقص إذا خـلا من التسديـد ، العجزُ عن الإتيـان بكتاب عـلى سبـك واحـد ، ومضمون يؤكّـد بعضه بعضـاً ، فكيف إذا كـان يعتمـد في ادّعـائـه عـلى الكذب والإفتراء ، فإنّ هذا سيكون وجهاً آخـر لوقـوعه في التهـافت والتناقض . والعـرب أحسُّوا بـالإستقامـة في أُسلوب القـرآن ، ومـرور الـزمن قـد أثبت عـدم التناقض والتهافت في ما يدعو إليه .

وأمّا « كثيراً » في قوله سبحانه : ﴿ **اختلافاً كثيراً** ﴾ ، فهو وصف توضيحي لا احترازي ، والمعنى : لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختـلافاً ، وكـان ذلك الإختلاف كثيراً على حدّ الإختلاف الكثير الذي يوجـد في كل مـا هو من عنـد غير الله . ولا تهـدف الآيـة إلى أنّ المـرتفـع عن القــرآن هـو الإختــلاف الكثـير دون اليسير[1] .

* * *

(١) لاحظ الميزان في تفسير القرآن ، ج ٥ ، ص ٧ .

شواهد إعجاز القرآن

(٤)

هَيْمَنَةُ القرآن على الكتب السماوية

بُعث النبي الأكرم وتحدّى بالقرآن المجيد ، ولما أعْجَزَ فُصحاء العرب وبُلَغاءهم في المعارضة ، وجهّوا إليه سهام التهم . فكان ممّا ألصقوه بكرامة كتابه أنّه ليس سوى أساطير الأوّلين تُملى عليه بكرة وأصيلا[١] .

وربما يتهمون النبي بأنّه يأخذه من بَشَر ، كما يحكيه سبحانه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾[٢] .

قال في الكشاف : « أراد بالبشر غلاماً كان لحُوَيْطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه ، اسمه عائش أو يعيش ، وكان صاحب كتب . وقيل هو « جبر » غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي ، وقيل عبدان « جبر » و« يسار » ، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل ، وقيل هو سلمان الفارسي »[٣] .

---

(١) اقتباس من قوله سبحانه : ﴿ وَقالُوا أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها ، فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلا ﴾ (الفرقان : الآية ٥) وفسّر في الكشاف قوله بـ ﴿ اكتتبها ﴾ بمعنى اكتتبها لنفسه ، فكأنّ التاء للدلالة على أنّ كتابته كانت لنفسه .

(٢) سورة النحل : الآية ١٠٣ .

(٣) تفسير الكشاف ، ج ٣ ، ص ٢١٨ .

وعلى كل تقدير ، كان العدو يتهم النبي بـأنّه أخـذ ما جـاء به ، من الكتب السماوية الماضية .

فعـلى ذلك ، من الجـدير أن نقـارن بين القـرآن ، وسائـر الكتب السماويـة المتقـدمة عليـه ، حتى يتّضح مـدى الإختلاف بينهـما . وهذه المقـارنـة من أحـدث المناهج التطبيقية التي تفيـد علماً بـأنّ النبي الأكرم لم يعتمـد فيما جـاء به عـلى هذه الكتب . ولنركز على ما جاء به العهدان في مجال الأنبياء ، فنذكر ما جاء به القـرآن أوّلاً ، ثم نتبعه بما جاء فيهما .

وقبل الخوض في المقصود نذكر بأمرين :

الأول ـ إنّ الـذكر الحكيم يعـترف بعظمـة التوراة وحجيتهـا ، وأنّها كتـاب سماوي مثل القـرآن ، وأنّه يجب عـلى كل مسلم أن لا يُفَـرِّق بين نبيٍّ وآخـر ، ولا يفـرق بين كتبهم ، يقـول سبحانـه : ﴿ **آمَنَ الرَّسـولُ بمـا أُنْـزِلَ إلَيْـهِ مِنْ رَبِّـهِ ، والمُؤْمِنونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ وملائِكَتِـهِ وكُتُبِهِ ، لا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وقالـوا سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفرانَكَ رَبَّنا وإِلَيْكَ المَصِيرُ** ﴾[1] .

إنّ القرآن يصف التوراة في آياته ، بقوله :

﴿ **إنّا أَنْزَلْنا التَوْراةَ فِيها هُدىً ونُورٌ** ﴾[2] .

﴿ **وَعِنْدَهُمُ التَوْراةُ فيها حُكْمُ اللهِ** ﴾[3] .

كما يصف الإنجيل بقول : ﴿ **وآتَيْناهُ الإِنْجيلَ ، فيهِ هُدىً ونُورٌ** ﴾[4] .

ويصفهما معاً ، بقوله : ﴿ **وَلَـوْ أَنَّهُمْ أَقامـوا التوراة والإنجيـلَ ، وما أُنْـزِلَ إليهم من ربِّهم ، لأَكلوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ** ﴾[5] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٥ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٤٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤٣ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٤٦ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٦٨ .

وعلى ضوء ذلك ، فهذه الكتب السماوية كلّها نور وهداية ، غير أنّه في مواضع أخرى يندد بعلماء اليهود والنصارى متهماً إيّاهم بأنّهم حرّفوا كتبهم ودسّوا فيها ما ليس من الله ، وكتموا آيات الله تبارك وتعالى .

يقول سبحانه : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَنْ مواضِعِهِ ﴾[1] .

ويقول : ﴿ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِما عَقَلُوهُ ﴾[2] .

ويقول : ﴿ إنَّ الذينَ يَكْتُمونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ والهُدى مِنْ بَعْدما بَيَّناهُ للنَّاسِ في الكِتابِ ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنونَ ﴾[3] .

وفي ضوء هذه الآيات يقف الباحث على أنّ سهم الإعتراض في هذا المجال ليس متوجهاً إلى الكتب الصحيحة السماوية ، بل إلى المحرّف منها ، الذي هو نتيجة تكالب الأحبار والرهبان على الدنيا ، وتغيير حكم الله طلباً لمرضاة الحُكّام ، وأصحاب الأموال .

وبما أنّ الموجود في زمن النبي ، والدارج عند نزول القرآن ، هو الكتب المحرّفة لا الأصلية ، فالبحث المقارن يثبت ، أنّ النبي لم يعتمد على شيء من هذه الكتب ، فيما يسرد من القصص والأحكام ، أو ما يبيّن من المعارف والعقائد ، وإلّا يجب أن تظهر فيه سمات الأخذ والتقليد . ولا يصحّ لأحد أن يحتمل أنّ النبي اطّلع على الصحيح من هذه الكتب ، وذلك لأنّ الأُمة العربية كانت أُميّة ، غير واقفة على هذه الكتب ، ولا متدارسة لها ، وكانت إنّما توجد هذه الكتب عند الأحبار والرهبان ، وأولئك لم يكن في أيديهم إلّا ما تطرّق إليه التحريف والدسّ طيلة قرون .

الثاني : قد اخترنا في مجال المقارنة ، موضوع الأنبياء ، وذلك لأنّ هذا

---

(١) سورة النساء : الآية ٤٦ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٧٥ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٩ .

المجـال من أبرز مـا يفترق فيـه القرآن عن العهـدين . والأنبياء هم رجـال الوحي والهداية ، ورجال الإصلاح والتربية ، قاموا بخـدمة النـوع الإنساني ، ولاقـوا من المصائب والمتاعب الكثير في سبيل دعـوتهم ، فيصفهم سبحانـه في القرآن بقـوله : ﴿ وإنّهم عندنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخْيارِ ﴾[1] .

وبقـولـه : ﴿ إنَّ الله اصْـطَفىٰ آدَمَ ونُـوحـاً وآلَ إبـراهيمَ وآلَ عِمْـرانَ عـلى العالَمِينَ ﴾[2] .

إذا عرفت ذلك فلنبدأ بالمقارنة ، ونكتفي بـالأنبياء العـظام : آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، ولوط ، ويعقوب ، وداود ، وسليمان ، والمسيح ، عليهم السلام .

وبعـد المقارنـة يتجلى أنّ القـرآن لم يتـأثـر في تقييمهم وتـوصيفهم بفضـائـل الأخـلاق ، بالعهـدين اللّذَيْن يصفـان رجال الـوحي بـرذائـل الأوصـاف وسيئـات الأعمال ، كما سترى . نعوذ بالله من سوء الظن برجالات الوحي والهداية .

* * *

١ ـ آدم في القرآن والتوراة

يقول سبحانه في خلق الإنسان : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلى المَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُوني بِأَسماءِ هٰؤلاء إنْ كُنْتُم صادِقِينَ * قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنا إنَّـكَ أَنْتَ العليمُ الحَكيمُ * قالَ يـا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمـائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَـأَهُمْ بِـأَسْمائِهِمْ قـال أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰـواتِ والأَرْضِ وأَعْلَمُ ما تُبْـدونَ ومـا كُنْتُمْ تَكْتُمـونَ * وإذْ قُلْنـا لِلمَـلائِكَـةِ اسْجُـدوا لآدَمَ فَسَجَـدوا إلاَّ إبْليسَ أَبىٰ وَآسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرينَ * وَقُلْنا يا آدَمُ آسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُـكَ الجَنَّةَ وَكُـلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما ، ولا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فتكونا مِنَ الظّالِمِينَ * فأَزَلَّهُما الشَّيْطانُ عَنْهـا فأَخْـرَجَهُما مِمَّـا كانـا فِيـهِ ، وَقُلْنـا اهْبِـطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌ ، وَلَكُمْ في

---

(١) سورة ص : الآية ٤٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٣ .

الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[1] .

هذه هي قصة أول الخليقة ، وتلك مكانته عند الله سبحانه ، وذلك سجود الملائكة إجلالاً لمقامه ، وتكريماً له ، وهذا عِلْمُ آدم بالأسماء وحقائق الأشياء ، وأنّ الشيطان وسوس إليه ، فأزَلّه ، فأكل من الشجرة الممنوعة ، فكانت النتيجة هبوطه إلى الأرض .

أمّا التوراة ، فتذكر في الأصحاحين الثاني والثالث من سِفر التكوين قصة آدم وحواء فتقول في الأصحاح الثاني :

« وأَخَذَ الرَّبُ الإِلٰه ، آدَمَ ، وَوَضَعَهُ في جنّة عدن ليعملها ويحفظها * وأوصى الرَّب الإِلٰه آدَمَ قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً * وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكُلْ منها ، لأنّك يوم تأكل منها تموت موتاً » . ثم بعد أن تروي خلقة حَوّاء من ضلع آدم ، تقول :

« وكانا كلاهما عريانين ـ آدمُ وامرأتُه ـ وهما لا يخجلان »[2] .

ثم جاء في الأصحاح الثالث : « وكانت الحية أحْيَلَ جميع حيوانات البريّة التي عملها الرب الإله . فقالت للمرأة : أحقاً قال الله لا تأكلا من كُلِّ شجر الجنة * فقالت المرأة للحيّة : من ثمر الجنة نأكل * وأمّا ثمر الشجرة التي في وسط الجنة ، فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلا تموتا * فقالت الحيّة للمرأة : لن تموتا * بل الله عالم أنّه يوم تأكلان منه تنفتح أعْيُنُكما ، وتكونان كالله عارِفَين الخَيْرَ والشرَّ * فرأت المرأة أنّ الشجرة جيدة للأكل ، وأنّها بَهجة للعيون ، وأنّ الشجرة شهيّة للنظر ، فأخذت من ثمرها ، وأكلت ، وأعطت رَجُلَها أيضاً معها فأكل * فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان ، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر » .

« وسمعا صوت الرَّب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ

(١) سورة البقرة : الآيات ٣٠ ـ ٣٧ .

(٢) لأنّهما لم يكونا يدركان بعدُ الخير والشر .

آدم وامرأته من وجه الرَّبِّ الإله في وسط شجر الجنة * فنادى الرَّبُّ الإله آدم وقال له : أين أنت ؟ * فقال سمعت صوتك في الجنة ، فخشيت ، لأنّي عريان فاختبأت * فقال من أعلمك أنّك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ * فقال آدم : المرأة التي جعلتَها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت » .

إلى أن تقول : « وقال الرَّبُّ الإله : هو ذا الإنسان قَدْ صار كواحد منّا عارفاً الخير والشر ، والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد * فأخرجه الرّب الإله من جنة ليعملِ الأرض التي أخذ منها * وأقام شرقي جنّة عدن ، الكَرُوبيمَ ، ولهيب سيف متقلّب ، لحراسة طريق شجرة الحياة »(1) .

إنّ في هذه الأسطورة ، قضايا غريبة تمسّ الله جلّ جلاله وتحطّ من كرامة نبيّه ، وكلّ واحدة منها إساءة في حدّ ذاتها ، وخِزْيٌ وعارٌ .

أولاً ـ تنسب الكذب إلى الله سبحانه كما في قوله : « وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ ، فلا تأكل منها ، لأنّك يوم تأكل منها تموت موتاً » . والحال أنّها شجرة المعرفة .

ثانياً ـ تنسب إلى الله تعالى أنّه خشي من معارضة آدم إياه ، وأن يكون مثله في معرفة الخير والشر ، والخلود ، ولكن آدم نال المقام الأول (المعرفة) ، وخشي سبحانه من نيله المقام الثاني (الخلود) فأخرجه .

ثالثاً ـ تصفه سبحانه بالجسمية ، إذ تقول : « وسمعا صوت الربّ الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار » .

رابعاً ـ تنسب الجهل إلى الله سبحانه ، وأنّه غير عالم بما يحدث قريباً منه ، إذ تقول : « فاختبأ آدم وامرأته من وجه الربّ الإلهٰ في وسط شجر الجنة ، فنادى الربّ الإله آدم ، وقال له : أين أنت ؟ الخ » .

---

(1) لاحظ العهد القديم ، سِفْر التكوين ، الأصحاحين الثاني والثالث ، ص ٥ ـ ٧ ، طبعه دار الكتاب المقدس .

خامساً ـ الحيّة (الشيطان) أعطف من الله على آدم ، كما تقول : « بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفَيْن الخير والشر » .

سادساً ـ أنّه سبحانه عاقب الشيطان (الحيّة) من غير ذنب ، وأقصى ما ارتكبه هو أنّه علّم آدم وثقّفَه ، ونصحه ، وأخرجه من ظلمة الجهل إلى نور المعرفة .

سابعاً ـ إنّما أُخرج آدم من الجنة لكونه أصبح إنساناً عالماً بالخير والشر ، فصار عِلْمُهُ وَبالاً عليه .

إلى غير ذلك من المخزيات الواردة في هذه القصة .

* * *

٢ ـ نوح في القرآن والتوراة

إنّ الذكر الحكيم يعظّم شيخ الأنبياء نوحاً ويصفه بأنّه « محسن » ، و « مؤمن » ، و « صالح » ، و « شكور » ، ومطّلع على المعارف الغيبية .

يقول سبحانه : ﴿ **سَلامٌ على نُوحٍ في العالَمِينَ * إنّا كذلك نَجْزي المُحْسِنينَ * إنَّهُ من عِبادِنا المُؤْمِنينَ** ﴾[١] .

ويقول سبحانه : ﴿ **إنَّهُ كانَ عبداً شَكوراً** ﴾[٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ **ضَرَبَ الله مَثَلاً للّذين كَفَروا آمرأة نوحٍ وامْرأةَ لوطٍ ، كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ من عِبادِنا صالِحَيْنِ** ﴾[٣] .

ومن أسمى المعارف التي أُثرت عن شيخ الأنبياء أنّه كان يعتقد برابطة وثيقة بين عمل المجتمع ، الحسن أو القبيح ، والظواهر الطبيعية . وأنّ عمل الإنسان ،

(١) سورة الصافات : الآيات ٧٩ ـ ٨١ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٣ .
(٣) سورة التحريم : الآية ٦٦ .

يؤثّر في انفتاح أبواب الخير من نزول المطر ، وكثرة الأموال والأولاد ، وجريان الأنهار ، وخصب الأرض .

وفي هذا المجال يحكي عنه سبحانه قوله : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً * يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُم مِدْراراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَل لَكُمْ جَنّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهاراً ﴾[1] .

وإنّ القرآن يصفه بالصمود والثبات أمام أعداء دعوته ، صموداً قليل النظير ، ويقول حاكياً عنه : ﴿ قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً * وإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلوا أَصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ واسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسراراً ﴾[2] .

وإنّك لترى صحيفةً نَضِرَةً من صحائف ثباته في دعوته فيما يحكيه سبحانه من صنع سفينته ، بقوله : ﴿ وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِروا مِنْهُ ، قالَ : إِنْ تَسْخَروا مِنّا ، فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرونَ ﴾[3] .

وَظَلَّ شيخُ الأنبياء يعيش مع قومه الألداء ألف سنة إلاّ خمسين عاماً ، حتى جاء أمر الله ، ففار التنور وغرق من غرق ، ونجا من نجا ، يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطوفانُ وَهُمْ ظالِمونَ * فَأَنْجَيْناهُ وأَصْحابَ السَّفينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً للعالَمِينَ ﴾[4] .

هذه صحائف حياته المشرقة الوضّاءة ، وفي مقابل ذلك نقف على التصوير القاتم الذي تُصَوِّرُهُ التوراةُ لهذا الرجل العظيم ، تقول :

« وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً * وشرب من الخمر فسكر وتعرّى

---

(١) سوره نوح : الاية ١٠ ـ ١٢ .
(٢) سورة نوح الآيات ٥ ـ ٩ .
(٣) سورة هود : الآية ٣٨ .
(٤) سورة العنكبوت : الآيتان ١٤ و ١٥ .

داخل خبائه * فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً * فأخذ سام ويافث الرِّداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء ، فلم يُبصرا عورة أبيهما * فلمّا استيقظ نوحٌ من خمره علم ما فعل به ابنُهُ الصغير * فقال ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته »[1] .

ولا نعلّق على هذا النصّ شيئاً ، ونحمّل القضاء فيه إلى الباحثين الكرام .

* * *

٣ ـ إبراهيم في القرآن والتوراة

إنّ قصة إبراهيم في الذكر الحكيم تعرب عن مكانته السامية عند الله سبحانه ، مكانة لا يصل إليها إلاّ الأمثل من الأنبياء ، حيث إنّه سبحانه ذكر له ما يقرب من خمسة عشر وصفاً ، كل منها يدلّ على عظمته وسمو مكانته عند الله فهو : « إمام » ، « صالح » ، « حنيف » ، « مسلم » ، « موقن » ، « أوّاه » ، ـ « حليم » ، « منيب » ، « قانت » ، « شاكر » ، « مؤمن » ، « أمّة » بنفسه ، « خيِّر » ، « مصطفى » ، و« صاحب قلب سليم » .[2] .

وهذه السمات بكثرتها وفخامتها ، لم ترد في حق نبي آخر .

وأمّا بطولته وثباته في مقابل الوثنيين ، فحدّث عنها ولا حرج ، ويكفي في ذلك أنّه دخل معبدهم ، ﴿ **فَراغَ إلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ ألا تَأْكُلونَ * ما لَكُمْ لا تَنْطِقونَ * فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليَمينِ * فأَقْبَلوا إلَيه يَزِفُّونَ . . .** ﴾[3] .

---

(١) العهد القديم ، سفر التكوين ، الأصحاح التاسع ، الجملات ٢٠ ـ ٢٥ ، ص ٥ ، ط دار الكتاب المقدّس .

(٢) لاحظ السور التالية :

ـ البقرة : ١٢٤ و١٣٠ ـ آل عمران : ٦٧ . ـ الأنفال : ٦٥ .

ـ التوبة : ١١٤ . ـ هود : ٧٥ . ـ النحل : ١٢٠ و١٢١ .

ـ الصافات : ٤٨ و١١٠ ـ ص : ٤٧

(٣) لاحظ سورة الصافات : الآيات ٩١ إلى ٩٩

وأي مقام أكرم وأعظم من إراءته ملكوت السموات والأرض ، كما يقول تعالى : ﴿ وكذلك نُري إبراهيمَ ملَكوتَ السَّموات والأرضِ وليكونَ مِنَ المُوقِنينَ ﴾[١] .

وأي تفانٍ في جنب الله ، وطلب مرضاته سبحانه ، أقوى من تفانيه بإستعداده لتضحية ولده وذبحه إمتثالاً لأمره سبحانه[٢] .

هذا هو إبراهيم ، بطل التوحيد ، في الذكر الحكيم ، فهلم نقرأ صحيفة حياته التي صوّرتها التوراة المحرّفة ، بما يندى له الجبين من قراءته وسماعه ، تقول :

« وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرّب هناك ، لأنّ الجوع في الأرض كان شديداً * وحدث لما قرب أنْ يدخل مصر أنّه قال لساراي إمرأته : إنّي قد علمت أنّك إمرأة حسنة المنظر * فيكون إذا رآك المصريون أنّهم يقولون هذه إمرأته ، فيقتلونني ويستبقونك * قولي إنّك أُختي ، ليكون لي خير بسببك ، وتحيا نفسي من أجلك * فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أنّ المصريين رأوا المرأة أنّها حسنة جداً * ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون * فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال * فضرب الربّ فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي إمرأة أبرام * فدعا فرعون أبرام وقال : ما هذا الذي صنعت بي ، لماذا لم تخبرني أنّها إمرأتك ؟ * لماذا قلت هي أُختي حتى أخذتُها إليَّ لتكون زوجتي . والآن هو ذا إمرأتك ، خذها واذهب * فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيّعوه وامرأته وكل ما كان له »[٣] .

فمغزى هذه الأُسطورة أنّ إبراهيم صار سبباً لأخذ فرعون سارة ، زوجة

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٥ .

(٢) لاحظ سورة الصافات : الآيات ١٠٢ إلى ١٠٧ .

(٣) العهد القديم ، سِفْر التكوين ، الأصحاح الثاني عشر ، الجملات ١٠ ـ ٢٠ ، ص ١٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

إبراهيـم، زوجةً له . وحاشا إبراهيم ، وهو من أكرم أنبياء الله ، أن يرتكب ما لا يرتكبه أدنى الناس . وهو وإنْ فَعَلَ ذلك طلباً لنجاة نفسـه ، لكن أصحاب الغـيرة والشهامة من الرجال يضحّون بأنفسهم دون أعراضهم .

ثم من أين علم إبـراهيم أنّه لـو عرفهـا المصريون إمـرأته يقتلونـه ، مـع أنّ المستقبل لم يصدِّق ذلـك ، وأظْهَرَ فـرعون رجـلاً موضـوعياً ، لا يتجـاوز أعراض الناس .

* * *

٤ ـ لوط في القرآن والتوراة

إنّ لوطاً ، أحد الأنبياء المعاصرين لإبراهيم المقتفين لشريعته ، وكـان رجلاً صمـوداً في مجـال النهي عن المنكـر ، يقـول سبحـانـه : ﴿ إذْ قـالَ لَهُمْ لـوطُ ألا تَتَّقونَ * إنِّي لَكُمْ رَسولٌ أمـينٌ فاتَّقوا الله وأَطيعونِ * ومـا أسألُكُم عَليـه من أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ على ربِّ العالمين * أتأتونَ الذُّكْرانَ مِنَ العـالَمِينَ * وتـذَرونَ ما خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَـلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عـادونَ * قالـوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يـا لَـوطُ لَتَكُـونَنَّ مِنَ المُخْرَجِينَ * قالَ إنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ القـالِين رَبِّ نَجِّني وأَهْلي مِمَّـا يَعْمَلونَ * فَنَجَّيْناهُ وأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إلاَّ عجوزاً في الغابِرينَ ﴾(١) .

والقرآن يذكر لوطاً في عِداد الأنبياء العظام ويقول : ﴿ وإسْمَاعِيـلَ واليَسَعَ ويُونُسَ ولوطاً ، وكُلاًّ فَضَّلنا على العالَمِينَ ﴾(٢) .

وفي آيـة أخرى يقـول : ﴿ ولوطـاً آتينـاه حُكْـماً وعَلماً وَنَجّيْنـاهُ مِنَ القَـريـةِ التي كانَتْ تَعْمَلُ الخبائِث ، إنَّهُمْ كانوا قَوْمَ سُوْءٍ فاسِقِينَ ﴾(٣) .

فَهَلـمّ نرى ما تذكره التوراة في حقّه تقول :

« وصعد لوط من صُوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه ، لأنّه خاف أن يسكن

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٦١ ـ ١٧١ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٨٦ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٧٤ .

في صوغر ، فسكن في المغارة هو وابنتاه * وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كلِّ الأرض * هَلُمّ نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه ، فنحيي من أبينا نسلاً * فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها * وحدث في الغد أنَّ البكر قالت للصغيرة إنّي قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي إضطجعي معه ، فنحيي من أبينا نسلاً * فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها * فحبلت إبنتا لوط من أبيهما * فولدت البكر إبناً ودعت إسمه مُوآب ، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم * والصغيرة أيضاً ولدت إبناً ودعت إسمه بَنْ عَمّي ، وهو أبو بني عَمّون إلى اليوم »[1] .

عجباً والله ، أي منطق هذا ! وما قيمة نبيّ لا يفرّق بين الخمر والماء ، ويسكر إلى حدّ يفعل ما ذكرته مع بنتيه . ولو صحت هذه القصة ، فالموآبيين ، وبني عمّون ، ينتهي نسبهم إلى الفسق والفجور ، أعاذنا الله من الوقيعة في الأنبياء .

وكفى في هذا النصّ دلالة على أنّ القرآن لم يُتّخذ من التوراة ، لأنّه لم يذكر في حقّ بنات نوح سوءً ، وإنّما ندّد بزوجته ، كما عرفت .

* * *

٥ ـ يعقوب في القرآن والتوراة

إنّ يعقوب أحد الأنبياء العظام ، يصفه سبحانه بأنّه كان محسناً ، وصالحاً ، ومصطفى ، وخيِّراً ، وبصيراً ، وقد جعل النبوة في نسله .

يقول سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنا له إسْحٰقَ وَيَعْقوبَ كُلاً هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ

---

١) العهد القديم ، سِفْر التكوين ، الأصحاح التاسع عشر ، الجملات ٣٠ ـ ٣٨ ، ص ٢٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَتِهِ داوُدَ وسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيوسُفَ ومُوسى وهارونَ ، وَكذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنينَ ﴾[1] .

ويقـول سبحـانـه : ﴿ وَوَهَبْنـا لَـه إِسْحٰقَ وَيَعْقُـوبَ نـافِلَةً وَكُـلاًّ جَعَلْنـا صالِحِينَ ﴾[2] .

ويقـول سبحانـه : ﴿ وَوَهَبْنا لـه إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجعَلْنـا في ذُرِّيَتِـهِ النُّبُـوَّةَ والكِتَابَ . . . ﴾[3] .

ويقول سبحانه : ﴿ واذْكُرْ عِبادَنا إِبـراهيمَ وإِسْحٰقَ وَيَعْقوبَ أُولِي الأَيْـدي والأَبْصارِ * إِنَّا أَخْلَصْنـاهُمْ بخالِصَـةٍ ذِكرى الـدَّارِ * وإِنَّهُمْ عِنْدَنـا لَمِنَ المُصْطَفَـيْنَ الأَخْيارِ ﴾[4] .

ولم يزل يعقوب يكـافح الـوثنية ، وقـد أوصى بالتـوحيد أولاده في آخـريات حياته ، كما يقول سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدونَ مِنْ بَعْدي ، قالوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وإِلٰهَ آبائِكَ إِبْـراهِيمَ وإِسْماعِيلَ وإِسْحاقَ إِلٰهاً واحداً ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمونَ ﴾[5] .

فَهَلُمَّ معنـا نقف على نصّ التـوراة في حقّ هذا النبي العـظيم ، فهي تُعَرِّفـه بأنّه كاذب مخادع ، كما تصف أباه بأنّه شارب للخمر .

إنّ إسحـاق أراد أن يعطي إبنـه « عيسو » بـركة النبـوة ، فخـادعـه يعقـوب وأوهمه أنّه « عيسو » ، وقد كان أمر يعقـوب « عيسو » أن يصنع طعامـاً كما يحب ، ويـأتي به ليـأكل حتى يبـاركه قبـل أن يموت . وقـد علم بـذلـك يعقـوب ، تقـول التوراة :

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٨٤ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٧٢ .

(٣) سورة العنكبوت : الآية ٢٧ .

(٤) سوره ص : الآيات ٤٥ ـ ٤٧ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٣٣ .

« فَدَخل إلى أبيه وقال : يا أبي . فقال : ها أنذا ، من أنت يا ابني * فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلّمتني ، قم اجلس وكُلْ من صيدي لكي تباركني نفسك * فقال إسحق لابنه : ما هذا الذي أسرعت لتجديا إبني ؟! فقال إنّ الربّ إلهك قد يَسّرَ لي * فقال إسحق ليعقوب : تقدّم لأجُسَّكَ يا ابني ، أأنت هو إبني عيسو أم لا ؟ * فتقدّم يعقوب إلى إسحاق أبيه ، فجسّه ، وقال : الصوتُ صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا عيسو * ولم يعرفه ، لأنّ يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه ، فباركه * وقال هل أنت هو ابني عيسو ، فقال : أنا هو * فقال : قدّم لي لآكل من صيد إبني حتى تباركك نفسي ، فقدّم له ، فأكل وأحضر له خمراً فشرب !! . . . » إلى أن تقول :

« وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب ، ويعقوب قد خرج من لدن إسحاق أبيه ، أنّ عيسو أخاه أتى من صيده ، فصنع هو أُطْعِمةً ، ودخل بها إلى أبيه ، وقال لأبيه : ليقم أبي ويأكل من صيد إبنه حتى تباركني نفسك * فقال له إسحق : أبوه : من أنت ؟ فقال : أنا إبنك بكرك عيسو * فارتعد إسحاق إرتعاداً عظيماً » . . . « فقال : قد جاء أخوك بمكرٍ وأخذ بركتك »[1] .

٦ ـ داود وسليمان في القرآن والعهدين

يحدّث القرآن عن داود ويصفه بالشجاعة ، وأنّه أحد من أُعطي الكتاب ، وجُعل خليفة في الأرض ليحكم بين الناس بالحق ، وأنّه أُوتي العلم والحكمة وفَصْلَ الخطاب . وقد بلغت عظمته الروحية إلى حدّ أنّه كان عندما يسبّح ، تسبّح الجبال والطير معه .

كما أنّه يصف إبنه سليمان بالعلم والسيطرة على الفضاء ، وإليك بعض الآيات الواردة في هذا المجال .

---

(١) العهد القديم ، سِفْر التكوين ، الأصحاح السابع والعشرون ، لاحظ : الجملات ١٨ ـ ٣٨ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ ، ط دار الكتاب المقدس .

يقول سبحانه : ﴿ وآتاهُ اللهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشاءُ ﴾(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وآتَيْنَا داودَ زَبُوراً ﴾(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ إصْبِرْ على ما يَقولونَ واذْكُرْ عَبْدنا داوُدَ ذا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنا الجبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشيِّ والإشْراقِ * والطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وآتَيْناهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطابِ ﴾(٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ يا داوُدُ إِنّا جَعَلْناكَ خَليفَةً في الأَرْضِ فاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالحَقِّ ﴾(٤) .

هذا بعض ما ذكره القرآن في داود ، كما يذكر ولده البارّ بقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ سُلَيْمانَ عِلْماً ، وقالا الحَمْدُ للهِ الَّذي فَضَّلَنا على كثيرٍ مِنْ عِبادِهِ المُؤْمِنينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وقالَ يا أَيُّها النّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وأُوتِينا مِنْ كُلِّ شيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ ﴾(٥) .

وإليك ما ينسبه العهد القديم إليهما ، ممّا يندى له الجبين :

« وأمّا داودُ فأقام في أُورشَليم * وكان في وقت المساء أنّ داود قام عن سريره ، وتمشّى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح إمرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً * فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : أليست هذه بَتْشَبَع بِنْتَ أَليعام ، إمرأة أوريّا الحِثّيّ(٦) * فأرسل داود رسلاً وأخذها ، فدخلت إليه ، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ، ثم رجعت إلى بيتها * وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إنّي حبلى » .

ثم يستمر في سرد هذه الخرافة ، وأنّ داود استدعى زوجها وسأله عن مسار

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٦٣ .
(٣) سورة ص : الآيات ١٧ ـ ٢٠ .
(٤) سورة ص : الآية ٢٦ .
(٥) سورة النمل : الآيتان ١٥ ـ ١٦ . وقد اكتفينا بهذا المقدار من الآيات .
(٦) وهو من قادة جيوشه .

الحرب ووضع الجيوش ، وأمره أن يرجع إلى بيته ، لكن الزوج لم يرجع بل نام على باب بيت الملك ، ولما علم داود بالأمر اعتذر الزوج بأنّه كيف يذهب إلى بيته ليأكل ويشرب ويضطجع مع امرأته والجيوش نازلة في الصحراء ويهوذا ساكنون في الخيام ، وفي اليوم التالي أرسل داود رسالة إلى قائد جيشه يأمره فيها أنْ يجعل هذا الزوج في مقدم الجيوش ليقتل ، ففعل ذلك ، فقتل .

« فلما سمعت أمرأة أُوريّا أنّه قد مات أُوريا رجلُها ، ندبت بعلها * ولما مضت المناحة أرسل داود وضمّها إلى بيته وصارت إمرأة له وولدت له إبناً ، وأمّا الأمر الذي فعله داود فَقَبُحَ في عيني الرَّبّ »[1] .

هذا ما يذكره في حقّ الوالد ، وأمّا الولد فيعرفه العهد القديم والإنجيل أيضاً بأنّه ابن داودَ من أُوريّا هذه[2] .

والعجب أنّ الولد اقتفى أثر الوالد في المعاشقة ومغازلة النساء ، فانظر إلى ما جاء في « الملوك الأول » :

« وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ، موآبيات ، وعَمُّونيات ، وأدوميات ، وصيدونيات ، وحثيات * من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنّهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم ، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة * وكان له سبع مئة من النساء السيدات ، وثلاث مئة من السراري ، فأمالت النساء قلبه * وكان في زمان شيخوخة سليمان أنّ نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الربّ إلهِهِ كقلب داود أبيه * فذهب سليمان وراء عشتروت إلاهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين * وعمل سليمان الشرّ في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه * حينئذٍ بنى سليمان مرتفعة لكموش وجس الموآبيين على الجبل الذي

---

(١) لاحظ : العهد القديم ، صموئيل الثاني ، الأصحاح الحادي عشر ، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) العهد القديم ، صموئيل الثاني ، الأصحاح الثاني عشر ، الجملة ٢٤ ، ص ٥٠١ . وإنجيل متى ، الأصحاح الأول ، الجملة السادسة ، ص ٢ ، ط دار الكتاب المقدس .

تجاه أورشليم ولمولك رجس بني عمّون * وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي يوقدن ويذبحن لآلهتهن * فغضب الربّ على سليمان . . . » . وهكذا يتابع نقل غضب الرب عليه ثم تهديده إيّاه بتمزيق مملكته[1] .

هَبْ أنَّ النبي لا يلزم أنْ يكون معصوماً ـ مع أنّ الأدلّة العقلية قائمة على لزوم عصمته ـ فهل يجوز في حكم العقل أن يعبد الأصنام ويبني لها المرتفعات ، ثم يكون داعية للناس إلى التوحيد وعبادة الله ؟! .

٧ ـ المسيح في القرآن والإنجيل

إنّ المسيح المبشِّر بالنبي الأعظم ، من الأنبياء العظام ، وصفه سبحانه بقوله :

﴿ إنّما المَسيحُ عيسى بنُ مَرْيَمَ رَسولُ الله وكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾[2] .

وبقوله : ﴿ وآتَيْنا عيسى بنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ ، وأيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ ﴾[3] .

وقد بلغت عناية الله تعالى به أنْ أقدره على التكلّم وهو في المهد صبياً ، يقول سبحانه : ﴿ وَتُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ ﴾[4] .

وممّا نلفت النظر إليه أنّه سبحانه ينقل عنه قوله : ﴿ وَجَعَلَني مُبارَكاً أَيْنَما كُنْتُ وأَوْصاني بالصَّلاةِ والزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيّاً ، وَبَرّاً بِوالِدَتي وَلَمْ يَجْعَلْني جَبّاراً شَقِيّاً ﴾[5] .

---

(١) العهد القديم ، الملوك الأول ، الأصحاح الحادي عشر ، الجملات ١ ـ ١٣ ، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤ . ط دار الكتاب المقدس .

(٢) سورة النساء : الآية ١٧١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٨٧ .

(٤) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

(٥) سورة مريم : الآية ٣٢ .

فاتل هذه الآية وتأمّل فيها أوصاه الله سبحانه من البرّ بوالدته ، ثم قارن ذلك بما ينقله عنه الإنجيل من ترك إكرامه لوالدته ، يقول الإنجيل :

« فَجاءت حينئذٍ إخوته وأُمُّه وَوَقفوا خارجاً وأرسلوا إليه يدعونه * وكان الجَمْع جالساً حوله فقالوا له هوذا أُمّكَ وإخْوَتُك خارجاً يطلبونك * فأجابهم قائلاً : مَنْ أُمّي وإخوتي ؟ * ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال : ها أُمي وإخْوتي ، لأنَّ من يَصْنَعْ مشيئة الله هو أخي وأُختي وأُمّي »(١) .

فأين المسيح الذي ينكر أُمَّه القديسة البارّة ، ويحرمها رؤيته ، ويُعَرِّضُ بِقَداسَتِها ، ويُفَضِّل تلاميذه عليها ، مِنَ المسيح الذي عرّفه القرآن بقوله : ﴿ وَبَراً بِوالِدتي ﴾ ، مع أنّ هؤلاء التلاميذ هم الذين تركوه ، ووصفهم المسيح بقوله : « ما بالكم خائفين هكذا ، كيف إيمان لكم »(٢) .

المسيح يحول الماء خمراً ليشرب الناس

إنّ الخمر إحدى الخبائث التي حرّمها الله سبحانه في الشرائع السماوية ، من غير فرق بين شريعة وأُخرى ، وها هو سِفْر اللاويين ، من العهد القديم يقول :

« وَكَلّم الله هارون قائلاً ، خمراً ومسكراً لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الإجتماع ، لكيلا تموتوا ، فرضاً دهرياً في أَجيالكم ، وللتمييز بين المقدَّس والمحلَّل ، وبين النجس والطاهر »(٣) .

ومع ذلك فالمسيح يصنع للمحتفلين بالعُرس خمراً ليشربوا كما يقول الإنجيل :

« وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أمّ يسوع هناك * ودعي أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس . ولما فرغت الخمر قالت أمُّ يسوع له ليس لهم

---

(١) إنجيل مُرقس ، الأصحاح الثالث ، الجملات ٣١ ـ ٣٥ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) إنجيل مرقس ، الأصحاح الرابع ، الجملة ٤٠ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٣) سِفْر اللاويين ، الأصحاح العاشر ، الجملات ٨ ـ ١١ ، ص ١٧١ ، ط دار الكتاب المقدس .

خمر * قال لها يسوع : ما لي ولك يا إمرأة ، لم تأت ساعتي بعد !! * قالت أمّه للخدّام : مهما قال لكم فافعلوه * وكانت ستة أجرانٍ من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود ، يَسَع كل واحد مِطْرَيْنِ أو ثلاثة * قال لهم يسوع : إملأوا الأجران ماءً ، فملأوها إلى فوق * ثم قال لهم : إستقوا الآن ، وقدّموا إلى رئيس المتكأ ، فقدّموا * فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً ـ ولم يكن يعلم من أين هي لكن الخدّام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا ـ دعا رئيس المتكأ العريس * وقال له : كل إنسان إنّما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذٍ الدون . أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن * هذه بداية الآيات التي فعلها يسوع في قانا الجليل ، وأظهر مجده ، فآمن به تلاميذه »[1] .

* * *

هذه نماذج ممّا في العهدين من الأضاليل والأباطيل التي لا تتفق مع البرهان ، ولا يصدّقه المنطق ، وهي تثبت أمرين :

الأول : أنّ هذه الكتب السخيفة ليست من وحي السماء ، وإنّما هي من منشآت الأحبار والرهبان ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فموّهوا الكتب السماوية بخرافاتهم .

الثاني : أنّ النبي الأكرم لم يقتبس معارفه وقصصه وأحكامه من هذه الكتب ، وإنّما هي مأخوذة من وحي السماء على قلبه ، ليكون من المنذرين[2] .

وبهذا تقف على مدى صدق قوله سبحانه : ﴿ **إنَّ هذا القُرآنَ يَقُصُّ على بَني إسرائيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فيهِ يَخْتَلِفونَ** ﴾[3] .

---

(١) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الثاني ، الجملات ١ ـ ١٢ ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) أنظر للتبسط في هذا البحث : « الهدى إلى دين المصطفى » ، و« الرحلة المدرسية » كلاهما لشيخنا الحجة البلاغي (م ١٣٥٢) . و« إظهار الحق » للعالم الهندي . و« أنيس الأعلام في نصرة الإسلام » لمحمد صادق فخر الإسلام في خمسة أجزاء ، وغير ذلك .

(٣) سورة النمل : الآية ٧٦ .

وقوله سبحانه : ﴿ وأَنْـزَلْنا إِلَيْـكَ الكِتابَ بِـالحَقِّ مُصَدِّقـاً لِما بَـيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ الكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾[1] .

ولنكتف بهذا المقدار ، ونترفع عن نقل العار ، وأشنع القبائـح ، التي يرمي بها العهدان أنبياءَ الله تعالى ، ممّا تشمئز النفوس من سماعه ، والأقلام عن الجـريان به .

* * *

(١) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

شواهد إعجاز القرآن

(٥)

إعجازه من ناحية إتقان التشريع والتقنين

جاء الإسلام برسالة عالمية ، وبعقيدة وطقوس لا تنفرد بشعب أو مجتمع بعينه ، ولا تَخْتص بصَقْع أو أقطار معينة ، بل ظهر ديناً متكامل الجوانب في العقيدة والتشريع ، يسري على الأفراد على إختلافهم في اللون، والوطن ، واللسان ، ولا يفترض لنفوذه حاجزاً بين بني الإنسان ، ولا يعترف بأيّة فواصل أو تحديدات عرقية أو إقليمية .

ويظهر هذا من تاريخ دعوة الرسول وسيرته في نشر دينه ، وقبل كل شيء ، نداءات القرآن وهتافاته الموجهة إلى الناس كلهم . وهذا ما يراد من كون الإسلام ديناً عالمياً .

ولم تكن هذه سمته الوحيدة بل له سمة أخرى هي سمة الخاتمية فهو خاتم الشرائع ، كما أنّ نبيّه خاتم الأنبياء وعلى هذا كلمات الرسول وأوصيائه ، وقبلها النصوص القرآنية[١] .

كما أنّ له سمة ثالثة ، وهو كونه ديناً متكامل الجوانب ، وشاملاً لجميع النواحي الحيوية في حياة البشر ، فلم يقتصر في تربية الإنسان وتنمية طاقاته على تشريع الأدعية والطقوس فحسب ، بل قَرَن إليها تشريعات وتقنينات رفع بها

(١) سيأتي الكلام مفصلاً في عالمية الرسالة الإسلامية وخاتميتها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حـاجة الإنسـان إلى كل تشريـع وتقنين ، سـواء في مجال الأخـلاق أو الإجتـماع أو السياسة والإدارة ، أو الإقتصاد .

وإنّ نفس وجود تلك القوانين في جميع تلك الجوانب ، معجزة كبرى لا تقوم بها الطاقة البشرية ، واللجان الحقوقية ، خصوصـاً مع اتّصـافها بمـرونة خـاصة ، تجامع كل الحضارات والمجتمعات البدائية ، والصناعية المتطورة .

ثم إنّه تظهر عظمة ذلك التقنين إذا وقفنا عـلى أنّ دعوة الإسـلام بزغت بـين أقـوام متأخـرين في المجالات الخلقيـة والثقافيـة ، ولم يكن لهم منهـا نصيب سـوى الإغارة والنهب والقتل والتفاخر . ويشهد لذلك صفحات تاريخ الجزيرة العربية ، ولنكتف من ذلك بشاهد واحد يكشف لنا واقعية الحياة في ذلك العصر .

روى أهـل السير والتـاريـخ أنّ رجـلاً من « زبيـد » قـدم مكـة ببضـاعـة ، فـاشتراهـا منه العـاص بن وائل ، فحبس عنـه حقّه ، فـاستعدى عليـه الزبيـدي الأحلاف : عبد الدار ، ومخزوماً ، وجمحاً ، وسهماً ، وعدي بن كعب ، فأبوا أن يعينـوا على العـاص بن وائل وانتهـروه ، فلما رأى الـزبيـدي الشرّ ، أوفى عـلى أبي قبيس عند طلوع الشمس ـ وقريش في أنديتهم حول الكعبة ـ فنادى بأعلى صوته :

يـا آل فـهـر لـمـظلوم بـضـاعـتـه ... ببـطن مكـة نـائي الـدار والنَّفَـرِ
ومُحْـرم أشـعث لم يَـقْضِ عُـمْـرتـه ... يـا للرجـال وبـين الحِجْر والحَجَـرِ
إنَّ الحـرامَ لمـن تَمَّـتْ كـرامـتُـه ... ولا حـرام لثـوبِ الفـاجـر الغَـدِرِ

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مترك .

فـاجتمعت « هاشم » و « زهـرة » و« تميم بن مـرة » ، في دار « عبـد الله بن جدعان » فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا في ذي القعدة الحرام ، فتعاقـدوا وتعاهـدوا بالله ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدّى إليه حقّه ، أبداً .

فسمَّت قريش ذلك الحلف ، حلف الفُضول ، وقالوا : « لقد دخـل هؤلاء في فضل من الأمر » .

ثم مشـوا إلى العاص بن وائـل ، فانـتزعوا منـه سلعة الـزبيدي ، ودفعـوها

إليه[1]

فهذه الحادثة تكشف عن أنّ المجتمع في الجزيرة العربية أو في قسم الحجاز ، كان خلواً من أي محكمة وقضاء ، ولم يكن سائداً فيها إلّا قوة الزور وشريعة الغاب ، فلما اتّحد هؤلاء للدفاع عن المظلوم ، اشتهر إسم ذلك الحلف ، وصار نجماً لامعاً بينهم ، وكأنّ شيئاً عجيباً قد حصل .

ففي مثل هذا المجتمع ظهر رجل ، وفي يده كتاب ، يدعو إلى الأخوّة الدينية أوّلاً ، وصيانة حقوق الإنسان في ظل العدالة في جميع المجالات ثانياً ، وأتى بتشريعات بعث بها النور والحياة في المجتمع . وهذا أوضح دليل على أنّ هذه الثمرة ليست ثمرة طبيعية للبيئة .

إذا عرفت ذلك فلنعد إلى تبيين سمات التشريع الإسلامي ، وذكر نزر يسير منها في بعض المجالات ، والمهم هو الوقوف على تلك السمات ، وهي :

١ ـ مرونة التشريعات الإسلامية ، وملاءمتها لجميع الحضارات الماضية والسائدة ، والآتية .

٢ ـ إنّ التشريعات القرآنية تعتمد قبل كل شيء على الفطرة الإنسانية التي لا تتغير في خضم التحوّلات والتبدّلات . فلا تجد تشريعاً قرآنياً يضاد الفطرة .

٣ ـ التشريع القرآني ينظر إلى الإنسان ، بما هو موجود مركب من جسم وروح ومادة ومعنى ، ولكل حاجته ورغبته ، فأباح اللذائذ الجسمانية في إطارٍ لا يمسّ كرامة الإنسان ، كما دعا إلى المثل الأخلاقية العليا ، فصار بذلك ديناً وسطاً ، لا يجنح إلى جانب خاص فينسى الجانب الآخر .

٤ ـ الملاك في التشريع القرآني هو السعادة الإنسانية ومصالح المجتمع ومفاسده ، فأرسى قوانينه على ذلك الأساس من دون جنوح إلى إرضاء عموم الناس وإشباع ميولهم ، لأنّ إرضاءهم ربما يكون مخالفاً لسعادتهم .

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير (م ٧٧٤) ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

٥ ـ إنّ التشريعات القرآنية ليست تقنينات جافة ، خالية من الضمانات الإجرائية ، بل لم تغفل عنها ، فجعلت لتنفيذها ضمانات إجرائية داخلية وخارجية ، فإيمان الرجل بدينه وقرآنه وما يترتب عليه من مثوبات وعقوبات أخروية ، أقوى وازع داخلي وعاطفي في الإنسان يدفعه إلى التطبيق ، ويردعه عن المخالفة . إضافة إلى العقوبات البدنية والغرامات المالية التي حددها .

٦ ـ إنّ التشريع القرآني ذو مادة حيوية ، خلاقة للتفاصيل ، بحيث يقدر معها علماء الأمة والإخصائيون منهم على استنباط ما يحتاج إليه المجتمع في كل عصر . فإذا انضمت إليها الأحاديث النبوية ، وما وصل إلى الأمة ، من أوصياء النبي ، نجد التشريع الإسلامي وافياً باستنباط آلاف الفروع التي يحتاج إليها المجتمع على امتداد القرون والأجيال .

هذا ما نتبناه في هذا البحث ، ولا تظهر حقيقته إلّا بشرح كل واحدة من هذه السمات شرحاً إجمالياً ، يوقفنا على قوة التشريع القرآني وإتقانه .

* * *

السمة الأولى : مرونة التشريع القرآني

من الأسباب ، الدافعة إلى صلاح الإسلام للبقاء والخلود ، مرونة أحكامه التي تُمَكِّنه من أن يماشي جميع الأزمنة ، والحضارات .

وقد تمثلت هذه المرونة بأمور نذكر منها اثنين :

أ ـ النظر إلى المعاني لا المظاهر

إنّ التشريعات القرآنية تنظر إلى المعاني والحقائق لا إلى المظاهر والقشور ، ولذلك لا تجد في الإسلام مظهراً خاصاً من مظاهر الحياة له من القداسة ما يمنع من تغييره ، ويوجب حفظه إلى الأبد بشكله الخاص ، ولأجل ذلك لا يقع التصادم بين تعاليمه والتقدم العلمي الهائل في مظاهره وأشكاله الخارجية ، وإليك بعض الأمثلة :

١ ـ إنّ الإسلام دعا إلى بثّ العلم والتربية ، ولكن الذي يهم الإسلام ، في جميع الأزمنة هو الحقيقة والجوهر من ذينك الأمرين ، وأمّا الكيفية والشكل ، فلا يهمّانه ، بل الهدف إشاعة العلم بأي وسيلة كانت ، وإرساخ التربية في نفوس الناس بأي سبب تحقق .

وإنّ أجهزة نشر العلم ، وأسباب التربية ، قد ترقت من أبسط الأساليب إلى أعقدها ، فمن الكتابة بالقصب على أوراق الشجر وعظام الحيوانات وجلودها ، إلى نشر العلم عن طريق الأجهزة الإذاعية والدوائر الإلكترونية .

فلو كانت هناك قداسة لأسباب معينة ، كالكتابة بالحبر أو بالجصّ ، لما كتب للإسلام البقاء[١] .

٢ ـ إنّ القرآن يدعو الأُمّة الإسلامية إلى التأهُّب في مقابل الأعداء ، وإعداد ما استطاعوا من قوة ، يقول تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما آسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ ﴾[٢] . فما هو المطلوب ، هو كسب القوة والإقتدار على كفاح المخالفين .

والمراد من القوة هو الآلات الحربية وأدوات النضال ، سواء أكانت أسهماً ورماحاً وسيوفاً ، أو دبابات ومدافع وطائرات وصواريخ . فالكلُّ أشكال ، واللُّب واحد ، وهو دوام الإستعداد في مقابل الأعداء .

فلو كانت الفروسية والرمي بالسهام هي مظاهر الكفاح العسكري الذي يدعو إليه الإسلام ، فقد حلّ مكانها أدوات مهيبة مدمّرة قويّة ، والإقتصار على الأولى كان سينجر حتماً إلى إبادة المسلمين . غير أنّ الجهاد بالسهم والرمح ، أو الجهاد بالصواريخ والدبابات ، أشكال وألبسة للحكم الإسلامي بالجهاد ، فاللِّباس يتغير ويحتفظ باللُّب .

٣ ـ القرآن يدعو المسلمين إلى العزّة والعظمة والإستقلال ، ورفض التبعية

---

١) لاحظ ما ورد حول بثّ العلم والكتابة والتربية في الكتاب العزيز . وأظن أن الباحث الكريم في غنىً عن الإشارة إلى الآيات الواردة في هذا المجال .

٢) سورة الأنفال : الآية ٦٠

للأعداء . يقول سبحانـه : ﴿ وَلله العِزَّةُ وَلِـرَسُولِـهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلْكِنَّ المُنـافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾

ولكن نيل هذا الهدف السامي لم يكن يتطلب في السابق ما يتطلبـه اليوم من وجود الأخصائيين من المسلمين في المسـائل السيـاسية والإقتصـادية والإجتـماعية . فالقرآن يـوجب على المسلمـين دراسة هـذه العلوم دراسة وافيـة ، حتى تتحقق لهم العزّة . فليست هذه العلوم مطلوبة بالذات ، بل المطلوب هو حفظ العزّة والعظمة والإستقلال . والتدرع بهذه العلوم ، ليس إلّا سبب وأداة لنيل المطلوب .

٤ ـ الإسلام يدعـو المرأة إلى العفـة والستر والحجـاب خارج بيتهـا وفي محيط عملها . ولكنه لم يقيّده بشكل خـاص من اللباس ، بـل يكفي في ذلك كـل لباس يكون مؤمِّناً لهذا الغرض . فلو كان التشريع الإسلامي في هذا المجال على أسـاس إلـزام المرأة بـاتِّخاذ شكـل خاص من الحجـاب لربمـا تصادم مـع حاجـات الزمـان المتطورة ، أو استلزم تهديم التقاليد العرفية المحترمة عند الأمم . فلأجل ذلك ترك الكيفية والشكل إلى المجتمع نفسه وطلب منه اللُّب وهو الستر ، وعدم الإغراء .

قال سبحانه : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُـرِهِنَّ على جُيوبِهِنَّ ﴾(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ وَبناتِكَ ونِساءِ المُؤْمِنينَ يُدْنـينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فلا يُؤْذَيْنَ ﴾(٣) .

٥ ـ في مجال العلاقات الدولية الدبلوماسية الأصل الثابت هو رعاية مصالـح الإسلام والمسلمين ، وأمّا كيفية تلك الرعاية فتختلف باختلاف الظروف الـزمانيـة والمكانية . فتارة تقتضي المصلحة ، السلام والمهادنة ، ومصالحـة العدو . وأخـرى تقتضي ضدّ ذلك .

---

(١) سورة المنافقون : الآية ٨ .

(٢) سورة النور : الآية ٣١ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٥٩ .

يقول سبحانه : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافِرِينَ على المُؤْمِنِينَ سَبيلاً ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ لا يَنْهاكُمُ اللهُ عن الذين لَمْ يُقاتِلوكُمْ في الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ، أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ * إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الذينَ قاتَلوكُمْ في الدِّينِ وأَخْرَجوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وظاهَرُوا على إخراجِكُمْ ، أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظالِمونَ ﴾[2] .

فالإسلام لا يفرض الحرب دائماً مع الكفار ، كما لا يفرض السلم والصلح كذلك ، وإنّما الحرب والسلم يتبعان مصالح الإسلام والمسلمين .

٦ ـ العلاقات الدولية التجارية ، وإنشاء مؤسسات صناعية مشتركة بين المسلمين وغيرهم ، يتبع ذلك الأصل الثابت ، وهو تَبَنّي صلاح الإسلام والمسلمين . ولأجل ذلك ربما يكون عقد إتفاقية تجارية حراماً في ظرف وحلالاً في ظرف آخر . فلو كان التحريم هو الحكم الثابت لما أمكن تطبيقه في الظروف التي توجب عقد الإتفاقية ، وهكذا العكس . وهذا ما نرومه في هذا المقام من أنّ المعنى ثابت والتعابير مختلفة ، وكل الإتفاقيات تُسْتَمَدُّ من الأصول الثابتة في الإسلام ، كقوله سبحانه : ﴿ لَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكافِرينَ على المُؤْمِنينَ سَبيلا ﴾[3] . وقوله سبحانه : ﴿ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمونَ ولا تُظْلَمُونَ ﴾[4] .

وقس على ذلك سائر التشريعات ؛ فللإسلام خاصيّة الإهتمام باللُّب والجوهر ، وهذا أحد العناصر التي تجعله يساير ويماشي عامة الحضارات الإنسانية إلى قيام يوم الدين .

ب ـ الأحكام التي لها دور التحديد

من الأسباب الموجبة لانطباق التشريع القرآني على جميع الحضارات ،

---

(١) سورة النساء : الآية ١٤١ .

(٢) سوره الممتحنة : الآيتان ٨و٩ .

(٣) سوره النساء الآية ١٤١ .

(٤) سوره البقرة : الآية ٢٧٩ .

تشريعه لقوانين خاصة ، لها دور التحديد والرقابة بالنسبة إلى عامة تشريعاته . فهذه القوانين الحاكمة ، تعطي لهذا الدين مرونة يماشي بها كل الأجيال والقرون .

يقول سبحانه : ﴿ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّين من حَرَجٍ ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ يُريدُ الله بِكُمُ اليُسْرَ ، ولا يُريدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ ولا عادٍ ، فلا إثْمَ عَلَيْهِ ﴾[3]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إلاَّ ما اضْطُرِرْتُمْ إلَيْهِ ﴾[4] .

ويقول سبحانه : ﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإيمانِ ﴾[5]

وما ورد حول النهي عن الضرر من الآيات ، كلها تحدّد التشريعات القرآنية بحدود الحرج والعسر والضرر . فإذا صارت الأحكام مبدءً لواحدٍ منها ، تكون مرتفعة غير لازمة الإمتثال . فلولا هذه التحديدات الحاكمة ، لما كانت الشريعة الإسلامية مماشية لجميع الحضارات البشرية .

* * *

السمة الثانية : تشريعاته معتمدة على الفطرة

إنّ الحياة البشريّة في تغيُّر دائم ، وتبدُّل مطَّرد ، ورسوم وتقاليد تزول ؛ وأُصول وحاجات جديدة تطرأ ، تحتاج إلى تلبيتها ورفعها ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر إنّ الهدف من التقنين هو رفع حاجات المجتمع في المجالين الفردي والاجتماعي .

---

(١) سورة الحج : الآية ٧٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١١٩ .

(٥) سورة النحل : الآية ١٠٦ .

وبملاحظة هـذين الجانبـين ، يتّضح أنّ أيَّ تقنـين لن تكتب له الحيـاة ، ولن يكتسي ثوب البقاء إلاّ إذا كان متكئاً ومعتمداً في تقنينه على مبدءٍ ومَـرْتكَز ثـابت لا يتبدل ولا يتغير ، وليس هو إلاّ الفطرة الإنسانية التي لا تتبـدل مع الأجيـال ، وعبر القرون ، وفي خضم التحوّلات الطارئة على الحضارات الإنسانية .

وقد تنبّه التقنين القرآني إلى هذا الأساس فبنى مُثُلَه العليـا وتشريعاتـه ، على وفق ما تقتضيه الفطرة الإنسانية ويتماشى معها .

يقول سبحانـه : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَـكَ للدِّينِ حنيفاً فِـطْرَتَ الله التي فَطَرَ النَّـاسَ عَلَيْهـا ، لا تَبْـديـلَ لِخَلْقِ الله ، ذٰلِـكَ الـدِّينُ القَيِّمُ ولكِنَّ أَكْـثَرَ الـنَّـاسِ لا يَعْلَمونَ** ﴾[1] .

فجعل الملاك في ثبات تشريعه وبقائه ، خلقة الإنسان وطبعـه ، الثابتـين في جميع ألوان الحياة ومتغيراتها ، فعلى الـرغم من أنّ الحضارة الصنـاعية غيّـرت لـون الحياة ، ورفعت الحواجز بين الإنسـان وأمانيـه ، وقدّمت إليـه حياة نـاعمة كـانت ممتنعة في عصر الحجر والسيف والسهم والحضـارات البدائيـة ـ فمع ذلـك كلّه ـ لم تصل يد التغيّر إلى طبع الإنسان وفطرته ، بل هي ثابتة كما كانت مُنْذ داس الإنسان هـذه الكرة ، ولأجـل ذلك تـرى أُمـوراً مشـتركـة بـين الإنسـان الـذي عـاش في الحضارات البدائية ، والذي يعاصر الحضارات الصنـاعية ، وهكـذا بين الإنسـان القطبي والإستوائي . وفي ضوء ذلك جاء القرآن بقوانين ثـابتة في عـالمٍ ، التحوّلُ والتبدّلُ حليفه وأليفه . وإليك نماذج من هذه القوانين :

١ ـ إنّ التفـاوت بين الـرجل والمـرأة أمر طبيعي محسـوس . فهما مـوجـودان مختلفان إختلافاً عضوياً وروحياً ، على رغم كل الـدعايـات السخيفة الكـاذبة التي تريد إزالة كل تفـاوت بينهما . ولأجـل ذلك اختلفت أحكـام كلٍّ منهـا في التشريع الإسلامي إختلافاً يقتضيه طبعُ كلٍّ منهـا . فإذا كـان التشريع مـطابقاً لفـطرتها ، ومسايراً لطبعها ، ظـلّ ثابتـاً لا يتغير بمـرور الزمـان ، لثبات المـوضوع ، المُقْتضي لثبات محموله .

---

(١) سورة الروم : الآية ٣٠ .

ومن جملة تلك الأحكام قوله سبحانه : ﴿ الرِّجالُ قَوّامونَ على النِّساءِ بما فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ، وَبِما أَنْفَقوا مِنْ أَمْوالِهِمْ ﴾(١) . فهو تشريع مطابق للفطرة .

٢ ـ التشريع القرآني حريص جداً على صيانة الأخلاق وحفظها من الضياع والإنحلال ، ومما لا يشك فيه أن شرب الخمر واللعب بالميسر ، والإباحة الجنسية ، ضربات تقصم ظهر القِيَم والأخلاق . ولأجل ذلك حرّمها الإسلام وجعل الحدود على مقترفيها . فالأحكام المتعلقة بها ، من الأحكام الثابتة ، لأنّ ضررها ثابت لا يتغير بتغير الزمان ، فالخمر يزيل العقل ، والميسر ينبت العداوة في المجتمع ، والإباحة الجنسية تفسد النّسل .

يقول سبحانه : ﴿ إنّما يريدُ الشَّيطانُ أَنْ يوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوَةَ والبَغْضاءَ في الخَمْرِ والمَيْسرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهونَ ﴾(٢) .

إنّ الميل الجنسي من الميول الطبيعية التي لا تنفك عن الإنسان من زمان مراهقته إلى فترات متقدمة من عمره ، فلأجل ذلك دعا إلى النكاح وحذّر من الرهبانية .

قال سبحانه : ﴿ وأَنْكِحوا الأيامى مِنْكُمْ والصَّالحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وإمائِكُمْ ، إنْ يكونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ الله مِنْ فَضْلِهِ والله واسِعٌ عَليمٌ ﴾(٣) .

وقد ورد في السُّنة : « من سنتي التزويج ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »(٤) .

٣ ـ إنّ الجهاد ـ بمعنى السعي في طريق الحياة ـ من الأمور الطبيعية المشتركة

---

(١) سورة النساء : الآية ٣٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٩١ .

(٣) سورة النور : الآية ٣٢ .

(٤) مستدرك الوسائل : ج ١٤ ، كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح ، الحديث ١٥ ، الطبعة الحديثة .

بين الإنسان والحيوان ، وحتى النبات . فجذور الشجرة المشتملة على الشعيرات الدقيقة ، تَشُقُّ طريقها في أعماق التراب لتنمو الشجرة وتبقى حية . وهكذا الكريات الحمراء في الدم ، تلاحق باستمرار الجراثيم والميكروبات الطارئة على البدن وتقتلها لتصون البدن عن الأمراض .

فالإنسان المثالي الذي يتبنّى أيديولوجية إلهية ، لا مناص له في نشر دعوته وبثّ أفكاره عن السعي وراء هدفه . وهذا ما يعبر عنه القرآن بالجهاد في سبيل الله ، وقد جاءت الكلمة (الجهاد) ثمانية وعشرين مرة مع مشتقاتها في الكتاب العزيز ، وهذا يعرب عن أنّ مسألة الجهاد ليس مجرّد مسألة قتل وقتال وسفك دماء وتدمير بيوت ، وإنّما هو سعي في نشر الأيديولوجية الإلهية بأنواع الوسائل الممكنة ، فإذا واجه الداعي ، في طريق نشر دعوته ، مقاومةً من العدو ومنعاً من الطواغيت ، فلا مناص له عندئذٍ من رفع المانع بالجهاد والقتال .

يقول سبحانه : ﴿ يآ أَيُّها الذينَ آمَنوا اسْتَجِيبوا لله ولِلرَّسولِ إذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ ، واعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرونَ ﴾[1] .

٤ ـ إنّ الميل إلى النظافة والطهارة من الأُمور الفطرية ، وكل إنسان يَشْمَئِزُّ من القذارة والوساخة . والتشريع القرآني دعا إلى مقتضى الفطرة في هذا المجال فقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فاطَّهَّروا . . . ما يُريدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾[2] .

* * *

السمة الثالثة : التقنين الوسط بين المادية والروحية

إنّ الناس قبل ظهور الإسلام كانوا على قسمين :

قسم لا يهمهم إلّا الحظوظ المادية ، كاليهود والمشركين .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦ .

وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية ، كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنيي الهند أصحاب الرياضات .

فجاء التقنين القرآني وجمع بين الحقّين : حقِّ الروح وحقِّ الجسد ، ولعلّه إلى ذلك يشير قوله سبحانه : ﴿ كَذٰلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتكونُوا شُهداءَ على النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسولُ عَلَيْكُمْ شَهيداً ﴾[1] . فعدّل الغرائز والميول تعديلاً يضمن سعادة الإنسان .

فدعا إلى الإلتذاذ بملاذ الحياة وقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينَةَ الله التي أَخْرَجَ لِعبادِهِ والطِّيباتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[2] .

وفي الوقت نفسه ، دعا إلى النكاح وحسن معاشرة النساء وقال : ﴿ وَأَنْكِحُوا الأَيامىٰ مِنْكُمْ والصالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وإِمائِكُمْ ﴾[3] وقال : ﴿ وعاشِروهُنَّ بالمَعْروفِ ﴾[4] .

ودعا إلى الضرب في الأرض سعياً لطلب الرزق ، فقال : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلولاً فامْشُوا في مَناكِبِها وكُلوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشور ﴾[5] .

ومع ذلك كلّه فلم يفسح له المجال للإلتذاذ المطلق بل حدده في مجال إعمال الغريزة الجنسية وجمع الثروة وغير ذلك من ملاذ الحياة ، بحدود وقيود . فمنع الفجور والزِّنا ، وأَكْلَ المالِ بالباطل ، وأَخْذَ الربا ، وغصب الأموال ، والسرقة فالقرآن دعا إلى طلب الدنيا في نفس الوقت الذي دعا فيه إلى طلب الآخرة ، فقال : ﴿ وابْتَغِ فيما آتاكَ الله الدارَ الآخِرَةَ ، ولا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنيا ﴾[6] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٣٢ .
(٣) سورة النور : الآية ٣٢ .
(٤) سورة النساء : الآية ١٩ .
(٥) سورة المُلْك : الآية ١٥ .
(٦) سورة القصص : الآية ٧٧ .

السمة الرابعة : رعاية الموضوعية في التقنين

التقنين القرآني يتبنّى الموضوعية في تشريعه ولا يتبنّى ترضية المجتمع وأهواء بني البشر ، وبما أنّ الإنسان موجود مركّب من جسم وروح ، فالتقنين القرآني يتبنّى سلامة الجسم والروح معاً ، فما كان مُضِرّاً بواحد منهما ، يُحَرِّمُهُ ، وإنْ كانت تلبية رغبات المجتمع على خلافه .

فَحَرّم الإسلام أكل الخنزير وشرب الخمر ، والدم ، وكل خبيث ، لأنّ كل ذلك ينافي صحة الإنسان في بدنه وعقله . كما حَرّم الكذب ، والتهمة ، والنمامية ، والغِيبة ، وغير ذلك من رذائل الأخلاق ، لأنّ في ذلك ضرر بالإنسان بجسمه وروحه ، وفرده ومجتمعه . يقول سبحانه : ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنوا اجْتَنِبُوا كَثيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾[1] .

* * *

السمة الخامسة : ضمان الإجراء

إنّ العصر الحديث يواجه في سبيل تطبيق قوانينه الوضعية ، مشكلة كبرى ، ناتجة عن فقدان قوانينه للضمانات الكفيلة بتطبيقها بنحو كامل ، وليس لديه غير عقوبات جزائية ، من المعلوم أنّها لا تكفي في تطبيقها ، ما لم يكن هناك وازع داخلي يمنع من التخلّف عنها ولأجل ذلك يواجه المجتمع البشري مشكلة انعدام الأمن الإجتماعي بألوانه وصوره .

وأمّا قوانين الإسلام التي نادى بها القرآن ، ففيها الدوافع والحوافز المفقودة في غيرها من القوانين ، وذلك لأسباب :

الأول ـ المجتمع الإسلامي يرى القانون مظهراً لإرادة الله سبحانه ، وأنّ مخالفته ، مخالفة لدعوة قدرة كبرى لا يمكن الفرار منها ، وأنّ العقوبة لفي المرصاد

(١) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

للمجرم ، لا مَفَرَّ له منها ، وستناله يد العدالة الإلهية ، وإن كان غائباً عن أبصار الناس ، مختلياً بجرمه في أعماق مغارات الأرض .

إنّ الكون كلّه في نظر المؤمن المسلم عيون تراقب أفعاله ، وأسماع تسمع كلامه ، وتسجل كل ما يفعل ويقترف :

يقول سبحانه : ﴿ هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بالحَقِّ ، إنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ ﴾(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾(٢) .

وإنّما تتجلى تلك الحقيقة إذا كان المجتمع معتقداً بأنّ العقاب الأُخروي ، وجودٌ أُخروي لعمل المرء الدنيوي ، وأنّ لكل عمل ـ خيراً كان أو شراً ـ وجودين متناسبين لظروفها ، فاكتناز الذهب والفضة ، وعدم إنفاقهما في سبيل الله ، يَتَمَثَّلُ في الآخرة ، ناراً تَكوي جباه الكانزين وظهورَهم وجنوبهم ، ويقال لهم : هذا الذي يَكْوي أعضاءكم هو نفس الذهب والفضة التي كنزتموها(٣) .

الثاني ـ إنّ التشريع القرآني ليس دين الرهبة فقط ، بل هو دين الرَّغبة أيضاً ، حيث وعد المطيعين ، ثواباً عظيماً قال سبحانه : ﴿ مَنْ جاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها ﴾(٤) .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدينَ فِيها . . . ﴾(٥) .

الثالث ـ قَرَن هذا الوازع الداخلي بوازع خارجي ، فأوعد المتمردين عقوبات دنيوية من حدود وتعزيرات ، فأكمل بذلك حوافز التطبيق .

---

(١) سورة الجاثية : الآية ٢٩ .
(٢) سورة ق : الآية ١٨ .
(٣) سورة التوبة : الآيتان ٣٤ و ٣٥ .
(٤) سورة الأنعام : الآية ١٦٠ .
(٥) سورة النساء : الآية ١٣ .

بل إنّه ضَمَّ إلى تلك الحوافز أمراً رابعاً وهو أنّه فَرَضَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المجتمع الإسلامي ، فرأى سكوت المسلم والمجتمع أمام المخطيء والمجرم خطأً وجُرماً ، قال سبحانه : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعونَ إلى الخَيْرِ وَيَأمرون بالمَعْروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾[1] .

وبذلك أصبح التشريع القرآني متكامل الجوانب في مجالي التسنين والتطبيق .

* * *

السمة السادسة : سعة القوانين

إنّ التشريع الإسلامي ، في مختلف الأبواب ، مشتمل على أُصول وقواعد عامة تفي باستنباط الآلاف من الفروع التي يحتاج إليها المجتمع البشري ، على امتداد القرون والأجيال ، وهذه الثروة العلمية التي اختصّت بها الأُمّة الإسلامية من بين سائر الأمم، أغنت الشريعة الإسلامية عن التمسّك بكل تشريع سواها .

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام ـ في هذا المجال ـ : « إنّ الله تعالى لم يَدَعْ شيئاً تحتاج إليه الأُمّة إلّا أنزله في كتابه وبيَّنه لرسوله ، وجعل لكل شيء حَدّاً ، وجعل عليه دليلاً يَدُلُّ عليه »[2] .

والدليل الواضح على ذلك ، أنّ المسلمين عندما بسطوا ظلال دولتهم على أكثر من نصف المعمورة ، وأمم الأرض المختلفة العادات والتقاليد والوقائع والأحداث ، رفعوا ـ رغم ذلك ـ صرح الحضارة الإسلامية ، وأداروا المجتمع الإسلامي طيلة قرون ، في ظل الكتاب والسنّة ، من غير أن يستعينوا بتشريعات أجنبية . وهذا العلامة الحلّي أحد عظماء فقهاء الإمامية في القرن الثامن ، ألّف كتاباً باسم « تحرير الأحكام الشرعية » ، أودع فيه من الأحكام والقوانين ما يربو

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

(٢) الكافي ، ج ١ ، ص ٥٩ .

على أربعين ألف مسألة ، استنبطها من الكتاب والسنة[1] .

وهـذا صاحب الجـواهر جـاء في مشـروعه الـوحيد « جـواهـر الكـلام » ، بأضعاف ما جاء به العلّامة الحلي .

وقد استعارت منّا الأُمم الغربيـة كثيراً من قـوانيننا ، وليس ذلـك إلّا لكون التقنين الإسلامي ذا قواعد متموجة تستطيع أن تجيب على كل ما يطرء .

* * *

وهنا نكتة نلفت نـظر الباحث إليهـا ، وهي أنّ العدالـة هي الركيـزة الأولى للقوانين الإسلامية في مجـالي التشريع والتـطبيق ، فما سنّ الإسـلام قانـوناً إلّا عـلى أساس العدالة ، وما أمر بتطبيقه وإجرائه إلّا بشكل عادل .

يقول سبحانه في القضاء ـ الـذي يرجـع إلى مجال تـطبيق القانـون : ﴿ وإذا حَكَمتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُموا بِالعَدْلِ ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ وإذا قُلْتُمْ فاعْدِلوا وَلَوْ كانَ ذا قُربى ﴾[3] .

ويقول سبحانه : ﴿ فَلا تَتَّبِعوا الهَوى أَنْ تَعْدِلُوا ﴾[4] .

كما أنّه أمَرَ بالعدالة في التبـادل الإقتصادي وقـال : ﴿ أَوْفوا الكَيْـلَ والميزانَ بالقِسْطِ ﴾[5] .

كـما أمـر بهـا في إدارة أمـوال اليتـامى ، فقـال : ﴿ وأَنْ تَقُـومـوا لليَتَـامَى بالقِسْطِ ﴾[6] .

وبـالجملة يجب أن يكـون التشريـع والتـطبيق عـلى هـذا الأسـاس . قـال

(١) الذريعة ، ج ٤ ، ص ٣٧٨ .
(٢) سورة النساء : الآية ٥٨ .
(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥٢ .
(٤) سورة النساء : الآية ١٣٥ .
(٥) سورة الأنعام : الآية ١٥٢ .
(٦) سورة النساء : الآية ١٢٧ .

سبحانه : ﴿ إنَّ الله يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبى ، وَيَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ ﴾[1] .

وقد استعان القرآن في تطبيق تشريعه ، ببسط روح الأُخوة في المجتمع الإنساني ، فأعلن الوحدة والترابط بين المُسْلِمَيْنِ ، حتى كأنّها غصنان من دوحة مثمرة . وليست الأخوة الإسلامية أُخُوّة شعارية كالتي يحملها أبناء الماركسية ، باسم الرفيق والزميل ، فإنّها شعارات فارغة عن كل حقيقة تربطهم إليها ، فلأجل ذلك ترى أجسامهم متقاربة ولكن قلوبهم متشتتة ، بل هي أُخُوّة عميقة راسخة على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر ، وعلى أساس أنّهما يرجعان إلى أصل واحد في الخِلقة والولادة ، وأنّ الميزات القومية والقَبَليَّة والطَبَقِيَّة كلّها سدود اجتماعية لا قيمة لها عند الله ، إلاّ أن تكون سبباً للتعارف ورفعاً للتناكر ؛ قال سبحانه : ﴿ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا ﴾[2] .

وعند ذلك لا يفقد المجتمع الإسلامي حافز التطبيق والإجراء ، بل يجد من داخله ما يبعثه إلى الأمانة ، دون الخيانة ، والأُخُوّة دون العداوة ، وغير ذلك ممّا يدعو إلى وحدة المجتمع وترابطه وتراصّه .

* * *

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

شواهد إعجاز القرآن

(٦)

الإخبار عن الغيب

الغيب في اللغة العربية يقابل الحضور ، ويضاد الشهود . قال سبحانه : ﴿ عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ ﴾[١] .

وفي الحديث النبوي : « لِيُبلّغ الشاهدُ الغائبَ »[٢] .

وفي كلام علي عليه السلام : «وَنَصحتُ لكم فلم تقبلوا ، أشُهودٌ كغُيّاب ، وعَبيدٌ كأرباب »[٣] .

وأصول المُغَيَّبات في القرآن ترجع إلى ثلاثة :

الأول : الإخبار عن الله سبحانه ، وأسمائه وصفاته ، والإخبار عن الملائكة والجن وعالم البرزخ والمعاد وما فيه من نعيم أو جحيم ، والقرآن يموج بهذه المعاني الغيبية ، التي لا يتعرّف عليها الحسّ ، ولا تقع في أفقه في هذا الظرف .

الثاني : الإخبار عن بعض النواميس السائدة على الكون ، وقد كانت مغيّبة، عند نزول الوحي ، عن إدراك الحواس المجرّدة عن الأدوات المخترعة في

---

(١) سورة الرعد : الآية ٩ .

(٢) مسند أحمد ، ج ٤ ، ص ٣١ و٣٢ . ومواضع كثيرة أخرى .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ٩٧ .

هذا الزمـان ، وهذا مـا نبحث عنه في المقـام التالي ، وهـو إعجاز القـرآن من جهة المعارف الكونية المستكشفة حديثاً .

الثـالث : الإخبار عن أُمم قـد خلت من قبل وطـويت صفحات حيـاتهـا ، فـأصبحوا ممّـا لا يرى حتى آثـار مساكنهم ومـواطنهم ، من دون مـراجعـة إلى كتب السـير والتاريـخ ، أو سؤال الكهنة والمؤرخـين ، وهي القَصص الواردة في القـرآن الكريم ، التي تشكّل قسماً وافراً من الآيات القرآنية .

وهنـاك قسم آخـر من هـذا ، وهـو الإخبـار عن شؤون البشر في مستقبـل أدواره وأطواره ، والإخبار بملاحم وفتن وأحداث ستقع في مستقبل الـزمن ، وهذا ما نتبناه في هذا المقام .

إنّ الإخبار عن المغيبات وعن شؤون البشر في مستقبل أدواره وأطواره ، ومـا يلم به من ملاحم وفتن ، إن دَلَّ على شيء فإنّما يدلّ على كون القرآن كتابـاً سماويـاً أوحاه سبحانه إلى أحد سفرائه الذين ارتضاهم من البشر ، لأنّه أخبر عن حـوادث كـان التَكَهُّن والفراسـة يقتضيان خـلافها ، وصَـدَق هو في جميـع ما أخـبر به ، ولم يخالف الواقع في شيء منها . ونحن نأتي هنا بقسم من تلك الإخبارات ، ولا يمكن حملها على ما يحدث بالمصادفـة ، أو على كـونها على غـرار إخبار الكهنـة والعرّافـين والمنجمـين . فإنّ كـذب هؤلاء أكثر من صـدقهم . على أنّ دَأْبَهُم هـو التعبـير عن أحداث المستقبل برموز وكنـايات وإشـارات ، حتى لا يظهـر كذبهم عنـد التخلّف ويَقْبَلَ كلامُهم التأويل ، وهذا بخلاف إخبـار القرآن ، فـإنّه ينـطق عن الأحداث بحماس ومنطق قاطع ، وإليك الأمثلة :

١ ـ التنبؤ بعجز البشر عن معارضة القرآن

قال سبحانـه : **﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عـلى أَنْ يأْتـوا بِمِثْلِ هـذا القُرآنِ لا يأْتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾**[1] .

---

(١) سـورة الإسراء : الآيـة ٨٨ . ولاحظ البقـرة · الآيتـان ٢٣ ـ ٢٤ ، يـونس : الآيـة ٣٨ ، هـود : الآية ١٣ .

ترى في هذه الآية ونظائرها التنبؤ الواثق ، بعجز الجن والإنس عن معارضة القرآن عجزاً أبدياً ، ولكن المستقبل ـ كما يقال ـ غَيْبٌ ، لا يملكه النبيُّ ولا الوصيُّ ولا شخص آخر غيرهما . غير أنّ النبي صار صادقاً في تنبؤه هذا ، ولا يزال صادقاً إلى الحال . فعلى أيّ مصدر اعتمد هو في هذا التحدّي غير الإيحاء إليه ، الذي صَدَرَ عنه أيضاً في جميع تشريعاته ؟ .

٢ ـ التنبؤ بانتصار الروم على الفرس

قال سبحانه : ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * في أَدْنى الأَرضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبونَ * في بِضْعِ سِنِينَ ، لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنونَ * بِنَصْرِ الله ، يَنْصُرُ مَنْ يشاءُ وَهُوَ العزيزُ الرَّحيم * وَعْدَ الله ، لا يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ ، وَلكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ ﴾[1] .

ينقل التاريخ أنّ دولة الروم ـ وكانت دولة مسيحية ـ إنهزمت أمام دولة الفرس وهي وَثَنِيّة ، بعد حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤ م ، فاغتمّ المسلمون لكونها هزيمة لدولة إلهية أمام دولة وثنية ، وفرح المشركون ، وقالوا للمسلمين بشماتة : إنّ الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد غَلَبهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنّكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أُنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت الفرس الروم .

فعند ذاك نزلت هذه الآيات الكريمات تنبيء بأنّ هزيمة الروم هذه سيعقبها إنتصار لهم في بضع سنين ، وهي مدّة تتراوح بين ثلاث سنوات وتسع . تنبّأ بذلك ، وكانت المقدمات والأسباب على خلافه ، لأنّ الحروب الطاحنة أنهكت الدولة الرومانية حتى غزيت في عقر دارها ، كما يدلّ عليه قوله : ﴿ في أدنى الأرض ﴾ . ولأنّ دولة الفرس كانت دولة قوية ، منيعة ، وزادها الإنتصار الأخير قوة ومنعة . ولكن الله تعالى أنجز وعده ، وحقّقَ تنبؤ القرآن ، في بضع سنين ، فانتصر الروم سنة ٦٢٢ م ، الموافقة للسنة الثانية للهجرة .

---

(١) سورة الروم : الآيات ١ ـ ٦ .

وفي الآية تنبؤ آخر ، وهو البشارة بـأنّ المسلمين سيفـرحون في الـوقت الذي ينتصر الروم فيه ، وقد صدق الله وعده حيث وقع في ذلك الظرف ظفر المسلمين في غزوة بدر الكبرى ، فتحققت النبوءتان في وقت واحد .

٣ ـ التنبؤ بصيانة النبي عن أذى الناس

قال سبحانه : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ ، بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَـما بَلَّغْتَ رِسـالَتَـهُ ، واللهُ يَعْصِمُـكَ مِنَ النَّـاسِ ، إنّ اللهَ لا يَهْـدي الـقَـوْمَ الكافِرينَ ﴾[١] .

روى الفـريقان[٢] أنّ الآيـة نزلت يـوم الغديـر حينما أُمـر النبي بنصب عـلي عليـه السلام إمـاماً للنـاس ، وكان عـلى حَذَر منهم في تنصيب إبن عمـه وصهـره للخلافة ، فأخبر الله سبحانه بأنّه سيعصمه من أذى الناس وشرّهم ، ولا يتمكنون من اغتياله ، وتحقّق نبأ القرآن ، وصدّق الخُبْرُ الخَبَر .

٤ ـ التنبؤ بالقضاء على العدو قبل لقائه

قال سبحانـه : ﴿ وإذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إحْـدى الطائِفَتَـيْنِ أَنَّها لَكُمْ ، وتَوَدُّونَ أَنَّ غَـيْرَ ذاتِ الشَّوْكَـةِ تَكونُ لَكُمْ ، وَيُـريدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمـاتِـهِ وَيَقْـطَعَ دابِـرَ الكافِرينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ ويُبْطِلَ الباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمونَ ﴾[٣] .

نزلت الآيتان قبل لقاء المسلمين العدو في ساحة المعركة ، فأخبر سبحانه عن هزيمة المشركين واستئصال شأفتهم ، ومحق قوتهم ، كما يدلّ عليه قوله : ﴿ وَيَقْطَعَ دابِرَ الكافِرينَ . . ﴾ .

وليس تنبؤ القرآن بالقضاء على مشركي قريش في معركـة بدر منحصراً بهـذه الآية ، بل تنبّأ به في آية أخرى ، وهي قـوله سبحـانه : ﴿ أَمْ يَقـولونَ نَحْنُ جَميـعٌ

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

(٢) لاحظ الغدير ، ج ١ ، ص ١٩٤ ـ ٢١٧ . ووقاية المرام ، ص ٣٣٥ .

(٣) سورة الأنفال : الآيتان ٧و٨ .

مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرُ ﴾[1] .

فأخبر عن انهزام الكفار وفرارهم عن ساحة الحرب ، وقد تحقق التنبؤ يوم بدر ، وكانت المقدمات والأسباب الطبيعية على خلاف النتيجة ، حيث إنّ المشركين كانوا تامّي العِدّة ووافري العَدَد ، ولم يكن عدد المسلمين يتجاوز ثلثَ عددِ المشركين ، لكنّه سبحانه حقّق كلمته وصَدَّق نَبَأَ نبيِّه .

٥ ـ التنبؤ بكثرة ذُرّية النبي (صلى الله عليه وآله)

قال سبحانه : **﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَر * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾**[2] .

الكوثر هو الخير الكثير ، والمراد هنا ، بقرينة قوله : **﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرَ ﴾** ، كثرة ذُرّيته ، ويؤيّده أنّ السورة إنّما نزلت ردّاً على من عابه بعدم الأولاد ، فالمعنى أنّه يعطيه نسلاً يَبْقون على مرّ الزمان .

قال الرازي : « فانظر كم قُتل من أهل البيت ، ثم العالَم ممتلىء منهم ، ولم يبق من بني أُميَّة أحد يعبأ به ، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء ، كالباقر ، والصادق ، والكاظم ، والرضا ، والنفس الزكية ، وأمثالهم »[3] .

هذه نماذج من تنبؤات الذكر الحكيم ، أتينا بها ليقف الباحث على معشار ما ورد فيه من التنبؤات الغيبية[4] .

هذا وقد عرفت أنّ بعض العلماء ، خصُّوا إعجاز القرآن بإخباره عن الغيب ، غير أنّه غير ظاهر بخصوصه ، لأنّ القرآن يتحدّى حتى بسورة واحدة من سوره الكثيرة ، ومن المعلوم أنّه ليست كلُّ سورة مشتملة على الأخبار الغيبية .

---

(١) سورة القمر : الآيتان ٤٤ و٤٥ .

(٢) سورة الكوثر .

(٣) مفاتيح الغيب ، ج ٨ ، ص ٤٩٨ ، ط مصر .

(٤) ومن أراد استقصاء تنبؤات القرآن فليرجع إلى ما دوّنه الأستاذ دام ظلّه ، في موسوعته « مفاهيم القرآن » ، ج ٣ ، ص ٣٧٧ ـ ٥٣٤ .

شواهد إعجاز القرآن

(٧)

إخباره عن الظواهر والقوانين الكونية

لا يصحّ لعارف أنْ يتجاهل أنّ القرآن كتاب الهداية والتزكية وليس كتاب العلوم الطبيعية ، يقول سبحانه : ﴿ الٓمٓ * ذٰلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً للمُتَّقِينَ ﴾[1] .

فالقرآن نزل لهداية الناس وسوقهم إلى الحياة السعيدة ، ولم ينزل لتبيين القضايا الطبيعية ، والقواعد الرياضية وما يتعلق بعلم التشريح ، ولا لتبيين خواصّ الأدوية والعقاقير .

ومع ذلك كلّه ، ربما يتوقف غرض الهداية ـ خصوصاً في الدراسات التوحيدية ـ على إظهار عظمة العالَم ودقّة نظمه ، والقوانين السائدة عليه ، فعند ذلك يصحّ لهذا الكتاب الهادي ، إلفات النظر إلى تلك المظاهر والقوانين الكونية .

ومن هذا المنطلق، نرى أنّ القرآن أشار إلى رموز سائدة في الكون ، وسنن جارية فيه ، تتطابق مع القضايا العلمية الثابتة ـ حديثاً ـ بالحسِّ واليقين . وقد كانت تلك السنن مجهولة على الأخصائيين في هذه العلوم ، وأصحاب الحضارات في بلاد الفرس والروم ، وإنّما اهتدى إليها العلماء بعد قرون متطاولة من نزول القرآن وذكره لها .

(١) سورة البقرة : الآيتان ١ و٢ .

روي عن ابن عباس أنّه قال : « القرآنُ يُفَسِّرُهُ الزَّمان »[1] .

وهذه الكلمة سواء أصحّت نسبتها إلى تلميذ الإمام عليّ (عليه السلام) أوْ لا ، كلمةٌ قيمة ، فإنّ مرور الزمان وتكامل الحضارات ، يزيد من قدرة الإنسان على استجلاء حقائق القرآن ومعارفه في شتى المجالات .

وما هذا إلّا لأنّ القرآن ، كلام الموجود اللامتناهي ، فيجب أن يكون في كلامه أثر من ذاته ، فيكون ذا آفاق وأبعاد لا متناهية ، ويجد الإنسان في كل جيل وعصر ، الشيء الجديد فيه ، الذي غفل عنه الأقدمون ولم يصلوا إليه . وعلى ذلك فلا غرو في أنْ نجتني نحن من هذه الدوحة المثمرة ، ثماراً لم يجتنها الأوّلون ، فما أعذب قول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ، في جواب من سأله عن سبب غضاضة القرآن وطراوته في كل عصر ، وأنّ النَشْر والدراسة لا يزيده إلّا طراوة : « إنّ الله تعالى ، لم يجعله لزمانٍ دون زمانٍ ولا لناسٍ دون ناس ، فهو في كل زمان جديد ، وعند كل قوم غضٌّ إلى يوم القيامة »[2] .

نعم ، لسنا من المكثرين في تطبيق الآيات القرآنية على فروضٍ متزلزلة ، فإنّه دخول في المزالق الوعرة ، فسوف تتبدل تلك الفروض بفروض أخرى ، كما لسنا من المتحجرين الجامدين الذين يسدّون باب التعمّق والإمعان في الآية . وإنّما نسلك في هذا طريقاً وسطا ، وهو أنّه إذا تمّت دلالة الآية على نظرية علمية ، على ضوء القواعد الأدبية من دون تجشّم التأويل والتقدير ، وثبتت القضية العلمية ثبوتاً واضحاً حتى عُدَّت من القواعد الموضوعية ، ودخلت في نطاق القوانين العلمية ، كحركة الأرض ودورانها حول الشمس ، والزوجية في النباتات ، وغير ذلك من الأصول العلمية التي أصبحت في عِداد البديهيات ، ففي هذه الظروف يصحّ لنا استنطاق الآية والقضاء بأنّها تشير إلى ذلك القانون العلمي الثابت .

ولأجل ذلك نأتي في المقام بنماذج في هذا المجال .

---

(١) حكاه شيخنا المغفور له العلامة الشيخ محمد جواد مغنية عن مفتي موصل العبيدي في كتابه « النواة » .

(٢) البرهان في تفسير القرآن ، للعلّامة البحراني ، ج ١ ، ص ٢٨ .

١ ـ القرآن والجاذبية العامة

اكتشف العالم الإنكليزي نيوتن (ت ١٦٤٢ ـ م ١٧٢٧) ناموس الجاذبية العامة ، وأثبت به وجود جاذبية بين الكواكب والسيارات ، وحتى في باطن الذرّة . وقد كان لاكتشاف هذا القانون في القرن السابع عشر أهمية عظمى ، حتى سمّي ذلك القرن باسم كاشفه .

وحاصل ما كشفه أنّ الأجرام السماوية كلّها متجاذبة فيما بينها ولا يشذّ جرم منها عن هذا الأثر العام ، وأنّه كلما قربت الأجسام من بعضها ، زادت الجاذبية بينها ، وكلما تباعدت قلّت الجاذبية بينها . وعلى ضوء ذلك ، فلو كان القانون السائد هو قانون الجاذبية فحسب ، للزم صيرورة الكون كله كتلة واحدة ، ولكن هناك قوّة أخرى مقابلة تحفظ النظام الكوني ، هي قوة طاردة ناتجة عن الفرار من المركز . فالكواكب التي تدور حول الشمس ، تتنازعها قوّتان ، قوة جاذبة إلى الشمس ، وقوة طاردة عنها ، ناتجة من دورانها حولها . وفي ظل تعادل هاتين القوتين ، يأخذ النظام الكوني حالة الإستقرار ، وتقع الأجرام الكبيرة في الفراغ من دون ماسك لها .

هذه خلاصة النظرية ، بلفظها البسيط الواضح . وهي نظرية علمية محقّقة ، هذا .

وبالرجوع إلى آيات الذكر الحكيم والتأمّل فيها ، يظهر أنّ القرآن الكريم ، قد أشار إلى هذا القانون الكوني ، حيث يرى أنّ السموات مرفوعة في الفضاء بلا عمد مرئية ، يقول تعالى : ﴿ اللهُ الذي رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ، ثُمَّ اسْتَوى على العَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْري لأَجَلٍ مُسمًّى ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رِبِّكُمْ تُوقِنونَ ﴾[1] .

إنّ الضمير في قوله : ﴿ تَرَوْنَها ﴾ ، يرجع إلى ﴿ عمد ﴾ لا إلى ﴿ السَّموات ﴾ ، لقرب الأول وبُعْد الثاني ، والمعنى « الله الذي رفع السموات

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢ .

بعمد غير مرئية الخ » . بمعنى : إنّ للسموات عمداً ، ولكن لا ترونها . فما هذه الأعمدة التي يثبتها القرآن للسموات ، ولا نراها ؟ . فإذا كانت الجاذبية العامة ، والقوة المركزية الطاردة ، عمد تمسك السموات ، فتكون الآية ناظرة إلى تلكما القوتين المتعاندتين ، وإنّما جاء القرآن بتعبير عام حتى يفهمه الإنسان في القرون الغابرة والحاضرة ، ولو أتى بما اكتشفه العلم الحديث ، لَرُمِيَ القرآن قبل الإكتشاف ، بالخطأ والزلل .

أضف إلى ذلك ما رواه الصدوق ، عن أبيه ، عن الحسين بن خالد ، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام ، قال : قلت له : « أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ . . . رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ﴾ » . فقال : « سبحان الله ، أليس يقول : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ﴾ ؟ » فقلت :

« بلى » . فقال : « ثَمَّ عَمَد ، ولكن لا تُرى »[1] .

وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : « هذه النجوم التي في السماء مدائن ، مثل المدائن التي في الأرض ، مربوطة كل مدينة إلى عمود من نور » . وفي بعض النسخ : « عمودين من نور »[2] .

وعلى كل تقدير فقد اختار القرآن في إفهام هذا الناموس تعبيراً صادقاً في جميع الأدوار ، مفهماً أنّ هذه المُعَلَّقات في الفضاء ، تحملها أعمدة غير مرئية ، ممسكة لها .

* * *

٢ ـ القرآن وكروية الأرض

إنّ في القرآن الكريم آيات صريحة ناطقة بكروية الأرض ، يعرفها من أمعن

(١) البرهان ، ج ٢٢ ، ص ٢٧٨ .

(٢) سفينة البحار ، مادة نجم ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ . وراجع مجمع البحرين ، مادة « كوكب » ، ولعلّ المراد من عمودين ، القوّتان الساريتان في الكون ، الجاذبة والطاردة .

فيها . يقول سبحانه : ﴿ وَأَوْرَثْنا القَوْمَ الذينَ كانوا يُسْتَضْعَفونَ ، مَشارِقَ الأَرْضِ وَمَغارِبَها التي بارَكْنا فيها ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ رَبُّ السَّموات والأَرْضِ وما بَيْنَهُما وَرَبُّ المَشارِقِ ﴾[2] .

ويقول : ﴿ فلا أُقسِمُ بِرَبِّ المَشارِقِ والمَغارِبِ إنّا لَقادِرونَ ﴾[3] .

ومن المعلوم أنّ الأرض على فرض انبساطها لا تخلو من مشرق واحد ومغرب كذلك ، وإنّما تتعدد مشارقها ومغاربها إذا كانت كروية ، فتكون النقاط الشرقية ، غربية لسكنة النقاط الشرقية ، والنقاط الغربية ، شرقيةً لسكنة النقاط الغربية .

روى زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام قال : سمعته يقول : صحبني رجل كان يمسي بالمغرب ويغلس بالفجر . وكنت أنا أُصلي المغرب إذا غربت الشمس ، وأُصلي الفجر إذا استبان الفجر . فقال لي الرجل : ما يمنعك أن تصنع مثل ما أصنع ؟ فإنّ الشمس تطلع على قوم قبلنا وتغرب عنا ، وهي طالعة على قوم آخرين بعد . قال : فقلت : إنّما علينا أنْ نُصلي إذا وجبت الشمس عنّا ، وإذا طلع الفجر عندنا ، ليس علينا إلاّ ذلك ، وعلى أولئك أن يصلّوا إذا غربت الشمس ، عنهم »[4] .

والظاهر من الرواية أنّ الإمام ، ومصاحبَه ، كانا يتفقان على كروية الأرض ، وأنّ الشمس تطلع على قوم قبل أن تطلع على قوم آخرين ، وأنّها تغرب عن قوم قبل أن تغرب عن قوم آخرين ، ولو كانت منبسطة لطلعت على الجميع مرة واحدة ، وغربت عن الجميع كذلك غير أنّ الإمام عليه السلام يعتقد بأنّ على كل مكلّف رعاية مَشْرِقه ومغربه ، وطلوع الشمس عليه وغروبها عنه ، وليس

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٣٧ .
(٢) سورة الصافات : الآية ٥ .
(٣) سورة المعارج : الآية ٤ .
(٤) الوسائل ، ج ٣ ، كتاب الصلاة ، الباب ١٣ ، أبواب المواقيت ، الحديث ٢٢ .

طلوعها على قوم وغروبها عنهم ميزاناً له ، ولأجل ذلك جاء في بعض الأحاديث : « إنّما عليك مشرقك ومغربك »[1] .

نعم ، كان للفلاسفة الأقدمين نظريات شتى حول شكل الأرض وكرويتها ، وكان الإعتقاد بكرويتها منتشراً عند ظهور نظرية بطلميوس ، غير أنها لم تكن معروفة في الحجاز ، وإنّما كان تفكير الأميين من العرب حول الأرض ، تفكير إنسان بدوي يعيش في الصحراء القاحلة . فالإجهار بهذه الحقيقة في تلك البيئة البعيدة عن الحضارة ، لا يصحّ إلّا إذا اعتمد المخبر ، على منطق الوحي .

* * *

٣ ـ القرآن والعالم الجديد

من الأسرار التي كشف عنها القرآن قبل أربعة عشر قرناً ، وجود العالم الذي اكتشفه البَحّار كريستوف كولمبوس .

قال سبحانه : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾[2] .

وقد شغلت الآية بال المفسّرين ، ففسّروها تارة بمشرقي الشمس والقمر ، ومغربيهما ، وأُخرى بمشرقي الصيف والشتاء ، ومغربيهما . ولكن الظاهر هو الإشارة إلى وجود قارة أُخرى ، على الوجه الآخر من الكرة الأرضية ، يلازم شروق الشمس عليها ، غروبها عنّا ، وذلك لقوله سبحانه ـ حاكياً عن المجرمين يوم القيامة ـ : ﴿ حتّى إذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْني وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾[3] . فالظاهر أنّ المشرقين في الآيتين متحدّان أوّلاً ، وأنَّ الْبُعْدَ بينهما أطول مسافة محسوسة للمتمني ثانياً . وليست المسافة بين مشرقي الشمس والقمر أو مشرقي الصيف والشتاء أطول مسافة محسوسة ، فلا بدّ من أن يكون المراد منها

---

(١) الوسائل ، ج ٣ ، كتاب الصلاة ، الباب ٢٠ ، من أبواب المواقيت ، الحديث ٢ .

(٢) سورة الرحمن : الآية ١٧ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٣٨ .

المسافة التي ما بين المشرق والمغرب . ومعنى ذلك أن يكون المغرب مشرقاً لجزء آخر من الكرة الأرضية ، ليصحّ هذا التعبير . فالآية تدلّ على وجود هذا الجزء الـذي لم يكتشف إلّا بعد مئات السنين من نزول القـرآن ، كما أنّ إفـراد المشرق والمغرب في قوله سبحـانه : ﴿ ولله المَشْـرِقُ والمَغْرِبُ فَـأَيْنَما تُـوَلُّو فَثَمَّ وَجْـهُ الله ﴾[1] ، لأجل الإشارة إلى المشرق والمغرب المحسوسين لمن يعيش على هذا الوجه من الأرض .

وبـالجملة ، إنّ تفسير المشرقـين بـالمعنى الأول والثـاني ، بعيـد عن الأفهـام العرفية ، وإنّما يختصّ التفسير بهـما بالفلكيـين الأخصائـين في هذا الفن ، والقـرآن ينقله عن المجرم المتمني يوم القيامة .

* * *

٤ ـ القرآن وحركة الأجرام السماوية

إنّ القـرآن المجيد يخـبر عن حـركـة الأجـرام السـماويـة المحـدودة ، يقـول سبحانه : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغي لها أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ، ولا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحونَ ﴾[2] .

والفَلَكَ في اللغـة العـربيـة ـ كـما صرّح بـه الـراغب في مفـرداتـه ـ مجـرى الكواكب ، وتسميته بذلك لكونه كالفُلْك[3] .

وعلى ذلك فالفَلَك ليس بجسم وإنّما هو مدار النجوم .

وقد شبَّه سبحانه حركة الشمس والقمـر ، بحركـة الأسماك في البحـار حيث يقـول : ﴿ يَسْبَحون ﴾ والسَّبْح : المَرُّ السريـع في المـاء ، واستعيـر لمـرّ النجـوم في الفلك[4] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١١٥ .

(٢) سورة يس : الآية ٤٠ .

(٣) مفردات الراغب ، مادة فلك ، ص ٣٨٥ .

(٤) مفردات الراغب ، مادة سبح ، ص ٢٢١ .

ولعلّ قوله سبحانه : ﴿ والسَّابِحاتِ سَبْحاً ﴾[1] إشـارة إلى سباحـة النجوم في الفضاء .

يقول سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌ يَجْري لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾[2] . والتحديد بقوله : ﴿ لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ سَبَبُهُ أَنَّ حركتيهما محدودتان إلى أمـد معين ، فإذا جاء أمر الله ، ينطوي النظام الكوني ويتبدل . وذلك عندما يخطو العالَم خطوته نحو الكهولـة ، وتستوي فيـه الحرارة والـبرودة . ففي ذلك الـظرف تنتهي صفحة الحياة ، ويُطوى كتابها[3] .

وما ذكرنا لا يخالف ما ثبت من أنّ الشمس مركز للكواكب ، فإنّ استقرارها إستقرار نسبي بالنسبة إلى سائر المجموعة الشمسية ، ولكن هـذه المنظومـة بعامّتهـا متحركة ، في حركة داخل مَجَرَّتها .

* * *

٥ ـ القرآن وحركة الأرض

إنّ الهيئة اليونانية كانت تصرّ على مـركزيـة الأرض وسكونها ، وأنّ الشمس تدور حول الأرض . وأول من خالف هذه النظرية وكشف حركة الأرض ، العـالم الإيـطالي المعروف « جـاليلو » ، كشف عن ذلك بعـد أن صنـع لنفسـه مـرصـاداً صغيراً ، ليشهد به حركة الأرض بالدقّة والحسّ .

وقـد لقي في كشفه هـذا معارضـة الكنيسة ومـلاحقتَهـا ، حتى حكم عليـه بالإعدام بعدما سجن طويلاً ، ولأجل ذلك كـان العلماء يكتمون كشفيـاتهم خوفـاً من الكنيسة الرومية .

---

(١) سورة النازعات : الآية ٣ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٢ .

(٣) لاحظ برهان حـدوث المادة الـذي أشرنا إليـه في الجزء الأول من هـذا الكتاب ، ص ٧٣ ، الـطبعة الأولى .

ولكن القرآن أشار إلى حركة الأرض بعبارات لم تتضح إلّا بعد قرون من الزمن ، وقد جاء ذلك في ضمن آيتين :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً ﴾[1] فقد استعار للأرض لفظ المهد الذي يعمل للرضيع ويُهَزّ بهدوء لينام فيه مستريحاً هادئاً . وكذلك الأرض ، مهدٌ للبشر ، وملائمة لهم من جهة حركتها الوضعية والإنتقالية . فكما أنّ الغاية من حركة المهد رعاية الطفل وطمأنينته ، فكذلك الأرض ، فإنّ الغاية من حركتها اليومية والسنوية ، تربية الإنسان ، بل وجميع ما عليها من الحيوان والنبات والجماد . وإنّما أشار إلى الحركة ولم يصرّح بها ، لأنّها نزلت في زمان أجمعت عقول البشر فيه على سكونها ، حتى أنّه كان يُعَدُّ مِنَ الضروريات التي لا تقبل التشكيك .

الثانية ـ قوله تعالى : ﴿ وَتَرى الجبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً ، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شيءٍ إنَّهُ خَبيرٌ بما تَفْعلَونَ ﴾[2] .

إنّ بعض المفسّرين يخصّ الآية بيوم القيامة ، لأنّها وردت في سياق آياتها ، فقد ورد قبلَها : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السَّمٰواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شاءَ الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرينَ ﴾[3] .

ويلاحظ عليه أنّ الآية المتقدمة على هذه الآية ، تبحث عن الحياة الدنيوية ، يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا اللَّيْلَ لِيَسْكُنوا فِيهِ والنَّهارَ مُبْصِراً إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يؤمِنونَ ﴾[4] . فَتَوَسُّطُ الآيةِ الراجعةِ إلى يوم القيامة ، لا يمنع صلة الآية بالحياة الدنيوية ، إذا كان هناك صلة وتناسب بين الآيات ، هذا .

مع أنّ القرائن الموجودة في نفس الآية تؤيّد خلافه ، أمّا أوّلاً : فإنّه سبحانه يقول : ﴿ تَحْسَبُها جَامِدَةً ﴾ ، مع أنّ يوم القيامة ، يومُ ظهور الحقائق وكشف

---

(١) سورة طه : الآية ٥٣ .

(٢) سورة النمل : الآية ٨٨ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٧ .

(٤) سورة النمل : الآية ٨٦ .

البواطن ، وليس هناك ظَنٌّ وحسبان ، بل كلّ ما هنالك إذعان ويقين ، يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[1] .

وثانياً : فإنّ الآية تبحث عن الجبال الموجودة ، مع أنّ يوم القيامة يوم تبدلّ النظام وتغيّره ، يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمواتُ ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الجِبالِ ، فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً ﴾[3] .

ويقول سبحانه : ﴿ وإذا الجِبالُ سُيِّرَتْ ﴾[4] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَتَكونُ الجِبالُ كالعِهْنِ المَنْفوشِ ﴾[5] .

فالكل يدلّ على زوال النظام بما فيه الجبال ، فكيف تكون الآية ناظرة إلى يوم القيامة ؟ .

وثالثاً : إنّ قوله سبحانه في ذيل الآية : ﴿ صُنْعَ اللهِ الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ ﴾ ، دليل على أنّه لا صلة للآية بالقيامة ، إذ الصنع يناسب حياتنا الدنيوية ، وأمّا يوم القيامة ، فهو يوم إبادة نظام الحياة ، فالجبال تتلاشى وتتمزق ، فلا يناسبه التركيز على إتقان الصنع .

ورابعاً : فإنّ قوله في ذيل الآية : ﴿ إنّه خبيرٌ بما تَفْعَلونَ ﴾ ، صريح في أنّ الآية راجعةٌ إلى الحياة الدنيوية ، ولو كانت ناظرة إلى يوم القيامة ، لكان المناسب أن يقول : « خبير بما فعلتم » .

---

(١) سورة ق : الآية ٢٢ .
(٢) سورة إبراهيم : الآية ٤٨ .
(٣) سورة طه : الآيتان ١٠٥ و ١٠٦ .
(٤) سورة التكوير : الآية ٣ .
(٥) سورة القارعة : الآية ٦ .

فهذه القرائن تؤيّد كون الآية راجعة إلى حياتنا الدنيوية .

وأمّا دلالتها على حركة الأرض ، فلا شكّ أنّ حركة الجبال متّصلة بحركة الأرض وتابعة لها ، لرسوخها فيها ، وتَشَعُّب أُصولها في بواطنها ، فحركتها تلازم حركة الأرض . ومعنى الآية : إنّ الأرض والجبال وما عليها وما فيها ، في حركة مستمرة كحركة السحاب . وأمّا تخصيص الجبال بالذكر ، فلأجل ما فيها من الوزن والثقل والإرتفاع ، وقدرة الله تسيرها كالسحاب . والقرآن ذكر الجبال لعظمتها وثقلها ، ليبرهن بها على أنّ قدرة الله نافذة في كل موجود ، ووسعت كل شيء .

وأمّا تشبيه حركتها بحركة السَّحاب ، فلإفهام أمرين :

١ ـ كما أنّ حركة السَّحاب تكون بسكون وهدوء ، بدون صخب واضطّراب ، فكذلك حركة الجبال تتحقق بسكون وطمأنينة .

٢ ـ سرعة الحركة ، حيث تتحرك كتحرك السحاب حين تهب الريح . فإنّ حركة السُّحب عند هبوب الرياح والعواصف حركة سريعة ، ولأجل ذلك يشبهون مرور الفُرَص بمرّ السحاب ، كما يقولون : « الفرصة تَمُرُّ مَرّ السحاب » .

* * *

٦ ـ القرآن وزوجية الموجودات

إنّ القرآن يدعو المسلمين عامة إلى التدبّر في الآيات الكونية ، ويجعل ذلك علامة للإيمان ، ويقول :

﴿ والَّذينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهِمْ لم يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً وعُمْياناً ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ ، رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً ، سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ ﴾[2] .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٧٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٩١ .

فالتدبُّر في الآيات الكونية ، وكشف السنن السائدة عليها ، آية الإيمان ، ورمزُ العبودية .

وعلى ذلك ، فهَلُمَّ نتدبر في آي الذّكر الحكيم التي تصف النباتات بالزوجية .

يقول سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[1] .

وفي آية أُخرى يُعمّم وصف الزوجية إلى جميع الموجودات، ويقول: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شيءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ ﴾[2] .

وقد شغلت الآيتان ، وما ورد في مضمونها ، بال المفسّرين . ففسّروا الزوجية في النباتات بالأنواع والأصناف المتشابهة. قال الراغب : « قوله : ﴿ أَزواجاً مِن نَباتٍ شَتّى ﴾ أي أنواعاً متشابهة » .

كما فسّروا الزوجية في الموجودات بتركّبها من جوهر وعرض ، أو مادة وصورة ، قال الراغب : « قوله : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ﴾ تنبيهٌ على أنّ الأشياء كلّها مركبة من جوهر وعرض ، ومادة وصورة ، وأنْ لا شيء يتعرى من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً ، وأنّه لا بدّ له من صانع ، تنبيهاً على أنّه تعالى هو الفرد ، فبيّن أنّ كلَّ ما في العالم زوج ، حيث إنّ له ضداً ، أو مثلاً ما ، أو تركيباً ما ، بل لا ينفك بوجه من تركيب وإنّما ذكر هاهنا زوجين ، تنبيهاً على أنّ الشيء وإن لم يكن له ضِدّ ولا مِثْل ، فإنّه لا ينفك من تركيبِ جوهرٍ وعرض ، وذلك زوجان »[3] .

وما ذكره الراغب هو عصارة ما في التفسير ، فترى أنّ تفسيرهم لا يخرج عن

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٧ . وبهذا المضمون طه : الآية ٥٣ ، ولقمان : الآية ١٠ ، والشعراء : الآية ٧ ، ويس : الآية ٣٦ ، وق : الآية ٧ ، والرحمن : الآية ٥٣ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٤٩ .

(٣) مفردات الراغب ، مادة زوج ، صفحة ٢١٦ .

كونِ ملاك الزوجية ، هو وجود الأصناف المتشابهة ، أو التركب من جوهر وعرض ، أو مادة وصورة ، أو كون الشيء ذا ضد .

وكان في وسع هؤلاء المفسّرين ، مكان التفكر فيما ورثوا من العلوم الطبيعية من الأمم السالفة ، سلوك طريق التجربة والإختبار في المختبرات . ولو سلكوا هذا الطريق لربما كشفوا عن الزوجية الحقيقية في عالم النبات .

لقد توصل أحد علماء النبات ، وهو « لينه » ، إلى تلك الحقيقة ، فأعلن أنّ في كل فصل ونوع من أنواع النباتات ذكراً وأُنثى ، وأنّ إنتاج الأثمار رهن هذه الزوجية ، وقد يستقلّ الزوجان عن بعضهما فيحصل اللقاح بينهما بواسطة الريح أو الحشرات كالنحل ، وقد يجتمعان في نبتة واحدة ، وزهرة واحدة ، كما هو مفصّل في الكتب العلمية . وكان لإظهار هذه النظرية ردّ فعل من أصحاب الكنائس ، فأصدروا بياناً حكموا فيه بضلالة كُتُبه .

نعم ، كان سكنة المناطق الحارة ملمّين بوجود الزوجية في النخيل ، فأدركوا أنّه إذا لم يُلَقَّح ويُطَعَّم بمادة الذُّكورية ، لا يثمر ، ولكن الحالة العامة لم تتجاوز هذه المعرفة ، حتى اكتشف ذاك الناموس العام .

وأمّا في جانب الزوجية في عامة الموجودات ، فقد توصّل العلم إلى أنّ المادة وجود متكاثف من الذرّات ، وكل ذرّة تشتمل على نواة مكوّنة من جُسَيْمات تحمل شحنات كهربية موجبة تسمى البروتونات ، وجُسَيْمات محايدة لا تحمل شحنات كهربية باسم النيوترونات ، ويدور حولها جُسَيْمات تحمل شحنات كَهْرَبية سالبة تعرب بالإلكترونات وعددها يساوي عدد البروتونات لتتعادل الذرّة كهربياً . فذرّة الأوكسجين ، مثلاً ، في نواتها ثمانية بروتونات يدور حولها ثمانية الكترونات .

وقد عبّر القرآن عن هذين الجزئين الحاملين للشحنتين المختلفتين ، بالزوجية ، حتى لا يقع موقع التكذيب والردّ ، إلى أن يكشف الزمان مغزى الآية ومفادها .

وبذلك يتجلّى إعجاز القرآن ، حيث كشف عن هاتين الزوجيتين ، قبل

قـرون من الزمن ، في عصر متخلّف ، منحط ، تنعـدم فيه كـل وسائـل التجربـة والإختبار .

والعجب أنّ تلميـذ النبي الأعظم ، وربيبـه ، ووصيَّه ، عـلي بن أبي طالب عليه السلام ، يفسّر الآية بقوله : « مُؤَلِّفٌ بين متعادياتها ، مفرقٌ بين متدانيـاتها ، دالّةٌ بتفريقها على مُفَرِّقِها ، وبتأليفها على مُؤَلِّفها ، وذلك قولـه : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شيءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ ﴾ »[1] .

* * *

٧ ـ القرآن والحياة في الأجرام السماوية

لا يزل التحقيق والبحث مستمراً للتيقن من وجود حياة حيوانية في غير الكرة الأرضيـة ، بعـد أن كشف العلم عن وجـود مـظاهـر للحيـاة النبـاتيـة عـلى بعض الكرات ، هذا . مع أنّ القرآن الكـريم قد أخـبر عن وجود الـدوابّ في السموات والأرض بقوله : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ والأَرْضِ وما بَثَّ فيهـما مِنْ دابَّةٍ ، وهُوَ على جَمْعِهِمْ إذا يَشاءُ قَديرٌ ﴾[2] .

والـدَّابَّة ، عبـارة عن كل مـا يدبّ ويتحـرك ، وبحكم عود ضمـير التثنيـة (فيهما) إلى السموات والأرض ، نستكشـف أنّ الحيـاة ليست مقصورة عـلى الكرة الأرضية ، وأنّها توجد أيضاً في السموات والأجرام العُلْوية .

وإلى ذلك يشير الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله : « هٰذِهِ النُّجُـومُ التي في السماءِ مدائن ، مثل المدائن التي في الأرض »[3] .

* * *

---

(١) التـوحيد ، للصـدوق ، البـاب ٤٣ ، الحـديث الثـاني ، ص ٣٠٨ . وقـد نقله في ص ٣٧ ، بـاب التوحيد ونفي التشبيه ، والحديث الثاني عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢٩ .

(٣) سفينة البحار ، مادة نجم ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ .

٨ ـ القرآن ودور الجبال في إثبات القشرة الأرضية

القرآن الكريم يبحث عن أسرار الجبال ، والآثار المترتبة عليها في آياتٍ شتّى ، تكشف لنا دورها في ثبات القشرة الأرضية ، وتأثيرها في جريان الأنهار الكبيرة .

قال سبحانه : ﴿ وَأَلقى في الأَرْضِ رَواسيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وأَنهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدونَ ﴾[١] .

وقال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنا فِيها رَوَاسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً ﴾[٢] .

وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً * والجِبالَ أَوْتاداً ﴾[٣] .

ويستفاد من هذه الآيات أنّ للجبال دوراً عظيماً في الأُمور التالية :

١ ـ الجبال هي الحافظة لقطعات القشرة الأرضية ، تقيها من التفرق والتبعثر ، كما أنّ الأوتاد والمسامير تمنع القطعات الخشبية عن الإنفصال .

٢ ـ الجبال تمنع المواد السائلة الملتهبة الواقعة تحت الأرض ، من الإنفجار والإندلاع ، حسب طاقات المواد ، ولولاها لكانت الأرض على غير هذه الصورة ، ولوجدتها إثْر الضغط المستمر الناتج بسبب المواد الكامنة في جوفها ، في مَيدان دائم واضطراب ، وإذا كنا نجد في بعض المواضع جبالاً تتدفق منها الحِمَم فما ذلك إلاّ لبلوغ الضغط مبلغاً عظيماً في الشدّة ، يفوق قدرة الجبال ، وتنوء عن تحمّله .

٣ ـ وجود علاقة بين الجبال وتوفير الماء ، حيث عطف قوله : ﴿ وأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً ﴾ ، على قوله : ﴿ وَجَعَلْنا فِيها رَوَاسِيَ شامِخاتٍ ﴾ .

وذلك لأنّ ارتفاع الجبال يوجب انخفاض الحرارة فيها ، وقلّة تأثير الشمس

---

(١) سورة النَّحْل : الآية ١٥ ولاحظ سورة لقمان : الآية ١٠ .

(٢) سورة المرسلات : الآية ٢٧٧ .

(٣) سورة النبأ : الآيتان ٦و٧ .

عليها . فعندئذٍ تجتمع عليها الثلوج ثم تذوب في الفصول الحارّة ، وتجري المياه الذائبة على وجه الأرض بهدوء وسكون ، لتتشكل بعدها الأنهار والجداول ، ويرتوي منها الإنسان ، ويروي دوابّه ومزارعه ، ولولا الجبال لانجذبت المياه إلى باطن الأرض ، ولما استفاد منها الإنسان إلّا بالمكائن والأدوات الصناعية المعقّدة ، وربما لا تكون الآبار مفيدة ولا تسدُّ حاجة المزارع وعموم الناس من الماء .

هذا بعض ما يرجع إلى فوائد الجبال التي يذكرها القرآن الكريم ، ألمعنا إليها بصورة مبسطة . وأساتذة الفيزياء ، والتضاريس الأرضية ، يفسّرون كون الجبال أوتاداً للأرض بشكل علمي خاص ، لا يقف عليه إلّا المتخصص في تلك العلوم ، والمطّلع على قواعدها ، ولأجل ذلك اكتفينا بما ذكرنا[1] .

* * *

وفي الختام نؤكّد ما سبق في صدر البحث من أنّ القرآن ليس كتاباً يعالج قضايا العلوم الطبيعية والرياضية والهندسية ، وإنّما يتعرض لبعض القوانين السائدة على الكون لأجل الإهتداء بها إلى المعارف والأُصول العقلية ، كالتعرف على الله وصفاته وأفعاله ، وعلى ذلك فلا يصحّ لنا الإكثار من هذا النوع من الإعجاز ، وتطبيق الآيات على القوانين الكونية ، حتى وإن لم يكن ظاهراً فيها . فما يُرى من الإسراف في بعض التفاسير في هذا المجال ، ليس بِمَرْضيٍّ عند من يقف في تفسير القرآن الكريم على باب النصّ من نفس الكتاب ، على اختلاف وجوهه وأقسامه ، أو الأثر المأثور من صاحب الشريعة وآله ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

* * *

(١) ومن أراد التفصيل فليرجع إلى تفسير الأستاذ ـ دام ظلّه ـ على سورة الرعد : « القرآن وأسرار الخلقة » . وهو فارسي ، لم يترجم بعد .

شواهدَ إعجاز القرآن

(٨)

الأخــــــلاق

نزل القرآن الكريم على قلب سيد المرسلين صـلى الله عليه وآلـه ، في عصر الظلمة والجهل ، حيث لم يكن من فضائـل الأخلاق ومكـارِمِها ، ذِكْـرٌ ولا أثر إلاّ النذر اليسير . ففي ذاك الظرف جاء القرآن مستقصياً لـلأخلاق الفـاضلة ، ومبيّناً للأخلاق الرذيلة ، فدعا إلى التزيُّن بالأُولى ، والإنتهاء عن الثانية ، وأقـام بذلـك أشرف مدرسة أخلاقية زاهـرة ، بِجُمَلِ كَلِمِـهِ وجوامِعِهـا ، ويكفي في ذلك قـوله سبحانه :

﴿ إنَّ الله يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإِحْسـانِ وإيتاءِ ذي القُـرْبىٰ ، وَيَنْهىٰ عن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، والبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ * وأَوْفوا بِعَهْدِ الله إذا عاهَدتُّمْ ، ولا تَنْقُضـوا الأَيْمانَ بَعْـدَ تَوْكِيـدِها ، وَقَـدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفيـلاً ، إنَّ الله يَعْلَمُ مـا تَفْعَلونَ ﴾[١] .

وفي الآيات التالية اجتمعت أُصول أخلاقية عشرة فيها حياة المجتمـع ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالوالِدَيْنِ إِحْسـانـاً ، وَلا تَقْتُلوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْـلاقٍ نَحْنُ نَـرْزُقُكُمْ وَإِيَّـاهُمْ ، وَلا تَقْـرَبـوا الفَـواحِشَ ما ظَهَـرَ منها ومـا بَـطَنَ ، وَلا تَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَـرَّمَ الله إلاَّ بـالحَقِّ ،

---

(١) سورة النحل : الآيتان ٩٠ ـ ٩١ .

ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلونَ * وَلا تَقْرَبوا مالَ اليَتيمِ إلاّ بالّتي هي أحْسَنُ حتى يَبْلُغَ أشُدَّهُ ، وأوْفُوا الكَيْلَ والميزانَ بالقِسْطِ ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها ، وإذا قُلْتُمْ فاعْدِلوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى ، وَبِعَهْدِ الله أوْفوا ، ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ * وأنَّ هذا صِراطي مُسْتَقيماً فاتَّبعوهُ ، ولا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سبيلِهِ ، ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقون ﴾[1] .

هذه نماذج من الأُصول الأخلاقية الواردة في القرآن الكريم ، وللتوسع مجال ليس هنا موضعه .

نعم ، نرى أنّ التوراة أَمَرَتْ بني إسرائيل بالحكم بالعدل لأقربائهم ، ونَهَتْهُم عن الحقد على أبناء شعبهم ، وعن السعي بالوشاية وشهادة الزور على أقربائهم وأن يَغْدُرَ أحدُهم بصاحبه ، ولكنها شَوَّهت جمال هذه الأُصول الأخلاقية ، بتخصيص تعاليمها ببني إسرائيل ، وبتخصيصها بالقريب والشعب والصاحب . وهذا بخلاف القرآن ، فإنّه يوجّه خطاباته الأخلاقية إلى الناس أجمعين ، من دون فرق بين قوم وقوم ، وعنصر وآخر .

وأمّا الأناجيل الرائجة ، فقد أفرطت في الدعوة إلى التصوّف البارد ، حتى نهت عن ردع الظالمين بالإنتصاف من الظالم ، وقطع مادة الفساد ، بل قالت : «لاتقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدّك الأيْمَن ، فحوّل له الآخر أيضاً * ومن أراد أن يُخاصِمَك ويأخُذَ ثَوْبَكَ ، فاترك له الرداء أيضاً !! »[2] .

إنّ للأخلاق القرآنية صبغة خاصة وميزة فريدة ، فلا هي أخلاق يونانية تجعل الغاية من التزين بالأخلاق هي النفع المادي العائد من الإنسان ، كالدعوة إلى إكرام الجار ، حتى لا يسرق متاعاً عند غيابك ، أو يردع الطاغية الظالم عنها . ولا هو أخلاق روحانية بحتة ، لا ترى إلاّ ترقية الروح وإسعادَها ، وتنسى أنّ البشر مخلوق ممزوج من مادة ومعنى ، وجسم وروح ، ولا تتحقق السعادة إلاّ

---

(١) سورة الأنعام : الآيات ١٥١ ـ ١٥٣ .

(٢) لاحظ العهد الجديد ، إنجيل متى ، الأصحاح الخامس ، الجملتان ٣٩ و ٤٠ ، ص ٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

بإعطاء كلٍّ حقَّه . بل هي مُثُل أخلاقية وسطى ، تضمن سعادة الإنسان في كلا الجانبين .

* * *

هذه ثمانية من الشواهد الدالّة بوضوح على أنّ القرآن ليس تَقَوُّلاً على الوحي ، ولا نتاج فكر إنسان عادي منقطع عن التعليم الإلهي ، وأنّ هذا الكتاب بهذه المزايا والسمات ، يمتنع أن يقومَ به إنسان مهما بلغ في العقل والذكاء ، أو فاق أقرانه وأماثله من بني البشر ، إلّا أن يكون متصلاً بالوحي السماوي ، مستمداً تعاليمه من خالق البشر .

* * *

المقام الثاني

الإستدلال على نبوته بمعاجزه الأُخَر

إنّ أوّل ما كان الأنبياء يُطالَبون به ـ كوثيقة تثبت صحّة مدعاهم ، وصحة إنتسابهم إلى الله تعالى ـ هو الإتيان بالبيّنات والمعجزات . وهذا هو القرآن يحدّثنا أنّ صالحاً عليه السلام عندما حَذّر قومه من سخط الله ، وأخبرهم بأنّه رسولُهُ إليهم ، طالبوه بالمعجزة قائلين : ﴿ ما أَنْتَ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا ، فَائتِ بِآيَةٍ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[1] .

وقد جرت سيرة الناس مع النبي الأكرم على ذلك ، حيث طالبوه بالإتيان بالمعاجز في بدء دعوته ، وكان الرسول العظيم يلبّي طلباتهم. وبالرغم من كثرة هذه المعاجز التي حفظها الحديث والتاريخ ، أبى بعض من ناوىء الإسلام ، إلاّ إنكارها ، والإصرار على أنّ نبيَّ الإسلام لم يأت بمعجزة سوى القرآن .

إنّ هذه الشبهة حول معاجز الرسول الأكرم ، نجمت من الكُتّاب المسيحيين ، تقليلاً من أهمية الدعوة المُحَمَّدية ، وحطّاً من شأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

فهذا هو « فندر » ـ القسيس الألماني ـ يقول في كتابه « ميزان الحق » : إنّ

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٥٤ . وقد وردت آيات بهذا المضمون في سُوَرٍ شتّى .

محمداً لم يأت بأية معجزة قط »[1] . وتبعه سائر القساوسة ، ولاكوه بين أشداقهم ، وما زالوا إلى يومنا هذا . وإليك فيما يأتي تفنيد هذه المزعمة بأدلة ثلاثة .

١ ـ المحاسبة العقلية .

٢ ـ الرجوع إلى نفس القرآن .

٣ ـ معاجز الرسل في الحديث والتاريخ .

* * *

الدليل الأول ـ المحاسبة العقلية

إنّ القرآن الكريم وصف الرسول الأعظم بأنّه خاتم الأنبياء ، وأنّ رسالته خاتمة الرسالات ، وكتابه خاتم الكتب[2] .

وأخبر عن وقوع معاجز على أيدي الرسل والأنبياء ، فنقل في شأن موسى قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا موسىٰ تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ ﴾[3] .

كما تحدّث عن المسيح ودعوته ، وبيّناته فقال : ﴿ وَرَسُولاً إلى بني إسْرائيلَ أَنّي قَدْ جِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْر ، فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله وَأُبْرِءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وأُحْيِي المَوْتى بإِذْنِ الله وَأُنَبِّئُكُمْ بما تأْكُلونَ وما تَدَّخِرونَ في بُيوتِكُمْ إنَّ في ذلكَ لآيةً لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ ﴾[4] .

وفي ضوء هذا ، هل يصحّ للقرآن الكريم أن يخبر بهذه المعاجز للأنبياء ، ويصف محمداً بأنّه خاتمهم وآخرهم ، وأفضلهم ، ثم لا يكون له معجزة ؟ وإذا طلبوا منه إظهار الإعجاز ، يتهرب أو يسكت ، أو يقول ليس لي معجزة ؟ .

---

(١) ميزان الحق ، ص ٢٧٧ . وقد كتبه حول حياة الرسول .

(٢) لاحظ مفاهيم القرآن ، ج ٣ ، ص ١١٨ ـ ١٨٠ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ١٠١ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

ولو فرضنا أنّ النبي الأعظم لم يكن إلاّ نابغة من النوابغ الذين نهضوا لإصلاح أمّتهم ، متستراً برداء النبوة ، لما صحّ لَهُ أنْ يُخْبر عن معاجز الأنبياء السالفين ، ثم يصف نفسه بالخاتمية ، ودينه بالأكملية ، وينكص عن الإتيان بمثل معاجزهم عند الطلب منه .

فالمحاسبة العقلية تحكم ببطلان مزعمة القساوسة ، بل تثبت أنّ النبي الأعظم قد أظهر معاجز عديدة لقومه عندما طلبوا منه ذلك ، كيف والقرآن يصفه بما لا يصف به أحداً من أنبيائه ، وهو يقتضي عقلاً أن يكون له أفضل ما أُوتي سائر الأنبياء .

* * *

الدليل الثاني ـ القرآن يثبت للنبي معاجز غير القرآن

إنّ القرآن يخبر بصراحة عن وقوع معاجز على يَدَي الرسول الأمين ، وفيما يلي نذكر الآيات القرآنية الواردة في هذا المجال .

١ ـ انشقاق القمر

قال سبحانه : ﴿ إقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ * وإنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبوا واتَّبَعوا أهْواءَهَمْ وَكُلُّ أمرٍ ، مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جاءَهَمُ مِنَ الأنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾(١) .

أطبق أكثر المفسّرين على أنّ المشركين اجتمعوا إلى رسول الله ، فقالوا : إنْ كُنْتَ صادِقاً فَشُقَّ لَنا القَمَرَ فَلْقَتَيْنْ فقال لهم رسول الله : إن فَعَلْتُ تُؤْمنونَ ؟ . قالوا : نَعَمْ . وكان ليلة بدر ، فسأل رسول الله رَبّه أن يعطيه ما قالوا ، فانشق القمر فَلْقَتَيْنْ ، ورسول الله ينادي : « يا فلان ، يا فلان ، إشهدوا »(٢) .

---

(١) سورة القمر : الآية ١ ـ ٤ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ١٨٦ . تفسير الرازي ، ج ٧ ، ص ٧٤٨ ، ط مصر في ثمانية أجزاء ، الكشاف ، ج ٣ ، ص ١٨١ .

ومعنى قوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ، أنّ القيامة قد قربت ، وقرب موعد وقوعها ، والكفار يتصورونها بعيدة ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَراهُ قَرِيباً ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وَانْشَقَّ القَمَرُ ﴾ ، يدلّ على وقوع انشقاق القمر ، لأنّه فعل ماض . وحمله على المستقبل ، لانشقاق القمر يوم القيامة ، تأويل بلا جهة .

وأمّا وجه الربط بين الجملتين (اقتراب الساعة وانشقاق القمر) ، فهو أنّ انشقاقه من علامة نبوّة نبينا ، ونبوّته وزمانه من أشراط الساعة ، وقد أخبر القرآن عن تحقق هذين الشرطين (ظهور نبي الإسلام ، وانشقاق القمر) وقال : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرونَ إلاّ السَّاعَةَ ، فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها ﴾[2] .

وفي الآية قرينتان على أنّ المراد ، انشقاق القمر بوصف الإعجاز ، لا انشقاقه يوم القيامة .

الأولى : قوله : ﴿ وإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا عَنْها ﴾ ، فالمراد من الآية ، الآية المعجزة ، غير الآيات القرآنية ، وذلك لأنّه لو كان المراد هو الآيات القرآنية ، لكان المناسب أن يقول : وإنْ سمعوا آية ، أو نزلت عليهم آية . وعلى هذا تكون الآية المرئية هي انشقاق القمر الذي تقدم ذكره في الآية .

الثانية : أنّ قوله : ﴿ وَيَقولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ ، يُعَيِّن ظرف هذا الحَدَث ، وأنّه هو هذا العالم المنتظم لا يوم القيامة . إذ لو كان راجعاً إليها ، لما كان لأحد أن يتفوّه بغير الحق ، أو يصف فعل الحق بالسحر ، لأنّ ذلك الظرف ظرف الخَتْم على الأفواه ، واستنطاق الأيدي والأرجل ، قال سبحانه :

﴿ اليَوْمَ نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْديهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانوا يَكْسِبون ﴾[3] .

---

(١) سورة المعارج : الآيتان ٦ ـ ٧ .

(٢) سورة محمد : الآية ١٨ .

(٣) سورة يس : الآية ٦٥ .

فهذا المقطع من الآية يدلّ على أنّ ظرف الإنشقاق كان في زمن الرسول ، ولأجل ذلك اتّخذ منه المشركون موقفاً متعنتاً مجادلاً ، وقال قائلهم : « سَحَرَكُمْ إبن أبي كبشة »[1] . وقد كان المشركون يدعون الرسول الأعظم به ، وأبو كبشة من أجداد النبي من ناحية أمه .

٢ ـ إسراء ومعراج النبي صلى الله عليه وآله

إنّ إسراء النبي ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أحد المعاجز العظيمة التي أنعم الله سبحانه بها على نبيه ، وأخبر عنها القرآن حيث قال : ﴿ سُبْحانَ الذي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصى الذي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا ، إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ ﴾[2] .

وقد تحقق عبور تلك المسافة الطويلة في زمن قصير ، في ظرف لم يكن يتوفّر فيه شيء ممّا يتوفر الآن من وسائل النقل السريعة ، وهذا هو الوجه في إعجازها .

إنّ القرآن الكريم يثبت هذا الإعجاز ، في سورة أُخرى أيضاً ، ويدعمها بقوة لا تُبقي في النفس شكاً بها ، ويخبر أنّ رحلة النبي تجاوزت المسجد الأقصى (الوارد في الآية السابقة) إلى سدرة المنتهى[3] .

٣ ـ مباهلة النبي لأهل الكتاب

تعرّض القرآن لقضية المباهلة ، في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حاجَّك فيهِ مِنْ بَعْدِما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ ، فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبناءَنا وأَبناءَكُم ونِساءَنا ونِساءَكُمْ وأَنْفُسَنا وأَنْفُسَكُمْ ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ على الكاذِبِينَ ﴾[4] .

إنّ قصة المباهلة مذكورة في التفاسير[5] ، ومعجزة النبي ـ وهي حلول

---

(١) الدرّ المنثور ، ج ٦ ، ص ١٣٣ ، وقد جمع كلمات الصحابة حول شقّ القمر .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١ .

(٣) لاحظ سورة النجم : الآيات ٥ ـ ١٨ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٦١ .

(٥) تقدمت إليها الإشارة في مباحث النبوة العامة .

العذاب على نصارى نجران ـ وإن لم تتحقق بسبب انصرافهم عن المباهلة ، إلّا أنّ ذهاب الرسول إلى المباهلة واستعداده لذلك من جانب ، وانسحاب نصارى نجران من خوض معركة التباهل من جانب آخر ، يكشفان عن أنّ حلول العذاب ـ بدعاء الرسول ـ كان حتمياً لو تباهلوا ، فقد أدركوا الخطر وأحسُّوا بعواقب الموقف ، فتنازلوا وتصالحوا .

٤ ـ طلب المعاجز من النبي (ص) الواحدة تلو الأُخرى

إنّ القرآن الكريم يصرّح بأنّ النبي كان كلما أتى قومه بآية ، طالبوه بآية أخرى ، وكانوا يصرّون على أن تكون مثل معاجز السابقين ، وهذا يدلّ على أنّ الرسول أظهر معاجز غير القرآن حتى جاء الطلب منهم بعد الطلب .

قال سبحانه : ﴿ وإذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ ، قالوا لَنْ نُؤْمِنَ حتى نُؤْتَىٰ مِثْلَما أُوتيَ رُسُلُ الله ﴾[١] وليس المراد من ﴿ آية ﴾ نفس القرآن ، ولا الآية القرآنية ، لوجهين :

١ ـ أنّها جاءت بصورة النكرة ، وهذا يكشف عن نوع خاص من الآيات .

٢ ـ لو كان المقصود هو القرآن أو الآية القرآنية ، كان المناسب إلقاء الكلام بنحو آخر بأن يقول بدل المجيء ، « النزول » ، فيقول : « إذا نَزلت عليهم آية » . وعلى هذا فلفظ « آية » ، فيها ، نظيرها في قوله سبحانه : ﴿ إنّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنونَ * وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتّى يَرَوُا العَذابَ الأَليم ﴾[٢] .

وفي قوله سبحانه حاكياً عن المسيح عليه السلام : ﴿ أنّي قد جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله . . . ﴾ الآية[٣] .

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

(٢) سورة يونس : الآيتان ٩٦ و٩٧ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

وأمّا علّة اختلاف الأنبياء في أصناف المعاجز ، فقد قدمنا ذكره في صدر هذا الفصل .

٥ ـ وصف معاجز النبي بالسحر

إنّ هناك آيات تصرّح بأنّ المشركين كلما رأوا من الرسول اية ، وصفوها بالسحر . قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا رأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرونَ * وقالوا إنْ هذا إلَّا سِحْرٌ مُبينٌ ﴾[١] .

إنّ تنكير ﴿ آية ﴾ ، واستعمال ﴿ رأوا ﴾ ، دليلٌ على أنّ المقصود من الآية ، غير القرآن من المعاجز ، وإلّا لكان المناسب تعريف الآية ، ووصفها بالسماع أو النزول .

وهذه الآية نظير قوله سبحانه : ﴿ وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنوا بها . . ﴾[٢] .

٦ ـ النبيُّ الأعظم وبيِّناته

يشير القرآن الكريم إلى أنّ النبيَّ الأعظم بُعث مع البينات ، والمراد منها المعاجز ، كما تشهد به الآيات الأُخر .

قال سبحانه : ﴿ كَيْفَ يَهْدي الله قَوْماً كَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ وَشَهِدوا أَنّ الرَّسولَ حَقٌّ وجاءَهُمُ البَيِّناتُ ، والله لا يَهْدي القَوْمَ الظالِمينَ ﴾[٣] .

و« البيِّنات » جمع « البيِّنة » ، وهي الدليل على الشيء ، وربما يحتمل أنّ المراد هو القرآن ، أو البشائر الواردة في الكتب النازلة قبله حول النبي ، ولكن

(١) سورة الصافات : الآيتان ١٤ و ١٥ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ٢٥ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٨٦ .

ملاحظة الآيات الأُخر التي استعملت فيها هذه الكلمة ، تؤيّد أنّ المراد المعاجز والأعمال الخارقة للعادة .

قال سبحانه : ﴿ وآتَيْنَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ اتَّخذوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِما جاءَتْهُمُ البَيِّناتُ ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ وإذْ كَفَفْتُ بني إسْرائيلَ عَنْكَ إذْ جِئْتَهُمْ بالبَيِّناتِ ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بالبَيِّناتِ ﴾[4] .

إلى غير ذلك ممّا ورد فيه لفظ البينات ، وأُريد منه الأفعال الخارقة للعادة . والظاهر أنّ المراد منه في الآية السابقة هو نظائر تلك المعاجز .

٧ ـ إخبار النبي عن الغيب ، كالمسيح

إنّ القرآن المجيد يَعُدُّ إخبار المسيح عليه السلام ، عن المغيبات ، من معاجزه ، في قوله ـ حاكياً عنه ـ : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بما تأْكُلونَ وما تَدَّخِرونَ في بُيوتِكُمْ ، إنَّ في ذلِكَ لآيَةً لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ ﴾[5] .

فإذا كان الإخبار عن الغيب ، آية معجزة للمسيح ، فقد أخبر النبي عن المغيّبات بكتابه الذي جاء به ، كما تقدم في الشواهد على إعجاز الكتاب .

* * *

الدليل الثالث ـ معاجز النبيِّ في الحديث والتاريخ

إنّ كُتُبَ الحديث والتاريخ ، زاخرةٌ بمعاجز النبي ، التي لا يمكن نقل

(١) سورة البقرة : الآية ٨٧ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٥٣ .
(٣) سورة المائدة : الآية ١١٠ .
(٤) سورة المائدة : الآية ٣٢ .
(٥) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

معشـارها في هـذا الكتاب . وقـد قام بعض المحـدِّثـين ، بتـأليف مفـردة في هـذا المجال ، أجْمَعُها فيه ما ألَّفه الشيخ الحرّ العامـلي (م ١١٠٤) ، وأسماه بـ « إثبـات الهُـداة بالنصـوص والمعجزات » ، وطبـع في ثلاث مجلدات كبـار . وقد جمـع فيها معاجز النبي من كتب الشيعة والسنّة ، جزاه الله عن الإسلام خير الجزاء .

* * *

مقارنة بين معاجز النبي وغيره من الأنبياء

إنّ أحـاديث المسلمـين حـول معـاجـز النبي ، تمتـاز عـلى روايـات اليهـود والنصارى حول معاجز أنبيائهم من ناحيتين :

الأولى : قلّة الفترة الزمنية بيننا وبين حوادث العهد النبوي ، وكـثرتها بيننـا وبين حوادث عهود النبيَّيْن موسى وعيسى عليهما السلام ، وغيرهمـا ، وهذا يـوجب الإطمئنان إلى روايات المسلمين أكثر من روايات غيرهـم .

الثانية : تواتر الروايات الإسلامية حول معاجـز النبي الأكرم وعـدمه في الجانب الآخر ، فإنّها تنتهي إلى أفراد قلائل .

ومن أراد الوقوف على معاجز النبي فعليه المراجعة إلى الكتـاب الذي أشرنـا إليـه حتى تتضح مصـادر ما ذكـره ، ويتبين تـواترهـا إجمـالاً ، وإن لم يكن بعضهـا متواتراً لفظاً[١] .

* * *

(١) التواتر ينقسم إلى لفـظي ومعنوي وإجمـالي ، والفرق بينهما واضح لمن كـان له إلمـام بعلم الدرايـة ، وحاصله أنّ الحديث إذا كان بنصّه متواتراً فهو التواتر اللفظي . وإذا كان كل واحـد من الأحاديث غير متواتر نصّاً لكن الجميع يشهد عن قـدر مشترك بينهـا ، كالأخبـار الواردة حـول سَخاء حـاتم ، وبطولة الإمـام علي ، فـإنّ كلّ واحـد ، وإن كان لا يتجـاوز أخبار الآحـاد ، لكن الجميع يتفق في حكاية سماحة الأول ، وشجاعة الثاني ، فهذا الجامع ، متواترٌ معنىً . وأمّا الثالث فهو ما إذا كثرت الأخبـار في موضـوع ، ونعلم بصدور عـدّة منها ، وإن لم يكن كـل واحد معلوم الصـدور ، كما في المقام ، فإنّ كلّ واحد من الأخبار حول معاجزه وإن كـان غير متـواتر ، لكن نعلم بصـدور البعض قطعاً ، فهو متواتر إجمالاً .

خاتمة المطاف

لقد حصحص الحق ، وثبت لك وقوع المعاجز على يد النبي الأكرم ، سواء معجزته الخالدة أم غيرها من المعاجز الواردة في القرآن ، وكتب الحديث ، والتاريخ . وما ذكرناه كاف في إثبات نبوته ، على وجه لا يَدَعُ لقائلٍ مقالاً ، ولا لمرتاب شكّاً وريبةً .

وقد عرفت في صدر الفصل أنّ للتعرف على صدق مدّعي النبوة طرقاً ثلاثة :

الأول : التحدّي بالمعاجز .

الثاني : تنصيص النبي السابق على نبوّة النبي اللاحق .

الثالث : جَمْعُ القرائن والشواهد القاضية بصدق المُدَّعي .

وقد فرغنا من سلوك الطريق الأول ، وفيما يلي نسلك الطريق الثاني .

* * *

الطريــق الثـاني
لإثبات نبوة نبي الإسلام

بشائر خاتم الرسل في العهدين

إنّ النبيَّ الأكـرمِ صـلى الله عليــه وآلـه وسلّم ، كــان يحتـجّ عـلى اليهـود والنصارى ، بأنّه قد بُشرٍ به في العهدين ، وأنّ الكليم والمسيح بشّرا برسالته ، وأنّ أهل الكتاب لـو رجعوا إلى كتبهم ـ حتى بعـد التحريف ـ لـوجدوا بشـائره فيهـا ، وتعرّفوا عليه ، كتعرّفهم عـلى أبنائهم . كـان يحتجّ بهـذه الكلمات ، ولم يكن هناك أيّ ردّ من الأحبار والرهبـان في مقابله ، بـل غايـة جوابهم كـان السكوت وإخفـاء الكتب ، وعدم نشرها بين أتباعهم .

ولو كان النبي الأكرم غير صـادق ـ والعياذ بـالله ـ في هذا الإدّعـاء ، لثارت ثـورتهم عليه ، ولمـلأوا الأجـواء والـطوامـير بنقـده وردّه ، غـير أنّ صراحـة النبي وصموده أمام علمائهم بشدّة ، يكشف عن انهزام العدو أمام ذلك الإدّعاء .

يقول القرآن الكـريم : ﴿ الَّذينَ آتَيْنـاهُمُ الكِتابَ ، يَعْـرِفونَـهُ كما يَعْـرِفونَ أبناءَهُمْ ، وإنَّ فريقاً لَيَكْتُمونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[١] .

ويقول : ﴿ الَّذينَ يَتَّبِعونَ الرَّسولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجِدونَهُ مَكْتوباً عِنْدَهُمْ في التَّـوْراةِ والإنْجيلِ ، يأمُرُهُمْ بالمَعْروفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ ﴾[٢] .

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٦ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

ويقـول : ﴿ وَإِذْ قالَ عيسى بْنُ مَـرْيَمَ يا بني إِسْرَائِيـلَ إِنِّي رَسـولُ الله إِلَيْكُمْ مُصَـدِّقـاً لمـا بَـيْنَ يَـدَيَّ مِنَ التَـوْراةِ ، وَمُبَشِّراً بِـرَسـولٍ يَـأْتي مِنْ بَعْـدي اسمُـهُ أَحْمَد ﴾[1] .

ثم إنّ علماء المسلمـين في الأعصـار السـابقـة نقبـوا في العهـدين ، وجمعـوا البشارات الواردة فيهما . وَنَقْلُ هذه البشائر ، يوجب الإسهاب في الكلام والخروج عن وضـع الكتـاب ، ونكتفي في ذلـك بهـذه البشـارة التي تكشف عنهـا الآيـة الأخـيرة ، فإنّ فيهـا تنصيص على الإسم مكـان التنصيص على الصفـات ، وهذه الإشارة وردت في إنجيل يوحنا في الأصحاحات : الرابع عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر . وإليك نصوصها من الإنجيل الحالي المترجم إلى اللغة العربية :

١ ـ ﴿ إنْ كنتم تحبونني فاحفظوا وصايـاي ، وأنا أطلب من الأب فيعـطيكم مُعَزِّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد ﴾[2] .

٢ ـ ﴿ وأمّـا المُعَزِّي ، الـروح القدس الـذي سيرسله الأب بـاسمي ، فهـو يعلّمكم كل شيء ، ويذكّركم بكل ما قُلته لكم ﴾[3] .

٣ ـ ﴿ وَمتى جاءَ المُعَزِّي الذي سأرسله أنـا إليكم من الأب روح الحق الذي من عنـد الأب ينبثق ، فهـو يشهـد لي وتشهـدون أنتم أيضـاً لأنّكم معي مـن الإبتداء ﴾[4] .

٤ ـ ﴿ لكني أقـول لكم الحق ، إنّه خـير لكم أن أنطلق لأنّـه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّي ، ولكن إن ذهبتُ أُرسله إليكم * ومتى جـاء ذاك يُبَكِّتُ العالم عـلى خَطِيَّةٍ وعلى بِرٍ وعلى دينونة ﴾[5] .

٥ ـ ﴿ وأمّا متى جاء ذاك ، روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنّه

---

(١) سورة الصف : الآية ٦ .

(٢) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الرابع عشر : الجملتان ١٥ و١٦ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٣) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الرابع عشر : الجملة ٢٦ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٤) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الخامس عشر : الجملة ٢٦ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٥) إنجيل يوحنا ، الأصحاح السادس عشر : الجملتان ٧و٨ ، ط دار الكتاب المقدس .

لا يتكلم من نفسه بل كل ما يَسْمَع ، يتكلّم به ، ويخبركم بامور آتية ﴾[1] .

وجه الإستدلال يتوقف على بيان نكتة ، وهي أنّ المسيح عليه السلام ، كان يتكلم بالعبرية ، وكان يعظ تلاميذه بهذا اللسان ، لأنّه وُلِدَ وشَبَّ بين ظهرانيهم ، وأُمُّه أيضاً كانت عبرانية ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، إنّ المُؤَرِّخين أجْمَعوا على أنّ الأناجيل الثلاثة غير متى ، كتبت من أوّل يومها باللغة اليونانية ، وأمّا إنجيل متى فكان عبرياً من أوّل إنشائه .

وعلى هذا ، فالمسيحُ بَشَّر بما بَشَّر باللغة العبرية أولاً ، وإنّما نقله إلى اليونانية ، كاتب الإنجيل الرابع « يوحنا » وكان عليه التحفّظ على لفظ المسيح في مورد المُبشَّرِ به ، لأنّ القاعدة الصحيحة ، عدم تغيير الأعلام ، والإتيان بنصِّها الأصلي ، لا ترجمة معناها. ولكن « يوحنا » لم يراع هذا الأصل ، وترجمه إلى اليونانية ، فضاع لفظه الأصلي الذي تكلّم به المسيح ، وفي غِبِّ ذلك حصل الإختلاف في المراد منه .

وأمّا اللفظ اليوناني الذي وضعه الكاتب « يوحنا » مكان اللفظ العبري ، فهو مردد بين كونه « باراقْلِيطوس »[2] الذي هو بمعنى المُعَزِّي والمُسَلِّي والمُعين والوكيل ، أو « پِرِيقْلِيطوس »[3] الذي هو بمعنى المحمود ، الذي يرادف أحمد . ولأجل تقارب الكلمتين في الكتابة والتلفظ والسماع ، حصل التردد في المُبَشَّر به . ومُفَسِّروا ومترجموا إنجيل يوحنا ، يصرّون على الأول ، ولأجل ذلك ترجموه إلى العربية بـ « المعزّي » ، وإلى اللغات الأُخرى بما يعادله ويرادفه ، وادّعوا أنّ المراد منه هو روح القدس ، وأنّه نزل على الحواريين في اليوم الخمسين بعد فقدان المسيح ، كما ذُكر تفصيله في كتاب أعمال الرسل[4] . وزعموا أنّهم بذلك خلعوا

---

(١) إنجيل يوحنا ، الأصحاح السادس عشر : الجملة ١٣ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) في اليونانية هكذا : IIAPAKAHTOE . وبالأفرنجية هكذا : Paracletos .

(٣) في اليونانية هكذا : IIEPIKAHOTE . وبالأفرنجية هكذا : Pericletos .

(٤) أعمال الرسل ، الأصحاح الثاني : الجملات ١ ـ ٤ ، يقول : ﴿ ولما حضر يوم الخمسين كان ، =

المسلمين عن السلاح الذي كانوا يحتجون به عليهم .

ومع ذلك ، فهناك قرائن تلقي الضوء على أنّ المُبَشَّر به هو الرسول الأعظم ، لا روح القدس ، وإليك تلك القرائن :

١ ـ إنّ المسيح بدء خطابه إلى تلاميذه بقوله : ﴿ إن كنتم تحبونني ، فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم « معزياً » آخر ، ليمكث معكم إلى الأبد ﴾ .

وهذا الخطاب يناسب أن يكون المُبَشَّر به نبياً ، لأنّ المسيح يحتمل ـ في هذا الكلام ـ أن يتخلّف عدّة منهم عن اقتفاء أثره ودينه ، ولذلك أثار عواطفهم في هذا المجال لئلا يتخلّفوا . ولو كان المراد منه روح القدس لما احتاج إلى تلك المقدمة ، لأنّ تأثيره في القلوب تأثير تكويني لا يمكن لأحد التخلّف عنه ، ولا يبقى في القلوب معه شكٌّ ، وهذا بخلاف تأثير النبي فإنّه يؤثر ببيانه وكلامه في القلوب والأرواح ، وهو يختلف حسب اختلاف طبائع المخاطبين واستعدادهم .

ولأجل ذلك أصرّ على إيمانهم به في بعض خطاباته وقال : ﴿ وقلت لكم الآن قبل أن يكون ، حتى متى كان تؤمنون ﴾[1] .

٢ ـ إنّه وصف المُبَشَّر به بلفظ « آخر » ، وهذا لا يناسب كون المبشر به نظير روح القدس لعدم تعدده ، وانحصاره في واحد ، بخلاف الأنبياء فإنّهم يجيئون واحداً بعد الآخر ، في فترة بعد فترة .

٣ ـ إنّه ينعت ذلك المبشر به بقوله : ﴿ لِيَمْكُثَ معكم إلى الأبد ﴾ وهذا يناسب نبوة النبي الخاتم التي لا تُنْسخ .

= الجميع معاً بنفس واحدة ، وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة ، وملأ كلّ البيت حيث كانوا جالسين ، وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنّها من نار ، واستقرّت على كل واحد منهم ، وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى ، كما أعطاهم الروح أن ينطقوا ﴾ . وسيوافيك عند التحليل أنّه لم يتحقق في يوم الدار هذا كلّ ما ذكره المسيح ومنه قوله : « يبكت العالم على خطيّة الخ . . » .

(١) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الرابع عشر : الجملة ٢٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

٤ ـ إنّه يقول : ﴿ وأمّا « المعزّي الروح القدس » الذي سيرسله الأب باسمي ، فهو يعلمكم كل شيء ، ويذكركم بكل ما قلته لكم ﴾ وهذه الجملة تناسب أن يكون المبشر به نبيّاً يأتي بعد فترة من رسالة النبي السابق بعد أن تصير الشريعة السابقة على وشك الإضمحلال والإندثار . فيأتي النبي اللاحق ، يذكر بالمنسيّ ، ويزيل الصدأ عن الدين .

وأمّا لو كان المراد هو روح القدس فقد نزل على الحواريين بعد خمسين يوماً من فَقْد المسيح ، حسب ما ينصّ عليه كتاب أعمال الرسل(١) . أفيظن أنّ الحواريين نسوا في هذه المدة اليسيرة معالم المسيح وتعاليمه حتى يكون النازل هو الموعود به ؟! .

٥ ـ ويصف المسيح المبشر به ، بقوله : ﴿ فهو يشهد لي ﴾ . وهذه العبارة تناسب أن يكون المبشر به هو النبي الخاتم حيث بُعِثَ مصدِّقاً للشرائع السابقة والكتب السالفة ، وقد أمره سبحانه أن يخاطب أهل الكتاب بقوله : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ آمِنُوا بما نَزَّلنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ ﴾(٢) ، وغير ذلك . ومن المعلوم أنّ الرسول الأكرم شهد برسالة المسيح ، ونَزَّه أُمَّه وابنها ، عن كل عيب وشين ، وردّ كلَّ ما أُلصق بهما من جهلة اليهود من التهم التافهة . وهذا بخلاف ما إذا فُسِّر بروح القدس ، إذ لم يكن للمسيح يومذاك أي حاجة لشهادته ، ودينُه وشريعتُه بَعْدُ غضّانِ طريّان .

٦ ـ إنّه يقول : ﴿ لأنّه إن لم انطلق ، لا يأتيكم « المعزي » ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ﴾ . وهذا يناسب أن يكون المُبَشّر به نبياً ، حيث علّق مجيئه بذهابه ، لأنّه جاء بشريعة عالمية ، ولا تصحّ سيادة شريعتين مختلفتين على أُمةٍ واحدةٍ .

ولو كان المُبَشَّر به هو روح القدس ، لما كان لهذا التعليق معنى ، لأنّ روح

---

(١) أعمال الرسل ، الأصحاح الأول : الجملة ٥ . والأصحاح الثاني : الجملات ١ ـ ٤ ، ط دار الكتاب المقدس .
(٢) سورة النساء : الآية ٤٧ .

القدس حسب تصريح إنجيليْ متى ولوقا ، نزل على الحواريين عندما بعثهم المسيح للتبشير والتبليغ[1] .

٧ ـ ويقول : ﴿ ومتى جاء ذاك يُبكّت العالم على خَطِيَّةٍ ، وعلى بِرّ ، وعلى دينونة . . . ﴾ . وهذا يؤيّد أن يكون المُبَشَّر به نبيّاً ، إذ لو كان المراد هو روح القدس ، فهو نزل في يوم الدار على الحواريين حسب زعمهم ، فلما وبّخ اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً ، لعدم رؤيتهم إيّاه . ولم يوبخ الحواريين ، لأنّهم كانوا مؤمنين به .

٨ ـ ويقول : ﴿ ومتى جاء ذاك ، روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنّه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية ﴾ .

وهذا يتناسب مع كون المُبَشَّر به نبيّاً خاتماً ، صاحب شريعة متكاملة ، لا يتكلم إلّا بما يوحى إليه ، وهذه كلّها صفات الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فجميع هذه القرائن تشهد بوضوح على أنّ المراد من « المعزي » المُبَشَّر به ، هو النبي الأكرم لا روح القدس ، ولو أمعنت النظر في سائر القرائن التي ذكرها المحققون من المسلمين في تفسير هذا اللفظ ، لعالت القرائن[2] .

غير أنّ البشارات لا تنحصر بذلك بل هي موجودة في العهدين ، واستقصاء البحث وجَمْعها ، يستدعي تأليف كتاب منفرد حافل ، إلّا أنّا نلفت إلى نكتة وهي :

إنّ الكتاب الذي جاء به المسيح كان كتاباً واحداً ، وهو عبارة عن هَدْيِهِ

---

(١) لاحظ إنجيل متى : الأصحاح العاشر ، الجملة الأولى فما بعدها . وإنجيل لوقا : الأصحاح العاشر ، الجملة ١١ ، وفيها : ﴿ ولكن إعلموا هذا : إنّه قد اقترب منكم ملكوت الله ﴾ .

(٢) من أراد التفصيل فعليه الرجوع إلى كتاب أنيس الأعلام في نُصرة الإسلام ، ج ٥ ، ص ١٣٩ ـ ١٧٢ .

وبشارته بمن يجيء بعده ، ليتم دين الله الذي شرعه على لسانه وألسنة الأنبياء من قبله ، فكان كلٌ منهم يبين للناس منه ما يقتضيه استعدادهم ، وإنّما كثرت الأناجيل لأنّ كلّ من كتب سيرته سماه إنجيلاً ، لاشتماله على ما بَشّر وهدى به الناس ، ومن تلك الأناجيل إنجيل « برنابا » . و« برنابا » حوريٌّ من أنصار المسيح الذي يلقّبهم رجال الكنيسة بالرُّسل ، صحبه « بولص » زمناً ، بل كان هو الذي عرّف التلاميذ ببولص ، بعدما اهتدى بولص ورجع إلى أورشليم ، ولم يكن من هذا الإنجيل أثر في المجتمع المسيحي حتى عثروا في أوروبا على نسخة منذ قرابة ثلاثة قرون ، وهذا هو الإنجيل الذي حرم قراءته « جلاسيوس الأول » في أواخر القرن الخامس للميلاد .

وهذا الإنجيل يباين الأناجيل الأربعة في عدّة أُمور :

١ ـ ينكر ألوهية المسيح وكونه ابن الله .

٢ ـ يعرّف الذبيح بأنّه اسماعيل لا إسحاق .

٣ ـ أنّ المسيح المنتظر هو « محمد » ، وقد ذكر « محمد » باللفظ الصريح المتكرر في فصول ضافية الذيول .

٤ ـ أنّ المسيح لم يصلب بل حُمل إلى السماء ، وأنّ الذي صلب إنّما كان يهوذا الخائن . فجاء مطابقاً للقرآن .

ومن أراد الوقوف على بشائر هذا الإنجيل بوضوح ، فعليه بالرجوع إليه[١] .

* * *

---

(١) وقد قام بترجمته من الإنكليزية الدكتور خليل سعادة ، وقدم له مقدمة نافعة ، وطبع في مطبعة المنار بتقديم السيد محمد رشيد رضا أيضاً ، عام ١٣٢٦ هـ ، ١٩٠٨ م .

الطـريق الثـالث
لإثبات نبوة نبي الإسلام

القرائن الدالّة على نُبوّة الرسول الأعظم

قد ذكرنـا فيما تقـدّم أنّ من الطرق التي يستكشف بهـا صدق دعـوى المدّعي للنبوّة ، شهادة القرائن الداخلية والخارجية .

وهذا الطريق متـين يستخدم في المحـاكم القضائيـة في هذا العصر ، لتبيـين صدق المدّعي والمنكر أو كذبهما ، والتوصّل إلى كنه الحـوادث[1] . ولكنه لا يختصّ بـالمحـاكم ، بـل يمكن تعميمـه إلى مسـائـل مهمّـة ، منهـا إثبـات صـدق دعـوى المتنبّيء[2] .

وأُصول هذه القرائن في المقام عبارة عن الأُمور التالية :

١ ـ سيرته النفسية والخلقية قبل الدعوة وبعدها .

٢ ـ الظروف التي فيها نشأ وتربّى وادّعى النبوّة .

٣ ـ المفاهيم التي تبنّاها ودعا إليها .

٤ ـ الأساليب التي اعتمدها في نشر دعوته .

---

(١) والفرق بين هذا المقام وما ذكرنا من الشواهد ، هو أنّ الغاية من جمع الشاهد فيما مضى ، إثبات كون القرآن كتاباً سماوياً ، ولكن الغايـة من جمع القـرائن في المقام إثبـات كون حـامله رسولاً إلهيـاً ، لا مصلحاً إجتماعياً .

(٢) وقد ذكرنا في النبوة العامة أنّ قيصر الروم هو أول من اعتمد هذا الأسلوب ، وتبعه من أتى بعده .

٥ ـ شخصية أتباعه الذين آمنوا به ولزموه وصحبوه .

٦ ـ ثباته في سبيل أهدافه ، وصموده في دعوته .

٧ ـ أثر رسالته في تغيير البيئة التي ظهر فيها .

ومن هذه القرائن يمكن أن يستنتج صدق الدعوى على وجهٍ ، وكذبها على وجه آخر ، ولا ندّعي اختصاص القرائن بها ، بل يمكن للممعن في رسالته ، وحياته ، استخراج قرائن أُخر ، يستدلّ بها على صدق دعواه ، وإليك بيانها ، واحدة بعد أُخرى .

* * *

القرينة الأولى ـ سيرته النفسية والخلقية قبل الدعوة وبعدها

نشأ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في أرفع بيت من بيوت قريش ، وأعلاها كعباً ، وأشرفها شأناً . فسيرة جدّه عبد المطلب ، وعمّه أبي طالب ، في الكرم والسخاء وإغاثة الملهوفين ، وحماية الضعفاء ، معروفة في التاريخ والسِيَر .

وأمّا سيرة النبي الأكرم ، فكفى في إشراقها أنّه كان يُدعى بـ « الأمين » ، وكان محلّ ثقة واعتماد العرب في فضّ نزاعاتهم . فالتاريخ يروي أنّه لولا حنكة الرسول في حادثة وقعت بين العرب في مكّة ، وإجماعهم على قبول قضائه ، لسالت دماؤهم وهلكت نفوسهم . وذلك أنهم لما بلغوا في بناء الكعبة ـ التي هدمها السيل ـ موضع الركن ، اختصموا في وضع الحجر الأسود مكانه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأُخرى ، حتى تحالفوا واستعدّوا للقتال ، فَقَرَّبَتْ بنو عبد الدار جُفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عُدَيْ على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، تُفَكِّر في مَخْلَص من هذه الورطة .

ثم إنّ أبا أُمية ابن المغيرة ، الذي كان أَسن قريش كلها ، إقترح عليهم اقتراحاً ، قال : « يا معشر قريش ، إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أوّلَ من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضي بينكم فيه » . ففعلوا . فكان أول داخل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليهم رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه ، فلما رأوه قـالـوا : « هـذا « **الأمـين** » ، رضينا ، هذا محمد » ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى الله عليه وآله : «هَلمّ ثوباً» ، فأتي به . فأخذ الركن ، فوضعه فيه بيـده . ثم قال : « لتـأخذ كـلّ قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً » . ففعلوا . حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنوا عليه كما أرادوا .

وقد أنشد هبيرة بن وهب المخزومي هذه الحادثة بأبياتٍ ، منها :

رضـيـنـا وقـلنـا : الـعـدلُ أوَّلُ طـالـع
يجـيء مـن الـبـطحـاء مـن غـير مـوعـدِ
فـفـاجـأنـا هـذا الأمـين محـمـد
فـقـلنـا : رضـيـنـا بـالأمـين محـمـدِ
بـخـير قـريش كـلّهـا أمس شـيـمـة
وفي الـيـوم مـع مـا يحـدث الله في غـدِ
فـجـاء بـأمـر لم يـر الـنـاس مـثـله
أعَـمَّ وأرضى في الـعـواقـب والـبـدِ
وتـلك يـد مـنـه عـليـنـا عـظيـمـة
يـروب لهـا هـذا الـزمـان ويـعـتـدي[1]

هـذه لمحة مـوجزة عن خلقـه وسيرتـه المحمودة المعـروفة بـين الناس ، وقـد احتفظ بها صاحب الرسالة بعد بعثته ، وبعد غلبته على أعـدائه الألـداء ، حتى في نصره النهائي حين فتح مكة ودخل صناديد قريش الكعبة ، وهم يظنون أنّ السيف لا يرفع عنهم ، فـأخذ رسـول الله بباب الكعبـة ، وقال : « لا إلـه إلاّ الله ، أنجز وَعْـدَه ، ونَصرَ عَبْدَهُ ، وغَلَبَ الأحـزابَ وَحْدَهُ » . ثم قـال : « ما تـظنـون » ؟ . فأجابت قريش « نظن خيراً ، أخ كريم » . فقال : « فإنّي أقول لكم كما قال أخي يـوسـف : ﴿ **لا تَـثْرِيبَ عَـلَيْكُـمُ اليَـوْمَ ، يَـغْـفِـرُ الله لَـكُـمْ ، وَهُـوَ أَرْحَـمُ**

(١) السـيرة النبـويـة لابن هـشـام ، ج ١ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٩ . لاحظ الكـافي لـلكليـني ، ج ٤ ، ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

الرَّاحِمِينَ ﴾[1] »[2] .

والعجب أنّ الذين أحاطوا ببيته ليلة الهجرة ، وهمّوا باغتياله ، وإراقة دمه ، كانت أموالهم بين يديه ، وأمانةً عنده ، فلأجل ذلك لما همّ بالخروج من البيت والهجرة إلى المدينة ، أمر عليّاً أن يقيم صارخاً ، يهتف بالأبطح ، غدوة وعشياً : « من كان له قِبَلَ محمدٍ أمانة أو وديعة ، فليأت ، فَلْنُؤَدِّ إليه أمانته » ! .

فأقام عليٌّ بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدّى عن رسول الله صلى الله عليه وآله الودائع التي كانت عنده للناس[3] .

ومن ظريف أخلاقه عفوه عن العدو الغادر ، الذي أراد قتله ، بمجرد التجائه إليه :

فقد نقل أصحاب المغازي أنّه في إحدى الغزوات ، ذهب النبي الأكرم لحاجته ، فأصابه المطر ، فبلّ ثوبه ، فنزعه صلى الله عليه وآله ونشره ليجف ، فألقاه على شجرة ، ثم اضطجع تحتها . فرآه العدو وحيداً بعيداً عن أصحابه ، فاختار أحدهم سيفاً صارماً ، ثم أقبل حتى قام على رأس النبي بالسيف المشهور ، فقال : « يا محمد ، من يمنعك مني اليوم ؟ » .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « الله » .

عندئذٍ وقع السيف من يده فأخذه الرسول الأكرم وقام به على رأسه فقال : « من يمنعك مني اليوم ؟ » .

قال : « لا أحد » . ثم قال : « فأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، والله لا أُكْثِرُ عليك جمعاً أبداً » .

فأعطاه رسول الله سيفه ، ثم أدبر الرجل ، ثم أقبل بوجهه ، فقال : « أما والله ، لأنت خير مني » .

---

(١) سورة يوسف : الآية ٩٢ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٢١ ، ص ١٣٢ ، وغيره من المصادر المتوفرة .

(٣) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٤٩٣ . البحار ، ج ١٩ ، ص ٦٢ .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا أحقّ بذلك منك »[1] .

هذه نبذة يسيرة من سيرته الحميدة المعترف بها عند الصديق والعدو ، ولو أردنا الإسهاب لاحتجنا إلى تأليف رسالة حافلة ، في أدبه وخلقه وسيرته ، ولأجل ذلك إعتمد قيصر في استنطاقه أبا سفيان ، على تلك السيرة ، وجعلها جزءً من القرائن التي استفاد منها كونه صادقاً في دعوته[2] .

* * *

القرينة الثانية ـ الظروف التي فيها نشأ وادعى النُبوّة

كان العرب الجاهليون يضمّون إلى صفاتهم الحسنة من سخاء في الطبع وإكرام للضيف ، وصيانة للأمانة وإلتزام بالعهود ، صفات ذميمة وأخلاق رذيلة ، وعادات قبيحة ، وعقائد خرافية .

فالصورة العامة التي يمكن رسمها عنه ، أنّه كان مجتمعاً غارقاً إلى آذانه في عبادة الحجارة والأوثان ، والفساد الذريع في الأخلاق ، يظهر في شيوع القمار والزنا ، ووأد البنات ، وأكل الميتة ، وشرب الدم ، والغارات الثأريّة ، وتغيير الأشهر الحرم ، وغير ذلك من التقاليد والأعمال السيئة التي نقلها المؤرخون ، ولا حاجة للتفصيل[3] .

هذه هي عقائدهم وتقاليدهم ، وعاداتهم ، والنبي الأكرم وليد هذه البيئة المتدهورة ، نشأ وترعرع فيها ، وقضى أربعين عاماً بينهم ، فإذا به قد بعث بأُصول وآداب ومعارف ، تضاد ما كان سائداً في تلك البيئة . فلو كان هو في تعاليمه ، مستمداً من بيئته ، لكان قد تأثّر بها ولو في بعض هذه الصفات والتقاليد .

إنّه ليس من الغريب أن تنبت الأرض الخصبة ، الأشجار النضرة والأزاهير

---

(١) المغازي للواقدي ، (م ٢٠٧) ، ج ١ ، ص ١٩٥ ، ط أكسفورد .

(٢) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ ، حوادث السنة السادسة للهجرة .

(٣) لاحظ للوقوف على تاريخ العرب الجاهليين ، « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » للشيخ الآلوسي (م ١٢٧٠) . وتاريخ العرب للكاتب د . علي جواد ، في عشرة أجزاء . وغير ذلك .

والـرياحـين ، وإنّما العجب أن يَنْبُت كـل أولئك من أرض مجـدبـة قـاحلة ، يلقي عليها شبح الموت ظلاله السوداء ، وهكذا كانت شريعة محمد صـلى الله عليه وآلـه في البيئة التي ظهرت فيها .

* * *

القرينة الثالثة ـ المفاهيم التي تبنّاها ودعا إليها

جاء الرسول الأعظم بمفاهيم راقية في جميع شؤون الحياة البشرية وشجونها .

فدعا إلى التوحيد ، ونبذ الوثنية ، وتنزيهـه سبحانـه عن كل نقص وعيب ، فَعَرّف الإله الخـالق سبحانـه ، بقولـه : ﴿ هُوَ اللهُ الـذي لا إِلَهَ إِلاَّ هُـوَ عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ هُـوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحيمُ * هُوَ الله الذي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ القُـدّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزيزُ الجَبَّـارُ المُتَكَبِّرُ ، سُبْحـانَ الله عَمَّا يُشْـرِكُونَ * هُـوَ الله الخالِقُ البـاريءُ المُصَوِّرُ لَـهُ الأَسْماءُ الحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ مـا في السَّمٰـواتِ والأَرْضِ ، وَهُـوَ العزيزُ الحَكيمُ ﴾[1] .

وأين هذا من مفاهيم الشرك والوثنية التي كانت سائدة في ذلك الزمن .

وجاء بمفاهيم سامية حول الحياة الأُخروية ، فَقَرَّرَ أنّ الموت ليس بمعنى ختم الحياة ، وإنّما هو نافذة للحياة الأبـدية ، التي يحيـاها الإنسـان بسعادة أو تعـاسة ، بحسب أعماله الحسنة أو السيئة ، وأين هو من قولهم : ﴿ ما هي إلاَّ حياتُنـا الدُّنيـا نَموتُ وَنَحْيا ، وما يُهْلِكُنا إلاَّ الدَّهْرُ ﴾[2] .

وفي حقـل الأخلاق والتعـاون والتآلف الإجتـماعي ، زرع في محيط البغضاء والشحناء ، بذور المحبة والمواساة ، وجعل أبناء المجتمع الواحد أُخـوة في الدين ، متعـاضـدين ، متعـاونـين ، كـأنّهم جسـد واحـد ، فقـال : ﴿ إِنَّمـا المُؤْمِنـونَ إِخْوَةٌ ﴾[3] .

---

(١) سورة الحشر : الآيات ٢٢ ـ ٢٤ .

(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٤ .

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

وأرسى أركـان الإحسان والعـدالة الإجتـماعية ، وكـافـة أصـول الشخصيـة الإنسـانية الفـاضلة ، وحذّر من الفـواحش والبغي والعدوان ، فقـال : ﴿ إنَّ الله يـأمُرُ بـالعَدْلِ والإحسـانِ وإيتاء ذي القُـربىٰ وَيَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكـرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ ﴾[1] .

وأين هذا من أقبح الممارسات الأخلاقية الرائجة ، ومفـاهيم الثأر والعصبيـة والإنتقـام المحقونـة في نفـوسهم ، والتي خلّفت حـروبـاً طـاحنـة ، بـين القبـائـل العربية ، منها حرب الأوْس والخَزْرَج التي دامت قرابة مائة وعشرين سنة .

يقول ابن خلدون : « العرب الجاهليون ، بـطبيعة التـوحش الذي فيهم ، أهـل انتهاب وعيث ، ينتهبـون ما قـدروا عليـه ، وكـان ذلـك عنـدهم ملذوذاً . فـطبيعتهم إنتهاب مـا في أيـدي النـاس ، وأنّ رزقهم في ظـلال رمـاحهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حـدٌّ ينتهون إليـه ، بل كلما امتـدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون ، إنتبهوه »[2] .

وفي الحقل الإقتصادي ، جـاء بأصـول ومفاهيم بنى عليهـا بنيانـاً محكماً من التشريعات الإقتصادية ، في مختلف أبواب المعاملات .

فمن ذلـك أنّه نـادى بحرمـة الرِّبـا الذي كـان الشغل الشـاغل في الجـزيـرة العربية ، حتى أنّ ثقيف طـائف لما أسلمـوا طلبوا من الـرَّسول أنْ يكتب لهم كتـاباً يُحلّ لهم فيه الربا والزّنا ، فلما جاء مبعوثهم بكتابهم قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « إقرأ » . فلما انتهى إلى الربا ، قال : ضع يدي عليها في الكتاب ، فوضع يده ، فقال : ﴿ يـا أيُّها الَّـذينَ آمَنوا اتَّقـوا الله ، وذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الـرِّبا ﴾[3] ثم محاها . فلما بلغ القاريء ، الزنا ، وضع يـده عليها ، وقـال : ﴿ لا تَقْرَبـوا الزِنىٰ إنَّه كانَ فاحِشَةً وساءَ سَبيلاً ﴾[4] ثم محاها[5] .

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

(٢) مقدمة إبن خلدون ، ص١٤٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٧٨ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٣٢ .

(٥) أسـد الغابـة ، ج ١ ، ص ٢١٦ في ترجمـة تميم بن جراشـة الثقفي . والسيرة النبـوية لابن هشـام . ج ١ ، ص ٥٤٠ ، وبينهما اختلاف .

ومن ذلك ، قوله تعالى : ﴿ لَا تأْكُلوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إلى أهلِهَا ﴾[2] .

ولو أردنا أنْ نبين كافة التعاليم القرآنية في حقول المعارف ، والسياسة ، والإجتماع ، والأخلاق ، والإقتصاد ، لطال بنا الكلام ، وفيما ذكرنا غنىً وكفاية ، والكلُّ يشهد على عظمة المفاهيم التي جاء بها الإسلام ، وموافقتها لمقتضى حكم العقل الصريح ، المتحرر عن قيود الشهوة والخيال ، وهو من أجلى القرائن على نبوّة من جاء بها .

* * *

القرينة الرابعة ـ الأساليب التي اعتمدها في نشر دعوته

لا شكَّ أنّ النَّبي الأعظم نجح في دعوته ، وبلغ أهدافه التي قدّرها الله له ، ولكنه لم يدرك تلك الغاية بالأساليب الملتوية ، ولم يستعن في تحقيقها بكل وسيلة سائغةً كانت أو محرمةً ، ولم يسلك سبيل الخداع والمكر والحيلة باعتماد مبدأ : « الغاية تبرر الوسيلة » ، بل إنّ منطق النبي الأكرم ومسلكه ـ وكذا جميع الأنبياء ـ هو شقّ الطريق على نهج الصدق والعدل ، وهذه حالته التي لم تتفاوت في سرّاء أو ضرّاء ، أو شدّة أو رخاء ، . وكان في كل ذلك ممتثلاً قولَه تعالى : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عن المسجِدِ الحرامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾[3] ، وقولَه تعالى : ﴿ يآ أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كونُوا قَوَّامِينَ لله شُهداءَ بالقِسْطِ ، ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئانُ قَوْمٍ على أَنْ لا تعدلوا ، إعدلوا ، هو أَقْرَبُ للتَّقوى ، إنّ الله خبيرٌ بما تَعْملونَ ﴾[4] .

وهذه التعاليم التي اقتدى بها النبي الأكرم في نشر دعوته ، تدلّ على أنّه

---

(١) سورة النساء : الآية ٢٩ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٢ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٨ .

(صلى الله عليه وآله) كان يعامل عدوَّه بالعدل والرأفة ، ولم يكن من الذين تحجب العداوة بصائرهم ، ويُعمي الإنتصار أعْيُنَهم عن رعاية الحق والعدل .

وبإمكاننا أن نلمس ذلك في توجيهاته إلى أُمراء السرايا ، فإنّه كان إذا أراد أن يبعث سرية ، دعاهم فأجلسهم بين يديه ، وقال : « سيروا باسم الله ، وبالله ، وفي سبيل الله ، وعلى مِلَّة رسول الله ، لا تَغُلُّوا»[1]،ولا تُمَثِّلوا ، ولا تغدُروا ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا صبياً ، ولا امرأة ، ولا تقطعوا شجرة إلّا أن تضطروا إليها ، وأيّما رجل مِنْ أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جارٌ ، حتى يسمع كلام الله ، فإن تَبِعَكُم ، فأخوكم بالدين ، وإن أبى فأبلغوه مَأْمَنَهُ ، واستعينوا بالله » .

وفي روايةٍ أنّ النبي كان إذا بعث أميراً له على سرية ، أمره بتقوى الله عز وجل في خاصّة نفسه ، ثم في أصحابه عامة ، ثم يقول : أُغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تَغُلّوا ، ولا تُمَثِّلوا ، ولا تقتلوا وليداً ولا مُتَبَتِّلاً في شاهق ، ولا تحرقوا النخل ولا تغرقوه بالماء ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تحرقوا زرعاً لأنّكم لا تدرون لعلّكم تحتاجون إليه . وإذا لقيتم عدواً للمسلمين فادعوهم إلى إحدى ثلاث ، فإن هم أجابوكم إليها فاقبلوا منهم وكفّوا عنهم الخ . . . »[2] .

ولقد كان النبي الأكرم يتحرز عن التذرع بوسائل غير واقعية ، حتى لو كانت الوسيلة مفيدة ونافعة لأهدافه الشخصية ، وشخصيته الإجتماعية ، بل كان يناهضها ، ويبطلها ، ليستقيم الناس على جادة الواقع والحق .

فنحن نرى أنّ السياسيين المتصدرين لكراسي الرئاسة ، يتجاوبون مع عقائد الناس وإن كانت مخالفة لعقيدتهم ، وذلك للتحفظ على مناصبهم وعروشهم .

---

(١) من الغَلّ ، وهو الخيانة والغش والحقد .

(٢) وسائل الشيعة ، ج ١١ ، كتاب الجهاد ، الباب ١٥ من أبواب جهاد العدو ، الحديثين ٢و٣ . وقد جاءت نماذج من هذه التعاليم في تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٥٩ . و« الأموال » لأبي عبيد ، ص ٢١٢ .

فهذا « نهرو » بلغ من التجاوب مع قومه إلى حدّ أنّه كان يشترك معهم في مراسم عبادة البقر ، والتبرّك بفضلاتها ، لكونه مطلوباً عند الشعب ، ومخالفةُ الرأي العام مضرّة بشخصيته وأهدافه .

فالسياسيون لا يتورعون في تحقيق أهدافهم ، عن استغلال جهل شعوبهم . وأمّا الأنبياء فقد بعثوا لمكافحة الجهل ، سواء أكان جهل الناس مفيداً لأحوالهم الشخصية أم نافعاً ، ونذكر لذلك نموذجاً من سيرة النبي الأكرم :

عندما توفي ولده إبراهيم ، غشي الشمس كسوف ، فتلقاه الناس أمراً معجزاً ، وأنّ المصيبة تركت أثرها في الأرض والسماء ، وانكسفت الشمس لموت ولده . فلو كان النبي رجلاً مادياً ، طالباً للمنصب والمقام ، لأصفق مع شعبه في هذه العقيدة ، وتركهم عليها ، ولكنه رجل إلهي واقعي ، فصعد المنبر ، وأماط الستر عن وجه الحقيقة ، فقال :

« أيُّها الناس ، إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، يجريان بأمره ، مطيعان له ، لا ينكسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا انكسفا أو أحدهما ، صلُّوا » .

ثم نزل من المنبر ، فصلّى بالناس الكسوف ، فلما سلّم ، قال : « يا عليُّ ، قمْ فَجَهِّز إبني »[1] .

ومن دلائل كون النبي رجلاً واقعياً ، يطلب الحقائق ، ولا يستعمل في أساليب دعوته الخُدْعة ، هو أنّ نفراً من قريش طلبوا من النبي أن يعبد آلهتهم ، حتى يعبدوا إلهه ، فقام النبي في وجه المعترضين بصراحة ، وقال : **﴿ قُلْ يا أيُّها الكافِرونَ * لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدونَ * ولا أَنْتُمْ عابدونَ ما أَعْبُدُ * ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ * لكم دينُكُمْ وَلِي دِينِ ﴾**[2] .

---

(١) المحاسن ، للبرقي ، ص ٣١٣ . وبحار الأنوار ، ج ٢٢ ، ص ١٥٦ . والسيرة الحلبية ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ .

(٢) سورة الكافرون .

ولكن دعـاة الإصلاح المـاديين ، يتّخـذون ذلك الإقـتراح مطيّـة لآمـالهم ، فيجيبـونـه ، حتى إذا تغلّبـوا عـلى أعـدائهـم ، خـالفـوهم ، وقضـوا عليهم وعـلى معتقداتهم .

* * *

القرينة الخامسة ـ شخصية المؤمنين به

الناموس المطّرد في الشخصيات ، هـو أنّ كل إنسـان بارز ، يجـذب إليه من يوافق أفكاره وعقليـاته ، فـالشخصيات الصـالحة تجتمـع حولهـا ، رجال الـطهارة والإيمان والنزاهـة ، كما أنّ الشخصيـات الطالحـة ، تجذب إليهـا الأشرار والأراذل ولأجـل ذلك يقـال في المثل السـائر : « قُـلْ لي مَنْ تعاشر ، أَقُـلْ لك من أنت » ، ويقول الشاعر :

عن المرء لا تسـأل وسَـلْ عن قـرينـه   فـكـلُّ قـريـنٍ بـالمـقـارن يُـقْـرَنُ

وهذه وإن لم تكن قاعدة كلية ، إلاّ أنّها قاعدة غالبية .

وعلى ضوء ذلك الناموس الإجتماعي ، يمكن التعـرّف على النبي عن طـريق حوارييه وأصحابه . فنجد فيهم أصحاب عقل وعبقريـة ، يضنّ بهم الدهـر إلاّ في فترات متباعدة ، كالإمام علي بن أبي طـالب ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذرٍّ المجـاهد الكبير ، وخبّاب بن الأرت ، وغـيرهم من الشخصيات . وهـذا كتاب الـرسول ، يـأمره بمجـالسـة الـذين يـدعـون ربّهم بـالغـداة والعشي وتجنّب معـاشرة المُـتْرَفـين المُغَفَّلين .

يقول سبحانه : ﴿ وَآصْبِرْ نَفْسَكَ مع الَّـذينَ يَدْعـونَ رَبَّهُمْ بالغَـداةِ وَالعَشيِّ يُريدونَ وَجْهَهُ ، ولا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُريدُ زينَةَ الحياةِ الدُّنيا ، ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَـهُ عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هواهُ وكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾(١) .

(١) سورة الكهف : الآية ٢٨ .

ويكفي في ذلك أنّه تربّى في أحضانه ، رجال متفانون في طريق الدين وتحقيق أهدافه ، وكفى في إظهار ذلك أنّ النبيّ استشار أصحابه في محاربة قريش في معركة بدر ، وقال : أشيروا عليّ أيُّها النّاس .

فقام المقداد بن عمرو ، وقال : يا رسول الله ، إمض لما أراك الله ، فنحن معك . والله لا نقولُ لكَ كما قالت بنو إسرائيلَ لموسى : « إذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون » ، ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا فإنّا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق ، لو أمرتنا أن نخوض جَمْرَ الغضا[1] وشوك الهَراس[2] لخُضناه معك[3] .

وقال سعد بن معاذ : « فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فَخُضْتَهُ ، لَخُضْناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ، وإنّا لَصُبُر في الحرب ، صُدُق في اللقاء ، لعلّ الله يريك منا ما تقرُّ به عينك ، فَسِرْ بنا على بركة الله ، وصِلْ مَنْ شِئت ، واقطع مَنْ شِئت ، وخُذْ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت من أموالنا أحبّ إلينا ممّا تركت »[4] .

هؤلاء صحابة النبي والرجال الذين التفوا حوله، فكانت حياتهم وكلماتهم : التفاني دون الحق ، والعيش مع الرسول كيفما أراد . ولا نرى نُظَراءهم حول السياسيين من رجال الإصلاح ، الذين يعيشون لأجل الأماني المادية .

نعم ، وجود هذه الأنجم الزاهرة حول الرسول ، كافٍ في كون دعوته إلهية ، ولا يستلزم أن يكون كلُّ مَنْ حوله رجلاً مثالياً . ويكفي في ذلك ملاحظة التاريخ ، والآيات الواردة حول أصحابه وحوارييه .

* * *

---

(١) النار المُتّقدة .

(٢) شجر كبير الشوك .

(٣) السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٦١٥ ، وتاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .

(٤) المعازي ، للواقدي ، ج ١ ، ص ٤٨ ، وغيره .

القرينة السادسة ـ ثباته في طريق دعوته

إنّ ثبات المدّعي في طريق دعوته ، آية إيمانه بها ، فإذا رؤي فيه أنّه يضحّي بماله ونفسه وأقربائه ووُلده في طريق دعوته ، ويقتحم بنفسه المعارك الخطيرة ، ولا يتجنّن بتقديم غيره ، يستكشف من ذلك كونه مؤمناً بدعوته ، صادقاً في قوله . وهذا علي بن أبي طالب يصف حال النبي في غزواته ، ويقول :

« كنّا إذا احمرّ البأس ، إتقينا برسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم يكن أحد منا أقرب إلى العدو منه »(١) .

وقد اتّفق أهل المغازي والسِير ، على أنّ النبي لم يتراجع في حرب من الحروب ، بل كان صَموداً في وجه العدو ، .رغم ما كان يرد عليه من الجراحات ، وشيوع اليأس في جيشه .

ويكفي في ذلك السبر في تاريخ حروبه لا سيما في أُحُدْ وغزوة حُنَيْن . ففي أُحُد عمّت الهزيمة جيشه ، ولم يثبت معه في المعركة إلّا أشخاص قلائل ، فأخذ يدعو أصحابه وهم ينسحبون من أرض المعركة ، وهو راسخ فيها كالجبل الأشمّ لا تحركه العواصف . يقول سبحانه ، في حكايته لهذه الواقعة :

﴿ إِذْ تُصْعِدونَ ولا تَلْوُونَ على أَحَدٍ والرَّسولُ يَدْعوكُمْ في أُخْراكُمْ ، فأَثابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنوا على ما فاتَكُمْ ولا ما أَصابَكُمْ ، والله خَبيرٌ بما تَعْمَلونَ ﴾(٢) .

وأوضح من هذا ، ثباتُه في مكة ، وقد كان وحيداً في دعوته ، لم يؤمن به حينها إلّا عدّة قليلة يعيشون حالة الخوف والمطاردة ، والطواريء الشديدة تنزل على النبي ، الواحدة منها تلو الأُخرى ، وقد سطّر من تلك الحالات الكثير ، منها : تعرُّض الأراذل له بالشتم ، وإلقاء القذورات عليه ، أو إلقاء عمامته في عنقه وجرّه بها ، وغير ذلك ، وهو صابر محتسب(٣) . كما كان يتعرض للأذى المستمر من

(١) نهج البلاغة ، قسم الحكم ، فصل غريب كلامه ، الرقم ٩ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٣ .
(٣) لاحظ السيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .

جانب عمّه أبي لهب وزوجته ، وكان رسول الله يجاورهما، فلم يألُوا جُهْداً في إزعاجه وإيذائه ، فكم من مرّة ألقيا الرماد والتراب على رأسه وثيابه ، وكم من مرة نشرت أم جميل الشوك على طريقه ، أو جمعته خلف باب بيته لتؤذيه عند خروجه ، ولأجل هذا الإيذاء ، يخصُّ القرآن أبا لَهَبٍ باللّعن ، ويسميه وزوجته[1] .

وكم تعرض أصحابه لألوان العذاب ، كبلال الحبشي ، وآل ياسر وغيرهم ، الذين هم رموز الصمود والمقاومة ، وأوسمة الفخر والاستقامة . وقد قام عبد الله بن مسعود يوماً في المسجد ، ورفع عقيرته بقراءة القرآن لإسماع قريش ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم * الرحمن * علم القرآن » ، فلم تمهله قريش حتى قامت إليه تضربه حتى أدمي وجهه وجسمه ، وهو مع ذلك مسرور لإسماعهم كتاب الله العزيز وآياته المباركات[2] .

* * *

القرينة السابعة ـ أثر رسالته في تغيير البيئة التي ظهر فيها

إنّ الإلمام العابر بأحوال العرب في شبه الجزيرة العربية ، يكفي في إثبات أنّ الثورة العارمة على التقاليد والعادات السائدة هناك آنذاك ، في مدّة لا تزيد على ثلاث وعشرين سنة ، وصُنْع أُمّةٍ متحضرة منها ، في هذه البرهة الوجيزة من الزمن ، أمْرٌ يستحيل تحققه عن طريق العلل المادية ، والأساليب الإصلاحية ، وقد شمل التحوّل جميع جوانب الثقافة والفكر ، والإقتصاد ، والنُّظُم الإجتماعية ، والطقوس الدينية .

وهذا إنْ دَلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ وراء هذه الثورة ، إمدادات غيبية ، نصرت الثائر ، في جميع مواقفه ، سواء أكانت في مجال التبليغ والتبشير ، أم في مجال الكفاح والجدال ، أم في قلب الأمة المتوحشة المستبدة ، المتغلغلة في العداء البغضاء ، أُمّةً مُوَحَّدَةً ، متعاطفة ومتآخية فيما بينها .

---

(١) سورة المسد .

(٢) السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

وهذا الإمام عليٌّ أمير المؤمنين عليه السلام ، يصف وضع العرب الجاهليين في بعض خطبة ، ويقول :

« وأنتم معشر العرب على شَرِّ دينٍ ، وفي شَرِّ دار ، منيخون بين حجارة خشن ، وحيّات صم ، تشربون الكدر ، وتأكلون الجشب ، وتسفكون دماءكم ، وتقطعون أرحامكم ، الأصنام فيكم منصوبة ، والآثام بكم معصوبة »(١) .

فهذه الأُمة ، على هذه الحال وهذه الأوصاف ، تحولت إلى أُمّة ، عالمة ، أرست قواعد الحضارة الإنسانية في مدّة قصيرة ، وأخذت تكسح العراقيل أمامها ، وتزعزع عروش الطواغيت في مشارق الأرض ومغاربها ، حتى أرست بنيان دولة عظيمة ، صارت همزة وصل بين الحضارة اليونانية القديمة والحضارة الصناعية الحديثة .

* * *

هذه دراسة إجمالية للدعوة المحمدية ، وتبيين القرائن الموجودة فيها ، والكُلّ يشهد على أنّ الداعي كان صادقاً في دعوته محقّاً في نبوته ، وهذا الطريق الثالث الذي سلكناه على وجه الإجمال ، قابل للبسط والإسهاب . ففي وُسع المحققين في الحياة النبوية والملمّين بكتابه وسنته ، أن يشقوا هذا الطريق بشكل مسهب ، حتى يتجلى صدق دعوته تَجَلِّيَ الشمسِ في رائعةِ النّهار .

* * *

وبهذا البحث نختم البحث عن أصل النبوة الخاصة ، وأمّا سمات دعوته من حيث كونها أقليمية أو عالمية ، وكونها مرحلية أو خاتمة للرسالات ، فالبحث عنه على عاتق علم التفسير . غير أنّ الإحالة ، لما كانت عن المحذور غير خالية ، نبحث فيما يلي عن تينك السِّمَتَيْن بوجه الإجمال(٢) .

* * *

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٢٥ .

(٢) من أراد تفصيل البحث ، فبإمكانه الرجوع إلى ما دوّنه الأُستاذ دام ظلّه في موسوعته التفسيرية ، « مفاهيم القرآن » ، ج ٣ ، ص ٤١ ـ ٧٦ في العالمية ، وص ١١٩ ـ ٣١٦ في الخاتمية .

سمات الدعوة الإسلامية

* السمة الأولى : عالمية الرسالة
* السمة الثانية : خاتمية الرسالة

- أسئلة حول الخاتمية

السمة الأولى

عالمية الرســـــالة

الإسلام عقيدة وعمل ، لا ينفرد بها شعب أو مجتمع خـاص ، ولا يختصان ببلد معـين ، بل هـو دين يعمّ المجتمع الإنسـاني ككل ، عـلى اختلافـه في العنصر والوطن واللسان ، ولا يفترض لنفوذه حاجزاً بين أبناء الإنسـان ، ولا يعترف بـأية فـواصل وتحـديدات جنسيـة أو إقليمية ، وهـذا مـا ينصّ عليـه الـذكـر الحكيم ، والأحاديث النبوية ، ونلمسه من سيرة الرسـول الأكرم في نشر دينـه ، ومن تاريـخ نشوء وتطور دعوته .

أمّا الكتاب العزيز ، فإليك بعض نصوصه :

١ ـ قال تعالى : ﴿ قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ ، إِنِّي رَسولُ الله إِلَيكُمْ جميعاً ﴾(١) .

٢ ـ قال تعالى : ﴿ وما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كآفَّةً للنَّاسِ بَشيراً ونَذيراً ﴾(٢) .

٣ ـ قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ للنَّاسِ رَسولاً ، وكفى بالله شَهيداً ﴾(٣) .

٤ ـ قال تعالى : ﴿ وما أَرْسلناكَ إِلاَّ رَحْمَةً للعالَمينَ ﴾(٤) .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٢٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ٧٩ .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

٥ ـ قال تعالى : ﴿ تبارَكَ الذي نَـزَّلَ الفُرْقـانَ على عَبْـدِهِ ، لِيَكونَ لِلْعـالَمِينَ نَذيراً ﴾[١] .

٦ ـ قال تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القُرآنُ ، لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَـن بَلَغَ ﴾[٢] . أي كُلُّ من بَلَغَه القرآنُ ، ووصلت إليه تشريعاته في أقطار الأرض .

إلى غير ذلك من الآيات التي تنصّ على شمول رسالته لعامة البشر .

ويمكن الإستدلال بوجه ثان ، وهـو أنّ القرآن كثـيراً ما يـوجّه خـطاباتـه إلى الناس غير مقيّدة بشيء ، ويقول : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ ، اعبُدوا رَبَّكُمُ الـذي خَلَقَكُمْ والذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ ﴾[٣] فلو كان الإسلام ديناً إقليمياً ، أو كـانت رسالته لعصر خاص ، فما معنى هذه النداءات العامة ؟ .

ويمكن الإستدلال بوجه ثالث ، وهـو أنّه ربمـا يتّخذ القـرآن الكريم عنـواناً عاماً لكثير من الأحكام ، من غير تقييد بلون أو عنصر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَللهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبيلاً ﴾[٤] ، فأوْجَبَ الحَجَّ على الناس إذا استطاعوا ، عرباً كانوا أمْ غـيرهم ، ولو كـانت رسالتـه عنصرية ، لكـان عليه أن يقول : « ولله على الأُمة العربية ـ مثلاً ـ حجّ بيته » .

وهناك وجه رابع لعموم دعوته ، وهـو أنّه يُعَـرِّفُ كتابَـه نوراً وهـدىً للنّاس كلهم ، ويقول : ﴿ شَهْرُ رَمضـانَ الذي أُنْـزِلَ فِيهِ القُـرآنُ ، هُدىً للنّـاسِ ﴾[٥] ويقـول : ﴿ وَلَقَـدْ ضَـرَبْنـا لِلنّـاسِ في هـذا القُـرآنِ مِنْ كُـلِّ مَثَـلٍ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ ﴾[٦] .

هذه الوجوه الأربعـة، تهدف إلى أمر واحـد ، وإن كانت تختلف في طـريقة

---

(١) سورة الفرقان : الآية ١ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢١ . ولاحظ سورة البقرة : الآية ١٦٨ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٦) سورة الزمر : الآية ٢٧ .

البرهنة ، فقد اعتمد في الوجه الأول ، على تصريح القرآن بعموم رسالته ؛ وفي الوجه الثاني ، على نداءاته العامة ؛ وفي الوجه الثالث ، على أنّ الموضوع لأحكامه وتشريعاته ، أمرٌ عام ، وفي الوجه الرابع ، على أنّ القرآن يعرّف هدايته وإنذاره ، أمراً عاماً للناس كلّهم .

وهناك وجه خامس يتصل إتصالاً وثيقاً بطبيعة الإسلام وقوانينه وتشريعاته ، وهو أنّ القرآن في تشريعاته لا يعتمد إلّا على مقتضى الفطرة التي فطر عليها بنو البشر كلّهم ، فإذا كان الحكم موضوعاً على طِبْق الفطرة الإنسانية ، الموجودة في جميع الأفراد ، فلا وجه لاختصاصه بإقليم دون إقليم ، أو شعب دون شعب .

هذا هو الإسلام ، وتعاليمه القيمة ومعارفه وسننه ، فهل تجد فيها ما يشير إلى كونه ديناً إقليمياً ، أو شريعة لفئةٍ محدودةٍ ؟ فإنّ للدين الإقليمي علائم وأمارات ، أهمها أنّه يعتمد في معارفه وتشريعاته على ظروف بيئته وخصوصيات منطقته ، بحيث لو فرض فقدانها ، لأصبحت السنن والطقوس التي يعتمد عليها الدين ، سراباً يحسبه الظمآن ماءً .

ونحن في غنىً عن سرد آيات الذكر الحكيم التي تتبنى معارف وتشريعات تقتضي بطبيعتها كونها دواءً للمجتمع الإنساني في جميع الأقطار والأزمان ، فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ الآية[1] ؛ وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3] ، وغير ذلك من تشريعاته في حقول الإقتصاد والإجتماع والسياسة والأخلاق ، مما تقتضي بطبيعتها ، العمومية لجميع البشر والمجتمعات .

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٩٠ .

وأمّا السنة الشريفة ، فيكفي في ذلك قوله صلى الله عليه وآله ، في الخطاب الذي ألقاه في داره ، حينما وفد إليه أعمامه وأخواله ، ومن كانت له به صلة : « والله الذي لا إله إلاّ هو ، إنّي رسولُ الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامةً »[1] .

وأمّا في سيرته في حقل الدعوة ، فيكفي في ذلك وثائقه السياسية ، ومكاتيبه التي وجّهها إلى أصحاب العروش وملوك العالم ، كَكِسرى مَلِك الفُرس ، وقَيْصر مَلِك الروم ، والمقوقس عظيم القِبْط ، والنجاشي ملك الحبشة ، وغيرهم[2] .

هذا ، وإنّ الإسلام حارب العصبية ، والنعرات الطائفية ، في ظل وحدات ثمان ، أعني : وحدة الأمة ، وحدة الجنس البشري ، وحدة الدين ، وحدة التشريع ، وحدة الأخوة الروحية ، وحدة الجنسية الدولية ، وحدة القضاء ، ووحدة اللغة العربية ، وهو القائل :

« أيّها الناس ، إنّ الله أذهب عنكم نَخْوَة الجاهلية وتفاخُرَها بآبائها ، ألا إنّكم من آدم ، وآدم من طين ، ألا إنّ خير عباد الله عبدٌ اتّقاه » .

وهو القائل : « إنّ العربية ، ليست بأبٍ والد ، ولكنها لسان ناطق ، فمن قَصُر عملُه ، لم يَبْلُغ به حَسَبُه » .

وهو القائل : « إنّ الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا مِثْل أسنان المُشْط ، لا فَضْلَ لِعَرَبيٍّ على عَجَمِيٍّ ، ولا لأَحْمَرَ على أَسْوَدَ ، إلاَّ بالتقوى » .

وهو القائل : « إنّما الناس رجلان ، مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هيِّن على الله »[3] .

أَفَيَصِحُّ بعد هذه الكَلِم الدُّرِّيَّة ، رَمْيُ رسالته ، بالطائفية ، والعنصرية ، والإقليمية ؟ .

---

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٤١ ، وغيره .

(٢) لاحظ للاطلاع على هذه النصوص ، « مكاتيب الرسول » ، ج ١ ، ص ٩١ - ٢٤٠ .

(٣) راجع للوقوف على مصادر هذه الكلمات : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤١٢ . وبحار الأنوار ، ج ٢١ ، ص ١٠٥ .

إزالة شبهات

شبهةٌ - ربما يتمسّك بعض القساوسة لتحديد دعوته ، بما في الكتاب العزيز من قوله تعالى : ﴿ **لِتُنْذِرَ قَوماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلونَ** ﴾[1] .

غير أنّ الجواب واضح ، أمّا نقضاً ، فإنّ في نفس هذه السورة التي ورد فيها قوله : ﴿ **لِتُنْذِرَ قَوْماً** ﴾ ، ما يدلّ بصراحة على عموم دعوته ، وهو قوله تعالى : ﴿ **لِتُنْذِرَ مَنْ كَانَ حيّاً وَيَحِقَّ ٱلقَوْلُ عَلى الكافِرينَ** ﴾[2] .

وأما حلاً فإنّ طبيعة إبلاغ الدعوة ربما تقتضي توجيه الكلام إلى قسم خاص ، وإنّ كانت الدعوة عالمية ، والرسول في بدء دعوته ، كان يمارس هداية قومه أوّلاً ، ثم من يليهم في منطقة الحجاز ، ثم من يليهم ، ولأجل ذلك خصّ الخطاب بقومه :

والشاهد أنّه يقول في آية أخرى : ﴿ **قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بالوَحِي ، وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرين** ﴾[3] . فيخص الإنذار بالوحي بالمخاطبين ، بينما يعمّ الإنذار به كلّ الناس في قوله : ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُم أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ** ﴾[4] .

شبهة ثانية - وربما يتمسك بتخصيص الإنذار بأُمّ القرى وَمَنْ حَولَها في قوله سبحانه : ﴿ **وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرى وَمَنْ حَوْلَها** ﴾[5] ، وأُمُّ القُرى إمّا عَلَم مِنْ أعلام مَكَّةَ ، أو كُلّي أُطْلِقَ عليها ، فتخصُّ الآيةُ دعوتَه بإطار أُمّ القُرى وَمَنْ حَوْلَها .

والجواب أما نقضاً : فإنّ في نفس السورة التي وردت فيها تلك الآية ما يدلّ

---

(١) سورة يس : الآية ٦ . ونظيره ، القصص : الآية ٤٦ ، سورة السجدة : الآية ٣ ، سورة مريم : الآية ٩٧ .

(٢) سورة يس : الآية ٧٠ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٤٥ .

(٤) سورة يونس : الآية ٢ .

(٥) سورة الأنعام · الآية ٩٢ ، ونظيره سورة الشورى : الآية ٧ .

على عموم رسالته ، لكل من بلغته ، فإنّه يقول : ﴿ وأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القُرآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾[1] .

وأمّا حلاً ، فَعَيْنُ ما تَقَدَّم في سابقه ، من أنّ طبيعة الدعوة ، ربما تقتضي توجيه الكلام إلى طائفة خاصة ، وإن كانت الدعوة عالميةً .

شبهة ثالثة ـ وربما يستدلّ بقوله سبحانه : ﴿ وما أَرْسَلْنا مِنْ رسولٍ إلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يشاءُ وَيَهْدي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ العزيزُ الحَكِيمُ ﴾[2]، على تحديد رسالته ، بتوهّم أنّ معنى الآية أنّ كل رسولٍ يوافق لسانُه لسانَ من أُرسل إليهم .

وأنت خبيرٌ بأنّه تفسير خاطيءٌ ، فمعنى الآية هو موافقةُ لغةِ الرسول لسانَ قومه ، لا اتحاد لغته مع لسان كل من أُرسل إليهم ، فمن الممكن أن يكون المرسل إليهم أوسع من قوم الرسول ، فهذا إبراهيم دعا عرب الحجاز إلى الحج وهو ليس منهم . وهذا الكليم دعا فرعون إلى الإيمان ، وهو عبري والمُرسَل إليه قِبْطِيٌّ .

شبهة رابعة ـ وربما يستدل أيضاً ، بقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ آمَنُوا والذينَ هادُوا والنَّصارى والصابِئِينَ ، مَنْ آمَنَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَعمِلَ صالحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنونَ ﴾[3] ، على تحديد رسالته .

وحاصل الإستدلال هو أنّ المتبادر من الآية هو نجاة أصحاب الشرائع السابقة حتى بعد بعثة الرسول الأكرم ، إذا كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً . فهذه الآية تعطي الضوء الأخضر لنجاة اليهود والنصارى والصابئين إذا كانوا ملتزمين بهذه الشروط ، وإن لم يعتنقوا رسالة الرسول الأعظم ، أو لم يعملوا بأحكامه وتشريعاته . وهذا لا يجتمع مع القول بأنّ رسالته عالمية يجب على كلّ الناس اعتناقها .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٤ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٦٢ . ولاحظ المائدة : الآية ٦٩ .

والجواب : إنّ الإستدلال نَجَمَ من الجمود على نفس الآية ، والغفلة عما ورد حولها من الآيات . ومثل هذه الآية لا يصح تفسيره إلاّ على نمط التفسير الموضوعي ، واستنطاق الآية بأختها ، وعرض البعض على البعض حتى يُهتدى إلى معالمها . وسيوافيك أنّ الآية ـ بقرينة الآيات التي تتلوها ـ بصدد تفنيد المزاعم الباطلة لليهود والنصارى ، وليست بصدد إمضاء الشرائع السالفة ، بعد ظهور النبي الأكرم ، وإليك البيان .

١ ـ تفنيد فكرة الشعب المختار

كان اليهود والنصارى يتبنون فكرة الشعب المختار ، فكل من الطائفتين تَدّعي أنّها أسْمَى بني البشر . وقد نقل القرآن الكريم هذه الفكرة السخيفة عن كلتا الطائفتين بقوله : ﴿ وَقَالَتِ اليَهودُ والنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ آللَّهِ وأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ . . . ﴾[١] .

فقوله : ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنوبِكُمْ ﴾ ، تفنيدُ لهذا الزَّعم ، وَيدُلُّ على أنّهم وغيرهم عند الله سواسية ، فهو سبحانه يثيب المطيع ، ويعذب العاصي .

وقد بلغت أنانية اليهود واستعلاؤهم الزائف حداً ، تفوهوا بما يحكيه سبحانه عنهم بقوله : ﴿ وَقالوا لَنْ تَمَسَّنا النّارُ إلاّ أَيّاماً مَعْدودَةً ﴾[٢] .

والقرآن يُفَنِّد هذا الزعم ، بشكل الإستفهام الإنكاري ، ويقول : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ آللَّهِ عَهْداً ، فَلَنْ يُخْلِفَ آللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقولونَ عَلَى آللَّهِ ما لاَ تَعْلَمونَ ﴾[٣] .

فهكذا ، نستكشف من خلال هذه المزاعم وردودها أنّ اليهود كانوا ـ ولا يزالون ـ يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُم صفوة البشرية ، ونخبة الشعوب . وكانوا يحاولون بمثل

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٨٠ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٨٠ .

هذه المزاعم ، فَرْضَ كَيانهم على العالَم ، كأرفع نوعٍ بشريٍّ إنتخَبَهُ الله من بين سائر البشر ، حتى كأنّهم أبناءُ الله المُدَلَّلون .

٢ ـ النجاة رهن العمل والإلتزام

كانت الطائفتان (اليهود والنصارى) ، تزعمان أنّ الإنتساب إسماً إلى شريعة موسى أو المسيح ، وسيلة النجاة . كما كان اليهود بالخصوص يزعمون أنّ الإنتساب إلى « إسرائيل » ، ينقذ من عذاب الله سبحانه ؛ ولأجل ذلك قالوا : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ ٱلجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصارى ﴾[1] .

ومعنى هذا القول ، أنّ بإمكان الإنتساب إلى « إسرائيل » ، أو كون الإنسان يهوديّاً أو نصرانياً بالإسم ، أن يجعل الإنسان سعيداً ، مالكاً لمفاتيح الجنة . ويردّ القرآن عليهم ، بأنّ الوسيلةَ الوحيدة لامتلاك الجنة ، ليس هو « الإنتساب » ، ولا التجنّن « بالتسمية » ، بل هو الإيمان الصادق والعمل الصالح ، يقول تعالى : ﴿ تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ ، قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادقِينَ * بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ، فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنونَ ﴾[2] .

فقوله : ﴿ بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ ، يعني الإيمان الخالص ، والتسليم الصادق لله .

وقوله : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ، يعني العمل بالشريعة التي يؤمن الفرد بها .

وكلتا الجملتين تدلاّن على أنّ السبيل الوحيد إلى النجاة في يوم القيامة هو الإيمان والعمل ، لا إسم اليهوديةْ أو النصرانية ، ولا الإنتساب إلى بيت النبوّة ، فليست المسألة مسألة أسماء ، ولا مسألة انتساب ، وإنّما هي مسألة إيمان صادق ، وعمل صالح .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١١١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١١١ و١١٢ .

٣ ـ الأصالة للتوحيد لا لليهودية ولا للنصرانية

لقد كان لهاتين الطائفتين إدعاء ثالث ، هو أنّ الهداية الحقيقية ، في اعتناق اليهودية أو النصرانية ، كما يحكيه عنهم القرآن بقوله : ﴿ وَقالُوا كونُوا هوداً أو نصارى تَهْتَدُوا ﴾(١) .

والقرآن يردّ عليهم هذا الزعم الواهي بقوله : ﴿ بَلْ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ مِنَ المُشْرِكينَ ﴾(٢) . مشيراً إلى أنّ الهداية الحقيقية ، هي في الأخذ بملة إبراهيم ، واعتناق مذهبه في التوحيد الخالص من كل شائبة . فإذا عَمَّتْها الهداية ، فإنّما هو لأخذهم بالحنيفية الإبراهيمية ، لا لاعتناق اليهودية والمسيحية ، فلا أصالة لهما ، إلاّ إذا كانتا مشتملين على جوهر التوحيد الإبراهيمي وحنيفيّته .

وقد بلغت جسارة الطائفتين إلى حدّ أنّهم حاولوا إضفاء طابع اليهودية والمسيحية على إبراهيم ، ليحصلوا بذلك على دعم جديد لمعتقداتهما ، ويضفوا الشرعية على مسلكيهما . ولكن القرآن عاد إلى تفنيد هذه المزعمة الثالثة ، كما فند المتقدمتين ، بقوله : ﴿ ما كَانَ إبراهيمُ يَهوديّاً ولا نَصْرانيّاً ، ولكن كانَ حنيفاً مُسْلِماً وما كانَ مِنَ المُشْرِكينَ ﴾(٣) .

فهذه المقدمات ، تثبت أنّ اليهود والنّصارى كانوا يتبنون هذه الأفكار الواهية الثلاثة :

١ ـ الرفعة على البشر أجمعين .

٢ ـ كفاية مجرد الإنتساب إلى مذهبهما في النجاة .

٣ ـ إختصاص سبيل الهداية بالطائفتين .

فجاء القرآن يُفَنِّد كلّ واحدة من هذه المزاعم ، مستقلاً ، بعد نقلها ، بالآيات التي عرفت . ثم يفندها جميعها بصورة إجمالية ، بالآية التي وقعت ذريعةً

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٥ .

(٢) الآية السابقة نفسها .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٦٧ .

لمنكري عالمية الرسالة ، وهدف الآية أنّ فكرة الشعب المختار ، أو كون النجاة رهن الإنتساب والتسمية ، أو اختصاص الهداية بإحدى الطائفتين ، أمر باطلٌ لا أساس له ، فإنّ النجاة والجنة يَعُمّان جميع البشر وجميع الطوائف ، إذا كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ، وعاملين بالصالحات ، من غير فرق بين إنسان وإنسان ، وشعب وآخر ، فلا استعلاء ولا تفوق لطائفة على غيرها ، ولا الإنتساب والتسمية ينجيان أحداً في العالم ، ولا الهداية رهن اعتناق أحد المذهبين ، وإنّما النجاح والفوز والصلاح في الإيمان والعمل الصالح . وهذا الباب مفتوح في وجه كل إنسان ، يهودياً كان أو نصرانياً أو صابئياً .

فالآية بصدد تفنيد هذه المزاعم ، وأمّا الإعتراف بإقرار الإسلام لشرعية الشرائع السابقة ، بعد ظهوره ، فليس لها دلالة على ذلك ولا إشعار ، بشرط التوقف والإمعان في الأفكار التي كانت الطائفتان تتبناهما .

ومّما يوضح المراد من هذه الآية ، قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكتابِ آمنوا واتَّقَوْا لكفَّرنا عنهم سيئاتِهِمْ ، وَلأَدْخَلْناهم جنَّاتِ النَّعيم ﴾[1] . فتصرّح الآية بانفتاح أبواب الجنة في وجه البشر ، من غير انحصار بجماعة دون جماعة ، حتى أنّ أهل الكتاب لو آمنوا بما آمن به المسلمون ، لقبلنا إيمانهم ، وكفرنا عنهم سيئاتهم .

ومثله قوله سبحانه في سورة العصر : ﴿ والعَصْرِ * إنَّ الإنْسانَ لفي خُسْرٍ * إلَّا الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالِحاتِ ، وتَواصَوْا بالحَقِّ وَتواصَوْا بالصَّبْرِ ﴾[2] .

وأمّا كفاية الإيمان والعمل الصالح ، فقط ، وعدم لزوم شيء آخر من المعارف والعقائد والأعمال ، فليست الآية ، بصدد بيانها نفياً أو إثباتاً ، وإنّما يُرجع فيها إلى الآيات الأُخر .

وإذا أردت أن تصوغ الجواب في أُسلوب منطقي ، فقل : إنّ الحصر في

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٥ .

(٢) سورة العصر .

الآية ، حَصْرٌ نِسبيٌ إضافيٌّ ، بمعنى أنّ المؤثر في النجاة من النـار ، والفوز بـالجنة ، إنّما هو الإيمان والعمل الصالح ، وأمّا عدم دخالة شيء آخر كالأصول الثلاثـة التي يتبناها اليهود والنصارى أو دخـالته ، فليست الآيـة في مقام تبيينـه إثباتـاً أو نفياً ، حتى يكون دليلاً على إقرار الآية بشرعية الشرائع السابقة .

وبعبارة أخرى : إنّ الآية ساكتة عن بيان ما هو حقيقـة الإيمان بـالله وما هـو شرطه ، وما هو المقصود من العمل الصالح ، وكيف يتقبل ، وإنّما يطلب ذلك من سائر الآيات .

وقد دلّت الآيات القرآنية على أنّ الإيمان بالله لا ينفك عن الإيمانِ بأنبيـائه ، والإيمانُ بأنبيائه ، لا ينفك عن الإيمانِ بنبيه الخاتم ، قـال سبحانـه : ﴿ فَإِنْ آمَنـوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقاقٍ ﴾[1] .

كيف وقد عَدّت الآيات القرآنية الإيمانَ بـالرسـول مُقَوِّمـاً لحقيقة الإيمـان ، فقالت : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنونَ الَّذينَ آمنُوا بالله وَرَسولِهِ ﴾[2]

* * *

إلى هنا تمّ البحث عن عالمية رسالة الرسول الأكرم ، وتمّ ردّ الشبهـات التي قد تُورد حوله ، ويقع البحث في السمة الثـانية لـرسالتـه وهي خاتميتهـا ، وهو من الموضوعات المهمّة التي لا يكون المُسْلِمُ مُسْلِماً إلاّ بالإيمان بها .

* * *

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٧ .
(٢) سورة النور : الآية ٦٢

خاتميــة الرســالة

إتفقت الأُمّة الإسلامية عن بكرة أبيها ، على أنّ نبيّها محمداً صلى الله عليه وآله ، خاتم النبيين ، وأنّ شريعته خاتمة الشرائع ، وكتابه خاتم الكتب والصحف ، فهو آخر السفراء الإلهيين ، أُوصِدَ به بابُ الرسالة والنبوّة ، وخُتِمت به رسالة السماء إلى الأرض ، وأنّ دينَ نبيِّها ، دينُ الله الأبدي ، وأنّ كتابُ ، كتابُ الله الخالد ، وقد أنهى الله إليه كل تشريع ، فاكتملت بدينه وكتابه الشرائع السماوية التي هي رسالة السماء إلى الأرض .

ويدلّ على ذلك نصوص من الكتاب والسنّة ، نستعرضها فيما يلي :

أ ـ الخاتمية في الكتاب العزيز

لقد نصّ القرآن الكريم على الخاتمية تنصيصاً لا يقبل الشك ، ولا يرتاب فيه من له أدنى إلمام باللغة العربية ، وذلك في مواضع :

١ ـ التنصيص على أنّه خاتم النبيين

قال سبحانه : ﴿ ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِن رجالِكُمْ ، وَلكِنْ رَسولَ الله وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وكانَ الله بِكُلِّ شيءٍ عَليماً ﴾[1] .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٠ .

وتتضح دلالة الآية بنقل سبب نزولها :

تبنّى رسول الله صلى الله عليه وآله ، زيداً ، قبل بعثته . وكان العرب يُنَزِّلونَ الأدعياء منزلةَ الأبناء في أحكام الزواج والميراث ، فأراد سبحانه أن ينسخ تلك السنة الجاهلية ، فأمر رسوله بتزوّج زينب ، زوجة زيد ، بعد مفارقته لها . فأوجد ذلك الزواج ضجة بين المنافقين ، والمتوغلين في النزعات الجاهلية ، فأخمد الله تعالى أصواتهم بقوله : ﴿ ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِن رِجالِكُمْ ﴾ ، أي من الذين لم يلدهم ، ومنهم زيد ، ﴿ ولٰكِنْ رَسولَ الله ﴾ وهو لا يترك ما أُمره الله به ، ﴿ وخاتَمَ النَّبيينَ ﴾أي آخرهم ، ختمت به النبوة ، فلا نبي بعده ، ولا شريعة سوى شريعته ، فنبوته أبدية ، وشريعته باقية إلى يوم القيامة .

الخاتم وما يراد منه

الخاتم ، بفتح التاء ، كما عليه قراءة عاصم ، أو بكسرها كما عليه الباقون ، يدلّ على أنّ باب النبوة ختمت به . وذلك لأنّه على الكسر ، إسم فاعل من ختم يختم ، فهو خاتِم ، وعلى الفتح ، يحتمل وجوهاً ثلاثة :

أ ـ إنّه اسم بمعنى ما يختم به ، أي المختوم به باب النبوة ، فوجوده صلى الله عليه وآله في سلسلة الأنبياء ، كالختم والإمضاء في الرسائل . فكما أنّ الرسائل تختم في نهايتها ، بالخَتْم والإمضاء ، فكذا سلسلة الأنبياء ختمت بوجوده ، فهو خاتم الإنبياء .

ب ـ إنّه فعل ، « خَاتَمَ » كـ « ضارَبَ » ، فهو صلى الله عليه وآله خَتَم بابَ النبوة .

ج ـ إنّه اسم بمعنى « آخر » ، أي آخر النبيين ونهايتهم .

قال أبو محمد الدميري في منظومته :

والخاتِم الفاعِل قُل بالكسرِ وما به يُخْتَمُ فتحاً يجري[1]

---

(١) التيسير في علوم التفسير ، ص ٩٠ .

فأشار في هذا البيت إلى الوجهين ، وأنّه بالكسر إسم فاعل ، وبالفتح إسمٌ بمعنى ما يختم به .

وقال البيضاوي : « وخاتم النبيين : آخرهم الذي ختمهم »[1] .

وفي هذا إشارة إلى المعنى الثالث .

ثم إنّ الختم له أصل واحد ، وهو بلوغ آخر الشيء ، يقال : ختمت العمل ، وختم القاريء السورة . والختم ، وهو الطبع على الشيء ، فذلك من هذا الباب أيضاً ، لأنّ الطبع على الشيء لا يكون إلّا بعد بلوغ آخره[2] .

وقد جاء هذا اللفظ في القرآن في موارد لا يشذّ واحد منها عن هذا الأصل ، فمن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وفي ذلك فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنافِسُونَ ﴾[3] ، أي من الشراب الخالص الذي لا غش فيه ، تختم أوانيه وتسدّ بمسك .

وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ على أَفْواهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنا أَيْديهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بما كانوا يَكْسِبونَ ﴾[4] . أي نطبع على أفواههم ، فتوصد ، وتتكلم أيديهم وأرجلهم .

فاتضح مما ذكرناه ، أنّ الآية صريحة في أنّ النبي الأكرم ، نهاية سلسلة الأنبياء ، وأنّه قد ختم بنبوته باب النبوة وأوصده إلى يوم القيامة .

---

(١) أنوار التنزيل ، في تفسير سورة الأحزاب ، الآية ٤٠ .

(٢) مقاييس اللغة ، مادة « ختم » .

(٣) سورة المطففين : الآيتان ٢٥ و ٢٦ .

(٤) سورة يس : الآية ٦٥ ، والبقرة : الآية ٧ ، والأنعام : الآية ٤٦ ، والشورى : الآية ٢٤ ، والجاثية : الآية ٢٣ .

تشكيك ضئيل

إنّ هنا تشكيكاً اختلقته بعض الطوائف[1] الخارجة عن الإسلام ، العميلة لأعدائه ، فقالت إنّ المراد من الخاتم في قوله ، عزّ من قائل : ﴿ خاتَمُ النَّبيينَ ﴾ ، الحِلْية التي يزيّن بها الإصبع . والمراد أنّ النبي الأكرم زينة النبيين ، كما أنّ الخاتم زينة يد الإنسان ، فهو بين تلك العصابة ، كالخاتم في يد لابسه .

وهذه شبهة واهية للغاية ، نجمت ـ إن لم تكن متعمدة ـ من الجهل باللغة العربية ، وذلك لوجوه :

أولاً ـ إنّه لم يعهد إستعارة الخاتم في اللغة العربية ، للزينة ، فلا يقال إنّه خاتم القوم ، أي زينتهم وحليتهم ، فكيف يستعيره القرآن في هذا المعنى ، وهو في قمة البلاغة ؟! .

وثانياً ـ لو كان الهدف تشبيه النبي بالخاتم في كونه حلية ، لكان المناسب أن يشبهه بالتاج والإكليل ، إذْ هما أبلغ في بيان المقصود ، أعني الزينة .

وثالثاً ـ إنّ الخاتم ليس له إلاّ أصل واحد ، وهو ما يختم به ، ولو استعمل في حلية الإصبع ، فذلك من باب إطلاق الكلّي على الفرد ، لأنّ الدارج في عهد الرسالة إنهاء الكتاب بالخاتم ، فكانت خواتمهم أختامهم ، لا أنّه وُضع لحلية الإصبع وضعاً على حدة .

ويدلّ على ذلك ما رواه ابن سعد في طبقاته ، من أنّ رسول الله أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كتبا ، فقيل يا رسول الله : إنّ الملوك لا يقرؤون كتاباً إلاّ مختوماً ، فاتّخذ رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ ، خاتماً من فضة ، فَصُّهُ منه[2] ، نقشه ثلاثة أسطر :

« محمد » ، « رسول » ، « الله » ، وختم به الكتب[3] .

---

(١) كالبهائية والقاديانيّة .

(٢) كذا في النسخة ، والأَوْلى : « منها » ، ولعل التذكير باعتبار رجوع الضمير إلى الخاتم .

(٣) الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٤٨ . ولاحظ مقدمة إبن خلدون ج ١ ، ص ٢٢٠ ، تجد فيه بسطاً في الكلام .

فظهر ممّا قدمنا أنّ الخاتم بمعنى ما يختم به ، وله مصاديق ، فتارة يختم بحلية الإصبع ، وأخرى بشيء مثل الشمع ، وثالثة بمثل الطين ، وأشياء أُخرى درجت حديثاً .

وأضعف من ذلك إحتمال أن يكون المراد من قوله تعالى : ﴿ وخاتَمُ النَّبيِّينَ ﴾ ، أنّه مصدِّقٌ للنبيين ، فاستعارة الخاتم له ، لأجل أنه صلى الله عليه وآله مُصَدِّقُهم كالخاتم المصدِّق لمضامين الكتب .

ويَرُدُّهُ ، أولاً : لو كان المراد هو تصديق النبيين ، فلم عدل عن التعبير الصريح ، إلى هذا التعبير المعقد ، مع أنّه استعمل لفظ مصدّق دون الخاتم عندما أراد بيان تصديق نبيٍّ لنبيٍّ آخر ؛ فقال : ﴿ وَإِذْ قالَ عيسى بنُ مَرْيَمَ يا بَني إسرائِيلَ إنِّي رَسولُ الله إلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوراةِ ﴾[1] .

وكذلك عندما أراد بيان تصديق كتاب لكتاب ؛ فقال : ﴿ وَأَنْزَلْنا إلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ ، مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾[2] .

وثانياً ـ ليس الخاتم نفسه مصدِّقاً ، وإنّما هو آلة التصديق ، وما يُصَدَّق به ، وإنّما المصدِّق من يستعمل الختم ، وهذا بخلاف النبي فإنّه بنفسه مصدق .

وَلَعَمْري ، لولا شيوع التشكيك بين البسطاء من غير العرب ، لكان الأولى ترك التعرض له .

نعم ، هنا تشكيك آخر قابل للطرح والذكر ، وإليك بيانه .

تشكيك آخر

إنّ المختوم في الآية المباركة هو منصب النبوة لا الرسالة ، حيث قال : ﴿ خاتَمُ النَّبيِّين ﴾ . وخَتْم باب النبوة ، لا يلازم ختم باب الرسالة ، فهو مفتوح على مصراعيه في وجه الأُمة ، ولم يوصد .

---

(١) سورة الصف : الآية ٦ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

والجواب : إنّ رفع التشكيك يتوقف على تبيين الفرق بين النبوة والرسالة ، وبالتالي يعلم الفرق بين النبي والرسول ، فنقول :

النُّبُوَّة منصب معنوي يستدعي الإتصال بالغيب بإحدى الطرق المألوفة ، والرسالة سفارة للمرسَل (بالفتح) من جانبه سبحانه لإبلاغ ما أُوحي إليه ، إلى المُرْسَل إليه ، أو تنفيذ ما تحمَّله منه سبحانه ، في الخارج .

وبعبارة أخرى : النبوة ، تحمل الأنباء ؛ والرسالةُ ، إبلاغُ ما تَحَمَّلُه من الأنباء ، بالتبشير والإنذار ، والتنفيذ .

ولأجل مناسبة الوحي لمقام النبوة ، والتبليغ لمقام الرسالة ، يقول سبحانه : ﴿ إنّا أَوْحَيْنا إلَيْكَ كما أَوْحَيْنا إلى نُوحٍ والنَّبِيِّين مِنْ بَعْدِهِ ﴾(١) .

ويقول : ﴿ يآ أَيُّها الرسولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾(٢) . ويقول : ﴿ قالَ إنَّما أَنا رَسولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِياً ﴾(٣) .

وفي ضوء هذا يعلم الفرق بين النبيّ والرّسول ، فالنبيُّ هو الإنسان الموحى إليه بإحدى الطُرق المعروفة ، والرسول هو(٤) الإنسان القائم بالسفارة من الله ، للتبشير ، أو لتنفيذ عمل في الخارج ، أيضاً .

إذا عرفت ذلك ؛ فنقول : لو فرض إيصاد باب النبوة ، وختم نزول الوحي إلى الإنسان ، كما يفيده قوله : ﴿ خاتَمُ النَّبِيِّين ﴾ ، فعند ذلك يختم باب الرسالة الإلهية أيضاً ، لأنّ الرسالة هي إبلاغ أو تنفيذ ما تحمله الرسول عن طريق الوحي ، فإذا انقطع الوحي والإتصال بالمبدأ الأول ، فلا يبقى للرسالة موضوع .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٦٣

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٧ . هذا في مجال التبليغ .

(٣) سورة مريم : الآية ١٩ . هذا في مجال التنفيذ .

(٤) المقصود تعريف الرسول المصطلح ، فلا ينافي إطلاقه على المَلَك ، مثل قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٦١) . أو على الإنسان العادي : ﴿ فَلَمّا جاءَهُ الرَّسولُ قالَ ارجِعْ إلَى رَبِّكَ فاسأَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ . . . ﴾ (سورة يوسف : الآية ٥٠) .

فإذا كان النبي الأكرم خاتم النبيين ، أي مختوماً به الوحي والإتصال بالغيب ، فهو خاتم الرُّسل أيضاً . وهذا واضح لمن أمعن النظر في الفرق بين النبوة والرسالة[1] .

* * *

٢ ـ التنصيص على أنّ القرآن لا يأتيه الباطل

قال سبحانه : ﴿ إنّ الذينَ كَفَروا بالذِّكْرِ لَمّا جاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ من حَكِيمٍ حَميدٍ ﴾[2] .

والمقصود من الذكر هو القرآن ، لقوله سبحانه : ﴿ ذلك نَتْلوهُ عَلَيْكَ من الآيات والذِّكْر الحكيمِ ﴾[3] .

أضف إليه أنّ قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ ﴾ ، يُفَسِّرُ الذكر ، وهو لا ينطبق إلاّ على القرآن .

والضمير في قوله : ﴿ لا يَأْتِيهِ ﴾ ، يرجع إلى الذكر ، ومفاد الآية أنّ الباطلَ لا يتطرق إليه ، ولا يجد إليه سبيلاً أبداً ، بأي نحو كان ، ودونك صُوَرَهُ :

١ ـ « لا يأتيه الباطل » ، أي لا ينقص منه شيء ولا يزيد فيه شيء .

٢ ـ « لا يأتيه الباطل » ، أي لا يأتيه كتاب يبطله وينسخه ، فهو حق ثابت لا يُبَدَّل ولا يُغَيَّر ولا يُتْرَك .

٣ ـ « لا يأتيه الباطل » ، أي لا يتطرق الباطل إليه في إخباره عمّا مضى ، ولا في إخباره عمّا يأتي ، ولا يتخلف الواقع عنه قيد شعرة .

وعلى ضوء هذا ، فإطلاق الآية ينفي كلّ باطل يتصور ، وأنّ القرآن حقّ لا

---

(١) إن لشيخنا الأستاذ ، دام مجده ، رسالة خاصة في الفرق بين النبي والرَّسول ، لاحظ موسوعته القرآنية ، مفاهيم القرآن ، الجزء الرابع ، ص ٣١٥ ـ ٣٧٠ .

(٢) سورة فصلت : الأيتان ٤١ ـ ٤٢ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٥٨ .

يدخله الباطل إلى يوم القيامة ، ومثل هذا لا يصح أن يكون حجة في أمد محـدود ، بل يكون متّبعاً ، بلا حدّ ، لأنّ خاصّيّة الحقّ المُطلق ، والمصون عن تطرق الباطل مطلقاً ، هو كونه حجة لا إلى حـدٍّ خاص ، والله سبحـانه تعهـد في الذكـر الحكيم بإحقاق الحق وإبطال الباطل ، كما قـال : ﴿ لِيُحِقَّ الحَقَّ ويُبْطِلَ آلبـاطِلَ وَلَـوْ كَرِهَ آلْمُجْرِمونَ ﴾[1] .

وبعبـارة أخـرى : إنّ الشريعـة الجـديـدة ، إمّـا أن تكـون عـين الشريعـة الإسلامية الحقّة ـ كما نصّت الآية ـ التي لا يقارنها ولا يدانيها الباطل ، أو غـيرها ، كلاًّ أو جزءً .

فعلى الأول ، يكون إنزال الشريعة الثانية لغواً .

وعلى الثاني ، تكـون كلتا الشريعتـين حقّة ، فيلزم كـون المتناقضـين حقّاً ، وهو غير معقول .

فالآية صريحة في نفي أي تشريع بعد القرآن ، وشريعة غير الإسلام ، فتدلّ بالملازمة على نفي النبوة التشريعية بعد نبوته .

نعم ، الآيـة لا تفي بنفي النبـوة الـترويجيـة ، التبليغيـة ، لغـير شريعـة الإسلام ، وإنّما المتكفل له هي الآية الأولى .

* * *

٣ ـ التنصيص على الإنذار لكل من بَلَغ

قـال سبحانـه : ﴿ قُلْ أَيُّ شيءٍ أَكْبَرُ شهـادةً ، قُـلِ الله شَهيـدٌ بَيْني وبَيْنَكُمْ وأُوحي إليَّ هذا القُرآنُ لأُنْذِركُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾[2] .

فالآية صريحة في أنّ النبي صار مأموراً بـالإنذار ، بقـرآنه ، لكـل من بلغه

(١) سورة الأنفال : الآية ٨ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

إلى يـوم القيامـة . فمن بلغه القـرآن ، فكأنّمـا رأى محمداً صـلى الله عليـه وآلـه ، وسمع منه ، وحيثما يأتيه القرآن ، فهو داع له ونذير .

وقوله : ﴿ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ ، معطوف على الضمير المنصوب المتصـل في قولـه : ﴿ لأُنْـذِرَكُمْ ﴾ ، لا عـلى الفـاعـل المستـتر ، أعني ضمـير المتكلم . فمن بلغـه القرآن ، منذَر (بالفتح) لا منذِر .

* * *

٤ ـ التنصيص على أنّه نذير للعالمين

قـال تعالى : ﴿ تَبـارَكَ الـذي نَـزَّلَ الفُـرقـانَ عـلى عَبْـدِهِ لِيَكـونَ لِلعـالَـمِينَ نَذيراً ﴾[1] .

هذه الآية كما تدلّ على عالمية رسالتـه ، دالّة عـلى خاتميتـه إلى يوم القيـامة . واختلف أهـل اللغة في مفـاد العالـمين[2] ، ولكن المراد بـه في المقام كـلّ النـاس ، ونظيره قوله تعالى ـ حاكياً عن لسان لوط عليه السلام ـ : ﴿ قـال إنَّ هٰؤلاء ضَيْفي فَلا تَفْضَحونِ * واتَّقوا الله ولا تُخْزونِ * قالوا : أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالَمينَ ﴾[3] .

أي قالوا في جوابه : أوَ لَيْس كنا قد نهيناك أنْ تستضيف أحداً من النـاس . وبذلك يتضح عدم صحة ما يُروى في تفسير العـالمين بـأنّ المراد الجن والإنس ، أو الجنّ والملائكة ، إذ لا معنى لنهي قوم لوط ، نبيَّهم عن استضياف هؤلاء .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ١ .

(٢) وقد اختلف أهل اللغة في معنى « العالَم » ، الذي يجمع على عالمين ، على أقوال :

١ ـ إنّه إسم للفَلَك وما يحويه من الجواهر والأعراض ، وهو في الأصل إسم لما يعلم به ، كالطابع ، والخاتم ، لما يطبع ويختم به . وأما جمعه ، فلأنّ كلّ نوعٍ من هذه قد يسمى عالَماً : عالَم الإنسان ، وعالَم الماء ، وعالَم النّار . . .

٢ ـ إنّه إسم لأصناف الخلائق من المَلَك والجنّ والإنس .

٣ ـ إنّه الإنسان ، والجمع باعتبار كون كلّ واحدٍ عالَماً . (مفردات الراغب ، صفحة ٣٤٩) .

(٣) سورة الحجر : الآيات ٦٨ ـ ٧٠ .

ونظيره قوله سبحانه ـ حكاية عن لوط عليه السلام في الردّ على قومه ـ : ﴿ أتأتونَ الذُّكْرانَ مِنَ العالَمينَ ﴾[1] ، فالمرادُ منه هو الناس ، بلا ريب ، لا الجن ولا الملائكة .

وما ذكرنا من المعنى هو المروي عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : « عنى به الناس ، وجعل كلَّ واحدٍ عالماً »[2] .

وعلى كل تقدير ، فسواء أكان المراد من العالَمين في الآيات الأُخر غير هذا ، أو كان هذا ، فالمراد من قوله : ﴿ نذيراً لِلْعالَمين ﴾ ، عمومُ البشر ، أو مطلق من يعقل . فالآية صريحة في أنّ إنذاره لا يختص بناس دون ناس ، أو زمان دون زمان ، فهو على إطلاقه ، يعطي كونه نذيراً للأُمم البشرية ، بلا قيدٍ وحدّ .

وربما يقال إنّ « العالمين » يطلق ويراد منه الجمّ الغفير من الناس ، كما في قوله سبحانه : ﴿ يا بَني إسْرائيلَ اذكُروا نِعْمَتِيَ التي أنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأنّي فَضَّلْتُكُمْ على العالَمين ﴾[3] ويقال : « رأيت عالماً من الناس » ، يراد به الكثرة . وعند ذاك لا تكون الآية صريحة في عموم رسالته لجميع البشر إلى يوم القيامة .

والجواب : إنّ المتبادر من اللفظ هو عموم الخلائق ، كما في قوله سبحانه : ﴿ قالَ فِرْعونُ : وما رَبُّ العالَمينَ * قالَ : ربُّ السَّمواتِ والأَرْضِ وما بَيْنَهُما إنْ كُنْتُمْ موقِنينَ ﴾[4] . واستعماله في غير ذلك يحتاج إلى قرينة ، ولأجل ذلك يحمل على المعنى الحقيقي في الآيات التالية :

﴿ وما الله يريد ظُلْماً للعالَمينَ ﴾[5] .

﴿ إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذي بِبَكَّةَ مُباركاً وَهُدىً لِلْعالَمينَ ﴾[6] .

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٦٥ .

(٢) مفردات الراغب ، ص ٣٤٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٤٧ .

(٤) سورة الشعراء : الآيتان ٢٣ و ٢٤ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٠٨ .

(٦) سورة آل عمران : الآية ٩٦ .

﴿ أتأتونَ الذُّكْرانَ مِنَ العالَمينَ ﴾[1] .

﴿ أتأتونَ الفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بها مِنْ أحَدٍ مِنَ العالَمينَ ﴾[2] .

وأما ما ذُكر من الآية ، فليس ظاهراً في كون المراد منه الجمّ الغفير ، بل كلّ الناس ، غاية الأمر أنّها خُصِّصت بأهلِ عالمي زمانهم ، مثل قوله سبحانه : ﴿ إنّ الله اصطفاكِ وَطَهَّرَكِ واصْطَفاكِ عَلى نِساءِ العالَمينَ ﴾[3] .

وعلى أي تقدير فسواء فُسّرت الآية ، بالجمّ الكثير من الناس ، أو خصِّصت بأهلِ عالمي زمانهم ، فإنّما هو لقرينة صارفة عن ظاهرها ، حيث إنّ القرآن دلّ على أنّ الأُمّة الإسلامية أفضل الأمم ، مثل قوله سبحانه : ﴿ كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ تَأْمُرونَ بالمَعْروفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾[4] . ودلّت الأحاديث على أنّ إبنة النبيّ الأكرم ، فاطمة عليها السلام ، مثل مريم أو أفضل منها[5] . فهذه وتلك صارتا قرينتين على صرف الآيتين[6] عن ظاهريها ، وأمّا غيرهما فيُحْمل على المعنى الحقيقي ، أي الناس كلّهم إلى يوم القيامة .

* * *

(١) سورة الشعراء : الآية ١٦٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٨٠ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٢ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١١٠

(٥) أخرج البُخاري ومسلم والترْمذي في صحاحهم عن عائشة قالت : إنّ النّبيَّ صلى الله عليه وآله قال لفاطمة في أُخريات أيامه : « ألا ترضين أن تكوني سَيِّدةَ نساءِ المُؤمنينَ أوْ سَيِّدَةَ نِساءِ هذه الأُمّة » ، (لاحظ التاج الجامع للأصول ، ج ٣ ، ص ٣١٤) .
وأخرج ابن سعد عن مسروق عن عائشة في حديث أنّ النبي صلى الله عليه وآله أسرّ إلى فاطمة عند مرضه وقال : « أما ترضَيْنَ أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة ، أو نساءِ العالمين » (الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ٢٧ . وحلية الأولياء ، ج ٢ ، ص ٤٠) ، ولولا هذه الأحاديث لقلنا بتفضيل مريم على نساء العالمين إلى يوم القيامة ، كما أنّه لولا صراحة الآية في تفضيل هذه الأُمّة لقلنا بتفضيل بني إسرائيل على الناس كلّهم إلى يوم القيامة .

(٦) سورة البقرة : الآية ٤٧ وسورة آل عمران : الآية ٤٢ .

٥ ـ التنصيص على كونه مرسلاً إلى الناس كافّة

قال سبحانه : ﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إلاّ كافَّةً للنَّاسِ بَشيراً وَنَذِيراً ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[١] .

المتبادر من الآية كون « كافّة » ، حالاً من النّاس ، قُدِّمت على ذيها ، وتقدير الآية : وما أرسلناك إلاّ للناس كافّة ، بشيراً ونذيراً ، وقد استعمل « كافّة » بمعنى « عامّة » ، في القرآن الكريم كثيراً ، قال سبحانه : ﴿ وَقاتِلوا المُشْرِكينَ كافَّةً كما يُقاتِلونَكُمْ كافَّةً ﴾[٢] . والآية دليل على كون رسالته عالمية ، كما أنّها دليل على أنّه كان مبعوثاً إلى كافة الناس إلى يوم القيامة .

وأمّا جعل لفظ ﴿ كافّة ﴾ حالاً من الضمير المتصل في قوله : ﴿ أرسلناك ﴾ ، ليعود معنى الآية : وما أرسلناك إلاّ أن تَكُفَّهُم وتَرْدَعَهُم ، فَبعيد عن الأذهان ، أضف إلى ذلك أنّ قوله في ذيل الآية : ﴿ بَشيراً وَنَذيراً ﴾ ، كافٍ في هذا المعنى ، لأنّ التبشير والإنذار يتكفلان الكفّ والردع عن المحرمات ، وقد فهم الصحابة من الآية ما ذكرناه[٣] .

إشارات إلى الخاتمية في الذكر الحكيم

ما ذكرنا من الآيات كانت تصريحات بالخاتمية ، وهناك آيات تشير إليها إذا أُمعن النظر في مضامينها ، وإليك نقل بعضها .

١ ـ قال سبحانه : ﴿ وأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتابِ ومُهَيْمِناً عَلَيْهِ ، فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ الله ، وَلا تَتَّبِعْ أَهواءَهُم عمَّا جاءَكَ

---

(١) سورة سبأ : الآية ٢٨ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٦ . ولاحظ أيضاً البقرة : ٢٠٨ ، والتوبة : ١٢٢ .

(٣) روى ابن سعد في طبقاته عن خالد بن معدان ، قال : قال رسول الله (ص) : « بُعثت إلى الناس كافّة ، فإن لم يستجيبوا لي فإلى العرب . . » وفي نقل آخر عن أبي هريرة : « أُرسلت إلى الناس كافة ، وبي خُتم النبيون » . (الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ١٧٢) .

مِنَ الحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنهاجاً ، وَلَوْ شاءَ الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، ولكن لِيَبْلُوكُمْ في ما آتاكُمْ . . ﴾[1] .

المهيمن هو الرَّقيب[2] ، فكتاب النبي الأكرم مهيمن على جميع الكتب النازلة من قبل وهو (مهيمناً عليه) متمم لقوله : ﴿ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتابِ ﴾ . تتميم إيضاح ، إذ لولاه لأمكن أن يتوهم من تصديق القرآن للتوراة والإنجيل أنّه يصدِّق ما فيهما من الشرائع والأحكام ، تصديق إبقاء ، من غير تغيير وتبديل ، لكن توصيفه بالهيمنة يبين أنّ تصديقه لهما بمعنى تصديق أنّها شرائع حقّة من عند الله ، وأنّ لله أن يتصرف فيها ما يشاء بالنسخ والإكمال ، كما يشير إليه قوله - في ذيل الآية - : ﴿ وَلَوْ شاءَ الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ولكِن لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتاكُم ﴾ .

٢ - قال سبحانه : ﴿ أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغي حَكَماً وَهُوَ الذي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتابَ مُفَصَّلاً ، والذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّك بالحَقِّ ، فلا تَكونَنَّ مِنْ المُمْتَرينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ ، وَهُوَ السَّميعُ العَليمُ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ . . . ﴾ ، يدلّ على إيصاد باب الوحي ، وانقطاعه إلى يوم القيامة ، وتمامية الشرائع النازلة من الله سبحانه ، طوال قرون ، إلى سفرائه .

والمراد من الكلمة ، الشرائع الإلهية ، كما في قوله : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ ﴾[4] ، ومعنى الآية : تمّت الشرائع السماوية بظهور الدعوة المحمدية ، ونزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب ، وصارت مستقرة في محلها ، بعدما

---

(١) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

(٢) فعيل بمعنى فاعل ، أي مراقب .

(٣) سورة الأنعام : الآيتان ١١٤ و ١١٥ .

(٤) سورة التحريم : الآية ١٢ .

كانت تسير دهراً طويلاً في مدارج التـدرج ، بِمَنْحِ نُبُـوّة بعد نُبُـوّة ، وإنزال شريعـة بعد شريعة .

والدليل على أنّ المراد من الكلمة ، الشرائع الإلهية ، هو قوله : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّـةً واحِدةً** ﴾ ، أي جعلكم مقتفين لشريعـة واحـدة ، وبمـا أنّ هـذه الدعوة الإلهيـة الواردة في القـرآن الكريم ، صـدق لا يشوبـه كذب ، ومـا فيه من الأحكـام عـدل لا يخـالـطه ظُلم ، تمّت الشريعـة السـماويـة ، فـلا تتبـدل كلماتهـا وأحكامها من بعد . وهذا المعنى يظهر عند التأمل في سياق الآيات .

إلى هنـا تم البحث عن الآيات الـدالّة عـلى الخاتمية بصراحـة أو بـالتلويـح والإشارة ، ولأهمية الإعتقاد بها تضافرت فيهـا النصوص عن النبي الأكـرم وعترتـه الظاهرة ، غـير أنّ سرد كل مـا وقفنا عليـه عنهم عليهم السلام ، يستـدعي وضع رسـالة مستقلة ، فنكتفي بنقـل بعضهـا عن النبي الأكـرم ، ووصيّـه الإمـام عـليّ عليه السلام ، ونترك الباقي إلى محله .

* * *

ب ـ الخاتمية في الأحاديث الإسلامية

لقد حصحص الحق ، بما أوردناه من النصوص القـرآنية ، وانْحَسَرَ الشَّـكُ عن مُحَيّـا اليقـين ، فلم تَبْقَ لمجـادِلٍ شُبْهَـةٌ في أنّ رســولَ الله ، خـاتمُ النبيـين والمرسلين ، وأنّ شريعته خاتمةُ الشرائـع ، وكتابَـه خاتُم الكتب . وإليـك فيما يـلي كَلِمٌ دُرِّيَّة ، من صاحب الشريعة ووصيه في هذا المجال :

١ ـ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة إلى غزوة تبـوك ، وخرج الناس معه ، فقال له عليٌّ (عليه السلام) : « أَخْرُجُ معك ؟ » . فقال : « لا » ، فبكى عليٌّ ، فقال لـه رسول الله صـلى الله عليه وآلـه : « أما تـرْضى أن تَكونَ مِنِّي بمنزلة هارونَ من موسى ، إلاَّ أنّه لا نَبِيَّ بَعْدي » ، أو « ليس بعدي نبي » ؟ .

وهـذا الحديث هـو المشهور بحـديث المنزلـة ، لأنّ النبي نزّل نفسـه منـزلـة

موسى ، ونزّل عليّاً مكان هارون ، وهو صحيح متفق عليه بين الأمّة ، لم يشكّ أحد في صحّة سنده ، ولا سنح في خاطر كاتب أن يناقش في صدوره ، وحسبُك أنّه أخرجه البخاري في صحيحه ، في غزوة تبوك[1] ، ومسلم في صحيحه في باب فضائل عليّ عليه السلام[2] ، وابن ماجه في سُنَنه في باب فضائل أصحاب النبي[3] ، والحاكم في مستدركه ، في مناقب عليّ عليه السلام[4] وإمام الحنابلة في مسنده بطرق كثيرة[5] ، وأمّا الشيعة فقد أصفقوا على نقله في مجامعهم الحديثية[6] .

ودلالة الحديث على الخاتمية واضحة ، كدلالته على خلافة علي (عليه السلام) للنبي صلى الله عليه وآله بعد رحلته .

٢ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ مَثَلي وَمَثَل الأنبياء من قبل، كمثَلَ رجل بنى بيتاً ، فأحسنه وأجمله ، إلاّ موضع لَبِنَةٍ من زاوية ، فجعل الناسَ يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلاّ وضعت هذه اللّبنة . قال : « فأنا اللّبنة ، وأنا خاتم النبيين »[7] .

٣ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لي خمسة أسماء : أنا محمد ؛ وأحمدُ ؛ أنا الماحي ، يمحو الله بي الكفر ؛ وأنا الحاشر ، يُحشر الناس على

---

(١) صحيح البخاري ، ج ٣ ، ص ٥٨ .
(٢) صحيح مسلم ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .
(٣) سنن ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٢٨ .
(٤) مستدرك الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .
(٥) مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٣٣١ ،وج ٢ ، ص ٣٦٩ ، ٤٣٧ .
(٦) لاحظ أمالي الصدوق ، ص ٢٩ . ومعاني الأخبار ، ص ٧٤ . وكنز الفوائد ص ٢٨٢ . والخرائج والجرائح ص ٧٥ . ومناقب ابن شهر آشوب ، ج ١ ، ص ٢٢٢ . وكشف الغُمّة ، ج ١ ، ص ٤٤ . وبحار الأنوار ، ج ٣٧ ، الباب ٥٣ ص ٢٥٤ ـ ٢٨٩ .
(٧) صحيح البخاري ، ج ٤ ، ص ٢٢٦ . ومسند أحمد ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ و٤١٢ . ولاحظ الدر المنثور للسيوطي ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ . وللحديث صور مختلفة تشترك كلها في إثبات الخاتمية للنبي قال رسول الله : « فأنا موضع تلك اللبنة ، فجئت فَخَتَمْتُ الأنبياء » . لاحظ التاج ، ج ٣ ، ص ٢٢ ، نقلاً عن البخاري ومسلم والترمذي .

قدمي ؛ وأنا العاقب ، الذي ليس بعده النبي »(١)

٤ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أُرسلت إلى الناس كافة ، وبي خُتم النبيون »(٢)

٥ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « فُضّلت بِست :

أُعطِيتُ جوامِعَ الكَلِم ، ونُصِرْتُ بالرُّعب ، وأُحلّت لي الغنائم ، وجُعِلَتْ لي الأرضُ طَهوراً ومسجداً ، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافّة ، وخُتم بي النبيون »(٣) .

هذه أحاديث خمسة عن خاتم النبيين ، والمروي في هذا المجال عنه صلى الله عليه وآله أكثر من ذلك(٤) .

تنصيص الإمام عليّ على الخاتمية

٦ ـ قال علي عليه السلام : « . . إلى أَنْ بَعَثَ الله مُحَمداً صلى الله عليه وآله ، لإنجاز عِدَته ، وتمام نُبُوَّته ، مأخوذاً على النبيين ميثاقُه ، مشهورةً سِماتُه ، كريماً ميلادُه »(٥)

٧ ـ قال علي عليه السلام : « أَرْسَلَهُ على حين فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسل ، وتنازُع من الألسن ، فَقَفّى به الرسل ، وختم به الوحي »(٦)

٨ ـ قال علي عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله : « بأبي أنتَ وأُمّي ، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك ، من النُّبوة والإنباء ، وأخبار السماء ، خصصت حتى صرت مُسَلّياً عمن سواك ، وعَمَمْتَ

---

(١) صحيح مسلم ، ج ٨ ، ص ٨٩ . الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٦٥ ، مسند أحمد ، ح ٤ ، ص ٨١ و ٨٤ .

(٢) الطبقات الكبرى ، ح ١ ، ص ١٢٨ ، ومسند أحمد ، ح ٢ ، صفحة ٤١٢ .

(٣) الجامع الصغير ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ، الرقم ٥٨٨٠ ، ط دار الفكر ـ بيروت

(٤) سيوافيك الإحالة إلى المصدر الجامع لهذه الأحاديث .

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة الأولى . والضميران في « عدته » ، و« نبوته » ، لله تعالى

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة ١٢٩ .

حتى صار الناس فيك سواء »[١] .

٩ ـ قال علي عليه السلام : « أمّا رسول الله صلى الله عليه وآله فخاتم النبيين ، ليس بعده نبي ولا رسول ، وختم برسول الله الأنبياء إلى يوم القيامة »[٢] .

١٠ ـ قال علي عليه السلام في خطبة الأشباح : « . . . بل تعاهدهم (العباد) بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ، ومتحملي ودائع رسالاته ، قَرْناً فقرناً ، حتى تمّت بنبينا محمد (صلى الله عليه وآله) حُجَّتُهُ ، وبلغ المَقْطَعَ عُذْرُهُ ونُذُرُه »[٣] .

* * *

ثم إنّه قد أُورد على الخاتمية شبهاتٌ واهية ، غنية عن الإجابة ، يقف عليها كلُّ من له إلمام بالكتاب والسُّنة والأدب العربي ، وإنّما هي صَخَب وهياج وجدال باطل ، يؤثّر في الجاهلين . ولأجل ذلك إستخدمتها القاديانية ، والبابية ، والبهائية ، ذريعة لاصطياد السذج من الناس غير العارفين باللُّغة ، ولا بالكتاب والسنّة ، ولأجل إراءة ضآلة هذه الشبهات نأتي بشبهة واحدة منها ، تُعَدُّ من أقوى شبهاتهم ، ثم نعطف عنان القلم إلى تحرير أسئلة صحيحة مطروحة حول الخاتمية ، وهي قابلة للبحث والنقاش ؛ فإليك البيان :

شبهة واهية

كيف يدّعي المُسلمون انغلاق باب النبوة والرسالة ، مع أنّ صريح كتابهم قاضٍ ،بانفتاح بابها إلى يوم القيامة ، وقد جاء في كتابهم قوله : ﴿ يا بني آدم ،

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٢٣٠ . ومجالس المفيد ، ص ٥٢٧ . والبحار ، ج ٢٢ ، ص ٥٢٧ .

(٢) الإحتجاج ، ج ١ ، ص ٢٢٠

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ٨٧ . وما أوردناه نماذج من أحاديث الخاتمية اقتصرنا عليها رَوْماً للإختصار ، ومن أراد التفصيل والإحاطة بأكثر ما ورد في هذا المجال من النبي وعترته الطاهرة فليرجع إلى مفاهيم القرآن ، ج ٣ ، ص ١٤٨ ـ ١٧٩ . فقد وصل عدد الأحاديث في هذا المجال إلى ١٣٥ حديثاً ، والكلّ يشهد على إيصاد باب النبوة ورسالة السماء إلى الأرض .

إمّـا يَأْتِيَنَّكُم رُسُـلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيـاتي ، فمَنِ اتَّقى وأَصْلحَ ، فَلاَ خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] .

فقوله : ﴿ إمّا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ـ مقروناً بنـون التأكيـد ـ كاشفٌ عن عـدم إيصاد باب النبوة ، وأنّه مفتوح .

والجواب : إنّ هذه الشبهـة حصلت من الجمود عـلى نفس الآية ، والغفلة عن سياقها . فإنّ الآية تحكي خطاباً خـاطب به سبحـانه بني آدم في بـدء الخلقة ، وفي الـظرف الـذي هبط فيـه آدم إلى الأرض ، وقـد شرع القـرآن بنقـل القصـة والخطابات في سورة الأعراف من الآيـة الحاديـة عشر ، وختمها في الآيـة السابعـة والثلاثين ، فبدأ القصة بقوله :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صورناكُمْ ثُمَّ قُلْنا للملائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ ، فَسَجَـدوا إلا إبليسَ ، لَمْ يَكُنْ مِنَ الساجِدينَ ﴾ .

وختمها بقوله :

﴿ قالَ اهبِطوا بعضُكم لِبَعْضٍ عَـدُوٌ ، وَلَكُمْ في الأَرضِ مُسْتَقَرٌ ومتـاعٌ إلى حين * قال : فيها تَحْيَوْنَ ، وفيها تموتونَ ومِنْها تُخْرَجون ﴾[2] .

وعند ذلك ، خاطب سبحانه أبناء آدم بخـطابات أربعـة ، تهدف إلى لـزوم الـطاعة ، والتحـرز عن إطاعـة الشيطان ، وأنّ لهم في قصـة أبيهم وأُمهم ، عبـرةً واضحةً ، فقال :

١ ـ ﴿ يا بني آدم ، قد أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لباساً يُواري سوآتِكُمْ . . ﴾ .

٢ ـ ﴿ يـا بني آدم ، لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْـطانُ ، كـما أَخْـرَجَ أَبَـوَيْكُـمْ مِنَ الجَنَّةِ . . ﴾ .

٣ ـ ﴿ يا بَني آدَمَ ، خُذوا زينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . . ﴾ .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ١١ ـ ٢٥ .

٤ ـ ﴿ يا بني آدَمَ ، إمّا يأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

فالخطاب الأخير ، ليس إنشاءَ خطاب في عصر الرسالة ، حتى ينافي ختمها ، بل حكاية للخطاب الصادر بعد هبوط أبينا آدم إلى الأرض .

والذي يوضح ذلك قوله سبحانه في سورة أُخرى :

﴿ قالَ اهبِطا مِنْها جميعاً ، بَعْضُكُمْ لبعض عَدُوٌّ ، فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً ، فَمَنْ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ﴾[١] .

فقوله : ﴿ فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً ﴾ ، يتحد مع الآية السابقة ، مضموناً .

وهذا النموذج من الشبهات يوقفك على حالة سائر ما استدلّت به الفرق الباطلة في هذا المجال ، من القرآن ، ولذلك ضربنا عن هذه الشبهات صفحا[٢] . ونعرّج إلى أسئلة جديرة بالبحث والنقاش ، حول الخاتمية طَرَحها مرور الزمان ، وتكامُلُ الحضارات ، وتَفَتُّح العقول ، على بساط البحث . فلأجل أهميتها ، نطرحها ، ثم نجيب عنها بما يناسب وضع الكتاب .

* * *

(١) لاحظ سورة طه : الآية ١٢٣ .

(٢) لاحظ ـ للوقوف عليها وعلى أجوبتها ـ « مفاهيم القرآن » ، ج ٣ ، ص ١٨٥ ـ ٢١٦

* أسـئلة حول الخاتميـة

١ ـ لماذا حُرمت الأُمّة من النبوة التبليغية ؟ .
٢ ـ لماذا حُرِمَتِ الأُمّـة من الإطّلاع على الغيب ؟ .
٣ ـ كيف تكونُ الشريعة ثابتة مع أنَّ التحولَ ناموس عام ؟ .
٤ ـ كيف تكون الشريعةُ ثابتة مع أنّ لكلّ عصرٍ إقتضاءً خاصاً ؟ .
٥ ـ هل القوانين المحدودة تفي بالحاجات غير المتناهية ؟ .

أسـئلة حول الخاتمية

السـؤال الأول

لماذا حُرمت الأُمة من النبوة التبليغية ؟

إنّ النبي إذا بُعث بشريعة جديدة ، وكتابٍ جديد ، تكون نبوّته تشريعية ، وإذا بعث لغايةِ دعم أحكام شريعة سالفة ، فالنبوة ترويجية أو تبليغية . والقسم الأول من الأنبياء منحصر في خمسة ، ذكرت أسماؤهم في القرآن[1] . وأمّا القسم الثاني ، فيشكّله أكثرية الأنبياء ، لأنّهم بُعثوا لترويج الدين النازل على أحد أُولئك ، فكانت نبوتهم تبليغية[2] .

فعندئذٍ ، يُطرح السؤال التالي : إنّ نبيَّ الإسلام جاء بأكمل الشرائع وأتمّها ، ولذلك أُوصد باب النبوة التشريعية ، ولكن لماذا أُوصد باب النبوة التبليغية التي منحها الله للأُمم السالفة ، فإنّ الشريعة مهما بلغت من الكمال والتمام ، لا تستغني عمن يقوم بنشرها وتجديدها ، لكي لا تندرس ، حتى يتم إبلاغها من السلف إلى الخلف بأسلوب صحيح . فلِمَ أُوصد هذا الباب ، بعدما كان مفتوحاً في وجه الأُمم الماضية ؟ .

الجـــواب :

إنّ انفتاح باب النبوة التبليغية في وجه الأُمم السالفة وإيصاده بعد

---

(١) سورة الشورى : الآية ١٣ .

(٢) الكلمة الدارجة لمعنى التبليغ في البيئات العربية ، هي كلمة التشريع ، ولكن كلمة التبليغ أولى وأليق ، فهي مقتبسة من القرآن ، ومدلولها اللغوي منطبق على المقصود .

نبي الإسلام ، لا يعني أنّ الأمم السالفة تفرّدت بها لفضيلة استحقتها دون الخلف الصالح ، أو أنّ الأمّة الإسلامية حرمت لكونها أقلّ شأناً من الأمم الخالية ، بل الوجه هو حاجة الأمم السالفة إليها وغناء الأمة الإسلامية عنها ، لأنّ المجتمعات تتفاوت إدراكاً ورشداً فربّ مجتمع يكون في أخلاقه وشعوره كالفرد القاصر ، لا يقدر على أن يحتفظ بالتراث الذي وصل إليه ، بل يضيعه ، كالطفل الذي يمزق كتابه وقرطاسه ، غير شاعر بقيمتها .

ومجتمع آخر بلغ من القيم ، الفكرية والأخلاقية والإجتماعية ، شأواً بعيداً ، فيحتفظ معه بتراثه الديني الواصل إليه ، بل يستثمره إستثماراً جيداً ، وهو عند ذاك غني عن كل مروّج يروّج دينه ، أو مُبَلِّغ يذكّره بنسئه ، أو مُرَبٍّ يرشده إلى القيم الأخلاقية ، أو معلّم يعلّمه معالم دينه ، إلى غير دلك من الشؤون .

فأفراد الأمم السالفة كانوا كالقُصّر ، غير بالغين في العقلية الإجتماعية ، فما كانوا يعرفون قيمة التراث المعنوي الذي وصل إليهم ، بل كانوا يلعبون به لعب الصبي في الكتاتيب ، بكتابه أو قرطاسه ، فيخرقه ويمزقه ولا يبقي شيئاً ينتفع منه إلى آخر العام الدراسي . ولهذا كان على المولى سبحانه أن يبعث في كل جيل منهم نبيّاً ليذكّرهم بدينهم ، ويجدد به شريعة من قبله ، ويزيل ما علاها من شوائب التحريف .

وأمّا المجتمع البشري بعد بعثه الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد بلغ من المعرفة والإدراك والتفتّح العقلي شأواً ، يتمكن معه من حفظ تراث نبيّه وصيانة كتابه عن طوارق التحريف والضياع ، حتى بلغت عنايته بكتابه الديني إلى حدّ تأسيس علوم عديدة لفهم كتابه . فازدهرت ، تحت راية القرآن ، ضروب من العلوم والفنون . فلأجل ذلك الرشد الفكري ، جعلت وظيفة التبليغ والترويج وصيانة التراث على كاهل نفس الأمّة ، حتى تبوّأت وظيفة الرسل في التربية والتبليغ ، واستغنت عن بعث نبي مجدد .

ولأجل ذلك يقول سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[١] .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال سبحانه : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعونَ إِلَى الخَيْرِ وَيأْمُرونَ بِالمَعْروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾[1] .

وقد ظهرت طلائع هذا الإعتماد على الأُمّة من قوله سبحانه : ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ وَلِيُنْذِروا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرونَ ﴾[2] .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا ظهرت البِدَعْ ، فليُظْهر العالِمُ عِلْمَه ، فمن لم يفعل ، فعليه لعنة الله »[3] .

وقال الإمام الباقر : « إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيلُ الأنبياء ، ومنهاج الصلحاء ، وفريضة تقام بها الفرائض ، وتؤمَن المذاهب ، وتَحِلُّ المكاسب ، وتُرَدُّ المَظالم ، وتَعْمُر الأرض ، وينتصف من الأعداء ، ويستقيم الأمر »[4] .

وما ذكرنا من الجواب يلائم أُصول أهل السنة في دور الأُمة وعلمائها في حفظ الشريعة . ولكن هناك جواب آخر أصحّ وأجمع .

وحاصله : إنّ أئمة الشيعة بحكم حديث الثَّقلين ، يحملون علم النبي في المجالات المختلفة سواء في مجال المعارف والعقائد ، أو في مجال الأحكام والوظائف ، أو في مجال الإحتجاج والمناظرة ، أو في مجال الأجوبة على الأسئلة المستجدة ، كل ذلك بتعليم من الله سبحانه ، من دون أن يكونوا أنبياء يوحى إليهم .

فلأجل ذلك ، كل إمام في عصره ، يقوم بمهمة التبليغ والترويج ، ويجلي الصدأ عن وجه الدين ، ويردُّ شبهات المبطلين ، فاستغنت بهم الأُمّة عن كل نبوة

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .

(٣) وسائل الشيعة ، كتاب الأمر بالمعروف ، الباب ٤٠ ، الحديث ١ .

(٤) وسائل الشيعة ، ج ١١ ، كتاب الأمر بالمعروف ، الباب الأول ، الحديث ٦ .

ترويجية ، والتاريخ يشهد بأنّ كل إمام من أئمة الشيعة الإثني عشرية ، قام بـأعباء مهمة التبليغ ، وإيصال مفاهيم الإسلام الصحيحة إلى الأمة ، ولقد عانوا في ذلك من المشاق ، ولاقوا من الأهوال ما لاقاه جدّهم النبي الأكـرم صلى الله عليـه وآله وسلم(٣) .

* * *

(١) بما أنّ الأبحاث المعقودة في فصل الإمـامة والخـلافة تتكفـل بإثبـات ذلك ، اكتفيـا بهذا المقـدار ، وسيوافيك التفصيل فيه .

أسئلة حول الخاتمية

السؤال الثاني

لماذا حرمت الأُمة من الإطلاع على الغيب ؟

إنّ الشريعة الإسلامية ، وإن كانت أكمل الشرائع ، والخَلَفُ من الأُمّة ، قادر على حفظ تراثه الديني ، أو أنّ العترة الطاهرة تقوم بمهمة التبليغ ، ولأجل ذلك أُوصد باب النبوة التشريعية والتبليغية ، إلاّ أنّ إيصادها على الإطلاق يستلزم انقطاع الفتوحات الباطنية عن طريق النبي المبعوث .

وذلك ، لأنّ انقطاع النبوة بمعنى انقطاع أخبار السماء عن أهل الأرض ، وانقطاع الإطلاع على الغُيُوب ، وهذا خسران للأمة ، مع أنّه كان مفتوحاً في وجه الأُمم السالفة ، فهل معنى ذلك أنّ الأُمّة الإسلامية أقلُّ جدارة منها ، واستحقاقاً لها ؟ .

وحاصل السؤال أنّ إيصاد باب النبوة ، لأجل كمال الشريعة واستغناء الأُمّة عن نبي مبلغ ، وإن كان أمراً لازماً ، غير أنّ سدّ بابِ النبوة يستلزم سدّ باب الفيوض المعنوية ، والمكاشفات الغيبية ، والمشاهدات الروحية التي تصل إلى الأُمّة عن طريق نبيّها ؛ فرفعُ النبوة وختمها ، يستلزم ذلك الحرمان .

الجواب :

إنّ سدّ باب النبوة لا يستتبع إلاّ سد باب الوحي في مجال تشريع الحكم ، أو في مجال تبليغ الشريعة السابقة

وأمّا سائر الفتوحات الباطنية فهي مفتوحة في وجه الأُمّة إلى يوم القيامة ، من غير فرق بين الإتصال بعالم الغيب عن طريق البرهنة والإستدلال والتدبر في آياته الآفاقية ، الذي يشير إليه تعالى بقوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] .وأمّا الإتصال به بلا توسيط برهان أو دليل ، بل بمشاهده عين القلب وبصر الروح ، وشهود الحقائق العلوية ، وانكشاف ما وراء الحسّ والطبيعة من العوالم الروحية ، ومعرفة ما يجري عليه قلمه تعالى في قضائه وقدره ، والإتصال بجنوده سبحانه وملائكته ، واستماع كلامهم وأصواتهم ، إلى غير ذلك من الأُمور ، إلاّ أنّه مقام خطير يحصل لعدّة من المتحررين عن سلوك طريق الطبيعة ، الحابسين أنفسهم في ذات الله ، العاملين بكتابه وسنّة نبيّه ، حسب ما لهم من المقدرة والطاقة ، لتحمل الأُمور الغيبية ، ومشاهدة جلاله وجماله ، وكبريائه وعظمته ، وما لأوليائه من مقامات ودرجات وما لأعدائه من نار ولهيب ودركات .

وليس ما ذكرنا من إمكان الإتصال ، كلمة خطابية ، أو عرفانية غير معتمِدة على الكتاب والسنّة ، بل الكتاب الحكيم يقضي بذلك عند التأمّل والإمعان فيه :

١ ـ قال سبحانه : ﴿ يآ أَيُّها الذينَ آمَنوا إن تَتَّقوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ﴾[2] ، أي يجعل في قلوبكم نوراً تُفَرّقونَ به بين الحَقّ والباطل ، وتُمَيِّزون به بين الصحيح والزائف بالبرهنة والإستدلال ، أو بالشهود والمكاشفة .

٢ ـ وقال سبحانه : ﴿ يآ أَيُّها الذينَ آمَنوا اتَّقُوا الله وآمِنوا برسوله يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نوراً تَمْشونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله غَفورٌ رَحيمٌ ﴾[3] .

والمراد من النور ، هو ما يمشي المؤمن في ضوء هدايته في دينه ودنياه ، وهذا النور الذي يغمره نتيجة إيمانه وتقاه ، يوضحه قوله سبحانه : ﴿ أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً

---

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ . ونظيره الذاريات . الآيتان ٢٠ و ٢١
(٢) سورة الأنفال : الآية ٢٩ .
(٣) سورة الحديد : الآية ٢٨ .

فَأَحْيَيْنـاه وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يمشي بِهِ في النَّاسِ ﴾[1] .

٣ ـ وقال سبحانه : ﴿ والذينَ جاهَدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا ﴾[2] .

٤ ـ وقال سبحانه : ﴿ كلا لَـوْ تَعْلَمونَ عِلْمَ اليَقِـينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعيمِ ﴾[3] .

والمراد رؤيتها قبل يوم القيامة ، رؤية البصيرة ، وهي رؤيـة القلب التي هي من آثار اليقين ، على ما يشير إليه قوله تعـالى : ﴿ وَكذلـكَ نُري إبـراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمواتِ والأَرْضِ ، ولِيكونَ مِنَ المُـوقِنينَ ﴾[4] . وهـذه الرؤيـة القلبية ، غـير محققة قبل يوم القيامة لمن ألهاه التكاثر ، بل مُمْتنعة في حقّه .

كما أنّ المراد من قـوله : ﴿ ثُمَّ لَـتَرُونَّها عَيْنَ اليَقـين ﴾ . هو مشـاهدتهـا يوم القيامة ، بقرينة قوله سبحانه بعد ذلك : ﴿ ثُمَّ لَتُسألُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعيمِ ﴾ .

فـالمراد بـالرؤيـة الأُولى رؤيتها قبـل يوم القيـامـة ، وبـالثـانيـة رؤيتهـا يـوم القيامة[5] .

٥ ـ وقال سبحانه : ﴿ والَّذينَ آهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وآتاهُمْ تَقْواهُمْ ﴾[6] . فلو أنّ الإنسان جَعَلَ نفسه في مسير الهداية ، وطلبها من الله سبحانه ، لزاده تعـالى هدىً ، وآتاه تقواه .

٦ ـ وقال سبحانه : ﴿ إنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنـاهُمْ هُدىً ﴾[7] . وهـذه الآية تُبَيِّن حال أصحاب الكهف الذين اعتزلوا قومهم ، وواجهـوا المشاق في حفظ

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٦٩ .

(٣) سورة التكاثر : الآيات ٥ ـ ٨ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٧٥ .

(٥) لاحظ الميزان ، ج ٢٠ ، ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧ .

(٦) سورة محمد : الآية ١٧ .

(٧) سورة الكهف : الآية ١٣ .

إيمانهم ودينهم ، فزاد الله من هداه في حقّهم ، وَرَبط على قلوبهم ، كما في الآية التالية :

٧ ـ وقال سبحانه · ﴿ وربطْنا على قُلوبهمْ إذْ قاموا فَقالوا رَبُّنا رَبُّ السَّمواتِ والأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دونهِ إلهاً فقَدْ قُلْنَا إذاً شَطَطاً ﴾[١] .

إلى غير ذلك من الآيات التي تعرب عن عدم إيصاد هذا الباب .

ثم إنّ في السنّة النبوية الشريفة ، والخطب العلَوية ، تصريحات وإشارات إلى انفتاح هذا الباب .

فمن ذلك ما روته الصحاح عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال :

« لَقَدْ كان فيمن قَبْلَكُم من بني إسرائيل رجال يُكَلَّمونَ من غير أنْ يكونوا أنبياء »[٢] . وهذا هو المُحَدَّث في مصطلح أهل الحديث . وقد تضافرت الروايات على أنّ مريم وفاطمة وعلياً عليهم السلام كانوا مُحَدَّثين .

ويقول الإمام علي عليه السلام في كلام له ، يحكي فيه عن صاحب التقوى : « قد أحيا عَقْلَهُ ، وأمات نَفْسَهُ ، حتى دَقَّ جَليلُهُ ، وَلَطُفَ غَليظُهُ ، وَبَرَقَ لَهُ لامِعٌ كثيرُ البَرْقِ ، فَأَبانَ لَهُ الطَّريقَ ، وَسَلَكَ به السَّبيلَ ، وَتَدافَعَتْهُ الأَبْواب إلى بابِ السلامةِ ، ودارِ الإقامةِ ، وَثَبَتَتْ رِجْلاهُ بِطُمَأْنينَةٍ في بَدَنِهِ في قرار الأمن والراحة ، بما استعملَ قَلْبَه ، وأَرضى رَبَّه »[٣] .

ويقول عليه السلام ، في كلمة أخرى تعرب عن رأي الإسلام في هذه المجال ، قالها عند تلاوته قوله سبحانه : ﴿ يُسبِّح له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ رجالٌ لا تُلْهيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله ﴾ قال : « إنّ الله سبحانه جعل الذِّكر جلاءً للقلوب ، تَسْمع به بعد الوَقْرَة ، وتبْصِر به بعد العَشْوة ، وتنقاد به بعد المعاندة ، وما برح لله ـ عزّت آلاؤه ـ في البُرهة بعد البُرهة ، وفي أزمان الفترات ، عباد

---

(١) سورة الكهف : الآية ١٤ .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ١٤٩

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ٢١٥

ناجاهم في فكرهم ، وكلّمهم في ذات عقولهم ، فاستصبحوا بنور يَقَظَةٍ في الأبصار والأسماع والأفئدة ، يُذَكِّرونَ بأيَّام الله ، وَيُخَوِّفونَ مَقامَهُ ، بِمَنْزِلَةِ الأدلَّة في الفَلواتِ . . . إلى أن قال : وإنّ للذِّكْرِ لأهلاً أخذُوه من الدُّنيا بَدَلاً ، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عنه يقطعون به أيام الحياة ، ويهتِفون بالزواجر عن محارم الله ، في أسماع الغافلين ، ويأمرون بالقسط ، ويأتمرون به ، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه ، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة ، وهم فيها ، فشاهدوا ما وراء ذلك ، فكأنّما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه ، وحققت القيامة عليهم عداتها ، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا ، حتى كأنّهم يرون ما لا يرى الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون . . »[1] .

وقد تربى في أحضان علي عليه السلام ، صفوة من رجال الخير ، يُسْتَدَرّ بهم الغمام ويضنّ بهم الزمان ، كزيد وصعصعة إبني صوحان ، وأُوَيْس القَرَني ، والأَصْبَغ بن نُباتة ، ورشيد الهجري ، وميثم التّمار ، وكُميل بن زياد ، وأشباههم ، وكان هؤلاء مُثلاً للفضيلة وخزانة للعلم والأسرار ، منحهم أمير المؤمنين عليه السلام من سابغ علمه ، واستأمَنَهم على غامض أسراره ، ممّا لا يقوى على احتماله غير أمثالهم ، حتى زكت نفوسهم ، وكادوا أن يكونوا بعد التصفية ملائكة مجردة عن النقائص ، لا يعرفون الرذيلة ولا تعرفهم .

* * *

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٢١٧ .

السؤال الثالث

أليس التحول ناموساً عاماً ، فما معنى الشريعة الثابتة ؟

ليس في الكون المادي ، أمر خالد باقٍ مدى الدهور وتعاقب الأجيال ، لأنّ التحوّل ناموس عام في الطبيعة ، وعلى ذلك ، فكيف يقرر الإسلام سنناً وقوانين ثابتة ، منذ بعثة الرسول إلى يوم القيامة ، فإنّ الإعتقاد بخاتمية الرسول وكتابه وسننه وتشريعاته ، يلازم الإعتقاد بثباتها في هذا الكون الذي كتب على جبينه عدم القرار والثبات .

الجـــواب :

إنّ السؤال نَجَم من الخلط بين الموجودات المادية والنواميس الحاكمة عليها ، فالمتغيّر هو الأول دون الثاني ، فإنّ السماء والأرض وما فيهما لا تستقرّ على حالة واحدة ، وأمّا النواميس السائدة عليها فهي ثابتة أبدية لا يصيبها التبدّل ، ولا تقع في إطار الحركة والتحوّل .

مثلاً : المعادلات الرياضية ، وقانون الجاذبيّة ، والثقل النوعي في الموجودات ، وإنكسار الضوء وأحكام العَدَسِيّات وسرعة النور وغيرها من القوانين الفيزيائية ، ثابتة غير متغيرة ، سائدة في كل الظروف والأزمنة .

ومثله : الأحكام الشرعية ، المحمولة على الموضوعات الخارجية فالموضوعات وإن كانت تتغير ، والمجتمع يتحول من حال إلى أُخرى ، ولكن لكلّ

موضوع في حـال خاص حكم لا يتغـير ما دام المـوضوع مـوضوعـاً ، وإذا تبدّل ، فالتبدّل يستلزم رفع الحكم برفع موضوعه لا استبداله بحكم آخر .

وبذلك تقف على مدى وهن ما يُعترض به على ثبات قوانـين الإسلام ، بـأنّه ليس عنـدنا أصـل ثابت وشيء مستقـر ، بـل الكـون بـأجمعـه يمـوج بـالتحـولات والتغيرات .

إذ فيه مضافاً إلى ما ذكرنا من الخلط بين القانـون ومُنْطَبَقـه ، أنّ قولَهم هـذا بأنّه ليس عندنا علم ثابت ، هو بحدّ ذاته ، قـانون ثـابت لدى المعـترض ، فهو في الوقت الذي يعـترض فيه عـلى ثبات القـوانين وبقـائها ، يعـترف بقانـون ثابت في العالم ، وهو أنّه« ليس عندنا قانون ثابت » .

* * *

أسئلة حول الخاتمية

السؤال الرابع

كيف تكون الشريعة ثابتة مع أنّ لكل عصرٍ اقتضاءً خاصّاً ؟(١)

التطور الإجتماعي يستلزم تطوراً في قوانين المجتمع ، والقانون الموضوع في ظرف خاص ، ربما يكون مضرّاً أو غير مفيد في ظرف آخر ، ومقتضيات الزّمان (القوانين) ، تختلف باختلاف ألوان الحياة والظروف الطارئة على المجتمع ، فما صحّ بالأمس ، لا يصحّ اليوم ، وما يصحّ اليوم لا يصحّ غداً . وعلى هذا فلو كانت الحياة مستمرة على وتيرة واحدة ، لساغ للتشريع الإلهي المحمدي أن يسود في جميع الظروف والأحوال إلى يوم القيامة ، لكنها لما كانت متغيرة ومتحوّلة ، فلا يصحّ للشريعة الإلهيّة السيادة على المجتمعات دائماً ، فكيف يصحّ القول بأنّ شريعة الإسلام شريعة خالدة ، إذ لا يُعْنى من خاتمية النبوة ، إلاّ خاتمية الشريعة وبقاؤها إلى الأبد .

الجـــــواب

إنّ هذه الشبهة من أهمّ الشبهات في موضوع الخاتمية ، ومنشؤها تخيل أنّ

---

(١) الفرق بين هذا السؤال وسابقه واضح ، فإنّ الأول ، يعتمد على اصل فلسفي وهو شمول التحول لكلّ ما في الكون ، وانطلاقاً من هذا الأصل لا يمكن الإعتراف بثبات أصل وقانون . والسؤال الثاني سؤال اجتماعي ، وهو لزوم اختلاف القوانين حسب اختلاف المقتضيات ، والإعتراف بهذا لا يجتمع مع القول بثبوت سنن الإسلام وقوانينه .

التحوّل يدبّ في جميع شؤون الإنسان ، وأمّا إذا قلنا بأنّ للإنسان ـ مع قطع النظر عمّا يحيط به من الظروف المختلفة ـ روحيات وغرائز لا تتغير أبداً ، ولا تَنْفكُّ عنه ، وهي في الحقيقة مشخصات تكوينية له ، بها يتميز عن سائر الحيوانات ، فالشبهة مندفعة من رأس ، فإنّ القوانين والسنن الراجعة إليها ، تكون ثابتة خالدة ، حسب خلودها ، إذا كانت موافقة لما تقتضيه .

توضيحه : إنّ السائل قد قصر النظر على ما يحيط بالإنسان من الظروف المختلفة المتبدلة ، التي هي نتيجة تكامل الحضارات والمجتمعات ، وذهل عن أنّ للإنسان غرائز ثابتة وروحيات خالدة ، لا تستغني عن قانون ينظّم اتجاهاتها وتشريعٌ يعدِّلها ، ويصونها عن الإفراط والتفريط ، فبما أنّ هذه الغرائز والفطريات ، لا تمسّها يد التغيّر ، فالتشريعات المطابقة لمقتضى الفطرة ، والصالحة لهدايتها ، تخلد بخلودها وتثبت بثبوتها ، فلو كان السائل واقفاً على أنّ الإنسان مركب من مشخصات تكوينية أبدية ، ومشخصات طارئة متغيرة ، لوقف على أنّ القوانين الراجعة إلى هداية الفطرة وتعديلها ، تَثْبُت على جبين الدَّهر ، ما دام الإنسان إنساناً ، وأمّا القوانين الراجعة إلى المشخصات الطارئة المتحولة ، فلا تصلح للخلود والثبات . وإليك فيما يلي أمثلة لما ذكرناه .

١ ـ الروابط العائلية ، كرابطة الولد بوالديه ، والأخ بأخيه ، هي روابط طبيعية ، لوجود الوحدة الروحية ، فالسنن الراجعة إلى تنظيم هذه الروابط ، من التوارث أولاً ، ولزوم التكريم والصِّلة ثانياً ، من الأحكام التي لا تتغيّر بتغيّر الزمان ، فلا تجد مجتمعاً ينادي بقطع التوارث بين الوالد والولد ، أو قطع الحضانة بين الأم وولدها ، أو ما شابه ذلك .

٢ ـ إنّ التفاوت بين الرجل والمرأة أمر طبيعي محسوس ، فهما موجودان بشريان مختلفان اختلافاً عضوياً وروحياً ، على رغم كل الدعايات السخيفة التي تريد إزالة كل تفاوت بينهما . ولأجل ذلك إختلفت أحكام كل منهما عن الآخر اختلافاً يقتضيه طبع كل منهما . فإذا كان التشريع مطابقاً لفطرتهما ومسايراً لطبعهما ، ظلّ ثابتاً لا يتغير بمرور الزمان لثبات الموضوع المقتضي لثبات محموله .

٣ ـ الإنسان بما هو موجود إجتماعي ، يحتاج لحفظ حياته وبقاء نسله ، إلى

العيش الإجتماعي ، والحياة العائلية ، وهذان الأمران من أُسس حياة الإنسان ، ما برحت تقوم عليهما ـ في جمله ما تقوم عليه ـ منذ تكون الإنسان .

ومن المعلوم أنّ الحياة الإجتماعية والعائلية ، ليستا غنيتين عن التشريع لتنظيمهما ، فلو كان التشريع حافظاً لحقوق الأفراد ، خالياً عن الظلم والجور ، مبنياً على مِلاكات واقعية ، يدوم هذا القانون ، ما دام مرتكزاً على العدل والصلاح .

٤ ـ التشريع الإسلامي حريص جداً على صيانة الأخلاق وحفظها من الضياع والإنحلال ، ومما لا يشك فيه أنّ الخمر والميسر ، والإباحية الجنسية ، ضربات تقصم ظَهْر الأخلاق وتقضي عليها ، فالخمر يزيل العقل ، والميسر يُنبت العداوة في المجتمع ، والإباحية الجنسية تُفْسد الحرث والنسل ، فالأحكام الراجعة إليها ثابتة دائماً .

وحصيلة البحث أنّ تطور الحياة الإجتماعية في بعض نواحيها ، لا يوجب أن يتغير النظام السائد على مقتضى الفطرة ولا أن تتغير الأحكام الموضوعة على طبق ملاكات واقعية من مصالح ومفاسد كامنة في موضوعاتها ، فلو تغيّر لون الحياة في وسائل الركوب ، والنقل ، ومعدات التكتيك الحربي ،و . . . ، فإنّ ذلك لا يقتضي أن تنسخ أحكام الفطرة أو تنسخ حرمة الظلم ، ووجوب العدل ، ولزوم أداء الأمانة ، والوفاء بالعهود والأَيْمان ، إلى غير ذلك من الأحكام الراجعة إلى التحسين والتقبيح العقليين ، التي يستقل العقل ببقاء أحكامها ما دام الموضوع موضوعاً .

أجل ، إنّ تقلب الأحوال ، وتحوّل الأوضاع الإجتماعية يتطلب تحولاً في السنن والأنظمة ، وتبدّلاً في الأحكام والقوانين ، غير أنّه لا يتطلب تحوّلاً فيما يمسّ واقعية الإنسان الثابتة في جميع الظروف ، كما لا يتطلب تحوّلاً في القوانين الكونية التي تدير الكون بأُصولها الثابتة ، فلا تتغير النسب الرياضية ، ولا القواعد الهندسية ، وإن تطورت الأوضاع وتحولت[1] .

---

(١) قد مضى عند البحث في الشاهد الخامس من شواهد إعجاز القرآن الكريم ، وهو اتقان التشريع والتقنين ، ما يفيدك ، فراجع .

أسئلة حول الخاتمية

السؤال الخامس

هل القوانين المحدودة تفي بالحاجات غير المتناهية ؟

إنّ توسع الحضارة يُلزم المجتمع بتنظيم قوانين جديدة تفوق ما كان يحتاج إليها فيما مضى ، وبما أنّ الحضارة والحاجات في حال التزايد والتكامل ، فكيف تعالِجُ القوانينُ المحدودةُ الواردةُ في الكتاب والسنّة ، الحاجاتِ غير المحدودة .

وبما أنّ الإسلام نظام تشريعيّ كاملٌ ، تَدَخّل في شؤون المجتمع كافّة ، ثقافيّها ، وسياسيّها ، وإجتماعيّها ، وعسكريّها ، وعائليّها ، وأغنى المجتمع عن كل تشريع سوى تشريعه ، فعندئذٍ يطرح هذا السؤال نفسه : إنّ القوانين الواردة في الكتاب والسنّة ، محدودة مهما توسّع نطاقها ، فكيف تُغني المجتمع عن ممارسة التشريع في الحوادث والموضوعات التي لم يكن بها عهد زمن نزول القرآن وبعثة الرسول .

نعم ، المسيحية أراحت نفسها من الإجابة عن هذا السؤال بادّعاء أنّ نظامَها لا يخرج عن الطقوس الفردية والعبادية ، وإنّما هو الإسلام ، الذي يدّعي إغناء المجتمع عن كل تشريع في جميع حقول الحياة .

الجـــــواب :

إنّ خلود التشريع الإسلامي ، وغناه عن كل تشريع ، مبني على وجود أمرين فيه :

١ ـ أنّه ذو مادة حيوية ، خلاّقة للتفاصيل مهما كثُرت الحاجات ، واستجدّت الموضوعات .

٢ ـ أنّه ينظر إلى الكون والمجتمع بسعة ورحابة ، مع مرونة خاصة تساير الحضارات الإنسانية المتعاقبة . وإليك بيان كلا الأمرين :

أما الأمر الأول : فقد أحرزه بتنفيذ أُمور :

١ ـ الإعتراف بحجيّة العقل في مجالات خاصة

اعترف القرآن والسنّة بحجيّة العقل في مجالات خاصة ، مما يرجع إليه القضاء فيها ، ولا يكون هو أجنبيّاً بالنسبة إليها ، وذلك كما في باب الملازمات التي ستأتي الإشارة إلى عناوينها . وليس المراد من حجّيته ، أنّه يُطلق سراحه في مجال التعبديّات التي لا طريق إليها إلاّ بالوحي ، فإنّه لا صلاحية له في ذاك المجال .

وأمّا الملازمات التي تعدّ من الأحكام العقلية القطعية ، وهي مرادهم من قولهم بأنّ ما حكم به العقل حكم به الشرع ، فأمثلتها :

أ ـ الملازمة بين وجوب الشيء ووجوب مقدمته .

ب ـ الملازمة بين وجوب الشيء وحرمة ضده .

ج ـ الملازمة بين عدم جواز اجتماع الأمر والنهي ، وبطلان العبادة .

د ـ الملازمة بين النهي عن العبادة والمعاملة ، وفسادهما .

هـ ـ الملازمة بين المنطوق والمفهوم في القضايا الشرطية ، أو الوضعية ، أو المُغَيَّاة بغاية .

ونظير ذلك ما يستقل به العقل من أحكام عقلية تلازم أحكاماً شرعية ، كاستقلاله بقبح العقاب بلا بيان ، الملازم لعدم ثبوت الحرمة والوجوب إلاّ بالبيان . واستقلاله بلزوم الإجتناب عن أطراف العلم الإجمالي في الشبهات التحريمية ، ولزوم الموافقة القطعية في الشبهات الوجوبية ، واستقلاله بإجزاء

إطاعة الأوامر الإضطرارية أو الأوامر الظاهرية ، وغير دلـك . ولعلّ الكـلّ يرجـع إلى مبدءٍ واحد ، وهو استقلاله بالتحسين والتقبيح الذاتيين ، وهذا هو المنتـج لهذه الملازمات والأحكام .

وقد فتح هذا الإعتراف ، للإسلام ، بـاب البقاء والخلود ، وغـدا التشريع الإسلامي في ضوئه ذا سعة وشمول لكثير من الموضوعات المستجدة أو غيرها ممـا لم يذكر حكمه في الكتاب والسنّة .

نعم ، مَنْ أعـدم العقل وعـزله عن الحكم في مجـالاته الخـاصة بـه ، أعطى للإسلام ولقوانينه سمة الجمود ، وعدم الشمول كـما أنّ مَنْ فَسَح المجـال للعقل ، للحكم في كل مورد ليس له طريق إليـه ، جعل التشريـع الإسلامي لعبـة تتلاعب بها الأهواء .

وبما أنّ هذا البحث ، بحث يرجع إلى علم أُصـول الفقه ، نقتصر عـلى هذا القدر ، ونختم الكلام بحديث عن الإمام الـطاهر ، مـوسى بن جعفر الكـاظم ، وهو يخاطب تلميذه هشام بن الحكم ، بقوله :

« إنّ لله على الناس حجتين ، حجةً ظاهرة ، وحجةً باطنـة ، فأمّـا الظاهـرة فالرسل والأنبياء ، والأئمة ، وأمّا الباطنة فالعقول »[1] .

٢ ـ الإعتراف بتبعية الأحكام للمصالح والمفاسد

الأحكـام الشرعيـة ـ حسب مـا ينصّ عليـه الكتـاب ـ تـابعـة للمصـالـح والمفاسد ، فلا حرام إلاّ لمفسدة في اقترافه ، ولا فريضة إلاّ لمصلحة في الإتيان بها . ولا يراد من المصالح والمفاسد خصوص الدنيويـة ، بل الأعمّ ممـا يرجـع إلى سعادة البشر في دنياه ، وفي أُخراه .

يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَـاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَـنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾[2] .

---

(١) الكافي ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٩١ .

فإذا كانتْ الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد ، وكانت الغاية المتوخاة من تشريعها هي الوصول إلى المصالح والتحرز عن المفاسد ، وبما أنّ المصالح والمفاسد ليست على وزانٍ واحد ، بل لها درجات ومراتب ، عَقَدَ الفقهاءُ باباً لتزاحم الأحكام وتصادمها ، فيقدمون الأهمّ على المهم ،والأكثر مصلحة على الأقل منه ، والأعظم مفسدة على الأحقر منه . وقد أعان فتح هذا الباب على حلّ كثيرٍ من المشاكل الإجتماعية ، التي ربما يتوهّم الجاهل أنّها تعرقل خطى المسلمين في معترك الحياة .

ومن أمثلته : إنّ تشريح بدن الإنسان في المختبرات ،من الأُمور الضرورية الحيوية التي يتوقف عليها نظام الطب اليوم . غير أنّ هذه المصلحة تصادمها حرمة التمثيل بالميِّت ، مسلماً كان أو كافراً ، ولكن عناية الشارع بالصحّة العامة تجعل إحراز هذه المصلحة مقدّمة على المصلحة الأُخرى ،وهي حرمة الميت ، ولكن يقدم في هذا المجال بدن الكافر على المسلم ، والمسلم غير المعروف على المعروف ، وهكذا . وفي ضوء هذا المثال نقدر على طرح أمثلة كثيرة .

٣ ـ الكتاب والسنّة مادة خصبة للتشريع

إنّ الكتاب والسُّنّة مشتملان على أصول وقواعد ، تفي باستنباط آلاف من الفروع التي يحتاج إليها المجتمع البشري على امتداد القرون والأجيال .

وهذه الثروة العلمية التي اختصّت بها الأُمّة الإسلامية من بين سائر الأُمم ، أغنت المسلمين عن التمسّك بكل تشريع سواه .

وتتجلى تلك الحقيقة إذا وقفنا على مرمى حديث الثقلين ، وأنّ العِتْرة الطاهرة ، قرناء القرآن وأعداله ، لا يفترقان أبداً ، ففي ضوء الأحاديث الواردة عن الأئمة الإثني عشر من أهل بيت الرسول الأعظم ، قَدِرَ التشريع الإسلامي ـ على مذهب الإمامية ـ على استنباط أحكام الموضوعات المستجدة الكثيرة ، بوضوح وانطلاق ،ولم يُرَ هناك قُصور فيه .

نعم ، إنّ من اقتصر في مجال السنّة على خصوص ما روته الصحابة عن

النبي الأكرم ، لم يَرَ بدّاً من اللجوء إلى مقاييس وقواعد ظنية ما أنزل الله بها من سلطان ، كالقول بالقياس والإستحسان والإستقراء ، وغيرها من الظّنّيات التي نَهى الشارع المقدس عن التعبد بها في مجال العبودية ، بقوله : ﴿قُلْ ءآلله أَذِنَ لَكُمْ أَمْ على الله تَفْتَرونَ ﴾ ؟[1]

هذا ، وإنّ الأحاديث الإسلامية في مجال الأحكام الفرعية ، الواردة عن طريق الصحابة ، المنتهية إلى النبي الأكرم ، لا تتجاوز خمسمائة حديث ، تُمُدّها أربعة آلاف[2] .

ومن المعلوم أنّ هذا المقدار من الأحاديث لا يفي بحاجات المجتمع البشري إلى يوم القيامة ، وهذا يعرب عن أنّ الرسول لم يترك الأمّة سدىً ، ولم يدفعهم إلى العمل بمقاييس ظنية لا دليل عليها ، وإنّما عالج هذه الناحية الحيوية بالأمر بالرجوع إلى عترته الطاهرة .

إنّ من المؤسف جداً ، رفضَ الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، الذين اعترف القريب والبعيد بطهارتهم ووثاقتهم وعُلُوّ شأنهم ، والأخذ بمقاييس ظنية ، وإدارة رحى التشريع بها .

« وَدَعْ عَنْكَ نَهباً صيح في حجراتِهِ » .

٤ ـ تشريع الإجتهاد

المراد من الإجتهاد هو بذل الوسع في استنباط الأحكام الشرعية عن مصادرها المعيّنة ، وهو رمز خلود الدين وبقاء قوانينه ، لأنّه به تحفظ غضاضة الدين وطراوته ، ويصان عن الإندراس ، وبالتالي يستغني المسلمون عن موائد الأجانب .

أمّا لزوم فتح هذا الباب ، ولا سيما في العصر الحاضر فليس شيئاً يحتاج إلى

---

(١) سورة يونس : الآية ٥٩ .

(٢) لاحظ الوحي المحمدي ، لمحمد رشيد رضا ، الطبعة السادسة ، ص ٢١٢ .

البرهنة ، إذ لم تزل الأُمّة الإسلامية ، في أعصارها الغابرة والحاضرة ، أمام موضوعات مستجدة وطارئة، فيجب عليها عند ذلك أن تختار سلوك أحد السبل التالية :

ـ إمّا بذل الوُسْع في استنباط أحكامها من الكتاب والسُّنّة والعقل .

ـ أو اتّباع القوانين الوضعية البشرية من غير نظر إلى مقاصد الشريعة .

ـ أو الوقوف والسكوت من غير إفتاء .

ولا شك أن المتعين هو الأول .

وقد كان الإجتهاد مفتوحاً بصورته البسيطة بين الصحابة فالتابعين ، كما أنّه لم يزل مفتوحاً على مصراعيه بين أصحاب الأئمة الإثني عشر ، وهم الذين قالوا لشيعتهم : « إنّما علينا إلقاء الأُصول وعليكم التفريع »[1] .

وإنّ من مواهب الله تعالى ، العظيمة ، على الأُمّة الإسلامية ، تشريع الإجتهاد ، وفسح المجال لعلماء الأمّة لأن يناقشوا أفكارهم ، فلم تقم للإسلام دعامة ، ولا حفظ كيانه ونظامه إلّا على ضوء هذه البحوث والمناقشات العلمية وردّ صاحب فكر على ذي فكر آخر ، وقد حكى شيخنا العلامة المتضلع ، شيخ الشريعة الأصفهاني ـ رحمه الله ـ عن بعض الأعلام ، قوله : « إنّ عدم محاباة العلماء ، بعضهم لبعض ، من أعظم مزايا هذه الأُمّة ، التي أَعْظَمَ الله بها عليهم النعمة ، حيث حفظهم عن وصمة محاباة أهل الكتابين ، المؤدية إلى تحريف ما فيهما ، واندراس تينك الملتين ، فلم يتركوا لقائل قولاً فيه أدنى دخل إلّا بيّنوه ، ولفاعل فيه اعوجاج إلّا قوّموه ، حيث اتّضحت الآراء وانعدمت الأهواء ، ودامت الشريعة البيضاء ، على مِلِء الآفاق بأضوائها ، مأمونة عن التحريف ، ومصونة عن التصحيف »[2] .

وقد جَنَت بعض الحكومات الإسلامية ، حيث أقفلت باب الإجتهاد ، في

---

(١) الوسائل ، ج ١٨ ، كتاب القضاء ، الباب السادس من أبواب صفات القاضي ، الحديث ٥٢ .
(٢) إبانة المختار ، ص ١ .

أواسط القرن السابع ، وحرمت الأمّة الإسلامية من هذه الموهبة العظيمة ، يقول المقريزي :

« استمرت ولاية القُضاة الأربعة ، من سنة ٦٦٥ ، حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب الإسلام ، غير هذه الأربعة وعودي من تمذهب بغيرها، وأنكر عليه ، ولم يُوَلَّ قاض ،ولا قُبلت شهادة أحد ، ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب ، وأفتى فقهاؤهم في هذه الأمصار ، في طول هذه المدة ، بوجوب اتّباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها ، والعمل على هذا إلى اليوم »(١) .

ومن بوادر الخير أنْ وَقَفَ غيرُ واحدٍ من أهل النظر من علماءِ أهل السنة ، وقفة موضوعية ، وأحسّوا بلزوم فتح هذا الباب بعد قفله قُروناً(٢) .

٥ ـ حقوقُ الحاكِم الإسلامي

من الأسباب الباعثة على كون التشريع الإسلامي ، صالحاً لحلّ المشاكل ، أنّه منح للحاكم الإسلامي كافة الصلاحيات المؤدية إلى حقّ التصرّف المطلق في كل ما يراه ذا صلاحية للأمّة ، ويتمتع بمثل ما يتمتع به النبي والإمام من النفوذ المطلق ، إلاّ ما يعد من خصائصهما .

مثلاً : إذا رأى الحاكم أنّ المصلحة تقتضي فتح طريق أو شارع في أملاك الناس ، فَلَهُ أنْ يُقَرِّرَ وينفِّذَ ما يحقّق هذه الغاية في ضوء العدل والإنصاف : فله أن يُجْبِرَ أصحابَ الأراضي التي يمرّ بها الطريق ، على بيع أراضيهم أو يشتريها بثمن مناسب .

أو إذا أراد رفع المعيشة العامة إلى مستوى خاص ، فله وضع الضريبة على صنف خاص من أبناء الشعب ، أو كلّهم لتأمين هذه الغاية .

---

(١) الخَطَطُ المقريزية ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

(٢) لاحظ تاريخ حصر الإجتهاد ، لشيخنا العلامة الطهراني ، ودائرة المعارف لفريد وجدي ، مادة « جهد » و« ذهب » . وغير ذلك ممّا أُلف في هذا المضمار .

كما أنّ له أن يقرر ما يراه مناسباً لتنظيم السير في الشوارع ، متوخياً في ذلك سلامة النفوس ، وسهولة الذهاب والإياب ، كلّ ذلك في إطار العدل والإنصاف والقوانين العامة الإسلامية .

قال المحقق النائيني رحمه الله : « فَوّضَ إلى الحاكم الإسلامي وضع ما يَراهُ لازماً من المقررات ، لمصلحة الجماعة وسدّ حاجاتها في إطار القوانين الإسلامية »[1] .

وهذه الحقوق ثابتة للنبي الأكرم ، لقوله سبحانه : « النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم »[2] .

كما أنّها ثابتة لخلفائه المعصومين ، وبعدهم لعلماء الأمّة وفقهاء الدين الذين أُلقيت على كواهلهم أمور تدبير حياة الأمّة ، وصيانة الشريعة .

وهناك كلمة قيمة للإمام الخميني ـ قدّس سرّه ـ نأتي بنصّها :

« إنّ الحاكم الإسلامي إذا نجح في تأسيس حكومة إسلامية في قطر من أقطار الإسلام ، أو في مناطقه كلّها ، وتوفرت فيه الشرائط والصلاحيات اللازمة ، وأخُصُّ بالذكر : العلم الوسيع ، والعدل ، يجب على المسلمين إطاعته ، وله من الحقوق والمناصب والولاية ، ما للنبيّ الأكرم من إعداد القوات العسكرية ، ودعمها بالتجنيد ، وتعيين الوُلاة وأخذ الضرائب ، وصرفها في محالّها ، إلى غير ذلك . . .

وليس معنى ذلك أنّ الفقهاء والحُكّام الإسلاميين ، مثل النبي والأئمة في جميع الشؤون والمقامات ، حتى الفضائل النفسانية ، والدرجات المعنوية ، فإنّ ذلك رأيٌ تافِهٌ لا يُركنُ إليه ، إذ إنّ البحث إنّما هو في الوظائف المحولة إلى الحاكم الإسلامي ، والموضوعة على عاتقه ، لا في المقامات المعنوية والفضائل النفسانية ،

(١) تنبيه الأمّة وتنزيه المِلّة ، ص ٩٧ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية ٦ .

فإنّهم صلوات الله عليهم ، في هذا المضمار ، في درجة لا يدرك شأوهم ، ولا يشق لهم غبار ، حسب روائع نصوصهم وكلماتهم .

وليست السلطة مفخرة للحاكم يعلو بها على سائر المحكومين ، بل هي من وجهة النظر الإسلامية مسؤولية إجتماعية كبرى أمام الله سبحانه أوّلاً ، وأمام المسلمين ثانياً . والجهة الجامعة ما بين الحاكم والإمام في إدارة دفة الحكم وسياسة العباد ، ليس لها أي ارتباط بالمُثُل الخلقية والصفات النفسانية »[1] .

ثم إنّ البحث حول حقوق الحاكم الإسلامي ، الذي يمهّد الطريق لسيادة الأحكام الإسلامية طويل الذيل يرجع فيه إلى مفاهيم القرآن[2] .

وأمّا الأمر الثاني ، وهو أنّ التشريع الإسلامي ينظر إلى الكون والمجتمع بسعة ورحابة ، مع مرونة خاصة تساير الحضارات الإنسانية المتعاقبة ، فقد أحرز ذلك بتحقيق أمور ثلاثة :

١ ـ النظر إلى المعاني دون الظواهر

الإسلام يهتم بالمعنى دون الظاهر ، وهذه إحدى العِلَلِ لبقاء أحكامه وخلودها ، وقد أوضحنا حال ذلك عند البحث عن إتّقان التشريع والتقنين الإسلامي .

---

(١) ولاية الفقيه ، للإمام السيد الخميني ، ص ٦٣ ـ ٦٦ . وقد كان سماحته حيّاً يرزق ونحن نجري القلم على هذه المواضع ، لكنه لبّى دعوة ربّه والتحق بالرفيق الأعلى ليلة الأحد التاسع والعشرين من شهر شوال عام ١٤٠٩ للهجرة . وقد كان ـ قدّس الله سرّه ـ رجلاً مثالياً في التقوى ، وبطلاً في العلم ، ومجاهداً مناضلاً في سبيل إعلاء كلمة الحق . وبالحق كان مصداقاً لقول الشاعر :

لَيس مِنَ الله بِمُسْتَنْكَرٍ أنْ يَجْمَعَ العالَمَ في واحِدِ

أعلى الله مقامه ، ورفع في الجنان درجته .

(٢) قد أشبع شيخنا الأستاذ ـ دام ظله ـ الكلام في هذا المضمار ، فلاحظ « مفاهيم القرآن » ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ ـ ٢٩٦ .

٢ ـ الأحكام التي لها دور التحديد

من الأسباب الموجبة لمرونة هذا الدين وصلاحيته للبقاء ، وجود قوانين حاكمة على القوانين العامة ، مثل قاعدة ، « لا حرج » ، و« لا ضَرَرَ » ، وغير ذلك مما أوضحنا حاله عند البحث عن إتقان التشريع والتقنين الإسلامي .

٣ ـ الإسلام شريعة وُسْطى والأمّة الإسلامية أُمّة وَسَط

من الأسباب الدافعة إلى صلوح الإسلام للبقاء والخلود ، كونه ديناً جامعاً بين الدعوة إلى المادة ، والدعوة إلى الروح ، وديناً وسطاً بين المادية البحتة ، والروحيّة المحضة ، وبذلك جاء شريعة تامّة لم تعطّل الفطرة في تشريعاتها ، ولم تلقي حبلها على عاتقها لتخرج عن حدودها ، فأخذت من الدنيا ما هو لصالح العباد ، ومن الآخرة مثله .

فكما أنّ الإسلام ندب إلى العبادة ، ندب إلى طلب الرزق أيضاً ، بل ندب إلى ترويح النفس ، والتخلية بينها وبين لذاتها .

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « للمؤمن ثلاثُ ساعات ، ساعةٌ يُناجي فيها ربَّه ، وساعة يَرُمّ فيها معاشه ، وساعةٌ يُخلّي بين نفسه ولذّاتها »[1] . .

فقد قرن بين عبادة الله ، وطلب الرزق ، وترفيه النفس ، بحيث جعل الجميع في منستوى واحد .

فكما أنّ أداء الصلاة والصوم ، والحج ، وظائف دينية ، فكذلك إنّ شقّ الطريق لطلب الرزق والمعاش ، والقيام بنزهة بين الرياض ، أو سباحة في الأحواض ، والأعمال الرياضية البدنية ، وظيفة دينية للمؤمن ، ولأجل هذا ينسجم الإسلام مع الحضارات المتواصلة .

* * *

(١) نهج البلاغة ، باب الحِكم ، رقم ٣٩٠ .

هذه هي الخاتمية ، ودلائلها المشرقة ، وشبهاتها الضئيلة ، وأسئلتها المهمة ، وأجوبتها الرصينة ، طرحناهـا معرض البحث والتنقيب ، ولم يكن رائـدنا إلاّ تبنّي الحقيقة ، متجرّدين عن كل رأي مسبق لا دليل عليه .

تمّ الكلام بحمده تعالى في النُبُوّة الخاصة .

* * *

الفصل التّاسع

الإمامة والخلافة

* مقدّمات

١ ـ تعريف الإمامة .

٢ ـ هل الإمامة من الأصول أو الفروع ؟ .

٣ ـ ماهيةُ الإمامة عند أهل السُّنة .

٤ ـ مؤهلات الإمام عند أهل السُّنَّة .

٥ ـ بماذا تنعقد الإمامة عند أهل السُّنَّة ؟ .

٦ ـ ماهية الإمامةِ عند الشيعة الإمامية .

٧ ـ المصالحُ العامة وصيغةُ الحكومة بعد النبيّ .

٨ ـ هل الشورى أساسٌ للحكم والخلافة ؟ .

٩ ـ هل البَيْعة أساس للحكم والخلافة ؟ .

١٠ ـ تصوُّر النبيِّ الأكرم للقيادة بعدَه .

١١ ـ تصوُّرُ الصحابة للخلافة بعد النَّبي .

١٢ ـ صيغةُ القيادةِ في الشرائع السابقة .

* البحثُ الأول : السُّنَّة النبوية وتنصيبُ علي للإمامة .

* البحث الثاني : السُّنَّة النبويةُ والأئمة الإثنا عشر .

* البحث الثالث : عصمةُ الإمام في القرآن .

* البحث الرابع : الإمام المُنتظرُ في الكتاب والسُّنَّة .

ـ أسئلةٌ مهمةٌ حول المهدي عجَّل الله فرجه .

الفصـــل التاســـع

الإمـــامـة والخِلافــة

المقصود من الإمامـة ، إمامـةُ الأُمّة جمعـاء . خلافـةً عن الرسـول الأكرم ، صلى الله عليه وآله ، وقبل الخوض في أصل المقصود ، نقدّم أموراً :

الأمر الأول

في تعريف الإمامة

عُرّفت الإمامة بوجوه :

١ ـ الإمامة رئاسة عامّة في أُمور الدين والدنيا[١] .

٢ ـ الإمامة خلافة الرسول في إقامة الـدين ، بحيث يجب اتّباعـه على كـافة الأُمة[٢] .

٣ ـ الإمامة نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا[٣] .

٤ ـ الإمـامة خـلافة عن الـرسول في إقـامـة الـدين وحفظ المِلَّة بحيث يجب اتّباعه على كافة الأُمة[٤] .

والتعـريف الأول أَلْيقَ على مـذهب الإماميـة ، والبقية ألصق بمـذهب أهـل السنّة في الإمام .

والأولى أن تُعَرَّف الإمامة بأنّها رئاسة عامة إلهية . وعلى كـل تقديـر ، فالمهم هو تحليل ماهية هذه الخلافة ، وتحديدها ، وأنّـه ماذا يـراد من الإمامـة في مصطلح المتكلمين .

---

(١) المواقف ، ص ٣٤٥ ، وقال فيه : « ونُقِضَ بالنبوة » . وسيوافيك أنّ النقض غير وارد

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) مقدمة إبن خلدون ، ص ١٩١ .

(٤) دلائل الصدق ، ج٢ ، ص ٤ والتعريف للفضل بن روزبهان الأشعري

الأمر الثاني

هل الإمامة من الأصول أو الفروع ؟

اتّفقت كلمة أهل السنة ، أو أكثرهم ، على أنّ الإمامة من فروع الدين .

قال الغزالي : « إعلم أنّ النظر في الإمامة أيضاً ليس من المهمات ، وليس أيضاً من فنّ المعقولات ، بل من الفقهيات ، ثم إنّها مثار للتعصبات ، والمُعْرِض عن الخوض فيها ، أسلم من الخائض فيها ، وإن أصاب ، فكيف إذا أخطأ ؟ ولكن إذْ جرّ الرسم باختتام المعتقدات بها ، أردنا أن نسلك منهج المعتاد ، فإنّ فطام القلوب عن المنهج ، المخالف للمألوف[1] ، شديد النِّفار »[2] .

وقال الآمدي : « واعلم أنّ الكلام في الإمامة ليس من أُصول الديانات ، ولا من الأُمور اللابدِّيَّات ، بحيث لا يسع المكلَّف الإعراض عنها والجهل بها ، بل لَعَمري إنّ المعرض عنها لأَرجى من الواغل فيها ، فإنّها قلّما تنفك عن التعصّب ، والأهواء ، وإثارة الفتن والشحناء ، والرجم بالغيب في حق الأئمة والسَّلَف ، بالإزراء ، وهذا مع كون الخائض فيها سالكاً سبيل التحقيق ، فكيف إذا كان خارجاً عن سواء الطريق . لكن لمّا جرت العادة بذكرها في أواخر كتب المتكلمين ، والإبانة عن تحقيقها في عامة مصنفات الأُصوليين ، لم نَرَ من الصواب

---

(١) كذا في المصدر ، والظاهر أنّ « المخالف » صفة « الفطام » ، أو أنّ « المخالف » زائد .

(٢) الإقتصاد في الإعتقاد ، ص ٢٣٤ .

خَرْق العادة بِتَرْك ذكرِها في هذا الكتاب »[1] .

وقال الإيجي : « وهي عندنا من الفروع ، وإنّما ذكرناها في علم الكلام تأسيّاً بمن قبلنا »[2] .

وقال التفتازاني : « لا نزاع في أنّ مباحث الإمامة ، بعلم الفروع أليق ، لرجوعها إلى أنّ القيام بالإمامة ، ونصب الإمام الموصوف بالصفات المخصوصة ، من فروض الكفايات ، وهي أمور كليّة تتعلق بها مصالح دينية أو دنيوية ، لا ينتظم الأمر إلاّ بحصولها ، فيقصد الشارع تحصيلها في الجملة من غير أن يقصد حصولها من كلّ أحد . ولا خفاء في أنّ ذلك من الأحكام العملية دون الإعتقادية »[3] .

هذا ما لدى أهل السُّنة ، وأمّا الشِّيعة ، فالإعتقاد بالإمامة عندهم أصل من أُصول الدين ، وسيظهر وجهه في الأبحاث التالية .

وها هنا سؤال يطرح نفسه ، وهو أنّه إذا كانت الإمامة من الفروع ، فأي معنىً لسلّ السيف على هذا الحكم الفرعي ، حتى قال الشهرستاني : « وأعظم خلاف بين الأُمة ، خلافُ الإمامِة ، إذْ ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلّ على الإمامة في كلّ زمان »[4] .

فإذا كان الإعتقاد بإمامة شخص ، تَوَلّى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، من الأحكام الفرعية ، فإنّ المخالفة فيه لا تستلزم تكفير المخالف أو تفسيقه ، إذا كان للمخالف حجة شرعية ، كمخالفة المجتهد للمجتهد .

مثلاَ : إنّ المسح على الخُفَّيْن ، أو جواز العمل بالقياس ، من مسائل الفروع الخلافية ، فهل ترى من نفسك تجويز تكفير المخالف ، أو تفسيقه ؟ ، أو

---

(١) غاية المرام في علم الكلام ، ص ٣٦٣ ، لسيف الدين الآمدي ، (ت ٥٥١ ـ م ٦٣١) .
(٢) المواقف ، ص ٣٩٥ .
(٣) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .
(٤) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٢٤ .

إنّ لكلٍّ حُجَّتَه ودليله ، وإنّ للمصيب أَجْرَيْن وللمخطيء أجراً واحداً ، فما هذه الدمدمة والهمهمة حول الإمامة ؟ .

وإذا كانت الإمامة ، بعامّة أبحاثها من الفروع ، فما وجه إقحام ذلك في عِداد المسائل الأُصولية ، كما ارتكبه إمام الحنابلة ، وقال : « خير هذه الأُمة بعد نبيّنا ، أبو بكر ، وخيرُهُم بعد أبي بكر ، عُمَرْ ، وخيرهم بعدَ عُمَر ، عُثْمان ؛ وخيرهم بعد عثمان ، عَليّ ؛ رضوان الله عليهم ، خلفاء راشدون مهديُّون »[1] .

ومثلُه ، أبو جعفر الطحاوي الحنفي في العقيدة الطحاوية ، المسماة بـ « بيان عقيدة السنّة والجماعة » ، حيث قال : « وتُثْبت الخلافة بعد النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي بكر الصِّدِّيق ، تفضيلاً ، وتقديماً على جميع الأُمّة ، ثم لِعُمَرَ بن الخطاب ، ثم لعثمان بن عفّان ، ثم لعليّ بن أبي طالب »[2] .

وقد اقتفى أثرهما الشيخ أبو الحسن الأشعري ، عند بيان عقيدة أهل الحديث وأهل السُّنة ، والشيخ عبد القاهر البغدادي في بيان الأُصول التي اجتمع عليها أهل السنّة[3] .

وهذا الصراع بين القولين ، أراق الدماء الطاهرة ، وجرّ على الأُمّة الويلَ والثُّبور ، وعظائم الأُمور ، فما معنى إقحام الإعتقاد بالأحكام الفرعية في قائمة العقائد ؟ وإنْ هذا إلاّ زَلّةٌ لا تُستقال .

نعمْ ، أَوّلُ من لبّس الأمر ، وجعل الإعتقاد بها من صميم الإيمان على

(١) كتاب السنة ص ٤٩ ، المطبوع ضمن رسائل بإشراف حامد محمد فقي . وهذا الكتاب أُلّف لبيان مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السُّنة ، وَوَصَفَ مَنْ خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طغى فيها أو عاب قائلها ، بأنّه مخالف مبتدع وخارج عن الجماعة ، زائل عن منهج السنّة وسبيل الحق .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، للشيخ عبد الغني الميداني الحنفي الدمشقي ، ص ٤٧١ ، وأخذنا العبارة من المتن . وتوفي الطحاوي عام ٣٢١ هجرية .

(٣) لاحظ « الإبانة عن أُصول الديانة » ، الباب ١٦ ، ص ١٩٠ و« الفَرْق بين الفِرَق » ص ٣٥٠ . ولاحظ « لُمَع الأدلة » للإمام الأشعري ، ص ١١٤ ، و« العقائد النَّسَفية » ص ١٧٧ .

مسلك أهل السنة ، هو عَمْرو بن العاص ، عندما اجتمع مع أبي موسى الأشعري ، في دومة الجندل . وما جَعَلَ الإعتقاد بخلافة الخليفتين الأَوَّلَيْن ، إلاّ للإزدراء بعليّ (عليه السلام) وشيعته[1] .

* * *

(١) لاحظ مروج الذهب للمسعودي ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ . ولاحظ «بحوث في الملل والنحل» ، لشيخنا الأستاذ - دام ظلّه - ج ١ ، ص ٢٦٥ - ٢٧٢ .

الأمـر الثالث

ماهية الإمامة عند أهل السنّة

إنّ اتّفاق مشايخ المتكلمين من أهل السنّة على كون الإمامة من الفـروع التي يبحث عنهـا في الكتب الفقهية ، واتّفـاق الشيعة الإمـامية عـلى أنّها من الأصول ، ينشآن من أصل آخر ، وهو أنّ حقيقـة الإمامـة تختلف عند السنّـة ، عمّا هي عنـد الشيعة ، فالسُّنة ينظرون إلى الإمام كرئيس دولة ، ينتخبه الشعب أو نوّاب الأُمّة ، أو يتسلّط عليها بانقلاب عسكري ، وما شابه ذلك ، فإنّ مثل هـذا لا يشترط فيـه سـوى بعض المـواصفـات المعـروفـة ، ومن المعلوم أنّ الإعتقـاد بـرئـاسـة رئيس جمهورية ، أو رئيس وُزَراء ، ليس من الأصول ، بحيث يُفَسَّق من لم يعتقد بإمامته ورئـاسته وولايتـه . وهذه هي البـلاد الإسلاميـة لّما تـزل يسيطر عليهـا رئيس بعد آخر ، رغبة أو رهبة ، ولم يَرَ أَحَدُ الإعتقادَ بـإمامتـه من الأُصول ، ولم يَجْعَـل فِسْقَه موجباً لِخَلْعِه أ، وإلاّ لما استقرّ حجر على حجر .

وأمّا الشيعة الإمامية ، فينظرون إلى الإمامة بأنّها استمرار لوظـائف الرسـالة (لا لنفس الرسالة ، فإنّ الرسالة والنبوة مختـومتان بـالتحاق النبي الأكـرم بالـرفيق الأعلى) ، ومن المعلوم أنّ ممارسة هذا المقام ، يتوقف على توفر صلاحيات عالية ، لا ينالها الفرد ، إلاّ إذا وقع تحت عناية إلهيةّ ربّانية خاصة ، فيخلُف النبيَّ في علمه بـالأصول والفـروع ، وفي عدالتـه وعصمته ، وقيـادته الحكيمـة ، وغير ذلـك من الشؤون .

وممّا يعرب عن أنّ الإمامة عند أهل السنّة أشبه بسياسة وقتية زَمَنِيّة ، يشغلها

فرد من الأُمّة بأحد الطرق ، ما اشترطوه من الشروط ، وذكروه من الأوصاف في حق الإمام ، وستوافيك فيما يأتي . ولأجل إيقاف الباحث على صحّة هذا التحليل نشير إلى بعض كلماتهم .

قال الباقلاني : « لا ينخلع الإمام بفسقه وظُلْمِهِ بغصب الأموال ، وضَرْب الأبشار ، وتناول النفوس المحرمة ، وتضييع الحقوق ، وتعطيل الحدود ، ولا يجب الخروج عليه ، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله »[1] .

وقال الطحاوي : « ولا نرى الخروج على أئمتنا ووُلاة أُمورنا ، وإن جاروا ، ولا ندعوا عليهم ، ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ، ما لم يأمروا بمعصية ، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة »[2] .
وقال : « والحج والجهاد ماضيان مع أُولي الأمر من المسلمين ، بِرِّهم وفاجِرِهِم ، إلى قيام الساعة ، ولا يبطلهما شيء ولا يَنْقُضُهما »[3] .

قال التفتازاني : « ولا يَنْعَزِلُ الإمام بالفسق ، أو بالخروج عن طاعة الله تعالى ، والجور (أي الظلم على عباد الله) ، لأنّه قد ظهر الفسق ، وانتشر الجور من الأئمة والأُمراء بعد الخلفاء الراشدين ، والسلف كانوا ينقادون لهم ، ويقيمون الجُمَع والأعياد بإذنهم ، ولا يرون الخروج عليهم » . ونَقَلَ عن كتب الشافعية أنّ القاضي ينعزل بالفسق بخلاف الإمام ، والفرق أن في انعزاله ووجوب نصب غيره إثارة الفتنة ، لما له من الشوكة ، بخلاف القاضي[4] .

إلى غير ذلك من الكلمات التي ذكروها في وجوب إطاعة السلطان الجائر ، وحرمة الخروج عليه[5] . فإنّ هذه الكلمات تبين لنا موقع منصب الإمامة عند أهل

---

(١) التمهيد ، للقاضي أبي بكر الباقلاني ، ص ١٨١ . توفي القاضي عام ٤٠٣ .

(٢) متن شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٧٩ ، ولاحظ ما ذكره في شرحه .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨٧ .

(٤) شرح العقائد النسفيّة ، المتن لأبي حفص عمر بن محمد النّسفي (م ٥٣٧) ، والشرح لسعد الدين التفتازاني (م ٧٩١) ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ، ط إسطنبول .

(٥) لاحظ مقالات الإسلاميين ، للأشعري ، ص ٣٢٣ ، وأصول الدين ، لمحمد بن عبد الكريم البزدوي (إمام الماتريدية) ، ص ١٩٠ .

الحديث والأشاعرة ، وكلّها تعرب عن أنّهم ينظرون إلى الإمامة كسياسة وقتية زمنية ، وإلى الإمام كسائس عاديّ يقود أمّته في حياتهم الدنيوية . ولأجل ذلك لا يكون الفسق والجور ، وهتك الأستار ، قادحاً في إمامتهم ، كما أنّ التسلط على الرقاب بالقهر والإستيلاء ، والنار والحرب ، أحد الطُرق المسوغة للتربع على منصّة الإمامة .

فإذا كانت هذه هي حقيقة الإمامة ، وكان هذا هو الإمام ، فلا غرابة حينئذٍ في جعلها من الأحكام الفرعية .

* * *

الأمر الرابع

مؤهلات الإمام عند أهل السنّة

إنطلاقاً من البحث السابق في تبيين ماهية الإمامة، عند أهل السنّة لم يشترطوا في الإمام سوى عدّة صلاحيات، تشترط في عامة الرؤساء،. وإليك نصوصهم :

(١) ـ قال الباقلاني(م ٤٠٣) : « يشترط :

ـ أن يكون قُرَشِيّاً من صميم .

ـ وأن يكون في العلم بمنزلة من يصلح أن يكون قاضياً من قُضاة المسلمين .

ـ وأن يكون ذا بصيرة بأمر الحرب، وتدبير الجيوش والسرايا، وسدّ الثغور، وحماية البيضة، وحفظ الأمّة، والإنتقام من ظالمها، والأخذ لمظلومها »[١] .

(٢) ـ وقال عبد القاهر البغدادي(م ٤٢٩) : « قال أصحابنا إنّ الذي يصلح للإمامة ينبغي أن يكون فيه أربعة أوصاف :

ـ أحدها : العلم . وأقل ما يكفيه منه، أن يبلغ فيه مبلغ المجتهدين في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام .

---

(١) التمهيد، ص ١٨١ .

ـ الثاني : العدالة والورع . وأقلّ ما يجب له من هذه الخِصلة ، أن يكون ممن يجوز قبول شهادته تَحَمُّلاً وأداءً .

ـ والثالث : الإهتداء إلى وجوه السياسة وحُسْنِ التدبير ، وأن يعرف مراتب الناس ، فيحفظهم عليها ، ولا يستعين على الأعمال الكبار ، بالعُمَّال الصغار ، ويكون عارفاً بتدبير الحروب .

ـ الرابع : النَّسَب من قُرَيْش »[١] .

(٣) ـ وقال أبو الحسن البغدادي الماوردي (م ٤٥٠) : « الشروط المعتبرة في الإمامة سبعة :

أحدها : العدالة على شروطها الجامعة . **الثاني** : العلم المؤدّي إلى الإجتهاد في النوازل والأحكام . **الثالث** : سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان . **الرابع** : سلامةُ الأعضاء . **الخامس** : الرأي المُفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح . **السادس** : الشجاعة والنجدة . **السابع** : النَّسب ، وهو أن يكون من قريش[٢] .

(٤) ـ وقال ابن حزم (م ٤٥٦) : « يشترط فيه أمور :

١ ـ أن يكون صلبه من قريش ، ٢ ـ أن يكون بالغاً مميزاً ، ٣ ـ أن يكون رجلاً ، ٤ ـ أن يكون مسلماً ، ٥ ـ أن يكون متقدِّماً لأمره ، ٦ ـ عالماً بما يلزمه من فرائض الدين ، ٧ ـ متَّقياً لله بالجملة ، غير معلنٍ الفساد في الأرض . ٨ ـ أن لا يكون مولّىً عليه »[٣] .

(٥) ـ وقال القاضي سراج الدين الأرْمَوي (م ٦٨٩) : « صفات الأئمة تسع :

١ ـ أن يكون مجتهداً في أُصول الدين وفروعه ، ٢ ـ أن يكون ذا رأي

---

(١) أصول الدين ، لأبي منصور البغدادي ، م ٤٢٩ ، ص ٢٧٧ . ط دار الكتب العلمية ـ بيروت .

(٢) الأحكام السلطانية ، ص ٦ .

(٣) الفِصَل ، ج ٤ ، ص ١٨٦ .

وتدبير ، ٣ ـ أن يكون شجاعاً ، ٤ ـ أن يكون عدلاً ، ٥ ـ أن يكون عاقلاً ، ٦ ـ أن يكون بالغاً ، ٧ ـ أن يكون مُذَكَّراً ، ٨ ـ أن يكون حُرّاً ، ٩ ـ أن يكون قُرَشيّاً »(١) .

(٦) ـ وقال التفتازاني (م ٧٩١) : « قد ذكرنا في كتبنا الفقهية أنّه لا بدّ للأمّة من إمام يحيي الشريعة ، ويُقيم السنّة ، وينتصف للمظلومين ، ويستوفي الحقوق ، ويضعها مواضعها ، ويشترط أن يكون مكلّفاً ، مسلماً ، عدلاً ، حُرّاً ، ذَكَراً مجتهداً ، شجاعاً ، ذا رأي وكفاية ، سميعاً بصيراً ، ناطقاً ، قريشياً ، فإن لم يوجد من قريش من يستجمع هذه الصفات المعتبرة ، وُلِّيَ كِنانيّ . فإن لم يوجد فَرَجلٌ من ولد اسماعيل ، فإن لم يوجد فَرَجُلٌ من العجم »(٢) .

(٧) ـ وقال الفضل بن روزبهان : « وشروط الإمام أن يكون مجتهداً في الأصول والفروع ليقوم بأمر الدين ، ذا رأي وبصارة بتدبير الحرب ، وترتيب الجيوش ، شجاعاً ، قويَّ القلب لِيَقْوَى على الذَّبِّ عن الحوزة »(٣) .

ويلاحظ على هذه الشروط

أوّلاً : إنّ اختلافهم في عدد الشرائط قلّة وكثرة ، ناشيء من افتقادهم لنصّ الشرعي في مجال الإمامة واعتقادهم أنّ منصب الإمامة ، ـ مع عظمته ـ لم نبس فيه النبي الأكرم ببنت شفة ، وإنّما الموجود عندهم نصوص كلية لا تتكفل تعيين هذه الشروط ، ولا تتكفل لتبيين صيغة الحكومة الإسلامية بعد النبي ، والمصدر لهذه الشروط عندهم هو الإستحسان ، والإعتبارات العُقَلائية ، وملاحظة الأهداف التي يمارسها الإمام والخليفة بعد النبي الأكرم .

وهذا مما يقضي منه العَجَب ، وهو أنّ النبي كَيْفَ ترك بيان هذا الأمر

---

(١) مطالع الأنوار ، ص ٤٧٠ .
(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .
(٣) دلائل الصدق ، ج ٢ ، ص ٤ .

المُهِمّ ، شرطاً وصفةً ، مع أنّه بَيِّنٌ أبسط الأشياء وأدناها ، من المكروهات والمستحبات .

وثانياً : إنّ اعتبار العدالة لا ينسجم مع ما ذهبوا إليه من أنّ الإمام لا ينخلع بفسقه وظلمه ، وغيره ممّا نقلناه عنهم .

كما أنّهم جعلوا القَهْرَ والإستيلاء ، أحد الأُمور التي تنعقد بها الإمامة ـ كما سيأتي ـ وتجعل المستولي والقاهر ولي أمر ، يشمله قوله سبحانه : ﴿ **يآ أيُّها الذينَ آمَنوا ، أطيعوا الله وأَطيعوا الرَّسولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** ﴾(١) . ومن المعلوم أنّ القاهر والمستولي بالحرب والنّار ، لا يهمه إلّا السلطة وإعمال القدرة ، سواءٌ أجْتَمَعَت فيه هذه الشروط أَوْ لا . أفهل يجب إطاعة مثل هذا ؟ :

وجوب طاعته لا ينسجم مع اعتبار هذه الشروط؛ وعدم وجوب طاعته لا ينسجم مع كون القهر والغلبة من الأُمور التي تنعقد بها الإمامة .

وثالثاً : إنّ التاريخ الإسلامي يشهد بأنّ الخلَفاء بعد عليّ عليه السلام ، كانوا يفقدون أكثر هذه الصلاحيات ومع ذلك يمارسون الخلافة .

فهذه صحائف تاريخهم ، من لدن تَسَنُّمِ معاوية عرش الخلافة ، إلى آخر خلفاء بني مروان ، خضبوا وجه الأرض بدماء الأبرياء ، وقتلوا الصحابة والتابعين، ونهبوا الديار والأموال، وقد بلغ جورهم وظلمهم الذروة ، حتى ثارت عليهم الأُمّة ، وقتلت صغيرهم وكبيرهم ، فلم يبق منهم إلّا مَنْ فرَّ إلى الأندلس . وبَعْدَهم تسلّط العباسيون ، باسم حماية أهل البيت ، ولكن حدث ما حدث ، ولم تكن سيرتهم أحسن حالاً من سيرة الأمويين ، حتى قال القائل :

يا لَيْتَ جَوْرَ بني مَرْوانَ دام لنا
وليْتَ عَدْلَ بني العبّاسِ في النّارِ

* * *

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

الأمر الخامس

بماذا تنعقد الإمامة عند أهل السنّة ؟

قـد تعرّفت عـلى عقيدة أهـل السنّة في بـاب الإمامـة ، وأنّها عنـدهم أشبـه بسيـاسة وقتيـة زمنية ، يقـودها الحـاكم العادي مـع كفاءات ومؤهـلات ، تـطابق شأنه .

وعلى ذلك يرجع تعيـين الإمام إلى نفس الأُمّـة ، لا إلى الله سبحانـه ولا إلى رسوله ، وهم قد اختلفوا فيما تنعقد به الإمامة على أقوال شتّى نأتي ببعضها :

١ ـ قال الإسفرائيني : (ت ٣٤٤ ـ م ٤٠٦) في كتاب الجنايات : « وتنعقد الإمامة بالقهر والإستيلاء ، ولو كان فاسقاً أو جاهلاً أو عجمياً »[١] .

٢ ـ قـال الماوردي (م ٤٥٠ هـ) : « إختلف العلماء في عـدد من تنعقـد بـه الإمـامة منهم ، عـلى مذاهب شتّى . فقـالت طائفـة : لا تنعقد إلّا بجمهـور أهل العقد والحلّ من كل بلد ، ليكون الـرضا بـه عامّـاً ، والتسليم لإمامتـه إجماعـاً ، وهذا مذهب مدفوع ببيعـة أبي بكر على الخلافـة باختيـار من حضرها ، ولم ينتـظر ببيعته قدوم غائب عنها .

وقالت طائفة أخرى : أقلّ ما تنعقد به منهم الإمامة ، خمسـة يجتمعون عـلى عقدها ، أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة ، استدلالاً بأمرين : أحدهما : أنّ بَيْعة

---

(١) إحقاق الحق ، للسيد التُسْتَري ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .

أبي بكـر إنعقدت بخمسـة إجتمعوا عليهـا ثم تابعهـم النـاس فيها ، وهم عمـر بن الخـطاب ، وأبو عُبَيـدة بن الجراح ، وأُسيـد بن حضير ، وبشر بن سعـد ، وسـالم مولى أبي حُذيفة .

والثاني : أنّ عمر جعل الشورى في ستة ليعقد لأحدهم برضا الخمسة .

وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة .

وقـال آخرون من علماء الكـوفة : تنعقـد بثـلاثـة يتـولاهـا أحـدهم بـرضـا الإثنين ، ليكونوا حاكماً وشاهدَيْن ، كما يصحّ عقد النكاح بِوَلي وشاهدين .

وقالت طائفة أُخرى : تنعقد بواحـدٍ ، لأَنَّ العباس قـال لعلي : امـدُدْ يَدَكَ أُبايعك ، فيقـول النَّاس عمّ رسـول الله صلى الله عليـه وآله بـايعَ ابن عمّـه ، فلا يختلف عليك اثنان . ولأنّه حُكْمٌ ، وحكمُ واحدٍ نافذٌ »[1] .

٣ ـ قـال إمام الحـرمين الجـويني (م ٤٧٨هـ) : « إعلموا أنّـه لا يُشترط في عقـد الإمامـة الإجماع ، بـل تنعقد الإمـامة ، وإن لم تُجْمـع الأمّة عـلى عَقْـدهـا . والدليل عليه أَنَّ الإمامة لَّما عُقـدت لأبي بكر ، إبتـدر لإمضاء أحكـام المسلمين ولم يتأنّ لانتشار الأخبار إلى مَنْ نأى من الصحابة في الأقطار ، ولم يُنكـر عليـه مُنْكِر . فإذا لم يشترط الإجماع في عقد الإمامة لم يَثْبت عدد معدود ، ولا حدٌّ محدود ، فالوجه الحكم بأنّ الإمامة تنعقد بعقدِ واحدٍ من أهل الحَلّ والعقد »[2] .

٤ ـ قـال القُرْطُبي : (م٦٧١هـ) : « فـإنْ عَقَـدهـا واحدٌ من أهـل الحـلّ والعقد ، فذلك ثابت ، ويلزم الغير فعله ، خلافاً لبعض الناس ، حيث قال : لا تنعقد إلاّ بجماعة من أهل الحلّ والعقد ، ودليلنا : أنّ عُمَر عقد البيعة لأبي بكـر ، ولم ينكـر أحد من الصحـابة ذلـك[3] . ولأنّه عَقْـد ، فوجب أن لا يفتقـر إلى عدد

---

(١) الأحكام السلطانية ، ص ٦ ـ ٧ ، ط الحلبي بمصر .

(٢) الإرشاد ، ص ٤٢٤ .

(٣) ولعل القرطبي لم يقرأ مأساة السقيفة بين المهاجرين والأنصار ، وإلاّ فـالإعتراض والنـزاع كان قـائماً على قدم وساق ويكفي في ذلك مراجعة كتـاب الإمامـة والسياسـة لابن قتيبة ، وتـاريخ الـطبري ،=

يعقدونه كسائر العقود »[1] .

٥ ـ وقال القاضي عضد الدين الإيجي (م٧٥٧) : « المقصد الثالث فيما تثبت به الإمامة ، وأنها تثبت بالنّص من الرسول ، ومن الإمام السابق ، بالإجماع ، وتثبت ببيْعَة أهل الحلّ والعقد. لنا ، ثبوت إمامة أبي بكر بالبَيْعة » .

وقال : « وإذا ثبت حصول الإمام بالإختيار والبَيْعة ، فاعلم أنّ ذلك لا يفتقر إلى الإجماع ، إذ لم يقم عليه دليل من العقل أو السمع ، بل الواحد والإثنان من أهل الحلّ والعقد ، كافٍ ، لعِلْمِنا أنّ الصحابة ، مع صلابتهم في الدين ، اكتفوا بذلك ، كعقد عمر لأبي بكر ، وعَقْد عبد الرحمن بن عوف لعُثْمان ، ولم يشترطوا اجتماع مَنْ في المدينة ، فضلاً عن إجماعهم هذا ، ولم ينكر عليه أحد ، وعليه انطوت الأعصار إلى وقتنا هذا »[2] .

٥ ـ وعلى ذلك مضى شارح المواقف السيد شريف الجرجاني(٨١٦)[3] .

٦ ـ وقال التفتازاني (م ٧٩١) : « وتنعقد الإمامة بطرق :

أحدها : بيعة أهل الحلّ والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه النّاس الذين يتيسر حضورهم من غير اشتراط عدد ، ولا اتّفاق مَنْ في سائر البلاد ، بل لو تعلّق الحَلُّ والعَقْدُ بواحد مطاع كفت بيعته .

الثاني : إستخلاف الإمام وعهده ، وجعله الأمر شورى بمنزلة الإستخلاف ، إلّا أنّ المستخلَف عليه غير متعين فيتشاورون ، ويتفقون على أحدهم ، وإذا خَلَع الإمام نَفْسَه كان كموته ، فينتقل الأمر إلى ولي العهد .

الثالث : القَهْرُ والإستيلاء ، فإذا مات الإمام وتصدّى للإمامة من

= وسيرة إبن هشام ، وكتاب السقيفة لأبي بكر الجوهري المتوفّى عام ٢٨٠ . وفيها يأتي من المباحث نشير إلى بعض تلك الوقائع .

(١) تفسير القرطبي ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

(٢) المواقف ، صفحة ٣٩٩ ـ ٤٠٠ ، ط عالم الكتب .

(٣) شرح المواقف ، ج ٨ ، ص ٣٥١ ـ ٣٥٣ .

يستجمع شرائطها من غير بيعة واستخلاف ، وقَهَرَ الناس بشوكته ، انعقدت الخلافة له وكذا إذا كان فاسقاً أو جاهلاً على الأظهر »[١] .

يلاحظ على هذه الأقوال والنظريات

أولاً ـ إنّ موقف أصحاب هذه الأقوال في المسألة ، موقفُ من اعتقد بصحة خلافة الخلفاء ، فاستدلّ به على ما يرتئيه من الرأي ، من انعقادها بواحد أو اثنين ، أو اتّفاق من تيسّر حضوره ، دون النائين من الصحابة ، وغير ذلك .

وهذا النَّمَط من الإستدلال ، إستدلال بالمُدّعى على نفس المُدّعى ، وهو دور واضح . والعجب من هؤلاء الأعلام كيف سكتوا عن الإعتراضات الهائلة التي توجهت من نفس الصحابة من الأنصار والمهاجرين على خلافة الخلفاء ، الذين تمّت بَيْعتهم ، بِبَيْعة الخمسة في السقيفة ، أو بَيْعة أبي بكر لعمر ، أو بشورى السِّتّة ، فإنّ من كان مُلِمّاً بالتاريخ ومهتماً به ، يرى كيف كانت عقيرة كثير من الصحابة مرتفعة بالإعتراض . حتى أنّ الزُّبير وقف في السقيفة أمام المبايعين ، وقد اخترط سيفه ، وهو يقول : « لا أُغمده حتى يبايَعَ عليٌّ » . فقال عمر : « عليكم الكلب »! . فأخذ سيفه من يده ، وضرب به الحجر ، وكُسِرَ[٢] .

ويكفي في ذلك قول الطبري أنّه قام الحباب بن المنذر ـ وانتضى سيفه ـ وقال : « أنا جُذَيْلُها ٱلْمُحَكَّكُ ، وعُذَيْقُها المُرَجَّب ، أنا أبو شبل ، في عرينة الأسد ، يعزى إليّ الأسد ، فحامله عمر ، فضرب يده ، فندر السيف ، فأخذه ، ثم وثب على سعد (بن عبادة) ووثبوا على سعده وتتابع القوم على البيعة ، وبايع سعد ، وكانت فلتة كفلتات الجاهلية ، قام أبو بكر دونها ، وقال قائل حين أُوطيء سعد : قتلتم سعداً . فقال عمر : قتله الله ، إنّه منافق . واعترض عمر بالسيف صخرة فقطعه[٣] .

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، ط اسطنبول .

(٢) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ١١ .

(٣) تاريخ الطبري ، حوادث عام١١ ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ . وفي رواية أخرى للطبري أنّ عمر قام على =

هـذه نبذة يسـيرة من الأصـوات المُـدَوّيـة التي عـارضت الخـلافـة والخليفـة المنتخـب ، وكم لها من نظير في السقيفة والشورى وغيرهما ضربنا عنه صفحاً .

أفيصح بعد ذلـك قول القـرطبي : « ولم ينكر أحـد من الصحابـة ذلك » ، وكأن الحباب ، وسعداً ، وابنه قيس ، وعامة الخزرجين ، وبني هاشم ، والزبير ، لم يكونوا من الصحابة ؟ ! .

وثـانياً ـ إنّ هـذا الإختلاف الفـاحش في كيفية عقـد الإمامـة ، يعـرب عن بـطلان نفس الأصل لأنّـه إذا كانت الإمـامة مفـوضة إلى الأُمّـة ، كـان عـلى النبي الأكرم بيان تفاصيلها وخصوصياتها وخطوطها العريضة ، وأنّه هل تنعقد بواحد أو إثنين من الصحابة ؟ أو تنعقد بأهل الحلّ والعقد منهم ؟ أو بالصحابة الحضور عند رحلة النبي أو رحلة الإمـام السـابق ؟ أو بـاتّفـاق جميـع المسلمـين بـأنفسهم ، أو بممثليهم ؟ .

وليس عقد الإمامة لرجل ، أقلّ من عقـد النكاح بـين الزوجـين الذي اهتمّ القـرآن والسنّـة ببيـانـه وتحـديـده ، كـما اهتمت السنّـة عـلى الخصـوص بشؤونـه وأحكامه .

والعجب أنّ عقـد الإمامـة الـذي تتـوقف عليـه حيـاة الأُمّـة ، لم يـطرح في النصوص ، لا كتاباً ولا سنّة ـ على زعم القوم ـ ولم تُبَيِّنْ حدوده ولا شرائـطه ، ولا سائر مسائله التي كان يواجهها المسلمون بعد وفاة النبي الأكرم مباشرة !! .

رأس سعد ، وقال : لقد هممت أن أطأك حتى تنـدر عضوك . فـأخذ سعـد بلحية عمـر ، وقال : والله لـو حصحصت منه شعـرة ما رَجِعْتَ وفيـك واضحة ، أمـا والله لو أنّ بي قـوة مـا أقـوى عـلى النهوص لسمعت مني في أقطارها وسككها زئـيراً يُجْحِرك وأصحـابك (أي يلزمهم دخـول الجحر ، وهو كناية عن شدّة التضييق) ، أمّا والله ، إذاً لألحقنّك بقوم كُنْتَ فيهم تابعاً غير متبوع ، احملوني من هذا المكان » . فحملوه ، فأدخلوه في داره . وتُرك أياماً ، ثم بعث إليه أن أَقْبل ، فبايع ، فقـد بايع الناس ، وبايَـعَ قومُـك . فقال : أمـا والله حتى أرميكم بما في كنـانتي من نبلي وأُخَضِّب سنـان رمحي ، وأضربكم بسيفي مـا مَلِكَتْهُ يـدي ، وأقاتلكم بـأهـل بيتي ومن أطـاعني من قـومي ، فـلا أفعل . وأَيْمُ الله ، لو أنّ الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أُعْرَضَ عـلى ربّي ، وأعلم ما حسابي » . فكـان سعد لا يصـلّي بصلاتهم ولا يُجْمـع معهم ، ولا يفيض معهم إفاضتهم ، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر . (المصدر نفسه) . وسعد بن عبادة سيد الخزجيين .

وجملة القول ، إنّ اختلافهم في شرائط الإمام وطرق تنصيبه ، جعل الخلافة وبالاً على المسلمين ، حتى أخذت لنفسها شكلاً يختلف كلّ الإختلاف عن الشكل الذي ينبغي أن تكون عليه . فقد أصبحت الخلافة الإسلامية ، إمبراطورية ، وملكاً عضوضاً ، يتناقلها رجال العَبْث والفساد . من يد فاسق ، إلى آخر فاجر غارق في الهوى ، إلى ثالث سفّاك متعصّب . وقد أعانهم في تسنم ذروة تلك العروش ، مرتزقة من رجال متظاهرين باسم الدين ، فبرروا أفعالهم ، ووجّهوا أعمالهم توجيهاً ملائماً للظروف السائدة ، وصحّحوا إتجاهاتهم السياسية الخاصة ، فخلقوا في ذلك أحاديث وسنن مفتعلة على صاحب الرسالة ، واصطنعوا لهذا وذاك فضائل ، لتدعيم مراكزهم السياسية ، ويكفيك النموذج التالي ، لتقف على حقيقة تلك الأحاديث المفتراة .

رووا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّه قال : « يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهُدايَ ، ولا يَسْتَنّون بسُنّتي وسيقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس . قال الراوي : قلت : كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع للأمير ، وإن ضَرَبَ ظهرَك ، وأُخَذَ مالَك ، فاسمع وأطع »[1] .

* * *

(١) صحيح مسلم ، ج ٦ ، باب الأمر بلزوم الجماعة ، وباب حكم من فرّق أمر المسلمين ، ص ٢٠ ـ ٢٤ ، وفي البابين نظائر كثيرة لهذا الحديث .

الإمامة عند الشيعة الإمامية

قد تعرفت على حقيقة الإمامة لدى أهل السنّة والجماعة ، وعرفت أنّ ما يتبنونه لا يقتضي أزيد من الشرائط المتوفرة في رؤساء الدول غير أنّ الإمامة عند الشيعة تختلف في حقيقتها عمّا لدى إخوانهم ، فهي إمرة إلهية ، واستمرار لوظائف النبوة كلّها سوى تحمّل الوحي الإلهي . ومقتضى هذا ، إتصاف الإمام بالشروط المُشْتَرَطة في النبي ، سوى كونه طرفاً للوحي .

توضيح ذلك : إنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، كان يملأ فراغاً كبيراً وعظيماً في حياة الأُمّة الإسلامية ، ولم تكن مسؤولياته وأعماله مقتصرة على تلقّي الوحي الإلهي ، وتبليغه إلى الناس فحسب ، بل كان يقوم بالأُمور التالية :

١ ـ يُفَسِّر الكتاب العزيز ، ويشرح مقاصده وأهدافه ، ويكشف رموزه وأسراره .

٢ ـ يُبَيِّنُ أحكام الموضوعات التي كانت تَحْدُثُ في زمن دعوته .

٣ ـ يَرُدّ على الحملات التشكيكية ، والتساؤلات العويصة المريبة التي كان يثيرها أعداء الإسلام من يهود ونصارى .

٤ ـ يصون الدين من التحريف والدسّ ، ويراقب ما أخذه عنه المسلمون من أُصول وفروع ، حتى لا تَزِلّ فيه أقدامهم .

وهذه الأُمور الأربعة كان النبي يمارسها ويملأ بشخصيته الرسالية ثغراتها. ولأجل جلاء الموقف نوضح كل واحد من هذه الأُمور .

أمّا الأمر الأول : فيكفي فيه قوله سبحانه : ﴿ **وَأَنْزَلنا إليكَ الذكرَ لِتُبَيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِمْ** ﴾[1] . فقد وُصف النبي في هذه الآية بأنّه مبيّن لما في الكتاب ، لا مجرّد تال له فقط .

وقوله سبحانه : ﴿ **لا تُحرِّكْ لسانَكَ لتَعْجَلَ بِهِ * إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ * فَإِذَا قرأناهُ فاتَّبِعْ قُرآنَهُ ؛ * ثُمَّ إنَّ علينا بَيانَهُ** ﴾[2] فكان النبي يتولى بيان مُجْمَلِهِ ومُطْلَقِهِ ومُقَيَّدِهِ ، بقدر ما تتطلبه ظروفه .

والقرآن الكريم ليس كتاباً عادياً ، على نسق واحد ، حتى يستغني عن بيان النبي ، بل فيه المُحْكَم والمتشابِه ، والعام والخاص ، والمُطْلَق والمُقَيَّد ، والمنسوخ والناسِخ ، يقول الإمام علي عليه السلام : « وخلّف (النبي صلى الله عليه وآله) فيكم ما خلّفت الأنبياءُ في أُممها : كتاب ربكم فيكم ، مبيِّناً حلالَه وحرامَه ، وفرائضَه وفضائلَه ، وناسخَه ومنسوخَه ، ورُخَصَه وعزائمه ، وخاصّه وعامّه ، وعِبَرَه وأمثاله ، ومُرسَله ومحدوده ، ومُحكَمه ومتشابهه ، مفسراً مُجمله ، ومبيِّناً غوامضه »[3] .

وأمّا الأمر الثاني : فهو بغنىً عن التوضيح ، فإنّ الأحكام الشرعية وصلت إلى الأمّة عن طريق النبي ، سواء أكانت من جانب الكتاب أو من طريق السنّة .

وأمّا الأمر الثالث : فبيانه أنّ الإسلام قد تعرض ، منذ ظهوره ، لأعنف الحملات التشكيكية ، وكانت تتناول توحيده ورسالته وإمكان المعاد ، وحشر الإنسان ، وغير ذلك . وهذا هو النبي الأكرم ، عندما قدم عليه جماعة من كبار النصارى لمناظرته ، استدلّوا لاعتقادهم بنبوة المسيح ، بتولده من غير أب ، فأجاب النبي بوحي من الله سبحانه ، بأنّ أمر المسيح ليس أغرب من أمر آدم

---

(١) سورة النمل : الآية ٤٤ .

(٢) سورة القيامة : الآيات ١٦ ـ ١٩ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١ .

حيث ولد من غير أب ولا أمّ قال سبحانه : ﴿ إنّ مَثَلَ عيسى عند الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَه مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيكُونُ ﴾[1] .

وأنت إذا سبرت تفاسير القرآن الكريم ، تقف على أنّ قسماً من الآيات نزلت في الإجابة عن التشكيكات المتوجهة إلى الإسلام من جانب أعدائه من مشركين ويهود ونصارى وسيوافيك في مباحث المعاد جملة كثيرة من الشبهات التي كانوا يعترضون بها على عقيدة المعاد ، وجواب القرآن عليها .

وأمّا الأمر الرابع : فواضح لمن لاحظ سيرة النبي الأكرم ، فقد كان هو القول الفصل وفصل الخطاب ، إليه يفيء الغالي ، ويلحق التالي ، فلم يُرَ أبّان حياته مذهب في الأصول والعقائد ، ولا في التفسير والأحكام . وكان ـ بقيادته الحكيمة ـ يرفع الخصومات والإختلافات ، سواء فيما يرجع إلى السياسة أو غيرها[2] .

هذه هي الأمور التي مارسها النبي الأكرم أيام حياته . ومن المعلوم أنّ رحلته وغيابه صلوات الله عليه ، يخلّف فراغاً هائلاً ومفزعاً في هذه المجالات الأربعة ، فيكون التشريع الإسلامي حينئذٍ أمام محتملات ثلاثة :

الأول ـ أنّ لا يبدي الشارع إهتماماً بِسَدِّ هذه الفراغات الهائلة التي ستحدث بعد الرسول ، ورأى تَرْكَ الأمور لتجري على عَواهِنِها .

الثاني ـ أن تكون الأُمّة ، قد بلغت بفضل جهود صاحب الدعوة في إعدادها ، حداً تقدر معه بنفسها على سدّ ذلك الفراغ .

الثالث ـ أن يستودع صاحب الدعوة ، كلّ ما تلقاه من المعارف والأحكام

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٥٩ . ولاحظ سورة الزخرف : الآيات ٥٧ ـ ٦١ .

(٢) يكفي في دلك ملاحظة غزوة الحديبية ، وكيف تغلّب بقيادته الحكيمة على الإختلاف الناجم ، من عقد الصلح مع المشركين وما نجم في غزوة بني المصطلق من تمزيق وحدة الكلمة ، أو ما ورد في حجة الوداع ، حيث أمر من لم يَسُقْ هدياً . بالإحلال ، ونجم الخلاف من بعض أصحابه ، فحسمه بفصله القاطع .

بالوحي ، وكلّ ما ستحتاج إليه الأُمّة بعده ، يستودعه شخصية مثالية ، لها كفاءة تَقَبُّلِ هذه المعارف والأحكام وَتَحَمُّلِها ، فتقوم هي بسد هذا الفراغ بعد رحلته صلوات الله عليه .

أمّا الإحتمال الأول - فساقط جداً ، لا يحتاج إلى البحث ، فإنّه لا ينسجم مع غرض البعثة ، فإنّ في ترك سدّ هذه الفراغات ضياعاً للدين والشريعة ، وبالتالي قطع الطريق أمام رُقيّ الأُمّة وتكاملها .

فبقي الإحتمالان الأخيران ، فلا بد لتعيين واحد منهما ، دراستهما في ضوء العقل والتاريخ .

هل كانت الأُمّة مؤهلة لسدّ تلك الفراغات ؟

هذه هي النقطة الحساسة في تاريخ التشريع الإسلامي ومهمّتِه ، فلَعَلَّ هناك من يزعم أنّ الأُمّة كانت قادرة على ملىء هذه الفراغات . غير أنّ التاريخ والمحاسبات الإجتماعية يبطلان هذه النظرة ، ويضادّانها ، ويثبتان أنّه لم يُقَدَّر للأُمّة بلوغ تلك الذروة ، لتقوم بسدّ هذه الثغرات التي خلّفها غياب النبي الأكرم ، لا في جانب التفسير ، ولا في جانب التشريع ، ولا في جانب ردّ التشكيكات الهدّامة ، ولا في جانب صيانة الدين عن الإنحراف ، وإليك فيما يلي بيان فشل الأُمّة في سدّ هذه الثغرات ، من دون أن نثبت للأُمّة تقصيراً ، بل المقصود إستكشاف الحقيقة .

أمّا في جانب التفسير ، فيكفي وجود الإختلاف الفاحش في تفسير آيات الذكر الحكيم ، وقبل كل شيء نضع أمامك كتب التفسير ، فلا ترى آية - إلاّ ما شذّ - اتّفق في تفسيرها قول الأمّة ، حتى أنّ الآيات التي يرجع مفادها إلى عمل المسلمين يوماً وليلاً لم تُصَن عن الإختلاف ، وإليك النماذج التالية .

أ - قال سبحانه : ﴿ فَاغْسِلوا وُجوهَكُم وأَيْدِيَكُمْ إلى المَرافِقِ وامْسَحوا برؤوسِكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعْبَيْنِ ﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦ .

فقد تضاربت الآراء في فهم الآية ، فمن قائل يعطف الرِّجْل على الرؤوس ، ومن قائل يعطفه على الأيدي ، فتمسح على الأوّل ، وتُغْسَلُ على الثاني . فأيُّ الرأيين هو الصحيح ؟ وأيُّ التفسيرين هو مراده سبحانه ؟ .

ب ـ قال سبحانه : ﴿ السَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعوا أَيْدِيَهُما ﴾(١)

فاختلفت الأُمّة في موضع القطع ، فمن قائل بأنّ القطع من أُصول الأصابع ، وعليه الإمامية ، ومن قائل بأنّ القطع من المفصل ، بين الكفّ والذراع ، وعليه الأئمة الثلاثة ، أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي . ومن قائل بأنّ القطع من المنكب ، كما عليه الخوارج(٢) .

ج ـ قال سبحانه : ﴿ وإنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كلالَةً أو إمرأةٌ وَلَهُ أَخٌ أو أُخْتٌ ، فَلِكُلِّ واحدٍ منهُما السُّدُسُ ﴾(٣) .

وفي آية أُخرى يحكم سبحانه بإعطاء الكلالة ، النصف أو الثُّلُثَيْن ، كما قال : ﴿ إنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فلها نِصْفُ ما تَرَكَ ، وهو يَرِثُها إنْ لَمْ يَكُنْ لها وَلَدٌ ، فإنْ كانتا اثْنَتَيْنِ فَلَهُما الثُّلُثانِ مِمّا تَرَكَ ﴾(٤) .

فما هو الحل ، وكيف الجمع بين هاتين الآيتين ؟ .

وأمّا الآيات المحتاجة إلى التفسير في مجال المعارف ، فحدّث عنها ولا حرج ، ويكفيك ملاحظة اختلاف الأُمّة في الصفات الخبرية ، والعَدْل ، والجَبْر والإختيار ، والهداية والضلالة . . .

وكم ، وكم من آياتٍ في القرآن الكريم تضاربت الأفكار في تفسيرها ، من غير فرق بين آيات الأحكام وغيرها .

وأمّا في مجال الإجابة على الموضوعات المستجدة ، فيكفي في ذلك الوقوف

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣٨ .

(٢) الخلاف ، كتاب السرقة ، ج ٣ ، المسألة ٣١ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٢ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٧٦ .

على أنّ التشريع الإسلامي كان يشق طريقه نحو التكامل بصورة تدريجية ، لأنّ حدوث الوقائع والحاجات الإجتماعية ، في عهد الرسول الأكرم ، كان يثير أسئلة ويتطلب حلولاً ، ومن المعلوم أنّ هذا النمط من الحاجة كان مستمراً بعد الرسول . غير أنّ ما ورثه المسلمون من النبي الأكرم لم يكن كافياً للإجابة عن جميع تلك الأسئلة .

أمّا الآيات القرآنية في مجال الأحكام ، فهي لا تتجاوز ثلاثمائة آية . وأمّا الأحاديث - في هذا المجال - فالذي ورثته الأُمّة لا يتجاوز الخمسمائة حديث .

وهذا القَدْر من الأدلة غير وافٍ بالإجابة على جميع الموضوعات المستجدة إجابة توافق حكم الله الواقعي ، ولأجل إيقاف الباحث على نماذج من هذه القصورات ، نذكر بعضها :

أ - رفع رجل إلى أبي بكر وَقَدْ شرب الخمر ، فأراد أن يقيم عليه الحدّ ، فادّعى أنّه نشأ بين قوم يستحلّونها ، ولم يعلم بتحريمها إلى الآن ، فتحيّر أبو بكر في حكمه[1] .

ب - مسألة العول شغلت بال الصحابة فترة من الزمن ، وكانت من المسائل المستجدة التي واجهت جهاز الحكم بعد الرسول ، وقد طرحت هذه المسألة أيام خلافة عمر بن الخطاب ، فتحيّر ، فأدخل النقص على الجميع استحساناً ، وقال : « والله ما أدري أيُّكم قدّم الله ولا أيُّكم أخَّر ، ما أَجد شيئاً أوسع لي من أنْ أُقسّم المال عليكم بالحصص ، وأُدخل على ذي حقّ ما أُدخل عليه من عول الفريضة »[2] .

ج - سئل عمر بن الخطاب عن رجل طلّق امرأته في الجاهلية ، تطليقتين ،

(١) الكافي ، ج ٧ ، كتاب الحدود ، ص ٢٤٩ ، الحديث ٤ . الإرشاد للمفيد ، ص ١٠٦ ، مناقب ابن شهر آشوب ، ص ٤٨٩ .

(٢) أحكام القرآن ، للجصاص ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، ومستدرك الحاكم ، ج ٤ ، ص ٣٤٠ . راجع في توضيح حقيقة العول المصدرين المذكورين والكتب الفقهية في الميراث .

وفي الإسلام تطليقة ، فهل تضم التطليقتان إلى الثالثة ، أو لا ؟ فقال للسائل « لا آمرك ولا أنهاك »[١] .

هذا ، ولا نعني من ذلك أنّ الشريعة الإسلامية ، ناقصة في إيفاء أغراضها التشريعية ، وشمول المواضيع المستجدة ، أو المعاصرة لعهد الرسول ، بل التشريع الإسلامي كان وافياً بالجميع ببيان سوف نشير إليه[٢] .

والذي يكشف عمّا ذكرنا ، أنّه اضطرّ صحابة النبي منذ الأيام الأُولى من وفاته صلوات الله عليه وآله ، إلى إعمال الرأي والإجتهاد في المسائل المستحدثة ، وليس اللجوء إلى الإجتهاد بهذا الشكل ، إلاّ تعبيراً واضحاً عن عدم استيعاب الكتاب والسنّة النبوية للوقائع المستحدثة ، بالحكم والتشريع ، ولا مجال للإجتهاد وإعمال الرأي فيما يشمله نصٌّ من الكتاب أو السنّة بحكم ، ولذلك أحدثوا مقاييس للرأي ، واصطنعوا معايير جديدة للإستنباط ، وألواناً من الإجتهاد ، منه الصحيح المتّفق عليه ، يصيب الواقع حيناً ، ويخطئه أحياناً ، ومنه المُريب المختلف فيه . وكان القياس أوّل هذه المقاييس وأكثرها نصيباً من الخلاف ، والمراد منه إلحاق أمر بآخر ، في الحكم الثابت للمقيس عليه ، لاشتراكهما في مناط الحكم المستنبط . وكان القياس بهذا المعنى (دون منصوص العلة) مثاراً للخلاف بين الصحابة ، والعلماء ، فقد تبنّته جماعة من الصحابة والتابعين ، وأنكرته جماعة أُخرى ، وعارضوا الأخذ به ، منهم الإمام علي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وأئمة أهل البيت ، ثم اصطنعوا بعد ذلك معايير أخرى ، منها المصالح المرسلة ، وهي المصالح التي لم يُشرّع الشارع حكماً بتحقيقها ، ولم يدلّ دليل شرعي على اعتبارها أو إلغائها .

وهناك مقاييس أُخرى ، كسدّ الذرائع ، والإستحسان ، وقاعدة شَرْع من

---

(١) كنز العمال ، ج ٥ ، ص ١١٦ .

(٢) حاصله أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلّم كان يراعي في إبلاغ الحكم حاجة الناس ، ومقتضيات الظروف الزمنية ، فلا بد ـ في إيفاء غرض التشريع ـ أن يستودع أحكام الشريعة من يخلفه ، ويقوم مقامه ، لإيفاء أغراضه التي لم يقدّر له تحقيقها في حياته الكريمة .

قبلنا ، وما إلى ذلك من القوانين والأصول الفقهية ، التي اضطرّ الفقهاء إلى اصطناعها عندما طرأ على المجتمع الإسلامي ألوان جديدة من الحياة لم يألفوها ، ولم تكن النصوص الشرعية من الكتاب والسنّة لتشمل تلك المظاهر الإجتماعية المستحدثة بحكمٍ ، ولم يجد الفقهاء بدّاً من الإلتجاء إلى إعمال الرأي والإجتهاد في مثل هذه المسائل ممّا لا نصّ فيه من كتاب أو سنّة ، وتشعبت بذلك مدارس الفقه الإسلامي ، وبَعُدَت الشُّقة بينها ، وتبلورت تلك المعاني إثر التضارب الفكري الذي حصل بين هذه المدارس ، وصيغت الأفكار في صيغ علمية محددة ، بعدما كان يغلب عليها طابع التذبذب والإرتباك .

وذلك كلّه يدلّ على عدم وفاء نصوص الكتاب والسنّة ، بما استجدّ للمسلمين بعد عصر الرسالةِ ، من مسائل ، أو ما جدّ لهم من حاجة .

وهناك نكتة تاريخية توقفنا على سرّ عدم إيفاء الكتاب والسنّة بمهمة التشريع ، وهي أنّ مدّة دعوته صلى الله عليه وآله لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين عاماً ، قضى منها ثلاثة عشر سنة في مكة يدعو المشركين فيها . ولكن عنادهم جعل نتائج الدعوة قليلة . فلأجل ذلك لم يتوفق لبيان حكم شرعي فرعي إلّا ما ندر . ومن هنا نجد أنّ الآيات التي نزلت في مكة تدور في الأغلب حول قضايا التوحيد والمعاد ، وإبطال الشرك ومقارعة الوثنية ، وغيرها من القضايا الإعتقادية ، حتى صار أكثر المفسّرين يميّزون الآيات المكيّة عن المدنية بهذا المعيار .

ولما انتهت دعوته إلى محاولة اغتياله ، هاجر إلى يثرب ، وأقام فيها العشرة المتبقية من دعوته تمكّن فيها من بيان قسم من الأحكام الشرعية لا كلّها ، وذلك لوجوه :

١ ـ إنّ تلك الفترة كانت مليئة بالحوادث والحروب ، لتآمر المشركين والكفّار ، المتواصل على الإسلام وصاحب رسالته والمؤمنين به . فقد اشترك النبي في سبعة عشر غزوة كان بعضها يستغرق قرابة شهر ، وبعث خمساً وخمسين سرية لقمع المؤمرات وإبطالها ، وصدّ التحركات العُدْوانية .

٢ ـ كانت إلى جانب هذه المشاكل ، مشكلة داخلية يثيرها المنافقون الذين

كانوا بمنزلة الطابور الخامس ، وكان لهم دور كبير في إثارة البلبلة في صفوف المسلمين ، وخلق المتاعب للقيادة من الداخل . وكانوا بذلك يفوّتون الكثير من وقت النبي الذي كان يمكن أن يصرف في تربية المسلمين وإعدادهم وتعليمهم على حلّ ما قد يطرأ على حياتهم ، أو يستجد في مستقبل الأيام .

٣ ـ إنّ مشكلة أهل الكتاب ، خصوصاً اليهود ، كانت مشكلة داخلية ثانية ، بعد مشكلة المنافقين ، فقد فوّتوا من وقته الكثير ، بالمجادلات والمناظرات ، وقد تعرّض الذكر الحكيم لناحية منها ، وذُكر قسمٌ آخر منها في السيرة النبوية[١] .

٤ ـ إنّ من الوظائف المهمة للنبي عقد الإتّفاقيات السياسية والمواثيق العسكرية الهامة التي يزخر بها تاريخ الدعوة الإسلامية[٢] .

إنّ هذه الأمور ونظائرها ، عاقت النبي عن استيفاء مهمة التشريع .

على أنّه لو فرضنا تمكن النبي من بيان أحكام الموضوعات المستجدة ، غير أنّ التحدّث عن الموضوعات التي لم يعرف المسلمون شيئاً من ماهياتها وتفاصيلها في عهد الرسول ، وإنّما كانت تحدث بصورة طبيعية شيئاً فشيئاً ، أمر صعب للغاية ، ولم يكن في وسع المسلمين أن يدركوا معناه .

فحاصل هذه الوجوه توقفنا على أمر محقق ، وهو أنّه لم يقدر للنبي استيفاء مهمة التشريع ، ولم يتسنّ للمسلمين أن يتعرّفوا على كل الأحكام الشرعية المتعلقة بالحوادث والموضوعات المستجدة .

وأمّا في مجال ردّ الشبهات والتشكيكات وإجابة التساؤلات ، فقد حصل فراغ هائل بعد رحلة النبي من هذه الناحية ، فجاءت اليهود والنصارى تترى ، يطرحون الأسئلة ، ويشوّشون بها أفكار الأُمّة ، ليخربوا عقائدها ومبادئها ، ونذكر من ذلك :

---

(١) لاحظ السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ١ ، ص ٥٣٠ ـ ٥٨٨ ، ط الحلبي ـ مصر ـ ١٣٧٥ .

(٢) لاحظ كتاب الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ، و« مكاتيب الرسول » .

وفود أُسقف نجران على عمر ، وطرح بعض الأسئلة عليه(1) .

وفود جماعة من اليهود على عمر ، وطرح بعض الشبهات(2) .

وفود جماعة من اليهود على عمر ، وطرح بعض الأسئلة عليه(3) .

سؤال عويص ورد من الروم على معاوية يلتمس الجواب عنه(4) .

أسئلة وردت من جانب البلاط الروماني إلى معاوية(5) .

وغير ذلك من الوفود والأسئلة التي لم يكن هدفها إلّا التشكيك في الدين وإيجاد التزلزل في عقيدة المسلمين .

وأمّا في جانب صيانة المسلمين عن التفرقة والإختلاف، والدين عن الإنحراف ، فقد كانت الأُمّة الإسلامية في أشدّ الحاجة بعد النبي إلى من يصون دينها عن التحريف ، وأبناءها عن الإختلاف ، فإنّ التاريخ يشهد دخول جماعات عديدة من أحبار اليهود ورهبان النصارى ومُؤْبدي المجوس ، ككعب الأحبار ، وتميم الدّاري ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام ، وبعدهم الزنادقة ، والملاحدة ، والشعوبيون ، فراحوا يدسّون الأحاديث الإسرائيلية ، والأساطير النصرانية ، والخرافات المجوسية بينهم ، وقد ظلّت هذه الأحاديث المدسوسة ، تُخيّم على أفكار المسلمين ردحاً طويلاً من الزمن ، وتؤثّر في حياتهم العلمية ، حتى نشأت فِرَق وطوائف في ظِلّ هذه الأحاديث .

وممّا يوضح عدم تمكّن الأمّة من صيانة الدين الحنيف عن التحريف وأبنائها عن التشتت ، وجود الروايات الموضوعة والمجعولات الهائلة . ويكفي في ذلك أنّ يذكر الإنسان ما كابده البخاري من مشاقّ وأسفار في مختلف أقطار الدولة

---

(1) تذكرة الخواص ، لابن الجوزي ، المتوفى عام ٦٥٦ ، ص ١٤٤ .

(2) قضاء أمير المؤمنين ، ص ٦٤ .

(3) علي والخلفاء ، ص ٣١٣ .

(4) المصدر نفسه .

(5) قضاء أمير المؤمنين ، ص ٧٨ و ١١٤ .

الإسلامية ، وما رواه بعد ذلك . فإنّه ألفى الأحاديث المتداولة بين المحدثين في الأقطار الإسلامية ، تربو على ستمائة ألف حديث ، لم يصحّ لديه منها أكثر من أربعة آلاف ، ومعنى هذا أنّه لم يصحّ لديه من كل مائة وخمسين حديثاً إلّا حديث واحد ، وأمّا أبو داود فلم يصحّ لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة ، وكذلك كان شأن سائر الذين جمعوا الحديث . وكثير من هذه الأحاديث التي صحّت عندهم ، كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم[١]

قال العلامة المتتبع الأميني : ويُعرب عن كثرة الموضوعات اختيار أئمة الحديث أخبار تآليفهم ـ الصحاح والمسانيد ـ من أحاديث كثيرة هائلة ، والصفح عن ذلك الهوش الهائش ، فقد أتى أبو داود في سننه بأربعة آلاف وثمانمائة حديث ، وقال انتخبته من خمسمائة ألف حديث[٢] . ويحتوي صحيح البخاري من الخالص بلا تكرار ، ألفي حديث وسبعمائة وواحد وستين حديثاً ، إختاره من زهاء ستمائة ألف حديث[٣] . وفي صحيح مسلم أربعة آلاف حديث أُصول دون المكررات ، صنفه من ثلاثمائة ألف[٤] . وذكر أحمد بن حنبل في مسنده ثلاثين ألف حديث ، وقد انتخبه من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث ، وكان يحفظ ألف ألف حديث[٥] . وكتب أحمد بن فرات ، المتوفى عام ٢٥٨ ، ألف ألف وخمسمائة ألف حديث ، فأخذ من ذلك ثلاثمائة ألف في التفسير والأحكام والفوائد وغيرها[٦] .

فهذه الموضوعات على لسان الوحي ، تقلع الشريعة من رأس وتقلب

---

(١) لاحظ حياة محمد ، لمحمد حسين هيكل ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ، الطبعة الثالثة عشر .

(٢) طبقات الحفاظ ، للذهبي ، ج ٢ ، ص ١٥٤ . تاريخ بغداد ، ج ٢ ص ٥٧ . المنتظم لابن الجوزي ، ج ٥ ، ص ٩٧ .

(٣) إرشاد الساري ، ج ١ ، ص ٢٨ . صفة الصفوة ، ج ٤ ، ص ١٤٣ .

(٤) المنتظم ، لابن الجوزي ، ج ٥ ، ص ٣٢ . طبقات الحفاظ ، للذهبي ، ج ٢ ، ص ١٥١ . شرح صحيح مسلم للنووي ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(٥) ترجمة أحمد ، المنقولة من طبقات إبن السبكي ، المطبوعة في آخر الجزء الأول من مسنده ، طبقات الذهبي ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(٦) خلاصة التهذيب ، ص ٩ . نقلناه برمّته متناً وهامشاً من الغدير ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

الأُصول ، وتتلاعب بالأحكام ، وتشوش التاريخ ، أوَ ليس هذا دليلاً على عدم وفاء الأُمّة بصيانة دينها عن التشويش والتحريف ؟ .

* * *

هذا البحث الضافي يثبت حقيقة ناصعة ، وهي عدم تمكّن الأُمّة ، مع مالها من الفضل ، من القيام بسدّ الفراغات الهائلة التي خلّفتها رحلة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا مناص من تعيّن الإحتمال الثالث ، وهو سدّ تلك الثغرات بفرد مثالي يمارس وظائف النبي في المجالات السابقة ، بعلمه المستودع فيه ، ويكون له من المؤهلات ما للنبي الأكرم ، سوى النبوّة ، وسوى كونه طرفاً للوحي .

إنّ الغرض من إرسال الأنبياء هي الهداية الإلهية لبني البشر ، إلى الكمال في الجانبين المادي والروحي . ومن المعلوم أنّ هذه الغاية لا يحصل عليها الإنسان إلاّ بالدين المكتمل أُصولاً وفروعاً ، المصون من التحريف والدسّ . وما دام النبي حيّاً ، بين ظهرانيّ الأُمّة ، تتحقق تلك الغاية بنفسه الشريفة ، وأمّا بعده فيلزم أن يخلفه إنسان مثله في الكفاءات والمؤهّلات ، ليواصل دفع عجلة المجتمع الديني في طريق الكمال ، ويحفظه من الإنقلاب على الأعقاب ، والتقهقر إلى الوراء . ووجود إنسان مثالي ، كالنبي في المؤهلات ، عارف بالشريعة ومعارف الدين ، ضمان لتكامل المجتمع ، وخطوة ضرورية في سبيل ارتقائه الروحي والمعنوي . فهل يسوغ على الله سبحانه أن يهمل هذا العامل البنّاء ، الهادي للبشرية إلى ذَرْوَة الكمال .

إنّ الله سبحانه جهّز الإنسان بأجهزة ضرورية ، وأجهزة كمالية . حتى أنّه قد زوّده بالشعر على أشفار عينيه وحاجبيه ، وقَعْر أُخمص قدميه ، كل ذلك لتكون حياته سهلة لذيذة غير متعبة ، فهل ترى أنّ حاجته إلى هذه الأُمور أشدّ من حاجته إلى خَلَف حامل لعلوم النبوة ، قائم بوظائف الرسالة .

وما أجمل ما قاله أئمة أهل البيت في فلسفة وجودهذا الخلف ، ومدى تأثيره في تكامل الأُمّة :

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم لله : بحجة ، إمّا ظاهراً مشهوراً ، وإمّا خائفاً مغموراً ، لِئلاّ تَبْطُلَ حُجَجُ الله وبيِّناتُه »[1] .

وقال الإمام الباقر عليه السلام : « إنّ الله لم يدع الأرض بغير عالِم ، ولولا ذلك لما يعرف الحق من الباطل »[2] .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : « إنّ الأرض لا تخلو وفيها إمام ، كيما زاد المؤمنون شيئاً ردَّهم ، وإذا نَقَصوا شيئاً أَتَمَّه لَهُم »[3] .

هذه المأثورات من أئمة أهل البيت ، تُعرب عن أنّ الغرض الداعي إلى بعثة النبي ، داعٍ إلى وجود إمام يخلف النبي ، في عامة سماته ، سوى ما دلّ القرآن على انحصاره به ، ككونه نبيّاً رسولاً وصاحب شريعة .

نعم ، إنّ كثيراً ممّن ليست لهم أقدام راسخة في أبواب المعارف ، يصعب عليهم تصوُّر إنسان مثالي يحمل علوم النبوة ، وليس بنبي ؛ ويقوم بوظائفها الرسالية ، وليس برسول ؛ يحيط بمعارف الشريعة وأحكامها ، وليس طرفاً للوحي ؛ ويصون الشريعة من التحريف والدسّ ، ويردّ تشكيكات المبطلين ، وليس له صلة بسماء الوحي . ولأجل ذلك يثيرون في وجهه إشكالين ، لا بُدَّ من ذكرهما ، والإجابة عنهما .

الإشكال الأول

إنّ الفرد الجامع لهذه الخصائص ، لا يفترق عن النبي ، فتصبح الإمامة عندئذٍ ، مرادفة للنبوّة ، مع أنّ أدلّة الخاتمية قطعت طريق هذا الإحتمال[4] .

(١) نهج البلاغة ، قسم الحِكَمْ ، الرقم ١٤٧ .
(٢) الكافي ، ج ١ ، ص ١٧٨ .
(٣) الكافي ، ج ١ ، ص ١٧٨ .
(٤) وقد عرفت عن صاحب المواقف أنّه اعترض على تعريف الإمامة بأنّها رئاسة عامة في أُمور الدين والدنيا ، بالنقض بالنبوة ، ص ٣٤٥ .

الجـــواب

إنّ الفرق بين النبوّة ، واحتضان علوم النبي الأكرم ، واضح ، لا يحتاج إلى البيـان ، فإنّ مقـوم النبوّة عبـارة عن كون النبي طـرفاً للوحي ، يسمـع كـلام الله تعالى ، ويرى رسـوله ، ويكـون صاحب شريعـة مستقلة ، أو مروجـاً لشريعة مَنْ قبله .

وأمّا الإمام فهو الخازن لعلوم النبوة في كل ما تحتاج إليـه الأُمّة ، من دون أن يكون طرفاً للوحي ، أو سامعاً كلامه سبحانه ، أو رائياً المَلَك الحامل له .

نعم ، المهم هو الوقوف على أنّ في وسعه سبحانه أنْ يربي للأُمّة ، في حضن النبي الأكرم ، رجلاً مثالياً يـأخذ علوم النبي بتعليم غيبي يفي بـوظائف الـرسالـة بعد رحلته ، حتى يسدّ الفراغات العلمية الحاصلة برحلته .

وبمـا أنّ المستشكل ، ومن تبعـه ، بـريئـون من هـذه المعـارف ، ويخصّـون التعليم ، بـالوسـائل العـادية ، يتعجبـون من بلوغ إنسان ذلـك الحـدّ من الكـمال والعلم ، من دون أن يدخُلَ مدرسةً ، أو يخضع أمام شيخ ، إلاّ أنْ يكون نبيّاً .

وإنّ القرآن الكريم يحدّثنا عن أُناس مثاليـين نالـوا الذروة من العلوم بتعليم غيبي ، مـع أنّهم لم يكونـوا أنبياء ، **كمصـاحبِ موسى** عليـه السلام الـذي يقول سبحانه في شأنه : ﴿ **فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا ، آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ، وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً** ﴾[1] .

ولم يكن المصاحب نبيّاً ، بل كان وليّـاً من أولياء الله سبحـانه ، بلغ الـذّروة من العلم ، حتى قال له موسى ـ وهو نبي مبعوث بشريعة : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عـلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً** ﴾ ؟[2] .

وجليس سليمان عليه السلام ، الذي يقول سبحانه في شأنه : ﴿ **قال الـذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتاب أنـا آتِيكَ بِـهِ قَبْلَ أَنْ يَـرْتَدَّ إِلَيْـكَ طَرْفُـكَ ، فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِراً**

---

(١) سورة الكهف : الآية ٦٥ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٦٦ .

عِنْدَهُ قَالَ هَذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي . . . ﴾[1] .

وهـذا الجليس لم يكن نبيّـاً ، ولكن كـان صـاحب علم من الكتـاب ، ومن المعلوم أنّ هـذا العلم لم يحصل لـه من الـطرق العـاديـة التي يـدرج عليهـا الأولاد والشبّـان في الكتاتيب والمـدارس ، وإنّما هـو علم إلهي احتضنه بليـاقته وكفـاءته ، ولأجل ذلك يَنْسِبُ علمَه إلى فَضْل ربّه ويقول : ﴿ هذا مِنْ فَضْلِ رِبِّي ﴾ .

والشـاهدِ عـلى رسالـة النبي ، إلى جانب شهـادته سبحـانه ، الـذي يقـول سبحانه في شأنه : ﴿ وَيَقولُ الذينَ كَفَروا لَسْتَ مُرْسلاً ، قُلْ كفىٰ بالله شَهيداً بَيْني وبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ ﴾[2] .

والسورة مكية على ما يدلّ عليه سيـاق آياتهـا ، ونقل عن الكلبي أنّـه قال : « إنّها مكية إلّا هذه الآية » ، ويدفعه أنّها مختتم السورة ، قوبل بها ما في مفتتحها ، أعني قوله سبحانه : ﴿ ألمر ، تِلْكَ آياتُ الكِتـابِ ، والذي أُنْـزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَّبِّـكَ الحَقُّ ، ولكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنـونَ ﴾[3] ، فيبعد جـداً أن يفرق بـين المتقابلين بأعوام .

فعندئذٍ يجب الإمعان في هذا الشاهد الذي عطفه سبحانه على نفسه ، وعدَّه شاهداً على رسالة النبي كشهادة نفسه سبحانه . أفيصحّ أن يقال إنّ المراد ، القـوم الذين أسلموا في المدينة ، كعبد الله بن سلام ، وتميم الداري ، وسلمان الفارسي ، مع أنّ الآية نزلت في مكّة ؟ .

على أنّ عطف هؤلاء في الشهـادة ، على الله سبحـانه ، لا يخلو من غمـوض وإبهام . فلا بدّ أن يكون المـراد من الشاهـد هنا إنسـاناً مثـالياً ، كـان موجـوداً في مكة ، وهو أعلم الناس بالكتاب ، حتى يصحّ أن يجعل عِدلاً آخـر للشهادة ، ولا يكون هذا الإنسان إلّا من تربّى في حجر النبوة وحِضْنها ، وتَحَمَّل علومَهـا ، بتعليم غيبي إلهي ، لا بتعليم بشري عادي .

---

(١) سورة النمل : الآية ٤٠ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٤٣ .

(٣) سورة الرعد : الآية ١ .

هذا وذاك ، وغيرهما مما لم نذكره ، وجاء في الحديث والتاريخ ، يعرب عن أنّ التعليم الغيبي لا يختصّ بالأنبياء ، وأنّ هناك رجالاً صالحين ، يحملون علوم النبوة ويحتضنونها بفضل من الله سبحانه ، لغايةٍ قدسيةٍ هي إبلاغ الأُمّة الغايةُ من الكمال ، وإيصاد الثغرات الهائلة التي تخلفها رحلة النبي .

الإشكال الثاني

إذا شهد التاريخ ، والمحاسبات الإجتماعية ، بعدم استيفاء النبي لمهمة التشريع ، فما معنى قوله سبحانه : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً** ﴾[1] ؟ .

الجواب

إنّ السؤال مبني على تفسير الدين بالأحكام الشرعية ، وحمل الإكمال على بيانها . وذلك غير صحيح لوجوه :

الأول ـ إنّ كثيراً من المفسّرين ، فسّروا اليومَ ، بيوم عَرَفة ، مِنْ عام حجة الوَداع[2] . ومن المعلوم أنّ هناك روايات كثيرة لا يُستهان بها عدداً تدلّ على نُزولِ أحكام وفرائض بعد ذلك اليوم ، منها أحكام الكلالة ، المذكورة في آخر سورة النساء[3] ، ومنها آيات الربا[4] ، حتى روي عن عمر أنّه قال في خطبة خطبها : « من آخر القرآن نزولاً آية الربا ، وإنّه مات رسولُ الله ولم يبيّنه لنا ، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم »[5] . وروى البخاري في الصحيح ، عن ابن عباس ،

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٢) لاحظ تفسير الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٤ ، تفسير الرازي ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٧٦ .

(٤) سورة البقرة : الآيات ٢٧٥ ـ ٢٧٨ .

(٥) الدر المنثور ، للسيوطي ، ج ١ ، ص ٣٦٥ . ولاحظ تفسير الرازي ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ ، ط مصر في ثمانية أجزاء .

قال : « آخر آية أنزلها الله على رسوله ، آية الربا »[١] ، وغير ذلك من الروايات .

الثاني ـ إنّ تفسير الدين بالأحكام ، وإكمالها بالبيان وأنّه تحقق في يـوم عرفـة من عام حجّ الوداع ، لا ينسجم مع سـائر فقـرات الآية ، فـإنّ الآية تخـبر عن يوم تحققت فيـه أمور ثـلاثة : يـأس الكفار من دين المسلمـين ، وإكمال الـدين وإتمـام النعمة .

توضيح ذلك إنّه إن أراد من الكفار ، كفار العرب ، القاطنين في الجزيرة ، فالإسلام كان قد عمّهم يوم ذاك ، ولم يكن فيهم من يتظاهر بغير الإسـلام ، فمَنْ هؤلاء الكفار اليائسون ؟ فإنّ سورة البراءة ، وتلاوتها يوم عيد الأضحى ، في العام التاسع للهجـرة ، صارت سببـاً لنفوذ الإسـلام في كل أصقـاع الجزيـرة ، ورفض الشرك ونبذ عبادة الأوثـان ، رغبةً أو رهبـة ، ولم يبق مشرك إلاّ وقد كَسَرَ صنمـه ، ولا عابد وثن إلاّ وقد تحوّل إلى عبادة الله تعالى طمعاً أو خوفاً ، فلم يبق هناك كافر يئس من دين المسلمين .

وإن أراد سائر الكفار من الأُمم ، من العرب وغيرهم ، فلم يكونوا يائسـين يومئذٍ من الظهور على المسلمين .

فعلينا أن نتفحص عن يوم تتحقق فيه هذه الأُمور الثلاثة ، كما سيبين .

الثالث ـ إنّ ما ذكر لا ينسجم مع ما رواه عدّة من المحدثين من نـزولها يـوم الثامن عشر من ذي الحجة ، في السنة العـاشرة للهجرة ، عنـدما نصب النبي عليّـاً للولاية ، وقال : « من كنت مولاه فهذا علي مولاه »[٢] .

ويعرب عن صحة ذلك ما ذكره الرازي ، قال : « قال أصحـاب الآثار إنّـه

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .

(٢) لاحظ في الوقوف على مصادر نزول الآية يـوم الغدير ، كتاب الغـدير ، ج ١ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٨ ، وقـد رواه عن ستة عشر محـدثاً ، منهم أبـو جعفر الـطبري ، وابن مردويـه الأصفهاني ، وأبـو نعيم الأصفهاني ، والخطيب البغدادي ، وأبو سعيـد السجستاني ، وأبـو الحسن المغازلي ، وأبـو القاسم الحسكـاني ، وابن عسـاكـر الـدمشقي ، وأخـطب الخـطبـاء الخـوارزمي ، وغـيرهم من أعـاظم المحدثين .

لمّا نزلت هـذه الآية عـلى النبي صلى الله عليـه وآله ، لم يعمّـر بعد نـزولها إلاّ أحـداً وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً ، ولم يحصل بعدها زيادة ولا نسخ وتبديل البتـة . وكـان ذلك جـارياً مجـرى إخبار النبي عن قـرب وفاتـه ، وذلك إخبـار عن الغيب فيكون معجزاً »[1] .

ومـا ذكره يؤيّـد كون النـزول يوم الغـدير ، أعني يـوم الثـامن عشر من ذي الحجـة ، لأنّه لـو فرض كـون الشهور الثـلاثة (ذي الحجـة ، ومحـرم ، وصفـر) نـاقصة ، لكـانت وفاتـه صلى الله عليـه وآله بعـد واحد وثـمانين يـوماً ، ولـو كان الشهـران (محرم وصفـر) ناقصـان ، لانطبق عـلى الإثنين والثـمانـين ، كـل ذلـك بملاحظة ما اتّفقت عليه كلمة الجمهور من أنّ النبي تـوفي يوم الثـاني عشر من شهر ربيع الأول .

والعجب أنّ الرازي غفل عن هذه الملازمة ، وأنّه لا يجتمـع مع نـزولها يـوم عرفة .

فعلى ذلك لا يصحّ تفسير الدين بالأحكام ، ولا الإكمال بالبيان . وفي ضـوء ذلك يمكن أن يقال إنّ المـراد من الدين هـو أُصولـه ، والمراد من الإكـمال ، تثبيت أركانه ، وترسيخ قواعده ، وذلك أنّ الكفار ، خصوصاً المستسلمين منهم ، كانـوا يـتربصون بـالنبي الدوائـر ، فإنّهم كـانوا يـنظرون إلى دعوتـه بأنّها مُلْكٌ في صـورة النبوة ، وسلطنة في ثوب الرسالة ، فإنْ مات أو قُتِلَ ، ينقطع أثـره ويموت ذكـره ، كما هو المشهور عادة ، من حـال السلاطـين ، وكان الكفـار يعيشون هـذه الأحلام والأماني التي تعطيهـم الرجاء في إطفاء نور الدين ، وعفّ آثاره عبر الأيام .

غـير أنّ ظهور الإسـلام ، تدريجيـاً ، وغلبته عـلى الكفـار والمشركـين ، بـدّد أحلامهم بالخيبـة ، فيئسوا من التغلّب عـلى النبي ودعوتـه ، فلم يبق لهم إلاّ حلم واحد ، وهو أنّه لا عقب له يخلفه في أمره ، فيموت دينه بمـوته . وكـان هذا الحلم يتغلغـل في أنفسهـم ، إلاّ أنّ الخيبة عمّتهم لمـا شاهـدوا خروج الـدين عن مـرحلة

---

(١) تفسير الرازي ، ج ٣ ، ص ٣٦٩ .

القيام بشخص النبي الأكرم إلى مرحلة القيام بشخص آخر مثالي يقوم مقامه ، فعند ذلك تحققت الأمور الثلاثة : يئسوا من زوال الدين ، بعد موته ، وكَمُل الدين بتنصيب مَنْ يحمل وظائف النبي ، وَتَمَّتْ نعمة الهداية إلى أهداف الرسالة بالوصي القائم مقامه .

فالمراد من إكمال الدين ، تحوّله من وصف الحدوث إلى وصف البقاء ، وكان ذلك العمل ، ردّاً لما يحكيه سبحانه عن الكفار بقوله : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يَرُدّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفّاراً ، حَسَداً مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيّنَ لَهُمُ الحَقُّ ، فاعْفُوا واصْفَحُوا حتى يأتِيَ الله بأمْرِهِ إنَّ الله على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ ﴾(١) . ولعلّ المراد من قوله : ﴿ يأتِيَ الله بأمْرِهِ ﴾ ، هو ما حدث في ذلك اليوم .

وعلى ذلك ، فتنسجم الجمل الثلاث ، ويرتبط بعضها ببعض ، فالدين الذي أكمله الله اليوم ، والنعمة التي أتمّها الله اليوم ، أمرٌ واحدٌ بحسب الحقيقة ، وهو الذي كان يطمع فيه الكفار ، ويخشاهم فيه المؤمنون ، فآيسهم الله منه ، وأكمله وأتمّه ، ونهاهم عن الخشية منهم ، وقال : ﴿ فلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ .

* * *

هذه هي حقيقة الإمامة ، والإمام عند الشيعة ، وبذلك يعلم اختلاف ما يتبنونه مع ما هو المعروف عند أهل السنّة ، ومن المعلوم أنّ كُلّاً من المعنيين يستدعي لنفسه شروطاً خاصّة ، والشروط عند الشيعة الإمامية أكثر ممّا اتّفقت عليه كلمة أهل السنّة ، أهمها إحاطته بأصول الشريعة وفروعها ، والمعرفة التامّة بكتاب الله ، وسنّة نبيّه ، وقدرته على دفع الشبهات ، وصيانة الدين ، يكون كلامه هو القول الفصل بين الأمّة ، ولا تفترق هذه الشروط عن كونه معصوماً ، لا يضلّ في تعليم الأمّة .

قال الشيخ الرئيس ابن سينا في لزوم نصب الإمام من جانب النبي : « ثم إنّ هذا الشخص الذي هو النبي ، ليس ممّا يتكرر وجود مثله في كل وقت ، فإنّ

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٩ .

المادة التي تقبل كمال مثله ، تقع في قليل من الأمزجة ، فيجب لا محالة أن يكون النبي قد دَبّر لبقاء ما يَسُنُّه ويُشَرِّعُه في أمور المصالح الإنسانية ، تدبيراً عظيماً »[1] .

* * *

(١) الشفاء ، ح ٢ ، الفن الثالث عشر في الإلهيات ، المقالة العاشرة ، الفصل الثالث ، ص ٥٥٨ .

الأمر السابع

المصالح العامة ، وصيغة الحكومة بعد النبي

يسود بين المسلمين ، في صيغة الحكومة وقيادة الأُمّة بعد النبي ، رأيان واتجاهان :

الأول : أنّ صيغة الحكومة صيغة التنصيب ، وأنّ الإمام بعد النبي يعين عن طريق الرسول بأمر من الله سبحانه .

الثاني : تفويض الأمر إلى اختيار الأُمّة ، وانتخابها بشكل من الأشكال التي ستوافيك .

والبحث في المقام : يرجع إلى محاسبة مصالح الأُمّة الإسلامية آنذاك ، فهل كانت تقتضي تحقيق النظرية الأولى ، وهي نظرية النصّ على شخص أو أشخاص معينين ، أو تقتضي ترك مسألة الخلافة إلى رأي الأُمّة ؟ .

والحقُّ أنّ هنا أموراً تدلّ على أنّ مصلحة الأُمّة آنذاك ، كانت تتطلب تنصيب الإمام والقائد الذي يخلف النبي ، وتعيينه بلسانه في حياته ، وكان في ترك هذا رمي للأُمّة أمام أكبر المخاطر ، وإليك بيان تلك الأُمور :

الأول : الأُمة الإسلامية والخطر الثلاثي

إنّ الدولة الإسلامية ، التي أسسها النبي الأكرم صلوات الله عليه ، كانت

محاصرة حال وفـاة النبي من جهتي الشمال والشرق ، بـأكبر امـبراطوريتـين عرفهـما تاريخ تلك الفترة ، وكانتا على جانب كبير من القوة والبأس ، وهما الروم وإيران ؛ هذا من الخارج .

وأمّا من الداخل ، فقد كان الإسلام والمسلمون يعانـون من وطأة مؤامـرات المنافقين الذين كانـوا يشكّلون جبهة عـدّوانية داخليـة ، أشبه بمـا يسمّى بالـطابور الخامس .

ويكفي في خـطورة إمبراطـورية إيـران أنّه كتب ملكهـا إلى عامله باليمـن ـ بعـدما وصلت إليـه رسالـة النبي تـدعـوه إلى الإسـلام والتسليم ، ومـزّقهـا ـ : « إبعث إلى هـذا الـرجـل بـالحجـاز ، رجلين من عنـدك ، جَلِدين ، فليـأتيـاني به »[1] .

وكفى في خـطورة موقف الإمـبراطوريـة البيزنـطية ، أنّـه وقعت إشتباكـات عديدة بينها وبين المسلمين في السنة الثامنة للهجرة ، منها غزوة مؤتة التي قتـل فيها قادة الجيش الإسلامي وهم جعفر بن أبي طالب ، وزيـد بن حارثـة ، وعبد الله بن رواحه ، ورجع الجيش الإسلامي من تلك الواقعة منهزماً ، وقد أثارت هزيمتهم في هذه المعركـة ، واستشهاد القـادة الثلاثـة ، نقمة شـديدة في نفـوس المسلمين تجـاه الروم ، ولأجل ذلك توجّه الرسول الأكرم بنفسـه على رأس الجيش الإسـلامي إلى تبوك في السنة التاسعة لمقابلة الجيوش البيزنطية ولكنه لم يلق أحداً ، فأقـام في تبوك أياماً ثم رجع إلى المدينة ، ولم يكتف بهذا بل جَهّزَ جيشـاً في أُخريـات أيّامـه بقيادة أسامَة بن زيد ، لمواجهة جيوش الروم .

وأمّا خطر المنافقين ، فحدّث عنه ولا حـرج ، هؤلاء أسلموا بـألسنتهم دون قلوبهم ، وأضمروا للمسلمين كلّ سوء ، وكانوا يتحينون الفرص لإضعاف الدولة الإسلامية ، بـإثارة الفتن الـداخلية ، كـما كانـوا يتربصـون الدوائـر لاغتيال النبي وقتله[2] .

---

(١) الكامل ، للجزري ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

(٢) لاحظ التفـاسير ، في تفسـير قولـه سبحانـه : ﴿ وَلَـئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُـولُنَّ إِنَّمَـا كُنَّـا نَخُـوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ =

ولقد انبرى القرآن الكريم لفضح المنافقين والتشهير بخططهم ضدّ الدين والنبي ، في العديد من السور القرآنية مثل البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والعنكبوت ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والمجادلة ، والحديد ، والحشر ، وقد نزلت في حقّهم سورة خاصة باسم المنافقين .

إنّ اهتمام القرآن بالتعرّض للمنافقين المعاصرين للنبي ، المتواجدين بين الصحابة ، أدلّ دليل على أنّهم كانوا قوّة كبيرة ويشكون جماعة وافرة ، ويلعبون دوراً خبيثاً ، خطيراً في تعكير الصف ، وإفساح المجال لأعداء الإسلام ، بحيث لولا قيادة النبي الحكيمة ، لقضوا على كيان الدين ، وأطاحوا بصرحه .

ويكفي في ذلك قوله سبحانه : ﴿ **لَقَدِ ٱبْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبوا لَكَ الأُمورَ ، حتى جاءَ الحَقُّ ، وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كارِهونَ** ﴾[1] .

وقد كان محتملاً ومترقَّباً أنْ يتحد هذا المثلث الخطير (الفُرسُ ، الروم ، المنافقون) ، لاكتساح الإسلام واجتثاث جذوره ، بعد وفاة النبي .

فمع هذا الخطر المحيق الداهم ، ما هي وظيفة القائد الحكيم الذي أرسى قواعد دينه على تضحيات عظيمة ، فهل المصلحة كانت تقتضي تنصيب قائد حكيم عارف بأحكام القيادة ووظائفها حتى يجتمع المسلمون تحت رايته ، ويكونوا صفاً واحداً في مقابل ذاك الخطر ، أو أنّ المصلحة العامة تقتضي تفويض الأمر إلى الأمّة ، حتى يختاروا لأنفسهم أميراً ، مع أنّ من المعلوم أن ترك الأمر إلى الأمّة في ذلك الوقت الحرج ، يلازم الشغب والإختلاف والتنافس الذي لم يكن لصالح الإسلام والمسلمين ، في الوقت الذي يعانون فيه من وفاة النبي ؟ .

فأقضِ ما أنت قاض .

= (سورة التوبة : الآية ٥٦) ، وكان المنافقون قد حاولوا اغتيال النبي الأكرم في العقبة ، عند عودته من تبوك .

(١) سورة التوبة : الآية ٤٨ .

الثاني ـ الحياة القَبَلية تمنع من الإتفاق على قائد

من أبرز ما كان يتميز بـه المجتمع العـربي في حياة النبي الأكـرم ، هو حيـاة النظام القبلي ، والتقسيمات العشائرية التي كانت تحتل ـ في ذلـك المجتمع ـ مكـانة كبرى .

وقد كان للقبيلة أكـبر الدور في الحيـاة العربيـة قبل الإسـلام وبعده ، وعـلى أساسها كانت تدور المفاخرات ، وتُنْشد القصائـد ، وتُبنى الأمجاد ، كـما كانت هي منشأ أكثر الحروب وأغلب المنازعات .

إنّ التاريخ يشهد لنا كيف كان التنازع القبلي في قضية بناء الكعبة المُشرَّفـة ، ووضـع الحجـر الأسـود في مـوضعـه أيـام الجـاهليـة ، أن يؤدي إلى الإختـلاف ، فالصراع الدموي ، والإقتتال المرير ، لولا تدخل النبي الأكرم[1] .

وقـد سعى النبي الأكـرم ، سعيـاً حثيثـاً ، لمحـو الـروح القبليـة ، وإذابـة الفوارق العشائرية ، وجمع تلك المتشتتات في بوتقة الإيمـان الموحّـد ، ولكن لم يكن من الممكن أن ينقلب النـظام القبلي في مـدة ثلاث وعشرين عـاماً إلى نـظام موحـد إسلامي ، لا يرى للإنتساب إلى القبيلة فخراً ، سوى التعرّف والتعريف[2] .

والشواهد على تغلغل العصبيات القبلية في نفوس أكثر الصحـابة ، كثـيرة ، ويكفي في ذلـك مـا ورد في غـزوة بني المصـطلق ، حيث تنـازع مهـاجـريٌ مـع أنصاريٍّ ، فصرخ الأنصاري : « يا معشر الأنصار » ، وصرخ الآخر : « يا معشر المهاجرين » . ولمّا سمع النبي هذه الكلمات قال : « دعـوها فـإنّها دعوىً ميتـة » . ولـولا قيادتـه الحكيمـة ، لخضب وجـه الأرض بـدمـاء المسلمـين من المهـاجـرين والأنصار[3] .

ومـا نقله ابن هشام من أن شعث بن قيس ، وكـان شيخاً من اليهـود ، مـرّ

---

(١) قد ذكرنا هذه القضية فيما تقدم .

(٢) إشارة إلى قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْناكُمْ شُعوباً وقبائلَ لِتعارَفوا ﴾ (سورة الحجرات : الآية ١٣)

(٣) صحيح البخاري ، ج ٥ ، ص ١١٩ ، باب غزوة بني المصطلق .

ذات يوم على نفرٍ من أصحاب الرسول ، من الأوس والخزرج ، فرآهم يتحدثون ، فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهم ، فأمر فتى شاباً من اليهود ، كان معهم ، فقال له : إعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بُعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل الشاب ذلك ، فأثّر كيد ذلك اليهودي الماكر في نفوس الأُخوة من المسلمين ، فغضب الفريقان ، وانتضوا أسلحتهم للقتال ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين ، وقال : « يا معشر المسلمين ، الله ، الله ، أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر » ؟[1] .

ومن ذلك الذي يدلّ على تعمّق رواسب القبلية في النفوس ، ما ذكره الشيخ البخاري في صحيحه ، في قصة الإفك ، قال : « قال النبي وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجلٍ قد بلغني عنه أذاه في أهلي ، والله ما علمت على أهلي إلّا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلّا خيراً ، وما يدخل على أهلي إلّا معي » .

قالت عائشة : فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال : أنا يا رسول الله أعذرك ، فإن كان من الأُوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا .

قالت عائشة : فقام رجل من الخزرج ، وهو سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ـ قالت عائشة ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية ـ فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر والله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل .

فقال أُسيد بن حضير ، وهو ابن عمّ سعد بن معاذ ، لسعد بن عبادة : كذبت لعمر والله ، لتقتلنّه ، فإنّك منافق تجادل عن المنافقين .

---

(١) السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٥٥٥ .

قـالت عائشـة : فصار الحيّـان (الأوس والخـزرج) حتى همـوا أن يقتتلوا ، ورسول الله صلى الله عليه وآله ، قائم على المنـبر ، ولم يزل رسـول الله ، يخفضهـم (أي يهدئهم) حتى سكتوا »[١] .

ولا يقل شاهداً على وجود هذه الرواسب في نفوس الكثيرين منهم ، ما ظهر منهم في يوم السقيفة من روح القبلية ، ونزعـة التعصّب ، وتبودل بينهم من الشتم والضرب ، وإليـك نقل القصـة عن لسـان عُمَـر ، قـال : « فقـال ممثـل الأنصـار (سعد بن عبادة) :

أمـا بعد فنحن أنصـار الله ، وكتيبة الإسـلام ، وأنتم يا معشر المهـاجرين ، رهط منا ، وقد دفت دافة من قومكم (أي جاء جماعة ببطء) وإذا هم يريـدون أن يختارونا (يدفعونا) من أصلنا ، ويغصبونا الأمر .

فقال أبو بكر[٢] : أمّا ما ذكرتم فيكم من خير ، فأنتم لـه أصل ولن تعـرف العرب هذا الأمر ، إلاّ لهذا الحي من قريش ، هم أوسط العرب نسباً وداراً .

ثم قال قائل من الأنصار : « أنا جذيلها المحكَّك ، وعُذَيْقُها المُرَجّب ، منّا أمير ومنكم أمير ، يا معشر قريش» . قال عمر : فكـثر اللغط وارتفعت الأصوات ، حتى تخوفت الإختلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعتـه ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار ونزونا على سعد بن عبادة ، فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عبادة ، قال : فقلت : قَتَل الله سعد بن عبادة »[٣] .

ولم يقتصر إختلاف الأُمّة على ما جرى في السقيفة ، بـل جرت بـين الأنصار والمهاجرين مشـاجرات كـلامية وشعـرية وهجـائية ، هـاجم كلٌّ الفـريق الآخر ، بأنواع الهجاء ، نقلها المؤرخون ولا يعجبني نقل كلمهم[٤] .

---

(١) صحيح البخاري ، ج ٥ ، ص ١١٩ ، باب غزوة بني المصطلق .

(٢) لم يكن يـوم السقيفة من المهـاجـرين إلاّ خمسـة أشخـاص ، ولأجـل ذلـك لم نصف القـائـل بممثـل المهاجرين .

(٣) السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٦٥٩ ـ ٦٦٠ . وإنّما بايعه الأوس من الأنصار ، وأما الخزرجيون ، فقد خرجوا غير مبايعين لأحد .

(٤) لاحظ شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ، ج ٦ ، ص ١٧ ـ ٣٨ ط مصر .

وما ذكرناه غيض من فيض ممّا جرى بين الصحابة من المنازعات والخلافات الناشئة من روح القبلية ، والتعصّب العشائري .

أفهل يجوز في منطق العقل ترك هذا المجتمع ، الغارق في نزاعاته العصبية ، دون نصب قائد ، يكون نصبه قاطعاً لدابر الإختلاف ، ومانعاً من مأساة التمزّق والتفرق ؟ فاقض ما أنت قاض .

وها هنا محاسبة ثالثة لا تقلّ عن العاملين السابقين في استلزامها كون المصلحة تقتضي نصب القائد ، لا تفويض الأمر إلى المسلمين أنفسهم ، وهي ما يلي :

الثالث ـ الصحابة ومدى الوعي الديني

إنّ الأُمّةَ الإسلامية ـ كما يدلّ عليه التاريخ ـ لم تبلغ في القدرة على تدبير أُمورها . وإدارة شؤونها حدّ الإكتفاء الذاتي الذي لا تحتاج معه إلى نصب قائد لها من جانب الله سبحانه . وقد كان عدم بلوغهم هذا الحدّ أمراً طبيعياً لأنّه من غير الممكن تربية أُمّة كانت متوغلة في العادات الوحشية ، والعلاقات الجاهلية ، والنهوض بها إلى حدٍّ تصير أُمّة كاملة تدفع عن نفسها تلك الرواسب ، وتستغني عن نصب القائد المحنّك ، والرئيس المدبّر ، بل هي تقدر على تشخيص مصالحها في هذا المجال .

إنّ إعداد مثل هذه الجماعة ، ومثل هذه الأُمّة ، لا تتم في العادة إلّا بعد انقضاء جيل أو جيلين ، وبعد مرور زمن طويل يكفي لتغلغل التربية الإسلامية إلى أعماق تلك الأُمّة ، بحيث تختلط مفاهيم الدين بدمها وعروقها ، وتتمكن منها العقيدة إلى درجة تحفظها من التذبذب والتراجع إلى الوراء .

ويكفيك شاهداً على هذا ، معركة أُحُد ، فقد هَرَبَ المسلمون ـ إلّا قليل ـ من ساحة المعركة عندما أُذيع نبأ قتل النبي من جانب الأعداء ، ولاذ بعضهم بالجبل ، بل فكّر بعضهم بالتفاوض مع المشركين ، حتى أتاهم أحد المقاتلين ووبّخهم على فرارهم وتخاذلهم وترددهم قائلاً : « إن كان محمد قد مات ، فَرَبُّ

محمد حي ، قوموا ودافعوا عن دينه »[1] وفي هذا نزل قوله سبحانه : ﴿ وما مُحَمَّـدٌ إلَّا رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَئن ماتَ أَوْ قُتِلَ انقلَبْتُمْ على أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ الله شَيْئاً وَسَيَجْزي الله الشاكِرينَ ﴾[2] .

ويقول سبحانه في شأن من ذهبوا يفتشون عن ملجأ لهم فراراً من الموت : ﴿ وطائِفَـةٌ قد أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، يَظُنُّونَ بالله غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّـةِ ، يقولـونَ : هَلْ لنا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾[3]

ولم تكن واقعة أُحُد وحيدة في نسجها ، بل كانت غزوة حُنَيْن على منوالها في التقهقر والفرار عن ساحة الحرب ، يقول ابن هشام عن جابر :

استقبَلْنا وادي حُنين ، وانحـدرنا في وادٍ من أَوْدِيَـةُ تهامـة ، وكان العـدو قد سبقونا إلى الوادي وكمنوا لنا في شعابه واحنائه ، ومضائقه ، وقد شدّوا علينا شـدّة رجل واحد ، وانهزم الناس راجعين لا يلوي أحـد على أحـد . وانحاز رسـول الله ذات اليمين وهو يقول : أين ، أيها الناس ؟ هلموا إليّ ، أنا رسول الله . فـانطلق الناس ، إلّا أنّه بقي مع رسول الله نفر من المهاجرين والأنصار ، فلما انهزم النـاس ورأى من كان مع رسول الله من جفاة أهـل مكة الهـزيمة ، تكلّم رجـال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقـال أبـو سفيـان بن حـرب : « لا تنتهي هــزيمتهم دون البحـر » ، وإنّ الأزلام لمعـه في كنـانتـه . وصرخ جبلة بن الحنبــل : « أَلا لَبَـطَل السِّحْر »[4] .

وغـير ذلك من الأحـداث والوقـائـع التي كشفت عن عـدم تغلغـل الإيمـان والعقيدة في قلوب الأكثرية منهم .

نعم كـان بينهم رجـال صـالحـون ، يضحـون في سبيـل العقيـدة ، بـأنفس النفـائس ، وأثمن الأموال ، غـير أنّ البحث مـركـز عـلى دراسـة وضـع المجتمـع

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٨٣ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٤ .
(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٤٨ .

الإسـلامي ككل ، لا من حيث اشتـماله عـلى أفـراد لا يـدرك شـأوهـم في الفضيلة والصلاح .

ولعـلّ الباحث يتخيـل أنّهم انقلبوا بعـد رحلة الـرسـول إلى مجتمـع ديني لا يتخطون سبيل الدين قيد أنملة ، ولكن ما ورد في الصحاح والمسانيد من ارتداد أمّة كبيرة من الصحابة ، يؤيّد ما ذكرناه من عدم رسـوخ العقيدة والإيمـان في قلوبهم ، ولا مجال لذكر جميع الروايات ، إنّما نكتفي بواحدة منها ونحيـل البقية إلى البـاحث الكريم :

روى البخـاري في تفسير قـوله سبحـانه : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيـداً ما دُمْتُ فِيهِمْ ﴾[1] قال : خطب رسـول الله فقال : ألا وإنّـه يجاء بـرجال من أمّتي فيؤخـذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصحابي ، فيقول : إنّـك لا تدري مـا أحدثـوا بعدك ، فأقول كما قـال العبد الصـالح : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيـداً ما دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمّا تَـوَفَّيتني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ فيقـال إنّ هؤلاء لم يـزالـوا مـرتـدين عـلى أعقابهم ما فارقتهم[2] .

إنّ دراسة هذه الأمور الثلاثة ، يرشدنا إلى أنّ القـائد الحكيم ، الـذي مرّت عليه هذه الأوضاع والأحوال وعاينها عن كثب ، عليه أن يستخلف قائـداً للأمّـة لما في هذا التنصيب من مصلحة ، وقـطع لدابـر الإختلاف ، وجمـعٍ لشمل الأمّـة . وهـذا بخـلاف مـا لـو تـرك الأمـر إلى المسلمـين أنفسهم ، ففيـه من الأخـطار مـا صوّرناه .

إنّ القـائد الحكيم هـو من يعتني بـالأوضـاع الإجتـماعيـة لأمّتـه ، ويـلاحظ

---

(١) سورة المائدة : الآية ١١٧ .

(٢) صحيـح البخاري ، ج ٣ ، ص ٨٥ . وصحيـح مسلم ، كتـاب الجنـة ونعيمهـا ، ومسنـد الإمـام أحمد ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

إنّ الروايات الدالّة على ارتداد الصحابة بعـد رحلة النبي الأكرم ، كثـيرة جداً ،لا يمكن حملهـا على نفر أو اثنين منهم ، بل لا يصحّ في تفسيرها إلاّ حملها على أمة كبيرة منهم ، فـلا حظ ما ورد في هـذا المجـال : جامـع الأصول لابن الأثـير ، ج ١١ ، كتاب الحـوض ، الفـرع الثـاني في ورود النـاس عليه ، الأحاديث ٧٩٦٩ ـ ٧٩٨٠ .

الظروف المحيطة بها ، ويرسم على ضوئها ما يراه صالحاً لمستقبلها ، وقد عرفت أنّ مقتضى هذه الظروف هو تعيين القائد والمدبّر ، لا دفع الأمر إلى الأُمّة .

وإلى ما ذكرنا ينظر قول حكيم الإسلام الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا في حقّ الإمام :

« والإستخلاف بالنصّ أصوب ، فإن ذلك لا يؤدّي إلى التشعب والتشاغب والإختلاف »[1] .

* * *

وحصيلة الكلام أنّ النظر إلى لزوم ملء الفراغات الهائلة التي تخلفها رحلة النبي الأكرم ومحاسبة مصالح الأمّة آنذاك ، لا يدع شكّاً في أنّ صيغة الحكومة بعد النبي ، إنّما هي صيغة التنصيب ،لا ترك الأمر إلى الأُمّة واختيار الإمام بطريق من الطرق التي سنشير إليها .

هذا ، مع قطع النظر عن النصوص التي تعيّن النظرية الأُولى بوضوح ، وأنّه صلى الله عليه وآله ، قد قام بنصب الوصيّ خضوعاً لأمر الله أوّلاً ، ورعاية للمصالح التشريعية ثانياً ، واهتماماً بمصالح الإسلام والمسلمين ثالثاً ، فإلى الملتقى في مورد هذه النصوص .

* * *

---

(١) الشفاء ، الفن الثالث عشر في الإلهيات ، المقالة العاشرة ، الفصل الخامس ، ص ٥٦٤ .

الأمر الثامن

هل الشورى أساس الحكم والخلافة ؟

قد تعرفت على الكلمات السابقة التي تعرب عمّا تنعقد بـه الإمامـة عند أهـل لسنّـة ، كما تعـرفت عـلى كيفيـة خـلافـة الخلفـاء ، وأنّ الأول منهم فـاز بخمسـة أصـوات[1] ، وأنّ الثاني أخـذ بزمـام الحكم بتعيـين الخليفـة الأول ، وأنّ الثـالث استتب له الأمر بشورى سداسية عيّنها نفس الخليفة الثاني . هـذا هو واقـع الأمر ، ولم يكن في انتخاب هؤلاء ما يقتضيـه طبع التشـاور من عرض المـوضوع عـلى أهل المشورة ، ومناقشة الآراء ، وانتخاب واحـد في ضوء المـوازين العقلية والإجتـماعية والشرعية . وأحسن كلمة تعبّر عن حقيقة هذا النوع من الانتخاب ما ذكره الخليفة الثاني بقوله : « إنّما كانت بَيْعة أبي بكر فَلْتة وتَمَّت ، ألا وإنّها قد كانت كذلك ولكن الله وقّى شرّها ، وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر ، من بايع رجـلاً من غـير مشـورة من المسلمـين ، فـلا يبـايَـع هـو ، ولا الـذي بـايعـه ، تغـرّة أن يقتلا »[2] .

وقـد حاول المتجـددون من متكلمي أهـل السنّـة ، صبّ صيغـة الحكـومـة الإسلامية على أساس المشورة بجعله بمنزلة الإستفتاء الشعبي ، بملاحظة أنّه لم يكن

(١) لاحظ ما نقلناه من كلام الماوردي .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٨ ، رجم الحبلى من الزنـا إذا احصنت ، ص ١٦٨ ، وطالـع بقية كـلامه . ولاحظ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ١ ، ص ١٢٣ . وج ٢ ، ص ١٩ .

من الممكن بعد وفاة النبي مراجعة كل الأفكار واستعلام جميع الآراء في الوطن الإسلامي ، لقلّة وسائل المواصلات ، وفقدان سبل الإتصال المتعارفة اليوم . ولذلك يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب : إنّ الذين بايعوا أوّل خليفة للمسلمين لم يتجاوزوا أهل المدينة ، وربما كان بعض أهل مكة ، وأمّا المسلمون ـ جميعاً ـ في الجزيرة العربية ، فلم يشاركوا هذه البيعة ، ولم يشهدوها ، ولم يروا رأيهم ، وإنّما ورد عليهم الخبر بموت النبي مع الخبر باستخلاف أبي بكر(١) .

ثم إنّ من مظاهر الإختلاف الواقع في مسألة الشورى ، أنّ القائلين بها اختلفوا على قولين : فمنهم من قال بأنّ انتخاب أهل الشورى مُلْزِم للأُمّة ، وهو خيرة الأكثرية ، ومنهم من قال إنّه لا يزيد عن ترشيحٍ له لمنصب الأمّة ، وللأُمّة اختياره أو رفضه(٢) .

وعلى كل تقدير ، فما دليل هذه النظرية ،أي كون الشورى أساس الحكم ، سواء في الفترة التي تلت رحلة النبي أو في زماننا الحاضر .

إستدلوا بآيتين :

الآية الأُولى : قوله سبحانه : ﴿ **وَشاوِرْهُمْ في الأمرِ ، فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على الله** ﴾(٣) فالله سبحانه يأمر نبيّه بالمشاورة ، تعليماً للأُمّة ، حتى يتشاوروا في مهام الأُمور ، ومنها الخلافة .

يلاحظ عليه : أوّلاً ـ إنّ الخطاب في الآية متوجه إلى الحاكم الذي استقرّت حكومته ، فيأمره سبحانه أنْ ينتفع من آراء رعيّته ، فأقصى ما يمكن التجاوز به عن الآية ، هو أنّ من وظائف كلّ الحكّام التشاور مع الأُمّة ، وأمّا أنّ الخلافة بنفس الشورى ، فلا يمكن الإستدلال عليه بهذه الآية .

والآية نظير قول علي عليه السلام : « من استبدّ برأيه هلك ، ومن

(١) الإمامة والخلافة ، ص ٢٤١ .

(٢) الشخصية الدولية ، لمحمد كامل ياقوت ، ص ٤٦٣ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

شاور الرجال في أُمورها ، شاركها في عقولها »[1] .

وثانياً ـ إنّ المتبادر من الآية هو أنّ التشاور لا يوجب حكماً للحاكم ، ولا يلزمه بشيء ، بل هو يقلب وجوه الرأي ويستعرض الأفكار المختلفة ، ثم يأخذ بما هو المفيد في نظره ، وذلك لقوله سبحانه في نفس الآية : ﴿ **فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على الله** ﴾ ، المعرب عن أنّ العزم والتصميم والإستنتاج من الآراء والأخذ بما هو الأصلح راجع إلى نفس المشير ، وهذا يتحقق في ظرف يكون هناك مسؤول تام الإختيار في استحصال الأفكار والعمل بالنافع منها ، حتى يخاطب بقوله : ﴿ **فإذا عَزَمْتَ** ﴾ ، وأمّا إذا لم يكن ثمة رئيس ، فلا تنطبق عليه الآية ، إذ ليس في انتخاب الخليفة بين المشيرين من يقوم بدعوة الأفراد للمشورة ، لغاية استعراض آرائهم ، ثم تمحيص أفكارهم ، والأخذ بالنافع منها ، ثم العزم القاطع عليه .

وكل ذلك يعرب عن أنّ الآية ترجع إلى غير مسألة الحكومة وما شابهها . ولأجل ذلك لم نر أحداً من الحاضرين في السقيفة احتجّ بهذه الآية .

الآية الثانية : قوله سبحانه : ﴿ **والذينَ اسْتجابُوا لِرَبِّهِمْ وأَقاموا الصَّلاةَ وأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقونَ** ﴾[2] .

ببيان أنّ المصدر (أمْر) أضيف إلى الضمير (هُمْ) ، وهو يفيد العموم والشمول لكل أمر ، ومنه الخلافة ، فيعود معنى الآية أنّ شأن المؤمنين في كل موردٍ ، شورى بينهم .

يلاحظ عليه : إنّ الآية تأمر بالمشورة في الأُمور المضافة إلى المؤمنين ، وأمّا أنّ تعيين الخليفة من الأُمور المضافة إليهم ، فهو أول الكلام ، والتمسك بالآية في هذا المجال ، تَمَسُّكٌ بالحكم في إثبات موضوعه .

وبعبارة أُخرى : إنّ الآية حثّت على الشورى فيما يمتّ إلى شؤون المؤمنين بصلة ، لا فيما هو خارج عن حوزة أُمورهم ، أمّا كون تعيين الإمام داخلاً في

(١) نهج البلاغة ، قسم الحكم ، الرقم ١٦١ .
(٢) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

أمـورهم ، فهو أول الكـلام ، إذ لا نـدري هـل هـو من شؤونهم أو من شؤون الله سبحانه ، ولا ندري ، هل هي إمرة وولاية إلهيـة تتم بنصبه سبحـانه وتعيينـه ، أو إمـرة وولاية شعبيـة ، يجوز للنـاس التدخّـل فيها . ومـع هـذا الـترديـد لا يصـحّ التمسّك بالآية .

إجابة عن ســؤال

لو لم تكن الشورى أساس الحكم ، فلماذا استدلّ الإمام علي عليـه السلام ، على المخالف ، بمبـدأ الشورى ، وقـال : ـ مخاطبـاً معاويـة ـ : « إنّه بـايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على مـا بايعـوهم عليهم ، فلم يكن للشاهـد أن يختار ، ولا للغائب أن يَرُدّ ، وإنّما الشـورى للمهاجـرين والأنصار ، فـإن اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً ، كان ذلك لله رضىً »[1] .

والجواب : إنّ ابن أبي الحديد المعتزلي هـو أوّل من احتجّ بهـذه الخطبـة على أنّ صيغة الحكومة بعد وفاة النبي مستندة إلى الإختيـار ونظام الشـورى ، وتبعه من تبعه ، ولكنه غفل عن صدر الرسالـة التي تعرب عن أنّ الإستـدلال بالشـورى من باب الجدل ، خضوعاً لقوله سبحانه : ﴿ وجـادِلْهُمْ بالّتي هي أَحْسَنُ ﴾[2] ، فـإنّ الإمام عليه السلام بدأ رسالته بقوله : « أمّا بعد ، فإنّ بَيْعتي بالمدينة لـزمتك وأنت بالشام ، لأنّه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر . . . » ، ثم ختمها بقولـه : « وإنّ طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بَيْعتي ، وكان نقضهما كردّهما ، فجاهدتُهما على ذلـك حتى جـاء الحق ، ظَهَـر أمـر الله وهم كـارهـون ، فـادْخُـل فيـما دخـل فيـه المسلمون »[3] .

فالإبتداء بالكلام بخلافة الشيخين يعرب عن أنّـه في مقام إسكـات معاويـة

---

(١) نهج البلاغة : قسم الكتب ، الرقم ٦ .

(٢) سورة النحل : الايه ١٢٥ .

(٣) لاحظ وقعـة صفين لنصر بن مـزاحم (م ٢١٢) ، ص ٢٩ ، ط مصر . وقد حـذف الـرضي في نهج البلاغة من الرسالة ما لا يهمه ، فإنّ عنايته كانت بالبلاغة فحسب .

الذي يعتبر البَيْعة وجهاً شرعياً للخلافة ، ولولا هذا لما كان وجه لذكر خلافة الشيخين ، بل لاستدلّ بنفس الشورى .

ولأجل ذلك يُتمّ كلامه بقوله : « فإن اجتمعوا على رجل . . » ، احتجاجاً بمعتقد معاوية ، عليه .

* * *

أسئلة حول مبدئية الشورى

من خلال التحليل المتقدم يمكن استخلاص أسئلة حول مبدئية الشورى للحكم ، تزعزع كونها مبدءٍ له ، وهي :

١ ـ لو كان أساس الحكم هو الشورى ، لوجب على الرسول الأكرم التصريح به ، أوّلاً ، وبيان حدوده وخصوصياته ، ثانياً . بأن يبيّن مَنْ هُمُ الذين يشتركون في الشورى ، هل هم القراء وحدهم ، أو السياسيون ، أو القادة العسكريون ، أو الجميع ، وما هي شرائط المنتخب ، وأنّه لو حصل هناك اختلاف في الشورى ، فما هو المرجّح ، هل هو كمية الآراء وكثرتها ، أو الرجحان بالكيفية ، وخصوصيات المرشحين وملكاتهم النفسية والمعنوية .

فهل يصحّ سكوت النبي عن الإجابة على هذه الأسئلة التي تتصل بجوهر مسألة الشورى ، وقد جعل الشورى طريقاً إلى تعيين الحاكم ؟! .

٢ ـ إنّ القوم يعبّرون عن أعضاء الشورى ، بأهل الحلّ والعقد ، ولا يفسّرونه بما يرفع إجماله ، فَمَنْ هُمْ أهل الحلّ والعقد ؟ وماذا يحلّون وماذا يعقدون ؟ أهم أصحاب الفقه والرأي الذين يرجع إليهم الناس في أحكام دينهم ؟ وهل يشترط حينئذٍ درجة معينة من الفقه والعلم ؟ وما هي تلك الدرجة ؟ وبأي ميزان توزن ؟ ومن إليه يرجع الأمر في تقديرها ؟ أم غيرهم ؟ . فمن هم ؟ .

وربما تجد من يبدل كلمة أهل الحلّ والعقد ، بـ « الأفراد المسؤولين » ، وما هو إلاّ وضع كلمة مجملة مكان كلمة مثلها .

٣ ـ وعلى فرض كون الشورى أساس الحكم ، فهل يكون انتخاب أعضاء

الشورى ملزِماً للأُمّة ، ليس لهم التخلّف عنه ؟ أو يكون بمنزلة الترشيح ، حتى تعطي الأُمّة رأيها فيه ؟ وما هو دليل كل منهما ؟ .

هذه الأسئلة كلُّها ، لا تجد لها جواباً في الكتاب والسنّة ولا في كتب المتكلمين ، ولو كانت مبدءً للحكم لما كان السكوت عنها سائغاً ، بل لكان على عاتق التشريع الإسلامي الإجابة عليها ، وإضاءة طرقها[1] .

* * *

(١) يقول طه حسين : « ولو قد كان للمسلمين هذا النظام المكتوب (نظام الشورى) لعَرف المسلمون في أيام عثمان ما يأتون من ذلك وما يدعون ، دون أن تكون بينهم فرقة أو احتلاف » (الخلافة والإمامة : ص ٢٧١) .

ويقول الشيخ عبد الكريم الخطيب : « ينظر البعض إليه على أنّ تعيين الإمام بالشورى نواة صالحة لأول تجربة ، وأنّ الأيام كفيلة بأن تنميها ، وتستكمل ما يبدو فيها من نقص ، فلم تكن الأحوال التي تمّت فيها هذه التجربة تسمح بأكثر ممّا حدث .

وينظر بعض آخر إلى هذا الأُسلوب بأنّه أُسلوب بدائي عالَج أهمّ مشكلةٍ في الحياة ، وقدكان لهذا الأُسلوب أثره في تعطيل القوى المفكرة للبحث عن أُسلوب آخر من أساليب الحكم التي جربتها الأمم » . (الخلافة والإمامة : ص ٢٧٢) .

ومعنى ما ذكره الخطيب ، أنّ قضية الشورى كانت مجرد تجربة ، ولم تكن قانوناً إسلامياً أُخذ به ، وكانت في هذه القضية نقائص وعيوب ، تركت آثاراً سيئة على الفكر الإسلامي .

وفي المقام شبهة ، يتشدق بها بعض المتعصرنين ، نذكرها ونجيب عليها في ملحق خاصّ آخر الكتاب ، لاحظ الملحق رقم (٣) .

الأمر التاسع

هل البيعة أساس الحكم

البَيْعة مصدرُ بايَعَ ، لأنّ المبايع يجعل حياته وأمواله . بالبَيْعة ، تحت اختيار من يبايعه ، ويتعهد المبايَع (بالفتح) ـ في المقابل ـ على أن يسعى في إصلاح حال المبايِع (بالكسر) وتدبير شؤونه بصورة صحيحة ، وكأنّهما يقومان بعملية تجارية ، إذ يتعهد كل واحد منهما تجاه الآخر بعمل شيء للآخر ، قال ابن خلدون : « إنّ البَيْعة هي العهد على الطاعة ، كأنّ البايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أموره وأمور المسلمين ، ويطيعه فيما يكلفه ، وكانوا إذا بايعوا الأمير ، جعلوا أيديهم في يده تأكيداً ، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري .

البيعة قبل الإسلام وبعده

كانت البيعة من تقاليد العرب قبل الإسلام وسننهم ، وليس من مبتكراته ، بل أمضاها وجعلها من العقود اللازمة التي يجب العمل بها ، ويحرم نقضها . فقدبايع أهل المدينة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في السنة الحادية عشر ، والثانية عشر من البعثة ، في العقبة ، بمنى[1] ، بايعوه على عادتهم قبل الإسلام ، حيث كانوا يبايعون زعماءهم .

---

(١)لاحظ سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٤٣١ و٤٣٨ .

وأمّا بعد الهجرة ، فمرّة بـايعه الصحـابة في غـزوة الحُدَيْبيـة ، وسـميت بَيْعة الـرضوان ، لقـوله سبحـانه : ﴿ لَقَـدْ رَضيَ الله عَنِ المُؤْمنينَ إذْ يُبايِعونَكَ تحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ ما في قُلوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكينَةَ عَلَيْهِمْ وأثابَهُمْ فتحاً قريباً ﴾[1] .

وأخرى بايعته الصحابيات في مكة المكـرمة بعـد فتحها ، وعنـه يحكي قولـه سبحانه : ﴿ إذا جاءَكَ المُؤْمناتُ يُبايِعْنَكَ عـلى أنْ لا يُشْرِكْنَ بـالله ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنينَ . . . ﴾[2] .

إذا عرفت ذلك فلنعطف نظر الباحث إلى نكات :

الأولى ـ إنّ بيعة المسلمين للنبي الأكرم صلى الله عليـه وآله وسلّم ، لم تَعْن الإعتراف بزعامة الرسول ورئاسته ، فضلاً عن نصبه وتعيينـه ، بل إنّ المبـايعين ، بعد أن آمنوا بنبوة النبي واعترفوا بقيادته وزعامته ، أرادوا أن يصبّوا ما يلازم ذلـك الإيمـان ، من الإلتزام بـأوامر الـرسول ، في قـالب البيعة ، فكـانت البيعة صـورة عملية للإلتزام النفسي بأوامر النبي ، بعد الإقرار بنبوتـه ، وزعامتـه . فكأنّ النبي الأكرم يقول : « فإن آمنتم بي فبايعـوني على أن تـطيعوني ، وتُصَلّوا وتُـزَكّوا ، وأن تدفعوا عني العدو حتى الموت ، ولا تفروا من الحرب » .

والهدف عندئـذٍ من البيعة لم يكن هـو الإعتراف بمنصب المبـايع ، وانتخـابه وتعيينه لمقام الحكومة والولاية ، بل كانت لأجل التأكيد العملي عـلى الإلتزام بلوازم الإيمان السابق عليه ، وهذا بارز في البيعة الثانية للأنصار في منى ، وبيعة الصحابة في غزوة الحديبية .

الثـانية ـ إنّ البيعـة ميثاق بـين شخصين ، تنـدرج تحت قـولـه سبحـانـه : ﴿ وأَوْفوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كان مَسْؤُولاً ﴾[3] .

وعقد بين المبايعين ، فتنـدرج تحت قولـه سبحانـه : ﴿ يا أَيُّهـا الذينَ آمَنـوا

(١) سورة الفتح : الآية ١٨ .
(٢) سورة الممتحنة : الآية ١٢ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٣٤ .

أوْفوا بالعُقودِ ﴾[1] .

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، من الحث على البيعة : « وأمّا حقي عليكم ، فالوفاء بالبيعة ، والنصيحة في المشهد ، والمَغيب ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم »[2] .

الثالثة ـ إنّه ليس هناك دليل شرعي على أنّ مجرّد البيعة ، بغضّ النظر عن المواصفات والضوابط الآتية ، طريق إلى تعيين الخليفة والإمام ، وإنّما يتعينّ بها ، إذا كان المبايَع ، واجداً للصفات اللازمة في الإمام .

الرابعة ـ الظاهر أنّ البيعة ليست طريقاً لتعيين الحاكم وانتخاب القائد ، وإنّما يتعين الحاكم بالمقاولة وتصويت الجماعة الحاضرين ، ثم يُصَبُّ ذلك الإنتخاب في قالب الحسّ بالبيعة والصفق ، وكأنّ البيعة تأكيد لما التزموا ، وتجسيد لما أضمروه أو تقاولوه . وعلى فرض كونها طريقاً لتعيين الحاكم ، فهي إحدى الطرق لا الطريق الوحيد ، فلو علم رضا الأمّة بحكومة فرد وزعامة شخص عن غير طريق البيعة ، وأبرزت رضاها بطريق من الطرق ، لكفى ذلك في كونه قائداً لازم الطاعة ، لأنّه أشبه بالعقد والعهد .

الخامسة ـ إنّ التصويت الشعبي أو بيعة الجماعة الحاضرين إنّما يعدّ طريقاً لتعيين الحاكم إذا لم يكن هناك نصّ من الرسول على تنصيب شخص للزعامة ، وإلاّ تكون البيعة رفضاً للنصّ ، واجتهاداً في مقابلة .

السادسة ـ إنّ البَيْعة الكاملة من الصحابة الحاضرين في المدينة ، لم تتحقق في واحد من الخلفاء الأربعة ، إلاّ في علي ، فقد بايعه المهاجرون والأنصار ، إلاّ نفر قليل لا يتجاوز خمسة أشخاص ، هم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وحسّان بن ثابت ، وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة ، والباقون أصفقوا

---

(١) سورة الأنعام : الآية الأولى .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ٣٤ .

على يده بـالبيعة والـطاعة ، وإن نكث من نكث ، ونقض من نقض ، فيـما بعد ، وشقّ عصا الأُمّة .

هـذا وإنّ البيعة تحتـاج إلى دراسة مبسـوطة ، مـوضـوعـاً وحكمـاً في ضـوء الكتاب والسنّة ، ومنهج الكتاب لا يقتضي التوسّع أزيد ممّا ذكرنا[١] .

* * *

(١) لاحظ للتبسط : بحـار الأنـوار ، ج ٢ ، كتـاب العلم ، البـاب ٣٣ . وأيضـاً : ج ٢٧ ، كتـاب الإمامة ، الباب ٣ .

الأمر العاشـــر

تصوّر النبي الأكرم للقيادة بعده

إنّ الكلمات المأثورة عن الرسول الأكرم ، تدلّ على أنّه صلى الله عليه وآله كان يعتبر أمر القيادة بعده ، مسألة إلهية ، وحقاً خاصّاً لله جلّ جلاله ، فالله سبحانه هو الذي له أن يعين القائد ، وينصب خليفة الرسول ، ولا نجد في كل ما نقل عن النبي ما يدلّ على إرجاء الأمر إلى تشاور الأُمّة ، أو اختيار أهل الحلّ والعقد ، أو بيعة الصحابة الحاضرين ، أو غير ذلك ، ويكفي في ذلك الشاهدين التاليين :

١ ـ لما دعا الرسول الأكرم بني عامر إلى الإسلام وقد جاؤوا في موسم الحج إلى مكة ، قال رئيسهم : « أرأيت إنْ نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك » ؟ .

فقال النبي صلى الله عليه وآله : « الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء »(١) .

فلو كان أمر الخلافة بيد الأُمّة ، لكان على النبي صلى الله عليه وآله أن يقول : الأمر إلى الأُمّة ، أو إلى أهل الحلّ والعقد ، أو ما يشابه ذلك . فتفويض الأمر إلى الله سبحانه ، ظاهر في كونها كالنبوة ، يضعها سبحانه حيث يشاء ، قال تعالى : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ﴾(٢) . فاللّسان في الموردين واحدٌ .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

٢ ـ بعث النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلّم) سليط بن عمرو العامري ، إلى ملك اليمامة ، « هوزه بن علي الحنفي » ، الذي كان نصرانياً ، يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً ، فقدم على ملك اليمامة ، فأنزله وحباه ، وكتب إلى النبي ، يقول : « ما أحسن ما تدعو إليه ، وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر ، أتّبعك » . فقدم سليط على النبي بكتابه ، فلما قرأ عليه قال صلى الله عليه وآله : « لو سألني سيابة من الأرض ما فعلته . بادَ ، وبادَ ما في يده »[1] . وفي نقل آخر : « أرسل هوزة إلى النبي وفداً يقول له ، إنْ جَعَلَ له الأمر من بعده ، أَسْلَمَ ، وصار إليه ، ونصره ، وإلّا قصد حربه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا ، ولا كرامة ، اللهم إكفنيه »[2] .

فلو كانت القيادة بعد النبي ، قيادة دستورية انتخابية ، وكان للشعب الإسلامي منه حظ ، لكان على النبي إجابة السائل بشكل آخر ، وهو أنّ الأمر من بعدي ، يرجع إلى أُمّتي ، والمؤمنين بي ، ولكنك ترى أنّه وقف في وجهه بقسوة وشدّة كما هو ظاهر .

* * *

(١) الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .
(٢) الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، ص ١٤٦ .

الأمر الحادي عشر

تصوّر الصحابة للخلافة بعد النبي

إنّ المتتبع في تاريخ الخلفاء الذين تعاقبوا على مسند الحكومة ، يرى بوضوح أنّهم كانوا يتّبعون الطريقة الإنتصابية لا الإنتخابية ، بالتشاور أو البيعة ، أو غير ذلك من المفاهيم التي حدثت في أيام خلافة الإمام أمير المؤمنين ، وإليك الشواهد .

١ ـ إنّ خلافة عمر تمّت بتعيين من أبي بكر ، وليس هذا خافياً على أحد . روى ابن قُتَيْبة الدينوري ، أنّ أبا بكر دعا عثمان بن عفان ، فقال : أُكتُب عهدي ، فكتب عثمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عَهِدَ به أبو بكر بن أبي قُحافة ، آخر عهده في الدنيا ، نازحاً عنها . . . إنّي أستخلف عليكم عُمَر بن الخطاب ، فإن تروه عَدَلَ فيكم ، ظنّي به ورجائي فيه ، وإن بَدّلَ وغَيّر ، فالخير أردت . . » ثم ختم الكتاب ودفعه ، ودخل عليه المهاجرون والأنصار حين بلغهم أنّه استخلف عُمَر[1] .

---

(١) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ١٨ . ورواه ابن سعد في طبقاته الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ ، وابن الأثير في تاريخه « الكامل » ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ باختلاف يسير وقد نقل موضوع استخلاف أبي بكر لعمر ، عدّة من أعلام التاريخ والحديث ، والكل يتحد جوهراً ، وأنّ التنصيب صدر من الخليفة الأول

٢ ـ إنّ استخلاف عثمان تَمَّ عن طريق شورى عين أعضاءها عمر بن الخطاب ، يقول التاريخ : دعا عمر عليّاً ، وعثمان وسعداً ، وعبد الرحمن ، والزبير ، وطلحة ، فقال : « إنّي نظرت فوجدتكم رؤساء الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذنها ، واختاروا منكم رجلاً ، فإذا متّ فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصلب الناس صهيباً ، ولا يأتي اليوم الرابع إلاّ وعليكم أمير »[١] .

فلو كانت صيغة الحكومة هي انتخاب القائد عن طريق المشورة باجتماع الأُمّة ، أو بالبَيْعة ، فما معنى انتخاب الخليفتين بهذين الطريقين ؟ .

٣ ـ لما اغتيل عمر بن الخطاب . وأحسّ بالموت ، أرسل ابنه عبد الله إلى عائشة ، واستأذن منها أن يدفن في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر ، فأتاها عبد الله ، فأعلمها ، فقالت : نَعَم ، وكرامة . ثم قالت : يا بُني ، أبلغ عُمَرَ سلامي وقل له ، لا تدع أُمّة محمد بلا راع ، استخلف عليهم ، ولا تدعهم بعدك هملا ، فإنّي أخشى عليهم الفتنة ، فأتاه ، فأعلمه »[٢] .

٤ ـ إنّ عبد الله بن عمر دخل على أبيه قبيل وفاته ، فقال : « إنّي سمعت الناس يقولون مقالة ، فآليت أن أقولها لك ، وزعموا أنّك غير مستخلف ، وأنّه لو كان لك راعي إبل أو غنم ثم جاءك وتركها ، لرأيت أنْ قد ضيّع ، فرعاية الناس أشد »[٣] .

٥ ـ قدم معاوية المدينة لأخذ البَيْعة من أهلها لابنه يزيد ، فاجتمع مع عدّة من الصحابة ، وأرسل إلى عبد الله بن عمر ، فأتاه ، وخلا به ، وكلّمه بكلام ، وقال : إنّي كرهت أن أَدَع أُمّة محمد بعدي كالضأن لا راعي لها »[٤] .

هذه النصوص التي حفظها التاريخ ، صدفة ـ وكم لها من نظائر ـ تدلّ على أنّ انتخاب الخليفة عن طريق أهل الحلّ والعقد ، والأنصار والمهاجرين ، وأخيراً

---

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٣٥ ، أُنظر باقي الواقعة .

(٢) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٣) حلية الأولياء ، ج ١ ، ص ٤٤ .

(٤) الإمامة والسياسة ، ح ١ ، ص ١٦٨ .

الإستفتاء الشعبي ، لم يكن له أصل في منطق الصحابة ، وإنّما اخترعت هذه الألفاظ في فترة خاصة ، في مقابل خلافة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام .

ثم إنّ ها هنا أمر بديع يجب إلفات نظر الباحث إليه وهو إنّه إذا كان ترك الأُمّة بلا راع ، أمراً غير صحيح في منطق العقل ، أو كان ترك تعيين القائد كترك الضأن بلا راع لها ، فكيف يجوز لهؤلاء أن ينسبوا إلى النبي أنّه ترك الأُمّة بلا راع ، وودعهم بعده هملا ، يخشى عليهم الفتنة . فكأنّ هؤلاء كانوا أعطف على الأمّة من النبي الأكرم ،وأحنّ على مصالحها منه ؟ إنّ هذا ممّا يقضي منه العجب .

غير أنّ كُلّ مَنْ كَتَب في الإمامة ، وواجه هذا التاريخ المسلّم ، حاول تصحيح هذه التنصيبات بأنّ تعيين القائد السابق ، الإمامَ اللاحق ، أحد طرق انعقاد الإمامة ، ولكن هؤلاء قد جمعوا بين المختلفين ، فتارة يعترفون بالتنصيب ، وأُخرى بالإنتخاب ، وبعبارة أُخرى : يعترفون بكفاية رأي واحد من الأُمّة تارة ، ويشترطون تصويت الشعب ، أو الصحابة ، ثانياً .

* * *

الأمر الثاني عشر

صيغة القيادة في الشرائع السابقة

المتبع بين الأنبياء السالفين هو تسليم أُمرِ مَـنْ قامـوا بهدايتهم ، إلى خلفـاء صـالحين لائقـين ، ليتسنى لتلك الأُمم في ظل الـرعايـة والتربيـة الصحيحة ، التي يتولاها الأوصياء ، أن يستمروا في طريق التكامل والرشد .

نعم ، كـان كثير من الأوصيـاء أنبيـاء ، ولكن بعضـاً منهم كـانـوا أوصيـاء خاصين ، وهذا يعرب عن أنّ مسألة القيادة والزعامة كانت من الأهمية والخطورة ، إلى حدّ لم يُترك أمرها إلى اختيار الناس ونظرهم ، بل كانت تُعهد على مدى التاريخ إلى رجـال أكفـاء ، يُعَيَّنـون بـالإسم والشخص ، لأنّ تـركـه يؤدّي إلى الإختـلاف والفـرقة والفتنـة ، وكانت القيـادة يتوارثهـا ، في الغالب أفـراد من سلالـة الأنبياء والرسل ، خلَفاً عن سلف ، وإليك بعض الآيات المشعرة بذلك .

قال سبحانه مخاطباً إبراهيم عليـه السلام : ﴿ **إنّي جـاعِلُكَ للنَّاسِ إمـاماً ، قال وَمِنْ ذُرِّيَتِي ، قال لا يَنـالُ عَهْدي الـظالِمين** ﴾[1] وليس المـراد من الإمامـة هنا النبوة ، كما زعمه بعض المفسّرين ، لأنّه إنّما جعله إماماً بعدما كان نبيّـاً ورسولاً ، بشهادة أنّه يطلب هذا المقام لذرّيته ، وإنّما صار ذا ذرّية ، بعدما كبر وهرم ، قال : ﴿ **الحَمْدُ لله الذي وَهَبَ لِي على الكِبَرِ إسْماعِيلَ وإسْحاقَ** ﴾[2] . وقد كان نبيّاً قبل

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٩ .

أن يرزق ولداً ، بشهادة نزول الملائكة عليه[1] بل المراد هو الإمامة المتمثلة في الحاكمية والقيادة ، فدعا إبراهيم أن يجعل الله تعالى هذا المقام في ذرّيته ، على النحو الذي جعله فيه (بالتنصيب) ، ولم يَرُدَّه سبحانه ، وما أنكره عليه ، بل أخبره بأنها لا تنال الظالمين منهم .

قال سبحانه ـ حاكياً عن موسى عليه السلام ـ : ﴿ **واجْعَل لِي وَزيراً مِنْ أهْلي هارونَ أخي** ﴾[2] . فطلب موسى عليه السلام أن يكون أخاه هارون مساعداً ومعيناً له في القيادة ، فقبله سبحانه ، وأعطاه مضافاً إلى الوزارة ، النبوة . ويؤيّد ذلك تاريخ الأنبياء ، فقد كانوا ينصّون على الخلفاء من بعدهم بصورة الوصاية ، وقد ذكر المؤرخون قائمة أوصيائهم ، فراجع[3] .

هذه هي الطريقة المألوفة في الشرائع السابقة ، ولا دليل على الإنحراف عنها ، ولا صارف عن الأخذ بها ، بل نجد في السنّة ما يدلّ على أنّ كل ما جرى على الأُمم السابقة ، يجري على هذه الأُمّة إلاّ ما استُثني[4] .

ويدلّ على ذلك بصراحة لا تقبل جدلاً ، ما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال :

« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنّه لا نبي بعدي ، وسيكون بعدي خلفاء يكثرون »[5] .

وظاهر الحديث أنّ استخلاف الخلفاء في الأُمّة الإسلامية ، كاستخلاف

---

(١) لاحظ سورة الحِجْر : الآيات ٥١ ـ ٦٠ .
(٢) سورة طه : الآية ٣٠ .
(٣) لاحظ إثبات الوصية ، للمسعودي ، مؤلّف مروج الذهب (م٣٤٥) .
(٤) روى أحمد في مسنده ، ج ٣ ، ص ٨٤ ، عن أبي سعيد الخدري ، أنّ رسول الله (ص) قال : « لتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ الذين مِنْ قَبْلِكُم ، شِبْراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لتبعتموهم » . ورواه غيره من أصحاب الصحاح والسنن .
(٥) جامع الأصول لابن أثير الجزري ، الفصل الثاني ، فيمن تصح إمامته وإمارته ، ص ٤٤٣ ، أخرجه البخاري ومسلم .

الأنبياء في الأمم السالفة ، ومن المعلوم أنّ الإستخلاف كان هناك بالتنصيص ، فيجب أن يكون هنا بالتنصيص كذلك .

* * *

إذا تعرفت على هذه الأمور الإثني عشر ، فاعلم أنّ هذه المقدمات تعرب عن كون صيغة الحكومة بعد النبي هي صيغة التنصيص ، والتنصيب ، لا غير ، لا بالطرق التي تقدمت عند البحث عمّا تنعقد به الإمامة عند أهل السنّة ، وإليك البيان :

١ ـ قد عرفت أنّ رحلة النبي الأكرم تترك فراغات هائلة في الأمّة ، لا مناص عن سدّها بواحد من أبناء الأمّة ، وأنّ هذه الفراغات لا تسدّ بفرد عادي ، له من المؤهلات والكفاءات العلمية ، ما لا يتجاوز عن حدود ما لغيره من أفراد الأمّة ، بل يجب أن يكون له كفاءة وصلاحية توازن كفاءات النبي ومؤهلاته ، ويكون مستودعاً لعلوم النبي ، واقعاً تحت عناية الله تبارك وتعالى وكفالته .

ومن المعلوم أنّ التعرّف على هذا الفرد ليس ميسّراً من طريق الإنتخاب بالشورى أو بالبيعة ، بل يُعرف بتعيينٍ من الله سبحانه عن طريق النبي الأكرم ، نظير أوصياء سائر الأنبياء .

٢ ـ كما عرفت أنّ الدولة الإسلامية الفتية كانت مهددة في أُخريات أيام النبي ، حال وفاته ، بأعداء داخليين وخارجيين . أمّا الداخليون ، فهم المنافقون الذين كانوا يتربصون بها الدوائر ، وأمّا الخارجيون ، فدولتا الروم والفرس ، فمقتضى المصلحة العامة في تلك الظروف الحرجة ، تعيين الإمام والخليفة بعده ، لئلا تترك الدولة بعد وفاته عرضة للإختلاف ، وبالتالي تمكّن أعدائها منها ، خصوصاً إذا لاحظنا أنّ حياة العرب حينذاك في عاصمة الإسلام وخارجها ، كانت حياة قَبَلية ، والتعصبات العشائرية لا تزال متغلغلة في نفوسهم ، وتَرْكُ الأمر إلى مجتمع هذا حالة ، يؤدّي إلى التشاغب والإختلاف وبالتالي إلى القتل والدمار .

أضف إلى ذلك أنّ الوعي الديني لم يكن راسخاً في قلوب أكثر الصحابة ، وإن كان القليل منهم قد بلغ القمة ، وصاروا مثلاً عليا للفضل والفضيلة ، وقد

عرفت دليل قلّة الوعي الديني ، بفرارهم في بعض الغزوات .

٣ ـ كما عرفت أنّه لو كان أساس الحكم على غير وجه التنصيب ، لكان على النبي الأكرم بيان أُسسه وأُصوله وفُروعه ، وشرائط الإمام ، وما تنعقد به الإمامة ، مع أنّ النبي سكت عن ذلك ولم ينبس منه بكلمة ، فليس في الصحاح والمسانيد أحاديث أو حديث عن النبي حول أُساس الحكم ، أفيصحّ لنا أن نتهم النبي بأنّه بَلّغ أبسط الأمور وأيسرها ، التي تقع في الدرجة الأخيرة من الأهمية في حياة الإنسان ، وسكت عن عظائم الأمور ومهمّاتها التي تتوقف عليها حياة الأمّة .

كل ذلك يعرب عن أنّ سكوته لأجل أنّ أساس الحكم هو التنصيب ، ونصب الإمام يغني عن البحث حول أساس الحكم وشروطه ، لأنّ الإمام المنصوب يكون ميزاناً للحق ، ومعياراً للتعرّف على أساس الحكم وشروطه ؛ « وكُلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفِراء »[1] .

٤ ـ كما عرفت أنّ تصوّر النبي للخلافة في عصره ، هو إيكالها إلى الله سبحانه ، وأنّه تعامل معها معاملة الرسالة ، وأنّه عَرّفها بنفس ما عرّف به الله سبحانه الرسالة ، « يَضَعُها حَيْثُ شاءَ » .

٥ ـ كما عرفت أنّ تصوّر الصحابة ، وسيرتهم في الخلافة هي سيرة التنصيب ، وقد كان ترك التنصيب ، في نظرهم ، إهمالاً لأمر الأمّة ، وتركاً لها بلا راع فريسة للذئاب ، والأعداء ، وبذلك استتبّ الأمر لعُمَرُ بيد أبي بكر ، ولعُثْمان بيد عُمَر ، وهكذا توالت السيرة في الأُمويين من الخلفاء ، وشذّت عنها خلافة علي حيث استتبت له ببيعة المهاجرين والأنصار .

٦ ـ كما عرفت أنّ صيغة القيادة في الشرائع السابقة كانت هي التنصيب ، وكان الأوصياء يُنْصَبون من طريق الأنبياء .

٧ ـ كما أنّك عرفت أنّه لا دليل على كون أساس الحكم هو الشورى أو البيعة بألوانها المختلفة .

---

(١) مَثَل يُضرب .

كـل ذلك يعـرب عن أنّ القائـد الحكيم ، بـأمـر من الله سبحـانـه ، سلك مسلكاً ، ونهج منهجاً ، يطابق هذه الأُصول والمقدمات ، وما خالفها قدر شعرة ، وعينً القائد بعده في حياته ، وأعلنه للأُمّة في موسم أو مواسم .

هـذا مـا يـوصلنـا إليـه السـبر والتقسيم والمحـاسبـة في الأُمـور الإجتـاعيـة والسياسية ، فيجب علينا عندئذٍ الرجوع إلى الكتاب والسنّة ، لنقف ونتعرّف عـلى ذلك القائد المنصوب ، ونذعن ـ بالتالي ـ بأنّ عمل النبي كان موافقاً لهـذه الأُصول العقلائية التي تقدمت ، وهذا ما يوافيك في البُحوث التالية .

* * *

البحــث الأول :

السنّة النبوية وتنصيب علي للإمامة

إنّ من أحاط علماً بسيرة النبي في تأسيس دولة الإسلام ، وتشريع أحكامها وتمهيد قواعدها ، يجد علي بن أبي طـالب وزيـر رسـول الله في أمره ، وظهـيره على عدوه ، وعيبة علمه ، ووارثَ حُكْمِه ، ووليَّ عهـده ، وصاحبَ الأمـر من بعده . ومَنْ وقف على أقوال النبي وأفعاله في حِلّه وترحاله ، يجد نصوصه في ذلك متواتـرة متوالية ، من مبدأ أمره إلى منتهى عمره ، صلى الله عليه وآله ، وإليك البيان .

أ ـ حديث بدء الدعوة

أخرج الطبري وغيره ، بسنده ، عن علي بن أبي طالب ، أنّـه لما نـزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ﴿ وأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبينَ ﴾[1] دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال لي : يا عليّ ، إنّ الله أمرني أن أُنـذر عشيرتي الأقربين ، فضقت بذلك ذرعاً ، وعرفت أنّي متى أُباديهم بهذا الأمر ، أرى منهم ما أكره ، فَصَمَدّتُ عليه حتى جاءني جبرئيل ، فقال : يا محمد ، إنّك إنْ لا تفعـل ما تُؤْمر به ، يعذّبك ربُّك ، فاصنـع (يا عـلي) لنا صـاعاً من طعـام ، واجعل عليـه رِجْـلَ شاة ، وامْـلأ لنا عسـا من لَبَن ، ثم اجمع لي بني عبـد المـطلب حتى أُكلِّمهم وأُبَلِّغهم ما أُمِرت به ، ففعلت ما أمرني به ، ثم دعوتهم له ، وهم يـومئذٍ أربعـون

(١) سورة الشعراء : الآية ٢١٤ .

رجلاً ، يزيدون رجلاً أو ينقصونه ، فيهم أعمامه . . . إلى أن قال : فأكلوا حتى ما لهم بشيء حاجة ، ثم قال (النبي) : أسقهم . فجئتهم بذلك العس ، فشربوا حتى رووا منه جميعاً ، ثم تَكَلَّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا بني عبد المطلب ، إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب ، جاء قومه بأفضل ممّا قد جئتكم به ، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدْعُوَكم إليه ، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر ، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ قال : فأحجم القوم عنها جميعاً ، وقلت : أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ، ثم قال : إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوه .

وفي رواية أُخرى قال ذلك القول ثلاث مرات ، كلُّ ذلك أقوم إليه فيقول : إجلس(1) .

ودلالة الحديث على الخلافة لعلي والوصاية له ، لا تحتاج إلى بيان ، وهذا إنْ

---

(1) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ . ورجال السند كلّهم ثقات إلاّ أبو مريم عبد الغفار بن القاسم ، فقد ضَعّفه القوم ، ليس ذلك إلاّ لتشيعه ، فقد أثنى عليه ابن عقدة وأطراه ، وبالغ في مدحه ، كما في لسان الميزان ، ج ٤ ، ص ٤٣ وأسند إليه .
وأخرجه بهذا اللفظ أبو جعفر الإسكافي المتكلم المعتزلي البغدادي ، في كتابه نقض العثمانية ، على ما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ ، وقال : « إنّه روي في الخبر الصحيح » ، وابن الأثير في الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، وأبو الفداء عماد الدين الدمشقي ، في تاريخه : ج ٣ ، ص ٤٠ . والخازن علاء الدين البغدادي في تفسيره ، ص ٣٩٠ . وغيرهم من الحفّاظ وأساتذة الحديث وأئمة الأثر ، والمراجع في الجرح والتعديل ، ولم يقذف أحد منهم الحديث بضعف أو غمز لمكان أبي مريم في أسناده .
على أنّه أخرجه الإمام أحمد في مسنده في غير مورد ، فرواه في الجزء الأول ، ص ١٥٩ عن عفان عن أبي عوانة عن عثمان بن المغيرة ، عن أبي صادق ، عن ربيعة بن ناجز ، ورجال السند كلُّهم ثقات . كما أخرجه في الجزء الأول ، ص ١١١ ، بسندٍ رجاله كلُّهم من رجال الصحاح بلا كلام ، وهم شريك ، والعمش ، والمنهال ، وعباد .
وللحديث صور مختلفة رواها عدّة من الحفاظ ، فمن أراد التوسع في ذلك فليرجع إلى المصادر التالية : الغدير ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٩ . غاية المَرام ، للسيد البحراني ، المقصد الثاني ، الباب ١٥ و ١٦ . وتعاليق إحقاق الحق ، ج ٤ ، ص ٦٦ ـ ٧٠ . والمراجعات ، المراجعة ٢٠ ، والمراجعة ٢٢ ، وقد تكلم في إسناد الحديث في المتن وتعاليقه بما لا يدع للمريب شكاً .

دَلّ على شيء ، فإنّما يدلّ عـلى أنّ النبوة والإمـامة كـانتا متعـاقدتـين بعقد واحـد ، تتجليان معاً ، ولا تتخلفان .

كتمـان الحقائق

إنّ من العجب أنّ أُناساً يدّعون أنّهم حفظة الحديث وعَيْبـة آثار رسـول الله صلى الله عليه وآله ، كَتَموا الحقائق وارتكبوا جنايات في نقـل الآثار ، وإليـك نبذة من هؤلاء .

١ ـ رأينا أنّ الطَّبري في تاريخه ، نقل قول النبي على الوجه التالي :

ـ « فـأَيُّكم يؤازرني على هـذا الأمر ، عـلى أنْ يكـون أَخي ووصيي وخَليفتيَ فِيكُمْ » . كما نقل قوله الآخر :

ـ « إنّ هذا أَخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوه » .

ولكنه في تفسيره ، لم يعجبه نقل الحقيقة ، لمخالفتها لما يبطنه من العقيـدة ، فقال مكان الجملتين : « فأَيُّكم يؤازرني على هذا الأمر ، على أن يكـون أَخي وكذا وكذا » .

ـ « إنّ هذا أخي وكذا وكذا ، فاسمعوا له وأطيعوه »[١] .

٢ ـ إنّ الحافظ أبا الفداء ابن كثير (م ٧٧٤) ،ذكر الحديث في تـاريخه عـلى النصّ الذي رواه الطبري في تفسـيره ، مع أنّـه وضع تـاريخه ، عـلى منوال تـاريخ الـطبري ، ولكن لم يعجبه نقله من تـاريخه ، واعتمـد على التفسـير الـذي كنى عن نصّ رسول الله بالوصاية والخلافة لعلي[٢] .

٣ ـ إنّ محمد حسين هيكل ، كتب ما هو خزاية فاضحة في مجال الحـديث ، فإنّه كتب الجملة الأُولى أعني قول النبي الأكرم : « فـأَيُّكم يؤازرني على هـذا الأمر

---

(١) تفسير الطبري ، ج ١٩ ، ص ٧٥ .

(٢) البداية والنهاية ، الجزء الثالث من المجلد الثاني ، ص ٤٠ .

وأن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم » . وترك من رأس الجملة الثانية التي قالها النبي لعلي .

ولكن هذا المقدار من الإعتراف بالحقيقة ، لم يعجب القشريين من الأزهريين ، فوقع موقع النقد منهم ، وأسقط في الطبعة الثانية من الكتاب كلُّ ما يرجع إلى عليٍّ عليه السلام ، دفعاً لأمواج اللوم والعتاب[1] .

* * *

ب ـ حديث المنزلة

روى أهل السِيَر والتاريخ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، خلّف علي بن أبي طالب على أهله في المدينة ، عند توجهه إلى تبوك ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلّفه إلّا استثقالاً له ، وتخوُّفاً منه ، فلما قال ذلك المنافقون ، أخذ علي بن أبي طالب ، سلام الله عليه ، سلاحَه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو نازل بالجرف[2] ، فقال : يا نبيّ الله ، زعم المنافقون أنّك إنّما خلفتني أنّك استثقلتني ، وتخفَّفت مني ، فقال : كذبوا ، ولكني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكونَ مني بمنزلة هارون من موسى ، إلّا أنّه لا نبي بعدي ؟ .

فرجع علي إلى المدينة ، ومضى رسولُ الله صلى الله عليه وآله على سفره[3] .

---

(١) حياة محمد ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٥٤ ، ص ١٣٩ . وعلى هذه الطبعة جاءت الطبعات اللاحقة ، ونسخت الطبعة الأولى وكأنّ الأستاذ لم يكتبها .

(٢) الجرف ، بالضم ثم السكون ، موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة .

(٣) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٥١٩ ـ ٥٢٠ ، وقد نقله من أصحاب الصحاح : البخاري في غزوة تبوك ، ج ٦ ، ص ٣ ، ط ١٣١٤ . ومسلم في فضائل عليٍّ ، ج ٧ ، ص ١٢٠ . وابن ماجة في فضائل أصحاب النبي ، ج ١ ، ص ٥٥ ، ط المطبعة التازية بمصر . والإمام أحمد في مسنده في غير مورد لاحظ ج ١ ، ص ١٧٣ و١٧٥و١٧٧و١٧٩و١٨٢ و١٨٥و٣٣٠ وغيرهم من الأثبات الحفاظ ، فلم يشك في صحة سند الحديث إلّا الآمدي ، وليس هو من علم الحديث في حِلٍّ ولا ترحال .

(إذا ما فُصِّلَتْ عليا قريش فلا في العيرِ أنت ولا النفير) =

ومن عجيب القضايا ما رواه مسلم ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ، قال : أَمَرَ معاوية بن أبي سفيان سعداً ، وقال : ما منعك أن تَسُبَّ أبا التراب ، فقال : أمّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالَهُنَّ له رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فلن أسُبَّه ، لأنّ تكون لي واحدة منهن أحبُّ إليّ من حُمر النعم . سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول له وقد خلّفه في بعض مغازيه ، فقال له علي : يا رسول الله خلّفتني مع النساء والصبيان . فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) : أمّا ترضى أنْ تكونَ مني بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنّه لا نبوة بعدي .

وسمعته يقول يوم خيبر : لأُعطِيَنَّ الراية رجلاً يُحبُّ الله ورسولَه ، ويحبُّه الله ورسولُه . قال : فتطاولنا لها ، فقال : أُدعو لي عليّاً ، فأُتي به أرمد ، فبصق في عينه ، ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه .

ولما نزلت هذه الآية : ﴿ فَقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وأَبْناءَكُمْ ﴾ ، دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، فقال : « اللّهم هؤلاء أهلي »[1] .

وأمّا دلالة الحديث على أنّ النبي أفاض على عليٍّ عليه السلام ـ بإذن من الله سبحانه ـ الخلافة والوصاية ، فيكفيك فيها أنّ كلمة « منزلة » إسم جنس أضيف إلى هارون ، وهو يقتضي العموم ، فيدلّ على أنّ كل مقام ومنصب كان ثابتاً لهارون فهو أيضاً ثابت لعلي ، إلاّ ما استثناه ، وهو النبوّة .

على أنّ الإستثناء هو أيضاً دليل العموم ، ولولاه لما كان وجه للإستثناء .

وأمّا ما جاء في صدر الحديث من أنّه خلّفه على أهله ، فلا يكون دليلاً على الإختصاص ، لبداهة أنّ المورد لا يكون مخصِّصاً ، وهو أحد القواعد المسلّمة في

= وما جرّه إلى التشكيك ، غير كون الحديث نصاً صريحاً في إمامة علي ، فحاول التشكيك للتخلص من هذا الإرتباك .

(١) صحيح مسلم ، ج ٧ ، باب فضائل علي بن أبي طالب ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

علم الأُصول ، فلو رأيت أنّ الجُنُبَ يمسّ آية الكرسي ، فقلت له ، لا يَمُسَّنَّ آياتِ القرآن محدِثٌ ، يكون دليلاً على أنّ الجنب يحرم عليه مسّ القرآن على الإطلاق .

وأمّا منزلة هارون من موسى ، فيكفي في بيانها قوله سبحانه ـ حكاية عن موسى ـ : ﴿ واجْعَلْ لي وَزيراً مِنْ أَهْلي * هارونَ أَخي * أَشْدُدْ بِهِ أَزْري * وأَشْرِكْهُ في أَمري ﴾[1] فجاء الجواب :

﴿ قال قَدْ أُوتيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى ﴾[2] .

إنّ من تَتَبّع سيرة النبي يجده يصوّر عليّاً وهارون كالفرقدين في السماء ، والعينين في الوجه ، لا يمتاز أحدهما في أُمّته عن الآخر في أُمته بشيءٍ ما ، ومن ذلك :

أ ـ إنّ النبي سمى أبناء علي كأسماء أبناء هارون ، فسمّاهم حسناً وحُسَيْناً ومُحْسِناً ، وقال : إنّما سَمَّيْتُهم بأسماء وُلد هارون : « شُبَّر ، وَشُبَيْر ، ومُشبر »[3] .

ب ـ إنّ النبي اتّخذ عليّاً أخاه ، وآثره بذلك على من سواه ، تحقيقاً لعموم الشّبه بين منازل الهارونِيَّيْن من أخويها ، وحرصاً على أن لا يكون ثمة من فارق بينهما . وقد آخى بين أصحابه ، فجاء عليٌّ عليه السلام وقال : آخيت بين أصحابك ، ولم تؤاخ بيني وبين أحد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أنت أخي في الدنيا والآخرة[4] .

ج ـ أمر بسد أبواب الصحابة من المسجد ، تنزيهاً له عن الجُنُب والجنابة ، لكنه أبقى باب علي عليه السلام ، وأباح له عن الله تعالى ، أن يدخل المسجد جنباً ، كما كان هذا مباحاً لهارون ، فدلّل ذلك على عموم المشابهة بين الهارونِيَّيْن

---

(١) لاحظ سورة طه : الآيات ٢٩ ـ ٣٦ وقوله : ﴿ وأَشْرِكْهُ في أَمْري ﴾ يدل على اشتراك هارون مع موسى في النبوة كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارونَ نبيّاً ﴾ (سورة مريم : الآية ٥٣) ، ولأجل ذلك استثناها النبي من منزلة هارون من موسى .

(٢) سورة طه : الآية ٣٦ .

(٣) مستدرك الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٦٥ و ١٦٨ .

(٤) سنن الترمذي ، ج ٥ ، ص ٦٣٦ ، الحديث ٣٧٢٠ . ومستدرك الحاكم ، ح ٣ ، ص ١٤ .

عليهما السلام ، كما قال ابن عباس : « وسدّ رسولُ الله أبوابَ المسجد غير باب علي ، فكان يدخل المسجد جنباً ، وهو طريقه ليس له طريق غيره »[1] .

* * *

ج ـ حديث « الغدير »

حديث الغدير ، حديث الولاية الكبرى ، حديث إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضى الرب تعالى . وهو حديث نزل به كتاب الله المبين ، وتواترت به السنّة النبوية ، وتواصلت حلقات أسانيده منذ عهد الصحابة والتابعين إلى اليوم الحاضر ، وقد صبّ شعراء الإسلام واقعة الغدير ، في قوالب الشعر ، وهو من أحسن ما أثار قرائحهم الشعرية وإليك فيما يلي حاصل تلك الواقعة ، وخطبة النبي الأكرم فيها :

أجمع رسول الله صلى الله عليه وآله ، الخروج إلى الحج في السنة العاشرة من الهجرة ، وأذّن في الناس بذلك ، فقدم المدينة خلق كثير يأتمون به حجته ، تلك الحجة التي سميت بحجة الوداع ، وحجة الإسلام ، وحجة البلاغ ، وحجة الكمال ، وحجة التمام[2] ، ولم يحج غيرها منذ هاجر إلى أن توفّاه الله سبحانه . واشترك معه جموع لا يعلم عددها إلاّ الله ، وأقلّ ما قيل إنّه خرج معه تسعون ألفاً ، وأمّا الذين حجّوا معه فأكثر من ذلك ، كالمقيمين بمكة ، والذين أتوا من اليمن . فلما قضى مناسكه وانصرف ، راجعاً إلى المدينة ، ومعه من كان من الجموع المذكورات ، ووصل إلى غدير « خم » من الجُحْفَة ، التي تتشعب فيها

---

(١) حديث « سدّ الأبواب كلّها إلاّ باب علي » ، من الأحاديث المتضافرة المنقولة عن لفيف من الصحابة ، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، لاحظ مسند أحمد ، ج ٢ ، ص ٢٦ . ومنهم أبوه عمر بن الخطاب ، لاحظ مستدرك الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٢٥ . ومن أراد التبسّط في أسانيده فعليه بالغدير ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ـ ٢١٥ . والمراجعات ، المراجعة ٣٤ .

(٢) تسميتها بالبلاغ,وبالتمام والكمال، لنزول قوله سبحانه : ﴿ يا أيُّها الرّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ . وقوله سبحانه : ﴿ اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلاَمَ ديناً ﴾ سورة المائدة : الآية ٣ في ذلك الحج .

طرق المَدَنيين والمصريين والعراقيين ، وذلك يوم الخميس ، الثامن عشر من ذي الحجة ، نزل جبرئيل الأمين عن الله تعالى بقوله : ﴿ يآ أَيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾[1] ، وكان أوائلُ القوم قريبين من الجحفة ، فأمر رسول الله أن يُرَد من تقدم منهم ، ويُحْبس من تأخّر عنهم ، حتى إذا أخذ القوم منازلهم ، نودي بالصلاة ، صلاة الظهر ، فصلّى بالناس ، وكان يوماً حاراً ، يضع الرجل بعض ردائه على رأسه وبعضَه تحت قدميه من شدّة الرمضاء ، فلما انصرف من صلاته ، قام خطيباً وسط القوم على أقتاب الإبل ، وأسمع الجميع رافعاً عقيرته ، فقال :

« الحمد لله ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، الذي لا هادي لمن أضلّ ولا مُضِلّ لمن هدى ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، أمّا بعد :

أيُّها الناس ، إنِّي أُوشك أَنْ أُدعى فأَجَبْت ، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون ، فماذا أنتم قائلون » ؟ .

قالوا : « نشهد أنّك قد بَلّغت ونصحت ، وجهدت ، فجزاك الله خيراً » .

قال : « ألستم تشهدون أنْ لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأنّ جَنَّته حَقٌ ، ونارَه حقٌ ، وأنّ الموتَ حق ، وأَنّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها ، وأنّ الله يَبْعَثُ مَنْ في القبور » ؟ .

قالوا : « بلى نشهد بذلك » .

قال : « اللّهم اشهد » . ثم قال : « أَيُّها الناسُ ، ألا تسمعون ؟ » .

قالوا : « نعم » .

قال : فإنّي فَرَطٌ على الحَوْض[2] ، فانظروني كيف تَخْلُفوني في الثقلين » .

فنادى مناد : « وما الثَّقلان يا رسول الله » .

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

(٢) أي متقدِّمكم إليه .

قال : « الثَّقْل الأكبر ، كتابُ الله ، والآخر الأصغر ، عترتي ، وإنّ اللَّطيفَ الخبيرَ نَبَّأني أنّهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض ، فلا تَقَدّموهما فتهلكوا ، ولا تَقْصُروا عنهما فتهلكوا » .

ثم أخذ بيد علي فرفعها ، حتى رؤي بياض آباطهما ، وعرفه القوم أجمعون ، فقال : « أيُّها الناس ، مَنْ أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » .

قالوا : « الله ورسوله أعلم » .

قال : « إنّ الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أَوْلى بهم من أَنْفسهم .

فمن كنت مولاهُ ، فَعَليٌّ مَوْلاهُ ـ يقولها ثلاث مرات ـ ثم قال : اللَّهُمَّ والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، وأَحِبَّ من أَحَبَّه ، وأَبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، واخذُل من خَذَله ، وأَدِرِ الحَقَّ معه حيث دار ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » .

ثم لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله :

﴿ **اليومَ أَكْمَلْتُ لكم دِينَكُم ، وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي** ﴾ الآية ، فقال رسول الله : « الله أكبر على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتي ، والولاية لعلي من بعدي » .

ثم أخذ الناسُ يهنئون عليّاً ، وممّن هنّأه في مقدم الصحابة الشيخان أبو بكر وعمر ، كل يقول : بَخٍ بَخٍ ، لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ، ومولى كل مؤمن ومؤمنة .

وقال حسان ، أئذن لي يا رسول الله أن أقول في عليٍّ أبياتاً ، فقال : قل على بركة الله ، فقام حساناً ، فقال :

يناديهم يومَ الغديرِ نبيُّهم ... بخُمٍّ واسمع بالرسول مناديا
فقال فمن مولاكُمُ ونَبِيُّكم ... فقالوا ولم يُبْدوا هناك التَّعاميا
إلهك مولانا وأنتَ نبيُّنا ... ولم تَلْقَ منا في الولاية عاصيا
فقال له قم يا عليُّ فإنّني ... رَضيتُك من بعدي إماماً وهاديا

فـمن كـنتُ مـولاه فـهـذا وليُّـه فكـونـوا لـه أتْبـاعَ صِـدْقٍ مـوالِيـا
هـنـاك دَعى الـلّهُـمَّ والِ وَلِـيَّـه وَكُنْ للذي عـادى عليّاً معـاديـا

فلمّا سمع النبي أبياته قال : «لا تزال يا حسّان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك »[1] .

هذا مجمل الحديث ، في واقعة الغدير ، وقد أصفقت الأُمّة عـلى نقله ، فلا نجد حديثاً يبلغ درجته في التواتر والتضافر ، ولا في الإهتمام نظماً ونثراً .

والإحتجاج به على إمامة عليٍّ عليه السلام يتحقق ببيان الأُمور التالية :

الأمر الأول : البلاغ الرسمي للولاية

إنّ النبي الأكرم أشاد بولاية علي ووصايته ، في حديث يوم الدار ، في مجتمع محدود ، لا يربو عددهم الأربعين . كما أشاد بخلافته عند توجّهه إلى تبـوك ، أمام جماعة من الصحابة والمهاجرين ، وكان هذا وذاك ، وغيرهما ممّا صدر منـه صلى الله عليه وآله ، في ظـروف مختلفة ، حـول ولاية الإمـام ، تهيئة لـلأذهان ، لـلإعلان الرسمي لهذه الولاية أمام الجموع الهائلة ، ليقف عليها القريب والبعيد ، والحاضر والبـادي ، فقام بـإبـلاغ ذلـك في ذلـك المحتشـد العـظيم ، وأخـذ منهم الإقـرار والإعتراف ، وهنّأ الصحابة عليّاً عليه السلام ، بهذه المكرمة الإلهيـة ، فكان هـذا إعلاناً رسمياً ، للأُمّة جمعاء ، لا يصحّ لأحد إنكاره ، والتغاضي عنه . وسيوافيك دلالة الحديث بوجه واضح لا يدع لقائل كلمة ، ولا لمجادل شبهة .

* * *

(١) هذا من أعلام النبوة ، فقد علم أنّه سوف يَنْحرف عن إمام الهُـدى في أُخريـات أيّامـه ، فَعَلّق دعاءه على ظرفِ استمرارِه في نصرته . وقد نَقَلَ هذه الأبيات عن حسان بن ثابت عدّة من أعلام المؤرخين والمحدّثين ، وإن حذف من ديوانه ، فَحُرِّفَت الكلم عن مواضعها ، ولُعب بديوانـه كما لُعب بكثـير من الدواوين ، كديـوان الفرزدق ، وديـوان كُمَيت ، وديوان أبي فـراس ، وديوان كشـاجم ، التي حذفت منها ما يرجع إلى مدح أهل البيت ورثائهم .
لاحظ الغدير ، ج ٢ ، ص ٣٤ ـ ٤٢ .

الأمر الثاني : سند الحديث وتواتره

إنّ حديث الغدير من الأحاديث المتواترة من عصر الرسول الأكرم إلى يومنا هذا ، يقف عليه من سبر كتب الحديث والتاريخ والسِّيَر والكلام والتفسير وغيرها . وما ربما يصدر من كلمات حول الحديث من أنه من أحاديث الآحاد ، فهو كلام صدر من المغرضين ورُماة القول على عواهِنِه ، من غير تدبّر وتثبت .

إنّ كتب الإمامية في الحديث وغيره ، مفعمة بإثبات قصة الغدير والإحتجاج بمؤداها . فمن مسانيد معنعنةٍ إلى مُنْبَثَقِ أنوار النبوة ، إلى مراسيل أرسلها المؤلفون إرسال المسلَّم ، وحذفوا أسانيدها لتسالم الفريقين .

وأمّا المحدثون وغيرهم من أهل السنّة فلا يتأخرون عن الإمامية في نقل الحديث والبخوع لصحته ، والركون إليه ، والتصحيح له ، والإذعان بتواتره إلاّ شُذّاذ تنكبوا عن الطريقة ، وقد ألّف غير واحد من علماء الإسلام كتباً مستقلة ، فلم يقنعهم إخراجه بأسانيد مبثوثة في الكتب ، فدوّنوا ما انتهى إليهم من أسانيده ، وضبطوا ما صَحّ لديهم من طرقه ، كل ذلك حرصاً على كلاءة متنه من الدثور ، وعن تطرق يد التحريف إليه ، منهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، صاحب التاريخ والتفسير المعروفين (ت ٢٢٤ ـ م ٣١٠) ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الهمداني المعروف بابن عقدة (م ٣٣٣) ، وأبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن سالم التميمي البغدادي (م ٣٥٥) وغيرهم[1] .

ولأجلِ إيقاف القارىء على اهتمام الصحابة والتابعين ، وتابعي التابعين ، والعلماء ، والأدباء ، والفقهاء ، بنقل الحديث وضبط أسانيده ، نذكر عدد رواته في كل قرن على وجه الإجمال ونحيل التفصيل إلى الكتب المعدّة لذلك .

١ ـ روى الحديث من الصحابة ١١٠ صحابياً ، وطَبْع الحال يستدعي أنْ يكون رواته أضعاف المذكورين ، لأنّ السامعين الوعاة له كانوا مائة ألف ، أو يزيدون .

---

(١) دكر شيخنا الحجة العلامة الأميني ، أسماء المؤلفين وخصوصيات كتبهم ، في الجزء الأول ، من غديره ، ص ١٥٢ ـ ١٥٧ .

٢ ـ رواه من التابعين ٨٤ تابعياً .

وأما عدّة الرواة من العلماء والمحدثين فنذكرها على ترتيب القرون .

٣ ـ عدد من رواه في القرن الثاني :	٥٦ عالماً ومحدّثاً .
٤ ـ عدد من رواه في القرن الثالث :	٩٢ عالماً ومحدّثاً .
٥ ـ عدد من رواه في القرن الرابع :	٤٣ عالماً ومحدّثاً .
٦ ـ عدد من رواه في القرن الخامس :	٢٤ عالماً ومحدّثاً .
٧ ـ عدد من رواه في القرن السادس :	٢٠ عالماً ومحدّثاً .
٨ ـ عدد من رواه في القرن السابع :	٢٠ عالماً ومحدّثاً .
٩ ـ عدد من رواه في القرن الثامن :	١٩ عالماً ومحدّثاً .
١٠ ـ عدد من رواه في القرن التاسع :	١٦ عالماً ومحدّثاً .
١١ ـ عدد من رواه في القرن العاشر :	١٤ عالماً ومحدّثاً .
١٢ ـ عدد من رواه في القرن الحادي عشر :	١٢ عالماً ومحدّثاً .
١٣ ـ عدد من رواه في القرن الثاني عشر :	١٣ عالماً ومحدّثاً .
١٤ ـ عدد من رواه في القرن الثالث عشر :	١٢ عالماً ومحدّثاً .
١٥ ـ عدد من رواه في القرن الرابع عشر :	١٩ عالماً ومحدّثاً .

وقد أغنانا المؤلفون في الغدير عن إراءة مصادره ومراجعه ، وكفاك في ذلك كُتُب لِمّة كبيرة من أعلام الطائفة :

منهم العلاّمة السيد هاشم البحراني (م ١١٠٧) مؤلف غاية المرام .

ومنهم السيد مير حامد حسيْن الهندي اللكهنوئي (م ١٣٠٦) ، ذكر حديث الغدير ، وطرقه ، وتواتره ، ومفاده في مجلدين ضخمين في ألف وثمان مائة صحيفة ، وهما من مجلدات كتابه الكبير « العبقات » ، فقد أتمّ الله به الحجة ، وأوضح المحجة ، وكتابه العبقات كتاب جليل ، فاح أريجه بين لابتي العالَم ، وطبق حديثُه المشرق والمغرب .

ومنهم العلامة المتتبع المحقق الفذّ الشيخ عبد الحسين النجفي (ت ١٣٢٠ ـ م ١٣٩٠) في كتابه الفريد « الغدير » ، وبعين الله ، إنّ كتابه هذا هو المعجز

المبين ، ومن حسنات الدهر الخالدة ، جزاه الله خير الجزاء[1] .

* * *

الأمر الثالث ـ دلالة الحديث

إنّ دلالة الحديث على إمامة مولانا أمير المؤمنين ، دلالة واضحة ، لم يشك فيها أي عربي صميم ، عصرَ نزول الحديث وبعده إلى قرون ، ولم يفهموا من لفظة المولى سوى معنى الإمامة ، وتتابع هذا الفهم فيمن بعدهم من الشعراء إلى أن وَلّد الدهرُ إمامَ المشككين ، فجاء بتشكيكات ، كسائر تشكيكاته ، التي تاب منها عند احتضاره[2] .

والدلالة مركزة على أن لفظ المولى نصّ فيما نثبته من الإمامة بالوضع اللغوي ، أو بالقرائن المحتفة به . وعلى كلا التقديرين ، يكون الحديث حجةً قاطعةً في الإمامة ، ونحن نسلك كلا الطريقين .

الطريق الأول ـ الدلالة بالوضع اللغوي

إنّ « مَفْعَلْ » ـ هنا ـ بمعنى « أَفْعَلْ » ، ولفظ « مَوْلى » أُريد منه هنا الأَوْلى ، سواءٌ أقلنا إنّه المعنى الوحيد ـ كما سيوافيك ـ أو أحد معانيه ، كما في قوله سبحانه : ﴿ فاليَومَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الذينَ كَفَروا مَأْواكُمُ النَّارُ هِي مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ المَصيرُ ﴾[3] .

والمفسّرون للآية على فريقين منهم مَنْ حَصَرَ التفسير بأنّها أَوْلى بكم ، ومنهم

---

(١) ومن أراد التبسط فعليه الرجوع إلى ما ذكرنا من المصادر ، وإلى كتاب « المراجعات » لمصلح الدين ، السيد شرف الدين العاملي رحمه الله .

(٢) لاحظ دائرة المعارف ، لفريد وجدي ، ج ٤ ، ص ١٤٩ ، وفيها أنّه قال : « وأمّا ما استكثرت من إيراد السؤالات ، فإنّي ما أردت إلاّ تكثير البحث وتشحيذ الخاطر ، والإعتمادُ في الكلّ على الله تعالى » .

(٣) سورة الحديد : الآية ١٥ .

من جَعَلَه أحد المعاني ، وهؤلاء أئمة العربية ، عرفوا أنّ هذا المعنى من معاني اللفظ اللغوية ، ولولاه لما صحّ لهم تفسيره به ، يقول الخازن : « هي مولاكم ، أي وَلِيُّكم ، وقيل أَوْلى بكم ، لما أسلفتم من الذنوب ، والمعنى : هي التي تَلي عليكم ، لأنّها ملكت أمركم وأُسلمتم إليها ، فهي أَولى بكم من كل شيء »[1]

وقد نقل كون المولى بمعنى الأَولى ، الرازي في تفسيره عن الكلبي النسّابة (م ١٤٦) والفرّاء (م ٢٠٧)[2] وأبو عبيدة معمّر بن المثنى البصري (م ٢١٠) ، والأخفش الأوسط (م ٢١٨)[3] ، ونهاية العقول[4] .

واستشهد أبو عبيدة ببيت لبيد :

فَغَدَتْ كِلا الفَرْجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ مولى المخافةِ خَلْفَها وأمامها

حتى أنّ البخاري ، صاحب الصحيح ، في قسم التفسير منه ، فسّره بـ « أَوْلى »[5] .

نعم هنا شبهة ذكرها الرازي في تفسيره ، حَسِبَ أنّها تصادم دلالة الحديث على الولاية الكبرى للإمام عليٍّ عليه السلام ، فقال في تفسير قوله سبحانه : ﴿ هِيَ مَوْلاكُمْ وبِئْسَ المَصير ﴾ : « لو كان مولى وأَوْلى بمعنى واحد في اللغة ، لَصَحَّ استعمال كلّ واحد منها في مكان الآخر ، فيجب أن يقال : هذا مولى من فلان ، ولمّا بطل ذلك ، عَلِمنا أنّ الذي قالوه معنىً ، وليس بتفسير » .

وقال في نهاية العقول : « لو كان المَوْلى يجيء بمعنى الأَوْلى ، لَصَحَّ أن يُقْرَنَ بأحدهما ، كلّما يَصِحُّ قَرْنُه بالآخر ، لكنه ليس كذلك ، فامْتَنَع كونُ المولى بمعنى الأولى ، مع أنّه لا يقال : هو مولى من فلان ، ولا يصحّ أَنْ يقال : « هو أولى » بدون من » .

---

(١) تفسير الخازن ، نقلاً عن الغدير ، ج ١ ، ص ٣٤١ .
(٢) معاني القرآن ، للفراء ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .
(٣) لاحظ جميع ذلك في تفسير الرازي ، ج ٨ ، ص ٩٣ .
(٤) نهاية العقول ، للرازي ، أيضاً .
(٥) صحيح البخاري ، ج ٧ ، ص ٢٤٠ .

يلاحظ عليه : قد فات الرازي أنّ اتّحاد المعنى أو الترادف بين الألفاظ ، إنّما يقع في جوهريات المعاني لا عوارضها الحادثة من أنحاء التركيب ، وتصاريف الألفاظ ، وصيغها . مثلاً : الإختلاف الحاصل بين المولى والأولى ، بلزوم مصاحبة الثاني بالباء (أولى به) ، وتجرّد الأول منه ، إنّما حصل من ناحية صيغة إفعل من هذه المادة ، كما أنّ مصاحبة « مِنْ » ، هي مقتضى تلك الصيغة مطلقاً ، إذن مفاد « فلان أولى بفلان » ، و« فلان مولى فلان » ، واحد ، حيث يراد به « الأولى به من غيره » ، ويشهد لذلك أنّ « افعل » بنفسه ، يستعمل مضافاً إلى المُثنّى والجمع ، أو ضميرهما بغير أداة ، فيقال : زيد أفضل الرجلين ، أو أفضلهما ، وأفضل القوم وأفضلهم ، ولا يستعمل كذلك إذا كان ما بعده مفرداً ، فلا يقال : زيد أفضل عمرو ، وإنّما يقال هو أفضل منه ، ولا يرتاب عاقل في اتّحاد المعنى في الجميع .

قال الأزهري في باب التفضيل : « إنّ صحة وقوع المرادف موقع مرادفه ، إنّما يكون إذا لم يمنع من ذلك مانع ، وها هنا منع مانع ، وهو الإستعمال ، فإنّ إسم التفضيل ، لا يصاحب من حروف الجر إلاّ « من » خاصة ، وقد تحذف مع مجرورها للعلم بها نحو : ﴿ **والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقى** ﴾

ثمّ إنّ الرازي اختار أنّ المولى في الحديث بمعنى « الناصر » ، مع أنّ ما أورده على القول بأنّه بمعنى « الأولى » ، وارد عليه ، فلا يقال في اللغة العربية ، « هو مولى دين الله » ، مكان « ناصر » ، ولا يصحّ تبديل قوله : ﴿ **مَنْ أَنْصاري إلى الله** ﴾[3] . إلى « من مواليّ إلى الله » ، أو تبديل قول الحواريين : ﴿ **نَحْنُ أَنْصارُ الله** ﴾[4] إلى « نحن موالي الله » .

هذه الحالة مطّردة في كثير من المترادفات التي جمعها الرّماني (م ٣٨٤) في تأليف مفرد ، مع أنّ اختلاف الكيفية حاكم عليها أيضاً ، مثلاً يقال : عندي

---

(١) سورة الأعلى : الآية ١٧ .

(٢) التصريح ، لخالد بن عبد الله الأزهري ، باب أفْعَل التفضيل

(٣) سورة آل عمران : الآية ٥٢ .

(٤) الآية السابقة نفسها .

درهم غيرُ جيد ، ولا يصحّ أن يقال : عندي درهم إلّا جيد ، كما هو السائد في كلمة « هل » و« همزة الإستفهام» ، فإنّهما بمعنى واحد ، ولكن يفترقان بفروق ثلاثةٍ ، أو خمسة ، أو ستة .

ولما كان الإشكال ضئيلاً ، قال النيسابوري ، في تفسيره ـ بعد نقل كلام الرازي ، إلى قوله : وحينئذٍ يسقط الإستدلال به ـ : « قُلْتُ : وفي هذا الإسقاط بَحْثٌ لا يَخْفى »[1] .

ولما وقف التفتازاني على تمامية دلالة الحديث على الإمامة ، حاول رمي الحديث بعدم التواتر ، قال ـ في دلالة الحديث ـ : « « المولى » قد يُراد به المُعْتِق ، والمُعْتَق ، والحليف ، والجار ، وابن العم ، والناصر ، والأولى بالتصرف ، قال الله تعالى : ﴿ مأواكُمُ النَّارُ هي مَوْلاكُمْ ﴾ ، أي أَولى بكم ، ذكره أبو عبيدة ، وقال النبي : « أيّما إمرأة أنكحت نفسها بغير إذن مولاها » ، أي الأولى بها ، والمالك لتدبير أمرها ، ومثله في الشعر كثير . وبالجملة استعمال المولى بمعنى المتولي ، والمالك للأمر ، والأولى بالتصرف ، شائع في كلام العرب ، منقول عن كثير من أئمة اللغة ، والمراد أنّه اسم لهذا المعنى ، لا صفة بمنزلة الأولى ليعترض بأنّه ليس من صيغة اسم التفضيل ، وأنّه لا يستعملُ استعمالَه ، وينبغي أن يكون المراد به في الحديث هو هذا المعنى ، ليطابق صدر الحديث ، ولأنّه لا وجه للخمسة الأُوَل ، وهو ظاهر ، ولا للسادس لظهوره ، وعدم احتياجه إلى البيان وجمع الناس لأجله » . إلى أن قال : « ولا خفاء في أنّ الولاية بالناس ، والتولّي ، والمالكية لتدبير أمرهم ، والتصرّف فيهم ، بمنزلة النبي ، وهو معنى الإمامة »[2] .

هذا من غير فرق بين تفسير مَفْعَلْ بـ أَفْعَل ، أي المولى بمعنى أَوْلى ، أو تفسيره بفَعيل ، أي الولي ، وقد نصّ على ذلك أئمة العربية منهم الفراء في تفسيره ، وأبو العباس المُبَرّد ، قالا : « الولي والمولى ، بمعنىً في لغة العرب واحد »[3] .

---

(١) تفسير النيسابوري ، تفسير سورة الحديد .

(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٣) لاحظ معاني القرآن للفراء ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ، والغدير ج ١ ، ص ٣٦١ .

قال في الصحاح : والولي كل من وَلِيَ أمر واحد ، فهو وليّه ، وقول الشاعر :

هُمُ المَوْلى وإن جَنفوا علينا وإنّا من لقائهم لزورُ[1]

وقال في النهاية : « وكُلّ من ولي أمراً أو قام به فهو مولاه ووليه »[2]

وقال الفيروز آبادي ، في قاموسه : « المَوْلى : المالِك ، والعبد ، والمعتق ، والولي ، والربّ »[3] .

واستشهد الزبيدي في تاج العروس ، على كون مولى بمعنى ولي ، بقوله صلى الله عليه وآله : « أيّما امرأة أنكحت بغير إذن مولاها . . . »[4] .

ليس للمولى إلاّ معنى واحد

إنّ السابر في كتب اللغة يرى أنّهم يذكرون في تفسير « المولى » أُموراً ، يبدو أنّها معان مختلفة له ، مثلاً يقول صاحب القاموس : « المولى : المالِكْ ، والعَبْد ، والمعتِق ، والمعتَق ، والصاحب ، والقريب كابن العم ونحوه ، والجار ، والحليف ، والإبن ، والعَمّ ، والنَّزيل ، والشَّريك ، وابن الأُخت ، والوَليّ ، والربّ ، والناصر ، والمُنْعِم ، والمُنْعَم عليه ، والمُحِبّ ، والتابع ، والصِّهر »[5] .

والحق أنّه ليس للمولى إلاّ معنى واحد وهو الأولى بالشيء ، وتختلف هذه الأولوية بحسب الإستعمال في كل مورد من موارده ، والإشتراك معنوي ، وهو الأولى من الإشتراك اللفظي المستدعي لألفاظ كثيرة غير معلومة بنصّ ثابت ، والمنفية بالأصل المحكّم ، وهذه النظرية أبدعها ابن البطريق الحلّي (ت ٥٣٣ ـ

---

(١) الصحاح ، ج ٦ ، مادة «ولى » ، ص ٢٥٢٩ .
(٢) النهاية لإبن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٢٨ .
(٣) القاموس المحيط ، مادة « ولى » ، ج ٤ ، ص ٤٠١ .
(٤) تاج العروس ، ج ١٠ ، ص ٣٩٩ .
(٥) القاموس ، ج ٤ ، ص ٤٠١ .

م ٦٠٠)[1] .

وهـذا المعنى الواحـد ، وهو الأولى بـالشيء جامـع لهاتيـك المعـاني جمعـاء ، ومأخوذ في كلٍّ منها بنوع من العناية ، ولم يطلق لفظ المولى على شيء منها إلاّ بمناسبةٍ لهذا المعنى :

١ ـ فالمالك أولى بكلاءة مماليكه ، وأمرهم ، والتصرف فيهم .

٢ ـ والعبد أولى بالإنقياد لمولاه من غيره .

٣ ـ والمعتِقَ (بالكسر) أولى بالتفضيل على مَنْ أعتقه مِنْ غيره .

٤ ـ والمُعْتَقُ (بالفتح) أولى بأن يَعْرِف جميلَ من أعتقه عليه ويشكره .

٥ ـ والصاحب ، أولى بأن يؤدّي حقوق الصحبة من غيره .

٦ ـ والقريب ، هو أولى بأمر القريبين منه ، والدفـاع عنهم ، والسعي وراء صالحهم .

٧ ـ والجار ، أولى بالقيام بحفظ حقوق الجوار كلّها من البعداء .

٨ ـ والحليف ، أولى بالنهوض بحفظ مَنْ حالفه ، ودفع عادية الجور عنه .

٩ ـ والإبن أولى الناس بالطاعة لأبيه والخضوع له .

١٠ ـ والعَمّ ، أولى بكـلاءة إبن أخيه ، والحنـان عليه ، وهـو القـائم مقـام والده .

١١ ـ والنّـزيل ، أولى بتقـدير من آوى إليهم ولجـأ إلى سـاحتهم ، وأمن في جوارهم .

١٢ ـ والشريك أولى برعاية حقوق الشركة وحفظ صاحبه عن الأضرار .

١٣ ـ وابن الأُخت ، أولى الناس بالخضوع لخاله الذي هو شقيق أُمه .

١٤ ـ والولي ، أولى بأن يراعي مصالح المُوَلّى عليه .

١٥ ـ والناصر ، أولى بالدفاع عمّن التزم بنصرته .

١٦ ـ والربّ ، أولى بخلقه من أي قاهر عليهم .

---

(١) عُمْدة عيون صحاح الأحبار ، لابن البطريق ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

١٧ ـ والمنعِم (بالكسر) أولى بالفضل على من أنعم عليه ، وأنْ يُتْبِعَ الحسنة بالحسنة .

١٨ ـ والمُنْعَمُ عليه ، أولى بشكر منعمه من غيره .

١٩ ـ والمحب ، أولى بالدفاع عمّن أحبّه .

٢٠ ـ والتابع ، أولى بمناصرة متبوعه ممّن لا يتبعه .

٢١ ـ والصهر ، أولى بأن يرعى حقوق من صاهره ، فشدّ بهم أزْره ، وقوي أمره .

إلى غير ذلك من المعاني التي هي أشبه بموارد الإستعمال . والأولوية مأخوذة فيها بنوع من العناية .

إلى هنا قد ظهر أنّ المولى في الحديث الشريف بمعنى الأولى ، أو بمعنى الولي ، وأنّ ما ذكر للمولى من المعاني المختلفة ، فليس من قبيل المعاني المختلفة ، حتى يحتاج تفسير المولى بالأولى إلى قرينة مُعَيِّنة ، بل من قبيل المصاديق .

هذا كلّه في الطريق الأول .

الطريق الثاني ـ الدلالة بالقرائن

إنّ القرائن الحافة بالحديث تدلّ على أنّ المراد من المولى هو الأولى أو الولي ، وهي على قسمين : قرائن حالية وقرائن مقالية :

والمراد من الأُولى ، ما احتف به الكلام الصادر من النبي الأكرم ، من ظروف زمانية ومكانية . والمراد من الثانية ما يتصل بالكلام نفسه من الجمل والعبارات .

أمّا القرائن الحالية ، فبيانها بكلمة جامعة أنا لو فرضنا أنّ لفظ المولى مشترك بين المعاني التي تلوناها عليك ، إلاّ أنّه لا يمكن إرادة غيره في المقام ، إمّا لاستلزامه الكفر ، كما إذا أُريد منه الرب .

أو الكذب ، كما إذا أُريد منه العم ، والإبن ، وابن الأُخت ، والمعتِق ،

والمعتَق ، والعبد ، والمالك ، والتابع ، والْمُنْعَم عليه ، والشريك ، والحليف ، وهو واضح لمن تدبر فيه .

وأمّا الصاحب ، والجار ، والنزيل ، والصِّهر ، والقريب ، فلا يمكن إرادة شيء من هذه المعاني ، لسخافته ، لا سيما في هذا المحتشد الرهيب ، وفي أثناء المسير ، ورمضاء الهجير ، وقد أمر صلى الله عليه وآله بحبس المتقدم في السير ، ومنع التالي منه ، في محلّ ليس صالحاً للنزول ، غير أنّ الوحي الإلهي ، حبسه هناك ، فيكون صلى الله عليه وآله قد عقد هذا المحتفل ، والناس قد أنهكتهم وعثاء السفر ، وحرّ الهجير ، وحراجة الموقف ، حتى أنّ أحدهم لَيَضَع طرفاً من ردائه تحت قدميه ، وطرفاً فوق رأسه ، فيرقى هنالك منبر الأهداج ، ويُعْلِمُهم عن الله تعالى بأنّه مَنْ كان هو صلى الله عليه وآله مصاحباً أو جاراً أو نزيلاً عنده ، أو صهراً أو قريباً له ، فعليٌّ كذلك !! .

وأمّا الْمُنْعِم ، فلا ملازمة بين أن يكون كلّ من أنعم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله فعليٌّ منعِم عليه .

وأمّا الناصر والمحب ، فسواء كان كلامه صلى الله عليه وآله ، إخباراً أو إنشاء ، فاحتمالان ساقطان ، إذ ليسا بأمر مجهول عندهم ، لم يسبقه التبليغ حتى يأمر به في تلك الساعة ، ويحبس له الجماهير ، ويعقد له ذلك المنتدى الرهيب ، في موقف حرج ، لا قرار فيه .

فلم يبق من المعاني إلّا الولي ، والأولى به ، والمراد منه المتصرف في الأمر ومتوليه . ذكر الرازي في تفسير قوله تعالى : ﴿ **واعْتَصِموا بالله هُوَ مَوْلاكُم** ﴾(١) ، قال : قال القفال : « هو مولاكم ، سَيِّدُكُم والْمُتَصَرِّفُ فيكم »(٢) .

فتعين أنّ المراد بالمَوْلى : الْمُتَصَرِّف ، الذي قَيّضه الله سبحانه لان يُتَّبع ، ويكونَ إماماً ، فيهدي البشر إلى سنن النجاة ، فهو أولى من غيره بأنحاء التصرف

---

(١) سورة الحج : الآية ٧٨ .

(٢) تفسير الرازي ، ج ٦ ، ص ٢١ .

في المجتمع الإنساني ، فليس هو إلا نبي مبعوث أو إمام مفترض الطاعة منصوص به من قبله تعالى ، بأمر إلهي ، لا يبارحه في أقواله وأفعاله : ﴿ وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوىٰ * إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحىٰ ﴾[1] .

وأمّا القرائن المقالية : فمتعددة تثبت أيضاً أنّ المَوْلى بمعنى الأولى بالشيء أو بمعنى الولي ، إذا تنازلنا إلى أنّه أحد معانيه ، وأنّه من المشترك اللفظي ، وأمّا على القول بأنّه ليس للمولى إلاّ معنى واحد ، كما أوضحناه ، فلا حاجة لذكر القرائن إلاّ تأكيداً .

القرينة الأُولى : صدر الحديث ، وهو قوله صلى الله عليه وآله : « ألست أَوْلى بِكُمْ من أَنْفُسِكُم » ، أو ما يؤدّي مؤدّاه من ألفاظ متقاربة ، ثم فرّع على ذلك قوله : « فَمَنْ كُنْتُ مَولاهُ فَعَلِيٌّ مولاه » . وقد روى هذا الصدر من حفاظ أهل السنّة ، ما يربو على أربع وستين عالماً[2] .

فإنّ هذا الصدر يُعَيِّن أنّ المراد من المولى هو الأولى ، ولا وجه للتفكيك المخل .

القرينة الثانية : ذيل الحديث ، وهو قوله صلى الله عليه وآله : « اللّهم وال من والاه ، وعادِ من عاداه » ، وفي جملة من طرق الحديث قوله : وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، أو ما يؤدّي مؤدّاه ، فلو أُريد منه غير الأولى بالتصرف ، فما معنى هذا التطويل ، فإنّه لا يلتئم ذكر هذا الدعاء إلاّ بتنصيب علي مقاماً شامخاً ، يؤهله لهذا الدعاء .

القرينة الثالثة : أخذ الشهادة من الناس ، حيث قال صلى الله عليه وآله : « ألستم تشهدون أنْ لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأنّ حجته حقّ الخ » . فإنّ وقوع قوله : « من كنت مولاه » ، في سياق الشهادة بالتوحيد والرسالة ، يحقق كون المراد ، الإمامة ، الملازمة للأولوية على الناس .

---

(١) سورة النجم : الآيتان ٣و٤ .

(٢) لاحظ نقولهم ، في كتاب الغدير ، ج ١ ، موزعين حسب قرونهم .

القرينة الرابعة : التكبير على إكمال الدين ، حيث لم يتفرقوا بعد كلامه صلى الله عليه وآله ، حتى نزل أمين وحي الله بقوله تعالى : ﴿ **اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ (الآية) ، فقال رسول الله : « الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ، ورضى الرب برسالتي ، والولاية لعلي من بعدي ، فأي معنى يكمل به الدين ، وتتم به النعم ، ويرضى به الربّ في عداد الرسالة ، غير الإمامة التي بها تمام الرسالة ، وكمال نشرها وتوطيد دعائمها .

القرينة الخامسة : نَعْيُ النبي وفاته إلى الناس ، حيث قال صلى الله عليه وآله : « كأنّي دُعيت فأجبت » . وفي نقل : « إنّه يوشك أن ادعى » ، أو ما يقرر ذلك ، وهذا يعطي أنّ النبي قد بقيت من تبليغه مهمة ، يحذر أن يدركَهُ الأجل قبل الإشادة بها ، وهي تعرب عن كون ما أشاد به في هذا المحتشد ، تبليغ أمر مهم ، يخاف فوته ، وليس هو إلاّ الإمامة .

أضف إليه أنّه يعرب بذلك عن أنّه سوف يرحل من بين أظهرهم ، فيحصل بعده فراغ هائل ، وأنّه يُسَدُّ بتنصيب عليٍّ في مقام الولاية .

القرينة السادسة : التهنئة ، جاء في ذيل الحديث ، وأخرجه الطبري في كتاب « الولاية » عن زيد بن أرقم ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « معاشر الناس ، قولوا : أعطيناك على ذلك عهداً عن أنفسنا ، وميثاقاً بألسنتنا ، وصفقة بأيدينا ، نؤدّيه إلى أولادنا وأهالينا ، لا نبغي بذلك بدلاً ، وأنت شهيد علينا ، وكفى بالله شهيداً ، قولوا ما قُلْتُ لكم ، وسَلِّموا على عليٍّ بإمرة المؤمنين ، وقولوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، فإنّ الله يعلم كُلَّ صوت ، وخائنة كل نفس ، فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ، ﴿ **ومن أَوْفى بما عاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتيهِ أَجراً عظيماً** ﴾ قولوا ما يُرضي الله عنكم ، فإنْ تَكفُروا ، فإنّ الله غَنِيٌّ عَنْكُمْ » .

القرينة السابعة : الأمر بإبلاغ الغائبين : وقد أمر صلى الله عليه وآله في آخر خطبته بأنْ يُبَلِّغَ الشاهدُ الغائبَ ، فما معنى هذا التأكيد ، إذا لم يكن هناك مهمة لم تُتح الفرص لتبليغها على نطاق واسع ، ولا عرفته جماهير المسلمين ، وما هي إلاّ الإمامة .

وغير ذلك من القرائن التي استقصاها شيخنا المتتبع في غديره[1] .

حديث الغدير ورجالات الأدب

شاء المولى سبحانه أن يبقى حديث الغدير على مَرِّ العصور والأيام ، حجةً على المسلمين في التعرّف على مستَقَرّ الولاية الكبرى بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، فقيّض المولى سبحانه ، رجالات الأدب ، وأساتذة الشعر ، فنظموا تلك المأثرة النبوية الخالدة ، وصبّوها في قوالب أشعارهم ، وقرائضهم ، فترى أنّهم ـ وهم أساتذة اللغة وبواقع الأدب ـ يعبّرون عنه بكلمات صريحة في الإمامة ، أو الخلافة . وقبل كل شاهد نذكر بيت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال :

وأَوْجَب لي ولايته عليكم ... رسولُ الله يومَ غديرِ خمّ

ثم بعده حسان بن ثابت ، الذي حضر مشهد الغدير ، وقد تقدّم ذكر أبياته .

ومنهم قَيْس بن سعد بن عبادة ، الصحابي العظيم ، يقول :

وعَليٌّ إمامُنا وإمامٌ ... لسوانا أتى به التنزيل
يوم قال النبيُّ من كنتُ مولاه ... فهذا مولاهُ خطب جليل

ومنهم داهية العرب ، في قصيدته المعروفة بـ « الجلجلية » ، يقول فيها معترضاً على معاوية :

وكم قد سمعنا من المصطفى ... وصايا مخصصة في علي
وفي يوم خمّ رقى منبراً ... وبلّغ والصحب لم ترحل
فامنحه إمرة المؤمنين ... من الله مستخلف المنحل

وغيرهم من الشعراء الذين يحتجّ بقولهم في الأدب واللغة ، ككميت بن زيد الأسدي المتوفي عام ١٢٦ ، والعبدي الكوفي من شعراء القرن الثاني ، وشيخ

---

(١) لاحظ الغدير ، ج ١ ، ص ٣٧٠ ـ ٣٨٣ .

العربية أبي تمّام ، وغيرهم ممّن يطول بذكرهم المقام[1] .

إلى هنا تمّ الكلام حول الحديث متناً وسنداً ، وهو يعرب عن حقيقة ناصعة من أجلى الحقائق الدينية ، وهي ثبوت الولاية لعلي بعد النبي ، ولا يرتاب فيها إلاّ مغرض لا يرتاد الحقيقة ، أو غافل عن مصادر الحديث[2] .

ثم إنّ ها هنا سؤالين مهمّين ، ربما يدفع البعضُ بهما حديثَ الغدير ودلالَته ، لا بُدّ من ذكرهما ، والإجابة عنهما :

* * *

السؤال الأول : لماذا أعرض الصحابة عن مدلول حديث الغدير ؟

إنّ هاهنا اعتراضاً على تواتر حديث الغدير ، أو دلالته على تنصيب عليٍّ في مقام الولاية والخلافة ، بأنّه لو كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يأخذه الصحابة مقياساً بعد النبي . وليس من الصحيح إجماع الصحابة ، وجمهور الأُمّة على ردّ ما بلّغه النبي في ذلك المحتشد العظيم .

والجـــواب :

إنّ ذلك أقوى مستمسك لمن يريد التخلص من الإعتناق بالنصّ المتواتر الجلي في المقام ، ولكنه لو رجع إلى تاريخ الصحابة ، يرى لهذه الأمور نظائر كثيرة في حياتهم السياسية ، وَلْيَكُنْ تَرْكُ العملِ بحديث الغديرِ من هذا القبيل . وفيما يلي نذكر نماذج من هذا الإجتهادِ المرفوض قبال النصّ .

١ ـ رزية يوم الخميس

كلُّ من أَلَمَّ بالحديث والتاريخ ، يعرف حديث « رزية يوم الخميس » ،

(١) من أراد الوقوف على أشعارهم ، فليرجع إلى الغدير بأجزائه .

(٢) لقد استندنا في هذا البحث الصافي إلى كتاب الغدير ، فنقدر جهود شيخنا العلامة الأميني ، المغفور له .

الذي رواه الشيخان وغيرهما ، أخرج البخاري عن ابن عباس ، قال : لما حُضِر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب ، قال النبي : « هلّم أكتب لكم كتاب لا تضلّوا بعده أبداً » ، فقال عمر : « إنّ النبي قَد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله » . فاختلف أهل البيت ، فاختصموا ، منهم من يقول : قرّبوا ، يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلّوا بعده ، ومنهم يقول ما قال عمر . فلما أكثروا اللغو والإختلاف عند النبي ، قال لهم (صلى الله عليه وآله) : قوموا .

قال عبد الله بن مسعود : فكان ابن عباس يقول : « إنّ الرزية كلّ الرزية ما حالَ بين رسول الله وبين أنْ يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم »[1] .

٢ ـ سرية أُسامة

قد اهتمّ النبي ببعث سرية أُسامة بن زيد اهتماماً عظيماً ، فأمر أصحابه بالتهيؤ لها ، وحثّهم عليها ، ثم عبّأهم بنفسه الزكية ، إرهافاً لعزائمهم ، واستنهاضاً لهممهم ، فلم يُبْق أحداً من وجوه المهاجرين والأنصار كأبي بكر ، وعُمَر ، وأبي عبيدة ، وسعد ، وأمثالهم ، إلاّ وَقد عبّاه بالجيش ، وكان ذلك لأربع ليال بقين من صفر ، سنة إحدى عشرة للهجرة ، فلما كان يوم الثامن والعشرين من صفر ، بدأ به (صلوات الله عليه وآله) مرض الموت ، فلما أصبح يوم التاسع والعشرين ، ووجدهم مُثّاقلين ، خرج إليهم فحضّهم على السير ، وعقد اللواء لأُسامة بيده الشريفة ، إرهافاً لعزيمتهم ثم قال : « أُغز باسم الله ، وفي سبيل

(١) أخرجه البخاري ، في غير مورد ، لاحظ ج ١ ، باب كتابة العلم ، الحديث ٣ ؛ وج ٤ ، ص ٧٠ ؛ وج ٦ ، ص ١٠ ؛ من النسخة المطبوعة سنة ١٣١٤ . والإمام أحمد في مسنده ج ١ ، ص ٣٥٥ ، وفيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : يوم الخميس وما يوم الخميس . ثم نظرت إلى دموعه على خدّيه تحدر كأنّها نظام اللؤلؤ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله ، إئتوني باللوح والدواة ، أو الكتف ، أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً . فقالوا : « رسول الله يَهْجُر » !! .

الله » . فخرج بلوائه معقوداً ، فدفعه إلى بُرَيْدة ، وعسكر بالجُرْف .

ثم تثاقلوا هناك ، فلم يبرحوا ، مع ما وَعَوْه ورأوه من النصوص الصريحة في وجوب إسراعهم كقوله صلوات الله عليه وآله : « أُغز صباحاً على أهل أُبنة » . وقوله : « وأسرع السير لتستبق الأخبار »(١) .

وقد أغضب النبيَّ تثاقُلُهم ، حتى قال : « جَهِّزوا جيشِ أُسامة ، لَعَنَ الله من تخلّف عنه » ، فقال قوم : « يجب علينا امتثال أمره ، وأُسامة قد برز من المدينة » ، وقال قوم : « قد اشتدّ مرض النبي ، فلا تسع قلوبنا مفارقته ، والحالة هذه ، فنصبر حتى نبصر أي شيء يكون من أمره »(٢) .

ثم إنّ مَنْ ذَكَر تخلُّفَ القومِ عن أُسامة ، حاول تعليل تخلّف الصحابة ، فقال بأنّ الغرض منه إقامة مراسم الشرع في حال تزلزل القلوب ، وتسكين نائرة الفتنة المؤثرة عند تقلّب القلوب(٣) .

فإذا صحّ هذا العذر ، فليصحّ مثله في حديث الغدير ، فإنّ القوم - أكثرهم لا جميعهم - ثَقُل عليهم إمامة علي بن أبي طالب الذي قتل من أبناء القوم وإخوانهم يوم بدر وحنين وغيرهما ، ما قتل ، فرجّحوا مخالفة الحديث حفظاً للوحدة ، أو لغير ذلك من هذه المبررات - عند القوم - للإجتهاد تجاه النصّ .

كما أنّهم في نفس القضية ، طعنوا في إمارة أُسامة ، طعناً عظيماً ، وأقلّ ما قالوه ، إنّ النبيَّ قد أَمّر شاباً غير مجرّب على شيوخ القوم وأكابرهم !! .

٣ - صُلْحُ الحُديبيّة واعتراض القوم

إنّ النبي الأكرم صالح قريشاً في أرض الحديبيّة لمصالح عالية ، كشف المستقبل عنها بوضوح . ولما تمّ كتاب الصلح ، اعترض عليه لفيف من الصحابة ، حتى تصوّروا أنّه من باب إعطاء الدنيّة في طريق الدين .

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ، ص ١٨٩ - ١٩٢ .

(٢) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٣) المصدر سابق نفسه .

روى مسلم في باب صلح الحديبيّة أنّ عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : « أوَ لسنا على الحق ، وهم على الباطل ؟ » قال رسول الله : « بلى » . قال : « أوَ لسنا قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النار » ؟ قال : « بلى » . قال : « ففيم نُعطي الدّنية في ديننا ، ونرجع وَلمّا يحكم الله بيننا وبينهم » ؟ . فقال صلّى الله عليه وآله : « يا ابن الخطاب ، إنّي رسولُ الله ، ولن يضيّعني الله أبداً »(١) .

فانطلق عُمَر ، ولم يصبر متغيظاً ، فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، ألسنا على حقّ وهم على باطل ، قال : بلى ، قال : أليس قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النار . قال : بلى . قال : فعلى مَ نعطي الدنيّة في ديننا ، ونرجع ولّما يحكم الله بيننا وبينهم . فقال : يا ابن الخطاب ، إنّه رسول الله ، ولن يُضَيِّعه الله أبداً .

فلما فرغ رسول الله من الكتاب قال لأصحابه ، قوموا فانحروا ، ثم احلقوا . قال الراوي : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد ، دخل خباءه ، ثم خرج ، فلم يكلم أحداً منهم بشيء ، حتى نحر بُدْنَهُ بيده ، ودعا حالقه ، فحلق رأسه . فلما رأى أصحابه ذلك قاموا ، فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعض(٢) .

ولسنا بصدد استقصاء مخالفات القوم لنصوص النبي وتعليماته ، فإنّ المخالفة لا تقتصر على ما ذكرنا بل تربوا على نيف وسبعين مورداً ، استقصاها بعض الأعلام(٣) .

وعلى ضوء ذلك ، لا يكون ترك العمل بحديث الغدير ، من أكثرية الصحابة دليلاً على عدم تواتره ، أو عدم تمامية دلالته .

والمشكلة كلّها في هذا الباب ، هي التعرّف على حكم الصحابة من حيث

---

(١) صحيح مسلم ، باب صلح الحديبية ، ج ٥ ، ص ١٧٥ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٢ ، ص ١١٤ حيث استغفر للمحلقين ورأى بعضهم غير محلق .

(٢) صحيح البخاري ، ح ٢ ، كتاب الشروط ، ص٨١ .

(٣) لاحظ كتاب النصّ والإجتهاد ، للسيد الإمام شرف الدين ، وهو كتاب ممتع مليء بالأحداث التي قُدّم فيها الإجتهاد الخاطيء ـ لا الصحيح فإنّه تبع النص ـ على النصّ النبوي الجليّ .

العدالة ، فإنّ القوم ألبسوا مجموع الصحابة لباس العصمة ، وحلّوهم أجمعين بحِلْية التقوى والعفاف ، على وجه لا يكادون يخالفون الكتاب والسنّة قيد شعرة ، فالصحابة بمجموعهم معصومون لا يخطئون . فمن كانت هذه عقيدته ، فيشكل عليه القول بأن القوم خالفوا تنصيص النبي وتنصيبه لعلي عليه السلام .

ولكنها عقيدة تضاد كتاب الله وسنته ، والتاريخ . فمن درس حياة الصحابة في ضوء الكتاب والسنّة النبوية والتاريخ الصحيح ، يقف على أنّ فيهم صالحاً وطالحاً ، كسائر أفراد المجتمعات البشرية ، وليس السلف خيراً من الخلف ، بل السلف والخلف على وتيرة واحدة ، ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بالخَيْراتِ بإذْنِ الله ﴾[1] .

* * *

السؤال الثاني : ما فائدة البحث عن إمامة عليٍّ في هذه الأزمان ؟

وها هنا سؤال آخر يطرحه لفيف من دعاة الوحدة ، الذين لهم رغبة خاصة بتوحيد صفوف المسلمين وتقريب الخطى بينهم ، وحاصله :

إنّ البحث عن صيغة الخلافة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم ، يرجع لبّه إلى أمر تاريخي قد مضى زمنه وهو أنّ الخليفة بعد النبي هل هو الإمام أمير المؤمنين أو أبو بكر . وماذا يفيد المؤمنين البحث حول هذا الأمر الذي لا يرجع إليهم بشيء في حياتهم المعاصرة . أو ليس من الحريّ ترك هذا البحث حفظاً للوحدة .

والجـــواب

لا شك أنّ أعظم خلاف وقع بين الأُمّة ، اختلافُهم في الإمامة ، وما سُلَّ

---

(١) سورة فاطر : الآية ٣٢ ، وقد أشبع الأُستاذ دام حفظه ، الكلام في حال الصحابة من حيث البرهان والعاطفة في بحوثه في الملل والنحل ، فلاحظ : ج ١ ، ص ١٩١ ـ ٢٢٨ .

سَيْفٌ في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلّ على الإمامة[1] . فمن واجب المسلم الحرّ ، الذي لا يتبنّى إلاّ مصلحة المسلمين ، السعي وراء الوحدة ، ولكن ليس معنى ذلك ترك البحث ، وغَلْق ملف الدراسة ، فإنّه إذا كان البحث نزيهاً موضوعياً يكون مؤثّراً في توحيد الصفوف وتقريب الخُطى ، إذ عندئذٍ تتعرف كل طائفة على ما لدى الأُخرى ، من العقائد والأُصول ، وبالتالي تكون الطائفتان متقاربتين . وهذا بخلاف ما إذا تركنا البحث مخافة الفرقة ، فإنّه يثير سوء ظنّ كلّ طائفة بالنسبة إلى الأُخرى في مجال العقائد والمعارف ، فربما تتصورها طائفة أجنبياً عن الإسلام . **هذا أولاً** .

وثانياً : إنّ لمسألة البحث عن صيغة الإمامة بعد النبي بُعْدين أحدهما بُعدٌ تاريخي مضى عصره ، والثاني بُعْدٌ ديني باقٍ أثره إلى يومنا هذا ، ومن واجب كلّ مسلم الأخذ به ، وهو أنّه إذا صَحّ تنصيب عَليٍّ لمقام الولاية والخلافة ، بالمعنى الذي تتبناه الإمامية ، يكون الإمام ، وراء كونه زعيماً في ذلك العصر ، مرجعاً في رفع المشاكل التي خلفتها رحلة النبي ، ممّا قد مرّ عليك ، فيجب على المسلمين الرجوع إليه في تفسير القرآن وتبيينه ، وفي مجال الموضوعات المستجدة التي لم يرد فيها النصّ في الكتاب والسنّة ، كما يكون مرجعاً في سائر الأُمور .

وفي ضوء هذا ، فالبُعْد الذي مضى ، ولا نعيد البحث فيه ، هو كونه زعيماً في ذلك العصر ، وقد مضى زمنه ، ولكن الباقي زعامته الدينية ، وقيادته في مجال المعارف والمسائل الشرعية ، فهو بُعْدٌ باق ، فيجب على كل المسلمين الرجوع إلى الإمام أخذاً بهذه الأبعاد ، لحديث الغدير وغيره . فليس البحث متلخصاً في البعد السياسي حتى نشطب عليه بدعوى أنّه مضى ما مضى ، بل له كما عرفت مجال ومجالات باقية .

فإذا وصل البحث إلى هنا ، يجب علينا التركيز على مسألة أُخرى وهي أنّ النبي الأكرم ، لم يزل يُهيب في الجاهلين ، ويصرخ في الغافلين ، داعياً إلى التمسّك بالكتاب والعترة معاً ، وهذا تصريح بأنّ لقيادة العترة الطاهرة وراء

---

(١) تقدمت منا هذه الكلمة نقلا عن الشهرستاني في المِلَلِ وَالنِحلِ .

الزعامة السياسية المحددة بوقت خاص ، وزمن حياتهم ، بعداً خالداً إلى يوم القيامة ، وهو لزوم الإنكباب عليهم فيما يطرء علينا من الحوادث والوقائع الدينية ، وكل ما يمت إلى الدين بصلة ، ونتطلب الجواب والإهتداء منهم ، ولأجل ذلك يجب علينا التعرّف على هذا القسم من الأحاديث الذي يركز على الجهات المعنوية أزيد من التركيز على الجهات السياسية .

١ ـ حديث الثَّقَلَين

روى أصحاب الصحاح والمسانيد عن النبي الأكرم أنّه قال : «يآ أيُّها الناس إنّي تركت فيكم ما إن أخذْتُم به لن تضلّوا ، كتابَ الله وعترتي أهل بيتي » .

وقال في موضع آخر : « إنّي تركت فيكم ما إنْ تَمَسَّكْتُم به لن تَضِلُّوا ، كتابَ الله ، حَبْلٌ ممدودٌ من السماءِ إلى الأرض ، وعترتي أَهْلَ بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » . وغير ذلك من النصوص المتقاربة .

وقد صدع بها في غير موقف ، تارة بعد انصرافه من الطائف ، وأخرى يوم عرفة في حجة الوداع ، وثالثة يوم غدير خمّ ، ورابعة على منبره في المدينة ، وأُخرى في حجرته المباركة في مرضه والحجرة غاصّة بأهله .

ولا يشك في صحّة الحديث إلاّ الجاهل به أو المعاند ، فقد رُوي بطرق كثيرة عن نيف وعشرين صحابياً[1] .

إنّ الإمعان في الحديث يعرب عن عصمة العترة الطاهرة ، حيث قورنت

---

(١) وكفى في ذلك أن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية قامت بنشر رسالة جمعت فيها مصادر الحديث ونذكر من طرقه الكثيرة ما يلي : صحيح مسلم ، ج ٧ ، ص ١٢٢ ، سُنن الترمذي ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ ، مسند أحمد ، ج ٣ ، ص ١٧ و٢٦ و٥٩ وج ٤ ، ص ٣٦٦ و٣٧١ . وج ٥ ، ص ١٨٢ و ١٨٩ .

وقد قام المحدث الكبير السيد حامد حسين الهندي بجمع طرق الحديث ونقل كلمات الأعاظم حوله ونشره في ستة أجزاء وهو من أجزاء كتابه الكبير العبقات .

بـالقرآن الكـريم ، وأنّهما لا يفترقـان ، ومن المعلوم أنّ القرآن العـظيم ، كتاب لا يـأتيه البـاطل من بـين يديـه ولا من خلفه ، فكيف يمكن أنْ يكـون قرنـاءُ القـرآن وأعداؤُه ، خاطئين فيما يحكمون ويُبرمون ، أو يقولـون ويحدّثـون . فعدم الإفـتراق إلى يوم القيامة ، آية كونهم معصومين فيما يقولون ويروون .

أُضف إلى ذلـك أنّ الحديث ، يَعُـدُّ المتمسِّكَ بـالعترة غـيرَ ضالٍّ ، بقـوله : « لَنْ تضلّوا » . فلو كـانوا غـير معصومـين من الخلاف والخـطأ ، فكيف لا يضـلّ المتمسك بهم ؟ .

نعم ، ورد في بعض النصـوص مكـان كتـاب الله وعـترتي ، كتـاب الله وسنّتي[1] . وهـو على فـرض صحته ، حـديث آخر لا يـزاحمه ، عـلى أنّه حـديث واحـد ، وهذا الحـديث متواتـر نقله أعلام الأئمـة ، وأساتـذة الحديث والتـاريـخ والسيرة ، ولا يعلم حقيقة ذلك إلاّ من راجع مصادر الحديث[2] . فيقـدّم عليه في كل حال .

من هم العترة وأهل البيت ؟

لا أظن أنّ أحـداً ، قرأ الحـديث والتاريـخ ، يَشُكُّ في أنّ المـراد من العـترة وأهل البيت لفيفٌ خاص من أهل بيته . ويكفي في ذلـك مراجعـة الأحاديث التي جمعها ابن الأثير في جامعه عن الصحاح ، ونكتفي بالقليل من الكثير منها .

١ ـ روى الـترمذي عن سعـد بن أبي وقّاص قـال : لمّا نـزلت هـذه الآيـة : ﴿ فَقُـلْ تَعالَـوْا نَدْعُ أَبنـاءَنـا وأَبْنـاءَكُمْ ونِسـاءَنـا ونِسـاءَكُمْ . . . ﴾ الآيـة ، دعـا رسـول الله صلى الله عليـه وآله عليّـاً ، وفاطمـة ، وحسنـاً ، وحسينـاً ، فقـال : « اللّهم هؤلاء أهلي » .

---

(١) الصواعق المحرقة ، ص ٨٩ .

(٢) وراجع أيضاً في الوقوف عـلى مصادر الحـديث ، غايـة المرام للسيـد البحراني ، ص ٤١٧ ـ ٤٣٤ . والمراجعات ، المراجعة ٨ وتعاليق إحقاق الحق ، ج٩ .

٢ ـ وروى أيضاً عن أمّ سَلَمة رضي الله عنها ، قالت : إنّ هذه الآية نـزلت في بيتي : ﴿ إنّما يُريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهّرَكُمْ تَطْهيراً ﴾ ، قالت : وأنا جالسة عند الباب ، فقلت : يا رسول الله ، ألست من أهل البيت ، فقـال : إنّـك إلى خـير ، أَنْتِ مـن أزواج رسـول الله . قـالت : وفي البيـت رسـولُ الله ، وعليٌّ ، وفـاطمة ، وحسن ، وحسين ، فجلّلهم بكسائـه ، وقال : « اللّهم هؤلاء أَهْـلُ بيتي ، فأَذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ وطَهِّرْهُمْ تطهيراً » .

٣ ـ وروى أيضاً عن أنس بن مالـك أنّ رسول الله صـلى الله عليه وآلـه كان يمرّ بباب فاطمة إذا خرج إلى الصلاة حين نزلت هـذه الآية قـريباً من ستـة أشهر ، يقول : « الصلاة أهل البيت : ﴿ إنّما يُريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْـلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً ﴾ » .

٤ ـ وروى مسلم عن زيد بن أرقم قال : قال يزيد بن حيان : انـطلقت أنا وحصين بن سبرة ، وعمـر بن مسلم ، إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنـا إليه قـال له حصين : لقد لقيت يـا زيد خـيراً كثيراً ، رأيت رسـول الله صلى الله عليـه وآله ، وسمعت حديثه ، وغَزَوْتَ معه ، وصَلَّيْتَ خلفه ، لقد لقيت يا زيد خـيراً كثيراً ، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ .

قـال : يا ابن أخي والله ، لقـد كَبُرت سني ، وقَـدُم عهدي ، فـما حدّثْتُكُم فـاقبلوا ، وما لا فـلا تُكَلِّفونيـه . ثم قال : قـام رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسلّم ، يوماً فينـا خطيبـاً بماء يـدعى خمّاً ، بـين مكة والمـدينة ، فحَمِـد الله وأَثنى عليه ، ووعظ وذكّر ثم قال : أما بعد ، ألا أيّها الناس ، إنّما أنـا بشر ، يوشـك أن يـأتيني رسول ربّي فـأُجيب ، وأنا تـارك فيكم ثَقَلَيْنِ ، أوّلهما كتـاب الله فيـه الهـدى والنور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به . فحثّ على كتـاب الله ورغب فيه ، ثم قـال : وأهلِ بيتي ، أُذَكِّـرُكُمُ الله في أهـلِ بيتي ، أُذَكِّـرُكُم الله في أهـلِ بيتي ، أُذَكِّرُكُمُ الله في أهلِ بيتي » .

فقلنا : من أهل بيته؟ نساؤه ؟ . قـال : لا ، وأَيْمُ الله ، إنّ المرأة تكـون مع الرجل العصر من الدَّهر ، ثم يـطلّقها ، فـترجع إلى أبيهـا وقومِهـا ، أهلُ بيتِـه ،

أَصْلُه وعُصْبَتُه الذين حُرِموا الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ[1] .

* * *

٢ ـ حديث السفينة

روى المحدّثون عن النبي الأكرم أنّه قال : « إنّما مَثَلُ أهلُ بيتي في أُمّتي ، كَمَثَلِ سفينةِ نوحٍ ، مَنْ رَكِبَها نَجا ، ومَنْ تَخَلَّفَ عنها غَرِقَ »[2] .

فَشَبَّه صلوات الله عليه وآله ، أَهْلَ بيتِه بسفينة نوح في أنّ من لجأ إليهم في الدين فأخذ أُصولَه وفروعه عنهم نجا من عذاب النّار ، ومَنْ تَخَلَّفَ عنهم كان كَمَنْ آوى يوم الطُّوفان إلى جبل لِيَعْصِمَه من أَمْرِ الله ، غير أنّ ذاك غرق في الماء وهذا في الحميم .

فإذا كانت هذه منزلة علماء أهل البيت ، ﴿ فأنّى تُصرَفونَ ﴾ ؟ .

يقول إبن حَجَر في صواعقه : « ووجه تشبيههم بالسفينة أنّ مَنْ أَحَبَّهم وعَظَّمَهم ، شكراً لنعمةِ مُشَرِّفِهِم ، وأخذ بِهَدْي علمائهم ، نجى من ظلمة المخالفات . ومن تخلّف عن ذلك ، غرق في بحر كفر النِّعم ، وهلك في مفاوز الطغيان »[3] .

* * *

---

(١) لاحظ فيما نقلناه من الأحاديث ، جامع الأُصول ، ج ١ ، الفصل الثالث ، من الباب الرابع ، ص ١٠٠ ـ ١٠٣ .

(٢) مستدرك الحاكم ، ج ٢ ، ص ١٥١ . الخصائص الكبرى للسيوطي ، ح ٢ ، ص ٢٦٦ . وللحديث طرق ومسانيد كثيرة ، من أراد الوقوف عليها ، فعليه بتعاليق إحقاق الحق ، ج ٩ ، ص ٢٧٠ ـ ٢٩٣ .

(٣) الصواعق ، الباب ١١ ، ص ١٩١ . ألا مسائل ابن حجَر أنّه إذا كان هذا مَقام أهل البيت ، فلماذا لم يأخذ هو بهَدْي أئمتهم في شيءٍ من فروع الدين وعقائده ، ولا في شيءٍ من علوم السنّة والكتاب ، ولا في شيءٍ من الأخلاق والسلوك والآداب ؟ ولماذا تخلّف عنهم ، فأغرق نفسه في بحار كفر النعم ، وأهلكها في مفاوز الطغيان ؟! .

البحث الثاني

السنّة النبوية والأئمة الإثنا عشر

إنّ النبي الأكرم لم يكتف بتنصيب عليٍّ منصب الإمامة والخلافة، كما لم يكتف بإرجاع الأُمّة الإسلامية إلى أهل بيته وعترته الطاهرة ، ولم يقتصر على تشبيههم بسفينة نوح ، بل قام ببيان عدد الأئمة الذين يتولون الخلافة بعده ، واحداً بعد واحد ، حتى لا يبقى لُمرتاب رَيْب ، ولا لشاكّ شك ، وقد جاء ذلك في الصحاح والمسانيد بصُوَر مختلفة نشير إليها .

١ ـ كلهم من قريش

روى البخاري عن جابر بن سمرة قال : سمعت النبي يقول :

« يكون إثنا عشر أميراً ، فقال كلمة لم أسمعها ، فقال أبي : إنّه قال : كلُّهم من قُرَيْش »[1] .

٢ ـ لا يزال الإسلام عزيزاً

روى مسلم عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :

---

(١) صحيح البخاري ، ج ٩ ، باب الإستخلاف ، ص ٨١ ورواه ناقصاً كما يظهر ممّا نقله مسلم وغيره ، رواه أحمد في مسنده ، ج ٥ ، ص ٩٠ ، وص ٩٢ ، وص ٩٥ ، وص ١٠٨

« لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عَشَر خليفة ، ثم قال كلمة لم أفهمها ، فقلت لأبي : ما قال ؟ قال : قال : كلُّهم من قريش »[1] .

٣ ـ لا يزال الدين عزيزاً منيعاً

وروى أيضاً عن جابر بن سمرة قال : انطلقت إلى رسول الله ومعي أبي فسمعته يقول :

لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى إثني عشر خليفة ، فقال كلمة صمّنيها الناس ، فقلت لأبي : ما قال ؟ . قال : كلُّهم من قريش[2] .

٤ ـ لا يزال الدين قائماً

وروى أيضاً عنه ، قال : سمعت رسول الله يوم جمعة عَشية رجم الأسلمي ، يقول : لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ، أو يكون عليكم إثنا عشر خليفة كلُّهم من قريش[3] .

٥ ـ لا يزال الدين ظاهراً

روى أحمد في مسنده ، عن جابر قال سمعت رسول الله يقول في حجة الوداع : إنّ هذا الدين لن يزال ظاهراً على من ناواه ، لا يضرّه مخالف ولا مفارق حتى يمضي من أُمّتي إثنا عشر خليفة . ثم تكلم بشيء لم أفهمه ، فقلت لأبي : ما

(١) صحيح مسلم ، ج ٦ ، كتاب الإمارة ، باب الناس تَبَع لقريش ، ص ٣ . وروى هذا المضمون تارة عن سماك بن حزب عن جابر ، وأخرى عن الشعبي عن جابر . ورواه أحمد في مسنده ، ج ٥ ، ص ٩٠ ، و٩٨ ، وفيه : فكبّر الناس وضجّوا .

(٢) المصدر السابق من صحيح مسلم ، ومسند أحمد ، ج ٥ ، ص ٩٨ . وفيه : « لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً يُنصرون على من ناواهم عليه » .

(٣) المصدر نفسه . ومسند أحمد ، ج ٥ ، ص ٨٦ ، ص ٨٩ ، وفي ص ٩٢ : « لا يزال الدين قائماً يقاتل عليه عصابة حتى تقوم الساعة » . وص ٩٨ ، وفيها « عصابة من المسلمين » .

قال ؟ قال : قال : كلهم من قريش[١] .

٦ ـ لا يزال هذا الأمر صالحاً

روى أحمد في مسنده عن جابر عن سمرة قال : جئت أنا وأبي إلى النبي ، وهو يقول : لا يزال هذا الأمر صالحاً ، حتى يكون إثنا عشر أميراً ، ثم قال كلمة لم أفهمها ، فقلت لأبي ما قال ؟ . قال : كلّهم من قريش[٢] .

٧ ـ لا يزال الناس بخير

وروى أيضاً عنه قال : كنت مع أبي عند رسول الله ، فقال رسول الله : لا يزال هذا الدين عزيزاً ، أو قال : لا يزال الناس بخير ـ شكّ أبو عبد الصمد ـ إلى إثني عشر خليفة ، ثم قال كلمة خفيّة ، فقلت لأبي ، ما قال ؟ . قال : كلّهم من قريش[٣] .

فَهَلُمّ الآن إلى البحث عن هؤلاء الخلفاء الإثني عشر ، حتى نعرف من هم وقد وقفت على أنّ الرسول الأكرم قد عرفهم بالخصوصيات التالية :

- لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عشر خليفة .
- لا يزال الدين عزيزاً منيعاً إلى إثني عشر خليفة .
- لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ، أو يكون عليكم إثنا عشر خليفة .
- لا يزال الدين ظاهراً على من ناواه . . . حتى يمضي من أُمتي إثنا عشر خليفة .
- لا يزال هذا الأمر صالحاً حتى يكون إثنا عشر أميراً .
- لا يزال الناس بخير إلى إثني عشر خليفة .

---

(١) مسند أحمد ، ج ٥ ، ص ٨٧ وص ٨٨ وص ٩٠ . ولاحظ المستدرك ، ج ٣ ، ص ٦١٨ وفيه : « لا يزال أمر هذه الأُمّة ظاهراً » .

(٢) مسند أحمد ، ج ٥ ، ص ٩٧ وص ١٠٧ ولاحظ المستدرك ، ج ٣ ، ص ٦١٨ .

(٣) مسند أحمد ، ج ٥ ، ص ٩٨ .

وقد اختلفت كلمة شراح الحديث في تعيين هؤلاء الأئمة ، ولا تجد بينها كلمة تشفي العليل ، وتروي الغليل ، إلّا ما نقله القندوزي عن بعض المحققين ، قال :

« إنّ الأحاديث الدالّة على كون الخلفاء بعده إثني عشر ، قد اشتهرت من طرق كثيرة ، فبشرح الزمان ، وتعريف الكون والمكان ، علم أنّ مراد رسول الله من حديثه هذا ، الأئمة الإثنا عشر من أهل بيته وعترته ، إذ لا يمكن أن يُحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه ، لقلّتهم عن اثني عشر ، ولا يمكن أن يحمل على الملوك الأُمويين لزيادتهم على الإثني عشر ، ولظلمهم الفاحش إلّا عمر بن عبد العزيز ، ولكونه غير بني هاشم ، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قال : كلهم من بني هاشم ، في رواية عبد الملك عن جابر ، وإخفاء صوته في هذا القول يرجّح هذه الرواية ، لأنّهم لا يُحَسِّنون خلافة بني هاشم ، ولا يمكن أن يحمل على الملوك العباسيين لزيادتهم على العدد المذكور ، ولقلّة رعايتهم قوله سبحانه : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى ﴾ ، وحديث الكساء ، فلا بُدّ من أن يُحمل على الأئمة الإثني عشر من أهل بيته وعترته ، لأنّهم كانوا أعلم أهل زمانهم ، وأجَلَّهم ، وأوْرَعَهم ، وأتْقاهم ، وأعلاهُم نَسَباً ، وأفْضَلَهم حَسَباً ، وأكْرَمَهم عند الله ، وكانت عُلومُهم عن آبائهم متصلة بجدِّهم صلى الله عليه وآله ، وبالوراثة اللّدُنيَّة ، كذا عَرَّفَهم أهلُ العلم والتحقيق ، وأهل الكشف والتوفيق .

ويؤيّد هذا المعنى ، أي أنّ مراد النبي الأئمة الإثني عشر من أهل بيته ، ويشهد عليه ويرجّحه حديث الثقلين والأحاديث المتكثرة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها .

وأمّا قوله صلى الله عليه وآله : كلُّهم يجتمع عليه الأُمّة ، في رواية جابر بن سمرة ، فمراده أنّ الأُمّة تجتمع على الإقرار بإمامة كلِّهم وقت ظهور قائمهم المهدي »[1] .

والعجب من بعض المتعصبين حَمْلَهُ على خلفاء بني أُميّة من بعد الصحابة ،

(١) ينابيع المودة ، للشيخ سليمان المعروف بالبلخي القندوزي ، ص ٤٤٦ ، ط اسطنبول عام١٣٠١ .

قـال : « وليس الحديث وارداً عـلى المـدح ، بـل عـلى استقـامـة السلطنـة ، وهم يزيد بن معاوية ، وابنه معاوية ، ولا يدخل عبد الله بن الزبير لأنّه من الصحابـة ، ولا مروان بن الحكم لكونه بويع بعد ابن الزبير ، فكان غاصبـاً ، ثم عبد الملك ، ثم الوليد ، إلى مروان بن محمد »[1] .

وهذا لعمري رمي للقول على عـواهنه ، فمن أين علم أنّـه إشارة إلى إمـارة غـير الصحابـة ، مع أنّـه قال : يكـون بعدي . ثم مـا فـائـدة هـذا الإخبـار ومـا حاصله ؟ .

أضف إلى ذلـك أنّ الرسـول الأكرم أنـاط عزة الإسـلام ، ومنعته ، وقـوام الـدين وصلاح الأمّـة ، بخلافـة هؤلاء . وهل كـان في خلافتهم هـذه الآثار ، أو الذي كان هو ما يضادُّها ؟ فكيف يمكن حمل هذه البشائر التي صـدرت على سبيـل المدح ، على مثل يزيد بن معاوية قاتل الإمام الطاهر ، والفـاسق المعلن بالمنكـرَات والكفر ، والمتمثل بأشعار ابن الزِّبَعْرىّ المعـروفة[2] . ومـوبقات هـذا الرجـل من استباحة دم الصحابة ، والتابعين ثلاثة أيام[3] ، وغير ذلك ، ممّا لا يُحصى . وكيف يَعُدُّ وليد بن يزيد بن عبد الملك من خلفاء رسول الله الذين يعتزّ بهم الدين ؟ :

فتح الوليد المصحف ذات يوم وقرأ قوله تعالى : ﴿ **واسْتَفْتَحـوا وخابَ كُـلُّ جبّـارٍ عَنيدٍ * مِنْ ورائِـهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى من ماءٍ صَـديدٍ** ﴾ ، فـدعى بـالمصحف ، فنصبه غرضاً للنشاب ، وأقبل يرميه وهو يقول :

تُهَـدِّدني بـجـبـارٍ عـنـيـد　　فـهـا أنـا ذاك جبّـارٌ عـنيـد
إذا مـا جئت ربَّـك يـومَ حشر　　فَقُـلْ يـا رَبِّ مـزَّقني الـوليـد

---

(١) منتخب الأثر ، ص ١٦ ، نقلاً عن حواشي صحيح الترمذي .

(٢) لـيـت أشـيـاخـي بـبـدر شـهـدوا　　وَقْـعَ الخَـزْرَجِ مـن وَقْـعِ الأَسَـلْ
إلى آخر الأبيات وفيها :
لَـعِـبَـتْ هـاشـم بـالمُـلْك فـلا　　خَـبَرٌ جـاءَ ولا وَحْـيٌ نَـزَلْ
(البداية والنهاية ، لابن الأثير ، ج ٨ ، ص ١٤٢ . ط دار الفكر ـ بيروت ، وتذكـرة الخواص ، لابن الجوزي ، ص ٢٣٥ ، ط بيروت ١٤٠١ ـ ١٩٨١) .

(٣) لاحظ تاريخ الطبري ، حوادث سنة ٦٣ ، ص ٣٧٠ ـ ٣٨١ .

وذكر محمد بن يزيد المبرِّد النحوي أنّ الوليد ألحد في شعرٍ له ذكر فيه النبي صلى الله عليه وآله ، وأنّ الوحي لم يأته من ربِّه . كذب أخزاه الله من ذلك الشعر :

تَلَعَّبَ بالخلافة هاشمي ... بلا وَحْيٍ أتاه ولا كِتابِ
فقُل لله يمنعني طعامي ... وقُلْ لله يمنعني شرابي

فلم يُمْهل بعد قوله هذا إلاّ أياماً حتى قتل[1] .

والإنسان الحرّ الفارغ عن كل رأي مُسْبَق ، لو أمعن النظر في هذه الأحاديث وأمعن في تاريخ الأئمة الإثني عشر من ولد الرسول ، يقف على أنّ هذه الأحاديث لا تروم غيرَهم ، فإنّ بعضها يدُلّ على أنّ الإسلام لا ينقرض ولا ينقضي حتى يمضي في المسلمين إثنا عشر خليفة ، كلُّهم من قريش ، وبعضها يدلُّ على أنّ عزّة الإسلام إنّما تكون إلى إثني عشر خليفة ، وبعضها يدلّ على أنّ الدين قائم إلى قيام الساعة ، وإلى ظهور إثني عشر خليفة ، وغير ذلك من العناوين .

وهذه الخصوصيات لا توجدَ في الأُمّة الإسلامية إلاّ في الأئمة الإثني عشر المعروفين عند الفريقين ، خصوصاً ما يدلّ على أن وجود الأئمة مستمر إلى آخر الدهر ، ومن المعلوم أنّ آخر الأئمة هو المهدي المنتظر ، الذي يُعَدُّ ظهوره من أشراط الساعة .

ولو أضفنا إلى هذا ، الروايات الكثيرة الواردة في الأئمة الإثني عشر ، يقطع الإنسان بأنّه ليس المراد إلاّ هؤلاء الذين اعترف بفضلهم ، وورعهم ، وتُقاهم ، وعلمهم ، ووعيهم ، وحلمهم ، وصبرهم ، ودرايتهم ، وكفايتهم ، الداني والقاصي ، والصديق والعدو ، ألا وهم :

علي بن أبي طالب ، فالحسن بن علي ، فالحسين بن علي ، فعلي بن الحسين ، فمحمد بن علي ، فجعفر بن محمد ، فموسى بن جعفر ، فعلي بن موسى ، فمحمد بن علي ، فعلي بن محمد ، فالحسن بن علي ، فمحمد بن الحسن

---

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص٢١٦ .

العسكـري ، المهدي المنتـظر الذي يمـلأ الله به الأرض قسـطاً وعدلاً بعـدما مُلئت ظُلْماً وجَوْراً[1] ، صلوات الله وتحياته وسلامه عليهم أجمعين .

وقد تضافـرت النصوص في تنصيص الإمـام السابق عـلى الإمام الـلاحق ، فمن أراد الوقوف عـلى هذه النصـوص ، فعليه الـرجوع إلى الكتب المعـدّة لإمامـة الأئمة الإثني عشر[2] .

* * *

(١) سيوافيك الكلام في الإمام المنتظر ، وأحاديثه في السنّة النبـوية ، وطـول عمره ، وعـلائم ظهوره ، وغير ذلك مما يرجع إليه .

(٢) لاحظ الكافي ، ج ١ ، كتاب الحجة ، وأجمع كتاب في هذا الموضوع هو كتاب « إثبات الهداة » للشيخ الحرّ العاملي وقد جمع فيه النصوص المتضافرة على إمامة كلّ واحدٍ من الأئمة الإثني عشر .

البحث الثالث

عصمة الإمام في القرآن

قد عرفت في البحث عن شروط الإمامة ، اختلاف أهل السنّة في عددها ، وعلمت المتفقّ عليه ، والمختلف عليه منها . وقد اتّفقوا وراء ذلك على أنّ العصمة ليست من الشرائط ، أخذاً بمبادئهم حيث إنّ الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، لم يكونوا بمعصومين قطعاً ، بل إنّ بعضهم لم يكن مجتهداً في الكتاب والسنّة .

وأمّا الشيعة الإمامية ، فقد اتّفقت على هذا الشرط من بين الشروط ، واستدلّوا عليه بأدلّة ، نكتفي ببعضها :

١ ـ الإمامة استمرار لوظائف الرسالة

إنّ حقيقة الإمامة الذي تتبناه الشيعة الإمامية ، هي القيام بوظائف الرسول بعد رحلته ، وقد تعرفت على وظائفه الرسالية والفراغات الحاصلة بموته والتحاقه بالرفيق الأعلى . ومن المعلوم أنّ سَدّ هذه الفراغات لا يتحقق إلّا بأن يكون الإمام متمتعاً بما يتمتع به النبي الأكرم من الكفاءات والمؤهلات ، فيكون عارفاً بالكتاب والسنّة على وفق الواقع ، وعالماً بحكم الموضوعات المستجدة عرفاناً واقعياً ، وذابّاً عن الدين شبهاتِ المشككين ، ومن المعلوم أنّ هذه الوظيفة تستدعي كون الإمام مصوناً من الخطأ . فما دلّ على أنّ النبيَّ يجب أن يكون مصوناً في مقام إبلاغ

الرسالة ، قائمٌ في المقام بنفسه ، فإنّ الإمام يقوم بنفس تلك الوظيفة ، وإن لم يكن رسولاً ولا طرفاً للوحي ، ولكنه يكون عيبةً لعلمه ، وحاملاً لشرعه وأحكامه ، فإذا لم نجوّز الخطأ على النبي في مقام الإبلاغ ، فليكن الأمر كذلك في مقام القيام بتلك الوظيفة بلا منصب الرسالة والنبوة .

٢ ـ آية ابتلاء إبراهيم

قال سبحانه : ﴿ وإذ ابتلى إبْرَاهيمَ رَبُّهُ بكلماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قال إنّي جاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً ، قال وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قال : لا ينالُ عَهْدي الظالِمينَ ﴾[١] .

إنّ تفسير الآية كما هو حقُّها يتوقف على البحث عن النقاط التالية :

أ ـ ما هو الهدف من الإبتلاء ؟ .

ب ـ ما هو المراد من الكلمات ؟ .

ج ـ ماذا يراد من الإتمام ؟ .

د ـ ما هو المقصود من الإمام (إماماً) ؟ .

هـ ـ كيف تكون الإمامة عهداً إلٰهياً (عهدي) ؟ .

و ـ ما هو المراد من الظالمين ؟ .

ولكنّ إفاضة الكلام في هذه الموضوعات ، يُحْوِجُنا إلى تأليف رسالة مفردة فنكتفي بالتركيز على اثنين من هذه الموضوعات[٢] .

الأول ـ ما هو المقصود من الإمامة التي أنعم الله سبحانه بها على نبيّه الخليل ؟ .

الثاني ـ ما هو المراد من الظالمين ؟ .

* * *

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .
(٢) وقد أشبع شيخنا الأُستاذ ، البحث عن هذه الموضوعات الستّة في موسوعته القرآنية « مفاهيم القرآن » ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ ـ ٢٥٩ .

الأول ـ ما هو المراد من الإمامة في الآية ؟

ذهب عدّة من المفسّرين منهم الرازي في مفاتيحه ، إلى أنّ المراد من الإمامة هنا ، النبوة ، وأنّ مِلاكَ إمامة الخليل ، نبوّتُه ، لأنّها تتضمن مشاقّاً عظيمة(١) .

وقال الشيخ محمد عبده : « الإمامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهي لا تُنال بكسب الكاسب »(٢) .

يلاحظ عليه : إنّ إبراهيم كان نبيّاً قبل الإبتلاء بالكلمات ، وقبل تنصيبه إماماً ، فكيف يصحّ أنْ تُفَسَّر الإمامة بالنبوّة على ما في لفظ الرازي ، أو بالرسالة ، على ما في لفظ المنار ؟ ودليلنا على ما ذكرنا ، أمران :

١ ـ إنّ نزول الوحي على إبراهيم ، وجعله طرفاً للخطاب بقوله : **﴿ إنّي جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً ﴾** ، أوضح دليل على أنّه كان نبيّاً متلقياً للوحي قبل نزول هذه الآية . وأسلوب الكلام يدلّ على أنّه لم يكن وحياً إبتدائياً ، بل يعرب عن كونه استمراراً للوحي السابق ، والمحاورة الموجودة بينه وبين الله تعالى ، حيث طلب الإمامة لذريته ، تناسب الوحي الإستمراري لا الوحي الإبتدائي . وإن كنت في شكّ ، فلاحظ الوحي الإبتدائي ، النازل على موسى في طور سيناء حيث خوطب بقوله :

﴿ فلما أَتاها نُودِيَ من شاطِيءِ الوادِ الأَيْمَنِ في البُقْعَةِ المُبارَكَةِ من الشَّجَرَةِ أَنْ يا موسى إنّي أنا الله رَبُّ العالَمينَ ﴾(٣) .

٢ ـ إنّ الخليل طلب الإمامة لذرّيته ، ومن المعلوم أنّ إبراهيم كان نبيّاً قبل أن يرزق أيّ ولد من ولديه إسماعيل وإسحاق ، أمّا أوّلهما فقد رُزِقَه بعد تحطيم الأصنام في بابل ، وإعداد العدّة للخروج إلى فلسطين ، حيث وافاه الوحي

---

(١) مفاتيح الغيب ، للرازي ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .
(٢) المنار ، ج ١ ، ص ٤٥٥ .
(٣) سورة القصص : الآية ٣ . ولاحظ سورة العلق : الآيات ١ ـ٥ ، فإنّها من الوحي الإبتدائي ، وهي لا تشبه الخطاب الوارد في الآية الموجّه إلى الخليل .

وبشّره : ﴿ فَبَشَّرْنـاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾[1] . وأمّـا ثانيهـما ، فقد بشرتـه به المـلائكـة عندما دخلوا عليه ضيوفاً ، فقالوا : ﴿ إنّا نُبَشِّرُكَ بِغلامٍ عليم ﴾[2] .

وعلى ذلك ، يجب أن تكون الإمامة الموهوبة للخليـل غير النبـوة ، وإلاّ كان أشبه بتحصيل الحاصل .

والظاهر أنّ المراد من الإمامة ، القيادة الإلهية للمجتمع ، فإنّ هناك مقامات ثلاثة :

ـ مقام النبوة ، وهو منصب تَحَمُّل الوحي .

ـ مقام الرسالة ، وهو منصب إبلاغه إلى الناس .

ـ مقـام الإمامـة ، وهـو منصب القيـادة وتنفيـذ الشريعـة في المجتمـع بقـوة وقدرة .

ويعـرب عن كون المـراد من الإمـامـة في المقـام هـو المعنى الثـالـث ، قـولـه سبحـانه : ﴿ أمْ يَحْسُـدون الناسَ عـلى ما آتـاهُـمُ الله مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَـدْ آتَيْنـا آلَ إبْراهِيمَ الكِتابَ والحِكْمَةَ وآتَيْناهُمْ مُلْكاً عظيماً ﴾[3] .

فالإمامـة التي أنعم بها الله سبحـانه عـلى الخليل وبعض ذرّيتـه ، هي الملك العظيم الوارد في هذه الآية . وعلينا الفحص عن المراد من الملك العظيم ، إذ عند ذلك يتّضح أنّ مقـام الإمامـة ، وراء النبوة والـرسالـة ، وإنّما هـو قيادة حكيمـة ، وحكومة إلهيّة ، يبلغ المجتمع بها إلى السعادة . والله سبحـانه يـوضح حقيقـة هذا المُلك في الآيات التالية :

١ ـ يقول سبحانه ـ حاكيـاً قول يـوسف عليه السـلام ـ : ﴿ رَبِّ قد آتَيْتَني من المُلْكِ وَعَلَّمْتَني من تَأْويلِ الأحاديثِ ﴾[4] . ومن المعلوم أنّ المُلْكَ الذي مَنَّ بـه

---

(١) لاحظ سورة الصافات : الآيات ٩١ ـ ١٠٢ .

(٢) لاحظ سورة الحجر : الآيات ٥١ ـ ٥٥ .

(٣) سورة النساء : الآية ٥٤ .

(٤) سورة يوسف : الآية ١٠١ .

سبحانه على عبده يوسف ، ليس النبوة ، بل الحاكمية ، حيث صار أميناً مكيناً في الأرض . فقوله : ﴿ وَعَلَّمتني مِنْ تَأْويلِ الأَحاديثِ ﴾ ، إشارةٌ إلى نبوته ، والمُلْكُ إشارة إلى سلطته وقدرته .

٢ ـ ويقول سبحانه في داود عليه السلام : ﴿ وآتاهُ الله المُلْكَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشاءُ ﴾[١] . ويقول سبحانه : ﴿ وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وآتَيْناهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطابِ ﴾[٢] .

٣ ـ ويحكي الله تعالى عن سليمان أنّه قال : ﴿ وَهَبْ لي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدي إنَّك أَنْتَ الوهّاب ﴾[٣] .

فملاحظة هذه الآيات يفسّر لنا حقيقة الإمامة ، وذلك بفضل الأُمور التالية .

أ ـ إنّ إبراهيم طلب الإمامة لذريته ، وقد أجاب سبحانه دعوته في بعضهم .

ب ـ إنّ مجموعةً من ذريته ، كيوسف وداود وسليمان ، نالوا ـ وراء النبوة والرسالة ـ منصب الحكومة والقيادة .

ج ـ إنّه سبحانه أعطى آل إبراهيم الكتاب ، والحكمة ، والملك العظيم .

فمن ضمّ هذه الأُمور بعضها إلى بعض ، يخرج بهذه النتيجة : إنّ مِلاك الإمامة في ذريّةِ إبراهيم ، هو قيادتهم وحكمهم في المجتمع ، وهذه هي حقيقة الإمامة ، غير أنّها ربما تجتمع مع المقامَيْن الآخرين، كما في الخليل ، ويوسف ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم ، وربما تنفصل عنها ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وقال نَبِيُّهُمْ إنّ الله قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالوتَ مَلِكاً ، قالوا أنّى يكونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنا ونَحْنُ أَحَقُّ بالمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المالِ ، قال إنّ الله اصطَفاه عَلَيْكُمْ وزادَهُ

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

(٢) سورة ص : الآية ٢٠ .

(٣) سورة ص : الآية ٣٥ .

بَسْطَةً في العِلْمِ والجِسْمِ ، واللهُ يُؤْتي مُلْكَهُ مَنْ يشاءُ واللهُ واسِعٌ عَليمٌ ﴾[1] .

والإمامة التي يتبناها المسلمون بعد رحلة النبي الأكـرم ، تتّحد واقعيتهـا مع هذه الإمامة .

* * *

الثاني ـ ما هو المراد من الظالمين

الظُلم في اللغة هو وضع الشيء في غير موضعـه ، ومجاوزة الحـدّ الذي عيّنـه العُرْف أو الشرع ، فالمعصية ، كبيرها وصغيرها ، ظلم ، لأنّ مقترفها يتجاوز عن الحدّ الذي رسمه الشارع .

والظلم له مـراتب ، والمجموع يشـترك في كونـه تجاوزاً عن الحـدّ ، ووضعاً للشيء في غير موضعه .

ولما خلع سبحانـه ثوب الإمـامة عـلى خليله ، ونصبه إمـاماً للنـاس ، ودعا إبـراهيم أن يجعل من ذريتـه إمامـاً ، أُجيب بـأنّ الإمـامـة وثيقـة إلهيـة ، لا تنـال الظالمين ، لأنّ الإمام هو المطاع بين الناس ، المتصرف في الأموال والنفوس ، وقائد المجتمع إلى السعادة ، فيجب أن يكون على الصراط السويّ ، حتى يكون أمـرُه ، ونهيُه ، وتصرُّفُه ، وقيادتُه ، نابعة منه . والظالم المتجاوز عن الحدّ ، لا يصلح لهذا المنصب .

إنّ الظالم الناكث لعهد الله ، والناقض لقـوانينه وحـدوده ، على شفـا جرُف هارٍ ، لا يؤتمن عليه ، ولا تلقى إليه مقاليد الخلافة ، ولا مفاتيح القيادة ، لأنّه على مقربة من الخيانة والتعدّي ، وعلى استعدادٍ لأن يقع أداةً للجائرين ، فكيف يصـحّ في منطق العقل أن يكون إماماً مطاعاً نافذاً قوله ، مشروعاً تصرُّفه ، إلى غير ذلـك من لوازم الإمامة ؟ .

إنّ بعض المناصب والمقامات ، تُعَيِّن شروطُها بالنظر إلى ماهيتها وواقعيتها ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٧ .

فمدير المستشفى مثلاً ، له شروط تختلف عن شروط القائد . فالإمامة ، التي لا تنفك عن التصرف في النفوس والأموال ، وبها يناط حفظ القوانين ، يجب أن يكون القائم بها إنساناً مثالياً ، مالكاً لنفسه ، ولغرائزه ، حتى لا يتجاوز في حكمه عن الحدّ ، وفي قضائه عن الحق .

الجمع المُحلّى باللام العُموم

الظاهر من صيغة الجمع المحلّى باللام ، أنّ الظلم بكل ألوانه وصُوَرِه ، مانعٌ عن نيل هذا المنصب الإلهي ، فالإستغراق في جانب الأفراد ، يستلزم الإستغراق في جانب الظلم ، وتكون النتيجة ممنوعية كل فرد من أفراد الظلمة عن الإرتقاء إلى منصب الإمامة ، سواء أكان ظالماً في فترة من عمره ثم تاب وصار غير ظالم ، أو بقي على ظلمه . فالظالم عندما يرتكب الظلم يشمله قوله سبحانه : ﴿ لا يَنالُ عهدي الظالِمينَ ﴾ . فصلاحيته بعد ارتفاع الظلم تحتاج إلى دليل .

وعلى ذلك ، فكل من ارتكب ظلماً ، وتجاوز حدّاً في يوم من أيام عمره ، أو عبد صنماً ، أو لاذ إلى وثن ، وبالجملة : ارتكب ما هو حرام ، فضلاً عمّا هو كُفْر ، ينادى من فوق العرش : ﴿ لا يَنالُ عَهْدي الظالِمينَ ﴾ ، أي أنتم الظلمة الكفرة المتجاوزون عن الحدّ ، لستم قابلين لتحمل منصب الإمامة ؛ من غير فرق بين أن يصلح حالُهم بعد تلك الفترة ، أو يبقوا على ما كانوا عليه .

وهذا يستلزم أن يكون المؤهّل للإمامة ، طاهراً من الذنوب من لدن وُضِعَ عليه القلم ، إلى أنْ أُدرج في كفنه وأُدخل في لحده ، وهذا ما نسميه بالعصمة في مورد الإمامة .

سؤال وجوابه

السؤال

لسائل أن يسأل ويقول : إنّ الآية إنّما تشمل من كان مقيماً على الظلم ، وأمّا التائب منه ، فلا يتعلق به الحكم ، لأنّ الحكم إذا كان معلقاً على صفة ،

وزالت الصفة ، زال الحكم . ألا ترى أنّ قوله : ﴿ ولا تَرْكَنوا إلى الذينَ ظَلَموا ﴾[1] ، إنّما هو ينهى عن الركون إليهم ما أقاموا على الظلم ، فقوله تعالى : ﴿ لا يَنالُ عَهدي الظالِمينَ ﴾ . لم يَنْفِ به العهد عمّن تاب عن ظلمه ، لأنّه في هذه الحالة ، لا يسمى ظالماً ، كما لا يسمى من تابَ من الكفر ، كافراً .

والجـــواب :

إنّ هذا الإعتراض ذكره الجصاص (م ٣٧٠) في تفسيره على آيات الأحكام[2] . ولكنه عزب عنه أنّ قوله : الحُكْمُ يدور مدار وجود الموضع ، ليس ضابطاً كليّاً ، بل الأحكام على قسمين ، قسم كذلك ، وآخر يكفي فيه اتّصاف الموضوع بالوصف والعنوان آناً ما ، ولحظةً خاصة ، وإن انتفى بعد الإتصاف ، فقوله : « الخمر حرام » ، أو : « في سائمة الغنم زكاة » ، من قبيل القسم الأول ، وأمّا قوله : « الزاني يحدّ » ، و« السارق يقطع » ، فالمراد منه أنّ الإنسان المتلبس بالزنا أو السرقة يكون محكوماً بهما وإن زال العنوان ، وتاب السارق والزاني ، ومثله : « المستطيع يجب عليه الحج » ، فالحكم ثابت ، وإن زالت عنه الإستطاعة تقصيراً لا عن قصور .

وعلى ذلك فالمدعى أنّ الظالمين في الآية المباركة كالسارق والسارقة[3] والزاني والزانية[4] ، والمستطيع[5] وأمهات نسائكم[6] في الآيات الراجعة إليهم .

نعم المهم في المقام إثبات أنّ الموضوع في الآية من قبيل القسم الثاني ، وأنّ

---

(١) سورة هود : الآية ١١٣ .

(٢) تفسير آيات الأحكام ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٣٨ .

(٤) سورة النور : الآية ٢ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

(٦) سورة النساء : الآية ٢٣ . فمن صدق عليها الأُمومة للزوجة يحرم على الزوج تزوُّجها ، وإن طلق إبنتها .

التلبس بالظلم ولو آنا ما ، وفترة يسيرة من عمره يسلب من الإنسان صلاحية الإمامة وإن تاب من ذنبه .

ويدلّ على ذلك أمران :

الأول : إنّ الهدف الأسمى من تنصيب كل إنسان على الإمامة ، تجسيد الشريعة الإلهية في المجتمع ، فإذا كان القائد رجلاً مثالياً نقي الثوب ، مشرق الصحيفة ، لم ير منه عصيان ولا زَلّة ، يتحقق الهدف من نصبه في ذلك المقام .

وأمّا إذا كان في فترة من عمره مقترفاً للمعاصي ، ماجناً ، مجترحاً للسيئات ، فيكون غرضاً لسهام الناقدين ، ومن البعيد أن ينفذ قوله ، وتقبل قيادته بسهولة ، بل ينادى عليه إنّه كان بالأمس ، يقترف الذنوب ، وأصبح اليوم آمراً بالحق ومميتاً للباطل .

ولأجل تحقق الهدف يحكم العقل بلزوم نقاوة الإمام عن كل رذيلة ومعصية في جميع فترات عمره ، وأنّ الإنابة لو كانت ناجعة في حياته الفردية فليست كذلك في حياته الإجتماعية ، فلن تخضع له الأعناق ، وتميل إليه القلوب .

الثاني : إنّ الناس بالنسبة إلى الظلم على أقسام أربعة :

١ ـ من كان طيلة عمره ظالماً .

٢ ـ من كان طاهراً ونقياً في جميع فترات عمره .

٣ ـ من كان ظالماً في بداية عمره ، وتائباً في آخره .

٤ ـ من كان طاهراً في بداية عمره ، وظالماً في آخره .

عند ذلك يجب أن نقف على أنّ إبراهيم عليه السلام ، الذي سأل الإمامة لبعض ذريته ، أيّ قسم منها أراد ؟ .

حاش إبراهيم أن يسأل الإمامة للقسم الأول ، والرابع من ذرّيته ، لوضوح أنّ الغارق في الظلم من بداية عمره إلى آخره ، أو المتصف به أيام تصديه للإمامة ، لا يصلح لأن يؤتمن عليها .

فبقي القسمان الآخران ، الثاني والثالث ، وقد نصّ سبحانه على أنّه لا ينال عهده الظالم ، والظالم في هذه العبارة لا ينطبق إلاّ على القسم الثالث ، أعني من كان ظالماً في بداية عمره ، وكان تائباً حين التصدي .

فإذا خرج هذا القسم ، بقي القسم الثاني ، وهو من كان نقي الصحيفة طيلة عمره ، لم ير منه لا قبل التصدي ولا بعده أيَّ انحرافٍ عن جادّة الحق ، ومجاوزةٍ للصراط السوي .

* * *

٣ ـ آية التطهير وعصمة أهل البيت (ع)

هناك آية أخرى تدلّ على عصمة عدّة خاصة من أهل بيت النبي الأكرم .

يقول سبحانه : ﴿ وَقَرْنَ في بُيوتِكُنَّ ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى ، وأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وآتِينَ الزَّكاةَ وأَطِعْنَ الله ورسولَهُ إِنَّما يريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً ﴾[1] .

وأداء حقِّ الآية في التفسير ، يتوقف على البحث عن النقاط التالية :

١ ـ ما هو المراد من الرِّجس ؟ .

٢ ـ هل الإرادة في الآية ، إرادة تكوينية خاصة بأهل البيت ، أو تشريعية تعمّ كلَّ إنسان بالغٍ واقعٍ في إطار التكليف ؟ .

٣ ـ من المراد من أهل البيت ؟ .

٤ ـ مشكلة السياق في الآية لو كان المراد منهم غير نسائه ، صلوات الله عليه وآله .

٥ ـ أهل البيت في حديث النبي ، الذي يكون مفسِّراً لإجمال الآية .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

والبحث عن هذه الأمور يحوجنا إلى تأليفٍ مفرد ، وهو خارج عن وضع كتابنا[1] ، إلاّ أنّ المهم هنا هو التركيز على أنّ الإرادة في الآية تكوينية ، خاصة بأهل البيت ، وليست تشريعية ، وأمّا المقصود من أهل البيت ، فقد تقدّمت المأثورات فيهم عند البحث عن حديث الثقلين .

الإرادة تكوينية لا تشريعية

إنّ انقسام إرادته سبحانه إلى القسمين المذكورين ، من الإنقسامات الواضحة ، ومجمل القول فيهما أنّه إذا تعلقت إرادته سبحانه على إيجاد شيء وتكوينه في صحيفة الوجود ، فالإرادة تكوينية لا تتخلف عن المراد .

قال سبحانه : ﴿ إنّما أَمْرُهُ إِذَا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يقولَ لَهُ كُنْ ، فَيَكون ﴾[2] .

وأما إذا تعلّقت بتشريع حكم وقانون ، لفرض عمل المكلّف به ، فالإرادة تشريعية ، ومتعلّقُها هو التشريع ، وأمّا امتثال المكلف فهو من غايات التشريع ، ربما يقع ويترتب عليه ، وربما ينفك عنه .

والقرائن تدلّ على أنّ المراد هنا هو الأول من الإرادتين ، بمعنى أنّ إرادته سبحانه ، تعلّقت على إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم من كل شيء يتنفر منه ، على غرار تعلق إرادته بإيجاد الأشياء في صحيفة الوجود .

والذي يدلّ على ذلك أُمور :

١ ـ إنّ الإرادة التشريعية لا تختص بطائفة دون طائفة ، بل هي تعمّ المكلّفين عامة ، يقول سبحانه ، بعد أمره بالوضوء والتيمم عند فقدان الماء : ﴿ وَلٰكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ ﴾[3] .

---

(١) قد أفاض الشيخ الأستاذ الكلام في هذه المواضيع في موسوعته التفسيريّة ، مفاهيم القرآن ، ج ٥ ، ص ٢١٥ ـ ٣٢٢ .

(٢) سورة يس : الآية ٨٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٦ .

ولكنه سبحانه خصَّص إرادته في الآية المبحوث عنها ، بجمع خاص ، تجمعهم كلمة أهل البيت ، وَخَصَّهم بالخطاب وقال : ﴿ عَنْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، أي لا غيركم ، فتخصيص الإرادة بجمع خاص على الوجه المذكور ، يمنع من تفسيرها بالتشريعية .

٢ ـ إنّ العناية البارزة في الآية المباركة ، أقوى شاهدعلى أنّ المقصود هو التكوينية ،لوضوح أنّ تعلّق الإرادة التشريعية لا يحتاج إلى العنايات التالية :

أ ـ إبتدأ سبحانه كلامه بلفظ الحصر ، وقال : إنّما ﴾ ، ولا معنى للحصر إذا كانت تشريعية ، لعمومها لِكُلٍّ مكلَّف .

ب ـ عينّ تعالى مُتَعَلَّق إرادته بصورة الإختصاص ، فقال : ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، وهو منصوب على الإختصاص[١] . أي أَخُصّكم أهل البيت .

ج ـ قد بينّ متعلق إرادته بالتأكيد ، وقال بعد قوله : ﴿ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ ﴾ ، ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ .

د ـ قد أكّده بالإتيان بمصدره بعد الفعل ، وقال : ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً ﴾ ، ليكون أوفى في التأكيد .

هـ ـ إنّه سبحانه قد أتى بالمصدر نكِرَة ، ليَدُلّ على الإكبار والإعجاب ، أي تطهيراً عظيماً معجباً .

و ـ إنّ الآية في مقام المدح والثناء ، فلو كانت الإرادة تشريعية ، لما ناسب الثناء والمدح .

وعلى الجملة : العناية البارزة في الآية ، تدلّ بوضوح على أنّ الإرادة في المقام تغاير الإرادة العامة المتعلقة بكلّ إنسان حاضرٍ ، أو بادٍ . وللمحققين من الشيعة الإمامية كلمات وافية حول الآية تلاحظ في مواضعها[٢] .

---

(١) الإختصاص من أقسام المنادى ، يقول ابن مالك :

الإختصاص كنداء دون يا ... كأيّها الفتى بإثر ارجونيا

(٢) تفسير التبيان ، للشيخ الطوسي ، (ت ٣٨٣ ـ م ٤٦٠) ، ج ٨ ، ص ٣٤٠ . ومجمع البيان ، =

فالإرادة في الآية الشريفة ، نظير الإرادة الواردة في الآيات التالية :

﴿ ونُريدُ أن نَمُنَّ على الذين اسْتُضعِفوا في الأرض ونَجْعَلَهُمْ أئمةً ونجعلَهُمْ الوارِثين ﴾[1] .

﴿ وَيُريدُ الله أَنْ يُحِقَ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الكافِرينَ ﴾[2] .

﴿ وَمَنْ يَرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً ، أُولئِكَ الذينَ لَمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلوبَهُمْ ، لَهُمْ في الدُّنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عظيمٌ ﴾[3] .

وأمّا دلالتها على العصمة ، فتظهر إذا اطّلعنا على أنّ المراد من الرجس هو القذارة المعنوية لا المادية ، توضيح ذلك ، إنّ الرجس في اللغة هو القذر[4] ، وقد يعبّر به عن الحرام ، والفعل القبيح ، والعذاب ، واللعن ، والكفر ، قال الزجاج : «الرِّجس ـ في اللغة ـ كل ما استقذر من عمل ، فبالغ الله في ذمّ أشياء وسماها رِجْساً». وقال ابن الكلبي : « رجس من عمل الشيطان ، أي مأثم »[5] .

والمتفحص في كلمات أئمة أهل اللغة ، والآيات الواردة فيها تلك اللفظة ، يصل إلى أنّها موضوعة للقذارة التي تتنفر منها النفوس ، سواء أكانت مادية كما في قوله تعالى : ﴿ إلاّ أنْ يكون مَيْتَةً أو دَماً مَسْفوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزيرٍ ، فإنّه رِجْسٌ ﴾[6] ، أو معنوية كما في الكافر وعابد الوثن ، وصنمه ، قال سبحانه : ﴿ فَاجْتَنِبوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ ﴾[7] .

= للشيخ الطبرسي ، (ت ٤٧١ ـ م ٥٤٨) ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ . ورياض السالكين ، للسيد علي المدني (م ١١١٨) ، الروضة ٤٧ ، ص ٤٩٧ .

(١) سورة القصص : الآية ٥ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٧ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤١ .

(٤) مقاييس اللغة ، ج ٢ ، ص ٤٩٠ ، ولسان العرب ج ٦ ص ٩٤ .

(٥) لسان العرب ، ج ٦ ، ص ٩٤ .

(٦) سورة الأنعام : الآية ١٤٥ .

(٧) سورة الحج : الآية ٣٠ .

وقال سبحانه : ﴿ كذلكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ على الذينَ لا يُؤْمِنونَ ﴾[١] .

فلو وصف العمل القبيح بالرجس ، فلأنّه عمل قذر ، تتنفر منه الطباع السليمة .

وعلى ضوء هذا ، فالمراد من الرِّجس في الآية ، كلّ عمل قبيح عرفاً أو شرعاً ، لا تقبله الطباع ، ولذلك قال سبحانه بعد تلك اللفظة ، ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً ﴾ ، فليس المراد من التطهير ، إلّا تطهيرهم من الرجس المعنوي الذي تُعَدُّ المعاصي والمآثم من أظهر مصاديقه .

وقد ورد نظير الآية في حق السيدة مريم قال سبحانه : ﴿ إنّ الله اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ واصْطَفاكِ على نِساءِ العالَمينَ ﴾[٢] .

ومن المعلوم أنّ تَعَلُّقَ الإرادة التكوينية على إذهاب كلِّ رجس وقذارة ،وكلِّ عمل مُنَفِّرٍ عرفاً أو شرعاً ، يجعل مَنْ تَعَلَّقَتْ بِه الإرادة ، إنساناً مثالياً ، نزيهاً عن كل عَيْبٍ وشَيْنٍ ، ووصمةِ عار[٣] .

* * *

إلى هنا ظهر بوضوح أنّ العصمة شرطٌ للإمام بالمعنى الذي يتبناه الإمامية في مجال الإمامة ، والآيتان الأوليان تدلّان على عصمة الإمام مطلقاً ، والآية الثالثة تدلّ على عصمة أهل البيت الذين نزلت فيهم الآية وفُسِّرَتْ في غير واحدٍ من الروايات ، وهم مَنْ كان إماماً وخليفةً للرسول كعلي والحَسَنَيْن عليهما السلام ، ومن كانت طاهرةً مُطَهَّرةً كالسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام ، وإن لم تكن إماماً .

* * *

بقيت هنا أبحاث موجودة في كتب الإمامة للشيعة الإمامية ، طوينا البحث

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٤٢ .

(٣) وحول الآية أبحاث لطيفة ، فمن أراد التبسّط فليرجع إلى المصدر الذي تقدّم الإيعاز إليه .

عنها ، لعدم الحاجة إلى البحث فيها بعد انتشار هذه الكتب وذيوعها وهي عبارة عن الأبحاث التالية :

١ ـ البحث عن الآيات الواردة في حق الإمام علي عليه السلام .

٢ ـ البحث عن الفضائل والمناقب الواردة في حقّه على لسان النبي الأكرم ، ونَقَلَها أصحاب الصحاح والمسانيد .

٣ ـ نفسيات الإمام وفضائله الأخلاقية التي اعترف بها التاريخ .

٤ ـ كونه أعلم الصحابة وأوعاهم بالكتاب والسنّة ، وقد كان الخلفاء يحتكمون إليه في مواضع لا تحصى .

٥ ـ احتجاجاته على كونه أحقّ بهذا الأمر (خلافة الرسول) ممّن تسنموا منصة الخلافة .

ومن أراد التبسّط في هذه المواضع ، فعليه بالكتب المعدّة للإمامة[1] .

* * *

(١) لاحظ الشافي للسيد المرتضى (م ٤٣٦) ، وتلخيصه لتلميذه الشيخ الطوسي (م ٤٦٠) ، ونهج الحق وكشف الصدق للعلامة الحلي ، (م ٧٢٦) ، وإحقاق الحق للقاضي التستري ، (م ١٠١٩) ، ودلائل الصدق للمظفر النجفي . وغيرها من مؤلفات كبار ورسائل صغار .

البحث الرابع

الإمام المنتظر في الكتاب والسنّة

قد تعرفت على عدد الأئمة وأسمائهم ، غير أنّ إفاضة القول في خصوصياتهم ، وعلومهم وفضائلهم ، ونتائج جهودهم في مجال العلم والفقه والحديث ، ومن ربّوه وأنتجوه من الرواة الوعاة ، وما لاقوه من اضطهاد خلفاء عصرهم ، يحتاج إلى تأليف حافل .

ولأجل ذلك طوينا الصفح عن هذه المباحث ، إلاّ انّ الإعتقاد بالإمام المنتظر ، مهدي هذه الأُمّة ، لما كان أصلاً رصيناً في أبحاث الإمامة للشيعة ، وكان الإعتقاد به أمراً مشتركاً بين طوائف المسلمين ، رَجّحنا إلقاء الضوء على هذا الأصل على وجه الإجمال ، ولا طريق لإثبات وجوده ، وولادته ، وعمره ، وظهوره ، وآثاره بعد الظهور ، وأصحابه ، إلاّ السمع ، فنقول :

كلُّ من كان له إلمام بالحديث يقف على تواتر البشارة ، عن النبي وآله وأصحابه ، بظهور المهدي في آخر الزمان لإزالة الجهل والظلم والجور ، ونشر أعلام العلم ، والعَدْل وإعلاء كلمة الحق ، وإظهار الدين كلّه ولو كره المشركون ، فهو بإذن الله تعالى ينجي العالم من ذلّ العبودية لغير الله ، ويلغي الأخلاق والعادات الذميمة ، ويبطل القوانين الكافرة التي سنتها الأهواء ، ووضعتها يد بني البشر ، ويقطع أواصر التعصبات القومية والعنصرية ، والوطنية ، ويميت أسباب العداوة والبغضاء التي صارت سبباً لاختلاف الأُمّة

وافتراق الكلمة ، واشتعال نيران الفتن والمنازعات ، ويحقق الله سبحانه بظهوره ، وعده الذي وعد به المؤمنين بقوله :

١ ـ ﴿ وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنوا مِنْكُمْ وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كما استَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الذي ارتضى لهم ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمناً ، يَعْبُدونَني لا يُشْرِكونَ بي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلك فأُولئِكَ هُمُ الفاسِقون ﴾[١] .

٢ ـ ﴿ ونُريدُ أَنْ نَمُنَّ على الذينَ اسْتُضْعِفوا في الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثينَ ﴾[٢] .

٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصالِحونَ ﴾[٣] .

ويأتي عصر ذهبي لا يبقى فيه على الأرض بيت إلّا دخلته كلمة الإسلام ، ولا تبقى قرية إلّا وينادي فيها بشهادة : « لا إله إلّا الله » ، بكرة وعشياً .

هذا ما اتّفق عليه المسلمون في الصدر الأول ، والأزمنة المتلاحقة ، ولأجل ذلك استغلّ بعض المتهوسين قضية الإمام المهدي ، فادّعوا المَهْدَوِيَّة ، ولم نَعْهَدْ أحداً رَدَّه بإنكار أصل هذه البشائر ، وإنّما ناقشوه في الخصوصيات وعدم انطباق البشائر عليه[٤] .

---

(١) سورة النور : الآية ٥٥ .

(٢) سورة القصص : الآية ٥ .

(٣) سورة الأنبياء . الآية ١٥٠ .

(٤) وقد ألّف غير واحدٍ من أعلام السُّنة كتباً حول الإمام المهدي عليه السلام ، كالحافظ أبي نعيم الأصفهاني له كتاب : « صفة المهدي » ، والكُنجي الشافعي له : « البيان في أخبار صاحب الزمان » ، وملاّ علي المتقي له : « البرهان في علامات مهديِّ آخر الزمان » ، وعباد بن يعقوب الرواجني له : « أخبار المهدي » ، والسيوطي له : « العُرْف الوردي في أخبار المهدي » ، وابن حجر له : « القول المختصر في علامات المهدي المنتظر » ، والشيخ جمال الدين الدمشقي له : « عقد الدرر في أخبار الإمام المنتظر » ، وغيرهم قديماً وحديثاً .

ولم ير التضعيف لأخبار الإمام المهدي إلاّ من ابن خلدون في مقدمته ، وقد فنّد مقاله الأستاذ أحمد =

وقد تضافر مضمون قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلّم : « لو لم يَبْقَ من الدُّنيا إلّا يومٌ واحد ، لَطَوّل الله ذلك اليوم ، حتى يخرج رجل من ولدي ، فيملؤها عدلاً وقسطاً ، كما ملئت جوراً وظلماً »(١) .

وقد عرفت أنّ بحث المهدي بحث نقلي لا يمتّ إلى العقل بصلة ، فعلى من يريد اعتناقه ، أو ـ والعياذ بالله ـ ردّه ورفضه ، الرجوع إلى الصحاح والمسانيد ، وكتب الحديث والتاريخ ، حتى يقف على عدد الروايات الواردة حول المهدي عليه السلام ، في مجالات مختلفة ، وها نحن نأتي في المقام بفهرس الروايات التي رواها السنّة والشيعة .

فنقـــــــول :

١ ـ الروايات التي تُبَشِّر بظهوره	٦٥٧ رواية .
٢ ـ الروايات التي تصفه بأنّه من أهل بيت النبي الأكرم	٣٨٩ رواية .
٣ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد الإمام علي عليه السلام	٢١٤ رواية .
٤ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد فاطمة عليها السلام بنت النبي	١٩٢ رواية .
٥ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه التاسع من أولاد الحسين عليه السلام	١٤٨ رواية .
٦ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد الإمام زين العابدين عليه السلام	١٨٥ رواية .
٧ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد الإمام الحسن العسكري عليه السلام	١٤٦ رواية .
٨ ـ الروايات التي تبيّن آباء الإمام الحسن العسكري عليه السلام	١٤٧ رواية .
٩ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه يملأ العالم قسطاً وعدلاً .	١٣٢ رواية .

= محمد صديق برسالة أسماها : « إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون » ، وأخيراً نشر شخص يُدعى أحمد المصري رسالة أسماها : « المهدي والمهدوية » ، قام ـ بزعمه ـ بردّ أحاديث المهدي ، وأنكر تلك الأحاديث الهائلة البالغة فوق حدّ التواتر ، جهلاً منه بالسُّنة والحديث .

(١) لاحظ مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٩٩ . وج ٣ ، ص ١٧ و ٧٠ .

١٠ ـ الروايات التي تدل على أنّ للإمام المهدي غيبة طويلة . ٩١ رواية .
١١ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه يعمّر عمراً طويلاً . ٣١٨ رواية .
١٢ ـ الروايات التي تـدلّ على أنّ الإسـلام يعمُّ العالم كلّه
بعد ظهوره ٤٧ رواية .
١٣ ـ الروايات التي تـدلّ على أنّـه الإمام الثـاني عشر من
أئمة أهل البيت ١٣٦ رواية .
١٤ ـ الروايات الواردة حول ولادته . ٢١٤ رواية .

ولو وُجد هنا خلافٌ بين أكثر السنّة ، والشيعة ، فهو الإختلاف في ولادته ، فإنّ الأكثرية من أهل السنّة يقولون بأنّـه سيولـد في آخر الـزمان ، والشيعـة بفضل هذه الروايات ، تذهب إلى أنّـه ولد في « سُرّ مَنْ رأى » ، عام ٢٥٥ ، وغاب بأمر الله سبحانه سنة وفاة والده ، عام ٢٦٠ ، وهو يحيى حياة طبيعيـة كسائـر الناس ، غير أنّ الناس يرونه ولا يعرفونه[١] ، وسوف يظهره الله سبحانه لتحقق عدله .

ولأجـل أن يقف البـاحث عـلى نمـاذج من أحـاديث المهـدي في الصحـاح والمسـانيد ، نـذكر بعضـاً منها وهـو نـذر يسـير من الأحـاديث الكثـيرة التي رواهـا المحدّثون والحفاظ في كتبهم :

١ ـ روى الإمـام أحمد في مسنـده عن رسول الله صـلى الله عليه وآلـه قال : « لو لم يَبْقَ من الدَّهر إلاّ يوم واحد ، لبعث الله رجـلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً ، كما ملئت جوراً »[٢] .

٢ ـ أخرج أبو داود ، عن عبد الله بن مسعود قال : إنّ رسول الله صـلى الله عليه وآله قال : « لا تذهب ـ أوْ لا تنقضي ـ الدنيا حتى يملكَ العربَ رجلٌ من أهل بيتي يواطيء اسمُه إسمي »[٣] .

---

(١) وأمّا ما يلهج به بعض النواصب الأعداء ، من أنّ الشيعة تذهب إلى غيبته في السرداب في سامـراء ، فهـو من الأكاذيب التي ليس لهـا أصل أبـداً ، لا في الكتب ، ولا في صدور العـوام ، وإنّما افتعلوه إزدراءً بالعقيدة .

(٢) مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٩٩ ، وج ٣ ، ص ١٧ و٧٠ .

(٣) جامع الأصول ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، الرقم ٧٨١٠ .

٣ ـ أخرج أبو داود عن أمّ سلمة رضي الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : المهديُّ من عترتي من وُلْد فاطمة »[١] .

٤ ـ أخرج الترمذي عن إبن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يلي رجلٌ من أهل بيتي يواطيء اسمه إسمي » . قال : وقال أبو هريرة : « لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم ، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي »[٢]

٥ ـ روى ابن ماجة في سننه عن أبي أُمامة الباهلي ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله فكان أكثر خطبته حديثا حدثناه عن الدّجال ، وحذَّرناه ، فكان من قوله : إنّه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم ، أعظم من فتنة الدجال . . . » إلى أن قال : « وإمامُهم رجل صالح ، فبينما إمامهم قدتقدم ليصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم ، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقرى ، ليقدم عيسى يصلي بالناس ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له : تقدّم فصلِّ ، فإنّها لك أقيمت . فيصلي بهم إمامهم . . » (الحديث)[٣] .

وسيجيء ذكر ما رواه البخاري ومسلم فيما يأتي .

قال بعض المحققين المعاصرين من أهل السنّة : « لا أرى لزاماً علينا نحن المسلمين أن نربط ديننا بهما (صحيحي مسلم والبُخاري) ، فلنفرض أنّهما لم يكونا ، فهل تشل حركتنا وتتوقف دورتنا ؟ . لا ، فالأُمّة بخيرٍ والحمدلله ، والذين جاؤوا بعد البخاري ومسلم استدركوا عليهما ، واستكملوا جهدهما ، ووزنوا عملهما ، وكشفوا بعض الخلاف في صحيحهما ، وما زال المحدّثون في تقدم علمي ، وبحث وتحقيق ، ودراسة وجمع ، ومقارنة وتمحيص ، حتى يغمر الضوء كل مجهول ، ويظهر كلُّ خفي .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٩ ، الرقم ٧٨١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٨ ، الرقم ٧٨١٠ .

(٣) سنن إبن ماجه ، ج ٢ ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ، ص ٥١٢ ـ ٥١٥ ، وكنز العمال ، ج ١٤ ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٦ ، الرقم ٣٨٧٤٢ .

ولماذا نَرُدّ حديثنا لمجرد أنْ قيل في بعض رواته أنّه لين ، أو ضعيف ، أو منقطع ، أو مرسل ، أو . . . ؟ .

نعم ، هذه علل ، تثير الشك والتساؤل ، وتدفع إلى زيادة البحث والتعمّق ، ولكن ـ كما أعتقد ـ إنّ بعض علل الحديث لا تلزم بالرد لهذا الحديث ، فكثيراً ما نجد في بعض الطرق ضعفاً ، وفي بعضها قوّة ، فهو صحيح من طريق ، حسن أو ضعيف من أخرى ، ومعنى هذا أنّ الراوي الذي حكم عليه مثلاً بأنّه ينسى ، تَبَيَّنَ أنّه في هذه الواقعة لم ينس ، فجاءت روايته مؤيّدة بما جاء عن غيره .

وأحاديث المهدي ـ في نظري ـ من هذا النوع ، ولو بعضها . رغم أنّ بعض المسلمين ـ كابن خلدون ـ قد بالغ وضعفّها كلّها ، وردّها وحكم عليها حكماً قاسياً ، واتّهم كل هؤلاء الرواة ومن رووا عنهم بما لا يليق أنْ يُظَنَّ فيهم .

إنّ المشكلة ليست مشكلة حديث أو حديثين ، أو راوٍ أو راويين ، إنّما مجموعة من الأحاديث والآثار تبلغ الثمانين تقريباً ، اجتمع على تناقلها مئات الرواة ، وأكثر من صاحب كتابٍ صحيح .

فلماذا نردّ كلّ هذه الكمية ؟ أكلّها فاسدة ؟ . لو صحّ هذا الحكم لانهار الدين ـ والعياذ بالله ـ نتيجة تطرّق الشك والظن الفاسد إلى ما عداها من سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله .

ثم إنّي لا أجد خلافاً حول ظهور المهدي ، أو حول حاجة العالم إليه ، وإنّما الخلاف حول من هو ، حسني ، أو حسيني ؟ سيكون في آخر الزمان ، أو موجود الآن ، خفي وسيظهر ؟ ظهر أو سيظهر ؟ . ولا عبرة بالمدّعين الكاذبين ، فليس لهم اعتبار .

ثم إنّي لم أجد مناقشة موضوعية في متن الأحاديث ، والذي أجده إنّما هو مناقشة وخلاف حول السند ، وإتّصاله أو عدم اتّصاله ، ودرجة رواته ، ومن خرّجوه ، ومن قالوا فيه .

وإذا نظرنا إلى ظهور المهدي ، نظرة مجرّدة ، فإنّنا لا نجد حرجاً من قبولها وتصديقها ، أو على الأقل عدم رفضها .

فإذا ما تأيّد ذلك بالأدلّة الكثيرة ، والأحاديث المتعددة ، ورواتها مسلمون مؤتمنون ، والكتب التي نقلتها إلينا كتب قيمة ، والترمذي من رجال التخريج والحكم ، بالإضافة إلى أنّ أحاديث المهدي لها ما يصحّ أنْ يكون سنداً لها في البخاري ومسلم ، كحديث جابر في مسلم الذي فيه : « فيقول أميرهم (أي لعيسى) تعال صل بنا »[1] وحديث أبي هريرة في البخاري ، وفيه : « كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم »[2] ، فلا مانع من أن يكون هذا الأمير ، وهذا الإمام هو المهدي .

يضاف إلى هذا أنّ كثيراً من السلف رضي الله عنهم ، لم يعارضوا هذا القول ، بل جاءت شروحهم وتقريراتهم موافقة لإثبات هذه العقيدة عند المسلمين »[3] .

* * *

(١) صحيح مسلم ، ج ١ ، باب نزول عيسى ، ص ٩٥ . وفيه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى ، فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا ، إنّ بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمّة .

ولاحظ كنز العمال ، ج ١٤ ، ص ٣٣٤ ، الرقم ٣٨٨٤٦ .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٤ ، باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام ، ص ١٦٨ . وصحيح مسلم ، ج ١ ، باب نزول عيسى ، ص ٩٤ ، وكنز العمال ، ج ١٤ ، ص ٣٣٤ ، الرقم ٣٨٨٤٥ .

(٣) بين يدي الساعة للدكتور عبد الباقي ، ص ١٢٣ ـ ١٢٥ .

أسئلة حول المهدي المنتظر عليه السلام

١ ـ كيف يكون إماماً وهو غائب ؟
٢ ـ لماذا غاب المهدي عليه السلام ؟ .
٣ ـ الإمام المهدي وطول عمره .
٤ ـ علائم ظهوره ، ما هي ؟ .

أسئلة مهمة حول المهدي عجل الله تعالى فرجه

إنّ القول بأنّ الإمام المهدي لما يزال حي يرزق منذ ولادته عام ٢٥٥ هجرية إلى الآن ، وأنّه غائب سوف يظهر بأمر من الله سبحانه ، أثار أسئلة حول حياته وإمامته ، نذكر رؤوسها .

١ ـ كيف يكون إماماً وهو غائب ، وما الفائدة المترقبة منه في غيبته ؟ .

٢ ـ لماذا غاب ؟ .

٣ ـ كيف يمكن أن يعيش إنسان هذه المدة الطويلة ؟ .

٤ ـ ما هي أشراط وعلائم ظهوره ؟ .

هذه أسئلة أُثيرت حول الإمام المهدي منذ أن غاب ، وكلّما طالت غيبته اشتدّ التركيز عليها ، وقد قام المحققون من علماء الإمامية بالإجابة عليها في مؤلّفات مستقلة لا مجال لنقل معشار ما جاء فيها ، غير أنّ الإحالة لما كانت عن المحذور غير خالية ، نبحث عنها على وجه الإجمال ،ونحيل من أراد التبسّط إلى المصادر المؤلّفة في هذا المجال .

* * *

السؤال الأول

كيف يكون إماماً وهو غائب ؟ وما فائدته ؟

إنّ القيادة والهداية والقيام بوظائف الإمامة ، هو الغاية من تنصيب الإمام ، أو اختياره ، وهو يتوقف على كونه ظاهراً بين أبناء الأُمّة ، مشاهداً لهم ، فكيف يكون إماماً قائداً ، وهو غائب عنهم ؟! .

والجواب : على وجهين نقضاً وحلاًّ .

أمّا النقض ، فإنّ التركيز على هذا السؤال يعرب عن عدم التعرّف على أولياء الله ، وأنّهم بين ظاهرٍ قائم بالأُمور ومُخْتَفٍ قائم بها من دون أن يعرفه الناس .

إنّ كتاب الله العزيز يعرّفنا على وجود نوعين من الأئمة والأولياء والقادة للأُمّة ، وليٌّ غائب مستور ، لا يعرفه حتى نبي زمانه ، كما يخبر سبحانه عن مصاحب موسى عليه السلام بقوله : ﴿ فَوَجَدا عَبْداً من عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ من لَدُنّا عِلْماً * قال لَهُ موسى هَلْ أتَّبِعُكَ على أنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رشْداً ﴾ الآيات [1] .

ووليّ ظاهر باسط اليد ، تعرفه الأُمّة وتقتدي به .

فالقرآن إذن يدلّ على أنّ الولي ربما يكون غائباً ، ولكنه مع ذلك لا يعيش في

(١) سورة الكهف : الآيات ٦٥ ـ ٨٢ .

غفلة عن أُمّته ، بل يتصرف في مصالحها ويرعى شؤونها ، من دون أن يعرفه أبناء الأُمّة .

فعلى ضوء الكتاب الكريم ، يصحّ لنا أن نقول بأنّ الولي إما ولي حاضر مشاهد ، أوْ غائب محجوب .

وإلى ذلك يشير الإمام علي بن أبي طالب في كلامه لكميل بن زياد النخعيّ ، يقول كميل : « أَخَذَ بيدي أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، فأخرجني إلى الجبّان ، فلما أصحر ، تَنَفَّس الصعداء ، وكان مما قاله : « اللّهم بلى ، لا تخلو الأرضُ من قائمٍ لله بحُجَّةٍ ، إمّا ظاهراً مشهوراً ، أو خائفاً مغموراً لِئلاّ تَبْطُلَ حُجَجُ الله وبيِّناتُه »(١) .

وليست غَيْبة الإمام المهدي ، بِدْعا في تاريخ الأولياء ، فهذا موسى بن عمران ، قد غاب عن قومه قرابة أربعين يوماً ، وكان نبيّاً وليّاً ، يقول سبحانه : ﴿ وواعَدْنا موسى ثلاثينَ لَيْلَةً وأتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ ميقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعينَ لَيْلَةً ، وقالَ موسى لأخيه هارونَ اخْلُفْني في قَوْمي وأَصْلِحْ ولاَ تَتّبِعْ سَبيلَ المُفْسِدينَ ﴾(٢) .

وهذا يونس كان من أنبياء الله سبحانه ، ومع ذلك فقد غاب في الظلمات كما يقول سبحانه : ﴿ وذا النُّونِ إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنادى في الظُّلُماتِ أَنْ لا إلهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ * فاسْتَجبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ ، وَكذلكَ نُنْجي المُؤْمِنينَ ﴾(٣) .

أو لم يكن موسى ، ويونس نبيَّيْن من أنبياء الله سبحانه ؟ وما فائدة نبي يغيب عن الأبصار ، ويعيش بعيداً عن قومه ؟ .

فالجواب في هذا المقام ، هو الجواب في الإمام المهدي عليه السلام ، وسيوافيك ما يفيدك ، من الإنتفاع بوجود الإمام الغائب في زمان غيبته في جواب السؤال التالي .

---

(١) نهج البلاغة بتعليقات عبده ، ج ٤ ، ص ٣٧ ، قصار الحكم ، الرقم ١٤٧ .

(٢) سورة الأعراف · الآية ١٤٢ .

(٣) سورة الأنبياء : الآيتان ٨٧ ـ ٨٨ .

أمّا الحلّ فمن وجوه :

الأوّل ـ إنّ عدم علمنا بفائدة وجوده في زمان غيبته ، لا يدلّ على عدم كـونه مفيداً في زمن غَيْبَته ، فالسائلُ جَعَلَ عدم العلم ، طريقاً إلى العلم بالعدم !! وكم لهـذا السؤال من نـظائـر في التشريـع الإسـلامي ، فيقيم البسـطاء عـدم العلم بالفائدة ، مقام العلم بعدمها ، وهذا من أعظم الجهل في تحليل المسائل العلمية ، ولا شـك أنّ عقـول البشر لا تصـل إلى كثـير من الأُمـور المهمّـة في عـالم التكـوين والتشريع ، بل لا يفهم مصلحة كثير من سننه ، وإن كان فعله سبحانه منـزّهاً عن العبث ، بعيداً عن اللغو .

وعـلى ذلـك فيجب علينـا التسليم أمـام التّشريـع إذا وصـل إلينـا بصـورة صحيحة ، كما عرفت من تواتر الروايات على غَيْبته .

الثاني : إنّ الغَيْبَة لا تلازم عدم التصرف في الأُمـور ، وعدم الإستفـادة من وجوده ، فهذا مصـاحب موسى كـان ولياً ، لجـأ إليه ، أكـبر أنبياء الله في عصره ، فقـد خرق السفينـة التي يمتلكهـا المستضعفـون ، ليصـونها عن غصب الملك ، ولم يَعْلَم أصحـاب السفينة بتصرفـه ، وإلاّ لَصَـدُّوه عن الخـرق ، جهـلاً منهم بغـايـة عمله . كـما أنّه بنى الجـدار ، ليصون كنـز اليتيمَيْن ، فـأي مانـع ، حينئـذٍ من أن يكـون للإمـام الغائب في كـل يوم وليلة تصرّفـاً من هـذا النمط من التصرفـات . ويؤيد ذلك مـا دلّت عليه الـروايات من أنّـه يَحْضُر الموسمَ في أشهـر الحج ، ويَحُجُّ ويصاحِبُ الناسَ ، ويحضرُ المجالس ، كما دلّت على أنّه يغيث المضـطرين ، ويعود المرضى ، وربما يتكفـل ـ بنفسه الشريفـة ـ قضاء حـوائجهم ، وإن كان النـاس لا يعرفونه .

الثالث : المُسَلّم هو عدم إمكان وصـول عموم النـاس إليه في غيبتـه ، وأمّا عـدم وصول الخـواص إليه ، فليس بأمر مسلّم ، بل الـذي دلّت عليـه الـروايـات خلافه ، فالصلحاء من الأُمّـة ، الذين يُسْتَـدَرُّ بهم الغمام ، لهم التشرف بلقـائه ، والإستفادة من نور وجوده ، وبالتالي ، تستفيد الأُمّة بواسطتهم .

الرابع : لا يجب على الإمام أن يتولّى التصرّف في الأُمور الظاهريـة بنفسه ،

بل له تـوليَةٌ غيـرِهِ على التصرف في الأمـور كما فعـل الإمام المهـدي ، أرواحنا لـه الفداء ، في غَيْبَته . ففي الغَيْبَة الصغرى ، كان له وكلاء أربعة ، يقومون بحوائج الناس ، وكانت الصلة بينـه وبين النـاس مستمرة بهم . وفي الغَيْبَـة الكبرى نصب الفقهاء والعلماء العدول العالمين بالأحكام ، للقضاء وإجراء السيـاسات ، وإقـامة الحدود ، وجَعَلَهم حجةً على الناس ، فهم يقومون في عصر الغَيْبَـة بصيانـة الشرع عن التحريف ، وبيان الأحكـام ، ودفع الشبهـات ، وبكل مـا يـوقف عليـه نَظْمُ أُمور الناس(١) .

وإلى هـذه الأجوبـة أشار الإمـام المهدي عليـه السلام في آخـر توقيـع له إلى بعض نوّابه ، بقوله : « وأمّا وجهُ الإنتفاع بي في غَيْبَتِي ، فكالإنتفـاع بالشَّمْسِ إِذَا غَيّبَها عن الأَبْصارِ ، السحابُ »(٢) .

* * *

(١) المراد من الغيبة الصغرى ، غيبته صلوات الله عليه ، منذ وفاة والده عام ٢٦٠ إلى عام ٣٢٩ ، وقـد كانت الصلة بينه وبين الناس مستمرة بواسطة وكلائِه الأربعة : الشيـخ أبي عمـرو عثـمان بن سعيد العمري ، وولده الشيخ أبي جعفر محمـد بن عثمان ، والشيـخ أبي القاسم الحسـين بن روح من بني نَوْبخت ، والشيخ أبي الحسن علي بن محمد السَّمُري .
والمراد من الغيبة الكبرى ، غيبته من تلك السنة إلى زماننا هذا ، انقـطعت فيها النيـابة الخـاصة عن طريق أشخاص معينين ، وحلّ محلّها النيابة العامة بواسـطة الفقهاء والعلماء العـدول ، كما جـاء في تـوقيعه الشريـف : « وأمّـا الحوادث العـامّة ، فـارجعـوا فيهـا إلى رواة أحـاديثنـا ، فـإنّهم حجّتي عليكم ، وأنا حجة الله عليهم » . (كمال الدين ، الباب ٤٥ ، ص ٤٨٤) .

(٢) كمال الدين ، للصدوق ، الباب ٤٥ ، الحديث ٤ ، ص ٤٨٥ . وقد ذكر العلامـة المجلسي في وجه تشبيهه بالشمس إذا سترها السحاب ، وجوهاً ، راجعها في بحـار الأنوار ، ج ٥٢ ، البـاب ٢٠ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

السـؤال الثاني

لماذا غاب المهدي عليه السلام ؟

إنّ ظهور الإمام بين الناس ، يترتّب عليه من الفائدة ما لا يترتب عليه في زمان الغَيْبَة ، فلماذا غاب عن الناس ، حتى حرموا من الإستفادة من وجوده ، وما هي المصلحة التي أخفته عن أعين الناس ؟ .

الجـواب

إنّ هذا السؤال يجاب عليه بالنقض والحل :

أمّا النقض ، فبما ذكرناه في الإجابة عن السؤال الأول ، فإنّ قصور عقولنا عن إدراك أسباب غَيْبَته ، لا يجرنا إلى إنكار المتضافرات من الروايات ، فالإعتراف بقصور أفهامنا أولى من ردّ الروايات المتواترة ، بل هو المتعيّن .

وأمّا الحلّ ، فإنّ أسباب غيبته ، واضحة لمن أمْعَنَ فيما ورد حولها من الروايات ، فإنّ الإمام المهدي عليه السلام هو آخر الأئمة الإثني عشر الذين وعد بهم الرسول ، وأناط عزة الإسلام بهم ، ومن المعلوم أنّ الحكومات الإسلامية لم تُقَدِّرْهُم ، بل كانت لهم بالمرصاد ، تلقيهم في السجون ، وتريق دماءهم الطاهرة ، بالسيف أو السمّ ، فلو كان ظاهراً ، لأقدموا على قتله ، إطفاء لنوره ، فلأجل ذلك اقتضت المصلحة أن يكون مستوراً عن أعين الناس ، يراهم ويرونه ولكن لا يعرفونه ، إلى أن تقتضي مشيئة الله سبحانه ظهوره ، بعد حصول استعدادٍ

خاص في العالم لقبوله ، والإنضواء تحت لواء طاعته ،حتى يحقق الله تعالى به ما وعد به الأمم جمعاء من توريث الأرض للمستضعفين .

وقد ورد في بعض الروايات إشارة إلى هذه النكتة ،روى زرارة قال : سمعت أبا جعفر (الباقر عليه السلام) ، يقول : إنّ للقائم غَيْبة قبل أن يقوم ، قال : قلت . ولم ؟ . قال : يخاف . قال زرارة : يعني القتل .

وفي رواية أخرى : يخاف على نفسه الذبح[1] .

وسيوافيك ما يفيدك عند الكلام عن علائم ظهوره .

* * *

---

(١) لاحظ كمال الدين ، الباب ٤٤ ، الحديث ٨و ٩ و١٠ ، ص ٢٨١ .

السـؤال الثالث

الإمام المهدي وطول عمره

إنّ من الأسئلة المطروحة حول الإمام المهدي ، طول عمـره في فترة غيبتـه ، فـإنّه ولـد عام ٢٥٥ ، فيكـون عمره إلى الأعصـار الحـاضرة أكـثر من ألف ومـائـة وخمسين عاماً ، فهل يمكن في منطق العلم أن يعيش إنسان هذا العمر الطويل ؟ .

والجـــواب

من وجهين ، نقضاً وحلاً .

أمّا النقض ، فقد دلّ الذكر الحكيم عـلى أن شيخ الأنبيـاء عاش قـرابة ألف سنة ، قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فيهم أَلْفَ سَنَةٍ إلاَّ خَمْسينَ عاماً ﴾[1] .

وقد تضمنت التوراة أسماء جماعة كثيرة من المعمـرين ، وذكرت أحـوالهم في سِفْر التكوين [2] .

وقدقام المسلمون بتأليف كتب حول المعمرين ، ككتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني ، كما ذكر الصدوق أسماء عدّة منهم في كتاب كمال الدين[3] ، والعلامة

(١) سورة العنكبوت · الآية ١٤ .

(٢) التوراة ، سفر التكوين ، الإصحاح الخامس ، الجملة ٥ ، وذكر هنـاك أعمار آدم ، وشيث ونـوح ، وغيرهـم .

(٣) كمال الدين ، ص ٥٥٥ .

الكراجكي في رسالته الخاصة ، باسم « البرهان على صحة طول عمر الإمام صاحب الزمان »[1] ، والعلامة المجلسي في البحار[2] ، وغيرهم .

وأمّا الحلّ ، فإنّ السؤال عن إمكان طول العمر ، يعرب عن عدم التعرّف على سعة قدرة الله سبحانه : ﴿ وَما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾[3] ، فإنّه إذا كانت حياته وغَيْبَته وسائر شؤونه ، برعاية الله سبحانه ، فأي مشكلة في أن يُمدّ الله سبحانه في عمره ما شاء ، ويدفع عنه عوادي المرض ويرزقه عيش الهناء .

وبعبارة أخرى ، إنّ الحياة الطويلة ، إمّا ممكنة في حدّ ذاتها أو ممتنعة ، والثاني لم يقل به أحد ، فتعين الأول ، فلا مانع من أن يقوم سبحانه بمدّ عمر وليّه ، لتحقيق غرض من أغراض التشريع .

أضف إلى ذلك ما ثبت في علم الحياة ، من إمكان طول عمر الإنسان إذا كان مراعياً لقواعد حفظ الصحة ، وأنّ موت الإنسان في فترة متدنية ، ليس لقصور الإقتضاء ، بل لعوارض تمنع عن استمرار الحياة ، ولو أمكن تحصين الإنسان منها بالأدوية والمعالجات الخاصة لطال عمره ما شاء .

وهناك كلمات ضافية من مَهَرة علم الطب في إمكان إطالة العمر ، وتمديد حياة البشر ، نشرت في الكتب والمجلات العلمية المختلفة[4] .

وبالجملة ، اتّفقت كلمة الأطباء على أنّ رعاية أصول حفظ الصحة ، توجب طول العمر ، فكلما كثرت العناية برعاية تلك الأصول ، طال العمر ، ولأجل ذلك ، نرى أنّ الوفيات في هذا الزمان ، في بعض الممالك ، أقلّ من السابق ، والمعمّرين فيها أكثر من ذي قبل ، وما هو إلا لرعاية أصول الصحة ، ومن هنا أُسّست شركات تضمن حياة الإنسان إلى أمد معلوم تحت مقررات خاصة

---

(١) البرهان على طول عمر الإمام صاحب الزمان ، للكراجكي ، ملحق بـ « كنز الفوائد » ، له أيضاً ، الجزء الثاني . لاحظ في ذكر المعمرين ص ١١٤ ـ ١٥٥ ، ط دار الأضواء ، بيروت ـ ١٤٠٥ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٥١ ، الباب ١٤ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٩٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٩١ .

(٤) لاحظ مجلة المقتطف ، الجزء الثالث من السنة التاسعة والخمسين .

وحـدود معينة ، جـارية عـلى قوانـين حفظ الصحة ، فلو فـرض في حيـاة شخص إجتماع موجبات الصحة من كل وجه ، طال عمره إلى ما شاء الله .

وإذا قرأت ما تُدَوِّنه أقـلام الأطباء في هـذا المجال ، يتّضـح لك معنى قـوله سبحانه : ﴿ فَلَوْلا أنّه كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ * لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثونَ ﴾[1] .

فإذا كان عيش الإنسان في بطون الحيتـان ، في أعماق المحيـطات ، ممكناً إلى يـوم البعث ، فكيف لا يعيش إنسان ، عـلى اليابسـة ، في أجواء طبيعيـة ، تحت رعاية الله وعنايته ، إلى ما شاء ؟ .

* * *

(١) سورة الصافات : الآيتان ١٤٣ و ١٤٤ .

السؤال الرابع

علائم ظهوره ، ما هي ؟

إذا كان للإمام الغائب ، ظهوراً بعد غيبة طويلة ، فلا بدّ من أن يكون لظهوره علائم وأشراط ، تخبر عن ظهوره ، فما هي هذه العلائم ؟ .

الجواب

إنّ ما جاء في كتب الأحاديث من الحوادث والفتن الواقعة في آخر الزمان على قسمين :

قسم هو من أشراط الساعة وعلامات دنو القيامة .

وقسم هو ما يقع قبل ظهور المهدي المنتظر .

وربما وقع الخلط بينهما في الكتب ، ونحن نذكر القسم الثاني منهما ، وهو عبارة عن أمور عدّة ، منها :

١ ـ النداء في السماء .

٢ ـ الخسوف والكسوف في غير مواقعهما .

٣ ـ الشقاق والنفاق في المجتمع .

٤ ـ ذيوع الجور والظلم والهرج والمرج في الأمّة .

٥ ـ ابتلاء الإنسان بالموت الأحمر والأبيض .

٦ ـ قتل النفس الزكية .

٧ ـ خروج الدجال .

٨ ـ خروج السفياني .

وغير ذلك مما جاء في الأحاديث الإسلامية[١] .

هذه هي علامات ظهوره ، ولكن هناك أموراً تمهّد لظهوره ، وتسهّل تحقيق أهدافه نشير إلى أبرزها :

١ ـ **الإستعداد العالمي** : والمراد منه أنّ المجتمع الإنساني ـ وبسبب شيوع الفساد ـ يصل إلى حدّ ، يقنط معه من تحقق الإصلاح بيد البشر ، وعن طريق المنظمات العالمية التي تحمل عناوين مختلفة ، وأنّ ضغط الظلم والجور على الإنسان يحمله على أن يُذْعن ويُقِرّ بأنّ الإصلاح لا يتحقق إلاّ بظهور إعجاز إلهي ، وحضور قوة غيبية ، تدمر كل تلك التكتلات البشرية الفاسدة ، التي قَيَّدَتْ بأسلاكها أعناقَ البشر .

٢ ـ **تكامل العُقُول** : إنّ الحكومة العالمية للإمام المهدي عليه السلام لا تتحقق بالحروب والنيران والتدمير الشامل للأعداء ، وإنّما تتحقق برغبة الناس إليها ، وتأييدهم لها ، لتكامل عقولهم ومعرفتهم .

يقول الإمام الباقر عليه السلام في حديث له يرشد فيه إلى أنّه إذا كان ذلك الظرف ، تجتمع عقول البشر وتكتمل أحلامهم : « إذا قام قائمُنا ، وَضَعَ الله يده على رؤوس العباد ، فيجمع بها عقولهم ، تكتمل به أحلامهم »[٢] .

فقوله عليه السلام : يجمع بها عقولهم ، بمعنى أنّ التكامل الإجتماعي يبلغ

---

(١) لاحظ في الوقوف على هذه العلائم ، بحار الأنوار ، ج ٥٢ ، الباب ٢٥ ، ص ١٨١ ـ ٣٠٨ . كتاب المهدي ، للسيد صدر الدين الصدر (م ١٣٧٣) . ومنتخب الأثر، ص ٤٢٤ ـ ٤٦٢ .

(٢) منتخب الأثر ، ص ٤٨٣ .

بالبشر إلى الحدّ الذي يَقْبَلُ فيه تلك الموهبة الإلهية ، ولن يترصد للثورة على الإمـام والإنقلاب عليه ، وقتله أو سجنه .

٣ ـ **تكامل الصناعات** : إنّ الحكومة العالمية المـوحّدة لا تتحقق إلاّ بتكـامل الصناعات البشرية ، بحيث يسمع العالم كلّه صوته ونداءه ، وتعاليمه وقـوانينه في يومٍ واحدٍ ، وزمنٍ واحدٍ .

قـال الإمـام الصـادق عليـه السـلام : « إنّ المؤمنَ في زمـان القـائم ، وهـو بالمشرق ، يرى أخـاه الذي في المغـرب ، وكذا الـذي في المغرب يـرى أخاه الـذي بالمشرق »[١] .

٤ ـ **الجيش الثوري العالمي** ، إنّ حكومة الإمام المهدي عليـه السلام ، وإن كانت قائمة على تكامل العقول ، ولكن الحكومـة لا تستغني عن جيش فدائي ثـائر وفعال ، يُمَهِّد الطريق للإمام عليه السلام ، ويواكبه بعد الـظهور إلى تحقق أهـدافه وغاياته المتوخّاة .

إلى هنا تمّ البحث عن الإمامـة ، بالصـورة التي تلائم العصر ، وقـد ركزنـا عـلى أهمّ الموضـوعات ، وتـركنا البحث عن غـيرها إلى الكتب المُعَـدَّة لها . ويقـع البحث فيما يلي في المعاد ، وحشر الإنسان في النشأة الأخرى ، وهو الأصل الأصيل في الشرائع السماوية[٢] .

* * *

---

(١) منتخب الأثر ، ص ٤٨٣ .

(٢) ومن حسن الختـام ، فراغنـا من تدوين هـذه المباحث ليلة الجمعـة ، الخامس عشر من شهـر رمضان المبارك ، عشية ولادة الإمام الطاهر الحسن بن علي بن أبي طـالب ، أبي محمد المجتبى ، من شهـور عام ١٣٠٩ للهجرة النبوية ، أسأله تعالى إدامة توفيقه لإخراج جميع ما تبقّى من المباحث التي تـدور حول معاد الإنسان .

الفصـــل العاشـــر

المعـــــاد

* مباحث المعاد

١ ـ المعاد في الملل والشرائع السابقة .
٢ ـ أدلة وجوب المعاد وضرورته .
٣ ـ بواعث إنكار المعاد وشبهات المنكرين .
٤ ـ أدلة العقل والنقل على تجرّد الروح .
٥ ـ نماذج من إحياء الموتى في الشرائع السابقة .
٦ ـ الموت نافذة إلى حياة جديدة .
٧ ـ الحياة البرزخية وأدلتها في الكتاب .
٨ ـ أشراط الساعة .
٩ ـ مشاهد البعث والقيامة .
١٠ ـ المعاد الجسماني والروحاني .
١١ ـ الرجعة .
١٢ ـ التناســـخ .
١٣ ـ الإيمان وأحكامه .
١٤ ـ التوبة وشرائطها .
١٥ ـ الشفاعـــة .
١٦ ـ الإحباط والتكفير .
١٧ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

* أسئلة حول المعاد

الفصل العاشر

المعـــاد

البحث عن المعاد وحشر الإنسان بعد الدنيـا ، إجابـة عن أحد الأسئلة التي طالما كان الإنسان المفكّر يواجهها . فإنّه مذ فتح عينيه على الحياة ، يسأل نفسه عن أمور :

١ ـ ما هو مبدأ العالم والإنسان ؟ .
٢ ـ ما هو الهدف من وجود الإنسان ؟ .
٣ ـ إلى أين المصير بعد الموت ؟ .

فالبحث عن الصانع ، إجابـة عن السؤال الأول ، كما أنّ البحث عن كـونه سبحـانه حكيمـاً ، وأنّ فِعْلَه منزّهٌ عن العبث ، إجـابة عن الثـاني ، وها هـو حين البحث عن جواب السؤال الثالث ، وإجماله :

إنّ الموت ليس نهاية الحياة ، وإنّ الإنسان لا يفنى بمـوته ، وإنّمـا الموت جسْرٌ لينتقل الإنسان عبره من نشأةٍ إلى نشأة أخرى أكمل من الأُولى ، وإنّ الإنسان خُلِقَ للبقاء ، لا للفناء ، وإنّ النشأة الأُخروية ، منتهى السير وغاية الغايات .

وتفصيل ذلك يتمّ في ضمن المباحث التالية :

* * *

مباحث المعاد

(١)

« المعاد » في المِلل والشرائع السابقة

الإعتقاد بالمعاد عنصر أساسي في كل شريعة لها صلة بالسماء ، ويحتل في الأصالة والتأثير محلّ العمود الفقري في بدن الإنسان ، وبدونه تصبح الشرائع مسالك بشرية مادية ، لا تمت إلى الله سبحانه بصلة . فقوام الشريعة بالمبدأ والمعاد ، ولأجل ذلك لا ترى شريعة تتسم بأنّها شريعة إلهية ولو بعد تحريفها ، خالية عن الدعوة إلى الحياة الأُخروية وحشر الإنسان بعد الموت ، وإقامة الحساب والجزاء والثواب والعقاب . وسيوافيك نصوص العهدين في هذا المجال .

إنّ المحققين في التاريخ البشري يصرحون بأنّ المجتمع الإنساني لم يزل معتنقاً لهذا الأصل ، وإن لم يعلم دينه ولا كتابه . وإليك التوضيح بوجوه :

١ ـ إنّ البدو القاطنين في الصحاري والبراري ، الذي يُعَدّون نموذجاً للمجتمع البدائي المنقرض ، لهم طقوس خاصة في دفن الموتى تدلّ على اعتقادهم بعودة الأرواح إلى الأجسام المدفونة ، ومن ذلك أنّهم يضعون حجارة كبيرة على صدور موتاهم ، ويربطون أعضاءهم بحبال متينة ، لئلا يتحركوا بعد عودالروح ويخرجوا من أماكنهم[1] .

٢ ـ إنّ المصريين ، ذوو الحضارة القديمة ، كانوا يعتقدون أنّ الروح بعد

---

(١) جامع الأديان ، تأليف جان ناس ، ترجمة علي أصغر حكمت ، ص ١٧ .

خروجها من البدن ، لها علاقة به ، وسوف ترجع إليه ، ولذلك كانوا يتركون في القبور منافذ ليسهل دخول الروح إليها ، ويضعون بعض الطعام والشراب في جنب الميت . ولأجل صيانة الموتى عن أذى السباع ، قام المتمكنون منهم ببناء الأهرام العظيمة فوق قبورهم .

٣ ـ عند البراهمة تثليث تخيّلوه منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وأطرافه الثلاثة : بَراهما ، وفيشنو ، وسيفا . فبَراهما هو الإله الخالق ، وفيشنو الإله الحافظ ، وسيفا الإله الهادم . والتناسخ احتلّ في الديانة البَرَاهمية مكان الإعتقاد بالمعاد ، ويراد منه رجوع الروح بعد انحلال جسدها إلى العالم الأرضي متلبسةً بجَسَد جديد ، إنساني أو حيواني(١) . فالإعتقاد بالتناسخ صورة منسوخة من العقيدة بالمعاد ، وإرضاء لفطرة الإنسان في حب البقاء .

٤ ـ إنّ مسلك البوذية الذي أسسه بوذا ، غير خال عن عود الأرواح إلى الأبدان عوداً تناسخياً ، فإنّ لهذا المذهب ، دعائم وأُسس منها : « الألم من لوازم الوجود » ، ومنها : « الرجوع إلى هذه الدنيا بسبب الإلتياث بالشهوات في حياة سابقة » ، ومنها : « الخلاص من أثر الشهوات هو الوسيلة الوحيدة للنجاة من الحياة الأرضية بعد الموت ، وتلك النجاة هي نجاة من الألم ، وسبب للوصول إلى مكانة »(٢) .

٥ ـ وعند المجوس أيضاً فإنّ الإعتقاد ببقاء الروح بعد الموت ومُجازات الإنسان حسب أعماله ، من الأُصول الأصيلة في ديانتهم ، حتى أنّ بعض المرجفين في الكلام(٣) تَصَوَّر أنّ تعاليم التوراة والمسيح في المعاد مأخوذة من تلك الديانة ، ولكن عزب عنه أنّ المجوسية ، إن كانت شريعة سماوية ، يجب أن تشترك مع سائر الشرائع في الأُصول ، وليست وحدة الأُصول فيها ، دليلاً على أخذ المتأخر من المتقدم ، فإنّ الشريعة فيض سماوي ، أُفيض من السماء إلى الإنسان الأرضي في

---

(١) لاحظ دائرة المعارف لفريد وجدي ، ج ٢ ، ص ١٥٥ و ١٦١ .

(٢) دائرة المعارف لفريد وجدي ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

(٣) الكاتب الفارسي حميد نيرنوري في كتابه : « مساهمة الإيرانيين في الحضارة العالمية » ، ص ٢٢٨ .

أزمنة خاصة حسب لياقته وكفاءته ، فاشـتركت كل الشرائـع في الأُصول واختلفت في المنهاج .

هـذا بعض مـا يمكن أن نلفت النـظر إليـه في عمـوميـة المعـاد بـين الأقـوام والشعـوب ، وقـد اختصرنـا الكـلام فيـه ، لأنّ الأَوْلى عـطف النــظر إلى الكتب السماوية ، المجموعة في العهدين وما ينقله القـرآن الكريم لنـرى تركيـز الأنبياء في القرون السالفة على المعاد ، ونقتصر فى المقام على موارد خاصة .

المعاد في العهد القديم

إنّ من العجب أن التصريح بالحياة الأُخرويـة في العهد العتيق قليـل ، وأنّ أكثر الوعود الواردة فيها على امتثال فرائض الربّ ، عائدة إلى رجوعهم إلى الأرض المقدسة ، وأنّ فيها من النِّعَم والبركات ما لا يحصى ، ولعلّ يد التحريف حذفت ما دلّ عـلى الحياة الأُخـروية وأنّ الإنسـان يـرى جـزاء الأعـمال وامتثـال الفـرائض ، وارتكـاب المحرمـات ، في النشأة الأُخـري ، وهذا هـو الذي أضفى عـلى مذهب اليهود صبغة مادية ، قَلّ التوجه فيها إلى الأُمور المعنويـة ، ومع ذلـك كلّه فقد بقي فيها جمل تُصَرّح بحشر الإنسان بعد الدنيا ، وإن كانت قليلة ، منها :

- « الرَّبُّ يُميت ويُحْيي »[1] .
- « تحيا أمواتُك يومَ تقومُ الجُثَث ، إستيقظوا تَرَنَّموا يا سُكّان التُّراب »[2] .

نعم لا ننكــر أنّ في التـوراة وغــيرهـا جمــل ربمـا تكــون مشـيرة إلى يــوم البعث ،ولكنها ليست صريحة في ذلك .

المعاد في العهد الجديد

بالرغم من قلة التصريح بالحياة الأُخروية في العهدالعتيق ،نجدالتصريح بها

(١) صموئيل الأول : الأصحاح الثاني : الجملة ٦ ، ط دار الكتاب المقدس .
(٢) اشعيا : الأصحاح ٢٦ : الجملة ١٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

بكل وضوح في الجديد ، في موارد كثيرة منها ما يلي :

١ ـ « فإن إبن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه ، وملائكته ،وحينئذٍ يجازي كلَّ واحدٍ حسب عمله »[١] .

٢ ـ « هكذا يكون في انقضاء العالم ، يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار ،ويطرحونهم في أتون النار هناك يكون البكاء ، وصرير الأسنان »[٢] .

٣ ـ « في ذلك اليوم جاء إليه حَدُقيون ، الذين يقولون ليس قيامة ، فسألوه * قائلين : يا معلم ، قال موسى إن مات أحدوليس له أولاد ، يتزوج أخوه بامرأته ،ويقيم نسلاً لأخيه * فكان عندنا سبعة أُخوة وتزوج الأول ومات ،وإذ لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه ،وكذلك الثاني والثالث إلى السبعة * وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً * ففي القيامة لمن من السبعة تكون الزوجة فإنّها كانت للجميع * فأجاب يسوع ، وقال لهم : تضلّون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله * لأنّهم في القيامة ، لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء »[٣] .

وهذا يعرب عن كون المعاد عند كاتب الإنجيل روحانياً محضاً ، لا جسمانياً وروحانياً كما عليه الذكر الحكيم .

٤ ـ « وإنْ أعْثَرَتْك رِجْلُكَ، فاقطعها، خير لك أن تدخل الحياة أعرج، من أن تكون لك رجلان وتطرح في جهنم في النار التي لا تُطْفأ * حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ * وإن أعثرتك عينُك فاقلعها ، خير لك أنْ تدخل ملكوت الله أعور من أنْ تكون لك عينان وتطرح في جهنم النار * حيث دودهم لا يموت والنار لا تُطْفَأ »[٤] .

٥ ـ « وهذه مشيئة الأب الذي أرسلني ، إن كلّ ما أعطاني لا أُتْلِفُ منه شيئاً

---

(١) إنجيل متّى : الأصحاح ١٦ : الجملة ٢٧ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) إنجيل متى : الإصحاح ١٣ : الجملتان ٤٩ و٥٠ . ط دار الكتاب المقدس .

(٣) إنجيل متى : الأصحاح ٢٢ : الجملتان ٢٣ ـ ٣١ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٤) إنجيل مرقس : الأصحاح ٩ : لاحظ الجملات ٤٢ ـ ٤٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

بل أُقيمه في اليوم الأخير * لأنّ هذه هي مشيئته الذي أرسلني إن كلَّ من يرى الإبن ويؤمِنُ به تكون له حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير »[1] .

هذا ، وفي العهدين جمل أُخر تصرّح أو تشير إلى يوم القيامة ، وقد إقتصرنا على ما ذكرنا رَوْماً للإختصار ، والذي نلفت النظر إليه هو عدم اهتمام يهود اليوم ، والأُمّة المسيحية ، بالبعث ويوم القيامة وما فيها من الحساب والجزاء ، وهذا هو الذي أجرأهم على المعاصي ، والخلاعة ، والإنحلال من كل القيم الأخلاقية ، أعاذنا الله من ذلك ، ولأجل عدم اهتمام البيع والكنائس باليوم الموعود ، صارت تلكما الأُمّتين ، يهوديّة ومسيحية بالهوية الدولية ، لا أكثر .

القرآن والمعاد في الشرائع السماوية

قد بَيّنَ الذكر الحكيم وجودَ تلك العقيدة في الشرائع السماوية من لدن آدم إلى المسيح ، ولأجل أن يقف الباحث على نماذج من ذلك ، نأتي ببعض الآيات الكريمات :

أ ـ إنّه سبحانه ـ بعدما هبط آدم إلى الأرض ـ يخاطب الخليقة بخطابات عامّة ، تعرب عن أنّ الهدف من إهباطه إليها هو استقرار الخليقة في الأرض استقراراً مؤقتاً محدوداً ، ليعودوا بعد ذلك إلى النشأة الأُخرى . وجاءت تلك الخطابات في آيات مختلفة ، نذكر منها :

ـ ﴿ قالَ اهْبُطوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومتاعٌ إلى حينٍ ﴾[2] .

ـ ﴿ يا بني آدمَ إمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصّونَ عَلَيْكُمْ آياتي ، فَمَنِ اتّقى وأَصْلَحَ فلا خَوفٌ عَليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنونَ * والذين كذّبوا بآياتِنا ، واستَكْبَروا عَنْها ، أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هم فيها خالِدونَ ﴾[3] .

---

(١) إنجيل يوحنّا : الأصحاح ٦ : الجملتان ٣٩ ـ ٤٠ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٤ .

(٣) سورة الأعراف : الآيتان ٣٥ و٣٦ .

وهذه الخطابات العامة لجميع الخلائق ، تعرب عن أنّ المعاد هو الهدف الأصيل لخلق الإنسان في الأرض ، وأنّ الله سبحانه أنزل آدم لهذه الغاية .

ب ـ نرى أنّ شيخَ الأنبياء نوحاً ، الذي جاء لهداية قومه بشريعة بسيطة ، يخاطبهم بخطابات فيها الدعوة إلى تلك العقيدة ، نذكر منها قوله :

ـ ﴿ والله أَنْبَتَكُمْ في الأَرْضِ نباتاً * ثم يُعيدُكُمْ فيها ويُخْرِجُكُمْ إخراجاً ﴾[1] .

فالدعوة إلى المعاد في هاتين الآيتين صريحة ، كما أنّها في الآية التالية بالإشارة .

ـ ﴿ رَبِّ إنّي أَعوذُ بك أَنْ أسأَلَكَ ما ليس لي بِهِ عِلْمٌ ، وإلّا تغفر لي وتَرْحَمْني أَكُنْ من الخاسرين ﴾[2] .

ج ـ وهذا إبراهيم بطل التوحيد ، يذكر المعاد واليوم الآخر في غير واحد من كلماته ، كما يحكيه عنه الذكر الحكيم :

ـ ﴿ مَنْ آمَنَ منهم بالله واليَوْمِ الآخرِ ﴾[3] .

ـ ﴿ ربَّنا اغفر لي ولِوالِدَيَّ ولِلْمُؤْمِنينَ يَوْمَ يقومُ الحِسابُ ﴾[4] .

ـ ﴿ وَلا تُخْزِني يَوْمَ يُبْعَثونَ ﴾[5] .

ـ ﴿ واشكروا له ، إليه تُرْجَعونَ ﴾[6] .

وهو سلام الله عليه ، لم يكتف بذلك ، بل طلب من الله تعالى إحياءَ

---

(١) سورة نوح : الآيتان ١٧ـ ١٨ .
(٢) سورة هود : الآية ٤٧ ، وهذا التضرع صدر منه عندما علم بغرق ابنه في الماء ، فالمراد من الخسران هو الخسران بعد الموت .
(٣) سورة البقرة : الآية ١٢٦ .
(٤) سورة إبراهيم : الآية ٤١ .
(٥) سورة الشعراء : الآية ٨٧ .
(٦) سورة العنكبوت : الآية ١٧ .

الموتى ، وحكاه الذكر الحكيم[1] . وسيوافيك بيانه في المباحث الآتية .

د ـ وهذا موسى الكليم ، خاطبه سبحانه عند التنديد بأعمال قومه بخطابات ، فيها الوعد والوعيد .

ـ ﴿ سأصْرِفُ عن آياتيَ الذينَ يَتَكَبَّرونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقّ . . . ذلك بأنّهم كذّبوا بآياتِنا وكانوا عنها غافِلينَ * والذينَ كذّبوا بآياتِنا ولقاءِ الآخرة حَبِطَتْ أعْمالُهُم ، هل يُجْزَوْنَ إلاّ ما كانوا يعملونَ ﴾[2] .

ونرى أنّ موسى عندما يدعو على طاغية عصره فرعون مصر ، يطلب له العذاب الأليم ويقول :

﴿ ربَّنا اطْمِسْ على أَموالِهِمْ ، واشدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا ،حتى يَرَوُا العذابَ الأَليمَ ﴾[3] .

كما أنّه عليه السلام ، يخاطب من يفسّر معاجزه بالسحر قائلاً :

﴿ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بالهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ ، إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظالِمونَ ﴾[4] .

ويقول تنديداً بفرعون وملائه :

﴿ إنّي عُذْتُ بِرَبّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسابِ ﴾[5] .

وإنّ بني إسرائيل لما كانوا أشَدّ الناسِ لجاجاً وعناداً ، قام موسى ـ بأمر منه سبحانه ـ بإحياء الميت في قضية البقرة[6] ، وسيوافيك بيانه في المباحث الآتية .

نعم ، كانت العقيدة بالمعاد ، عقيدة واضحة بين الشرائع السماوية ، حتى

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .
(٢) سورة الأعراف : الآيتان ١٤٦ و١٤٧ .
(٣) سورة يونس : الآية ٨٩ .
(٤) سورة القصص : الآية ٣٧ .
(٥) سورة غافر . الآية ٢٧ .
(٦) سورة البقرة : الآية ٧٢ .

أنّ مُؤْمِنَ آل فِرعون أخذ يعظ قومه بكلمات فيها إخافتهم من يوم القيامة ، ويقول :

ـ ﴿ وَيا قَوْمِ إنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ ﴾[1] .

ـ ﴿ وإنّ الآخِرَةَ هي دارُ القَرارِ ﴾[2] .

ـ ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنا إلى الله ﴾[3] .

هـ ـ وهذا المسيح عيسى بن مريم ، يخاطبه سبحانه بآيات فيها التذكير بيوم القيامة ، يقول :

ـ ﴿ إذْ قال الله يا عيسى إنّي مُتَوَفِّيكَ ورافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذينَ كَفَروا وجاعِلُ الذينَ اتَّبَعوكَ فوقَ الذينَ كفروا إلى يوم القيامةِ ، ثُمّ إِلَيَّ مرجِعُكُمْ ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فيما كُنْتُم فيه تختلفون * فأمّا الذينَ كفروا فأُعَذِّبُهُم عذاباً شديداً في الدُّنيا والآخرة ، وما لهم من ناصرينَ * وأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ فَيُوَفيهِمْ أُجورَهُمْ والله لا يُحِبُّ الظالِمينَ ﴾[4] .

المعـــاد في القرآن

إذا كان المعاد يحتل المكانة العليا في الشرائع السماوية ، وكان القرآن خاتم الكتب ، والمبعوث به خاتم الأنبياء ، فيناسب أن يكون المعاد مطروحاً فيه ، بشكل مستوفٍ ، مقترناً بالدلائل العقلية المقنعة .

وقد صَدَّقَ الخُبْر الخَبَر ، فالذكر الحكيم يعتني بالمعاد ، ويهتم به إهتماماً بالغاً ، يكشف عنه كثرة الآيات الواردة في مجال المعاد ، وقد قام بعضهم بإحصاء ما يرجع إليه في القرآن فبلغ زهاء ألفٍ وأربعمائة آية ، وكان السيد العلامة الطباطبائي

---

(١) سورة غافر : الآية ٣٢ .

(٢) سورة غافر : الآية ٤٠ .

(٣) سورة غافر : الآية ٤٣ .

(٤) سورة آل عمران : الآيات ٥٥ ـ ٥٧ .

رحمه الله يقول بأنّه ورد البحث عن المعاد في القرآن في آيات تربو على الألفين ، ولعلّه ضَمّ الإشارةَ إليه ، إلى التصريح به . وعلى كل تقدير ، فهذه الآيات الهائلة ، تعرب عن شدّة اهتمام القرآن به .

أسماء المعاد في القرآن

ويعرب عن هذا الإهتمام أنّه سبحانه يسميه بأسماء ، ويصفه بصفات خاصة ، فيسميه بـ :

١ ـ يوم القيامة ، ٢ ـ يوم الدين ، ٣ ـ اليوم الآخر ، ٤ ـ يوم الحسرة ، ٥ ـ يوم الوقت المعلوم ، ٦ ـ يوم الحق ، ٧ ـ يوم الفصل ، ٨ ـ يوم الحساب ، ٩ ـ يوم التلاق ، ١٠ ـ يوم الأزفة ، ١١ ـ يوم التناد ، ١٢ ـ يوم الوعيد ، ١٣ ـ يوم الخلود ، ١٤ ـ يوم الخروج ، ١٥ ـ يوم الجمع ، ١٦ ـ يوم التغابُن ، ١٧ ـ اليوم الموعود ، ١٨ ـ يوم البعث ، ١٩ ـ الساعة ، ٢٠ ـ الحاقّة ، ٢١ ـ القارعة ، ٢٢ ـ الطامّة الكبرى ، ٢٣ ـ الصاخّة ، ٢٤ ـ الميعاد ، ٢٥ ـ الغاشية ، ٢٦ ـ الآخرة .

ويصفه بأنّه : ١ ـ يوم عظيم ، ٢ ـ يوم كبير ، ٣ ـ يوم محيط ، ٤ ـ يوم عقيم ، ٥ ـ يوم أليم ، ٦ ـ يوم مشهود ، ٧ ـ يوم عسير ، ٨ ـ يوم عبوس قمطرير ، ٩ ـ يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة ، ١٠ ـ يوم مجموع له الناس ، ١١ ـ يوم تشخص فيه الأبصار . ١٢ ـ يوم على الكافرين عسير ، ١٣ ـ يوم لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، ١٤ ـ يوم يجعل الولدان شيباً ، وغير ذلك من الأوصاف .

* * *

مباحث المعاد

(٢)

أدلة وجوب المعاد وضرورته

قد تعرفت على أنّ الحياة الأُخروية للإنسان ، أمر ممكن لا يمنع منه شيء ، وإنّما الكلام في وجوب وقوعها وضرورة وجودها . وفيما يلي نستدلّ على ضرورة وجود هذه النشأة بوجوه عقلية هدانا إليها القرآن الكريم .

الدليل الأول ـ صيانة الخلقة عن العبث

ذكرنا أنّ أحد الأسئلة التي تلاحق كلّ إنسان ويعاني منها ، هو الوقوف على هدف الخلقة ، وأنّه لماذا خلق ، وما هو الغرض من خلق الإنسان ، والإنسان الإلهي بما أنّه يصون فعل الحقّ عن العبث واللغو (لا بمعنى أنّ هناك غرضاً للخالق يستكمل به ، بل بمعنى أنّ فعله ليس بلا غاية) ، يجيب بأنّه لم يُخلق عبثاً ولا سدىً ، بل خُلق ليبلُغ الكمال الذي يناله في النشأة الأخريوة ، على وجه لولاها لأصبح خلقه وإيجاده لغواً وباطلاً .

ثم إنّ هذا الدليل ، أي صيانة فعل الباري عن العبث ، يمكن بيانه بوجوه ، تتحد في الجوهر ، وإنّما تختلف في التقرير وهي :

١ ـ المعاد وغاية الخلقة .

٢ ـ المعادوالحقُّ المطلق .

٣ ـ المعاد والنَّظْمُ البديع .

فيستدلّ على المعاد تارة بأنّه هو غاية الخِلْقة ، وأُخرى بأنّ الحقّ تعالى شأنه لا ينفك فعله عن غاية ، وثالثةً بأنّ النُّظُم البديعة السائدة على العالم لا تنفك عن غرض وغاية ، والكلُّ صور مختلفة لاستدلال واحد ، إستوحيناه من الذكر الحكيم ، فإليك بيانها :

١ ـ المعاد غاية الخلقة

يستدلّ الذكر الحكيم على لزوم المعاد بأنّ الحياة الأُخروية هي الغاية من خلق الإنسان وإنزاله إلى هذه البسيطة ، وأنّه لولاها لصارت حياته منحصرة في إطار الدنيا ، ولأصبح إيجاده وخلقه ـ بالتالي ـ عبثاً وباطلاً ، والله سبحانه مُنَزّه عن الإيجاد بلا غرض ، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعونَ ﴾[1] .

ومن لطيف البيان في هذا المجال قوله سبحانه : ﴿ وما خَلَقْنا السَّمواتِ والأَرْضَ وما بَيْنَهُما لاعِبينَ * ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بالحَقّ ، لكِنّ أَكْثَرَهُمْ لا يعلمون * إنّ يوم الفَصْلِ ميقاتُهُمْ أجمعينَ ﴾[2] فترى أنّه يذكر يوم الفصل بعد نفي كون الخلقة لعباً ، وذلك يعرب عن أنّ النَّشأة الأُخروية تصون الخِلْقة عن اللغو واللعب ، وبذلك تظهر صلة الآيات .

٢ ـ المعاد والحق المطلق

ومن لطائف البيان في القرآن الكريم أنّه تعالى يصف نفسه بالحق (المطلق) وأنه لا حَقّ سواه ، ثم يرتب على ذلك إحياء الموتى والنشأة الآخرة ، وذلك لأنّ الحق المطلق عبارة عن الوجودالذي لا يتطرق البطلان إلى ذاته أوّلاً ، وصفاته ثانياً ، وأفعاله ثالثاً ، ولو كان فعله بلا غاية ولا هدف ، لما كان حقّاً مطلقاً ،

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ١١٥ ، ولاحظ سورة ص : الآية ٢٧ .

(٢) سورة الدخان : الآيات ٣٨ ـ ٤٠ .

فيستدلّ بكونه حقّاً محضاً على لزوم الغاية التي تتمثل في الحياة الأُخروية للإنسان ، يقول سبحانه :

﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحيي المَوْتىٰ ، وأنّه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ، وأنّ الساعةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها ، وأنّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبورِ ﴾(١) .

ولعلّ من هذا الباب وصفه سبحانه نفسه بالحق ، ثم ذكره بعد ذلك آيات البعث والقيامة ، فكأنّه يشير بذلك إلى أنّ كونه حقاً مطلقاً لا يعتريه الباطل ، يلازم البعث ، وإلّا لا يكون حقّاً مطلقاً ، نرى هذا البيان في قوله سبحانه :

﴿ ذلك بأنّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وأنّ ما يَدْعونَ مِنْ دونِهِ هُوَ الباطِلُ ﴾(٢) .

ثم بعد ثلاث آيات يقول :

﴿ وَهُوَ الذي يُميتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْييكُمْ ﴾(٣) .

ومثله قوله سبحانه : ﴿ ذٰلكَ بأنّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وأنّ ما يَدْعونَ من دونِهِ الباطِلُ ﴾(٤) .

ثم بعد آيتين يقول : ﴿ يآ أيُّها الناسُ اتّقوا رَبَّكُمْ واخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ . . . ﴾(٥) .

٣ ـ المعاد والنظم البديع

وفي الذكر الحكيم تلويح وإشارة إلى هذا النوع من الإستدلال ،حيث نرى أنّه سبحانه يذكر النبأ العظيم واختلاف الناس فيه بين مثبت ونافٍ ، ثم يبيّن

(١) سورة الحج : الآيتان ٦ و٧ .
(٢) سورة الحج : الآية ٦٢ .
(٣) سورة الحج : الآية ٦٦ .
(٤) سورة لقمان : الآية ٣٠ .
(٥) سورة لقمان : الآية ٣٣ .

النظام البديع السائد في الكون ، ببيان رائق مبسوط ، مُعرِباً عن أنّه لولا النبأ العظيم ، لأصبح خلقُ العالَم بلا غاية .

يقول سبحانه : ﴿ عَمّ يتساءلونَ * عَنِ النّبَاءِ العظيمِ * الذي هُمْ فيه مُخْتَلِفونَ ﴾ .

ثم يقول : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً ، والجِبالَ أَوْتاداً ﴾ إلى قوله : ﴿ إنّ يَوْمَ الفَصْلِ كان ميقاتاً ﴾[1] .

وبذلك تقف على انسجام الآيات وصلة بعضها ببعض .

وفي كلمات الإمام أمير المؤمنين إشارة إلى هذا النمط من الإستدلال ، يقول عليه السلام .

« وإنّ الخَلْقَ لا مُقْصِرَ لهم عن القيامة ، مرقلين في مضمارها إلى الغاية القُصْوى »[2] .

وفي خطبة أُخرى قال عليه السلام : « قد شخصوا من مستقر الأجداث وصاروا إلى مصائر الغايات »[3] .

* * *

الدليل الثاني ـ المعاد مقتضى العدل الإلهي

لزوم العمل بالعدل ، والإجتناب عن الظلم ، من فروع التحسين والتقبيح العقليين ، اللذين هما من أحكام العقل العملي . فمن قال بلزوم فعل الحسن واجتناب القبيح ، يرى العمل بالعدل واجباً لكلِ فاعل مريد مختار ، من غير فرق

---

(١) سورة النبأ : الآيات ١ ـ ١٧ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٥٦ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٠ . وفي رسالته إلى إبنه الحسن : «واعلم يا بُنيّ أنّك خُلِقتَ للآخرة لا للدنيا الخ » . (الكتاب ٣١) .

بين أن يكون ممكناً ، أو واجباً ، لأنّ الحَسَنَ حَسَنٌ في كل حال ، والقبيحَ قبيحٌ كذلك .

وهناك جماعة من المتكلمين ـ كالأشاعرة ـ ينكرون التحسين والتقبيح العقليين ، ويتركون المجال في القضاء بها للوحي السماوي ، وهم أيضاً يقولون بلزوم العمل بالعدل والإجتناب عن الظلم ، بحكم أن الشرع قد أمر بهما ، وأنّه سبحانه وصف نفسه بالقيام بالقسط(1) ، فتكون النتيجة لزوم معاملة العباد بالعدل .

ثم إنّ إثابة المطيعين من باب التفضل منه سبحانه ، لأنّهم يطيعونه تعالى بفضل ما أنعمه عليهم من النعم الوجودية ، كما أنّ عقاب العصاة ، حق محض له ، فله أن يعفو عنهم(2) .

هذا هو حكم العقل في كل واحد من القسمين : المطيع والعاصي ، إذا لوحظا مستقلين .

ولكن هناك كلام آخر ، وهو أنّه لو كان جميع العباد مطيعين سالكين نهج الإمتثال ، فله التفضل بالثواب ، كما له تركه . وكذلك لو كان جميع العباد ، عُصاة سالكين نهج المخالفة ، فله سبحانه معاقبتهم أو العفو عنهم ،ولكنّ العباد ، ينقسمون إلى قسمين ، فهم بين مطيع وعاص ، والتسوية بينهم بصورها المختلفة ، خلاف العدل . فإنّه لو أثاب الجميع أو عاقب الجميع ،أو تركهم سدىً من دون أن يحشروا في النشأة الأخرى ، كان ذلك كلّه على خلاف العدل ، وخلاف ما يحكم به العقل من لزوم كون فعله تعالى حسناً ، فهنا يستقل العقل بأنّه يجب التفريق بينهما من حيث المصير والثواب والعقاب . وبما أنّ هذا غير متحقق في النشأة الدنيوية ، فيجب أن يكون هناك نشأة أُخرى يتحقق فيها ذلك المَيْز ، ويفرّق فيه بين المطيعين والعاصين ، وهو المعاد .

وهذا الدليل العقلي يشير إليه القرآن الكريم في لفيف من آياته ، وهي على

---

(1) سورة آل عمران : الآية ٢٨ . وسورة يونس : الآية ٤٤ .

(2) كل ذلك مع قطع النظر عن وعده ووعيده .

قسمين : قسم يندد بالتسوية وينكرها ، وقسم يصرّح بالفرق بين العاصي والمطيع في النشأة الآخرة .

فمن القسم الأول :

ـ قوله سبحانه : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذينَ آمنوا وَعَمِلوا الصَّالحاتِ ، كالْمُفْسِدينَ في الأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقينَ كالفُجّارِ ﴾[1] .

ـ قوله سبحانه : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمينَ كالْمُجْرمينَ ، ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمونَ ﴾[2] .

ـ قوله سبحانه : ﴿ أمْ حَسِبَ الذينَ اجْتَرَحُوا السيئات أنْ نَجْعَلَهُمْ كالذينَ آمنوا وعملوا الصالحات سواءً مَحياهُمْ ومَماتُهم ، ساءَ ما يَحْكُمونَ ﴾[3] .

ومن القسم الثاني :

ـ قوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَميعاً وَعْدَ الله حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَءُ الخَلْقَ ، ثم يُعيدُهُ لِيَجْزي الذينَ آمنوا وَعَمِلوا الصالحاتِ بالقِسْطِ ، والذينَ كفروا لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يَكْفُرونَ ﴾[4] .

ـ وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ، والسَّمواتُ وَبَرَزوا لله الواحِدِ القهّار وَتَرى المجرمين يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنينَ في الأَصْفاد * سرابيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وتَغْشى وُجوهَهُمُ النّارُ * لِيَجْزِيَ الله كلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ ، إنّ الله سريعُ الحِسابِ ﴾[5] .

ـ قوله سبحانه : ﴿ إنّ السّاعَةَ آتِيةٌ أَكادُ أُخْفيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بما

---

(١) سورة ص : الآية ٢٨ .

(٢) سورة القلم : الآية ٣٥ .

(٣) سورة الجاثية : الآية ٢١ .

(٤) سورة يونس : الآية ٤ .

(٥) سورة إبراهيم : الآيات ٤٨ ـ ٥١

تَسْعى ﴾[1] .

فقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ الله ﴾ و﴿ لِتُجْزى ﴾ ، إشارة إلى أنّ قيام القيامة ، تحقيق لمسألة الثواب والعقاب ، الذين هما مقتضى العدل الإلهي .

وفي كلام الإمام علي إشارة إلى هذا البيان :

قال عليه السلام : « يومٌ يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين لنقاش الحساب ، وجزاء الأعمال »[2] .

وقال عليه السلام : « فَجَدَّدَهُمْ بعد إخْلاَقِهِمْ ، وَجَمَعَهُم بعد تَفَرُّقِهِمْ ، ثم ميَّزهم لما يريده من مَسْألتِهِمْ عن خفايا الأعمال وخبايا الأفعال »[3] .

* * *

الدليل الثالث : المعاد مجلى لتحقق وعده ووعيده

وهناك دليل ثالث يضفي على المعاد الضرورة والقطعية ، وهو مركب من مقدمة شرعية ، وحكم عقلي ، وذلك أنّه سبحانه قد وعد المطيعين بالثواب ، والعاصين بالعقاب ، وهذه صُغْرَى البرهان أخبر عنها الشرع . وحُكْم العقل عندئذٍ واضح ، وهو أنّ إنجاز الوعد حَسَنٌ ، والتخلّف عنه قبيح . نعم ، تقدم في الدليل السابق أنّ العباد لا يستحقون الثواب بطاعتهم ، وإنّما هو جود وتفضّل ، لكن هذا بغضّ النظر عن الوعد به ، وأمّا معه ، فالوفاء به لازم .

والآيات الواردة في هذا المجال على قسمين : قسم يذكر فيه وعده بالقيامة ووعده بالثواب ووعيده بالعقاب . وقسم يذكر أنّه ينجز وعده ولا يخلف .

أمّا القسم الأول : فما يدلّ عليه كثير ، نذكر بعضه .

ـ أمّا ما يدلّ على الوعد بالقيامة ، فمنه قوله تعالى :

---

(١) سورة طه : الآية ٥٠ . ولاحظ سورة سبأ الآيات ٣ ـ ٥ ، سورة الزلزلة : الآية ٦ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٢ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٩ .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضوا وَيَلْعَبوا حتى يُلاقوا يَوْمَهُمْ الذي يوعَدون ﴾[1] .

ـ وما يدل على الوعد بالثواب ، فمنه قوله تعالى :

﴿ وأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرُ بَعيدٍ ، هذا ما تُوعدونَ ﴾[2] .

ـ وما يدلّ على الوعيد بالعقاب ، فمنه قوله تعالى :

﴿ وإنّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[3] .

﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزابِ فالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾[4] .

. **وأمّا القسم الثاني** : الذي يركّز على حكم العقل ويدعمه ، وينفي الخلف عن وعده ، فمنه قوله تعالى :

﴿ رَبّنا إنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فيهِ ، إنّ الله لا يُخْلِفُ الميعادَ ﴾[5]

﴿ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ القِيامَةِ إنّكَ لا تُخْلِفُ الميعادَ ﴾[6] .

وعلى هذا الأساس يستدلّ المحقق الطوسي ، على ضرورة المعاد ، بقوله : « ووجوب إيفاء الوعد ، يقتضي وجوب البعث »[7] .

* * *

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٣٨ . لاحظ الذاريات : ٦٠ ، المعارج : ٤٤ ، الأنبياء : ١٠٣ .

(٢) سورة ق : الآيتان ٣١ و ٣٢ .

(٣) سورة الحجر : الآية ٤٣ .

(٤) سورة هود : الآية ١٧

(٥) سورة آل عمران : الآية ٩ .

(٦) سورة آل عمران · الآية ١٩٤ .

(٧) كشف المراد ، المقصد السادس ، المسألة الرابعة ، ص ٤٠٦ .

الدليل الرابع : المعاد مجلى لرحمته سبحانه

ومن لطائف الكلام في الذكر الحكيم أنّه عدّ المعاد فرعاً لرحمته ، وجعله مجلىً لها ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ لِمَنْ ما في السَّموات والأَرْض ؟ قُلْ لله ، كَتَبَ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ ﴾[1] .

فترى أنّه سبحانه يُرَتِّب جمع الناس إلى يوم القيامة ، على قوله : ﴿ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ، وذلك لأنّ هذا اليوم يوم الرحمة للمؤمن والكافر ، غير أنّ الكافر ، قد خسر نفسه باقتراف المعاصي وترك الفرائض في الدنيا ، فلا يتوفق لنيل رحمته تعالى ، ولعلّه سبحانه إلى ذلك يشير في الآية بقوله : ﴿ الّذين خَسِروا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ ﴾ .

ويعود معنى الآية إلى أنّ يوم القيامة أشبه بمائدة ممدودة ، فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين ، ولكن الإنتفاع منها رهن قيود وشروط هي في وسع كل واحد من المكلّفين . فلو حُرِم الكافر من الرحمة ، فهو بفعل نفسه وما جنته يداه لا من جانبه سبحانه ، وهذا كابتلاء العباد وامتحانهم ، فإنّه رحمة ، لأنّ الهدف منه خروج الطاقات من القوة إلى الفعل ، والكمالات من الخفاء إلى البروز ، ولكن الكافر لا يخرج منه إلّا راسباً غير مستفيد من أهداف الإبتلاء ، بل يخسر نفسه بفتور عزمه في مجال الطاعة .

ويمكن استفادة ذلك من الآية التالية ، وهي قوله سبحانه :

﴿ قُلْ سيروا في الأَرْضِ فانظُروا إلى آثارِ رَحْمَةِ الله ، كَيْفَ يُحيي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إنَّ ذلك لَمُحْيي المَوْتَى وهُوَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ ﴾[2] . فللآية دلالتان ، المطابقية منهما تهدف إلى تشبيه إحياء الموتى بإحياء الأرض حتى يرجع المنكر عن إنكاره بمشاهدة إحياءٍ محسوس ، وهو إحياء الأرض . والإلتزامية منهما تدلّ على أنّ

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢ .

(٢) سورة الروم : الآية ٥٠ .

إحياء الموتى يوم القيامة ، رحمة من الله سبحانه لهم ، كما أنّ إحياءَ الأرض رحمة من الله سبحانه لعباده .

* * *

الدليل الخامس : المعاد خاتمة المطاف في تكامل الإنسان

إنّ الحركة تتقوم بأُمورٍ ستة ، منها الغاية ، كما حقق في محلّه . اعتبار الغاية في حقيقة الحركة ينشأ من تَصَوُّر مفهومها ، فإنّ الحركة جهد وسعي ، يتطلب صاحبها غاية يفقدها ، من غير بين أنْ تكون الغاية عقلائية ، كحركة الطالب لتحصيل العلم ، أو غير عقلائية ، كاللعب بالسُّبْحَة لترويح النفس .

ونرى أنّ الإنسان منذ تكونه نطفة فعلقة فمضغة ، إلى أنْ يفتح عينه على الوجود ، في حال حركة دائمة وسعي متواصل ليس له ثبات ولا قرار ، وهو يطلب بحركته وسعيه شيئاً يفقده . فعلى ذلك لا بدّ من وجود يوم يزول فيه وصف اللاقرار ، ويدخل منزلاً فيه القرار والثبات ، يكون غاية المطاف .

والحركة وإنْ كانت تتوقف بالموت ولا يرى بعدها في الإنسان سعي ، لكنّ تفسير الموت ببطلان الإنسان وشخصيته الساعية ، إبطال للغاية التي كان يتوخاها من حركته ، فلا بدّ أنْ يكون الموت وروداً إلى منزل آخر ، يصل فيه إلى الغاية المتوخاة من سعيه وجهاده ، وذلك المنزل هو النشأة الأُخروية .

ولا يصح أنْ يقال إنّ الغاية من الحركة والسعي والكدح ، هو نيل اللذائذ المادية والتجمّلات الظاهرية ، لوضوح أنّ الإنسان مهما نال منها ، لا يخمد عطشه ، بل يستمر في سعيه وطلبه ، وهذا يدلّ على أنّ له ضالة أُخرى يتوجّه نحوها ، وإن لم يعرف حقيقتها ، فهو يطلب الكمال اللائق بحاله ، ويتصور أنّ ملاذّ الحياة غايته ، ومنتهى سعيه ، ولكنه سوف يرجع عن كل غاية يصل إليها ويعطف توجهه إلى شيء آخر .

قال صدر المتألّهين : الآيات التي ذكرت فيها النطفة وأطوارها الكمالية ،

وتقلّباتها من صورة النقص إلى صورة أكمل ، ومن حال أدون إلى حال أعلى ، فالغرض من ذكرها ، إثبات أنّ لهذه الأطوار والتحولات غاية أخيرة ، فللإنسان توجّه طبيعي نحو الكمال ، ودين إلهي فطري في التقرّب إلى المبدأ الفعّال ، والكمال اللائق بحال الإنسان المخلوق أوّلاً من هذه الطبيعة ، وإلاّ كان لا يوجد في هذا العالم الأدنى ، بل في عالم الآخرة التي إليها الرجعي ، وفيها الغاية والمنتهى ، فبالضرورة إذا استوفى الإنسان جميع المراتب الخلقية الواقعة في حدود حركته الجوهرية الفطرية ، من الجمادية والنباتية ، والحيوانية ، وبلغ أشُدَّهُ الصوري ، وتمّ وجوده الدنيوي الحيواني ، فلا بدّ أنْ يتوجه نحو النشأة الآخرة ، ويخرج من القوة إلى الفعل ، ومن الدنيا إلى الأُخرى ، ثم المولى ، وهو غاية الغايات ، ومنتهى الأشواق والحركات(١) .

وفي الآيات الكريمات إشارات إلى هذا البرهان ، يفهمها الراسخون في الذكر الحكيم .

يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾(٢) .

وأنْتَ إذا لاحظت هذه الآيات وما تقدمها ممّا يتكفل ببيان خلقة الإنسان ، ترى لها إنسجاماً وترابطاً خاصّاً ، فالله سبحانه يصف الإنسان بأنّه كان نطفة فعلقة فمضغة ، إلى أنْ أنشأه خَلْقاً آخر ، ثم يوافيه الموت ، ثم يبعث يوم القيامة ، فكأنّ الآية تبيّن تطور الإنسان تدريجاً من النقص إلى الكمال ، ومن القوة إلى الفعل ، وأنّه منذ تَكَوّن يسير في مدارج الكمال ، إلى نهاية المطاف وهو البعث يوم القيامة ، فهذا غاية الغايات ، ومنتهى الكمال .

ويمكن استظهار ذلك من قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثى * مِنْ نُطْفَةٍ إذا تُمنى * وأَنّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرى ﴾(٣) ، بالبيان الماضي في الآية السابقة .

---

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٥٩ .

(٢) سورة المؤمنون : الآيات ١٤ ـ ١٦ .

(٣) سورة النجم : الآيات ٤٥ ـ ٤٧ .

ولعلّه لأجل ذلك يصف القرآن يوم البعث بـ « المَساق » ، و« الرُّجْعى » ، و« دار القرار » ويقول : ﴿ إلى رَبِّكَ يَومَئِذٍ المَساق ﴾[1] ، و﴿ إنّ إلى رَبِّكَ الرُّجعى ﴾[2] ، و﴿ إنّما هذه الحياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ القَرارِ ﴾[3] .

* * *

الدليل السادس ـ المعاد مقتضى الربوبية

إنّ الربّ في اللغة بمعنى الصاحب ، يقال : ربُّ الدّار ، وربّ الضَّيعَة . فالربوبية تحكي عن مالكية الرّبّ ، ومملوكية المربوب .

والعلاقة المتّسمة بالربوبية ، تقتضي كون المربوب ذا مسؤولية أمام ربّه ، وأنّ الربّ لا يتركه سدى ، بل يحاسبه على أعماله ويجازيه بما أتى تجاهه، وبما أنّ هذه المحاسبة لا تتحقق في النشأة الدنيوية ، فيجب أن يكون هناك نشأة أُخرى تتحقق فيها لوازم الربوبية ، فلا معنى لربٍّ بلا مربوب ، كما لا معنى لمربوب يترك سدى ، ولا يحاسب على أعماله وأفعاله .

ولعله لهذا الوجه ، يركّز القرآن على كلمة الرّبّ في قوله : ﴿ يا أيُّها الإنسان إنّك كادحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ﴾[4] .

وفي قوله : ﴿ وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أإذا كُنّا تُراباً أإنّا لَفي خَلْقٍ جَديدٍ ، أُولئِكَ الذينَ كَفَروا بِرَبِّهِمْ ﴾[5] .

وهذه الآية الثانية ، أصرح في المطلوب ، وهو أنّ كُفْرانَهم بربّهم جعلهم

---

(١) سورة القيامة : الآية ٣٠ .
(٢) سورة العلق : الآية ٨ .
(٣) سورة غافر : الآية ٣٩ .
(٤) سورة الإنشقاق : الآية ٦ .
(٥) سورة الرعد : الآية ٥ .

منكرين للمعاد ، فلو عرفوا حقيقة الربوبية ، وعـرفوا ربّهم ، لأذعنـوا بأنّ مقتضى الربوبية ، لزوم وجود يوم تطرح فيه أعمال العباد على طاولة الحساب .

* * *

وهـذه البراهـين الستة تضفي عـلى المعاد ضرورة ، وقـطعيّـة ، ووجـوبـاً ، وحتميةً ، وكلّها براهين عقلية أرشدنَا إليها الذّكر الحكيم في مُحْكَمِ آياته .

* * *

مباحث المعاد

(٣)

بواعث إنكار المعاد وشبهات المنكرين

النـاس أمام دعـوة الأنبياء إلى البعث في النشـأة الأخرى كـانوا عـلى صنفين معتنق يشكل الأقليّة في المجتمع الإنساني ، ومنكر يشكّلون الأكثرية الساحقة فيه . وكان المشركون من العرب ، المعاصرون للنبي ، أكثر عناداً ولجاجاً في المعـارف ، خصوصاً ما يرجع منها إلى البعث ويوم الحساب .

غـير أنّه كـانت لهم بـواعث لـلإنكـار ، كـما كـانت لهم شبهـات ، ولم تكن شبهاتهم إلاّ واجهة لإنكارهم ، فيبرروا بهـا جحودهم ، ويعـطوه صبغة الحجـة ، والعذر .

ونحن نذكر بواعث الإنكار أوّلاً ، ثم نردفها بـالشُّبُهات ثـانياً ، ونعتمـد في ذلـك على الـذكر الحكيم الـذي ينقل ذلـك عن المنكرين ، سـواء كانـوا من الأُمم السالفة ، أو من المعاصرين لنزول الرسالة .

بواعث إنكار المعاد

كثيراً ما نرى أُناسـاً يتبنّون شيئـاً ويحتجون لـه بأدلـة واهية ، وهـم يعلمـون بوهنها ، وأنّ المخاطبين يقفون على سقمها ، ومع ذلـك ، يُصِرّون على مـواقفهم . وهذا من الأُمور التي تُمَكّن من استكشاف الباعث أو البـواعث الواقعيـة لهذا التبني من خلال أفعالهم وسيرتهم ومعاشراتهم ، والذكر الحكيم كشف عن تلك البواعث

التي كـانت تدفـع المشركين إلى إنكـار المعاد ، ثم التعلل لـه بحجج واهيـة .،وإليك بيانها .

الباعث الأول ـ التحلل من القيود والحدود

إنّ الإيمـان بالمبـدأ ، والمعاد ، لا يتلخص في الإقـرار اللسـاني ، بـل المؤمن يحمل مسؤولية خاصة أمام الله سبحانه في الحياة الدنيوية ، ولازم هذه المسؤوليـة ، الإلتزام بحدود وقيود ، تَصُدُّه عن التحلل والإفـراط في الملاذ والشهـوات والإنهماك في إشبـاع الغرائـز الحيوانيـة . وقد كـان الإلتذاذ واتّبـاع الهوى ، غـاية المنى لأكـثر المنكرين ، وكان يسود عليهم سيادة الإله على خلقه ، قال سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هواهُ أَفَأَنْتَ تَكونُ عَلَيْهِ وَكيلاً ﴾[1] .

ولما كان الإعتقاد بالمعاد ، منافٍ لهذا المبدأ الحيـواني ، أنكروه بحجـج واهية يأتي الإشارة إليها ، ويشير الذكر الحكيم إلى هذا الباعث ، بقوله :

﴿ أَيَحْسَبُ الإنْسـانُ أَنْ لَنْ نَجْمَـعَ عِـظامَـهُ ، بَـلىٰ قـادِرينَ عـلى أَنْ نُسَـوِّيَ بنانَهُ * بَلْ يُريدُ الإنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ ، يَسْأَلُ أَيّانَ يَوْمُ القِيامَةِ ﴾[2] .

فـالآية الأُولى تَـذْكُر مُعْتَقَـدَهُم وإنكـارهم ، والآيـة الثـانيـة تَـذْكـر بـاعث إنكارهم ، وأنّه ليس هو ما يتظاهرون به من عدم إمكـان جمع العـظام ، وإنّما هـو رغبتهم في أن يرفعوا كل عائق يَحُدّ من انغماسهم في الملذات ، وكـل رادع يصدُّهم عن إرضاء الغرائز البهيميّة . وقوله : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ ﴾ ، بمعنى لِيَشُقَّ أمامه ، ولا يرتدع بشيء من القوانين والتشريعات .

الباعث الثاني ـ صيانة السلطة

إنّ السُّنـة السائـدة عند أصحـاب السلطة هي استعبـاد غـيرهم واضـطهـاد حقـوقهم ، كما أنّ السُّنّـة السائـدة على المـترفين في الحيـاة الدنيـا ، هي الإنهماك في

(١) سورة الفرقان : الآية ٤٣ .

(٢) سورة القيامة : الآيتان ٥ و ٦ .

اللذائذ ، وكلاهما لا يتّفقان مع الإعتقاد بالمعاد ويوم الحساب ، يقول سبحانه :

﴿ وَقالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الذينَ كَفَروا وَكَذّبوا بِلِقاءِ الآخِرَةِ ، وَأَتْرَفْناهُمْ في الحياةِ الدُّنْيا ، ما هذا إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمّا تَأْكُلونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبُونَ . . . هَيْهاتَ ، هَيْهَاتَ ، لِما تُوعدونَ ، إنْ هي إلاّ حَياتُنا الدُّنْيا ، نَموتُ وَنَحْيا وما نَحْنُ بِمَبْعوثِينَ ﴾[1] .

فالآية الأُولى تُشير إلى باعثين من بواعث الإنكار ، بينهما صلة قوية ، ولذلك أدمجناهما وَجَعَلْناهما باعثاً واحداً ، أحدهما باعث نفسي هو الإتراف والتّمتّع بأسباب الشهوات ، والآخر باعث سياسي ، هو ما كان للمنكرين من عِلْيَة القوم وأشرافهم من تسلّط على أقوامهم فانكروا المعاد لئلا تتزعزع عروش سلطتهم بانتشار هذه العقيدة بين أتباعهم ومرؤوسيهم ، فكانوا يدعون الناس إلى إنكار المعاد ويقولون : ﴿ هَيْهاتَ ، هَيْهاتَ لِما توعَدونَ ﴾ .

الباعث الثالث ـ التكذيب بالحق

إنّ هناك آيات تعرب عن أنّ المنكرين ، من أول يوم واجهوا فيه دعوة الرسل ، أنكروها ولم يعتنقوها ، فَجَرّهم ذلك إلى إنكار المعارف كلّها وبالأخص المعاد ، وحشر الإنسان في النشأة الأُخرى .

نعم ، لا ينفك عنادهم أمام الأنبياء عن علّة نفسية أو إجتماعية أو سياسية ، جَرّتهم إلى اتّخاذ ذلك الموقف السلبي في بدء الدعوة في كلّ ما يقوله الأنبياء ويدعون إليه ، وإن كان بعضُه موافقاً لطبعهم وشعورهم والذكر الحكيم يشير إلى هذا الباعث بقوله حاكياً عنهم :

﴿ أئذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً ؟! ذلك رَجْعٌ بَعيدٌ * قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وعِنْدنا كِتابٌ حفيظٌ * بل كَذّبوا بالحَقِّ لَمّا جاءَهُم فَهُمْ في أَمْرٍ مريج ﴾[2] .

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ٣٣ و٣٦ و٣٧ .

(٢) سورة ق : الآيات ٣ ـ ٥ .

فيذكر في الآيتين الأُولين شُبْهَتَهُمْ ـ التي سيأتي بيانها ـ إلاّ أنّه سُرْعانَ ما بَيَنَ في الآيـة الثالثـة أنّ هذه الشبهـة واجهـة وغـطاء لهـا ، وأنّ البـاعث الـواقعي هـو تكذيبهم بالحق من أول الأمر ، ولأجل ذلك هم في أمر مَريجٍ مضطرب .

* * *

هـذه هي البـواعث التي كـانت تـدفـع إلى إنكـار المعـاد ، ونحت الأعـذار والشبهات في هذا المجال . وإليك فيما يلي بيان شبهاتهم أوّلاً ، وأجوبتها ثانياً . .

* * *

شبهات المنكرين للمعاد

الشبهات التي ينقلها الذكر الحكيم عنهم تبلغ عشر شبهـات ، غير أنّ كثـيراً منهـا ضئيل ، ليس لـه دليل سـوى البواعث التي قـدّمناهـا ، ومع ذلـك لم يتركهـا القرآن بلا جـواب ، إمّا مقـارن لذكـرها أو في مـواضع أخـرى ، وفيما يـلي نذكـر رؤوس الشبهات الواهيـة ، ثم نتبعها بـذكر الشبهـات القابلة للبحث ، فنـطرحها ونناقشها .

١ ـ لا دليل على المعاد

يقول سبحانه : ﴿ وإذَا قيل إنّ وَعْدَ الله حَقٌّ والسّاعَةُ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها قُلْتُمْ ما نَدْري ما السَّاعَةُ إنْ نَظُنُّ بالاَّ ظَنّاً وما نَحْنُ بِمُسْتَيْقنينَ ﴾[١] .

وقائل الشبهة يتظاهر بأنّه لا دليل عـلى النّشأة الأُخـرى وإحياء المـوتى فيها ، ولو كان لاتّبعه . ولم يتركه القرآن بلا جواب ، فقد أقام براهين دامغة عـلى إمكانـه وضرورته كما سيوافيك .

ولأجل كون المعاد مقروناً بالبراهين ، يتعجّب القرآن من إنكارهم ويقول : ﴿ فَإنْ تَعْجَبْ ، فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أئِذا كُنّا تُراباً أئِنّا لفي خَلْقٍ جَديدٍ ﴾[٢]

(١) سورة الجاثية : الآية ٣٢ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٥ .

٢ ـ المعاد من أساطير الأولين

يقول سبحانه : ﴿ قالوا أَئِذا مِتْنا وَكُنّا تُـراباً وَعِـظاماً أَئِنّـا لَمَبْعوثـونَ * لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وآباؤنا هذا من قَبْلُ ، إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الأَوّلينَ ﴾[١] .

وبما أنّ الشرائع السماوية ، مُتّحـدة في الأُصول ، وإنّمـا اختلافُهـا في الشرع والمنهاج[٢] ، كانت الـدعوة إلى المعـاد موجـودة في الشرائـع السـالفـة ، فَحَسِبَهـا المشركون أُسطورة من أساطير الأوّلين .

مـع أنّ الدعـوة إلى عقيـدة قـديمـة لا يكـون دليـلاً عـلى بـطلانها ، كـما أنّ استحداث عقيدة لا يكون دليلاً على صحتها ، وإنّما الضابط هو الدليل .

٣ ـ المعاد إفتراء على الله أو جنون من القول

يقول سبحانـه : ﴿ وقالَ الـذينَ كَفَروا هَـلْ نَدُلُّكُمْ عـلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أَنَّكُمْ لَفي خَلْقٍ جَديدٍ * أَفْتَـرىٰ على الله كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾[٣] .

والمنكرون لأجل التـظاهر بـالحريـة في القضاء ، وابتعـادهـم عن العصبية ، فَسّروا الدعوة إلى المعاد بأنّ الداعي إمّا رجلٌ غير صالح ، إفـترى على الله كـذباً ، أو أنّـه معذور في هـذا القول وقـاصر ، لأنّ به جنـة ، وهذا نـوع من الخداع ، إذ كيف صار « أمينُهُم » مفتريـاً على الله الكـذب ، ومتى كان الإنسـان العاقـل الذي أثبت الـزمـان عقله وذكـاءه ودرايتـه وأمـانتـه حتى قمـع أُصـول الشرك عن أديم الجزيرة ، متى كان مجنوناً ؟ .

٤ ـ إعادة الأموات سحر

يقول سبحانه : ﴿ وإنْ قُلْتَ إنَّكُمْ مَبْعوثـونَ مِنْ بَعْدِ المَـوْتِ لَيَقُولَنَّ الـذينَ

---

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ٨٢ و٨٣ .

(٢) إشارة إلى قوله سبحانه : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً ﴾ (سورة المائدة : الآية ٤٨) .

(٣) سورة سبأ : الآيتان ٧ و٨ .

كَفَروا إنّ هذا إلاّ سِحْرٌ مُبينٌ ﴾(1) .

فقد بلغ عنادهم في إنكار الحقيقة مبلغاً لو قام النبي معه بإحياء الموتى أمامهم ، ورأوه بأُمّ أعينهم ، لقالوا إنّه سحر مبين ، وإنّك سحرت أعيننا ، ولا حقيقة لما فعلت .

٥ ـ إذا كان المعاد حقّاً فأُحيوا آباءنا

يقول سبحانه : ﴿ فإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إلاَّ أَنْ قالوا ائْتوا بآبائنا إنْ كُنْتُمْ صادقينَ ﴾(2) .

غير أنّ طلبهم إحياء آبائهم لم يكن إلاّ تَعَلّلاً أمام دعوة النبي ، فلو قام النبي بهذا العمل ، لطلبت كل قبيلة ، بل كلّ إنسان نفس ذلك العمل من النبي ، حتى يؤمن به ، فتنقلب الدعوة لعبة في أيديهم . ولأجل ذلك يضرب القرآن عن الجواب صفحاً ، ويكتفي بقوله : ﴿ قُلِ اللهُ يُحْييكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إلى يوم لاَ رَيْبَ فيه ، ولكن أكثرَ النّاس لا يَعْلَمونَ ﴾(3) .

٦ ـ حشر الإنسان عسير

إنّ هذا الإعتراض وإن لم ينقل عنهم صريحاً ولكن يُعْلَم من الآيات الواردة حول المعاد ، أنّه كان أحد شبهاتهم .

يقول سبحانه في أمر المعاد : ﴿ إنّ ذلك علينا يسير ﴾(4) ويقول : ﴿ ذلكَ على الله يَسيرٌ ﴾(5) ويقول : ﴿ وما أَمْرُ السَّاعَةِ إلاّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ

---

(١) سورة هود : الآية ٧ .
(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٥ .
(٣) سورة الجاثية : الآية ٢٦ .
(٤) سورة ق : الآية ٤٤ .
(٥) سورة التغابن : الآية ٧ .

أَقْرَبُ ﴾[1] ويقول : ﴿ هُوَ الذي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[2] .

وهذه الشبهة صورة خفيفة للشبهة السابعة الآتية التي سيوافيك الجواب عنها تفصيلاً . والإجابة عن تلك يغني عن الإجابة عن هذه . قال أمير المؤمنين عليه السلام : « وما الجَليلُ واللَّطيفُ ، والثَّقيلُ والخَفيفُ ، والقَوِيُّ والضَّعيفُ في خلقه إلّا سواء »[3] .

هذه هي شبهاتهم الضئيلة الواهية التي لا يخفى بطلانها وكانت لهم معها شبهات أُخرى أجدر بالبحث والتحليل ، وهي أربع ، نذكرها أوّلاً ثم نجيب عنها بالتفصيل .

٧ ـ إحياء الموتى خارجٌ عن إطار القُدرة

يظهر من الذكر الحكيم أنّهم كانوا يعتمدون على هذه الشبهة ، ويحكيها سبحانه بقوله : ﴿ وَضَرَبَ لنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحيي العِظامَ وَهِيَ رَميمٌ ﴾[4] .

٨ ـ التعرف على الأجزاء الرميمة غير ممكن

إنّ عادة الموتى بأعيانهم يتوقف على التعرف على أجزاء أبدانهم الرميمة المبعثرة ، على أديم الأرض وفي جوفها ، وفي أعماق البحار ، ليُعاد جزء كل إنسان إلى بدنه ، وهذا أمر محال .

وهذه الشبهة وإن لم يُصرّح بها القرآن، ولكن يستنبط من إجابة القرآن عليها أنّهم كانوا يعتمدون عليها .

---

(١) سورة النحل : الآية ٧٧ .
(٢) سورة الروم : الآية ٢٧ .
(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٠ .
(٤) سورة يس : الآية ٧٨ .

يقول سبحانه : ﴿ وقالَ الذين كفروا لا تأتينا السّاعةُ قُلْ بلى وَرَبي لَتَأتِيَنّكُمْ ، عالِمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عنهُ مِثْقالُ ذرّة في السّموات ولا في الأرض ولا أصغَرُ ولا أكْبَرُ إلاّ في كتابٍ مبينٍ ﴾(١) .

فإنّ قوله : ﴿ عالِمِ الغيبِ ، لا يَعْزُبُ عنه . . . ﴾ يكشف عن أنّ شُبْهَتَهم في إمكان المعاد ، هي عدم إمكان التعرّف على أجزاء الموتى المبعثرة .

٩ ـ الموت بطلان للشخصية

وممّا كانوا يعتمدون عليه في إنكارهم للمعاد ، هو أنّ الموت وصيرورة الإنسان عظاماً ثم تراباً ، يلازم بطلان شخصيته وانعدامها ، والمعدم لا يعاد .

ولعلّه إلى تلك الشبهة يشير قوله سبحانه : ﴿ وقالوا أئِذا ضَلَلْنا في الأرْضِ أئِنّا لفي خَلْقٍ جديدٍ ﴾(٢) ويحتمل كونه إشارة إلى الشبهة التالية .

١٠ ـ فقدان الصلة بين المبتدأ والمُعاد

إذا كان الموت وصيرورة الإنسان تراباً ، إعداماً للشخصية ، فالشخصية المحياة في النشأة الأُخرى ، لا تمت إلى الأُولى بصلة ، فكيف تكون إحياء لها ؟ فإنّ المقصود من المعاد ، إحياء الناس لإثابتهم أو معاقبتهم ، وهو فرع وحدة المعاد والمبتدأ ، واتّحادهما ، وهو منتف ، ولعلّ الآية السابقة ، تشير إلى هذه الشبهة .

هذه هي شبهاتهم التي تستحق البحث ، وإليك فيما يلي مناقشتها :

الإجابة التفصيلية عن شبهاتهم

الإعتقاد بالمعاد إعتقاد بالغيب وإيمان به ،وهو فرع معرفة الله سبحانه ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، وأفعاله ، ولولا تلك المعرفة ، لما حصل الإيمان بشيء من

---

(١) سورة سبأ : الآية ٣ .

(٢) سورة السجدة : الآية ١٠ .

الأمور الغيبية ، فالإعتقاد بمعاجز الأنبياء ، وكراماتهم التي يحكيها لنا القرآن الكريم ، قائم على معرفة الله سبحانه . ومعرفة شؤونه تبارك وتعالى . وعلى هذا الأساس يبتني الجواب عن الشبهتين الأُوليين :

جواب الشبهة الأُولى ـ القدرة المطلقة وإحياء الموتى

إنّ تخيل استحالة المعاد ، الناشيء من توهّم أنّ إحياء الموتى خارج عن إطار القدرة ،جهل بالله سبحانه ، وجهل بصفاته القدسية ، فإنّ قدرته عامة تتعلق بكل أمر ممكن بالذات ، ومن هنا نجد القرآن الكريم يندد بقصور المشركين وجهلهم في مجال المعرفة ، ويقول : ﴿ **وما قَدَروا الله حَقَّ قَدْرِهِ ، والأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ والسَّمواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمينِهِ** ﴾[1] . ومعنى عدم التقدير هنا ، عدم تعرفهم على الله سبحانه حَقّ التعرف ، ولذلك يعقبه بقوله : ﴿ **وَنُفِخَ في الصُّورِ** ﴾ ، معرباً عن أنّ إنكار المعاد ينشأ من هذا الباب .

وفي آيات أخرى تصريحات بعموم قدرته ، كقوله : ﴿ **أَيْنَما تكونوا يَأْتِ بِكُمُ الله جَميعاً ، إنّ الله على كُلِّ شيَءٍ قَديرٌ** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **إلى الله مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ على كُلِّ شيَءٍ قَديرٌ** ﴾[3] .

والآيات الواردة في هذا المجال كثيرة[4] .

ثم إنّ القرآن يسلك طريقاً ثانياً في تقرير إمكان المعاد ، وذلك عبر الآتيان بأُمور محسوسة أقرب إلى الإذعان والإيمان :

---

(١) سورة الزمر : الآية ٦٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٤٨

(٣) سورة هود : الآية ٤

(٤) لاحظ النحل . الآية ٧٧ ، العنكبوت : الآية ٢٠ ، الروم : الآية ٥٠ ، فصلت : الآية ٣٩ ، الشورى : الآية ٩و٢٩ ، الأحقاف : الآية ٢٣ ، الحديد : الآية ٢ .

أ ـ القادر على خلق السموات ، قادر على إحياء الموتى

يقول سبحانـه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنّ الله الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ المَوْتى ﴾[1] .

وكيفية الإستدلال بها واضحة ، فإنّ القادر على إبداع هـذا النظم البـديع ، أقدر على إحياء الإنسان .

ب ـ القادر على المبتـدأ قادر على المعاد

إنّ من الضوابط العقلية المحكمـة أنّ أدلّ دليل عـلى إمكان الشيء وقـوعه ، وأنّ حكمَ الأمثال فيما يجوز ولا يجوز واحد ، فلو كانت الإعـادة أمراً محـالاً ، لكان ابتـداءُ الخِلْقة مثله ، لأنّهما يشـتركان في كـونهما إيجاداً لـلإنسان ، وعـلى ذلك قـوله سبحـانه : ﴿ قـالوا أئِـذا كُنّا عـظاماً ورُفـاتاً أئِنـا لَمَبْعوثـونَ خَلْقـاً جـديـداً . . . فَسَيَقولونَ مَنْ يُعيدُنا ، قُلِ الّذي فَطَرَكُمْ أَوّلَ مَرَّةٍ ﴾[2] .

وقوله سبحانه : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُـدىً * أَلَمْ يَكُ نُـطْفَةً مِنْ مَنيٍّ يُمْنى * ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَـيْنِ الذَّكَـرَ والأُنْثى * أَلَيْس ذٰلِكَ بِقادِرٍ عَلَى أَنْ يُحيي المَوْتى ﴾[3] .

ج ـ القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحيـاء الإنسان بعـد موته

ويُري الذكر الحكيم في آياته إعادة الحياة إلى التراب بشكل ملموس ، وذلك بصورتين :

أُولاهما : أنّه إذا امتنع عود الحياة إلى التراب ، فكيف صار التراب إنساناً في

---

(١) سورة الأحقاف : الآية ٣٣ . ومثلها يس : الآية ٨١ .

(٢) سورة الإسراء : الآيات ٤٩ ـ ٥١

(٣) سورة القيامة : الآيات ٣٦ ـ ٤٠ ، وقد ورد في هذا المجال آيات أُخـر ، فلاحظ يس : الآيـة ٧٩ ، سورة الطارق : الآيات ٥ ـ ٨ .

بـدء الخلقة ، وفي ذلـك يقول سبحـانه : ﴿ يـآ أَيُّهـا النـاس إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ من البَعْثِ فإِنّا خَلَقْناكُمْ مِن ترابٍ . . . ﴾[1] .

ويقـول : ﴿ مِنْها خَلَقْنـاكُمْ وفِيهـا نُعيـدكم ومِنْهـا نُخْـرِجُكُمْ تـارةً أُخْرى ﴾[2] .

وثانيتهما : إنّ الأرض الميتة تحيا كُلّ سنة بنزول الماءِ عليهـا فتهتز وتـربو بعـد جفافها ، وتُنْبِتُ من كل زوج بهيج ، يقول سبحانه : ﴿ وَتَرى الأَرْضَ هامِدَةً فإذا أَنْزَلْنا ، عَلَيْها الماءَ اهْتَزَّتْ ، وَرَبَـتْ وأَنْبَتَتْ مِنْ كُـلّ زَوْجٍ بَهيجٍ * ذلـك بأَنَّ الله هُوَ الحَقُّ ، وَأَنَّه يُحيِي المَوْتى ، وأَنّه على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ * وأَنَّ الساعَةَ آتِيـةٌ لا رَيْبَ فيها ، وَأَنّ الله يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبورِ ﴾[3] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَـيْنَ يَدَي رَحْمَتِـهِ ، حتى إذا أَقَلَّتْ سَحـاباً ثِقـالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَـأَنْزَلْنـا بِـهِ المـاءَ فَـأَخْـرَجْنـا بِـهِ مِنْ كُـلّ الثَّمَراتِ ، كذلك نُخْرِجُ المَوْتى لَعَلّكُمْ تَذَكَّرونَ ﴾[4] .

فليس إحياء الإنسان من التراب إلاّ كإحياء التراب الميت ، باخضرار نباته ، وازهرار أشجاره .

وبهـذه النماذج المحسـوسة يُثْبِتُ القـرآن عموم قـدرتـه تعـالى ، مضـافـاً إلى البراهين العقلية على عموم قدرته تعالى شأنه .

جواب الشبهة الثانية ـ العلم المطلق والتعرف على الأجزاء المندثرة

إنّ هـذه الشبهة وسـابقتها ، لهـما منشـأ واحـد هـو عـدم التعـرف عـلى الله سبحانه : صفاته وأفعاله ، وهنـا يقولـون إنّ الأجزاء المتـلاشية المبعثـرة فـي أكناف

(١) سورة الحج : الاية ٥ .

(٢) سورة طه . الآية ٥٥ .

(٣) سورة الحج : الآيات ٥ ـ ٧ .

(٤) سورة الأعراف : الآيـة ٥٧ . ولاحظ الزخـرف : الآية ١١ ، الـروم : الآية ١٩ ، سـورة فاطـر : الآية ٩ ، سورة ق : الآيات ٩ ـ ١١ .

الأرض لا يمكن التعرف عليها ليعاد جمع أجزاء كل إنسان .

والجواب عنه واضح بعد التعرف على علمه الوسيع ، سبحانه ، وأنّ الممكنات بعامة أجزائها حاضرة لديه غير غائبة عنه .

يقول سبحانه : بعد نقل شبهتهم (أئِذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً ، ذلك رَجْعٌ بعيد) .

﴿ قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدنا كتابٌ حفيظ ﴾[1] . فالتركيز في الجواب على علمه سبحانه بما تنقص الأرض منهم ، وأنّ عنده كتاباً حفيظاً لكل شيء ، يُعْرب عن أنّ شبهتهم كانت ترجع إلى عدم إمكان التعرف على الأجزاء البالية ، حتى يُعاد جمعُها .

ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿ وما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلاّ كَنَفْس واحِدَةٍ إنّ الله سميعٌ بَصيرٌ ﴾[2] . فالتركيز على كونه سميعاً وبصيراً يعرب عن أنّ المقصود من صدر الآية هو نقل شبهتهم الراجعة إلى علمه سبحانه .

جواب الشبهة الثالثة ـ الموت ليس إبطالاً للشخصية

إنّ القائل بأنّ الموت إبطال للشخصية ، حسب أنّ الإنسان موجود مادي محض ، وليس هو إلاّ مجموعة خلايا وعروق وأعصاب وعظام وجلود ، تعمل بانتظام ، فإذا مات الإنسان صار تراباً ، ولا يبقى من شخصيته شيء ، فكيف يمكن أنْ يكون المُعاد نفس الأول ؟ ولعلّه إلى ذلك يشير قولهم : « أئِذا ضَلَلْنا في الأَرْضِ أئنا لفي خلق جديد ؟ » . بأن يكون المراد من الضلال في الأرض بطلان الهوية بطلاناً كاملاً لا يمكن أن تتسم معه بالإعادة ، ويجيب القرآن عن هذه الشبهة بجوابين :

أوّلها ، قوله : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رِبِّهِمْ كافِرونَ ﴾[3] .

---

(١) سورة ق : الآية ٤ .
(٢) سورة لقمان : الآية ٢٨ .
(٣) سورة السجدة : الآية ١٠ .





محفوظة ، فلا تنقطع الصلة بين المبتدأ والمعاد ، خصوصاً أنّ أجزاء البدن المبعثرة ، معلومة لله سبحانه . فهو يُركّب تلك الأجزاء المبعثرة ، وتتعلق بها الروح ، قال سبحانه : ﴿ قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفيظٌ ﴾(١) . وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يُحْيِيها الذي أَنْشأَها أَوّل مرة ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَليمٌ ﴾(٢) . فالتعبير بـ﴿ خَلْقٍ عَليمٍ ﴾ مكان « خلق قدير » ، إشارة إلى علمه تعالى بأجزاء بدن كل إنسان .

إلى هنا فرغنا من الإجابة عن الشبهات المطروحة حول المعاد التي ذكرها القرآن ، وبما أنّ الإجابة عن الشبهتين الأخيرتين مبني على تجرّد الروح وبقائها بعد الموت ، نُفْرِدُهُ بالبحث ونثبت هذا التجرّد عقلاً ونقلاً ، وهو من مهام البحوث في المعاد .

* * *

(١) سورة ق : الآية ٤٧ .

(٢) سورة يس : الآية ٧٩

مباحث المعاد

(٤)

تجرد الروح الإنسانية

لقد شغل أمْرُ تجرد الروح بال المفكرين ، واستدلوا عليه بوجوه عقلية عدة ، كما اهتمّ القرآن الكريم ببيانه في لفيف من آياته ، وفيما يلي نسلك في البحث عن تجرّد الروح هذين الطريقين : العقلي والنقلي .

١ ـ البراهين العقلية على تجرد الروح

تدلّ براهين كثيرة على أنّ النفس مجرّدة غير مشوبة بالمادة وآثارها . وتجرّدها يعتبر من النوافذ إلى عالم الغيب ونكتفي فيما يلي بإيراد أبرز هذه البراهين وأوضحها ، وإلاّ فهي كثيرة تتجاوز العشرة .

البرهان الأول ـ ثبات الشخصية الإنسانية في دوامة التغيّرات الجسدية

وهذا البرهان يتألّف من مقدمتين :

الأولى أنّ هناك موجوداً تنسب إليه جميع الأفعال الصادرة عن الإنسان ، ذهنية كانت أو بدنية .

ولهذا الموجود حقيقة ، وواقعية يشار إليها بكلمة « أنا » .

الثانية أنّ هذه الحقيقة التي تُعَدُّ مصدراً لأفعال الإنسان ، ثابتة وباقية





خاضع لها بالقوة ، وإذا عجز الإنسان عن تقسيم ذلك الموجود ، فلأجل فقدانه أدواته اللازمة . ولأجل ذلك ذكر الفلاسفة في محلّه ، بطلان الجزء الذي لا يتجزأ . وما يسميه علم الفيزياء ، جزءً لا يتجزأ ، فإنّما هو غير متجزّء بالحسّ ، لعدم الأدوات اللازمة ، وأمّا عقلاً فهو منقسم مهما تناهى الإنقسام ، لأنّه إذا لم يمكن الإنقسام ، وعجز الوهم عن استحضار ما يريد أن يقسّمه ـ حتى بالمكبرات ـ بسبب صغره ، يفرض العقل فيه شيئاً غير شيءٍ ، فيحكم بأنّ كل جزء منه يتجزء إلى غير النهاية ، ومعنى عدم الوقوف أنّه لا ينتهي انقسامه إلى حدّ إلّا ويتجاوز عنه[١] .

ومن جانب آخر ، كلٌّ واحدٍ منّا إذا رجع إلى ما يشاهده في صميم ذاته ، ويعبّر عنه بـ « أنا » ، وجده معنىً بسيطاً غير قابلٍ للإنقسام والتجزّي ، فارتفاع أحكام المادة ، دليل على أنّه ليس بمادي .

إنّ عدم الإنقسام لا يختص بما يجده الإنسان في صميم ذاته ويعبّر عنه بـ « أنا » ، بل هو سائد على وجدانياته أيضاً من حبٍّ ، وبُغْضٍ ، وإرادةٍ ، وكراهةٍ ، وتصديقٍ ، وإذعانٍ . وهذه الحالات النفسانية ، تظهر فينا في ظروف خاصة ، ولا يتطرق إليها الإنقسام الذي هو من أظهر خواص المادة .

إعطف نظرك إلى حبك لولدك ، وبغضك لعدوك ، فهل تجد فيهما تَرَكُّباً ؟ وهل ينقسمان إلى جزء فجزءٍ ؟ كلا ، لا .

فإذا كانت الذات والوجدانيات غير قابلة للإنقسام ، فلا تكون منتسبةً إلى المادة التي يُعَدّ الإنقسام من أظهر خواصّها .

فظهر ممّا ذكرنا أنّ الروح وآثارها ، والنفس والنفسانيات ، كلُّها موجودات واقعية خارجة عن إطار المادة ، ومن المضحك قول المادي إنّ التفحص ، والتفتيش العلمي في المختبرات لم يصل إلى موجود غير مادي ، حتى نذعن بوجوده ، فقد عزب عنه أنّ القضاء عن طريق المختبرات يختصّ بالأمور المادية ، وأمّا ما يكون

---

(١) لاحظ شرح المنظومة ، للحكيم السبزواري ، ص ٢٠٦ .

سنخ وجوده على طرف النقيض منها ، فليست المختبرات محلاً وملاكاً للقضاء بوجوده وعدمه .

ثم إنّ البحث العقلي ، في تجرّد الروح مترامي الأطراف مختلف البراهين ، اكتفينا بهذا القدر منه ، ومن أراد التبسّط فليرجع إلى الكتب المعدة لذلك(١) .

* * *

٢ ـ القرآن وتجرّد النفس وخلودها

الآيات التي يستظهر منها خلود الروح وتجرّدها على قسمين : قسم يدلّ عليه بصراحة لا تقبل الإنكار ، وقسم آخر يستظهر منه ، وإنْ كان قابلاً للحمل على معنى آخر ، وإليك نقل القسمين بإيضاح إجمالي :

القسم الأول من الآيات

(أ) ـ يقول سبحانه : ﴿ **الله يَتَوفّىٰ الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ، والتي لَمْ تَمُتْ في مَنامِها ، فَيُمْسِكُ التي قَضىٰ عَلَيْها المَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الأُخرى ، إلى أَجَلٍ مُسَمّى ، إنّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرونَ** ﴾(٢) .

والدلالة مبنية على إمعان النظر في لفظة التوفّي ، وقد عرفت أنّها بمعنى الأخذ والقبض ، لا الإماتة . وعلى ذلك فالآية تدلّ على أنّ للإنسان وراء البدن شيئاً يأخذه الله سبحانه ، حين الموت والنوم ، فَيُمْسكه إن كتب عليه الموت ، ويرسله إن لَمْ يكتب عليه ذلك إلى أجلٍ مسمى ، فلو كان الإنسان متمحضاً في المادة وآثارها ، فلا معنى « للأخذ » و« الإمساك » و« الإرسال » ، كما هو واضح .

(ب) ـ يقول سبحانه : ﴿ **ولا تَحْسَبَنّ الذينَ قُتِلوا في سبيلِ الله أمواتاً ، بل**

---

(١) لاحظ الإشارات للشيخ الرئيس ج ٢ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧١ . والأسفار ، ج ٨ ص ٣٨ . وأصول الفلسفة للعلامة الطباطبائي ، رحمه الله وترجمة الأستاذ دام حفظه ج ١ ، المقالة الثالثة ، ص ١٢٩ ـ ١٨٣ . وفي هذا الأخير يجد المتتبع ضالته .

(٢) سورة الزمر : الآية ٤٢ .



مدينة أنطاكية ، فلقيا من أهلها عنفاً وردّاً ، غير أنّ واحداً من أهلها اسمه حبيب النجار ، آمن بهما وأظهر إيمانه ،وقال : ﴿ إنّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فاسْمَعونِ ﴾ ، فلما سمع القوم إيمانه وطؤوه بأرجلهم حتى مات ، فأُدخله الله الجنة ، وخوطب بقوله تعالى : ﴿ أُدْخلِ الجَنَّة ﴾ . ثم هو تمنّى أن يعلم قومُه بما آتاه الله تعالى من المغفرة وجزيل الثواب ، فقال : ﴿ يا لَيْتَ قَومي يَعْلَمونَ * بِمَا غَفَر لي رَبّي وَجَعَلني من المُكرَمينَ ﴾ .

فالآية تدل على أنّ الموت ليس فناء للإنسان ، بل هو بعد الموت يرزق في الجنة ، ويتمنى أن يعلم قومه بما رزق من الكرامة .

أضف إلى ذلك أنّ قوله تعالى : ﴿ أُدْخِلِ الجَنّة ﴾ ، لا يمكن أن يكون خطاباً للبدن لأنه يوارىٰ تحت التراب ، فالمخاطب به شيءٌ آخر ، وهو الروح ، فتدخل الجنة وتتنعّم فيها ، وكم فرق بين قوله : « أُدخل الجنة » وقوله « أبشر بالجنة » فالثاني لا يدلّ على شيء مما ذكرنا بخلاف الأوّل .

(و) يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَد خَلَقْنا الإنسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طينٍ * ثُمّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ * ثُمّ خَلَقْنا النُّطفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً ، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ، ثُمّ أنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ ، فتبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ ﴾[1] .

وأمّا دلالةُ الآيةِ على أنّ الروحَ أمْرٌ غير مادّي ، فيظهر بالإمعان فيها ، وبيانه : أنّ الآية تبيّن تكامل خلقة الإنسان من مرحلة إلى مرحلة ، والمراحل الموجودة بين السلالة ، وقوله : ﴿ فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ﴾ ، كلُّها تكامل من صنف واحد ، فمادة الإنسان لن تبرح تتكامل من السلالة إلى العظام المكسوة باللّحم .

وبعد ذلك نرى تغييراً في أُسلوب بيان الآية ، حيث يقول : ﴿ ثُمّ أنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ ، فتبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالَقين ﴾. فهو سبحانه :

أولاً : يعطف هذه المرحلة على المراحل السابقة ، بلفظة ثُمّ ، بخلاف

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١٢-١٤ .

المراحل السابقة ، فيعطفها بالفاء ، ويقول فخلقنا العَلَقة . . . فخلقنا المُضْغة . . . فَكَسَوْنا العِظام . . . وهذا يدل على تغاير هائل بين هذه المرحلة والمراحل السابقة .

ثانياً : يستعمل في بيان خلقه هذه المرحلة لفظ الإنشاء ، بمعنى الإبداع ، وإنشاء شيءٍ بلا مثال قَبْلَه ، وهو أيضاً يدل على مغايرة هذه المرحلة لما سبقها من المراحل ، مغايرةً جوهريّةً .

وثالثاً : إنّه سبحانه بعدما يقرر خلقه هذه المرحلة ، يثني على نفسه ، مما يعرب عن اختلاف هذه المرحلة مع ما تقدمها ، وامتيازها عنها إمتيازاً جوهرياً .

وهذه الوجوه ، تكفي في دلالة الآية على أنّ المُنْشأُ في هذه المرحلة شيءٌ لا يشبه المنشآت السابقة، ويختلف عنها جوهراً ، وحيث إنّ المنشآت السابقة من سنخ تكامل المادة ، فيكون المُنْشَأ في هذه المرحلة ، مُنْشأً غير مادي ، وهو تعلّق النفس المجردة بالبدن في تلك المرحلة .

إلى هنا تم إيراد الآيات الصريحة في المطلوب ، ويقع الكلام بعده في القسم الثاني من الآيات ، وهي التي يُسْتَظْهر منها الدلالة على تجرد الروح ، وإنْ كانت قابلة للحمل على معان أخرى .

القسم الثاني من الآيات

أ ـ يقول سبحانه : ﴿ **فاليَوْمَ نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** ﴾(١) .

وتتضح الدلالة إذا أمعنّا أنّه سبحانه يخص النجاة ببدن فرعون ، ويقول : ﴿ **بِبَدَنِكَ** ﴾ وهذا يعرب عن أنّ هناك شيء آخر لا يشمله النجاة ، ويقع مورد العذاب .

أضف إلى ذلك خطابه سبحانه أعني قوله : ﴿ **نُنَجّيك** ﴾ ، فإنه يدلّ على أنّ

---

(١) سورة يونس : الآية ٩٢ .





مباحث المعاد

(٥)

نماذج من إحياء الموتى في الشرائع السابقة

أثبت الحكماء لليقين مراتب ودرجات ، ولكل منها عندهم إسم خاص ، ولتبيين هذه الدرجات نأتي بمثال :

إذا سمع الإنسان إسم النار ، ولم يرها ، وقيل له إنها موجود عنصري لها هيئةٌ خاصةٌ ، وأثر ومعيّن في الأعضاء ، وأذعن بذلك لكون المخبرين صادقين ، فهذه مرتبة من اليقين .

ثم إذا شاهدها من بعيد ، ولكن لم تمسّ حرارتها بدنه ، وإنما رأى هيئتها ، والتهابها ، بأُم عينه ، فهذه مرتبة من اليقين أقوى من السابقة .

ولكن أين هذه المرتبة مما إذا شاهدها عن كثب ومَسّته حرارتها ، ففي هذه المرتبة يتكامل يقينه بها ، ويبلغ الدرجة القصوى .

وإذا كان لليقين مراتب ودرجات ، فلا لَوْم على الأنبياء والأولياء أنْ يطلبوا من الله سبحانه إحياء الموتى حتى يشاهدوه بأعينهم لإكمال مراتب يقينهم بالقيامة ، وتبديل علم اليقين فيهم بعين اليقين[١] .

---

(١) اقتباس من قوله سبحانه : ﴿ كلاّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثمّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليقينِ ﴾ (التكاثر : الآيات ٥ ـ ٧) .

ومن هنا نرى أنّ الله سبحانه أحيى الموتى لإبراهيم الخليل ، وعزَيْر ، وغيرهم كما سيأتي ، والغاية كانت إكمال مراتب اليقين ، أو إتمام الحجة على البعيدين عن هذه المعارف ، كما هو الحال في إحياء عيسى الموتى لبني إسرائيل، وفيما يلي نورد هذه النماذج من القرآن الكريم .

١ - إبراهيم وإحياء الموتى

ذكر المفسرون أنّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رأى جيفة تمزقها السباع ، فيأكل منها سباع البر ، وسباع الهواء ودواب البحر ، فسأل الله سبحانه وقال : يا ربّ قد علمت أنك تجمعها في بطون السباع والطير ودواب البحر ، فأرني كيف تحييها لأعاين ذلك ؟

يقول سبحانه : ﴿ **وإذ قال إبراهيمُ رَبِّ أرني كَيْفَ تُحيي المَوْتى ، قالَ أوَلَمْ تُؤْمِن قال بلى ولكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قال : فَخُذْ أرْبَعَةً من الطّيْرِ فَصُرْهُنَّ إلَيْكَ ثُمّ اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنّ جُزْءً ثُمَّ ادْعُهُنّ يَأتِيَنَكَ سَعْياً ، واعْلَمْ أنّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[1] .

وما ذكرنا من سبب النزول يكشف عن أنّه لم يكن غرض إبراهيم إحياء نفس فقط ، وإلا لكفى فيه إحياء طير واحد بعد إماتته ، وإنما لكان الغرض مشاهدة إعادة أجزاء كلّ طير إليه بعد اختلاطها بأجزاء الطيور الأخر ، وهذا لا يتحقق إلا بتعدد الطيور أوّلاً ،واختلافها نوعاً ، ثانياً ، واختلاطها بعد ذبحها ، ثالثاً ، فلأجل ذلك ورد أنّه أخذ طيوراً مختلفة الأجناس ، قيل إنها : الطاووس ، والديك ، والحمام ، والغراب ، فقطّعها ، وخلط ريشها بدمها ، ثم فرّقهن على عشرة جبال ، ثم أخذ بمناقيرهن ، ودعاهن باسمه سبحانه ، فأتته سعياً ، فكانت تجتمع ويأتلف لحم كلّ واحد وعظمه إلى رأسه ، حتى قامت أحياء بين يديه .

وبذلك كمل إيمانه ، وتم إذعانه بأنّه سبحانه يمكن أن يعيد أجزاء بدن كل

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

حيّ إليـه ، وأن اختلط بحيّ آخر ، كما لـو أكلت الإنسـان الميتَ سبـاعُ الـبراري وجـوارحُ الهواء ، وحيتـانُ البحار ، فـإن الإختلاط لا يكـون مـانعـاً عن الإحيـاء والإعادة ، وقد تقدّم في بيان شبهـاتهم أنّ المنكرين كـانوا يـركزون عـلى « ضلالـة الأجزاء » في الأرض ، واختلاط أجزاء الموتى بعضها ببعض ، وقد قال سبحانـه في هذا المجال : ﴿ قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأرضُ مِنْهُم وَعِنْدَنا كِتابٌ حفيظٌ ﴾[1] .

والإستدلال بالآية يتوقف على الإمعان في أمرين :

الأول ـ إنّ مقتضى البـلاغة مـطابقة الجـواب للسؤال ، ولما كـان سؤاله عن مشاهدة إحيـاء الموتى ـ واقتضى الحـال الإجابـة عنه ـ فيجب أن يكـون ما يـأمر بـه سبحانه محققاً لإحياء الموتى ، وهو لا يتحقق إلا بأن يقوم إبـراهيم بتقطيعهن وخلط أجزائهن ، وتفريقهن على الجبال .

الثاني : الإمعان في قوله : ﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ ، والمصدر الذي اشتُقّ منه ، وفيه إحتمالات :

١ ـ ما نقل عن ابن عباس من أنه قرأ : « فَصَرِّهُنَّ » ، بتشديـد الراء ، من بـاب صـرَّ ، يَصُـرُّ ، من التصرية ، وهي الجمـع والضم[2] ، وهذه القـراءة غير معروفة ، فهذا الإحتمال ساقط .

٢ ـ أن يكون مأخوذاً من الصَّيْر ، معتل العين ، فيقـال صار يصـير صيراً ، بمعنى انتهى إليـه ، مثل قـوله : ﴿ إليـه المصير ﴾ . والأمـر منه « صُرْ » ولعـل من فَسّره من أهل اللغة بمعنى المَيْل أخذه من هذا .

٣ ـ أنْ يكون مأخـوذاً من « صري » ، معتل الـلام ، ذكره الفـراء في معاني القـرآن ، فقال إنها إن كـانت بمعنى القـطع ، تكـون من « صَـرَيْت ، تصري » ، واستشهد بقول الشاعر :

---

(١) سورة ق ، الآية ٤ .

(٢) الكشاف ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

صَرَت نــظرة لــو صــادف جــوز دارع
غــداً والـعــواصي من دم الجــوف تـنـعـر[١]

فإن جعل من « صَير » يكون بمعنى « أمِلْهُنّ إليك » ، ويجب عند ذلك تقدير كلمة اقطعهن ، لدلالة ظاهر الكلام عليه ، فيكـون معنى الآية : أملهن إليـك ، فقطّعْهُنّ ، ثم اجعل عـلى كل جبـل منهن جزءً ، مثـل قولـه : ﴿ إضْرِبْ بعصـاكَ البَحْرَ ، فَانْفَلَقَ ﴾ ، أي فضرب فانفلق .

وإن جعل من « صري » ، تكون الكلمة متضمنة معنى الميل بقرينة تعدّيـها بـ « إلى » ، فيكـون المعنى : اقـطعهن متـمايـلات إليـك ، كتـمايـل كـل طـير إلى صاحبه .

وعلى كل تقدير ، فالآية تدل على أنّ إبراهيم قطّعهن وخلط أجـزاءهن ، ثم فرقها على الجبال ، ثم دعاهن ، فأتَيْنه سعياً .

ومن غريب التفسير ، ما ذكره صاحب المنار فقال في معنى الآية مـا حاصله : خُـذْ أربعة من الـطّير فضمها إليـك ، وآنسها بـك ، حتى تستأنس وتصـير بحيث تجيب دعوتك إذا دعوتها ، فإن الطيور من أشدّ الحيـوانات استعـداداً لذلـك ، ثم اجعل كل واحد منها على جبل ، ثم ادعهـا ، فإنها تُسْرِع إليـك من غير أنْ يمنعهـا تفرق أمكنتها وبعدها ، كذلك أمـر ربك إذا أراد إحيـاء الموتى ، يـدعوهم لكلمـة التكوين : « كونوا أحياء » ، فيكونون أحياء ، كما كان شأنه في بدء الخلقـة ، ذلك إذ قال للسموات والأرض : ﴿ ائتيا طَوعاً أو كَرْهاً ، قالتـا أتَيْنا طـائعين ﴾ قـال : والدليل على ذلك من الآية قولـه تعالى : ﴿ فَصُـرْهُنّ ﴾ ، فإن معنـاه « أملهن » ، أي أوجد ميلاً بها ، وآنسها بك ويشهد به تعديتـه بإلى ، فـإنّ صار إذا تعـدى بإلى كان بمعنى الأمالة »[٢] .

---

(١) معاني القرآن : ج ١ ص ١٧٤ . الشعر : « صَرَتْ نَـظَرة » : اي قطعت نـطرة ، أي فعلت ذلك ، والجوز وسط الشيء والعواصي جمع العاصي وهو العِرْق ، ويقال نعر العرق : فار منه الدم .

(٢) لاحظ تفسـير المنار ، ج ٣ ، ص ٥٥ـ٥٨ . وذكـر وجوهـاً في دعم هذه النـظرية التي نقلهـا عن أبي مسلم ، وقد استحسنها في آخر كلامه ، وقال : « ولله دَرّ أبي مسلم ، ما أدَقّ فهمه وأشدّ استقلاله فيه » .

يلاحظ عليه : إنّ ما ذكره خلاف نصوص الآية ، فإن إبراهيم طلب من الله سبحانه أنْ يُرِيَهُ كيف يحيي الموتى أولاً ، وأراد سبحانه ، بقرينة تخلل الفاء في قوله ﴿ **فخذ** ﴾ ، إجراء ذلك بيد إبراهيم ثانياً ، ثم أمره سبحانه أنْ يجعل كل جزء منهن على جبل ، لا كل واحد منهن عليه ثالثاً .

وهذه الوجوه تدعم صحة النظرية المعروفة في تفسير الآية . وأما تعدية ﴿ **صرْهُنّ** ﴾ بـ ﴿ **إليك** ﴾ ، فقد عرفت الكلام فيه ، وأنّه إن كان بمعنى الميل فالأمر بالتقطيع مقدّر ، وإن كان بمعنى القطع ، فالكلمة متضمنة لمعنى الميل .

على أنّه لو كان المراد ما اختاره من المعنى ، لما احتاج إلى هذا التفصيل ، بل يكفي في المقام إحالة إبراهيم إلى لاعبي الطيور ، الذين يربون الطيور ، حتى إذا استأنسوا بأصحابهن ، يفرقونهن للطيران ، ثم يدعونهن بالصفير والعلامات الخاصة ، فيأتين سعياً .

ولَعَمري ، إنّ هذا التفسير يَحُطّ من عظمة القرآن ، وجلالته ، ويفتح الباب للملحدين في تأويل ما دلّ عليه القرآن من معاجز وكرامات الأنبياء والرسل ، ولقد أعرب الكاتب عن باعثه في آخر كلامه بقوله : « وأمّا المتأخرون فهمّهم أنْ يكون في الكلام خصائص للأنبياء ، من الخوارق الكونية ، وإنْ كان المقام ، مقام العلم والبيان والإخراج من الظلمات إلى النور ، وهو أكبر الآيات ، الخ »[1] .

وهذا يعرب عن أن المعاجز بنظره ، تضاد العلم ولا تصلح للإخراج من الظلمات إلى النور ، مع أنه سبحانه أسماها بالبينات ، وقال : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسَعَ آياتٍ بَيِّناتٍ** ﴾[2] .

* * *

(١) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١٠١ ولقد خرجنا في تفسير الآية عمّا اتبعناه من الإيجاز إيعازاً للباحث بما في المنار وأمثاله من الدعوات التي لا تتفق مع مبادىء الإسلام ، وسيلاحظ نظيره في الآية التالية .

٢ ـ إحياء عُزَيْر

يحكي الذكر الحكيم أنّ رجلاً صالحاً مرّ على قرية خربة ، وقد سقطت سقوفها ، فتساءل في نفسه ، كيف يحيي الله أهلها بعدما ماتوا ؟ ، ولم يقل ذلك إنكاراً ولا تعجّباً ولا ارتياباً ، ولكنه أحَبّ أنْ يُرِيَهُ الله إحياءها مشاهدة ، مثل قول إبراهيم الذي تقدم ، فأماته الله مائة سنة ثم أحياه ، فسمع نداءً من السماء : « كم لبثت ؟ » ، فقال : « لبثت يوماً أو بعض يوم » ، لأنّ الله أماته في أول النهار ، وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار ، فقال : يوماً ، ثم التفت فرأى بقية من الشمس ، فقال : أو بعض يوم . فجاءه النداء بل لبثت مائة سنة ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم تغيّره السنون ، وقيل كان زادُه عصيراً ، وتيناً ، وعنباً ، وهذه الثلاثة أسرع الأشياء تغيّراً وفساداً فوجد العصير حلواً ، والتين والعنب جنيان لم يتغيّرا ، ثم أمر بأن ينظر إلى حماره كيف تفرقت أجزاؤه وتبدّدت عظامه ، فجعل الله سبحانه إحياءه آية للناس وحجة في البعث . ثم جمع الله عظام حماره وكساها لحماً وأحياه .

يقول سبحانه : ﴿ أو كالّذي مَرّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عُروشِها ، قال : أنّى يُحيى هذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فأماتَهُ الله مائةَ عامٍ ثُمّ بَعَثَهُ ، قال كَمْ لَبِثْتَ قال لَبِثْتُ يَوْماً أوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قال بَلْ لَبِثْت مائةَ عامٍ فانْظُرْ إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنّهْ ، وانْظُر إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً للنّاسِ ، وانْظُر إلى العِظَام كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمّ نَكْسُوهَا لَحْماً فلمّا تَبَيّنَ لَهُ ، قَالَ أَعْلَمُ أنّ الله على كُلّ شيْءٍ قديرٌ ﴾[1] .

والإمعان في قوله سبحانه : ﴿ فأماتَهُ الله مِائَةَ عامٍ ﴾ ، يُفيد أنه أماته سبحانه ، ثم أحياه بعد تلك المدة .

كما أنّ الإمعان في قوله : ﴿ وانْظُر إلى العِظَام ﴾ ، سواء أُريدَ منه عظام حماره أو غيره ، يفيد أنّه سبحانه كساها لحماً ثم أحياه ، فكان هناك إحياءٌ لميّتين .

وقد سلك صاحب المنار في تفسير الآية نفس المسلك السابق ، فحملها على

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

أنّ المراد من الإماتة هنا السُّبات ، وهو النوم المستغرق الذي سماه الله سبحانه : وفاة ، واستعان في تقريبه بأنّه قد ثبت في هذا الزّمان أنّ من الناس من تُحْفَظُ حياته زمناً طويلاً يكون فيه فاقد الحس والشعور ، فلبث الرجل الذي ضُرِب على سمعه مائة سنة ، غير محال في نظر العقل [١] .

يلاحظ عليه : إنّ تفسير الموت بالسُّبات يحتاج إلى دليل ، والظاهر منه هو الإماتة الحقيقية .

وقياس المقام بأصحاب الكهف ، قياس مع الفارق ، حيث إنه سبحانه يصرّح هناك بالسُّبات ، ويقول : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذانِهم في الكَهْفِ سِنينَ عَدَداً ﴾[٢] ويقول : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[٣] ، بخلاف المقام .

على أنه لا يتطرّق في العظام التي أنشَزَهَا ، ثم كساها لحماً وأحياها . فلا مصير لمفسّر كلام الله من الإذعان بالغيب ، والقدرة المطلقة لله جلّ وعلا . ومحاولةُ تفسير المعاجز بما ثبت في العلوم ، نوع انسحاب في الصراع مع الماديين المنكرين لكلّ ما لا يتّفق مع أصول العلم الحديث .

٣ ـ إحياء قوم من بني إسرائيل

ذكر المفسرون أنّ قوماً من بني إسرائيل فروا من الطاعون أو من الجهاد ، لما رأوا أنّ الموتَ كَثُر فيهم ، فأماتهم الله جميعاً ، وأمات دوابهم . ثمّ أحياهم لمصالح مذكورة في الآية التالية ، قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين خَرَجُوا من ديارِهِمْ وهُمْ ألوفٌ ، حَذَرَ المَوْتِ ، فقال لَهُمُ الله موتوا ، ثُمّ أَحْيَاهم ، إنّ الله لَذُو فَضْلٍ على النَّاس ولكِنّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكرونَ ﴾[٤] .

---

(١) المنار ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

(٢) سورة الكهف : الآية ١٨ .

(٣) سورة الكهف . الآية ١٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٤٣ .

والرؤية في الآية بمعنى العلم ، أي : « ألم تعلم » ، وذكر المُفَسّرون حول فرارهم من الموت ، وكيفية إحيائهم ، أموراً ، يرجع إليها في محلّها[1] .

والآية كما تثبت وقوع إحياء الموتى ، بعد إمكانه ، تثبت إمكان الرجعة إلى الدنيا ، على ما يتبنّاه الشيعة الإمامية ، كما هو الحال أيضاً في إحياء عزير ، وسيوافيك الكلام فيها بعد الفراغ من المعاد .

ومما يثير العجب ما ذكره صاحب المنار حيث قال : « الآية مسوقة سَوْق المَثَل ، والمراد بهم قومٌ هَجَم عليهم أُولوا القوة والقُدرة من أعدائهم لاستذلالهم واستخدامهم وبسط السلطة عليهم ، ، فلم يدافعوا عن استقلالهم ، وخرجوا من ديارهم وهم أُلوف ، لَهُمْ كثرة وعزة ، حذر الموت ، فقال لهم الله : موتوا موت الخزي والجهل ، والخزيُ موتٌ والعلم وإباء الضيم حياة ، فهؤلاء ماتوا بالخزي ، وتمكّن الأعداء منهم ، وبقوا أمواتاً ثم أحياهم بإلقاء روح النهضة والدفاع عن الحق فيهم فقاموا بحقوق أنفسهم واستقلوا في ذلك »[2] .

يلاحظ عليه : أولاً : إن الظاهر أنّ الآية تبيّن قصةً واحدة ، وهي فرار قوم من الموت ، فأماتهم الله ، ثم أحياهم ، لا بيان قصتين . بمعنى تشبيه من لم يدافعوا عن عزتهم ، وغلبوا ، وبقوا كذلك حتى نفث في روعهم روح النهضة ، فقاموا للدفاع ؛ بِقَوْمٍ فروا من الموت الحقيقي ، فأماتهم الله موتاً حقيقياً ، ثم أحياهم ، ولو كانت الآية جارية مجرى المَثَل لَوَجَبَ أنْ يكون هناك مشبّه ومشبّه به ، مع أنّ الآية لا تحتمل ذلك .

ولأجل ذلك نرى أنّه سبحانه عندما يريد التمثيل بمضمون آية يأتي بلفظ « مثل » ، ويقول : ﴿ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً ﴾[3] ؛ و﴿ إنّما مَثَلَ الحياةَ الدُّنيا كماءٍ أنزَلْنَاهُ ﴾[4] ؛ و﴿ مَثَلَ الذينَ حُمّلوا التَوْراةَ ثُمّ لَمْ يَحْمِلوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ

---

(١) لاحظ مجمع البيان، ج ١ ، ص ٣٤٦-٣٤٧ . وغيره .

(٢) المنار ، ج ٣ ، ص ٤٥٨-٤٥٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٧ .

(٤) سورة يونس : الآية ٢٤ .

أسفاراً ﴾[1] .

وثانياً : لو كان المراد من الموت ، موت الخزي ، ومن الحياة ، روح النهضة ، للزم على الله سبحانه مدحهم وذكرهم بالخير ، مع أنّه يذمّهم في ذيل الآية ، فإن فيها : ﴿ إنّ الله لَذُو فَضْلٍ على النّاسِ ولكنّ أكْثَرَ النّاس لا يشكُرُون ﴾ .

ثم إنّ صاحب المنار استعان في ردّ نظرية الجمهور ، بقوله سبحانه ﴿ لَا يَذُوقونَ فيها المَوْتَ إلا المَوْتَةَ الأولى ﴾[2] فلا حياة في هذه الدنيا إلا حياة واحدة[3] .

ولكن عزب عنه أنّ ما جاء في الآية يدل على سنّة الله تعالى في عموم الناس ، وهذا لا يخالف اقتضاء مصالح معيّنة ، أنْ يذوقَ البعض النادر منهم حياتين ، وقد وافاكَ الكلام في ذلك عند البحث في الحياة البرزخية .

٤ ـ إحياء قتيل بني إسرائيل

روى المفسرون أنّ رجلاً من بني إسرائيل قتل قريباً له غنياً ، ليرثه وأخفى قتله له ، ورغب اليهود في معرفة قاتله ، فأمرهم الله أنْ يذبحوا بقرة ، ويضربوا بعض القتيل ببعض البقرة ، ليحيا ويخبر عن قاتله ، وقد قاموا بذبح هذه البقرة بعد تساؤلات بينهم وبين موسى تكشف عن لجاجهم وعنادهم . ثم ضربوا بعض القتيل بها ، فقام حيّاً وأوداجه تشخب دماً ، وقال : « قتلني فلان ابن عمي » ، ثم قُبض . يقول سبحانه :

﴿ وإذ قالَ موسى لِقَوْمِهِ إنّ الله يَأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قالوا أتَتّخِذُنا هُزُواً ، قال أعُوذُ بالله أنْ أكون منا الجاهلينَ * . . . . * وإذ قَتَلْتُمْ نَفْساً فادّارأتُمْ فِيها والله مُخْرِجٌ ما كنتم تكتمون * فقلنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها ، كذلك يُحيي الله

---

(١) سورة الجمعة : الآية ٥ .

(٢) سورة الدخان : الآية ٥٦ .

(٣) المنار ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

المَوْتى ويُريكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقلونَ ﴾[1] .

إنّه سبحانه وإنْ كان قادراً على إحيائه من دون ذبح البقرة ، ولكنه أمرهم بذلك لأنهم سألوا موسى أنْ يُبَيِّنَ لهم حال القتيل وهم كانوا يَعُدّون القُربان من أعظم القربات .

فأمرهم الله بتقديم هذه القربة تعليماً منه لِكُلّ من اعتاص عليه أمر من الأمور ، أنْ يقدّم نوعاً من القرب قبل أنْ يسأل الله تعالى كَشْفَ ذلك عنه ، ليكون أقرب إلى الإجابة ، وإنما أمرهم بضرب بعض القتيل ، ببعض البقرة ، بعد أنْ جعل اختيار وقت الإحياء إليهم ، ليعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ على إحياء الموتى في كل وقت من الأوقات ، ومعنى قوله : ﴿ إضْربوه بِبَعْضِها ، كذلك يُحيي الله المَوْتى ﴾ ، إنهم ضربوه فأُحيي ، مثل قوله سبحانه : ﴿ إضْرِب بعصاكَ البَحْرَ ، فَانْفَلَقَ ﴾ ، أي فضربه فانفلق ، وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُحْيي الله ﴾ ، يراد منه تفهيم قوم موسى بأنّهم إذ عاينوا إحياء الميت ، فليعلموا أنّ الله قادر على إحياء الموتى للحساب والجزاء .

هذا ما ذهب إليه الجمهور في تفسير الآية ، وهو المتبادر منها ، وقد اتخذ صاحب المنار في تفسير الآية ، موقفه السلبي في باب المعاجز والكرامات ، فقال بعد ما ذكر نظرية جمهور المفسرين : « والظاهر مما قدمناه أنّ ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل ، إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ، ليعرف الجاني من غيره ، فمن غسل يده[2] وفَعَل ما رُسِم لذلك في الشريعة ، بريء من الدم ، ومن لم يفعل ، تثبت عليه الجناية . ومعنى إحياء الموتى على هذا ، حفظ الدماء التي كانت عرضة لأنْ تُسْفَك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس ، أي يحييها بمثل هذه الأحكام . وهذا الإحياء على حد قوله تعالى :

(١) لاحظ سورة البقرة : الآيات ٦٨-٧٣ .

(٢) لاحظ في كفية ذلك ، العهد القديم سفر التثنية : الأصحاح ٢١ ، ص ٢١١ ، ط دار الكتاب المقدس ، وحاصله أنّهم يغسلون أيديهم في دم عجلة ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر .

﴿ وَمَنْ أحياها فَكَأنّما أحيا النّاس جَميعاً ﴾[1] وقوله : ﴿ وَلَكُمْ في القِصَاصِ حَياةٌ ﴾[2] »[3] .

يلاحظ عليه : أوّلاً : إنّ هذا التفسير لا ينطبق على قوله : ﴿ فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها ﴾ ، فإنّ معناه : اضربوا بعضَ النّفس المقتولة ببعض جسم البقرة ، وأين هذا من غسل أيدي المتهمين في دم العجلة المقتولة ، فهل غسل الأيدي في دمها عبارة عن ضرب المقتول ببعض البقرة ؟!

وثانياً : إنّه سبحانه يقول : ﴿ كذلك يُحيِي الله المَوْتى وَيُريكُمْ آياتِهِ ﴾ ، فالقصة تتضمن آية من آيات الله ، ومعجزة من المعاجز ، فهل في غسل الأيدي بدم العجلة ودرء التهمة عن المتهم ، إراءة للآيات الإلهية .

وثالثاً : إنّ تفسير الآية بالإستناد إلى الإسرائيليات والمسيحيات ، مسلك ضال في تفسير كتاب الله العزيز ، وليس اللجوء إليها إلا لأجل ما اتخذه صاحب المنار من موقف مسبق تجاه المعاجز وخوارق العادات ، وإصراره على إرجاع عالم الغيب إلى الشهادة .

٥ ـ إحياء سبعين رجلاً من قوم موسى

ذكر المفسرون أنّ موسى عليه السلام إختار من قومه سبعين رجلاً حين خرج من الميقات ليكلمه الله سبحانه بحضرتهم ، فيكونوا شهداء له عند بني إسرائيل لعدم وثوقهم بأنّ الله سبحانه يكلّمه ، فلما حضروا الميقات ، وسمعوا كلامه تعالى سألوا الرؤية ، فأصابتهم الصاعقة فماتوا ، ثم أحياهم الله تعالى[4] ، يقول سبحانه :

﴿ وإذ قُلْتُمْ يا موسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى نَرى الله جَهْرَةً ، فَأخَذَتْكُمْ

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٧٩ .

(٣) لاحظ المنار ج ١ ، ص ٣٤٥ـ٣٥٠ .

(٤) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

الصاعِقَةُ وأنْتُمْ تَنْظُرونَ ، ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ واخْتارَ موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِميقاتِنا فَلَمّا أخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قال رَبِّ لَوْ شِئْتَ أهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإيّايَ ، أتُهْلِكُنا بما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا إنْ هِيَ إلا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بها مَنْ تَشاء وَتَهْدي مَنْ تَشاءُ ﴾[2] .

والمتبادر من الآية هو إحياؤهم بعد الموت ، والخطاب لليهود والمعاصرين للنبي باعتبار أسلافهم ، ولا يفهم أي عربي صميم من جملة : ﴿ ثُمَّ بَعَثْناكُمْ من بَعْدِ مَوْتِكم ﴾ : سوى الإحياء بعد الإماتة .

وقد اتخذ صاحب المنار في تفسير الآية موقفه المعلوم من المعاجز ، فذهب إلى أنّ المراد من البعث هو كثرة النّسل . أي إنّه بعدما وقع فيهم الموت بالصاعقة ، وظنّ أنْ سينقرضون ، بارك الله في نَسْلِهِم ، ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الأباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها[3] .

يلاحظ عليه : أوّلاً : إنّ الظاهر من قول موسى : ﴿ لَوْ شِئْتَ أهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، أنّه سبحانه أجاب دعوته ، وأحياهم حتى يدفع عنه عادية اعتراض القوم بأنّه ذهب بهم إلى الميعاد ، فأهلكهم . وهذا لا يتم إلا إذا كان المراد هو إحياؤهم حقيقة .

وثانياً : إنّ الرجفة لم تأخذ إلا سبعين رجلاً من قومه ، فليس في إهلاكهم مظنة انقراض نسلهم .

وعلى كل تقدير فالباعث لصاحب المنار على تفسيره ، هو جنوحه إلى إنكار المغيبات ، وتطبيق ما ورد في الذكر الحكيم على العالم الحسّي التجريبي .

٦ ـ المسيح يحيي الموتى

إنّ الكتاب الحكيم يذكر في غير مورد ، إحياء المسيح للموتى . قال تعالى

(١) سورة البقرة : الآيتان ٥٥و٥٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٥ .

(٣) تفسير المنار ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

حاكياً عنه : ﴿ أنّي قَدْ جِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أنّي أَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ فَأَنْفُخُ فيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإذنِ الله ، وأُبْرِءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ ، وأُحيي المَوْتى بِإِذْنِ الله ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ . . . وَتُبْرِءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وإذْ تُخْرِجُ المَوْتى بإذني ﴾[2] .

وقد تضافر في التاريخ والإنجيل والحديث ، قيام المسيح بإحياء الموتى مرات عديدة ، بحيث صار المسيح عَلَماً وسمة لإحياء الموتى ، وعلاج الأمراض المستعصية .

٧ ـ إيقاظ أصحاب الكهف

روى المفسرون أنّ فتيةً من قومٍ آمنوا بالله تعالى وكانوا يُخْفون إيمانهم خوفاً من مَلِكِهم ، الذي كان يعبد الأصنام ويدعو إليها ، ويقتل من خالفه ، والفتية كانوا على دين المسيح ، وكان كل واحد منهم يكتم إيمانه عن صاحبه . ثم اتفق أنّهم اجتمعوا وأظهروا أمرهم لبعضهم ، ولجأوا إلى كهف ، فضرب سبحانه على آذانهم ، فناموا في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم بعثهم . يقول سبحانه :

﴿ إذْ أوى الفِتْيَةُ إلى الكَهْفِ ، فقالوا ربّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أمِرنا رَشَداً * فَضَرَبْنا على آذانِهِمْ في الكَهْفِ سِنينَ عدداً * ثم بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصىٰ لما لَبِثوا أَمَداً ﴾[3] .

والمراد من الضرب على الآذان هو إنامتهم ، لا سلب حياتهم ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَتَحْسَبُهُم أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقودٌ ﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .
(٢) سورة المائدة : الآية ١١٠ .
(٣) سورة الكهف : الآيات ١٠ ـ ١٢ .
(٤) سورة الكهف : الآية ١٨ .

فإنامة الله سبحانه هؤلاء الفتية هذه المُدّة المديدة ، ثم إيقاظهم ، لا يقصر عن الإماته والإحياء ، والقادر عليه قادر على إحياء الموتى .

* * *

هذه النماذج المحسوسة من إحياء الموتى ، إذا انضمت إلي البراهين الناصعة الدالة على إمكان إحياء الموتى ، من طريق سعة قدرته سبحانه ، توجب القطع بإمكان المعاد ، وجمع العباد بعد موتهم ، للحساب والجزاء .

* * *

مباحث المعاد

(٦)

الموت نافذة إلى حياة جديدة

الموت آخر مرحلةٍ من مراحل الحياة الدنيوية ، وأوّل مرحلة من الحياة الأخروية . ولأجل التعرف على ما ورد حوله من الآيات ، نبحث عن الأمور التالية :

١ ـ الموت في اللغة والقُرآن .
٢ ـ هل الموت أمْرٌ عدمي أوْ وجودي ؟
٣ ـ الموتُ سنّة من سنن الله العامة .
٤ ـ لماذا يستوحش الإنسان من الموت ؟
٥ ـ الموت وأقسامه في القرآن .
٦ ـ الموت والأجل المسمى .
٧ ـ الإنابة حال الموت .
٨ ـ الوصية عند الموت .
٩ ـ جهل الناس بأوان موتهم .
١٠ـ الموت والملائكة الموكّلون بقبض الأرواح .

وفيما يلي نبحث عن كل واحدٍ منها .

* * *

الأمر الأول ـ « الموت » في اللغة والقرآن

قال في المقاييس : « الموت ، أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء ، منه : الموت خلاف الحياة »(١) . وهذا هو الأصل في استعماله ، فلو أطلق لفظ الموت على إطفاء النار ، وخروج الأرض من قابلية الزرع والاستصلاح ، أو على النوم . فالكل يرجع إلى ذلك الأصل .

قال في اللسان : « الموت يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة ، فمنها ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات ، كقوله تعالى : ﴿ يُحْيِي الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها ﴾ .

ومنها زوال القوة الحسيّة ، كقوله تعالى ـ حاكياً قول مريم عليها السلام ـ ﴿ يا لَيْتَني مِتُّ قَبْلَ هذا ﴾ .

ومنها زوال القوة العاقلة ، وهي الجهالة ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ ﴾ ، و﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتىٰ ﴾ .

ومنها الحزن والخوف المكدر للحياة ، كقوله تعالى : ﴿ ويأتيه الموتُ من كلّ مكانٍ وما هو بميّتٍ ﴾ .

وقد يستعار المَوْتُ للأحوال الشّاقة ، كالفقْرِ والذُّلّ ، والسؤال والهرم ، والمعصية »(٢) . فالإستعمال في الجميع بأصل واحد .

وقد استعمل القرآن لفظ الموت ـ كما عرفت ـ في موارد ، بهذا الملاك ، مثلاً يقول : ﴿ وآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾(٣) . ويقول في الأصنام : ﴿ أَمواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ ﴾(٤) . ويطلقه على المراحل المتقدمة من خلق الإنسان ، فيقول : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ﴾(٥) . فترى في الجميع نوع ذهاب وزوال ، إمّا للطاقة كما في

---

(١) مقاييس اللغة ، ج ٥ ، ص ٢٨٣ ، مادة موت .

(٢) لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، مادة موت . لاحظ بقية كلامه .

(٣) سورة يس : الآية ٣٣ .

(٤) سورة النحل : الآية ٢١ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٢٨ .

الأرض ، أو للقدرة على الحركة والتكلم ، كما في الأصنام ، وغير ذلك .

* * *

الأمر الثاني ـ هل الموت أمر عدمي ؟

إنّ ملاحظة المعنى اللغوي ، والإستعمال القرآني للفظ الموت ، يفيد أنّ الموت أمرٌ عدمي ، ولكنه من زاوية أخرى ، ليس أمراً عدمياً في موت الإنسان ، وذلك لو فُسِّر الموت بقبض الملائكة الطاقات الحسية الموجودة في الإنسان ، فإنّه أمرٌ وجوديٌّ ، وإن كانت النتيجة أمراً عدمياً .

ويمكن جعله أيضاً من الأمور الوجودية ـ في الإنسان ، بمعنىً آخر ، وهو أنّ الموت نافذة على الحياة الجديدة ، وانتقال من منزل إلى منزل ، وإلى ذلك لمحات في كلام الأئمة الأطهار من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله .

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : « أيّها الناس ، إنّا خُلِقْنا وإياكم للبقاء ، لا للفناء ، لكنكم من دار إلى دار تنقلون »[1] .

ويقول سيد الشهداء الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ـ مخاطباً أنصاره يوم عاشوراء ـ « صبراً بني الكرام ، فما الموت إلّا قنطرة تعبّر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة ، والنعيم الدائمة ، فأيُّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر » ؟[2] .

ويمكن جعله أمراً وجودياً أيضاً ، ببيان ثالث ، وهو أنّ الموت حَدّ الحياة الدنيوية ، وجدارها الذي إليه تنتهي .

أضف إلى ذلك أنّ الموت ربما يوصف بكونه أمراً عدمياً إذا نسب إلى الجسم ، وأمّا إذا نسب إلى الروح فلا يمكن تفسيره إلّا بأمر وجودي ، وهو انتقالها من مرحلة إلى مرحلة .

---

(١) الإرشاد ، للشيخ المفيد ، ص ١٢٧ .

(٢) معاني الأخبار ، للصدوق ، ص ٢٨٩

ولعلّه ـ لأحد هذه الوجوه ـ تعلق به الخلقُ في قوله سبحانه : ﴿ الذي خلَقَ المَوْتَ والحَياةَ ﴾[1] .

والتقدير في قوله سبحانه ـ في تقدير حياة الإنسان ـ : ﴿ نَحْنُ قَدّرنا بَيْنَكُمْ آلمَوْتَ وما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾[2] .

* * *

الأمر الثالث ـ الموت سنة عامة في الخَلْق

إن قوانين الديناميكا الحرارية تدلّ على أنّ مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وأنّها سائرة حتماً إلى يوم تَصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة البالغة الإنخفاض[3] . فيومئذٍ تنعدم وتستحيل الحياة ، وهذا ما كشف عنه العلم الحديث .

والقرآن يصف الموت سنة إلهية عامة ، فيقول في الإنسان : ﴿ أيْنما كُنْتُمْ يُدْرِكُّمْ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُم في بُروجٍ مُشَيّدةٍ ﴾[4] .

ويقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائقةُ آلمَوْتِ ﴾[5] ويقول : ﴿ وما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ ، أفَئِنْ مِتَّ فَهُمُ الخالِدونَ ﴾[6] .

ويقول الإمام علي عليه السلام : « ولو أنّ أحداً يجد إلى البقاء سُلّماً ، أو لِدَفعِ الموت سبيلاً ، لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام ، الذي سُخّرَ له مُلك الجنّ والإنس »[7] .

---

(١) سورة المُلك : الآية ٢ .

(٢) سورة الواقعة : الآية ٦٠ .

(٣) وهي الصفر المطلق .

(٤) سورة النساء : الآية ٧٨ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٨٥ .

(٦) سورة الأنبياء : الآية ٣٤ . ولاحظ الآيات التالية : آل عمران : الآية ١٥ ، الأحزاب : الآية ٦٠ ، الزمر : الآية ١٦ ، الواقعة : الآية ٨ ، الجمعة : الآية ٤٢ ، وغيرذلك .

(٧) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٢ .

وهناك آيات تدلّ على أنّ انهدام النظام أمر حتمي يوم القيامة ، وهو موته وسيجيء الكلام فيه في المباحث الآتية .

* * *

الأمر الرابع ـ لماذا يستوحش الإنسان من الموت ؟

إنّ للإنسان علاقة شديدة بالبقاء ، وهي ميل طبيعي يُحسّه بفطرته . وبما أنّ المَوْتَ يُضادّ تلك النَّغْمَةَ الفطرية ، فيجزع الإنسان العادي غير العارف بحقيقة الموت .

وعلى كل تقدير ، فالناس في الحياة الدنيا على قسمين ، قِسْمٍ يستوحش من الموت ، ويتصوره شبحاً مخيفاً ، يريد أن يقطع أنياط قلبه ويفترس حياته ، وهؤلاء بين من يرى الموت آخر الحياة ونفادها ، ويتخيّلون أنّ الموت إبطال لذواتهم وشخصياتهم ، ومن يعتقد أنّ الموتَ نافذة للحياة الأخرى ، من دون أن يستعدوا لتلك المرحلة بصالح الأعمال ، بل أثقلوا كواهلهم بالمعاصي والذنوب ؛ فالموت عندهم سمّ يتجرعونه .

يقول سبحانه تنديداً باليهود : ﴿ قُلْ إنْ كانت لَكُمُ الدارُ الآخِرَةُ عند الله خالِصَةً مِنْ دونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ *وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بما قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ ، وَالله عَلِيمٌ بالظالِمِينَ ﴾[١] .

وقسم آخر ، يشتاقون إلى الموت ويتلقونه بصدور رحبة ، ووجوه مشرقة ، لأنّهم يرونه انتقالاً من حياةٍ مُرّة إلى حياة حُلْوة ، وهؤلاء هُمُ الأنبياء والأولياء .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « ولولا الأجل الذي كُتِبَ عليهم ، لم تستقر أرواحُهُم في أجسادهم طرفة عينٍ شوقاً إلى الثواب ، وخوفاً من العقاب ، عَظُمَ الخالِقُ في أنفسهم ، فَصَغُرَ ما دونَه في أعينهم » .

---

١) سورة البقرة : الآيتان ٩٤ ـ ٩٥ ، ولاحظ الجمعة : الآيتان ٧ ـ ٨ .

الأمر الخامس ـ الموت وأقسامه

ينقسم الموت إلى أقسام نأتي بها فيما يلي :

أ ـ الموت السهل والموت العسير

لا شكّ أنّ الإنتقال من مرحلة إلى مرحلة أُخرى ، لا يخلو من مشقة ، حتى أنّ الطفل عندما ينتقل من عالم الأجنة إلى عالم الشهود ، يتحمل جهداً ومشقة بالغيْن . وللإنسان في إطار حياته في النشأتين مراحل حساسة تُعَدُّ كُلٌّ منها منعطفاً في مسيرته الوجودية، وهي : مرحلة التّولّد، ومرحلة الموت، ومرحلة البعث، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه : ﴿ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَموتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾[1] .

فالموتُ أحد هذه الحلقات الرئيسية في وجود الإنسان ، فهو لا يخلو بطبعه من مشقة وعسر ، ولكن لو غُضَّ البصر عنه ، فالموت حسب القرآن ينقسم إلى موت سهل وموت عسير :

الأول لصلحاء المؤمنين ، والثاني للعصاة والكافرين .

يقول سبحانه : ﴿ الذينَ تَتَوفّاهُمْ الملائِكَةُ طيّبينَ يقولونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلوا الجَنَّةَ بما كُنْتُم تَعْمَلونَ ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ يا أَيّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعي إِلَى رِبِّكِ رَاضِيةً مَرْضِيَّةً ﴾[3] .

ويقول سبحانه في العصاة والظالمين : ﴿ وجاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ذلكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحيدُ ﴾[4] .

---

(١) سورة مريم : الآية ١٥ ، ولاحظ مريم · الآية ٣٣ .
(٢) سورة النحل : الآية ٣٢ .
(٣) سورة الفجر : الآيتان ٢٧ و ٢٨ .
(٤) سورة ق : الآية ١٩ .

ويقـول سبحـانـه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَـوَفَّتْهُمْ آلمَـلاَئِكَـةُ يَضْرِبُـونَ وجـوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾[١] .

وفي الروايات الإسلامية أخبار كثيرة فيما قدمنا[٢] .

ب ـ موت البدن وموت القلب

وهناك تقسيم آخر للموت حسب متعلقه ، وهـو أنّه تـارة ينسب إلى الجسم والبدن ، وأخرى إلى القلب ومراكز الإدراك ، والأول هو الموت الطبيعي ، والثاني من شؤون بعض الأحيـاء ، إذا حَلّ الكفـرُ محلَّ الإيمـان ، والجهل مكـان العلم في قلوبهم ، فهؤلاء أمـوات بهذا النـظر ، وإن كانـوا أحياء مـاديين يـأكلون ويشربون ويتحركون ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتى ولا تُسْمِـعُ الصُمَّ الدُعـاءَ إذا وَلَوْا مُدْبِرينَ ﴾[٣] ويقول : ﴿ أَفَمَنْ كان مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُـوراً يَمْشي بِهِ في النّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها ﴾[٤] .

ولا يختص الموت بهذه الـطغمة الـظالمة ، بـل يعمّ المتخاذلـين المستبطئـين في الدفاع عن عِزِّهِمْ وكيانهم ، ليعيشوا أياماً أو أعوامـاً صاغـرين ، فهؤلاء أموات في منطق الإمام علي عليه السلام ، كما أنّ المُتفانين في حفظ عزّتهم وكرامتهم أحيـاء ، وإن تَضرَّجـوا بدمـائهم في سوح الجهـاد ، يقول عليـه السـلام : « فـالمَـوْتُ ، في حياتِكُمْ مقهورين . والحياة ، في موتكم قاهرين »[٥] .

كما أنّ من لا يحسّ بالمسؤولية أمام المجتمع ، ويترك الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر بعامة مراتبها ، مَيِّتُ الأحياء ، يقول علي عليه السلام : « ومنهم تـاركٌ لإنكار المنكر بلسانه ، وقلبه ويده ، فذلك ميّت الأحياء »[٦] .

---

(١) سورة محمد : الآية ٢٧ .

(٢) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٦ ص ١٢٢ ـ ١٥٤ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٠ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ . ولاحظ الروم : الآية ٥١ ـ ٥٢ .

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة ٥١ .

(٦) نهج البلاغة ، قسم الحكم ، الرقم : ٣٧٤ .

ج ـ موت الفرد والمجتمع

إنّ للفرد شؤوناً من أوج وحضيض ، وَرُقِيٍّ وهبوط ، وموت وحياة ، كما أنّ للمجتمع نفس تلك الشؤون ، حرفاً بحرف .

مثلاً : إنّ الثورة نواة تنبت وتشتد وتستوي وتأخذ لنفسها حالة الهجوم والاندفاع ، ولا تبرح على تلك السِّمة حتى تنتقل إلى حالة أخرى ، تأخذ لنفسها حالة الدفاع ، وردّ السِّهام الموجهة إليها . ولن تبرح على تلك الحالة حتى يَنْجَرَّ أمرها إلى الإنكسار والإنقراض .

ونظير ذلك جميع الحضارات البشرية ، والمناهج الإقتصادية والسياسية الإنسانية ، فلكُلٍّ منها حالات ثلاث : هجوم ، دفاع ، خمود .

فكما أنّ لكل فرد حياةً وموتاً وأجلاً حسب القرآن ، كذلك إنّ للمجتمع حياةً وموتاً وأجلاً .

يقول سبحانه : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فإذا جاءَ أَجَلُهُمْ ، لا يَسْتَأْخِرونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمونَ ﴾[1] .

ويعود القرآن ليبين ، عامل تدمير الحضارات والمجتمعات والأنظمة البشرية ، ويركز منها على الظلم بالأخص ، وعلى الإتراف ثانياً ، فالظلم خروج عن الحدّ الوسط ، والإتراف هو الإنهماك في المعاصي ، وكلاهما يعجل في هلاك المجتمع واندثاره .

يقول سبحانه : ﴿ وما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرى بِظُلْمٍ وأَهْلُها مُصْلِحونَ ﴾[2] . ويقول أيضاً : ﴿ وإذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفيها (بالطاعة) فَفَسَقُوا فيها ، فَحَقَّ عليها القَوْلُ ، فَدَمَّرْناها تَدْميراً ﴾[3] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ القُرونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وكفى بِرَبِّكَ

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٤٣٧ . ولاحظ سورة يونس : الآية ٤٩ .

(٢) سورة هود : الآية ١١٧ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٧ .

بِذُنوبِ عِبادِهِ خَبيراً بَصيراً ﴾[1] . والإمعان في هـذه الآية يُفيـد أنّ الظلم والفسق والذنوب ، مدمرات للمجتمع[2]

د ـ موت العِزّ وموت الهوان

ينقسم الموت إلى موت عِـزٍّ وموتِ هـوانٍ ، فالفـادون أنفسهم في طريق نشر القسط والعدل والعلم وسائـر المباديء الإلهيـة يموتـون موت عـزّ وشرف ، والذين يقاتلون في سبيل الطاغوت ونشر الشرّ والجهـل والفساد ، لغـاية نيـل أجور ضئيلة ومناصب مؤقتة ، يموتون موت الهوان والذلّ والعار .

يقول سبحانه : ﴿ ولا تَقُولوا لِمَنْ يقْتَل في سبيـلِ الله أمواتٌ ، بَـلْ أحياءٌ ، ولكن لا تَشْعُرونَ ﴾[3] .

ويقول سبحانـه فيمن خرج طـالباً للعلم والإيمـان : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِـهِ مهاجراً إلى الله ورسولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ على الله ﴾[4]

* * *

الأمر السادس ـ الموتُ والأجل المُسَمّى

يقسم القرآن الأجل إلى أجل ، وأجلٍ مسمى ، وبيانه :

إنّ لكل نوع من أنواع الموجـودات الحيّة ، بـل مطلق المـوجودات ، قـابلية خاصة لإدامة الحياةوالوجود. ومن هذا ، ما يقال إنّ العمر الـطبيعي للإنسـان هو

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٦ .

(٢) وأما ماهي الصلة بين هذه العوامل وتدمير المجتمع وانحلاله ، فهو يحتاج إلى بيان خارج عن موضوع الكتاب ، غير أنّا نقول إجمالاً : إنّ بين هذه العوامل وإهلاك المجتمع ، رابطة مادية وطبيعية ، وفي الوقت نفسه رابطة إلهية ، فالوقوف على العلل المادية لا يغني عن الإذعان بأنّ هناك رابطة غيبيـة بين هذه العلل ومعلولها .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٤ . ولاحظ سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٠٠ ، ولاحظ سورة الحج الآية ٥٨ .

مائة وعشرون سنة ، فالإنسـان ـ بما هـو إنسان ـ قـابل لأن يعيش هـذا المقدار من الزّمن . وفي ضوء ذلك ، لكلّ إنسـان « أجل » ، بهـذا المعنى ، ولكنه ليس أجـلاً حتمياً وقطعياً ، بل قد يَنْقُصُ عَنْهُ أو يزيد عليـه لعوامـل خاصـة في حياتـه ، فَرُبَّ إنسان يموتُ في العقـد الخامس أو السـادس من عمره ، وهـو أجلٌ حتمي ومسمى له ، مع أنّ الأجل المُطْلَقَ كان أزيد منـه . وربّ إنسان يعيش أزيـد من هذا الحَـدّ الـطبيعي ، ويموت في العقـد الخامس عشر من عمـره ، وهو أجَـلٌ حتميٌ ومسمىً له ، وإن كانَ الأجلُ المطلق أنقص منه .

والأجـل المطلق يعـرفه غـيره سبحانـه ، ولكنّ الأجل الحتمي عنـده ، فهـو الذي يعرف الحَدّ الذي تقف فيـه حياة كـل إنسان ، ولا تتجـاوزه قطعـاً ، يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِنْ طينٍ ، ثُمّ قَضى أَجَلاً ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ، ثم أَنْتُم تَمْتَرون ﴾[1] .

* * *

الأمر السابع ـ الإنابة عند الموت

قد عرفت أنّ قسماً من النّاس يخـافون من المـوت لِما علمـوا من أنّ كواهلهم مثقلة بعـظائم الذنـوب ، أو لاعتقادهم بـأنّه خـاتمة المـطاف في الحيـاة البشريـة . والصنف الأول ، إذا فوجئوا بالمـوت ، يلجأون إلى التـوبة والإنـابة ، ويندمون ، ولكن لات حـين مندم ، فـإنّهم قد ضَيّعـوا الفُرَصَ ، والتـوبة إنّمـا تُقْبـل إذا كـان الإنسـان ذا مقدرة عـلى الفعل والـترك والـطاعـة والعصيـان ، فيُـرَجِّـحَ بـاختيـاره الإنقياد ، على المخالفة ، وهذا من تُقْبَل توبته ، لأنّ الإنابة في هذا المقام ، تكشف عن تحول روحي ، وثورة نفسانية على المعصية والتمـرد والتجرّي ، وأمّـا إذا وصل الإنسان في مدارج حياته إلى نقطة ليس أمامها إلاّ طريق واحد ، وهو ترك التمرّد ،

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٢ . وبما أنّ الكلام فيه قد سبق في الجزء الأول من هذا الكتاب « الإلهيات » ، ص ٥٨٦ـ٥٩٠ ، فقد إكتفينا بهذا المقدار .

لفقدان القوة والـطاقة ، فـلا تقبل التـوبة عنـد ذاك ، لأنّها لا تكشف عن انقلاب روحي نحو الكمال ، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه :

﴿ وَلَيْسَتِ التَوْبَةُ للذين يَعْمَلونَ السَّيئاتِ ، حتى إذا حَضرَ أَحَدَهُمُ آلمَوْتُ ، قال إنّي تُبْتُ الآن ﴾[1] .

وقد ندم طاغية مصر ، فرعون ، عندما وافـاه الغرق ، وأَحَسّ بـالعجز عن استمـراره بالعصيـان فأسلم ، وقـال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إلـهَ إلَّا الذي آمَنَتْ بِـهِ بَنُو إسْرائيلَ ، وأنا مِنَ المُسْلِمين * الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدينَ ﴾[2] .

وقد كان الطغاة من الأُمم السالفة على هذا النمط ، فلا يلجأون إلى الإنـابة إلّا بعدما يروا بأس الله تعالى ، يقول سبحانه :

﴿ فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بما كُنّـا بِهِ مُشْرِكـينَ ، فَلم يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمّا رَأَوا بَأْسَنا ﴾[3] .

يقول الإمام علي عليه السلام : « فهو يعضّ يده ندامةً على ما أصحر له عند الموت من أمره »[4] .

* * *

الأمر الثامن ـ الوصية عند الموت

لا ينبغي لامرىءٍ مسلم أن يبيتَ ليلةً إلّا ووصيته تحت رأسه[5] .

ومع ذلك ربما يترك الإنسان هذه الفريضة ، فله الإيصاء حال الموت .

يقـول سبحانـه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذا حَضرَ أَحَـدَكُمُ آلمَـوْتُ إنْ تَـرَكَ خَيْـراً

---

(١) سورة النساء : الآية ١٨ .

(٢) سورة يونس : الآية ٩ .

(٣) سورة غافر : الآيتان : ٨٤و٨٥ .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٩ .

(٥) وسائل الشيعة ، ج ١٣ ، كتاب الوصايا ، الباب الأول ، الحديث ٧ .

آلوَصِيَّةُ ﴾(١) والُمراد من الخَيْر هو المال .

ويقـول سبحانـه : ﴿ يا أَيُّهـا الذينَ آمَنـوا شهـادةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضرَ أَحَـدَكُمُ المَوْتُ ، حِينَ آلوَصِيَّةِ ، إِثنان ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ . . . ﴾(٢) .

❋ ❋ ❋

الأمر التاسع ـ جهل الناس بأوان موتهم

إقتضت الحكمة الإلهية جهل الناس بزمان ومكان موتهم ، وذلك لوجهين :

أ ـ لو علم الإنسان بزمن موته ، فربما يفشل في العمـل قبل أن يحـلّ أجله ، فإنّ العامـل الباعث إلى العمـل والنشاط في الحيـاة ، هو الأمـل ، فالأمـل رحمة ، ولولاه لما أرضعت والدة ولدها ، ولا غرس غارس شجرة(٣) .

ب ـ إنّ لجهل الإنسان بأوان موته ومكانه ، تأثيراً تربوياً ، فإنّه لو علم بأنّـه سيموت بعد عام أو أشهر ، فترك التمرّد والتجري ، فلا يعد ذلك كمـالاً روحياً ، وثورة للفضائل على الرذائل ، وهـذا بخلاف مـا إذا سلك طريق الـطاعة ، وتـرك المعصية ، وهو يرجو العيش أعواماً طويلة ، فإنّه يكشـف عن كمال روحي ، يدفعه نحو الفضائل ، يقول سبحانه : ﴿ وَمَا تَدْري نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَموتُ ﴾(٤) .

❋ ❋ ❋

الأمر العاشر ـ الملائكة المُوكّلونَ بقبض الأرواح

قد عرفت أنّ الخلق والتدبير من شؤونه سبحـانه ، فهـو القائـل عزّ وجـلّ :

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٠ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١٠٦ .

(٣) سفينة البحار ، مادة : « أمل » .

(٤) سورة لقمان ، الآية ٣٤ ، وهاهنا وجه ثالث وهو أنّ علم الإنسـان بزمن مـوته يُشَجّعـه على الفجـور والعصيان متكلاً على التوبة والإنابة قَبْلَ مدّةٍ من حلول أجله .

﴿ أَلا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ ، تَبارَكَ الله رَبُّ العالَمِينَ ﴾[1] . غير أنّ كونه مدبّراً لا ينافي أن يكون هناك أسبابٌ غيبيّة أو طبيعية لقبض الأرواح فإنّه أيضاً من شؤون التدبير . فَتَوَفّي الأنفس وأخذها ، فعلٌ لله سبحانه ، وفي الوقت نفسه فعلٌ للملائكته ، يقول سبحانه : ﴿ الله يَتوفّى الأَنْفُسَ حين مَوْتِها ﴾[2] .

وفي الوقت نفسه ينسبه إلى الملائكة ، ويقول : ﴿ الذينَ تَتَوَفّاهُمْ الملائِكَةُ ﴾[3] .

وفي موضع ثالث ينسبه إلى ملك الموت ، ويقول : ﴿ قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الذي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[4] .

والنِّسَبُ كُلُّها صحيحة ، أخذاً بما ذكرناه في أقسام التوحيد من أنّ شيئاً واحداً يكون فعلاً لله سبحانه ، وفي الوقت نفسه فعلاً لعباده ، وقد تقدّم ذلك مفصّلاً .

* * *

---

(1) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .
(2) سورة الزمر : الآية ٤٩ .
(3) سورة المائدة : الآية ١١٧ .
(4) سورة السجدة : الآية ١١ .

مباحث المعاد

(٧)

الحياة البرزخية

البرزخ هو المنزل الأول للإنسان بعد مفارقة الدنيا بالموت ، وتحقيق الحال يتوقف على تبيين معنى البرزخ ، وإثبات الحياة في تلك النشأة التي هي قبل البعث يوم القيامة .

قال إبن فارس في المقاييس : « البرزخ : الحائل بين الشيئين ، كأنّ بينهما بِرازاً أي متسعاً من الأرض ، ثم صار كل حائِل برزخاً فالخاء زائدة لما ذكرنا »[١] .

ويقول إبن منظور في اللسان : « البرزخ : ما بين شيئين . وفي الصحاح الحاجز بين شيئين . والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة : قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ »[٢] .

هذا معنى البرزخ وبه يفسر قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[٣] . والوراء في الآية بمعنى الأمام كما في قوله سبحانه : ﴿ وكان وراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفينَةٍ غَصْباً ﴾[٤] .

---

(١) المقاييس ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .
(٢) لسان العرب ، ج ٣ ، مادة برزخ ، ص ٨ .
(٣) سورة المؤمنون : الآية ١٠٠ .
(٤) سورة الكهف : الآية ٧٩ .

والآية لا تفيد أزيد من وجود الفاصل ، والحاجز بين الدنيا والقيامة ، مثل قوله سبحانه : ﴿ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ ﴾[1] . ولا تدل على وجود حياة في هذا الفصل .

نعم ، هناك آيات يستفاد منها وجود حياة واقعية للإنسان في تلك النشأة ، نذكر منها ما يلي :

١ ـ قال تعالى : ﴿ قالوا رَبّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وأَحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ ، فَهَلْ إلى خُرُوجٍ من سَبيلٍ ﴾[2] ؟

وهذه الآية تحكي عن تحقيق إحياءَين وإماتتين إلى يوم البعث ، وقد اختلف المُفَسِّرونَ في تفسيرهما ، والمروي عن ابن عباس أنّ الإماتة الأولى ، حال كونهم نُطَفاً ، فأحياهم الله في الدنيا ، ثم أماتهم الموتَةَ الثانية ، ثم أحياهم للبعث ، فهذان إحياءان وإماتتان ونظيره قوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرونَ بالله وَكُنْتُمْ أمواتاً فأَحْياكُم ثُمّ يُميتُكُمْ ثُمّ يُحييكُمْ ثُمّ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3]

يلاحظ عليه : إنّ الآية الثانية ليست نظير الآية الأولى حتى تُفَسّر بها ، فإنّ الآية الثانية ، تصف الناس بكونهم أمواتاً ، وهو ينطبق على الإماتة في حال كون الإنسان نطفة أو قبل ذلك ، بخلاف الآية الأولى فإنّها تحكي عن إماتة الإنسان ، والفرق بين الموت والإماتة واضح ، فالأحوال المتقدمة على النطفة ، ونفسها ، توصف بالموت ، دون الإماتة . فلأجل ذلك لا يصح تفسير الإماتة بما جاء في هذا القول .

والظاهر أنّ المراد هو ما يلي :

الإماتة الأولى هي الإماتة عن الحياة الدنيا .

والإحياء الأوّل هو الإحياء في البرزخ ، وتستمر هذه الحياة إلى نفخ الصور الأول .

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٢٠ .

(٢) سورة غافر : الآية ١١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٨ .

والإمـاتة الثـانية ، عنـد نفخ الصـور الأول ، يقول سبحـانه : ﴿ ونُفِـخَ في الصُّورِ فَصَعِق مَنْ في السَّمواتِ والأرْض ﴾[1] .

والإحيـاء الثاني ، عنـد نفخ الصـور الثاني ، يقـول سبحانـه : ﴿ ونُفِخَ في الصُّور فإذا هُمْ مِنَ الأجداثِ إلى رَبّهِمْ يَنْسِلونَ ﴾[2] .

وتعـدد نفخ الصـور يستفاد من الآيتـين ، فيترتب عـلى الأول هـلاك من في السمـوات ومن في الأرض ، إلا من شـاء الله ، وعـلى الثـاني قيـام النـاس من أجداثهم ، وفي أمر النفـخ الثاني يقـول سبحانـه : ﴿ وَنُفِخَ في الصُّـورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمـعاً ﴾[3] .

ويقـول سبحانـه : ﴿ فـإذا نُفِـخَ في الصُّـور فـلا أنْسـابَ بَيْنَهُمْ يَـومَئِـذٍ ولا يَتَساءَلونَ ﴾[4] . واختلاف الآثار يدل على تعدد النفخ .

وعلى ضوء هذا فللإنسـان حياة بعـد الإماتـة من الحياة الـدنيا ، وهي حيـاة برزخية متوسطة بين النشأتين .

٢ ـ قوله سبحانه : ﴿ مِمّا خِطيئاتِهِمْ أُغْرِقُـوا فَأُدْخِلُوا نـاراً فَلَمْ يَجِدوا لَهُمْ مِنْ دونِ الله أنْصاراً ﴾[5] .

وهذه الآية تدل على أنهم دخلوا النار بعد الغـرق بلا فصـل للفاء في قـوله : ﴿ فأُدْخِلُوا ﴾ . ولو كـان المراد هـو نار يـوم القيامـة لكان الـلازم الإتيان بـ « ثم » أوّلاً ، وارتكـاب التـأويـل في قـولـه ﴿ فـأُدْخِلوا ﴾ ، حيث وضـع المـاضي مكـان المستقبل لأجل كونه محقّق الوقوع ، وهو خلاف الظاهر ، ثانياً .

٣ ـ قـوله سبحـانه : ﴿ آلنَّـارُ يُعْرَضـونَ عَلَيْها غُـدُوّاً وَعَشِيّاً ، وَيَـوْمَ تَقومُ

---

(١) سورة الزمر : الآية ٦٨ .
(٢) سورة يس : الآية ٥١ .
(٣) سورة الكهف : الآية ٩٩ .
(٤) سورة المؤمنون : الآية ١٠١ .
(٥) سورة نوح : الآية ٢٥ .

السَّاعَةُ ، أَدْخِلوا آل فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذابِ ﴾[١] .

وهـذه الآية تحكي عـرض آل فرعـون على النـار صباحاً ومسـاءً ، قبل يـوم القيامة ، بشهادة قوله بعد العرض : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ . ولأجل ذلك ، عبّر عن العـذاب الأول بالعـرض على النـار ، وعن العذاب في الآخـرة ، بإدخـال آل فرعون أشدّ العذاب ، حاكياً عن كون العذاب في البرزخ ، أخَفُّ وطأً من عذاب يوم الساعة .

نعم ، هناك آيات تدلّ على حياة الإنسان في هذا الحدّ الفـاصل بـين الدنيـا والبعث ، حياة تناسب هذا الظرف ، تقدّم ذكرها عند البحث عن تجـرّد النفس ، ونكتفي هنا بهذا المقدار ، حذراً من الإطالة .

وأمّا من السنة ، فنكتفي بمـا جاءَ عن الصـادق عليه السـلام ، عندمـا سُئِل عن أرواح المؤمنـين ، فقـال : « في حجـرات في الجنـة ، يـأكلون من طعـامهـا ، ويشربون من شرابها ، ويقولون ربّنا أَتِمَّمْ لنا الساعة وأنجز ما وعدتنا » .

وسُئِل عن أرواح المشركين ، فقال : « في النار يُعَذَّبون ، يقولون لا تُقِم لنـا الساعة ، ولا تُنْجِز لنا ما وعدتنا »[٢] .

السؤال في القبر وعذابه ونعيمه

إذا كانت الحياة البرزخية هي المرحلة الأولى من الحياة بعد الدنيا ، يظهر لنا أنّ مـا اتّفق عليه المسلمـون من سؤال الميت في قبره ، وعـذابه إن كـان طـالحـاً ، وإنعـامه إن كـان مؤمناً صـالحاً ، صحيـحٌ لا غُبـار عليـه ، وأنّ الإنسـان الحي في البرزخ مسؤول عن أمور ، ثم معذّب أوْ مُنَعَّم .

قال الصدوق في عقائده : « إعتقادنا في المسألة في القبر أنّها حقّ لا بُدّ منها ، ومن أجاب الصواب ، فاز بروْحٍ وريحان في قبره ، وبجنة النعيم في الآخرة ، ومن

---

(١) سورة غافر : الآية ٤٦ .

(٢) البحار ، ج ٦ ، باب أحوال البرزخ ، ص ١٦٩ ، الحديث ١٢٢ ، وص ٢٧٠ ، الحديث ١٢٦ .

لم يُجب بالصواب ، فله نُزُل من حميم في قبره ، وتَصْلِيَةُ جحيمٍ في الآخرة »[1] .

وقال الشيخ المفيد : « جاءت الآثار الصحيحة عن النبي أنّ الملائكة تنزل على المقبورين فتسألهم عن أديانهم ، وألفاظ الأخبار بذلك متقاربة ، فمنها أنّ مَلَكَيْنِ لله تعالى ، يقال لهما ناكِر ونَكير ، ينزلان على الميت فيسألانه عن رَبّه ونبيّه ودينه وإمامِه ، فإن أجاب بالحق ، سلّموه إلى ملائكة النعيم ، وإن أُرْتِج سلّموه إلى ملائكة العذاب . وفي بعض الروايات أن اسمي المَلَكَيْنِ الذين ينزلان على الكافر ، ناكر ونكير ، واسمي المَلَكَيْنِ الذين ينزلان على المؤمن مُبَشّر وبشير » . إلى أن قال :

« وليس ينزل المَلَكان إلاّ على حيٍّ ، ولا يسألان إلاّ مَنْ يفهم المسألة ويعرف معناها ، وهذا يدلّ على أنّ الله تعالى يحيي العبد بعد موته للمسألة ، ويديم حياته لنعيم إن كان يستحقه ، أو لعذاب إن كان يستحقه »[2] .

وقال المحقق الطوسي ، في التجريد « وعذاب القبر واقع ، للإمكان ، وتواتر السمع بوقوعه » .

وقال العلامة الحلي ، في شرحه : « نقل عن ضرار أنّه أنكر عذابَ القبر ، والإجماع على خلافه »[3]

والظاهر اتّفاق المسلمين على ذلك ، يقول أحمد بن حنبل : « وعذاب القبر حق ، يُسأل العبد عن دينه وعن ربه ، ويرى مقعده من النار والجنة ، ومنكر ونكير حق »[4]

وقد نسب إلى المعتزلة إنكار عذاب القبر ، والنسبة في غير محلها ، وإنّما المنكر واحدٌ منهم ، هو ضرار بن عمرو ، كما تقدم ، وقد تاب عن الإعتزال ولحق بالمجبرة ، قال القاضي عبد الجبار في فصل عذاب القبر : « وجملة ذلك أنّه لا

(١) عقائد الصدوق ، ص ٨١ ، من الطبعة الحجرية الملحقة بشرح الباب الحادي عشر .
(٢) شرح عقائد الصدوق : ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٣) كشف المراد ، ص ٢٦٦ ، ط صيدا ، ولاحظ إرشاد الطالبين ، ص ٤٢٥ .
(٤) السنة ، لأحمد بن حنبل ، ص ٤٧ ، ولاحظ الإبانة للأشعري ، ص ٢٧ .

خلاف فيه بين الأمّة إلاّ شيء يحكى عن ضرار بن عمرو ، وكان من أصحاب المعتزلة ثم التحق بالمُجبِرة ، ولهذا ترى ابن الراوندي يشنع علينا ، فيقول : إنّ المعتزلة ينكرون عذاب القبر ولا يقرّون به » ، ثم استدلّ بآيات على حياة الإنسان في البرزخ[1] .

هذا كلّه ممّا لا ريب فيه ، إنّما الكلام فيما هو المراد هنا من القبر ، والإمعان في الآيات الماضية التي استدللنا بها على الحياة البرزخية ، والروايات الواردة حول البرزخ ، يعرب بوضوح عن أنّ المراد من القبر ، ليس هو القبر المادي الذي يدفن فيه الإنسان ، ولا يتجاوز جثّته في السَّعة ، وإنّما المراد منه هو النشأة التي يعيش فيها الإنسان بعد الموت وقبل البعث ، وإنّما كنّي بالقبر عنها ، لأنّ النزول إلى القبر يلازم أو يكون بدْءً لوقوع الإنسان فيها .

والظاهر من الروايات تعلّق الروح بأبدان تماثِلُ الأبدان الدنيوية ، لكن بلطافة تناسب الحياة في تلك النشأة ، وليس التعلق بها ملازماً لتجويز التناسخ ، لأنّ المراد من التناسخ هو رجوع الشيء من الفعلية إلى القوة ، أعني عودة الروح إلى الدنيا عن طريق النطفة فالعلقة ، فالمضغة إلى أن تصير إنساناً كاملاً ، وهذا منفي عقلاً وشرعاً ، كما سيوافيك . ولا يلزم هذا في تعلّقها ببدن ألطف من البدن المادي ، في النشأة الثانية .

قال الشيخ البهائي : « قد يتوهم أنّ القول بتعلق الأرواح ، بعد مفارقة أبدانها العنصرية ، بأشباح أُخر ـ كما دلّت عليه الأحاديث ـ قولٌ بالتناسخ ، وهذا تَوَهُّمٌ سخيف ، لأنّ التناسخ الذي أطبق المسلمون على بطلانه ، هو تعلّق الأرواح بعد خراب أجسادها ، بأجسام أُخر في هذا العالم ، وأمّا القول بتعلّقها في عالم آخر ، بأبدان مثالية ، مدّة البرزخ ، إلى أن نقوم قيامتها الكبرى ، فتعود إلى أبدانها الأوّلية بإذن مُبْدِعها ، فليس من التناسخ في شيءٍ »[2] .

قال الرازي : « إنّ المسلمين يقولون بحدوث الأرواح وردّها إلى الأبدان ،

---

(١) شرح الأُصول الخمسة ، ص ٧٣٠ .

(٢) البحار ، ج ٦ ، ص ٢٧٧ .

لا في هـذا العالم ، والتنـاسخية يقـولون بقـدمها ، وردّهـا إليها ، في هـذا العالم ، وينكرون الآخرة والجنة والنار ، وإنّما كَفَّروا من أجل هذا الإنكار »[1] .

نَفْـــخُ الصّـــور

إنّ الإنسان الذي يعيش في هـذا الكوكب ، بـالنسبة إلى المعـارف الغيبية ، كالجنين في بطن أُمّه ، فلو قيل له إنّ وراء الرحم أَنْجُماً وكواكب وشموساً وأقماراً ، وبحاراً ومحيطاتٍ ، لا يفقـه منها شيئـاً ، لأنّها حقائق خـارجة عن عـالمه الضيّق ، والإنسان الماديّ القاطن في هذا الكوكب لا يفقه الحقائق الغيبية الموجودة وراء هـذا العالم ، فلأجل ذلك لا مناص له من الإيمـان المجرّد من دون تعمق في حقيقتهـا ، وهذا أصل مفيد جداً في باب المعاد ، وعلى ذلك تبتني مسألة نفخ الصور ، فـما هو المراد من الصور ، أهو شيءٌ يشابه البوق المتعارف أو شيء غيره ؟ وما هو المـراد من النفخ ؟ لا مناص لنا من الإعتقاد بوجوده وتحققه ، وإنْ لم نتمكن من التعرف عـلى واقعيته ، ومع ذلك فلا بُدّ أن تكون هناك حقيقة واقعية ، لها صلة بين نفخ الصور في هذا العالم ، ونفخه في النشأة الأُخرى .

تَدُلُّ الآيات على أنّ الإنسان يعيش في البرزخ إلى أن يفاجئـه نفخ الصـور ، فعند ذلك يهلك كل من في السموات والأرض إلّا من شـاء الله ، يقول سبحـانـه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمـواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلَّا مَنْ شاءَ الله ، ثُمَّ نُفِخَ فيهِ أُخْرى فإذَا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرونَ ﴾[2] . ففي النفخ الأول موت كـل ذي حياة في السَّموات والأرض ، كما أنّ في النَّفْخِ الثاني ، إحياءَهم .

يقـول سبحـانـه : ﴿ وَنُفِـخَ فِي الصُّـــورِ فـإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْـــدَاثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلونَ ﴾[3] .

* * *

(١) نهاية العقول ، للرازي ، البحار ، ج ٦ ، ص ٢٧٨ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٨ .

(٣) سورة يونس : الآية ٥٢ . والآية ناظرة إلى النفخ الثاني .

ما ذكرناه في هذا البحث تصوير وترسيم للنشأة التي يمرّ بها الإنسان بعد موته إلى أنْ يقوم من جدثه ، ويحشر إلى الله تعالى . وفي البحث القـادم تصويـرٌ لمشاهـد القيامة ، من بـداية وقـوعها إلى أنْ يحـاسب الإنسان ويصـير إلى مآلـه من الجنة أو النار .

* * *

مبـاحث المعاد

(٨)

أشـــــراط السـاعـة

الشَرَط ـ بالتحريك ـ : العلامة ، والجمع أشراط ، وأشراط الساعة : أعلامها[١] .

والمراد من أشراط الساعة العلامات والآيات التي تخبر عن دنو القيامة ، وقربها ، وهي مأخوذة من الذكر الحكيم ، قال سبحانه : ﴿ فَقَدْ جاءَ أشْراطُها ﴾[٢] .

وهذه العلامات بعضها مذكور في الكتاب العزيز ، وبعضها مذكور في السُّنة فنبحث عن كلا القسمين على وجه الإجمال .

وأمّا مشاهد القيامة ، فهي الحوادث الهائلة التي تقع في نفس قيام الساعة ، التي وردت في سور التكوير والإنفطار والإنشقاق وغيرها ، كتكوير الشمس وانكدار النجوم وانفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتسجير البحار وتفجيرها ، وغير ذلك . فالكل من مشاهد القيامة التي نأتي بها في بحث خاص وإليك الكلام في أشراط الساعة الواردة في الكتاب .

---

(١) لسان العرب ، ج ٧ ، ص ٣٢٩ ، مادة شرط .

(٢) سورة محمد : الآية ١٩ .

أشراط الساعة في الكتاب

جاء في الذكر الحكيم أُمور يستظهر منها أنّها من أشراط الساعة ، والآيات الواردة في هذا المجال بين واضحة الدلالة وغيرها .

أ ـ بعثة النبي الأكرم

يقول سبحانه : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرونَ إلاَّ السَّاعَةَ ، أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُها ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جاءَتْهُمْ ذِكراهُمْ ﴾[1] .

إنّ هذه الآية تندد بالمشركين بأنّهم لا يؤمنون ، ولا ينتظرون شيئاً إلّا القيامة أن تأتِيَهُمْ فجأة حتى يؤمنوا ، ولكن لا يفيدهم عندها إيمانُهم ، ومن أين لهم التذكّر والإتعاظ والتوبة إذا جاءَتْهم الساعة بغتة . ومع ذلك كله فليعلموا أنّ الساعة ، وإن لم تأتهم ، ولكن قد جاءتهم أشراطها وعلاماتها ، فعليهم أن يَتّعظوا بذلك .

والآية غير متضمنة لتعيين ما جاء من الأشراط ، لكن قال ابن عباس : « والنبيُّ من أَشْراطِها ، ولقد قال بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين »[2] .

وكون بعثة النبي من معالم الساعة ، لا ينافي وجود هذه الفترة الطويلة بينه وبين القيامة ، وذلك لأنّ ما مضى من عمر الأرض والمجتمع الانساني أزيد بكثير مما بقي منه ، فيصحّ جعل ظهوره من معالم الساعة .

ويحتمل أن يكون المراد من أشراط الساعة التي جاءتهم إنشقاق القمر بيده ، ونزول القرآن الذي هو آخر الكتب[3] .

ب ـ إندكاك السدّ وخروج يأجوج ومأجوج

جاء في الذكر الحكيم أنّ ذا القرنين وصل في مسيره إلى قوم طلبوا منه أن

---

(١) سورة محمد : الآية ١٨ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ١٠٢ .

(٣) لاحظ المصدر السابق نفسه .

يبني لهُمْ سدّاً يحجز عنهم يأجوج ومأجوج ويقيهم شرهما ، فقام ذو القرنين بعمليـةٍ كبيرة ، حيث سدّ ما بين الجبلين ـ الذي كان طريق نفوذهما ـ بزُبَرِ الحديد ثم أنجز عملية بناء السدّ بما يحكيه تعالى من قـوله : ﴿ حَتى إذا سـاوَى بَيْنَ الصَّـدَفَيْنِ قـالَ انْفُخوا ، حتى إذَا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتوني زُبُرَ الحديدِ أُفْرِغْ عَلَيْه قِطْراً ﴾[1] .

فلما فرغ من بناء السدّ قال :

﴿ هذا رَحْمَةٌ من ربّي ، فإذا جاءَ وَعْدُ ربّي جَعَلَهُ دَكّاءَ وكانَ وَعْدُ رَبّي حَقّاً * وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئذٍ يَموجُ في بَعْضٍ ، وَنُفِخَ في الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً ﴾[2] .

وقـوله : ﴿ وَتَـرَكْنا بَعْضَهُمْ يَـوْمَئِـذٍ يَمـوجُ في بَعْضٍ ﴾ ، يعـرب عن كـون اندكاك السَّدِّ من أشراط الساعة[3] . والمراد أنّه بعد انقضاء أَمْرِ السَّـدِّ يموج بعض الناس في بعض ، فَيَرْتفـع من بينهم النُّظُمُ ، ويَحْكُمْ فيهـم الهـرج والمرج ، ويـظهر هذا أيضاً من آية أخرى ، أعني قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فُتِحَتْ يَأْجُـوجُ ومَأْجُـوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلونَ * واقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فإذَا هي شاخِصَةٌ أَبْصارُ الذينَ كَفَروا يا وَيْلَنا قَدْ كُنّا في غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنّا ظالِمِينَ ﴾[4] .

فمفادها أنّه عندما ينفرج سدّ يأجوج ومأجـوج ، يتفرق المحجـوزون خلف السدّ ، في الأرض ، فلا ترى أكمةً إلاّ وقوم منهم يهبطون منها ، وعند ذلك يقترب الوعد الحق ، أي قيام الساعة . فيكون اندكاك السدّ وانتشار يـأجوج ومـأجوج في الأرض من أشراط الساعة ، لحكايته عن اقتراب الوعد الحقّ ، وهذا هـو المراد من أشراط الساعة .

ج ـ إتيان السماء بِدُخان مبين

إنّ الصناعات البشريـة أوّجدت قلقـاً في الحياة ، ولـوثت البيئـة في الأرض

---

(١) سورة الكهف : الآية ٩٦ .

(٢) سورة الكهف : الآيتان ٩٨ و ٩٩ .

(٣) ويمكن جعله من أشراطها على حـدة ، فإنّها تحكي عن عمـوم حالـة الفوضى والهـرج والمرج العـالَمَ بأسره .

(٤) سورة الأنبياء : الآيتان ٩٦ و ٩٧ .

بالأدخنة المتصاعدة من معاملها ، والإبخرة المتطايرة من موادها . ولكنها إلى اليوم ليست إلى الحدّ الذي يزاحم الحياة ، والله يعلم مآل الأمور .

ولكنه تعالى يخبر عن حدوث دخان في السماء ، يَغْشى الناس ، ويكون عذاباً أليماً لهم ، يقول تعالى : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِين * يَغْشىٰ النَّاسَ هذا عَذابٌ أَليمٌ * رَبَّنا اكْشِفْ عنّا العَذابَ إِنّا مُؤْمِنونَ * أَنّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسولٌ مُبينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالوا مُعَلَّمٌ مَجْنونٌ * إِنَّا كاشفوا العذابِ قليلاً إِنَّكُمْ عائِدونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرى إِنّا مُنْتَقِمونَ** ﴾(١) .

إنّ في تفسير الآية وجهين :

الوجه الأوّل - إن مجموع هذه الآيات راجعة إلى عصر النبي ، وذلك أنّ رسول الله دعا على قومه لمّا كذّبوه ، فقال : أللهم سنيناً كَسِنيِّ يوسف ، فَأَجْدَبَتِ الأرض وأصابت قُرَيْشاً المجاعة ، وكان الرجل لِما به من الجوع ، يرى بينه وبين السماء كالدخان ، فجاؤوا إلى النبي وقالوا : يا محمد ، جئت تأمر بصلة الرحم وقومك قد هلكوا . فسَأَلَ الله تعالى لهم بالخصب والسعة ، فكشف عنهم ، ثم عادوا إلى الكفر(٢) .

يلاحظ على هذا الوجه : **أولاً** ، إنّ ظاهر الآية أنّ السماء تأتي بدخان مبين ، وتحدثه ، وهو غير تجلّي السماء بصورة الدخان في عين الجائع ، الذي هو انخداع الحواس لغلبة الجوع ، من دون أنْ يكون هناك دخان في الواقع .

وثانياً : إنّ أصحاب السِّيَر النبوية لم يذكروا شيئاً عن هذا الجوع المُدْقِع الذي أحدق بقريش وأوجد فيهم سنيناً كسني يوسف .

وثالثاً : إنّ ما جاء في القصة ، لا يناسب خُلُقَ النبيِّ وعطفه على قومه ، وكونه رحمة للعالمين ، كيف وقد قال سبحانه : ﴿ **وما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأَنْتَ**

---

(١) سورة الدخان : الآيات ١٠-١٦ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٦٢ ، وتفسير الطبري ، ج ١٥ ، ص ٦٦ . وبهذا المضمون روايات أُخر في المصدرين .

فيهِمْ ، وما كانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وهم يَسْتَغْفِرونَ ﴾[1] وهـو صلوات الله عليه وآلـه ، لم يدع عليهم في غزوة أُحُـدْ ، مع أنّهم شَجّـوا جبهته وكسروا أسنـانه ، وضرّجـوا وجهه بالدماء .

فهذه الأمور ، توجب عدم الإطمئنان إلى هذا الوجه .

الـوجه الثـاني : إنّ مفاد الآيـة يرجـع إلى أشراط الساعـة ، وأنه قبـل قيـام البعث يغشى الناس دخان مبين . ويؤيّد ذلك أنّ الآية تتضمن ذكر يومين :

١ ـ يومٌ تأتي السماء فيه بدخان مبين .

٢ ـ ويوم يبطش فيه الرب تعالى البطشة الكبرى .

وبما أنّ البطشـة الكبرى راجعـة إلى يوم البعث الـذي يأخـذ فيـه الله تعـالى الظالمين والكافرين بشدة وقدرة ، يكون ذلك قرينة على أنّ ما يقع في اليوم الأول ، من أشراط الساعة ، فيومٌ تظهر فيه آية الساعة وعلامتهـا ، ويوم تتحقق فيـه نفس الساعة .

وأمـا على التفسـير الأول ، فلا منـاص ، من جعل اليـوم الأول يـوم طـروء الجـوع في مكة ، واليـوم الثاني يـوم غلبة النبي عـلى قريش في بـدر ، ولا يخفى أن تفسير اليومين بهذا النحو يحتاج إلى دليل .

ويؤيّد المعنى الثاني مـا روي عن حُذيفـة بن اليَمان ، مـرفوعـاً : أوّلُ الآيات الدّجال ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوقُ الناس إلى المحشر ، تُقيلُ معهم إذا قالوا ، والدُّخان . قال حذيفة : يا رسول الله ، وما الدُّخان ؟ فتلا رسـوا الله صـلى الله عليـه وآلـه الآيـة : ﴿ **فَـارْتَقِبْ يَـوْمَ تَـأْتِي السَّـماء بِـدُخَـانٍ مُبِينٍ** . . ﴾ ، يملأ ما بين المشرق والمغرب ، يمكث أربعين يـوماً وليلةً ، أمـا المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام ، وأما الكـافر بمنـزلة السكـران يخرج من منخـريه وأذنيـه ودُبُره[2] .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٣ .

(٢) تفسير الطبري ، ج ٢٥ ، ص ٦٨ . والدر المنثور ، ج ٦ ، ص ٢٩ .

نعم بقي هنا شيء وهو أنّه لو كان صدر الآيات راجعاً إلى أشراط الساعة ، فما معنى قوله سبحانه : ﴿ إنّا كاشِفوا العذابِ قَليلاً إنّكُمْ عائِدون ﴾ . فإنه بالمعنى الأوّل ألصق .

ولكن يمكن أن يقال : إن الجملة الخبرية متضمنة لقضية شرطية ، وهي أنه حتى لو كشفنا عنهم العذاب ، لعادوا لما كانوا عليه من العصيان نظير قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ رُدّوا العَادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وإنّهُمْ لكاذِبونَ ﴾[1] .

د ـ نزول المسيح

يقول سبحانه : ﴿ وَلّمَا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون * وقالوا ءَآلِهَتُنا خَيرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلاّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَني إسْرائِيلَ * وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً في الأرضِ يَخْلُفُونَ * وإنّه لَعِلْمٌ السَّاعَةِ ، فَلاَ تَمْتَرُنَّ بها ، واتّبِعونِ ، هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾[2] .

روى المفسرون أنه لما نزل قوله سبحانه : ﴿ إنّكم وما تعبُدُونَ مِنْ دون الله حَصَبُ جهَنّم ﴾[3] ، أحدثت قريش ضجة ، وقاموا يجادلون النبي فقالوا : قد رضينا بأنّ تكون آلهتنا كذلك ، حيث يكون عيسى أيضاً مثلهم ، وقالوا ـ كما يحكيه سبحانه عنهم : ـ ﴿ ءَآلهتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ ، فليست آلهتنا خيراً من عيسى ، فإن كان عيسى في النار ، فكذلك آلهتنا .

فأجاب سبحانه بأنّهم ما ضربوا هذا المثل إلا للمجادلة والمخاصمة ، وأنهم قوم خَصِمون لا يتطلبون الحق . ثم أخذ بتوصيف عيسى بن مريم وتبيين مقامه فقال : ﴿ وإنّه لَعِلْمٌ للسّاعَةِ ﴾ ، أي إنّ وجود عيسى في ظرف من الظروف ، يُعْلَمُ به قُرْب الساعة ، فلا تكذبوا بها .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٢٨ .

(٢) سورة الزخرف : الآيات ٥٧ ـ ٦١ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٩٨ .

فالآية تدل على أنّ وجود عيسى في ظرف من الظروف يعلم به دنو السّاعة ، وأما ظرفه ، فالظاهر من الروايات هو نزوله بعد خروج الإمام المهدي عليه السلام[1] .

وللآية تفسير آخر ، يطلب من مظانّه[2] .

هـ ـ إخراج دابة من الأرض

قال تعالى : ﴿ وإذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً من الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أنّ النّاسَ كانوا بآياتِنا لا يُوقِنونَ ﴾[3] .

وتوضيح الآية يتوقف على إيضاح أمور :

١ ـ ما هو المراد من قوله : ﴿ إذا وَقَعَ ٱلقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؟ .

٢ ـ ما هو المراد من الدابة المخرجة من الأرض ؟

٣ ـ بماذا تتكلم هذه الدابة ، وماذا تقول ؟

٤ ـ ما هو موضع قوله سبحانه في الآية : إنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ؟ فهل هو يحكي قول الدابة ، أو هو تعليل لصدر الآية (وقوع القول عليهم) .

٥ ـ ما هو المراد من الآيات ؟

٦ ـ ما هو الهدف من إخراج الدابة ؟

٧ ـ ما هو زمان إخراجها ؟

والحقّ أنّ هذه الآية ، إحدى الآيات التي يحيق بها الإبهام من جهة أو جهات ، وليس لها في القرآن ما يشابهها في المضمون ، حتى يستعان به على

---

(١) لاحظ ما أوردناه من الروايات في بحث الإمامة .

(٢) لاحظ مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٣٥٨ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٢ .

تفسيرها ، فلا مناص من الإمعان فيها نفسها ، أو اللجوء إلى الروايات الواردة حولها ، فنقول :

أما السؤال الأول ، فالمراد من وقوع القول عليهم ، هو استحقاقهم للعذاب ، يظهر ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَوَقَعَ القَوْلُ عَلَيْمْ بِما ظَلَموا فَهُمْ لا يَنْطِقونَ ﴾[١] . وليس المراد من القول ، القول اللفظي ، بل القول التكويني المساوق لِتحَقُّق العذاب ، وحصوله في الخارج . وقد عرفت أنّ العالَم فعلُ اللّهِ سبحانه ، وفعلَهُ كلامُهُ ، والآيتان نظير قوله سبحانه : ﴿ أفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب ، أفَأنْتَ تُنْقِذُ مَنْ في النّارِ ﴾[٢] .

وأما الثاني فالدابة في اللغة والقرآن تطلق على كل ما يُدبّ على الأرض ، يقول سبحانه : ﴿ وما مِنْ دابّةٌ في الأرْضِ إلاّ على اللّهِ رِزْقُها ﴾[٣] . ولا يظهر من نفس الآية أنّه من أي نوع من الدواب ، أهو إنسان أو حيوان ، فلا مناص من الرجوع إلى الروايات التي نشير إلى مصادرها آخر البحث .

غير أنّه يمكن أنْ يقال إن « الدابة » استعملت في القرآن كثيراً في المعنى العام ، فإطلاقها على نوع خاص منه كالإنسان ، يحتاج إلى قرينة .

أضف إلى ذلك أنّه ربما استعمل في مقابل الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ . . . . والدوابُّ وكثيرٌ من الناسِ ﴾[٤] وفي آية أُخرى : ﴿ ومن النّاس والدَّوابِّ ﴾[٥] . وهذا يدفعنا إلى القول بأنّ المراد من الدابة هو غير الإنسان .

وأما الثالث : فلا يظهر من الآية شيء في جوابه إلاّ احتمال أن يكون مقول كلامها هو ما جاء في ذيل الآية من قوله ﴿ إنّ النّاسِ كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ . وقد ورد في بعض الروايات مضمون كلامها الذي تتكلم به .

---

(١) سورة النمل . الآية ٨٥ .

(٢) سورة الزمر : الآية ١٩ .

(٣) سورة هود : الآية ٦ .

(٤) سورة الحج : الآية ١٨ .

(٥) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

وأما **الرابع** ، فيحتمل أنْ يكون قوله : ﴿ **إنّ النّاس** ﴾ مقولاً لكلامها ، كما يُحتمل أنْ يكون تعليلاً لفرض العذاب عليهم ، الذي يدل عليه صدر الآية ، فكأنه يقول : حق عليهم العذاب لأنهم كانوا بآياتنا لا يوقنون ، ويؤيّد هذا الوجه قراءة ﴿ إنّ ﴾ بالكسر ، التي تجعلها جملة مستأنفة ، واقعة موقع التعليل .

وأما **الخامس** ، فيحتمل أنْ يكون المراد من الآيات هو الآيات الكونية والأنفسية الواردة في قوله سبحانه : ﴿ **سَنُريهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِمْ حتّى يَتَبيّنَ لَهُمْ أنّهُ الحَقُّ ، أوَلَمْ يَكْفِ بِرَبّكَ أنّهُ على كُلّ شيءٍ شَهيدٌ** ﴾[1] .

كما يحتمل أنْ يكون المُراد من الآيات ، المعاجز وخوارق الآيات التي جاءت بها الأنبياء ، وإطلاق الآية على المعجزة في القرآن ، كثير .

ويحتمل أن يكون المراد ، الكتب السماوية ، فإنها آيات إلهية .

ولا يظهر من الآية شيء في تعيين أحد هذه الاحتمالات ، إلّا أنّه يمكن تاييد الإحتمال الثالث بقوله سبحانه في آية سابقة عليها : ﴿ **إنّ هذا القُرآن يَقُصُّ على بَني إسرائيل أكْثَرَ الذي هُمْ فيهِ يَخْتَلِفُونُ** ﴾[2] .

وأما **السادس** ، وهو الهدف من إخراج الدابة ، فيمكن أنْ يكون إعلام دُنُوّالسّاعة ، كما يمكن أنْ يكون لأجل تمييز المؤمن من الكافر ، وغير ذلك من الأهداف التي وردت فيها الروايات .

وأما **السابع** ، وهو زمان الإخراج فسياق الآيات يثبت أنّها تقع قبل يوم القيامة ، عند دنوّها لقوله سبحانه بعدها : ﴿ **ويَومَ نَحْشُرُ مِنْ كُلّ أُمّةٍ فَوْجاً مِمّنْ يُكَذّبُ بآياتنا فَهُمْ يوزَعونَ** ﴾[3] . فبما أنّ الثانية تقع قبل القيامة ، فسياق الكلام يقتضي كون الأولى كذلك .

ويتحصّل من الإمعان في الآيات أنّه سبحانه يحكي في لفيف منها عن أمور

---

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ .

(٢) سورة النمل : الآية ٧٦ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٧ .

ثلاثة ، الأولين راجعان إلى ما قبل القيامة ، ويعدّان من أشراطها ، والثالث إلى نفس القيامة .

فالأول ، هو وقع القول على الكافرين وخروج الدابة .

والثاني ، هو حشر فوج من كلّ أمة .

والثالث ، هو نفخ الصُّور ، أعني قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ ﴾[1] .

وعلى ضوء ذلك يمكن عدّ الأوّل والثاني من أشراط الساعة[2] .

و ـ مجيء بعض آيات الربّ تعالى

يقول سبحانه : ﴿ هل يَنْظُرون إلا أنْ تَأتِيَهُمُ المَلائِكَةُ أوْ يَأتِيَ رَبُّكَ أوْ يأتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أوْ كَسَبَتْ في إيمانِها خَيْراً ، قُلْ انْتَظِروا إنّا مُنْتَظِرونَ ﴾[3] .

الإستفهام في الآية إنكاري ، وقع في مقام يعرب عن عدم نفع العظة ونجاح الدعوة ، وأنّ المخاطبين كانوا في عناد ولجاج إزاء دعوة النبي الأكرم ، كما هو الظاهر من الآيات المتقدمة عليها ، فإنّه يقول :

﴿ أن تَقولوا إنّما أُنْزِلَ الكِتَابُ على طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا . . . ﴾ .

﴿ أو تقولوا لَوْ أنّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ ، لَكُنّا أَهْدى مِنْهُمْ . . . ﴾ .

ففي هذا السياق ورد قوله سبحانه :

﴿ هَلْ يَنْظُرونَ ﴾ ، أي هؤلاء لا ينتظرون إلا أُموراً تترجح بين كونها موجبة لهلاكهم أو كونها أمراً محالاً في نفسه ، أوْ غير ناجعة في إيمانهم عند وقوعها .

---

(١) سورة النمل : الآية ٨٣ .

(٢) ومن أراد التبسط في الآية ، فعليه الرجوع إلى المصادر التالية : تفسير الطبري ، ج ٢٠ ، ص ١٠-١٢ . الدر المنثور ، ج ٥ ، ص ١١٦ . تفسير البرهان ، ج ٣ ، ص ٢٠٩-٢١١ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥٨ .

فالأوّل ، هو قوله تعالى : ﴿ **أنْ تَأتِيَهُمُ الملائِكَةُ** ﴾ ، فإنّ نزولَ الملائكة عليهم يلازم هلاكهم . يقول سبحانه : ﴿ **ما نُنَزِّلُ الملائكَةَ إلاّ بالحَقِّ وما كانوا إذاً مُنْظَرينَ** ﴾[1] .

والثاني،هو مجيء الربّ ومشاهدته بأُمّ أعينهم ، وهو أمْر محال . وإنْ أُريد منه يوم اللقاء ،الذي ينكشف منه الغطاء ، ويتجلى سبحانه بأسمائه وصفاته ، تجلّياً لا يبقى معه ريب ولا شك ، فلا ينجع إيمانهم عند ذاك .

والثالث ، وهو مجيء بعض آياته ، فهو مردد بَيْن أن يكون المراد منه الموت الذي تتبدل فيه نشأة الحياة إلى نشأة أُخرى ، أو يكون المراد هو خروج الدابة عند دنو الساعة الذي مضى البحث عنه ، وعند ذلك تكون الآية ناظرة إلى بعض أشراط الساعة .

وعلى كلا المرادَيْنَ ، لا ينفع بعدهما الإيمان والإستغفار . . .

قال الطبرسي : « المراد الآيات التي تضطرهم إلى المعرفة ، ويزول التكليف عندها (لا ينفع نفساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمنت من قَبْلُ) لأنّه ينسد باب التوبة بظهور آيات القيامة »[2] .

روى العيّاشي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ، في تفسير الآية ، قولها : « طلوعُ الشمس من المغرب ، وخروج الدابة ، والدخان ، والرّجُل يكون مُصراً ولم يعمل على الإيمان ثم تجيء الآيات ، فلا ينفعه إيمانه »[3] .

هذا بعض الكلام حول أشراط الساعة الواردة في آيات الذكر الحكيم .

وأما الروايات ، فنقتبس منها ما يلي :

١ ـ روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أسيد الغفاري : إطّلع رسول الله صلى الله عليه وآله علينا ونحن نتذاكر فقال : ما تذكرون ؟ قلنا : نذكر

---

(١) سورة الحِجر : الآية ٨ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

(٣) البحار ، ج ٦ ، ص ٣١٢ ، الحديث ١٣ .

الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فَذَكَرَ : الدُّخان ، والدجّال ، والدابّة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسفٌ بالمشرق ، وخسفٌ بالمغرب ، وخسفٌ بجزيرة العرب ، وآخِرُ ذلك نارٌ تطردُ النّاس إلى محشرهم[1] .

٢ ـ روى القمي في تفسيره عن عبد الله بن عباس ، قال : حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله حجة الوداع ، فأخذ باب الكعبة ، ثم أقْبَلَ علينا بوجهه ، فقال : ألا أُخْبِرُكُم بأشراط الساعة ، وكان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رضي الله عنه ، فقال : بلى يا رسول الله .

فقال : إنّ من أشراط القيامة ، إضاعة الصلاة ، واتباع الشهوات ، والميل مع الأهواء ، وتعظيم أصحاب المال ، وبيع الدين بالدنيا ، فعندها يذاب قلب المؤمن وجوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أنْ يُغَيِّره . . . . لاحظ بقية الحديث[2] .

* * *

(١) جامع الأصول ، ج ١١ ، ص ٨٧ ، الحديث (٧٨٩٨) . ورواه الصدوق في الأمالي ، وقال في آخره : ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تنزل معهم إذا نزلوا ، وتقبل معهم إذا اقبلوا (البحار ، ج ٦ ، ص ٣٠٣) .

(٢) البحار ، ج ٦ ، الحديث ٦ ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٩ . وقد روى المجلسي في الجزء السادس من بحاره ، في باب أشراط الساعة ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦ ، اثنين وثلاثين حديثاً . وما نقلناه نموذج من تلك الأحاديث ، كما روى الجزري ، في الجزء الحادي عشر من جامع الأصول ، في الباب المعقود لبيان أشراط الساعة ، ص ٧٤ ـ ٩٤ ، مائة وستة أحاديث .

مشاهد البعث والقيامة

لقد تعرّفت على أشراط الساعة التي تخبر عن دنوّها ، كتاباً وسنةً ، وهي غير نفس القيامة ، فإنها الأمور الكونية التي تُدَبِّر النـظام السائـد ، ليؤسس بعده نـظام جديد لمحاسبة العباد ، وجزائهم ، وقد أكثر الذكر الحكيم من نقل وتصوير مشاهد القيامة في سوره القصار .

وبعد تلك الحوادث المريعة ، تتلاحق مواقف العالم الأخروي ، إلى أن يَـرِدَ الخلق إلى مثواهم الأخير ، وفيما يلي نستعرضها واحدةً بعد الأُخرى .

١ ـ إنهدام النظام

تظافرت الآيات القرآنيـة على أن البعث لايقـوم على هـذا النظام السـائد ، وإنما يقوم على نظام جديد ، وهـو لا يتحقق إلا بتلاشي النظام الموجـود وانهدامه . والقرآن يخبر عن مشاهد ذاك الإنهدام الكوني العام ، فيحـدّث عن انشقاق السـماء وانفـطارها ، وتكـوير الشمس ، وانكـدار النجوم وتنـاثرهـا ، وامتـداد الأرض ، وتفجير البحار وتسجيرها ، وتسيير الجبال حتى تكون كالعهن المنفوش ، وغير ذلك من المشاهد المروعة للقلوب[١] .

(١) لاحظ سـور التكوير ، والانفطار ، والإنشقاق والقارعة وغيرها .

٢ ـ خروج الناس من القبور

ويستعقب ذلك مشهد آخر ، ألا وهو خروج الناس من الأجداث .

يقول سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ فإذا هُمْ من الأجداثِ إلى رَبّهم يَنْسَلونَ * قالوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ، هذا ما وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ ﴾[١]

وبعد ذلك يُدْعى الناس إلى الحساب ، وموقف العرض ، وهو مشهد أشدّ في النفس هولاً ممّا سبق ، لِعَظم الحسرة والخوف الحاكمين على القلوب آنئِذٍ ، يقول سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدّاع إلى نُكُرٍ * خُشّعاً أبْصارُهُمْ ، يَخْرُجونَ مِنَ الأجْداثِ كأنّهم جرادٌ مُنْتَشِر * مُهْطِعِينَ إلى الدّاعِ يقولُ الكافِرونَ هذا يَومٌ عَسِرٌ ﴾[٢] .

﴿ لكلِّ امرىء مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنيه ﴾[٣] .

* * *

٣ ـ إعطاءُ الكُتُبِ

وبعد خروج الناس من القبور ، وإحضارهم إلى موقف المحاكمة ، ووقوفهم على صعيد الحساب ، تنشر الصحف ﴿ وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾[٤] فيأخذ كلّ إنسان كتابه الذي دُوّنَ فيه ـ بيد الحفظة من الملائكة ـ ما عَمِلَهُ من صغير وكبير ، فمنهم من يتلقاه بيمينه ، ومنهم من يتلقاه بشماله .

يقول سبحانه :

﴿ فأمّا مَنْ أُوتي كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسيراً * وَيَنْقَلِبُ إلى

---

(١) سورة يس : الآيتان ٥١ و٥٢ .

(٢) سورة القمر : الآيتان ٦ ـ ٨ . ولاحظ الزلزلة الآية ٦ .

(٣) سورة عبس . الآية ٣٧ .

(٤) سورة التكوير : الآية ١٠ .

أهله مَسروراً * وأمّا من أوتيَ كِتَابَهُ وراء ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثبوراً ﴾[1] .

* * *

٤ ـ الحِساب والشهود

وبعد تناول الصحف يبدأ الحساب ، وهو مشهد مُرَوِّعٌ للقلوب وَمُقَطِّعٌ للأرواح ، إنّه مشهد القضاء على الناس بشهود لا يتطرق إلى شهادتهم ريب ولا يُتّهمون بكذب . وهم بين شاهد خارجي كالله سبحانه ، والأنبياء ، والملائكة ، والأرض ، وداخلي كالأعضاء والجوارح حتى جلد البدن .

وهناك نوعُ آخر من الشهود لا يشابه القسمين ، وهو تجسّم أعمال الإنسان بوجود يناسب تلك النشأة وهذا نظير عرض صور الجريمة ووقائعها التي التقطت عند ارتكاب المجرم لها ، أو بثّ الشريط الذي سجل فيه كلام المعتدي بالسبّ والوقيعة ، وإن كان هناك فرق بين المُمَثّل والمُمَثَّل له .

وبذلك لا يجد المجرم لنفسه إلا الإعتراف بالذنب والتقصير والجُرأة ، لثبوت الجرم عليه بوجه لا يقبل الإنكار ، وإليك عرض هؤلاء الشهود في ضوء آيات القرآن الكريم ، مقدّمين الشهود الخارجين على الداخليين .

الشاهد الأول ـ الله سبحانه

من عجيب الأمر أنّ الله سبحانه هو القاضي والحاكم بين العباد ، وهو بنفسه أيضاً شاهد على أعمالهم ، يقول سبحانه : ﴿ إنّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ إنّ اللّهَ على كلّ شيءٍ شَهِيدٌ ﴾[2]

ويقول سبحانه : ﴿ . . . لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ الله والله شَهِيدٌ على ما تَعْمَلُونَ ﴾[3]

---

(١) سورة الانشقاق : الآيات ٧ ـ ١١ وسيأتي بيان أوْفى لإعطاء الكتب في الشهود .

(٢) سورة الحج : الآية ١٧ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٩٨ .

الشاهد الثاني ـ نبيّ كُلّ أمّة

يدل القرآن الكريم على أنّ لكُلّ أُمّةٍ شهيداً من أنْفُسِهم ، وقد جاء ذلك في عدة آيات منها قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ في كُلِّ أُمّةٍ شَهيداً عليهم من أنفُسِهِم ﴾[1] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيقُولُ أَيْنَ شُرَكائِي الذينَ كُنْتُمْ تَزْعُمونَ * وَنَزَعْنا من كُلّ أُمَّةٍ شَهيداً . . . ﴾[2] .

والظاهر أنّ هذا الشاهد من كل أُمّةٍ هو نبيهم ، وإن لم يصرح به في الآيات ، وذلك للزوم كون الشهادة القائمة هناك مشتملة على حقائق لا سبيل للمناقشة فيها ، فيجب أن يكون هذا الشاهد عالماً بحقائق الأعمال التي يشهد عليها ، لا بظاهر صورها وهيئاتها المحسوسة لأنّ صورها مشتركة بين الطاعة والمعصية .

ولا يكون هذا إلاّ بأن يستوي عنده الحاضر والغائب ، ويعاين حقيقة ما انعقدت عليه القلوب فيتميز هذا الشاهد بخصوصيتين :

الأولى : أنّه محيط إحاطة علمية تامةً على حقائق الأعمال وما يجري في القلوب ، ويختلج في النفوس .

الثانية : أن يكون ذا عصمة إلهية ليمتنع عليه الخطأ والإشتباه عند تحمّل الشهادة ، والكذب والخيانة عند أدائها .

ولا يتصور هذا المقام إلا لنبيٍّ كلّ أُمّة ، وسيأتي تتميم لذلك في الشاهد الرابع .

الشاهد الثالث : نبيّ الإسلام

عدّ القرآن نبيَّ الإسلام شاهدَ أُمّته ، يقول سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنا مِنْ

---

(١) سورة النحل : الآية ٨٩ .

(٢) سورة القصص : الآيتان ٧٤ و ٧٥ .

كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ ، وَجِئْنا بِكَ على هؤُلاءِ شَهيداً ﴾[١] .

ويقـول سبحانـه : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُـلِّ أُمَّةٍ شَهيـداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنا بِكَ شَهيداً على هؤُلاءِ . . ﴾[٢] .

وقد عرفت أنّ هذه الشهادة تستلزم من الكفاءات شيئاً عظيماً ، وبهذا يظهر عِظَمُ مقام هذا الشاهـد ، لوقـوفه عـلى ضمائـر القلوب وأعمال الأُمّـة ، وإن كانـوا بعيدين عنه . ومن كان له هذا المقام ، فَتَعَرُّفه على الغيب من أهون الأُمـور ، ومع ذلك نرى بعض القشريين ينزعجـون من إثبات علم الغيب للنبيّ ، ويـزعمون أنّ نسبته إليه وإلى الله سبحـانه يستلزم الشرك ، ولكن عـزب عنهم الفرق بـين العلم الكسبي والذاتي ، والمحدود واللامحدود ، والقائم بالغير والقائم بالنفس .

الشاهد الرابع : بعض الأُمّة الإسلامية

يقوله سبحانه : ﴿ وَكذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهداءَ عـلى النّاسِ وَيَكُونَ الرَّسولُ عَلَيْكُمْ شهيداً ﴾[٣] .

والخـطاب في الآية لـلأُمّة الإسـلامية ، ولكن المـراد قسم منها ، نـظير قولـه سبحانه : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلوكاً ﴾ . مخاطباً بني إسرائيل ، والمراد بعضهم . فباعتبار وجود الصّلة القوية بين القبيلة وملوكها ، نسب الملكوية إلى الجميع .

والـدليل عـلى أنّ المراد بعضّ الأُمّـة ، هو أنّ أكـثر أبنـاء الأُمّـة ، مجهـزون بحـواس عاديـة لا تتحمل إلاّ صُـوَر الأفعال والأعـمال إذا كانـوا في محضر المشهـود عليهم ، وهـو لا يفي في مقام الشهـادة ، لأنّ المراد من الشهـادة هو الشهـادة عـلى حقائق الأعمال ، والمعاني النفسانية من الكفر والإيمان والفوز والخُسْران ، وعـلى كل خفي عن الحسّ ، ومستبطن عن الإنسان ، وعلى كل مـا تكسبه القلوب ، الـذي يدور عليه حساب ربّ العالمـين ، يقول سبحـانه : ﴿ وَلَكِنْ يُؤاخِـذُكُمْ بِما كَسَبَتْ

---

(١) سورة النساء ، الآية ٤١ .

(٢) سورة النحل : الآية ٨٩ . ولاحظ الحج : الآية ٧٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

قُلوبُكُمْ ﴾(١) .

وليس ذلك في وسع الإنسان العادي إذا كان حاضراً عند المشهود عليه ، فضلاً عن كونه غائباً ، وهذا يدلّنا على أنّ المراد رجال من الأُمّة لهم تلك القابلية ، بعناية من الله تعالى ، فيقفون على حقائق أعمال الناس من إخلاص ورياء ، وانقياد وتمرد ، ويؤدّون ذلك يوم القيامة . وهذه الكرامة ليس ينالها جميع الأمّة ، بل الأولياء الطاهرون منهم ، لا المتوسطون في الإيمان ، فضلاً عن الملوثين بالمعاصي والملطخين بالجرائم .

وقد التجأ بعضهم إلى جعل متعلق الشهادة كون الأُمّة على دينٍ جامع ووسط ، وهو بمعزل عن التحقيق ، إذ ليس ذلك شهادة بشيء ، وقد وردت لفظة الشهادة بمعنى واحد في جميع القرآن ، في آياته المختلفة .

وبذلك يظهر معنى قوله سبحانه : ﴿ . . . وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفي هٰذا لِيَكُونَ الرسولُ شهيداً عَلَيْكُمْ ، وتكونوا شُهداءَ على النَّاسِ ﴾(٢) . فالخطاب متوجّه إلى الأُمّة ، والمراد بعضهم ممن أُعطيت لهم هذه الكرامة .

وهناك وجه آخر لما ذكرنا ، وهو أنّ أقلّ ما يعتبر في الشهود هو العدالة والتقوى ، والصدق والأمانة ، والأكثرية الساحقة من الأُمّة ، يفقدون ذلك ، وهم لا تقبل شهادتهم على صاع من تمر أو باقة من بقل ، فكيف تقبل شهادتهم يوم القيامة ؟ .

وإلى هذا تشير رواية الزبيري عن الإمام الصادق عليه السلام قال : « قال الله تعالى : ﴿ وَكذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ على النّاسِ وَيَكونَ الرَّسولُ عَلَيْكُمْ شهيداً ﴾ ، فإنْ ظَنَنْتَ بأنّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من المُوَحِّدين ، أَفَتَرى أنّ من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر ، يطلب الله شهادته يوم القيامة ، ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية . كلا ، لم يَعْنِ الله

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٥ .
(٢) سورة الحج : الآية ٧٨ .

مثلَ هذا من خَلْقِه »[1]

إلى هنا تَمّ الكلام حول الشهود الخارجيين ، وإليك الكلام في الشهود الداخليين ، الذين لا ينفكون عن نفس المجرم .

الشاهد الخامس : الأعضاء والجوارح

من عجيب الأمر أنْ تشهد أعضاء الإنسان عليه : لسانه ويده ورجله ، بأمر من الله سبحانه .

يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ اليَوْمَ نَخْتِمُ على أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بما كانوا يَكْسِبونَ ﴾[3] .

وأما كيفية الشهادة فهي من الأُمور الغيبية نؤمن بها ، وما إنطاقها عليه بعزيز ، وقد وسعت قدرته تعالى كلَّ شيء .

الشاهد السادس : الجلود

وتشهد على الناس جلودهم أيضاً .

يقول سبحانه : ﴿ حتى إذا ما جاؤوها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأَبْصارُهُمْ وجُلودُهُمْ بما كانوا يَعْمَلونَ * وقالوا لِجُلودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُّمْ عَلَيْنا ، قالوا أَنْطَقَنا الله الذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ أَنْطَقَنا الله الذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، يشير إلى سعة قدرته سبحانه

---

(١) تفسير نور الثقلين ، ج ١ ، ص ١١٣ ، الحديث ٤٠٩ .
(٢) سورة النور : الآية ٢٤ .
(٣) سورة يس : الآية ٦٥ .
(٤) سورة فصلت : الآيتان ٢٠ و ٢١

على إنطاق الجلود[١]

الشاهد السابع : الملائكـة

إنّ للإنسان حفظة يصحبونـه منذ بلوغـه التكليف فيسجّلون أعمالـه خيرهـا وشرّها ، وهذا قوله سبحانه : ﴿ ما يَلْفِظُ من قولٍ إلاّ لَدَيْهِ ، رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[٢] .

وهـذا الرقيبُ العتيـد يشهد أعـمال مَنْ وكّل بـه يوم القيـامة ، عنـدمـا يـرد الإنسان صعيد الحساب مع سـائقه ، كـما يقول سبحـانه : ﴿ وَجـاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيداً ﴾[٣] .

فأحد الملائكة يسوق الإنسان ، وآخر يشهد على أعماله .

الشاهد الثامن : صحيفة الأعمال

هناك آيات تدلّ على وجود صحف تضبط فيها أعمال العباد خيرها وشرّهـا ، وكَتَبَة يمارسون كتابتهـا ، ويوم الحسـاب تعرض عـلى الإنسان ، فيقـرؤها ، فـيُرى المجرم مشفقاً منها ، يغلبه التعجب من إحاطة الكتاب بدقيق أعماله وجليلها .

يقـول سبحـانـه : ﴿ قُـلِ الله أَسْـرَعُ مَكْـراً ، إنّ رُسُلَنـا يَكْتُبـونَ مـا تَمْكُرونَ ﴾[٤] .

ويقـول سبحانـه : ﴿ وَكُلّ شيَءٍ فَعَلوهُ ، في الـزُّبُـرِ * وَكُـلُّ صَغـيرٍ وَكَبِـيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾[٥] .

---

(١) ولا ينبغي التعجّب من ذلك ، وقد تـوصّل الإنسـان في هذه الـدنيا إلى معـرفة فـاعل كـل جريمـة ، ومرتكب كل جنـاية ، بتشخيص بصـمات أصابعـه ، ويكفي في إتمام الحجـة عليه إظهـار آثار جلد إصبعه وشهادتها عليه .

(٢) سورة ق : الآية ١٨ .

(٣) سورة ق : الآية ٢١ .

(٤) سورة يونس : الآية ٢١ ، وبهذا المضمون الزخرف : الآية ٨٠ و ٨٩ .

(٥) سورة القمر : الآيتان ٥٢ و ٥٣ .

ويقول سبحانه : ﴿ إنّا نَحْنُ نُحيي المَوْتَى ونكتب ما قَدّموا وآثـارَهُم وَكُلَّ شَيءٍ أحْصَيْناهُ في إمامٍ مُبينٍ ﴾(١) .

ويقول سبحانه مصوّراً حـال المجرم عنـد الحساب وشهـادة الكتاب عليـه : ﴿ وَوُضِعَ الكِتابُ فَتَرى المُجْرِمينَ مُشْفِقِينَ مِمّا فِيهِ ﴾(٢) .

ويقـول سبحـانـه حـاكيـاً تَعَجُّبَ المجـرمـين من إحـاطتـه بعـظائم الأعـمال ودقائقها : ﴿ مالِ هذا الكِتابِ لا يُغادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرةً إلاّ أحْصاها ﴾(٣)

وكفى في إذعان الإنسان بجرمه وعصيانه ، كتابُه ، يقول سبحانـه : ﴿ إقرأ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسيباً ﴾(٤) .

الشاهد التاسع : الأرض

إنّ كُلّ عمل طالحاً كان أوْ صالحاً ، إذا كان بـدنيا ، يصـدر من الإنسان في نقطة وبقعة من بِقاع الأرض ، وهي تشهد يـوم القيامـة على الحـوادث التي وقعت فيها ، يقول سبحـانه : ﴿ يَـوْمَئِذٍ تُحَـدِّثُ أخْبارَهـا * بِأنَّ رَبَّـكَ أوْحى لها ﴾(٥) وكيفية شهادتها من الأمور الغيبيـة ، ولكن يمكن أن نستعين عـلى تقريبهـا بالأمـور المحسوسة ببيان أنّ المجرم والمحسن يتركان بعد العمل آثاراً يستدلّ بهـا على كيفيـة عمله .

هذا وإن الخبراء يستدلّون بالمستندات الحفـرية ، عـلى كيفية حيـاة الماضـين وحضارتهم وعلومهم ، وسائر شؤون حياتهم ، وقد ورد عن النبي أنّه لم يـرتحل من منزل إلاّ صلى فيه ركعتين وقال : « حتى يشهد عَلَيّ بالصلاة »(٦) .

---

(١) سورة يس : الآية ١٢ . ولاحظ الجاثية : الآيتان ٢٨ و ٢٩ . والإنفطار : الآيتان ١٠ و ١٢ .
(٢) سورة الكهف : الآية ٤٩ .
(٣) سورة الكهف : الآية ٤٩ .
(٤) سورة الإسراء : الآية ١٤ .
(٥) سورة الزلزلة : الآيتان ٤ و ٥ .
(٦) نقلاً عن تفسير الميزان : ج ٦ ، ص ٣٣٧ . وهناك روايات نقلها الشيخ الحرّ العاملي في الوسائـل ، =

روى الشيخ الطوسي بإسناده عن أبي ذرّ عن النبي صلى الله عليه وآله ، في وصيته له : « يا أبا ذرّ ، ما من رجل يجعل جبهته في بقعة من بقاع الأرض ، إلاّ شهدت له بها يوم القيامة »[١] .

الشاهد العاشر : تجسم العمل بهويّته الأخروية

دلّ القرآن والأحاديث على أنّ لكل عمل يرتكبه الإنسان في هذه النشأة ، صورتَيْن وظهورَيْن وهُويتين ، يتمثل بإحداهما في هذه النشأة ، وبالأُخرى في النشأة الآخرة . فالصلاة في هذه الدنيا عبارة عن الأذكار والحركات ، وهي هويتها الدنيوية ، ولكنها لها في النشأة الأُخروية ظهوراً آخر . ومثله الأعمال الإجرامية ، فإنّ لكلٍّ منها صورتين ، يتمثّل بإحداهما في الدنيا، وبالأُخرى في الآخرة .

يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾[٢] ، وظاهر الآية هو مشاهدة نفس العمل . وتأويله بمشاهدة الجزاء ، على خلاف الظاهر ، والآيات الواردة في مجال تجسّم الأعمال كثيرة ، نكتفي بواحدة منها :

يقول سبحانه : ﴿ الذينَ يَكْنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلا يُنْفِقونَها في سَبيلِ الله ، فَبَشِّرْهُمْ بِعذابٍ أليم * يَوْمَ يُحمى عَلَيْها في نارِ جَهَنَّمَ فَتكْوَى بها جِباهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لأنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزونَ ﴾[٣] .

والآية تعرب عن تجسم الذهب والفضة الذي كُنِزَ بصورة النار المُحَمّاة ، بحيث يطلق عليها أنّها نفس ما كنزوه .

* * *

= ج ٣ ، ص ٤٧٤ ، كتاب الصلاة ، أبواب مكان المصلّي ، الباب ٤٢ ، الحديث ٩ ، وفي الباب روايات أُخرى فلاحظها .

(١) المجالس والأخبار ، ص ٢١٦ . نقله في الوسائل ، ج ٤ ، ص ٤٧٤ ، الحديث ٩ .

(٢) سورة الزلزلة : الآيتان ٧ و٨ .

(٣) سورة التوبة : الآيتان ٣٤ و٣٥ .

٥ ـ مشـــهد الميـــزان

إنّ هؤلاء الشهود الكثيرون يكفون في مقام القضاء وإتمام الحجـة ، غير أنّـه سبحانه ، لا يكتفي بهم ، كما لا يكتفي بصحائف الأعمال التي ضبطت فيهـا جميع أفعال العبد جليلها ، ودقيقها ، بـل يجسد وضـع الإنسان بتـوزين أعمالـه بالميـزان الذي يضعه يوم القيامة .

يقـول سبحانـه : ﴿ وَنَضَعُ المـوازينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيـامَةِ فـلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً ، وَإنْ كَانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وكفىٰ بِنا حاسِبينَ ﴾[١] .

والنـاس بين ثقيـل الميزان وخفيفـه يقول سبحـانه : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مـوازِينُهُ فـأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحـونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوازينُـهُ فأُولِئـكَ الذينَ خَسِروا أَنْفُسَهُمْ بمـا كانوا بآياتِنا يَظْلِمون ﴾[٢] .

غير أنّ الكلام في تبيين حقيقة هذا الميزان الذي توزن به الأعمال ، فهـل هو كهذه الموازين الحسية الموضوعة فوق مناضد البقالين والعطارين ، أو شيء غيرها ، فنقول :

لا شك أنّ النشأة الآخـرة ، أكمل من هـذه النشأة ، وأنّـه لا طريق لتفهيم الإنسـان حقائق ذاك العـالم وغيوبـه المستـورة عنّـا ، إلاّ بـاستخـدام الألفـاظ التي يستعملها الإنسان في الأمـور الحسية . وعـلى ذلك ، فـلا وجه لحمـل الميزان عـلى الميـزان المتعارف خصـوصاً بعـد استعـمال الميـزان في القـرآن في غـير هـذا الميـزان المحسوس .

الميـزان في اللغة اسم آلـة يوزن بهـا الشيء ، يقول سبحـانـه : ﴿ والسَّـماءَ رَفَعَهـا وَوَضَعَ الميـزانَ ﴾ ، فـالله سبحـانـه يخبـر فيهـا عن رفـع السـماء وخلقهـا مرفوعة ، كما يخبر عن أنّه وضع لكل شيءٍ ميـزاناً يُقَـدَّر به ، من غـير فرق بـين أن يكـون جسمـاً أو قـولاً أو فعـلاً أو عقيـدة ، فلكـلّ شيءٍ ميـزانٌ يُمَيّـز بـه الحقُّ من

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ٨ و ٩ .

الباطل ، والصدق من الكذب ، والعدل من الظلم ، والرذيلة من الفضيلة . ولأجل هذه السَّعة في معنى الميزان يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والمِيزانَ لِيَقومَ النَّاسُ بالقِسْطِ ﴾(١) ، فلا معنى لتخصيص الميزان هنا بما توزن به الأثقال ، مع أنّ الهدف من إرسال الرسل وإنزال الكتب والميزان هو قيام الناس بالقسط في جميع شؤونهم العقيدية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية . وبذلك يعلم أنّ تفسير الميزان بالعدل ، أو بالنبي ، أو بالقرآن ، كلّها تفاسير بالمصداق ، فليس للميزان إلّا معنى واحد هو : ما يوزن به الشيء ، وهو يختلف حسب اختلاف الموزون من كونه جسماً أو حرارة أو نوراً أو ضغطاً أو رطوبةً أو غير ذلك .

يقول صدرالمتألهين رحمه الله : « ولو تأملوا قليلاً في نفس معنى الميزان ، وجرّدوا حقيقة معناه عن الزوائد والخصوصيات ، لعلموا أنّ حقيقة الميزان ليس يجب أن يكون البتة مما له شكل مخصوص ، أو صورة جسمانية ، فإنّ حقيقة معناه وروحه وسرّه ، هو ما يقاس ويوزن به الشيء ، والشيء أعمّ من أن يكون جسمانياً أو غير جسماني ، فكما أنّ القبّان ، وذا الكفتين وغيرهما ، ميزان للأثقال ، والاسطرلاب ميزان للارتفاعات والمواقيت ، والشاقول ميزان لمعرفة الأعمدة ، والمسطرميزان لاستقامة الخطوط ، فكذلك علم المنطق ميزان للفكر في العلوم النظرية ، وعلم النحو ميزان للإعراب والبناء ، والعَروض ميزان للشعر ، والحسّ ميزان لبعض المدركات ، والعقل الكامل ميزان لجميع الأشياء ، وبالجملة ميزان كل شيء يكون من جنسه ، فالموازين مختلفة والميزان المذكور في القرآن ينبغي أن يحمل على أشرف الموازين وهو ميزان يوم الحساب ، كما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ ﴾ وهو ميزان العلوم وميزان الأعمال القلبية ، الناشئة من الأعمال البدنية »(٢) .

ويؤيد ذلك أنّه سبحانه يصف الميزان بكونه منزلاً من جانبه سبحانه ، كما في الآية السابقة ويقول : ﴿ اللهُ الذي أَنْزَلَ الكِتابَ بالحَقِّ ، والمِيزانَ ، وما يُدريكَ

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٩٩ .

لَعَلَّ الساعَةَ قَرِيبٌ ﴾[1] .

وبما أنّ توزين الأعمال بالموازين القسط ، من الأمور الغيبية التي لا يقف عليها الإنسان إلّا بخرق الحجب وحضور ذلك المشهد ، يعسُّر تبيين حقيقته ، والذي يمكن أن يقال إنّه ليس من قبيل هذه الموازين الحسية التي توزن بها الأجسام الثقيلة وغيرها . وما ذكر له من التفاسير لا يتجاوز حدّ الإحتمال .

يقول صدر المتألهين : « وأمّا القول في ميزان الأعمال ، فاعلم أنّ لكل عمل من الأعمال البدنية ، تأثيراً في النفس فإن كان من باب الحسنات والطاعات ، كالصلاة والصيام والحج والزكاة والجهاد ، وغيرها ، فله تأثير في تنوير النفس وتخليصها من أسر الشهوات وجذبها من الدنيا إلى الأُخرى ، ومن المنزل الأدنى إلى المحل الأعلى ، وكذلك فلكل عمل حق مقدار معين من التأثير في التنوير والتهذيب . وإذا تضاعفت وتكثّرت الحسنات ، فبقدر تكثرها وتضاعفها ، يزداد مقدار التأثير والتنوير .

وكذلك لكل عمل من الأعمال السيئة قدراً معيناً من التأثير في إظلام جوهر النفس وتكديرها وتعليقها بالدنيا وشهواتها ، فإذا تضاعفت المعاصي والسيئات ، ازدادت الظلمة والتكثيف شدّة وقدراً ، وكل ذلك محجوب عن مشاهدة الخلق في الدنيا . وعند قيام الساعة وارتفاع الحجب ، ينكشف لهم حقيقة الأمر في ذلك ، ويصادف كل أحد مقدار سعيه وعمله ، ويرى رجحان إحدى كفتي ميزانه ، وقوة مرتبة نور طاعته أو ظلمة كفرانه »[2] .

وعلى هذه النظرية ، فليس هنا ميزان وراء انكشاف السرائر والملكات الحسنة والسيئة ،وغاية ما في الأمر أنّ الإنسان يقف بعد رفع الحجاب على قُربه وبعده من الربّ ، وتتجسد له مرتبة نور طاعته أو ظلمة كفرانه .

ويقرب منه ما ذكره صاحب المنار ، قال : « إذا كان البشر قد اخترعوا موازين للأعراض كالحرّ والبرد ، أفَيَعجز الخالق الباريء القادر على كل شيء ،

---

(١) سورة الشورى : الآية ١٧ .

(٢) الأسفار ،ج ٩ ،ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

عن وضع ميزان للأعمال النفسانية والبدنية ، المعبّر عنها بالحسنات والسيئات بما أحدثته في الأنفس من الأخلاق والصفات ، والنقل والعقل متفقان على أنّ الجزاء إنّما يكون بصفات النفس الثابتة ، لا بمجرد ما كان سبباً لها من الحركات والأعراض الزائدة »[1] .

وبما قدمنا يندفع عمدة ما أُشكل على المتقدمين من المتكلمين في توزين الأعمال من أنّ العمل عرض غير باق ، فكيف يمكن توزينه في الآخرة ؟ .

فبعد إمكان توزين الحرارة والبرودة ، والضغط والرطوبة ، وغيرها من الأعراض الزائلة ، بل توزين الطاقة والحركة والعمل التي هي الوجه الآخر للمادة ، إذ ليست هي إلّا المادة المستهلكة ، وهي توزن بالآلات وتقاس ، فيقال إن لهذا المحرك جهد كذا من الأحصنة ، وغير ذلك من الأقيسة ، فبعد إمكان وزن الأعراض وعمل الآلات ، ألا يمكن وزن عمل الإنسان في الآخرة بوجه من الوجوه ؟ .

هذا كله حول الميزان في النشأة الأُخرى، واعلم أنّه سبحانه لم يترك الإنسان سدى ، بل جعل لتشخيص صحة عقائده وأخلاقه وأعماله ، موازين كالكتاب والسنّة والعقل ، قال الإمام الباقر عليه السلام لأحد أصحابه : « أُعرض نَفْسَك على ما في كتاب الله ، فإنْ كنت سالكاً سبيله ، زاهداً في تزهيده ، راغباً في ترغيبه ، خائفاً من تخويفه ، فاثبت وأبشر ، فإنّه لا يضرك ما قيل فيك ، وإن كنت مبائناً للقرآن ، فماذا الذي يغرُّك من نفسك ؟ »[2] .

وعلى ضوء هذا ، فالقرآن ميزان ، كما أنّ النبي ميزان ، والإمام المعصوم ميزان ، فلا غَرْوَ من أن نزور علياً ونقول :

« السلام على يعسوب الإيمان وميزان الأعمال ، وسيف ذي الجلال »[3] .

---

(١) المنار ، ج ٨ ، ٣٢٣ .
(٢) البحار ، ج ٧٨ ، باب وصايا الباقر عليه السلام ،ص ١٦٢ .
(٣) مستدرك الوسائل ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

وفي الختام نشير إلى أمرين :

الأول : إنّ بعض السلف ، إغتراراً بالظواهر ، ذهب إلى أنّ الميزان له كفّتان ولسان وساقان . وهو تعبّد بالظاهر وتعطيل للتعقل والتدبّر في نفس القرآن الكريم . بل الأولى لهم أن يقولوا : الميزان عبارة عمّا يعرف به مقادير الأعمال وليس علينا البحث عن كيفيته بل نؤمن به ونفوض كيفيته إلى الله تعالى ، كما قال المحقق الدواني[1] .

الثاني : المنقول عن المعتزلة[2] أنّهم ينكرون الميزان قائلين بأنّ الأعمال أعراض وقد عدمت ، فلا يمكن إعادتها . وعلى تقدير إعادتها ، لا يمكن وزنها ، وعلى تقدير إمكانه ، مقاديرها معلومةٌ له تعالى فوزنها عبث .

يلاحظ عليه : لو صحّت النسبة ، فإنّما يرد لو كان المراد من الميزان هو ما نقل عن بعض السلف . وأمّا على ما عرفت من التطور في الميزان فالشبهة مندفعة . وأمّا القول بأنّها معلومة ، فالحكمة في التوزين مثل الحكمة في الحساب ، الذي لا شبهة فيه .

* * *

٦ ـ الصــراط

الصراط في اللغة هو الطريق ، ويغلب استعماله على الطريق الذي يوصل

---

(١) شرح العقائد العضدية ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢) وهذه النسبة التي ذكرها المحقق الدواني في شرح العقائد العضدية غير صحيحة . قال القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة : فإن قالوا : وأي فائدة في وضع الموازين التي أثبتموها ، ومعلوم أنّه إنّما يوضع ليوزن به الشيء ، ولا شيء هناك يدخله الوزن ويتأتى فيه ، فإنّ أعمال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم أعراض لا يتصور فيها الوزن . قيل له : ليس يمتنع أن يجعل الله تعالى النور عَلَماً للطاعة ، والظلم أمارة للمعصية . ثم يجعل النور في إحدى الكفتين ، والظلم في الكفّة الأخرى ، فإن ترجحت كفّة النور حكم لصاحبه بالثواب ، وإن ترجحت الأخرى حكم له بالأخرى . . . إلى آخر كلامه . . . (شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٣٥) نعم ، القاضي يتخيل أنّ المراد من الميزان هو المتعارف بيننا ، وقد عرفت ما في ذلك .

الإنسان إلى الخير ، بخلاف السبيل ، فإنّه يطلق على كل سبيل يتوسل به خيراً كان أم شرّاً[1]

وإذا كان الصراط بمعنى الطريق ، فلكل موجودمن الموجودات الإمكانية طريق ، لو سلكه ، يصل إلى كماله الممكن من غير فرق بين الجماد والنبات والحيوان والإنسان .

وهذا ما يسمّى بالصراط التكويني ، وهو مجموعة القوانين السائدة على الموجود الإمكاني ، بأمر منه سبحانه ، التي لو تخلّف عنها لهلك .

وهناك صراط آخر يختص بالإنسان وهو الصراط التشريعي ، أعني القوانين والأحكام الشرعية التي فرضها سبحانه على عباده ، وهداهم إليها ، فهم بين شاكر وكفور ، وقد نبّه القرآن إلى الصراط التشريعي في عدّة آيات ، منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ إنّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إمّا شاكِراً وإمّا كفوراً ﴾[2] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ وأَنَّ هذا صِراطي مُسْتَقيماً فاتّبعوهُ ولا تَتَّبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِهِ ﴾[3] .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ وَهُدوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وَهُدوا إلى صراطِ الحَميدِ ﴾[4] .

وفي مقابل هذا الصراط التشريعي ، طريق آخر يباينه في المقصد والمآل ، وقائده هو الشيطان ومن تبعه ، يقول سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إلى عذابِ السَّعيرِ ﴾[5] .

وفي ضوء هذا يتبين أنّ الله سبحانه في هذه النشأة الدنيوية ، صراطَيْن

---

(١) مفردات الراغب ، مادة سبل .

(٢) سورة الدهر : الآية ٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥١ .

(٤) سورة الحج : الآية ٢٤ .

(٥) سورة الحج : الآية ٤ .

أحـدهمـا تكـويني ، في سلوكـه كـمال المـوجـود وبقـاؤه ، والآخـر تشريعي يختصّ بالإنسان ، فيه فوزه وسعادته .

نعم ، يستظهر من الذكر الحكيم ، ويـدلّ عليه صريـح الروايـات ، وجود صراط آخر ، في النشأة الأُخروية يسلكه كل مؤمن وكافر .

يقـول سبحانـه : ﴿ فَوَرَبِّـكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشَّيـاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِـرَنَّهُمْ حَـوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً . . . وإنْ مِنْكُمْ إلاّ وارِدُها كَـانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ﴾[١] .

وقد اختلف المُفَسِّرونَ في معنى الورود بين قائل بأنّ المـراد منه هـو الوصـول إليها ، والإشراف عليها لا الدخول ، وقائل بأنّ المراد دخولها . وعلى كل تقـدير ، فـلا مناص للمسلم من الإعتقـاد بوجـود صراطٍ في النشأة الأُخـروية ،وهـو طريق المؤمن إلى الجنة ، والكافر إلى النار[٢] .

وقد وصف الصراط في الروايات بأنّه أدَقّ من الشَّعر ، وأَحَـدُّ من السيف . غير أنّ البحث يتركز على التعـرّف على حقيقـة هذا الصراط بـالمقدار الممكن ، وإن كان الوقوف على حقيقته كما هي ،غير ممكنة إلاّ بعد رفع الحجب .

فنقـول : لا شك أنّ هنـاك صلة بين الصراطـين الـدنيـوي والأُخـروي من وجوه :

١ ـ إنّ سالك الصراط الدنيوي بهـداية . قيـادة من النبي ، يسلك الصراط الأخروي بنفس تلك الهدايـة ويجتازه بـأمان إلى الجنـة . وسالكـه بهدايـة الشيطان وولايته ، يسلك الصراط الأُخروي ، بنفس تلك الهداية ، فتزل قدمه ويهوي في عذاب السنعير[٣] .

٢ ـ إنّ قيـام الإنسان بـالوظـائف الإلهية ، في مجـالي العقيدة والعمـل ، أمر

(١) سورة مريم : الآيات ٦٨ ـ ٧١ .

(٢) تفسير القمي ، ج ١ ، ص ٢٩ ، وفي أخرى بزيادة : « وأظلم من الليل » .

(٣) قـال سبحانـه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّـهُ مَنْ تَولاَّهُ فَـإنَّـهُ يُضِلُّهُ ،وَيَهْـدِيـهِ إلى عـذابِ السَّعـيرِ ﴾ (الحـج : الآية ٤)

صعب أشبه بسلوك طريق أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف . فالفائـز من الناس ، من كـانت لـه قـدم راسخـة في مجـال الإيمـان والعقيـدة ، وتَثَبُّتٌ في مقـام العمـل والطاعة ، ومن المعلوم أنّ الفـوز بهذه السعـادة ليس أمراً سهـلاً ، فكم من إنسان ضـلّ في طـريق العقيـدة ، وعَبَـد النفس والشيـطان والهـوى ، مكـان عبـادة الله سبحانه ، وكم من إنسان فشل في مقام الطاعة والعمل بالوظائف الإلهية .

فإذا كان هذا حال الصراط الدنيوي من حيث الصعوبة ، والدقة ، فهكـذا حـال الصراط الأُخروي ، وإلى ذلـك يشـير الإمـام الحسن بن عـلي العسكـري ، عليهما السلام في حديثه عن علي بن أبي طالب ، عليه السلام قال :

« والصِّراط المستقيم ، صراطان ، صراط في الدنيا وصراط في الآخرة ، أمّا الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلو ، وارتفع عن التقصير ، واستقـام فلم يعـدل إلى شيء من البـاطـل ، وأمّـا الـطريق الآخـر فهـو طـريق المؤمنـين إلى الجنة »[1]

فلو قال قائل بأنّ الصراط الأُخـروي تَمَثُّلٌ لـذلك الصراط الـدنيوي وتجسّـد له ، فلم يجازف .

٣ ـ إنّ لصدر المتألهين كلاماً في تبيين المراد من كون الصراط أدقّ من الشعـر وأحدّ من السيف .

قال : « إنّ كمال الإنسان منوط باستعمال قوتيه ، أمّا القوة النظرية فلإصابـة الحق ونـور اليقين في سلوك الأنـظار الدقيقـة التي هي في الـدقـة واللطافـة أدقّ من الشعـر ـ إذا تمثلت ـ بكثير . وأمّـا القوة العمليـة ، فبتعديـل القوتـين الشَهَـويـة والغَضَبية ، لتحصل للنفس حالة إعتدالية متوسطة بـين الأطراف غـاية التـوسط ، لأنّ الأطـراف كلّها مـذمومـة ، والتـوسط الحقيقي بـين الأطـراف المتضـادة منشـأ الخلاص عن الجحيم . وهو أَحَدّ من السيف ، فإذاً الصراط له وجهان :

أحدهما أدقُّ من الشعر ، والآخر أُحدّ من السيف »[2] .

---

(١) معاني الأخبار ، ص ٣٣ .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٨٥ .

وعلى هذا البيان فالدقة راجعة إلى سلوك طريق إصلاح العقل النظري ، والحِدّة راجعة إلى سلوك طريق إصلاح العقل العملي . وما في الآخرة تجسد للصراط الدنيوي في الدقة والحدة ، ولا حقيقة له إلّا ما كان للإنسان في هذه الدنيا .

٤ ـ إنّ للإيمان واليقين درجات كما أنّ للقيام بالوظائف العملية مراتب ، فللناس في سلوك الصراط منازل ودرجات . فهم بين مخلص لله سبحانه في دينه ، لا يَرى شيئاً إلّا ويَرى الله قَبْلَه ، وبين مُقَصّر في إعمال القُوى النظرية والعَمَلية ، كما أنّ بينهما مراتب متوسطة ، فالكل يسلك الصراط في النشأة الأُخرى ، في السرعة والبطء ، حسب شدّة سلوكه للصراط الدنيوي ، ولأجل ذلك تضافرت روايات عن الفريقين باختلاف مرور الناس ، حسب اختلافهم في سلوك صراط الدنيا ، قال الإمام الصادق (ع) : « النّاس يمرّون على الصراط طبقات ، والصراط أدقّ من الشعر ومن حدّ السيف ، فمنهم من يمرّ مثل البرق ، ومنهم مثل عدو الفرس ، ومنهم من يمرّ حبواً ، ومنهم من يمرّ مشياً ، ومنهم من يمرّ متعلّقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً »(١) .

فبقدر الكمال الذي يكتسبه الإنسان في هذه النشأة ، يتثبت في سلوك الصراط الأُخروي ، ولا تزل قدمه ، يقول سبحانه : ﴿ **وإنَّكَ لَتَدْعوهُمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ وإنّ الذينَ لا يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لناكِبونَ** ﴾(٢) .

هذا ما يقتضيه التدبّر في الآيات والروايات الواردة حول الصراط ، ومع ذلك كلّه ليس معنى كون الصراط الأُخروي تجسماً للصراط الدنيوي ، أو سلوكه تمثّلاً لسلوكه ، إنكار وجود صراط فوق الجحيم ، لا محيص لكل إنسان عن سلوكه ، بل مقتضي التعبد بظواهر القرآن والحديث وجود ذلك الصراط بمعناه الحقيقي ، وإنْ لم نفهم حقيقته ، ولا بأس بإتمام الكلام بحديث جابر ، وهو ينقل عن النبي أنّه قال :

---

(١) أمالي الصدوق ، المجلس ٣٣ ، ص ١٠٧ ، لاحظ الدر المنثور ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

(٢) سورة المؤمنون : الآيتان ٧٣ و ٧٤ .

« لا يبقى بَرّ ولا فاجر إلاّ دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى أنّ للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم يُنَجّي الله الذين اتّقوا ويَذَر الظالمين فيها جِثِيّاً »[1] .

٧ ـ الأعراف

يقول سبحانه : ﴿ وَبَيْنَهما حِجابٌ وَعلى الأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفونَ كُلاًّ بِسيماهُمْ ونادَوْا أَصْحابَ الجَنَّةِ أَنْ سلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلوها وَهُمْ يَطْمَعونَ * وإذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ ، قالوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مع القَوْمِ الظّالمين * ونادَىٰ أَصْحابُ الأَعْرافِ ، رجالاً يَعْرِفونَهُمْ بِسيماهُمْ ، قالوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرونَ ﴾[2] .

الحجاب هو الستر المتخلل بين الشيئين يستر أحدهما من الآخر ، والضمير في قوله : ﴿ بَيْنَهُما ﴾ ، راجع إلى أصحاب الجنة والنار ، المذكورين في الآية المتقدمة .

والأعراف أعالي الحجاب والتلال من الرمل ، والعرف للديك ، وللفرس ، هو الشعر فوق رقبته ، وأعلى كل شيء ، ففيه معنى العلو ، والآية تدلّ على أنّ في أعالي الحجاب الذي بين الجنة والنار ، رجال يعرفون أهل الجنة والنّار بعلائمهم وهم مشرفون على الجانبين ، لارتفاع موضعهم . وظاهر السياق أنّ هؤلاء الرجال منحازون عن الطائفتين متمايزون عن جماعتهم ، فيكون بذلك أهل الجمع منقسمين إلى طوائف ثلاث : أصحاب الجنة ، وأصحاب النار ، وأصحاب الأعراف .

ثم إنّه وقع الكلام في معرفة من هم هؤلاء الرجال[3] ، والتدبّر في الآيات يعطي أنّهم جمع من عباد الله من غير الملائكة ، هم أرفع مقاماً وأعلى منزلة من

---

(١) الدر المنثور ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ٤٦ ـ ٤٨ .

(٣) اختلف المفسرون في ذلك على إثني عشر قولاً .

سائر الجمع ، يعرفون عامة الفريقين ، لهم أنْ يتكلموا بالحق يوم القيامة ، ولهم أن يشهدوا ، ولهم أن يشفعوا ، ولهم أن يأمروا ويقضوا ، كلٌّ ذلك بإذنه سبحانه .

وقد تضافرت الروايات على أنّ المراد من الرجال هم الأئمة من آل محمد صلوات الله عليهم .

قال الصدوق : « إعتقادنا في الأعراف أنّه سور بين الجنة والنار عليه رجال يعرفون كلاًّ بسيماهم ، والرجال هم النبي وأوصياؤه »[1]

* * *

٨ ـ لواء الحَمْد

إذا كان يومُ القيامة ، وحُشِرَ الناسُ على صعيد واحد ، وَتَمَيَّزَ الفريقان ، يُعطى النبي الأكرم لواءَ الحمد ، ويَتَقَدَّمُ به ويأخذ مسيره ومَنْ خَلْفَه إلى الجنة ، وفي روايات الإمامية أنَّ النبي الأكرم يدفعه إلى وصيّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

وقد ورد في غير واحد من الروايات ذكر لواء الحمد ، وأنّه مكتوب عليه : « المفلحون هم الفائزون بالجنة » . وأنّه يمشي عَليٌّ والقوم (أهل الجنة) تحت لوائه حتى يدخل الجنة »[2] .

وروى أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي نضرة قال : خطبنا ابن عباس على منبر البصرة ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّه لم يكن نبي إلاّ له دعوة قد تنجزها في الدنيا ، وإنّي قد اختبأت دعوتي ، شفاعة لأمتي ، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر . . . »[3] .

---

(١) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٤٠ . وفي بعض الروايات : « يوقف كل نبي وكل خليفة نبي » ، وعند ذلك يكون ذكر النبي والأئمة من باب تطبيق الكلي على المصاديق المُثْلَى .

(٢) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٨ ، باب ١٨ ، الأحاديث ١ ـ ١٢ .

(٣) مسند إبن حنبل ، ج ١ ، ص ٢٨١ ، وص ٢٩٥ ، وج ٣ ، ص ١٤٤ .

٩ ـ الحـــــــوض

قال الصدوق : « إعتقادنا في الحوض أنّه حق وأنّ الـوالي عليه يـوم القيامـة أمـير المؤمنين عـلي بن أبي طـالب عليـه السـلام يسقي منـه أوليـاءه ، ويـذود عنـه أعداءه . مَنْ شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً »(١) .

روى الفريقان روايات حول الحوض : روى أبو حازم عن سهل بن سعـد ، قال سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقـول : أنا فـرطكم على الحـوض ، من وَرَد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً . وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أقوام أعرفهم ويعرفـونني ، ثم يحال بينه وبينهم »(٢) .

روى الصـدوق عن الإمام الصـادق عليه السـلام عن آبـائـه ،قـال : قـال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أراد أن يتخلص من هول يوم القيامة فليتـول وليّي ، ولْيَتَّبـع وصيي وخليفتي من بعـدي عـلي بن أبي طـالب ، فـإنّـه صــاحب حوضي ، يذود عنه أعداءه ، ويسقي أولياءه . فمن لم يسق منه لم يزل عطشـاناً ولم يرو أبداً . ومن سُقي منه شربة ، لم يشْقَ ولم يظمأ »(٣) .

وقد تقدم قول رسول الله صلى الله عليه وآلـه ـ المنقول متـواتراً ـ في خـطبته يوم الغدير حيث قال :

« فإني فرط على الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين » .

فنادى مناد : « وما الثّقلان يا رسول الله » ؟

قال : « الثّقل الأكبر ، كتاب الله ، والآخـر الأصغر عـترتي ، وإن اللطيف الخبير نبّأني أنهما لن يفـترقا حتى يـردا عليّ الحـوض ، فلا تقـدموهمـا فتهلكوا ، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا »(٤) .

---

(١) عقائد الصدوق ، ص ٨٥ .

(٢) جامع الأصول ، ص ١١٩ ـ ١٢١ وقد نقل روايات كثيرة حول الحوض .

(٣) بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ١٩ ، نقلاً عن أمالي الصدوق ، ص ١٦٨ .

(٤) لاحظ في الوقوف على مصادره ، ما دبّجه قلم المتتبع الكبير السيـد مير حـامد حسـين الهندي ، فقـد جمـع أسنـاده وبحث فيهـا وفي دلالتـه في ستـة مجلدات من كتـابـه « العبقـات » . ولاحـظ كتـاب المراجعات ، للإمام شرف الدين ، المراجعة الثانية .

مباحث المعاد

(١٠)

المعاد الجسماني والروحاني

قد تعرفت على الدلائل التي أفادت ضرورة وقوع المعاد ، كما تعرفت على الآيات التي تشير إلى تلك الدلائل ، لكن يقع الكلام في كيفية المعاد ، وهل هو جسماني أو روحاني ، أو جسماني وروحاني معاً . وقبل بيان المراد من الجسمانية والروحانية ، نشير إلى كلمات تَذْكُر الأقوال والآراء الموجودة في الكيفية .

١ ـ قال الرازي : « إختلفت أقوال أهل العالم في أمر المعاد على وجوه :

(أ) ـ أنّ المعاد ليس إلا للنفس ، وهو مذهب الجمهور من الفلاسفة .

(ب) ـ أن المعاد ليس إلا لهذا البدن ، وهو قول نفاة النفس الناطقة ، وهم أكثر أهل الإسلام .

(ج) ـ أنّ المعاد للأمرين ، وهم طائفة كبيرة من المسلمين »[١] .

٢ ـ وقال العلامة الحلّي : « إتفق المسلمون على إعادة الأجسام خلافاً للفلاسفة »[٢] .

٣ ـ وقال الدواني : « المعاد الجسماني هو المتبادر من إطلاق أهل الشرع ، إذ

---

(١) نهاية العقول . نقله المجلسي في البحار ، لاحظ ج ٧ ، ص ٤٨ .

(٢) شرح الياقوت ، ص ١٩١ .

هو الذي يجب الإعتقاد به ، ويكفر من أنكره ، وهو حق ، لشهادة نصوص القرآن في مواضع متعددة بحيث لا تقبل التأويل ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان . . . إلى قوله : بِكُلِّ خَلْقٍ عَليمٌ ﴾ . قال المفسرون نزلت هذه الآية في أُبَيّ بن كعب فإنه خاصم رسول الله وأتاه بعظم قد رمّ وبلى ، فَفَتّه بيده وقال : يا محمد ، أترى الله يحيي هذه بعدما رمّت ، قال : نعم ، ويبعثك ويدخلك النار . « وهذا مما يقلع عرق التأويل بالكلية ، ولذلك قال الإمام (الرازي) : إنه لا يمكن الجمع بين الإيمان بما جاء به النبي وإنكار الحشر الجسماني »[١] .

٤ ـ قال صدر المتألهين : إتفق المحققون من الفلاسفة والمليّين على أحقية المعاد ، وثبوت النشأة الباقية ، لكنهم اختلفوا في كيفيته ، فذهب جمهور الإسلاميين وعامة الفقهاء وأصحاب الحديث إلى أنه جسماني فقط ، بناء على أنّ الروح عندهم جسم سارٍ في البدن سريان النار في الفحم ، والماء في الورد ، والزيت في الزيتونة ، وذهب جمهور الفلاسفة وأتباع المشّائين إلى أنّه روحاني أي عقلي فقط لأنّ البدن ينعدم بِصُوَرِهِ وأعراضه لقطع تعلق النفس بها ، فلا يعاد بشخصه تارة أُخرى ، إذ المعدوم لا يعاد ، والنفس جوهر باقٍ لا سبيل للفناء إليه ، فتعود إلى عالم المفارقات لقطع التعلقات بالموت الطبيعي .

وذهب كثير من أكابر الحكماء ومشايخ العرفاء وجماعة من المتكلمين كالغزالي والكعبي والحليمي والراغب الأصفهاني وكثير من أصحابنا الإمامية كالشيخ المفيد ، وأبي جعفر الطوسي ، والسيد المرتضى ، والمحقق الطوسي ، والعلامة الحلّي ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين إلى القول بالمعادين ، ذهاباً إلى أنّ النفس مجرّدة تعود إلى البدن[٢] .

قال العلامة المجلسي : « إعلم أنّ القول بالمعاد الجسماني مما اتفق عليه جميع المليين وهو من ضروريات الدين ومنكره خارج من عداد المسلمين ، والآيات الكريمة على ذلك ناصّة لا يعقل تأويلها ، والأخبار فيه متواترة لا يمكن ردّها ولا

---

(١) شرح العقائد العضدية ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٦٥ .

الطعن فيها »[1]

إن القضاء البات في هذه الآراء يتوقف على معرفة ملاك توصيف المعاد بالجسماني والروحاني ، وإليك بيانه .

ملاك كون المعاد جسمانياً أو روحانياً

إن لتوصيف المعاد بالجسماني أو الروحاني ، أو هما معا ، ملاكين ، هما :

الملاك الأول : ما يرجع إلى اتخاذ موقف حاسم في حقيقة الإنسان ، وأنّها ما هي ، فلو قلنا بأن الإنسان عبارة عن هذا الهيكل الجسماني ، وليس للروح حقيقة وراء التفاعلات والإنفعالات المادية الفيزيائية والكيميائية ، وهي سارية في البدن سريان النار في الفحم ، والماء في الورد ـ لو قلنا بهذا ـ فلا مناص للقائل بالمعاد من توصيفه بكونه جسمانياً فقط ، إذ ليس هناك وراء الجسم ، والتأثير الماديين ، شيء آخر حتى يعاد .

وأما لو قلنا بأنّ وراء الجسم ، ووراء التفاعلات المادية ، جوهر حقيقي مدرك ، له تعلق بالبدن ، تعلّقاً تدبيرياً ما دامت العُلقة باقية ، فإذا زالت يكون له البقاء ولا يتطرق إليه الفناء . فلو قلنا بذلك ، ثم قلنا بأنّه سبحانه يبعث الروح مع البدن ، فالمعاد يكون جسمانياً من جهةٍ ، وروحانياً من جهةٍ أخرى ، لكون المبعوث ممزوجاً من شيئين ومؤلّفاً من أمرين ، ولكل معاد .

وأما لو قلنا بأنّ الروح ـ بعد مفارقتها البدن ـ لا ترجع إليه ، لعلةٍ ما ، فعندئذٍ تبعث الروح وحدها من دون تعلّقها بالبدن ، فيكون المعاد روحانياً فقط ، وهذا الملاك هو الذي يلوح من كلام صدر المتألهين ، وصهره عبد الرزّاق اللاهيجي[2] .

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٧ ، ص ٤٦ . ولاحظ حق اليقين ، للسيد شبّر ، ج ٢ ، ص ٥٢ . ولا نطيل الكلام بنقل كلمات الآخرين .

(٢) الأسفار ، ج ٩، ص ١٦٥ . و«گوهر مراد» المقالة الثالثة ، الباب الرابع ، ص ٤٤٩ . (فارسي)

الملاك الثاني : إنّ هناك ملاكاً آخر لكون المعاد جسمانياً ، وروحانياً ، يلوح ذلك من كلمات الشيخ الرئيس ، وهو تقسيم المعاد إلى الجسماني والروحاني ، حسب الثواب والعقاب الموعودَيْن : فلو قلنا إنّ العذاب والعقاب ينحصران بالجسماني منهما ، كنعيم الجنّة وحرّ الجحيم ، فيكون المعاد معاداً جسمانياً ، فقط ، وأما لو قلنا بأنّ هناك ـ وراء ذلك ـ ثواباً وعقاباً عقليين لا يمتّان إلى البدن بصلة ، بل يلتذ ويعاقب بهما الروح فقط ، فيكون المعاد ، وراء كونه جسمانياً ، روحانياً أيضاً ، وبعبارة أخرى : إلتذاذ النفس وتألّمها باللذات والآلام العقلية ، فهذا ملاك كون المعاد ، روحانياً .

قال الشيخ الرئيس : « يجب أنْ يعلَمَ أنّ المعاد منه ما هو مقبول من الشرع ، ولا سبيل إلى إثباته إلا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة ، وهو الذي للبدن عند البعث ، وخيراتُه وشرورُه معلومٌ لا يحتاج إلى أن يُعْلَمْ ، وقد بسطت الشريعة الحقّة التي أتانا بها سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله ، حال السعادة والشقاء التي بحسب البدن .

ومنه ما هو معلوم مدرَك بالعقل والقياس البرهاني ، وقد صدقته النبوة وهو السعادة والشقاوة الثابتتان بالقياس إلى نفس الأمر ، وإن كانت الأوهام منّا تقصر عن تصورهما الآن . والحكماء الإلهيون ، رغبتهم في إصابة هذه السعادة أكثر من رغبتهم في إصابة السعادة البدنية ، بل كأنهم لا يلتفتون إلى تلك وإن أعطوها ، فلا يستعظمونها في جنب السعادة التي هي مقاربة الحق الأول »[1] .

---

(١) النجاة ، ص ٢٩١ . والشفاء ، قسم الإلهيات ، المقالة التاسعة ، الفصل ٧ . والظاهر من كلام الشيخ الرئيس أنه لا سبيل إلى المعاد الجسماني إلا بالشريعة وتصديق خبر النبوة ، وقد فسّر كلامه بأنه لا يمكن إثبات المعاد الجسماني وعود البدن مع الروح في النشأة الأخرى بالبرهان ، وإنما الطريق إليه هو الشريعة . ولكنه تفسير خاطىء ، كيف والأقلون من هذا الشيخ الإلهي مرتبة يثبتون ذلك بالبراهين الفلسفية ، وإنما مراده من المعاد الجسماني هو اللذات والآلام الجسمانية من الجنة ونعيمها والنار ولهيبها ، فإن إثبات خصوص هذه اللذات يرجع إلى السمع وعالم الوحي ، ولولا السمع لما قدرنا على الحكم بأنّ الله سبحانه في النشأة الأخرى هذه النعم والنقم ، بل أقصى ما يمكن إثباته هو أن حشر الأجساد يمتنع أن يكون بلا غاية وبلا جهة ، أو بلا ثواب ولا عقاب ، وأما أن الثواب هو نفس ما ورد في الكتاب من الحور العين والفواكه والثمار وغيرها ، أو أنّ العقاب هو النار ولهيبها ،

وقال الإمام الرازي : « أمّا القائلون بالمعاد الروحاني والجسماني معاً ، فقد أرادوا أن يجمعوا بين الحكمة والشريعة فقالوا : دلّ العقل على أنّ سعادة الأرواح بمعرفة الله تعالى ومحبّته ، وأنّ سعادة الأجساد في إدراك المحسوسات ، والجمع بين هاتين السعادتين في هذه الحياة غير ممكن ، لأن الإنسان مع استغراقه في تجلّي أنوار عالم القدس ، لا يمكنه أن يلتفت إلى شيء من اللذات الروحانية ، وإنما تعذر هذا الجمع ، لكون الأرواح البشرية ضعيفة في هذا العالم ، فإذا فارقت بالموت ، واستمدت من عالم القدس والطهارة ، قويت وصارت قادرة على الجمع بين الأمرين ، ولا شبهة في أنّ هذه الحالة هي الحالة القصوى من مراتب السعادات »[1] .

وقال الحكيم السبزواري : « القول الفحل والرأي الجزل ، هو الجمع بين المعادين : لأن الإنسان بدن ونفس ، وإن شئت قلت نفس وعقل ، فللبدن كمال ، ومجازاة ، وللنفس كمال ومجازة وكذا للنفس وقواها الجزئية كمالات وغايات تناسبها وللعقل والقوى الكلية كمال وغاية ، ولأنّ أكثر الناس لا يناسبهم الغايات الروحانية العقلية ، فيلزم التعطيل في حقهم في القول بالروحاني فقط ، وفي القول بالجسماني فقط يلزم في الأقلين من الخواص والأخصينّ »[2] .

تحليل الملاكين في ضوء القرآن الكريم

إذا كان الملاك في توصيف المعاد بالجسماني أو الروحاني هو كون المحشور هو الجسم الحي وحده أو الروح وحدها ، فالقرآن الكريم يصدّق الأول وينكر الثاني ، وذلك أنّ مَنْ أمْعَن النظر في الآيات الواردة حول المعاد يقف على أنّ المعاد

فلا يثبته البرهان . ويؤيد ما ذكرنا أنّه يقول : « وهو الذي للبدن عند البعث وخيراته وشروره معلوم » . فالشيخ الرئيس إنما رُمِي بذلك لعدم تفريقهم بين الملاكين في توصيف المعاد بالجسماني أو الروحاني ، فزعموا أنّ الملاك عنده هو الأول منها وغفلوا عن أنّ الملاك هو الثاني منها كما يعلم من التأمل في كلامه .

(١) شرح العقائد العضدية للمحقق الدواني ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٦٥ ، تعليقة المحقق السبزواري .

الذي يصر عليه القرآن هو عود البدن الذي كان الإنسان يعيش به في هذه الدنيا ، ولا يصدّق عود الروح وحدها فقط . ويظهر ذلك من ملاحظة أصناف الآيات الواردة حول المعاد ، ونحن نأتي فيما يلي بلفيف منها :

١ ـ ما ورد في قصة إبراهيم وبقرة بني إسرائيل وإحياء عزير ، وأُمّة من بني إسرائيل وأصحاب الكهف[١] .

٢ ـ الآيات التي تصرح بأنّ الإنسان خُلِق من الأرض وإليها يُعاد ، ومنها يُخرَج .

يقول سبحانه : ﴿ مِنْها خَلَقْناكُم وفيها نُعِيدُكُمْ ومنها نُخْرِجُكُم تارَةً أُخرى ﴾[٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ ثُمّ يُعيدُكُمْ فيها وَيُخْرِجُكُمْ إخراجاً ﴾[٣] .

ويقول سبحانه : ﴿ ثُمّ إذا دعاكُمْ دَعْوَةً من الأرْضِ إذا أنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[٤] .

ويقول سبحانه : ﴿ قال فيها تَحْيَوْنَ وفيه تَموتون ومِنْها تُخْرَجُونَ ﴾[٥] .

٣ ـ الآيات التي تدل على أنّ الحشر عبارة عن الخروج من الأجداث والقبور ، مثل قوله سبحانه : ﴿ فإذا هُمْ مِنَ الأجداثِ إلى رَبّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجونَ مِنَ الأجْداثِ كأنّهمْ جَرادٌ مُنْتشِرٌ ﴾[٧] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجْداثِ سِراعاً كأنّهمْ إلى نُصُبٍ

---

(١) لاحظ البحث الخامس من مباحث المعاد ، حيث ذكرنا نماذج من إحياء الموتى في الشرائع السابقة .

(٢) سورة طه : الآية ٥٥ .

(٣) سورة نوح : الآية ١٨ .

(٤) سورة الروم : الآية ٢٥ .

(٥) سورة الأعراف : الآية ٢٥ .

(٦) سورة يس : الآية ٥١ .

(٧) سورة القَمَرْ : الآية ٧ .

يوفِضونَ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ إنّ اللّهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبورِ ﴾[2]

وقوله تعالى : ﴿ وإذا القُبورُ بُعْثِرَتْ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ أفَلاَ يَعْلَمُ إذا بُعْثِرَ ما في القُبور ﴾[4]

٤ ـ ما يدل على شهادة الأعضاء ، قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ ألْسِنَتُهُمْ وأيْدِيهِمْ وأرْجُلُهُمْ بما كانوا يَعْمَلُونَ ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ وَتُكَلّمُنَا أيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أرْجُلُهُمْ بما كانوا يكسبون ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ حتى إذا ما جاؤوها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبْصَارُهُمْ وَجُلودُهُم ﴾[7] .

٥ ـ ما يدل على تبديل الجلود بعد نضجها وتقطّع الأمعاء .

قال سبحانه : ﴿ كُلّما نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَها ، لِيَذوقوا العذابَ ﴾[8] .

وقال سبحانه : ﴿ وَسُقوا ماءً حَمِياً ، فَقَطَّع أمْعاءَهُم ﴾ [9] .

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في مواقف القيامة ، ومشاهدها ، ونعيم الجنة وعذاب الجحيم ، التي لا تدع لمريب ريباً في أنّ الإنسان سوف يبعث بهذا

---

(١) سورة المعارج : الآية ٤٣ .
(٢) سورة الحج : الآية ٧ .
(٣) سورة الإنفطار : الآية ٤ .
(٤) سورة العاديات : الآية ٩ .
(٥) سورة النور : الآية ٢٤ .
(٦) سورة يس : الآية ٦٥ .
(٧) سورة فصلت : الآية ٤١ .
(٨) سورة النساء : الآية ٥٦ .
(٩) سورة محمد : الآية ١٥ .

البدن العنصري الذي تكون له الحياة بالنحو الذي كانت له في الدنيا ، وهذا مما لا نشك فيه .

هذا كله حول الِملاك الأوّل ، وإليك البحث في الملاك الثاني الذي حاصله أنّ اتصاف المعاد بالجسماني أو الروحاني ، يرجع إلى كون الثواب والعقاب جسمانيين فقط ، أو أنّ هناك لذات وآلام روحية تلتذ بها النفس أو تتألّم ، ولا دخالة للجسم في حصول اللّذة والألم .

إن القرآن الكريم يصدّق كلا المعادين بهذا الملاك حيث يثبت اللذات والآلام الجسمانية والروحانية ، ولا يخص الثواب والعقاب بما يعرض للنفس عن طريق البدن ، وبواسطته . وإليك ما يدل على ذلك :

أما ما يدل على الثواب والعقاب الجسمانيين ، فحدّث عنه ولا حرج ، فالجنة والنار وما فيهما من النعم والنقم يرجعان إلى اللذات والآلام الجسمانية . وإنما الكلام فيما يدل من الآيات على اللذات والآلام الروحية فقط ، وفيما يلي نذكر بعضاً منها :

١ ـ لذة رضاء المعبود

يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللّهُ المُؤْمِنينَ والمُؤْمِنَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خالدينَ فيها ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ من اللّهَ أَكْبَر ، ذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ ﴾(١) .

فترى أنه سبحانه يجعل رضوان الله في مقابل سائر اللّذات الجسمانية ، ويصفه بكونه أكبر من الأولى ، وأنّه هو الفوز العظيم .

ومن المعلوم أنّ هذا النوع من اللّذة لا يرجع إلى الجسم ، بل هي لذّة تدرك بالعقل ، والروح في درجتها القصوى .

وهنا كلمة مروية عن الإمام الطاهر علي بن الحسين قال : إذا صار أهل

---

(١) سورة التوبة : الآية ٧٢ .

الجنة ، ودخل وليُّ الله إلى جنـانه ومسـاكنه ، واتكـأ كل مؤمن منهم عـلى أريكته ، حفتـه خدّامـه وتهدلت عليـه الثمار ، وتفجـرت حولـه العيون ، وجـرت من تحتـه الأنهار ، وبسطت له الزرابي ، وصففت له النمارق وأتته الخدام بما شـاءت شهوتـه من قبل أن يسألهم ذلك ، قال : ويخرجون عليهم الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله .

ثم إنّ الجبار يشرف عليهم فيقول لهم : أوليائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جـواري ، هل أُنبئكم بخـير مما أنتم فيـه ، فيقولـون ربنا وأي شيء خـير ممـا نحن فيـه ، نحن فيها اشتهت أنفسنـا ، ولذّت أعيننـا من النعم في جوار الكـريم ، قال فيعود عليهم بالقـول ، فيقولوا : ربّنا نعم، فـائتنا بخـير مما نحن فيـه ، فيقول لهم تبارك وتعالى : رضائي عنكم ومحبتي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه ، قال : فيقولون نعم يـا ربنا ، رضـاك عنا ومحبتـك لنا خـير لنا وأطيب لأنفسنـا . ثم قـرأ عـلي بن الحسين هذه الآية : ﴿ **وَعَدَ اللّهُ المُؤمِنينَ والمُؤمِنَاتِ جَنّاتٍ تَجْري من تَحْتَهـا الأنْهارُ خـالدِينَ فيهـا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَـةً في جَنّاتِ عَـدْنٍ وَرِضْوانٌ من الله أكْـبَرُ ذلِـكَ الفَـوْزُ العظيمُ** ﴾[1] .

٢ ـ ألم الإبتعاد عن رحمة الله ؟

إذا كان إدراك رضوان المعبود أعظم اللذات العقليـة ، فإدراك الإبتعـاد عن رحمة الله التي وسعت كلّ شيء ، من أعظَم الآلام العقلية . ولأجـل ذلك نـرى أنّه سُبْحانه يوعد المنافقين والكفار بالنّار ، ويُعَقِّبه بلعنهم. فكأنّ هناك أَلَمَيْن : جِسْمي هو التعذيب بالنار ، وعقلي، وهو إدراكهم ألم الإبتعاد عن رحمته .

يقول سبحانه : ﴿ **وَعَدَ اللّهُ المُنافِقِينَ والمُنافِقات والكُفّارَ نَارَ جَهَنّم خـالدين فيها هي حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمْ وَلَهُمْ عذابٌ مُقيمٌ** ﴾[2] .

ويظهر عظم هذا الألم ، بوقوع هـذه الآية قبـل آية الـرضوان فكـأنّ الآيتين

(١) بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ١٤٠ ، كتاب العدل والمعاد ، الحديث ٥٧ .
(٢) سورة التوبة : الآية ٦٨ .

تُعْـربان عن اللذات والآلام العقليـة التي تـدركـها الـروح بـلا حـاجـة إلى الجسم والبدن .

٣ ـ الحسرة يوم القيامة

يقول سبحانه : ﴿ إذ تَـبَرَّأَ الذين اتّبعوا مِنَ الـذينَ آتَّبِعُوا ، وَرَأَوُا العـذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ الأَسْبَابُ * وقال الذينَ اتَّبَعوا لَوْ أنّ لنـا كَرَّةً فَنَتَـبرّأ منهم كما تَتَـبرّءُوا مِنّـا كـذلـك يُـرِيهِمُ اللّهُ أعْمَـالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ ، ومـا هُمْ بخـارِجـينَ مِنَ النّارِ ﴾[١] .

إن أصحاب الجحيم عندما يقفون على درجات الجنة ومقامـات أصحابهـا ، وما حلّ بهم من السعادة والكرامة والراحـة والإستظلال بـرحمة الله تبـارك وتعالى ، وتفرغهم عن كل همّ وحزن ، ثم ينظرون إلى ما حلّ بهم من عذاب أليم ، وطعام من غِسلين[٢] ، وضريع[٣] ، وشراب من حميم[٤] ، يتحسرون على ما ضيّعوا من الفرص ، ويندمون على ما فوّتوا في الدنيـا وفرطـوا في حياتهم ، ولكنهـا الحسرة في وقت لا تنفع فيه .

وهذا النوع من العـذاب ـ أعني الحسـرة ـ أشد عـلى النفس مما يحـل بها من عـذاب البدن ، ولأجـل ذلك يسمى يـوم القيامـة بيوم الحسرة ، قـال سبحانـه : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأمْرُ وَهُمْ في غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[٥] .

روى أبو سعيد الخدري ، قال : قـال رسول الله صـلى الله عليه وآلـه : إذا دخـل أهل الجنـة الجنـةَ ، وأهـل النـارِ النـارَ ، قيـل يـا أهـل الجنـة ، فيشرئبـون وينظرون ، وقيل يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيجاء بالموت ، كـأنّه كبش أمْلَح ، فيقال لهم : تعرفون الموت ، فيقـولون : « هـذا ، هذا » وكُـلّ قد عـرفه ،

---

(١) سورة البقرة : الآيتان ١٦٦و١٦٧ .
(٢) سورة الحاقة : الآية ٣٦ .
(٣) سورة الغاشية : الآية ٦ .
(٤) سورة الأنعام : الآية ٧ .
(٥) سورة مريم : الآية ٤٠ .

قال : فيقدم فَيُذْبَحْ ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت . قال : وذلك قوله : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ ﴾ .

ورُوي هذا الحديث عن الإمامين الصادِقَيْنْ عليهما السلام ، بزيادة : « فَيَفْرَحُ أهل الجنة فرحاً ، لو كان أحد يومئذٍ ميتا ، لماتوا فَرَحاً ، ويشهق أهل النار شهقة ، لو كان أحد ميّتاً ، لماتوا »[1] .

٤ ـ لقاء الله ومشاهدته العقلية

إن هناك لفيفاً من الآيات تعرب عن تمكن المؤمن من لقائه سبحانه يوم القيامة ، يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ كان يَرْجو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبَادِةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾[2] .

وهذه الآيات الوافرة تشير إلى لقائه سبحانه . ولكن المفسرين ـ تنزيهاً له سبحانه عن الجسم والجسمانيات ـ أوّلوها إلى لقاء جزائه سبحانه وثوابه وعقابه ، ورضاه وسخطه ، وهذا المعنى مع صحته في نفسه ، ومع التركيز على تنزيهه سبحانه عن المشاهدة بالعيون المادية ، لا يمكن أنْ يكون معرباً عن كلّ ما تهدف إليه لآية ، فإن لهذه الآيات معنىً دقيقاً يدركه العارفون الراسخون في معرفته سبحانه ، القائلين بأنّ المعرفة ، بذر المشاهدة ، لكن لا مشاهدة جسمانية ، بل مشاهدة قلبية وعقلية ، ولّما كان بيان هذا النوع من اللّذة العقلية ، خارجاً عن موضوع الكتاب نقتصر على هذا المقدار . ومن أراد التفصيل فليرجع إلى محله[3] .

---

(١) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٥١٥ .

(٢) سورة الكهف : الآية ١١٠ ، وردَ هذا المضمون في الذكر الحكيم في سور كثيرة منها : الأنعام : ٣١ ، و١٥٤ ، يونس : ٧و١١ و١٥ و٤٥ ، العنكبوت : ٥ و٢٣ ، السجدة : ١٠ و٣ ، فصلت : الآية ٥٤ .

(٣) ما ذكرناه نماذج من اللذات والآلام الروحية الدالة على أن الثواب والعقاب ليسا محصورين في الجسماني منهما ، ومن أراد التوسع فليلاحظ كتاب « لقاء الله » ، للعارف الكبير ، الشيخ جواد المَلَكي ، (م١٣٤٤) . وهناك روايات وردت حول الموضوع ، فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى توحيد الصدوق ، وإلى الموسوعة القرآنية : « مفاهيم القرآن » .

المعاد الروحاني عند الحكماء

قد وقفت على تضافر آيات الكتاب وأحاديث السنّة على عدم حصر المعاد في الجسماني ، كما تعرفت على حكم العقل في ذلك المجال ، وأنّ حصره في المعاد الجسماني يخالف رحمة الله الواسعة وحكمته البالغة ، وعلى ذلك فالشرع والعقل متعاضدان على أنّ هناك معاداً غير المعاد الجسماني ، ولكن يجب إلفات نظر الباحث في المقام إلى نكتة وهي أنّ المعاد الروحاني في الكتاب والسنّة يرجع إلى اللذات والآلام الروحية التي تلتذ بها النفس أو تتألم من دون حاجة إلى آلة جسمانية . وقد عرفت ما هو الوارد في الكتاب في هذا المجال من رضوانه سبحانه ولقائه والإبتعاد عن رحمته وإحاطة الحسرة بالإنسان في تلك النشأة ، فهذه هي حقيقة المعاد الروحاني التي تتلخص في غير اللذات والآلام الجسمانية ، وعلى هذا فهو يعمّ جميع أهل الجنة والنار من غير فرق بين الكاملين والمتوسطين .

وعلى الجملة هناك لذّات روحية وآلام كذلك تحيط أهل الجنّة والنار من غير فرق بين طبقاتهم . وأمّا المعاد الروحاني عند الحكماء ، فهو يختلف عمّا وقفنا عليه في الكتاب بأمرين :

الأول : إنّهم يخُصّون المعاد الروحاني باللذات العقلية أي درك العقل الأمور الملائمة والمنافرة له ، فإن اللذة عندهم على وجه الإطلاق تفسَّر بإدراك الملائم من حيث هو ملائم ، كالحلو من المذوقات . والملائم للنفس الناطقة ، إدراك المعقولات بأنْ تتمكن النفس من تصوّر ما يمكن أنْ يدرَك من الحق تعالى ، وأنه واجب الوجود ، بريء عن النقائص والشرور والآفات ، منبع فيضان الخير على الوجه الأصوب ، ثم إدراك ما يترتب بعده من العقول والنفوس المجرّدة والأجرام السماوية والكائنات العنصرية حتى تصير النفس بحيث ترتسم فيها صور جميع الموجودات على الترتيب الذي هو لها .

وعلى هذا فإدراك الحس ، الملائم للحس ، معاد جسماني . وإدراك العقل ، الملائم له ، من الوجودات العالية ، معاد روحاني .

وهذه العلوم وإن كانت حاصلة لبعض النفوس في هذه النشأة إلا أنّها معرفة

ناقصة تتجلى بعد الموت في النشأة الأخرى بصورة كـاملة برفـع الموانـع والحجب ، فكـأنّ المعرفـة العقلية بـذر المشاهـدة . فتلتذ النفـوس في النشأة الأخـرى بـإدراك الأكمل فالأكمل .

وهذا كما ترى غير ما أشار إليـه القرآن من اللذات الـروحية ، نعم لا مـانع من ثبـوت كلا النـوعين من المعـاد الروحـاني ، وليس الـوارد في القـرآن راداً لهـذا القسم .

الثاني : إنّ المعاد الـروحاني الـوارد في القرآن الكـريم يعمّ جميع النفـوس ، كاملة كانت أو متوسطة أو ناقصة . ولكن المعاد الروحاني الذي عليه الحكماء يختص بصنف خـاص ، وهم الكاملون في المعـرفة . وذلـك لأنّ المعاد الـروحـاني حسب الكتـاب والسنـة ، يـرجـع إلى اللذائـذ الـروحيـة لا إلى اللذة العقليـة التي تختص بالكاملين في المعرفة .

يقول صدر المتألهين : « وهـذا النوع من اللذة والسعـادة لا تنالهـا كل نفس وإنما ينالها من عرف العقليات في النشأة الأولى ، لأن المعرفة بذر المشاهـدة فمعرفـة العقليات في النشأة الأولى منشأ الحضور في العقبى »[1] .

إن النفوس مختلفة ومنقسمة إلى كاملة ومتوسطة وناقصة ، فلا شك أنّ حصر المعـاد في الجسماني يخـالف رحمته الـواسعة وحكمتـه البـالغـة إذ النفـوس النـاقصـة والمتوسطة ، وإن كانت تلتذ بنعيم الجنة ، ولكن النفوس الكاملة لا تلتفت إلى مثلها بل تطلب غاية أعـلى منها ، ولأجـل ذلك يجب أن يكـون هناك وراء هـذه اللذات الحسية ، لذة عقلية تتشوق إليهـا النفوس الكـاملة وتصبو إليهـا ، وليست هي إلا نيل مقامات القرب من الحق تعالى .

يقـول الحكيم السبزواري : « لـو حصروا المعاد في الجسـماني لكـان قصـوراً حيث عـطّلوا النفوس الكـاملة عن البلوغ إلى غايـاتها ، لأنها المستصغـرة للغايـات الجزئية ، الطالبة للإتصال بالأرواح المرسلة ، بل لمحض القرب من الله تعالى » .

---

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٢٣و١٢٩

وقال في موضع آخر : « إنّ الخلق طبقات فالمجازات متفاوتة ، فكل منها محبوب ومرغوب وجزاء يليق بحالها ، واللذائذ الحسية للكمل في العلم والعمل ، كالظلّ غير الملتفت إليه بالذات ، والتفاتهم بباطن ذواتهم وما فوقهم »[1] .

ثم إن للحكماء المتألهين في تبيين السعادة والشقاء الأخرويين العقليين مباحث مهمة لا سيما في تبيين دور العقل النظري والعملي فيهما فمن أراد الوقوف عليها ، فليرجع إلى مظانها[2] .

* * *

---

(١) لاحظ إلهيات الشفاء ، والمبدأ والمعاد للشيخ الرئيس . والأسفار الأربعة لصدر المتألهين ، ج ٩ . وشرح المنظومة ، وأسرار الحكم ، كلاهما للحكيم السبزواري ، وغيرها من كتب الفلاسفة .

(٢) شرح المنظومة للحكيم السبزواري ، المقصد السادس ، الفريدة الثانية .

مباحث المعاد

(١١)

الرجعة

قضية الرجعة التي تحدثت عنها بعض الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن أهل بيت الرسالة، مما تعتقد به الشيعة من بين الأمة الإسلامية ، وليس هذا بمعنى أنّ مبدأ الرجعة يُعَدُّ واحداً من أصول الدين ، وفي مرتبة الإعتقاد بالله وتوحيده ، والنبوة والمعاد بل إنها تُعَدُّ من المسلّمات القطعية ، وشأنها في ذلك شأن كثير من القضايا الفقهية والتاريخية التي لا سبيل إلى إنكارها . مثلاً : إتفقت كلمة الفقهاء على حرمة مسّ النساء في المحيض ، بنص الكتاب العزيز يقول تعالى : ﴿ وَيَسْألونَكَ عن المحيض قُلْ هُوَ أذىً فَاعْتَزِلوا النِّساء في المَحِيضِ ولا تَقْرَبُوهُنّ حتى يَطْهُرْنَ ﴾[1] .

ودلّت الوثائق التاريخية على أنّ معركة بدر وقعت في السنة الثانية للهجرة . فالأولى قطعية فقهية ، والثانية قطعية تاريخية ، ولكن لا يعدان من أصول العقائد الإسلامية ، وشأن الرجعة في هذا المجال شأنهما .

إذا عرفت ذلك نقول : الرجعة في اللُّغة ترادف العودة ، وتطلق إصطلاحاً على عودة الحياة إلى مجموعة من الأموات بعد النهضة العالمية للإمام المهدي عليه السلام وهذه العودة تتم بالطبع قبل حلول يوم القيامة . وطبقاً لهذا المبدأ ، فالحديث عن العودة ، يُعَدُّ من أشراط القيامة .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٢ .

وعلى ضوء ذلك ، فظهور الإمام المهدي عليه السلام شيءٌ ، وعودة الحياة إلى مجموعة من الأموات شيء آخر ، كما أن البعث يوم القيامة أمر ثالث ، فيجب تمييزها وعدم الخلط بينها .

قال الشيخ المفيد : « إن الله تعالى يحشر قوماً من أُمة محمد صلى الله عليه وآله ، بعد موتهم ، قبل يوم القيامة ، وهذا مذهب يختص به آل محمد (صلوات الله عليه وعليهم) ، والقرآن شاهد به »[1] .

وقال المرتضى متحدثاً عن الرجعة عند الشيعة : « إعلم أنّ الذي تذهب الشيعة الإمامية إليه ، أنّ الله تعالى يعيد عند ظهور إمام الزمان ، المهدي عليه السلام ، قوماً ممن كان قد تقدّم موته من شيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ، ومشاهدة دولته ، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم ، فيلتذوا بما يشاهدون من ظهور الحق وعلو كلمة أهله »[2] .

وقال العلامة المجلسي : « والرجعة إنما هي لمحضي الإيمان من أهل الملّة ، وممحضي النفاق منهم ، دون من سلف من الأمم الخالية »[3] .

فالإعتقاد بالرجعة من الأمور القطعية المسلّم بها ، والروايات الكثيرة الواردة عن الأئمة المعصومين لا تُبقي أي مجال للشك في وقوعها .

يقول العلامة المجلسي : « كيف يشك مؤمن بحقيّة الأئمة الأطهار فيما تواتر عنهم فيما يقرب من مائتي حديث صريح ، رواها نيّف وثلاثون من الثقات العظام ، في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم كثقة الإسلام الكليني والصدوق و . . . »[4] .

وقد وصف الشيخ الحرّ العاملي الروايات المتعلّقة بالرجعة بأنها أكثر من أن

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٥٣ ، ص ١٣٦ ، نقلاً عن المسائل السروية ، للشيخ المفيد .

(٢) المصدر السابق نفسه ، نقلاً عن رسالة كتبها السيد المرتضى جواباً على أسئلة أهل الريّ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، وقد نقل أقوال علماء الشيعة ونصوصهم في هذا الجزء من بحاره فمن أراد زيادة الاطلاع فليرجع إليه ص ٢٢-١٤٤ .

(٤) المصدر السابق .

تعد وتحصى وأنّها متواترة معنى [1] .

هذه بعض كلمات كبار علماء الشيعة ومحدثيهم حول الرجعة ، ويقع الكلام في مقامين

الأول ـ إمكان الرجعة .

الثاني ـ الدليل على وقوعها في هذه الأمة .

* * *

المقام الأول : إمكان الرجعة

يكفي في إمكان الرجعة ، إمكان بعث الحياة من جديد يوم القيامة ، فإنّ الرجعة والمعاد ، ظاهرتان متماثلتان ومن نوع واحدٍ مع فارق أنّ الرجعة محدودة كيفاً وكمّاً ، وتحدث قبل يوم القيامة ، بينما يبعث جميع الناس يوم القيامة ليبدأوا حياتهم الخالدة .

وعلى ضوء ذلك ، فالإعتراف بإمكان بعث الحياة من جديد يوم القيامة ، ملازم للإعتراف بإمكان الرجعة في حياتنا الدنيوية . وحيث إنّ حديثنا مع المسلمين الذين يعتبرون الإيمان بالمعاد من أصول شريعتهم ، فلا بد لهؤلاء إذن من الإعتراف بإمكانية الرجعة .

أضف إلى ذلك أنّه قد وقعت الرجعة في الأمم السالفة كثيراً ، وقد تحدثنا عنه عند ذكر شواهد من إحياء الموتى في الأمم السالفة نظير :

١ ـ إحياء جماعة من بني إسرائيل [2] .

٢ ـ إحياء قتيل بني إسرائيل [3] .

---

(١) الإيقاظ من الهجعة ، الباب الثاني ، الدليل الثالث .

(٢) سورة البقرة : الآيتان ٥٥و٥٦ .

(٣) سورة البقرة : الآيتان ٧٢و٧٣ .

٣ ـ موت ألوف من الناس وبعثهم من جديد[١] .

٤ ـ بعث عُزَيْر بعد مائة عام من موته[٢] .

٥ ـ إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام[٣] .

وبعد وقوع الرجعة في الأمم السالفة ، هل يبقى مجال للشك في إمكانها ؟

وتصوُّر أنّ الرجعة من قبيل التناسخ المحال عقلاً ، تصوُّر باطلٌ ، لأنّ التناسخ عبارة عن رجوع الفعلية إلى القوة ، ورجوع الإنسان إلى الدنيا عن طريق النطفة ، والمرور بمراحل التكوُّن البشري من جديد ، ليصير إنساناً مرة أخرى ، سواء أدَخَلَتْ روحُه في جسم إنسان أم حيوان ، وأين هذا من الرجعة وعود الروح إلى البدن المتكامل من جميع الجهات ، من دون أن يكون هناك رجوع إلى القوة بعد الفعلية .

* * * *

المقام الثاني ـ أدلة وقوع الرجعة

يدل على وقوع الرجعة في هذه الأُمّة قوله تعالى: ﴿ وإذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ أخْرَجْنا لَهُمْ دابّةً مِنَ الأرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أنّ النّاسَ كانوا بآياتنا لا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كلِّ أُمّةٍ فَوْجاً مِمّنْ يُكَذِّبُ بآياتنا فَهُمْ يوزَعون ﴾[٤] .

لا يوجد بين المفسّرين من يشك بأنّ الآية الأُولى تتعلق بالحوادث التي تقع قبل يوم القيامة ، ويدل عليه ما روي عن النبي الأكرم من أنّ خروج دابة الأرض من علامات يوم القيامة ، إلا أنّ هناك خلافاً بين المفسرين حول المقصود من دابة الأرض ، وكَيفِيّة خروجها ، وكيف تتحدث ، وغير ذلك ممّا لا نرى حاجة لطرحه ؟ .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٣ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .
(٤) سورة النمل : الآيتان ٨٢و٨٣ .

روى مُسلم أنّه قال رسول الله : إنّ الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خسفٌ بالمشرق ، وَخَسْفٌ بالمغرب ، وخسف في جزيرة العرب ، والدخان ، والدجّال ، ودابّة الأرض ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونارٌ تخرج من قعر عدن ترحل الناس »[1]

إنما الكلام في الآية الثانية ، والحق أنّها ظاهرة في حوادث قبل يوم القيامة ، وذلك لأنّ الآية تركز على حشر فوج من كل جماعة بمعنى عدم حشر الناس جميعاً ، ومن المعلوم أنّ الحشر ليوم القيامة يتعلق بالجميع ، لا بالبعض ، يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ نُسَيِّرُ الجبالَ وَتَرى الأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ ، فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾[2] أفَبَعْدَ هذا التصريح ، يمكن تفسير ظرف الآية بيوم البعث والقيامة ؟ .

وهناك قرينتان أخريان ، تحقّقان ظرفها لنا ، إن كنّا شاكين ، وهما :

أوّلاً ـ إنّ الآية المتقدمة عليها تذكر للناس علامة من علامات القيامة ، وهي خروج دابة الأرض ، ومن الطبيعي ، بعد ذلك أنّ حشر جماعة من الناس يرتبط بهذا الشأن .

ثانياً ـ ورد الحديث في تلك السورة عن القيامة في الآية السابعة والثمانين ، أي بعد ثلاث آيات ، قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّور فَفَزِعَ مَنْ في السّمواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ إلاّ مَنْ شاء الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ ﴾[3] .

وهذا يعرب عن أنّ ظرف ما تقدم عليها من الحوادث يتعلق بما قبل هذا اليوم ، ويُحقّق أنّ حشر فوج من الذين يكذبون بآيات الله يحدث حتماً قبل يوم القيامة ، وهو من أشراط هذا اليوم ، وسيقع في الوقت الذي تخرج فيها دابة من الأرض تكلم الناس .

ومن العجب قول الرازي بأنّ حشر فوج كل من أُمّة سيقع بعد قيام

---

(١) صحيح مسلم ، ج ٨ ، كتاب الفتن ، وأشراط الساعة ، باب في الايات التي تكون قبل الساعة ، ص ١٧٩ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٤٧ .

(٣) سوزة النمل : الآية ٨٧

الساعة[1] . فإنّ هذا الكلام خاوٍ لا يستند إلى أيّ أساس . وترتيب الآيات وارتباطها ببعضها ، ينفيه ، ويؤكّد ما ذهب إليه الشيعة من أنّ الآية تشير إلى حدثٍ سيقع قبل يوم القيامة .

أضف إلى ذلك أنّ تخصيص الحشر ببعضٍ ، لا يجتمع مع حشر جميع الناس يوم القيامة .

نعم ، الآية قد تحدثت عن حشر المكذبين ، وأما رجعه جماعة أُخرى من الصالحين فهو على عاتق الروايات الواردة في الرجعة .

وأمّا كيفية وقوع الرجعة وخصوصياتها فلم يتحدث عنها القرآن ، كما هو الحال في تحدثه عن البرزخ والحياة البرزخية .

ويؤيد وقوع الرجعة في هذه الأُمّة وقوعها في الأُمم السالفة كما عرفت . وقد روى أبو سعيد الخدري أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : « لَتَتَّبِعُنّ سُنَنَ من كان قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . حتى لو دخلوا جحر ضبّ لتبعتموه . قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟[2] .

وروى أبو هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « لا تقوم الساعة حتى تُؤْخذ أمّتي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، فقيل : يا رسول الله : كفارس والروم ، قال : وَمَنِ النّاس إلاّ أُولئك ؟[3] .

وروى الشيخ الصدوق رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « كل ما كان في الأمم السابقة فإنه يكون في هذه الأُمة مثله ، حذو النعل بالنعل ، والقذّة بالقذّة »[4] .

---

(١) مفاتيح الغيب ، ج ٤ ، ص ٢١٨ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الإعتصام بقول النبي ، ج ٩ ، ص ١١٢ .
(٣) صحيح البخاري ج ٩ ، ص ١٠٢ . وكنز العمال ، ج ١١ ، ص ١٣٣ .
(٤) كمال الدين ، ص ٥٧٦ .

وبما أنّ الرجعة من الحوادث المهمة في الأُمم السالفة ، فيجب أن يقع نظيرها في هذه الأُمة أخذاً بالمماثلة ، والتنزيل .

وقد سأل المأمون العباسي ، الإمام الرضا عليه السلام عن الرجعة فأجابه ، بقوله : إنّها حق ، قد كانت في الأُمم السالفة ، ونطق بها القرآن ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يكون في هذه الأُمة كل ما كان في الأُمم السالفة حذو النعل بالنعل ، والقذة بالقذة[1] .

هذه هي حقيقة الرجعة ودلائلها ، ولا يدّعي المعتقدون بها أكثر من هذا ، وحاصله عودة الحياة إلى طائفتين من الصالحين والطالحين ، بعد ظهور الإمام المهدي عليه السلام ، وقبل وقوع القيامة . ولا ينكرها إلّا من لم يمعن النظر في أدلتها[2] .

* * *

أسئلة وأجوبتها

السؤال الأول ـ كيف يجتمع إعادة الظالمين مع قوله سبحانه : ﴿ **وَحَرامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعونَ** ﴾[3] فإن هذه الآية تنفي رجوعهم بتاتاً ، وحشر لفيف من الظالمين يخالفها .

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٥٣ ، ص ٥٩ ، الحديث ٤٥ .

(٢) بقي هنا بحثان :

١ ـ من هم الراجعون .

٢ ـ ما هو الهدف من إحيائهم .

وإجمال الجواب عن الأول أن الراجعين لفيف من المؤمنين ولفيف من الظالمين .

وإجمال الجواب عن الثاني ما جاء في كلام السيد المرتضى المنقول آنفاً ، حيث قال : « إن الله تعالى يعيد عند ظهور إمام الزمان ، المهدي عليه السلام ، قوماً ممن كان تقدم موته من شيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ، ومشاهدة دولته ، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم . . . إلى آخر كلامه » .

لاحظ تفصيل جميع ذلك في البحار ، ج ٥٣ . والايقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة ، للشيخ الحر العاملي .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٩٥ .

والجواب : إن هذه الآية مختصة بالظالمين الذين أُهلكوا في هذه الدنيا ورأوا جزاء عملهم فيها ، فهذه الطائفة لا ترجع . وأما الظالمون الذين رحلوا عن الدنيا بلا مؤاخذة ، فيرجع لفيف منهم ليروا جزاء عملهم فيها ، ثم يُرَدُّون إلى أشد العذاب في الآخرة أيضاً . فالآية لا تمت إلى مسألة الرجعة بصلة .

السؤال الثاني ـ إن الظاهر من قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحَدَهُمُ الموتُ قالَ رَبِّ ارْجِعونِ لَعَلّي أعْمَلُ صالحاً فيما تَرَكْتُ ، كلا إنّها كَلِمَةٌ هو قائِلُها ، وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يوم يُبْعَثُونَ ﴾(١) ، نفي الرجوع إلى الدنيا بعد مجيء الموت .

والجواب : إنّ الآية تحكي عن قانون كلّي قابل للتخصيص في مورد دون مورد ، والدليل على ذلك ما عرفت من إحياء الموتى في الأُمم السالفة ، فلو كان الرجوع إلى هذه الدنيا سنة كليةً لا تتبعض ولا تتخصص ، لكان عودها إلى الدنيا مناقضاً لعموم الآية .

وهذه الآية ، كسائر السنن الإلهية الواردة في حق الإنسان ، فهي تفيد أنّ الموت بطبعه ليس بعده رجوع ، وهذا لا ينافي الرجوع في مورد أو موارد ، لمصالح عُلْيا .

السؤال الثالث ـ إن الإستدلال على الرجعة مبني على جعل قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمّةٍ فَوْجاً مِمّن يُكذِّبُ بآياتِنا فَهُمْ يوزَعونَ ﴾ ، حاكياً عن حادثة تقع قبل القيامة ، ولكن من الممكن جعلها حاكية عن الحادثة التي تقع عند القيامة ، غير أنّها تقدمت على قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ ﴾ ، وكان طبع القضية تأخيرها عنه ، والمراد من الفوج من كل أمّة هو الملأ من الظالمين ورؤسائهم .

والجواب : أولاً ، إنّ تقديم قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ . . . ﴾ ، على فرض كونه حاكياً عن ظاهرة تقع يوم القيامة ، على قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ ﴾ ، ليس إلاّ إخلال في الكلام ، بلا مسوغ .

---

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ١٠٠و١٠١ .

وثانياً ، إن ظاهر الآيـات أنّ هناك يـومين ، يـومُ حشر فوج من كـل أُمّة ، ويوم نفخ في الصور ، وجعل الأول من متمّمات القيامة ، يستلزم وحدة اليـومين ، وهو على خلاف الظاهر[1] .

* * *

(١) وإذا أحطت خُبراً بمـا ذكرنـاه ، يتبين لـك سقوط كثير مما ذكـره الألوسي في تفسـيره عند البحث عن الآية . لاحظ تفسيره ، ج ٢٠ ، ص ٢٦ .

مباحث المعاد

(١٢)

التّناسخ وأقسامه وبراهين بُطلانه

التناسخ من النسخ بمعنى النقل[١] ، أو بمعنى إزالة بشيءٍ يتعقبه ، كنسخ الشمس الظل ، والشيب الشبابَ[٢] .

فالنسخ يعرب عن خصوصيتين : النَّقْلُ والتَّحوّل . وسيوافيك أنّ كلتيهما مأخوذتان في التناسخ المصطلح ، الذي يعرب عن حالة نقل وتحوّل خاصة .

ثم إن للإنتقال أقساماً ما نشير إليها :

أ ـ الإنتقال من النشأة الدنيوية إلى النشأة الأُخروية الذي نسمية بالمعاد .

ب ـ الإنتقال من القوة إلى الفعل ، كانتقال النفس في ظل الحركة الجوهرية إلى كمالها الممكن .

ج ـ إنتقال النفس بالموت ، من البدن المادي إلى بدن مثله في هذه النشأة . وهذا النوع من الإنتقال هو التناسخ المصطلح الذي ذهب إليه بعض الفلاسفة من البراهمة والهندوس وغيرهم .

وتبيين الحق يتوقف على بيان ما يتصور للتناسخ من الأقسام حتى يعلم أيٌّ

---

(١) أقرب الموارد ، ج ٢ ، مادة نسخ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، مادة نسخ .

قسم منها يضاد المعـاد ويخالفـه ، فنقول : إن للتنـاسخ المـطروح من قِبَل أصحـابه صوراً ثلاثة :

الصورة الأولى : التناسخ المطلق

وهو انتقال النفس من بدن إلى بدن آخـر في هذه النشـأة ، فإذا مـات البدن الثاني إنتقلت إلى ثالث ، وهكذا بلا توقف أبداً ، والبدن المنتقل إليه قد يكون بدن إنسان أو حيوان أو نبات . وطريق الإنتقـال غالبـاً ، هو التعلّق بجنـين الإنسان أو الحيوان ، أو بالخليّة النباتية . وقد نسب هذا القول إلى القدماء من الحكماء .

قـال شارح حكمـة الإشراق[1] : « إن شرذمة قليلة من القُـدماء ذهبـوا إلى امتنـاع تجرّد شيء من النفـوس بعـد المفـارقـة لأنها جسـانيـة ، دائمـة الإنتقـال في الحيـوانات وغـيرها من الأجسـام ، ويعـرفـون بـالتنـاسخية ، وهم أقـلّ الحكـماء تحصيلاً »[2] .

الصورة الثانية : التناسخ المحدود (النزولي)

وهـو أنْ يختص الإنتقال ببعض النفـوس دون بعض آخـر ، وهـذا كـما هـو محدود من حيث الأفراد ، محدود كذلك من حيث الزَّمان . وذلك لأن الإنتقـال قد ينقطع ، ولا ترجع النفس إلى النشأة الدنيوية ، بل تلتحق بعالم النور والعقول .

ووجـه المحدوديـة من حيث الأفراد ، أنّ النفـوسَ المفـارِقـة لـلأبـدان بعـد الموت ، على قسمين :

١ ـ نفوس كاملة في مجـالي العلم والعمل ، فهـذه لا حاجـة لها لـلإنتقال إلى أبدان أخرى ، لأنها وصلت إلى كـمالها الممكن ، فـلا تحتاج إلى الـرجوع ثـانية إلى هذه النشأة .

---

(١) قُطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي ، المتوفي عام ٧١٠ أو ٧١٦ للهجرة .

(٢) شرح حكمة الأشراق ، المقالة الخامسة ، الفصل الأول ، ص ٤٧٦ .

٢ ـ ونفوس ناقصة في كلا المجالين ، فلا مناص لتكاملها من إرجاعها إلى هذه النشأة حتى تكتمل فيها إلى أن تصير غنية عن الرجوع ، فتلحق بعالم العقول .

وأما المحدودية من جانب الزمان ، فوجهه أنّ الهدف من التناسخ ورجوع النفس إلى البدن في هذه النشأة مجدداً ، هو إكمالها في مجال العلم ، وتهذيبها من الرذائل ، وتجريدها من الكدورات . فإذا صارت منزهة عنها ، فلا وجه لدوام هذا النقل والتحوّل ، بل لا مناص من لحوقها بعد الإستكمال بعالم النور .

ويسمى التناسخ المحدود من حيث الأفراد والأزمنة بـ « التناسخ النزولي » .

يقول صدر المتألهين شارحاً هذه العقيدة : « إن أول منزل للنفس ، الصَّيْصِيَّة الإنسانية[1] ، ويسمونها « باب الأبواب لحياة جميع الأبدان الحيوانية والنباتية » ، وهذا هو رأي يوذاسف التناسخي ، قائلاً بأن الكاملين من السعداء تتصل نفوسهم بعد المفارقة بالعالم العقلي والملأ الأعلى ، وتنال من السعادة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وأما غير الكاملين من السُعداء كالمتوسطين منهم والناقصين في الغاية والأشقياء على طبقاتهم ، فتنتقل نفوسهم من هذا البدن إلى تدبير بدن آخر من النوع الإنساني لا إلى غيره . وبعضهم جوّز ذلك ولكن اشترط أنْ يكون إلى بدن حيواني . وبعضهم جوّز النقل من البدن الإنساني إلى البدن النباتي أيضاً ، وبعضهم إلى الجامد أيضاً »[2] .

الصورة الثالثة : التناسخ الصعودي

وهناك قسم ثالث من التناسخ يسمى بالصعودي ، يغاير التناسخ النزولي ، وحاصله أنّ الحياة إنما تفاض على المستعد فالمستعد ، والنبات ـ بزعمهم ـ أشدّ

---

(١) أي البدن والهيكل المادي الإنساني في اصطلاح شيخ الإشراق ومن تابعه .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، الباب الثامن ، الفصل ٢ ، ص ٨ ويسمي الأول نسخاً والثاني مسخاً والثالث فسخاً والرابع رسخاً ، يقول الحكيم السبزواري :

نَسْخٌ وَمَسْخٌ رَسْخٌ فَسْخٌ قُسِّما   إنساناً وحيواناً جماداً نما

استعـداداً وأوْلَى بقبول الفيض الجـديد من الحيـوان والإنسـان ، كـما أنّ الإنسـان يستدعي نفساً أشرف ، وهي التي جاوزت الدرجات النباتية والحيوانية .

وفي ضـوء هـذا ، فـالحيـاة تفـاض عـلى النبـات أولاً ، ثم تنتقـل منـه إلى الحيـوان ، ثم إلى الإنسان ، وهـذا النوع من التنـاسـخ أشبـه بـالقـول بـالحـركـة الجوهرية ، وأنّ الأشيـاء في ظلّهـا تخـرج من القـوة إلى الفعـل ، ومن النقص إلى الكمال ، وأنّ الموجود النباتي يتحـول إلى الحيوان ، ثم الإنسـان ، لكن الفرق بـين القول بالتناسخ الصعودي والحركة الجوهرية ، هو أنّ التكامل في القول بـالتناسـخ على وجه الإنفصـال دون الإتصال ، فـالنفس النباتيـة تنتقل من النبـات إلى البدن الحيواني ، ثم منه إلى البدن الإنساني ، ولكن التحول في الحركـة الجوهـرية ، عـلى وجه الإتصال ، وأنّ النطفة الإنسانية تتحول وتتكامل من مرتبـة ناقصـة إلى مرتبـة كاملة حتى يصدق عليهـا قولـه سبحانـه : ﴿ **ثُمّ أَنْشأْنـاهُ خَلْقَاً آخَـرَ ، فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ** ﴾[1] .

فظهر أنّ في التناسخ أقوالاً ثلاثة :

١ ـ التناسخ المطلق: وهو ما لا ينتهي النقل فيه ولا يتوقف ويعم الجميع .

٢ ـ التناسخ النزولي: وهو ما لا يعم الجميع أولاً ، ويتـوقف النقل فيـه بعد التصفية وبلوغ مراتب الكمال ، ثانياً .

٣ ـ التنـاسـخ الصعـودي : وهـو مـا يحصـل فيـه انتقـال النفس في جهـة الصعـود ، من النبات إلى الحيـوان فـالإنسـان . إذا تعـرفت عـلى المـراد من هـذه الأقسام ، فإليك تحليلها ، وبيان بطلانها :

* العناية الإلهية والتناسخ المطلق

إنّ التناسخ المطلق يعاند المعاد معاندة تامة ، والقائل به ليس له التفـوه ،

(١) سورة المؤمنون : الآية ١٤ . وما ذكرناه إجمال ما يرمي إليه أصحاب هذا القـول ، والتفصيل يـطلب من محله ، لاحظ في ذلك « أسرار الحكم » ، للحكيم السبزواري ، ص ٢٩٣-٢٩٤ .

الأرواح إلى الأبدان في النشأة الأخـرى ، لأنّ المفروض أنّ الـروح تنتقل إلى الأبَـد من بدنٍ إلى بدن ، بلا توقف ، فـلا مجال للنفس لكي تبعث في النشـأة الاخرى . ولعل أصحاب هذه النظرية ـ لقلّة تدبّرهم ـ حسبوا هذا النوع من الإنتقال للنفس معاداً لها ، فالمعاد عندهم هو انتقال النفس من بدن إلى بدن في هذه النشأة دون أن تكون هناك نشأة أخرى .

ويـردُّها أنّ النفس عنـد هؤلاء لا تخلو من إحدى حـالتـين : إمـا أنْ تكـون منطبعة في البدن ، إنطباع الأعراض في الجـواهر ، والصـور الجوهـرية في المـادة ، فهي ممتنعـة الإنتقـال ، إذ الانطبـاع ينـافي الإنتقـال ، والجمــع بينهـما جمــع بـين النقيضين ، فإنه يستلزم أن تكون النفس في حال الإنفصال موجودة بلا موضـوع ، ومتحققة بلا محل .

أو تكون مجرّدة تجرداً تاماً ، ومع ذلـك تكون دائمـة الإنتقال في الأجسـام من غير لحوق بعالم النور وهـو باطـل أيضاً إذ العنـاية الإلهيـة ، تقتضي إيصال كـل ذي كـمال إلى كمالـه ، وكما النفس العلمي يتحقق بصـيرورتها عقـلاً مُستفاداً[1] ، فيـه صـور جميـع المـوجـودات ، وكـمال العقـل العملي يتحقق بـالتخليـة عن رذائــل الأخـلاق ، والتحلية بمكـارمها . فلو كـانت دائمة الإنتقـال ، كـانت ممنـوعـة عن كمالها ، أزلاً وأبداً ، والعناية الأزلية تأبى ذلك[2] .

وبعبارة أخرى : إنّ النفس الإنسـانية مستعـدة لإفاضـة الكمالات عليهـا ، فحبسهـا في الصياصي البـدنية في هـذه النشأة ، وإيقـافها عن الصعـود إلى النشـأة الأُخرى ،يخالف الحكمة الإلهية المتعلقة بإبلاغ كل ممكن إلى غايته الممكنة .

* * *

---

(١) العقل المستفاد أحد مراتب العقـل الأربعة المصـطلح عليها في الحكمـة النظريـة : وهي عبارة عن : ١ ـ العقل الهيولاني ، ٢ ـ العقـل بالمَلَكـة ، ٣ ـ العقل بـالفعل ، ٤ ـ العقـل المستفاد ، راجـع في تـوضيحهـا شرح المنـظومـة للحكيم السبـزواري ، قسم الـطبيعيـات ، مبـاحث النفس ، ص ٣٠٦ـ٣٠٧ .

(٢) شرح حكمـة الإشراق المقالـة الخامسـة ، الفصـل الأول ، ص ٤٧٦ . والأسفـار ، ج ٩ ، البـاب الثامن ، الفصل الثاني .

* الحركة الرجعية والتناسخ النزولي

والـذي يُبطل هـذا النوع الثـاني من التناسـخ ، إستلزامه الحـركة الـرجعيـة للنفس من الأشـد إلى الأنقص ، ومن الأقوى إلى الأضعف بحسب الـذات ، وهو أمر محال . وتوضيحه :

إنّ حقيقة التناسـخ النزولي تتحقق بتعلق روح الإنسـان بعد مفـارقة البـدن بـالموت ، بجنـين إنسـان أو حيـوان أو خليـة نبـاتيـة ، والكـل دونها في الكـمال . فأصحاب هـذا القول يتصـورون أن النفوس المتـوسطة تنتقـل بعد فنـاء أبدانها إلى أجنة الإنسان أو الحيوان ، وتعود إلى الدنيا لمتابعة مسيرة الاستكمال ، والإرتقاء إلى درجة النفوس الكاملة .

ولكنه خيال بـاطل ، لأن تعلق تلك النفـوس بأجنـة الإنسان أو الحيـوان لا يخلو من صورتين :

الأولى : أنْ تتعلق النفس بـالجنين الإنسـاني أو الحيـواني بمـا لهـا من الكـمال المناسب لمقامـه . وهذا غـير ممكن عقلاً ، لأن النفس مـا دامت في البدن تـزداد في فعليتها شيئاً فشيئاً حتى تصير أقوى وجوداً وأشـد تحصُّلاً . ومثـل هذا لا يمكنـه أن يتعلق بالموجـود الأدنى منه ، الـذي لا يتحمل ذلـك الكمال وتلك الفعليّـة ، لعدم تحقق التعاضد والأنسجام بينهما .

وبعبارة أخرى : إنّ واقعية النفس التي عاشت مع البدن أربعين سنة مثلاً ، واقعية تَفَتُّح القوى وبلوغها مقام الفعلية . وأما واقعية النفس التي تتعلق بالأجنة ، فهي فقدان كلّ فعلية ، وانتسابها إلى جميع الكـمالات بالقـوة ، فحسب . فالقـول بتعلق تلك الفعليـة بالجنـين ، جمع بـين النقيضين . لأنها ـ عـلى الفرض ـ بمـا أنّها نفس إنسان مرّت عليه أربعون سنة ، مستجمعة لجميـع الكمالات بـالفعل . وبمـا أنها تعلقت بالجنين ، مستجمعة لها بالقوة فحسب . فتكون الكمالات في محل واحد وزمان واحد ، بالفعل وبالقوة معاً ، وهذا محال .

الثانية : أنْ تتعلق تلك النفـوس بالأجنّـة ، لكن بعد تنـزّلها عن فعليّـاتها ، وانسـلاخها عن كـمالاتها . وهـذا النحو من التعلّق ، وإن كـان يوجـد بين البـدن

والنفس تعاضداً وانسجاماً ، لكن ذاك الإنسلاخ إما ناشىء من ذات النفس ونابع من صميمها ، وإما قد حصل بقهر من الله سبحانه . والأول لا يتصور ، لأن الحركة الذاتية من الكمال إلى النقص غير معقولة ، والثاني ينافي الحكمة الإلهية التي تقتضي بلوغ كل ممكن إلى كماله الممكن[1] .

وبما أن القائلين بهذا النوع من التناسخ يخصّونه بالمتوسطين في الكمال والناقصين فيه ، دون الكاملين في مجاليْ العلم والعمل ، فهو على طرف النقيض من المعاد في الصنفين الأوّلَيْن ، دون الصنف الثالث الذين لهم الحشر والإنتقال إلى النشأة الأُخرى دون التناسخ .

نعم ، المتوسطون والناقصون ـ بعد انتهاء دورة التناسخ وزمنها ـ ينتقلون إلى عالم النور فيكون لهم من الحشر ما للكاملين من أفراد الإنسان .

* * *

التناسخ الصعودي وانتقال النفس

ذكرنا أنّ أصحاب التناسخ الصعودي يقولون بأنّ تكامل النفس من بدء حدوثها يتوقف على ظهور الحياة في النبات لتكون نفساً نباتية إلى أن تنتقل إلى بدن الحيوان فتصير نفساً حيوانية ، ثم نفساً إنسانية ، وعندئذٍ يقع السؤال في حقيقة هذه النفس ، فنقول :

إن النفس الموجودة في الحيوان مثلاً ، إما منطبعة إنطباع النقوش في الحجر ، والأعراض في موضوعاتها ، والصور في محالّها ، فيكون انتقالها مستحيلاً على ما مرّ ، أعني استلزامه أنْ تكون في آن الانتقال بلا موضوع ومحل .

وإمّا مجرّدة ، لها من الخصوصيات ما للنفوس الحيوانية ، فمن المعلوم أنّ النفس الحيوانية بما لها من الخصوصية يمتنع أن تتحول إلى النفس الإنسانية ، فإنّ كمال النفس الأُولى عبارة عن القوة الشهوية وحسّ الانتقام ، وهما يعدّان كمالاً

(١) ما ذكرناه تقريراً واضح لما أفاده صدر المتألهين ، في أسفاره . لاحظ الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٦ .

لنفوس الدواب والأنعام وأصلا عظيماً للجسمانية والإخلاد إلى الأجساد . فلو تعلقت هذه النفس ـ بهذه الخصوصية ـ بالإنسان ، لوجب أن تنحط درجة إلى نوع نازل من الحيوان المناسب لهذه السجايا والغرائز . فإذا كان مقتضى الشهوة الغالبة أو الغضب الغالب ، شقاء النفس ونزولها إلى مراتب الحيوانات الصامتة ، التي كمالها في كمال إحدى هاتين القوتين ، فيمتنع أن يكون وجود هاتين القوتين وأفعالهما منشأً لارتفاع النفوس من درجتها البهيمية والسبعية إلى درجة الإنسان الذي كمال نفسه كسر هاتين القوتين . فتعلق النفس الحيوانية بما لها من الخصوصيات والغرائز بالإنسان ، لا يرفعه بل ينزله إلى درجة تناسب درجة الحيوانات[1] .

وعلى الجملة فالنفس الحيوانية متشخصة بغرائز خاصة هي التمايلات الشهوية والسبعية والإخلاد إلى الأرض والمادة ، فكيف يمكن أن تكون مثل هذه أساساً لتكامل الإنسان وتعاليه ، الذي لا يتحقق له التكامل إلا بتحطيم هذه الغرائز وكسر ثورتها فإن هذا أشبه بجعل وجود الضد شرطاً لوجود ضد آخر .

نعم ، هذا الإشكال إنما يتصور في التكامل الصعودي المنفصل المراتب والدرجات دون متصلها كما في تكامل الإنسان في رحم أُمه من الجمادية إلى النفس الإنسانية ، في ظل صور متوالية متتالية دون أن يقع بينها انفصال .

وعلى كل تقدير فهذا القسم من التناسخ باطل في نفسه ، وإن كان لا يصادم القول بالمعاد وحشر الإنسان في النشأة الأُخرى، بخلاف القسمين السابقين ، فإن الأول منهما على طرف النقيض من المعاد مطلقاً والقسم الثاني على طرف النقيض منه في مورد غير الكاملين من النفوس الإنسانية .

* * * * *

تحليل جامع للقول بالتناسخ

قد تعرفت على أقسام التناسخ والبراهين التي تهدم أساس كل واحد منها ،

---

(١) لاحظ الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٣ .

وهناك برهانان آخران على بطلان التناسخ على وجه الإطلاق ، من دون أن يختصا بقسم دون قسم ، وإليك بيانهما :

الأول : اجتماع نفسين في بدن واحد

وهذا البرهان مبني على أمرين :

أ ـ إنّ كل جسم نباتاً كان أو حيواناً أو إنساناً ، إذا بلغ من الكمال إلى درجة يصير فيها صالحاً لتعلُّق النفس به ، تتعلق به . وبعبارة أخرى : متى حصل في البدن مزاج صالح لقبول تعلق النفس المدبرة به ، فبالضرورة تفاض عليه من الواهب من غير مهلة ولا تراخٍ ، وذلك مقتضى الحكمة الإلهية التي شاءت إبلاغ كل ممكن إلى كماله الممكن .

ب ـ إن القول بالتناسخ يستلزم تعلّق النفس المستنسخة المفارقة للبدن ، ببدن نوع من الأنواع من نبات أو حيوان أو إنسان ، بحيث يتقوم ذلك البدن بالنفس المستنسخة المتعلقة به .

ولازم تسليم هذين الأمرين ، تعلُّق نفسين ببدنٍ واحد : إحداهما النفس المفاضة على البدن لأجل صلاحيته للإفاضة ، وثانيتهما النفس المستنسخة المتعلقة بعد المفارقة بمثل هذا البدن .

ومن المعلوم بطلانه وذلك لأن تشخص كل فرد من الأنواع بنفسه وروحه ، وفرض نفسين وروحين مساوق لفرض ذاتين ووجودين لوجود واحد وذات واحدة .

أضف إلى ذلك : أنه ما من شخص إلا ويشعر بنفس وذات واحدة . قال التفتازاني : إنّ كلّ نفس تعلم بالضرورة أن ليس معها في هذا البدن نفس أخرى تدبر أمره وأن ليس لها تدبير وتصرُّف في بدن آخر ، فالنفس مع البدن على التساوي ، ليس لبدن واحد إلا نفس واحدة ، ولا تتعلق نفس واحدة إلا ببدن واحد[1] .

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٣٨ . ولاحظ كشف المراد ، ص ١١٣ ، ط صيدا . ويضيف الأخير : =

سؤال وجواب :

أما السؤال فهو أنّ هذا إنما يتم إذا كان هناك فصل زمني بين صلوح البدن لإفاضة الحياة ، وتعلّق النفس المستنسخة . وأما إذا كان صلوحه وقابليته ، مقارناً لتعلق النفس المستنسخة ، فلا يلزم اجتماع نفسين في بدن واحد ، لأنها تمنع عن إفاضة الحياة عليه ، فلا تكون له نفسان ولا حياتان .

والجواب : إن كون النفس المستنسخة مانعة من حدوث النفس الأخرى ليس بأولى من منع الأخرى من التعلّق بالبدن .

أضف إلى ذلك أنّ استعداد المادة البدنية لقبول النفس من الواهب للصور ، يجري مجرى استعداد الجدار لقبول نور الشمس مباشرة أو انعكاساً إذا رفع الحجاب من أمامه . فإن كان عند ارتفاع الحجاب جسم ثقيل ينعكس فيه نور الشمس الواقع عليه إلى ذلك الجدار ، أشرق عليه النوران الشمسيان المباشري والإنعكاسي ، ولا يمنع من وقوع الإنعكاسي ، وقوع النور المباشري عليه . ومثل ذلك ما نحن فيه ، غير أن اجتماع النفسين ممتنع ، ومانعيه أحداهما عن طروء الأخرى غير صحيحة . فينتج أنّ التناسخ المبتني على أحد الأمرين (اجتماع نفسين أو مانعية إحداهما من طروء الأخرى) باطل[1] .

الثاني : عدم التناسخ بين النفس والبدن

قد ثبت في محلة أنّ تركيب البدن والنفس ، تركيب طبيعي إتحادي ، لا تركيب إنضمامي ، فليس تركيبها كتركيب السرير من الأخشاب والمسامير ، ولا كتركيب العناصر الكيميائية وتأثير بعضها في بعض .

والنفس في أول حدوثها متسمة بالقوة ، في كل ما لها من الأحوال ، وكذا البدن ، ولها في كل وقت شأن آخر من الشؤون الذاتية بإزاء سن الطفولة والصبا

= أنه لو تعلقت نفس واحدة ببدنين لزم أن يكون معلوم أحدهما معلوماً للآخر وبالعكس ، وكذا باقي الصفات النفسانية ، وهو باطل بالضرورة .

(١) لاحظ الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٠ ، وهذا البرهان يختص المشائيين وقَبلَه صدر المتألهين أيضاً .

والشباب والشيخوخة والهرم . وهما معا يخرجان من القوة إلى الفعل ، ودرجات القوة والفعل في كل نفس معينة بإزاء درجات القوة والفعل في بدنها الخاص بها ما دامت متعلقة به . فإذا صارت بالفعل في نوع من الأنواع استحال صيرورتها تارة أخرى في حد القوة المحضة ، كما استحال صيرورة الحيوان بعد بلوغه تمام الخلقة ، نطفة وعلقة .

فلو تعلقت نفس منسلخة ببدن آخر عند كونه جنيناً أو غير ذلك ، يلزم كون أحدهما بالقوة والآخر بالفعل ، وذلك ممتنع . لأن التركيب بينهما طبيعي إتحادي ، والتركيب الطبيعي يستحيل بين أمرين ، أحدهما بالفعل والآخر بالقوة[1] .

نعم ، هذا البرهان إنما يتم لو تعلقت النفس ببدن أدون من حيث الدرجات الفعلية من النفس ، كما إذا تعلقت بالجنين على مراتبه وأما لو تعلقت ببدن له من الفعلية ما للنفس منها ، فالبرهان غير جارٍ فيه .

وهذا البرهان يغاير البرهان الذي ذكرناه ، عند إبطال التناسخ النزولي فإن محور البرهان هنا لزوم التناسق بين البدن والنفس من حيث القوة والفعل ، وهذا الشرط مفقود في أكثر موارد التناسخ ، كما إذا تعلقت بالجنين .

وأما ما ذكرناه في إبطال التناسخ النزولي فإن محوره هو لزوم الحركة الرجعية في عالم الكون ، ورجوع ما بالفعل إلى ما بالقوة ، فلا يختلط عليك الأمران .

* * * *

سؤالان وجوابان

قد فرغنا من أقسام التناسخ وأنواعه وما يمكن أن يستدل به على إبطالها . وبقي هنا سؤالان يجب طرحها والإجابة عنهما :

---

(١) الأسفار ، ج٩ ، ص ٢-٣ .

السؤال الأول : التناسخ ووقوع المسخ في الأُمم السالفة

لو كان تعلق النفس الإنسانية ببدن الحيوان بعد مفارقة البدن الإنساني تناسخاً ممتنعاً ، فكيف وقع المسخ في الأُمم السالفة ، حيث مسخوا إلى القردة والخنازير كما يقول سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مكاناً وأضَلُّ عن سواءِ السَّبيلِ ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ ﴾[2] .

فإن صريح هذه الآيات تَحَوُّلُ جماعة من البشر إلى قردة وخنازير ، وهو لا ينفك عن تعلق نفوسهم البشرية بأبدان الحيوانات . فما هو الفرق بينه والقول بالتناسخ ؟ .

الجواب : إنّ مقوم التناسخ أمران :

١ ـ تعدد البدن ، فإن في التناسخ بدنين : أحدهما البدن الذي تنسلخ عنه الروح ، والثاني : البدن الذي تتعلق به ثانياً بعد المفارقة سواء كان نباتاً أو حيواناً أو جنيناً .

٢ ـ تراجع النفس الإنسانية من كمالها إلى الحد الذي يناسب بدنها المتعلقة به من نبات أو حيوان أو جنين أو إنسان .

وكلا الشرطين مفقود في المقام ، فإن الأُمة الملعونة والمغضوبة مسخت إلى القردة والخنازير بنفس أبدانها الأولية ، فخرجت عن الصورة الإنسانية إلى الصورة القردية والخنزيرية من دون أن يكون هناك بدنان . كما أن نفوسها السابقة بقيت

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٦٦ . والاستدلال مبني على أن المراد من النكالة هو العقوبة كما أن المراد من الموصول في « لما بين يديها وما خلفها » ، الذنوب المتقدمة على الإصطياد والمتأخرة عنه . فتكون اللام في قوله : « لما » ، سببيّة . (لاحظ مجمع البيان ، ج ١ ، ص ١٣٠) .

على الحد الذي كانت عليه ، وذلك لتنظر إلى الصورة الجديدة التي عرضت عليها ، فتعاقب وتنزجر . وإلا ، لو انقلبت نفوسها من الحد الذي كانت عليه إلى حد النفس الحيوانية ، فلا شك أنّها ستكون قردة بالحقيقة ، وعندئذ لا يترتب عليه عقاب ولا يصدق عليه النكال ، مع أنه سبحانه يصفه نكالاً ، ويقول : ﴿ فَجَعَلْناها نَكالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْها وما خَلْفَها وموعِظَةً لِلْمُتَّقين ﴾[1] .

وهذان الأمران يفصلان المسخ في الأُمم السالفة عن القول بالتناسخ .

وبالجملة : فقد تجلت الروحيات الخبيثة التي كانت عليها تلك الأُمة ، على ظواهر أبدانها ، فلبست لباس الخنازير والقردة المعروفة بالحرص الشديد ، ومثل هذا ـ مع وحدة البدن وعدم نزول النفس عن درجتها السابقة ـ لا يعدّ تناسخاً .

قال التفتازاني : « إن المتنازع هو أن النفوس بعد مفارقتها الأبدان ، تتعلق في الدنيا بأبدان أُخر للتدبير والتصرف والإكتساب ، لا أن تتبدل صور الأبدان ، كما في المسخ . أو أن تجتمع أجزاؤها الأصلية بعد التفرق ، فتردّ إليها النفوس ، كما في المعاد على الإطلاق ، وكما في إحياء عيسى بعد الأشخاص »[2] .

وقال العلامة المجلسي : « إن امتياز نوع الإنسان ، إذا كان بهذا الهيكل المخصوص ، فلا يكون إنساناً بل قرداً . وإن كان امتيازه بالروح المجردة ، كانت الإنسانية باقية غير ذاهبة ، وكان إنساناً في صورة حيوان ، ولم يخرج من نوع الإنسان ولم يدخل في نوع آخر »[3] .

يقول العلامة الطباطبائي : لو فرضنا إنساناً تغيّرت صورته إلى صورة نوع آخر من أنواع الحيوان كالقرد والخنزير ، فإنما هي صورة على صورة ، فهو إنسانٌ خنزيرٌ ، أو إنسان قِردٌ ، لا إنسانٌ بطلت إنسانيته وحلّت الصورة الخنزيرية أو القردية محلها ، فالإنسان إذا اكتسب صورةً من صور الملكات ، تصورت نفسه

(١) سورة البقرة : الآية ٦٦ .

(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٣) البحار ، ج ٥٨ ، طبعة بيروت ، ص ١١٣ .

بها ، ولا دليل على استحالة خروجها في هذه الدنيا من الكمون إلى البروز عـلى حد ما ستظهر في الآخرة بعد الموت .

فالممسوخ من الإنسان ، إنسانٌ ممسوخ ، لا أنّه ممسوخٌ فاقد للإنسانية .

وبذلك يظهر الفـرق بين المقـام والتناسـخ ، فإن التنـاسخ هـو تعلق النفس المستكملة بنوع كمالها بعد مفارقتها البدن ، ببدن آخر ، بخلاف المقام[1] .

السؤال الثاني : التناسخ والرجعة

ما هو الفرق بين التناسخ الباطل بالأدلة السابقة ، والقول بالـرجعة عـلى ما عليـه الإماميـة ، فإن رجـوع بعض النفوس بعـد مفارقتهـا أبدانها ، إليهـا في هذه النشأة ، أشبه بالتناسخ .

والجواب : قد عرفت عند البحث عن المسخ ؛ أن مجوز التنـاسخ أمـران : تعـدد البدن وتـراجع النفس عن الحـد الذي كـانت عليه ، وكـلاهمـا مفقـودان في الرجعة ، فإن النفس ترجع إلى البدن الذي فارقته من دون أن تمس كمال النفس ، وتحطها من مقـامها ، بـل هي على مـا هي عليه من الكـمال عند المفـارقة ، فتتعلق أُخرى بالبدن الذي فارقته .

ومن هنا يظهر أن القول بالحشر في النشأة الأُخرى ، على طـرف النقيض من التناسخ .

خـاتمة المـطاف

إن الذكر الحكيم ينصّ على عدم رجـوع نفس الإنسان إلى هـذه الدنيـا بعد مفارقتها البدن (خرج ما خرج بالدليل كما في إحيـاء الأموات بيـد الأنبياء العـظام وغـيره) يقول سبحـانه : **﴿ حتى إذا جـاءَ أَحَدَهُمُ المـوتُ قال ربِّ ارجعـونِ لعلّي أَعْمَلُ صالحاً فيما تَرَكْتُ * كلاّ إنّها كَلِمَةٌ هُوَ قـائِلُها ، ومِنْ وَرَائِهِمْ بَـرْزَخٌ إلى يَوْمِ**

---

(١) الميزان ، ج ١ ، ص ٢١٠ بتلخيص .

يُبْعَثُونَ ﴾[1] .

إن قوله سبحانه :﴿ كلاّ ﴾، رَدْعٌ لطلب الرجوع إلى الدنيا ، فيفيد أنه على خلاف السنة الإلهية ، ومع ذلك فهو كسائر السنن التي ربما يخرج عنها بدليل .

وبذلك تعرف قيمة كلمة أحمد أمين المصري ذلك الكاتب المستهتر حيث يقول : « وتَحْتَ التشيُّع ظَهَرَ القوْلُ بتناسخ الأرواح »[2] . والمسكين لا يفرق بين المَسْخ والتناسخ ، كما لا يفرق بين التناسخ والرجعة ، بل بين التناسخ والمعاد .

* * *

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ٩٩و١٠٠ .

(٢) فجر الإسلام ، ص ٢٧٧ وقد افترى على الشيعة في كتابه هذا ما افترى ، وندم عليه في أُخريات عمره حيث لا ينفع الندم .

مباحث المعاد

(١٣)

الإيمان وأحكامه

الإيمان ، من الأمن ، وله في اللغة معنيان متقاربان ، أحدهما : الأمانة ، التي هي ضِدّ الخيانة ، ومعناها سكون القلب . والآخر : التصديق ، والمعنيان متدانيان[١] .

والمراد هنا هو المعنى الثاني ، فيقال : آمن به ، إذا أذعن به وسكنت نفسه واطمأنّت بقوله ، وهو تارة يتعدى بالباء كما في قوله تعالى : ﴿ آمَنّا بما أنْزَلْتَ ﴾[٢] وأخرى باللام ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أنْتَ بِمُؤْمِنٍ لنا ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ فآمَنَ لَهُ لُوط ﴾[٤] .

وهذه الآيات تدل على أنّ الإيمان هو التصديق القلبي ، ويؤكّده قوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِم الإيمان ﴾[٥]، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَمّا يَدْخُل الإيمان في قُلوبِكُمْ ﴾[٦] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقَلْبُهُ مُطمَئنٌ بالإيمانِ ﴾[٧] .

---

(١) مقاييس اللغة ، ج ١ ، ص ١٣٣ . ولو جعل سكون القلب تفسيراً للمعنى الثاني أي التصديق لكان أحسن .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٥٣ .

(٣) سورة يوسف : الآية ١٧ .

(٤) سورة العنكبوت : الآية ٢٦ .

(٥) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

(٦) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

(٧) سورة النمل : الآية ١٠٦ .

وتؤكّده آيات الطبع والختم ، فإنه تعرب عن كون محل الإيمان هـو القلب ، كما يقول سبحانه : ﴿ أولئِكَ الذينَ طَبَـعَ الله على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وأَبْصَـارِهِمْ ، وأولَئِكَ هُمُ الغافِلونَ ﴾(١) ويقـول سبحانـه : ﴿ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِـهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَـلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ الله أَفَلا تَذَكَّرونَ ﴾(٢) . والختم على السمـع والبصر لأجل كونهما من أدوات المعرفة التي يستخدمها القلب . والمآل هو القلب .

فالإمعان في هذه الآيات يثبت أنّ الإيمان هو التصديق القلبي ، وأما أنّ هذا المقدار من الإيمان يكفي في نجـاة الإنسان أو لا ، فهـو بحث آخر ، إذ من الممكن أن يكون للإيمان في مجال النجاة شروط أُخر .

*** سـؤال :**

لو كان الإذعان القلبي كافياً في صدق الإيمان ، فلماذا يندد سبحـانه بجـماعة من الكفار بأنّهم جحدوا الحقيقة بألسنتهم وإن استيقنوهـا بقلوبهم ، مع أنّهم عـلى التعريف الذي ذكـرناه ، مؤمنـين . يقول سبحـانه : ﴿ وَجَحَـدُوا بها واسْتَيْقَنَتْهَـا أَنْفُسُهُمْ ظُلماً وَعُلُواً ، فَانْظُرْ كيفَ كَانَ عاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾(٣) . ويقول سبحـانه : ﴿ فَلَمّا جـاءَهم ما عَـرَفُوا كَفَـروا به ﴾(٤) . ويقـول سبحانـه : ﴿ الذينَ آتَيْنَـاهُمْ الكِتـابَ يَعْرِفُـونَـهُ كـما يَعْـرِفُـونَ أَبْنـاءَهُمْ وإنّ فَـريقـاً منهم لَيَكْتُمـونَ الحَقّ وَهُـمْ يَعْلَمُـونَ ﴾(٥) . فهذه الآيـات تدلّ عـلى عدم كفـاية التصـديق القلبي في صـدق الإيمان .

جوابه :

إن الإيمـان هو التصـديق ، وأما التنـديـد ، فـلأنّ ظـاهـرهم كـان مخـالفـاً لباطنهم ، فكانوا يتظاهرون بالنفاق ، ولولا التظاهر بالخلاف ، بأن لا يجحدوا بعد

(١) سورة النحل : الآية ١٠٨ .
(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٣ .
(٣) سورة النمل : الآية ١٧ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٨٩ .
(٥) سورة البقرة : الآية ١٤٦ .

الإستيقان ، ولا يكفروا باللسان ما عرفوه قبلاً ، لكانوا مؤمنين حقاً .

نعم ، لا يمكن الحكم بإيمانهم في مجال الإثبات إلا إذا دلّ الدليل على إذعانهم قلباً ، وهذا خارج عن موضوع البحث .

*** سؤال :**

ما هو الأثر المترتب على التصديق القلبي ؟ .

جوابه :

الإيمان بهذا المعنى، موضوع للأثر في الدنيا والآخر . أما في الدنيا ، فحرمة دمه وعرضه وماله ، إلا أن يرتكب قتلاً أو يأتي بفاحشة .

وأما في الآخرة ، فصحة أعماله ، واستحقاق الثواب عليها ، وعدم الخلود في النار ، واستحقاق العفو والشفاعة في بعض المراحل .

*** سؤال :**

إنّ التصديق اللساني ، أيضاً له أثره الدنيوي من حرمة الدم والعرض والمال .

جوابه :

إن التصديق اللساني بما أنّه كاشف عن التصديق القلبي ، يترتب عليه ذلك الأثر ، فالأثر للمكشوف عنه لا للكاشف ، وإلا فلو تبين نفاقه ، وأنّه يتظاهر بما ليس في القلب ، فلا حرمة لدمه وماله وعرضه في الواقع .

نعم ، يجب علينا مجازاته حسب إقراره واعترافه إلا إذا كشف بقوله وإقراره عن سريرته ، هذا .

وإن السعادة الأُخروية رهن العمل ، لا يشك فيه من له إلمام بالشريعة

والآيات والروايات الواردة حول العمل ، والتصديق القلبي إذا لم يقترن بالعمل ، لا ينجو الإنسان من عذاب الآخرة .

* * *

هذا هو الحق في الإيمان ، وها هنا أقوال أُخر ، نشير إليها :

الأول : إن الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان معاً ، ولا يكفي التصديق القلبي وحده ، وهذا القول للمحقق الطوسي مستدلاً بما مضى من قوله سبحانه : ﴿ وَجَحَدوا بها واسْتَيْقَنَتْها أنْفُسُهُم ﴾[1] .

يلاحظ عليه : إنّ التنديد بهم سببه نفاقهم ، وعدم مطابقة لسانهم لما في قلوبهم . فلوكانوا مستيقنين غير منكرين بألسنتهم لكانوا مستحقين للثناء .

الثاني : إنّ الإيمان هو الإقرار باللسان . واستدل القائل به بأنّ من أعلن بلسانه شهادة الإسلام فهو مسلم محكوم له بحكم الإسلام .

أضف إليه قول رسول الله صلى الله عليه وآله في السوداء : « اعتقها فإنها مؤمنة »[2] .

يلاحظ عليه : إنّ الحكم لهم بالإسلام أو بالإيمان إنما هو بحسب الظاهر ، وليس هو حكماً بحسب الواقع ، ففي هذا المقام يجعل الإعتراف اللساني طريقاً إلى التصديق الجنائي ، ولو علم خلافه ، لحكم بالنفاق . قال سبحانه : ﴿ وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا باللهِ واليَومِ الآخِرِ ومَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[3] .

فإنّ الرسول وأصحابه كانوا مكلفين بالحكم حسب المعايير الظاهرية التي تكشف عادة عن الإيمان القلبي ، قال رسول الله : أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله ، ويؤمنوا بما أُرسِلْت به ، فإذا فعلوا ذلك ، عَصَمُوا مني

---

(١) كشف المراد ، ص ٢٧٠ ، ط صيدا .

(٢) الفِصَل ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٨ .

دماءهم وأموالهم إلّا بحقها ، وحسابهم على الله »[1] .

وبذلك يظهر وجه حكمه صلى الله عليه وآله في السوداء بأنها مؤمنة . روى ابن حزم عن خالد بن الوليد أنّه قال : رُبّ رجل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، فقال صلى الله عليه وآله : « إنّي لم أُبْعَثْ لأشُقّ عن قلوب الناس »[2] .

وكيف يكتفي القائل بالتصديق اللساني ، مع أنّ صريح الكتاب على خلافه ، قال سبحانه : ﴿ قالَتِ الأعْرابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنوا ولَكِنْ قُولوا أسْلَمْنا وَلَمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُمْ ﴾[3] والأعراب صدّقوا بألسنتهم ، وأنكروا بقلوبهم ، فرد الله عليهم بأنّكم لستم مؤمنين لأنّكم مصدّقون بألسنتكم لا بقلوبكم .

الثالث : إنّ الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان مع العمل ، فالعمل عنصر حقيقي مقوِّم للإيمان ، والفاقد له ليس بمؤمن بتاتاً والقائلون بهذا هم الخوارج والمعتزلة[4] ، غير أنّ بينهما فرقاً في المقام .

فالخوارج يَرَوْن العمل مقوِّماً للإيمان ، فالمقرُّ قلباً ولساناً إذا فقد العمل ، إرتكب الكبيرة ، فقد صار كافراً ، ولأجل ذلك يُكفِّرون مرتكب الكبيرة ، ويحكمون عليه بالخلود في النار ، إذا لم يتب .

والمعتزلة ، مع أنّهم يرون العمل مقوّماً للإيمان ، غير أنّهم لا يُكَفِّرون تارك العمل ، ومرتكب الكبيرة ، بل يجعلونه في منزلة بين الإيمان والكفر ، والمكلف عندهم على ثلاثة حالات :

إيمان ، إذا قام بالتصديقين ، وعمل بالوظائف .

وكُفْر ، إذا فقد التصديق القلبي ، أو هو واللساني .

ومنزلة بين المنزلتين ، إذا قام بالتصديقين ، ولكن فقد العمل .

---

(١) الفِصَلْ ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

(٤) شرح الأصول الخمسة ، ص ١٣٩ .

والكلام مع هؤلاء في مقامين :

١ ـ نقد هذا المذهب عن طريق الكتاب والسنة .

٢ ـ تحليل ما تمسكوا به في إثبات عقيدتهم .

أما الأول ، فالآيات الدالة على أنّ العمل ليس عنصراً مقوّماً للإيمان (وإن كان مؤثراً في النجاة) كثيرة نشير إلى بعضها :

قوله تعالى : ﴿ **إنّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات** ﴾ ، فالعطف يقتضي المغايرة ، ولو كان العمل داخلاً في الإيمان للزم التكرار . واحتمال كون المقام من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، يحتاج إلى نكتة ومسوغ له .

قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحَاتِ وهو مُؤْمِنٌ**﴾[١] فالجملة حالية ، المقصود منها : « من عمل حال كونه مؤمناً » ، وهذا يقتضي المغايرة .

قوله تعالى : ﴿ **وَإنّ طائِفَتَانِ مِنَ المؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا ، فَأصْلِحُوا بَيْنَهُما ، فإنْ بَغَتْ إحداهما على الأُخرى ، فقاتِلوا التي تَبْغي حتّى تَفِيء إلى أمْرِ الله** ﴾[٢] .

فأطلق المؤمن على الطائفة العاصية ، وقال ما هذا معناه : فإن بغت إحدى الطائفتين من المؤمنين على الطائفة الأُخرى منهم » .

نعم ، يحتمل أن يكون إطلاق المؤمن عليهم باعتبار حال التلبس ، أي باعتبار كونهم مؤمنين قبل القتال ، لا بلحاظ حال صدور الحكم .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقوا الله وكونوا مَعَ الصّادِقِينَ** ﴾[٣] .

فأمر الموصوفين بالإيمان ، بتقوى الله ، وهو الإتيان بالطاعات والاجتناب عن المحرمات ، فدلّ على أنّ الإيمان يجتمع مع عدم التقوى ، وإلا كان الأمر به لغواً وتحصيلاً للحاصل .

---

(١) سورة طه : الآية ١١٢ .
(٢) سورة الحجرات : الآية ٩ .
(٣) سورة التوبة : الآية ١١٩ .

واحتمال أنّ الآية أمرٌ على الإستدامة ، خلاف الظاهر .

هذا حسب الآيات ، وأمّا السنة فهناك روايات تدل على أنّ الإقرار المقترن بالعرفان ، إيمان . منها ما رواه الصدوق بسند صحيح عن جعفر الكناسي قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : ما أدنى ما يكون به العبد مؤمناً ، قال : يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، ويقرّ بالطاعة ، ويعرف إمام زمانه ، فإذا فعل ذلك فهو مؤمن »[1] .

وأما الثاني : وهو تحليل ما استدلوا به على أنّ العمل عنصر مقوم للإيمان بحيث لولاه فهو إما كافر أو في منزلة بين المنزلتين . فقد استدلوا بآيات :

١ ـ قوله سبحانه : ﴿ **هُوَ الذي أنْزَلَ السَّكينةَ في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانِهِمْ** ﴾[2] ، فلو كان الإيمان هو التصديق ، لما قبل الزيادة والنقيصة ، لأن التصديق أمره دائر بين الوجود والعدم ، وهذا بخلاف ما لو كان العمل جزءً من الإيمان ، فإنه عندئذٍ يزيد وينقص حسب زيادة العمل ونقيصته ، والزيادة لا تكون إلا في كمية عدد لا فيما سواها ، ولا عدد في الاعتقاد[3] .

يلاحظ عليه ، إنّ الإيمان ـ بمعنى الإذعان ـ أمرٌ مقول بالتشكيك ، ولليقين مراتب بشهادة أنّ يقين الإنسان بأنّ الإثنين نصف الأربعة ، يفارق يقينه في الشدة والظهور بأنّ نور القمر مستفاد من الشمس ، كما أنّ يقينه الثاني يفارق يقينه بأن كل ممكن فهو زوج تركيبي من ماهية ووجود ، وهكذا يتنزل اليقين من القوة إلى الضعف إلى أن يصل إلى أضعف المراتب التي لو تجاوز عنها لزال وصف اليقين وانقلب إلى الظن أو الشك . فمن ادعى بأنّ أمر الإيمان ـ بمعنى التصديق والإذعان ـ دائر بين الوجود والعدم ، فقد غفل عن حقيقته ومراتبه ، فهل يصح لنا أن ندعي أنّ إيمان الأنبياء ، كإيمان سائر الناس ، كلا ، لأنّ الأنبياء معصومون ، وعصمتهم ناشئة من يقينهم بآثار المعاصي ، الذي يصدهم عن

---

(١) البحار ، ج ٦٦ ، ص ١٦ ، نقلاً عن معاني الأخبار للصدوق .

(٢) سورة الفتح : الآية ٤ .

(٣) الفصل ، لابن حزم الظاهري ، ج ٣ ، ص ١٩٤ .

اقترافها ، فلو كان إذعانهم كإذعان سائر الناس ، لما امتازوا عنهم بالعصمة عن المعصية .

وما ذكروه من أنّ الزيادة تستعمل في الكمية العددية ، فهو منقوض بآيات كثيرة استعملت فيها الزيادة في غيرها ، قال سبحانه : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ، وَيَزِيدُهُم خُشوعاً ﴾(1) وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنا في هذا القُرْآنِ لِيَذَّكَروا وَما يَزِيدُهُمْ إلا نُفوراً ﴾(2) والمراد شدة خشوعهم ، وشدة نفورهم ، لا كثرة عددهما . وغير ذلك من الآيات التي استعمل فيها ذلك اللفظ فيما يرجع إلى الكيفية لا الكمية .

٢ ـ قوله سبحانه : ﴿ وَما كانَ الله لِيُضِيعَ إيمانَكُمْ ﴾(3) . والمراد من الإيمان ، صلاتهم إلى بيت المَقْدس قبل أن يُنسخ بالأمر باستقبال الكعبة(4)

يلاحظ عليه : إنّه لو أخذ بظاهر الآية ، فيجب أن يكون الإيمان نفس العمل ، وهو مجمع على خلافه .

أضف إلى ذلك أنّه استعمل الإيمان وأريد منه العمل في المقام ، والاستعمال أعم من الحقيقة ، ولا شك أنّ العمل أثر الإيمان ورد فعل له ، فمن الشائع إطلاق السبب وإرادة المسبب .

٣ ـ قوله سبحانه : ﴿ فلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنونَ حتّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثم لا يَجِدوا في أَنْفُسِهِم حَرَجاً مما قَضَيْتَ ويُسَلِّموا تَسْليماً ﴾(5)

أقسم سبحانه بنفسه أنّهم لا يُؤْمنون إلا بتحكيم النبي والتسليم بحكمه ، وعدم وجدان الحرج في قضائه . والتحكيم غير التصديق ، بل هو عمل خارجي(6)

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٠٩ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٤١ .
(٣) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .
(٤) البحار ، ج ٦٦ ، ص ١٨ .
(٥) سورة النساء : الآية ٣٥ .
(٦) الفصل ، ج ٣ ، ص ١٩٥ .

يلاحظ عليه : إنّ الآية وردت في شأن المنافقين ، فإنهم كانوا يتركون النبي ويرجعون في دعاويهم إلى الأحبار ، وهم مع ذلك يدّعون الإيمان والإذعان والتسليم للنبي . فنزلت الآية بأنه لا يقبل منهم ذلك الإدعاء حتى يرى أثر الإيمان في حياتهم ، وهو تحكيم النبي في المرافعات ، والتسليم العملي أمام قضائه ، وعدم إحساسهم بالحرج ، وهذا هو الظاهر من الآية ، لا أنّ التحكيم بما أنّه عمل ، جزء من الإيمان . وهذا نظير ما إذا ادّعى إنسان حبّاً لرجل فيقال له : إنْ كنت صادقاً فيجب أنْ يُرى أثر الحب في حياتك ، فاعمل له كذا وكذا .

٤ ـ قوله سبحانه : ﴿ ولله على النَّاس حجُّ البَيْتِ مَن آسْتَطاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً ومن كَفَرَ فَإنّ الله غَنيٌّ عن العالَمِينَ ﴾[١] فسمى سبحانه تارك الحج كافراً[٢]

يلاحظ عليه : إنّ المراد كفران النعمة ، حيث إن ترك فريضة الحج مع الإستطاعة ، كفران لنعمته سبحانه ، وقد استعمل الكفر في مقابل شكر النعم ، قال سبحانه : ﴿ وإذْ تَأذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ ﴾[٣]

كما ربما يكون المراد من الكفر جَحْدَ وجوب الحج .

وغير ذلك مما استدلوا به من الآيات . وأنْتَ إذا احطت بما ذكرنا ، تقدر على الإجابة عن استدلالهم بها[٤]

نعم ، هناك روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تعرب عن كون العمل جزءً من الإيمان ، نظير قول الصادق عليه السلام : « ملعونٌ ، ملعونٌ مَنْ

---

(١) سورة آل عمران : الآية ـ ٩٧ .

(٢) البحار ، ج ٦٦ ، ص ١٩ .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٧ .

(٤) مثل قوله سبحانه : ﴿ وما أُمروا إلا لِيَعْبُدوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيموا الصَّلاةَ وَيُؤْتوا الزّكاةَ وَذَلِكَ دَيْنُ القَيِّمَةِ ﴾ (البينة : ٥) . مستدلين بأنّ المشار إليه بلفظة « ذلك » ، جميع ما ورد بعد الأمر ، من عبادة الله سبحانه بالإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، استدل به ابن حزم في الفِصَل ، ج ٣ ، ص ١٩٤ . وقد أجاب عنه الأستاذ دام ظله في الجزء الثالث من بحوثه في الملل والنحل ، فلاحظ .

قال : الإيمان قول بلا عمل »[1] . والظاهر أنّ هذه الـروايات وردت لـرد المرجئـة التي تكتفي في الحيـاة الدينيـة بالقـول والمعرفـة ، وتؤخر العمـل ، وتـرجـو رحمتـه وغفرانه ، مع عدم القيام بالوظائف . وقـد تضافـرت عن أئمة أهـل البيت عليهم السلام لعن المرجئة[2] .

سـؤال :

لو كان الإيمان هو التصديق ، فهل هو يزيد وينقص .

الجواب :

قد علم هذا مما ذكرنا من كون الإيمـان ذا مراتب ، وأن نفس الإذعـان ، له درجات . وليس القول بزيادة الإيمـان ونقصانـه مختصاً بمن جعـل العمل عنصـراً مقـوّماً لـلإيمان ، بـل هو يتحقق أيضـاً عند من يقـول بـأنّ الإيمـان هـو التصـديق القلبي ، وليس العمل جزء منه .

إلى هنا تبيّنت حقيقة الأقوال الأربعة في بيان حقيقة الإيمان ، وقد عـرفت أنّ الصواب هو الأوّل منها ، وهو التصديق القلبي[3]

* * *

---

(١) البحـار ، ج ٦٦ ، باب أنّ الإيمـان مبثوث عـلى الجوارح ، الحـديث ١ ، ص ١٩ ، ولاحظ سـائـر الروايات في هذا الكتاب .

(٢) لاحظ الـوافي ، للفيض الكـاشـاني ، ج ٣ ، أبـواب الكفـر ، والشرك ، بـاب أصنـاف النـاس ، ص ٤٦ .

(٣) بقي هنا قول المرجئة ، وهو لا يفترق كثيراً عن القول الثالث من الإكتفاء بـالتصديق اللسـاني ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الجزء الثالث من أبحاث الشيخ الأستاذ حفظه الله في الملل والنحل .

مباحث المعاد

(١٤)

التوبة وشرائطها

إن التوبة من المكفِّرات التي نص الكتاب والحديث على تكفير الذنوب بها ، تحت شرائط خاصة ، وإشباع الكلام فيها يتم بالبحث في أمور :

الأمر الأول ـ فلسفة التوبة

ربما يتوهّم أنّ في تشريع التوبة والدعوة إليها إغراءً بالمعصية وتحريضاً على ترك الطاعة ، بدعوى أنّ الإنسان إذا أيْقَنَ أنّه سبحانه يقبل توبته رغم اقترافه المعاصي ، تزيد جرأته على هتك الحرمات ، والإنهاك في الذنوب ، فيدقّ باب كل قبيح ، معتمداً على التوبة .

ولكنه توهم ساقط من أصله ، فإنه لو كان باب التوبة موصداً في وجه العصاة ، واعتقد المجرم بأنّ العصيان مَرّة واحدة ، يُدخله في عذاب الله ، فلا شكّ أنّه سيتمادى في اقتراف السيئات وارتكاب الذنوب ، معتقداً بأنه لو غيّر حاله إلى الأحسن ، لما كان له تأثير في تغيير مصيره ، فلأي وجه يترك لذات المحرمات في ما يأتي من أيام عمره . وهذا بخلاف ما لو اعتقد بأنّ الطريق مفتوح والنوافذ مشرعة ، وأنّه لو تاب توبة نصوحاً ينقذ من عذابه سبحانه ، فهذا يعطيه الأمل برحمة الله تعالى ويترك العصيان في مستقبل أيامه . وكم وكم من الشباب عادوا إلى الصلاح بعد الفساد في ظل الإعتقاد بالتوبة ، بحيث لولا ذلك الإعتقاد لأسهروا لياليهم في المعاصي ، بدل الطاعات .

ولأجل ذلك نرى في التشريعات الجنائية العالمية قوانين للعفو عن السجناء المؤبّدين ، إذا شوهدت منهم الندامة والتوبة ، وتغيير السلوك ، فتشريع هذا القانون يكون موجباً لإصلاح السجناء ، لا تقوية روح الطغيان فيهم . فالإنسان حيٌّ برجائه ، ولو ساد عليه اليأس والقنوت من عفوه ورحمته سبحانه ، لزاد في طغيانه في عامة أدوار عمره .

الأمر الثاني ـ حقيقة التوبة

إنّ التوبة كما يستفاد من الآيات والروايات حالة نفسانية مؤثّر في النفس فتصلحها وتعدها للصلاح الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة . ومن المعلوم أنّ هذه الغاية لا تحصل إلا بتحقق أمرين :

١ ـ الندم على ما مضى .

٢ ـ العزم على عدم العودة إليه إذا قدر .

فلو انتفى الأمران أو أحدهما لما حصلت تلك الحالة المؤثرة في صلاح النفس وإعدادها لكمالات أخرى ، فيلزم في التوبة وجود هذين الأمرين ، سواء أقلنا إنّ التوبة مركبة منهما وأنّ كل واحد منهما جزء لها ، كما نقل عن أبي هاشم الجبائي ، أو قلنا إنّ التوبة أمر بسيط هو الندم على ما مضى ، وأما العزم فهو من شروطها ولوازمها ، كما عليه الشيخ المفيد[1] ، فإن هذا نزاع لفظي لا ثمرة له إلا في موارد نادرة ، كما إذا ندم على ما سلف من القبيح ومنع من العزم ، فعلى القول الأوّل لم تتحقق التوبة دون الثاني .

وهناك كلام للإمام أمير المؤمنين حول التوبة ، وقد سمع من بحضرته يقول : أستغفر الله ، فقال : أتدري ما الإستغفار ؟ الإستغفار درجة العلّيّين ، وهو إسم واقع على ستة معان :

أوّلها : الندم على ما مضى .

---

(١) أوائل المقالات ، ص ٦١ .

والثاني : العزم على ترك العود إليه أبداً .

والثـالث : أن تؤدّي إلى المخلوقـين حقـوقهم حتى تلقى الله أملس ليست عليك تبعة .

والرابع : أن تعمد إلى كل فريضة ضيّعتها فتُؤدّي حقها .

والخامس : أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت[1] فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد .

والسادس : أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية .

فعند ذلك تقول : « أستغفر الله »[2] .

وبالجملة : إنّ التوبة لغاية إزالة السيئات النفسانية التي تجر إلى الإنسـان كل شقاء في حياته الأُولى والأُخرى ، و تمنعة من الاستقرار على أريكة السعادة . وهذه الغاية لا تحصل إلا بحصول أمرين : الندم والعزم .

وأما باقي الأمور الأربعة الواردة في كلام الإمـام عليه السـلام ، فسيوافيـك الكلام فيها .

الأمر الثالث ـ وجوب التوبة

اتفقت العدلية على وجوب التوبة واستدلوا على ذلك بأمرين :

أ ـ إنها دافعـة للضرر الذي هـو العقـاب ، ودفـع الضرر الأُخـروي واجب عقلاً .

ب ـ إن العـزم على ارتكـاب القبـائـح وتـرك الفـرائض قبيـح عقـلاً فيجب اجتنابه ، وهو لا يحصل إلا بالتوبة .

---

(١) السحت : المال من كسب حرام .

(٢) نهج البلاغة : قسم الحكم ، الرقم ٤١٧ ، وسنرجع إلى هذا الحديث عند استعراض أحكام التوبة ، وإنما أوردناه هنا جملة واحدة ليسهل الرجوع إليه .

والدليل الثاني لا يفيد إلاّ وجوب العزم وهو أحد جزئي التوبة أو شرْطها .

وكيف كان ، فكل من قال بالحسن والقبح العقليين ، لا مناص له عن القول بوجوب التوبة وجوباً عقلياً ، وما جاء من طريق السمع يكون مرشداً إلى هذا الحكم العقلي .

وأما المنكرون لهما ، فيذهبون إلى وجوبها شرعاً ، قال سبحانه : ﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا توبوا إلى الله تَوْبَةً نصوحاً** ﴾[1] .

الأمر الرابع ـ هل تجب التوبة من الصغائر ؟

إنّ ارتكاب أي معصية ، صغيرة كانت أو كبيرة ، جرأة على الله وخروج عن رسم العبودية وزيّ الرّقّيّة ، وهي تترك أثراً سيئاً في النفس بلا ريب ، فيجب التوبة منها لإزالة أثرها من النفس . وإليه ذهب أبو علي الجبائي ، من المعتزلة ، ولكن الظاهر من ابنه أبي هاشم ، عدم وجوب التوبة من الصغائر إلاّ سمعاً ، واختاره القاضي عبد الجبار ، قائلاً بأنّ التوبة إنّما تجب لدفع الضرر عن النفس ، ولا ضرر في المعصية ، فلا تجب التوبة منها ، غاية الأمر أنّ للصغيرة تأثير في تقليل الثواب ، ولا ضرر في ذلك[2] .

يلاحظ عليه : إنّ ما ذكر مبني على أمرين غير ثابتين :

أ ـ أنَّ المعاصي بالذات تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وأنّ صِغَر المعاصي وكبرها ليس من الأمور الإضافية النسبية ، بل هناك صنفان من المعاصي لا يتداخل أحدهما في الآخر .

ب ـ أنّ المعاصي الصغيرة لا يعاقب عليها ما لم يكن عليها إصرار .

وكل ذلك مورد تأمّل وتردد .

(١) سورة التحريم : الآية ٨ .

(٢) شرح الأُصول الخمسة ، ص ٧٨٩ .

أضف إلى ذلـك : أنّ وجه تشريـع التـوبـة ليس منحصـراً بـالإجتنـاب عن العـذاب حتى يقال إنّـه لا عقاب عـلى الصغيرة ، بـل قد عـرفت أنّ الـوجـه فيهـا ـ مضـافـاً إلى الخـلاص من العـذاب ـ حسن النـدم عـلى كـل قبيـح أو إخـلال بالواجب ، وقبح العزم على الإستدامة ، وهذا مشترك بين الصغيرة والكبيرة .

وبذلك يظهر الجـواب عما ربما يقال من أنّ عقـاب الصغيرة مكفّـر باجتنـاب الكبيرة إذا لم يصر عليها ، لقوله سبحانه :

﴿ إنْ تَجْتَنِبوا كبائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّر عنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ﴾[1] .

وعندئذٍ ، لا يحتاج إلى التوبة منها ، لما عرفت من أنّ وجه التوبـة لا ينحصر بالخلاص من العذاب .

الأمر الخامس ـ التوبة واجب فوري

يحكم العقل بوجـوب التوبـة فوراً ، لأنها اجتنـاب عن القبيح بقـاءً ، وترك للعدوان استدامة ، ومثل ذلك لا يصح فيه التأخير والتراخي .

أضف إلى ذلك أنّ العقل يُحَرِّضُ على التوبة فَوْراً ففوراً ، لئـلا يفوت أوانها ويكون ممّن لا تقبل توبته قال سبحانه :

﴿ وَلَيْسَتِ التَوْبَةُ للذينَ يَعمَلونَ السَّيِّئـاتِ ، حتى إذا حَضَرَ أحَدَهُم المَـوْتُ قـال إنّي تُبْتُ الآن ولا الـذينَ يمـوتـونَ وهم كُفّـار ، أولَئِـكَ أعْتَـدْنـا لَهُمْ عـذابـاً أليماً ﴾[2] .

وما ذكرنـاه هو خـيرة المعتزلـة أيضاً حيث قـالوا بفـورية الـوجوب وأنّـه يلزم بتأخيرها ساعة إثم آخر يجب التوبة منه أيضاً ، حتى أن من أخّر التوبـة عن الكبيرة ساعة واحدة ، فقد فعل كبيرتين ، وساعتين أربع كبائر ، الأوليـان ، وترك التـوبة

(١) سورة النساء : الآية ٣١ . وقد نقله العلامة المجلسي عن الشيخ البهائي ، لاحظ البحـار ، ج ٦ ، ص ٤٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٨ .

عن كل منهما ، وثلاث ساعات ، ثمان وهكذا[1] .

ولكن لا دليل على هذا التفصيل .

الأمر السادس ـ أثر التوبة

إن أثَرَ التوبة هو إزالة السيئات النفسانية التي تجر إلى الإنسان كل شقاء في حياته الأولى والأخرى ، فيرجع التائب بعد ندمه وعزمه على الترك في المستقبل ، أبيض السريرة ، كيوم ولدته أمُّهُ ، وبالتالي يسقط عنه العقاب .

وأما الأحكام الشرعية المترتبة على الأعمال السابقة فتبقى على حالها ، إذ ليس للتوبة تأثير إلا في إصلاح النفس وإعدادها للسعادة الأخروية ، ولذلك يجب الخروج عن مظالم العباد أوّلاً ، وتدارك ما فات من الفرائض ثانياً ، فإنّ السيئة العارضة على النفس بسبب هضم حقوق الناس لا ترتفع إلا برضاهم ، لأنّه سبحانه احترم حقوقهم في أموالهم وأعراضهم ونفوسهم ، وعدّ التعدي على واحد منها ظلماً ، وعدواناً ، وحاشاه أنْ يسلبهم شيئاً مما جعله لهم من غير جرم صدر منهم وقد قال عز من قائل : ﴿ إن الله لا يَظْلِمُ النّاسَ شَيْئاً ﴾[2] .

قال المفيد رحمه الله : «إنّ من شرط التوبة إلى الله سبحانه من مظالم العباد الخروج إلى المظلومين من حقوقهم بأدائها إليهم أو باستحلالهم منها على طيبة النفس بذلك ، والإختيار له ، فمن عدم منهم صاحب المظلمة وفقده خرج إلى أوليائه من ظلامته أوْ استحلهم منها »[3] .

ولأجل ذلك قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « والثالث : أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع : أن تعمد إلى كل فريضة ضيّعتها فتؤدّي حقها »[4] .

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .
(٢) سورة يونس : الآية ٤٤ .
(٣) أوائل المقالات ، ص ٦٢ .
(٤) نهج البلاغة ، قسم الحِكَمْ ، الرقم ٤١٧ .

هـذا ، وإنّ المتبـادر من الآيـات والـروايـات أنْ التـوبـة بنفسهـا مسقـطة للعقـاب ، يقول سبحـانه : ﴿ كَتَبَ رَبُّكم عـلى نَفْسِهِ الـرَّحْمَةُ أنّـه مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سوءً بِجَهَالَةٍ ثُمّ تابَ مِنْ بَعْدِه وأصْلَحَ فإنّـهُ غَفُورٌ رحيمٌ ﴾[1] فـإنّ الظاهـر منه أنّ نفس التوبة تجرّ الغفران ، وغير ذلك من الآيات ، وهذا الأمر من المسائل القرآنيـة الواضحة .

وأما حقوق الله ، فيتبع هناك لسـان الدليـل الشـرعي ، فـربما تكـون التوبـة مسقطة للحدّ كما في قوله سبحانه :

﴿ إنّمـا جزاءُ الـذينَ يُحارِبـونَ الله ورسولَـهُ وَيَسْعَوْنَ في الأرْضِ فسـاداً أنْ يُقَتَّلوا أوْ يُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أيْـدِيهِمْ وأرْجُلُهُمْ من خِلافٍ أوْ يُنْفَـوْا من الأرْضِ ذلك لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنيـا وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَـذابٌ عَظِيمٌ * إلّا الـذينَ تابُـوا مِنْ قَبْلِ أنْ تَقْدِروا عَلَيهِمْ فاعْلَمُوا أنّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2] . فالإستثناء صريح في أنّ التوبـة تُسْقِط الحَدّ الوارد في الآية .

قـال المحقق الحلّي : « إنّ شـارب الخمر إذا تـاب قبل قيـام البينـة ، يَسقط الحد ، وإنْ تاب بعدها لم يسقط »[3] .

وقـال : « إذا تاب الـلائط قبل قيـام البيّنة سقط الحـدّ ، ولـو تـاب بعـده لم يسقط »[4] .

الأمر السابع ـ قبول التوبة واجب على الله أولاً ؟

لا شكّ أنّ التوبة تسقط العقاب ، وهو مما أجمع عليه أهـل الإسلام . وإنما الخلاف في أنّه هل يجب على الله قبولها بحيث لو عاقب بعـد التوبـة كان ظـالماً ، أو هو تفضل منه سبحانه ، وكرم ورحمة منه بعباده ؟

---

(١) سورة الانعام : الآية ٥٤ .

(٢) سورة المائدة : الآيتان ٣٣و٣٤ .

(٣) شرائع الإسلام ، كتاب الحدود ، الباب الرابع في حدّ المسكر .

(٤) المصدر السابق ، الباب الثاني ، في أحكام اللواط

فالمعتزلة على الأوّل ، والأشاعرة والإمامية على الثاني .

استدل المعتزلة بوجهين :

١ ـ إنّ العاصي قد بذل وسعه في التلافي ، فيسقط عقابه ، كمن بالغ في الإعتذار إلى من أساء إليه ، فإنه يسقط ذمه بالضرورة[١] .

وبعبارة أُخرى : إن من أساء إلى غيره واعتذر إليه بأنواع الإعتذارات ، وعرف منه الإقلاع عن تلك الإساءة بالكلية فالعقلاء يذمون المظلوم ، إذا ذمّه بعد ذلك[٢] .

٢ ـ لو لم يجب إسقاط العقاب لم يحسن تكليف العاصي ، والتالي باطل إجماعاً ، فالمقدَّم مثله .

بيان الشرطية : إن التكليف إنما يحسن للتعريض للنفع . وبوجوب العقاب قطعاً لا يحصل الثواب ، وبغير التوبة لا يسقط العقاب ، فلا يبقى للعاصي طريق إلى إسقاط العقاب عنه ، ويستحيل اجتماع الثواب والعقاب فيكون التكليف قبيحاً[٣] .

يلاحظ على الأول ، بأنه لا يجب في منطق العقل قبول المعذرة ، بل المظلوم في خيرة بين القبول والصفح ، وليس رفض المعذرة مخالفاً للحكمة والعدل حتى يجب على الله سبحانه .

وأما الثاني ، فيلاحظ عليه أنّه مبنيٌّ على الأصل الذي اختاره المعتزلة من أنّ مرتكب الكبيرة مخلَّدٌ في النار ، وهو لا يجتمع مع الثواب المترتب على التكليف ، فاستدلوا بأنّه لو لم تقبل توبته لوجب أن يخلد في النار (ولو بمعصية واحدة) وهو لا يجتمع مع الثواب ، فيلزم سقوط تكليف العاصي . ولكنّ الأصل مردود لما قلنا من

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٢) كشف المراد ، ص ٢٦٨ . ولاحظ شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٩٨ .

(٣) كشف المراد ، ص ٢٦٨ ط صيدا . ولاحظ شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

أنّ المؤمن لا يخلد في النار وإنما كتب الخلود على الكافر ، فلا مانع من أنّ يعاقب مدّة ثم يخرج فيثاب .

وعلى هذا فلا دليل على وجوب قبول التوبة على الله سبحانه ، بل قبولها تفضّل وكرم منه سبحانه .

قال الطبرسي في تفسير قوله سبحانه : ﴿ إلاّ الذينَ تابوا وأصلحوا وَبيّنوا فأولئِكَ أتوبُ عَلَيْهِمْ وأنا التّواب الرحيم ﴾[1] . قال : « ووصفُه بالرحيم عقيب التوّاب يدل على أنّ إسقاط العقاب بعد التوبة تفضّل منه سبحانه ورحمة من جهته ، على ما قاله أصحابنا ، وإنّه غير واجب عقلاً على خلاف ما ذهب إليه المعتزلة »[2] .

نعم ، هذا إذا لوحظ قبول التوبة من حيث هو هو ، وأما إذا لوحظ بعدما وعده سبحانه بقبول توبة التائب ، فالوجوب لا محيص عنه ، لأنّ خلف الوعد قبيح ، من غير فرق بين الواجب والممكن ، وقد أوضحنا لك معنى كون شيء واجباً على الله سبحانه ، وأنّه لا يراد منه تكليف الله سبحانه ، بل أنّ العقل يكشف حكماً عاماً سائداً على الواجب والممكن ، وهو أنّ الحكيم لا يفعل القبيح ، لما فيه من المبادىء الرافضة لارتكابه فيكون وجوب قبول التوبة سمعياً لا عقلياً .

الأمر الثامن ـ هل يجب في التوبة ، الندم على القبيح ؟

الظاهر من غير واحد من المحققين أنّ التوبة تتقوم بالندم على القبيح لقبحه ، وإلا فلو ندم لأجل إضرارها بالبدن أو إخلالها بعرضه أو ماله أو لغرض آخر ، لا يكون تائباً .

وهذا كلام متين ، فإنّ التوبة عبارة عن رجوع العبد إلى الله سبحانه ، وهذا لا يتحقق إلا بأن يكون رجوعه لاستشعاره قُبح عمله ، وأنّه كان عدواناً على الله

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٠ .

(٢) مجمع البيان ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

وجرأة على المولى ، وأما من ترك شرب الخمر لا بهذا الإعتقاد بل لأجل صيانة بدنه عن مضارها ، فلا تكون توبة منه إلى الله .

إنما الكلام إذا تاب عن عمله لأجل الخوف من عقابه سبحانه ، فقد ذهب المحقق الطوسي وتبعه العلامة الحلّي ، إلى أنّه لو كانت الغاية من التوبة هي الخوف من النار بحيث لولا خوف النار لم يتب ، فلا يصدق عليها أنّها توبة .

قال العلامة الحلي : « فإن كانت التوبة خوفاً من النار أو من فوات الجنة ، لم تصح توبته ، وهذا نظير ما لو اعتذر المسيء إلى المظلوم لا لأجل إساءته بل لخوفه من عقوبة السلطان ، فإن العقلاء لا يقبلون عذره »[1] .

يلاحظ عليه : إنّ التكاليف الإلهية متوجهة إلى عموم الناس، من غير فرق بين التكليف بالصلاة والصوم أو التكليف بالتوبة . ومن المعلوم أنّ الأكثرية الساحقة لا يقومون بالفعل لحسنه بالذات ، ولا يتركونه لكونه قبيحاً كذلك ، بل الفعل والترك يقومان على أساس الرغب والرهب ، والطمع بالجنّة والخوف من النار . وعلى ذلك فالآيات الواردة حول التوبة المقترنة بالثواب تارة والخلاص من النار أُخرى ، تعرب عن أنّ التوبة إذا حصلت لإحدى هاتين الغايتين ، كفى ذلك في سقوط العقاب ، يقول سبحانه ـ حاكياً قول هود عليه السلام ـ : ﴿ يا قَوْمِ اسْتَغْفِروا رَبَّكُمْ ثم توبوا إليه يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مدْراراً ﴾[2] .

ويقول تعالى : ﴿ وَأنِ اسْتَغْفِروا رَبَّكُمْ ثم تُوبوا إلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ متاعاً حَسَناً إلى أجَلٍ مُسَمىً ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وإن تَوَلَّوا فَإنّي أخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَومٍ كبيرٍ ﴾[3] .

وفي الدعاء الذي علمه علي عليه السلام كميل بن زياد ، إيعاز ، إلى ذلك : يقول : « أللّهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم ، أللّهم اغفر لي

(١) كشف المراد ، ص ٢٤٦ ، ط صيدا ، بتصرف .
(٢) سورة هود : الآية ٥٢ .
(٣) سورة هود . الآية ٣ .

الذنوب التي تُنزِلُ النقم ، أللّهُمّ اغفر لي الذنوب التي تُغَـيِّر النِّعَمْ ، اللهم اغفِر لي الذنوب التي تُنْزِلُ البلاء » .

وإنْ شئت قلت : إنّ التوبة خوفـاً من النـار ، لا تنفك عن الإعتقـاد بكون ما فعل أمراً قبيحاً شرعاً .

وبالجملة ، فالآيات والروايات الواردة حول التوبـة مطلقـة ، تعم كل تـوبة يصدق عليها أنها رجوع إلى الله . وفي حديث يبين علي عليـه السلام مـوقف العباد في عبادة الله تعالى ، ويقسمهم إلى ثلاثة أقسام ، يقول :

« إن قوماً عبدوا الله رغبةً ، فتلك عبادة التجار ، وإنّ قوماً عبـد الله رهبة ، فتلك عبادة العبيد ، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً ، فتلك عبادة الأحرار »[1] .

وحينئذ ، فكما أنّه تقبل عبادة العباد ، رغبة ورهبة ، تقبـل توبتهم أيضـاً إذا كانت كذلك .

ولا معنى للتفكيك بين قبـول عبادتهم وقبـول توبتهم ، ولا أجـد فقيهاً يفتي ببطلان عبادة من عبده سبحانه لإحدى الغـايتين ، أو كليهـا . كيف وهو سبحـانه يصف أنبياءه العظام بقوله : ﴿ **إنَّهُمْ كانوا يُسـارِعونَ في الخـيراتِ وَيَدْعـونَنا رَغَبـاً وَرَهَباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾[2] .

وأمـا الإستدلال عـلى أنّ المسقط ليس هو نفس التـوبة ، بـل كـثرة الثـواب بعدها بـأنها لو أسقـطت العقاب بـذاتها ، لأسقـطته في حـال المعاينـة ، وفي الدار الآخـرة[3] ؛ فيلاحظ عليـه أنّ التوبـة إنما تقبـل لأنها تؤثر في النفس الإنسـانيـة ، فتصلحها ، أو تعدّها للصلاح ، وهـذا إنما يتصـور فيها إذا كـان الإنسان قـادراً على الفعل والترك ، وأما في حال المعاينة أو دار الآخرة ، فالقـدرة مسلوبة عن الإنسـان هذا .

---

(١) نهج البلاغة ، قسم الحكم ، الرقم ٢٣٧ .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ٩٠ .
(٣) كشف المراد ، ص ٢٦٨ .

مع أنّك قد عرفت عند البحث عن أثر التوبة أنّ التوبة بنفسها هي المسقطة للعقاب ، فلاحظ .

الأمر التاسع ـ هل تصحّ التوبة من قبيح دون قبيح ؟

اختلفت كلمتهم في أنه هل يصح الندم من قبيح دون قبيح ؟

فقال أبو علي : إنّه تصح ما لم يصر على شيء من ذلك الجنس ، فلو أنّه تاب من شرب الخمر وأصرّ على الزنا كانت توبته عن الأول توبة نصوحاً صحيحة ، وأما إذا أصرّ على شيء من ذلك الجنس لم تصح توبته . وذلك كما أنّه لو تاب عن شرب هذا القدح من الخمر مع إصراره على شرب قدح آخر ، فلا إشكال في أنْ لا تصح توبته هذه[1] .

وقال أبو هاشم : إنّه لا تصح التوبة عن بعض القبائح مع الإصرار على بعض ، واختاره القاضي عبد الجبار ، واستدل عليه بأنّ التوبة عن القبيح يجب أنْ يكون ندماً عليه لقبحه ، وعزماً على أنْ لا يعود إلى أمثاله في القبح . وإذا كان هذا كذلك ، فليس تصح توبته عن بعض القبائح مع الإصرار على البعض ، إذ ليس يصح أنْ يترك أحدنا بعض الأفعال لوجه ، ثم لا يترك ما سواه في ذلك الوجه ، ألا ترى أنه لا يصح أنْ يَتَجَنّب سلوك طريق لأن فيها سبعاً ، ثم لا يتجنب سلوك طريق أُخرى فيها سبع . وكذلك لا يصح أنْ لا يتناول طعاماً لأنّ فيه سماً ، ثم يتناول طعاماً آخر مع أنّ فيه سماً[2] .

يلاحظ عليه : إنّ الأفعال القبيحة تختلف شدة وضعفاً ، وإنْ كانت تشترك في كونها عدواناً على الله وخرقاً لحدوده ، ولكنها مع ذلك تختلف في جهات القبح ، وعلى ذلك فربما يوجد داعٍ إلى الندم في بعض القبائح دون الأخرى ، وذلك بأن يقترن ببعض القبائح قرائنُ زائدة كعظم الذنب ، أو كثرة الزواجر عنه ، أو الشناعة على فعله عند العقلاء ، دون قبائح أخرى ، فعندئذ ربما يرجح الندم

---

(١) شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٩٥ .

(٢) شرح الأصول الخمسة : ص ٧٩٥ .

على القبائح المحتفة بما يوجد الندم في النفس دون الأُخرى . ولو اشتركت جميع القبائح في قوة الدواعي اشتركت في وقوع الندم عليها جميعاً ، ولم يصح الندم على البعض دون الآخر[1] .

وهذا مما يلمسه الإنسان في حياة المجرمين ، فربما يحضر عاص أنديه الوعظ والإرشاد ، فيستمع إلى الخطيب ، يندد ببعض المعاصي كشرب الخمر ، وأكل الربا ، ويذكر قبحهما وشناعتهما ، وما يترتب عليهما من إشاعة البغضاء في المجتمع ، فيحصل في نفسه داع قوي يدفعه إلى ترك هذين القبيحين ، وفي الوقت نفسه قد لا يجد داعياً لترك غيرهما من المعاصي التي اعتاد عليها ، كالغيبة لا لأنه لا يراها قبيحة ، بل لأنها لم تحتف بما يوجد داعي الندم في نفسه ، بخلاف الأولين . فجميعها ، إذن ، تشترك في القبح والشناعة ، غير أنّ الأوّلين يتميزان بوجود الداعي إلى التوبة عنهما فتاب ، دون الآخر .

وبذلك يظهر الجواب عما ذكره أبو هاشم من أنّه إذا كانت توبته عن بعض القبائح لأجل قبحها ، فهو موجود في البعض الآخر أيضاً ، فلم تاب عن الأُولى دون الأُخرى ؟ .

وجه الجواب أنّ الكل يشترك في القبح ، لكن ترك البعض دون الآخر ، لا لأجل اعتقاده أنّ واحداً قبيح دون الآخر، بل إنه يعتقد بقبحهما ، ولكن الداعي للتوبة موجود في أحدهما دون الآخر .

ولقد أحسن المحقق الطوسي ، حيث قال : التحقيق أنّ ترجيح الداعي إلى الندم على البعض يبعث عليه خاصة ، وإن اشترك الداعي في الندم على القبيح لقبحه ، كما في الدواعي إلى الفعل . ولو اشترك الترجيح ، اشترك وقوع الندم ، فلا يصح الندم[2] .

ومما يوضح ذلك أنّه لو أسلم يهودي ورجع عن كفره ، نادماً على ما مضى من عمره ، ولكنه بقي مصراً على صغيرة من الصغائر ، فلو قلنا بأنّ التوبة من

---

(١) لاحظ كشف المراد ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ط صيدا .

(٢) كشف المراد ، ص ٢٦٥ ، ط صيدا .

القبائح لا تتبعض لـزم أنْ لا تكون تـوبته مقبـولة ، وهـو خرق للإجماع ، وإلى هذا ينـظر قول المحقق الـطوسي ، « وإلا لولا التبعيض ، لـزم الحكم ببقاء الكفـر عـلى التائب منه المقيم على صغيرة »[1] .

والعجب أنّ القـاضي عبد الجبـار استحسن قـول أبي هـاشم وأراد التخلص عن هـذا الإشكال فقـال : إنه لا يسقط من عقـوبتـه شيء لأنـه لم يـأت بمـا يسقط العقوبة عامة ، فبقيت عقوبته كما كانت ، نعم ، لا يجري عليه أحكام اليهود[2] .

كيف يقـول لا يسقط من عقوبتـه شيء مع أنّـه كان كـافـراً فصـار مؤمنـاً ، والإيمان يكفر الشرك وعقوبته باتفاق المسلمين ، فالقول ببقاء عقوبة الشرك مـع أنّه صـار مؤمنـاً بحجـة أنّـه لم يـزل يـرتكب صغـيرة ، مخـالف لنص الآيـات واتفـاق المسلمين ، ومعاملة النبي للمشركين الذين آمنوا ، ولو كـان رفع العقـوبة مقـيّداً بعدم الإصرار على صغـيرة ، من الذنـوب التي كان يـرتكبها المشرك ، لأصحـر به النبي وبيّنـه .

بقي هنا أبحاث طفيفة في التوبـة ، يظهـر حالهـا مما أوضحنـاه[3] . نسـأله سبحانه أن يتوب علينا ، ويكتب الغفران في صحائف أعمالنا ، بفضله وكرمه .

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٩٧ .

(٣) مثل ما إذا اغتاب إنسان رجـلاً ، فهل يجب عليـه الإعتذار منـه ، خاصـة إذا بلغتـه الغيبـة ـ أو لا ؟ وهذه مسألة فقهية .

وإذا كان التائب عالماً بذنوبه على التفصيل فهل يجب التـوبة عن كـل واحدة منهـا ، أو تكفي التوبـة عنها إجمالاً ؟

وهل يجب تجديد التوبة ، كلما تذكر التائب ، معصيته السابقة ؟

وغير ذلك مما ذكره المتكلمون ، لاحظ التجريد وشروحه ، في التوبة ، المسألة الحادية عشر .

مباحث المعاد

(١٥)

الشفاعة

الشفاعة في الآخرة بصيص من الرجاء ، ونافذة من الأمل ، فتحتها الشريعة الإسلامية في وجه العصاة حتى لا ييأسوا من روح الله ورحمته ، ولا يغلبهم الشعور بالحرمان من عفوه فيتمادوا في العصيان . فالسبب في تشريع الشفاعة هو عينه السبب في تشريع التوبة في الحياة الدنيوية . وجلاء الحقيقة في الشفاعة ، يتم بالبحث في الأمور التالية :

١ ـ تصنيف آيات الشفاعة وإرجاعها إلى معنى واحد .

٢ ـ نقل نماذج مما ورد من السنة عن النبي والعترة الطاهرة .

٣ ـ تبيين معنى الشفاعة ، وأقسامها .

٤ ـ مبررات تشريع الشفاعة .

٥ ـ شرائط شمول الشفاعة .

٦ ـ أثر الشفاعة وأنّه حطُّ الذنوب ، لا رفع الدرجة .

٧ ـ تحليل الإشكالات المثارة حول الشفاعة ، وهي خمسة .

٨ ـ جواز طلب الشفاعة من الأولياء .

وفيما يلي البحث في كل واحدة منها[١] .

* * * *

الأمر الأول : آيات الشفاعة وتصنيفها

قد ورد ذكر الشفاعة في الكتاب الحكيم في سور مختلفة ، لمناسبات شتّى . ولا يظهر المراد من المجموع إلا بعرض بعضها على بعض ، وتفسير الكل بالكل ، والآيات الواردة في الشفاعة تندرج تحت الأصناف التالية :

الصنف الأول : ما ينفي الشفاعة في بادىء الأمر .

يقول سبحانه : ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا أَنْفِقُوا مِمّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ ولا خُلّةٌ ولا شفاعَةٌ والكافرون هُمُ الظالِمونَ** ﴾[٢] .

وهذا الصنف من الآيات هو المستمسك لمن اعتقد بأنّ الشفاعة عقيدة إختلقها الكُهّان[٣] ، وسيوافيك أنّ المنفي قسم خاص منها لا جميع أقسامها بقرينة أنّ المَنْفِي قسم من أواصر الخلة لا جميعها ، بشهادة قوله سبحانه : ﴿ **الأَخِلّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلّا المُتّقِينَ** ﴾[٤]

الصنف الثاني : ما يَرُدّ الشفاعة المزعومة لليهود .

يقول سبحانه : ﴿ **واتّقوا يَوماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ولا يُقْبَلُ مِنْها شَفَاعَةٌ ، ولا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ولا هُمْ يُنْصَرونَ** ﴾[٥] .

والآية خطاب لليهود ، وهي تهدف إلى نفي الشفاعة المزعومة عندهم ، حيث كانوا يقولون نحن أولاد الأنبياء وأولادنا يشفعون لنا ، فصار ذلك ذريعة

---

(١) التفصيل في هذه الأمور يحوجنا إلى تأليف مفرد ، ولذ اقتصرنا في البحث على ما يناسب وضع الكتاب .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٤ .

(٣) لاحظ دائرة معارف القرن الرابع عشر ، ص ٤٠٢ ، مادة شفع .

(٤) سورة الزخرف · الآية ٦٧ .

(٥) سورة البقرة . الآية ٤٨ .

لارتكاب الموبقات ، وترك الفرائض ، فآيسهم الله من ذلك .

الصنف الثالث : ما ينفي شمول الشفاعة للكفار .

يقول سبحانه ـ حاكياً عن الكفار ـ : ﴿ وَكُنّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِّين * حتى أتانا اليَقينُ * فما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشّافِعِينَ ﴾[١] .

وهذا الصنف ناظر إلى نفي وجود شفيع ـ يوم القيامة ـ للكفار الذين انقطعت علاقتهم بالله لكفرهم به وبرسله وكتبه كما انقطعت علاقتهم الروحية بالشفعاء الصالحين ، فلم يبق بينهم وبين الشفاعة أية صلة وعلاقة .

الصنف الرابع : ما ينفي صلاحيّة الأصنام للشّفاعة .

يقول سبحانه : ﴿ وما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُم الذينَ زَعَمْتُمْ أنّهُمْ فيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمونَ ﴾[٢] .

وهذا الصنف يرمي إلى نفي صلاحية الأصنام للشفاعة ، وذلك لأنّ العرب الجاهليين كانوا يعبدون الأصنام لاعتقادهم بشفاعتهم عند الله .

الصنف الخامس : ما يخصُّ الشفاعة بالله سبحانه .

يقول سبحانه : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الذينَ يخافونَ أَنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتّقونَ ﴾[٣] .

وكون الشفاعة مختصة بالله لا ينافي ثبوتها لغيره بإذنه كما يعرب عنه آيات الصنف السادس .

الصنف السادس : ما يثبت الشفاعة لغيره بإذنه سبحانه .

يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إلاّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضيَ لَهُ قَوْلاً ﴾[٤] .

---

(١) سورة المدثر : الآيات ٤٦ ـ ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٩٤ . ولاحظ يونس : ١٨ ، الروم : ١٣ ، الزمر : ٤٣ ، يس : ٢٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٥١ ، ولاحظ الأنعام : ٧ ، السجدة : ٤ ، الزمر : ٤٤ .

(٤) سورة طه : الآية ١٠٩ .

ويقول سبحانه : ﴿ مَنْ ذا الذي يَشْفَعْ عِنْدَهُ إلاّ بإذنِهِ ﴾[1] .

والجمع بين هذا الصنف وما سبقه واضح ، وقد قلنا إنّ مقتضى التوحيد في الخالقية أنّه لا مؤثّر في الكون إلا الله ، وأنّ تأثير سائر العلل إنما هو على وجه التبعية لإرادته سبحانه .

الصنف السابع : ما يسمّي من تُقْبل شفاعته .

ويتضمن هذا الصنف أسماء بعض من تُقبل شفاعتهم يوم القيامة .

يقول سبحانه : ﴿ وقالوا اتّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * بل عبادٌ مُكَرَّمونَ ، لا يَسْبقونَهُ بالقَوْلِ وَهُمْ بِأمْرِهِ يَعْمَلونَ * يَعْلَمُ ما بَيْنَ أيديهِمْ وما خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقونَ ﴾[2] . فصرّح بأنّ الملائكة وحملة العرش تقبل شفاعتهم .

ويتحصل من جمع الآيات أنّ الشفاعة تنقسم إلى شفاعة مرفوضة ، كالشفاعة التي يعتقد بها اليهود ، وشفاعة الأصنام ، والشفاعة في حقّ الكفار ، وإلى مقبولة وهي شفاعة الله سبحانه ، وشفاعة من أذن له ، وشفاعة الملائكة وحملة العرش ، وبالإحاطة بالأصناف السبعة ، تقدر على تمييز المرفوضة عن المقبولة .

وليست آيات الشفاعة مختصة بالأصناف التي ذكرناها ، فإن هناك آيات تخرج عن إطارها مثل قوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ ، عسى رَبُّكَ أنْ يَبْعَثَكَ مقاماً مَحْموداً ﴾ . وقد أطبق المفسرون على أنّ المراد من المقام المحمود ، هو مقام الشفاعة[3] .

* * *

---

(١) سورة البقرة · الآية ٢٥٥ ، ولاحظ يونس : ٣ ، مريم : ٨٧ ، سبأ : ٢٣ ، الزخرف : ٨٦ .
(٢) سورة الأنبياء . الآيات ٢٦ ـ ٢٨ ولاحظ النجم : ٢٦ ، غافر : ٧ .
(٣) لاحظ مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٤٣٥ .

الأمر الثاني : الشفاعة في السُّنّة .

لقد اهتم الحديث النبوي ، وحديث العترة الطاهرة بأمر الشفاعة وحدودها وشرائطها وأسبابها وموانعها ، اهتماماً بالغاً لا يوجد له مثيل إلا في موضوعات خاصة تتمتع بالأهمية القصوى . وإذا لاحظ المتتبع ، الصحاح والمسانيد والجوامع الحديثية فإنه يقف على جمهرة كبيرة من الأحاديث الواردة في الشفاعة ، تدفع به إلى الأذعان بأنّها من الأُصول المُسَلّمة في الشريعة الإسلامية ، ونحن نذكر النذر اليسير منها .

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لكل نبي دعوة مستجابة . فَتَعَجَّلَ كُلُّ نبيٍّ دعوتَه ، وإنّي اختبأت دعوتي ، شفاعةً لأُمتي ، وهي نائلة من مات منهم لا يشرك بالله شيئاً »[1] .

٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أُعطيت خمساً ، وأُعطيت الشفاعة ، فادخرتها لأُمتي ، فهي لمن لا يشرك بالله »[2] .

٣ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي »[3] .

٤ ـ وقال عليٌّ عليه السلام : « ثَلاَثَةٌ يَشْفَعُونَ إلى الله عز وجل فَيُشَفَّعون : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء »[4] .

٥ ـ وقال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام في كلام له : « اللهمّ صلِّ على محمد وآل محمد ، وشرّف بنيانه ، وعَظِّم بُرهانَهُ ، وثَقِّل ميزانَهُ وتقبَّل شفاعته »[5] .

---

(١) صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ١٣٠ . وصحيح البخاري ، ج ٨ ، ص ٣٣ ، وج ٩، ص ١٧٠ . وغير ذلك من المصادر .

(٢) صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٤٢ ، وص ١١٩ . ومسند أحمد ، ج ١ ، ص ٣٠١ .

(٣) « من لا يحضره الفقيه » للصدوق ، ج ٣ ، ص ٣٧٦

(٤) « الخصال » ، للصدوق ، ص ١٤٢ .

(٥) الصحيفة السجادية ، الدعاء الثاني والأربعون . ومن أراد التبسط فعليه الرجوع إلى المصادر التالية :

الأمر الثالث : حقيقة الشفاعة وأقسامها

للشفاعة أصل واحد يدل على مقارنة الشيئين ، من ذلك الشفع ، خلاف الوتر ، تقول كان فرداً فشفّعته[1] .

فإذا كان مقوِّم الشفاعة ، إنضمام شيء إلى شيء في مقام التأثير ، فهي تنقسم إلى الأقسام التالية :

شفاعة تكوينية ، شفاعة قيادية ، وشفاعة مصطلحة بين الناس .

١ ـ الشفاعة التكوينية

قد عرفت في مباحث التوحيد أنّ المظاهر الكونية ، بحكم أنّها ممكنة الوجود ، غير مستقلة في ذاتها ، ولكنها مع ذلك قائمة على أساس علل ومعاليل سائدة فيها .

وعلى ضوء ذلك فتأثير كل ظاهرة كونية في أثرها ، ومعلولها ، بإذنه سبحانه ، ولا يتحقق إلاّ مقترناً به ، ولأجل ذلك سمّى سبحانه السبب الكوني ، شفيعاً ، لأنّ تأثيره مشروط بأن يكون إذنه سبحانه منضماً إليه ، فيؤثّران معاً . يقول سبحانه : ﴿ إنّ ربَّكُمْ اللهُ الذي خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أيّام ثُمَّ استوى على العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ما مِنْ شَفيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرونَ ﴾[2] والمراد من الشفيع هو الأسباب والعلل المادية الواقعة في طريق وجود الأشياء وتحققها . وإنما سميت العلة شفيعاً ، لأجل أنّ تأثيرها يتوقف على إذنه سبحانه ، فهي مشفوعة إلى إذنه ، حتى تؤثّر وتعطي ما تعطي .

كنز العمال ، ج ٤ ، ص ٦٣٨ ـ ٦٤٠ . التاج الجامع للأصول ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ ـ ٣٦٠ . بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ٢٩ ـ ٦٣ ، وقد أورد أحاديث الشفاعة في غير هذا الجزاء أيضاً . وقد جمع الأستاذ دام ظله القسط الأوفر من أحاديث الشفاعة في موسوعته القرآنية : « مفاهيم القرآن » ج ٤ ، ص ٢٨٧ ـ ٣١١ .

(١) المقاييس ، ج ٣ ، ص ٢٠١

(٢) سورة يونس : الآية ٣ .

فالآية خارجة عن الشفاعة المصطلحة بين علماء الكلام ، والقرائن الموجودة في نفس الآية تصدُّنا عن حملها إلا على هذا القسم من الشفاعة ، وقد عرفت أنّ الشفاعة خلاف الوتر ، وأنّه يصح في صدقها ، إنضمام شيء إلى شيء .

٢ ـ الشفاعة القيادية

والمراد من هذا الصنف هو قيام الأنبياء والأولياء والأئمة والعلماء ، والكتب السماوية مقام الشفيع ، والشفاعة للبشر لتخليصهم من عواقب أعمالهم وسيئات أفعالهم .

والفرق بين هذه الشفاعة والشفاعة المصطلحة أنّ الثانية توجب رفع العذاب عن العبد بعد استحقاقه له ، وهذه توجب أن لا يقع العبد في عداد العصاة ، حتى يستحق العقاب . فالأُولى من قبيل الرفع ، والثانية من قبيل الدفع . وعلى ذلك فقيادة الأنبياء والأئمة ، تقوم مقام الشفيع والشفاعة في تجنيب العبد من الوقوع في المعاصي والمهالك .

فالشفاعة بهذا المعنى ، مثلها مثل الوقاية في الطبابة ، كما أنّ الشفاعة المصطلحة مثلها مثل المداواة بعد إصابة المرض .

وليس إطلاق الشناعة بهذا المعنى إطلاقاً مجازياً ، كيف وقد شهد بذلك القرآن والأخبار .

قال سبحانه : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الذين يخافونَ أَنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهِمْ ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دونه وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقونَ ﴾[1] .

والضمير المجرور في ﴿به﴾ يرجع إلى القرآن ، ومن المعلوم أنّ ظرف شفاعة القرآن ، هو الحياة الدنيوية . فإن هدايته تتحقق فيها ، وإن كانت نتائجها تظهر في الحياة الأُخروية ، فمن عمل بالقرآن قاده إلى الجنة .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٥١ .

يقــول صـلى الله عليــه وآلـه : « إذا التبست عليكم الفِتَنُ كَقِـطَع الليـل المظلم ، فعليكم بالقرآن ، فإنه شافع مُشَفَّع »[1] .

فالشفاعة هنا بنفس معناها اللغوي ، وذلك أنّ المكلَّف يضم هـداية القـرآن وتوجيهات الأنبياء والأئمة ، إلى إرادته وسعيه ، فيفوز بالسعادة الأُخروية .

* وهـذا غير الشفـاعة المصـطلحة فـإنّ ظرفهـا هو الحيـاة الأُخـرويـة ، فبـين الشفاعتين بون بعيد .

٣ ـ الشفاعة المصطلحة

حقيقة هذه الشفاعة لا تعني إلا أنْ تصل رحمته سبحانه ومغفرتهُ وفيضـه إلى عباده عن طريق أوليـائه وصفـوة عباده ، وليس هـذا بأمـر غريب فكـما أنّ الهدايـة الإلهيـة التي هي من فيوضـه سبحانـه ، تصل إلى عبـاده في هذه الـدنيا عن طـريق أنبيائه وكتبه ، فهكذا تصل مغفرته سبحانـه إلى المذنبـين والعصاة من عبـاده ، يوم القيـامة ، عن ذلـك الطريق ولا بُعْـد في أن يصل غفـرانه سبحـانه إلى عبـاده يـوم القيامة ، عن طريق عباده ، فإنه سبحانه قد جعل دعاءهم في الحياة الدنيويـة سبباً لذلك وقال :

﴿ وَلَو أنّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ جاؤُوكَ فَاسْتَغْفَروا الله واسْتَغْفَرَ لَهُمْ الـرَّسُولُ لَوَجَدُوا الله تَوّاباً رَحيماً ﴾[2] .

وتتضح هذه الحقيقة إذا وقفنا على أنّ الدعاء بقول مـطلق ، وبخاصـة دعاء الصـالحين ، من المؤثـرات الـواقعـة في سلسلة نـظام العلة والمعلول ، ولا تنحصر العلة في المحسوس منها ، فإنّ في الكون مؤثرات خارجة عن إحساسنا وحواسنـا ، بـل قد تكـون بعيدة عن تفكـيرنا ، وإليـه يشير قـوله سبحـانـه : ﴿ فـالمُـدَبِّـراتِ أمْراً ﴾[3] .

(١) الكافي ، ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ٦٤ ، ولاحظ يوسف : الآية ٩٧و٩٨ ، التوبة : الآية ١٠٣ .

(٣) سورة النازعات : الآية ٥ .

وبالإمعان فيما ذكرنا من وقوع الدعاء في سلسلة العلل ، تقدر على إرجاع الشفاعة المصطلحة إلى قسم من الشفاعة التكوينية بمعنى تأثير دعاء النبي في جلب المغفرة .

* * *

الأمر الرابع ـ مبررات الشفاعة

ربما يقال : إذا كان المنقذ الوحيد للإنسان يوم القيامة ، هو عمله الصالح ، كما هو صريح قوله سبحانه : ﴿ وأَمّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جزاءً الحُسْنَىٰ ﴾[1] ، فلماذا جعلت الشفاعة وسيلة للمغفرة ؟ .

والجواب عن ذلك : إنّ لتشريع الشفاعة مبررات عدة ، نذكر منها اثنتين :

الأول ـ الحاجة إلى رحمة الله الواسعة حتى مع العمل

إنّ الفوز بالسعادة وإن كان يعتمد على العمل أشد الإعتماد، غير أنّ صريح الآيات هو أنّ العمل ما لم تنضم إليه رحمة الله الواسعة ، غير كاف في إنقاذ الإنسان من تبعات تقصيره .

قال سبحانه : ﴿ ولَوْ يُؤاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عليها من دابّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أجَلٍ مُسمّى ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ يُؤاخذ الله النَّاسَ بما كَسَبوا ما تَرَكَ على ظَهْرِها من دابّةٍ ﴾[3] .

---

(١) سورة الكهف : الآية ٨٨ .

(٢) سورة النحل : الآية ٦١ .

(٣) سورة فاطر : الآية ٤٥ .

الثاني ـ الآثار التربوية للشفاعة

بالرغم مما اعترض على الشفاعة من كونها توجب الجرأة ، وتحيي روح التمرد في العصاة والمجرمين، فإنّ الشفاعة تتسبب في إصلاح سلوك المجرم وإنابته والتخلّي عن التمادي في الطغيان. وتَظْهر حقيقة الحال إذا لاحظنا مسألة التوبة التي اتفقت الأمة على صحتها ، فإنه لو كان باب التوبة موصداً في وجه العصاة والمذنبين ، واعتقد المجرم بأنّ عصيانه مرة واحدة يخلّده في عذاب الله ، فلا شكّ أنّه يتمادى في اقتراف السيئات باعتقاد أنّ تغييره للوضع الذي هو عليه لن يكون مفيداً في إنقاذه من عذاب الله ، فلا وجه لأن يترك لذات المعاصي . وهذا بخلاف ما إذا وجد الجو مشرقاً ، والطريق مفتوحاً ، وأيقن أنّ رجوعه يغير مصيره في الآخرة ، فيترك العصيان ويرجع إلى الطاعة .

ومثل التوبة الإعتقاد بالشفاعة المحدودة (أي مع شروط خاصة في المشفوع له) فإذا اعتقد العاصي بأن أولياء الله قد يشفعون في حقه إذا لم يهتك الستر ، ولم يبلغ إلى الحد الذي لا تكون فيه الشفاعة نافعة ، فعند ذلك ، ربما يعيد النظر في مسيره ، ويحاول تطبيق حياته على شرائط الشفاعة ، حتى لا يُحْرَمها .

نعم ، الإعتقاد بالشفاعة المطلقة المحررة من كل قيد ، مرفوض في منطق العقل والقرآن . والمراد من المطلقة هو أنّ الأنبياء يشفعون للإنسان يوم القيامة ، وإنّ فَعَلَ ما فَعَل ، إذ عند ذلك يستمر ويتمادى في أعماله الإجرامية . وأما الشفاعة المحدودة بشرائط في المشفوع له والشافع ، فلا توجب ذلك .

ومجمل هذه الشروط أنْ لا يقطع الإنسان جميع علاقاته العبودية مع الله ، ووشائجه الروحية مع الشافعين ، ولا يصل تمرده إلى حد نسف جسور الإرتباط بهم .

* * *

الأمر الخامس ـ شرائط شمول الشفاعة

قد تعرفت على أنّ الشفاعة المشروعة ، هي الشفاعة المحدودة بحدود ،

وليس أمر الشفاعة فوضى بلا قيد وشرط ، ونحن نذكر بعض شرائـطها كـما وردت في الروايات .

١ ـ عدم الشرك بالله شيئاً

قال رسول الله صلى الله عليه وآلـه : « شفاعتي نـائلة إنْ شاء الله من مـات ولا يشرك بالله شيئاً »[١] .

٢ ـ شهادة الشهادتين بإخلاص

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « شفاعتي لِمَنْ شهـد أنْ لا إله إلاّ الله ، مخلصاً ، يصدق قلبه لسانه ، ولسانه قلبه »[٢] .

٣ ـ عدم الغـشّ

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من غشّ العرب لم يدخل في شفـاعتي ولم تنله مودتي »[٣] .

٤ ـ عدم نصب العداء لأهل البيت عليهم السلام

قـال الإمام الصـادق عليـه السـلام : « إنّ المؤمن ليشفـع لحميمـه ، إلا أن يكون ناصباً ، ولو أنّ ناصباً شفع له كل نبي مرسل وملك مقرب ما شفعوا »[٤] .

---

(١) مسند أحمد : ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

(٢) مسند أحمد ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ ، و٥١٨ ، ولاحظ صحيح البخاري ، ج١ ، ص ٣٦

(٣) مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٧٢ ، المراد من العرب المسلمون ، لأن المسلمين يوم ذاك كانوا منحصرين في العرب .

(٤) ثواب الأعمال ، للصدوق ، ص ٢٥١ .

٥ ـ عدم الإستخفاف بالصلاة

قال الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام : « لما حُضِر أبي (الإمام الصادق) قال لي : يا بُنَيّ ، إنه لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة »[١] .

٦ ـ عدم التكذيب بشفاعة رسول الله

قال علي بن موسى الرضا عليه السلام : « قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام : من كذّب بشفاعة رسول الله لم تنله »[٢] .

وغير ذلك من الشرائط التي يجدها المتتبع في أحاديث الشفاعة من الفريقين .

الأمر السادس ـ ما هو أثر الشفاعة: إسقاط العقاب أو زيادة الثواب ؟

لم تكن مسألة الشفاعة فكرة جديدة إبتكرها الإسلام وانفرد بها ، بل كانت فكرة رائجة بين أُمم العالم من قبل ، وخاصة بين الوثنيين واليهود .

نعم ، هذّبها الإسلام من الخرافات ، وقررها على أُصول توافق أُصول العدل والعقل ، وصحّحها تحت شرائط في الشافع والمشفوع له ، تجر العُصاة إلى الطهارة من الذنوب ، ولا توجب فيهم جرأة وجسارة . وغير خفي على من وقف على آراء اليهود والوثنيين في أمر الشفاعة ، وأنّ الشفاعة بينهم كانت رجاء في حط الذنوب وغفران الآثام ، ولأجل ذلك كانوا يقترفون الكبائر ، تعويلاً على ذلك الرجاء . وجاء القرآن يرد تلك العقيدة الباعثة إلى الجرأة ، فقال إنه لا يشفع إنسان إلا بإذنه تعالى وفي حق من ارتضاه سبحانه ، فليس لكم أن تقترفوا الذنوب تعويلاً على شفاعة الشفيع ، لأن الأمر ليس في أيديهم بل في ملكه سبحانه وقدرته .

---

(١) الكافي ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ . وج ٦ ، ص ٤٠١ . والتهذيب ، للطوسي ، ج ٩ ، ص ١٠٧ .
(٢) عيون أخبار الرضا ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

وعلى ضوء هذا ، إن الشفاعة عند الأُمم ، مرفوضها ، ومقبولها ، يراد منها حط الذنوب ، ورفع العقاب ، وهي كذلك في الإسلام ، بلا فرق ، كما يوضحه قوله صلى الله عليه وآله : « إدّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »[١] .

وفي المقابل ذهبت المعتزلة إلى تخصيص آيات الشفاعة بأهل الطاعة ، دون العصاة ، وأن أثرها ينحصر في رفع الدرجة وزيادة الثواب. وما هذا التأويل في ايات الشفاعة إلا لأجل موقف مسبق لهم في مرتكب الكبيرة ، حيث حكموا بخلوده في النار إذا مات بلا توبة ، فلما رأوا أن القول بالشفاعة التي أثرها هو إسقاط العقاب ، ينافي ذلك المبنى ، أوّلوا آيات الله ، فقالوا إنّ أثر الشفاعة إنما هو زيادة الثواب ، ورفع الدرجة . وهذا المقام أحد المقامات التي يؤخذ المعتزلة فيها بالعتاب ، حيث قدّموا النهج على النقل الصريح ، وخالفوا في ذلك جميع المسلمين .

قال القاضي عبد الجبار ، منكراً شمول الشفاعة للعصاة : « إنّ شفاعة الفساق الذين ماتوا على الفسوق ولم يتوبوا تتنزل منزلة الشفاعة لمن قتل ولد الغير وترصد للآخر حتى يقتله، فكما أنّ ذلك يقبح فكذلك ها هنا »[٢] .

وما ذكره القاضي ، غفلة منه عن شروط الشفاعة ، فإنّ بعض الذنوب الكبيرة ، تقطع العلائق الإيمانية بالله سبحانه ، كما تقطع الأواصر الروحية مع النبي الأكرم ، فأمثال هؤلاء العصاة لا تشملهم الشفاعة ، وقد تقدم ذكر النصوص الدالة على حرمان طوائف منها .

والعجب أنّ القاضي إستدل على أنّ الفاسق لا يخرج من النار بشفاعة النبي ، بقوله تعالى : ﴿ واتّقوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ﴾[٣] . وقوله تعالى : ﴿ ما لِلظالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شفيعٍ يُطاعُ ﴾[٤] .

---

(١) سنن أبي داود ، ج ٢ ، ص ٥٣٧ ، وصحيح الترمذي ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، صحيح إبن ماجة ، ج ٢ ، ص ١٤٤١ . مسند أحمد ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٨٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٤٨ .

(٤) سورة غافر : الآية ١٨ .

فيلاحظ عليه : أنّ الآيتين راجعتان إلى الكفار ، فالآية الأُولى ناظرة إلى نفي الشفاعة التي كان اليهود يتنبونها ، كما هو صريح سياقها ، والآية الثانية ناظرة إلى نفي الشفاعة التي كان المشركون يرجونها من معبوداتهم ، يقول سبحانه : ﴿ قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ * تَاللهِ إنْ كُنّا لفي ضَلالٍ مُبِينٍ * إذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمِينَ * وما أضَلَّنا إلاّ المُجْرِمُونَ * فما لَنا مِنْ شافِعِينَ * ولا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[1] .

وقال سبحانه : ـ حاكياً قول المجرمين في سقر ـ ﴿ وَكُنّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّين * حتى أتانا اليَقِينُ * فَما تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[2] .

* * *

الأمر السابع ـ الإشكالات المثارة حول الشفاعة

هناك إشكالات مثارة حول الشفاعة ، ناشئة من قياس الشفاعة الواردة في الشريعة الإسلامية ، بالشفاعة الرائجة بين الناس ، ولو عرف المستشكلون الإختلاف الماهوي بين الشفاعتين ، لما اجترؤا على إلقاء هذه الشبهات .

* الإشكال الأول :

إنّ جميع المعاصي تشترك في هدم الحدود والجرأة على المولى ، فأي معنى لشمول الشفاعة لبعض ألوان الجرائم والمعاصي دون البعض الآخر ؟ .

والجواب :

إن للجُرْم مراتب ، كما أنّ المجرمين ، على درجات من النفسيات والروحيات ، فلا يستوي من أحرق مِنْديل أحدٍ عُدواناً بمن أحرق مصنعاً كبيراً له . وَفَرْقٌ بين شاب ينظر إلى المرأة الأجنبية نظراً ممزوجاً بالسوء ، وآخر يعتدي

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ٩٦ـ١٠١ .

(٢) سورة المدثر : الآيات ٤٦ـ٤٨ .

عليها بالعنف . فإذا اختلف الجرمان ، اختلف المجرمان من حيث النفسانيات والروحيات . وهناك مجرم قد حافظ على روابطه الإيمانية مع الله ، وعلى علاقاته الروحية مع الشفيع ، بحيث لا يعد المجرم غريباً عن كلا المقامين ، ومجرمٌ قد قطع كلتا العلاقتين ، وصار أجنبياً عنهما ، فتشريع الشفاعة في حقّ الأول دون الثاني ، لا يعدّ تفريقاً في القانون .

والذي يوضح ذلك أنّ الله سبحانه فرّق بين الذنوب ، فقال بأنّ الشرك لا يغفر ، إلّا مع التوبة ، وأما غيره فيغفر وإن لم تقع التوبة .

قال سبحانه : ﴿ إنّ الله لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَنْ يشاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بالله فَقَدْ افْتَرَى إثماً عظيماً ﴾[1] .

وأنت إذا أَحَطْت بما ورد حول الذنوب من العقوبات المختلفة وتقسيمها إلى كبائر وصغائر ، تقف على أنّ قبول الشفاعة ، في حق بعضٍ دون بعضٍ ، ليس ترجيحاً بلا مرَجّح .

* الإشكال الثاني :

إنّ تشريع الشفاعة يَجُرّ إلى التمادي في العصيان ، واستمرار المجرم في عدوانه ، رجاء غفران ذنوبه بالشفاعة[2] .

والجواب ، أما نقضاً :

فبالوعد بالمغفرة ، مع التوبة ، بل حتى مع عدمها ، قال سبحانه : ﴿ إنّ اللّه لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذلك ﴾ ، فلو كانت الشفاعة موجبة للتمادي ، فليكن الوعد بالمغفرة مع التوبة بل مع عدمها في غير الشرك موجباً للتمادي ، أيضاً . فالجواب هنا ، هو الجواب هناك .

---

(١) سورة النساء : الآية ٤٨ .

(٢) دائرة المعارف ، لفريد وجدي ، ج ٥ ، ص ٤٠٢ .

وأما حــلاً

فالإشكال ينبـع من تصوّر خـاطىء وهو اعتقـاد كون الشفـاعة مـطلقة غـير مشروطة بشيء ، فيكون للإنسان عند ذاك أنْ يفعل ما يريـد تعويـلاً عليها. ولكنك عرفت أنّ الشفاعة محدودة ، وتشمل بعض العباد ،وهم الذين لم تنقطع عـلاقاتهم بالله سبحانه وبأوليائه ، ومثل هذه الشفاعة لا تبعث عـلى الجرأة ، بـل تبعث عملاً في نفس العاصي ، وتدفعه إلى الإحتفاظ بعلاقته ولا ينسفها من رأس .

إن الشفاعة التي نطق لها القرآن ، ليست أمراً مـطلقاً من كـل قيد وشرط ، فإنّ الشفاعة مقيّدة بإذنه سبحانه أوّلاً ، وكون المشفوع لـه مَرْضيـاً عند الله ثـانياً ، وليس من الممكن أنْ يُذْعن المجرم بأنّه ممن يشمله أذنه سبحانه ورضاه .

قال سبحانه : ﴿ مَنْ ذا الذي يَشْفَعْ عُنْدَهُ إلاّ بإذنِهِ ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ ولا يَشْفَعونَ إلاّ لِمَن ارْتَضى ﴾[2] .

فليس في وسع أحد أن يدّعي أنّه من العباد المرضيين ، ثم يعتمد على ادّعائه ويتمادى في العصيان .

وهناك وجه آخر لكون الشفاعة محدودة ، وهو إبهامها من حيث الجرم ، فلا يعلم أي جـرم تشمله الشفـاعـة وأيُّـهُ لا تشمله . كـما أنها مبهمـة من حيث وقت القيـامة ، فللعُصـاة والـطغـاة مـواقف مختلفـة ، وهي مـواقف رهيبـة ومخيفـة تهـز القلوب ، ولم يعين وقت الشفاعة .

وهذا الإبهامات الثلاثـة ، تصد المجـرم عن الإعتماد على الشفاعة ليتمادى في المعصية ، وغاية ما يمكن أنْ يقال في الشفاعة أنّها بصيص من الرجاء ، ونافـذة من الأمل فتحها القرآن في وجه العصاة حتى لا ييأسوا من روح الله .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٨ .

* الإشكال الثالث :

إنّ الشفاعة لا تتحقق إلا بترك الإرادة وفسخها لطلب الشفيع رفع العقاب عن المشفوع له ، من غير فرق بين الحاكم العادل والحاكم الظالم ، غاية الأمر أنّ الحاكم العادل لا يقبل الشفاعة إلا إذا تغيّر علمه بما كان أراده أو حكم به ، كأن أخطأ ثم عرف الصواب ، ورأى العدل في خلاف ما أراده أو حكم به . وأما الحاكم الظالم ، فهو يقبل الشهادة لكن مع العلم بصواب الحكم الأول وكونه عدلاً ، لكنه يفضل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرّب عنده على العدالة ، وكلا النوعين محال على الله ، لأن إرادته تعالى على حسب علمه ، وعلمُه أزلي لا يتغير[1] .

والجواب :

إن المستشكل لو أمعن في حقيقة الشفاعة التي نطق بها القرآن والأحاديث لما جعل الشفاعة من هذا الباب . بل هي من واد آخر ، ومن باب تغيير الحكم لأجل تغيّر الموضوع . فالخمر ما دام خمراً حرام ، فإذا تبدّل إلى الخل يكون حلالاً ، ولا يُعَدّ الحكم الثاني ناقضاً للحكم الأول .

ونظير ذلك العاصي والتائب ، فإن العصيان حالة نفسانية في الإنسان ، فله حكمه الخاص ، كما أنّ التوبة حاكية عن حالة نفسانية مغايرة للحالة الأولى ، فلها حكمها الخاص ، والإختلاف في الحكمين لأجل الإختلاف في الموضوعين ، ولا يعد ذلك تبدّلاً في العلم ، بل تبدّلاً في المعلوم .

وعلى هذا الأساس ، فالعاصي ـ مجرداً عن انضمام الشفاعة إليه ـ محكوم بالعقاب ، ولكنه ـ منضمّةً إليه الشفاعة ـ محكوم بحكم آخر من أول الأمر ، واختلاف الحكمين ، لأجل اختلاف الموضوعين في الإطلاق والتقييد .

وإن شئت قلت : إنّ العاصي مجرداً عما يمر عليه في البرزخ من العذاب ،

---

(١) المنار ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، وقد تبنى مؤلّفه هذا الإشكال وما يليه !! .

وما يستتبع ذلك العذاب من الصفاء في روحه ، ومجرداً عن دعاء الشفيع في حقه ، محكوم بالعقاب . ولكنه ـ منضماً إلى الضمائم الثلاث ـ محكوم بالمغفرة .

وعلى ضوء هذا ، يتبين أنّ الشفاعة لا توجب اختلافاً في علمه وتغييراً في إرادته ، كما لا توجب أنْ يكون أحد الحكمين مطابقاً للعدل والآخر مطابقاً للجور ، بل الحكمان صدرا من الأزل ، على موضوعين مختلفين ، من مصدر العدل ، تبارك وتعالى .

* الإشكال الرابع :

ليس في القرآن نص قطعي على وقوع الشفاعة وإنما ورد الحديث بإثباتها[1] .

ولعل نظر المستشكل إلى أنّ الشفاعة مقيدة بإذنه سبحانه وارتضائه ، ولا دليل على أنه يأذن ويرتضي ، فهو ممكن لا دليل على وقوعه .

والجواب :

إن البحث عن الإمكان والإمتناع يناسب المسائل الفلسفية والكلامية البحتة ، وأما المسائل التربوية ، كالشفاعة ، فالوعد بها ، مقيّداً بالإذن ، والإرتضاء ، لا يهدف إلا إلى وقوعها في ذلك الإطار ، لا إمكانها فيه ، وذلك مثل قوله سبحانه : ﴿ وما كانَ لِنَفْسٍ أنْ تُؤْمِنَ إلاّ بِإذْنِ الله ﴾[2] وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أنْ تموتَ إلاّ بِإذْنِ الله ﴾[3] .

على أن هناك قرائن تدل على وقوع الإستثناء وتحققه ، منها :

١ ـ أنّه سبحانه عبّر عن رضاه ، بالجملة الماضية ، وقال : ﴿ ولا يَشْفَعُونَ

---

(١) المنار ، ج ٧ ، ص ٣٧٠ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٠٠ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٤٥ .

إلاّ لِمَنْ ارتَضَى ﴾ ، وهو يدل على تحقق الرضا منه سبحانه في حقّ المشفوع له ، ورضاه له لا ينفك عن تحقق إذنه للشفعاء .

٢ ـ وأنّه سبحانه أخبر بخبرٍ قطعيٍّ عن شهادة من شهد بالحق ، قال : ﴿ ولا يَمْلِكُ الذينَ يَدْعُونَ مِنْ دونِهِ الشّفَاعَةَ إلاّ مَنْ شَهِدَ بالحَقِّ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(١) .

وهذا يكشف عن تحقق المراتب المتقدمة عليه ، من إذنه سبحانه له وارتضائه لمن يستحقها .

وغير ذلك من القرائن التي يستكشف منها كون الشفاعة وعداً مقطوعاً وقوعه .

* الإشكال الخامس :

الذي ورد في إثبات الشفاعة ، من الآيات المتشابهات ، وفيه يقضى بمذهب السلف ، بالتفويض والتسليم ، ولا نحيط بحقيقتها ، مع تنزيه الله تعالى جل جلاله عن المعنى المعروف للشفاعة في لسان التخاطب العرفي(٢) .

والجواب :

قد تعرفت على أصناف الآيات الواردة في الشفاعة ، وليس فيها آية مبهمة مستعصية على الفهم . وعلى فرض وجودها ، يرفع إبهامها بآية أختها ، أو بالأحاديث الواردة حولها .

على أنّ ما ذكره المستشكل من أنّ مذهب السلف في المتشابهات هو التفويض والتسليم ، مردود من رأس فإنّ القرآن كتاب الهداية والتربية ، نزل للفهم

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٦ .
(٢) المنار ، ج ١ ، ص ٣٠٧ـ٣٠٨ .

والعبرة ، فلا معنى لقراءة الآيات وتفويض مفاهيمها التصديقيّـة إلى الله ، بل يجب رفع إبهام المتشابهات عن طريق المحكمات .

نعم ، هنـاك مفاهيم تصـورية مبهمـة ، كحقيقة ذاتـه تعالى ، وصفـاتـه ، وحقيقـة الميزان والحسـاب والجنة والنـار ، ولكنها مفـاهيم تصـوريـة خـارجـة عن موضوع البحث .

* * *

هذه جملة من الإشكالات ، وبالإحاطة بها وبأجوبتها ، تقدر على دفع مـا لم نورده مما ذكروه[١] .

وفي الختـام ، نشير إلى أن مسـألة الشفـاعة مسـألـة إجمـاعيـة ، اتفق عليهـا الفريقان ، فلا تجد في كتاب كلامي إلّا التصديق بها .

قـال القاضي عيّـاض : « مذهب أهـل السنة هـو جـواز الشفـاعـة عقـلاً ، ووجوبها سمعـاً بصريح الآيات ، وبخبر الصـادق ، وقد جـاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التـواتر ، بصحـة الشفاعـة في الآخرة لمـذنبي المؤمنين ، وأجمـع السلف الصالح ومن بعدهم من أهل السنة ، عليها »[٢] .

وقال الإمام أبو حفص النسفي : « والشفاعة ثابتـة للرسل والأخيـار في حق أهل الكبائر ، بالمستفيض من الأخبار »[٣] .

* * *

---

(١) راجع في الوقوف على سائر الإشكالات وأجوبتها ، مفاهيم القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٤٦ـ ٢٥٦ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ٦٢ .

(٣) شرح العقائد النسفية ، ص ١٤٨ . ولاحظ أنوار التنزيل للبيضاوي ، ج ١ ، ص ١٥٢ . ومفاتيح الغيب ، للرازي ، ج ٣ ، ص ٥٦ . ومجمـوعـة الـرسـائـل الكـبرى ، لابن تيميـة ، ج ١ ، ص ٤٠٣ . وتفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٠٩ . وغير ذلك من المصادر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمر الثامن : هل يجوز طلب الشفاعة ؟

قد تعرفت على أنّ أصل الشفاعة أمْر مفروغ عنه ، وأنّ المخلصين من عباده يشفعون يوم القيامة بعد إذنه وارتضائه ، لكن يقع الكلام في جواز طلب الشفاعة من الأولياء في هذه النشأة .

فذهب إبن تيمية وتبعه محمد بن عبد الوهاب ـ مخالفين الأُمة الإسلامية جمعاء ـ إلى أنّه لا يجوز طلب الشفاعة من الأولياء في هذه النشأة ولا يجوز للمؤمن إلاّ أنْ يقول : أللّهم شَفّع نبيَّنا محمداً فينا يوم القيامة ، ولا يجوز أنْ يقول : يا رسول الله ، إشفع لي يوم القيامة .

واستدلا على ذلك بوجوه ، لا بأس بذكرها والإجابة عنها على وجه الإجمال .

الوجه الأول : إنّه من أقسام الشرك ، أي الشرك بالعبادة ، والقائل بهذا الكلام ، يعبد الولي[1] .

والجواب ، أما نقضاً

فبأنّه لو كان طلب الشفاعة في هذه النشأة من الأنبياء والأولياء شركاً ، لوجب أنْ لا يكون هناك فرق بين حياتهم ومماتهم ، مع أنّ القرآن يدعو المؤمنين إلى أن يلجأوا إلى حضرة الرسول في حال حياته ويطلبوا منه أن يستغفر لهم ، يقول سبحانه : ﴿**وَلَوْ أنّهم إذ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ جاؤوك فاسْتَغْفروا الله واسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسول لَوَجَدُوا الله تَوّاباً رحيماً**﴾[2] . وليس طلب الإستغفار من النبي إلاّ طلباً للشفاعة ، إذ ليس معنى قولنا : يا رسول الله إشفع لنا عند الله ، إلاّ أُدع لنا عند ربك بالخير والمغفرة .

(١) الهدية السنية ، ص ٤٢ .

(٢) سورة النساء : الآية ٦٤ .

وأمّا حلاً :

فقد عرفت أنّ طلب شيء من أي شخص كان ، إنما يعد عبادة ، إذا اعتقد أنّه إله أو رَبٌّ ، أو أنّه مفوّضٌ إليه فعل الخالق وتدبيره وشؤونه . وأما طلب من الشخص بما أنّه عبد صالح محبوب عند الله ، فلا يعدّ عبادة للمدعو سواء أكان نافعاً أو لا . وقد أوضحنا معنى العبادة عند البحث عن التوحيد في العبادة(١) .

الوجه الثاني :

إنّ طلب الشفاعة من النبي يشبه عمل عبدة الأصنام في طلبهم الشفاعة من آلهتهم الكاذبة ، وقد حكى القرآن ذاك العمل منهم ، وقال : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ ، ويقولون هؤلاء شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللّهِ** ﴾(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ **وَيَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ ويقولون هؤلاء شفعَاؤُنَا عِنْدَ اللّهِ** ﴾(٣) . وعلى ذلك فالإستشفاع من غيره سبحانه ، عبادة لهذا الغير(٤) .

والجواب :

إنّ المعيار في القضاء ليس هو التشابه الصوري ، بل المعيار هو البواطن والعزائم ولو صحّ ما ذكره لوجب أنْ يكون السعي بين الصفا والمروة ، والطواف حول البيت ، شركاً ، لقيام المشركين به في الجاهلية ، وقد عرفت أنّهم كانوا يطلبون الشفاعة من الأوثان باعتقاد أنّها آلهة أو أشياء فوّض إليها أفعال الله سبحانه من المغفرة والشفاعة .

وأين هذا من طلب الشفاعة من الأنبياء والأولياء بما أنّهم عباد الله

---

(١) لاحظ الجزء الأول من الكتاب ، ص ٤٢٩-٤٤٧ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٥ .

(٣) سورة يونس : الآية ١٨ .

(٤) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ، ص ٦ .

الصالحون . فعَطْفُ هذا على ذلك ، جَوْرٌ في القضاء ، وعناد في الإستدلال .

وأما الإستدلال بالآية الثانية ، فهو ضعيف من وجهين :

الأول : إنّ الآية على خلاف ما يدّعيه أدلّ ، لأنّ عطف ﴿ وَيَقولـون ﴾ ، على قوله : ﴿ وَيَعْبُدونَ ﴾ ، دليل على أنّ العمل الثاني ليس عبـادة ، أخذاً بحكم العطف الدال على المغايرة . وبعبارة أُخرى : إنّ المشركين كانوا يقومون بعملين ، العبادة أوّلاً ، وقولهم هم شفعاؤنا ، وطلب الشفـاعة منهم ثـانياً ، وعلة اتّصـافهم بالشرك هو الأوّل لا الثاني .

الثاني : لو فـرضنا أنّ الجملة الثـانية ، جملةً تفسَيرية لـلأُولى ، فنقول : إنّ توصيف طلب الشفاعة من الأوثان بالعبادة لا يستلزم تـوصيف طلب الشفاعـة من الأولياء بها أيضاً ، لما عرفت من الإختلاف في العقيدة ، وأنّ الشافعـين كانـوا عند عَبَدَةِ الأصنام آلهة ، وعند المؤمنين عباداً صالحين ، وأين هذا من ذاك ؟! .

الوجه الثالث :

إن طلب الحاجة من غيره سبحانـه حرام ، فـإن ذلك دعـاء لغير الله ، وهـو حرام .

قال سبحانه : ﴿ فلا تَدْعُوا مع الله أَحَداً ﴾[1] .

ويـدل على أنّ الدعاء في الآية عبادة ، قولـه سبحانـه : ﴿ أُدْعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إنّ الذين يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عبادتي سَيَدْخُلونَ جَهَنّم دَاخِرينَ ﴾[2] . فقد عبّر عن العبادة في الآية بلفظ « الدعوة » في صدرها ، وبلفظ العبـادة في ذيلها ، وهـذا يكشف عن وحـدة التعبـيرين في المعنى . وقـد ورد عنـه صـلى الله عليـه وآلـه : « الدعاء مخ العبادة » .

(١) سورة الجن : الآية ١٨ .

(٢) سورة فاطر : الآية ٦٠ .

والجواب

إنّ القول بأنّ دعاء الغير في جميع الظروف مساوق للعبادة ، شيء لا أساس له ، وإلا يلزم أنْ لا يُسَجَّل إسم أحد في سجل الموحدين ، فإنّ الناس لا ينفكّون عن التعاون ، واستعانة بعضهم ببعض ، ودعوة الواحد منهم الآخر . وعلى ذلك فيجب أن يقال إنّ قسماً ـ فحسب ـ من الدعاء مساوق للعبادة ، وهو دعاء الشخص بما أنّه إله ، وبما أنّه رب ، أوْ بما أنّه مفوّض إليه أفعاله سبحانه . فدعاؤه بهذه الخصوصيات ، مساوق لعبادته .

والآية ناظرة إلى هذ القسم من الدعاء بقرينة قوله ﴿ مَعَ اللّهِ ﴾ ، معرباً عن أنّ الداعي يرى المدعو مشاركاً لله سبحانه في مقام أو مقامات ، ومن المعلوم أنّ الدعاء بهذه الخصوصية شرك بلا إشكال ، والمشركون في الجاهلية ، كانوا يسوون بين الأوثان ورب العالمين ، ويدل عليه قوله سبحانه ـ حاكياً قولهم يوم القيامة ـ : ﴿ تاللّهِ إنْ كُنّا لَفي ضَلالٍ مُبينٍ * إذْ نُسَوّيكُمْ بِرَبِّ العالَمينَ ﴾(١) .

فأي كلمة أظهر من التعبير عن عقيدة المشركين في حق الأوثان بأنها كانت عندهم ورب العالمين ، سواسية .

فقياس دعوة الصالحين من الأنبياء والأولياء ، بدعوة الأصنام والأوثان ، قياس مع الفارق البالغ ، لا يعتمد عليه إلا من سبق له الرأي في هذا المجال ، ويريد التمسك بالطحلب والحشيش .

الوجه الرابع :

إنّ الشفاعة حق مختص بالله لا يملكه غيره ، وعلى ذلك فطلبها من غير مالكها أمر غير صحيح ، قال سبحانه : ﴿ أمِ اتَّخَذوا مِنْ دونِ الله شُفَعَاء ، قُلْ أَوَلَو كانوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً ولا يعقلون * قُلْ لله الشَّفاعَةُ جميعاً . . . ﴾(٢) .

---

(١) سورة الشعراء : الآيتان ٩٧و٩٨ .

(٢) سورة الزمر : الآيتان ٤٣ و ٤٤ .

والجواب : إنّ المراد من قوله سبحانه : ﴿**قل لله الشفاعةُ جميعاً**﴾ ، ليس أنّه هو الشفيع دون غيره ، إذ من الواضح أنّه سبحانه لا يشفع لأحد عند الغير ، بل المراد أنّه المالك لمقام الشفاعة دون غيره ، فليس في الوجود من يملك المغفرة والشفاعة وغيرهما مما هو من شؤونه سبحانه ، غيره .

ولكن هذا لا ينافي أنْ يملكها الغير بتلمليك منه سبحانه ، وفي طول ملكه ، كما هو صريح قوله سبحانه : ﴿ **وما يَمْلِكُ الذينَ يَدْعُونَ مِنْ دونِهِ الشَّفاعَةَ إلاّ مَنْ شَهِدَ بالحقّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾(١) ، فإن الإستثناء في قوله : ﴿ **إلاّ** ﴾ يرجع إلى قوله : ﴿ **لا يَمْلِكُ** ﴾ . فتكون النتيجة أنّه يملك من شهد بالحق ، الشفاعة ، لكن بتمليك منه سبحانه : فهو المالك بالأصالة ، وغيره مالك بالتمليك والعَرَض .

وليس هذا مختصاً بالشفاعة المصطلحة بل الشفاعة التكوينية أيضاً كذلك ، لأن الأثر الطبيعي لجميع الأسباب التكوينية ، يرجع إليها لكن بتسبيب منه سبحانه ، فلولا أنّه جعل النار حارة ، والشمس مضيئة ، والقمر نوراً ، لا تجد فيها تلك الآثار .

الوجه الخامس :

إنّ طلب الشفاعة من الميت أمر باطلٌ .

والجواب : إنّ هذا آخر سهم في كنانة القائلين بحرمة طلب الشفاعة من أولياء الله الصالحين ، والإشكال ناجم من عدم التعرف على مقام الأولياء في كتاب الله الحكيم . وقد عرفت أنّ القرآن يصرّح بحياة جموع كثيرة من الشهداء وغيرهم ، كما عرفت أنّه يصرح بكون النبي شهيداً على الأمة في قوله سبحانه : ﴿ **فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمّةٍ بشهيدٍ وجِئْنا بِكَ على هؤلاء شهيداً** ﴾(٢) . فهل تعقل الشهادة بدون الحياة ، والإطلاع على ما يجري بينهم من الأمور ، من كفرٍ وإيمان وطاعة وعصيان؟ . فلو كان النبي ميّتاً كسائر الأموات ، فما معنى التسليم

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٦ .

(٢) سورة النساء : الآية ٤١ .

عليه في كل صباح ومساء ، وفي تشهد كل صلاة : « السلام عليكَ أيها النبي ورحمة الله وبركاته » ؟ وما معنى خطابه بـ« عليك »؟. وحمل ذلك على الشعار الخالي والتحية الجوفاء ، تأويل بلا دليل .

وأما قوله سبحانه في حقّ الموتى : ﴿ **إنّك لا تُسْمِعُ المَوْتى ولا تُسْمعُ الصُمَّ الدُّعاء إذا وَلّوا مُدْبرينَ** ﴾[1] فهو لا يدلّ إلاعلى أنّ الأموات المدفونين في القبور ، لا يسمعوه ولا يفهموه ، وأنّهم كالجماد ، ولذلك شبّه المشركين بهم في عدم التعقل ، وهو أمر غير منازع فيه ، فإنّ الأبدان بعد الموت ، جمادات محضة ، من غير فرق بين جسد النبي وغيره .

غير أنّ المؤمنين لا يطلبون الشفاعة من أجساد الصالحين وأبدانهم ، بل يطلبونها من أرواحهم المقدسة الحية عند الله سبحانه ، بأبدان برزخية .

فالزائر القائل : « يا مُحمّد إشفع لي عند الله » ، لا يشير إلى جسده ، بل إلى روحه الزكية ، غير أنّ الوقوف عند قبره الشريف يدفع له استعداداً لأن يتصل بروحه ويخاطبها .

إلى هنا تم عرض الإشكالات الضئيلة التي أُستدل بها على تحريم طلب الشفاعة من الأولياء ، والإجابة عليها بما لا يدع مجالاً بعدها للشك في الجواز .

* * *

(١) سورة النمل : الآية ٨٠ .

مباحث المعاد

(١٦)

الإحباط والتكفير

الإحباط في اللغة ، بمعنى الإبطال ، يقال : أَحْبَطَ عَمَلَ الكافر ، أي أبطله[١] .

والكفر بمعنى الستر والتغطية ، يقال لمن غطّى درعه بثوب : قد كفّر درعه ، والمكفّر ، الرجل المتغطّي بسلاحه ، ويقال للزارع كافر ، لأنه يغطي الحب بتراب الأرض . قال الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفّارَ نَبَاتُه ﴾[٢] . والكفر ضد الإيمان ، سمي بذلك لأنه تغطية الحق[٣] .

والمراد من الحبط هو سقوط ثواب العمل الصالح بالمعصية المتأخرة ، كما أنّ المراد من التكفير هو سقوط الذنوب المتقدمة ، بالطاعة المتأخرة .

وبعبارة أخرى : إنّ الإحباط في عرف المتكلمين عبارة عن إبطال الحسنة بعدم ترتب ما يُتوقع منها عليها ، ويقال التكفير وهو إسقاط السيّئة بعدم جريان مقتضاها عليها ، فهو في المعصية نقيض الإحباط في الطاعة . ولنقدّم الكلام في الإحباط أوّلاً .

---

(١) المقاييس ، ج ٢ ، مادة حبط ، ص ١٢٩ .

(٢) سورة الحديد · الآية ٢٠ .

(٣) المقاييس ، ج ٥ ، مادة كفر ، ص ١٩١ .

أولاً : الإحباط

المعروف عن الإمامية ، والأشاعرة هو أنّه لا تحابط بين المعاصي والطاعات والثواب والعقاب ، والمعروف عن جماعة من المعتزلة ، كالجبائيَّيْن وغيرهما هو التحابط[1] .

قال التفتازاني : « لا خلاف في أنّ مَنْ آمَنَ بعد الكفر والمعاصي فهو من أهل الجنة بمنزلة من لا معصية له ، ومن كفر بعد الإيمان والعمل الصالح ، فهو من أهل النار بمنزلة من لا حسنة له ، وإنما الكلام فيمن آمن وعمل صالحاً وآخَرَ سيئاً ، واستمرّ على الطاعات والكبائر ، كما يشاهد من الناس ، فعندنا مآله إلى الجنة ولو بعد النار ، واستحقاقه للثواب والعقاب ، بمقتضى الوعد والوعيد ، من غير حبوط . والمشهور من مذهب المعتزلة أنّه من أهل الخلود في النار إذا مات قبل التوبة ، فأَشْكَلَ عليهم الأمْرُ في إيمانه وطاعته وما يثبت من استحقاقاته ، أين طارت ؟ وكيف زالت ؟ فقالوا بحبوط الطاعات ، ومالوا إلى أنّ السيئات يُذهبن الحسنات »[2] .

أقول : اشتهر بين المتكلمين أنّ المعتزلة يقولون بالإحباط والتكفير ، وأما الأشاعرة والإمامية فهم يذهبون إلى خلافهم . غير أنّ هنا مشكلة ، وهي أن نفيهما على الإطلاق يخالف ما هو مُسلّم عند المسلمين ، من أنّ الإيمان يكفّر الكفر ، ويدخل المؤمن الجنّة خالداً فيها ، وأنّ الكفر يحبط الإيمان ويخلد الكافر في النار . وهذا النوع من الإحباط والتكفير مما أصفقت عليه الأمّة ، ومع ذلك كيف يمكن نفيهما في مذهب الأشاعرة والإمامية ؟ ولأجل ذلك ، يجب الدقة في فهم مرادهما من نفيهما على الإطلاق ، وسوف يتبين الحال في هذين المجالين ، وأنّ ما ينفونه منهما لا ينافي ظواهر الآيات والأخبار .

---

(١) أوائل المقالات ، ص ٥٧ .

(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ، ويظهر من القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٢٤ ، أن القول بالإحباط والتكفير خيرة مشايخ المعتزلة ، وإنما خالف منهم القليل مثل عبّاد بن سليمان الصيمري

هـذا ، وإنّ القـائلين بـالإحبـاط اختلفـوا في كيفيتـه ، فمنهم من قـال بـأن الإساءة الكثيرة تسقط الحسنات القليلة ، وتمحوها بالكليّة ، من دون أن يكون لها تأثير في تقليل الإساءة ، وهو المحكي عن أبي علي الجُبائي .

ومنهم من قال بأن الإحسـان القليل يسقط بـالإساءة الكثـيرة ولكنه يؤثـر في تقليل الإساءة ، فَيُنْقِصُ الإحسان من الإساءة ، فيُجزَى العبد بالمقدار البـاقي بعد التنقيص ، وهو المنسوب إلى أبي هاشم .

وهنـاك قول آخـر في الإحباط ، وهـو عجيب جداً حكـاه التفتازاني في شرح المقاصد ، وهو أنّ الإساءة المتـأخرة تحبط جميـع الطاعـات وإن كانت الإسـاءة أقل منهـا ، قـال : حتى ذهب الجمهـور منهم إلى أنّ الكبيرة الواحدة تحبط ثواب جميـع العبادات[1] .

وعلى هذا ففي الإحباط أقوال ثلاثة :

١ ـ الإساءة الكثيرة تسقط الحسنة القليلة من دون تأثير في تقليل الإساءة .

٢ ـ الإسـاءة الكثيرة تسقط الحسنـة القليلة ، مع تـأثير الإحسـان في تقليـل الإساءة .

٣ ـ أنّ الإسـاءة المتأخـرة عن الطاعـات ، تبـطل جميـع الـطاعـات من دون ملاحظة القلّة والكثرة .

إذا عرفت موضع النزاع في كلام القوم ، فلننقل أدلة الطرفين :

أدلة نفاة الإحباط

استدل النافون بوجهين : عقلي ونقلي .

أما الوجه العقلي ، فهـو أنّ القول بـالإحباط يستلزم الـظلم ، لأن من أساء وأطاع وكانت إساءته أكثر ، يكون بمنـزلة من لم يُحسن . وإنْ كـان إحسانـه أكثر ،

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

يكون بمنزلة من لم يسيء . وإن تساويا يكون مساوياً لمن يصدر عنه أحدهما ، وهو نفس الظلم[1] .

يلاحظ عليه : إنّ الإحباط إنما يعدّ ظلماً ، ويشمُله هذا الدليل ، إذا كان الأكثر من الإساءة مؤثراً في سقوط الأقل من الطاعة بالكلية ، من دون أن تؤثر الطاعة القليلة في تقليل الإساءة الكثيرة ، كما عليه أبو علي الجبائي . وأما على القول بالموازنة ، كما هو المحكي عن ابنه أبي هاشم ، فلا يلزم الظلم ، وصورته أنْ يأتي المكلَّف بطاعةٍ استحق عليها عشرة أجزاء من الثواب ، وبمعصية استحق عليها عشرين جزءً من العقاب ، فلو قلنا بأنّه يَحْسُن من الله سبحانه أنْ يفعل به عشرين جزءً من العقاب ، ولا يكون لما استحقه من الطاعة أيّ تأثير ، للزم منه الظلم . وأما إذا قلنا بأنه يقبح من الله تعالى ذلك ، ولا يحسن منه أن يفعل به من العقاب إلا عشرة أجزاء ، وأما العشرة الأُخرى فإنها تسقط بالثواب الذي استحقه على ما أتي به من الطاعة ، فلا يلزم ذلك .

يقول القاضي عبد الجبار ، بعد نقل مذهب أبي هاشم : « وَلَعَمْرِي إنه القول اللائق بالله تعالى ، دون ما يقوله أبو علي ، والذي يدل على صحته هو أنّ المكلّف أتى بالطاعات على الحد الذي أُمر به ، وعلى الحد الذي لو أتى به منفرداً عن المعصية لكان يستحق عليها الثواب ، فيجب أن يستحق عليها الثواب ، وإن دَنّسها بالمعصية ، إلا أنّه لا يمكن والحالة هذه أن يوفر عليه ، على الحد الذي يستحقه ، لاستحالته ، فلا مانع من أن يزول من العقاب بمقداره ، لأنّ دفع الضرر كالنفع في أنّه مما يعد في المنافع » .

ثم قال : «فأمّا على مذهب أبي علي فيلزم أنْ لايكون قد رأى صاحب الكبيرة ، شيئاً مما أتى به من الطاعات ، وقد نصّ الله تعالى على خلافه »[2] .

والأولى أنْ يُسْتَدَلّ على بطلان الإحباط بأنه يستلزم خُلف الوعد إذا كان الوعد منجزاً ، كما هو في محل النزاع ، وأما إذا كان مشروطاً بعدم لحوق العصيان

---

(١) كشف المراد ، ص ٢٦٠ .

(٢) شرح الأُصول الخمسة ، ص ٦٢٩ .

به ، فهو خارج عن محل البحث . هذا ، من غير فرق بين قول الوالد والولد ، والقول الثالث الذي هو في غاية الإفراط .

وأما الوجه النقلي ، فقوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾[1] .

يلاحظ عليه : إنّ الإستدلال بالآية إنما يتم على القولين الأول والثالث حيث لا يكون للإحسان القليل دور ، وأما على القول الثاني ، فالآية قابلة للإنطباق عليه ، لأنه إذا كان للإحسان القليل تأثير في تقليل الإساءة الكثيرة ، فهو نحو رؤية له ، لأن دفع المضرة كالنّفع في أنّه مما يُعدّ منفعة . وهذا كما إذا ربح إنسان في تجارة ، قليلاً ، وخسر في تجارة أخرى أكثر ، فأدّى بعض ديونه من الربح القليل .

نعم ، الظاهر من الآية ، رؤية جزاء الخير ، وهو بالقول بعدم الإحباط ، ألصق وأطبق .

سؤال وجوابه

السؤال : لو كان القول بالإحباط مستلزماً للظلم ، أو كان مستلزماً لخلف الوعد ، فما هو المخلص فيما يدل على حبط العمل ، في غير مورد من الآيات التي ورد فيها أنّ الكفر والإرتداد ، والشرك والإساءة إلى النبي وغيرها مما يحبط الحسنات[2] . ما هو الجواب عن هذه الآيات ؟ وما هو تفسيرها ؟ .

الجواب : إنّ القائلين ببطلان الإحباط يفسرون الآيات بأن الإستحقاق في مواردها كان مشروطاً بعدم لحوق العصيان بالطاعات ، فإذا عصى الإنسان ولم يحقق الشرط ، إنكشف عدم الإستحقاق .

ويمكن أن يقال بأن الإستحقاق في بدء صدور الطاعات لم يكن مشروطاً

---

(١) سورة الزلزلة : الآية ٧ .

(٢) سنذكرها في آخر البحث .

بعـدم لحوق العصيـان ، بل كـان استقـرار الإستحقـاق في مستقبـل الأيـام ، هـو المشروط بعـدم لحوق المعصيـة ، فـإذا فُقِـدَ الشَـرْطُ ، فُقِـدَ استقـرارُ الإستحقـاق واستمراره .

يقول الشيخ الطوسي في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكم عَنْ دينِـهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ ، فأولئكَ حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ في الدنيا والآخرة وأولئكَ أصحَابُ النّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ ﴾(١) : « معناه أنّها صارت بمنزلة ما لم يكن ، لإيقاعهم إياها على خلاف الوجه المأمور به ، وليس المراد أنّهم استحقوا عليهـا الثواب ثم انحبـطت ، لأن الإحباطَ ـ عندنا ـ باطِلٌ على هذا الوجه »(٢) .

ويقول الطَّبَرسي في تفسير قولـه سبحانـه : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بـالإيمان فَقَـدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ في الآخرة مِنَ الخـاسِرينَ ﴾(٣) : « وفي قولـه : ﴿ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ ، هنا دلالة على أن حبوط الأعمال لا يترتب على ثبوت الثواب ، فإن الكافر لا يكـون له عمل قد ثبت عليـه ثـواب ، وإنما يكـون له عمـل في الظاهـر لولا كفره لكـان يستحق الثـواب عليه ، فعـبّر سبحانـه عن هذا العمـل بـأنّـه حبط ، فهـو حقيقـة معناه »(٤) .

ويقول في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَيَقولُ الذين آمنوا أهؤلاء الذينَ أقْسَمُوا الذينَ بالله جَهْدَ أيمانِهم إنّهم لَمَعَكم ، حَبِطَتْ أعْمَالُهُم فَـأصْبَحُوا خـاسِرينَ ﴾(٥) . « أي ضاعت أعمالهم التي عملوها لأنّهم أوقعوهـا على خـلاف الوجـه المأمـور به ، وَبَطَلَ ما أظهروه من الإيمان ، لأنّـه لم يوافق بـاطنُهم ظاهـرَهُم ، فلم يستحقوا بـه الثواب »(٦)

وبما ذكره الطبرسي يظهر جواب سؤال آخـر ، وهو أنـه إذا كان الإستحقـاق

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٧ .
(٢) التبيان ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ ، ولاحظ مجمع البيان ، ج ١ ، ص ٣١٣ .
(٣) سورة المائدة : الآية ٥ .
(٤) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .
(٥) سورة المائدة : الآية ٥٣ .
(٦) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

مشروطاً بعدم صدور العصيان ، فإذا صدر يكشف عن عدم الإستحقاق أبداً ، فكيف يطلق عليه الإحباط ، وما الإحباط إلا الإبطال والإسقاط ، ولم يكن هناك شيء حتي يبطل أو يسقط ؟

وذلك لأن نفس العمل في الظاهر سبب ومقتضٍ ، فالإبطال والإسقاط كما يصدقان مع وجود العلة التامة ، فهكذا يصدقان مع وجود جزء العلة وسببها ومقتضيها ، وهذا كمن ملك أرضاً صالحة للزراعة فأحدث فيها ما أفقدها هذه الصلاحية .

وبعبارة أُخرى : إنّ الموت على الكفر ، وإن كان يُبطل ثواب جميع الأعمال ، لكن ليس هذا بالإحباط ، بل باشتراط الموافاة على الإيمان في استحقاق الثواب على القول بالاستحقاق ، وفي الوعد بالثواب على القول بعدم الإستحقاق . وهكذا القول في المعاصي التي ورد أنها حابطة لبعض الحسنات من غير قول بالحبط ، بل يكون الإستحقاق أو الوعد مشروطاً بعدم صدور تلك المعصية .

نعم ، هذا التفسير إنما نحتاج إليه في جانب الإحباط ، وأما في جانب التكفير فلا حاجة إليه ، بل لنا أنْ نقول إنّ التوبة والأعمال المكفِّرة يذهبان العقاب المكتوب على المعاصي من دون حاجة إلى القول بكون الإستحقاق مشروطاً بالموافاة على الكفر ، لجواز تفضّله سبحانه بالعفو .

هذا ، ولا يصح القول بالإحباط والتكفير في كل المعاصي ، بل يجب علينا تَتَبُّعُ النصوص ، فكلّ معصية وردت في الكتاب أو في الآثار الصحيحة أنها ذاهبة أو منقصة لثواب جميع الحسنات أو بعضها ، نقول بالإحباط فيها على التفسير الذي ذكرناه . وهكذا في جانب التكفير فلا يمكن لنا أن نقول إنّ كل حسنة تُذهب السيئة إلاّ بالنص .

إلى هنا تم بيان دليل النافين للإحباط على الوجه اللائق بكلامهم ، والإجابة عليه .

أدلة مُثْبِتي الإحباط

استدل القاضي على ثبوت الإحباط بوجه عقلي فقال : « قد ثبت أنّ الثواب والعقاب يستحقان على طريق الدوام ، فلا يخلو المكلّف إما أنْ يستحق الثواب فيثاب ، أو يستحق العقاب فيعاقب ، أو لا يستحق الثواب ولا العقاب ، فلا يثاب ولا يعاقب ، أو يستحق الثواب والعقاب ، فيثاب ويعاقب دفعة واحدة ، أو يؤثر الأكثر في الأقل على ما نقوله .

ولا يجوز أن لا يستحق الثواب ولا العقاب ، فإن ذلك خلاف ما اتفقت عليه الأمّة . ولا أنْ يستحق الثواب والعقاب معاً فيكون مثاباً ومعاقباً دفعة واحدة ، لأن ذلك مستحيل ، والمستحيل مما لا يستحق . . .

فلا يصح إلا ما ذكرناه من أن الأقل يسقط بالأكثر . وهذا هو الذي يقوله الشيخان أبو علي وأبو هاشم ولا يختلفان فيه ، وإنّما الخلاف بينهما في كيفية ذلك[1] .

يلاحظ عليه : إنّه مبني على أنّ استحقاق العقاب على وجه الدوام ، وهو مبني على أنّ مرتكب الكبيرة مُخلّد في النار ، وبما أنّ الأساس باطل ، فيبطل ما بني عليه ، فلا دليل على دوام استحقاق العقاب . وعلى ذلك فالحصر غير حاصر ، وإنّ هنا شقا سادساً ترك في كلامه ، وهو أنّه يستحق الثواب والعقاب معاً لكن لا دفعة واحدة ، بل يعاقب مدة ثم يخرج من النار فيثاب بالجنة على ما عليه جمهور المسلمين .

وقد نقل القاضي عبد الجبار ، وجهاً عقلياً آخر للإحباط عن الشيخ أبي علي وأجاب عنه ، فلاحظ[2] .

---

(١) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٢٥ . وترك تعليل الوجه الأول (وهو أن يستحق الثواب فقط) والثاني (وهو أن يستحق العقاب فقط) ، لوضوحه .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٣٠ ـ ٦٣١ ، وحاصل هذا الدليل أنّ المكلّف ، بارتكاب الكبيرة تخرج نفسه من صلاحية استحقاق الثواب . وهو كما ترى دعوى بلا دليل ، إذ لا دليل على أنّ كل معصية لها هذا الشأن ، وليست كل معصية كالكفر والإرتداد والنفاق .

تحليل لمسألة الإحباط

وها هنا تحليل آخر للمسألة وهو أنّ في الثواب والعقاب أقوال :

١ ـ الثواب والعقاب في الآخرة من قبيل الأُمور الوضعية الجعلية كجعل الأُجرة للعامل ، والعقاب للمتخلّف في هذه النشأة .

٢ ـ الثواب والعقاب في الآخرة مخلوقان لنفس الإنسان حسب الملكات التي اكتسبها في هذه الدنيا ، بحيث لا يمكن لصاحب هذه الملكة ، السكون والهدوء إلا بفعل ما يناسبها .

٣ ـ الثواب والعقاب في الآخرة عبارة عن تمثّل العمل في الآخرة وتجلّيه فيها بوجوده الأُخروي من دون أنْ يكون للنفس دور في تلك الحياة ، في تحلى هذه الأعمال بتلك الصور ، بل هي من ملازمات وجود الإنسان المحشور .

فلو قلنا بالوجه الأول ، كان لما نقلناه من نفاة الحبط (من أنّ الإستحقاق أو استمراره مشروط بعدم الإتيان بالمعصية) وجه حسن ، لأن الأُمور الوضعية ، رفعها ووضعها ، وتبسيطها ، وتضييقها، بيد المقنّن والمشرِّع . وعندئذ يُجمع بين حكم العقل ، بلزوم الوفاء بالوعد ، وما دَلّ من الآيات على وجود الإحباط في موارد مختلفة ، كما سيوافيك .

وقد عرفت حاصل الجمع ، وهو أن إطلاق الإحباط ليس لإبطال استحقاق الإنسان الثواب ، بل لم يكن مستحقاً من رأس، لعدم تحقق شرط الثواب . وأما مصحح تسميته بالإحباط فقد عرفته أيضاً ، وهو أن ظاهر العمل كان يحكي عن الثواب وكان جزء علة له .

ولو قلنا بالوجه الثاني ، وحاصله أن الملكات الحسنة والسيّئة التي تعدّ فعليات للنفس ، تحصل بسبب الحسنات والسيّئات التي كانت تصدر من النفس . فإذا قامت بفعل الحسنات ، تحصل فيها صورة معنوية ، مقتضية لخلق الثواب . كما أنّه إذا صدر منها سيئة ، تقوم بها صورة معنوية تصلح لأن تكون مبدءً لخلق العقاب . وبما أنّ الإنسان في معرض التحول والتغيير من حيث الملكات النفسانية ، حسب ما يفعل من الحسنات والسيئات ، فإنّ من الممكن بُطلان

صورة موجودة في النفس وتبدُّلها إلى صورة غيرها ما دامت تعيش في هذه النشأة الدنيوية .

نعم ، تقف الحركة ويبطل التحول عند موافاة الموت ، فعند ذلك تثبت لها الصور بلا تغيير أصلاً .

فلو قلنا بهذا الوجه ، كان الإحباط على وفق القاعدة ، لأنّ الجزاء في الآخرة ، إذا كان فعل النفس وإيجادها ، فهو يتبع الصورة الأخيرة للنفس ، التي اكتسبتها قبل الموت . فإن كانت صورة معنوية مناسبة للثواب فالنفس منعّمة في الثواب من دون مقابلة بالعقاب ، لأن الصورة المناسبة للعقاب قد بطلت بصورة أخرى . وإذا انعكست الصورة ، إنعكس الحُكْم .

وأما لو قلنا بالوجه الثالث ، وهو تَجَسُّم الأعمال وتمثلها في الآخرة بالوجود المماثل لها ، فالقول بعدم الإحباط هو الموافق للقاعدة ، إذ لا معنى للإبطال ، في النشأة الأخرى .

غير أن الكلام كلّه في انحصار الثواب والعقاب بهذين الوجهين الأخيرين ، وقد عرفت في الجزء الأول أنّ المتشرع لا يتجرأ على القول بذلك[1] .

عوامل الإحباط وأسبابه

البحث عن عوامل الإحباط وأسبابه ، بحثٌ نقلي يتوقف على السبر والفحص في الكتاب والسنة ، ونكتفي في المقام بما جاء في الكتاب العزيز .

١ - الإرتداد بعد الإسلام

قال سبحانه : ﴿ **وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِه فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ ، فأُولَئِكَ حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ في الدنيا والآخرة ، وأولئكَ أصحابُ النّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ** ﴾[2] .

---

(١) لاحظ « الإلهيات » ج ١ ، ص ٢٩٩

(٢) سورة البقرة : الآية ٢١٧ .

٢ ـ الشرك المقارَن بالعمل

يقول سبحانه : ﴿ ما كان للمُشْرِكِينَ أنْ يَعْمُروا مساجِدَ الله شاهِدينَ على أنْفُسِهِمْ بالكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ وفي النّارِ هُمْ خالِدُونَ ﴾[١] .

وقد كان المشركون يزعمون أنّ العمل الصالح بنفسه موجب للثواب ، غير أنّ القرآن شطب على هذه العقيدة ، وصرّح بأن الثواب يترتب على العمل الصالح ، إذا صدر من فاعل مؤمن .

ولأجل ذلك أتبع الآية السابقة بقوله : ﴿ إنّما يَعْمُرُ مساجِدَ الله مَنْ آمَنَ بالله واليَومِ الآخِرِ ﴾[٢] .

٣ ـ كراهة ما أنزل الله

قال سبحانه : ﴿ وَالّذينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وأضَلّ أعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بأنّهُمْ كَرِهُوا ما أنْزَلَ الله فَأَحْبَطَ أعْمالَهُمْ ﴾[٣] .

٤ ـ الكُفر

٥ ـ الصّدّ عن سبيل الله

٦ ـ مجادلة الرسول ومشاقّته

وقد جاءت هذه العوامل الثلاثة في قوله سبحانه : ﴿ إنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عن سَبِيلِ الله وَشَاقّوا الرّسولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيّنَ لَهُمْ الهُدَى لَنْ يَضرُّوا الله شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أعْمَالَهُمْ ﴾[٤] .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٧ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٨ .

(٣) سورة محمد : الآيتان ٨و٩ .

(٤) سورة محمد : الآية ٣٢ . ولاحظ في عامل الكفر ، سورة التوبة : الآية ٦٩ .

وهل كل منها عاملٌ مستقلٌ ، أو أنّ هنا عاملاً واحداً هـو الكفر ، ويكـون حينئذٍ الصَّدُّ عن سبيل الله ومشاقّة الرسول من آثار الكفـر ، فهم كفروا ، فصـدوا وشاقوا ؟ .

تظهر الثمـرة فيها لـو صَدّ إنسـانٌ عن سبيل الله لاغـراض دنيويـة ، أو شاقّ الرسولَ لحالةٍ نفسانية مع اعتقاده التام بنبوة ذاك الرسول وقبح عمل نفسه. فلو قلنا باستقلال كل منهما في الحبط ، يحبط عمله ، وإلا فلا . وبما أن الآيـة ليست في مقام البيان ، بل تحكي عمل قوم كـانت لهم هذه الشؤون فـلا يمكن استظهـار استقلال كل منها في الحبط . نعم ، يمكن القول بالإستقلال من باب الأولـوية ، وذلـك أنّه إذا كان رفع الصوت فوق صوت النبي من عوامـل الإحباط كـما سيأتي ، فكيف لا يكون الصّدّ والقتل من عوامله ؟ .

٧ ـ قتـل الأنبيـاء

٨ ـ قتل الآمرين بالقِسْط من النـاس

قـال سبحانـه : ﴿ إنّ الذينَ يَكْفُـرون بآيـاتِ الله ، ويَقْتُلونَ النَّبِيّـينَ بغـير حقٍ ، وَيَقْتُلونَ الذين يأمُرونَ بالقِسْطِ من النّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعذابٍ أليمٍ ، أولئِكَ الذينَ حَبِطَتْ أعمالُهُمْ في الدنيا والآخرة فما لَهُمْ من ناصِرينَ ﴾[1] .

٩ ـ إسـاءة الأدب مع النبي

قال سبحانه : ﴿ يا أيُّها الذينَ آ مَنُوا لا تَرْفَعُوا أصواتَكم فَـوْقَ صَوْتِ النبيِّ وَلاَ تَجْهَـروا لَـهُ بـالقَـوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أنْ تَحْبَط أعْمَـالُكُمْ وأنْتُمْ لا تَشْعُرونَ ﴾[2] .

وربمـا يُتصور أنّ رفـع الصوت ليس عـاملاً مستقـلاً في الإحبـاط ، بـل هـو

(١) آل عمران : الآية ٢٣

(٢) سورة الحجرات : الآية ٢٢ .

كاشف عن كفر الرافع . ولكنه احتمال ضعيف ، لأنّ الآية تخاطب المؤمنين به بقولها : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ﴾ .

نعم ، لا يمكن الإلتزام بأنّ كل إساءة بالنسبة إلى النبي تُحبط الأعمال الصالحة[1] ، إلا إذا كانت هتكاً في نظر العامة ، وتحقيراً له في أوساط المسلمين ، كما هو الظاهر من أسباب نزول الآية .

١٠ ـ الإقبال على الدُّنيا والإعراض عن الآخرة

قال سبحانه : ﴿ مَنْ كانَ يُرِيدُ الحَياةَ الدُّنيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيهِمْ أعْمَالَهُمْ فِيها وهُمْ فِيها لا يُبخَسونَ * أُولَئِكَ الذينَ ليسَ لَهُمْ في الآخرة إلاّ النّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعوا فيها وباطِلٌ ما كانوا يَعْمَلونَ ﴾[2] .

ويمكن أن يقال إنّ الإقبال على الدنيا بهذا النحو الذي جاء في الآية ، يساوق الكفر ، أو يساوق ترك الفرائض ، والتوغل في الموبقات ، فتكون إرادة الحياة الدنيا وزينتها إشارة إلى العامل الواقعي .

١١ ـ إنكار الآخرة

قال سبحانه : ﴿ والّذينَ كَذَّبُوا بآياتِنا ولِقاءِ الآخرةِ ، حَبِطَتْ أعمالُهُم ﴾[3] .

وهو فرع من فروع الكفر وليس عاملاً مستقلاً .

١٢ ـ النفاق

قال سبحانه : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله المُعَوِّقينَ مِنْكُمْ والقائِلينَ لإخوانِهم هَلُمَّ إلينا ولا يَأتونَ البأسَ إلا قليلاً * . . . . أُولئكَ لَمْ يُؤمِنوا فَأَحْبَطَ الله أعْمَالَهُمْ وكانَ ذَلِكَ

---

(١) كالغضب في محضره صلوات الله عليه وآله .

(٢) سورة هود : الآيتان ١٥و١٦ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٤٧ . ولاحظ سورة الكهف : الآية ١٠٥ .

على الله يَسيراً ﴾[1] .

وقوله : ﴿ لإخوانهم ﴾ ، يدل على أنّهم لم يكونوا مؤمنين بل كانوا منافقين . ويصرّح به قوله :﴿ أُولئك لم يُؤمِنوا ﴾. وعلى ذلك فيرجع النفاق إلى عامل الكفر وعدم الإيمان ، وليس سببا مستقلاً .

هذه هي أبرز أسباب الإحباط في الذكر الحكيم ، وقد عرفت إمكان إدغام البعض في البعض . وعلى كل تقدير فالإحباط هنا هو بطلان أثر المقتضى ، لا إبطال أثرٍ ثابتٍ بالفعل ، كما تقدم .

* * *

ثانياً : التكفير

التكفير هو إسقاط ذنوب المعاصي المتقدمة بثواب الطاعات المتأخرة ، وهو لا يعدّ ظلماً ، لأن العقاب حق للمولى ، وإسقاط الحق ليس ظلماً بل إحسان ، وقد عرفت أنّ خُلْفَ الوعيد ليس بقبيح وإنما القبيح خلف الوعد . فلأجل ذلك لا حاجة إلى تقييد استحقاق العقاب أو استمرار استحقاقه ، بعدم تعقّب الطاعات . بل الإستحقاق واستمراره ثابتان ، غير أنّ المولى سبحانه ، تَفَضُّلاً منه ، عفى عن عبده لفعله الطاعات .

قال سبحانه : ﴿ إنْ تَجْتَنِبوا كبائِرَ ما تُنْهَونَ عَنْهُ نُكَفِّر عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ يا آيُّها الذين آمنوا إنْ تَتّقوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله ذو الفَضْلِ العظيمِ ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ والّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحاتِ وآمَنُوا بما نُزّلَ على مُحَمّدٍ

---

(١) سورة الأحزاب : الأيتان ١٨و١٩ .

(٢) سورة النساء : الآية ٣١ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٢٩ .

وَهُوَ الحَقُّ من رَبّهِم كَفَّرَ عنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وأصْلَحَ بالَهُمْ ﴾[1] .

ولا يمكن استفادة الإطلاق من هذه الآيات ، وأنّ كـل معصية تُكَفَّـر ، لأنها بصدد بيان تشريع التكفير ، وأما شروطه وبيـان المعاصي التي تكفَّـر دون غيرهـا ، فلا يستفاد منها . وإنما الظاهر من الآية الأولى هو اشتراط تكفير الـذنوب الصغـيرة باجتناب الكبيرة منها ، ومن الآية الثانية ، اشتراط تكفير السيئات بـالتقوى ، ومن الثالثة ، تكفير السيئات للذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على الرسـول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

روى الكراجكي ، بسنده عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال : « وإنْ كان عليه فضل ، وهو من أهل التقوى ، ولم يشرك بالله تعالى ، واتقى الشرك به ، فهو من أهل المغفرة ، يغفر الله له برحمته إن شاء ويتفضل عليه بعفوه »[2] .

* * *

---

(١) سورة محمد (ص) : الآية ٢ .

(٢) البحار ، ج ٥ ، ص ٣٣٤، ح ٢ .

مبـاحث المـعاد

(١٧)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]

لا خلاف بين الأُمة في وجوب الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر ، غـير أنّ القاضي عبد الجبار ، نسب إلى شرذمة من الإمـامية عـدم وجوبهـا[٢] . والنسبة في غـير محلها ، فـإنهم عن بكرة أبيهم ، مقتفـون للكتاب والسنـة . وصريح الآيـات وأحاديث العترة الطاهرة على الوجوب .

روى جابر بن عبد الله الأنصاري ، عن أبي جعفر الباقر ، أنه قال :

« إنّ الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ، ومنهـاج الصلحاء ، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب ، وتحل المكاسب ، وتـرد المظالم ، وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ، ويستقيم الأمر »[٣] .

وأما كلمة المحققين ، فيكفي في ذلك مراجعة كتبهم الكلامية والفقهية[٤] .

---

(١) وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأحكام الفرعية الفقهيـة ، غير أنّ القـوم بحثوا عنـه في الكتب الكـلامية لأنـه من الأحكام الإجتـماعية التي لهـا دور أساسي في تـطوير المجتمـع وسوقـه إلى الصلاح ، ونحن اقتفينا أثرهم في هدا المقام .

(٢) شرح الأصول الخمسة : ص ٧٤١ .

(٣) وسائل الشيعة ، ج ١١ ، الباب الأول ، من أبواب الأمر بالمعروف ، الحديث ٧ ، ص ٣٩٣ .

(٤) لاحظ أوائل المقالات ، ص ٩٨ وكشف المراد ، ص ٢٧١ ، ط صيدا .

١ ـ وجوبها عقلي أو شرعي

هل يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عقلاً ، أو لا يجبان إلا شرعاً ؟

القائلون بوجوب اللطف المقرِّب يلزمها القول بوجوبهما عقلاً ، لأنّ اللطف ليس إلا تقريب العباد إلى الطاعة وإبعادهم عن المعصية . ومن أوضح ما يحقّق تلك الغاية هو الأمر بالمعروف بعامة مراتبه .

وأورد عليه المحقق الطوسي ما هذا توضيحه :

لو وجبا عقلاً على الله تعالى ، فإنّ كل واجب عقلي ، يجب على كل من حصل في حقه وجه الوجوب ، ولو وجب عليه تعالى لكان إما فاعلاً لهما ، فكان يلزم وقوع المعروف قطعاً ، لأنه تعالى يحمل المكلفين عليه ، وانتفاء المنكر لأنه تعالى يمنع المكلفين عنه ، وهذا خلاف ما هو الواقع في الخارج ، وإما غير فاعل لهما ، فيكون مخلاً بالواجب ، وذلك محال ، لما ثبت من حكمته تعالى .

وإلى هذا المعنى أشار هذا المحقق بقوله : « لو كانا واجبين عقلاً لزم ما هو خلاف الواقع ، أو الإخلال بحكمته سبحانه »[١] .

يلاحظ عليه : إنّ وجوبهما عقلاً لا يلازم وجوبهما على الله سبحانه بعامة مراتبها ، لأنه لو وجب عليه كذلك يلزم الإخلال بالغرض وإبطال التكليف ، وهذا يصد العقل عن إيجابها على الله سبحانه فيما لو استلزم الإلجاء ، فيُكتفى فيهما ببعض المراتب ، كالتبليغ والإنذار مما لا ينافي حرية التكليف ، وهما متحققان .

وإلى ما ذكرنا يشير شيخنا الشهيد الثاني بقوله : « لاستلزام القيام به على هذا الوجه (من وجوبه قولاً وفعلاً) الإلجاء الممتنع في التكليف ، ويجوز اختلاف الواجب باختلاف محالّه ، خصوصاً مع ظهور المانع ، فيكون الواجب في حقه تعالى الإنذار والتخويف بالمخالفة لئلا يبطل التكليف . والمفروض أنّه قد فعل »[٢] .

---

(١) كشف المراد ، ص ٢٧١ ، ط صيدا .

(٢) الروضة البهية ، ج ١ ، كتاب الجهاد ، الفصل الخامس ، ص ٢٦٢ ، الطبعة الحجرية .

وهذا صحيح لو كان اللطف المقرب واجباً ، ولكنك عرفت أنّ وجـوبه غـير ثابت ، وإنما الثابت هو اللطف المحصِّل للغرض[1] .

٢ ـ شـرائط وجـوبهما

قد فصّل الفقهاء والمتكلمون الكلام في شرائط وجوبهما ، وإليك بيانها .

أ ـ عِلْم فاعلهما بالمعروف والمنكر .

ب ـ تجويز التأثير ، فلو علم أنهما لا يؤثران لم يجبا .

ج ـ انتفاء المضرّة ، فلو علم أو غلب على ظنـه حصول مفسـدة له أو لبعض إخوانه في أمره ونهيه ، سقط وجوبهما دفعاً للضرر .

د ـ تنجّز التكليف في حق المأمور والمنهي ، فلو كان مضطراً إلى أكل الميتـة ، لا تكـون الحرمـة في حقه منجّـزة ، فلا يكـون فعله حرامـاً ولا منكراً ، وإن كـان الحكم في حق الآمر والناهي منجزاً .

نعم ، إنّ الشرط الثـالث ، أي عـدم المضرة ، شرط في مـوارد خـاصــة لا مطلقاً ، فـربما يجب عـلى الآمر والنـاهي تحمل الضرر وعـدم ترك الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر ، وذلك فيـما إذا كانت المصلحـة مهمة ، كـما لو استلزم سكـوته خروج الناس عن الدين ، وتزلزلهم في العقيدة ، فيحرم عليه السكوت ، بل يجب عليه الإصحار بالحقيقة وإن بلغ ما بلغ من ضرب أو شتم أو حبس ، حتى القتل .

قال رسول الله صلى الله عليه وآلـه : « إذا ظهرت البـدع في أُمتي ، فليظهـر العالم علمه وإلا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[2] .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « وما أخذ الله على العلماء أنْ لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سَغَب مظلوم »[3]

(١) راجع الدليل الخامس من أدلة وجوب بعثة الأنبياء .
(٢) سفينة البحار ، ج ١ ، ص ٦٣ .
(٣) نهج البلاغة ، الخطبة الثالثة .

وبذلك يعلم أنّ التقية مشروعة ، ولكن لها حدود ولها أحكام ، فكما أنها تجب ، فربما تحرم ، والتفصيل موكول إلى محله[1] .

٣ ـ وجوبهما عيني أو كفائي ؟

الظاهر ، كما هو المعروف ، كون وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كفائياً ، لأنّ الغرض شرعاً هو وقوع المعروف وارتفاع المنكر ، من غير اعتبار مباشر معين ، وهذا آية كون الوجوب كفائياً ، فإذا حصلا ، ارتفع الوجوب .

والإستدلال على وجوبهما عيناً بالعمومات، مثل قوله سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ تَأْمُرونَ بالمعروفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾[2] ، غير كافٍ ، لأنّ الواجب الكفائي ، يشترك مع الواجب العيني في كون الشيء واجباً على العموم ، إلا أنه يسقط بفعل واحد من المكلفين ، بخلاف العيني . فتوجه الخطاب إلى العموم ، مشترك بين العيني والكفائي .

٤ ـ مراتبهما

إنّ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب تبتديء بالقلب فاللسان فاليد ، وتنتهي بإجراء الحدود والتعزيزات والجهاد .

قال الإمام الباقر عليه السلام : « فأنْكِروا بقلوبكم ، والفُظوا بألسنتكم ، وصكوا بها جباههم ، ولا تخافوا في الله لومة لائم »[3] .

وبهذا يصبح الأمر بالمعروف على قسمين : قسم لا يحتاج إلى جهاز وقدرة ، وهذا ما يرجع إلى عامة الناس ، وهو كالإنكار بالقلب ، والتذكير أو النهي باللفظ . وقسم يحتاج إلى الجهاز والقوة ، ويتوقف على صدور الحكم من المحاكم

---

(١) لاحظ رسالة الأستاذ الفقهية في التقية ، فقد أثبت أنّ التقية ربما تحرم إذا كان الفساد في تركها أوسع وسيوافيك بحث التقية في الخاتمة .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٣) الوسائل ، ج ١١ ، كتاب الجهاد ، الباب الثالث من أبواب الأمر بالمعروف ، الحديث ٢ .

القضائية وهـذا يرجـع إجراؤه إلى السلطة التنفيـذية القـائمة في الـدولة الإسـلامية بأركانها الثلاثة[1] .

هذا ، وقد كان على القـاضي أن يؤاخذ الحنـابلة والأشاعـرة ، حيث إنهم لا يرون الخروج على أئمة الجور ، ويرون إطـاعتهم واجبة ، مـا لم يأمـروا بمعصية ، وقد تقدّم نقل نُبَذٍ من نصوصهم في ذلك .

* * *

(١)لاحظ جواهر الكلام ، ج٢١ ، ص ١٣ .

* أسئلة حول المعاد

١ ـ نشور الإنسان دفعي أو تدريجي ؟ .
٢ ـ ما هو المحشور من الأبدان المتعددة ؟ .
٣ ـ هل المعاد إعادة للمعدوم ؟ .
٤ ـ شبهة عدم كفاية المواد الأرضية .
٥ ـ شبهة الآكل والمأكول .
٦ ـ مكان بعث النفوس وحشرها .
٧ ـ كيف يخلد الإنسان مع أنّ المادة تفنى ؟ .
٨ ـ ما هو الغرض من عقاب المجرم وتنعيم المسيء ؟ .
٩ ـ من هم المخلدون في النار ؟ .
١٠ ـ هل يجوز العفو عن المسيء ؟
١١ ـ هل الجنّة والنار مخلوقتان ؟ .

أسئلـة الـمعاد

(١)

نشور الإنسان دفعي أو تدريجي ؟

إن تكامل الإنسـان من خلية إلى أن يصـير بدنـاً متكامـلاً ، رهن تفاعـلات تـدريجية ، معلومـة لكلّ منّـا ، فهل عَـوْد الإنسان إلى الحيـاة من جديـد رهن هذا الناموس التدريجي أو لا ؟

الجواب

كل من أراد تفسير المعاد من هذا الطريق ، يريد إخضاع المسـائل الغيبيـة ، للقوانين الطبيعية المحسوسة ، ولكن السمع يرد هذا الفرض ، ويعرّف المعـاد بأنّـه يحصل دفعة ، والآيات في هذا المجال متعددة ، منها قوله سبحانه :

﴿ ثُمّ إذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأرْضِ إذا أنْتُمْ تَخْرُجونَ ﴾(١) .

والآية ظاهرة في أنّ الدعوة تكوينية متعلقة بإعادة خلق الإنسان من جديد ، وأن تلك الدعوة التكـوينية المـلازمة لخلق الإنسـان ، مقارنـة لخروجـه ، فالـدعوة والخروج يتحققان في زمن واحد .

ويؤيد ذلك الآيات الكثيرة التي تصرح بأن القيامـة ، تحدث بغتة وفجأةً وهم لا يشعرون ، كقوله سبحانه :

---

(١) سورة الروم : الآية ٢٥ .

﴿ حتى إذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالوا يا حَسْرَتَنا على ما فَرّطْنَا فيها ﴾[1] .

وهذه الآية وإن كانت واردة في الموجودين زمن حدوث القيامة ، ولكن لو كان تَكَوُّنُ الأموات تحت التراب أمراً تدريجياً ، لَعَلِمَ به الأحياء قبيل حصول القيامة ، لفحصهم الدائم في الأرض .

* * *

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٣١ ، ولاحظ في ذلك الأعراف : الآية ١٨٧ ، الأنبياء : ٤٠ ، الحج : ٥٥ ، الشعراء : ٢٠٢ ، العنكبوت : ٥٣ ، الزمر : ٥٥ ، الزخرف : ٦٦ ، محمد : ١٨ ، والكلّ يدل على أنّ تكوّن الإنسان عند بعثه ، يحصل دفعةً واحدة .

أسئـلة الـمعاد

(٢)

ما هو المحشور من الأبدان المتعددة ؟

أثبت العلم أنّ بدن الإنسان وخلاياه في مهب التغـيّر والتبدل ، وأنّـه يأخـذ لنفسه في كل عشرة أعوام بدناً ، فلو عاش إنسـان ثمانـين سنة ، فإنّــه سيكـون له ثـمانية أبـدان ، ومن المعلوم أنّ الإطاعــة والعصيان يقعـان في جميـع فـترات عمـر الإنسان ، والجزاء والثواب على مجموع الأعمال .

وعندئذ يتساءل ، هل المحشور جميع أطوار بدن الإنسان الواحد ، فهو غـير معقول ، أو واحد من هذه الأبدان ، وهـو يستلزم نقض قانـون الجزاء والثـواب ، وأن يكون بدن واحد حاملاً لأوزار الأبدان الأُخر .

والجـــواب :

إنّ هـذا السؤال نـابـع من إنكـار الـروح والإعتقـاد بـأصـالـة المـادة وأمّــا عـلى ما ذكـرنا من أنّ البـدن ليس إلاّ أداة لتنعيم الإنسان وتعـذيبـه ، وأن الأمـور الروحية من الفرح والحزن واللذة والألم ، كلها أُمور مربوطـة بالـروح ، ويتوصـل إليها الروح بالبدن والأجهزة الظاهرية ، فـالنعمة الملذة ، إنمـا يصل إليهـا الإنسان من طريق الجهاز السمعي ، فإنه آلـة ، والملتذ هـو الروح ، والمَنـاظر الخـلابة إنمـا تصل إليها النفس عن طريق العين ، وهكـذا سائـر اللذات ، والآلام الروحيـة ، وعلى ذلك فالحافظ للعدالة هو أن ترد اللذة والألم عـلى روح واحدة ، من غـير فرق بين الأبدان .

وهـذا نظير تعـذيب بعض المجرمـين بإكسـائهم ثوبـاً ليمسهـم العـذاب من طريقه ، فالمضروب ظاهراً هو اللباس ، ولكن المتألم هو الإنسان .

وبعبـارة أخرى ، إن الـروح هي الرابط الـوثيق بين جميـع الأبـدان ، فهي تضفي عليها جميعها وصف الـوحدة ، وتعـرّفها جميعهـا بأنها فـلان بن فلان ، من دون أن يضر اختلافها في الهيئة والشكل والحجم بوحدة الإنسان ، هذا .

وربما يتخيّل أنّ المعـاد هو البـدن الأخير ، الـذي هو عصـارة جميع الأبـدان الماضية ، والجامع لعامة خصوصياتها .

ولكن ، غَـيْرُ خَفِيّ أنّ هذا الأصـل المزعـوم (وهـو كـون البـدن الأخـير ، عصارة الأبدان المتقدمة) ، مما لا أصل له ، لأنّ الأبدان في الفـترات المتوسـطة من العمـر ، لها من القـوة والنشاط مـا تفقده الأبـدان الواقعـة في العقـود الأخـيرة من العمر .

أضف إلى ذلـك أن الجـواب مبني عـلى إعـطاء الأصـالـة للمادة ، وزعم أنّ الإنسان هو نفس الجلود واللحوم والعظام وأن البدن الأخير عصارة كلّ ما تقدّم .

نعم ، ربما يستظهر من قوله سبحانـه : ﴿ فإذا نُفِـخَ في الصُّورِ فـإذا هُمْ مِنَ الأجداثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلونَ ﴾[1] ، أنّ المعاد هو البدن الأخير ، ولكنّ الاستظهـار في غير محله فإنّ الآية كنايـة عن خروج النـاس من التراب للحسـاب والجزاء نـظير قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفيها نُعِيـدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْـرِجُكُمْ تارَةً أُخـرى ﴾[1] . وأما كون الخارج هو البدن الأخير فليست الآية بصدد بيانه .

والشاهد على ذلك أنّ من الناس من يخطفـه الطير ، أو تفترسه السبـاع ، أو يحيط بـه الموج فتـأكله حيتان البحـر ، أو تصيبه نـار فتحـرقـه ، والآيـة تعم هـذه الأصناف أيضاً ، مع أنهم لم يقبروا في الأجداث .

* * *

---

(١) سورة يس : الآية ٥١ .

(٢) سورة طه : الآية ٥٥ .

هل المعاد إعادة للمعدوم

إذا كان الموت إفناء للإنسان أو لبعضه ، فكيف يمكن إعادة ما بطل وانعدم ، فإنه لا يكون إلا خلقاً جديداً لا إعادة له خصوصاً إذا لم يكن بين المبتدأ والمعاد رابطة وصلة .

والجواب :

إنّ هذا السؤال نابع ممّا يزعمه السذج من الناس من أنّ الموت إعدام لجثة الإنسان وبدنه نظير إحراق الحطب ، فإنّ قسماً منه يتبدل إلى الدخان وينعدم ، ولا يبقى منه إلا شيء ضئيل نسميه بالرماد ، فلو كان الموت بهذا المعنى فيكون المعاد إعادة للإنسان المعدوم .

ولكن قانون بقاء المادة ، يبطل هذا الزعم ، فإنّه ينص على أنّ المادة لا تنعدم ، بل تتحول من صورة إلى صورة أُخرى[1] .

وعلى ضوء هذا ، فالتفاعلات الحاصلة في المادة الحيّة ، أو غير الحية ، لا تنقص من وزن المادة شيئاً ، فالعالَم من حيث الوزن ثابت ، وإنّما الإختلاف في الصور والأنواع ، وهذا القانون دَعَمَ دعوة الأنبياء بأنّ البشر خلقوا للبقاء لا

(١) وهو قانون لا ڤوازييه ، (١٧٤٣-١٧٩٤) .

للفناء ، كما دَفَعَ توهم كـون الموت إعـدام لقسم من مادة البشر ، وأثبت أنّ هنـاك مادة واحدة ثابتة في مهب التفاعلات الفيزيائية والكيميائية والحيويـة ، وإنما التغـير في الصور الطارئة عليها .

نعم ، سبقه علماء الإسلام ، في تأسيس هذا الأصـل لكن بصورة أوسـع ، وهو أنّ الوجود لا يتطرق إليه العدم .

* * *

أسئلـة المـعاد

(٤)

شبهة عَدَم كِفَايَة الموادّ الأرضية لإحياء الناس

قـد كشفت التنقيبات الجيـولوجيـة والأتربـة على أن الإنسـان يعيش في هذا الكوكب منذ قرابة مليـوني سنة ، وعـلى هذا فلو كـان المعاد عـاماً لجيمـع الناس ، الذين عاشوا على هـذه الكرة ، فكيف يكـون ترابهـا كافيـاً لإحيائهم ، فـإن المعاد حسب ما مرّ معاد عنصري ، يعود كل إنسان إلى بدنه العنصري ، فالمعادون كثر ، مع أن ما يعادون به ، وهو المواد العنصرية الأرضية قليل لا يكفيهم .

قال صدر المتألهين في بيـان هذه الشبهـة : « إن جرم الأرض مقـدور محصور ممسـوح بالفـراسخ والأميـال والأذرعة ، وعـدد النفوس غير متناه فلا يفي مقـدار الأرض ، ولا يسع لأن تحصل منه الأبدان غير المتناهية »[١] .

والجواب عن هذا السؤال من جهات ثلاث ، عقلية وعلمية وسمعية :

الجهة الأولى : الجواب العقلي ، وهو أمور :

أولاً : إن ما تنقله لنا هذه التنقيبات والحفريات التاريخية والطبيعية ليس على درجة يفيد القطع واليقين ، حتى نرفع باقوالهم اليـد عن الوحي الإلهي أو نـتردد في صحة المعاد .

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٠٠ .

وثانياً : لم يدل دليل على أن بدن الإنسان كنفس البدن الدنيوي في الحجم والوزن وسائر الجهات المادية ، بل يكفي أن يصدق على المعاد أنه نفس المبتدأ وأما المطابقة في سائر الجهات فلم يدل عليها دليل .

وثالثاً : لو فرض عدم كفاية المواد الترابية لإحياء جميع من قطنوا هذا الكوكب ، فلا مانع من تكميلها بتراب الكرات الأُخرى ، وليس ذلك على خلاف العدل ، لما عرفت من أنّ الثواب والعقاب بملاك الروح والنفس ، فالنفس الإنسانية إذا أدخلت في أي بدن كان ، وحُشِرَت مع أي جسم إنساني ، فهو هو ، وليس غيره ، وإنما يكون البدن أداة ووسيلة لتعذيبه ، وتنعيمه ، ولولا دلالة القرآن على أنّ المُعاد في الآخرة عنصري ، لكان العقل مكتفياً بإعادة الروح والنفس غير أنّ إصرار الذكر الحكيم ، على كون المعاد عنصرياً ، يصده عن الإكتفاء بالمعاد الروحاني .

وعلى ضوء ذلك ، فلو كانت المواد الأرضية غير كافية لإحياء كل من سكن هذا الكوكب ، فلا مانع من تكميل بدن كل إنسان بمواد من كواكب أُخرى .

هذه الأجوبة ، أجوبة عقلية ، وهناك أجوبة أُخرى تعتمد على التجربة والدليل العلمي .

الجهة الثانية : الجواب العلمي ، وهو أمور :

إن ما ذكروه من عدم كفاية تراب الأرض لإحياء الناس باطل بالنظر إلى حجم المواد الأرضية وذلك لأن حجم الكرة الأرضية يبلغ ألفا وثلاثة وثمانين ملياراً ، وثلاثمائة وعشرين مليون كيلو متر مكعب[1] ، هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى إنّ صندوقاً بحجم كيلو متر مكعب ، بمعنى أنّ كلا من طوله وعرضه وارتفاعه يبلغ كيلو متراً واحداً ، إنّ مثل هذا الصندوق يسع داخله لأضعاف عدد سكان الأرض الحاليين[2] .

---

(١) ١,٠٨٣,٣٢٠,٠٠٠,٠٠٠ .

(٢) دلّت الإحصاءات الأخيرة أنّ عدد سكان الأرض حالياً يبلغ قرابة خمسة مليارات إنسان .

وذلك أنّ كل كيلو متر في الطول يسع خمسة آلاف إنسان ، يقف كل منهم إلى جانب الآخر ، وكل كيلو متر في الارتفاع يسع سبعمائة وخمسين إنساناً متوسط طول الواحد منهم متراً ونصف المتر ، يقف كل منهم على رأس الآخر ، فإذا أردنا حساب من يمكن أن يحويه ذاك الصندوق ، فما علينا إلا أن نضرب الطول بالعرض بالإرتفاع[١] ، فتكون النتيجة اتساع هذا الصندوق لثمانية عشر مليار ، وسبعمائة وخمسين مليون إنسان .

هذه سعة الكيلو متر المكعب الواحد ، فما ظنك بسعة ألف وثلاثة وثمانين مليار ، وثلاثمائة وعشرين مليون كيلو متر مكعب ؟ إنها بالتأكيد تكفي لأضعاف ـ لا تحصى ـ ممن قطن هذه الكرة الأرضية .

فمسألة قلة المواد الأرضية لإحياء الناس ، مسألة ذهنية طرحت من غير تدبر في حجم العالم .

٢ ـ إنّ بدن الإنسان لا يتشكل من التراب فحسب ، بل الماء والغازات من العناصر الرئيسية التي يتكون منها بدن الإنسان . ويحيط بالأرض طبقة من الغازات تسمي بالغلاف الجوي ، تبلغ في الإرتفاع والسماكة ألف كيلو متر ، وتبلغ في الوزن خمسة ملايين مليار طن[٢] هذا في جانب الغازات .

وأما في جانب المياه المتواجدة على سطح الكرة الأرضية فيكفينا أن نعرف أنّ إلقاء حجر في إناءٍ مملوء من الماء ، يوجب ارتفاع سطح الماء بما يساوي حجم هذا الحجر ، هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى ، أثبت العلم الحديث أننا لو جمعنا كل البشر الذي يقطنون الكرة الأرضية[٣] وألقيناهم في بحيرة قزوين ، فسوف لن يصل ارتفاع الماء في البحيرة إلى سنتيمتر واحد بل يكون أقلّ منه ، بمعنى أنّ ارتفاع المياه لن يكون محسوساً لنا .

(١) ٥٠٠٠×٥٠٠٠×٧٥٠=١٨,٧٥٠,٠٠٠,٠٠٠ إنسان .
(٢) ٥٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠
(٣) وهم عند إجراء هذا الحساب ، ملياري إنسان .

هذا وليست هي إلا بحيرة[1] فما ظنّك ببحار الدنيا ومحيطاتها .

٣ ـ إن النيازك المشاهدة في الليالي هي نتيجة وصول أحجار وأتربة وأجسام ثقيلة من الفضاء الخارجي إلى الغلاف الجوي ، فيوجب احتكاكها الشديد به احتراقها وتناثرها ، وهبوطها على الأرض ذرات خفيفة لا تزعج الحياة عليها وهذه الأحجار توجب ازدياد المواد الأرضية زيادة مطّردة بشكل يومي ، وقال العلماء إنّ عشرين مليون حجراً فضائياً يصطدم يومياً بالغلاف الجوي وهي تسير بسرعة خمسين كيلو متراً في الثانية ، فتتلاشى وتتناثر وتهبط بلا إزعاج على القشرة الأرضية[2] .

وعلى هذا ، فالمواد الأرضية لم تزل في حال التوفر والازدياد ، والله يعلم إلى أي حد يصل حجمها إلى يوم البعث .

٤ ـ وصل العلم إلى أنّه لو كانت هناك قدرة على إزالة الفراغات المتخللة بين ذرّات المواد الأرضية لبلغت هذه الكرة العظيمة الهائلة في الحجم ، مقدار جوزة صغيرة . ولو فرض إفراغ فواصل ذرّات المنظومة الشمسية ، بشمسها وسيّاراتها الكبيرة والصغيرة ، لبلغ حجمها مقدار فاكهة كبيرة كالبطيخ هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، لو ازدادت الفراغات بين الذرات ، لازداد حجم العالم ازدياداً كبيراً ، فليس الحجم تابعاً لكثرة الذرات وقلتها ففي وسع المولى سبحانه ـ وهو على كل شيء قدير ـ أنْ يبسط فراغ المواد الأرضية فيزداد حجمها ، و تكفي لإحياء الموتى مهما بلغوا .

وليس هذا الأمر بعيداً عن الحس ، فإنا نرى أنّ حجم الماء يتفاوت في حالاته الثلاث التجمد والسيلان والتبخر ، وعليه فلا مانع من امتداد المادة الأرضية يوم القيامة إمتداداً هائلاً بحيث يصبح ما كان لا يكفي لإحياء أكثر من إنسان واحدٍ كافياً لإحياء الكثير من الناس ، هذا ما كشف عنه العلم .

---

(١) تبلغ مساحة بحيرة قزوين ٤٢٠,٠٠٠ كلم مربع .

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ، ص ٢٠ .

الجهة الثالثة : الجواب السمعي

قد أعرب الوحي عن كفاية مواد الأرض لإحياء الموتى بوجه خاص ، يفهمه المتدبّر في القرآن الكريم .

يقول سبحانه : ﴿ وإذا الأرْضُ مُدّتْ ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرْضُ والجِبالُ ، فدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً ﴾[2] .

ومن المحتمل جداً أنْ يكون مد الأرض في ظل الاندكاك ، بكسر الذرّات الموجودة فيها ، فيبلغ حجم حجر يقدر بمتر مكعب إلى ملايين الكيلو مترات المكعبة .

فخرجنا بهذه النتيجة ، وهي أنّ تصور عدم كفاية المادة الأرضية لإحياء الناس ، باطل في العقل ، والعلم والوحي .

* * *

(١) سورة الإنشقاق : الآية ٣ .

(٢) سورة الحاقة · الآية ١٤ .

شُبْهَةُ الآكل والمَأكُول

إنّ هذه الشبهة من أقدم الشبهات التي وردت في الكتب الكلامية حول المعاد الجسماني ، وقد أعتنى بدفعها المتكلمون والفلاسفة عناية بالغة ، والإشكال يقرر بصورتين :

الصورة الأولى : إذا أكل إنسانٌ إنساناً بحيث عاد بدن الثاني جزءً من بدن الإنسان الأول ، فالأجزاء التي كانت للمأكول ثم صارت للآكل ، إمّا أن تعاد في كل واحد منهما ، أو تعاد في أحدهما ، أو لا تعاد أصلاً . والأول محال ، لاستحالة أن يكون جزءٌ واحدٌ بعينه ، في آن واحد ، في شخصين متبائنين . والثاني خلاف المفروض ، لأنّ لازمه أنْ لا يعاد الآخر بعينه .

والثالث أسوأ حالاً من الثاني ، إذ يلزم أنْ لا يكون أي من الإنسانين معاداً بعينه . فينتج أنّه لا يمكن إعادة جميع الأبدان بأعيانها .

الصورة الثانية : لو أكل إنسان كافر ، إنساناً مؤمناً ، وقلنا بأنّ المراد من المَعاد هو حشر الأبدان الدنيوية في الآخرة ، فيلزم تعذيب المؤمن ، لأنّ المفروض أنّ بدنه أو جزءً منه ، صار جزء من بدن الكافر ، والكافر يُعَذَّب ، فيلزم تعذيب المؤمن[1] .

---

(١) لاحظ شرح المواقف للسيد شريف ، ج ٨ ، ص ٢٤٥ ، شرح المقاصد ، للتفتازاني ، ج ٢

وقبل الورود في الجواب نعلّق على هذا السؤال بأنه لا يختص بما ورد فيـه من أكـل إنسانٍ إنسـاناً، الـذي لا يتفق حصولـه إلّا في أعماق الأدغـال، والمجتمعـات الـوحشية ، بـل السؤال يرجـع إلى أمر يـومي ملموس في المجتمعـات المتحضرة ، وذلـك أنّ النباتـات والثمار والحُبـوب التي يتغذّى عليهـا الإنسـان تنبت من تـراب الأرض ، الذي هو مزيج رفات الأموات الـذين قضوا عـبر الدهـور ، والذي هـو عصارة الأبدان وخلاصتها .

ونحن نـرى أنّ المقابـر الواقعـة في أكناف البـلاد تتبدل إلى حـدائق للتفـرج والتنـزه أو إلى مزارع لـلاستثمار ، فيتغـذى منهـا الحيـوان والإنسـان ، فيؤول بـدن الإنسان الميت ، جزءً من الإنسان الحي ، فعندئذ يطرح السؤال المتقدم .

الجواب :

إن هذه أقوى شبهة تعترض القول بالمعاد الجسماني ، ونحن نذكر أولاً مـا هو الحق عندنا في الإجابة ، ثم نشير إلى ما ذكره المتكلمون في ذلك :

أما الصورة الأُولى من الإشكال ، فبعض احتمالاتها ساقط جداً ، وهو عـود المأكول جزء لكلا الإنسانين ، فيبقى الإحتمالان الآخران ، وبأي واحد منهما أخذنا يندفع الإشكال ، وذلك بالبيان التالي :

إنّ الإنسان من لدن تكوّنه وتولده إلى يوم وفاته واقع في مهب التغـير وخضم التبدل ، فليس وجوده جامداً خالياً عن التبدل . فبدن الإنسان ليس إلا خلايـا لا يحصيها إلا الله سبحانه ، وكل منها يحمل مسؤوليته في دعم حياة البدن ، والخـلايا

= ص ٢١٦ . والإشكـال الثـاني وارد فيـه دون الأول . وكشف المراد ، ص ٢٥٥ ، ط صيـدا . والأسفار ، ج ٩ ، ص ١٩٩ .

والفـرق بين الصـورتين هـو أنّ الإشكال بـالتقريـر الأول يركـز على نقص الإنسـان المُعاد من حيث البدن ، ولكنه في التقرير الثاني يركز على أنّ المَعاد الجسماني في المقام يستلزم خلاف العـدل الإلهي ، فالأساس في الإشكال في الصورتين واحد ، وهو كون بدن إنسان جزءً من بدنٍ إنسان آخر ، ولكن المترتب على الصورة الأولى هو عدم صدق كون المُعاد هو المُنشأ في الدنيا ، وعلى الصورة الثـانية هـو تعذيب البريء مكان المجرم .

في حال تغير وتبدل مستمر ، تموت ويخلفها خلايا أُخرى ، وبهذا يتهيّء للبدن استمرار حياته ، من غير فرق بين الخلايا الدماغية وغيرها ، غاية الأمر أنّ الخلايا الدماغية ، ثابتة من حيث العدد دون غيرها .

وقد قال الأخصائيون بأن مجموع خلايا البدن تتبدل إلى خلايا أُخرى كل عشر سنوات ، فبدن الإنسان بعد عشر سنين من عمره يغاير بدنه الموجود قبل عشر سنين وعلى هذا فالإنسان الذي يبلغ عمره ثمانين سنة قد عاش في ثمانية أبدان مختلفة ، وهو يحسبها بدناً واحداً .

إذا عرفت ذلك ، فنقول : إن هناك فروضاً :

١ ـ فلو فرض أنّ بدن الإنسان صار جزءً من بدن إنسان آخر ، فبما أنّ للمأكول أبداناً متعددة على مدى حياته ، فواحد منها مقرون بالمانع ، والأبدان الأُخر خالية منه فيحشر مع الخالي .

٢ ـ ولو فرض أنّ جميع أبدانه اقترنت بالمانع ، فإنه أيضاً لا يصد عن القول بالمعاد الجسماني ، لأنّ الناموس السائد في التغذية ، هو أنّ ما يستفيده الإنسان من الغذاء لا يتعدى ثلاثة بالمائة من المأكول والباقي يدفعه .

فإذاً لا مانع من أنْ تتعلق الروح بأحد هذه الأبدان التي تتفاوت عن البدن الدنيوي من حيث الوزن والحجم ، ولم يدل على أنّ المحشور في النشأة الأُخروية يتحد مع الموجود في النشأة الدنيوية في جميع الجهات وعامة الخصوصيات .

٣ ـ ولو فرض أنّ قانون التحول ساد على أبدان المأكول ، فلم يبق من كل بدن إلا النذر اليسير الذي لا يتشكل منه بدن إنسان كامل ، فلا مانع في هذا الفرض النادر من تكميل خلقته بالمواد الأرضية الأُخرى حتى يكون إنساناً قابلاً لتعلق الروح به ، وليس لنا دليل على أنّ المُعاد في الآخرة يتحد مع الموجود في الدنيا في جميع الجهات حتى المادة التي يتكون منها البدن .

نعم ، إنْ كانت المادة الترابية التي تكوّن منها البدن الدنيوي موجودة ، فلا وجه للعدول عنها إلى تراب آخر ، وأما إذا كانت مقرونة بالمانع ، فلم يبق إلا جزء

يسير لا يكفي لتكوّن البدن ، فلا غرو في أن يُتَسَبَّب في تكميل خلقته بالأخذ من المواد الترابية غير المقرونة بالمانع .

والذي يدل على ذلك أنه سبحانه في مقام التنديد بالمنكرين ، يعبر بلفظ المثل ، ويقول : ﴿ أَوَ لَيْسَ الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ بِقادِرٍ على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وهو الخَلَّاقُ العليمُ ﴾[1] . الضمير في ﴿ مِثْلَهُمْ ﴾ يعود إلى المشركين المنكرين للمعاد ، وهذا يعرب عن كفاية المثل من غير حاجة إلى صدق العينية ، بالوحدة في المادة الترابية .

ويؤيد ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام : « فإذا قبضه الله إليه ، صيّر تلك الروح إلى الجنة في صورةٍ كصورته ، فيأكلون ويشربون ، فإذا قدم عليهم القادم عرفهم بتلك الصورة التي كانت في الدنيا »[2] .

فترى أنّ الإمام عليه السلام يذكر كلمة الصورة ، ولعلّ فيه تذكير بأنّه يكفي في المعاد الجسماني كون المُعاد متحداً مع المبتدأ في الصورة من غير حاجة إلى أنْ يكون هناك وحدة في المادة الترابية بحيث إذا طرأ مانع من خلق الإنسان منه ، فشل المعاد الجسماني ولم يتحقق .

والتركيز على وحدة المادة ، يبتني على تحليل وجود الإنسان تحليلاً مادياً وأنه ليس وراء المادة شيء آخر ، وأما على القول بأنّ واقعية الإنسان بروحه ونفسه ، وأنّ جميع خصوصياته وملكاته موجودة في نفسه ، فالمعاد الجسماني لا يتوقف على كون البدن المحشور نفس البدن الدنيوي حتى في المادة الترابية ، بل لو تكوّن بدن الإنسان المُعاد من أيّة مادة ترابية كانت ، وتعلقت به الروح ، وكان من حيث الصورة متحداً مع البدن الدنيوي ، يصدق على المُعاد أنه هو المُنشأ في الدنيا .

قال صدر المتألهين : « إن تشخّص كلّ إنسان إنما يكون بنفسه لا ببدنه ، وإنّ البدن المعتبر فيه ، أمر مُبْهَم ، لا تحصّل له إلا بنفسه ، وليس له من هذه

---

(1) سورة يس : الآية ٨١ .

(2) البحار ، ج ٦ ، باب أحوال البرزخ ، الحديث ٣٢ ، ص ٢٢٩ .

الحيثية تعينّ ، ولا يلزم من كون بدن زيد مثلاً محشوراً أنْ يكون الجسم الذي منه صار مأكولاً لسبع أو إنسان آخر ، محشوراً ، بل كلّ ما يتعلّق به نفسه هو بعينه بدنه الذي كان . فالإعتقاد بحشر الأبدان يوم القيامة هو أنْ تُبْعَث أبدانٌ من القبور إذا رأى أحد كلّ واحدٍ منها يقول هذا فلان بعينه ، أو هذا بدن فلان ، ولا يلزم من ذلك أن يكون غير مبدّل الوجود والهوية . كما لا يلزم أن يكون مشوَّه الخَلْق وأن يكون الأقْطع والأعمى والهَرِم محشوراً على ما كانوا عليه من نقصان الخلقة وتشويه البنية »[1] .

ثم إن للمتكلمين جواباً آخر في الذب عن هذه الصورة من الإشكال حاصله أنّ المُعاد ، إنما هو الأجزاء الأصلية ، وهي الباقية من أول العمر إلى آخره ، لا جميع الأجزاء على الإطلاق ، وهذه الأجزاء الأصلية ، التي كانت للإنسان المأكول ، هي في الآكل فضلات ، فإنا نعلم أنّ الإنسان يبقى مدة عمره وأجزاء الغذاء تتوارد عليه وتزول عنه ، فإذا كانت فضلات فيه ، لم يجب إعادتها في الآكل بل في المأكول[2] .

ويظهر من المحقق الطوسي ارتضاؤه حيث يقول : « ولا يجب إعادة فواضل المكلف » . وأوضحه العلامة الحلي بقوله : « إن لكلّ مكلفأجزاء أصلية لا يمكن أنْ تصير جزءً من غيره ، بل تكون فواضل من غيره لو اغتذى بها »[3] .

وما ذكروه خال عن الدليل ، إذ لم يدلّ دليل على أنّ لكل مكلف أجزاء أصلية لا تكون جزءً لبدن غيره .

نعم ، ورد في بعض الروايات ، ولكنها روايات آحاد ، لا توجب علماً ، فلو ثبت صدورها ، فَلْيُقْبَل تعبداً[4] .

إلى هنا تم الجواب عن الصورة الأُولى من الإشكال .

---

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٠٠ .

(٢) شرح المواقف ، ج ٨ ، ص ٢٩٦

(٣) كشف المراد ، ص ٢٥٦ ، ط صيدا .

(٤) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٧ ، باب إثبات الحشر ، الحديث ٢١ ، ص ٤٣ .

وأمـا الصورة الثـانية من الإشكـال : فقـد عـرفت أنها تـركـز عـلى العـدل الإلهي ، وأن كون بدن المؤمن جزءً من بدن الكافر يستلزم تعذيب المجرم ، ولكنـه مبنى على إعطاء الأصالة في الحياة للبدن وهي نظرية خـاطئة ، فـإن اللذائذ والآلام ترجع إلى الروح ، والبدن وسيلة لتعذيبه وتنعيمه .

فصيرورة بدن المسلم جـزءً من بدن الكـافر ، لا يلازم تعـذيب المؤمن ، لأنّ المُعَذّب بتعذيب البدن ، هو روح الكافر ونفسه ، لا روح المؤمن . وهذا نظير أخذ كليةٍ من إنسان حيّ ووصلها بإنسان يعاني من ضعفها وعلّتها ، فإذا نجحت عملية الـوصل وصـارت الكلية المـوصـولـة ، جـزء من بـدن المـريض ، ثم عُـذّب هـذا المريض ، فالمعذب هو هـو ، ولو نُعّم ، فـالمُنَعَّم هو هـو ، ولا صلة بينه وبـين من وَهَب كليته وأهداها إليه .

وقد عرفت في كلام صدر المتألهين ما يفيدك في المقام .

* * *

أسئلة المعاد

(٦)

مكان بعث النفوس وحشرها

أثبتت البحوث الجيولوجية والتنقيبات الأثرية أنّ الإنسان يعيش في هذا الكوكب منذ أكثر من مليوني سنة ، ويستدل على ذلك بالمستندات الحفرية التي تؤلف سجلات الخليقة . فعندئذٍ يطرح هذا السؤال : هل يكفي سطح الأرض لاستقرار جميع الخلائق التي لا يحصي عددها إلا خالقها ، في يوم واحد ، كما هو صريح قوله سبحانه : ﴿ هذا يَوْمُ الفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ والأوّلين ﴾[١] ، مع أنّ مساحة الأرض لا تتجاوز (٧١٥, ٩٥٠, ٥٠٩) كيلو متر مربع ؟

والجواب :

إنّ السؤال مبني على حفظ النظام يوم القيامة ، مع أنّ صريح الآيات على تبدّل النظام ، وحدوث نظام أوسع وأكبر ، وقد عرفت أنّ الديناميكا الحرارية تثبت اتجاه المواد الكونية إلى الفناء بمرور الزمن ، فلا تقوم القيامة على صعيد هذا النظام . والآيات في هذا المجال كثيرة .

يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدّلُ الأرْضُ غَيْرَ الأرْضِ والسَّمواتُ وَبَرَزوا لله الواحِدِ القَهّار ﴾[٢] .

---

(١) سورة المرسلات : الآية ٣٨ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٤٨ .

والذكر الحكيم يصرح بأنّ الشمس والقمر يجريان إلى أجلٍ مسمى . يقول سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمىً ﴾[١] ، بل جميع العوالم المحسوسة من الأرض والسموات ، كلّها تجري إلى أجَلٍ مسمىً ، يقول سبحانه : ﴿ أوَلَمْ يَتَفَكّروا في أنْفُسِهِمْ ، ما خَلَقَ الله السَّمواتِ والأرْضَ وما بَيْنَهُما إلا بالحَقّ وأجَلٍ مُسَمىً وإنّ كثيراً من النّاسِ بِلِقاءِ رَبّهِمْ لكافرونَ ﴾[٢] .

والآيات التي ننقلها في كيفيّة حدوث القيامة ، تكشف عن تدمير النظام بأسره ، وانقلابه إلى نظام آخر ، يقول سبحانه : ﴿ إذا رُجّتِ الأرْضُ رَجّاً * وَبُسّتِ الجبالُ بَسّاً ﴾[٣] . ويقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَمورُ السَّماءُ مَوْراً وَتَسيرُ الجبالُ سَيراً ﴾[٤] . وغير ذلك مما سيوافيك بيانه .

فالنّاس يحشرون على صعيدٍ واحد ، في يوم واحد ، لكن في نظام آخر ، عظيم هائل يسع لجمع جميع العباد ، ومحاسبتهم فيه .

* * *

---

(١) سورة الرعد . الآية ٢ .

(٢) سورة الروم . الآية ٨ ، ونظيره الأحقاف : ٣ .

(٣) سورة الواقعة . الآيتان ٦و٧ .

(٤) سورة الطور . الآيتان ٨و٩ .

كيف يخلد الإنسان ، مع أنّ المادة تفنى ؟

دلّت الآيات والروايات على خلود الإنسان في الآخرة ، إما في جنتها ونعيمها ، أو في جحيمها وعذابها ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، دلت القوانين العلمية على أنّ المادة ، حسب تفجر طاقاتها ، على مدى أزمنة طويلة ، تبلغ إلى حد تنفذ طاقتها فلا يمكن أنْ يكون للجنة والنار بقاء ، كما لا يكون للإنسان خلود كذلك ، لأنّ مكونات الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وتصير الأجسام على درجة بالغة الإنخفاض[١] ، وبالتالي تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة .

الجـــواب

إنّ السؤال ناشٍ من مقايسة الآخرة بالدنيا ، وهو خطأ فادح ، لأنّ التجارب العلمية لا تتجاوز نتائجها المادة الدنيوية . وإسراء حكم هذا العالم إلى العالم الآخر ، وإن كان مادياً وعنصرياً مثلها ، قياس لا دليل عليه . كيف ، وقد تعلقت قدرتها سبحانه على إخلاد الجنة والنار ، وله إفاضة الطاقة ، إفاضة بعد إفاضة ، على العالم الأُخروي بجحيمه وجنته ، ومؤمنه وكافره . ويعرب عن ذلك

(١) هي درجة الصفر المطلق البالغة (٢٦٩) درجة مئوية تحت الصفر ، وهي درجة سيلان غاز الهيليوم .

قوله سبحانه : ﴿ كُلَّما نَضِجَتْ جلودُهُم بَدَّلْناهُمْ جلوداً غيرها لِيَذوقوا العذابَ إنَّ الله كان عزيزاً حكيماً ﴾[1] .

ويعزز ذلك ما جاء في آخر الآية من الإتكاء على كونه عزيزاً ، فإنّ معناه : مقتدراً على إمداد المادة . فلأجل ذلك لو كانت الحركة والعمل مفنيين لطاقات المادة الدنيوية ، فليسا كذلك في المادة الآخروية ، لدعمها بطاقات جديدة ، فلو نضج جلد يأتي مكانه جلد آخر ، وهكذا .

وهذا السؤال من أوضح موارد قياس الغيب على الحس أوّلاً ، وعدم التعرف على قدرته سبحانه ثانياً ، يقول تعالى :

﴿ وما قَدَروا الله حَقّ قَدْرِهِ ﴾[2] .

* * *

(١) سورة النساء : الآية ٥٦ .

(٢) سورة الحج : الآية ٧٤ .

أسئلة المعاد

(٨)

ما هو الغرض من عقاب المجرم أو تنعيم المحسن ؟

إنّ الحكيم لا يعاقب إلا لغاية وغاية العقوبة إما التشفي كما في قصاص المجرم ، وهو محال على الله ، أو إيجاد الإعتبار في غير المعاقب ، أو تأديب المجرم ، وكلاهما يتحققان في النشأة الدنيوية لا الأخروية ، فيكون تعذيب المجرم في الآخرة عبثاً لا غاية فيه .

بل ربما يقال إنّ تنعيم المؤمن أيضاً بلا وجه ، لأن اللذة الجسمانية لا حقيقة لها وإنما هي دفع الألم ، فلو ترك الميت على حاله ولم يعد ، لم يكن متألماً . فالغرض حاصل بدون الإعادة ، فلا فائدة فيها[١] .

الجــواب

إنّ السائل قد فرض أنّ المعاد أمر ممكن في ذاته ولم يدل دليل على ضرورة وقوعه ، فسأل عن الغاية الموجبة له ، ولكنه لو وقف على ما ذكرنا من الأدلة التي تحتم المعاد ، وتجعل وجوده ضرورياً ، لترك السؤال . فقد عرفت أنّ هناك وجوهاً ستة تُعرِّف المعاد أمراً ضرورياً لا مناص عنه ، منها كون المعاد مجلّى للعدل الإلهي ، فإذا كان وجود المعاد ، أمراً ضرورياً ، فالسؤال عن غاية وهدف

(١) لاحظ شرح المواقف ، ج ٨ ، ص ٢٩٦ ، والجزء الأول من كتابنا هذا ، وقد جاء السؤال فيه أبسط مما ذكر هنا .

أمـر ضروري الوقـوع ، ساقط . وذلـك لأن بين تلك الأدلـة التي تـوجب ضرورة المعاد ، عللاً غائية ، كتجلّي عدله سبحانه في المعاد ، أو كمال الإنسـان ، ومعها لا معنى للسؤال عن غاية المعاد .

ومن العجب أنّ السائل يجعل اللذة الجسمانيـة شيئاً لا حقيقـة له ، وأنها مـا هي إلا دفع الألم . ولا أظن أنّه نفسه يقدر على تطبيقه على جميع موارد اللذة ، فهل في اللذة الجسمانية الحاصلة من التأمل في روضة غنّاء ، دفعاً للألم ، بحيث لـولاه لكـان غارقـاً في الآلام والأوجاع ، أو أنها لـذة واقعيـة منـاسبـة للنفس في مقـامهـا المادي ، وقس على ذلك غيره .

وهنـاك جـوابـان آخـران تقـدّمـا في الجـزء الأول عنـد البحث عن ثمـرات التحسين والتقبيح العقليين ، فلا نعيدهما[1] .

* * *

---

(١) لاحظ الإلهيات ، ج ١ ص ٢٩٣ـ٣٠٠ .

أسئلة المعاد

(٩)

من هم المخلدون في النار

اختلفت كلمة المتكلمين في المخلّدين في النار ، فذهب جمهور المسلمين إلى أن الخلود يختص بالكافر ، دون المسلم وإن كان فاسقاً . وذهبت الخوارج والمعتزلة إلى خلود مرتكب الكبائر في النار إذا مات بلا توبة .

قال الشيخ المفيد : « إتفقت الإمامية على أن الوعيد بالخلود في النار متوجه إلى الكفار خاصّة دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى والإقرار بفرائضه من أهل الصلاة »[١] .

وقال في شرح عقائد الصدوق : « أما النار فهي دار من جهل الله سبحانه ، وقد يدخلها بعض من عرفه ، بمعصية الله ، غير أنه لا يخلد فيها بل يخرج منها إلى النعيم المقيم ، وليس يخلد فيها إلا الكافرون » . . . . إلى أن قال : « وكل آية تتضمن ذكر الخلود في النار فإنما هي في الكفار دون أهل المعرفة بالله تعالى ، بدلائل العقول والكتاب المسطور ، والخبر الظاهر المشهور[٢] ، والإجماع ، والرأي السابق لأهل البدع من أصحاب الوعيد »[٣] .

(١) أوائل المقالات ، ص ١٤ .

(٢) يريد من الخبر ، ما تصافر عن النبي من أنه قال : إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي . راجع البحار ، ج ٨ ، ص ٣٥١ .

(٣) شرح عقائد الصدوق ، ص ٥٥ .

وقال العلامة الحلّي : « أجمع المسلمون كافة على أن عذاب الكافر مؤبد لا ينقطع ، وأما أصحاب الكبائر من المسلمين ، فالوعيدية على أنه كذلك . وذهبت الإمامية وطائفة كثيرة من المعتزلة والأشاعرة إلى أن عذابه منقطع »(١) .

واستدل القائلون بالإنقطاع بآيات ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾(٢) ، والإيمان أعظم أفعال الخير . فإذا استحق العقاب بالمعصية ، فإما أن يقدّم الثواب على العقاب ، فهو باطل بالإجماع ، لأن الأثابة لا تكون إلا بدخول الجنة ، والداخل فيها مخلّد لا يخرج منها أبداً ، فلا يبقى مجال لعقوبته ، أو بالعكس وهو المراد .

أضف إلى ذلك أنّه يلزم أنْ يكون مَنْ عَبَدَ الله تعالى مدةَ عمره بأنواع القربات إليه ، ثم عصى في آخر عمره معصية واحدة ، مع حفظ إيمانه ، مخلداً في النار ، ويكون نظير من أشرك بالله تعالى مدة عمره ، وهذا عند العقل قبيح ومحال(٣) .

واستدلت المعتزلة على خلود الفاسق في النار ، بالسمع وهو عدة آيات ، استظهرت من إطلاقها أن الخلود يعم الكافر والمنافق والفاسق . وإليك هذه الآيات واحدة بعد الأخرى .

الآية الأولى ـ قوله سبحانه : ﴿ **وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسولَهُ وَيَتَعَدّ حُدوده يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فيها وَلَه عَذابٌ مُهينٌ** ﴾(٤) . ولا شكّ أن الفاسق ممن عصى الله ورسوله بترك الفرائض وارتكاب المعاصي .

يلاحظ عليه : أولاً ـ إن دلالة الآية على خلود الفاسق في النار لا يتجاوز حد الإطلاق ، والمطلق قابل للتقييد . وقد خرج عن هذه الآية باتفاق المسلمين

---

(١) كشف المراد ، ص ٢٦١ ، ط صيدا .

(٢) سورة الزلزلة : الآية ٧ .

(٣) لاحظ كشف المراد ، ص ١٦١ ، ط صيدا .

(٤) سورة النساء : الآية ١٢ . وأما قوله سبحانه : ﴿ **وَمن يعصِ الله ورسولَهُ فإن له نار جهنّم خالدين فيها** ﴾(الجن : الآية ٢٣) فهو راجع إلى الكفار ، كما هو واضح لمن لاحظ آيات السوره .

الفاسق التائب ، فلو دلّ دليل هنا على أنّ المسلم الفاسق ربما تشمله عناية الله ورحمته ، ويخرج عن العذاب ، لكان المطلق مقيداً بقيدٍ آخر وراء التائب ، فيبقي تحت الآية المشرك والمنافق .

وثانياً : إن الموضوع في الآية ليس مطلق العصيان ، بل العصيان المنضم إليه تعدّي حدود الله ومن المحتمل جداً أن يكون المراد من التعدّي هو رفض أحكامه سبحانه ، وطردها ، وعدم قبولها . كيف ، وقد وردت الآية بعد بيان أحكام الفرائض .

يقول سبحانه : ﴿ يُوصيكُمُ الله في أولادِكُمْ للذَّكَرِ مثلُ حَظِّ الأنثيَيْنِ . . . ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ . . ﴾[2] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ الله وَمَنْ يُطِعْ الله وَرَسُولَهُ . . . ﴾[3] .

ويقول : ﴿ ومن يَعْصِ الله ورَسولَهُ وَيَتَعَدّ حدودَهُ . . . ﴾[4]

وقوله : ﴿ وَيَتَعَدّ حدودَه ﴾ ، وإنْ لم يكن ظاهراً في رفض التشريع ، لكنه يحتمله . بل ليس الحَمْل عليه بعيداً بشهادة الآيات الأُخر الدالة على شمول غفرانه لكل ذنب دون الشرك ، أو شمول رحمته للناس على ظلمهم وغير ذلك من الآيات الواردة في حق الإنسان غير التائب كما سيوافيك .

يقول الطبرسي : « إنّ قوله : ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدودَهُ ﴾ ، ظاهر في تعدّي جميع حدود الله ، وهذه صفة الكفار ، ولأنّ صاحب الصغيرة بلا خلاف خارج عن عموم الآية وإن كان فاعلاً للمعصية ، ومتعدياً حدّاً من حدود الله ، وإذا جاز إخراجه بدليل ، جاز لغيره أن يخرج من عمومها ، كمن يشفع له النبي أو يتفضّل

(١) سورة النساء : الآية ١١ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٢ .
(٣) سورة النساء : الآية ١٣ .
(٤) سورة النساء : الآية ١٤ .

الله عليه بالعفو ، بدليل آخر ، وأيضاً فإنّ التائب لا بدّ من إخراجه من عموم الآية ، لقيام الدليل على وجوب قبول التوبة ، وكذلك يجب إخراج من يتفضّل الله بإسقاط عقابه ، منها ، لقيام الدلالة على جواز وقوع التفضّل بالعفو »[1] .

الآية الثانية : قوله سبحانه : ﴿ **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً متعمّداً فجزاؤه جَهَنّم خالداً فيها ، وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ ، وَلَعَنَهُ ، وأَعَدَّ لَهُ عذاباً عظيماً** ﴾[2] .

قال القاضي : وجه الإستدلال هو أنه تعالى بَيّنَ أنّ من قَتَلَ مؤمناً عمداً جازاه ، وعاقبه وغضب عليه ، ولعنه (وأخلده في جهنم)[3] .

يلاحظ عليه : **أولاً** ـ إن دلالة الآية دلالة إطلاقية ، فكما خرج منها القاتل المشرك إذا أسلم ، والمسلم القاتل إذا تاب ، فليكن كذلك من مات بلاتوبة ولكن اقتضت الحكمة الإلهية ، أن يتفضّل عليه بالعفو ، فليس التخصيص أمراً مشكلاً .

وثانياً : إنّ من المحتمل أنْ يكون المراد القاتُل المستحل لقتل المؤمن ، أو قَتَلَهُ لإيمانه ، وهذا غير بعيد لمن لاحظ سياق الآيات .

لاحظ قوله سبحانه : ﴿ **سَتَجِدونَ آخرينَ يُريدون أن يَأمَنوكم ويَأمَنْوا قَوْمَهُم ، كُلّما رُدُّوا إلى الفِتْنَةِ أُركسوا فيها فإنْ لم يَعْتَزِلوكُم وَيُلْقوا إليكم السَّلَمَ ويكُفُّوا أَيْديَهُم فَخُذُوهُمْ واقتلُوهُم حَيْثُ ثَقِفْتُموهُمْ وأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبيناً** ﴾[4] .

ثم ذكر سبحانه بعد هذه الآية حكم قتل المؤمن خطأً وتعمداً . وفي ضوء هذا يمكن أن يستظهر أنّ الآية ناظرة إلى القتل العمدي ، الذي يقوم به القاتل لعداء ديني لا غير ، فيكون ناظراً إلى غير المسلم .

الآية الثالثة : قوله سبحانه : ﴿ **بلى من كَسَبَ سَيّئَةً وأحاطتْ به خَطِيئَتُهُ**

---

(١) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٠ ، طبعة صيدا .
(٢) سورة النساء : الآية ٩٣ .
(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٥٩ .
(٤) سورة النساء : الآية ٩١ .

فأولئكَ أصحابُ النارِ هُم فيها خالدون ﴾[1] .

والاستدلال بهذه الآية إنما يصح مع غَضّ النظر عن سياقها ، وأما معه فإنها واردة في حق اليهود .

أضف إليه أنّ قوله سبحانه : ﴿ **وأحاطتْ به خَطِيئتُه** ﴾ ، لا يهدف إلا إلى الكافر ، فإنّ المسلم المؤمن مهما كان عاصياً لا تحيط به خطيئته ، فإنّ في قلبه نقاط بيضاء يشع عليها إيمانه واعتقاده بالله سبحانه وأنبيائه وكتبه . على أن دلالة الآية بالإطلاق ، فلو ثبت ما يقوله جمهرة المسلمين ، يخرج الفاسق من الآية بالدليل .

الآية الرابعة : قوله سبحانه : ﴿ **إنّ المجرمينَ في عذابِ جَهَنَّمَ خالدون * لا يُفَتَّرُ عَنْهُم وهمْ فيه مُبْلِسون * وما ظلمناهُم وَلَكِنْ كانوا هُمُ الظالمين** ﴾[2]

إن دلالة الآية إطلاقية ، قابلة للتقييد ، **أوّلاً** . وسياق الآية في حق الكفار ، بشهادة قوله سبحانه قبل هذه الآية : ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مُسْلمين * ادخلوا الجَنّة أنتم وأزواجُكُم تُحْبَرون** ﴾[3] ، ثم يقول : ﴿ **إنّ المجرمين في عذاب جهنّم خالدون** ﴾ . فـ ﴿ **المجرمين** ﴾ ، في مقابل ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ ، فلا يعم المسلم ، **ثانياً** .

هذه هي الآيات التي استدلت بها المعتزلة على تخليد الفاسق في النار ، وقد عرفت أن دلالتها بالإطلاق لا بالصراحة . وتقييد المطلق أمر سهل مثل تخصيص العام . مضافاً إلى انصراف أكثرها أو جميعها إلى الكافر والمنافق .

وهناك آيات أظهر مما سبق[4] تدل على شمول الرحمة الإلهية للفساق غير التائبين نكتفي باثنتين منها :

---

(١) سورة البقرة : الآية ٨١ .

(٢) سورة الزخرف : الآيات ٧٤ـ ٧٦ .

(٣) سورة الزخرف . الآيتان ٦٩و٧٠ .

(٤) كما تدل هذه الآيات على عدم الخلود في النار ، تدل على جواز العفو عن الفاسق من بدء الأمر ، وأنه يعفى عنه ولا يعذب من رأس ، فهذا الصنف من الآيات كما يحتج به في هذه مسألة ، يحتج به في المسألة السالفة أيضاً فلاحظ .

١ ـ قوله سبحانه : ﴿ ويستعجلونك بالسيّئةِ قبل الحسنةِ وقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلاَتِ وإنّ رَبّكَ لذو مَغْفِرَةٍ للنّاسِ على ظُلْمِهِمْ وإنّ الله لَشَدِيدُ العقاب ﴾[١] .

قال الشريف المرتضى : « في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة لأنه سبحانه دلّنا على أنه يغفر لهم مع كونهم ظالمين ، لأن قوله ﴿ على ظلمهم ﴾(جملة حالية) ، إشارة إلى الحال التي يكونون عليها ظالمين ، ويجري ذلك مجرى قول القائل : أنا أودّ فلاناً على غدره ، وأَصِلُهُ على هجره »[٢] .

وقد قرر القاضي دلالة الآية وأجاب عنها بأن الأخذ بظاهر الآية مما لا يجوز بالإتفاق ، لأنّه يقتضي الإغراء على الظلم ، وذلك ممّا لا يجوز على الله تعالى ، فلا بد من أن يؤوّل ، وتأويله هو أنه يغفر للظالم على ظلمه إذا تاب[٣]

يلاحظ عليه: إنّ ما ذكره من الإشكال ، جارٍ في صورة التوبة أيضاً ، فإن الوعد بالمغفرة مع التوبة يوجب تمادي العاصي في المعصية ، برجاء أنه يتوب . فلو كان القول بعدم خلود المؤمن موجباً للإغراء ، فليكن الوعد بالغفران مع التوبة كذلك .

والذي يدل على أن الحكم عام للتائب وغيره هو التعبير بلفظ « الناس » مكان « المؤمنين » فلو كان المراد هو التائب ، لكان المناسب أن يقول سبحانه : « وإنّ ربَّك لذو مغفرة للمؤمنين على ظلمهم » ، مكان قوله : « للناس » . وهذا يدل على أن الحكم عام يعم التائب وغيره .

إن هذه الآية تَعِدُ الناس بالمغفرة ، ولا تذكر حدودها وشرائطها فلا يصح عند العقل الإعتماد على هذا الوعد وارتكاب الكبائر ، فإنه وعد إجمالي غير مبين من حيث الشروط والقيود .

٢ ـ قوله سبحانه : ﴿ إنّ الله لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَنْ

(١) سورة الرعد : الآية ٧ .
(٢) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ .
(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٨٤ .

يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بالله فَقَدْ افْتَرَى إثْماً عظيماً ﴾[1] .

وجه الإستدلال بهذه الآية على أن رحمته تشمل غير التائب من الذنوب ، أنه سبحانه نفى غفران الشرك دون غيره من الذنوب . وبما أن الشرك يغفر مع التوبة ، فتكون الجملتان ناظرتين إلى غير التائب . فمعنى قوله : ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يُشرِك به ﴾، أنّه لايغفر إذا مات من أشرك بلا توبة . كما أن معنى قوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، أنه يغفر ما دون الشرك من الذنوب بغير توبة لمن يشاء من المذنبين ، ولو كانت سائر الذنوب ، مثل الشرك ، غير مغفورة إلا بالتوبة، لما حسن التفصيل بينها ، مع وضوح الآية في التفصيل[2] .

وقد أوضح القاضي دلالة الآية على ما يتبناه الجمهور بوجه رائع ، ولكنه ـ تأثراً بعقيدته الخاصة في الفاسق ـ قال : « إنّ الآية مجملة مفتقرة إلى البيان ، لأنّه قال : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، ولم يبين من الذي يغفر له . فاحتُمل أن يكون المراد به أصحاب الصغائر ، واحتُمل أن يكون المراد أصحاب الكبائر ، فسقط احتجاجهم بالآية »[3] .

أقول : عزب عن القاضي أن الآية مطلقة ، تعم كلا القسمين ، فأيّ إجمال في الآية حتى نتوقف . والعجب أنه يتمسك بإطلاق الطائفة الأولى من الآيات ، ولكنه يتوقف في إطلاق هذا الصنف .

نعم ، دفعا للإغراء ، وقطعا لعذر الجاهل ، قيّد سبحانه غفرانه بقوله : ﴿ لمن يشاء ﴾، حتى يصد العبد عن الارتماء في أحضان المعصية بحجة أنه سبحانه وعده بالمغفرة .

ثم إنّ القاسم بن محمد بن علي الزيدي العلوي المعتزلي ، تبع القاضي في تحديد مداليل هذه الآيات وقال : « آيات الوعيد لا إجمال فيها ، وهذه الآيات ونحوها مجملة ، فيجب حملها على قوله تعالى : ﴿ وإني لَغَفّار لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ

(١) سورة النساء : الآية ٤٨
(٢) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٥٧ بتلخيص .
(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٧٨ .

صالحاً ثم اهتدى﴾ . » ثم ساق بعض الآيات الواردة في غفران العباد في مجال التوبة (١) .

ويظهر النظر في كلامه مما قدمناه في نقد كلام القاضي فلا نعيد .

هذا ، والبحث أشبه بالبحث التفسيري منه بالكلامي ، ومن أراد الإستقصاء في هذا المجال فعليه بجمع الآيات الواردة حول الذنوب والغفران حتى يتضح الحال فيها ، ويتخذ موضعاً حاسماً بإزاء اختلافاتها الأوليّة .

* * *

---

(١) الأساس لعقائد الأكياس ، ص ١٩٨

أسئلـة الـمعاد

(١٠)

هـل يجوز الـعفو عن الـمُسيء ؟

هل يجوز العفو عن العصاة في الآخرة أوْ لا ؟ وهل في الحكم بجـواز العفو ، إغـراء للعصاة عـلى إدامة العصيـان ، أوْ لا ؟ أوَلَيس العفـو عن العـاصي ، خلفـاً للوعيد ، وهو قبيح ؟

الجـــواب

إنّ التعـذيب حق للمولى سبحـانـه ولـه إسقـاط حقّـه ، وهـو إحسـان منـه سبحانه على العبد : ﴿ وَما على المُحْسِنِـينَ مِنْ سَبيلٍ ﴾ ، فـلا مانـع ، إذا اقتضت الحكمة ، من العفو عن العاصي في ظروف خاصة ، إما بالشفاعة ، أو بدونها .

وقـد خالف معتزلة بغـداد في ذلك ، فلم يجـوزوا العفو عن العصـاة عقلاً ، واستدلوا على ذلك بوجهين :

الـوجه الأوّل ـ إنّ العقـاب لطف من الله تعـالى ، واللطف يجب أنْ يكـون مفعولاً بالمكلف على أبلغ الوجوه ، ولن يكون كذلك إلا والعقـاب واجب على الله تعالى . ومن المعلوم أنّ المكلف متى علم أنّه يُفْعَل به مـا يستحقه من العقـوبة عـلى كل وجه ، كان أقرب إلى إداء الواجبات واجتناب الكبائر[١] .

---

(١) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٤٦ .

يلاحظ عليه : إنّ اللطف عبارة عما يقرب الإنسان من الطاعة ، ويبعده عن المعصية ، وهذا لا يتصور إلا في دار التكليف لا دار الجزاء ، فالدار الأُولى ، دار العمل والسعي ، والآخرة دار الحساب والإجتناء .

وأما ما ذكروه أخيراً من أنه لو علم أنّه يفعل ما يستحقه من العقوبة على كل وجه ، كان أقرب إلى إداء الواجبات واجتناب الكبائر ، فهو لو تم ، لوجب سد باب التوبة ، لإمكان أن يقال إن المكلّف لو علم أنّه لا تقبل توبته كان أقرب إلى الطاعة وأبعد من المعصية .

أضف إلى ذلك أنّ للرجاء آثاراً بنّاءة في حياة الإنسان ، ولليأس آثاراً سلبية في الإدامة على الموبقات ، ولأجل ذلك جاء الذكر الحكيم ، بالترغيب والترهيب معاً .

ثم إنّ الكلام في جواز العفو لا في حتمته ، والأثر السلبي ـ لو سلّمناه ـ يترتب على الثاني دون الأول .

الوجه الثاني ـ أنّ الله أوْعد مرتكب الكبيرة بالعقاب ، فلو لم يعاقب ، للزم الخلف في وعيده ، والكذب في خبره[1] ، وهما محالان[2] .

الجواب : إنّ الخُلف في الوعد قبيح ، وليس كذلك في الوعيد ، والدليل على ذلك أنّ كل عاقل يستحسن العفو بعد الوعيد في ظروف خاصة ، فلو كان العفو من الله تعالى مع الوعيد قبيحاً ، لوجب أنْ يكون كذلك عند كل عاقل . ولعل الوجه في عدم كونه قبيحاً هو أنّ الوعيد حق ، والعفو إسقاط ، ومثل ذلك يعد مستحسناً لا قبيحاً ، إذا وقع العفو في موقعه ، ولأجل ذلك يقول الشيخ الصدوق : اعتقادنا في الوعد والوعيد هو أنّ من وعده الله على عمل ثواباً ، فهو منجزه ، ومن وعده على عمل عقاباً فهو بالخيار إنْ عَذّبَه فَبِعَدْلِه وإن عفا عنه فبفضله ، ﴿ **وما الله بظلّام للعبيد** ﴾ ، ﴿ **إنّ الله لا يغفر أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما**

---

(١) أخطأ المستدل في هذا ، فإن الوعد إنشاء وليس بإخبار حتى يلزم فيه الكذب .

(٢) شرح العقائد العضدية ، لجلال الدين الدواني (م٩٠٨) ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

دونَ ذلك ﴾[1] .

هـذا كله حول العفـو عن الوعيـد عقلاً . وأمـا سمعـاً ، أي حسب الأدلـة النقلية فسيوافيك الكلام فيه عند البحث عن عدم خلود غير الكافر في النار .

❋ ❋ ❋

(١) عقائد الصدوق ، ص ٨٦ من النسخة الحجرية الملحقة بشرح الباب الحادي عشر

أسئلـة المـعاد

(١١)

هل الجنة والنار مخلوقتان ؟

إنّ الله سبحانه وعد المتقين بالجنة وأوْعد العاصين بالنار ، فهل همـا مخلوقتان الآن ، أم لا ؟ .

الجـواب : ذهبت المعتزلـة ـ غير أبي عـلي الجبّـائي ـ والخـوارج وطـائفـة من الزيدية ، إلى الثاني وذهبت الإمامية والأشاعرة إلى أنّهما مخلوقتان .

قال الشيخ المفيد : « إنّ الجنة والنّار في هذا الوقت مخلوقتان وبذلك جـاءت الأخبار ، وعليه إجماع أهل الشرع والآثار »[١] .

وقال التفتازاني : « جمهور المسلمين على أنّ الجنة والنار مخلوقتان الآن خـلافاً لأبي هاشم والقاضي عبد الجبار ، ومن يجري مجراهمـا من المعتزلـة حيث زعموا أنهما إنّما يُخْلَقان يوم الجزاء »[٢] .

والظاهر من السيد الرضي ، أنّهما غير مخلوقتين الآن ، قال : والصحيح أنّهما تخلقان بعد »[٣] .

---

(١) أوائل المقالات ، ص ١٠٢

(٢) شرح المقـاصد ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، ولاحظ شرح التجـريد للقـوشجي ، ص ٥٠٧ ، والعبارتـان متحدتان .

(٣) حقائق التأويل ، ص ٢٤٥ .

أدلة القائلين بخلقهما

أُستدل على كون الجنة والنار مخلوقتان ، بوجوه :

الوجه الأول : قصة آدم وحواء ، وإسكانهما الجنة ، وأكلهما من الشجرة ، وخصفهما عليهما من ورق الجنة ، ثم إخراجهما منها ، على ما نطق به الكتاب والسنة ، وانعقد عليه الإجماع قبل ظهور المخالفين . وحملها على بستان من بساتين الدنيا ، ليس عليه دليل[1] .

يلاحظ عليه : إنّ حمله على غير جنة الخلد التي هي قرار المآب وجنة الثواب ، ليس أمراً بعيداً ، والجنة في أصل اللغة يعبر بها عن الرياض ، والمنابت ، والأشجار ، والحدائق ، والكروم المعروشة ، والنخيل .

وعلى هذا قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاء الله ﴾[2] . وقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ كان لِسَبَاءٍ في مَسْكَنِهِم آيَةٌ ، جَنَّتَانِ عَنْ يَمينٍ وشمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُروا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[3] .

ويمكن أنْ يؤيّد ذلك بأنه لو كانت جنّة الخلد ، لما خرج منها ، قال سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الوارِثُونَ * الذينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فيها خالِدونَ ﴾[4]

وهذا ، وإنْ كان يُمكن حَمْلُه على مَنْ دَخَلَها بَعْدَ دارِ الدنيا ، وهو غَيْرُ متحقق في آدم ، ولكنه إحتمال في مقابل إحتمال . وكما لا يمكن الاحتجاج على كونهما مخلوقين بما ورد في جنة آدم ، كذلك لا يمكن الإحتجاج عليه بما ورد من كون الشهداء أحياءً عند ربهم يرزقون[5] ، أو بما وَرَدَ من أنّ آل فرعون يُعْرَضون على

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢١٨ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٣٩ .

(٣) سورة سبأ : الآية ١٥ .

(٤) سورة المؤمنين : الآيتان ١٠و١١ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .

النـار غُدُوّاً وعشيـاً[1] ، لأنهما راجعـان إلى الحيـاة البرزخية . والتنعيم اوالتعـذيب فيهما ، غيرُهما في الآخرة .

الـوجه الثـاني : الآيات الصـريحة في كـونهما مخلوقين ، كقـوله سبحـانه : ﴿ وَلَقَدْ رآهُ نَزْلَةً أُخرى * عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهى * عِنْدَهَا جَنَّةُ المأوى ﴾[2] وكقوله في حـقّ الجنـة : ﴿ أُعِـدَّتْ لِـلمُتّـقـينَ ﴾[3] ، و﴿ أُعِـدّت لِلّذيـن آمنـوا بـالله ورسـولِـهِ ﴾[4] ، و﴿ وأُزْلِفَتِ الجَنّـةُ لِلْمُتّقـينَ ﴾[5] وفي حق النـار : ﴿ أُعِـدّتْ لِلْكـافِرينَ ﴾[6] و﴿ بُـرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلغـاوينَ ﴾[7] . وحملهـا عـلى التعبـير عن المستقبـل بلفظ المـاضي مبـالغـةً في تحققــه ، مثـل : ﴿ وَنُفِـخَ في الصُّـورِ ﴾[8] و﴿ ونادى أصحابُ الجنّةِ أصْحابَ النّارِ ﴾[9] ، يحتاج إلى دليل[10] .

وهذا الإستدلال أمتن من سابقه ، ومع ذلك فالإعتقاد بكونهما مخلوقتين الآن يتوقف على كون دلالتهما على المقصود قـطعية ، وهـو غير حـاصل ، لمـا عرفت من الإحتمال الآخر[11] .

نعم ، بعض هذه الآيات لا يحتمل إلا المعنى الأول ، مثل قوله : ﴿ عِنْـدَها جَنّـةُ المـأوىٰ ﴾ ، إذ لم يـر التعبـير عن الشيء الـذي سيتحقق غـداً ، بـالجملة الإسمية .

---

(١) سورة غافر : الآية ٤٦ .

(٢) سورة النجم : الآيات ١٣ـ١٥ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

(٤) سورة الحديد : الآية ٢١ .

(٥) سورة الشعراء : الآية ٩٠ .

(٦) سـورة آل عمران : الآية ١٣١ .

(٧) سـورة الشعراء : الآية ٩١

(٨) سـورة الكهف : الآية ٩٩ .

(٩) سـورة الأعراف : الآية ٤٤ .

(١٠) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢١٨و٢١٩ .

(١١) وقد اعتمد على هذا الإحتمال السيد الرضي في حقائق التأويل ص ٢٤٧ ، وقال : إنّ التعبير بـالفعل الماضي ، لصحته وتحقق وقوعه ، وكأنه قد كان ، فعبّر عنه بعبارة الكائن الواقع .

الوجه الثالث : إنّ الله تعالى رَغّب الْمُكَلّفين بالجنة ، ورهّبهم بالنار ، فكيف يصح الترغيب بجنة لم يخلقها ، والترهيب بنار لم يخلقها(1) .

وهذا الوجه ضعيف جداً ، لأنّ الجنّة الموصوفة ، لمّا كانت مقدورة له تعالى ، ومثلها النار ، صحّ الترغيب والترهيب ، كما رغب المكلفين في ثواب لم يوجد بعد ، لأنّ وعده صادق وأمره واقع(2) .

نعم ، هناك روايات لا يمكن العدول عنها ، لتضافرها روى الصدوق في الأمالي والتوحيد عن الهَروي ، قال : قلت : للرضا عليه السلام : يا بن رسول الله ، أخبرني عن الجنّة والنار أهما اليوم مخلوقتان ؟ فقال : نعم ، وإنّ رسول الله قد دخل الجنة ورأى النار ، لما عرج به إلى السماء . قال : فقلت له : فإنّ قوماً يقولون إنّهما اليوم مقدّرتان غير مخلوقتين . فقال عليه السلام : ما أُولئك منّا ولا نحن منهم ، من أنْكر خلق الجنة والنار ، فقد كذّب النبي صلى الله عليه وآله وكذّبنا(3) .

أدلة النافين لخلقهما

استدل النافون لخلقهما بوجوه :

١ ـ إنّ خلق الجنة والنار قبل يوم الجزاء ، عبث ، لا يليق بالحكيم تعالى .

٢ ـ إنّهما لو خلقتا لهلكتا ، لقوله تعالى : ﴿ **كُلُّ شيءٍ هالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ** ﴾(4) واللازم باطل ، للإجماع على دوامهما ، وللنصوص الشاهدة بدوام أُكُل الجنة وظلّها .

٣ ـ إنّهما لو وجدتا الآن فإما في هذا العالم ، أو في عالم آخر ، وكلاهما باطل ، أمّا الأوّل فلأنه لا يتصور في أفلاكه ، لامتناع الخرق والالتئام عليها ،

---

(١) حقائق التأويل ، ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) حق اليقين ، للسيد شبر ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

(٤) سورة القصص : الآية ٨٨ .

ولامتناع حصول العنصريات فيها ، ولأنّها لا تسع جنّة عرضها كعرض السماء والأرض .

وأما الثاني ، بأن يكونا فوق محدد الجهات[1] ، فلأنّه يلزم أن يكون في اللامكان مكان ، وفي اللاجهةٍ جهةٌ[2] .

يلاحظ على الأول أنّ الحكم بالعبثية يتوقف على العلم القطعي بعدم ترتب غرض عليه ، ومن أين لنا بهذا العلم ؟ .

ويلاحظ على الثاني أنّه ليس المراد من ﴿ **هالك** ﴾ هو تحقق انعدامه وبطلان وجوده ، بل المراد أنّ كل شيء هالك في نفسه ، باطل في ذاته ، لا حقيقة له إلا ما كان عنده مما أفاضه الله عليه . والحقيقة الثابتة في الواقع التي ليست هالكة باطلة من الأشياء هي صفاته الكريمة ، وآياته الدالة عليها فيهما جميعها ثابتة بثبوت الذات المقدسة ، هذا بناء على كون المراد بالهالك في الآية ، الهالك بالفعل .

وأما إذا أُريد من الهالك ما يستقبله الهلاك والفناء ، بناء على ما قيل من أنّ اسم الفاعل ظاهر في الإستقبال ، فهلاك الأشياء ليس بمعنى البطلان المطلق بعد الوجود ، بأنْ لا يبقى منها أثر ، فإنّ صريح كتاب الله ينفيه ، فإن آياته تدل على أنّ كل شيء مرجعه إلى الله وأنّه المنتهى وإليه الرجعى ، وهو الذي يُبدىءُ الخلق ثم يعيده .

وإنّما المراد بالهلاك على هذا الوجه ، تَبَدُّل نشأة الوجود ، والرجوع إلى الله ، المعبر عنه بالإنتقال من الدنيا إلى الآخرة ، والتلبس بالعود بعد البدء ، وهذا إنما يشمل ما كان موجوداً بوجود بدني دنيوي ، وأما نفس الدار الآخرة ، وما هو موجود بوجود أُخروي كالجنة والنار ، فلا يتصف بالهلاك بهذا المعنى . قال سبحانه : ﴿ **وَما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وما عِنْدَ الله باقٍ** ﴾[3] .

---

(١) محدّد الجهات عبارة عن الفَلَك التاسع ، وهو الفلك الأطلس الذي كان يعتقد به بطلميوس ويقول ليس فوقه خلاء ولا ملاء .

(٢) لاحظ هذه الوجوه الثلاثة في شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٣) سورة النحل : الآية ٩٦ .

وقال سبحانه : ﴿ وما عِنْدَ الله خَيرٌ للأبرار ﴾[1] . وقال سبحانه : ﴿ وإنْ مِنْ شيءٍ إلا عِنْدَنا خزائِنُهُ ﴾[2] . وكذا اللوح المحفوظ ، كما قال سبحانه : ﴿ وَعِنْدَنا كِتابٌ حفيظٌ ﴾[3] . فهذه الآيات تعرب عن عدم شمول الآية إلا لما له وجود دنيوي ، فيتبدل إلى وجود أُخروي ، لا ما كان موجوداً بوجود أُخروي من بدء الأمر .

ويلاحظ على الثالث أنّه مبني على التصوير البَطْلَمْيوسي للعالم ، وقد أبطل العلم أصله ، فيبطل ما فرع عليه ، فإن الكون وسيع إلى حد لا تحيط به الأرقام والأعداد النجومية .

وعلى ذلك يمكن أنْ تكون الجنة والنار في ذلك الفضاء الواسع الذي لا يحيط بسعته إلا الله سبحانه ، وليس علينا تعيين مكانها بالدقة ، كيف والله سبحانه يقول : ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتهى * عِنْدَها جَنّةُ المَأْوى ﴾[4] ، فلمّا كان المراد من جنة المأوى ، الجنة الموعودة ، فهي عند سدرة المنتهى ، وقد سئل ابن عباس عن سدرة المنتهى ، فقال : « إليها ينتهي علم كل عالم ، وما وراءها لا يعلمه إلّا الله »[5] . فإذا كانت سدرة المنتهى هي منتهى علم البشر ، فلن يصل علمهم إلى الجنة الموعودة التي هي عندها ، ولا يمكن لأحد تعيين مكانها ، بل غاية ما يمكن قوله هو أنّهما مخلوقتان موجودتان في هذا الكون غير المتناهي طولاً وعرضاً .

وأما قوله سبحانه : ﴿ سابِقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبّكُمْ وَجَنّةٍ عَرْضُها كعرْضِ السَّماء والأرْضِ ، أُعِدّتْ للّذينَ آمنوا بالله وَرَسُولِهِ ﴾[6] ، فليس المراد من العَرْض فيه ما يضاد الطول ، بل هو بمعنى السعة ، والآية بصدد بيان سعة الجنة كما لا يخفى .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩٨ .
(٢) سورة الحِجْر : الآية ٢١ .
(٣) سورة ق : الآية ٤ .
(٤) سورة النجم : الآيتان ١٤ ـ ١٥ .
(٥) الدر المنثور ، ج ٦ ، ص ١٢٥ .
(٦) سورة الحديد : الآية ٢١ .

نعم ، يستفاد من ظاهرها أنّها ليست في السماء التي يراد منها السيارات والكواكب والمجرّات الظاهرة . وممّا يؤيد ذلك أنّ النظام السمائي السائد على الكون المشاهد ، يتلاشى عند قيام القيامة لقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَطوي السّماءَ كَطَيِّ السِجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كما بَدَأْنَا أوّل خَلْقٍ نُعيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إنّا كُنّا فاعِلينَ ﴾(١) فلو كانت الجنة والنار فيها ، للزم تلاشيهما واندثارهما عند قيام القيامة .

ويمكن أن يقال إنّ الجنة والنار كسائر الموجودات الإمكانية ، تتكاملان وتتسعان ، ويؤيّده ما رُوِيَ عن النبي أنّه قال : « ليلةَ أُسرِيَ بي ، مَرّ بي إبراهيم ، فقال : مُرْ أُمَّتَكَ أنْ يُكْثِروا من غرس الجنة ، فإن أرضها واسعة وتربتها طيبة ، قلت : وما غرس الجنة قال : لا حول ولا قوة إلا بالله »(٢) .

هذا كله على القول بأنّ الجنة والنار حسب ظواهر الكتاب ، موجودتان في الخارج ، مع قطع النظر عن أعمال المكلف ، وأنّهما معدّتان للمطيع والعاصي ، وأما على القول بأنّه ليس لهما وراء عمل الإنسان حقيقة ، وأن الجنة والنار عبارة عن تجسم عمل الإنسان بصورة حسنة وبَهِيّة ، أو قبيحة ومرعبة ، فالجنة والنار موجودتان واقعاً بوجودهما المناسب في الدار الآخرة ، وإن كان الإنسان ، لأجل كونه محاطاً بهذه الظروف الدنيوية ، غير قادر على رؤيتهما ، وإلا فالعمل ، سواء كان صالحاً أو طالحاً ، قد تحقق وله وجودان وتمثّلان ، وكلٌّ موجود في ظرفه .

* * *

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٤ .

(٢) سفينة البحار ، مادة غرس ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .

الخـــاتمـــة

* التَّقيّة في الكتاب والسُّنّة
* عدالة الصحابة في الكتاب والسُّنّة
* الشيعة واتهامهم بالقول بتحريف القرآن
* المتعة في الكتاب والسُّنّة

الخاتمة

قد تعرفت فيما تقدم على المسائل الرئيسية المطروحة في علم الكلام الإسلامي ، ووقفت على الحق القراح الذي يدعمه العقل ويثبته الكتاب والسنة المطهرة ، وهناك بعض المسائل التي لم تزل الشيعة الإمامية، تُزْدَرى بها ، وتُهاجَم أوْ تُتّهَم بالإعتقاد بها ، وهي :

١ ـ البَداء .

٢ ـ الرجعة .

٣ ـ التقية .

٤ ـ عدم الإعتراف بعدالة جميع الصحابة .

٥ ـ الإتهام بالقول بتحريف القرآن .

٦ ـ المتعة .

وقد قدّمنا البحث عن البداء في الجزء الأول من الكتاب[1] ، وعن الرجعة في مباحث الإمامية[2] ، وفيما يلي نتعرض إلى بقية هذه المسائل ، وإن كان بعضها (المتعة) من المسائل الفقهية التي لا تمت إلى المسائل الكلامية بصلة ، ولكن نذكرها رجاء الستر عن وجه الحق ، وتقريب الخطى بين المسلمين .

---

(١) الإلهيات ، ج ١ ، الفصل الخامس ، ص ٥٦٣-٥٩٣ .

(٢) لاحظ ص   من هذا الجزء .

مباحث الخاتمة

(١)

التقيّة في الكتاب والسُّنة

إنّ مما يشنع به على الشيعة ويُزدرى به عليهم ، قولهم بالتقية وعملهم بها في أحايين وظروف خاصة . ولكن المشنّعين لم يقفوا على مغزاها . ولو تثبّتوا في الأمر ، وتريثوا في الحكم ، ورجعوا إلى كتاب الله وسنّة رسوله ، وسألوا أهل الذكر ، لوقفوا على أنها مما تحكم به ضرورة العقل ونص الكتاب والسنة .

إنّ ها هنا أمرين مختلفين ربما يخلط الجاهل أحدهما بالآخر ، وهما :

١ ـ النِفاق .

٢ ـ التقيـة .

وقد ضربوهما بسهم واحد ، وأعطوهما حكماً واحداً فقالوا إن التقية فرع من النفاق تجلّى في الشيعة باسم التقية . ولو رجعوا إلى الكتاب العزيز لعرفوا أنّه بينما يندد بالنفاق والمنافقين ويقول : ﴿ الأعرَابُ أشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً ﴾[١] ، ويقول : ﴿ إنّ المنافِقين في الدّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النّارِ ﴾[٢] ، يحرّض على التقية في ظروف خاصة ويقول : ﴿ لا يَتّخِذِ المُؤْمِنونَ الكافرينَ أوْلياء مِنْ دونِ المُؤْمنينَ وَمَنْ يَفْعَلْ

---

(١) سورة التوبة : الآية ٩٧ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٤٥ .

ذلكَ فلَيْسَ مِنْ اللهِ في شيَءٍ ، إلا أنْ تَتّقوا مِنْهُمْ تُقاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وإلى اللهِ المَصيرُ ﴾[1] .

فقوله : ﴿ إلاّ أنْ تَتّقوا ﴾ ، إستثناء من أهم الأحوال ، أي إنّ ترك موالات الكافرين حتم على المؤمنين في كل حال ، إلا في حال الخوف من شيءٍ يتّقونه منهم ، فللمؤمنين حينئذٍ أنْ يوالوهم بقدر ما يُتّقى به ذلك الشيء ، لأنّ درء المفاسد مُقَدّم على جلب المصالح .

والإستثناء منقطع ، فإنّ التقرب من الغير خوفاً بإظهار آثار التولّي ظاهراً ، من غير عقد القلب على الحب والولاية ، ليس من التولّي في شيء . لأنّ الخوف والحُبّ أمران قلبيّان ، ومتنافيان أثراً في القلب ، فكيف يمكن اجتماعهما . فاستثناء الإتقاء إستثناء منقطع .

فلو كانت التقية من فروع النفاق ، فلماذا دعا إليها الكتاب الحكيم ؟ .

روى السيوطي في الدرّ المنثور قال : أخرج إبن إسحاق وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن إبن عباس ، قال : كان الحَجّاج بن عمرو ، حليف كعب الأشرف ، ابن أبي الحقيق ، وقيس بن زيد ، وقد بطنوا بنفر من الأنصار ، ليفتنوهم عن دينهمَ ، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير ، وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء النفر من اليهود ، واحذروا مباطنتهم لا يفتنونكم عن دينكم . فأبى أولئك النفر ، فأنزل الله فيهم : ﴿ لا يَتّخِذِ المُؤْمنونَ الكافرينَ ﴾ إلى قوله ﴿ والله على كُلِّ شيَءٍ قَديرٌ ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ مَنْ كفرَ بالله مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ ، إلاّ من أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإيمان ، ولكن مَنْ شَرَحَ بالكُفْرِ صَدْراً ، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ من الله ولَهُمْ عذابٌ عَظيمٌ ﴾[3] . فترى أنّه سبحانه يجوّز إظهار الكفر كُرْهاً ، ومجاراة الكافرين خوفاً

---

(١) سورة آل عمران : الاية ٢٨ .

(٢) الدرّ المنثور ، ج ٢ ، ص١٦ .

(٣) سورة النحل : الآية ١٠٦ .

منهم بشرط أنْ يكون القلب مطمئناً بالإيمان . فلو كانت مداراة الكافرين في بعض الظروف نفاقاً ، فلم رخّصه الإسلام وأباحه ، وقد اتفق المفسرون على أنّ الآية نزلت في جماعة أُكرهوا على الكفر، وهم عمّار وأبوه ياسر وأُمُّه سُميّة، وقتل أبو عمار وأمُّه ، وأعطاهم عمّار بلسانه ما أرادوا منه . ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله ، فقال قومٌ كَفَرَ عمار ، فقال صلوات الله عليه وآله : « كلّا ، إنّ عماراً مُلِىءَ إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه » . وجاء عمار إلى رسول الله وهو يبكي ، فقال : « ما وراءَكَ » ؟ فقال : « شرٌّ يا رسول الله ، ما تُرِكْتُ حتى نِلْتُ مِنْكَ ، وذكرت آلهتهم بخير » . فجعل رسول الله يمسح عينيه ويقول : « إنْ عادوا لك فَعُدْ لَهُمْ بما قُلْتَ » فنزلت الآية[1] .

نعم ، شذت عن المسلمين جماعة الخوارج فمنعوا التقية في الدين مطلقاً ، وإن أُكره المؤمن وخاف القتل ، زاعمين أكن الدين لا يُقدّم عليه شيء[2] .

وماذكروه إجتهاد في مقابل النص ، فإنّ الآية تصرح بأنّ من نطق بكلمة الكفر مُكْرَهاً ، وقايةً لنفسه من الهلاك ، لا شارحاً بالكفر صدراً ، ولا مستحسناً للحياة الدنيا على الآخرة ، لا يكون كافر بل يُعذّر ، كما عُذّر الصحابي الذي قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أني رسول الله ، قال : نعم ، فتركه ، وقَتَلَ رفيقه الذي سأله هذا السؤال ورفضه[3] .

كيف ، وربما يترتب على التقية ومجاراة أعداء الدين ومخالفي الحق ، حفظ مصالح الإسلام والمسلمين . وبذلك يظهر الفرق بين النفاق والتقية ، فإن بين الأمرين فرقاً جوهرياً لا يخلط أحدهما بالآخر .

إنّ التقية والنفاق يختلفان من وجهين ، وربما يكون الفرق أكثر من ذلك ، ولكن نكتفي بهما :

---

(١) مجمع البيان ، ج٣ ، ص ٣٨٨ ، ونقله غير واحد من المفسرين .

(٢) المنار ، ج٣ ، ص٢٨٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص٢٨١ .

١ ـ اختلافهما من حيث المبادىء النفسية

إنّ المتقي مؤمن بالله سبحانه وكتبه ورسله ، غير أنّه يـرى صلاح دينـه ودنياه في عدم التظاهر بما آمن به ، والتظاهر بخلافه في بعض الأحـايـين . ولكن المنافق هو من يُبْطن الكفر ، وعدم الإيمـان بالله سبحـانه ، وكتبـه ، ورسله ، أو ما دونها من المبادىء الدينية ، ولكنه يتظاهر بالإيمان حتى يتخيّل المؤمنون أنّه منهم .

وهذا مؤمن آل فرعون ، يكتم إيمانه ، تقية من قومه ، وربما يتظاهر بأنّه على دين قومه ، ولكنه بهذا الغطاء يخدم دينـه ونبيّه ، فيُـرشِدُ قـومه إلى رصـانة دينـه ، ببيانٍ بليغٍ صادرٍ عن رجل محايد ، كما يخدم نبي زمانه بإبلاغه مؤامرة قومه للفتـك به ، وتظهر تلك الحقيقة في الآيتين التاليتين :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ من آل فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يقولَ رَبِّيَ اللّهُ ، وَقَدْ جاءَكُمْ بالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وإنْ يَكُ كاذباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وإنْ يَـكُ صادقـاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِـدُكُمْ ، إنّ الله لا يَهْـدِي مَنْ هُـوَ مُسْـرِفٌ كَذّابٌ ﴾[1] .

ويقول أيضاً : ﴿ وَجَـاءَ رَجُلٌ مِنْ أقصَى المـدينةِ يَسْعَىٰ ، قـالَ يا مُـوسَىٰ إنّ المَلأَ يَأْتَمِرونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخرُجْ إنّي لَكَ مِنَ النّاصِحينَ ﴾[2] .

٢ ـ اختلافهما من حيث الغايات والأغراض

إنّ مستعمـل التقية لا يهـدف من استعمالهـا ، إلا صيـانـة نَفْسِـهِ عن الأذى والقتل ، وعِرْضِهِ عن الهَتْك ، ومالِهِ عن النّهْب ، أو مـا يؤول إليها بالنتيجة . فلو كان هناك طمأنينة بالنسبة إلى ما يرجع إليه من هذه الأُمور ، لمـا استعمل التقيـة ، ولا لجأ إليها . حتى أنّ التقية لأجل التحابب والتوادد ، ترجع غـايتها إلى درء الشر عن النفس والنفيس .

---

(١) سورة غافر : الآية ٢٨

(٢) سورة القصص : الآية ٢٠ وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون على ما في التفاسير .

وأما المنافق فإنما يلجأ إلى النفاق ، لا لتلك الغايات المقدّسة ، وإنما يريد أنْ يتدخل في شؤون المسلمين ، ويقلب ظهر المجن عليهم في الظروف القاسية أو يشترك معهم في المناصب ، والمقامات والغنائم والأموال وغير ذلك مما تلتذ به النفوس الحريصة ، ولأجل ذلك يعدّ سبحانه عبد الله بن أُبيّ وأنصار حزبه من المنافقين وإنْ تظاهروا بالإيمان . يقول سبحانه : ﴿ إذا جاءَكَ المُنافِقونَ قالوا نَشْهَدُ إنّكَ لَرسولُ الله ، والله يَعْلَمُ إنّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ ، إنّ المنافِقينَ لكاذِبونَ ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمِنَ الأعرابِ مَنْ يَتّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبّصُ بِكُمُ الدّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوءِ والله سميعٌ عليمٌ ﴾[2] .

سؤال وجواب

أما السؤال ، فهو : إنّ الآيتين راجعتان إلى تقيّة المسلم من الكافر ، ولكن الشيعة تتقي إخوانهم المسلمين ، فكيف يستدل بهما على صحة عملهم ؟ .

وأما الجواب ، فهو : إنّ الآيتين وإن كانتا لا تشملان تقية المسلم من أخيه المسلم بالدلالة اللفظية ، ولكنهما تشملان غير موردهما بنفس الملاك الذي سوّغ تقية المسلم من الكافر فإن وجه تشريع التقية هو صيانة النفس والعرض والمال من الهلاك والدمار ، فإن كان هذا الملاك موجوداً في غير مورد الاية ، فيجوز ، أخذاً بوحدة المناط . وقد كان عمل الشيعة على التقية منذ تغلّب معاوية على الأمة ، وابتزازه الإمرة عليها بغير رضاً منها ، وصار يتلاعب بالشريعة الإسلامية حسب أهوائه ، وجعل يتتبع شيعة علي ويقتلهم تحت كل حجر ومدر ، ويأخذ على الظنة والتهمة . وسارت على طريقته العوجاء الدولة المروانية ، ثم العباسية ، فزادتا في الطين بلة ، وفي الطنبور نغمة . هذا وذاك ، اضطر الشيعة إلى كتمان أمرها تارة ، والتظاهر به أُخرى ، زنة ما تقتضيه مناصرة الحق ، ومكافحة الضلال ، وما يحصل به إتمام الحجة .

---

(١) سورة المنافقون : الآية ١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٩٨ .

التقية المُحَرّمة

إن التقية تنقسم حسب الأحكام الخمسة ، فكما أنّها تجب لحفظ النفوس والأعراض والأموال ، ربما تحرم إذا ترتب عليها مفسدة أعظم ، كهدم الدين وخفاء الحقيقة عن الأجيال الآتية ، وتسلط الأعداء على شؤون المسلمين وحرماتهم ومعابدهم . ولأجل ذلك نرى أنّ كثيراً من عظماء الشيعة وأكابرهم رفضوا التقية في بعض الأحايين وتهيؤا للشّنق على حبال الجور ، والصلب على أخشاب الظلم . وكلٌّ ممن استعمل التقية ورفضها ، له الحُسنى ، وكلٌّ عمل بوظيفته التي عينتها ظروفه .

إنّ التاريخ يحكي لنا عن الكثير من رجالات الشيعة الذين سحقوا التقية تحت أقدامهم ، وقدّموا هياكلهم المقدسة قرابين للحق ، منهم شهداء مرج عذراء ، وقائدهم الصحابي العظيم الذي أنهكته العبادة والورع ، حِجْر بن عُدي الكِنْدي ، الذي كان من قادة الجيوش الإسلامية الفاتحة للشام .

ومنهم ميثم التمار ، ورشيد الهجري ، وعبد الله بن يقطر ، الذين شنقهم ابن زياد في كناسة الكوفة ، هؤلاء والمئات من أمثالهم هانت عليهم نفوسهم العزيزة في سبيل الحق،ونطحوا صخرة الباطل ،وما عرفوا أين زرعت التقية وأين واديها ، بل وجدوا العمل بها حراماً ، ولو سكتوا وعملوا بالتقية ، لضاعت التقية من الدين ، وأصبح دين الإسلام دين معاوية ويزيد ، وزياد وابن زياد ، دين المَكْر ، ودين الغدر ، ودين النفاق ، ودين الخداع ، دين كل رذيلة ، وأيْنَ هو من دين الإسلام الحق ، الذي هو دين كل فضيلة ، أُولئك هم أضاحي الإسلام وقرابين الحق .

وفوق أُولئك ، إمام الشيعة ، أبو الشهداء الحسين وأصحابه الذي هم سادة الشهداء ، وقادة أهل الإباء .

خزاية التاريخ

كيف لا يتّقي شيعة عليٍّ في أيام حكومة الأُمويين ، وهذا معاوية كتب إلى

عماله في جميع الآفاق : « أنظروا إلى من أُقيمت عليه البيّنة أنّه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه » . وشفع ذلك بنسخة أُخرى فيها : « من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره » . فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة .

روى أبو الحسن علي بن محمد المدائني قال : قامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر، يلعنون علياً ويبرؤون منه ، ويقعون فيه وفي أهل بيته ، وكان أشد الناس بلاء حينئذٍ أهل الكوفة ، لكثرة مَنْ بها مِنَ شيعة عليّ ، فاستعمل عليهم زياد بن سمية ، وضم إليه البصرة ، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف ، لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وأخافهم ، وقطع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشرّدهم عن العراق ، فلم يبق بها معروف منهم »[1] .

وهناك رسالة قيّمة لأبي الشهداء ، الحسين بن علي عليه السلام حول الدماء الجارية والنفوس المقتولة بيد ابن أبي سفيان ، بذنب أنّهم شيعة علي ومحبوه ، رسالة تُعدّ من أوثق المصادر التاريخية ومما جاء فيها :

« أَلَسْت قاتلَ حِجْرٍ وأصحابه العابدين المخبتين الذين كانوا يستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ،فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكّدة ، جرأةً على الله واستخفافاً بعهده » ؟

« أوَلَسْتَ بقاتل عمرو بن الحمق الذي أَخْلَقَت وأبْلَتْ وجهه العبادة ، فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم نزلت من سقف الجبال »؟

«أولست قاتل الحضرمي[2] الذي كتب إليك فيه زياد : إنّه على دين عليّ كرم الله وجهه ، ودين علي هو دين ابن عمه صلى الله عليه وآله الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه ، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين :

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج٣ ، ص١٥ .

(٢) يعني شريك بن شداد الحضرمي ، كان من أصحاب حجر الذين بعث بهم زياد إلى معاوية وقتل مع حجر .

رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، فوضعها الله عنكم بنا ، مِنّةً عليكم »[1]

نعم ، الرزية كل الرزية تقية المسلم من المسلم ، وخوف الأخ من أخيه ، ولولا الظلم الذي أوْرَدَتْه طائفة منهم على الأخرى ، لما احتاجت إلى التقية ، فلا ذنب للشيعة حينئذٍ . ولو سادت الحرية في العالم الإسلامي على الطوائف الإسلامية كلها ، لما كان هناك وجه لتقية الأخ من الأخ ، ولكن للأسف إنّ السلطة رأت أنّ مصالحها لا تقوم إلا بالضغط على الشيعة ليتركوا عقيدتهم وعملهم ويذوبوا في الطوائف الإسلامية الأخرى ، فما ذنب الشيعة عندئذٍ من أنّ تَتّقي السلطة وجلاوزتها وتتظاهر على خلاف ما تعتقد لئلا يقتلوا أو يصلبوا ، أو تهتك أعراضهم أو تنهب أموالهم .

وكم شهدت أوساط الشيعة من مجازر عامة بيد السلطات الغاشمة ، فقُتِل الآلاف منهم بلا ذنب إلا اتّباعهم لأئمة أهل بيت نبي الإسلام ، واقتفائهم آثارهم . ونكتفي من ذلك بكلمة موجزة ـ لكي لا نخرج عن موضوع البحث ـ تُصَوِّر جانباً من تلك الجرائم الفظيعة .

لم يفتأ شيخ الشيعة ، أبو جعفر الطوسي ، إمام عصره وعزيز مصره بغداد ، حتى ثارت القلاقل وحدثت الفتن بين الشيعة والسنة ، ولم تزل تنجم وتخبو بين الفينة والفينة ، حتى اتسع نطاقها بأمر طغرل بك أول القادة السلجوقيين ، فورد بغداد ، عام ٤٤٧ ، وشنّ على الشيعة حملة شعواء وأمر بإحراق مكتبة الشيعة التي أنشأها أبو نصر ، وزير بهاء الدولة البُوَيْهِي ، وكانت من دور العلم المهمة في بغداد ، بناها هذا الوزير في محلةٍ بين السورَيْن ، في الكرخ ، عام ٣٨١ ، على مثال بيت الحكمة الذي بناه هارون الرشيد . وكانت مهمة للغاية فقد جمع فيها هذا الوزير ما تفرّق من كتب فارس والعراق واستكتب تآليف أهل الهند والصين والروم ، ونافت كتبها على عشرة آلاف من جلائل الآثار ، ومهام الأسفار ، وأكثرها نسخ الأصل بخطوط المؤلفين قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٤٨ : « وهرب أبو جعفر الطوسي ونهبت داره » ، ثم قال في حوادث سنة ٤٤٩ : « وفي

(١) الغدير ،ج ١٠ ،ص١٦٠-١٦١ لاحظ المصدر هناك .

صفر هذه السنة كبست دارة أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة بـالكَرْخ ، وأُخـذ ما وجد من دفاتره وكرسي يجلس عليـه للكلام ، وأُخـرج إلى الكرخ ، وأضيف إليـه ثلاث سناجيق بيض كـان الزوّار من أهـل الكرخ يحملونها معهم إذا قصـدوا زيارة الكوفة ، وأُحرق الجميع »[1] .

هـذا غيض من فيض ، ونزر من كثـير ، حول اضـطهاد الشيعـة وقتلهم ، وهتك أعراضهم ، جئنا به ليقف القارىء على أنّ لجـوء الشيعة إلى هـذا الأصل لم يكن إلا لظروف قاسية مرت عليهم ، وهي بعد سائدة ، فما ذنب الشيعة إذا أرادوا صيانة أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ؟ .

بـالله عليكم أيُّها الإخـوان ، لو كنتم انتم مكـان الشيعة ، وكنتم تـواجهون هذه الأحداث المؤلمة ، هل كنتم تسلكـون غير هـذا المسلك ، وهل كنتم تضنـون بالنفس والنفيس ، أو كنتم تهدون دماءكم وتهتكون أعراضكم وتبيدون أموالكم ؟

أظن أنّ من يملك شيئاً من العقل والإنصـاف يحكم بـالثـاني ، إلا إذا كـان هناك مصلحة أهم منها ، وتوقف إعلاء الحق وإبطال الباطل على التضحية ، وهـو أمـر آخـر خـارج عن المـوضـوع . وبعـد هـذا كله ، أفيصـح أن يقـال إنّ التقيـة نفاق ؟[2] .

* * *

---

(١) الحـادثة مـذكورة في أكـثر الكتب التاريخيـة التي تعرضت لحـوادث عامي ٤٤٧و٤٤٨ للهجـرة . وقد ذكرها شيخنا الطهراني في مقدمة « التبيان » ، ص ٥ .

(٢) نعم ، هنـا بحث آخر وهـو أنّه إذا عمـل الشيعي على مقتضى التقيـة ، كما إذا غسـل رجليـه مكـان مسحهما أو سجد على غير ما يصح عليه السجود ، كالسجاجيد ، فكيف يحكم بصحة عمله مع أنّه لم يمتثل ما على ذمته . وهذه مسألة فقهية ، لها بحثها ، وإجمال الجواب أنّ أدلـة التقية حـاكمة عـلى الأدلة الواقعية ، موسعة لها في ظروفها كالتيمم في مواقـع فقد المـاء ، فإجـزاؤهما من بـاب واحد ، والتفصيل يطلب من محله .

مباحث الخاتمة

(٢)

عدالة الصحابة في الكتاب والسنة

المشهور بين أهل السنة عدالة الصحابة جميعاً ، قال إبن عبد البر : « تثبت عدالة جميعهم »[١] .

وقال إبن الأثير : « والصحابة يشاركون سائر الرواة في جميع ذلك إلا في الجرح والتعديل ، فإنّهم كلّهم عدول لا يتطرق إليهم الجرح »[٢] .

وقال الحافظ إبن حجر : « إتفق أهل السنة على أنّ الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة »[٣] .

هذه بعض كلمات القوم ، وقد زعموا أنّ من يتتبع أحوال الصحابة لجرحهم ، أو تعديلهم ، فإنما يريدوا أن يجرحوا شهود المسلمين ليُبطلوا الكتاب والسنة .

غير أنّ الشيعة الإمامية ، عن بكرة أبيهم ، على أنّ الصحابة كسائر الرواة ، فيهم العدول وغير العدول ، وأنّ كون الرجل صحابياً لا يكفي في الحكم بالعدالة ، بل يجب تتبع أحواله حتى يوقف على وثاقته .

---

(١) الإستيعاب ، ج ١ ، ص٢ ، في هامش الإصابة .
(٢) أسد الغابة ، ج١ ، ص٣ .
(٣) الإصابة ، ج١ ، ص ١٧ .

والـدليل الـوحيد للقـوم هـو مـا رووه عن النبي الأكـرم أنّـه قـال : « مَثَـلُ أصحابي كالنجوم بأيّهم اهتديتم اقتديتم »[1] .

ولكن الاستدلال بالحديث باطل من وجوه :

١ ـ إنّ نصوص الكتاب تردّ صحة الإهتداء بكل صحابي أدرك النبي ، فإنّه يقسمهم إلى طائفتين ، طائفة صالحـة عادلـة ، مـرفـوعة المقـام والمكانـة ، وهؤلاء وصفوا بالسابقين الأوّلين ، المبايعين تحت الشجرة ، وغير ذلك[2] .

وطائفة غير صالحة ولا عادلة ، بل جـامحة عـلى النبي والمسلمين ، وهم بـين منافق عرف المسلمـون نفاقـه[3] ؛ ومن أخفى نفاقـه وتمرّن عليـه إلى حد لا يعـرفه المسلمون حتى النبي الأكرم[4] ؛ ومُشـرفٍ على الإرتـداد يوم دارت عـلى المسلمين الدوائر ، واشتدت الحرب بينهم وبـين قريش[5] ؛ وفـاسق يكذب في إخبـاره على النبي ، يعرّفه الكتاب بأنّه فاسق لا يقبل قولـه[6] ؛ ومريض القلب قـد فقد الثقـة بالله ورسوله فهو يؤيّد المنافقين من غير شعور[7] ؛ وسَمّاعٍ للمنافقين يقبـل كل مـا سمع منهم[8] ؛ ومُوَلٍّ في ميـدان الحرب أمـام الكفار ، لا يصغي لنـداء النبي ولا يهمـة إلا نفسه[9] ؛ ومسلمٍ بلسـانه دون قلبـه فخوطب بـأنّ الإيمان لم يـدخـل في قلبـه[10] ؛ وجماعـة أُلّفت قلوبهم بإعـطاء الزكـاة حتى يتّقى شرهـم[11] ؛ وخـالطٍ عملاً صالحاً بعملٍ سيّءٍ[12] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) جامع الأصول ، ج٩ ، كتاب الفضائل ، ص ٤١٠ ، الحديث ٦٣٥٩ .
(٣) لاحظ سورة التوبة : الآية ١٠٠ ، وسورة الفتح : الآية ١٦ والآية ٢٩ .
(٤) لاحظ سورة المنافقون .
(٥) سورة التوبة : الآية ١٠١ .
(٦) سورة آل عمران : الآية ١٥٤ .
(٧) سورة الحجرات : الآية ٦ .
(٨) سورة الأحزاب : الآية ١١ .
(٩) سورة التوبة : الآيات ٤٥-٤٧ .
(١٠) سورة الأنفال : الآيات ١٥-١٦ .
(١١) سورة الحجرات : الآية ١٤ .
(١٢) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

فهـذه طـوائف عشـر من الصحـابـة الـذين يمجـدهم أهـل السنة بـوصف العدالة ، وأنّ في الاقتـداء بكل واحـد منهم ، الهدايـة إلى الصراط المستقيم . ولا أظن أنّ مَنْ سبر هذه الآيات وأمعن فيها يجرؤ على ذلك الإدعاء ، بل سوف يـرجع ويقـول إنّ كثيراً ممن تشرّفوا بصحبة النبي ، ما عرفوا قَدْرهـا ، وكفروا بنعمـة الله تبارك وتعالى ، فبدلاً من أنْ يستثمـروا هـذه النعمة ، فيكـونوا في الجبهـة والسنام من العدالة ، وخسروا أنفسهم وخسروا غيرهم ممن تبعهم .

إنّ التشرف بصحبـة النبي لم يكن بأشـدّ ولا أقـوى من صحبـة إمـرأة نـوح وامرأة لـوط لزوجيهما ، فما أغنتاهما عن الله شيئـاً ، قال سبحـانه : ﴿ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً للَّذِينَ كَفَروا امْرأةَ نوحٍ وامْرأةَ لوطٍ كـانتا تَحْتَ عَبْـدَيْنِ مِنْ عبادنـا صالِحِـينَ فَخَانَتَاهُما فلم يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وقيلَ ادْخلا النّارَ مع الداخلين ﴾(١) .

وإن التشرف بصحبة النبي لم يكن أكثـر امتيازاً وتأثيراً من التشرف بالـزواج من النبي وقـد قـال سبحـانـه في أزواج النبي : ﴿ يـا نِسـاء النبي من يَـأْتِ مِنْكُنّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعِفُ لَها العَذابُ ضِعْفَـيْنْ ، وكان ذلـك على الله يَسِيـراً ﴾(٢) . وليس الخـطاب من قبيل إيـاكَ أعني واسمعي يا جـارة ، بل الخـطاب خـاص بهنّ بشهادة قوله : ﴿ يضاعَفْ لهـا العَذابُ ضِعْفَـيْنْ ﴾ ، فإن غـيرهن لا يضاعف لهن العذاب .

إنّ تأثير الصحبة لم يكن تأثيراً كيميائياً ، كتأثير بعض المواد في تحويل عنصر كالنحاس إلى عنصر آخر كالذهب ، بل كان تأثـيرها تـأثيراً شبيهـاً بتأثـير المعلم في التلميذ ، والمرشد في المسترشد ، ومن المعلوم أن مثل هذا يؤثّر في جمـع من الأمّة لا في كلهم . فمن البعيـد جداً أن يكـون للصحبة ثـورة عارمـة في قَلْب شخصيـات الصحابة التي نشأت وترعـرعت في العصر الجاهـلي ، وتربت عـلى السنن السيئة ، إلى شخصيات تُعَدّ مُثُلاً للفضل والفضيلة ، من دون أن يشذّ منهم شاذ ، فتصبح الألوف المؤلّفة التي تربو على مائةِ ألف مع اختلافهم في الأعمار والقابليات ، رجالاً

---

(١) سـورة التحريم : الآية ١٠ .

(٢) سـورة الأحزاب : الآية ٣٠ .

عدولاً يستدر بهم الغمام ويؤتمر بهم في العقائد والشرائـع ، وغير ذلـك من مجالات الإقتداء .

٢ ـ إن السنة المتضافرة عن النبي الأكرم ، على ارتداد الصحابة بعـده ، تردّ كون كل واحد منهم نجماً لامعاً يقتدى به . ومؤلفوا الصحاح ، وإن أفردوا أبـواباً في فضائل الصحابة ، إلا أنّهم لم يفردوا باباً بل ولا عنواناً في مثـالبهم ، وإنما لجـأوا إلى إقحام ما ورد من النبي في هذا المجال ، في أبواب أخر ستراً لمثالبهم ، فذكرهـا البخـاري في الجزء التـاسع من صحيحـه في بـاب الفتن ، وأدرجهـا ابن الأثـير في جـامعه في أبـواب القيامـة عند البحث عن الحـوض . كـل ذلـك سـتـراً لأفعـالهم وأوصافهم غير المرضية .

ولكن الصبح لا يخفى على ذي عيني ، ففيـها أوردوا من الأحاديث في هاتيك الأبواب شاهدٌ على أنّ صحابة النبي لم يكونوا مرضيين بل أنّ كثيراً منهم ارتدوا على أدبارهـم القهقرى .

روى البخاري ومسلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يَرِدُ عليّ يوم القيامة رهط من أصحـابي ـ أو قال : من أمتي ـ فيحلئـون عن الحوض ، فـأقول : « يا ربّ ، أصحابي » . فيقول : « إنه لا علـم لك بما أحدثوا بعـدك ، أنهم ارتدوا على أدبارهـم القهقرى » .

وفي بعض النصوص أنّ الناجي منهم ليس إلا همـل النعم ، وهو كنـاية عن العدد القليل .

هـذا قليل من كثـير ، ذكرنـاه ، وكفى في تنديـد النبي بهم قولـه : « سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي »[١] .

٣ ـ إنّ التاريخ المتواتر يشهد على ظهـور الفسق من الصحابـة في حياة النبي وبعده ، وهذا الوليد بن عقبة نزل في حقه قوله سبحانه : ﴿ إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَاءٍ فَتَبَيّنـوا ﴾[٢] ويشهد التـاريخ عـلى أنّه شرب الخمـر ، وقام ليصـلي بالنـاس صلاة

(١) لاحظ في الوقوف على هذه الأحاديث ، جامع الأصول ، لابن الأثير ، ج ١١ ، كتاب الحوض ، في ورود الناس عليه ، ص ١٢٠-١٢١ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ٦ .

الفجر ، فصلى أربع ركعات ، وكان يقول في ركوعه وسجوده : إشربي واسقيني . ثم قاء في المحراب ، ثم سلّم ، وقال : هل أزيدكم إلى آخر ما ذكروه (١) .

وهذا البخاري يروي مشاجرة سعد بن معاد ، سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، في قضية الإفك ، فقد قال سعد بن عبادة لابن عمه : كذبت لعمرو الله . وأجابه ابن العم بقوله : كذبت لعمرو الله ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين (٢) .

أوَ لا تعجب أنّ هؤلاء يصف بعضهم بعضاً بالكذب والنفاق ، ونحن نقول إنهم عدول صلحاء . والإنسان على نفسه بصيرة .

إنّ الحروب الدائرة بين الصحابة أنفسهم لأقوى دليل على أنهم ليسوا جميعاً على الحق ، فقد ثاروا على عثمان بن عفان وأجهزوا عليه . فكيف يمكن أن يكون القاتل والمقتول كلاهما على الحق والعدالة .

وهذا هو طلحة وذاك الزبير ، جهّزا جيشاً جراراً لمحاربة الإمام ، وأعانتهما عائشة ، التي أمرت مع سائر نساء النبي بالقرار في بيوتهن وعدم الظهور والبروز .

وهذا خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، الباغي على الإمام المفترض الطاعة بالنص أوّلاً ، وبَيْعة المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ثانياً ، فاهدر دماءً كثيرة لا يحصيها إلّا الله سبحانه .

ومن العذر التافه تبرير أعمالهم الإجرامية بأنهم كانوا مجتهدين في أعمالهم وأفعالهم ، مع أنه لا قيمة للإجتهاد أمام النص وإجماع الأمة ، ولو كان لهذا الإجتهاد قيمة ، لما وجدت على أديم الأرض مجرما غير معذور ، ولا جانياً غير مجتهد ؛ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أفْواهِهِم إن يقولونَ إلا كَذِباً ﴾(٣) .

هذا قُدامه بن مظعون ، صحابي بدري شرب الخمر ، وأقام عليه عمر

---

(١) الكامل لابن الأثير ، ج٢ ، ص٤٢ ، وأسد الغابة ، ج٥ ، ص ١٩٠ .
(٢) صحيح البحاري ، ج٥ ، ص ١١٨ في تفسير سورة النور .
(٣) سورة الكهف : الآية ٥ .

الحد[1] .

وهؤلاء الصحابة الذين خضبوا وجه الأرض بالدماء ، فاقرأ تاريخ بسر بن أرطأة ، فإنه قتل مئات من المسلمين ، وما نقم منهم إلا أنّهم كانوا يحبون علي بن أبي طالب ، ولم يكتف بذلك حتى قتل طفلين لعبيد الله بن عباس[2] .

٤ ـ أن تشبيه الصحابة بالنجوم ، وأن الاقتداء بكل واحد منهم سبب للإهتداء ، يعرب عن أنّ القائل يعتمد في ذلك على الذكر الحكيم ، فإنّه سبحانه قال : ﴿ وَبِالنَّجمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ . ولكن شتان ما بين المشبه والمشبه به ، إذ ليس كل نجم هادياً للضالّ ، وإلا لقال تعالى : « وبِالنجومِ هُمْ يَهْتَدُونَ » . فأيّ معنى ـ عندئذٍ ـ لهذا التشبيه .

٥ ـ إنّ هذا الحديث موضوع على لسان النبي الأكرم ، وصرّح بذلك جماعة من أعلام أهل السُّنة .

قال أبو حيان الأندلسي ـ في معرض ردّه على الزمخشري الذي أورد هذا الحديث ـ وقوله : « وقد رضي رسول الله لأمّته إتباع أصحابه والإقتداء بآثارهم في قوله : أصحابي كالنجوم الخ » ، لم يقل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو حديث موضوع لا يصح بوجه عن رسول الله » .

ثم نقل قول الحافظ ابن حزم في رسالته في إبطال الرأي والقياس والإستحسان والتعليل والتقليد ، ما نصه : « وهذا خبر مكذوب باطل لم يصح قطّ » .

ثم نقل عن البزاز صاحب المسند قوله : وهذا كلام لم يصح عن النبي صلى الله عليه وآله ، وشرع بالطعن في سنده[3] .

ورد إبن قيم هذا الحديث وضعف أسانيده وقال رداً على من استدل في

---

(١) أسد الغابة ، ج٤ ، ص١٩٩ .

(٢) الغارات ، للثقفي ، ج٢ ، ص٥٩١ـ٦٢٨ ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ١٨٦ـ١٨٩ ، الكامل ،ج ٣ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٣) لاحظ جميع ذلك في تفسير البحر المحيط ، ج ٥ ، ص ٥٢٨ .

صحة التقليد ، بهذا الحديث : كيف استجزتم ترك تقليد النجوم التي يُهتدى بها وقلّدتم مَنْ هم دونهم بمراتب كثيرة ، فكان تقليد مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد آثر عندكم من تقليد أبي بكر، وعمر ، وعثمان ، وعلي »[1] ؟ .

وقال الذهبي في جعفر بن عبد الواحد ، ومن بلاياه ، عن وهب بن جرير ، عن أبيه عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أصحابي كالنجوم من اقتدى بشيء منه اهتدى »[2] .

كلمة الإمام زين العابدين في الصحابة

إنّ الشيعة ، تبعاً للدلائل المتقدمة ، واقتداءً بأئمتهم ، يقدّسون الصحابة الذين عملوا بكتاب الله سبحانه وسنة نبيه ، ولم يتجاوزوهما ، كما أنّهم يتبرؤون ممن خالف كتاب الله وسنة رسوله ، وفي هذا المقام كلمة مباركة للإمام زين العابدين قال في دعاء له :

«أللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته ، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته ، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته ، وانتصروا به ، ومن كانوا منطوين على محبته ، يرجون تجارة لن تبور في مودّته ، والذين هجرتهم العشائر . إذا تعلّقوا بعروته ، وانتفت منهم القربات ، إذا سكنوا في ظل قرابته ، فلا تنس اللهم ما تركوا لك وفيك ، وأرضهم من رضوانك ، وبما حاشوا الخلق عليك ، وكانوا مع رسولك ، دعاة لك إليك . واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم ، وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه ، ومن كثرت في إعزاز دينك من مظلومهم . اللّهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا »[3] .

---

(١) لاحظ أعلام الموقعين ، ج٢ ، ص٢٢٣ .

(٢) ميزان الاعتدال ، للذهبي ، ج ١ ، ص ٤١٣ .

(٣) الصحيفة السجادية الدعاء الرابع مع شرح « في ظلال الصحيفة السجادية » ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

تحليل الاستدلال بآيتين على عدالة الصحابة

وربما يستدل على عدالة الصحابة بآيتين :

الأولى : قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللّهُ عنِ المُؤْمِنِينَ إذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَة فَعَلِمَ ما في قُلوبِهم فَأنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهم وأثابَهُمْ فَتْحاً قريباً ﴾[1] فإنّ ظاهرة أنّه سبحانه رضي عنهم ، والرضا آية كونهم مطيعين غير خارجين عن الطاعة ، وليس للعدالة معنى إلا ذلك .

ويلاحظ عليه : **أولاً** : إنّ الآية نزلت في حق مَنْ بايَعَ النبي تحت الشجرة في غزوة الحديبية ، لا في حق جميع الصحابة ، وقد كانوا في ذاك اليوم ألفاً وأربعمائة .

أخرج مسلم وابن جرير وابن مردوية عن جابر رضي الله عنه ، قال : « كنّا يوم الحديبية ، ألفاً وأربعمائة ، فبايعناه ، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة ، وهي سمرة ، وقال بايعناه على أنْ لا نفر ولم نبايعه على الموت »[2] . فاقصى ما يثبته الحديث هو رضاه سبحانه عن العدد المحدود . وأين هو من رضاه سبحانه عن الآلاف المؤلفة من الصحابة .

وثانياً : إنّ ظرف الرضا مذكور في الآية ، وهو وقت البيعة حيث يقول : ﴿ لقَدْ رَضِي الله عنِ المُؤْمِنِينَ إذْ يُبايِعونَكَ ﴾ ، ومن المعلوم أنّ الرضا في ظرف خاص لا يدل على الرضا بعده إلا إذا ثبت أنّهم بقوا على الحالات التي كانوا عليها ، وهو غير ثابت . وإثباته بالإستصحاب ، أوهن من بيت العنكبوت .

وليس هذا مختصاً بهؤلاء ، فإن الإيمان والأعمال الصالحة ، إنما تفيد إذا لم يرتكب الإنسان ما يبطل أثرهما ، سواء أقلنا بالإحباط أو لا .

وثالثاً : إنه سبحانه يقول في نفس السورة : ﴿ إنّ الذينَ يُبايِعونَكَ إنّما يبايعونَ اللّه ، يدُ الله فَوْقَ أيْدِيهِمْ ، فمَنْ نَكَثَ فإنّما يَنْكُثُ على نَفْسِهِ وَمَنْ أوْفى بما

---

(١) سورة الفتح : الآية ١٨

(٢) الدر المنثور ، ج٦ ، ص ٧٤

عاهد عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتِيهِ أجراً عظيماً ﴾ [1] .

وهذا يعرب عن أنّ بعض المبايعين كانوا على مظنة النكث بما عاهدوا وبايعوا عليه ، وأن البعض الآخر كانوا على مطنة الوفاء به وإلا فلو كان الوفاء معلوماً منهم ، فما معنى هذا الترديد . وليست الآية خطاباً قانونياً حتى يقال إنها من قبيل إيّاك أعني واسْمعي يا جارة ، بل قضية خارجية مختصة بأناس معينين .

ورابعاً : إنّ السُّنّة تدل على أنّ نزول السكينة كان مختصاً بمن علم منه الوفاء ، وبالتالي يكون الرضا أيضاً مخصوصاً بهم .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَعَلِمَ ما في قُلوبِهِمْ فَأنْزَلَ السَّكينَةَ عليْهِمْ ﴾ ، قال : إنما أُنْزلت السكينة على من علم منه الوفاء »[2]

وخامساً : إنّ الرضا تعلق بالمؤمنين . ومن المعلوم أنّه بايع النبي في غزوة الحديبية جماعة من المنافقين أيضاً ، بلا خلاف . وبما أنهم كانوا مختلطين غير متميزين فلا يحكم على كل واحد بالرضا والعدالة ، إلاّ إذا ثبت أنه مؤمن غير منافق .

وكيف يمكن أنْ يكون للآية عموم أفرادي وأزماني يعمّ جميع المبايعين إلى آخر أعمالهم ، مع أنّ طلحة والزبير ممن بايعا بيعة الرضوان ، وقد وقع منهما من قتال عليّ ما خرجا به عن الإيمان وفسقا عند جمع من المسلمين ، كالمعتزلة ومن جرى مجراهم ، ولم يمنع وقوع الرضا في تلك الحال من وقوع المعصية فيها بعد ، فماذا الذي يمنع من مثل ذلك في غيرهم[3]

الآية الثانية : قوله سبحانه : ﴿ مُحَمّدٌ رسولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَاءُ على الكُفّار ، رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكّعاً سُجّداً ، يبتغون فضلاً مِنَ اللّه وَرِضْواناً سيماهُمْ في وَجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُود ، ذَلِكَ مثَلُهُمْ في التّوراة وَمَثَلُهُمْ في

---

(١) سورة الفتح : الآية ١٠

(٢) الدر المنثور ، ج٦ ، ص٧٣ .

(٣) لاحظ التبيان ، ج٩ ، ص٣٢٩

الإنْجِيلِ كَزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْأه فآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بهم الكُفّارَ ، وَعَدَ اللّهُ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجْراً عظيماً ﴾[1] .

والاستدلال مركّز على قوله : ﴿ والذينَ مَعَهُ ﴾ ، وهم موصوفون بأوصاف سبعة : ١ ـ أشداء على الكفار ، ٢ ـ رحماء بينهم ، ٣ ـ تراهم ركعاً ، ٤ ـ سجداً ، ٥ ـ يبتغون فضلاً من الله ، ٦ ـ ورضواناً ، ٧ ـ سيماهم في وجوههم من أثر السجود .

وكأنّ المستدل يستظهر من الآية أنّها بصدد بيان أنّ كل من كان مع النبي كان على هذه الصفات السبع التي لا تنفك عن العدالة ، وأنّ مضمونها قضية خارجية راجعة إلى الجماعة التي كان الزمان والمكان يجمعانهم والنبي الأكرم .

يلاحظ عليه : **أولاً** : إنّ الآية على خلاف المقصود أدلّ ، فإنها ، وإن كانت قضية خبرية بظاهرها ، ولكنها بمعنى الإنشاء ، فهي بصدد أمر من كان معه على أن يكونوا بهذه الصفات ، وهذا نحو قولك : « ولدي يصلي » ، فهو بمعنى : « صلّ يا ولد » فالآية تُزَيّف منطق من يدّعون أن الصحابة مصونون عن كل قبيح ، فهم لصحبتهم الرسول ، نبراس منير ، لأنّ الآية تحمل صورة رائعة عن سيرة الذين كانوا مع الرسول وأنّهم يجب أن يكونوا على هذه الصفات السبع ، فيكونون في سلبيّتهم (أشداء على الكفار) مثل سلبيّته ، وإيجابيتهم بينهم أنفسهم (رحماء بينهم) كإيجابيّته ، وهكذا سائر صفاتهم من الركوع والسجود وابتغاء الفضل والرضوان . والآية وإن كانت نازلة في حق جماعة خاصة كانوا مع الرسول ، ولكنها ليست قضية خبرية ، بل تحمل قضية إنشائية ، وطلباً وإيجاباً منهم لأن يكونوا على هذه الصفات السبع .

ولأجل ذلك ترى أنّه سبحانه يخصص وعد المغفرة وإعطاء الأجر العظيم . بعدة منهم ، ويقول في آخر الآية : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمنوا منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ . وهذا التبعيض والتخصيص إيعاز إلى أنّ هذه الصفات السبع ، ربما

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

تتحقق في صورها وظواهرها دون حقيقتها وواقعيتهـا التي هي الإيمان بـالله والعمل الصالح .

وثانياً : إنّه يمكن أنْ يراد من قوله : ﴿ **والذين معه** ﴾ ، غير المعية الـزمانيـة والمكانية ، حتى يقال بأنّها مختصة بصحابته المعـاصرين ، منحسرة عمن بعـده من التابعين ، وأتباعهم إلى يوم الدين ، وإنّما يراد الذين معه في رسالته الإلهية تصديقاً وإيمـاناً وتـطبيقاً ، ومعـه في حملها كـما حملها ، ومعـه في جهاده وصـبره كما جـاهـد وصبر .

وعند ذلك تعم الآية الأُمة الإسلامية جميعاً ، إلى يوم الدين ، وتكون أجنبية عن مسألة عدالة الصحابة ، وتعـرب عن أنّ من كان مـع الرسـول يجب أنْ يكون بهذه الصفات والسمات ، ومع الإيمان والعمل الصالح .

وثالثاً : إنّ الإستدلال لا يكتمل إلا بجمع الآيات الواردة في شأن الصحابة حتى يستظهر من الجميع ما هو مقصوده سبحـانه وقـد عرفت أنّ آيـات كثيرة تنـدد بأقسام عشرة من صحابة النبي والذين كانـوا معه ، وأنّهم كـانوا بـين معلوم النفاق ومخفيّه ، ومشرفين عـلى شفير هـاوية الإرتـداد ، إلى غير ذلـك من الأقسام ، ومـع ذلك كيف يمكن الإستدلال بآية وتنـاسي الآيات الأخـر . كل ذلـك يعرب عن أنّ المفسر لا يصح له اتخاذ موقف حاسم في موضـوع واحد إلا بمـلاحظة جميـع الآيات التي لها صلة به .

* * *

مباحث الخاتمة

(٣)

الشيعة وإتهامهم بتحريف القرآن

إنّ القرآن الكريم أحد الثقلين الذين تركهما النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بين الأمة الإسلامية وحث على التمسك بهما ، وأنّهما لا يفترقان حتى يردا عليه الحوض ، وقد كتب سبحانه على نفسه حفظه وصيانته وقال : ﴿ إنّا نحنُ نَزّلْنا الذِّكر وإنّا لَهُ لحافِظونَ ﴾[١] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن ، فإنّه شافع مشفع ، وماحل مصدّق ، مَنْ جعلهُ أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار »[٢] .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « إنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش ، والهادي الذي لا يضلّ »[٣] .

وقال عليه السلام : « ثم أنْزَلَ عليه الكتاب نوراً لا تُطفَأ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبو توقده ، ومنهاجاً لا يضل نهجه . . . وفرقاناً لا يُخمد برهانه »[٤] .

بل إنّ أئمة الشيعة جعلوا موافقة القرآن ومخالفته ميزاناً لتمييز الحديث

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

(٢) الكافي ، ج٢ ، ص ٢٣٨ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٧٦ .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٨ .

الصحيح من الباطل ، قال الصادق عليه السلام : « ما لم يوافق من الحديث القرآن ، فهو زخرف »[1] .

ومع ذلك كله أُتّهِمَتِ الشيعةُ ـ اغتراراً ببعض الروايات الواردة في جوامعهم الحديثية ـ بالقول بتحريف القرآن ونقصانه ، غير أنّ أقطاب الشيعة وأكابرهم رفضوا تلك الأحاديث كما رفضوا الأحاديث التي رواها أهل السنة في مجال تحريف القرآن ، وصرّحوا بصيانة القرآن عن كل نقصان وزيادة وتحريف . ونحن نكتفي فيما يلي بذكر بعض النصوص لأعلام الإمامية ، الواردة في هذا المجال :

١ ـ قال الصدوق (م ٣٨١) : « إعتقادنا في القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيّه ، هو ما بين الدفتين ، وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك ، ومن نسب إلينا أنّا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب »[2] .

٢ ـ وقال الشيخ المفيد (م ٤١٣) : « قد قال جماعة من أهل الإمامة إنه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة ، ولكن حذف ما كان ثبتاً في مصحف أمير المؤمنين من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله وذلك ثابتاً منزلاً وإن لم يكن من جملة كلام الله الذي هو المعجز ، وقد يسمى تأويل القرآن قرآناً .

قال تعالى : ﴿ **ولا تَعْجَلْ بالقُرآن مِنْ قَبْلِ أنْ يُقضى إليْكَ وَحْيُهُ وقُلْ رَبِّ زِدْني علماً** ﴾ ، فسمّى تأويل القرآن قرآناً . وعندي أنّ هذا القول أشبه بمقال من أدّعى نقصان كلم من نفس القرآن على الحقيقة دون التأويل ، وإليه أميل ، واللّهُ أسأل توفيقه للصواب وأما الزيادة فمقطوع على فسادها »[3] .

٣ ـ وقال الشيخ الطوسي (م ٤٦٠): أمّا الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به أيضاً لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها وأما النقصان منه ، فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه ، وهوالأليق بالصحيح من مذهبنا ، وهو الذي نصره المرتضى ، وهو الظاهر في الروايات . . إلى أن قال : ورواياتنا متناصرة بالحث على

---

(١) الكافي ، ح ١ ، كتاب فضل العلم ، باب الأخذ بالسنة ، الحديث ٤ .

(٢) عقائد الصدوق ، ص ٩٣ من النسخة الحجرية الملحقة بشرح الباب الحادي عشر .

(٣) أوائل المقالات ، ص ٥٥ .

قراءته والتمسك بما فيه وردّ ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع إليه ، وعرضها عليه ، فما وافقه عُمِل به ، وما خالفه تُجُنِّب ولم يُلْتَفَت إليه »(١) .

٤ ـ قال الطبرسي مؤلف مجمع البيان (م٥٤٨) : « فأما الزيادة فمجمع على بطلانها ، وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشويه أهل السنة أنّ في القرآن نقصاناً والصحيح من مذهبنا خلافه وهو الذي نصره المرتضى قدس الله روحه ، واستوفى الكلام فيه غاية الإستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيات ، وذكر في مواضع أنّ العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب ، فإن العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم تبلغه فيما ذكرناه ، لأن القرآن معجزة النبوّة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أنْ يكون مغيّراً ومنقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد(٢) .

هؤلاء هم أعلام الشيعة في القرون السابقة من ثالثها إلى سادسها ، ويكفي ذلك في إثبات أنّ نسبة التحريف إلى الشيعة ظلم وعدوان .

وأما المتأخرون فحدّث عنه ولا حرج فهم بين مصرِّح بصيانة القرآن عن التحريف ، إلى باسط القول في هذا المجال ، إلى مؤلّفٍ أفرده بالتأليف .

ونختم المقالة بكلمة قيمة للأستاذ الأكبر الإمام الخميني قال : « إنّ الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه ، قراءةً وكتابةً ، يقف على بطلان تلك المزعمة (التحريف) ، وأنّه لا ينبغي أن يركن إليها ذو مسكة ، وما ورد فيه من الأخبار ، بين ضعيف لا يستدل به ، إلى مجعول تلوح منه أمارات الجعل إلى غريب يقضي منه العجب ، إلى صحيح ، يدل على أن مضمونه تأويل الكتاب وتفسيره ، إلى غير ذلك من الأقسام التي يحتاج بيان المراد منها إلى تأليف

---

(١) التبيان ، ج١ ، ص ٣ .

(٢) مجمع البيان ، المقدمة ، الفن الخامس ، ولاحظ بقية كلامه .

كتاب حافل ، ولولا خوف الخروج عن طور البحث لأوضحنا لـك أنّ الكتاب هـو عين ما بين الدفتين وأنّ الاختلاف في القراءة ليس إلّا أمراً حديثاً لا صلة له لما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين »[١] .

تحريف القرآن في روايات الفريقين

روى الفريقان روايـات في تحريف القـرآن ، وقد قـام أخيراً أحـد المصريين بتأليف كتاباً اسماه « الفرقان » ، ملأه بكثير من هـذه الروايـات . كما أنّ المحـدث النوري ألف كتابـاً باسم « فصـل الخطاب » أودع فيـه روايات التحـريف ، وليس هـذا وذاك أوّل من نقـل روايـات التحـريف ، بـل هي مبثـوثـة في كتب التفسـير والحديث . وهذا هو القرطبي يقول في تفسير سورة الأحزاب : أخرج أبو عبيـد في الفضائل ، وابن مردويه ، وابن الأنباري عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي ماءتي آية ، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلّا على ما هو الآن »[٢]

وهذا هو البخاري ، يروى عن عمر قوله : « لولا أنْ يقـول الناس إنّ عمـر زاد في كتاب الله ، لكتبت آية الرجم بيدي »[٣] .

وغير ذلك من الروايات التي نقل قسماً منها السيوطي في الإتقان[٤] .

ومع ذلك فنحن نُجلّ علماء السنّة ومحققيهم عن نسبة التحريف إليهم ، ولا يصح الإستدلال بـالروايـة على العقيـدة ، ونقول مثـل هذا في حق الشيعـة ، وقد تعرفت على كلمات الأعاظم منهم في العصور المتقـدمة ، وعـرفت أنّ الشيخ المفيـد يحمل هذه الروايات على أنّها تفسير للقرآن ، وأنّ ما يـدلّ على التحـريف بالـدلالة المطابقية يضرب به عرض الجدار .

---

(١) تهذيب الأصول ، تقريراً لأبحاث الإمام الخميني في أصول الفقه ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٢) تفسير القرطبي ، ج١٤ ، ص ١١٣ ، ولاحظ الدر المنثور ، ج٥ ، ص ١٨٠ .

(٣) صحيح البخاري ، ج٩ ، باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء ، ص ٦٩ ، ط مصر .

(٤) الإتقان ، ج ٢ ، ص ٣٠

إنّ المحقق الأستاذ الشيخ جواد البلاغي تدارس الروايات ، فخرج بهذه النتيجة وهي أنّ القسم الوافر منها يرجع أسانيده إلى بضعة أشخاص وصفوا في علم الرجال بالصفات التالية :

١ ـ ضعيف القول ، فاسد المذهب ، مجفو الرواية .

٢ ـ مضطرب الحديث والمذهب ، يعرف حديثه وينكر ، ويروي عن الضعفاء .

٣ ـ كذاب متّهم ، لا تستحل رواية حديث واحد من أحاديثه .

٤ ـ غال كذّاب .

٥ ـ ضعيف لا يلتفت إليه ولا يعوّل عليه ومن الكذابين .

٦ ـ فاسد الرواية يرمى بالغلو .

ومن المعلوم أنّ رواية هؤلاء لا تجدي شيئاً ، وإن كثرت وعالت ، وأمّا المراسيل فهي مأخوذة من تلك المسانيد .

هذا بعض القول في تنزيه الشيعة بل المسلمين عامة عن وصمة التحريف ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الرسائل المؤلفة في هذا الموضوع[1] .

* * *

---

(١) لاحظ مقدمة تفسير آلاء الرحمن للعلامة البلاغي ، ج ١ ، ص ٢٦ . وتفسير الميزان ، ج ١٢ ، ص ١٠٦ ، ١٣٧ ، وتفسير البيان للمحقق الخوئي ، ص ٢١٥ ـ ٢٥٤ . وإظهار الحق للعلامة الهندي ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، فإن فيها كفاية وغنى لطالب الحق .

مباحث الخاتمة

(٤)

المتعة في الكتاب والسنة

حقيقة نكاح المتعة ، تزويج المرأة الحرة الكاملة ، إذا لم يكن بينها وبين الزوج مانع من نسب أو سبب أو رضاع أو إحصان أو عدّة أو غير ذلك من الموانع الشرعية ، بمهر مسمى ، إلى أجل مسمى ، بالرضا والإتفاق ، فإذا انتهى الأجل تَبين منه من غير طلاق . ويجب عليها مع الدخول بها ـ إذا لم تكن يائسة ـ أن تعتد عدة الطلاق إذا كانت ممن تحيض ، وإلّا فبخمسة وأربعين يوماً . وولد المتعة ، ذكراً كان أو أنثى يلحق بالأب ، ولا يدعى إلّا له ، وله من الإرث ، ما أوصانا الله به سبحانه في آية المواريث من أنّ للذكر مثل حظّ الأنثيين، كما يرث من الأُم ، وتشمله جميع العمومات الواردة في الأبناء والآباء والأُمهات ، وكذا العمومات الواردة في الأُخوة والأخوات ، والأعمام والعمّات .

وبالجملة المتمتع بها زوجة حقيقة ، وولدها ولد حقيقة ، ولا فرق بين هذا الزواج والزواج الدائم ، إلّا أنّه لا توارث بين الزوجين ولا قسم ولا نفقة لها ، كما أنّ له العزل عنها ، وهذه الفوارق الجزئية ، فوارق في الأحكام لا في الماهية ، والماهية واحدة ، غير أنّ أحدهما مؤقّت والآخر غير مؤقت ، وأنّ الأول ينتهي بانتهاء الوقت ، والثاني ينفصم بالطلاق أو بالفسخ .

وقد أجمع أهل القبلة على أنّه سبحانه شرع هذا النكاح في دين الإسلام في صدره ، ولا يشك أحد ولا يتردد في أصل مشروعيته ، وإنّما وقع الكلام في نسخه أو بقاء مشروعيته .

وأوضح دليل على مشروعيته في صدر الإسلام ، نَهْي عمر عنها حيث قال : مُتْعتان كانتا على عهد رسول الله حلالاً ، وأنا أُحَرِّمُهُما ، وأعاقب عليهما : إحداهما متعة النساء . . . والأُخرى متعة الحج[1] . فإنّ النهي إمّا كان إجتهاداً من عمر كما هو ظاهر كلامه ، أو كان مستنداً إلى نصّ من رسول الله كما وُجِّه به كلامـه . وعلى كلا التقديرين ، يدلّ على جوازه في فترة خاصة ، وهذا واضح لمن أَلَمّ بفقه المذاهب الإسلامية .

والأصل في ذلك قوله سبحـانه : ﴿ وحـلائِلُ أبنـائِكُمُ الذينَ مِنْ أَصْـلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُـوا بَـيْنَ الأُخْتَـيْنِ إلَّا مـا قَـدْ سَلَفَ ، إنّ الله كـان غفـوراً رَحيمـاً * والمُحْصَنـاتُ من النِّساءِ إلّا مَـا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ كِتـابَ الله عَلَيْكُمْ ، وأُحِـلَّ لَكُمْ مـا وراءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغوا بأموالِكُمْ مُحْصنينَ[2] غَيْرَ مُسافِحـينَ ، فَما آسْتَمْتَعْتُمْ بِـهِ مِنْهُنّ فآتوهُنّ أُجورَهُنّ فَريضَةً ، ولا جُناحَ عَلَيْكُمْ فيما تَراضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ آلفَـرِيضَةِ إنّ الله كان عليماً حكيماً ﴾[3] .

دلالة الآية على المُتْعَة

وقد ذَكَرَتْ أُمَّةٌ كبيرةٌ من أهل الحديث والتفسير نزول الآيـة في مورد المتعـة ، أو جعلوا نزولها فيها أقوى الإحتمالين نشير إلى بعضهم :

١ ـ إمام الحنابلة أحمد بن حنبل (م ٢٤١) في مسنده[4] .

٢ ـ أبو جعفر الطبري (م ٣١٠) في تفسيره[5] .

٣ ـ أبو بكر الجصّاص الحنفي (م ٣٧٠) في أحكام القرآن[6] .

---

(١) سنن البيهقي ، ج ٧ ، ص ٢٠٦ .

(٢) المراد من الإحصان هـو إحصان التعفف لا إحصـان التزوّج . أي متعففـين لا متزوجـين ومن فسّره بإحصان التـزوُّج فقد أخـطأ . ويشهد لمـا ذكرنـا من التفسير قـوله : ﴿ غَـيْرَ مسافِحـينَ ﴾ أي غير زانين .

(٣) سورة النساء : الآيتان ٢٣ و ٢٤ .

(٤) مسند أحمد ، ج ٤ ، ص ٤٣٦ .

(٥) تفسير الطبري ، ج ٥ ، ص ٩ .

(٦) أحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٧٨ .

٤ ـ أبو بكر البيهقي (م ٤٥٨) في السنن الكبرى[١] .

٥ ـ محمود بن عمر الزمخشري (م ٥٣٨) في الكشّاف[٢] .

٦ ـ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي (م٥٦٧) في تفسيره[٣] .

٧ ـ أبو عبد الله فخر الدين الرازي الشافعي (م ٦٠٦) في تفسيره[٤] .

٨ ـ أبو الخير القاضي البيضاوي (م ٦٨٥) في تفسيره[٥] .

٩ ـ علاء الدين البغدادي (م ٧٤١) في تفسيره[٦] .

١٠ ـ الحافظ عماد الدين إبن كثير الدمشقي (م ٧٤٥) في تفسيره[٧] .

١١ ـ جلال الدين السيوطي (م ٩١١) في الدر المنثور[٨] .

١٢ ـ أبو السعود العمادي الحنفي (م ٩٨٢) في تفسيره[٩] .

١٣ ـ القاضي الشوكاني (م ١٢٥٠) في تفسيره[١٠] .

١٤ ـ شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (م ١٢٧٠) في تفسيره[١١] .

وينتهي نقل هؤلاء إلى أُناس أمثال إبن عباس وأُبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود ، وعمران بن حصين ، وحبيب بن أبي ثابت وسعيد بن جبير ، وقتادة ومجاهد ، كما أنّ ناقل هذه الروايات رجال الحديث والتفسير كما عرفت ، فلا يمكن إتهامهم بالوضع والجعل ، هذا حسب أسباب النزول .

---

(١) السنن الكبرى ، ج ٧ ، ص ٢٠٥

(٢) الكشاف ، ح ١ ، ص ٣٦٠ .

(٣) تفسير القرطبي ، ج ٥ ، ص ١٣٠ .

(٤) مفاتيح الغيب ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .

(٥) تفسير البيضاوي ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

(٦) تفسير الخازن ، ح ١ ، ص ٣٥٧ .

(٧) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٧٧٤ .

(٨) الدر المنثور ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .

(٩) هامش تفسير الرازي ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .

(١٠) تفسير الشوكاني ، ج ١ ، ص ٤١٤ .

(١١) روح المعاني ، ج ٥ ، ص ٥ .

ثم إنّ هنـاك قرائن تؤيّـد كون المـراد من قولـه : ﴿ فـما آسْتَمْتَعْتُمْ بِـهِ مِنْهُنّ فآتوهُنّ أُجورَهُنّ ﴾ ، نكاح المتعة ، وهي :

١ ـ أنّ جماعة من عـظماء الصحابـة كعبد الله بن عبـاس وجابـر بن عبد الله الأنصـاري وعمـران بن حصـين ، وابن مسعـود وأُبي بن كعب ، كـانـوا يفتـون بإباحتها ، ويقرؤون الآية هكذا : ﴿ فَما آسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ (إلى أَجل مُسَمّىً) ، فـآتـوهُنّ أُجـورَهُنّ ﴾ . وهـذا صريـح في نكـاح المتعـة ، ومن المعلوم ـ ولا يحتمل غيره ـ أن ليس مـرادهم سقوط هـذه الجملة من الذكـر الحكيم ، بل المـراد بيان معنى الآية على نحو التفسـير الذي أَخـذوه من الصادع بـالوحي ، ومن أُنـزل عليـه ذلك الكتـاب صلى الله عليـه وآله . ومن زعم أنّ هـذه الجملة عند هؤلاء ، جزء القرآن فقد أخطأ .

٢ ـ إنّ الإسنمتاع في الآية ظاهر في هذا النوع من الزواج ، وقد كان معروفاً في صدر الإسلام بالمتعة والتمتع ، فلا بد أن يحمل على هذا النـوع من النكاح ، لا على المعنى اللغوي الموجود في الزواج الدائم والمنقطع .

٣ ـ إنّ النكـاح الدائم قـد مرّ تشريعـه في صدر السـورة حيث قال تعـالى : ﴿ فانْكِحوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وثُلاثَ ورُبَـاعَ ﴾(١) ولا وجه لتكـراره . وتوهم أنّ وجه التكرار هو تبيين حكم صَداقِهِن الوارد في قولـه : ﴿ أُجورهنّ ﴾ ، مـدفوع بـأنّه مـرّ بيانـه أيضاً ، في صـدر السورة ، عنـد قولـه : ﴿ وآتـوا النّسـاءَ صَدُقاتِهِنّ نِحْلَةً ﴾(٢)، بل جاء بيانه أيضـاً قبل هـذه الآية بقليـل ، في قولـه تعالى : ﴿ وإنْ أَرَدتُّمْ آسْتِبْدالَ زَوْجٍ مكانَ زَوْجٍ وآتَيْتُمْ إحْداهُنّ قِنطاراً فـلا تأْخـذوا مِنْهُ شيئاً ﴾(٣) .

ولا يصـحّ جعـل هـذه الفقـرة تـأكيـداً لقـولـه : ﴿ وَإنْ أَرَدْتُّمْ آسْتِبْـدالَ زَوْجٍ ﴾ ، لأنّ الآية السابقة آكد بياناً من هذه الآية .

---

(١) سورة النساء : الآية ٣ .

(٢) سورة النساء : الآية ٤ .

(٣) سورة النساء : الآية ٢٠ .

٤ ـ إنّ الآية تُفَرّع وجوب دفع الأُجور على الإستمتاع وهو يناسب الزواج المنقطع ، الذي هو المطلوب فيها ، وأمّا المهر في النكاح الدائم فهو يملك بنفس العقد ، غير أنّه لو طلق قبل المسّ يسقط النصف .

٥ ـ ما تضافر نقله عن بعض الصحابة والتابعين من دعوى كون الآية منسوخة ببعض الآيات ، فلو لم تكن الآية واردة في مورد المتعة فما معنى إدعاء النسخ .

وهذه القرائن لا تدع للآية ظهوراً إلاّ في العقد المنقطع .

ثم إنّ صاحب المنار أصرّ على أنّ المراد من الآية هو النكاح الدائم ، واستدلّ بأنّ المتمتع بالنكاح المؤقت لا يقصد الإحصان دون المسافحة ، بل يكون قصده المسافحة ، فإنّ كان هناك نوع ما من إحصان نفسه ، ومنعها من التنقل في دمن الزنا ، فإنّه لا يكون فيه شيء ما من إحصان المرأة التي تؤجّر نفسها كلّ طائفة من الزمن لرجل ، فتكون كما قيل :

كرة حذفت بصوالجة ـــ فتلقفها رجل رجل[1] .

يلاحظ عليه أنّه جعل السفاح في قوله : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مسافِحينَ ﴾ ، بالمعنى اللغوي ، وهو صَبُّ الماء وسفحه على الأرض ، ومن ثَمّ جعل العقد المنقطع مصداقاً له ، فصارت الآية ناهية عنه ، وظاهرة في العقد الدائم .

لكن عزب عنه أنّ المراد من السفح هنا ، هو الزنا لا المعنى اللغوي ، والآية تؤكّد على أنّ الطريق المشروع في نيل النساء ومباشرتهن ، هو النكاح لا الزنا ، والزواج لا السفاح ، وتدعو المؤمنين إلى التزوج لا الفجور . فتفسير ﴿ غَيْرَ مسافِحينَ ﴾ بالمعنى اللُّغوي ، لا يناسب مفاد الآية .

والعجب أنّه غفل عن أنّ السفح ، بمعنى صبّ الماء ، مشترك بين الدائم والمنقطع والزنا ، فلو أخذ به لم يبق مورد لمقابله ، أعني قوله تعالى : ﴿ مُحْصِنِينَ ﴾ .

---

(١) المنار ، ج ٥ ، ص ١٣ .

توضيح ذلك أنّ الآية تحرض على أمر مشروع وهو قوله : ﴿ **محصنين غير مسافحين** ﴾ ، وتنهى عن مقابله ، الذي يعدّ مفهوماً للآية ، فلو قلنا بأنّ المراد من السفح في الآية ، هو صبّ الماء ، وهو مشترك بين الدائم والمنقطع والزنا ، لم يبق لقوله محصنين مصداق ومورد .

وإنْ خُصّ بالزنا ، كما هو الحق ، يدخل الدائم والمنقطع تحت قوله : ﴿ **مُحْصِنينَ** ﴾ ، ويبقى الزنا تحت قوله : ﴿ **مسافِحين** ﴾ .

ثم إنّ الإحصان الذي يراد منه التعفف والإجتناب عن الزنا ، يحصل بالدائم والمنقطع معاً ، فتخصيصه بالأول غفلة عن حقيقة العقد المنقطع .

وما في آخر كلامه من تشبيه المرأة المتمتع بها ، بِكُرَةٍ تحذف بصوالجة مختلفة ، يتلقاها رجل عن رجل ، جسارة على التشريع الإلهي ، إذ لا شك أنّ النبي الأكرم سوّغ المتعة مدة ، ولو في أمر قصير ، وإنّما اختلفت الأمّة في نسخه وعدمه . وعلى فرض النسخ ، اختلفوا في زمانه ، فهل يصحّ لنا التعبير عن سنّة النبي ، الذي لا يصدر إلاّ عن الوحي الإلهي ، بهذا الشعر المبتذل ، وما هو إلاّ لضعف البصيرة وقلة المعرفة .

وربما يقال في تخصيص الآية بالنكاح الدائم أنّ الهدف من تشريع النكاح هو تكوين البيت وإيجاد النسل والولد ، وهو يختص بالنكاح الدائم ، دون المنقطع الذي لا يترتب عليه إلاّ إرضاء القوة الشهوية ، وصبّ الماء وسفحه .

ولا يخفى أنّه خَلْطٌ بين الموضوع والفائدة المترتبة عليه ، وما ذكر إنّما هو من قبيل الحكمة ، وليس الحكم دائراً مدارها ، ضرورةَ أنّ النكاح صحيح وإن لم يكن هناك ذلك الغرض ، كزواج العقيم واليائسة والصغيرة ، بل أغلب المتزوّجين في سن الشباب بالزواج الدائم لا يقصدون إلاّ قضاء الوطر واستيفاء الشهوة من طريقها المشروع ، ولا يخطر على بالهم طلب النسل أصلاً وإن حصل لهم قهراً ، ولا يقدح ذلك في صحة زواجهم .

ومن العجب حصر فائدة المتعة في قضاء الوطر ، مع أنّها كالدائم قد يقصد منها النسل والخدمة وتدبير المنزل وتربية الأولاد والإرضاع والحضانة .

ونسأل المانعين الذين يتلقون نكاح المتعة ، مخالفاً للحكمة التي لأجلها شرع النكاح ، نسألهم عن الزوجين الذين يتزوجان نكاح دوام ، ولكن ينويان الفراق بالطلاق بعد شهرين ، فهل هذا النكاح صحيح أو لا ؟ ، لا أظن أنّ فقيهاً من فقهاء الإسلام ، يمنع ذلك ، وإلاّ فقد أفتى بغير دليل ولا برهان . فيتعين الأول ، فأي فرق يكون حينئذٍ بين المتعة وهذا النكاح الدائم سوى أنّ المدة مذكورة في الأول ، دون الثاني .

يقول صاحب المنار : « إنّ تشديد علماء السلف والخلف في منع المتعة يقتضي منع النكاح بنية الطلاق ، وإنْ كان الفقهاء يقولون إنّ عقد النكاح يكون صحيحاً إذا نوى الزوج التوقيت ، ولم يشترطه في صيغة العقد ، ولكن كتمانه إيّاه يعد خداعاً وغشّاً وهو أجدر بالبطلان من العقد الذي يشترط فيه التوقيت »[1] .

أقول : نحن نفرض أنّ الزوجين رضيا بالتوقيت لبّاً ، حتى لا يكون هناك خداع وغشّ ، فهو صحيح بلا إشكال .

الآية غير منسوخة

ثم إنّ جماعة من المفسّرين والمحدّثين بعدما سلّموا نزول الآية في المتعة ودلالتها على مشروعيتها ، تخلّصوا عن القول بمشروعيتها الناسخة إلى أقوال :

فبين قائلٍ بأنّها منسوخة ببعض الآيات ، وقائلٍ بأنّها منسوخة بالسنة ، والقائلون بكونها منسوخة بالقرآن اختلفوا بدورهم في الآيات الناسخة ، كما أنّ القائلين بأنّها نُسخت بالسنّة اختلفوا كذلك في زمن النسخ اختلافاً كثيراً وهذه الإختلافات ، مع قرائن من التاريخ والسنّة ، تدلّ على عدم وقوع النسخ :

أ ـ الخلاف في الآيات الناسخة

ممّا يدلّ على عدم نسخ آية المتعة ، خلافهم في الآيات التي نسختها، إلى أقوال ، لا يفي أيٌّ منها بالمدّعىٰ :

---

(١) المنار ، ج ٣ ، ص ١٧ .

القول الأول : إنّ الناسخ قوله سبحانه : ﴿ والذينَ هُمْ لِفُروجِهِمْ حافِظونَ * إلاّ على أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فإنَّهُمْ غَيْرُ ملومينَ * فَمَنِ ٱبْتَغى وراءَ ذلكَ فأُولئِكَ هُمُ العادونَ ﴾(١) .

وقد عزب عن القائل أنّ هذه الآية مكيّة ، وآية المتعة مدنية ، ولا معنى لناسخية آية لحكم لم يُشَرّع بعد .

أضف إليه أنّ نكاح المتعة داخل في الشقّ الأول ، أعني قوله : ﴿ إلاّ على أزواجهم ﴾ .

القول الثاني : إنّها منسوخة بآية العدة ، وهي قوله تعالى : ﴿ يا أيّها النبي إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ، فطلّقوهُنّ لِعِدّتِهِنّ ﴾(٢) حيث تدلّ على أنّ انفصال الزوجين إنّما يحصل بطلاق وعِدّة ، والمتعة ليس فيها عدّة ولا طلاق .

وهذا من غرائب الأقوال ، وذلك أنّ القول بعدم العدّة في المتعة ناش من الجهل بأحكامها ، فإنّ فيها العدة كالدائم غير أنّ عدتها حيضتان لمن تحيض وخمس وأربعين يوماً لمن لا ترى الحمرة وهي في سنّ من تحيض .

وأمّا الطلاق ، فلم يدلّ دليل على أنّه وسيلة الفراق الوحيدة لكل زواج ، وإنّما ينحصر دليل الطلاق بالنكاح الدائم .

القول الثالث : إنّها منسوخة بآية الميراث حيث لا ميراث في المتعة .

يلاحظ عليه إنّ الميراث من أحكام الزواج ، ونفي حكم في مورد ، لا يدلّ على انتفاء الموضوع ، فالمتمتع ، بها زوجة يترتب عليها آثار الزوجية إلاّ ما خرج بالدليل ، وانتفاء أثرٍ ما لا يدل على فقدان الموضوع . مثلاً النفقة من أحكام الزوجية والناشزة لا نفقة لها ومع ذلك فهي زوجة . والكافرة ، والقاتلة والمعقود عليها في المرض إذا مات زوجها فيه قبل الدخول ، زوجات ، ولكن لا يرثن . بل

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ٥ ـ ٧ .

(٢) سورة الطلاق ، الآية الأولى ، ونظيره قوله تعالى ﴿ والمُطَلّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأَنْفُسِهِنّ ثلاثَةَ قروءٍ ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٢٨) .

قد تتحقق الوراثة من دون أنْ تكون هنـاك زوجية ، كما إذا طلّق الرجـل زوجته في مرض موته ، وخرجت عن العـدة ، فمات الـزوج إلى سنة من الـطلاق ، فترثـه ، وليست بزوجة . فبين الزوجية والوراثة عموم وخصوص من وجه .

ب ـ الخلاف في زمن النسخ

وممّا يدلّ على عدم النسخ اختلافهم في زمن نسخه إلى أقوال شتّى :

١ ـ أنّها أُبيحت ثم نهي عنها عام خيبر .

٢ ـ ما حلّت إلاّ في عمرة القضاء .

٣ ـ كانت مباحة ونهي عنها في عام الفتح .

٤ ـ أُبيحت عام أوطاس ثم نهي عنها(١) .

وهذه الأقوال تنفي الثقة في وقوع النسخ .

على أنّ القول بنسخ الكتاب بأخبار الآحاد ممنوع جداً ، وقد صحّ عن عمران بن الحصين أنّه قال : إنّ الله أنزل المتعة وما نسخها بآية أُخرى ، وأمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالمتعة وما نهانا عنها ، ثم قال رجل برأيه ، يريد به عمر بن الخطاب(٢) .

ج ـ قرائن أخرى على عدم النسخ

لكن هناك قرائن قطعية تدلّ على عدم النسخ وكفى في ذلك ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال : كنّا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق ، لأيام ، على عهد رسول الله وأبي بكر ، وحتى (ثم) نهى عنه عمر في شأن عمرو بن حريث(٣) .

---

(١) راجع في الوقوف على مصادر هذه الأقوال : كتاب الغدير ، ج ٦ ، وأصل الشيعة وأُصولها ، ص ١٧١ . والأقوال في الثاني أكثر ممّا ذكرنا .

(٢) التفسير الكبير للرازي ، ج ١٠ ، ص ٥٣ . الإرشاد ،ج ٤ ، ص ١٦٩ فتح الباري ، ج ٤ ، ص ٣٣٩ ، وجاء في بعض نسخ البخاري ، كما نص عليه العسقلاني

(٣) صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

وقد تضافر عن عليّ أنّه سُئِل عن آية المتعة ، أمنسوخة ؟ قال : لا . وقال : لولا نهي عن المتعة ما زنى إلاّ شقي[١] .

أضف إلى ذلك ما تضافر من الروايات الدالّة على أنّ عُمَر هو الذي نهى عن المتعة بعد تسنمه الخلافة ، وقد أسند النهي إلى نفسه بقوله : إنّ رسول الله هذا الرسول ، وإنّ القرآن ، هذا القرآن ، وإنّهما متعتان على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما ، وأُعاقب عليهما ، إحداهما متعة النساء ، ولا أقدر على رجل تزوج إمرأة إلى أجل إلاّ غيبته بالحجارة ، والأُخرى متعة الحج[٢] .

وأقصى ما يمكن أنْ يقال إنّ الخليفة رأى مصلحة في زمانه وأيامه ، اقتضت أن يمنع من المتعة منعاً سياسياً لا دينياً ولذا قال : « وأنا أُحرّمهما وأُعاقب عليهما » ، ولم يقل : « إنّ رسول الله حرّمَهُما أو نسخهما » ، بل نسب التحريم إلى نفسه ، وجعل العقاب عليها منه لا من الله . ومن المعلوم أنّ المنع السياسي يكون منعاً مؤقّتاً تابعاً لمصلحة الزمان ، فإذا انقلبت المصلحة إلى غيرها ، يرتفع النهي .

فالحق أنّ المتعة سنّة إسلامية أمر بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم بوحي من الله سبحانه ليسدّ بذلك طريق الزنا وأنّ الحكمة الإلهية في إكمال الشريعة تقتضي تسويغ هذا النوع من الزواج ، فالمسافرون ولا سيما من تطول أسفارهم في طلب علم أو تجارة أو جهاد ، أو مرابطة في ثغرٍ ، وهم في ميعة الشباب وريعان العمر ، وتأجج سعير الشهوة ، لا يخلو حالهم من أمرين : أما الصبر ومجاهدة النفس الموجب للمشقة ، التي تنجر إلى الوقوع في أمراض مزمنة ، وعلل مهلكة ، وفيه إلقاء في العسر والحرج وعظيم المشقة ، ممّا تأباه شريعة الإسلام السمحة السهلة ، ﴿ يُريدُ الله بِكُمُ اليُسْرَ ، ولا يُريدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾[٣] ، ﴿ ما يُريدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٤] .

وإمّا الوقوع في الزنا والعهر والتوغل في المفاسد .

---

(١) تفسير الطبري ، ج ٥ ، ص ٩ .

(٢) سنن البيهقي ، ج ٧ ، ص ٢٠٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٦ .

فما هو تكليف الشاب المغترب الذي لا يقدر على الزواج الدائم ، وأيُّها يختار ، يا قادة المسلمين ويا رجال الإصلاح ؟ .

غير أنّ الشيعة الإمامية ، إقتفاء لأثر رسول الله ،وأئمتهم الأطهار ، ينادون بملء أفواههم بأنّ هناك طريقاً ثالثاً ، جامعاً بين اليُسْر والشرف ، وهو الزواج المؤقّت ، على شروط وأحكام . ولعمري إنّ المتعة كانت رحمة رحم الله بها أُمة محمد صلى الله عليه وآله ، كما قال حبر الأُمّة ابن عباس(١) .

هذا ، وفيما كتبه الأعلام حول المتعة غنى وكفاية ، وما ذكرناه قبس من أنوار علومهم ، وضياءٌ من مشاعلهم ، رحم الله الماضين من علمائنا وحفظ الله الباقين منهم ، وجمع بهم كلمة المسلمين ، وأوردهم المنهل الصافي المعين ، أعني توحيد الكلمة ، كما هم عليه من كلمة التوحيد ، وقد بُني الإسلام على كلمتين :

كلمة التوحيد ، وتوحيد الكلمة

بلغ القلم هذه السطور صبيحة يوم الإثنين السادس عشر من شهر شوال المكرم من شهور عام ١٤٠٩ للهجرة النبوية المباركة ، بيد العبد الفقير بذاته إلى الله سبحانه ، أبي جعفر حسن بن محمد مكي العاملي ، غفر الله لي ولوالديّ ، وجعل ما كتبته وأُقدّمه إلى المجتمع الإنساني ، ومحافل الفكر والمعرفة ، ومدارس الحق والهداية ، مذخوراً في خزائنه بأفضل ما يثيب تعالى عباده عليه ، ويُؤْجِرُهم به ، إنّه خير مُؤمَّلٍ ومَدْعُوٍّ ومُجيبٍ .

﴿ وآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ ﴾

---

(١) أحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٧٩ . بداية المجتهد ، ج ٢ ، ص ٥٨ . الدر المنثور ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملحق (١)

(١)

تعليق للمؤلف

أما ما يرجع إلى آدم عليه السلام من النسيان ـ بل غيره من الصفات ، كالعصيان ـ فمفتاح حلّه وفك عقدته أن يُعلم أنّ الدار التي كان فيها آدم لم تكن دار تكليف ، فلم تكن الأوامر التي تلقاها آدم ، مولوية يترتب على فعلها الثواب ومخالفتها العقاب ، بل كانت إرشادية إلى ما فيه المنفعة لا غير .

فإذا لم تكن تلك دار تكليف ، ولا يترتب على نسيان آدم أي محذور عقلي من المحاذير المتقدمة ، كأدائه إلى انتفاء الغرض من بعثه بتطرق احتمال النسيان إلى ما يحمله من شرع ويبلغه من مبادىء ، فلا مانع من تجويز السهو والنسيان عليه .

وأمّا ما وقع من موسى عليه السلام في الموردين ، أعني قوله : « نسيا حوتهما » ، وقوله « لا تؤاخذني بما نسيت » ، فقد قيل إنّه بمعنى الترك ، وليس كذلك ، لإباء السياق عنه أولاً ، ولأنّ الترك الذي يطلق عليه النسيان منشؤه إمّا ضعف القلب ، أو الغفلة ، أو القصد حتى ينحذف من القلب ذكره ، والأوّلان خلاف المطلوب والثالث خلاف المورد والسياق .

وقال الشيخ الطوسي في التبيان ، في قوله : ﴿ نسيا حوتهما ﴾ : « إنّما نسيه يوشع بن نون ـ فتاه ـ وأضافه إليهما ، كما يقال نسي القوم زادهم وإنّما نسيه بعضهم »[٢] . ولكنه لا ينفع في المراد ، لأنّ يوشع بن نون نبي أيضاً . نعم ، لو

---

(١) راجع إلى ص .

(٢) التبيان ، ج ٧ ، ص ٦٦ ، ط النجف ١٣٨١ .

لم يكن الفتى يوشع بن نون ، لاتجه ما ذكره .

وقال في الآية الثانية : « وقيل في معنى نسيت ثلاثة أقوال :

أحدها : ما حكي عن أبيّ بن كعب أنّه قال : « معناه بما غفلت ، من النسيان الذي هو ضدّ الذكر » .

والثاني : ما روي عن ابن عباس أنّه قال : « معناه بما تركت من عهدك » .

والثالث : لا تؤاخذني بما كأنّي نسيته ، ولم ينسه في الحقيقة ـ في رواية أخرى عن أبيّ بن كعب »[1] .

واختار العلاّمة الطباطبائي في ميزانه وقوع النسيان من موسى في المورد الأول على حقيقته ، قال : « فمعنى نسيا حوتهما بنسبة النسيان إليهما معاً : نسيا حال حوتهما ، فموسى نسي كونه في المكتل فلم يتفقده ، والفتى نسيه إذ لم يخبر موسى بعجيب ما رأى من أمره .

ثم قال في ذيل قول فتاه : ﴿ **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنّي نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره** ﴾ ، « ولا ضير في نسبة الفتى نسيانه إلى تصرف من الشيطان بناء على أنّه كان يوشع بن نون النبي ، والأنبياء في عصمة إلهية من الشيطان لأنّهم معصومون مما يرجع إلى المعصية ، وأما مطلق إيذاء الشيطان فيما لا يرجع إلى معصية فلا دليل يمنعه .

قال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه أنّي مسّني الشيطان بنصب وعذاب** ﴾[2] .

وحمل النسيان في المورد الثاني على ضرب من الاعتذار[3] .

والذي يمكن أن يقال جمعاً بين ما أفاده العلمان ، أن كون الفتى هو يوشع بن نون النبي غير مسلّم ـ وإن جاء في رواية العياشي عن أبي حمزة البطائني عن أبي

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٢) سورة ص : الآية ٤١ ، الميزان ، ج ١٣ ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤١

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .

جعفر عليه السلام قال : « كان وصي موسى يوشع بن نون ، وهو فتاه الذي ذكره في كتابه » ـ ولكنها مرسلة ، فيقال هنا ـ حينئذٍ ـ إنّ الذي نسي هو الفتى وإنّما نسب إليهما ، كما يقال : نسي القوم زادهم ، وإنّما نسيه بعضهم ، على ما ذكره الشيخ . هذا في المورد الأول .

وأمّا في المورد الثاني ، فهو ضرب من الاعتذار .

وبذلك ينجلي الحال فيما نسب إلى موسى من النسيان .

* * *

ملحـــق (١)

(٢)

إنّ البحث عن الإعجـاز البياني للقـرآن الكريم بحث مهـم لم يستـوفـه علماء العقائد في كتبهم الكلامية ، ولأجـل ذلك رأينـا من اللازم الخـوض فيه عـلى وجه مبسوط مقنع . وقد كتبت حول هـذا القسم من الإعجاز ، كتب ورسـائل ، بيـد أئمة البلاغة ، قديماً وحديثاً ونشير هنـا إلى بعض ما اعتمـدنا عليـه في تنظيم هـذه المباحث ، واستضأنا من أنواره :

١ ـ بيان إعجاز القرآن ، لأبي سليمان ، محمد بن محمد بن إبـراهيم الخطابي (ت ٣١٩ ـ م ٣٨٨) .

٢ ـ النكت في إعجـاز القـرآن ، لأبي الحسن ، عـلي بن عيسى الـرمـاني ، (ت ٢٩٦ ـ م ٣٨٦) .

٣ ـ الرسالة الشافية ، لأبي بكر عبـد القاهـر عبد الـرحمان الجـرجاني المتـوفى عام ٤٧١ .

وهذه الرسائل الثـلاث طبعت في مجموعـة واحدة بـاسم « ثلاث رسـائل في إعجاز القرآن » في مصر .

٤ ـ إعجــاز القـرآن : لأبي بكــر محمـد بن الـطيّب البـاقـلاني ، المتـوفى عام ٤٠٣ .

٥ ـ سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجي ، المتوفى عام ٤٦٤ هـ .

٦ ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجـاز ، تأليف السيـد

---

(١) راجع إلى ص

يحيى بن حمزة العلوي اليمني متوفى عام ٧٤٩ هـ ، طبع في مصر في ثلاثة أجـزاء ، طبعة المقتطف ، عام١٣٣٣ هـ . وهو كتاب قيّم ، خصوصاً الجزء الثالث منه .

٧ ـ الإتقان في علوم القرآن ، للحافظ جلال الـدين عبد الـرحمن السيوطي المتوفى عام ٩١١ ، أربع أجزاء في مجلدين .

٨ ـ إعجـاز القرآن والـبلاغة النبـويـة ، تـأليف مصـطفى صـادق رافعي ، الطبعة الثامنة .

٩ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن ، تأليف محمـد عبد العـظيم الزرقـاني ، طبع في مصر في جزئين .

١٠ ـ إعجـاز القرآن ، تـأليف عبد الكـريم الخطيب ، الـطبعـة الثـانيـة ، بيروت ١٣٩٥ .

١١ ـ المعجـزة الخالـدة ، تأليف العـلامة هِبَـة الـدين الشهـرستـاني المتـوفى عام ١٣٨٦ طبعة ١٣٣٩ هـ .

١٢ ـ البيان في تفسير القرآن للعلامة المحقق السيد أبـو القاسم الخـوئي دام ظله .

وغـير ذلك من عشرات الكتب التي رجعنـا إليها في تـدوين هـذا القسم من الإعجاز .

ملحـــق [1]

(٣)

تعليق للمؤلف

من المفيد الإشارة إلى شبهة يطرحها بعض المتشدقين بالتجدد والعصرنة ، يقولون : إنّ بنيان الحكم في الإسلام مبني على أسس الديمقراطية ، وحرية الرأي والتعبير ، ومن هذا المنطق ، كان الطريق الذي شرعه الإسلام لانتخاب الإمام والقائد ، هو الشورى والإختيار الحر .

وهو غير صحيح من جهات عدّة :

الأولى : إنّهم أرادوا بدعوى الديموقراطية ، تصحيح خلافة الأوائل ، التي يعرف القاصي والداني أية ديموقراطية كانت سائدة فيها ، فأين الضرب بالأيدي والعصي ، والتهديد والوعيد ، وحرق الدور ، وغصب الأموال ، و. . . وبالجملة قمع المخالفين بالقهر والعنف والإذلال ؟ . ومع ذلك كلّه ، كم إنسان شارك في عملية الإنتخاب ؟ وما نسبتهم إلى المجتمع الإسلامي ؟ أم ما هي سمتهم التمثيلية لأبنائه ؟ .

الثانية : كيف يسوغ التفوه بمقولة الديموقراطية في مجتمع عشائري قبلي ، الرؤوس فيه عديدة ، والآراء فيه فريدة ، وإنّ هو إلاّ رأي صاحب العشيرة ، ما بعده من رأي ، هذا . والديموقراطية تفترض الحرية في الرأي ، والإنفتاح في التعبير ، فلكلّ فردٍ من أبناء المجتمع رأيه المستقل ، ونظره الخاص ، يدلي بصوته

---

(١) راجع إلى ص

لمن شاء وأحب . وفرض مثل هذا في مجتمع قبلي وعشائري ، هرطقة فاضحة .

الثالثة : يقول علماء الإجتماع إنّ الديموقراطية إنّما تُفْتَرَضُ في المجتمع المترقي فكرياً وثقافياً ، وذلك لأنّ العمليات الانتخابية التي يُفترض إجراؤها تحت مظلّة الديموقراطية ، تستلزم وعياً ونظراً وإدراكاً للمصالح والمفاسد ، وتقويماً للطرق السليمة التي تفيد المجتمع في ارتقائه وتكامله ، وتجربةً في الحياة السياسية . وهذا كله يستدعي أرضية ثقافية وفكرية نشيطة ، لدى أبناء الشعب ، وفي غير تلك الصورة ، يكون فرض الديموقراطية ، لا ديموقراطية .

فإذا قست هذا الأصل الذي ذكرناه ، إلى وضع أفراد المجتمع الإسلامي حال وفاة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله ، تدرك ما قيمة فرض مبدأ « الديموقراطية » في الإنتخاب ، آنذاك .

* * *



المحتـــويات

آسئلة حول الخاتمية

الفصل العاشر : المعاد

١ ـ مباحث المعاد ـ





صف حروف وتركيب وإخراج فني

في لدار الإسلامية

تلفون : ٨١٦٦٢٧ ـ الحسن ستر

طبع على مطابع مؤسسة الفجر
برج الدراهمة عين النعجة

